

عالم الفكر

٣

أدب المراسلات

- رسائل انثربولوجية
- المراسلات في العصر الأموي
- الرسائل في الأدب الفرنسي
- رسائل مردث

المجلد الرابع عشر - العدد الثالث

اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٣
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

أدب المراسلات

●●●

شخصيات وآراء

●●●

مطالعات

●●●

من الشرق والغرب

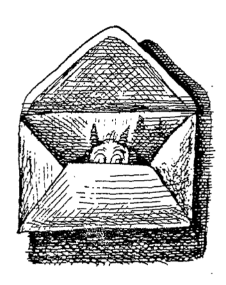
●●●

صدر حديثا

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم



تمهيد



رسائل انثربولوجية

الذين يتابعون عن كثب حركة الثقافة والنشر في الخارج لابد أن يكونوا قد لاحظوا مدى الاهتمام في السنوات الأخيرة بنشر الرسائل الخاصة بعدد من كبار رجال الفكر والادب والسياسة والفن والحرب في القرنين الماضيين ، مع اعطاء مزيد من العناية بنشر رسائل الكتاب الذين توفوا حديثا من أمثال فورستر E.M.Forester وايفلين و Evelyn Waugh في بريطانيا وسارتر Jean — Paul Sartre في فرنسا . وهكذا يجد القراء الذين يحفلون بهذا النوع من الكتابة ـ وهم كثيرون جدا في الخارج ـ أنفسهم أمام ذخيرة هائلة ومتنوعة من الرسائل التي تتباين في أهميتها وقيمتها الادبية والفكرية والفنية كما تتفاوت في مدى عمقها ودلالتها تفاوتا كبيرا يعكس في الاغلب اختلاف المكانة التي كان يحتلها أصحابها في المجتمع والدور الذي لعبه كل منهم في الحياة الثقافية مع استثناءات قليلة . فبعض هذه « الكتب » يضم رسائل كتبها أناس لم يشغلوا مكانة ثقافية ملحوظة ، ولم يحظوا بكثير من الشهرة أثناء حياتهم ، ثم كشفت رسائلهم بعد نشرها عن ملكات إبداعية هائلة أو عن قدرات ضخمة على ملاحظة ما يدور حولهم من أحداث ، وتحليل هذه الأحداث والكتابة عنها لأقاربهم وأصدقائهم في أسلوب يجمع بين السهولة واليسر و (التلقائية) والدقة والعمق ، مما ساعد على أن تحتل هذه (الرسائل) مكانة مرموقة بين الكتب الخاصة بأدب المراسلات ، وأن يُعتبر أصحابها بالتالي من الكتّاب ذوي الشأن الذين يمثلون علامات واضحة وبارزة في الحياة الثقافية بوجه عام .

ولقد كانت كتابة الرسائل تؤلف دائما جزءا هاما في آداب الشعوب المختلفة مع بعض الفوارق في مدى العناية والاهتمام بنشرها وإتاحتها للقراء والدارسين والباحثين . وإذا كان الناس في الغرب يهتمون بنشر تلك الرسائل الخاصةويعتبرونها ضمن الأعمال الأدبية

والفكرية الخليقة بالعناية والدراسة ، فالظاهر أن هناك كثيرا من المحاذير والاعتبارات التي تمنع من نشر هذه الرسائل الخاصة في العالم العربي ، أو على الأقل تخضع عملية النشر لكثير من القيود بحيث يصبح من الصعب اعتبار المراسلات جزءا أساسيا في الأدب العربي الحديث . ومع ذلك فقد كانت الرسائل تؤلف جانبا هاما من الأدب العربي في عصور سابقة . ويكفي أن نقرأ ما جاء عن أدب المراسلات في أحد الكتب المدرسية التي كانت تدرّس في المدارس الثانوية في مصر في الأربعينيات لندرك المكانة التي كانت تحتلها المراسلات في حياة الفكر والثقافة في تلك العصور السابقة . وأنا أعني بذلك كتاب (التوجيه الأدبي) الذي اشترك في تأليفه لتلاميذ المدارس - وليس للقارىء المثقف العام ، وهذه مسألة لها دلالتها العميقة فيما يتعلق بنوع الكتب التي كان يدرسها الطلاب في ذلك الحين - عدد من كبار الأدباء والمفكرين في مصر هم طه حسين وأحمد أمين وعبدالوهاب عزام ومحمد عوض محمد . يقول الكتاب :

« الرسائل قسمان : الرسائل العامة أو الرسائل الرسمية ، والرسائل الخاصة أو الاخوانيات .

أ - فأما الرسائل العامة فقد عرفت منذ العهد النبوي . كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الاسلام ، وكتب الخلفاء من بعده إلى عمالهم وقوادهم وصارت منذ العصر الأموي فنّا اختص به جماعة فرغوا له . ثم توالى الكتاب على مر الزمان وصارت الرسائل لسان الدولة في جلائل الأمور ؛ بها تكتب عهود الخلفاء وأولياء العهد ، وبها يخاطب الجمهور في الدعوة الى الطاعة والتحذير من المخالفة ، وبها تسجل مآثر الملوك من فتح وتعمير وغيرهما . وقد وضعت لها قوانين تبين طرائق الخطاب فيها وتحدد فواتحها وخواتمها . وبين أيدينا اليوم كتب تبين قوانين الرسائل وما بلغت من الاحكام والاسهاب والتحديد ، وتتضمن نماذج منها في كل العصور الاسلامية . وحسبنا أن نذكر منها صبح الأعشى :

وهذه الرسائل صورة لأحوال الدول المختلفة ولا سيما أحوالها السياسية .

قال ابن الأثير وهو من كبار كتاب الدولة في كلام له عن المقامات والرسائل :

« وأما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الايام ، وهي متجددة على عدد الانفاس . ألا ترى أنه اذا كتب الكاتب المفلق عن دولة من الدول الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور وسعي مذكور ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ عشر سنين فانه يدوّن عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريري حجما ، لأنه اذا كتب في كل يوم كتابا واحدا اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار اليها ، واذا نخلت وغربلت واختير الأجود منها - اذ تكون كلها جيدة - فيخلص منها النصف ، وهو خمسة أجزاء . والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب وما حصل في ضمنها من المعاني المبتدعة » .

« وقد اشتهر من كتاب الدواوين أو كتاب الدولة جماعة من أئمة الكتّاب ، كان لهم في اللغة والادب فضل ظاهر ، منهم عبدالحميد الكاتب والحسن بن سهل وأبو اسحق الصابي وابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وضياء الدين بن الاثير .

ب - وأما الاخوانيات أو الرسائل غير الرسمية التي يكتبها الكاتب الى صديق أو نحوه ، فهي أوسع مجالا وأعظم قدرا وأقرب الى الابانة عن فكرة الكاتب وعاطفته . وهي تصور كثيرا من آراء الناس ومنازعهم وعاداتهم وأخلاقهم

وأحوال الأمة التي يعيشون فيها . ومن هذه الضرب رسائل الجاحظ والخوارزمي وبديع الزمان وقاموس بن وشمكير والمعري وابن زيدون وغيرهم الى العصر الحديث »[١].

واذا كانت هذه الرسائل التي يزخر بها الادب العربي في عصوره السابقة متاحة للقراء والباحثين فان هذا لا يصدق - على الأقل بنفس الدرجة - على رسائل ومراسلات الكتاب والمفكرين المحدثين مما يجعل من الصعب على الباحث تتبع هذه الرسائل أو تقدير مكانة المراسلات في الأدب العربي الحديث بوجه عام . واذا كانت هناك رسائل متبادلة بين هؤلاء الكتاب والادباء والفنانين والمفكرين المعاصرين وأصدقائهم وأحبائهم فانها في الأغلب لا تتضمن كثيرا من خفايا الحياة الشخصية لكاتبيها أو دقائق وتفاصيل العلاقات الحميمة التي تربط بين هؤلاء الكتاب والأشخاص الذين يرتبطون بهم والذين أرسلت اليهم هذه الرسائل ، وبخاصة اذا كانت هذه العلاقات الحميمة مع أشخاص من الجنس الآخر وذات طابع عاطفي خاص . فمثل هذه الرسائل ، إذا وجدت ، فإنها تعتبر سرا من الأسرار الخاصة التي لا يتاح للآخرين الاطلاع عليها والتي تقف كل الحوائل والعقبات والاعتبارات دون نشرها . ولا يقتصر مثل هذا الحظر على المراسلات العاطفية الخاصة بل إنه يمتد الى الرسائل التي قد تضم بعض الأسرار السياسية والتي قد تلقي كثيرا من الأضواء على بعض الأوضاع والأحداث التي يصعب فهمها بغير الاطلاع على ما قد تحتويه تلك الرسائل . وهذه كلها أمور لا تكاد تجد لها مثيلا في الآداب الغربية حيث تنشر الرسائل في الأغلب برمتها وبكل ما فيها من أسرار دون حذف أو تغيير ودون أية محاولة لطمس الحقائق ، حتى وإن كانت هذه الحقائق تتعلق بالحياة الشخصية الخاصة جدا بما في ذلك العلاقات العاطفية والجنسية . وهذه أمور تكشف عن درجة عالية من الجرأة أو الشجاعة العقلية من ناحية كما تكشف عن مدى الاحترام والتقدير اللذين ينظر الناس بهما الى تلك الأعمال واعتبارها جزءا من التراث الثقافي والفكري الذي يجب أن يعامل معاملة الوثائق وأن ينظر اليه نظرة موضوعية لا تهتم كثيرا بالتصرفات الشخصية أو الحياة الخاصة لاصحاب هذه الرسائل . وقد يكون في هذا كله ما يتعارض مع القيم ومبادىء الاخلاق التي تسود في مجتمعاتنا والتي تفرض القيود على نشر مثل هذه المكاتبات .

ويكفي أن نشير هنا الى بعض هذه الرسائل التي نشرت في الشهور الأخيرة في الخارج لندرك نظرة الناس الى مثل هذه الأعمال وعدم تحرجهم من نشر المكاتيات التي تضم أدق الأسرار وأكثرها خصوصية . والمثال الأول هو الرسائل التي أرسلها الكاتب الروائي الانجليزي فورستر من مصر الى بعض أهله وأصدقائه وبالذات الى إحدى صديقاته عن حياته في مصر اثناء الحرب العالمية الأولى وعلاقاته مع بعض الاشخاص ، والأزمات النفسية التي كان يمر بها اثناء تلك الفترة ، وبالذات العلاقة الجنسية الشاذة التي ارتبط بها مع « سائق ترام » مصري وتقويمه لهذه العلاقة . وقد ساعدت هذه الرسائل على الوصول الى فهم أعمق لأدب فورستر وكتاباته والدوافع التي تكمن وراء هذه الأعمال الادبية الرائعة التي تركها لنا[٢]. والمثال الثاني ولعله أكثر دلالة وأهمية من رسائل فورستر هو مجموعة الرسائل التي أرسلها الكاتب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٦٣ الى صديقة عمره سيمون دوبوفوار مع بعض رسائل أخرى قليلة الى أناس آخرين والتي أشرفت الكاتبة الفرنسية بنفسها على نشرها اخيرا تحت عنوان « رسائل الى كاستور Lettres au Castor »[٣]. وكاستور أو القُندس هو الاسم الذي أشتهرت به سيمون دو بوفوار بين أصدقائها

---

(١) طه حسين ، احمد امين ، عبدالوهاب عزام ، محمد عوض محمد : « التوجيه الادبي » القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ ، صفحات ٢١ - ٢٣ .

(٢) **Selected Letters of E.M Forester:** vol. I, 1879 — 1920, Edited by Mary Lago and P.N.Furbank, Collins London 1983

(٣) **Jean — Paul Sartre, Lettres au Castor et a quelques autres,** edition etablie, presente et annotee par Simone de Beauvior, N.R.F., Gallimard Paris 1983

ومعارفها . وتؤكد دو بوفوار أن سارتر هو الذي كان قد أشار عليها بان تنشر بعد وفاته هذه الرسائل حتى تكون شاهدا وسجلا عن حياته ، كما نذكر أنها من باب احترام الأحياء من الاشخاص الذين وردت أسماؤهم في تلك الرسائل والمحافظة عليهم فانها اكتفت بتغيير (ألقابهم) فحسب ، وتؤكد أنها فيما عدا ذلك لم تغير حرفا واحدا فيما يتعلق بعلاقتها بسارتر ، وأن الرسائل بأكملها سوف تهدي للمكتبة الوطنية Bibliothèque nationale في باريس حتى تكون في متناول القراء والباحثين والدارسين . والطريف أن القارىء لهذه الرسائل لن يلبث أن يتشكك ويتساءل عن نوع العلاقة التي كانت تربط سارتر بسيمون دوبوفوار واذا ماكان حب الكاتب الفيلسوف لها هو الحب العاطفي العادي المألوف الذي يمكن أن يقوم بين الرجل والمرأة ، أو أنه نوع الحب الذي يربط الرجل بامرأة تكون صورة للأم وبديلا لها . بل إن كثيرا من القصص والحكايات التي يسردها في رسائله لها عن علاقاته مع نساء أخريات غيرها قد تثير التساؤل حول مدى صدق هذا الحب والى أي حد كان سارتر أمينا معها ومع نفسه وصادقا في تلك القصص والحكايات . وقد نشرت دوبوفوار تلك الرسائل بغير تعليق منها ، كما أنها لم تنشر رسائلها هي اليه حتى يمكن في ضوئها الوصول الى تقويم أدق لتلك العلاقة . ولكن الواضح أنه في كثير من تلك الرسائل يخاطبها بأسلوب ينم عن مشاعر الاحساس بالبنوة ، اذ يصورها على أنها ملاكه الحارس الذي يشرف على كثير من شئونه بل ويتصرف فيها بحيث يبدو هو عاجزا في كثير من الأحيان عن مباشرة أموره وهو بعيد عنها . وهذه كلها مسائل يصعب ادراكها بغير قراءة هذه الرسائل . وهذا هو الذي يدفعنا الى القول أن رسائل الكتاب والمفكرين والفنانين والمبدعين ورجال السياسة والحرب ومن اليهم تساعد على الوصول الى فهم أعمق لبعض الجوانب الخفية والمستترة من حياة أصحابها كما تعتبر شاهدا ودليلا على العصر الذي عاشوا فيه والظروف التي أحاطت بهم وأسهمت في تشكيل حياتهم وأفكارهم وأفعالهم وأنجازاتهم . وكثير من جوانب حياة كارل ماركس مثلا ، بل وأفكاره ، يصعب فهمها بغير الرجوع الى الرسائل المتبادلة بين بناته الثلاث والتي نشرت منذ عهد قريب ، وهي رسائل تكشف عن بعض جوانب الضعف الانساني وعن نوع المآسي التي كانت تحيط بحياة بناته مع أزواجهن وعن المعاناة التي كان هو نفسه يعانيها من الفقر والمرض ، وهي كلها أمور لعبت دورا هاما في تشكيل حياة ذلك المارد الذي فرض نفسه وفلسفته على الفكر الانساني اعتبارا من النصف الثاني من القرن الماضي .

والمهم من هذا كله هو ان « أدب المراسلات » يعتبر شكلا من أهم أشكال الأدب في كل العصور ومختلف الثقافات خاصة وأنه يتميز عن بقية أشكال وصور « الأدب المنشور » بالصدق في التعبير عن العاطفة والأمانة في إبداء الرأي والاخلاص في الكشف عن خبايا النفس التي قد لا تظهر بنفس الدرجة من الصدق والعمق في الأعمال التي تكتب للنشر .

فالرسالة الشخصية أو الخاصة تخاطب الشخص الذي ترسل اليه في صراحة واخلاص وصدق وتفترض فيه أنه محل للثقة وأنه مؤتمن على أسرار صاحبها وخلجات نفسه ، كما تتوقع منه حسن الفهم والتعاطف ، ومن هنا فانها تكشف في الأغلب عن أمور وجوانب وخفايا لا نجدها في الكتاب أو المقال الذي يكتب أصلا بقصد النشر . وفي هذا بالذات تتركز أهمية « أدب المراسلات » وقيمته وفائدته في دراسة حياة أصحابها وفكرهم وموقفهم من الحياة .

●●●

ولكن ما لهذا النوع من الرسائل قصدت . . وإنما الذي أقصده وأهتم به في المحل الأول هنا هو ذلك النوع من الرسائل الذي يصدر عن أشخاص يمتهنون في حياتهم العادية اعمالا أخرى غير حرفة الأدب والكتابة ، أو على الأقل لم تكن الكتابة هي مهنتهم الأساسية ، ولم يحققوا في مجالات الأدب والفكر والابداع شهرة واسعة عريضة قبل أن تُعرف

رسائلهم وتُنشر وتذاع بين الناس . بل أنني أقصد بالذات من بين هؤلاء تلك الفئة من الناس الذين بلغوا بغير شك درجة معينة من الثقافة ثم حملتهم ظروف حياتهم الى أوطان أخرى غير وطنهم الاصلي فعرفوا مجتمعات وثقافات غير تلك التي ألفوها ، وأتيح لهم العيش في شعوب غريبة عنهم فاختلطوا بالناس وأفلحوا في توثيق علاقاتهم بهم وفي التغلغل الى أعماق ثقافاتهم وفهم عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم ، ونشأت بينهم جميعا تلك العلاقة القوية الحميمة التي يطلق عليها علماء الانثربولوجيا كلمة Rapport والتي يعتبرونها مبدأ أساسيا من مبادىء البحث الميداني الذي يقومون به في المجتمعات والثقافات الغريبة ، وشرطا هاما من شروط الدراسة الحقلية الناجحة . لان مثل هذه العلاقة الحميمة القائمة على الثقة المتبادلة هي التي تساعد على الفهم العميق الصادق لثقافات هذه الشعوب ونظمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم والقيم التي تحكم هذا السلوك . وكثير من أصحاب هذه الرسائل التي كانوا يرسلونها من تلك المجتمعات الغريبة كانوا يحرصون على الكتابة بكثرة وباستمرار ، وعلى أن يضمنوا رسائلهم معلومات دقيقة وتفصيلية عن حياة تلك الشعوب بحيث تبدو رسائلهم الآن أقرب شيء الى « اليوميات » أو المذكرات اليومية ، وبالتالي يمكن اعتبارها سجلا حافلا بالمعلومات عن هذه الشعوب . وتتميز بعض هذه الرسائل بالنظرة الموضوعية الى الأشياء والأحداث وبالصدق في الحكم والتنزه عن الهوى الى حد كبير ، فضلا عن دقة الملاحظة والوصف والانصاف في عقد المقارنات بين هذه الثقافة الغريبة وثقافتهم الأصلية التي ينتمون اليها بحكم المولد والنشأة ، ولم تصدر أحكامهم عن أية أفكار مسبقة على ما كان يفعل كثير من الرحالة والمبشرين في القرن الماضي الذين كانوا يقيسون سلوك الناس من زاوية الحضارة الأوربية وبالاشارة الى معاييرها الخاصة ، أو ما كان يفعله رجال الحكم الاستعماري في أوائل هذا القرن حين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالأهالي في المستعمرات والمجتمعات الخاضعة للحكم الأجنبي ويعاملونهم كما لو كانوا يحتلون مكانة أدنى بكثير من المرتبة الآدمية . والواقع أن بعض هذه الرسائل تشبه في مجموعها (السجل الاثنوجرافي) أو المذكرات اليومية التي يسجلها الباحثون الأنثربولوجيون يوما بيوم أثناء دراساتهم الحقلية ، وبذلك يمكن اخضاعها للتحليل الأنثربولوجي للخروج منها بدراسة تحليلية على درجة كبيرة من الدقة والتفصيل ووفرة المعلومات والعمق . ويزيد من أهمية بعض هذه الرسائل أنها تسجل حقائق عن فترات تاريخية سابقة في حياة بعض الشعوب والمجتمعات ، وتزودنا بمعلومات فريدة لا نكاد نجد لها مثيلا فيما بين أيدينا من كتابات (علمية) .

ويهمني هنا بالذات أن أشير الى مجموعتين من الرسائل تسجلان كثيرا من وقائع الحياة في مجتمع واحد هو المجتمع المصري ، ولكنهما ترجعان إلى فترتين تاريخيتين مختلفتين ومتباعدتين ، كما أنهما صدرتا عن شخصيتين مختلفتين إحداهما عن الأخرى في كل شيء ، ولكنهما مع ذلك تتفقان معا في غزارة المعلومات والدقة في ملاحظة الحقائق ورصدها والصدق والأمانة في الوصف والتحليل فضلا عن الحرارة في التعبير ، مما ينم عن مدى التعمق في فهم الثقافة التي تدور حولها هذه الرسائل وقوة العلاقة الحميمة التي ربطت بين صاحبيها و « الاهالي » .

(١)

الكتاب الأول أو المجموعة الأولى من الرسائل تعرف باسم « رسائل من مصر Letters from Egypt »(٤) وترجع الى الفترة ما بين ١١ نوفمبر ١٨٦٢ و ٩ يوليو ١٨٦٩ ، أي أنها تغطي فترة سبع سنوات تقريبا في أوائل النصف

---

(٤) **Lucie Duff Gordon, Letters From Egypt,** (First edition 1865, Centenary edition 1969, with a Memoir by her daughter Janet Ross and a New Introduction, by Sarah Saright Virago, London 1983.
وقد نشرت الرسائل كاملة وفي صورتها الحالية للمرة الأولى عام ١٩٠٢ من دار النشر R. Brimley Johnson وواضح ان مجموعة اولى من هذه الرسائل كانت قد نشرت اثناء حياتها عام ١٨٦٥ وأعيد طبعها عام ١٨٧٥ اما طبعة عام ١٩٦٩ فقد ظهرت بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها وفيها نشرت الرسائل كاملة .

الثاني من القرن الماضي . وصاحبة الرسائل سيدة بريطانية تنتمي لعائلة أرستقراطية جمعت بين عراقة الأصل وعراقة الثقافة ، وقد عرفت باسمها بعد الزواج وهو الليدي لوسي دف جوردون Lady Lucie Duff Gordon » . وقد ولدت لوسي عام ١٨٢١ ، وكانت الأبنة الوحيدة لأستاذ من أشهر أساتذة القانون في بريطانيا في القرن الماضي وهو جون أوستن John Austin أستاذ القانون المدني بجامعة لندن ، بينما كانت أمها سارة أوستن Sarah Austin من المتخصصات في الدراسات الكلاسيكية . وعاشت لوسي معظم حياتها القصيرة (توفيت عام ١٨٦٩ وهي في السابعة والأربعين) في جو الارستقراطية البريطانية الراقي ، وإن كانت امتيازات تلك الطبقة قد بدأت تتهاوى وتنهار وتتداعى نتيجة للتغيرات الايديولوجية التي بدأت تجد طريقها بين الفئات المثقفة . وشاهدت لوسي تلك التغيرات وعايشتها ، خاصة وأن والديها كانا يحيطان نفسيهما بعدد من كبار مفكري ذلك العصر من ذوي الميول الراديكالية من أمثال جيريمي بنثام Jeremy Bentham وسيدني سميث Sydney Smith ، وبذلك نشأت في وسط ثقافي متميز يتشكك في كل شيء ويناقش كل شيء ، مما ساعد على تنمية مواهبها وقدراتها منذ سن مبكرة . وتزوجت لوسي أوستن وهي في الثامنة عشرة من عمرها من أحد الارستقراطيين الفقراء وهو سير الكزاندر دف جوردون Sir Alexander Duff Gordon الذي كان يعمل حينذاك في وزارة الخزانة . ولم يلبث سير الكزاندر وليدي دف جوردون أن أحاطا هما أيضا نفسيهما بمجموعة أخرى من مشاهير الكتاب والمفكرين بحيث شملت دائرة أصدقائهما كتابا وشعراء وأدباء من أمثال ثاكراي Thackeray وديكنز والشاعر تينسون Tennyson والروائي جورج مرديث John Meredith الذي كتب مقدمة لمجموعتها الأولى من الرسائل ، وكذلك كنجليك Kinglake وماكولي Macaulay . وقد استطاعت لوسي دف جوردون أن تفرض نفسها على هذا الوسط الثقافي الراقي بقدراتها الفكرية وذكائها وسرعة بديهتها وجمالها وقوة شخصيتها وآرائها الجريئة المتحررة . كما بدأ اسمها يظهر في نطاق محدود بين أوساط المثقفين ثقافة رفيعة حين نقلت الى الألمانية ـ لأول مرة في بعض الحالات ـ بعض أعمال رانكه Ranke ومولتكه Molteke وفيويرباخ Feuerbach ونيبوهر Niebuhr وغيرهم .

في أوائل الخمسينات وقعت لوسي دف جوردون فريسة لمرض السل الذي أخذ يفتك بصدرها في غير رحمة ، وكان لابد لها من أن تترك بريطانيا وأجواءها الرطبة الباردة الى مناطق أكثر حرارة واقل رطوبة ، فسافرت وحدها الى جنوب افريقيا حيث كتبت مجموعة ضخمة من الرسائل الى أفراد عائلتها . وقد نشرت هذه الرسائل بعد ذلك بسنوات طويلة (عام ١٨٦٤) بعنوان Letters from the Cape . ولم تفدها هذه الرحلة كثيرا في استرداد صحتها فعادت الى بريطانيا . وحين اشتدت بها العلة مرة أخرى رحلت من جديد عام ١٨٦٢ الى مصر ، وهناك عاشت سبع سنوات أمضت معظمها في الأقصر مع زيارات قصيرة الى القاهرة والاسكندرية ، بينما لم تزر بريطانيا ذاتها خلال كل هذه الفترة الطويلة سوى مرة واحدة عام ١٨٦٣ . وتعتبر الفترة التي أمضتها لوسي دف جوردون في مصر من أطول الفترات التي أمضاها أي أوربي أو اجنبي عاش في الصعيد . وقد اختلطت أثناء هذه الاقامة الطويلة بالطبقات الفقيرة من الشعب وخبرت حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وقيمهم عن قرب ، وعرفت الثقافة المصرية الشعبية من داخل ، وعقدت صداقات قوية مع عدد كبير من المصريين المسلمين الذي تشير اليهم في رسائلها في معظم الأحيان باسم (العرب) تمييزا لهم عن (الأقباط) وعن (البدو) . ولم تكن تخفي إعجابها بشمائل وتصرفات هؤلاء المصريين المسلمين وتفضيلها لهم على الأقباط ، وذلك بعكس ما كان يفعل معظم الأجانب الذين كانوا يزورون مصر أو يقيمون فيها والذين تربطهم بأقباط مصر رابطة الدين . فهي تكتب مثلا الى أمها يوم ٢١ ديسمبر ١٨٦٣ من فوق احدى البواخر النيلية بالقرب من أسيوط تقول :

« إن هناك عددا كبيرا من الأقباط فوق سطح الباخرة ، وهم من الطبقة الدنيا ، كما أن صحبتهم لا تدعو إلى الارتياح . إن السادة المسيحيين يتمتعون بدرجة عالية جدا من الرقة والدماثة ، أما الطبقات الدنيا فهي دنيا بكل معاني الكلمة اذا هم قورنوا بالمسلمين . والشعور الذي يخرج به المرء عنهم هو الاحساس بالقذارة حين يراهم وهم يتناولون طعامهم بين أكوام الفحم ثم يجلسون القرفصاء بعد ذلك ويخرجون مسابحهم للتسبيح والصلاة دون أن يهتموا بغسل أيديهم . إنهم يبدون على درجة عالية من القذارة بالنسبة للمسلمين الذين لا يخرجون الا بعد أن يغتسلوا وينظفوا أجسامهم ثم يقفوا وقفة منتصبة فيها رجولة لكي يؤدوا صلواتهم . والأكثر من ذلك أن سلوكهم وتصرفاتهم وطريقة كلامهم لا تخلو من الفظاظة ، كما أنهم لا يحملون للمرأة نفس الاحترام الذي يبديه العربي نحوها . . . انني أتكلم هنا بطبيعة الحال عن الأشخاص العاديين وليس عن الأقباط المتعلمين . . . »

وهذه العبارات تكشف لنا عن مدى تجردها عن العوامل العاطفية التي كانت خليقة بأن تجعلها تتخذ مواقف مغايرة وتصدر أحكاما مختلفة . بل إن تعاطفها مع المصريين عموما يفتح عينيها على كثير من مساوىء الحكم في ذلك العصر . فلم تبهرها الأعمال والانجازات المادية التي حققها الخديو اسماعيل (العظيم) والتي كانت أوربا كلها تعجب بها (على الأقل في أول الأمر) وتعتبرها مقياسا تحكم به على صلاحية حكمه وعلى أفكاره التقدمية . وانما كانت هي على العكس من ذلك تماما تنعي عليه سياسته الخاطئة التي سوف تجلب على مصر وشعبها الطيب كثيرا من المصائب التي تحققت بالفعل فيما بعد . وحين زار سلطان تركيا مصر كتبت عدة رسائل الى زوجها وأمها تأخذ فيها على السلطان التركي ترفعه على الشعب المصري وتكشف عن كثير من مظاهر التفرقة بين الأتراك والمصريين لدرجة أن « السلطان وكل أفراد حاشيته لم يأكلوا الخبز من هنا أبدا ، وإنما كان طعامهم يأتي خصيصا لهم من القسطنطينية» (من رسالة لأمها من القاهرة بتاريخ ١٩ أبريل ١٨٦٣) . ولقد عبرت عن حيرتها في فهم معنى تلك الزيارة التي قام بها السلطان لمصر فكتبت لزوجها في ١٣ أبريل ١٨٦٣ تقول صراحة :

« إن مجيء السلطان الى القاهرة هو نوع من اللغز ، فلا أحد يعرف ما يريد . ولقد أمر الباشا بأن تحتجب كل نساء الطبقات الدنيا في بيوتهن أثناء وجود السلطان لأن النساء العربيات صريحات وربما يرفعن أصواتهن بالشكوى في وجهه . . وسوف يرحل السلطان اليوم . . . حتى الماء الذي يشربونه كان يأتي من القسطنطينية كما أخبرني هكيكيان بك . . واذا كان هناك من يحاول أن يقنعك بأن كل حديث عن الحضارة في مصر هو مجرد لغو وهراء فأرجو ألا تسمع اليه وأن تهزأ منه . فالحياة الحقيقية والناس الحقيقيون لا يزالون يشبهون الى حد كبير ما نجده في أكثر الكتب صدقا وأمانة وهو كتاب ألف ليلة وليلة . فلا يزال الطغيان كما كان دائما ، ولا يزال الناس على ما كانوا عليه يتمتعون بجاذبية فائقة الى أبعد الحدود . ولو كان في استطاعتي فقط أن أتكلم لغتهم لأمكنني التغلغل الى أعماق المجتمع العربي هنا بمعاونة بعض الاشخاص حتى أرى أكثر مما رأى الاوربيون الذين عاشوا هنا كل حياتهم . فالمصريون المسلمون (العرب) يدركون تماما مدى التحيز القائم ضدهم ، ولكن حين يشعرون بالأمن والاطمئنان من هذه الناحية فإنهم يقبلون بكل قلوبهم على الأغراب . . . »

ولقد ماتت لوسي دف جوردون في القاهرة يوم ١٤ يوليو ١٨٦٩ ودفنت فيها . وكانت أمنيتها في أول الأمر أن تموت في الأقصر أو (طيبة) كما كانت تدعوها في رسائلها وأن تدفن هناك بين (أهلها) كما كانت تسميهم . وقد كتبت

لزوجها في ذلك تقول « لو أنني عشت حتى سبتمبر فسوف أسافر الى اسنا حيث الهواء أكثر لطفا وحيث يخف سعالي الى حد كبير . انني أفضل أن أموت بين (أهلي) في الصعيد على أن أموت هنا . (أي في القاهرة) . وحين أحست باقتراب أجلها كتبت اليه تقول ، كما لو كانت تزف اليه مقدما خبر موتها :

> « لا تفكر في الحضور الى مصر . فالجو هنا لا يناسبك على الاطلاق ، كما أنه سيكون من أشد الأمور ايلاما لنفسي أن أفترق عنك مرة أخرى ، بينما يمكنني هنا أن أنتظر بكل الصبر مجيء النهاية بين قوم بلغت بهم الرقة والمحبة درجة تجعلهم يكتمون عني الكثير من مشاعر الألم بالنسبة للفراق . لقد كانت مغادرتي للأقصر مشهدا يبعث على الأسى ، اذ كان الناس يظنون انهم لن يروني مرة اخرى . إن رقة الناس جميعا كانت تصل حقا الى أعمق أعماق القلب ابتداء من القاضي الذي بني لى بالفعل قبرا في مقبرة عائلته ، حتى أشد الفلاحين فقرا . . . »

وعلى أية حال ، فحين أدركت لوسي دف جوردون أنها لن ترى بالفعل (طيبة) مرة أخرى غيرت رأيها وطلبت أن تدفن في القاهرة في هدوء . . وكان لها ما أرادت .

●●●

ولم تكن لوسي دف جوردون في هذا كله مجرد سائحة أو رحالة عادية بقدر ماكانت (مقيمة) في مصر . ولن تهمنا هنا المعلومات والملاحظات التي تمتلىء بها رسائلها حول مشاهداتها في الآثار المصرية القديمة أو المساجد الاسلامية ، رغم دقة هذه الملاحظات وطرافة بعض التعليقات . وإنما الذي يهمنا هو ما تكشف عنه هذه الرسائل عن طبيعة علاقتها هي بالناس ورأيها في نظمهم الاجتماعية وفي عاداتهم وتقاليدهم وانماط سلوكهم ، وقدرتها ليس فقط على الوصف بل وأيضا إدراك وفهم العلاقة بين أجزاء الثقافة المصرية بعضها ببعض والعلاقة بين التنوع الثقافي الراهن والأصول التاريخية لهذه الثقافة ، ثم إبرازها لبعض أوجه الشبه بين الحياة المصرية في ذلك الحين والحياة في عدد من المجتمعات (التقليدية) الأخرى التي أتيح لها القراءة عنها . . . كانت تنظر الى الثقافة المصرية كوحدة متكاملة ومتصلة عبر التاريخ ، أي أنها كانت تهتم بما يطلق عليه الانثربولوجيون المحدثون اسم (المتصل الثقافي) . وقد ساعدها على ذلك معرفتها الواسعة بالكلاسيكيات وتاريخ الأديان .

وربما كان أول ما يلفت النظر في هذا كله ـ وهو ماساعدها بغير شك على التغلغل في أعماق الثقافة المصرية ـ هو عزوفها عن الأجانب وابتعادها المتعمد المقصود عن « المجتمع » البريطاني والأجنبي القائم حينذاك فوق أرض مصر ، والذي كان يترفع عن الاختلاط أو حتى الاتصال إلا في أضيق الحدود بالأوساط المصرية الصميمة وآثر أن يعزل نفسه عن تيار الحياة والثقافة التقليديتين . وكثير من رسائلها يأخذ على الاوروبيين بعامة ، والانجليز بخاصة ، هذا الموقف المتعالي وينعته بالغباء لأنه ـ على أقل تقدير ـ لن يساعد الأجانب على فهم ذلك الشعب الذي قدر لهم أن يحيوا معه على أرض واحدة . ومن هنا أخذت هي على عاتقها منذ البداية أن تدخل الى ذلك المجتمع والى الثقافة الوطنية وأن تعيش عيشة الأهالي أنفسهم ، فاتخذت لها مسكنا بينهم سواء في القاهرة أو في (طيبه) حتى يمكنها أن تخالط الناس العاديين في حرية وسهولة ويسر وفي كل وقت ، دون أن يقوم بينها وبينهم أي حاجز مفتعل ، وأن تتخذ لنفسها خادما من الأهالي اسمه (عمر) يساعدها ليس فقط في قضاء حوائجها ولكن أيضا في شرح وتفسير ما يغمض عليها من أسرار الحياة المصرية الأصيلة . ونشأ بينهما بذلك نوع من التفاهم العميق والعلاقة القوية التي هي أقرب ما تكون الى العلاقة بين الباحث الأنثربولوجي والاخباري **informant** الرئيسي الذي يرتبط به ارتباطا وثيقا خلال فترة إقامته في المجتمع الذي

يدرسه ، والتي قد تطول الى أبعد من هذه الفترة . بل إنها كانت تحرص منذ البداية أيضا على أن تتعلم اللغة العربية فضلا عن اللجهة المصرية حتى يمكنها أن تدخل في حديث مباشر مع الأهالي دون حاجة الى وسيط ، وكانت تعتقد أن هذا كفيل بأن يجعلها تصل في فهم روح الشعب وثقافته إلى مالم يصل إليه غيرها من الأجانب العاديـين ، أو حتى الأجانب الدارسين ، بما في ذلك أدوارد ويليام لين Edward William Lane نفسه . والذي يقرأ رسائلها الأولى حيث تشكو من عجزها عن الاتصال المباشر مع الاهالي عن طريق استخدام اللغة الوطنية ، ثم يقرأ بعد ذلك عن الجهود الجبارة التي كانت تبذلها وهي تحاول أن تتعلم اللغة العربية ، والمعاناة الشديدة التي كانت تمر بها وهي تتلقى دروسها على أيدي الشيخ يوسف في الاقصر ، والفرح الشديد الذي كان يتملكها حين تحرز أي تقدم في دروسها ، وحرصها الشديد على استخدام الكلمة التي تتعلمها في رسائلها ، سوف يدرك مدى اخلاصها وصدق رغبتها في فهم المجتمع الذي جاءت لكي تعيش فيه ولو الى حين . ولقد توّجت هذا كله حين كانت تكشف عن فقرها رغم انتمائها الى الارستقراطية البريطانية ، وكان ذلك أحد المفاتيح الهامة التي فتحت أمامها مغاليق القلوب ؛ وقامت بذلك علاقة قوية بين الفقير والفقير ، وارتبطت بالاهالي العاديين وبخاصة في الصعيد برابطه « الأخوة في الفقـر » رغم كل الفـوارق الاجتماعية والعرقية والدينية والثقافية . ثم كان هناك الى جانب هذا كله استعدادها لأن تتعلم والى أن تغير نظرتها الى الامور ، والى تبديل رأيها كلما تعمقت في الدراسة والفهم . فمصر التي تبدو في أولى رسائلها الى أمها (يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر ١٨٦٢) صورة أخرى من مجتمع ألف ليلة وليلة لا تلبث أن تكشف لها عن بعض المآسي ، ولا يلبث واقعها المرير أن يصدمها ويوقظها من خيالها . قالت لأمها :

« انني أكتب اليك من مجتمع ألف ليلة وليلة الحقيقي . . . انه عالم ذهبي تغمره أشعة الشمس ويسيطر عليه جو الشعر ، ولابد من أن أضيف انه مليء بالرقة والدماثة » .

ولكن هذا كله لم يفلح في أن يخفي عنها بؤس الشعب وفقر الناس وتسلط الحكام غير المصريين . ومع ذلك فإنها لم تغير أبدا رأيها في الناس ولم تنزع عنهم أبدا الصفة الأساسية التي تميزهم ، وهي الحنو والرقة والدماثة .

بل الأكثر من ذلك أنها كانت على استعداد دائما لأن تصحح النظرة الخاطئة التي كان يحملها كثير من الاوربيين الى مصر وبخاصة فيما يتصل بالعلاقات بين المصريين المسلمين والأقباط . وجانب كبير من رسائلها ينفي الفكرة الشائعة عن تعصب المسلمين . ففي رسالة من مدينة الفشن مثلا الى أمها (من فوق ظهر الباخرة النيلية يوم الاثنين ٣٠ نوفمبر ١٨٦٢) تقول :

« لقد تمتعت خلال الأيام العشرة الماضية بهذا الأسلوب الرائع جدا من الحياة . ولقد تحسنت صحتي بغير شك الى حد كبير ، كما بدأت أُقبل على طعامي وأستغرق في نومي مرة أخرى وبدأ السعال يخف كثيرا . ولقد توقفت الباخرة يوم الأحد أمام قرية ببا ، وهناك وقع بصري على كنيسة قبطية ، وانطلقت نحوها لأرى إذا ما كانوا سيسمحون لي بالدخول . وكانت الطريق تمر ببيت عمدة القرية ، وهناك كان يجلس القسيس كما كان يحيط به خدمه وماشيته . وقد نقشت على أبواب الكنيسة صلبان وأشكال هندسية على شكل مجموعات من النجوم وظهرت بها فتحات هي أقرب إلى الرموز الخاصة بعبادة الالهة ميثرا منها إلى أي شيء مسيحي . ولكن جرجس كان قبطيا وقد انتخب عمدة لقرية مسلمة . . وكان منزله نوعا فريدا من منازل الأثرياء . ولن أستطيع أن أصفه لك مهما حاولت ولكنني شعرت أنه بمثابة (فقرة) في (العهد القديم) . . وفي الكنيسة ذاتها . . كان يوجد قبر أحد الاولياء المسلمين تحت قبة مجاورة للمذبح ، وقد

دخلت هناك . وانحنى جرجس لتقبيل القبر من جانب بينما اكتفى عمر بإلقاء التحية والسلام على صاحب القبر من الجانب الآخر . وكان ذلك منظرا يبعث على السرور » .

والطريف في الأمر أن الكنيسة كانت تجري فيها بعض الاصلاحات والترميمات وكان يتولى هذه العملية تطوعا وبدون مقابل عامل بناء مسلم قديم خصيصا ومن تلقاء نفسه لهذا الغرض من القاهرة ، بعد أن رأى الشيخ أو الولي ثلاث مرات في منامه يأمره بأن يترك عمله بالقاهرة ويتوجه الى ببا لترميم (كنيسته) . وقد تولى الأقباط توفير مواد البناء اللازمة لهذا العمل .

« وبينما كنا نجلس نستمع إلى كل هذه العجائب والطرائف ، كانت الأغنام والماشية تدخل بين صفوفنا عائدة الى البيت قبيل الغروب . وكان القسيس الشيخ الوقور يبدو أقرب الى أبينا ابراهيم ، كما كان المنظر كله يخيم عليه روح دينية أصيلة لدرجة أنني كنت أشعر كما لو كانت رغبتي تحققت في أن أعيش في الماضي السحيق الذي يرجع لبضعة آلاف من السنين » .

وفي رسالة لأمها أيضا من جبل الشيخ مبارك (أو الشيخ إمبارك كما تكتبها مثلما ينطقها الأهالي) يوم الخميس ٣ ديسمبر ١٨٦٢ كتبت تقول :

« ان الشيء الذي يسترعي الانتباه أكثر من غيره هنا هو روح التسامح التي ألمسها في كل مكان . فالناس هنا يكتفون بأن يقولوا لي : آه هذه إذن هي عوائدكم . ثم لا يعطون الأمر بعد ذلك أية أهمية . كما أن المسلمين والمسيحيين يرتبطون حقا بروابط الصداقة . . لازلت أنتظر أن أرى ذلك التعصب الذي يتكلم (الأجانب) عنه كثيرا ، ولكنني لم أر حتى الآن أي علامة من علاماته . لقد كان هناك ثلاث عشرة عائلة قبطية في ببا بينما كانت أغلبية السكان من المسلمين ، ومع ذلك فقد انتخبوا جرجس عمدة للقرية ، كما أنهم ينحنون لتقبيل يده بصدق وإخلاص حين يمر بهم في شوارع القرية » .

ولكنها لم تنس مع ذلك أن الأقباط هم الذرية الحقيقية الخالصة نسبيا على الأقل ، للمصريين القدماء ، وتبدي رأيها في هذه المسألة فى رسالة إلى زوجها أرسلتها من أسيوط في العاشر من مارس ١٨٦٣ :

« من الواضح أن الأقباط هم المصريون القدماء . فالأنف المعقوف قليلا والعيون المسحوبة هي نفس مانراه في رسوم القبور والمعابد ، كما أنها قريبة الشبه جدا باقدم الصور البيزنطية . وفيما عدا ذلك فإن الوجه يتمتع بدرجة من الوسامة وإن كان لونه شاحبا بوجه عام ويميل شيئا ما الى الانتفاخ . . كما يميل إبهام القدم الى الاستطالة بينما القدم ذاتها تبدو مفلطحة كما هو الشأن في التماثيل المصرية » .

وكما هو الحال بالنسبة للكثيرين من الرحالة الذين رأوا مصر أو الكتّاب الذين أقاموا فيها بعض الوقت وأتيحت لهم الفرصة للدراسة والبحث كان الدين موضوعا من أهم الموضوعات التي استرعت انتباهها واهتمت بالبحث فيها وحاولت الوصول إلى فهم العلاقة بين الاسلام والمسيحية كما تتمثل في سلوك الناس وتصرفاتهم ازاء بعضهم بعضا ، مثلما حاولت التعرف على الملامح والعناصر والرواسب الدينية التي وجدت طريقها من أديان مصر القديمة الى الطقوس والشعائر التي يمارسها المصريون في القرن التاسع عشر ، دون أن ينتبهوا للتناقض القائم بين تلك الأديان القديمة وأديانهم السماوية . وقد عرضت لهذه المسألة في عدد من الرسائل التي أرسلتها الى أمها وزوجها وبعض أصدقائها .

ويكفي أن نستشهد هنا بعدد قليل من هذه الرسائل لنتبين طريقة تفكيرها ونظرتها الى الامور . ففي رسالة الى صديق لها هو توم تيلور Tom Taylor يوم ١٨ ابريل ١٨٦٣ كتبت تقول :

« . . ان آليك (زوجها) على حق فيما يقوله عن حبي لأسلوب حياة العرب (المصريين المسلمين) . ولقد بذلت الكثير لكي أرى وأعرف عن حياة العائلة المصرية أكثر مما يعرفه الكثيرون من الاوربيين الذين عاشوا هنا سنوات طويلة . . .

وحين يحس العرب أن شخصا ما يهتم بهم بالفعل فإنهم يردون ذلك من كل قلوبهم . ولو كان في استطاعتي أن أتكلم لغتهم إذن لأمكن لي أن أرى كل شيء . إن القاهرة هي ألف ليلة وليلة . وقد يكون هناك مسحة من البريق (الإفرنجي) هنا وهناك . ولكن الحكومة والأهالي جميعا لم يتغيروا منذ أن كُتب ذلك الكتاب الصادق . لن يستطيع أي قدر من الكلمات أن تصف سفر المحمل المقدس والحجاج الى مكه . لقد أمضيت نصف يوم وأنا أتجول وأتسكع بين خيام البدو وأمتع ناظري بمرأى هؤلاء الناس الأحرار ذوي الطلعة المهيبة . وإنه لمنظر رائع أن ترى الرجل البدوي وزوجته البدوية وهما يسيران في شوارع القاهرة ، وقد وضعت يدها على كتفه دون أن تهتم بتغطية وجهها المتكبر ، وهي تنظر بترفع وكبرياء الى المرأة المصرية المحجبة التي تنوء بالأحمال الثقيلة التي تحملها وتسير خلف سيدها ومولاها . . .
. . . ليس ثمة ما يثير الانتباه أكثر من الأمور التي تدفع الانسان الى أن يتذكر هيرودوت بشكل دائم وباستمرار . فالمسيحية والاسلام في هذا البلد يحملان كثيرا من مظاهر العبادة القديمة ، بل إن الحيوانات المقدسة أصبحت الآن في خدمة الأولياء المسلمين . ففي المنيا يسخُر الناس التماسيح لأغراضهم . وقد رأيت جُحْر أفعى أيسكولوبيوس في جبل الشيخ هريدي . ولقد قدمتَ بنفسي الطعام للطيور مثلما فعل هيردوت ، وكانت الطيور تنقض على حبال المراكب التي تمنع عنها الطعام فتقطعها . وقد امكن للشيخ نوح ان يسخر الطيور لخدمته كما انها لا تزال تتوافد وتحط بكثرة على باخرتنا طلبا للخبز دون ان يجرؤ (الريّس) على ان يمنعه عنها . ولا تزال قطط بوبسطس تجد طعامها في بلاط القاضي وعلى نفقة المال العام في القاهرة ، وتتصرف القطط بلباقة فريدة حين يقدم لها (خادم القطط) عشاءها . ومن بين كل الآلهة فان آمون رع ، اله الشمس وقاتل التنين يسمي نفسه الآن مار جرجس (وهو نفسه سان جورج) الذي يقدسه المسيحيون والمسلمون على السواء وفي نفس الكنائس . كما ان اوزيريس لا يزال تقام اعياده واحتفالاته بنفس الصخب والضجيج في طنطا في الدلتا تحت اسم السيد البدوي . ولا تزال النساء الفلاحات يقدمن للنيل الاضحيات والقرابين ويطفن حول التماثيل القديمة من اجل الانجاب ، كما ان شعائر الولادة والموت ليست اسلامية وانما هي مصرية قديمة . .

وأقباط مصر اكثر عزلة وتحفظا واشد تخلفا من المصريين المسلمين كما انهم منبوذون من الاوربيين ولذا كانوا اكثر ابتعادا عنا . ويرفض الاوربيون هنا ان يوصفوا بأنهم (نصارى) بنفس الطريقة التي يرفض بها العبراني الارستقراطي اسم (يهودي) . اما انا فانني اقول عن نفسي صراحة وبكل شجاعة (انني نصرانية والحمدلله) ، ويتقبل المسلمون والاقباط ذلك بكل الرضا والاستحسان . وثمة امور كثيرة غريبة يصادفها المرء في الدين هنا . فقد يصلي المسلمون في قبر مار جرجس (سان جورج) وفي مزار ستّنا مريم وسيدنا عيسى . . . »

ولا تلبث ان تعود الى هذا الموضوع ذاته في رسالة طويلة ارسلتها الى امها يوم ٢١ مايو ١٨٦٣ من (مصر القاهرة) حيث تقول : ـ

« لقد ذهب عمر وحسن في الخامسة صباحا الى قبر ستنا زينب ، وهي احدى بنات النبي ، لرؤ يتها وقراءة الفاتحة على قبرها ، لأن يوم الاحد هو يوم الزيارة . وسوف يبدأ العيد الكبير يوم الجمعة القادم وفيه يتناول كل مسلم فقير بعض اللحم في دار جاره الأكثر غنى . انه يوم طلوع الحجاج الى الجبل المقدس قرب مكة لسماع الخطبة التي تنهي الحج . . . بالامس زرت السيدة ويلكنسون وهي ارمنية تتبع الكنيسة اليونانية ، وقد ذهبت للصلاة في كنيسة مارجرجس (سان جورج) للتخفيف عن آلام الحمى الروماتيزمية التي تعاني منها في يدها . وواضح ان مارجرجس هو بكل بساطة آمون رع اله الشمس وقاتل التنين ولا يزال يُقدَّس في مصر من كل الفرق ، كما ان السيد البدوي هو بكل تأكيد احد صور اوزيريس ، وتقام احتفالاته مرتين في السنة في طنطا ، ولا تزال هذه الاحتفالات تعكس رمز خالق كل شيء . . . هنا يمكن ان نتوقع اي شيء . . . النساء يندبن موتاهن مثلما كان يحدث على المذابح القديمة ، وكل الطقوس والشعائر لها طابع وثني واضح . . ان مصر هي « اللوح الممسوح » الذي سُطِّر عليه الكتاب المقدس فوق هيرودوت ثم جاء القرآن فوق هذا كله . . ففي المدن يسود القرآن بينما يسود هيرودوت في الريف . . والآن بعد ان انتهيت من كتابة كل هذه الرسالة الطويلة فانني لا اكاد اعرف ان كانت تستحق ان ارسلها لك او اذا كانت ملاحظاتي العابرة البسيطة عن الحياة الشرقية سوف تدخل السرور على قلبك . . سوف اذبح يوم الجمعة المقبل خروفا ويقوم عمر باعداد طبق ضخم للفلاحين الفقراء الذين يرقدون بجوار محطة السكة الحديدية في انتظار ترحيلهم للعمل في مكان ما . وسوف يكون هذا هو عيدي الكبير . وعمر يأمل ان يعود ذلك عليّ بالخير الجزيل » .

ثم تعود مرة اخرى الى الموضوع ذاته في رسالة ارسلتها الى زوجها من جرجا يوم ٩ يناير ١٨٦٤ فتقول : ـ

« هذه اضافة الى الفولكلور اعتقد انها جديدة حتى بالنسبة الى لين Lane نفسه . . . حين يشعل بائع القهوة موقده في الصباح يبدأ بأن يصنع قدحين من اجود اصناف البن ويضيف اليهما القدر المناسب من السكر ثم يسكبهما على كل اجزاء الموقد وهو يردد : (اللهم بارك على الشيخ الشاذلي وعلى ذريته) . وهذا الدعاء للولي الذي (اخترع) القهوة مسألة كنت اعرفها بالطبع من قبل ، وكثيرا ما كنت ارددها انا نفسي . اما مسألة سكب القهوة تقربا للولي فانها جديدة بالنسبة لي . فأنت ترى اذن ان الدين القديم يطل برأسه بشكل غير متوقع حتى من خلال الايمان القويم بالاسلام . ولو كان باستطاعتي ان اصف بالتفصيل حفل زواج مصري . وعلى الاخص حفل زواج قبطي : فسوف تظن انني اسرد عليك بعض الطقوس الخاصة بايزيس . لقد شاهدت في احد المنازل والد العروس وقد امتقع وجهه واستبد به القلق ، وقال لي عمر : « اظن انه (ماسك بطنه بيده) حتى تخبره النساء ان ابنته قد بيضت وجهه » وهذا تعبير رائع لوصف حالة اضطراب القلب من القلق . وانه لأمر معقول بدون شك ان يؤدي سلوك المرأة المشين الى اسوداد وجه الأب اكثر من وجه الزوج . وهناك امور اخرى كثيرة طيبة يمكن ان تقال عن الحريم هنا . . » .

ولم تقتصر اهتمامات لوسي دف جوردون على ملاحظة الشعائر والطقوس والممارسات الدينية والسحرية الشعبية

في مصر وانما امتدت الى مجالات اخرى كثيرة متنوعة من الحياة الاجتماعية حاولت ان تحللها وان تتعمق في فهمها ولم تكتف بوصفها وصفا سريعا ساذجا على ما يفعل الكثيرون من الرحالة . ولقد كان من الطبيعي ان يجذب اهتمامها علاقة الرجل بالمرأة واسلوب التعامل القائم بينهما وان تقارن مكانة المرأة في المجتمع المصري بمكانتها في المجتمع الاوروبي وبخاصة ازاء ما كان يقال عن عبودية المرأة وخضوعها المطلق لسلطان الرجل . ومع انها لاحظت وسجلت في رسائلها الكثير من مظاهر السلوك التى تؤخذ في العادة على انها مؤشر على المكانة الدنيا التي تحتلها المرأة في المجتمع ، فالطريف في الأمر انها نظرت الى ذلك نظرة لا تخلو من رومانسية وكانت تعتبر امتداد سلطان الرجل وفرض حمايته على المرأة هو احد بقايا نظام فروسية القرون الوسطى الذى انقرض من اوروبا . وفي رسالة الى امها ارسلتها من الاسكندرية في الثانى عشر من مايو ١٨٦٣ تقول :-

« يجب ان يأتي المرء الى الشرق لكي يفهم معنى المساواة المطلقة (بين عامة الناس) . . . فالمسلمون يعتبرون انفسهم متساوين تماما بحكم الواقع ولذا فانهم ينظرون الى المال والى المنزلة الاجتماعية على انهما امور عارضة ومن هنا لقيت طريقة سلوكي كثيرا من الاستحسان ، فقد كنت اجلس مع الفلاحين واعامل الجميع بنفس الطريقة التي يعاملون بها بعضهم بعضا . ولكن هـذا كله يتخذ شكـلا آخر مغـايراً في الاسكندرية ، اذ ان الافكار والعادات الاوروبية افلحت في ان تقتل الافكار والعادات العربية وتزيلها تماما . وتلك التي نجحت في الصمود والبقاء لم يطرأ عليها اي تحسين عن طريق الاتصال . .

. . . لقد بدأت افهم كل شيء عن مكانـة المرأة ومنـزلتها . فهنـاك قدر من الفـروسية من بعض الوجوه ، والنتيجة ليست سيئة على اي حال في الاوساط والطبقات الدنيا والوسطى المحترمة . اما في الطبقات الغنية فانني اشك ان الكثيرات من النساء يشعرن بالسعادة ، وان كنت لا اعـرف عن ذلك كثيرا ، كما انني لا اعرف شيئا على الاطلاق عن اساليب الاتراك » (في معاملة النساء) .

ثم انها تعود الى هذا الموضوع نفسه مرة اخرى في رسالة ارسلتها الى زوجها بمناسبة الكريسماس لعام ١٨٦٣ فتحاول ان تصحح بعض الاخطاء السائدة في الغرب عن نظام تعدد الزوجات : -

« . . . لقد سمعت اليوم مثالا غريبا عن العادات العربية . فلقد قابلت حسن ، وهو احد حراس القنصلية الامريكية ، وهو رجل طيب ومحترم للغاية . وقد ذكر لي انه اتخذ زوجة ثانيـة له منـذ العام الماضي . وسألته عن السبب فقال انها ارملة اخيه الذي كان يعيش معه دائما في نفس البيت وانه قد ترك وراءه طفلين ، وان تلك الارملة ليست صغيرة السن ولا هي جميلة ، ولكن حسن كان يعتبر ان من واجبه ان يعولها هي وطفليها والا يدعها تتزوج من شخص غريب فانت ترى اذن ان تعدد الزوجات ليس دائما مسألة اغراق في الجنس ، وان تضحية الرجل في هذا العمل كثيرا ما تكون هائلة فهو لا يقنع بمجرد ابداء المشاعر والعواطف الطيبة نحو زوجة اخيه المتوفي . . » .

●●●

وتكفي هذه الامثلة لكي نتبين منها الى اي حد اهتمت لوسي دف جوردون بمعالم الثقافة والحياة في المجتمع المصري في الستينات من القرن الماضي واسلوب ملاحظتها للاحداث وتسجيل الوقائع التي تراها

بل والتي قد تشارك هي نفسها في صنعها . فلم تكن مجرد سائحة تقف من الاحداث موقفا سلبيا يقنع بالمشاهدة والتسجيل ، وانما كانت تعيش بين الناس وتختلط بهم وتشترك في حياتهم اليومية وفي احتفالاتهم وكثير من مناشطهم . لقد كانت تمارس ما يطلق عليه الانثربولوجيون اسم « الملاحظة بالمشاركة » دون ان تدري ، وقبل ان يطلق علماء الانثربولوجيا على هذا الاسلوب اسما او مصطلحا علميا بوقت طويل . وليست مجموعة رسائلها او على الاصح كتاب « رسائل من مصر » عملا انثربولوجيا بالمعنى الدقيق للكلمة ولا يمكن ان نطبق عليه المحكات التي نطبقها على البحوث الانثربولوجية الميدانية . ولكنه يظل بعد هذا كله مثالا طيبا لنوع من ادب المراسلات الذي يرتفع بنفسه عن ان يكون مجرد سرد وتسجيل للأمور الشخصية والعائلية البحتة ، والذي ينبع في الأصل عن النظرة الواسعة المتفتحة ، واحترام الثقافات الاخرى ومحاولة فهمها كخطوة هامة لفهم الانسانية ككل .

(٢)

وقد تفتقر المجموعة الثانية من الرسائل التي نعرض لها هنا الى الروعة والاثارة وبراعة الاسلوب وحسن العرض التي تتمتع بها رسائل لوسي دف جوردون ، وقد ينقصها القدرة على التحليل والتفسير ورد عناصر الثقافة الراهنة الى اصولها التاريخية ومحاولة الكشف عن اوجه الشبه او الاختلاف مع بعض الانماط الثقافية والاجتماعية السائدة في المجتمعات الاخرى وقد لا تكشف لنا عن نفس الدرجة من الثقافة العالية الرفيعة المتنوعة التي تتمتع بها الليدي دف جوردون ، ومع ذلك فان هذه المجموعة الثانية من الرسائل لا تقل عن « رسائل من مصر » في الصدق ودقة الملاحظة وكثرة المعلومات وتنوعها حتى وان كانت طريقة عرض هذه المعلومات تخلو من العمق وتميل الى البساطة التي تصل احيانا الى حد السطحية . واذا كانت لوسي دوف جوردون عاشت في مصر وفي الصعيد بالذات سبع سنوات بين عامي ١٨٦٢ و١٨٦٩ وهي مدة طويلة اتاحت لها الفرصة للتعمق في فهم الحياة الاجتماعية في بعض انحاء المجتمع المصري ، فان صاحب هذه المجموعة الثانية من الرسائل عاش في مصر ، وبخاصة في القاهرة خمسة واربعين عاما من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٤٦ ، لم يكتف خلالها بغير شك بملاحظة الاحداث والوقائع والظواهر الاجتماعية او يقنع برصدها ، وانما شارك في صنع كثير من هذه الاحداث مشاركة فعلية وذلك بحكم الظروف والاوضاع التي احاطت به وباقامته في مصر . فاذا كانت الليدي دف جوردون النبيلة الارستقراطية البريطانية قد جاءت الى مصر بقصد الاستشفاء والعلاج من المرض الطويل المميت واستطاعت ان تقصر حياتها ونشاطها على توثيق علاقاتها بقطاع معين بالذات من افراد المجتمع المصري وتكرس وقتها كله للملاحظة والتفكير والتأمل والكتابة الى اهلها حول ما تراه ، فان صاحب هذه المجموعة الثانية من الرسائل جاء الى مصر للعمل وكسب العيش في فترة كانت مصر خاضعة للنفوذ البريطاني في شتى صوره وكان كثير من الانجليز يفدون عليها لتولي بعض المناصب في كثير من المصالح . وقد اتاحت له الوظائف والاعمال التي تولاها في مصر وبالذات في القاهرة الاتصال بفئات مختلفة من الشعب المصري والتعرف على كثير من جوانب الحياة في القاهرة الى جانب الاتصال بالمجتمع البريطاني او « الجالية » البريطانية وبعض الجاليات الاجنبية الاخرى داخل المجتمع المصري ومعرفة العلاقات التي تربط هذه الجاليات بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع المصري من الناحية الاخرى . الا انه كان مع هذا كله يبدو راغبا عن الاندماج في ذلك الوسط الاجنبي الدخيل شأنه في ذلك شأن لوسي دف جوردون . وقد ساعده ذلك الى حد ما على الاقل ، على التغلغل في المجتمع المصري وفهم اعماقه واغواره . .

صاحب هذه المجموعة من الرسائل هو جوزيف ويليام ماكفرسون Joseph William McPherson اسكتلندي

يهتم بالدراسات الكلاسيكية واللغويات ومتخصص في العلوم الطبيعية ، ولكنه لم يكن عالما او باحثا بالمعنى الاكاديمي الدقيق للكلمة ، بل ربما كان على العكس من ذلك تماما . ولد في سمرست Somerset عام ١٨٦٦ في عائلة كبيرة العدد ومتماسكة كما هو شأن العائلات الاسكتلندية ، ولذا فانه يشير الى عائلته في كثير من الاحيان باسم (قبيلة ماكفرسون) حسب المألوف في اسكتلندة . وقد ارتبط جوزيف ماكفرسون منذ صغره بأمه ارتباطا وثيقا (وكان اصغر ستة اخوه) ، وسيطرت هذه العلاقة على كل حياته ، ولم تفلح ـ حسب ما يقول احد ابناء عمومته ـ اية امرأة اخرى في ان تحل محل الام وبذلك ظل طيلة حياته بغير زواج . اما ابوه فقد كان مديرا لأملاك دوق جوردون Duke of Gordon وعدد آخر من كبار ملاك الاراضي في اسكتلندة . ولما نزحت العائلة نحو الجنوب التحق ماكفرسون الصغير بمدرسة كليفتون (او كلية كليفتون كما تدعي) في بريسستول حيث اهتم بدراسة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية الى جانب بعض اللغات الحديثة ، اذ كانت لديه ملكة طبيعية لتعلم اللغات بسهولة وسرعة ، ثم التحق بالكلية العلمية الملكية في دبلن بايرلندة ، وبعد اربع سنوات التحق بجامعة اكسفورد حيث حصل على درجته الجامعية في العلوم الطبيعية . فكأنه يجمع اذن بين الدراسات الكلاسيكية والتخصص في الفيزياء والرياضيات . وحين تخرج من الجامعة اشتغل بتدريس العلوم الطبيعية في بعض المدارس الى ان ماتت امه فأحس بالضياع والفراغ . وكان ذلك من اهم الدوافع التي دفعته الى البحث عن عمل بعيدا عن بريطانيا ، وبالتالي الى الالتحاق بوزارة المعارف العمومية (كما كانت تسمى حينذاك) في مصر . وجاء الى مصر في اكتوبر عام ١٩٠١ ، وارتبطت حياته ارتباطا كاملا وتاما ووثيقا بمصر والمجتمع المصري والشعب المصري الى ان مات في مصر عام ١٩٤٦ وهو في الحادية والثمانين .

في الفترة من عام ١٩٠١ الى عام ١٩١٤ عمل ماكفرسون مدرسا بالقاهرة وبخاصة بالمدرسة الخديوية الثانوية التي يشبهها بمدرسة ايتون الشهيرة في انجلترا ، باعتبارها المدرسة التي تضم ابناء الطبقة الموسرة في مصر ، كما عمل في الوقت ذاته كموظف اداري ومحاضر في وزارة المعارف العمومية ، وهو نفسه يقول عن ذلك ان طبيعة هذا العمل لم تكن واضحة كل الوضوح . وحين قامت الحرب العالمية الأولى التحق بالصليب الاحمر في جاليبولي ثم بسلاح الهجانة في حملة سينا ، ولكنه لم يلبث ان غير مجري حياته تغييرا تاما عام ١٩١٨ حين شغل وظيفة (مأمور ضبط) وهي ما يعادل منصب رئيس البوليس السري بالقاهرة . وحين تقاعد في آخر الامر من ذلك العمل عام ١٩٢٤ وهو في الثامنة والخمسين من عمره انصرف الى دراسة الدين الاسلامي واهتم اهتماما خاصا بما يسميه الانثربولوجيون بالديانة الشعبيـة التي تتمثل في الاعياد والاحتفالات ذات الطابع الديني والتي لا تخلو من بعض الممارسات السحرية ، كما اهتم بدراسة التصوف والفرق الصوفية في مصر . ولقد كانت الفترة الطويلة التي عاشها ماكفرسون في مصر فترة مليئة بالاحداث والوقائع والتغيرات والتحولات في مختلف الميادين . فقد مرت مصر اثناء ذلك بحربين عالميتين وشهدت احدى الثورات الوطنية الهامة التي كان لها اثرها البالغ في حياتها وتاريخها وهي ثورة ١٩١٩ وشهدت كثيرا من التغيرات الجذرية في الحيـاة السياسية . واتاح له ذلك كله ان يشاهد كفاح الشعب المصري ضد الاستعمار وان يرى ثورات الشعب وبخاصة ثورات ـ الطلاب سواء عام ١٩١٩ او في الثلاثينيات ، أي أنه لاحظ وشهد ولمس عن قرب المجتمع المصري وهو في حالة الغليان الثوري ، مثلما رأى عن قرب ايضا حياة الفلاح المصري الوادعة الهادئة البائسة الفقيرة وتسلط الطبقات الغنية الموسرة من ملاك الاراضي والاقطاعيين ، وعاين الفرق الشاسع في مستويات المعيشة ، وشاهد تضخم القاهرة وازدحامها التدريجي بالسكان ، فقد كان تعدادها حين وصل اليها عام ١٩٠١ لا يزيد على اربعمائة ألف نسمة بينما كان تعدادها حين مات عام ١٩٤٦ قد تعدى المليونين ، واحس بكل ما تحمله هذه الزيادة المطردة من آثار وخيمة وتعقيدات في الحياة اليومية والاجتماعية . وقد اتاح له عمله في التدريس في اول حياته العاملة بمصر ان يتعرف على عدد من تلاميذه بالمدرسة الخديوية كان منهم ابن الزعيم المصري احمد عرابي ، ولكنه ارتبط ارتباطا وثيقا بوجه خاص ببعض التلاميذ

الذين شغلوا فيما بعد مكانة مرموقة في الحياة الاجتماعية والسياسية . وترددت في رسائله اسماء معينة مثل ابراهيم زكي الذي اصبح طبيبا مشهورا ، وحامد محمود الذي اصبح فيما بعد وزيرا للصحة . وعن طريق هؤلاء التلاميذ عرف هو طريقه الى البيت المصري والعائلة المصرية سواء في القاهرة او الريف وعرف كثيرا من انماط العلاقات الاجتماعية في مختلف مستويات المجتمع المصري .

وقد اتاح له عمله في سلك البوليس السري ان يتصل اتصالا وثيقا باجواء الجريمة واوساط المجرمين وان يعرف كثيرا عن خباياهم واماكن مزاولتهم لانشطتهم المختلفة والقواعد و(الاخلاقيات) التي تحكم سلوكهم بعضهم ازاء بعض كما اتاح الفرصة من الناحية الاخرى الى ان يعرف - الشيء الكثير عن خفايا النشاط السياسي والوطني في مصر ، اذ كان بحكم وظيفته الرسمية وبحكم انتمائه الى الدولة الاستعمارية ذات النفوذ في مصر يقف موقف المعارضة والمعاداة - للمطالب والامال والتطلعات المصرية نحو الاستقلال ، وكان يتصدى للمظاهرات ويعمل على تفريقها بالعنف اذا لزم الامر.وهذا الجانب من نشاطه وعمله في مصر يكشف لنا بوضوح عن وجه البريطاني الاستعماري الضيق الافق المحدودة النظرة . والغريب ان عمله في سلك البوليس السري هو الذي ارتبط اسمه به اكثر من عمله في سلك التدريس او حتى انشغاله فيما بعد بالدراسات الدينية والاسلامية ، على الرغم من أن هذا الاهتمام بالدين نجم عنه في آخر الامر تأليف كتاب طريف عن « الموالد في مصر » . فلقد عرف جوزيف ماكفرسون باسم « البمباشي ماكفرسون » وحين نشرت رسائله من مصر ، او بعضها على الاصح ، ظهرت تحت عنوان « البمباشي ماكفرسون : حياة في مصر Bimbash: McPherson: A Life in Egypt[٥] . بل ان الاذاعة البريطانية خصصت في العام الماضي (١٩٨٣) برنامجا خاصا من عدد من الحلقات تدور حول هذه الرسائل وكان عنوانها كلها هو « البمباشي ماكفرسون » . وهذا معناه ان فترة عمله في البوليس السري افلحت الى حد كبير في اخفاء نشاطه في مجال التدريس ، بل انها القت ظلالا قاتمة كثيفة على جهوده العلمية او شبه العلمية التي بدأت بعد تقاعده وانصرافه لمتابعة النشاط الديني في مصر .

وباستثناء مجموعة الرسائل التي نتحدث عنها هنا فان كتاب « الموالد في مصر Moulids of Egypt[٦] الذي نشره ماكفرسون عام ١٩٤١ واعتمد فيه على المعلومات (الاثنوجرافية) التي جمعها خلال فترة عمله واقامته الطويلة في مصر يمثل اسهاما طيبا لا يمكن انكاره فيما يتعلق بمحاولته فهم الحياة المصرية (الشعبية) والقاء بعض الاضواء عليها . ولقد كتب مقدمة هذا الكتاب احد كبار علماء الانثربولوجيا البريطانيين وهو المرحوم الاستاذ ايفانز بريتشارد الذي عمل لبعض الوقت استاذا بالجامعة المصرية القديمة ، وهي مقدمة تكشف عن قدرة (الاستاذ) على التحليل والتفسير وتختلف في ذلك اختلافا كليا عن اسلوب ماكفرسون في الوصف والسرد والذي يفتقر الى التعمق . وكثير من رسائل ماكفرسون تشير الى ايفانز بريتشارد ، كما ان الروائي البريطاني الشهير لورانس داريل Lawrence Durrell صاحب الرباعية السكندرية Alexandria Quartet الشهيرة ، والذي كتب مقدمة كتاب « البمباشي ماكفرسون : حياة في مصر » وهو الكتاب الذي يضم مجموعة الرسائل التي نحن بصددها يشير الى كتاب « الموالد في مصر » اشارات تدل على تقديره له واعجابه به . ويذكر لنا داريل في هذه المقدمة ان ماكفرسون كان قد اهداه كتاب (الموالد) حين التقيا في القاهرة لأول مرة في الاربعينات ، وانه اعتمد عليه اعتمادا كبيرا في التعرف على بعض مظاهر الحياة المصرية وذلك اثناء انشغاله هو بكتابة (الرباعية السكندرية) ، وان النسخة التي اهداها ماكفرسون اليه ، والتي اهداها هو بدوره فيما بعد الى مكتبة

---

(٥) **Bimbashi Mc Pherson, A Life in Egypt,** edited by Barry Carman and John McPherson, Preface by Lawrence Durrell, B.B.BC Publications London 1983.

(٦) J.W. McPherson, **The Moulids of Egypt,** with an Introduction by E.E. Evans — Pritchard, Cairo 1941.

جامعة الينوي بأمريكا ، شاهد على مدى اعتماده عليها ، فهي مليئة بالملاحظات والتعليقات التي كتبها داريل بالقلم الرصاص على معظم صفحات الكتاب . وعلى اية حال فان كتاب (الموالد في مصر) هو دليل واضح على مدى تغلغل ماكفرسون في البيئة المصرية الشعبية واهتمامه بالممارسات الشعبية في مجال هام من مجالات الحياة . ولكن الملاحظ بوجه عام ان ماكفرسون ، رغم كل ما فعله ورغم حياته الطويلة في مصر لم يحتل مكانة بارزة او يكتسب شهرة فائقة في المجتمع المصري ، ولم يفلح في ان يفرض نفسه على هذا المجتمع ، بل انه لم يفلح في ان يحقق نجاحا باهرا يجذب اليه الانظار في اي عمل تولاه ، ولم تكد اوساط المثقفين تشعر بوجوده . ولولا كتابه عن (الموالد) لكان قد مر في تاريخ مصر الثقافي مثلما مر العشرات بل والمئات من الموظفين الاداريين والمدرسين الاجانب الذين عملوا في مصر ولم يتركوا اثرا بارزا واضحا . والغريب ان كتاب (الموالد) نفسه كتاب يكاد يكون غير معروف في مصر نفسها ، ولو ان احد تلاميذي القدامى رجع اليه في اعداد رسالته للدكتوراه من جامعة الاسكندرية حول الموضوع نفسه . وربما لا يوجد الآن سوى عدد قليل جدا من نسخ هذا الكتاب في مصر على الرغم من ان الكتاب يضم ثروة هائلة من المعلومات والحقائق التي تحتاج الى مزيد من التحليل .

ولقد اهتم ماكفرسون اثناء اقامته الطويلة جدا في مصر بالكتابة الى جميع افراد (قبيلة ماكفرسون) بغير استثناء وبصرف النظر عن اختلافات السن . وقد اهتم اعضاء (القبيلة) بدورهم بالاحتفاظ بتلك الرسائل كلها ، بل الاكثر من ذلك ان احد افراد القبيلة عني بكتابة الرسائل ـ او جزء كبير منها على الاقل ـ بالآلة الكاتبة واحتفظ بها في مجلدات بلغ عددها خمسة وعشرين مجلدا تضم اكثر من ثلاثة الاف صفحة كبيرة الى ان كشف احد ابناء اخوته عنها في العام الماضي وقام باختيار بعضها لتقديمه في الاذاعة البريطانية كما ذكرنا ، ثم لكي تنشر بعد ذلك في كتاب كأحد منشورات الاذاعة البريطانية ايضا . ويذكر لورانس داريل في مقدمته للكتاب ان هذه الرسائل عمل كلاسيكي لا يقل روعة او اهمية عن كتاب ادوارد ويليام لين (المصريون المحدثون) ، وانه يملأ الفراغ او الفجوة التي تفصل بين عمل لين والعصر الحديث . وايا ما يكون في كلام داريل من مبالغة ناجمة عن جهله بما كتب ونشر عن المجتمع المصري خلال هذه السنين وبخاصة في مجالات الكتابة الانثربولوجية والسوسيولوجية ، فان كلامه يدل على اهمية الكتاب وقدرة صاحبه على جمع المعلومات وتسجيلها في شكل رسائل ، وهو امر لا يمكن التهوين من شأنه .

●●●

حين وصلت الباخرة (الكونجو Le Congo) الى الاسكندرية يوم اول اكتوبر عام ١٩٠١ قادمة من مرسيليا وعلى ظهرها جوزيف ويليام ماكفرسون ، كان الانطباع الاول الذي خرج به والذي سجله في رسالته الأولى في نفس اليوم الى اخيه جا Ja هو :

« أظن انني سوف احب المصريين . انهم شعب رقيق حلو الطباع ، ومظهرهم يدل على النبل ، ويبدو انهم ينتمون الى نموذج من البشرية افضل بكثير من نموذج الفرنسيين مثلا » .

ثم لا يلبث ان يردف ذلك برسالة الى اخيه دنكان Duncan يبعثها اليه من القاهرة يوم ٩ اكتوبر بعد ان تسلم عمله في المدرسة الخديوية الثانوية ، وفيها يصف عمله وتلاميذه وزملاءه :

« ان الاولاد (والرجال) يسيرون نحو اماكنهم في خطوة عسكرية منتظمة وتحت اشراف ضباط المدرسة ، كما ان الاساتذة (كما يدعوننا) لا يكشفون عن نفس الدرجة من الارتباك التي نجدها في

المدارس الانجليزية . وهناك عدد كبير من الخدم ومن الضباط الذين يباشرون كل شيء باستثناء القاء الدروس . وانا مضطر لارتداء الطربوش ، شأني في ذلك شأن كل الأساتذة والتلاميذ ، وذلك بامر مولانا السلطان . وحين يدخل الاستاذ الى الفصل او يخرج منه يقف التلاميذ ، ويرفعون ايديهم الى جباههم بالتحية على الطريقة العسكرية . وليس لديّ حتى الآن ما اشكو منه من سلوك التلاميذ، والعقوبة التي تفرض على التلميذ حين نشكوه لأول مرة الى الناظر هي اداء بعض التدريبات والتمرينات الرياضية الطويلة ، بينما تكون عقوبة الشكوى منه للمرة الثانية هي الحبس مع حرمانه من الطعام في الاغلب فيما عدا الخبز والماء . وعلى العموم فان التلاميذ هنا اكثر اهتماما بدروسهم واشد اقبالا على الاستذكار من التلاميذ في انجلترا ، ولذا فانهم اقل منهم اثارة للشغب والمتاعب . . . وتقدم القهوة للاساتذة مجانا في منتصف الفترة الصباحية وكذلك في فترة ما بعد الظهر ، كما ان وجبة الغداء تقدم لهم في منتصف النهار نظير مبلغ رمزي . . ويعرف التلاميذ هنا بعض الفرنسية والانجليزية بالاضافة الى اللغة العربية . . ومعظم التلاميذ شباب في غاية اللطف (ولا يكادون يختلفون في شيء عن زملائهم الانجليز) .»

ويبدو ان ماكفرسون ظل محتفظا بهذه الفكرة عن التلاميذ المصريين لفترة طويلة من الزمن وكان يحب ان يعود للموضوع من حين لآخر ويقارن بين سلوك التلميذ المصري وسلوك التلميذ الانجليزي سواء في الفصل او اثناء اللعب او اثناء تأديته للامتحانات . والمعلومات التي يذكرها في رسائله حول هذه المسألة خليقة بأن تثير الانتباه وتدعو الى المقارنة مع واقع الحال الآن في المدارس المصرية ، واكاد اقول في المدارس العربية بوجه عام . ففي رسالة بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٠٣ مثلا يكتب اثناء المراقبة في احدى لجان الامتحان للشهادة ـ الابتدائية يقول : ـ

« بالاضافة الى كل ذلك العدد الهائل من المدارس الوطنية أو الكتاتيب حيث لا يكاد يدرس شيء سوى القرآن ، وفيما عدا الجامعة الاسلامية (الأزهر) الذي يدرس فيه خمسة عشر ألف طالب أو أكثر ، فإن هناك عددا من المدارس التي تتبع الجزويت وغيرهم من الارساليات الكاثوليكية والارسالية الأمريكية ، كما أن هناك مدارس ألمانية ويونانية وفرنسية (وإن كان من الغريب أنه لا توجد مدرسة واحدة بروتستانتية أو انجليزية في مصر) وذلك بالاضافة الى نظام التعليم العادي في المدارس الحكومية التي تعتبر المدرسة الخديوية أفضلها وأكثرها امتيازا . . . ان امتحان الشهادة الابتدائية يعقد اليوم . والواقع أنه لمشهد رائع في لجنة المدرسة الخديوية حيث يجلس ثلاثة آلاف تلميذ يرتدون الطرابيش الحمراء ويشغلون ثلاثة ملاعب لكرة القدم ويجلسون في خيام ذات ألوان زاهية ، كما أن النظام والترتيبات الأخرى على درجة عالية من الكمال ، بحيث إنه من بين الثلاثة آلاف طالب الحريصين أشد الحرص على أداء امتحاناتهم لا تكاد تجد واحدا على مائة من حالات الغش والفوضى التي تصاحب امتحان مائتي تلميذ في مدرسة ويكفيلد مثلا أو أي مدرسة انجليزية أخرى من المدارس التي أعرفها . فالسكون والنظام التام يسودان من البداية حتى النهاية » .

وقد عكف ماكفرسون منذ البداية على تعلم اللغة العربية باعتبار أن ذلك هو أفضل وسيلة ليس فقط لمعرفة تلاميذه وفهمهم والاتصال بهم ، بل وأيضا لفهم المجتمع الذي يعيش فيه ويتعامل معه ككل . وقد ساعده على إجادة اللغة العربية قدراته الطبيعية على تعلم اللغات ، وبذلك لم تمر سوى سنوات قليلة حتى أتقنها وأصبح يتحدث بها في سهولة ويسر وطلاقة . وقد أعانه ذلك على الاختلاط بمختلف فئات المجتمع المصري ، وكانت وسيلته في بداية الأمر

على الأقل بعض تلاميذه كما ذكرنا من قبل . والخطاب الذي أرسله الى « دنكان والعائلة » من القاهرة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٠١ ، أي قبل أن يمر شهران على وصوله الى الاسكندرية ، دليل على مدى نجاحه في اقامة علاقات قوية مع بعض هؤلاء التلاميذ وعائلاتهم ، ويعطينا من ناحية صورة واضحة عن أسلوب حياة بعض الطبقات الموسرة في مصر في ذلك الحين ، كما يعطينا من الناحية الأخرى صورة واضحة أيضا عن (أسلوبه) هو في الكتابة وطريقته القصصية البسيطة في الوصف والسرد وعرض الأحداث .

« لقد عدت توا من اجازة قصيرة تعتبر من أمتع الاجازات والعطلات في حياتي وأكثرها أصالة . لقد جاءني في البيت صباح يوم الخميس أحد تلاميذي ، وهو محمود صدقي محمود ومعه شقيقه حامد محمود وابن عمه ابراهيم زكي ومعهم (عربية) حملتنا الى محطة السكة الحديدية ، ومنها أخذنا القطار الى طوخ التي تبعد بحوالي أربعين ميلا عن القاهرة في اتجاه دمياط تقريبا . وفي طوخ كان في انتظارنا عربة (دوكار) يجرها جواد عربي رشيق . وقد سلموني أنا العنان حيث انطلقنا في رحلة مثيرة نحو البيت على بعد خمسة أميال تقريبا ، وهناك استقبلنا الأب محمد أفندي محمود بكثير من الود والترحاب . . ولقد شاركت محمود صدقي وحامد محمود في غرفة فسيحة بها سرير ضخم ومزودةمثل بقية البيت بقضبان ومزاليج حديدية كما هو شأن قلاع وحصون القرون الوسطى ، كما كانت توجد المسدسات الى جوار كل سرير ، فالمنطقة لا تخضع تماما لحكم القانون (وأغلب الظن أن أقرب أوربي في المنطقة يعيش على بعد عشرين الى ثلاثين ميلا من هنا) ، كما أنه لا توجد أية بيوت أخرى سوى الأكواخ الطينية التي يسكنها الفلاحون والتي تبعد عن البيت بعدة أميال . ومع أن رئيس احدى العصابات المشهورة التي تتألف من ستين لصا والذي يثير الرعب في المنطقة كلها (أكل عيش وملح) معنا جميعا في حديقة محمد محمود هذا المساء وبذلك كانوا يعتبرونه حاميا وحارسا لنا ، فإن هناك عصابات أخرى قد تكون أقل شأنا ولكن لها شهرة في ارتكاب حوادث القتل والسرقة بقصد التسلية . وكان يحوم حول المكان عدد كبير من كلاب الحراسة التي تشبه الذئاب في مظهرها .

كان الغداء (في اليوم التالي) يتألف من الشوربة وبعض الدواجن وطائر السمان بصلصة الكاري ثم السمك المحشو بلحم (الكابوريا) ثم لحم الضأن مع السلاطة ثم لحم البقر المطهو مع الباذنجان والاسباراجوس وغيرها ثم المكرونة ، وبعد ذلك التين والكمثرى والعنب ، ثم جبن الكاممبير ومع هذا كله النبيذ والكونياك وغير ذلك كثير . وما كدنا ننتهي من تناول القهوة والكونياك حتى جاء أحد موظفي دائرة الخديو الذي يملك عزبة من أربعة آلاف فدان بجوار عزبة محمد محمود ، وكان ينزل ضيفا على شخص يدعى حسن بك طنينة (؟) ـ وكان ابنه أحمد عزيز حسن طنينة قد شاركنا العشاء في الليلة السابقة ـ وطلب منا أن نزور حسن بك . وكان قد جاء ه بفرس عربي أصيل من خيول الخديو لكي أركبه ، بينما امتطى الآخرون الخيول أو الحمير . . وانطلقنا بين الحقول الى عزبة حسن بك على بعد ثمانية أميال تقريبا . . . وكان طنينة قد أعد استقبالا مهيبا ، وفيه قدموني لكل شيوخ المنطقة . وقام (السفرجية) بتقديم القهوة والشربات ثم مدت بعدها مأدبة ضخمة من الفواكه . ولست أدري كيف أمكننا أن نأكل هذا القدر الهائل من الفواكه بعد وجبة الغداء الضخمة . . وسكب الخدم بعد ذلك الماء والعطور على أيدينا وقاموا بتجفيفها بعناية . . وقد عدت على ظهر الفرس نفسه . . وقد قدموا لنا الشاي عند غروب الشمس وكان حفل شاي ممتازا حضره عدد من الضيوف كان بينهم علي أفندي بابا ، كما

أسميه حسب اسم زعيم عصابة اللصوص الشهير . . ولقد اضطررنا الى أن نختصر أمسية رائعة حتى نستطيع اللحاق بآخر قطار . . »

وكما هو المتوقع ، وكما كان الشأن بالنسبة لليدي دف جوردون والكثيرين من الأجانب الذين يـزورون مصر ويعيشون فيها ، فإن الحياة الدينية والطقوس والشعائر والاحتفالات الشعبية حظيت بقدر كبير من اهتمام ماكفرسون الذي أتيحت له فرصة حضور عدد كبير من حفلات الزواج عند الطوائف المختلفة التي كانت تعيش في مصر في ذلك الحين بما في ذلك أقباط مصر والأرمن واليونانيين . وقد ذكر بسرور وفخر في احدى رسائله أنه كان الأجنبي الوحيد في حفل زواج حضره حوالي خمسمائة مدعو . بل ان أصدقاءه المصريين كثيرا ما كانوا يصطحبونه معهم الى احتفالات ومناسبات دينية لم يكن من المفروض أن يحضرها غير المسلمين . وبذلك استطاع أن يحضر بعض حفلات الذكر ، وأهم من ذلك حفلات الزار التي لا يحضرها سوى النساء وأن يلاحظ عن قرب ما يحدث فيها ويصف مشاهداته بكثير من التفاصيل والدقة . ويكفي أن نستشهد هنا بما ذكره عن احدى حفلات الذكر التي حضرها في بولاق وذلك في رسالة له بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٠٢ وإن كان يطلق كلمة « الذكر » فيها على المشتركين في احياء الحفل :

« الذكر هو لفيف من المسلمين الشديدي التدين الذين يستمدون ذلك الاسم من تكرار وذكر اسم « الله » . ويقنع الذكر في كثير من الأحيان بالجلوس على الأرض حول « فانوس) وهم يرددون اسم الله بغير توقف ، ويتمايلون برؤ وسهم وأجسامهم بما يتفق وترديد الكلمة . والمفروض أن الحكم البريطاني قضى على حالات المبالغة والمغالاة التي كانوا يذهبون اليها في بعض الأحيان .

وحين وصلنا الى المنطقة المنعزلة في بولاق حيث يقام الذكر ألفينا أنفسنا في بقعة من الأرض تقرب مساحتها من مساحة ملعب التنس بين بيوت الأهالي ، وقد زينت بالأعلام واصطفت المقاعد المستطيلة في جانب منها وفرشت بالسجاد . وكان (الذكر يجلسون على الأرض في شكل حلقة وهم ينشدون ويرددون (لا اله الا الله) بينما كان يجلس عدد كبير من المشايخ والناس العاديين أو يقفون حول (الذكر) ولم يكن بينهم أي أوربي آخر .

وقد دعاني أحد المشايخ ـ وهو رجل متقدم في السن ولطيف ـ للجلوس في موضع ممتاز كما وضعت لنا الوسائد لكي نتكىء عليها وقدمت لنا القهوة . وفجأة وثب رجل من بين (الذكر) وسط الحلقة وأخذ يصدر أصواتا عالية تتجاوب في تناغم مع الكلمات التي يرددها الآخرون ، وشيئا فشيئا انضم اليه أشخاص آخرون وأخذ الجميع يصدرون أصواتا عميقة كالفحيح من صدورهم . ثم جاءوا ببعض الآلات الموسيقية الوطنية (معظمها طبول ومزامير ودفوف) وأخذ وقع الأنغام يزداد في السرعة الى أن أصبح كل أفراد المجموعة يصدرون ذلك الصوت من صدورهم في شدة وعنف ، وكان معظمهم يتمايلون بأجسامهم بينما أخذ البعض يدورون بسرعة حول أنفسهم مثل المغازل ، وأخذ فريق ثالث يتلوون حول أنفسهم بشكل مثير ، ثم بدأ عدد كبير من الحاضرين في الانشاد بأصوات عالية والباقون يتبعونهم حتى أصبحت الضجة تصم الآذان . .

ويتابع ماكفرسون بكثير من الدقة البالغة وصف تفاصيل ما يحدث فيتكلم عن الأشخاص الذين يطعنون أجسامهم بالمدى والسكاكين والسيوف المعقوفة ، أو الذين يأكلون الزجاج والنار والعقارب ، والذين يمارسون بعض

الاجراءات والعمليات التي تكفل لصاحبها الوقاية من السموم ومن أذى الحشرات والحيوانات القاتلة بينما الجميع يرددون طيلة الوقت اسم الجلالة إلى أن يقول :

« وبعد منتصف الليل بقليل جاء الطعام والشراب من البيوت المجاورة وبكميات هائلة ، ودعونا للعشاء مع الذكر ، ثم تناولنا القهوة وبعض العنب وانصرفنا ، وحين وصلت الى البيت كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف صباحا ولكنهم كانوا قد بدأوا يعودون مرة ثانية لاستئناف الذكر . وتوجهت الى سريري للنوم ولا تزال (لا اله الا الله) تتردد في أذنيَّ » .

وربما كان أحد أهم الاحتفالات الدينية التي تعرض لها بالوصف في رسائله والتي اختفت ولم تعد تمارس في مصر هو الاحتفال بذكرى مقتل الحسين . وقد كتب عنه بالتفصيل في رسالة مطولة الى أخيه دوجال Dougal بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٠٢ . وكما هي عادته اكتفى بالوصف والسرد البسيط للأحداث التي مرت أمام عينيه دون أن يحاول التعمق في فهم تلك المشاهد ، ولو كانت لوسي دف جوردون هي التي عرضت لهذا الاحتفال لكان لكتابتها شأن آخر . أما هو فيكتفي بالقول :

« لقد شاهدت منذ بضعة أسابيع احتفالا غريبا للغاية أقامه بعض الايرانيين من أتباع الحسين حفيد الرسول (فيما أعتقد) ، والذين يعتبرون في نظر بقية المسلمين من غلاة الطائفيين ولا يكادون يعترفون بهم ، لأن مقتل الحسين وأخيه كان بداية لتحول الخلافة . ومع ذلك فإن المسلمين يسمحون بهذا الاحتفال وباستخدام مسجد الحسين لممارسة الجزء الأول منه . ويبكي الايرانيون ويندبون استشهاد الحسين ثم يسيرون في موكب وسط الشوارع تحت وهج المشاعل وهم نصف عرايا في بعض الأحيان ويطعنون صدورهم بسيوف حادة معقوفة . وحين مر الموكب بنا لاحظت كيف كانت رؤ وسهم تنزف بشدة من كل جانب وقد غطت الدماء أعينهم وأجسامهم بينما كانت ملابسهم يقطر منها الدم حتى أضحت الشوارع لزجة من الدماء . وكان رجال الشرطة تحت قيادة بريطانية يرأسها مانسفيلد بك يحرسون الموكب ويصدون عنهم الجماهير المائجة ويدفعونها بالسياط أو ببطون سيوفهم . . »

ولقد زالت هذه الاحتفالات وغيرها واختفت تماما من المجتمع المصري بعد أن كانت تؤلف جزءا هاما من الثقافة الشعبية في مصر . وليس لدينا معلومات وفيرة عن كثير من هذه الشعائر والطقوس والممارسات ومن هنا فان ما سجله ماكفرسون عنها في رسائله يسد بغير شك فجوة واسعة في معلوماتنا في هذا المجال ، وهو ما يعطي تلك الرسائل قيمة علمية عالية رغم كل ما يقال عن عجز ماكفرسون وقصوره وعدم قدرته على تحليل هذه (الظواهر) الثقافية .

●●●

وتغطي رسائل ماكفرسون فترة هامة من تاريخ مصر كانت مليئة بالأحداث الهامة التي غيرت من مجرى تاريخها السياسي ، وهي الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى وشهدت اندلاع ثورة ١٩١٩ وخروج الشعب المصري يندد بالاستعمار البريطاني وتعرض السلطة البريطانية لتلك المظاهرات . . وكما سبق أن ذكرنا فان الدور الذي قام به ماكفرسون خلال تلك الفترة التي تمتد بالنسبة اليه حتى عام ١٩٢٤ كان مخالفا تماما للدور الذي لعبه قبل هذه الفترة وبعدها حتى وفاته . وقد كشف موقفه من مصر ومن شعب مصر ومن المجتمع المصري خلال هذه الفترة العصيبة عن وجه المستعمر البريطاني الذي يمجد سياسة لورد كرومر المتعجرف والذي ينعي على المصريين عدم تقديرهم للدور

الحضاري الذي كانت تقوم به بريطانيا في مصر ، وتسجل رسائله كثيرا من تفاصيل هذه الأحداث السياسية حتى قبل الحرب العالمية مثل حادث دنشواي ومقتل بطرس غالي . وكثير من هذه التفاصيل من شاهد عيان قد تفيد المؤرخين فضلا عن السوسيولوجيين والانثربولوجيين ، كما أنها تزود القارىء بكثير من المعلومات عن الأساليب التي كان الانجليز يتبعونها في مقاومة ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ ، فكثيرا ما كان ماكفرسون نفسه يقف على رأس القوات التي تتصدى للمظاهرات ويقاومها بالعنف والقسوة ، كما تعرَّض للمقاومة السرية والجمعيات التي كانت تنبع في كثير من الأحيان من الأزهر وتقوم بجمع الأموال والتبرعات التي كان يسميها في رسائله (الأتاوات التي تفرض عن طريق التهديد والابتزاز) مثل جمعية « اليد السوداء » و « العين الحمراء » ، حتى يمكن الانفاق منها على النشاط الثوري . وقد حاول في رسائله أن يلصق بهذه الجمعيات التي يقول أنها بدأت في الأزهر كل أنواع الجرائم والموبقات ، وكان يرى في إضراب الموظفين واعتصامهم تجاوبا مع الرأي العام الذي التف حول سعد زغلول نوعا من المهانة والاذلال لبريطانيا . والتفاصيل كثيرة جدا ، والرسائل طويلة جدا أيضا وكلها تعبر عن مرارة الفشل ، ولكنها خليقة بالقراءة والاهتمام ، خاصة وأنها تصدر عن رجل شارك بمعنى ما في تلك الأحداث ، ويعتبر بذلك شاهدا على العصر ، كما تعتبر كتاباته شهادات حية ، بصرف النظر عن الزاوية التي رأى منها تلك الأحداث .

ولكنه قبل أن يتقاعد عام ١٩٢٤ من عمله أو وظيفته « كمأمور ضبط » اشترك في الحملات التي كان ينظمها (قومندان البوليس) رصل باشا ضد مهربي المخدرات . ويعترف في رسائله بأن المسألة لم تكن سهلة أو هينة ، ليس فقط بسبب تحايل تجار ومهربي المخدرات وقدراتهم الفائقة على خداع (البوليس) ولكن أيضا لأن معظم المهربين كانوا من الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ويحظون بنوع فريد من الحماية بحيث لم يكن من الميسور القبض عليهم الا بواسطة شرطة القنصليات التي يتبعونها . ويحكي في رسائله عن بعض مغامراته وعن الهجمات التي شنها على أوكار المدمنين ، ولكنه ظل حتى النهاية يؤازر سياسة الامبراطورية البريطانية المتشددة في مصر ، وكان آخرها الاجراءات التي اتخذت بعد مقتل السردار وذلك قبل أن يتقاعد بوقت قصير .

ولكن حتى بعد أن تقاعد ظل يعيش في مصر ، وبدأ يعاوده حنينه الى الحياة المصرية الوادعة البعيدة عن مشاكل السياسة ، وظل يراسل أفراد عائلته حول كل ما يشاهده أو يطرأ على ذهنه من أفكار . وأعطى معظم اهتمامه ووقته لدراسة التصورات الشعبية للدين في مصر ، وازداد اتصاله برجال الدين ورجال الطرق الصوفية وأصدر كتابه عن (الموالد في مصر) الذي سبقت الاشارة اليه . وفي الثامن عشر من يناير عام ١٩٤٦ أحس برعشة من البرد فاعتكف في البيت لمدة أربعة أيام وطلب في اليوم الرابع من خادمه (السيد) أن يقدم له شرابا ساخنا ، ولكنه استلقى فجأة على ظهره وقد فاضت روحه . ودفن جوزيف وليام ماكفرسون في القاهرة وقد نقش على قبره كلمة واحدة فقط « وداعا » .

●●●

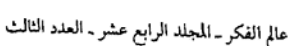
في مقدمته لكتاب (رسائل ايفلين وو) يقول مارك آموري Mark Amory [٧] إن فن كتابة الرسائل يحتضر نتيجة لظهور أساليب ووسائل جديدة للاتصال بين الناس ، وأن أكبر أعداء فن كتابة الرسائل أو أدب المراسلات هو التليفون وأننا قد نشهد قريبا تسجيلات كاملة للمكالمات التلفونية التي تتم بين الشخصيات المشهورة البارزة تحل محل أدب

(٧) **The Letters of Evelyn Waugh,** "preface" by Mark Amory, (editor), Weiden feld and Nicolson, London 1981.

المراسلات . وقد يكون في هذه النظرة غير قليل من التشاؤم . فمهما يطرأ من تطورات على أساليب الاتصال أو (التواصل) فان الكتابة سوف تظل في الأغلب أداة فعالة في تسجيل الخواطر والأفكار والملاحظات والتعبير عنها بدرجة عالية من الوضوح والتحليل العميق . ويصدق هذا بوجه خاص على الملاحظات والأفكار التي يسجلها أصحابها عن المجتمعات والثقافات الغريبة التي يتاح لهم الاقامة فيها أو الاحتكاك بها ودراستها عن قرب ، وتحليل عناصرها ومكوناتها كما هو الحال في رسائل لوسي دف جوردون وجوزيف ماكفرسون وغيرهما . فمثل هذه الرسائل لا تعبر فقط عن خواطر شخصية عابرة يمكن نقلها أو (توصيلها) عبر التليفون أو أي وسيلة أخرى من وسائل الاتصال الحديثة المعروفة ، وانما هي نظرات عميقة متأنية في الحياة والمجتمع وان اختلف حظ أصحابها من القدرة على الملاحظة والوصف والتحليل والفهم . ومن هنا كانت نظرتنا الى هاتين المجموعتين من الرسائل اللتين ظهرتا في كتاب (رسائل من مصر) وكتاب (البمباشي ماكفرسون) على أنهما سجل اثنوجرافي للمجتمع المصري ، أو بعض قطاعاته ، في فترتين مختلفتين من تاريخه . ففي الوقت الذي ودعت فيه لوسي دف جوردون الحياة (عام ١٨٦٩) كان جوزيف ماكفرسون يستقبل الحياة (ولد عام ١٨٦٦) . والفترة التي تفصل بين هاتين المجموعتين من الرسائل تقرب من نصف قرن ، كما أن رسائل ماكفرسون نفسه تغطي فترة تقرب من نصف قرن آخر ، وخلال كل هذه السنوات الطويلة (من عام ١٨٦٢ حين بدأت الليدي دف جوردون تكتب رسائلها حتى عام ١٩٤٦ حين توفي ماكفرسون) مر المجتمع المصري بكثير جدا من التغيرات الجذرية العميقة في بنائه ونظمه الاجتماعية وثقافته الشعبية ، بل أن كثيرا من مظاهر الحياة التقليدية قد اندثر ولا نكاد نجد شيئا عن تفاصيلها الا في الرسائل والمذكرات الخاصة . ومن هنا كان اعتقادنا بضرورة أن يعطي علماء الانثربولوجيا بالذات لهذه الرسائل شيئا من الاهتمام والعناية . فمعظم الباحثين الانثربولوجيين في الوقت الحالي لا يزالون أسرى الموضوعات التقليدية التي بدأ بها الأساتذة الرواد ، ولم يحاولوا في الأغلب ارتياد مناطق ومجالات جديدة في البحث . وهذا لا يعني أبدا التهوين من شأن تلك الموضوعات التقليدية ، فهي رغم كل شيء هي الأساس القوي المتين للبحث الانثربولوجي الأكاديمي ، كما أنه لا يعني أبدا إنكار الجهود التي يقوم بها بعض الباحثين الشبان لتجديد دماء الانثربولوجيا ببحوث جديدة مبتكرة في مجالات لم تطرق من قبل . وكل ما أعنيه هو أن الرسائل والمذكرات الشخصية التي تسجل كثيرا من مظاهر الحياة في مراحل سابقة من تاريخ المجتمع تؤلف مجالا من أخصب المجالات التي يمكن للباحث الجاد أن يطرقها في بحوثه لكي يلقي بعض الأضواء على تلك المراحل ، مستعينا في ذلك بأسلوب ومناهج البحث الحديثة مما يؤدي الى اثراء الدراسات السوسيولوجية والانثربولوجية المعاصرة .

د . أحمد أبو زيد





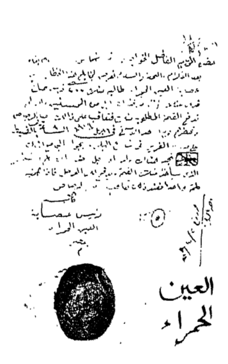
الليدي لوسى دف جوردون

(حين كانت في السابعة والعشرين من عمرها) عام ١٨٤٨

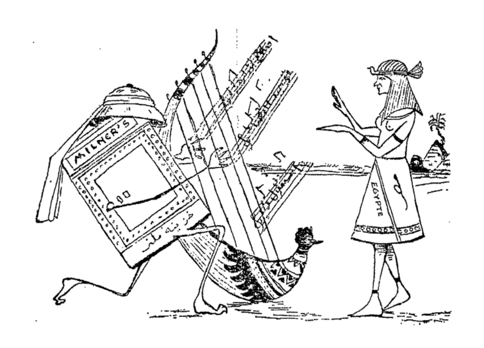
(من كتاب : رسائل من مصر)



خادم لوسي دف جوردون وصديقها
(من كتاب : رسائل من مصر)



احـدى رسائل جمع الأمـوال التى كانت ترسلها جماعة العين الحمراء أثناء ثورة ١٩
(من كتاب البمباشى ماكفرسون)



رسم كاريكاتيرى يبين لورد ملنر يحاول التودد إلى مصر لكى تقبل

(تقرير ملنر) الشهير

(من كتاب البمباشى ماكفرسون)



عـلامـة أحـد أصنـاف المخـدرات

(الحشيش)

(من كتاب البمباشى ماكفرسون)

أدب المراسلات في العصر الأموي

حسين نصار
كلية الآداب بجامعة القاهرة

التراسل أمر بعيد موغل في القدم ، رافق - في ظني - نشأة الجماعة البشرية ، وظهور الحاجة الى التفاهم عن بعد . غير أن هذا التفاهم كان في نشأته الأولى شفاهيا ، ينقله وسيط من المحتاج الى المحتاج اليه ، لأن الانسان لم يكن قد عرف التدوين . وعند ما عرفه واستخدمه في أغراضه ، كان من المواطن التي استخدمه فيها التراسل .

ومن أقدم ما أذكره تلك الرسالة التي يذكر التاريخ أن ملك الهكسوس في مصر أرسلها الى حاكم طيبة في الصعيد يتحرش به ، ويدعي أن نقيق الضفادع عنده يؤرقه .

واذا تركنا التاريخ البعيد الى جاهلية العرب القريبة من الاسلام وجدنا كثيرا من الرسائل تروي الأخبار أن أصحابها كتبوها ، وارسلوها الى من أرادوا . وأمثل لها بالرسالتين اللتين يقال ان عمرو بن هند كتبهما الى عامله على البحرين ، وأرسلهما مع المتلمس وطرفة بن العبد ، يأمره فيهما بقتلهما ، وبالرسائل التي أرسلها لقيط بن يعمر الايادي وعبدالعزي بن امرىء القيس الى قومهما لتحذيرهم ، ثم بالرسائل المتبادلة بين كعب بن زهير بن أبي سلمى وأخيه أبجر بعد إسلام الثاني .

ولا يحتاج إلى تدليل أن أذكر أن التراسل انتظم واتسع نطاقه بقيام الدولة الاسلامية وامتداد رقعتها شرقا وغربا ، كما هو معروف ، ولكن الأمر الذي يحتاج الى ذكر وتأكيد العمل الذي قام به عمر بن الخطاب . فقد أنشأ نظاما ثابتا لنقل الرسائل سمي بالبريد ، ولم يقصره على البريد الرسمي ، بل أباحه لأفراد الشعب[1] . ولا شك أن هذا العمل يسّر الاتصال ، ودفع الناس الى كتابة الرسائل وتبادلها ، فازداد عددها ، واتسع مجالها .

(١) جمهرة رسائل العرب ١ : ٢٥١ .

ولكن هل كانت هذه الرسائل أعمالا فنية يمكن أن نضعها تحت عنوان الأدب . ذلك ما لا أقوله ، وأنفيه دون تردد . فالرسائل الأدبية - في رأيي - لا تسعى نحو التفاهم وحده ، ولا تصدر عفوية حاملة لغة الحديث اليومي مهما بلغت من الفصاحة . وانما أرى أن الرسالة الأدبية يجب أن ترمي الى امتاع المرسلة اليه ، ومن يطالعها بعده ، وأن تحتوي على فيض قلّ أو كثر من مشاعر كاتبها ، وأن تقصد الى تفجير طاقات اللغة التي تكتب بها ، وفقا لوعي الكاتب بهذه الطاقات ، وقدرته على تفجيرها .

ولم يقع شيء من ذلك في الرسائل الجاهلية ولا الاسلامية الأولى ، وان كشفت الرسائل الاسلامية المتأخرة عن بوادر بوعي فني .

قد يعترض معترض - عن حق - فيذكرني بأن كثيرا من الرسائل الجاهلية لم تشتمل الا على قصائد من الشعر الجيد ، الذي لا يستطيع أن يماري أحد في فنيته . فاتفق معه ، وأعلن : حقا أذكر ، وحقا هي فنية ، غير أنها من فن آخر غير الذي أعنيه ، أريد أنها من فن الشعر ، وليست من فن المراسلات ، الذي ينتمي الى النثر . وقد فعل القدماء من الأدباء فعلي ، فوضعوا رسائل النابغة الذبياني في الاعتذار الى النعمان ، ورسالة سلامة بن جندل الى صعصعة بن محمود بن عمرو التي مدحه فيها لاطلاقه سراح أخيه أحمد ، وضعوها في ديوانيهما . بل عدوا رسائل النابغة أحسن شعره . وكذا فعلوا مع غيرهما .

●●●

ازدهرت حركة التراسل في العصر الأموي ازدهارا رائعا . فقد توطدت سلطة الدولة ، وأمن الناس ، وبرزت طموحاتهم ، وتعددت حاجاتهم ، في عهود كثير من الخلفاء ، وخاصة معاوية وعبدالملك وابنيه الوليد وهشاما .

فتنوعت الرسائل التي تبادلوها تنوعا كبيرا يفوت الحصر ، لأن كثيرا منها تبادله الاصدقاء في شئون شخصية أو سقط من التاريخ . وعلى الرغم من ذلك فيما بقي ما يقنع ويرضي .

أود أن أبدأ بالرسائل التي أُبعدها عن الفن لنحدد المجال أمامنا فتدق الدراسة . فأبدأ بالرسائل التي تبادلوها يطلبون فيها أمورا من العلم . فقد دون عبدالله بن عباس صحفا في الحديث والتفسير اشتهرت بين الناس ودأبوا على الرجوع اليها . قال موسى بن عقبة[٢]: وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان علي بن عبدالله بن عباس اذا أراد الكتاب كتب اليه : ابعث اليّ بصحيفة كذا وكذا . فينسخها ويبعث بها . وكتب عبدالعزيز بن مروان الى كثير بن مرة الحضرمي - الذي أدرك سبعين ممن اشتركوا في غزوة بدر من الصحابة - أن يكتب اليه بما سمع من الصحابة غير أبي هريرة فان أحاديثه عنده[٣]. وكتب عبدالملك بن مروان الى سعيد بن جبير يطلب إليه أن يكتب له تفسير القرآن ، ففعل واحتفظ عبدالملك بهذا التفسير الذي اطلع عليه عطاء بن دينار ورواه[٤].

(٢) طبقات ابن سعد : ٢١٦ .
(٣) الطبقات ٧ / ٢ : ١٥٧ .
(٤) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ١ : ٣٣٢

وتبادل عبدالملك وعروة بن الزبير رسائل عدة خاصة بمسائل من التاريخ ، مثل هجرة الحبشة ، وغزوة بدر ، وفتح مكة . ومن حسن الحظ أن محمد بن اسحاق والواقدي والطبري احتفظوا ببعض الرسائل التي لبى فيها عروة طلبات عبدالملك . وتمثل تلك الرسائل أقدم نصوص النثر التاريخي العربي المدون . جاء في تاريخ الطبري[٥]: « ثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب الى عبدالملك بن مروان :

أما بعد
فانك كتبت اليَّ في أبي سفيان ومخرجه ، تسألني : كيف كان شأنه ؟

كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبا ، من قبائل قريش كلها ، كانوا تجارا بالشام . فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم فذُكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك . فقُتلت قتلى ، وقتل ابن الحضرمي في ناس « بنخلة » . وأُسرت أسارى من قريش ، فيهم بعض بني المغيرة ، وفيهم ابن كيسان مولاهم . أصابهم عبدالله بن جحش وواقد حليف بني عدي بن كعب ، في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثهم مع عبدالله بن جحش . وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش . . . »

ولعل الأهم لهذا المقال ما تبادلوه من رسائل خاصة بشئون الأدب ، وإن لم تكن الرسائل نفسها فنية . وأول هذه الشئون تعليم الشعر . قيل : إن زياد بن أبيه أرسل ابنه عبيد الله الى معاوية بن أبي سفيان فسأله عن أشياء من العلم فوجده عارفا بكل ما سأله عنه . فاستنشده شعرا ، فقال : لم أرو منه شيئا . فكتب معاوية الى زياد : ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر ، وان كان البخيل ليرويه فيسخو ، وان كان الجبان ليرويه فيقاتل[٦].

وهذه الرسالة تأكيد للنصائح التي وجهها كثير من رجالات العرب توصي بالعناية بالشعر ، مثل عبدالله بن عباس ، وعبدالملك بن مروان الذي قال لمؤدب ولده : روِّهم الشعر يمجُدوا وينجدوا[٧].

ومن هذه الشئون استدعاء رواة الشعر والعارفين به . قال ياقوت في معجم الأدباء[٨]: كتب عبدالملك بن مروان الى الحجاج :

« انظر لي رجلا عالما بالحلال والحرام ، عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، أستأنس به ، وأصيب عنده معرفة . فوجِّهه اليّ من قِبلك » .

---

(٥) ١ : ١٢٨٤٠
(٦) العقد الفريد ٦ : ١٢٥
(٧) العقد ٦ : ١٢٥
(٨) ١ : ٩٦ .

فوجه اليه الشعبي ، وكان أجمع أهل زمانه . وعلى الرغم من ذلك قال الشعبي بعد أن التقى به : فلم ألق واليا ولا سوقة ، الا وهو يحتاج اليّ ولا أحتاج اليه ، ما خلا عبدالملك ، ما أنشدته شعرا ، ولا حدثته حديثا ، إلا وهو يزيدني فيه . وكنت ربما حدثته ـ وفي يده اللقمة ـ فأمسكها . فأقول : يا أمير المؤمنين : أسِغْ طعامك ، فان الحديث من ورائه . فيقول : ما تحدثني به أوقع بقلبي من كل لذة ، وأحلى من كل فائدة .

وقال حماد الراوية[9] : أرسل الوليد بن يزيد اليّ بمئتي دينار ، وأمر يوسف بن عمر بحملي اليه على البريد ، فقلت لا يسألني الا عن طرفيه : قريش وثقيف . فنظرت في كتابيهما .

ومن هذه الشئون السؤال عما يلتبس من المعاني أو يشعر السائل بالحاجة الى معرفته . قالوا : ان أبا عمرو بن العلاء ـ العالم الكبير ـ كان يرسل أخاه معاذا الى الحارث بن خالد بن العاص ، الشاعر الغزل الذي تولى مكة ، ومعه رسائل فيها مسائل يسأله عنها[10] .

وذكر الأصمعي[11] الامويين وشغفهم بمعرفة الشعر فقال : كانوا ربما اختلفوا ـ وهم بالشام ـ في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب ، فيُبردون فيه بريدا الى العراق . وقال غيره : كنا نرى في كل يوم راكبا من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسي ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس .

وكتب عبدالملك بن مروان[12] الى الحجاج يوما : أنت عندي كسالم . فلم يدر ماذا يريد . فكتب الى قتيبة بن مسلم ، وكان راوية للشعر . فكتب اليه : ان الشاعر يقول :

يديرونني عن سالم وأديرهم ... وجلدة بين الأنف والعين سالم

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الرسائل وثيقة الصلة بالأدب ، ولكنها ليست من الفن في شيء ، ولذلك لا يأبه بها هذا المقال ، وكان على أن أبدأ بإبعادها ، وإبانة أسباب ذلك الابعاد .

●●●

وننتقل الى الرسائل التي يهمنا أمرها . ونستهل الحديث عنها بالتقسيم الذي اعتاد الأدباء العرب أن يقسموا الرسائل الأدبية اليه . فهي عندهم صنفان : رسائل إخوانية ، وأخرى ديوانية .. أما الاخوانية فالرسائل التي يتبادلها الأصدقاء والأقارب وأفراد الناس في شئونهم الخاصة . وأما الديوانية فالرسائل التي تتناول الشئون الحكومية ، وتصدر عن الهيئة التي تكل إليها السلطة صياغة ما تريد كتابته ، وسميت أحيانا ديوان الرسائل ، وأحيانا ديوان الانشاء .

---

(٩) الأغاني ٦ : ٩٤ .

(١٠) الأغاني ٣ : ٣١٢ .

(١١) الأغاني ٣ : ١٢٣ .

(١٢) أمالي القالي ١ : ١٥ . وانظر معجم الأدباء لياقوت ١ : ٩٧ .

فاذا ماقنعنا بهذا التقسيم وشرعنا في تطبيقه على العصر الأموي ، تم الأمر في سهولة في مجال الرسائل الاخوانية . أما الصنف الآخر فلا ينصاع لنا في مثل هذه السهولة . حقا نجد بين أيدينا عددا وافرا من الرسائل التي تتناول شئون الدولة ، غير أننا لا نجد الديوان الذي أصدرها أو يتوه منا في الظلام فنجد حرجا شديدا في نسبة الرسائل إليه ، وتسميتها بالديوانية . ولو كان الأمر مجرد تسمية لهان بعض الشيء . ولكن التسمية تعني وجود الديوان ، وهو ديوان غاية في الأهمية ، لأنه ضم الكتاب الذين احترفوا مهنة الكتابة ، بل ضم كبارهم ومشهوريهم ، فاجتمعوا معا ، في عمل واحد ، تحت بصر السلطة ، التي فتحت أمامهم أبواب الترقي إلى أعلى المناصب . فتباروا وبذلوا الجهود في حيازة رضاها . فنقبوا عن طاقات اللغة العربية التي كتبوا بها ، واستفرغوا الوسع في صقل مواهبهم وقدراتهم واستثمارها . فبلغوا الغاية التي سعوا إليها : فنا رائعا خالدا ، باهت العربية به وبأصحابه ومازالت تباهي .

فمتى أنشأت الدولة هذا الديوان ؟

انفرد القلقشندي بإرجاع هذه النشأة إلى العصر النبوي ، قال[١٣]: اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الاسلام ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة . . ويكاتبونه ، وكتب الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، وبعث إليهم رسله بكتبه . . وهذه المكتوبات كلها متعلَّقها ديوان الانشاء ، بخلاف ديوان الجيش فإن أول من وضعه ورتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته .

ولكن هذا القول غير صحيح . فلا تلازم بين ديوان الانشاء وهذه الكتابات ، فقد توجد هي ، ولا يوجد هو . كما أننا لم نسمع عن كتّاب احترفوا الكتابة ، وإنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يملي على من يجده أمامه ممن يحسن الكتابة ، فيكتب كما يملي عليه . وقد بالغ القلقشندي في هذا الادعاء مبالغته في ادعائه أن ديوان الجيش والدواوين الأخرى أسست في عهد الرسول أيضا ، غير أنها لم تلق مثل شهرة ديوان الانشاء[١٤].

وأقدم ذكر للديوان جاء به الجهشياري[١٥] في كتابه الوزراء والكتاب حين قال : وكان يكتب لعبدالملك على ديوان الرسائل أبو الزعيزعة مولاه . وأكد هذا القول حين ذكر سليمان بن سعد الخشني ، وأعلن أنه تقلد ديوان الرسائل لعبدالملك أيضا[١٦]. فدلنا هذان القولان على أن الديوان كان قائما في دمشق في عهد عبدالملك بن مروان .

ولكن الأمر لا يقف عند هذا بل يتعداه إلى التصريح بوجود دواوين للرسائل عند الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق ، ويزيد بن المهلب في خراسان ، في خلافة عبدالملك نفسه[١٧]. واذن فلم يشهد عبدالملك ديوانا واحدا ، بل عدة دواوين ، أحدها في العاصمة ، وبقيتها في الأقاليم .

---

(١٣) صبح الأعشى ١ : ٩١ .

(١٤) نفس الموضع .

(١٥) ٣٥ .

(١٦) ٤٠ .

(١٧) ٤١ ، ٤٢ ، ٦٣ .

فهل أنشئت كل هذه الدواوين في خلافة عبدالملك بن مروان .

أما أنا فقد قلت : لا . واستطعت بتحليل الأوصاف التي أطلقها الجهشياري على بعض الكتاب أن أستنتج أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أسس الديوان فيما أنشأه من دواوين إبان خلافته في دمشق . ثم احتذته بقية الأقاليم في أزمنة مختلفة .

فقد وجدت الجهشياري يصف عبيدالله بن أوس بأنه « كان يكتب لمعاوية على الرسائل »[١٨]، ويقول عن زياد بن أبيه[١٩]. « ويكتب له على الرسائل عبدالله بن أبي بكرة وجبير بن حية » . وقد استمر الجهشياري في استعمال هذا الوصف بعد انشاء ديوان الرسائل يقينا ، وأطلقها على من عرفوا بالتحاقهم به من أمثال عبدالله بن أبي فروة كاتب مصعب بن الزبير ، ويحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب ، بل على رشدين كاتب يوسف بن عمر والي العراق في عهد هشام بن عبدالملك . ومما يدعم هذا الاستنتاج أن نرى الجهشياري قبل ذلك التاريخ يقول : وكتب لفلان فلان ، وبقي يستخدم هذا القول بعد انشاء الديوان أيضا .

وعلى الرغم من ذلك ، أوثر أن أعدل عن وصف رسائل هذا القسم بالديوانية ، وأن أصفها بالرسمية ، قطعا لكل خلاف . كذلك لا أقنع بالتقسيم الثنائي للرسائل ، وأوثر تقسيما ثلاثيا ، يجعلها أخوانية ورسمية ودينية . قد يقال إن الرسائل الدينية يمكن وضعها في القسمين الآخرين . فأقول : حقا يمكن ذلك في كثير منها ، ولكن بعضها يستعصى على هذا الوضع لسمات وأوضاع خاصة به .

●●●

ويلفت النظر ـ قبل التعرض للرسائل ـ أمور يحسن الحديث عنها لأثرها الواضح في التراسل والرسائل . وأول الأمور العناية الشديدة التي أولاها الخليفة معاوية بن أبي سفيان للبريد ، حتى ظن بعض المؤرخين خطأ أنه منشئه[٢٠].

الأمر الثاني تحرر الكتاب من نظام الاملاء . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده يملون على كتابهم ما يريدون تدوينه ولا يعطونهم حرية صياغته كما يهوون ، ولذلك جاءت رسائل كل منهم نمطا واحدا على اختلاف كاتبيها . ولم يصرح المؤرخون بانفراد أحد بما كتب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الا عبدالله بن الأرقم ، الذي استقل أحيانا بما كتب ، وأجاز الرسول كتابته[٢١]. ولكن بعض الكتاب المتميزين ـ فيما يبدو ـ أخذوا يستقلون عن الاملاء في عهد الراشدين . فإذا جاء العصر الأموي تتابعت الدلائل على استقلال الكتاب برسائلهم ،

(١٨) ٢٤ .
(١٩) ٢٦ .
(٢٠) التراتيب الادارية ١ : ١٩٢ .
(٢١) التراتيب ١ : ١٢٠ .

ومنذ عهد مبكر . وهذا الاستقلال هام لأنه يتيح للكاتب أن يتأنى ويدير النظر في إثراء الأفكار وتعميقها وتجويد العبارة وتحسينها .

الأمر الثالث احتراف الكتابة . فقد شرع الحكام منذ عهد عمر بن الخطاب يتخذون الكتاب الخاصين ، الذين يشتغلون بالكتابة ، وعرفنا أسماء بعضهم مثل زياد بن أبيه كاتب ولاة العراق ، وعبدالرحمن بن أبزي كاتب نافع بن الحارث والي مكة[٢٢]. وطبيعي أن الظاهرة استمرت في الاتساع ، وتكمن أهمية الاحتراف في كونه داعية التجويد والتنافس .

الأمر الأخير الشك . فقد أدت الفتنة العثمانية إلى فرقة المسلمين ، وبدء المذاهب السياسية والدينية كالأمويين والعلويين والخوارج . والأمر الذي يؤسف له أن بعض رجال هذه المذاهب لجئوا إلى الكذب على رؤسائهم ورؤساء خصومهم ، من أجل الدعوة لآرائهم وتفنيد آراء مخالفيهم . وانتشر هذا الفعل الذميم حتى شمل كل فنون القول عند المسلمين بل العرب قبل الاسلام أيضا . فصرنا نجد الرسالة التي لا نشك أنها واحدة ، ترد في مصدرين مختلفين ، متغايرة تغايرا كبيرا[٢٣]. بل وضعت رسائل في عصور متأخرة ونسبت إلى رجال من العصر الذي اتحدث عنه زورا .

●●●

فاذا بدأنا بالرسائل الأخوانية وجدناها تشتمل على عدة موضوعات ، هي النصح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء والتوصية والطلب . ووجدناها في مطلع العهد الأموي بسيطة لا ترمي إلا إلى الافهام دون شيء آخر ، فلا نعدها من الفن في شيء . وأعتقد أن التاريخ لم يحتفظ بما احتفظ به منها إلا لأنها صادرة عن اناس لهم شأنهم ، وأن أمثالها من الرسائل صدرت في زمنها وبعده ـ بل في العصور العباسية وما بعدها ـ غير أنها لم تحتو على ما يلفت أنظار المؤرخين فيدفعهم إلى تسجيلها وحمايتها .

ومنذ أواسط العصر الأموي يتجلى أن عددا من هذه الرسائل لم تقنع بما كانت عليه ، وأن كاتبيها سعوا إلى شيء آخر وراء الافهام ، سعوا إلى استثمار طاقاتهم اللغوية وإمتاع القارئين . وفرقت هذه الغاية بين الساعين إليها فريقين . أما الفريق الأول في الوجود فأدى به التأني الذي اعتمد عليه ، وإطالة التفكير فيما يكتب ، الى الايجاز القائم على الاحكام في التعبير .

يتضح ذلك في الرسالة التي اعتذر فيها بشر بن مروان لأخيه عبدالعزيز فقال[٢٤]:

---

(٢٢) العقد الفريد ٣ : ٩ .

(٢٣) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤ ، نهج البلاغة ٣ : ٢

(٢٤) الجمهرة ٢ : ٢٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك في قبوله مني الفضل . ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه . وبقية الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم . ولقد أحسن مسكين الدارمي حيث يقول :

أخاك ، أخاك ، إن منلا لا أخاله	كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه	وهل ينهض البازي بغير جناح »

فكل واحدة من جمله وراءها تفكير طويل ، وتعطي معنى جديدا ، مع شعور قوي بوجوب البعد عن الاطالة .

فإذا سرنا مع الزمن قليلا دون أن نفارق الرفاق الذين آثرنا البدء بهم ، وجدناهم يلتزمون ما التزموه من إيجاز وإحكام وإعمال فكر ، كما نرى في رسالة سالم بن عبدالله ـ أستاذ عبدالحميد الكاتب ـ إلى أحد اخوانه ، التي قال فيها [٢٥] : « أما بعد ، فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف اليّ منك ، جسيم الرجاء فيما بقي لي عندك ، قد جعل الله مستقبل رجائي منك عونا على شكرك ، وجعل ما سلف إليّ منك عونا على مؤتنف الرجاء فيك » .

وإن أبحت لنفسي الموازنة بين الرسالتين ، وجدنا ـ إضافة الى الايجاز والاحكام ـ الرسالة الأولى شاكلت بين ثلاثة ألفاظ ، فجاءت بها من صيغة واحدة هي أفاعل ، واعتمدت على بيتين من الشعر نسبتهما إلى قائلهما ، ووجدنا الرسالة الثانية اعتمدت على المشاكلة أيضا . ولكنها لم تشاكل بين ألفاظ بل بين جمل ، فجعلت الجملتين المتعاقبتين مبنيتين بناء واحدا . ففي الجملتين الأوليين تقابل جسيم عظيم ، والرجاء الشكر ، وفيما لما ، وبقي سلف ، ولي اليّ ، وعندك منك . فاستطاع أن يأتي بجسيم وعظيم ، من وزن واحد هو فعيل ، واعراب واحد هو النصب على المفعولية ، وموضع واحد من الجملة . ووفق في الرجاء والشكر في توحيد الاعراب والموضع وأفلت منه الوزن . وتمكن في بقية الكلمات من الموضع وعجز عن الاعراب والوزن ، وإن لم يبعد عن الأخير كثيرا . وتمكن من قدر من المشاكلة في الجملتين التاليتين غير أنه لم يبلغ فيهما المبلغ الذي وصل إليه في الاوليين .

وأما الفريق الثاني فتأخر في الوجود قليلا ، واتخذ من الاطالة مذهبا له ، ويتمثل واضحا في عقال بن شبة وعبدالحميد الكاتب . كتب الاول إلى خالد بن عبدالله القسري في شفاعة فقال [٢٦] : « إن الله انتجبك من جوهر كرم ، ومنبت شرف . وقسم لك خطرا شَهَرته العرب ، وتحدثت به الحاضرة والبادية . وأعان خطرك بقدرة مبسوطة ، ومنزلة ملحوظة . فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك ، ويسره ما خار الله لك . وليس كلهم أداله الزمان ، ولا ساعده الحظ . وأحق من تعطّف على أهل البيوتات ، وعادلهم بما يبقى له ذكره ، ويحسن به نشره : مثلك .

(٢٥) الجمهرة ٢ : ٣٦٩ .
(٢٦) الجمهرة ٢ : ٣٥٧ .

وقد وجهت اليك فلانا ، وهو من دِنْية قرابتي ، وذوي الهيئة من أسرتي ، وعَرَف معروفك ، وأحببت أن تُلبسه نعمتك ، وتصرفه إليّ وقد أودعتني وإياه ما تجده باقيا على النشر ، جميلا في الغِب » .

لم يعط كاتب هذه الرسالة كل فكرة جملة واحدة بل تترادف الجمل المتعاقبة أو تتقارب حتى تكاد تترادف . ثم أعقب كثيرا من جمله بما يرادف الجزء الأخير منها ولم يكتف بالمرادفة وحدها أحيانا فشاكل بينهما أيضا ، كما في جوهر كرم ومنبت شرف ، وفي قدرة مبسوطة ومنزلة محفوظة . وقد وفر هذا العمل للرسالة قدرا ملحوظا من التنغيم .

ووصل تيار الاطناب في الرسائل الاخوانية إلى قمته الأولى في رسالة عبدالحميد بن يحيى الكاتب في وصف الاخاء التي استهلها بقوله [٢٧] : « فان أولى ما اعتزم عليه ذوو الاخاء ، وتواصل عليه أهل المودات ، ما دعا أسبابه صدق التقوى ، وبنيت دعائمه على أساس البر ، ثم أنهد البناء حَريز التواصل ، وشيده مستعذب العشرة فادَّعم قويا ، وصفا مونقا ، وأخلصته المقة منعطفة ، وسكنت به القلوب أنيسة ، وُسمت من مواصلته الهمم مستعلية ، عن كل زائـغ معتاق ، ومخوف عارض » .

وعندما ننظر في هذه الرسالة نجد المشاكلة تصل إلى ذروتها الأموية ، فالجمل المتعاقبة تبني ـ ما أمكن ـ بنـاء واحدا ، تقابل كل كلمة في الجملة الأولى أختا لها في الجملة الثانية ، تناظرها في الموقع ، وفي الموقع الاعرابي كثيرا ، وفي الوزن أحيانا ، يقول : « كان سرورهم باعتلاقه وابتهاجهم بوجدانه ، وانماؤ هم صلته ، وبذلهم رعايته ، وحياطتهم محموده . . لا يدخل مستحقها سآمةُ ملال ، ولا كهامة مهنة ، ولا تثبيط ونية ، ولا ضعف خور ، لنزول بائقة ، أو طروق طارقة ، من عوارض الأقدار ، وحوادث الزمان . . . فتلق ما وصفت لك بقلب : فَهِم عَقول ذي ميزة يقظان ، وذهن جامع ذي ثقافة راع ، أحضرك الله عصمة التـوفيق ، وسددك (الله) لاصـابة الـرشد ، ومكن لـك صدق العزيمة » . فانظر كيف وصف كلا من القلب والذهن بأربع صفات ، وكيف جعل ثلاثا منها مفردة ، وواحدة ـ هي الثالثة في كل موقع ـ مؤلفة من مضاف (ذي) ومضاف اليه . ولا تبدو المشاكلة فيما جئت به من أمثلة بل في الرسالة كلها ، كما نستطيع أن نلمح في الأمثلة القادمة .

وأكثر الكاتب من الألفاظ التي تقع موقعا نحويا معينا ، أو تتَّخذ من بناء صرفي واحد . وأكثر الألفاظ التي تنتمي إلى الفئة النحوية ورودا هي الأحوال . يبدو مثال ذلك في شاهدي الأول بدءا من (ادعم قويا) إلى (مستعلية) ، وفي قوله أيضا : « كشف لهم عن نفسه مظهرا أعلامه ، مبديا دفينته ، طارحا قناع سره ، معلنا مكنون ضميره . . . مواسيا في إزمها ، متورطا غمرات قُحمها ، متدرعا هائل بوائقها ، مستلحما نواظر مقاطعها » .

وأكثر أيضا من المفعول لأجله ، كما يتجلى في قوله : « يحتز مربوب المقة : ضنا بما استعذبوا من محمود وثائقه ، وازديادا فيما تمطقوا به من حلاوة جناه . . . وبث في الحقب من المكارم : قياما لهم بالنصرة ، وحياطا للمودة ، وترغيبا في العشرة » .

---

(٢٧) الجمهرة ٢ : ٣٧٢

ويلتقي الانتماء النحوي والصرفي في صيغ التفضيل التي أكثر منها متلوة بالمضاف إليه ، مثل قوله : « فكان أكهف لجأ ، وأحزّ حصن ، وأحصف جُنة ، وأبقى ذخيرة وأعظم فائدة ، وأشرف كنز ، وأفخر صنيعة ، وآنق منظر ، وأينع زهرة » .

فإن ملّ الكاتب هذا التعبير عدل عنه إلى التفضيل متلوا بالتمييز أو المفعول المطلق ، كما خرج من النص السابق إلى قوله : « أكثر الأشياء ريعا ، وأنماها وصلا ، وأمدها سببا ، وأقواها أيدا ، وأحلاها ذوقا ، وأدعمها ثباتا ، وأرساها ركنا » . فجاء بهما في هذا السياق مجتمعين ، وفرق بينهما في سياقات أخرى ، فأتى بالتعبير الأول وحده أو الثاني وحده .

وينتمي إلى الفئة الصرفية أسماء الفاعلين والمفعولين التي تكثر عنده فتجذب الأنظار كما يبين في النصوص التي أوردتها .

وجاءت في الرسالة مقابلة خفيفة في قوله : « فأنا مصيخ السمع للفظه ، عَقِل العقل عن سوى أمره ، محتضر الذهن في تدبيرهم ، ذهل القلب عن تفنين القول . . » .

وقد منحت هذه الأمور التي راعاها عبدالحميد في بناء عبارته كتابته تنغيما وافرا ، يجذب الأسماع ، ويغزو القلوب ، ويشيع المتعة ، كما أبرزها قادرة على التأني والغوص وراء المعاني ، قادرة على التروي والبحث عن الطاقات الذاتية للغة ، قادرة على التعبير التصويري للأفكار أحيانا قدرتها على التعبير المباشر .

وأقسم الرسائل الدينية قسمين متمايزين : أسمي أولهما الرسائل الوعظية ، والثاني الرسائل الجدلية . وأريد بالقسم الأول ما أرسله رجال الدين والوعاظ والزهاد الى الخلفاء والأمراء ـ والأصدقاء أحيانا ـ لوعظهم .

وتختلف الرسائل الوعظية عن بقية الرسائل اختلافا مبدئيا . فهي تصدر عن عاطفة دينية لا تريد الافهام أو الاخبار فحسب ، وإنما تريد أن تدفع المرسل إليه إلى العمل بما فيها من مواعظ . ولذلك يطلب منها أن تؤثر في قارئها ، وتغريه أو تدفعه إلى تغيير وجهة نظره في الحياة ، والقيام بأعمال لم يعتد أن يقوم بها من قبل . ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنا من عاطفته الدينية الجياشة ، لتثير شعور القراء . وما تستطيع الألفاظ جميعا أن تحمل هذه العواطف ، وتؤديها الأداء الجميل . ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه وجمله وتعبيره كله . وليس ذلك الا الفن على تفاوت درجاته . ومن ثم يمكن القول بأن الرسائل الوعظية كانت منذ نشأتها أقرب من غيرها الى النمط الفني ، ثم كانت أسرع الأنواع دلوفا الى مملكة الفن .

وقد وصل الينا من هذه الرسائل في عصرنا أكثر مما وصل من الرسائل الأخوانية ، على حين لا تجذب الرسائل الأخوانية ـ حين تجذب ـ غير أنظار الأدباء والمؤرخين . والكثرة الغامرة من الرسائل التي وصلت إلينا أنتجها عهد عمر بن عبدالعزيز الذي لم يزد على السنتين ونصف السنة ، وكتب الحسن البصري ـ تلك الشخصية الدينية الرائعة ، التي كانت وما زالت مثالا للورع وحرية الرأي ـ الكثير منها .

واذا أمعنا النظر في هذه الرسائل الوعظية وجدناها تتحلى بما يأتي من سمات :

لعل أهم سمة تشيع فيها فتغلب عليها توازن الجمل ، أعني بذلك أن يسوي الكاتب بين أطوال جمله أو يقارب ، فيصنعها ذات أوزان متقاربة ، مما يجعلها تصدر تنغيما ملحوظا . أمثل لذلك بقول عمر بن عبدالعزيز في رسالة إلى أحد أصدقائه (٢٨) : « يا أخي : إنك قد قطعت عُظْم السفر ، وبقى أقله . . . وإياك أن تغرك الدنيا ، فإن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ـ يا أخي : إن أجلك قد دنا ، فكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك » .

كذلك يشيع فيها الازدواج الآتي من توازن الجمل وإنهائها بكلمات من وزن واحد أو متقارب . فإن ترك الكاتب الازدواج فإنما يتركه إلى السجع في كثير من الأحيان ، مثل قول عمر بن عبدالعزيز في رسالته إلى أبي بكر بن حزم والى المدينة (٢٩) : « ان الطالبين الذين أنجحوا ، والتجار الذين ربحوا ، هم الذين اشتروا الباقي الذي يدوم بالفاني المذموم ، فاغتبطوا ببيعهم ، وأحمدوا عاقبة أمرهم . فالله الله وبدنك صحيح ، وقلبك مريح ، قبل أن تنقضي أيامك ، وينزل بك حمامك ، فان العيش الذي أنت فيه يتقلص ظله ، ويفارقه أهله . فالسعيد الموفق من أكل في عاجله قصدا ، وقدم ليوم فقره ذخرا ، وخرج من الدنيا محمودا ، قد انقطع عنه علاج أمورها ، وصار الى الجنة وسرورها » .

ويشيع فيها الاقتباس الصريح من القرآن ، كما نرى في رسالة غيلان بن مسلم الدمشقي لعمر بن عبدالعزيز (٣٠) : « وربما نجت الأمة بالامام ، وربما هلكت بالامام ، فانظر أي الامامين أنت . فإنه تعالى يقول : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى ، ومن أتبعه شريكان . وأما الآخر ، فقد قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا يُنصَرون) ، لن تجد داعيا يقول : تعالوا الى النار . إذن لا يتبعه أحد . لكن الدعاة الى النار هم الدعاة إلى معاصي الله » .

فان لم يبدُ الاقتباس الصريح بدا التضمين اللطيف مثل قول الحسن البصري في رسالته لعمر بن عبدالعزيز (٣١) : « واعلم ـ يا أمير المؤمنين ـ أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره فريدا وحيدا . فتزود له ما يصحبك (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه) . واذكر ـ يا أمير المؤمنين ـ (إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور) . فالأسرار ظاهرة ، والكتاب (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) » .

ويشيع فيها تكرار ألفاظ معينة ، يحملها الكاتب دفقات شعورية جياشة ، تستثير مشاعر القراء ، وتهيج خواطرهم ، وتجعلهم قريبين من قبول ما تأمر به الرسالة وتنفيذه ، كما نرى في الرسالة التي أرسلها الحسن البصري الى عمر بن عبدالعزيز يصف فيها الامام العادل (٣٢) : « والامام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالراعي الشفيق على إبله ،

---

(٢٨) الجمهرة ٢ : ٣٠٥
(٢٩) الجمهرة ٢ : ٢٦٥
(٣٠) الجمهرة ٢ : ٣٣٦
(٣١) الجمهرة ٢ : ٣٢٥
(٣٢) الجمهرة ٢ : ٣٢٤

الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة . . . والامام العدل - يا أمير المؤمنين - كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا . . . والامام العدل - يا أمير المؤمنين - كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرْها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا . . . والامام العدل - يا أمير المؤمنين - وصي اليتامى ، وخازن المساكين . . . وهذا التكرار لازمة من لوازم الوعظ . ولذلك لا نراه في الرسائل وحدها بل نراه في الأحاديث الشفاهية مثل قول الحسن البصري لعمر بن هبيرة والي العراق عندما سأله : أيطيع أوامر الخليفة ويعصى الله (٣٣) ؟ : « يا عمر بن هبيرة : يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى ، فظ ، غليظ ، لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمر بن هبيرة : إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبدالملك (الخليفة) ولا يعصمك يزيد بن عبدالملك من الله عز وجل . يا عمر بن هبيرة : لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبدالملك . . . يا عمر بن هبيرة . . »

وأدلُّ من هذا سورة لقمان من القرآن الكريم ، فقد تكررت فيها عبارة (يا بني) في مقام النصح والارشاد تكررا له دلالته التي لا تخفى .

ونجد في الرسائل الطويلة خاصة القصص الوعظية التي يبتكرها خيال الوعاظ فيصورون ما يريدون التعبير عنه من أفكار في شكل قصص واقعية ليكسبوا المستمعين ، كما نرى في رسالة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب الى عمر بن عبدالعزيز (٣٤) : « إن استطعت ألا تُخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل . فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ، وأحيوا ما أحيوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى وُلد في ذلك رجال ونشئوا فيه ، وظنوا أنها السنة ، فسدوا على الناس أبواب الرخاء . فلم يسدوا منها بابا إلا فتح الله عليهم باب بلاء . . . فإنهم قد عاينوا هول المطلع ، وعالجوا نزع الموت الذي كانوا منه يفرون ، فانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها ، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقطع لذاتها ، واندقت رقابهم في التراب غير موسدين ، بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم . فصاروا جيفا في بطون الأراضي تحت مهادها . والله ، لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى بريحهم ، بعد إنفاق مالا يحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب » .

ويشيع في الرسائل الوعظية الطباق والمقابلة ، يقول الحسن البصري في رسالة له إلى عمر بن عبدالعزيز (٣٥) : « واعلم - يا أمير المؤمنين - أن الصبر - وإن أذاقك تعجيل مرارته - فلنِعْم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى - وإن أذاقك طعم حلاوته - فبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته » .

●●●

وقد عثرت على أربع رسائل فقط من النوع الثاني الذي سميته الرسائل الجدلية ، وكلها تتناول مشكلة ارادة البشرية أو ما عرف في علم الكلام باسم القدر . وتدافع ثلاث منها عن حرية ارادة الانسان ، وتقيد الرابعة من هذه الحرية بعض التقييد .

---

(٣٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢ : ١٤٩

(٣٤) الجمهرة ٢ : ٣٢٢

(٣٥) الجمهرة ٢ : ٣٣١

وأقدم هذه الرسائل تنسب الى الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويقال إنه أرسلها الى أهل البصرة ، وقال فيها [٣٦] : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر . إن الله لا يطاع استكراها ، ولا يعصى لغلبة ، لأنه المليك لما ملّكهم والقادر على ما أقدرهم عليه . فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا . وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا . فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي اجبرهم على ذلك . فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب . ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب . ولو أهملهم لكان عجزا في القدرة . ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم . فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم » .

ويرى الناظر في هذه الرسالة أنها توجه همها الأكبر إلى إقامة الدليل العقلي على حرية الارادة البشرية مع الايمان بقضاء الله وقدره ، دون كبير التفات إلى الرأي المخالف ، ومحاولة تفنيده . ولذلك تختفي فيها السمات الجدلية بعض الاختفاء وتظهر بعض السمات الوعظية شيئا من الظهور . فنجد في عبارتها إحكاما ، وفي الفاظها انتقاء ، وفي أسلوبها سعيا وراء التجويد يصل إلى قليل من السجع الخفيف .

وأما الرسالة الثانية فتنسب إلى عبدالله بن عباس ، ويقال إنه أرسلها إلى من يقولون بأن الانسان مجبر من أهل الشام ، وقال فيها [٣٧] : « أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون ؟ ، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون ، يا أبناء سلف المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخزان مساجد الفاسقين ، وعمار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مفترٍ على الله يحمل اجرامه عليه ، وينسبها علانية إليه ؟ . . »

ويرى قارىء هذه الرسالة ـ منذ النظرة الاولى ـ ذلك السجع الغالب عليها ، الذي قد يخلي مكانه للازدواج . ويرى فيها الجمل متوازنة توازنا موسيقيا سهله الترادف الذي اعتمدت عليه . ويرى الرسالة خالية من الجدل بالرأي ، وإنما هي سب وتقبيح لأعمالهم دون محاولة لاقناعهم ببطلانها .

وأما الرسالة الثالثة فمنسوبة إلى الحسن البصري ـ أستاذ واصل بن عطاء رأس المعتزلة القائلين بحرية الارادة ـ ويدافع فيها عن هذه الحرية . وقد استهل الحسن رسالته بإبانة موقف الصحابة من المشكلة ، وامتناعهم عن الخوض فيها ، واضطراره هو إلى ذلك الحديث بسبب خوض الناس وإنكارهم القدر ، قال [٣٨] : « وقد أدركنا السلف الذين قاموا لأمر الله ، واستنوا بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يبطلوا حقا ، ولا ألحقوا بالرب تعالى إلا ما ألحق بنفسه . . . ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد . وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له . . ».

ثم أخذ الحسن يفند أقوال المجبرة بالآيات القرآنية فقال : « فافهم ـ أيها الأمير ـ ما أقوله ، فإن ما ينهى الله عنه

---

(٣٦) الجمهرة ٢ : ٢٧

(٣٧) الجمهرة ٢ : ٢٨

(٣٨) الجمهرة ٣ : ٢٣٣

فليس منه ، لأنه لا يرضى ما يسخطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : (ولا يرضى لعباده الكفر) فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضي عمن عمله . . .

ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدم حمد لما عمل ، ولا على متأخر لوم ، ولقال تعالى : (جزاء بما عملت أيديهم) ولم يقل (جزاء بما كانوا يعملون) . .

إن أهل الجهل قالوا : إن الله يضل من يشاه ويهدي من يشاء . ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها ، لتبين لهم أن الله تعالى لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر لقوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) أي يحكم بضلالهم ، وقال : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، (وما يضل به إلا الفاسقين) . . »

فلا سب ولا شتم في الرسالة غير تسميته للمخالفين بأهل الجهل والمخطئين والمخالفين لكتاب الله ، ولكن هذا كله لا يعادل ما جاء في رسالة ابن عباس . وإنما نجد فيها أسلوبا جدليا بسيطا ، يعتمد على البراهين المأخوذة من الآيات القرآنية .

وأما الرسالة الرابعة فتنسب إلى عمر بن عبدالعزيز وتبتعد بعض الابتعاد عن الرسائل السابقة في تخفيفها القول بحرية الارادة . وقد أرسلها إلى جماعة كذبوا بالقدر فقال لهم (٣٩) : « فإنكم كتبتم إليّ بما كنتم تستترون منه قبل اليوم ، في رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر . . . »

ثم يأخذ في مناقشتهم مبتعدا عن الشتم ومستعينا بالأدلة القرآنية فيقول : « وإنكم ذكرتم أنه بلغكم أني أقول : (إن الله قد علم ما العباد عاملون ، وإلام هم صائرون) فأنكرتم ذلك عليّ ، وقلتم : (إنه ليس يكون ذلك من الله في علم ، حتى يكون ذاك من الخلق) . فكيف ذلك كما قلتم ، والله تعالى يقول : (انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون) يعني عائدين في الكفر . وقال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وانهم لكاذبون) .

ويناقشهم بالادلة العقلية في قوله : « وزعمتم بجهلكم أن علم الله تعالى ليس بالذي يضطر العباد الى ما عملوا من معصيته ، ولا بالذي صدهم عما تركوه من طاعته ، ولكن بزعمكم (كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته ، كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها) ، فجعلتم علم الله لغوا ، تقولون : ولو شاء العبد لعمل بطاعة الله ، ان كان في علم الله أنه غير عامل بها . ولو شاء ترك معصيته ، وان كان في علم الله أنه غير تارك لها ، فأنتم اذا شئتم أصبتموه ، وكان علما . واذا شئتم رددتموه ، وكان جهلا . وان شئتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس في علم الله ، وقطعتم به علم الله » .

ويستنبط الأدلة من الأخبار والآثار فيقول : « ان الله لم يجعل فضله ورحمته هَمَلا بغير قَسْم منه ولا اختيار ، ولم يبعث رسله بابطال ما كان في سابق علمه . . . فسميتم نفاذ علم الله في الخلق حيفا ، وقد جاء الخبر (ان الله خلق آدم ، فنثر ذريته في يده ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

(٣٩) الجمهرة ٢ : ٣٠٩ حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦

ويتبين لنا من هذا أن رسالة ابن عباس انفردت بالاعتماد على الشتم ، ولجأت بقية الرسائل إلى الجدل . فأعتمدت رسالة الحسن بن علي الأدلة العقلية ، ورسالة الحسن البصرى على الأدلة القرآنية . أما رسالة عمر بن عبد العزيز فتمثل قمة الجدل في العصر الأموى ، إذ توسع رقعة الأدلة فمن قرآنية إلى عقلية إلى أخبارية . ويبدو جهد التأنى والتحبير في رسالتي الحسنين أكثر مما يبدو في رسالة عمر . وتنفرد رسالة ابن عباس بالصنعة . لذلك كله فانني أميل إلى الشك في الرسالة الأخيرة ، وأشم منها رائحة سياسية مذهبية ، تناصر الشيعة ، وتهاجم الأمويين .

●●●

وقد منحنا العصر الأموى كثيرا من الرسائل الرسمية ، التي تتناول كل شئون الدولة في السلم والحرب ، وعند استتباب الأمن وانتشار القلاقل .

وإذا أمكن لنا أن ندعي أن رسائل العصور السابقة كانت بعيدة كل البعد عن الفن ، فاننا لا نستطيع أن نزعم ذلك عن رسائل هذا العصر ، لأنها تلقفت ما حدث في أواخر عصر الراشدين من تطور ، وصقلته ونمته ، فكانت منذ مطلع العصر في طريقها إلى الفن فالذروة الفنية الأولى في آخر العصر ، غير أنها لم تسلك جميعها دربا واحدا ، بل تشعبت بها المسالك الفرعية نحو الغاية الفنية ، وارتاد بعضها أكثر من مسلك .

وأود أن أبدأ بالمسلك الذى أخذت رسائل عصر الراشدين تسير فيه من قبل ، أعنى به الأسلوب التصويرى ، المعتمد على التجسيد والتشخيص والرمز : فإنه يتجلى منذ عهد مبكر . قال يزيد بن معاوية في رسالته إلى أهل المدينة يتوعدهم :[٤٠] « وانى ـ والله ـ قد لبستكم فأخلقتكم ، ورفعتكم على رأسي ، ثم على عينى ، ثم على فمى ، ثم على بطنى ، وأيم الله ، لئن وضعتكم تحت قدمى لأطأنكم وطأة أقل بها عددكم ، وأترككم بها أحاديث ، تنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود » . فقد صور فيها إكرامه لهم ، وسعيهم فيما يحط من قدرهم عنده الى أن بلغوا أدنى درجة ، ولم يبق إلا أن يسحقهم سحقا فلا يبقى منهم باقية .

ولم تسر رسالة يزيد وحدها في هذا المسلك بل تابعها فيه عدد من الرسائل مثل رسالة الحجاج والى العراق قبيل وفاته إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك التى قال فيها :[٤١] « فقد كنت أرعى غنمك ، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه . فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعى كل ممزق » .

ولكن المسلك الجديد حقا في هذا العصر ، والذى سارت فيه أعداد تفوق غيرها من الرسائل هو الاطالة . فالعربي في عصوره الأولى كان شغوفا بالايجاز ، غير أنه في أواخر عصر الراشدين أطال رسائله التى ناقشت فيها الفرق بعضها بعضا . وعلى الرغم من ذلك لم يظهر الاطناب الحق إلا في عصر الأمويين ، حتى صرح الطبرى[٤٢] بأن عمرو بن نافع ـ كاتب عبيد الله بن زياد ـ أول من أطال الكتب . ولم تقف هذه الظاهرة عند حد بل أخذت في النمو حتى بلغت مبلغا بعيدا في أواخر العصر الأموى . فقيل إن عبد الحميد الكاتب كتب رسالة استوعبت مجاميع ضخمة من

---

(٤٠) الجمهرة ٢ : ٨٦

(٤١) الجمهرة٢ : ٢٩٢

(٤٢) التاريخ ٢ : ٢٧٠

الصحف .[٤٣] فاذا شككنا في هذا القول فلدينا رسالة عبد الحميد إلى ولى عهد مروان بن محمد ،[٤٤] التي يعلمه فيها نظم الحكم ، وتشغل خمسين صفحة من كتاب جمهرة رسائل العرب ، وذلك دليل كاف على الاطالة .

وقد فتحت لهم الاطالة الباب للعناية بصدور الرسائل ، وخاصة التحميدات . فقد اعتاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبدأ رسائله بتحميد قصير بسيط مثل قوله في رسالته الى أهل هجر[٤٥] : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد النبي الى أهل هجر ، سِلْم أنتم ، فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو . أما بعد ، فاني أوصيكم . . » . والتزمت الرسائل بعده هذا التحميد ، غير أنه بقي على بساطته هذه بل عبارته نفسها طيلة عصر الخلفاء الراشدين وسنين من العصر الأموي ، ثم شرع في التغير . فطال شيئا عند كاتب المهلب الذي قال :[٤٦] الحمد لله الكافي بالاسلام فقد ما سواه ، المعجل النقمة لمن بغاه ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه ، حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد . . » وازداد طولا واعتناء عند غيره من الكتاب .

ثم جاء عبد الحميد فجعله موضع عنايته الخاصة ، ووفر له كل القيم الفنية التي عرفتها كتابته ، فوصل به الى صورته التي عرفت عنه ، وخاصة تحميدات الفتوح ، حتى ظن بعض المؤرخين[٤٧] خطأ أنه أول من استعمله . قال عبد الحميد في أحد تحميداته : « الحمد لله العلي مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه ، وعز في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحكمه ، على ما يشاء من عزمه ، مبتدعا لها بانشائه اياها ، وقدرته عليها ، واستصغار عظيمها ، نافذا ارادته فيها ، لا تجري الا على تقديره ، ولا تنتهي الا الى تأجيله ، ولا تقع الا على سبق من حتمه . كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه ، لا معدل لها عنه ولاسبيل لها غيره ، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها الا هو ، فانه يقول في كتابه الصادق (وعنده مفتاح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) »

ونستبين في هذا التحميد خصائص اسلوب عبد الحميد من موازنة بين الجمل ، وازدواج ، وسجع ، ومشاكلة ، مما وفر له تنغيما لاتخطئه اذن ، اضافة الى الطول الواضح .

وبرز السجع فوضح في بعض الرسائل واختفى من بعضها ، كما تؤكد لنا الأمثلة السابقة ولكن يجدر بنا الوقوف الخاص في موطنين . الموطن الأول عند رسائل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، التي غالت في السجع ، واتسعت وراءه

---

(٤٣) سرح العيون لابن نباتة ١٢٨
(٤٤) الجمهرة ٢ : ٤٠٦
(٤٥) الجمهرة ٤ ١ . ذ
(٤٦) الجمهرة ٢ : ١٦٤
(٤٧) مروج الذهب للمسعودي ٣ : ١٧٨
(٤٨) الجمهرة ٢ : ٤٧٠

سعيا حثيثا ، حتى التزمته ، كما نرى في رسالته الى سليمان بن صرد بعد محاربته عبيد الله بن زياد ، قال : (٤٩) « فان الله أعظم لكم الأجر ، وحط عنكم الوزر ، بمفارقة القاسطين ، وجهاد المحلين . انكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عقبة ، ولم تخطوا خطوة الا رفع الله لكم درجة ، وكتب لكم بها حسنة . . »

وعلة هذا الالتزام نجدها عند المؤرخين الذين رووا أن المختار أراد أن يحيط نفسه بجو ديني خاص ، دفعه الى أن يحاكي الاسلوب القرآني حينا ، وأسلوب كهان الجاهلية حينا آخر .

والموطن الثاني الذي فشا فيه السجع عند عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . روى الدينوري (٥٠) أنه خرج على الحجاج ثم أمر كاتبه ابن القرية أن يكتب رسالة مسجعة يعرفه فيها سوء فعاله ، ويخلع فيها طاعته . فافتتح رسالته بقوله : « سلام على أهل طاعة الله وأوليائه ، الذين يحكمون بعدله ، ويوفون بعهده ، ويجاهدون في سبيله ، ويتورعون لذكره ، ولا يسفكون دما حراما ، ولا يعطلون للرب أحكاما ، ولا يدرسون له أعلاما ، ولا يتنكبون النهج ، ولا يبرمون السى ، ولا يسارعون في الغي ، ولا يدللون الفجرة ، ولا يتراضون الجورة ، بل يتمكنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الاساءة . أما بعد . . » فرد عليه الحجاج ردا مسجوعا .

فاذا صحت هاتان الرسالتان ـ اللتان أشك فيهما شكا قويا ـ قلنا ان السجع وجد المناخ المناسب له كل المناسبة في الاوساط الدينية خاصة عند الشيعة ، والأوساط الحربية وقت الانتصارات خاصة . فغلب على رسائلهم غلبة جلية ، ولم يفسح موضعه الا للازدواج .

وأخيرا انفرد يحيى بن يعمر العدواني ـ كاتب يزيد بن المهلب ـ بمسلك خاص لم يشاركه فيه غيره . فقد يمم نحو الاغراب ، فاعترف من الالفاظ النادرة التي لا تغرب علينا وحدنا بل غربت على معاصريه من الفصحاء . قيل انه كتب الى الحجاج ينبئه بأحد الفتوح التي حازها يزيد فقال (٥١) « انا لقينا العدو ، فقتلنا طائفة ، ولحقت طائفة بعرائرالأودية ، واهضام الغيطان . وبتنا بعرعرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » . فلما أتت الرسالة الى الحجاج أعجب بها ، وسأل عن كاتبها ثم استدعاه لمذاكرته .



وقد أثمر أدب المراسلات ، وخاصة المراسلات الرسمية ، أول مدرسةفنية في االنثر العربي ، هى مدرسة سالم مولى هشام ، التى نعرف من تلاميذها ابنه وختنه عبد الحميد بن يحيى . وقد تفوق عبد الحميد على أستاذه ، واستطاع أن ينتج أدبا فنيا رائعا ، حمل الخصائص الفكرية واللغوية التي بينتها ، وصبغته بالتنسيق المنطقي والتنغيم الموسيقى ، وتقدمت به الى غاية لم يبلغها نثر عربي قبله مما جعل الأدباء يقولون : « بدئت الكتابة بعبد الحميد . . » . . وهو قول لا

(٤٩) الجمهرة ٢ : ١٣٢
(٥٠) الأخبار الطوال ٣٢٣
(٥١) الجمهرة ٢ : ٢٠٣

يصح الا إذا فهمنا منه أن عبد الحميد استطاع أن يتمثل السمات الفنية التي تجلت في الكتابة قبله ، وكانت نتيجة تطور طويل ، ثم يحسن إبرازها في أدبه ، إلى جانب ما جاء به من ابتكاره من سمات .

●●●

وتبقى نظرة لا بد أن تلقى على فن أدبي خاص ، غير أنه من ثمار فن المراسلات ، أعنى فن التوقيعات فقد ألف الخلفاء والولاة أو كتابهم أن يردوا على بعض الرسائل التي تصل إليهم في جمل حاسمة ، امتازت بالايجاز الشديد ونالت إعجابا متزايدا على مر الزمن . وحملت الاسم الذى ذكرته ، يكتبونها على الرسائل نفسها .

وأقصر ما وجدت من التوقيعات التي عثرت عليها في العصر الأموى ذلك التوقيع الذى كتبه زياد بن أبيه إلى من تظلم إليه واقتنع بحقه ، وألفه من فعل وضميره إذ قال : (٥٢) « كُفِيت » . والحق أن توقيعاته بلغت الغاية في القصر ، (٥٣) مثل توقيعه في رسالة متظلم آخر : « أنا معك » ، وفي رسالة سارق : « القطع جزاؤك » .

وطال كثير من التوقيعات فتألف من جملتين ، مثل توقيع عبد الملك في رسالة الحجاج التي شكا فيها أهل العراق ، قال : (٥٤) « أبق لهم لحوما ، يعقدوا بها شحوما » ، وطال بعضها إلى ثلاث جمل ، مثل توقيع مروان بن محمد إلى ابن هبيرة : (٥٥) « الأمر مضطرب ، وأنت نائم ، وأنا ساهر » .

واستقى كاتبو التوقيعات عددا كبيرا منها من القرآن الكريم . كتب زياد بن أبيه الى سعيد بن العاص يخطب إحدى بناته ، فوقع على رسالته : (٥٦) « كلا إن الانسان ليطغي ، أن رآه استغنى » .

واستقوا عددا منها من الشعر . وقع عبد الملك بن مروان في رسالة من ابن الأشعث فقال : (٥٧)
« فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا ، وينوى من سفاهته كسرى »

وأخذوا بعضها من الأمثال . وقع معاوية بن أبي سفيان في رسالة من عبد الله بن عامر يسأله أن يهبه مالا بالطائف (٥٨) : « عش رجبا ترى عجبا »

---

(٥٢) الجمهرة ٢ : ٥٠١
(٥٣) الجمهرة ٢ : ٥٠٠ - ٠١
(٥٤) الجمهرة ٢ : ٤٩٣
(٥٥) الجمهرة ٢ : ٤٩٨
(٥٦) الجمهرة ٢ : ٤٩٢
(٥٧) الجمهرة ٢ : ٤٩٤
(٥٨) الجمهرة ٢ : ٤٩١

واعتمدوا في بعضها على التاريخ . وقع معاوية في رسالة ارسلها اليه عبد الله بن عامر ـ من بني حبيب بن عبد شمس ـ يعاتبه فيها (٥٩) : « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب فى الاسلام ، فأنت تراه » .

ووجدت توقيعا مأخوذا من الحديث الشريف . وقع زياد ابن أبيه في رسالة محبوس (٦٠) « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وأهم خاصة في التوقيعات القصر والايجاز كما رأينا . وعندما نتأمل فيما وصل الينا من توقيعات أموية نجد السمة التالية السجع ، مثل توقيع عبد الملك في رسالة من تظاهر له بالنصيحة :(٦١) : « ان كنت صادقا أثبناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت أقلناك » .

ويتجلى فيها توازن الجمل وتشاكلها ، مثل توقيع يزيد بن معاوية في رسالة مسلم بن زياد والي خراسان (٦٢) : « قليل العتاب يحكم مرائر الاسباب ، وكثيره يقطع أواخي الانتساب » .

كما يتجلى فيها الطباق والمقابلة أحيانا ، كما نرى في التوقيع السابق ، وفي توقيع هشام بن عبد الملك في رسالة أحد المتظلمين : (٦٣) « أتاك الغوث ان كنت صادقا ، وحل بك النكال ان كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » .



(٥٩) الجمهرة ٢ : ٤٩١
(٦٠) الجمهرة ٢ : ٥٠٢
(٦١) الجمهرة ٢ : ٤٩٣
(٦٢) الجمهرة ٢ : ٤٥٢
(٦٣) الجمهرة ٢ : ٤٩٧.

(المراجع)

أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ـ مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٧١ .

الجهشياري : الوزراء والكتاب ـ تحقيق الاستاذ مصطفى السقا بالاشتراك

الحسن البصري : رسالة القدر ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .

د . حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .

الدينوري : الأخبار الطوال ـ ليدن .

ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ طبع اوربا .

السيد عبدالحي بن عبدالكبير الحسني الكتاني : التراتيب الادارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الاسلامية في المدينة المنورة ـ طبع الرباط .

الطبري : تاريخه ـ طبع اوربا .

ابن عبدربه : العقد الفريد ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ابو الفرج : الأغاني ـ طبع دار الكتب المصرية .

القالي : الأمالي ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ـ طبع دار الكتب المصرية .

أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ـ طبع الخانجي .

***

أدب المراسلات في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ضاحي محمد شيحه
أستاذ الأدب الفرنسي المساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

نستطيع أن نقول في مستهل كلامنا ودون أن يجانبنا الصواب إن من تربع على عرش أدب المراسلات في الفترات التي ازدهر فيها خلال كل مراحل التاريخ ثلاثة أسماء عظيمة هي السياسي والخطيب الروماني « شيشرون » ، والأديبة الفرنسية « مدام دوسيفينييه » ، والفيلسوف الفرنسي « فولتير » ولم يـر هذا النوع من المكاتبات الأدبية رواجاً وازدهاراً أكثر مما رآه في القرن السابع عشر فقد أحس الأدباء بميل القراء والجمهور لهذا الأسلوب الأدبي فاستغلوه وتبنوه واتبعوه في اعمالهم لأنه كان يتميز بتمكين الكاتب من التطرق الى كافة الموضوعات التي يريدها وذلك بحرية تامة ، كما لاقى هذا الأسلوب رواجاً كبيراً أيضاً خلال القرن الثامن عشر .

وقبل أن نبدأ في دراسة أدب المراسلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو موضوع بحثنا نجد أن من الواجب علينا أن نميز بين نوعين من المراسلات : النوع الأول وهو المراسلات الشخصية التي تتمثل في الرسائل والخطابات التي بعث بها كاتب شهير الى أصدقائه ومعارفه وأحبائه وتناول فيها بقلمه كافة الموضوعات ، أما النوع الثاني من المراسلات فهو الأعمال الأدبية التي كتبت على صورة خطابات واصطلح على تسميتها الرسائل الروائية ، أو الرواية في صورة رسائل ، وهي عبارة عن خطابات متبادله بين شخصيات الرواية وكل شخصية لها أسلوبها المميز الذي أراده لها الكاتب ويتابع القارىء مسار أحداث الرواية من خلال هذه الخطابات .

ولقد كان الأدب الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاخراً بالأمثلة التي يمكن تصنيفها تحت أحد هذين النوعين . ولكن القرن السابع عشر يتميز بشيوع ووفرة النوع الأول أي المراسلات الشخصية فنجد أن

معظم الكتاب الكبار في هذا القرن قد تركوا وخلفوا للتراث الأدبي رسائل ترجع قيمتها الأدبية الى أننا نجد فيها الكاتب في صورة انسان بما يعتريه من مشاعر وأحاسيس وليس باعتباره كاتباً ومؤلفاً للقراء ، ونسوق على سبيل المثال رسائل الشاعر المسرحي « راسين » ، والشاعر الناقد « بوالو » ، والمؤرخ والمفكر « بوسوييه » . الاّ أننا نجد أن الغالبية العظمى من كتاب هذا النوع من الرسائل المتميزين بأسلوبهم كانوا من المنتمين الى طبقة المجتمع الراقي ولم يكونوا من المنتمين الى فئة الكتاب أو الأدباء بمعنى الكلمة بالاضافة الى أن معظمهم كانوا من النساء : مثل مدام « دي مونتوسيه » ابنة المركيزه « دي رومبوييه » صاحبة الصالون الأدبي الشهير ، ومدام « دي سابليه » ، ومدام « دي سكوديري » ، ومدام « دي لافايت » .

وترجع أهمية هذه المراسلات الشخصية الى ما فيها من رقة ومشاعر جميلة وذكاء بالاضافة الى الكثير من المعلومات الثمينة التي تحتويها عن بعض المواقف والأحداث والشخصيات والتي لا يمكن أن نجدها في أي موضوع آخر غيرها مما يجعلها بحق أداة مكملة لما ورد في كتب التاريخ والحضارة الانسانية .

بالطبع لن يسمح لنا حجم هذا المقال أن نتناول بالحديث المسهب كل كتاب الرسائل الشخصية ولكن دون أن نسبب احباطا للقاريء وبدون أن نبخس الموضوع حقه سنكتفي بالمعالجة المستفيضة لأعمال ثلاثة منهم اعتبرهم التاريخ الأدبي أمثلة يحتذى بها وهم :

« جيزدي بلزاك » ، و« فواتور » ، ومدام « دي سيفينييه » .

يعتبر « جيزدي بلزاك » أكبر مؤسس لفن النثر في القرن السابع عشر ، وتتميز فترة شبابه بالقيام بالعديد من الأسفار التي عاد منها ليعيش في شبه عزلة على أرضه المسماة باسم عائلة بلزاك والتي تقع على مسافة قريبة من مدينة انجوليم ، وهناك كرس كل وقته للمراسلات وعمل بجد ونشاط بالغ مما أهله للحصول على لقب كاتب مراسلات فرنسا الأكبر ، وهو اللقب الذي أطلقه عليه النقاد فيما بعد ويعود الفضل الى هذه الرسائل في تربع بلزاك على عرش الأدب خلال معظم القرن السابع عشر .

توالت اعتباراً من عام ١٦٢٤ طبعات رسائل بلزاك وقد تضمنت موضوعات متنوعة مثل السياسة والأدب وعلم الأخلاق وقد قال عنها الناقد الفرنسي الشهير « لانسون » انها « خاوية لأنها تتكون في أغلب الأحوال من أفكار معروفة أخذها بلزاك من أعمال القدماء أو أعمال آباء الكنيسة » (١) كما اعتبرها المعاصرون منذ ظهورها « بياناً بالنزعات العصرية » (٢) ويرجع السبب في ذلك الى أن هذه الرسائل كانت تعبر عن عدم الاكتراث بالقدماء فاستغل اعداء بلزاك هذه النقطة للومه على ثورته ضدهم .

---

(١) Gustave LANSON, Histoire de la Litteratur (+) Francaise, Paris, Hachette, 1953, p. 167.

(٢) Autoine ADAM, I age classique, t 1, (1624-1660), paris, Arthaud 1968, 367 p. 100.

ومن الواضح فعلاً أن بلزاك كان يمتدح « راكان » RACAN لأنه استطاع أن يبرهن « أن اللغتين اللاتينية واليونانية أصبحتا بغير فائدة في فرنسا » ، كما أنه ليس مضطراً لأن يتبع قوانينهم وأمثلتهم ، وكانت أفكار بلزاك الأساسية متفقة تماماً مع أفكار حزب العصريين . ومثلما فعل سانت أمان SAINT-AMANT[٣] و جودو GODEAU[٤] و أوجييه OGIER[٥] كان بلزاك يدافع أيضاً عن الفكرة القائلة بأن هدف العمل الفني هو المتعة ، ورفض أيضاً مثلهم فكرة التقليد وكذلك كان يلجأ الى العقل مثلهم ، العقل والتفكير وهو شيء واحد عند جميع الشعوب ، وهو الذي ينير بنفس النور العقول الكبيرة عندما يطلب منها أن تتكلم عن نفس الموضوعات [٦] .

أرسل بلزاك خطاباته الى كل كبار الشخصيات في عصره ولكن معظمها كانت مرسلة الى شابلان وكونراد اللذين كان باستطاعتهما أن يتذوقا وأن يساعدا الناس على تذوق أسلوبه . وقد أوجز المعاصرون وصف أسلوب بلزاك في كلمة واحدة هي اللباقة أي فن الحديث . وفي الواقع لم تكن رسائل بلزاك رسائل تلقائية أو مكتوبة على عجل ، بل كانت رسائل مدروسة بعناية وكل كلمة وردت بها تم انتقاؤ ها بعد جهد وتفكير عميق .

ويمكننا أن نقول ببساطة ان القيمة الحقيقية لرسائل بلزاك ترجع أساساً الى اسلوبه القوي والمؤثر الذي حاز اعجاب جيل الشباب في عصره واستحق نقد مؤ يدي إحياء الآداب الكلاسيكية وغيرهم ممن وصفهم بالمتحذلقين ويذهب بعض مؤ يدي بلزاك الى حد القول بأن فرنسا قد وضعت أسس علم البيان والبلاغة في عصره .

يعتبر فواتور VOITURE أستاذاً هو الآخر لفن المراسلات في القرن السابع عشر . وقد اكتسب شهرة أولاً لكونه استاذاً للشعر الرقيق الذي ساد فرنسا اعتباراً من عام ١٦٤٠ .

تعرف فواتور على المركيزه دورامبوييه في عام ١٦٢٥ ومنذ ذلك الوقت أقام في بيت المركيزة الشهيرة وأصبح شغله الشاغل هو تسلية المركيزه والترفيه عنها وعن أصدقائها الكثيرين الذين كانوا يجتمعون عندها في صالونها الأدبي . وفي الواقع ان فواتور كانت لديه مواهب أخرى كثيرة تؤ هله لأن يلعب دوراً أرفع من دور الأنيس المتواضع ، فقد كانت لديه معلومات كثيرة عن الأدب القديم والأدب الإيطالي والأدب الاسباني كما كانت لديه أيضاً فكرة كبيرة واضحة عن الروايات والأعمال الأدبية القديمة ولكنه على الرغم من ذلك كرس كل وقته وجهده للقيام بدور أنيس المركيزة واصدقائها وأبدع تماماً في القيام بهذا الدور .

كان فواتور موهوباً حقاً فقد كان شاعراً رقيقاً للغاية والأكثر من ذلك كاتباً عظيماً للمراسلات ولقد اختلف

---

(٣) سانت أمان شاعر فرنسي ولد في مدينة دوان عام ١٥٩٤ وتوفي عام ١٦٦١ .

(٤) جودو كان اسقف مدينة جراس وشاعر فرنسي من رواد صالون مدام (دي رامبوييه) .

(٥) أوجييه شاعر من رواد صالون مدام دي رامبوييه .

(٦) A. ADAM, op. cit. p. 101.

اسلوبه في كتابة الخطابات عن أسلوب بلزاك ولكنه اشترك معه في كتابتها لكي تقرأ على الملأ في المجتمعات الراقية والصالونات الأدبية وكان يرسل خطاباته الى شخصيات توليه برعايتها أو يرسلها الى أصدقاء له التقى بهم في بيت المركيزه دي رامبوييه ويقدر عدد هذه الرسائل بما يقرب المائتين ، وقد تم جمعها بعد وفاته بفضل ابن اخته بنشان .

ان رسائل فواتور تعيد الى الذاكرة نوع الرسائل المسمى برسائل الحياة الخاصة فهو في رسائله لا يأبه برأي الأجيال القادمة من بعده ، والأكثر من ذلك إنه لم يكن ينتظر من الرسائل أو من أسلوب المراسلات بصفة عامة تحقيق أي نجاح اجتماعي معين فقد حقق ذلك بالفعل بفضل موهبته وبراعته في القيام بدور الأنيس في بيت المركيزه ، ومن ناحية أخرى لم تكن له تطلعات أدبية وهذا ما يبدو غريباً بالنسبة لرجل عادي لا ينحدر من أصل نبيل .

لقد لاحظت الباحثة ميشيلين كوينان في مقالها المنشور في مجلة تاريخ الأدب الفرنسي تحت عنوان « الرسالة المربية لرقة الشعور : مثال فواتور » :

« اذا بحثنا في مجموعة مراسلاته عن أي تلميح عن الحياة الأدبية المعاصرة فلن نجد شيئا » (٧) .

لكن يجدر بنا قبل كل شيء أن نذكر أن فواتور كان يمقت الرسائل المعدة بعناية ودراسة والتي يبذل كاتبها فيها جهداً عظيماً في محاولة منه لاتقان اسلوبها ، فنجده يكتب الى الكونت دافو معبراً عن رأيه عن هذا الموضوع بوضوح :

« باسم الرب ، أكتب الى » بدون اتقان ، لكي تكتب لي بسعادة ، وكلمني في رسائلك بنفس البساطة مثلما تفعل عندما تكلمني وأنت في حجرتك (. . . . .) » (٨) .

لقد كان فواتور يكتب رسائله وفقاً للأحداث التي مرت به وشغلت فكره وملأت حياته الخاصة ووجدانه وحياة عائلته بالتبني في منزل المركيزه دورامبوييه وهي باختصار الفراق ، والأحزان ، والأفراح المشتركة والتهاني أو المواساة التي كانت تفرضها عليه صداقاته العديدة . كما تمتاز أيضاً مجموعة رسائل فواتور بأن كاتبها كان دائماً يتخيل شخصية من يكتب اليه رسالته ، كما أنه نجح في جعل هذه الشخصية الفريدة بالنسبة له شخصية حية ماثلة دائماً بالنسبة لنا ويمكن أن نحس بها من خلال كتاباته . ومن بين الشخصيات التي أرسل اليها رسائله العديد من النساء ذوات المكانة المرموقة في المجتمع نذكر منهن على سبيل المثال أخته مدام دي كمبانيول التي كان دائماً يحدثها عن تربية ابنتها ، وكذلك مدام دي لوج التي كان يغدق عليها المديح والثناء والاطراء المبالغ فيه . كما كان فواتور على اتصال مستمر صيفاً وشتاءً بمجموعة من النساء المرموقات التي كن يمثلن أكثر نساء فرنسا جمالاً وذكاءً وحسباً ونسباً وشرفاً .

---

(٧) Micheline CUENIN, "La Lettre educatrice de la Sensibilite : Lexemple de Voiture" in Revue d His-toire littere de la france, nov. dec 1978, p. 922 a 933, p. 325,

(٨) Voiture, Lettres Editions originales 1650 p. 514.

وتعتبر مراسلات فواتور كما لاحظت الباحثة ميشلين كيونان « المجال المفضل للصداقة » (٩) وكان يبدو جلياً من مراسلاته أنه يعرف جيداً شخصية وطباع من يرسل اليه وهذا ما جعل منه استاذاً في المواساة والمديح على السواء ، ومن ثم نراه يخاطب كل شخص بالأسلوب الذي يعلم أنه يتفق مع طباعه . فعلى سبيل المثال كان فواتور مغرماً بسيدة تدعى جولي دينجان ولكنه كان يعلم أنه سوف يخدش حياءها اذا اعترف لها بحبه صراحة ولهذا كان يلجأ الى اتباع أساليب أخرى للخروج من حالة التمزق التي ألمت به فقد كان من ناحية يشعر بالتعاسة والوحدة وهو بعيد عنها ومن ناحية أخرى كان يعلم أن من المحال أن يعترف لها بسبب تعاسته بصراحة لأن السيدة التي كان يراسلها لا تريد أن يصارحها بمشاعره وبما يجيش في صدره ويخفق له قلبه فماذا يفعل للخروج من هذه الورطة ؟ . . . كان يكبت عواطفه ويلجأ الى التهكم والمزاح .

وتقول ميشلين كوينان في ذلك : « كان لزاماً عليه أحياناً عندما كان محرماً عليه أن يعبر عن مشاعره التي تفيض بالحب أن يلجأ الى أسلوب المزاح وأن يتهكم على نفسه . ولهذا كان تهكم فواتور تهكماً غير قاس لأنه كان موجهاً الى نفسه أولاً » (١٠) .

ومهما يكن من شيء فان مراسلات فواتور الشخصية لم تخرج كل عن أن تكون مجرد مراسلات رجل مفعم بالحيوية بدرجة كبيرة ومتمكن للغاية من لغته ولديه قدرات هائلة على التفكير وابداع الاسلوب .

أما الاسم الثالث الذي لمع وجذب الاضواء في عالم أدب المراسلات في القرن السابع عشر فهو اسم مدام دي سيفينييه Madame de SEUIGNE فقد حظيت رسائلها بشهرة كبيرة وأصبحت منذ البداية مثلا يحتذى به وقدوة يقتدى بها .

لكن دعنا أولا نسأل من هي مدام دي سيفينييه وما هي الاحداث التي مرت بها وأدت الى أن تصبح واحدة من أعظم نساء عصرها شهرة في عالم الادب ؟

للاجابة على هذا السؤال نقول إنها ماري دو رابوتان شنتال التي أصبحت بعد زواجها المركيزه دو سيفينييه ، وكانت تنتمي من جهة أبيها الى أكبر وأعرق العائلات في مقاطعة بورجوني . وولدت ماري دو رابوتان في باريس يوم ٥ فبراير ١٦٢٦ في القصر الذي كانت تقطنه عائلة كولونج ، وهي عائلة أمها وبه قضت كل سنوات طفولتها وعندما بلغ عمرها ثمانية عشر شهرا مات أبوها ثم ماتت أمها وهي في السابعة من عمرها فكفلها جدها حتى بلغت العاشرة ولما وافته المنية تولى تربيتها خالها فيليب دو كولونج فعاشت الفتاه في جو مليء بالحياة والمرح معه وذاقت كل أنواع التدليل والسعادة .

---

(٩) M. CUENIN, p p cit, p. 326.

(١٠) Ibid. p. 931.

تربت ماري تربية دينية في طفولتها واهتم أهلها اهتماما خاصا بتعليمها أصول المعيشة في المجتمع الراقي مع عدم اهمال الناحية الفكرية في نفس الوقت وكان ذلك على أيدي استاذين مشهورين ، فقد كان شابلان ثم مناج استاذيها المفضلين ، وقد أكسبها الاول حب الشعر والادب وتذوقهما وعلمها الثاني اللغة الايطالية واللاتينية وقليلا من الاسبانية .

عندما بلغت ماري الثامنة عشرة من عمرها تم زواجها من المركيز هنري دو سيفينييه الذي كان يعرف بطبعه الهوائي المتقلب ، ولم تستطع زوجته الشابة على الرغم من محاسنها المتعدده أن تحتفظ به بجانبها . وبعد سنتين من الزواج أنجبت مدام دو سيفينييه ابنة اسمتها فرانسواز ـ مارجريت التي أصبحت منذ اليوم الاول لولادتها معبودة والدتها وفي نفس الوقت سبب قلقها وتعاستها . ثم رزقت مدام دو سيفينييه بعد ذلك بمولود اسمته شارل ، وفي عام ١٦٥١ قتل زوجها في مبارزة مع أحد النبلاء وقد تألمت زوجته كثيرا لوفاته على الرغم من الحياة المضطربة وغير المستقرة التي كانت تحياها معه .

بعد هذا الحادث بدأت المركيزة الارملة في توزيع وقتها بين الاقامة في باريس حيث كان صالونها يحظى بشهرة كبيرة ويؤمه كثير من الشخصيات العظيمة ، وبين قصرها المسمى « لي روشيه » أي الصخور حيث كانت تعيش حياة رغدة ولكن قليلة التكاليف .

وعندما كبرت ابنتها تم تقديمها الى البلاط الملكي وكانت تتمتع بنفس صفات أمها من الحسن والذكاء ، ورغم ذلك تأخرت في زواجها حتى عام ١٦٦٩ عندما بلغ عمرها الثالث والعشرين عاما وكان زوجها هو الكونت دي جرينيان الذي كان قد تجاوز الاربعين من عمره وتوفيت زوجته الاولى تاركة له ابنتين كبيرتين . لم يكن الكونت هو الزوج المثالي للابنة التعسة فقد كان ايضا قبيح الشكل ومثقلا بالديون ، ومما زاد في تعاسة الام انها كانت تتمنى أن يحصل زوج ابنتها على وظيفة في البلاط الملكي حتى تتمكن من ابقاء ابنتها بجوارها ولكن لسوء الحظ عين الكونت دي جرينيان بعد شهر من الزواج في وظيفة بمقاطعة البروفانس . فتحايلت مدام دو سيفينييه بشتى الوسائل على ابقاء ابنتها بجوارها والعمل على تأخير سفرها لكي تلحق بزوجها ، فتحججت تارة بمرض ابنتها وتحججت تارة أخرى بحملها وخوفها على جنينها . ولم تسافر مدام دو جرينيان لتلحق بزوجها الّا في شهر فبراير من عام ١٦٧١ . وكان لهذا الحدث الفضل في خلق احدى روائع الادب الفرنسي ليس في القرن السابع عشر فحسب ولكن على مر العصور ! ونعني بذلك رسائل مدام دو سيفينييه الى ابنتها ، اذ لم تكد الابنة تفارق أمها حتى بدأت الاخيرة تعاني من الوحدة وتقاسي من آلام الفراق فبدأت في الكتابة الى ابنتها وفلذة كبدها تبثها الشوق والحنين « كلما بحثت عن ابنتي لا أجدها ، وكل خطوة تخطوها تبعدها عني » . . . وهكذا تتضح لنا من أولى رسائلها الفكرة الاساسية التي سوف تسود كل مراسلاتها وسوف تشغل بالها قرابة ربع قرن الا وهي فكرة الشوق والحنين للابنة العزيزة الغائبة . ولكي تتغلب الام على شعور الملل والحزن الناتج عن الفراق ، ولكي تبقى قريبة من ابنتها رغم المسافة التي تفصل بينهما ولكي ترفه عنها أيضا في غربتها بدأت مدام دو سيفينييه في ارسال الخطابات اليومية التي تتضمن اخبار البلاط الملكي وأنباء المدينة وكل ذلك مصحوب بتعليقاتها الطريفة وآرائها المتنوعة .

واذا القينا نظرة شاملة على مجموعة رسائل مدام دو سيفينييه الشهيرة يمكننا أن نقول انها أولا وقبل كل شيء عبارة عن قصة حياة انسان ، ففيها تتجسد أمامنا مدام دو سيفينييه ذاتها بصفاتها الشخصية الفريدة ذات الحساسية والذكاء والميل الى تذوق كل مباهج الحياة . لقد كانت تشعر نحو ابنتها بنوع من الحب الجارف الذي يغمر كيانها لدرجة أنها كانت تشعر أحيانا وهي السيدة التي تربت تربية دينية قوية انها تعطي لابنتها مكانة في قلبها اكبر مما تعطي لله خالقها فصارحت بعض القساوسة بهذا الشعور فلاموها على ذلك فالحب كله لله وحده .

واذا اعتبرنا هذه الرسائل مجرد وسيلة تقوم بتعريف شخصية الكاتبة أو أنها ترسم لنا صورة لمشاعرها وأحاسيسها نكون قد ارتكبنا خطأ جسيما وبخسناها حقها بدرجة كبيرة .

فقد كانت لهذه الرسائل قيمة أكبر من ذلك وأخلد وهي القيمة التاريخية فقد كانت تمثل قصة مجتمع بأسره إذ أن هذه الخطابات لعبت في الفترة من عام ١٦٥٥ وحتى عام ١٦٩٦ دور الجريدة التي تحكي وتنشر كل حادثة صغيرة وكبيرة عاشتها العاصمة باريس ويزيد من أهمية هذه الجريدة أن محررها ليس مجرد كاتب بسيط يسجل ما يصل اليه من أخبار أو قصص لم يعشها في الواقع بل ان كاتبها سيدة تنتمي الى البلاط الملكي حيث تولد الاخبار . فكلما عادت من قصر اللوفر أو قصر فرساي أو سان سير حيث كانت تخالط أفراد الاسرة المالكة واحيانا تتحدث مع الملك نفسه ، وكلما عادت من احدى سهراتها في أكبر صالونات العاصمة حيث تقابل أشهر نساء عصرها ، كانت مدام دو سيفينييه تكتب لابنتها وتقص عليها ما رأت وسمعت ولا يمكننا أن ندعي بأنها كانت تشرح اسباب الحروب وتكشف الاسرار السياسية ولكننا نقول ان كل التفاصيل التي وردت في رسائلها عن محاكمة فوكيه أوعن مشروع زواج اخت الملك لويس الرابع عشر التي كانت تعرف باسم الآنسة الكبيرة وعن موت توران TURENNE وكونديه CONDEولوفواه LOUVOIS تعتبر مكملة لما جاء في كتب التاريخ ولما ورد ايضا في مذكرات سان سيمون فهي تقص كل شيء بأسلوب يفيض بالحيوية .

كما نجد أيضا في رسائل مدام دو سيفنييه نشرة اخبارية لما كان يجري في المجتمع . فعلى مر الايام وبقراءة رسائلها عدة مرات نستطيع أن نتصور كيف كان الناس يعيشون في العاصمة باريس وفي الريف وما هي الموضوعات التي كانت تشغل بال الناس ويتبادلون الحديث عنها ، كما نجد فيها ايضا تعليقات وآراء لكثير من الناس ونقدهم ايضا للكتب والاعمال الادبية الجديدة ، وما كان يجري في المسارح وكيف كان الناس يسافرون من مكان لآخر ، وكيف كانت تتم مراسيم الزواج ، وكيف تنجح في كسب قضية ما أو تنجح في عقد صفقة تجارية . ومما يعطي لهذه الرسائل قيمة كبيرة ايضا أنها كانت صادرة من سيدة تكتب خواطرها حسبما تتوارد الى ذهنها دون التقيد بالتفكير في رأي الاجيال اللاحقة وحكمهم على الكاتبة ، وكما هو الحال في معظم مراسلات القرن السابع عشر ، نجد في رسائل مدام دو سيفينييه الكثير من الآراء والتعليقات التي تخص الادباء والاعمال الادبية وهذه الآراء والتعليقات لها أهمية كبرى لانها تعطينا فكرة عن التذوق الفني والادبي لدى سيدة متعلمة ذكية من سيدات القرن السابع عشر وانطباعاتها عند قراءة أي عمل أدبي دون الاستناد الى معايير وقوانين معينة مثلما يفعل النقاد الرسميون .

ومن الطريف أن نذكر أن مدام دو سيفينييه تحمست بشدة لبعض الكتاب والاعمال التي لم يكتب لها الدوام فيما بعد مثل روايات مدموازيل دي سكوديري ، ولاكلبروناد LACALPRENEDE كما نلاحظ شغفها بأعمال فواتور ونيقول وحبها العظيم لكورنيي CORNEILLE والكاتب والفيلسوف الشهير باسكال والاسقف والمؤرخ بوسوويه والكاتب لافونتين وقد عبرت عن حبها لهم واعجابها بهم وتذوقها لاعمالهم بعبارات واضحة تدل على الفهم الدقيق والاحساس الفني السليم .

لقد كانت مدام دو سيفينييه تقضي جزءا كبيرا من وقتها في بيتها (لي روشيه) في مقاطعة بريتاني فقد كانت تحب هذه المنطقة للغاية وتشارك أهلها أفراحهم وأحزانهم وكانت تشعر بقسوة الحياة التي يحياها فقراء هذه المنطقة الذين كانوا يئنون من وطأة الضرائب التي فرضها عليهم الملك والتي تتزايد كل عام وفي عام ١٦٧٥ اندلعت الثورة في مدينة ران ووصلت حتى ابواب لي روشيه ولقد واجهت الدولة هذه الثورة باجراءات ردع عنيفة للغاية . واذا قرأنا رسائل مدام دو سيفينييه نجد صدى لهذه الاحداث الاليمة التي عاصرتها . . ولاول وهلة قد يشعر القاريء بشيء من الحرج ويشعر بأن مدام دو سيفينييه كانت تستخف بهذه الاحداث ويجدها تتكلم بعدم اكتراث عما اسمته « اعمال الشنق » ولكن القراءة المتعمقة توضح لنا وجود كلمات تعبر عن شعورها الحقيقي ومشاركتها احزان السكان الفقراء فمثلا نجدها تكتب قائلة :

« إني أشارك المنطقة كلها حزنها وتعاستها » وفي رسالة أخرى تؤكد انتماءها لبلدتها قائلة : « هاأنذا أجد نفسي انتمي فعلا لمقاطعة بريتاني » .

يبدو عدد كبير من رسائل مدام دو سيفينييه وكأنه اجابات متتالية على أسئلة وموضوعات كان قد استفسر عنها مراسلوها وفي مقدمتهم ابنتها مدام دي جرينيان ، كما أن الكثير منها أيضا لا يمكن أن يعتبر اجابة أو ردا على سؤال بل كان نوعا من الحوار يدور بين الكاتبة وبين نفسها أو تفكيرا عميقا في موضوع يشغل بالها فدونته وأرسلته الى أحد مراسليها .

في يوم من ايام شهر ابريل من عام ١٦٩٦ أصيبت مدام دو سيفينييه أثناء اقامتها عند ابنتها بمرض الجدري وماتت في يوم ١٧ ابريل . وقد ابدت عند احساسها بدنو نهايتها شجاعة وتقبلا لقضاء الله وقدره بصورة لم تكن منتظرة من هذه السيدة التي تخاف كثيرا وتفكر كثيرا في يوم الحساب ، فعندما كانت في الخامسة والاربعين من عمرها كتبت في احدى رسائلها قائلة : « ماذا سوف يكون موقفي مع الله ؟ ماذا سوف أقدم له ؟ هل سوف يساورني احساس آخر غير الخوف ؟ هل انا جديرة بالجنة ؟ يا لها من احتمالات محيرة ! » (١١)

---

(١١) Cite par pierre CLARAC, Lage classique, tow 11 (1660-1680) pavis Arthaud, 1969, 324 p. p. 166.

لقد لاقت رسائل مدام دو سيفينييه رواجا كبيرا ونالت اعجاب الناس جميعا . . . وأثناء حياتها كانت هذه الخطابات تتداول بين معارفها واصدقائها وكانوا يطلقون على كل خطاب منها اسما خاصا ، ففي أحد الايام بعثت احدى سيدات المجتمع وهي مدام دي تيانج خادمها ليحضر لها من سيدة أخرى نسخة من رسالة « الجواد » ونسخة من رسالة « المرعى » .

بعد وفاة مدام دو سيفينييه بعام واحد بدأ قريب لها يدعى بوسي BUSSY في نشر حوالي مائة رسالة تلقاها منها بصفته قريبا لها . والسؤال الهام هنا هل كانت هذه الرسائل هي الرسائل الاصلية أم كانت موضع تحوير وتعديل ؟ للاجابة على هذا السؤال نقول إنه لا يمكن اعطاء اجابة محددة في هذا الشأن فالنسخة الاصلية قام بوسي بإعدامها في أغلب الظن لأن أحدا لم يعثر عليها .

وخلال عامي ١٧٢٥ ، ١٧٢٦ ظهرت في الاسواق ثلاث مجموعات من الرسائل كانت موجهة الى مدام دي جرينيان وكانت هذه المجموعات غير كاملة ولكنها أمينة فيما يتعلق بالنص والمضمون وهذه الامانة كانت السبب في اثارة جزع حفيدتها مدام دي سميان ودفعتها الى محاولة تعديل بعض ما جاء في هذه الرسائل التي نشرت ولقد حرصت الحفيدة على تخفيف حدة بعض الآراء وعلى استبدال بعض الاسماء بالاحرف الاولى حتى لا يهتدي أحد الى اصحابها الحقيقيين ، وأعطت هذه النسخ المحرفة الى قريب لها وطلبت منه أن ينشرها .

ولم تكتف حفيدتها بذلك ولم تتوقف تصرفاتها عند حد فقد كانت تخشى أن تقع الرسائل الاصلية في يد انسان فيكتشف الناس أن جدتها لم تكن على الدوام مثلا يحتذى به في الرزانة والاتزان والاخلاق ولهذا قررت أن تمزقها . ولكن يبدو أنها أحست في اللحظة الاخيرة بوخز الضمير فتوقفت عن تمزيقها وقامت بالمحافظة عليها ثم سلمتها في عام ١٧٣٧ وهي على فراش الموت لاحد ازواج بناتها وأخذت عليه العهد بألا يموت قبل أن يقوم بحرقها ، وعاش هذا الرجل فعلا قرابة نصف قرن بعد وفاة حماته وظلت الرسائل الموجودة لديه بحالة سليمة طوال هذه الفترة ، ولكن عندما أحس بقرب نهايته أمر باحراقها . . . اما الرسائل القليلة الموجودة لدينا الآن والموجهة من مدام دو سيفينييه الى ابنتها فما هي الاّ بعض من الرسائل التي ربما نجت بمحض الصدفة من محاولات الاحراق خلال القرن الثامن عشر .

نجد من الواجب علينا في ختام كلامنا عن اسلوب مدام دوسيفينييه في كتابة هذه الرسائل ان نقول ليس لدينا أي دليل على أنها كانت تخالط رواد الصالون الادبي الخاص بمدام دو رومبوييه او انها كانت تحاكي اسلوبهم في الكتابة وللحق انها كانت احيانا تتبع اسلوبا متحذلقا ولكن هذا حدث في احوال نادرة تماما فقد كان اسلوبها شيقا أنيقا وكانت لغتها نقية تمتلىء بالكلمات والتعبيرات الشيقة التي تبدع في الوصف وتثير الخيال في نفس الوقت . ولقد كانت المركيزة دو سيفينييه حريصة كل الحرص على أن تؤكد ان مجموعة رسائلها ليس عملا ادبيا مدروسا . وكانت تقول انها تترك لقلمها العنان ليدون كل ما يجول بخاطرها من أفكار وأحاسيس تلهم وتثير اعجاب افراد عشيرتها والطبقة التي تنتمي اليها وانها تقدم لهم مرآة تعطيهم صورة أمينة لحياتهم .

من بين الاعمال الروائية التي ظهرت خلال الفترة ما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٦٨٠ عمل يستحق أن يمنح مكانة خاصة وهو العمل الذي عرف باسم « **الرسائل البرتغالية** » فهو عمل لا يشبه أي عمل روائي آخر ، وقد حازت هذه الرسائل اعجابا كبيرا منذ نشرها وأثارت مشاعر مليئة بالحزن والتأثر . ومما أدى الى زيادة الاهتمام بها الغموض الذي صاحب ظروف كتابتها ونشرها ، والى يومنا هذا تثير هذه الظروف وهذا الغموض العديد من التساؤلات وتدعو الى القيام بالابحاث في محاولة للوصول الى الحقيقة .

وفي مستهل عام ١٦٦٩ أصدرت دار النشر « بربان » كتيبا من حوالي مائتي صفحة تحت عنوان يجذب الانتباه وهو « **رسائل برتغالية مترجمة للغة الفرنسية** » وقد قدم الناشر هذا الكتيب الى القراء مدعيا أن الرسائل الخمسة التي تكون في مجموعها هذا الكتيب ان هي في الواقع الا مجموعة رسائل حقيقية ارسلتها راهبة برتغالية الى رجل من نبلاء فرنسا وقال أيضا « انني لا أعرف اسم الشخص الذي ارسلت اليه ولا اسم الشخص الذي قام بترجمتها » وردا على هذين التساؤلين ظهرت طبعة أخرى في مدينة كولون بعد فترة وجيزة من ظهور طبعة بربان تقدم بعض التوضيحات مؤداها أن الشخص الذي ارسلت اليه هذه الرسائل هو فارس يدعى شاميي CHAMILLY والمترجم هو كوييراك CUILLER-AQUES وكان شاميي هذا فارسا معروفا وقد مات فى عام ١٧١٥ بعد أن وصل الى منصب مارشال فرنسى ، أما المترجم فقد أخطا الناس فى كتابة اسمه لأن اسمه الحقيقى هو : جوييراك Guillr RA Gues وليس كوييراك .

وفي بداية القرن التاسع عشر عثر الباحثون على ورقة تلقي بعض الضوء على اسم الراهبة وهو ماريانا الكوفورادو وانها كانت تنتمي الى دير يقع في مدينة بيجا . وعلى الرغم من هذا ترددت شائعات اعتبارا من عام ١٦٦٩ مؤداها أن الناشر كان يكذب ويخدع القراء وان هذه الرسائل في واقع الامر من نسج خيال كاتب فرنسي ، وقد قام هذا الادعاء بناء على عدم توافق وانسجام ما جاء في هذه الرسائل وما عرف أيضا عن الراهبة المذكورة .

اذا قرأنا هذه الرسائل المسماه بالرسائل البرتغالية لوجدنا أنها كلها تدور حول بعض الموضوعات المألوفة والشائعة مع اجراء بعض التعديلات عليها في التعبير مما جعلها تكتسب بعض السمات الموسيقية .

كانت هذه الموضوعات تدور حول الافراح والاحزان التي تصاحب الحب ، وقسوة ورقة الذكريات ، والثورة على الحياة ثم الاستسلام لما جاء به القدر ، والتعاطف والتعالي في الحب الى آخر هذه الموضوعات والافكار المألوفة في أي قصة حب . واذا حاولنا أن نعثر فيها عن أي تفاصيل تدلنا على أنها قصة حقيقية أو أي اشارة الى ظروف خاصة لصاحبة القصة فاننا لا نجد شيئا .

والاكثر من ذلك أنها تدفع القاريء الى أن يتساءل في عجب كيف استطاع هؤلاء الاحبة أن يتغلبوا على المصاعب والعقبات التي لابد أن تكون قد اعترضت طريق حبهم وما هي الاساليب التي اتبعوها للتحايل على مشقة الحياة في الدير ؟ .

ان قراءة الرسائل لا تجعلنا نعثر على أي اشارة تساعدنا على الاجابة على هذه الاسئلة بل على العكس من ذلك فهي تظهر لنا وكأن غرامهم كان مستقيما هادئا يسير بلا عقبات أو عوائق . وكل ما يمكننا الجزم به في الواقع هو احتمال حدوث قصة حب بين ضابط فرنسي وراهبه برتغالية . . . وربما كان هذا الضابط هو شامبي نفسه الذي خدم في البرتغال في الفترة ما بين عام ١٦٦١ وعام ١٦٦٨ وبين الراهبة البرتغالية التي كان سنها يتراوح في ذلك الوقت بين واحد وعشرين وثمانية وعشرين عاما أوربما سمع جوييراك عن هذه القصة واستوحى فكرتها ليكتب هذه الرسائل الخيالية التي لاقت رواجا عظيما وشغلت الاذهان فترة طويلة وما زالت الى يومنا هذا .

اذا نظرنا الى أدب المراسلات في القرن الثامن عشر نجد أنه قد ازداد رواجا بالمقارنة بأدب المراسلات في القرن السابع عشر ، وقد استخدم الكثير من الكتاب هذا الاسلوب في صياغة اعمالهم الادبية فمثلا من بين أعمال فولتير التي لاقت نجاحا ساحقا العمل المسمى « **الرسائل الانجليزية** » أو « **الرسائل الفلسفية** » الذي ظهر في عام ١٧٣٤ . ثم تفنن الكتاب وتباروا فيما بينهم في صياغة الروايات ذات العقد المحبوكة والمعدة في صورة مراسلات ، فظهر العديد من الاعمال التي اتخذت هذا الاسلوب سبيلا لها في محاكاة من كاتبيها للكاتب الفرنسي الشهير مونتسكيو في عمله الشهير المسمى «**الرسائل الفارسية** » الذي يعد بحق من أهم الاعمال الادبية التي ظهرت في القرن الثامن عشر من أدب المراسلات الى جانب أعظم روايتين وهما « **العلاقات الخطيرة** » و « **هيلويز الجديدة** » وكلتاهما تمت صياغتها في صورة رسائل أدبية .

مما سبق يمكننا أن نستنتج أن هذا النوع من الاعمال الادبية لم يكن جديدا أو مستحدثا في هذا القرن ولكن أخلاق هذا العصر والحياة التي كانت سائدة في مجتمعه كانت من أهم اسباب رواجه ولذلك عندما فكر مونتسكيو في كتابة عمله المسمى « **الرسائل الفارسية** » اتخذ هذا الاسلوب ويبدو هذا الامر طبيعيا لأن بعض شخصيات روايته أقاموا في باريس والبعض الآخر كان يتنقل بين فينيسيا وباريس ؛ وكما يقول اتيومبل : ETIEMBLE

« يبدو أن الرسالة هي الحل الامثل ان لم يكن الحل الوحيد وكذلك يبدو أنها الوسيلة الاكثر فاعلية لاعادة تكوين وحدة المكان التي يمزقها السفر والتنقل » (١٢)

من أهم مميزات هذا الاسلوب أنه يوفر للكاتب قدرا أكبر من الحرية في الانتقال من موضوع الى موضوع دون التقيد بأي قيد وذلك في محاولة منه لتوصيل أفكاره وانطباعاته للقاريء على مر الايام وفقا للاحداث التي تأتي بها الظروف أو حوادث الصدفة وحدها .

وتدور فكرة « الرسائل الفارسية » حول اثنين من اهل فارس هما ريكا واسبك حضرا الى باريس ليقضيا فيها بعض الوقت لدراسة عادات وتقاليد اهل هذا البلد ومن باريس اخذا يبعثان الى ذويهم واصدقائهم في فارس انطباعاتهما ومشاهدتهما .

---

(١٢) ETIEMBLE, Encyclopedie de la pleiode, Histoire des litteratures, 111 p. 701.

وقد حرص مونتسكيو في مقدمة الكتاب على أن يؤكد صحة روايته وصدقها وحقيقة وجود هذين الشخصين في الحياة الواقعية ومقابلته لهما فقال :

« ان هذين الرجلين الفارسيين اللذين يكتبان هنا كانا يسكنان معي ، وكنا نقضي حياتنا سويا وبما انهما كانا يعتبراننى شخصا ينتمي الى عالم آخر فقد كانا لا يخفيان عني شيئا وكانا يعطياننى معظم رسائلهما لكي اقرأها وكنت انقلها .

...

« لقد استطعت ان اختلس بعض الرسائل التي كانا يريدان إخفاءها عني ، لانها كانت تسيء لكرامة وغيرة اهل فارس فمهمتي اذن تقتصر على قيامي بدور المترجم » (١٣)

ان أول سؤال يخطر ببالنا هو من اين اتى الكاتب بفكرة الرسائل الفارسية ؟ فنجد ان الرد قد ورد في اول رسالة حيث كتب اسبك قائلا : « ربما كنت انا وريكا أول أناس من أهل فارس يتركون بلادهم بحثا عن المعرفة ويستغنون عن حلاوة الحياة الهادة للسفر بحثا عن الحكمة » (١٤)

ربما كانا فعلا اول من سافر من اهل فارس ولكنهما بالقطع لم يكونا أول من سافر وتجول بحثا عن المعرفة لاننا نجد اناسا سبقوهما في هذا المضمار فمثلا في كتاب « المشاهد » لمؤلفه ادسون وكتاب « الجاسوس » لمارانا ، نجد اشخاصا تركوا بلادهم وقاموا بالاسفار لمثل هذا الغرض واعطوا هم أيضا وصفا دقيقا لعادات أهل البلاد التي قاموا بزيارتها .

نستطيع أن نؤكد من جانبنا أن مونتسكيو كان قد قرأ اعمال من سبقوه ووجد فيها فكرة المقارنة بين العادات الفرنسية وعادات وتقاليد بلاد اخرى ويعد هذا الاسلوب اسلوبا سهلا ولكنه اسلوب ذكي للنقد ومعارضة كل الامور التي لا يرضى عنها الكاتب في بلاده ولا يستطيع ان يجاهر فيها برأيه ويعلنه على الملأ فيلجأ إلى الحيلة ويجعل نقده يأتي على لسان الغرباء الذين يدهشون لما يرون من صور الفساد المتفشي في البلاد الغربية . وهكذا صب مونتسكيو جام نقده اللاذع على عادات واساليب المعيشة السائدة في فرنسا كما هاجم بشدة النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي في رسائله الفارسية .

لكن ماذا كان رأي مونتسكيو في معاصريه من بني وطنه ؟ للاجابة على هذا السؤال نقول انه كان يرى ان فترة الوصاية تعد فترة اضطراب وانعدام توازن رهيب في حياة الامة بالنسبة للناحية الاخلاقية وقد تبنى وجهة النظر القائلة بأن المواطن الفرنسي العادي الذي كان يعيش في عام ١٧٢١ كان كل همه وشغله الشاغل الهدم والتخريب بدلا من البناء

---

(١٣) MONTESQUIEU, les lettres Persanes, preface.

(١٤) MONTESQUIEU, les lettres persanes, lettre 1.

والتشييد . وترجع المسئولية في وجود هذا الخطأ الجسيم الى رجال السياسة الذين تخلوا عن اتباع الاساليب السياسية الامينة التي أوصاهم بها فنلون FENELON واتبعو بدلا منها اساليب ميكافيلية دنيئة . وفي هذا العالم اللاخلاقي المملوء بالفساد اعتبرت النساء أسوأ ما فيه لأنهن كن يتدخلن في سياسة البلاد ويقمن بحماية ومساندة الرجال الذين يقومون بلعب دور الدون جوان وليس الرجال الذين تتوفر فيهم المؤهلات والكفاءة والصفاة الحميدة وهذا ما يكتبه اسبك في الرسالة رقم (٤٩) .

« ما رأيك في بلد مثل هذا البلد ، الذي توصل فيه الخيانة وعدم الأمانة والسرقة والمكر والظلم الى أعلى المراكز ؟ » (١٥) .

ان هذا الشعب المشغول بلهوه والمنغمس في ملذاته الى أقصى الحدود ليس لديه أي وعي سياسي ، وهو بوضعه هذا يمهد الطريق للنظام الاستبدادي المطلق .

وجاء نقد مونتسكيو للنظام السياسي في فرنسا على صورة لاذعة قاسية فيقول أسبك أو مونتسكيو ان نظام الملكية ليس الاّ نظام القوة المتضاربة . ويبقى الملك في الحكم لأنه يستغل سلطته المطلقة وأي محاولة للثورة عليه محكوم عليها بالفشل .

وضرب مونتسكيو مثلاً للحرية السياسية بالحرية السياسية السائدة في النظام الانجليزي حيث يربط العرفان بالجميل الشعب بالملك واذا كف الملك عن القيام بدور المصلح بالنسبة للأمور التي تخص شعبه انقطعت الصلة بينهما ويحصل الشعب على حريته الطبيعية .

كما انتقد مونتسكيو بالمثل النظم الدينية التي كانت سائدة في عصره ، فهاجم البابا ووصفه « بالساحر » وتهكم على بعض رجال الدين الذين دفعوا الناس بسبب تصرفاتهم السيئة الى تفسير مبادىء الدين تفسيراً خاطئاً .

وصب مونتسكيو جام غضبه على العلاقات الفاسدة التي تربط بين أعضاء الأسرة الواحدة وفي رأيه أن الفساد المتفشي في المجتمع أثر تأثيراً ضاراً بروابط الأسرة التي أصبحت مفككة للغاية - ويمكننا أن نقدر أهمية هذه الرسائل وخطورتها في ذلك العصر ، اذا تصورنا أنه من خلف قناع الشخصيات الأجنبية أصبح بمقدور مونتسكيو أن يعبر عن أخطر العقائد السياسية والاقتصادية وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بدون أي مبالغة ان « الرسائل الفارسية » لم تكن الاّ المقدمة الحقيقية لمؤلفه الكبير : « روح القوانين » L'Esprit deslois.



(١٥) MONTESQUIEU, les lettres persanes, lettre 45.

كان فولتير كاتباً آخر من أشهر كتاب القرن الثامن عشر وقد خلف لنا أعمالاً يمكن ادراجها ضمن أدب المراسلات ، فهو من ناحية ترك لنا مايربو على عشرة آلاف رسالة شخصية ومن ناحية أخرى كتب **الرسائل الانجليزية** التي تعتبر من أشهر الأعمال الأدبية التي تمت صياغتها في صورة خطابات .

اذا كان فولتير قد كتب ما يزيد عن عشرة آلاف رسالة فان الرسائل التي لم تنشر له بعد تفوق هذا العدد - وما يدعو الى الدهشة ان هذا العدد الضخم من الرسائل كان موجهاً الى ما يزيد على سبعمائة مراسل ويرجع تاريخ أول رسالة بعث بها فولتير الى عام ١٧١٣ وكان وقتئذ قد بلغ من العمر تسعة عشر ربيعاً . . أما آخر رسالة بعث بها فكانت بتاريخ ٢٦ مايو من عام ١٧٧٨ أي قبل وفاته بأربعة أيام فقط ، أي أنه استمر في ارسال الخطابات على مدى خمسة وستين عاماً ولم يمر يوم تقريباً دون أن يرسل فيه فولتير خطاباً أو أكثر .

أما بالنسبة لقائمة الأشخاص الذين كان يراسلهم فولتير فهي قائمة طويلة ومتنوعة ، فنجد فيها اشخاصاً من جميع الجنسيات ينتمون الى جميع الطبقات والمستويات فمنهم الملوك والعلماء والفنانون . البعض منهم لم يرسل له فولتير الآ خطاباً قصيراً - أما البعض الآخر فكان بينه وبينهم مراسلات كثيرة ومتعددة ، ومن بين هؤلاء الأصدقاء الذين كان يكتب اليهم عن الموضوعات الأدبية الكتاب الناشئون أو المعجبون الذين كانوا يراسلونه فيبعث اليهم بآرائه ونصائحه ومن بين هؤلاء هلفثيوس ، و فوفنارج ، ولاهارب ، وسان لمبار ، وكندروسيه .

ان أهم الرسائل التي بعث بها فولتير هي تلك الرسائل التي كان يكتب فيها مدافعاً عن فكرة أو قضية ما ، أو تلك الرسائل التي يبعث فيها بأوامر أو تعليمات محددة والتي يمكن أن نطلق عليها اسم رسائل الكفاح . هذا بالاضافة الى رسائل أخرى كانت تحمل الى صاحبها نقداً لاذعاً أو رداً صريحاً بلا مجاملة مثل الرسائل التي بعث بها فولتير الى روسو أو باليسو وعلى الرغم من تعدد الشخصيات التي كان فولتير يراسلها فقد كان حريصاً على أن يخاطب كل واحد منهم وفقاً لدرجة ثقافته ومكانته الاجتماعية ومهنته ، وبناء على هذا يمكننا أن نصف مراسلات فولتير بأنها كانت أكبر موسوعة لأفكار العصر . لقد كان أدب المراسلات يشكل بالنسبة لفولتير الأسلوب الأمثل الذي يتفق مع فكره وعقله وموهبته التي تألقت وبرزت في هذا النوع من الكتابات القصيرة أكثر مما تألقت في الأعمال الأدبية الطويلة وتعد مجموعة رسائله بحق من أكبر روائعه . والقاريء الذي يرغب في معرفة فولتير على سجيته وطبيعته وفي أنقى صورة يجب عليه أن يبحث عن بغيته في هذه المراسلات .

كتب فولتير أيضاً نوعاً آخر من المراسلات هي ذلك العمل المعروف باسم « **الرسائل الانجليزية** » أو التي تعرف أحياناً باسم « **الرسائل الفلسفية** » والسؤال الآن هو متى وكيف فكر فولتير في كتابة هذه الرسائل ؟ ولماذا سميت بالرسائل الانجليزية بالذات ؟ هذا ما سوف نقوم بالاجابة عليه في الصفحات التالية باذن الله .

في عام ١٧٢٦ كان فولتير قد اكتسب شهرة واسعة وحقق لنفسه مكانة أدبية كبيرة بعد أن نشر قصيدته الملحمية

المعروفة باسم « الهنرياد » La Henriade عندما وقعت حادثة كان لها أكبر الأثر في تغيير مجرى حياته بصفة عامة وكانت السبب في إقدامه على كتابة « الرسائل الفلسفية » . تتلخص هذه الحادثة في أنه أجاب في يوم من الأيام إجابة تتسم بشيء من العجرفة على سؤال لأحد النبلاء هو الفارس دوروهان فجعلته يصمم على الانتقام منه ، وفعلاً تربص له رجاله وفي ليلة مظلمة انقض رجاله على فولتير وأوسعوه ضرباً بالعصي ولكي تمنع السلطات الحاكمة فولتير من محاولة الانتقام لنفسه من روهان سجنته في سجن الباستيل أولاً ثم استجابةً لطلب قدمه نفته الى انجلترا وكان ذلك في شهر مايو ١٧٢٦ .

وأثناء إقامته في انجلترا كتب فولتير هذه الرسائل التي تعتبر أول قنبلة موجهة ضد النظام الحاكم ، وهكذا بدلاً من أن يكون المنفى تأديباً وتهذيباً وعقاباً لفولتير تحول في الواقع الى فرصة اتاحت له العثور على اسلحة جديدة يحارب بها معركته الأدبية والفلسفية فقد اتاحت له الإقامة في انجلترا حرية التفكير في العديد من المسائل السياسية والفلسفية التي تتعلق بالنظام الحاكم والأفكار السائدة في فرنسا . فلأول مرة في حياته ذاق طعم الحرية السياسية والدينية وعرف أهميتها وقيمتها للانسان الذي يحب أن يعبر عن رأيه .

وعندما عاد فولتير الى فرنسا مرة أخرى بعد أن قضى في المنفى عامين ونصف عام ادعى أنه انتهى من كتابة رسائله هناك ولكي يؤكد هذا الادعاء جعل رسائله مؤرخة بتواريخ واقعة بين عامي ١٧٢٧ ـ ١٧٢٨ في محاولة منه لتفادي أي عقاب تنزله به السلطات الحاكمة .

ويرى النقاد أن فولتير انتهى من كتابة هذه الرسائل بعد عودته من انجلترا ، ومما يجدر ذكره أن هذه الرسائل كانت اشتهرت حتى قبل نشرها ، وكان فولتير يشعر بقلق بالغ من الفضيحة التي سيحدثها نشرها ولهذا تردد كثيراً قبل أن يصدر أمره بنشرها ، وتعتبر الظروف التي أحاطت بالنشر غريبة وطريفة في نفس الوقت وتدل على مكر ودهاء الكاتب وقد تم النشر فعلاً في عام ١٧٣٤ ، ولكن سرعان ما صدر حكم من المحكمة يأمر بأن يمزق الكتاب ويحرق بيد الجلاد لأنه على حد قول المحكمة « فاضح ومخالف لتعاليم الدين والأخلاق الحميدة ومناف للاحترام الواجب تجاه السلطات » (١٦) .

زاد هذا الحكم من شهرة ورواج الكتاب ونلاحظ أنه على الرغم من جدية الموضوعات التي كان يدور حولها الكتاب وصعوبة الأفكار التي يناقشها فقد أعطاها الكاتب صبغة طريفة ، وتدور هذه الرسائل الانجليزية حول موضوعات مختلفة متنوعة مثل المذاهب الدينية المتعددة ، والاقتصاد ، والطب ، والعلوم الرياضية البحتة ، والأدب والشعر والأدباء قبل شكسبير وسويفت ، وبسكال .

(١٦) Emile HENRIOT, Courrier Litteraire, 18 eme siecle, Voltaire et les lettres philosophique,.paris Albin Michel, 1961 p. 159.

ويتكلم فولتير في الرسائل الأولى عن أحد رجال الدين الانجليز من الكويكرز ويكتب على لسانه بعض التعليقات المنافية أحياناً لقواعد الأدب ولكنها لا تخلو من الطرافة ، فهي تتراوح بين التكلم بتوسع واسهاب في موضوع معين بغرض التعليم وبين الحكايات الظريفة والتعليقات اللاذعة وكل ذلك في أسلوب سريع لا يعطى للقاريء فرصة لكي يلتقط أنفاسه .

يقول الناقد أميل هنريو عن هذه الرسائل : « ان كل ما كتبه فولتير بأسلوب مرح في هذه الرسائل كان حكيماً للغاية ، ولهذا نحن ندهش من عنف المقاومة وشدة الأحقاد التي قوبل بها ، ويرجع السبب في الغالب الى أن حراس التقاليد الرسمية انزعجوا عندما رأوا هذا الشاب الوقح يستخدم بحرية حقه في التفكير بصوت عال ومجاهراً بكل الأشياء التي كانت محجوبة عن النقاش العلني » (١٧) .

كانت هذه الرسائل موجهة في الواقع ضد نظرية القدر وقد اضطر الكاتب على مضض ان يكبح جماحه ويخفف من وطأة هجومه لكي تصل رسائله الى القراء . فمثلاً نجد انه اضطر لاعادة صياغة رسالته التي تدور حول الفيلسوف لوك « لأني أريد في النهاية أن أعيش في فرنسا ، وليس مسموحاً لي أن أكون فيلسوفاً مثل الكاتب الانجليزي ، فيجب أن أخفى وأنا في باريس ما يمكنني ان اجهر به بصوت مرتفع وأنا في لندن » (١٨) .

ان من الجدير ان نتساءل عن قيمة وأهمية انجلترا في كل هذا ؟ نجيب على هذا التساؤ ل بأنه يبدو أن انجلترا لم تكن إلا حجة استغلها الكاتب لكتابة رسائله ، واعتبرها فرصة سانحة لتلقين فرنسا درساً قاسياً عن أفضل النظم الحكومية ، وعن الحرية ، وعن التسامح الديني ، وعن أولوية العقل . ولم يكن فولتير يتحمس ويبدي إعجابه الشديد الا بما يجده عند الانجليز ويصلح لأن يكون سلاحاً يستخدمه لهدم الأفكار والمعتقدات الفرنسية القديمة التي عفّى عليها الزمن . أما عن موضوع التعصب الديني الذي كان سائداً في فرنسا في ذلك الوقت ، فقد كتب ممتدحاً التسامح الديني السائد في انجلترا قائلاً :

« ان كان في انجلترا دين واحد لخشينا ان تتجه نحو الاستبداد وان تواجد بها اثنان ساد القتال بينهما ، ولكن يوجد في انجلترا ثلاثون ديناً وكلهم يعيشون في سلام ومحبة » وفي النهاية يمكننا أن نقول ان الرسائل الانجليزية تعد أول أعمال فولتير الفلسفية وانها كانت تحتوي على كل الأفكار التي طورها فيما بعد ، كما نجد فيها الأسلوب التهكمي والدعابة المرحة والنقد اللاذع الذي سوف تتميز به كل أعماله اللاحقة .



---

(١٧) E. Henriot, op. cit. p. 153.

(١٨) Ibid. p. 155.

يعتبر ديدرو DIDEROT من أهم وأعظم كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر ويقترن اسمه دائماً بدائرة المعارف **L'Encyclopédie** التي تعد من أعظم ما أنجز في ذلك القرن . ولكي نحاول أن نتصور مقدار ما تكبده من عناء لإتمام هذا العمل الضخم لا يسعنا إلا أن نرجع الى مجموعة رسائله المعروفة باسم « **رسائل الى صوفي فولان** » وتعد هذه المجموعة من الخطابات من روائع ديدرو لأنه يلعب فيها الدور الأول ويظهر فيها على حقيقته دون أي تكلف فهي حقاً بمثابة مذكرات هذا الكاتب الفذ .

لكن من هي صوفي فولان Sophie Volland وما الذي يربطها بديدرو ؟ انها امرأة عرفها الكاتب في عام ١٧٥٦ عند اختها مدام دي بلي وكان هو في الثانية والأربعين من عمره ولم تكن هي أيضاً في ريعان الشباب فقد كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها ولا نعلم عنها الكثير لنقدمه للقاريء بل كل ما لدينا من معلومات هو ما نجده في رسائله عندمايكلمهاعن نفسها وأغلب الظن أنها لم تكن جميلة ، فقد كانت ترتدي النظارات الطبية وصحتها ضعيفة كذلك ، كما يبدو انها كانت امرأة غيورة ، ونظراً لأن المائة والأربع والثلاثين رسالة الأولى اختفت غالباً بفعل صوفي نفسها التي ربما وجدتها فاضحة بالنسبة لها لأن اسلوب الكاتب كان صريحاً فيها فليس لدينا اذن أي معلومات تروي بداية حبهما ولكن يبدو أنه كان حباً جارفاً . والجدير بالذكر ان هذين العاشقين الواهين قضيا نصف حياتها بعيداً عن بعضهما فقد كان ديدرو كثير التنقل والاقامة عند أصدقائه والمعجبين بفنه ، أما صوفي فقد كانت في أغلب الأحيان بصحبة والدتها التي كانت تمقت الكاتب وتبذل كل ما في وسعها لإبعاده عن ابنتها . ولكي يتغلب ديدرو على ألم الفراق والمعاناة كان يكتب الى حبيبته يومياً ويتشكك البعض كما يقول الناقد أميل هنريو « أنه بالرغم من حرارة التعبير عن الحب فقد كان في الغالب حباً بالمراسلة »[١٩] وقد كان هذا الحب خليطاً من العشق والصداقة والاهتمام الفكري والعقلي فقد كانت طباع مدموازيل فولان تتفق وهذا النوع من العلاقات كما يبدو من الخطابات .

كانت صوفي تحب الفلسفة والدراسة ويكتب ديدرو الى صديقه جريم GRIMM عن حبيبته قائلاً :

« آه يا جريم ، يا لها من امرأة ، انها رقيقة وحنونة ومهذبة وذكية ، والمشكلة هي انني لا أدري متى سنكون سعداء ، فهي تفكر وتحب التفكير بدرجة كبيرة »[٢٠] .

وحيث أن مجريات الأمور لم تكن دائماً في صالح أو طوع ارادته فكان يلجأ الى الخيال ويحلم بقصر وهمي لا وجود له يستطيع أن يقيم فيه وينعم بالعيش مع معشوقته ـ والشيء الذي يثير دهشتنا أن رسائله كانت مليئة بالأحلام والخيال البعيد كل البعد عن الواقع رغم ان ديدرو كان بصفة عامة رجلاً يتسم بالواقعية ولكن الصراع الذي كان يعاني منه هو الذي دفعه الى ذلك فهو يريد ان يعيش وهو بعيد عنها وكأنها موجودة بجواره وهذا ما يبدو لنا من واقع ما كتبه لها : « اني

---

(١٩) E. HENRIOT, op. cit, p. 335 (Diderot et les lettres a Sophie Vollaud).

(٢٠) Ibid, p. 336.

اتكلم وأنا أكتب اليك كأنني بجوارك وذراعي يحيط بظهر مقعدك وكأنني اتحدث اليك . انني أحب أن أعيش تحت نظرك . . . . » ونجده لا يخفى عنها شيئاً مهما كان فهو دائماً يحدثها بصراحة تامة عن ميوله وعيوبه وأحلامه بل حتى انه كان يحدثها عن مشاكله . وهكذا يمكننا ان نتبع خطواته يوماً بعد يوم في كفاحه المرير المتواصل الى ان تمكن من نشر الموسوعة .

ان قدرتنا على تتبع خطوات الكاتب وملاحقة تصرفاته هو ما يعطي لهذه الرسائل اهمية فائقة فكما يقول الناقد الفرنسي هنريو : « لقد كسبنا من هذه الرسائل شيئاً أكثر قيمة من أي خطابات عادية ، وأكثر قيمة من أي مذكرات فقد كسبنا أفضل ما يمكن أن يتركه لنا رجل يفيض حيوية مثله ألا وهي مذكراته اليومية ، لأنها مذكرات يومية بدون أي رباط يربطها ، وبدون جدول محدد ، وهي مليئة بالمشاكل التي تخلقها الحوادث اليومية سعيدة أم حزينة حسبما تقتضي الظروف والأحوال وهي مليئة بالأفكار وبحرارة المشروعات المتعددة ، ومليئة بالأحلام والنظريات ، مليئة بالغضب والحلم ، بالأفكار المجنونة والحماس »[٢١] .

وهكذا من خلال المجلدات الثلاثة التي تكون مجموعة رسائل ديدرو لصوفي فولان تكتمل أمامنا صورة الكاتب في جميع الأحوال والمواقف التي مرت به ، فتارة نراه سعيداً وتارة أخرى بائسا، ونجده يوماً حانقاً ويوماً آخر راضياً ، فمثلاً نراه يوماً في مدينة لونجر بعد موت ابيه وهو يحاول ان يصلح بين أخيه وأخته ، ويوماً آخر نراه في بيته بجوار زوجته ذات الطباع الحادة وهي تحاول ان توقع بينه وبين ابنتها التي يحبها كثيراً الى درجة الجنون ، نراه يوماً يقرأ أو يحلم ، يتنزه أو يتحدث في الصالونات الراقية في باريس . وبالإضافة إلى ما سبق نرى صورة واقعية للمجتمع الفرنسي على مدى ستة عشر عاماً من عام ١٧٦٩ الى عام ١٧٧٥ ظل يراسل فيها محبوبته صوفي فولان ، وهي في الواقع صورة صادقة لا تقل قيمة وواقعية عن تلك الصورة التي جاءت بها كتب التاريخ التي تصور لنا الحياة في ذلك العصر .

●●●

أما الكاتب الأخير من كتاب القرن الثامن عشر الذي نود أن نتكلم عنه في مقالنا هذا فهو الكاتب الشهير وفيلسوف الثورة الفرنسية جان جاك روسو ، وفيما يخص موضوعنا وهو أدب المراسلات فلن نتكلم عن رسائل روسو الشخصية أو عن الخطابات التي بعث بها الى اصدقائه ومعارفه بل سوف نتكلم فقط عن عمل واحد من أهم أعماله الأدبية هو العمل المسمى هيلويز الجديدة **(La Nouvelle Heloise)** وهي عبارة عن رواية مكونة من مجموعة من الرسائل المتبادلة بين أبطال الرواية .

ويجدر بنا أولاً وقبل أن نتعرض لأي جانب من جوانب الرواية أن نوضح عنوانها والسبب الذي دعا مؤلفها

---

(٢١) E. HENRIOT, op. cit, p. 336.

لتسميتها باسم « هيلويز الجديد » ؟ لقد اختار روسو هذا الاسم لروايته إشارة الى هليويز التي كانت قد أحبت معلمها الفيلسوف ابيلار فاتخذها عشيقة له ثم تزوجها في العصور الوسطى .

ففي رواية روسو نجد بالمثل ان بطلة الرواية التي تدعى جولي ديتانج تحب هي الأخرى معلمها الشاب الفقير المدعو سان برو ، ولكن الظروف الاجتماعية تحول دون زواجهما فتتزوج من رجل آخر هو البارون دو فولمار الذي كان في سن والدها ولكنه واسع الثراء ، فابتعد عنها سان برو بعد زواجها وهو ناقم على القدر وعلى المجتمع وظل مسافراً لعدة سنوات حتى هدأت ثورته ، وبعد عودته أقام مع الزوجين فولمار في ضيعتهما وعمل مربياً لأولاد جولي ، ونستشف من الرسائل أن الحب القديم لم يمت ولم تنطفىء جذوته تماما - ولكن جولي تنجح جيداً في إخفاء ما تشعر به نحو حبيبها القديم ، وفي النهاية تموت جولي ويعيش باقي شخصيات الرواية على ذكراها . لم يسرد روسو أحداث الرواية بالطريقة التقليدية أي أن يتكلم هو شخصياً أو بأن يعطى الكلمة لأحد الأبطال ليقوم برواية قصة جولي وسان برو ولكنه فضل أن تكون جميع أحداث القصة مرتبطة فيما بينها عن طريق الخطابات التي يتراسلها الأبطال والتي يروون فيها الأحداث التي يتعرضون لها . والسؤال الهام الآن هو لماذا اختار روسو اسلوب المراسلات بالذات لكتابة روايته ؟ للاجابة على هذا السؤال نقول باختصار إن هناك عدة أسباب لذلك ، السبب الأول ان ابيلار وهيلويز كانا قد تبادلا الرسائل في الماضي ، والسبب الثاني ان هذا الأسلوب الأدبي في الكتابة كان يلقى رواجاً كبيراً في ذلك الوقت ، اما السبب الثالث والذي قد يكون أكثر الأسباب صواباً فهو ان هذا الأسلوب كان الأسلوب الأمثل في نظر الكاتب بالنسبة للموضوع الذي يعالجه ، فالرسائل المتبادلة بين العديد من الشخصيات تتيح للكاتب الفرصة المناسبة لتقديم عدة تعليلات لموقف معين بالذات ، بقلم الذين عاصروا هذا الموقف أو الذين سمعوا عنه أو كانوا مشاهدين له . وقد ساعد هذا الأسلوب روسو على التعبير عن رأيه في أي موضوع معين مثل موضوع التقوى مثلاً بطريقة تختلف عن طريقة شرح النظريات فقد عبر عن أفكاره باعطاء كل شخصية من الشخصيات الفرصة لإبداء رأيه فيها ، ولقد كان من دواعي سرور الكاتب أن أتاح له هذا الأسلوب ان يتقمص شخصية كل بطل من ابطاله وأن يوفر لكل بطل منهم الأسلوب الذي يلائمه ، ونظراً لأن أسلوب المراسلات كان يسمح لروسو بلعب كل الأدوار فقد كان يعفي الشخصيات من التدخل في الأحداث فهذا الأسلوب هو في حقيقة الأمر عبارة عن أسلوب سرد يستبعد أي حوار بين الأبطال ويجعل زمن كل عمل يقوم به أحد ابطال الرواية هو الزمن الماضي أو المستقبل . وربما يفسر لنا هذا النوع من السرد وجود مكانة خاصة للذاكرة والخيال في سيكولوجية روسو ويقدم لنا سبباً رابعاً لاختياره هذا الاسلوب الأدبي لكتابة روايته .

أما بالنسبة للقاريء العادي في يومنا هذا فإننا نرى أن أهمية هذا الكتاب لا تكمن في الموضوع نفسه لأن مثل هذا الموضوع لا يثير اهتمام القاريء الحديث بل يجلب له الملل لما فيه من إطالة رومانتيكية ، وإنما تكمن أهمية الكتاب فيما يحتويه من وصف للمجتمع وخاصة مجتمع مدينة باريس ، وفي بعض الأفكار الفلسفية التي تناولها مثل فكرة الانتحار التي كانت تمثل موضوعاً حساساً للغاية في ذلك الوقت كثر الكلام فيه والكتابة عنه .

●●●

بعد ان انتهينا من استعراض ودراسة أهم الكتاب الذين اشتهروا بتفوقهم وتميزهم في مجال أدب المراسلات في القرنين السابع والثامن عشر نرى أن من الواجب لاستيفاء هذا الموضوع واستكماله ان نقوم بالتعرض لبعض المسائل والمصاعب المرتبطة بأدب المراسلات بوجه عام .

تتمثل أول هذه المصاعب في المشقة المتعلقة بنشر مجلدات الرسائل ، فالناشر الذي يتولى نشر رسائل شخص ما أو أديب مشهور ، يبدأ أول ما يبدأ باستلام النسخة الأصلية التي كتبها الكاتب بخط يده ، فيجد أن هذه النسخة الأصلية تكون لسوء الحظ صعبة القراءة اما بسبب رداءة خط الكاتب أو بسبب سوء الحالة لحظة وصولها اليه لأسباب عديدة منها ما قد يكون بحسن النية ومنها ما قد يكون لغير ذلك ، فيخطيء الناشر في قراءتها وينشر بذلك رسائل محرفة مثلما حدث مع ناشر رسائل ديدرو لمدموازيل فولان .

أما المسألة التي ترتبط بأدب المراسلات فتتمثل خطورتها في الاضافات المتعددة المتعمدة التي قد يضيفها الناشر الى الرسائل الأصلية وأحياناً تكون هذه الاضافات قد تمت من جانب الشخص الذي وصلته الرسالة او من جانب عائلة الراسل نفسه ، وهذا ما حدث فعلاً كما ذكرنا بالنسبة لرسائل مدام دوسيفييه .

إن ما ذكرناه آنفاً يتعلق بالمشاكل التي تواجه عملية نشر المراسلات ، وبالاضافة الى ذلك نذكر ان فن المراسلات قد خضع أيضاً لعدة قواعد نحاول أن نستعرض أهمها باختصار شديد .

أولى هذه القواعد هي وجوب اختيار الموضوع الذي يوافق ويلائم ويتمشى مع شخصية المرسل اليه وكذلك وبنفس الدرجة من الأهمية وجوب اختيار الأسلوب الذي يوافقه مع مراعاة الظروف والملابسات التي تكتب فيها المراسلة .

وثانية هذه القواعد ان الرسالة هي الأسلوب الأمثل للتعبير عن الأمل والشكوى والأسف ولوعة الفراق والغيرة وعدم التفاهم الى آخر هذه الموضوعات العاطفية التي يصعب التعبير عنها في وجود الشخص الآخر الموجهة إليه المراسلة ، وهكذا تصبح رسالة الغرام أصعب أنواع الرسائل وأجملها وأندرها في نفس الوقت لأن من العسير العثور عليها لأنها تكون دائماً هدفاً للإخفاء بمعرفة شخص ما .

ورسالة الغرام تتميز دون غيرها من الرسائل بتوافر الوحدة والانسجام وذلك لأنها تكون موضوعاً واحداً ، وعلى الرغم من ذلك يجب أن يكون اسلوب رسالة الغرام غير منظم حتى يعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعر وعواطف الراسل المحب الولهان واضطرابه الشديد عادة عند كتابة الرسالة ، فالاضطراب في الأسلوب يعد دليلاً قوياً على صدق المشاعر وقوة العواطف .

وثالثة هذه القواعد أن على راسل الخطابات الذي يكتب إلى اشخاص يريد أن يبهرهم أو يثير إعجابهم أن يكون

متمكناً من فن التلميح الذي يستلزم بدوره تمتع الكاتب بذاكرة قوية وبمعرفة تامة بالأعمال الأدبية ، فأحياناً اثناء كلام الكاتب في موضوع معين نجده يشير الى ما يتعلق بهذا الموضوع ويتصل به ويكون قد قرأه في إحدى الروايات أو المسرحيات أو القصائد الشعرية المشهورة لغيره من الكتاب ، وحول هذا الموضوع تقول مدام دو سيفينييه « ان من مصلحة هؤلاء الذين أخاطبهم أو أكتب اليهم ان اقرأ كتباً جيدة »(٢٢) .

ان النقطة الأخيرة التي نحب أن نتطرق اليها تخص قاريء الرسالة نفسه ، وهي أن التطور في قراءة الرسالة من نهاية القرن السادس عشر حتى بداية القرن السابع عشر كان يتركز على العلاقة بين القاريء والنص وما طرأ عليها من تحول ، فبعد ان كانت الرسالة في نظر القاريء عبارة عن نص أدبي يثير إعجابه ومثل يحتذى به ، أصبحت وسيلة وأداة توصله الى تجارب الكاتب الشخصية وتسمح له بالغوص الى أعماقه وتحليل شخصيته ، فاهتمام القاريء أصبح لا ينصب على أسلوب الكاتب ولا حتى على الموضوع فحسب وانما أصبح منصباً على الرسالة باعتبارها تعبيراً عن ذات الكاتب أي ان القاريء أصبح يتناسى النص ويعتبره مرحلة شفافة لا سبيل الى الاستغناء عنها لكي ينصت الى الكاتب وهو يخاطبه . . . وبعد موت الكاتب وانتهاء حياته وانقطاع الصلة بينه وبين عالم الأحياء تستمر رسائله في الشهادة عليه وعلى تفوقه وعظمته ولكن أحياناً ينكشف فيها للقاريء أمور كان يفضل أن يجهلها عن الكاتب الذي يحبه لأنها تمس الصورة الخيالية التي رسمها له القاريء في ذهنه .

وبعد ، فمن هذا العرض الموجز يمكننا أن نقول إن أدب المراسلات يحتل مكانة مرموقة في تاريخ الأدب الفرنسي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فبفضل مجموعات الرسائل التي لعبت الصدفة دوراً كبيراً في الحفاظ عليها وبفضل مقدرة الناشرين على التغلب على الصعاب التي واجهتهم أثناء محاولتهم نشرها استطعنا نحن أن نعرف الكثير من أفكار وآراء ومواقف بعض الكتاب والتي لولاها لما توصلنا لمعرفتها ابداً ، كما ان هذه الرسائل تعتبر بمثابة مذكرات يومية وتعتبر أيضاً في كثير من الأحوال وثائق مكملة لما جاءت به كتب التاريخ .



(٢٢) Cite Pat Mirelle Gerard, art epistolaire et art de la conversation, in Revue d Histoire Litteraire de la france, Nov-dec 1978 p. 958 a 974, p. 971.

BIBLIOGRAPHIE

I. Oeuvres des auteurs traites.

1. MONTESQIEU, **Les Lettres Persanes,** Paris, Garnier-Flammarion, 1956.
2. ROUSSEAU, Jean-Jacques, **La Nouvelle Heloise.,** Paris, Garnier-Flammarion, 1953.
3. SEVIGNE (mede), **Lettres Choisies.,** Paris, Larousse, 1946.
4. Voltaire, **Lettres Philosophiques,** Chronologie et Preface par Rene Pomeau, Paris, Garnier-Flammarion, 1964, 188 p.

II. Ouvrages Generaux.

1. ADAM Antoine, **L'Age Classique,** t. 1 (1624-1660), Arthaud, 1968.
2. CLARAC Pierre, **LAge Classique,** t. 11 (1660-1680), Paris, Arthaud, 1969.
3. HENRIOT Emile, **Courrier Litteraire, XVIII e siecle,** Paris, Albin Michel, 1961.
4. LANSON Gustave, **Histoire de la litterature francaise,** Paris, Hachette, 1953.

III. Ouvrages de critique sur les auteurs traites.

1. BAILLY August, **Madam de Sevigne,** Paris, Librairie Artheme Fayard, 1955.
2. DEDIEU (J), **Montesquieu,** Paris, Alcan, 1913.
3. MORNET Daniel, **Rousseau,** Paris, Hatier, 1950.
4. NAVES Raymond, **Voltaire,** Paris, Hatier, 1962.

IV. Revue d'Histoire Litteraire de la France, **La LETTRE AU XVIIIe siecle,** Paris, Armand Colin, Novembre-Decembre 1978.
Ce numero comporte les articles suivants :

1. BEUGNOT Bernard, **Style ou styles epistolaires,** p. 939-957.
2. CUENIN Micheline, **La Lettre educatrice de le Sensibilite : l'exemple de Voiture,** p. 922 a 938.
3. DUCHENE Roger, **Le lecteur de lettres,** p. 977a993.
4. GERARD Mireille, **Art epistolaire et art de la conversation : les vertus de la familiarite,** p. 958a976.

※ ※ ※

مصر والشرق في مراسلات جوستاف فلوبير

دولت صالح العرب

في القرن التاسع عشر بدأ كثير من الأدباء والفنانين يحلمون بالشرق ، مثل : شاتوبريان وفيكتور هيجو ، وديلاكروا ، وجيرار دونرفال ، ومكسيم دوكامب ، وفلوبير .

وبعضهم تحدث عنه حتى دون ان يجيئه قط شأن فيكتور هيجو الذى تعد مجموعته الشعرية المسماه « الشرقيات » (المنشورة سنة ١٨٢٩) نقطة تحول في الأدب الفرنسى ، وفيها نجد النزوع الى الصبغة المحلية والاهتمام بالتفاصيل - بدلا من تعميمات الأدب الكلاسيكى - والاحساس بالشرق .

يقول هذا الشاعر متغنيا بمصر :
« مصر تنشر حقولها المزركشه مثل البساط النفيس
وقد توجتها السنابل بالشقرة »

ان الجمال لا يرتكز في الشرقيات على سحر الشرق وحده ، ولكن ايضا على المهاجره الى ما وراء الافق ، الى ما ليس هنا بل هناك .

وقد كثر التلميح الى أسلوب فيكتور هيجو في استخدام الضوء ، كما تجلى في الشرقيات . وبالفعل فان للون فيها وضوحا أقوى مما في نصوص الأدب الكلاسيكى ، ولكن اللون ليس هو موضوع الوصف ، بل رمزا يعين الشاعر ، انه يعبر عن الجنوح والتضارب والغموض . والطابع الحقيقى للشرقيات هو أن الهروب فيها ليس هربا الى الشرق ولكن الى الخارج العالم الممكن بأسره ، انها محاولة لرؤية المستحيل وحلم خيالى وقصيد جسور الرؤية لا يحدد الطبيعة فيه خطوط الواقع وأحجامه ولكن يشكلها الغموض والخوارق واللاواقع .

وعندما يحدث أن يلتفت فيكتور هيجو صوب الواقع فان حديثه عنه يتسم بالهذيان فيقول :

دعوني لحالي حين يخفي الأفق الغائم
جبهة متموجه بقوس من ضباب
حين يحمر الكوكب العملاق ويتوارى
آه من سيبعث فجأه بيننا أنا وحيد أحلم من النافذه
وتتجمع الظلال خلفي في الردهة
من سيلد هناك مدينة مراكشية ، كأبارقة مدهشه
تمزق عندها قوس الضباب بشهب
كأنها أسهم ذهبيه انفلتت من حزمتها ؟
أيا شياطيني ! .. فلتأت (هذه المدينه) تلهمني
وتضيء أناشيدي المغبره كسماء الخريف
وتلقي في عيني بظلالها السحرية وتظل غسقيه
تزين طويلا الأفق البنفسجي بألف برج
لقصر جنية وألف قبل أن تنطفئ وتحول أقاويل مختلقه (١)

ان موضوع حلم اليقظه هذا ليس هروبا حقيقيا للشمس ولكن هذا الخيال يفجر منظرا طبيعيا يختلف عن المنظر الذي يراه فيكتورهيجو من نافذته ، ان المدينة الشرقية هي ايضا « غسقية » كالغسق الحقيقي الذي يراه الشاعر . فلا يوجد هنا ضوء وغسق ولكن فقط غسق من نوع آخر ذو طابع جسور الرؤ ية يترك في القارىء أثرا دامغا بفضل حصبلته اللغوية الملهمه . إنها الكلمه التي تعكس الوضع فتطوع هي لها الفكر وتفجر الرؤ ية . أما عن الكلمة فمصدرها اللاوعي .
وهذا تحول جذري في الأدب الفرنسي ، فحتى نرفال الشاطح به الخيال (٢) والحلم يحتمي بقيد الاراده . ان الشرق عند فيكتور هيجو ليس الا اطارا لشعره او خيطا فيه .

وهذا الكاتب جيراردو نرفال قد زار الشرق على العكس من فيكتور هيجو وقضى ثلاثة أشهر في القاهرة من سنة ١٨٤٣ ورأى الفسطاط وهيلبوبوليس وشبرا والاهرام ، ولكن ما كان يشغله خاصة في مصر هي المهرجانات في الشوارع ، وأعياد الزواج ، والجنائز ، ومطوعو الثعابين ، ورقصات العوالم ، وبفضل هذه المده التي قضاها في مصر ظهر لنا كتابه « رحلة الى الشرق » (٣)وهو واحد من أجمل كتب النثر الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وصفه تيوفيل

---

(١) **Victor Hugo, les Orientales, 'Reverie'**
(٢) **CF. dawiat EIL Arab, Aurelia de Nerval, Analyse stylistique Structurale, le caire 1979 .**
(٣) **Edition charpentiers, 2 vol , 1851**

قام بترجمة القصيد ـ عن الفرنسية ـ احمد على بدوى .

جوتييه بأنه « كتاب خلاب يملؤه الحب واللازورد والنور » [٤] ولكن كتاب نرفال « رحلة الى **الشرق** » ليس مفكره ، ولكنه سرد مشغول بعبقرية أثر عودته الى فرنسا وعلى أساس من ذكرياته ومذكراته ، وفيه من الشعر أكثر مما فيه من الصدق ، ان وصف نرفال يرتكز من ناحيه على الملاحظة الشخصية ، ومن ناحيه اخرى على كتاب « ادوارد وليم لين » : « **وصف طبائع المصريين المحدثين وعاداتهم** » الذى كتبه فى مصر بين سنتى ١٨٣٣ ، ١٨٣٥ ، ونشره بعد ذلك فى لندن سنة ١٨٣٦ .

ويشهد نص كتاب نرفال « **الرحله الى الشرق** » نفسه على صاحبه بقصد متعمد للبناء ، ويتضمن السرد بخصوص ذلك اعترافا اساسيا يدلي إلينا به :

« أصبو أن أشكل حياتى كى تشبه القصه وأضع نفسى باختيارى فى موقف أولئك الأبطال الفعالين الطامحين الذين يريدون بأي ثمن أن يخلقوا حولهم الاثاره ، والاهتمام ، والتحديات ، أى بكلمة واحدة : الفعل . » [٥]

وبالفعل جعل نرفال من حياته قصه فى كتاب الرحله الى الشرق ، وسار مختالا بحذاء قواعد هذا الفن وليس على دربها بحيث كان يجنح تارة عن الصرامه ليعود اليها تاره اخرى : هذه هى صيغة **الرحلة الى الشرق** ، وهى صيغه ستأخذ بنرفال فيها بعد الى كتابة اعماله الكبرى فى سنواته الاخيره دفعة واحده ، والتى ستعطى لبنات النار (سنة ١٨٥٤) **وأوريليا** نغمتها المميزه ، وعبقرية نرفال التى اكتمل بناؤها قد اسستها الرحلة بخطوتها المتأرجحه .

فلنقرأ وصفه « لاشراق للشمس » فى القاهرة :

« صوت التركى الذى يعلو من المئذنة المجاوره ، الجرس الصغير الذي يحركه الجمل بهرولته الثقيله ، وقد يزيد عليه زعيقه الغريب ، والرفيف والصفير المبهمان اللذان يسريان فى الهواء والخشب والجدران بينما يرسم الفجر العجول على السقف بالضوء آلاف الشقوق من بصيص النوافذ ، ونسيم مبكر محمل بشذى مفعم يرفع سترباي فأرى خلف حوائط الساحه رؤ وس النخل تطفو ، كل هذا يأخذنى : يطربنى أو يشجينى باختلاف الأيام ، ذلك أنى لا أريد أن أقول أن صيفا خالدا يثمر حياة سعيدة الى الأبد ، إن شمس الحزن السوداء . . ترتفع أيضا على سهول النيل كما كانت ترتفع فوق ضفاف نهر الراين فى منظر ألماني بارد » [٦] .

ان رؤ يا نرفال على عكس فيكتورهيجو تنصب على شروق حقيقى رآه ، ولكن الذي يترك فينا من تلك الصفحات أثرا دامغا قبل كل شىء هو الحزن . . . . انها اعترافات سرية لقلب لم يعثر على السعادة ، ان المنظر الطبيعى هنا ليس الا حالة نفسية ، والشرق ليس الا خيطا شعريا .

وساعة العودة الى أوربا ينظر جيراردو نرفال وراءه .

---

(٤) J. M. Carre, voyageurs et ecrivains Francais en Egypt, 2 vols. Inprimerie de e I.F.A.O

(٥) Le Voyage en Orient ' 2 eme edeton 1860 'gornier, Flammarion 1980t. ,p 42.

(٦) Voyage en Orient, t. I. p.193 — 194

« إن الشرق ـ ومن الآن ـ لم يعد فى عينى الا حلما كأحلام الصباح التى تتسرب وشيكا لتتبعها هموم النهار » (٧)
لقد جعلت « الرحلة » من الشرق حلما كبيرا كما لو كانت تفاصيلها دارت داخل غوامض النفس .

وجوستاف فلوبير مثل نرفال قد زار مصر والشرق اللذين قدمهما لنا في المراسلات (٨) وهى التى سحرت عديدا من الكتاب من بينهم « أندريه جيد » الذى كتب قائلا :

« أحببته طويلا فلوبير كمعلم وصديق وأخ وكانت المراسلات رفيقة وسادتى . آه ! لقد قرأتها بعناية فى سن العشرين . واليوم ليس فيها جملة واحدة لا أعرفها ، وقد احتلت طيلة خمس سنوات مكان الانجيل على وسادتي وكانت معين الطاقة لى ، وكانت تسبغ على حماسى نوعا جديدا من الورع » (٩) .

لقد ظهر فلوبير طويلا بصورة معلم الواقعية الأكبر ، وقد يبدو غريبا للوهله الاولى أن يوضع فى صف فيكتورهيجو ، وجيراردو نرفال بين الرحالة الرومانسيين ، ولكن منذ نشر مراسلاته ومؤلفاته فى شبابه وكذلك النسخة الاولى من كتابه « اغواء القديس انطوان » لم يعد يسع النقد الا ان يعدل قليلا فقليلا عن هذا الرأى ، وكما يقول جون مارى كاريه :

« لقد وضح ان فلوبير لم يصبح دون مجهود كبير ومغالبة للنفس المصور الصلد لحياة الريف ومبدع الروايه الواقعيه « مدام بوفارى » ، ولم يعد اليوم مما يصدم شعور أحد أن نؤكد أنه ليس واقعيا صرفا بل رومانسيا اشعث مقلقلا روض نفسه وضبطها بعسر . » (١٠)

وربما أصبحت رومانسية فلوبير الاولى الآن فى حكم المعروفة فى حين أن الدور الذى لعبه سفره الى الشرق فى تطوره من الرومانسيه الى الواقعية ليس معروفا بنفس الدرجه ، ذلك الدور الذى ستكشفه لنا الرسائل التى كان يكتبها طوال رحلته فى مصر وللشرق .

●●●

ان سنوات تأهيله لرحلته الشاقة تختلط عنده بسنوات ترحاله ، وتدرك من خطاباته أن للسفر هو تكملة لا غنى عنها للاعداد لمهنة الكاتب ، فيجب ان يتعلم ان يرى جيدا ، وأن يلحظ ، وقد اورد موباسان فى مقدمته لكتاب « بيير وجان » المنشور سنة ١٨٨٥ النصيحه التى اسداها فلوبير إليه :

« يستحسن التمعن فى كل ما يراد التعبير عنه طويلا وبعناية كافية لاكتشاف ملمح لم يقله أحد ، وفى كل شىء هناك ما لم يكتشف بعد ، ولكننا لا نعرف هذه البديهية لاننا تعودنا أن نستخدم أعيننا بذاكرتنا ونتساءل فقط عما ظنه من رأوا الشىء قبلنا ، ولكن أصغر شىء فيه قليل من المجهول ، فلنجده ، لكى تصف نارا تلظى وشجرة فى سهل يجب أن

---

(٧) Ibid, t. ,p . 363
(٨) G ustatve Flaubert, Correspondance, 2 Vol. Paris, Gallimard 1973
(٩) La Nouvelle Revue Francaise, Avril 1913
(١٠) Voyageurs et ecrivains Francais en Egypte, t. P.81

تظل قبالة تلك النار وتلك الشجرة حتى لا يعود ايهما ما يشبه لعينيك أي نار أو شجره اخريين ، وهكذا تكون أصيلا » ويتابع موباسان كلامه قائلا : « لقد جعلنى فلوبير أعبر فى بضعة جمل عن كائن أو شيء بشكل يخصصه وحده ، ويفرق بينه وبين كل الكائنات التى من نفس جنسه او الاشياء التى من نفس نوعه لانه علاوة على مكتشفاته وضع يده على تلك الحقيقه وهى انه لا يوجد فى العالم اجمع حبتا رمل او ذبابتان او يدان أو أنفان متطابقان تماما .

« كان يقول لي : : عندما تمر أمام بقال جالس عند بابه أو بواب يدخن غليونه او موقف لعربات الفيكر أرنى هذا البقال وهذا البواب وضعهم وكل مظاهرهم البدنيه بحيث تحتوى كذلك كل ما في طبيعتهم الاخلاقية موضحة بدقة الصورة ، وبطريقه تجعلنى لا اخلط بين ايهما وبين اى بقال او بواب آخر ! واجعلنى أبصر بفضل كلمة واحدة كيف يختلف حصان عربة عن خمسين حصان آخر يسبقه بعضهم ويتبعه البعض الآخر ! »

ويكفى أن نقرأ رسائل فلوبير ، وأن نفتح مخطوطه الذى لم ينشر بعد « كراسات السفر » [١١] لكى نجد مئات الامثله على تلك القدره لالتقاط الملمح المتميز على الفور ونرى الصورة التى توضح « بدقتها » ، وتحكم الطابع الخاص للفرد الواحد او الشيء وتفرق بينه وبين نماذج أخرى لنفس الفرد أو الشيء ، وهى خصلة نادرة فى كل الازمنه والأماكن ، ولكن ايضا كم تزداد قيمتها حين يرتحل الكاتب ! فاذا كانت شخصية « سالامبو » (بطلة احدى روايات فلوبير) على ما تراها عليه ، اذا كانت تبدو رغم غموضها مخلوقا حيا وليست مومياء لم تزل محاطة بلفائفها فلنبحث عن تفسير ذلك فى صفحات رحلته الى الشرق [١٢] ، واذا كانت رقصة سالومى تهز القارىء تماما كما حركت قلب هيرودس ، وذلك فى آخر قصة من « حكايات ثلاث » لفلوبير ، وعنوانها « هيرودس » ، فلنسأل عن السبب بين صفحات نفس الرحلة ، والرسائل المكتوبة من مصر .

ان شرق فلوبير هو على عكس شرق نرفال الذى عولج وصفه بعد انتهاء الرحله بزمن . فان الاول يعرض علينا تلقائيا يوما بيوم فى اثناء الرحلة نفسها فى رسائل فلوبير الى ذويه واصحابه . ان فلوبير يذيع الاحداث ويصف الاشخاص والاطار الذى يحتويها وتثلج العجائب صدره ، وهو ينظر بالطريقه التى نصح بها موباسان وفى نفس الوقت فان نوعا من الضيق يعترينا ونحن نقرأ الرسائل ، نعم الشرق تحت الملاحظه ، وبعنايه ، ومع ذلك لا يتجاوز الامر ذلك ، ان فلوبير يظل مجرد ملاحظ ، وكما قال عنه سارتر « لا يلتزم قط ويعبر بفكره عما يحيط جسمه » .

●●●

كان جوستاف فلوبير فى السابعه والعشرين من عمره غادر فرنسا فى خريف سنة ١٨٤٩ بغية السفر الى الشرق ، لا

---

(١١) Gustave Flaubert, Carnets de Voyage Bibliothe que historique de LaVille de Paris.

(١٢) C.F.Giovanni Bonnacorso, L,Oriente nella narrative de Flaubert, Messine, Edas, 1979.
P.M.Wetheril, Flaubert et la Creation Litteraine, Paris, Nizet, 1964, Jean Bruneau, Le Comte Oriental de Flaubert Paris Penocl ,1973.

يعرفه احد خارج دائرة اصدقائه ، ولكنه كان ملفتا لنظر الاصحاب [١٣] والاغراب على السواء بقامته ووسامته وعضلاته المفتوله وكأنه احد غزاة الشمال الشقر « الفايكنج » ، وله عينان سوداوان وفم دقيق ، وقد كتب بعد ذلك من مصر قائلا ان نساءها كن لا ينقطعن عن لومه على اخفاء محاسن فمه تحت شاربه .

كان شهوانيا ولكن من نوع خاص . ففى سن الخامسة عشرة ، وقع فى غرام امرأة متزوجه تكبره باحد عشر عاما وبطريقة عاطفية تذكر بروايات الحب العفيف . ويقول احيانا انه ظل يكن لها حبا افلاطونيا ، كان يغشى دور الدعاره وكان له فى الدعاره « فلسفة » مستقلة ، فقد كتب يقول :

« قد يظن هذا انحرافا فى التذوق لكننى أحب الدعاره ، ولذاتها بصرف النظر تماما عن معالمها الجسديه . يأخذ قلبى فى الدق كل مره ارى فيها احدى تلك النسوه ذات الاثواب القصيره تسير قرب واجهة زجاجه تحت المطر ، تماما مثلما كان الرهبان بملابسهم التى تلفها الحبال يلمسون دائما ركنا معينا عميقا زاهدا من روحى ، ان فكرة الدعاره هى نقطه التقاء عناصر عدة : الدنس ، والمراره ، وغياب الترابط الانساني تماما ، والسعار العضلى ،وصليل الذهب . ما أكثر ما يتعلمه الانسان داخل الماخور ، ان المرء يخامره حزن بالغ ، ويعاود الحلم به بكثير من الحب واللوعة » .

لم يكن للجسد البشرى أسرار تستعصى على فلوبير فقد كان ابن جراح ، ويعرف هو نفسه كثيرا من الاطباء ، كما يعرف المشرحة التابعه للمستشفى ، وكان قد قطع قبل السفر الى مصر علاقة غرامية استمرت عدة سنين مع امرأة متزوجه وجميله وواسعة الثقافة اسمها « لويزكوليه » وقد خصها بجانب كبير من رسائله البليغه الماجنه . وقد باعت ابنة لويزكوليه تلك الرسائل فيما بعد وتم طبعها ونشرها ، ولكنه كان يكتب لعشيقته اكثر كثيرا مما يراها ، وتكاد لا تخلو احدى رسائله من فقرة تضم اعتذارا وتبريرا لتأجيل لقائهما الى وقت لاحق ، وكانت اشد محبته مكرسة لآخرين هم امه وبعض اصدقائه من عمره ، وكان احد هؤلاء واعزهم « الفريد بواتفان » . وكان شابا حالما فى مثل موهبة فلوبير اخترمه الموت فهصر موته قلب فلوبير ، وكان ضحية السل ومرض آخر شائع فى ذلك العصر وهو السأم ، وكانت تلك الوفاة حلقة اخيرة فى سلسله من الوفيات ، ففى السنوات السابقه كان قد فقد عزيزين اخرين من ألصق اقربائه هما أبوه واخته « كارولين هامار » التى تركت بنتا صغيرة اسمها كارولين ايضا حيل بين ابيها المستهتر وبينها وربتها جدتها ام فلوبير وفلوبير نفسه فى بيتهم الريفي الصغير على ضفاف نهر السين فى كرواسيه وهى احدى ضواحى روبن فى نورماندى حيث ولد فلوبير نفسه .

نريد أن نقول ان منظر فلوبير الخادع وملامح شكله الرياضيه وتقليده لابناء جيله فى غزوات الحب ليست الا مظاهر خارجية . فقد كان ذا حساسيه فائقه ، وعندما كان يتابع محاضرات القانون بعد تصميم من والده اصيب بسلسلة من نوبات الصرع اجبرته او بالاحرى اتاحت له ان يهجر دراسة القانون وان يحيا حياة رخيه فى بيت الاسره ، وأن يفعل ما يريد ، وقبل هذا وذاك أن يكتسب . ذلك ان جوستاف فلوبير لم يكف يوما عن الكتابه . كان قد بدأ يسود السطور منذ

(١٣) CF. Albalat, Gustave Flaubert et ses amis, paris plon, 1977 Harry Levin the Gates of Horn : Astudy of Live French Realists New yourk , Oxford p.u.p 1963

أن تعلم الحروف الابجدية على حد قوله ، وباقترابه من سن الثامنة والعشرين كان على مكتبة عديد من الاقاصيص التى كتبها فى صباه ، وروايتان وخلاصة رحلة قام بها على قدميه فى اقليم « بريتانى » ثم عمل خيالى طويل اسمه « **اغواء القديس انطوان** » . وقد سرت الى فلوبير رغبة فى كل ماله سحر شرقى كما سرت الى العديد من معاصريه الذين كانوا اطفالا او فى سن المراهقة ابان العصر الرومانسى ، اما هو فجاءته خاصة اثر قراءته لبايرون **ولشرقيات فيكتورهيجو ولالف ليله وليله** ، فمنذ طفولته اذن كان يحلم بالشرق كما كان يحلم به كل الرومانسيين فى اعقاب حملة بو نابرت على مصر .

ان الشرق هو بغية حضارة « البقالين » . ففيه الحرية حيث ترتشف الحياة من منابعها ويحلو مذاقها كالاكسير . ويقول فلوبير عن العرب للويزكوليه : « احب هذا الشعب الفج المثابر المقاوم ، آخر طراز للمجتمعات البداية ، الذى يسخر ، فى الظل او تحت بطن الناقات ، وخلال دخان الشيبوك ، من حضارتنا البارعه التى تقشعر غضبا من ذلك » .

ان فلوبير الشاب يلفظ عالم الغرب الضيق المتمسكن ولا يحجم اكثر من مره عن ان يذهب فيلقى بنفسه فى العجيج البشرى بمدن الشرق . ان الشرق هو امكانية الخلاص القصوى : التى تتيح لفلوبير ان يعيش وفق هواه دون تضييق على ذاته الآخذه فى التضخم حتى لتكاد تختلط بالكل المطلق ، ان الشرق هو العالم الاخر عالم مجهول غامض ، وقد عبر فلوبير عن حبه للشرق فى اولى كتاباته ، فى عباره قويه يقول فيها : ـ

« آه اني لأنزل مختارا عن كل نساء العالم في مقابل أن أمتلك تمثال كيلوباترا » هي مثل على ذلك التدفق للشرق الذي عرفه شبابه . والنسخة الأولى لمؤلفه « اغواء القديس انطوان » ، والتي تمثل أنضج أوج لذلك التدفق انتهى منها قبل سفره الى مصر مباشرة . ان هذا المؤلف هو ذكر لما تعرض له القديس في ملاذه بمصر من انقضاض جحافل من الوحوش والأوثان والهراطقة وسائر الخطاة عليه ، وبينما كان فلوبير يشتغل به ويقضى أيامه في اكفهرار روين كان يستشعر رغبة قوية جدا في الشمس وتوقا الى القدم الكلاسيكي . كانت لاتينية لابأس بها كما كان يعرف اليونانية القديمة ، ويبدو أن قرائه لهيردوت جعلته يكتشف مبكرا جدا الطريق الذي يفضي الى القدم الشرقي ، وقد جعل لكي يستطيع أن يكتب كتابه « اغواء القديس انطوان » يقرأ مؤلفات عن أديان الشرق وشيئا فشيئا نما اهتمامه به فصار شيئا أعظم من مجرد تذوق متحفي . لم يكن بالسائح البسيط الذي سيذهب ليجوب الشرق ، وقد أدى غرامه بالشمس الذي هو سر ايمانه بوحدة الوجود ، وفهمه للحضارات الذي قاده الى اكتشاف الشرق القديم وحبه لاستطلاع كل ما يتعلق بالديانات الى تعميق مفهومه للشرق الذي بدأ بدوره يتخذ مكانا يزداد أهميه بالتدريج في تأملاته وفي كتاباته .

ان شرق فلوبير ليس فقط منظرا في حلم ولا هو مجرد مصدر للون الذي يثبت مكان القصيدة أو اقليمها . ان الشرق في عين فلوبير قد أصبح بالتدريج نوعا من وطن .

ولكنه وحتى عندما كان في الشرق كان ينتابه مرارا انطباع برتابه الظواهر فالشرق قد ظل الوطن الذي لم يكن رآه قط قبل ارتحاله اليه سنة ١٨٤٩ ، وكان لأحد أصدقائه المقربين وهو مكسيم دوكامب الذي كان قد التقى به أثناء دراسته في كلية الحقوق حظ أكبر من حظه ، فقد كان يستطيع وهو ثري يتيم أن يفعل كل ما يريد ، وفي سن العشرين سافر وحده

الى آسيا الصغرى ، وايطاليا والجزائر ، وفي سنة ١٨٤٨ عندما كان قد بلغ سن السادسة والعشرين نشر ذكرياته عن السفر في كتاب عنوانه « ذكريات ومشاهد من الشرق » وجه في مفتتحه الاهداء الى جوستاف فلوبير الذى اجابه بدوره أن يديه ارتعشتا فرحا لحظة افتض صفحات ذلك الكتاب . كان مكسيم هذا الميسور الحال النشط المرح الطموح المملوء حيوية والذي لا يحول عزمه هو الذي شجع فلوبير على مصاحبته في رحلة ثانية أطول من الأولى في وقت كان فيه فلوبير بدأ يستسلم لعاداته المنزلية التي بدأت تضعف فيه الحماسة للذهاب الى الشرق ، وكان هو أيضا بمثابرته ودقته الذي أقنع أم فلوبير ، وقد اشتد جزعها ، بالموافقة على سفر ابنها وباعطائه النقود التي تلزمه للرحلة ، وقد فعل ذلك بعد مجهود شاق وقد استعان بطبيب الاسرة الدكتور جول كلوكيه لاقناع فلوبير بان زيارة ابنها لبلد دافىء ستعود بالخير على صحته .

كان هناك ايضا ثانى اصدقاء فلوبير المقربين الباقين على قيد الحياه وان اختلفت ظروفه مع ظروف فلوبير ومكسيم دوكامب اختلافا شديدا وهو لويس بوييه وهو شاعر مسالم قليل الامكانيات الماديه ولم ينشر شعره قط ، وكان هجر دراسة الطب وعمل لكسب قوته مربيا فى روين ، وكان يشارك فلوبير فى حبه للقدم وللشرق ، وكانا يلتقيان مرارا ويتناصحان فى الادب ، وقد روى مكسيم دوكامب فى كتابه « ذكريات ادبيه » انه قبل السفر الى مصر كان الاصدقاء الثلاثة يلتقون فى جلسات قد تستغرق احيانا الليل بأكمله (١٤) .

هذه هى باختصار ارضية وصف الرحلة الى الشرق الادنى التى قام بها فلوبير ، واربعة من الشخصيات الماثلة على هذه الارضية هى اهم شخصيات الرحلة نفسها : الرحالان فلوبير ومكسيم دوكامب والمنتظران بالوطن ام فلوبير ولويس بوييه اللذان كانا يتلقيان خطابات فلوبير ، وعلاوة على ذلك هناك شخصيتان يسميهما فلوبير « الابكمان » : خادم اسمه « ساسى » من اصل كورسيكى كان يعمل سابقا فى الخياله العسكرية ثم اصطنعه مكسيم دوكامب فى باريس لهذه المهمه ومرشدهم « جيسيبى » الذي ولد فى جنوه اصلا واكتروه فى القاهره كما « فرنسوا اسمه فاصبح بكل بساطة « جوزيف » .

وخلال الرحلة بأسرها يظهر موظفون ورجال دين ومحتالون وراقصون وعاهرات ويختفون ، والمسافران يتنقلان فى القاهرة . ثم يركبان النيل ، ودائما فى الخلفيه البعيدة قرب نهر رقيق وان لم يكن عتيقا كنهر النيل يقبع قرب شرفة طويله تملؤها النباتات مكتب الشاب فلوبير ينتظره كى يرجع ويكتب ، ولكن ماذا سيكتب ؟

●●●

كان فلوبير قد فكر فى كتابة رواية عن حياة الريف الفرنسي ، وقد تمت بالفعل سنة ١٨٤٧ بعنوان « مدام بوفارى » . وكان قد توقف خلال رحلته الى اقليم « بريتاني » التى تحدثنا عنها آنفا عند « بلورا » على ضفاف « اللوار » ، وقال فى مذكراته عن هذه المدينة الهادئه إنها ألهمته بفكرة جاءته لاول مرة فيقول : « الشوارع فى بلوا خاليه والعشب ينبت

(١٤) Maxime du Camp , souvenirs Litteraires Paris , Hachette , 2 vol . 1882 — 1883

بين البلاطات المستديره وعلى جانبي الشارع تحيط أسوار طويله رماديه بحدائق واسعه ومن هنا وهناك باب صغير محتشم يكاد يقنعك بأنه لا يفتح الا ليلا للزوار الغامضين ، وهنا نشعر بأن كل الايام لا بد ان تتشابه ، وبأنه فى هذه الرتابه الهادئة (التى تملك مع ذلك رقتها كما يفيد رنين نواقيس الكنيسه فى معرفة الزمن) لا بد وان يوجد حزن لذيذ ورغبات رقيقة ونود لو نتخيل ان فى وسط تلك البيوت الوادعه عاشت، قصة عميقة يصعب البوح بها ، وعاطفة تكاد تشبه المرض المزمن الذي لا ينتهى الا بالموت ، والحب الخالد المكتوم الذى تجده عند عانس او امرأة متزوجه فاضلة ، ولا استطيع ان امنع نفسي من التفكير فى كون هذا الموقع نموذجيا لامرأة لها أصل وجمال شاحب ويدان مرهفتان اظافرهما طويله متزوجه من رجل غيور بخيل خسيس يموت مسموما » . انه ذلك الكاتب الشاب الذى يحب ان يتخيل ذلك النوع من الحكايات بقدر ما هو الرومانسى الذى أنجز لتوه النسخه الاولى لاغواء القديس انطوان الذى سنصحبه فى حلمه للشرق .

●●●

تفتحت فى مصر ابواب كثير من المسؤ ولين الرسميين امام فلوبير ومكسيم دوكامب ، ولم يكن فى ذلك يرجع الى كونهم « مبعوثين فرنسيين » وانما مجرد فرنسيين ، فلم تزل لفرنسا مصالحها السياسية فى مصر رغم سقوط نابليون الذى كان المصريون يدعونه بالسلطان الكبير ، وكان والى مصر محمد على قد لفظ انفاسه الاخيره قبل وصول فلوبير بأشهر معدودات وهو الذى شجع النفوذ الفرنسي : كان قد ألحق بخدمته عدة فرنسيين ، وانعم على بعضهم بلقب البك ، وأحيانا الباشا فسليمان باشا مثلا ، الذى اشار اليه فلوبير فى رسائله ، كان كولونيلا سابقا بالجيش الفرنسي اسمه سيف ، وكان قد اسهم مع ابن محمد على فى دحر جيوش السلطان العثماني فى موقعة نزيب سنة ١٨٣٩ ، كذلك كان ، جاليس بك ، وبرانستوبك اللذان ذكرهما فلوبير فرنسيين ايضا ، وكان الترحاب الذي لاقاه فلوبير من كبار الموظفين مصدر اطمئنان لوالدته ، وذلك ما دعاه الى ان يسرع بالحديث عنهم فى اولى رسائله اليها ، ولكن يبدو انهم لم يفارقوا ذاكرته سريعا ، فقد كتب بعد ذلك الى لويس بوييه يقول :

« ان سفلة الفرنسيين المغتربين تثير الدهشه ، واسمح لى ان اضيف انها كثيرة العدد ! » ثم يذكر فلوبير فى رسائله موظفين فرنسيين اخرين يعملون بمصر مثل لومبير بك وهو « شارل لومبير » المهندس وأحد اتباع سان سيمون ، وايضا موجل بك المهندس ولوبير بك ياور البلاط ، وكلوت بك وهو الطبيب « انطوان كلوت » وبكير بك الكورسيكى الاصل قائد الشرطة المصرية الخاصة بالاجانب ، وبالطبع لم يكونوا جميعا من السفله ، وكان لاخلاق لومبير العاليه وروحه النبيله اثر دائم على مكسيم دوكامب الذي اتجه بعد ذلك الى الصحافة التقدمية والنقد الاجتماعي ، كما كان كلوت طبيبا عسكريا ممتازا ، انما كان من بينهم بعض المغامرين .

كان والى مصر فى نهاية سنة ١٨٤٩ هو عباس باشا حفيد محمد على كما هو معروف .

وصل جوستاف فلوبير ، ومكسيم دوكامب الى الاسكندريه يوم ١٥ نوفمبر ١٨٤٩ ، وفي يوم ١٧ نوفمبر وصف فلوبير فى رسالة الى والدته انطباعاته الاولى عن الاسكندريه قائلا :

« عندما وصلنا في الساعة الثانية الى شاطىء الاسكندريه صعدت مع قائد الدفه الى السطح ولمحت سراى عباس باشا كقبة سوداء على زرقة البحر ، وكانت الشمس تصب أشعتها عليها وخلفها رأيت الشرق او ربما رأيته فى ضوء فضى اكبر اعتصر بين البحر والسماء ولم يمض قليل الا وبدأ الشاطىء يرتسم ، وكان اول ما رأيناه على اليابسة جملين يقودهما الجمال ، ثم على طول الساحل عرب نشيطون يصطادون فى ثنايا هواء لا حدَّ لمسالمته ، وساعة النزول كان ضجيج كأنه مجموع دفوف الشرق كلها تذهب باللب ، وقد تصادف ان كان سليمان باشا رجل مصر القوى، وقاهر نظيم، ومرعب القسطنطينية موجودا فى الاسكندرية بدلا من القاهره ، وقد قمنا بزيارة له أمس ، وقابلنا بما يثير الاعجاب . انه رجل ساحر ودود ، وكذلك رأينا مسيو جاليس المهندس بالعسكريه المصرية والبك برانستو وغيرهما ، ويكفى لكى تفهمى الطريقه التى سنسافر بها أن أقول لك اننا اعطينا جنودا يفرقون حشودا تتكاثر علينا حينما نلتقط الصور ، وأظن ذلك شيئا من الاناقه ، وترين أيتها العجوز المسكينه انني لا استطيع أن أكون اسعد حظا ! » [١٥]

كان مكسيم دوكامب قد اخذ معه آلة تصوير ، وكان التقاط الصور فى ذلك الوقت شيئا جديدا تماما ، واستحوذ على مكسيم دوكامب الى حد أنه عند عودته من الشرق نشر ألبوما بمائة وخمسين لوحة فتوغرافية عنوانه « **مصر والنوبة وفلسطين وسوريا** » يصحبه نص تفسيرى وتسبقه مقدمه . [١٦]

وفى يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ استقبل أرتين بك المسئول عن الشئون الخارجية المصريه جوستاف فلوبير ومكسيم دوكامب اللذين ارتديا زيا مهيبا : له سوداء وصدارا أبيض وخفا ، ومنحهما ما يسهل لهما اجراءات رحلتهما كلها ، وفى يوم ٢٣ نوفمبر غادرا الاسكندريه ، ويقول فلوبير حين يكتب الى امه : ـ

« تبدأ الصحراء مباشرة عند ابواب الاسكندرية ، وهى تلال رمليه مغطاة هنا وهناك بأشجار النخيل ثم سهول رملية لا تنتهى ، ومن حين لآخر تبدو لك عند الافق برك مياه بين السهول ، وعند الحد الاقصى الذى يظهر ملامسا للسماء يمر بخار رمادي سريعا كقطار سكة حديد ، إنه السراب ، والكل يبتلى به : العرب والاوربيون ، أولئك الذين اعتادوا الصحراء ، وأولئك الذين يرونها لاول مرة . » [١٧]

غادر المسافران الاسكندرية يوم ٢٥ نوفمبر ويسجل فلوبير فى كراسات سفره : ـ

« تركنا الاسكندرية الى القاهرة على ظهر سفينة يجرها مركب بخارى صغير لا يحمل الا محركه : شواطىء المحمودية فطساء ميته ـ الليله الاولى على ظهر النيل أشعر بالطرب والميل الى الغناء ـ أثرثر وأتحرك وأقرأ لنفسي بصوت عال سطورا

---

(١٥) Correspondance , t . I , pp . 528 — 529

(١٦) Ed . Gide et J . Baurdry 2 vol , 1852 .

وجدير بالذكر ان قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالقاهرة قد أقامت بين يوم ١٧ و ١٨ فبراير سنة ١٩٨٢ معرضا للصور الفوتوغرافية بعنوان « مصر فى عهد فلوبير » تحت اشراف وزارة العلاقات الثقافية الخارجية الفرنسية ، وكان بين معروضاته صورة لفلوبير فى القاهرة يوم ٩ يناير سنة ١٨٥٠ بعدسة مكسيم دوكامب .

(١٧) Correspondance , t . I , p . 530

من شعر بوييه ـ لا أستطيع إرغام نفسي على النوم ... افكر في كيلوباترا ... الماء اصفر رقراق ، وبعض النجوم ..... يغشاني النوم على سطح السفينه على فراشى المتنقل بينما انا مدثر بمعطفى . ياللهناء ! الصحراء من ناحية ومن الناحية الأخرى الحقل الاخضر ، وهو بمزروعاته يشبه من بعيد أحد سهول نورماندى التى تنمو فيها أشجار التفاح ، ولون الصحراء رمادى محمر ، ويظهر اثنان من الاهرامات ثم ثالث يصغرهما وعلى يسارنا تظهر القاهرة قابعة على تل وقبة مسجد محمد على ووراءها تلال المقطم العاليه . » (١٨)

وقد نمى فلوبير ملاحظاته المدونة من قبل فى رسائله وخاصه تلك التى بعث بها الى لويس بوييه وهى اكثرها تفصيلا وألفة وتمعنا وتأملا ، وفيها يدل الوصف الذي يتنوع المرة تلو المرة لنفس المشاهد على الاهتمام الذي يحمله فلوبير لتجاربه مثلما فى هذا القصيد البريدى الذى بعث به من القاهرة يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٩ الى رفيق ثقافته :

« أبدأ ايها القديم العزيز بتقبيل رأسك الطيبه ، وبأن أنفح الورق كل مايلهم روحك كى توافينى ، وان كنت اعتقد على أية حال انك تكثر التفكير فينا . ذلك اننا نكثر التفكير فيك ، وتوحشنا مائة مره فى اليوم . وفى الساعه التى أكتب فيها اليك يسطع القمر على المآذن وقد صمت الكل ، ومن حين لآخر تنبح كلاب ، وأمامى من النافذه التى انحسرت عنها الستر كتل الاشجار تبدو سوداء فى الحديقه تحت نقاء الليل الشاحب ، أكتب من فوق طاولة مربعه يزينها بساط اخضر وتضيؤها شمعتان ، واستمد الحبر من آنية دهان ، وأسمع من خلال الحائط صديقنا الشاب مكسيم يعد جرعته لتحميض الصور ؛ والأبكمان : زاسى والترجمان ينامان فوق السطح ؛ ولا أخفى عليك ان هذا الترجمان هو من أحذق وأخبث القوادين الممكن وصفهم ، اما سيادتي فمكسو بقفطان نوبي طويل موشى بأشكال الهدهد (ويطول وصف تصميمه) وهامتى حليقه تماما ويعلوها طربوش أحمر زاعق اللون كاد يهلكنى من فرط الحر فى الايام الاولى التى ارتديته فيها ، ولقد أصبحنا نبدو للناظر شرقيين للغاية » . (١٩)

ان فلوبير مندهش من تجربته الجديده ويرتدى الزى الشرقي ، ولكن ذلك لم يكن الا لعبة أو استعراضا ! ذلك ان أكثر ما يحبه هو الاستعراضات ، ومسارح الشوارع ، والمشاهد الشعبيه ، والمشاجرات ، والتحطيب كما يدل عليه باقى الرساله : ـ

« ... ها أنذا الخص فى كلمة واحدة ما احسست به : اندهاش قليل من الطبيعه بارضها وسمائها وصحرائها وسرابها ، واندهاش هائل من المدن والبشر ، لو كان هيجو هنا لقال : كنت اقرب الى الله منى الى الانسانيه ، ولعل ذلك الاندهاش يرجع الى انى كنت احلم وانقب واتخيل كل ما هو افق وخضرة ورمال واشجار وشمس وفاتنى حتى ان اتوقع ما هو ديار وشوارع وازياء ووجوه ، فكان لى مع الطبيعه لقاء ، ولكن كان لى فى غيرها وجد ، ولكن هناك عنصرا جديدا لم أكن أن انتظر أن اراه ويفرض وجوده هنا وهو يضحكك ببشاعته ذلك هو السحيق الهزلي من ضرب العبيد ،

---

(١٨) Ibid , p 532

(١٩) Correspondance , t. 1 , pp 536 — 537

وبائع الرقيق الذى يدلل على نسوة مكتنزات ، والتاجر الناصح ـ وقد عاد الى الشباب حقيقيا أخاذا ، وليس اكرم من العصا التى تنثر ضرباتها يمينا وشمالا فى الشوارع وفى البيوت لسبب او لغير سبب . » [٢٠]

لم يخرج فلوبير فى انطباعاته عن تلك الظواهر عن سلوك سائر الاوربيين الذين زاروا الشرق فى القرن التاسع عشر ورأوه بعين عابره ، وكأنه الركن الشرقي من متحف الشمع وقد عاد الى الحياة . وقد ذكرنا ان الرحلة الى الشرق ـ وكون فلوبير كتب سجلا ادبيا لها ـ هما اللذان رسوا بسفينته بعد اهواء الرومانسيه على صخرة الواقعيه ، وقبل أن نواصل فى رفقته اكتشاف الاهرام فلننظر كيف وصف الرومانسي الشاب فى سنة ١٨٤٥ منظر الهرم الاكبر من اعلى معتمدا على خياله وقراءاته فحسب ! ان الفقره التاليه هى من النسخة الاولى من رواية فلوبير المسماة « التأهيل العاطفى » ، وهى نموذج طيب للاسلوب الذى كان يكتب به فلوبير عن الشرق قبل سفره :

« عندما يصل المسافر الى قمة الهرم تكون يداه قد تمزقتا وركبتاه قد دميتا تحيطه الصحراء ويبتلعه الضوء ويحرق الهواء الخشن رئيته ، وقد نال منه التعب ، وأعماه الوميض ، فيخر على الحجر بين مداعبات الطيور التى جاءت هنا كى تموت . ولكن فلينظر ! فلينظر فوق رأسه يسارا ليرى تلك المدن ذات القباب الذهبيه والمآذن من الفخار ، والقصور من المرمر والحمامات من الرخام ، حيث يجيء السلاطين ليغسلوا اجسادهم فى الساعه التى يجعل فيها القمر الظلال زرقاء والمياه فضيه تأخذ فى التألق ، وليفتح عينيه ! هذه الجبال اليابسه تخفى وديانا خضراء فى جوانحها ، وهناك اغانى حب فى تلك الاكواخ من البوص ، وفى تلك القبور يرقد ملوك العصور القديمه وما زالوا يحملون تيجانهم . وليسمع النسر يصرخ فى السحاب ، وبعيدا تقرع نواقيس الاديره! وليرى القوافل تبدأ رحلتها والقواقع تطفو على النهر والادغال تزداد اتساعا والبحر يزداد عمقا والافق يزداد بعدا حتى يلامس السماء ويتحد بها ! فلينظر ! فليعر اذنا ! فليسمع ولينظر وعندئذ سيرتوى من ظمأ وتمر كل حياته وكأنها حلم لانه سيشعر بروحه تخرج من خلال الضوء وتحلق فى اللامنتهى » .

فلنقابل بين هذا القصيد المملى بوحي من مذهب وحدة الوجود ووصفه ذلك الاكتشاف بالفعل فى كراسات السفر ! لا شك ان الالتقاء بأبى الهول تجربة لا تنسى ، ولكن فى أدق لحظاتها وابلغها اثاره لا ينسى فلوبير ان يحلل وان يفصل ما يراه فيقول : ـ

« حوالى الثالثة والنصف كدنا نلامس الصحراء حيث تنتصب الأهرام ، ولم استطع ان اواصل تحكمى فى جوادى الذى انطلق بأقصى سرعته ، وحذا مكسيم حذوى بعد دقيقتين خائضا فى المستنقعات . كان سباقا مجنونا وصعدت منى صرخات رغم انفى وشدنا هذا الاعصار حتى ابى الهول وفى البداية تبعنا العرب متصايحين باسمه العربي (هنا يكتب فلوبير كلمة ابو الهول بحروف لا تينية مرتين) كان يكبر ويكبر ويخرج من الارض مثل كلب آخذ فى النهوض ورأيناه : « والد الفزع » كما يعنى اسمه العربى ، كان هو والاهرام والرمال غارقين فى لون رمادى ذى طلعة وردية والسماء شديدة الزرقه ، ودارت النسور محلقه بطيئة حول قمم الاهرام ، وتوقفنا أمام ابى الهول ، كان ينظر الينا بطريقة مفزعة ، كان

(٢٠) Correspondance, t. 1, p 538

مكسيم شاحبا جدا ، واحسست انا بخوف مما يمكن أن يفعله بي هذا الرأس ، وحاولت التحكم في مشاعرى ، وعدنا على اعقابنا مجانين مشتتين بين الاحجار ، وطفنا بالاهرام وعند سفحها لم تسعفنا ألسنتنا وحل الليل ونصبنا خيمتنا » . (٢١)

●●●

كان فلوبير يقدس أمه ويعاملها بحرارة فجة ! هى « عجوزه المسكينه » كما يخاطبها فى رسائله . يتخيلها وقد ظلت وحدها بعد سفره تبكى وقد تهدل ركنا فمها ، وكذلك جعل يكتب لها بانتظام ليحدثها عن احداث يومه الصغيره خلال حياته فى الشرق ، وفى رسالته اليها فى يناير سنة ١٨٥٠ يقول لها : ـ

(ان رسالتك الطويله الطيبة المؤرخة فى ١٦ الماضى يا عزيزتى العجوز المسكينه قد وصلتنى كأنها هديه رأس السنة يوم الاربعاء الماضى . لقد تسابقنا بالجمال ، وماذا تدرين ؟ لا يسبب الجمل غثيانا او الما كما قيل عنه ، ان الواحد منا يجلس عليه كأنه على مقعد وثير ويغير من وضعه كما يحب ، فيضع ساقا على ساق او يتمدد على رقبة البهيمه او يضجع فى الهودج . يصعب على ان انتظر لكى انطق امامك كنيتى !! أتعرفين بم يدعوننى العرب حيث أن نطق الاسماء الفرنسيه يواجههم بصعوبة كبيره فيضطرون ان يخترعوا لكل فرنسى اسما من وضعهم ؟ خمنية اذن هذا الاسم الذى اشتهرت به !! « ابو شنب » ! ومعناه والد الشوارب ! وعند العرب تستعمل كلمة ابو بمعنى الصاحب لوصف الشىء الاساسى المتعلق بالشخص موضع الحديث ، فمثلا يقولون أبو الأحذية وابو الصمغ وابو المسطره ليعنوا تاجر الاحذية او تاجر الصمغ او تاجر المسطره ، وقد اطلقوا على مكسيم اسما طويلا جدا لم اعد اذكره ، ومعناه الرجل بالغ النحافه ، ولك ان تحكمى على ابتهاجى عندما عرفت بالشرف الذى يسبغونه على هذا الجزء المتواضع من شخصى . » (٢٢) وفى سطور تاليه يتحدث عن مستقبله كأي ابن يتحدث فى ذلك مع والديه او احدهما ، على انه يضيف الى ذلك الحديث عن انتاجه الادبي فيقول « عندما افكر فى مستقبلى ـ ونادرا ما يحدث ذلك فانى لا افكر فى اى شىء على الاطلاق بخلاف الافكار الكبرى التى يجبُ ان تنهب الانسان حال رؤ يته للاطلال ـ باختصار عندما اتساءل ماذا سأفعل عند الرجوع ، وماذا سأكتب وماذا سأريد وقتها ، وأين يجب ان اعيش الخ الخ يملؤ نى الشك والتردد ، وقد تراجعت دائما وعند كل سن على ان اواجه نفسي ، وسأهلك فى الثمانين قبل ان اكون رأيا فى نفسي ، وربما ايضا قبل ان اكتب عملا يعطينى ثقلا . القديس انطوان أهو جيد ام ردىء ؟ هذا هو مثلا ما أتساءله مرارا ، أينا قد أخطأ انا أم الآخرون ؟ وفيما عدا ذلك لا يقلقنى شىء . أحيا كالنبات وأترك الشمس والاضواء والالوان والهواء العميم تخترقنى » .

---

(٢١) Correspondance , t . 1 , p 570
voyage en Orient in
Flaubert Oeuvres Completes
ill ustrees, paris , ed . du centenaire , 1925 , p . 33

(٢٢) Ibid pp . 561 — 562

ولاول مره عبر فلوبير عن شكوك ساورته بخصوص رحلته لمصر فى خطاب للدكتور جول كلوكيه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٥٠ فقال :

« ها نحن اولاء فى مصر أرض الفراعنه وموطن البطالمه وموئل كليوباترا (كما يمكن ان يتمادى المرء فى اسلوب راق) . نحن موجودون عليها ونعيش فيها ، وقد جعلت الحلاقه منا الرأس أنعم من الركبـه . ندخن فى غـلايين طويله ، ونشرب القهوه مضطجعين على ارائك . ماذا أقول وماذا تريد منى أن اكتب اليك ! لا أكاد افيق من دهشتى الاولى ، انك لكأنك قد القى بك وانت نائم فى وسط سيمفونية لبتهوفن فى الموضع الذي تمزق فيه الآلات النحاسيه الاذن وتزعق نغمات القرار ويتنهد المصفار ، يحتويك الملمح الدقيق ويأخذك ويلدغك وكلما يزيد ذلك يقل ادراكك للمجموع ثم قليلا يعود الانسجام وتعود الشجره الى الالتزام بقوانين الغابه » . (٢٣) . وجميلة جدا المقارنه بسيمفونيه لبتهوفن ، وفى نفس الوقت فان للفقره دلالتها فيما يختص بفلوبير ، فرغم حدة ذكائه وقدرته الفائقه على الاستيعاب الفكرى فانه يشعر انه لا يستطيع ان يحيط بمصر فى شمولها ، ولكن عندما يعود الانسجام فانه لا يتجاوز الشكل الخارجي ولا يتيح قط لابن الغرب تمام المشاركة .

●●●

وبعد ذلك شرع مكسيم دوكامب فى تشكيل مجموعة للذهاب لرؤ ية مصر الفراعنة ، وكانت إسنا التى مرا بها عند صعودهما النيل مسرح لقائهما « بالعالمه » المخلدة كوتشوك هانم ، وقد صار هذا الحدث من رحلة فلوبير الآن معروفا فقد سرده فلوبير فى يومياته وفي رسالة الى لويس بوييه بتاريخ ١٣ مارس ١٨٥٠ ، وهكذا **يصفها** :

«ان كوتشـوك هانم هى محظية ذائعة الصيت . وعندما وصلنا عندها ، وكان ذلك فى الثانية ظهرا ، وجدناها فى انتظارنا ، وكانت وصيفتها قد جاءت من الصباح الى القارب وبصحبتها خروف مستأنس لطخ فى مجمـوعه بـالحنه الصفراء وعلى انفه كمامه من القطيفه السوداء ويتبعها كالكلب وكان ذلك مضحكا للغاية . كانت قد خرجت لتوها من الحمام وقد غطت اعلى رأسها بطربوش كبير انتشر زره على كتفيها العريضتين وعلى قمته شارة ذهبية مرصعة بحجر كريم اخضر ، وكان شعرها ينزل من تحت الطربوش عبر جبهتها فى ضفائر رفيعه تلتقى على اسفل رقبتها من الخلف بينما اختفى اسفل جسمها تحت سروال ضخم وردى ، والصدر عار كله تحت شاش بنفسجي ، كانت واقفه على رأس سلمها والشمس وراءها فاكتمل منظرها ، تحد اطاره السماء الزرقاء . انها مخلوقة امبراطورية ذات ثديين ولحم ، وفتحتا انفها ضيقتان وعيناها متسعتان وفخذاها فخمتان وبطنها يكسوها طبقة فوق طبقة شحم يتفاخر حين ترقص ، والركبتان رائعتان ، وبدأت بأن عطرت ايدينا بماء الورد ، وكانت تنبعث من حلقها رائحة التربنين المحلى بينما يحوطه عقد مثلث من الذهب ، وامر بالموسيقيين فاحضروا وبدأ الرقص » . (٢٤)

---

(٢٣) Ibid p. 563
(٢٤) Ibid t. I. pp 605 — 606

وهذه اللوحه التى رسمها فلوبير نجدها مفصلة فى مذكراته حيث يتم وصف رقصة كوتشوك هانم الوحشية فيقول : ـ
« وضعت لكى ترقص حزاما هو فى الاصل شال أسمر فيه خطوط ذهبيه حول بطنها وعقدته كربطة العنق بثلاث عقد ذهبية معلقة بشرائط وجعلت ترتفع من قدم الى قدم بروعة ، فقدم يظل على الارض والاخر يطوف بنا كيما يدور قوس الساق فى الهواء وخلفه عمود الساق الاخرى ، وكل هذا تغلفه قفزة رشيقه » . (٢٥)

وفي نهاية السهرة ظل مكسيم وحيدا على اريكه بينما قضى فلوبير الليل مع كوتشوك هانم على سرير مصنوع من سعف النخيل . والذى نستغربه هو ان هذه المرأة التى جعلت حبر فلوبير ينسكب وأوحت الى لويس بوييه بقصيدة بناها على وصف فلوبير وحده تلوح وكأنها لم توجد الا فى خيال الكاتب ! فان امرأة حقيقية حية ـ كما تبدو كوتشوك هانم ـ تتحدث عن نفسها وعن مشاعرها ، ولكن فلوبير هو الذى يتحدث بالنيابه عنها ، ويقول : « المرأه الشرقيه ليست إلا آلة » والمرأه الشرقية تتيح لفلوبير ان يسلم نفسه الى احلامه المتقده كما يقول فى مذكراته . إن كوتشوك هانم بأنوثتها وأنثويتها الدافقتين هى قالب حى لشخصيتى فلوبير . . سلامبو ، وسالومى ، وكذلك لكل انواع الاغراء الجسدى الانثوى التى تعرض لها بطله القديس انطوان ، كانت لتستطيع ان تنطق بقول بلقيس سبأ « انا لست امرأة بل عالما بأكمله » (٢٦)

كذلك على صعيد النيل مر قارب فلوبير ومكسيم امام طيبه وهنا يأخذنا ثراء الالوان فى حصيلة فلوبير حيث تقرأ فى مذكرات سفره وصف غروب الشمس على مدينة هابو :

« ان الجبال هى باللون النيلى الداكن ، الازرق الملتحف بالرمادى المسود تتضارب فيها شرائح من النبيذ بينما تبدو النخيلات سوداء كالحبر ، والسماء حمراء والنيل كنضار بحيره من الرصاص المذاب . » (٢٧)

ان هذا المنظر الطبيعى يثير فيه انفعالا عميقا يحتفظ به لنفسه ويحلله فى نفس الوقت بذكاء وبصفاء عقل يذكرانا بجيرار دونرفال فيقول :

« حينما وان طرب بهذه الاشياء وانظر الى موجات ثلاث تتقلب الواحدة على الاخرى تحت الريح احسست بسعادة وقور تعلو داخلى بمناسبة هذا المشهد ، وشكرت خالقى فى قلبى لانه اهلنى لان اسر بهذا الشكل ، واحسست بنعمه الفكر مع انى لم احس اننى افكر فى شيء كانت متعه اليفه شارك فيها كيانى كله » . (٢٨)

وكان فلوبير يعيد على ظهر قارب القاء اشعار صديقه لويس بوييه ويذكر بالتحديد بيتى شعر يقولان : .
« لم يكن آباؤ نا يعرفون العطر المخدر الذى يحمله النيل المتسكع على شطآنه » وقد كتب اليه فى رسالة بتاريخ ١٣ من مارس سنة ١٨٥٠ يروى له نقاشا شهده قبل ذلك بشهور ، ويتعلق بذات البيتين فقال : ـ

---

(٢٥) Voyage en Orient , in oeuvres , completes ed . Societe des Belles Lettres p. 595
(٢٦) Flaubert, la Tentation de saint A ntoine , in Oeuvres t.I.p 85
(٢٧) voyage en orient , t . p . 590
(٢٨) Ibid

« انا فى حاجه سريعه لكى أؤكد لك شيئا بخصوص تشبيهك للنيل بالمتسكع ، لا يوجد تشبيه أوقع وادق وفى الوقت نفسه اشمل من تشبيهك ! انه نهر عظيم ومغرور يغلب عليه طابع المحيط اكثر من طابع اى شىء مائى آخر . تمتد على ضفتيه سهول من الرمال يفقد البصر مداها وإن كانت تحدها الرياح كأنها خلجان . وابعاد ذلك هائله فلا تعرف الى اى طرف يجرى التيار ، وكثيرا ما تظن نفسك حبيس بحيرة كبرى » (٢٩)

ويتحدث فلوبير الى صديقه ورفيق آدابه عن قلقه بشأن عمله والشكوك التى تساوره :

« أشعر انى اجوف جدا افطس جدا عقيم جدا ، ماذا افعل متى عدت ادراجى ، أأنشر شيئا ام لا افعل ؟ ماذا سأكتب وهل سأكتب ؟ لا اخفى عليك ان حكاية القديس انطوان قد اصابتنى بضربه قاضيه . لقد حاولت عبثا ان ابنى ما يشبه حدوته شرقيه ، وكنت فى الايام الاولى قد باشرت الكتابة قليلا ولكن ـ ولله الحمد ـ ادركت فيها وبسرعة بلاهتها . يحسن ان يكون الواحد منا عينا وهذا حسبه » (٣٠)

أن يكون الواحد عينا وهذا حسبه . . هذا يعنى مداومة الملاحظة كما أجادها فلوبير منذ سفره الى الشرق .

ونزل المسافران عبر النيل ، وهنا تبدأ استكشافات الآثار التى ينتظرها مكسيم دوكامب منذ زمن ليتعرف على المعابد ، ويرى فلوبير المعابد ولكنه يرى اكثر الحياة التى تحوطها والضوء المصرى الاعظم فيكتب الى امه فى ٢٢ ابريل ١٨٥٠ قائلا : « الآن نحن نهبط الى سطح النيل عائدين ببطء فى عكس الاتجاه الذى اتخذناه فوق هذا النهر العظيم بقلاعين أبيضين ، ونتوقف امام كل الاطلال فيرسو القارب وننزل الارض ، وهناك دائما معبد يتوارى فى الرمال الى كتفيه ، ولا يكاد يظهر منه الا جزء وكأنه رميم اهيل عليه التراب ، وعلى الحوائط البيضاء رسمت اوثان تحمل رؤوس التماسيح وعجول ابيس ، بينما زينت اطرافها بعصافير كأنها تسكن الشقوش التى تفصلها عن بعضها ، تنزهنا بين الاعمدة ، وازحنا التراب بعصى من خشب النخل وبمدد من خيالنا المشحون ، ومن خلال ثنايا المعبد نظرنا الى الشمس التى تحرك الزرقة بينما تلوى النيل كالثعبان بين الصحراء وفاض على ضفتيه ، فجاوبته كل ضفة بخصلة خضراء . مصر كلها هى هذا ! عادة يوجد حولنا قطيع من الخراف السود يدبدب وغلام عار له عينا قطة واسنان من عاج وفي اذنه اليمنى قرط فضى . انه الضوء وروعته التى تجعل كل شىء يألق . ان ذلك يبهرنا دائما فى المدن عندما تتضارب الالوان مثلا فى حفل تنكرى حيث تتشتت الالوان بين الابيض والاصفر واللازوردي في فجاجة ثم تصفو بظلالها فتغشى عينى كل فنان » . (٣١)

وراح فلوبير يتنزه فى الاقصر فى ضوء القمر وقد القى بريقه على الاطلال الكبرى فيقول فى مذكراته عن رحلته « تبرق فى الظلام كتلة الاعمدة ويبدو القمر الذى يرتفع وراءها كأنه يرتكز على الافق منخفضا ومستديرا وثابتا » ومن اجلنا

(٢٩) **Correspondance , t , 1 , p . 601**
(٣٠) **Ibid , pp . 601 — 602**
(٣١) **Ibid , pp 614 — 615**

نحن فقط ، وفقط لكى يضيىء الارض المنبسطه امام الافق ، والهواء دافىء ، والسماء تعمر بالنجوم التى تشبه فى الليل اقواسا كأنها عقود من الماس سقطت منها بعض احجارها ، يالزراية لغتنا اذ اضطرتنا ان نقارن النجوم باحجار الماس ! »

وكان الكرنك هو الذى استرعى انتباهه بين غيره فيكتب الى امه بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٨٥٠ قائلا :

« لن انسى قط اول انطباع لقصر الكرنك ! بدا لى كأنه صنع جن سكنوه ، وكانوا يتناولون طعامهم فى اطباق ذهبيه تحوى انسا فى اسياخ كالسمان » (٣٢) وكان لهذا الطابع الوحشى لحياة الفراعنه كما سجلها فلوبير فى رسائله ، وفى مؤلفه رحلة الى الشرق » (٣٣) اثر ملهم على روايته المفعمه بملحمة الشرق والتى اسمها « سلامبو » . لقد راعه وادى الملوك . ولنقرأ خطابه الى امه حيث يصفه بما يذكرنا بجحيم دانتى في الكوميديا الالهية فيقول :

« تصورى واديا بحاله منحوتا فى جبل لم يعد فيه نبت اكثر مما على مائده من رخام وعلى كل من ناحيته دروب يجد كلا منها رمس ، وفى كل منها يمكن النزول بسلم يتلوه سلم فسلم ، وهكذا الى مالا نهاية ثم تدخل فى القاعات الكبيره المنقوشة من اسفل الى اعلى وفى السقف حيث يسيح المرء ولا ابالغ !! تصورى كهوفا حوائطها مموهة بالذهب واللازورد وغيرهما ! انها تصاوير خيالية اورمزية : ثعابين متعددة الرؤ وس تسير على اقدام آدمية ، رؤ وس مقصولة تطفو ، وبجع يجر سفنا ، وملوك على عروشهم ، وجوههم خضر وملامحهم غريبه ، والرسومات طازجه كانها صنعت لتوها ويخشى اذا لمست ان تقتشر ، وهناك عازب الهارب ، والراقصون واناس يأكلون ، انه شيء مبلبل ، كفاك . . سأحدثك عنه مرة اخرى » . (٣٤)

اى زاد يمكن لمخيلة فلوبير الاغتراف منه ! سنرى ان تلك المناظر ليست فقط قدوة لرواية فلوبير الشرقيه اى « سلامبو » ، ولكن ايضا لروايته الريفيه الفرنسية مدام بوفارى حيث ترمز الحية للغرام الجدب او القاتل .

كذلك سحر البحر الاحمر فلوبير ، وقد نزل يستحم فيه باستلذاذ ثم ظل يرقب مدة وجزره طيلة ساعات . ولنشر ثانيه الى فن فلوبير الرسام الذى يحصى الف لون ولون فى رسالته الى لويس بوييه فى ٢ يونيه سنة ١٨٥٠ :

« كان قاع الماء يحوى الوانا بفضل اصدافه وقواقعه ومرجانه تفوق ما تحويه حقول الربيع ببراعمها ، اما عن لون سطح البحر فقد امتزجت فيه كل الاصباغ المحتملة وتدرجت بعضها فوق بعض ، وذابت معا ، بدءا بالشيكولاته وانتهاء بالزمرد : بدء بالوردي وانتهاء باللازوردى » . (٣٥)

●●●

(٣٢) Correspondance, t I. p. 620

(٣٣) Voyage en Orient, t. ,PP 135 — 154

(٣٤) Correspondance, t, I, p. 621

(٣٥) Ibid, p 637

واخيرا تنتهى الرحلة ونقرأ فى ملاحظات كراسات السفر : ـ

« اليوم الأخير . . وداعا . . ان حزني عند الفراق يجعلنى ادرك مدى نشوقى عند الوصول . . النسوه يجلبن الماء ، الفلاحون لن أراهم كلهم بعد ولا الطفل الذى يستحم فى بركه الساقيه الصغيره » .

وكتب من الاسكندريه بعد سفره قائلا :

« غادرت السفينه الميناء بينما انا نائم ، لم ار ارض مصر تتوارى وراء الافق ولم استطع توديعها . . ترى هل اعود يوما ؟ »

ويجيب التاريخ على سؤال فلوبير بـ « لا » . فلم يعد قط ، وهو الذى قضى فى سنة ١٨٥٨ بضعة اسابيع فى تونس حول موقع قرطاج الأثرى بغية كتابة روايته سلامبو وكانت آخر مره رأى فيها الشرق .

وقد سافر فلوبير ومكسيم دوكامب بعد ان غادرا مصر عبر فلسطين وسوريا وتركيا واليونان وايطاليا حيث لاقتهم ام فلوبير فى ابريل سنة ١٨٥١ ، ولم ينس فلوبير قط ان مصر أول ما افعمه بالالوان . وقال فى رسالة كتبها الى لويس بوييه من القسطنطينية فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٥٠ ، وفيها يتحدث عن مؤلفات « اسفار تشيلدهار ولد » ، « وحكايات من تركيا » التى تضم كذلك قصة « خطيبه أبيدوس » « للورد بايرون » ، قال :

« فكرت كثيرا فى بايرون امام ابيدوس ، هذا هو الشرق الذى رآه ، هو الشرق التركى ، شرق السيف المقوس والبزة الالبانية والنافذة المحصنة بالقضبان المطله على فيض ازرق ، أما انا فأحب حمرة شرق البدو فى الصحراء ، اعماق افريقيا المؤتلقه . قل لى ما هذا الشوق الكئيب للرجوع الى مصر ! »[٣٦]

●●●

لقد كان للرحلة للشرق فى حياة فلوبير مكانة كبيرة ليس فحسب للوقت الطويل نسبيا الذى كرسه لها هذا المحب لمنزله ، ولكن ايضا للتأثير العميق الذى لها على فنه . فهو مدين لها بأكثر مما ننتظر عادة ان يدين به كاتب لرحلة ، وقد رصد منها موضوعات ألهمته وأثرته من تلقاء نفسها بتفاصيل عديده ، وبلمسات الألوان التى لولاها لظلت فرشاته متحجره ، بل وبمادة بعض اهم مؤلفاته . وقد وجد فى الشرق اتساعا لآفاقه ، كما جعلته انطباعاته عن الآثار الصامته الشاهدة على التاريخ والعروض المتحركة الشاهدة على الاخلاقيات والعادات المختلفة ، جعلته يفكر عند عودته ، وتشهد بذلك رسائله التى تقول لنا بأثر الشرق القوى عليها ، ويدين كثير من مؤلفات فلوبير سواء من حيث الأصل او تحديد التفاصيل لرحلته الشرقية ، وان كان اوضحها يتمثل فى سلامبو سنة ١٨٦٢ وهيرودس سنة ١٨٧٧ ، وعدة صفحات من **اغواء القديس انطوان** سنة ١٨٧٤ . وتبدو لنا اهمية المكانه التى تتمتع بها رسائل الروائي وكراسات سفره التى تابع تدوينها نقول اهميتها لمعرفة عمله بمجموعه .

---

(٣٦) **Correspondance , t , I .p 710 — 711**

وكما يقول فلوبير نفسه فى رسالة لاحقه الى أرنست شيفالييه :

« اي نعم لقد رأيت الشرق ان مرأى ابى الهول كان احد المباهج التى اخذت بعقل اكثر من اى شىء فى حياتى ، وإذا كنت لم ألق حتفى هنالك فذلك لان جوادى او الله لم يرد ذلك عن قصد » .

لقد فصل فلوبير جيدا الملامح الخارجيه لبلاد الشرق ووصف طراوة شواطىء البحر المتوسط وشجنها كما وصف سحر مدن السواحل عند انقشاع الفجر او حلول القمر . ويمكن لمن قرأ رواية سلامبو ان يعيد قراءة الصفحة التى وصف فيها قرطاجنه فى النوم . ففيها كل سحر تونس والاسكندرية ، واسهب فى وصف الشرقيين الذين جاورهم فى وصف ملابسهم وازيائهم وعاداتهم وطرق معيشتهم .

ولا نستطيع مع ذلك ان نحجم عن ابداء دهشتنا عندما نقرأ رسائل فلوبير ! هؤلاء الشرقيون الا يتكلمون هم ابدا عن انفسهم بأنفسهم ؟ ألا يعبرون هم اطلاقا عن مشاعرهم وعن حضورهم وعن تاريخهم ؟ ان فلوبير هو الذى يتكلم بلسانهم ويمثلهم . أو ليس هذا مسلك كل غربي فى القرن التاسع عشر تجاه الشرقي او تجاه الآخر الذى لا يراه حقا ؟ ان روابط الغرب بالشرق يحكمها التسيد والتسلط ، وبذلك لم يكن مسلك فلوبير الغربي فى نهاية القرن التاسع عشر حالة منفردة ، فهو يعبر بما فيه الكفاية عن رؤ يه الغرب للشرق ولدوره ، وللكلام القليل الذى يأبى الغرب أن يسمع من الشرق غيره .



المراجع

J.P. Sartre L. de la Famille Gustave Flaaubert, paris Gallimard, 3 vol. 1971 — 1978

BEM, J ' langages de flaubert' Resue d, Histoire Francaise .

Septembre 1976 pp. 849 —851

BONNACO RSO, Giovanni, 'L influence de L orient dans la Trois les Amis de Flaubert, no 50 mai 1979 pp. 9 — 21, no 51 decembre 1979 — pp. 29 — 41

BRUNEAV, Jean ' le voyage en Eqyptede flaubert et de langlois'

le pays d Auge, Fevren 1976 — pp. 3 — 8

COMBESCOT, Pierre. ' le mirage de L orient chez Flaubert Magazine no 108 Jonvier pp. 18 —19

CARLUT, charles essai sur Flaubert, paris Nizet 1979

EL - NOUTY, Hassan Le proche - Orient dans la Litterature de Nersal a barres, paris, Nizet 1958

NADEAU, Mourice Gustave flaubert, ecrivain, paris, les lettres nouvelles, 1980

PROSCHW, TZ, Guhor von. flaubert dans ses lettres un Coeur mis a nu'

les Amis de flaubert, no 45, decembre 1974, pp. 20 — 22

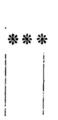
PRUCHET, Auda La

SuFFEL, Jacques, quelque uemarque sur la correpondance Flaubert et de Yoxime du camp' essais sur Flaubert, no 3616, 1979 pp. 23 — 61

VACCARO, Barbarei pietro ' l arte flaubertiana attraverso la correspondance

' Culture Francaise, Bari , Luglio agosto 1979, pp. 109 — 120

❋❋❋



رسائل مردث

«التعبير عن الصمت»

محمد شاهين
الجامعة الاردنية

هذا هو الكاتب الذي قال عنه الناقد المعروف ديفد ديكس Devid Daiches انه أصعب كاتب انجليزي يمكن تقييمه من الناحية النقدية [1] . ولا بد ان ديكس كان على وعي باسلوب مردث المعقد في الكتابة عندما اطلق هذا التصريح النقدي في دراسة مطولة لتاريخ النقد الأدبي الحديث . وما دمنا بصدد الحديث عن رسائله فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما اذا كان اسلوب مردث في رسائله يختلف عنه في رواياته التي كان يعنيها ديكس في تعليقه ؟ ولكن قبل البدء في الموضوع لابد من عجالة تعرض سيرة حياة الكاتب سيما وان الرسائل تكون عادة مرتبطة ارتباطا مباشرا أو شبه مباشر بحياة الكاتب التي يحاول جاهدا طمس معالمها الواضحة عندما يحولها الى فن .

ولد جورج مردث George meredith عام ١٨٢٨ في مدينة سوثهامبتون Southampton من أبوين متوسطي الحال ، وكان أبوه يعمل في حانوت يختص بتجهيز الزي لأفراد الأسطول البحري ، وهو وحيد أبويه ، وقد توفيت أمه قبل أن يبلغ السادسة من العمر . وتلقي علومه الأولية في مدرسة داخلية وذلك على نفقة تركة صغيرة كانت والدته قد خلفتها له . وفي عام ١٨٤٢ التحق بمدرسة تدعى Moravian تقع على نهر الراين بألمانيا لمدة عامين ، وقد رجع من ألمانيا الى بريطانيا في تموز ١٨٤٤ . وفي الثالث من شهر شباط عام ١٨٤٦ التحق بمكتب محام للتدرب على اعمال المحاماة فيه .

وعمل لمدة خمس سنوات بجانب محام يدعى Stephen charnock ولحسن الحظ أو لسوئه كان

---

(١) David Daiches, A Critical History of England, IV (London,1968), P. 1072

لدي محاميه ميول أدبية ساعدت مردث نفسه على التعرف بعالم الأدب مما أدى الى أن يكتشف في نفسه ميلا أكثر الى الأدب ونتيجة لذلك هجر المحاماة في عام ١٨٤٩ واتجه في نهاية الأمر الى الأدب ليتخذ منه حياة ومهنة استمرت حتى النهاية .

ومن خلال محاميه تعرف على شريكة حياته الأولى التي كانت من بين الأدباء الناشئين الذين شاركوا في اصدار مجلة محدودة الانتشار واسمها : The Monthly Observor وكان مردث ومحاميه من بين المحررين للمجلة وقد وقع مردث في غرام Mary Ellen من خلال النشاط الأدبي الذي كان يجمع الاثنين معا ، وهي ابنة الأديب المعروف Thomas Love Peacockوكانت تكبر مردث بعدة سنوات وهي أرملة توفى زوجها البحار في حادث سفينة عام ١٨٤٤ .

وعاش مردث بعد زواجه حياة عوز حيث ان دخله من الكتابة التي انكب عليها لم يكن كافيا ، وفي السنين الأولى من الزواج أقام مردث في بيت والد زوجته الذي كان يتميز بعادات شخصية غريبة كخوفه الشديد مثلا من حدوث حريق بالبيت في أية لحظة ، ومما زاد حياة العوز إنجاب طفل اسمه Arthur عام ١٨٥٣ وفي عام ١٨٥٥ كتب مردث قصته الأولى واسمها The Shaving of Shagpat وهي أشبه بقصة طويلة مستقاة من مصادر شرقية ولا توجد فيها خصائص الرواية وفي عام ١٨٥٨ تأزمت العلاقة بين مردث وزوجته ربما كان العوز فيها دافعا رئيسيا وفي نهاية العام هربت ميري مع Henry Wallace الفنان الذي وقعت ميري في شركه ، الى ايطاليا . وما هي الا بضعة أشهر حتى عاد الطرفان الى بريطانيا بعد أن فسدت العلاقة بينهما .

وقد بلغت حدة التأثر عند مردث مبلغا جعله يعتني بالطفل الذي تركته ماري وراءها بنفسه ، دون الاستعانة بأية امرأة في هذا السبيل ، وقد منع أمه من رؤيته إلا في الأيام الأخيرة ، عندما كانت تشرف على الموت وبعد توسلات لاحدّ لها ، أما هو شخصيا فلم يرها طيلة سنوات الانفصال الأربع سوى دقيقتين في أمر يتعلق بابنهما .

وقد سجل مردث هذه التجربة في روايته الاولى التي تدعى The Ordeal of Richard Feverel والتي نشرت عام ١٨٥٩ ، وهي بلا شك رواية تحتل مكانة خاصة في الرواية الانجليزية وأثارت ضجة بين الجمهور سأتحدث عنها في مكان لا حق هنا ، وقد نجح مردث في تحويل المحنة الشخصية الى رواية فنية ، استطاع فيها أن يسيطر على مشاعره الشخصية الجارفة التي كانت تشعره بمأساة الحدث .

وفي عام ١٨٦١ توفيت ماري بعد هجر دام حوالي خمسة أعوام وقد اختتم مردث هذا الفصل من حياته بمجموعة من القصائد نشرها تحت عنوان Modern Loveوفيها يستعرض مردث بب?لوب شعري جذور المأساة التي يعتقد أن كلا الزوجين ساهم في المأساة بقدر متساو واعترف مردث أن انشغاله في كتاباته قد أسهم في تحول قلب ماري عنه الى شخص آخر وان العاطفة الزائدة التي كانت لدي ماري والتي ظن أنها كانت ضربا من الجنون الذي ورثته من أمها كان سببا آخر وقال قولته الشعرية المشهورة والتي تناقلها نقاده عنه من بعده (Passions Spin the plot)

وقبل ذلك بما يزيد عن عقد من الزمن (١٨٥١) كان مردث قد نشر مجموعة من القصائد هي في الواقع قصيدة واحدة واسمها Love in the Valley وكانت تحية عطرة لعاطفة الحب الجياشة التي شعر بها مردث نحو ماري في ايام غرامه بها .

وبعد ذلك باعوام تزوج مردث من فتاة اسمها Marie Vulliamy عام ١٨٦٤ ، وعاش معها حياة وادعة يملؤها الاستقرار النفسي الى ان توفيت عام ١٨٨٥ وكانت مثال الزوجة التي عرفت كيف تتعامل مع زوج يقضي جل وقته وهو يعايش الكلمة ويبدو أن مردث نفسه تعلم من زواجه الأول فابتعد عن الهوى ومسبباته طيلة زواجه ورضي بما تقدمه الحياة الزوجية في الظروف العادية الواقعية .

●●●

انصرف مردث بعد الزواج الى تحقيق طموحه في الكتابة وحاول في الستينيات محاولة جاهدة كسب شهرة في هذا المجال . وكان يعلم حق العلم أن الرواية التي تعرض حوادث مثيرة وقصصا تعتمد بشكل رئيسي على الحدث أكثر من اعتمادها على الشخصية هي الرواية التي كانت تلاقي رواجا عند جمهور القراء وما كان منه الا أن حاول مثل هذا النوع من الرواية رغم أنه في الوقت نفسه يخالف معتقداته الأدبية ، وتوفرت لديه المادة سيما وأنه كان يعمل مراسلا لجريدة Morning postوذهب فعلا الى ايطاليا ليغطي أخبار الحرب الايطالية وليستخدم تلك الأخبار خلفيـة لروايتيـه Emilia in England و Vittoriaوتتميز رسائله التي كتبها في هذه الفترة بلهفة الى تحقيق الشهرة غير أن رغبته هذه ظلت بعيدة المنال وانصرف عنها الى الأبد .

وفي بداية السبعينيات كتب رواية حققت رغبته من ناحية فنية وفي الوقت نفسه جذبت أنظار الجمهور اليه أكثر من ذي قبل واسم الرواية Harry Richmond وتحكي قصة البطل نفسه ، وكيف أن تجربة الحياة هي التي تشكل نمو الشخصية على مر الزمن . والرواية في هيكلها العام تشبه رواية Richard Feverel من حيث إنها تدور حول قصة الصراع بين الأب وابنه ، فيما يتعلق بالأخذ والعطاء في أمور التربية ، وكتب مردث هذه الرواية على غرار ما يعرف في الأدب باسم Bildungsroman والأصل في هذا النوع الأدبي - كما يشير الاصطلاح - ألماني ، وهو نوع كان جوته رائده وكانت روايته المعروفة Wilhelm Meisterأساسا له ، وقد شاع هذا النوع الأدبي في منتصف القرن الماضي واستمر بعد ذلك يظهر عند أشهر الروائيين في هذا القرن وتتركز حوادث مثل هذه الرواية حول البطل الذي يروى قصة حياته بنفسه ، ويعرض لنا تجاربه من الحياة العملية وتأثيرها على نمو شخصيته وضمن هذا النوع الأدبي كتب ديكنز روايته Great Expectations وكتب ثكري Henry Esmond

وفي هذه الفترة كتب مردث أيضا رواية أخرى من نوع آخر وهي : Beauchamp,s Career وهي على منوال رواية George Eliot التي ظهرت قبل رواية مردث بقليل وهي Felix Holt وكلتا الروايتين لها خلفية سياسية تتعلق بالانتخابات المحلية التي تشكل أهم جزء في تاريخ البلد السياسي وهي أيضا رواية تحكي الصراع بين فردية

الشخصية التقدمية وخلفيتها المعارضة مضافا الى ذلك الصراع بين واجب الفرد السياسي وهواه الشخصي ومن حيث الانجاز الفني لم تكن الرواية أقل من سابقتها .

أما في الثمانينيات فقد كتب مردث Diana of the Crossways وهي الرواية التي أقبل عليها الجمهور بشغف لا مثيل له في ذلك الحين والسبب أنها روت فضيحة سياسية نشر تلميح عنها في جريدة التايمز وملخص الأمر ان زوجة أحد المسؤولين السياسيين البارزين أفشت سرا يتعلق بقوانين بيع القمح وهي في عرف الشعب الانجليزي فضيحة لا أخلاقية كبرى ، وقد أثارت الرواية فضول الجمهور من حيث معرفة ديانا الأصلية ولم يهتم مردث طبعا بكشف النقاب عن الشخصية التي استقى منها الحادث ، كذلك لم تعطه الشهرة التي كسبها فجأة عند الجمهور تلك الرغبة التي كان يتوق اليها من قبل ، وهو أيضا لم يكتب الرواية بقصد الشهرة ومن هنا تبدو المفارقة .

واختتم مردث أعماله الروائية في التسعينيات بعملين رئيسيين ، الأول : One of our Conquerors والثاني The Amazing Marriage ويبدأ الأول بأطول جملة في اللغة الانجليزية . وقد لفتت الرواية التي تعتبر أعقد رواية في أسلوبها أنظار المراجعين للرواية وعلق الجميع على أسلوبها المعقد وجملتها الافتتاحية وتدور حوادث الرواية حول حياة رجل أعمال لم يغنه غناه عن فراغ حياته الشخصية ، عاش حياة ملؤها القلق والحيرة يتنقل من مكان الى آخر مع خليلته التي أحبها وعاش معها كزوجة وكان يخشى نقمة المجتمع الذي كان يمكن أن يطيح بماله وحبه لو عرف عن سره هذا وقد عاشت Nataly حياة تخلو من الاستقرار النفسي وكان Victor يأمل أن يحل القدر المشكلة مع زوجته الأولى التي لم يحبها يوما واحدا والتي وجد نفسه زوجا لها بقوة التقاليد الاجتماعية ، ورغم اللحظات السعيدة التي كانت تجمع بين فكتور وناتالي الا أن حياة الجحيم كانت هي التي تسيطر في أغلب الأحيان ، فكلاهما كان يشعر بخطورة المغامرة في الحياة الحاضرة وقسوة الغموض بالنسبة للحياة المستقبلة وكان فيكتور على وعي بما تقاسيه ناتالي مما يزيد من معاناة نفسه بسبب ان ناتالي كانت عاجزة تماما عن السير في أي خطوة عملية كامرأة في ذلك العهد ، وكانت براءتها المعذبة تعذبه أكثر من عجزه شخصيا عن السير في حل عملي . ويخلص فيكتور من هذا الموقف الى نظرة عميقة في الحياة ، نشعر أنه يصل اليها بسبب المعاناة الحقيقية .

وتعرض الرواية الأخرى حياة بطل نرجسي رومنتيكي هجر زوجته بعد اليوم الأول من الزواج دون معرفة الأسباب . ويجلب هذا التصرف على نفسه دمارا عاطفيا حيث يعيش Fleetwood نتيجة هذا التصرف في حيرة من أمره وعندما يحاول أن يصلح الأمر يكون قد فاته الأوان لأن Carinthia البريئة تكتسب خبرة من الحياة نتيجة القسوة والمقاساة .

بقي أن نذكر أن مردث كان في الأصل شاعرا واتجه الى الرواية لأن كتابة الشعر لم تكن لتؤمن له أي دخل مادي يذكر ورغم انشغال مردث بالرواية فقد ظل يكتب الشعر من حين الى آخر ، والى آخر أيام حياته ، وقد ظهرت أشعاره في مجلدين قامت بنشرهما مطبعة جامعة ييل قبل أعوام قليلة ، كذلك نشر مردث مقالة نقدية طويلة عام ١٨٧٨ تعالج

الكوميديا وتعتبر وثيقة هامة في تاريخ الكوميديا ، وفحواها أن الكوميديا قوة تبحث عن كل ما هو زائف في الانسان لتشعره به أولا ثم لتشفيه منه ثانيا ويعتقد مردث أنه اذا وصل الانسان الى درجة أن يضحك على ما في نفسه من زيف فإن هذا سيكون هو بداية الخلاص مما هو زائف . وفي معرض الحديث عن الكوميديا يقول إننا عندما نضحك على غيرنا ممن نحب فإن هذا لا يعني أننا نقلل محبتنا اليهم . وحاول مردث تطبيق هذا الأمر النظري في روايته التي تكاد تكون أشهر ما يعرف عنه وهي The Egoist وقد تجنبت ذكرها لأن الحديث عنها يكون مرتبطا بالحديث عن الكوميديا والذي لا داعي للحديث عنه هنا .

●●●

عندما توفي مردث عام ١٩٠٩ سارع ابنه وليم في الاعلان على صفحات الجرائد عن نيته بشأن جمع رسائل والده ونشرها لتصبح في متناول الجمهور وبعد حوالي ثلاثة أعوام ظهرت الرسائل في مجلدين وحازت على استقبال حار من المراجعين الذين أدلوا بتعليقاتهم في مختلف الصحف والمجلات ، وقد ذكر أحدهم في الملحق الأدبي لجريدة التايمز TLS أن الرسائل تعرف القارىء عن قرب بعقل يتمتع بقوة غير عادية تجعل القارىء يتساءل فيما اذا كان هنالك عقل آخر يتمتع بمثل هذه القوة في الأدب الانجليزي بجانب عقل شكسبير .

وفي الوقت نفسه وجهت الصحيفة نقدا الى عملية التحقيق ووصفتها بأنها ناقصة حيث إن وليم ضمن قسما من الجزء الأول حواشي مختلفة تفسر ما ورد في المتن ولكنه توقف عند ذلك الحد وجاء المتن في أغلبه بعد ذلك دون حواش وأبرزت الصحيفة نقدا آخر يتعلق بندرة الرسائل التي تتعلق بزواجه الأول الذي ما زالت تفاصيله تثير فضول المهتمين بأدب الكاتب وحياته (٢) .

ولا بد أن وليم أعطى نفسه الحرية في منع بعض الرسائل من الوصول الى الجمهور عن طريق النشر على الأقل وهو بلا شك لم ينشر جميع الرسائل التي وردت اليه ، وهو بذلك كان يحافظ على قدسية أسرار والده الشخصية سيما وأن مردث نفسه كان فكتوريا الى حد كبير فيما يتعلق بالأمور الشخصية ورغبته في إخفائها عن الجمهور ، ولا أعتقد أنه توقع في يوم من الأيام أن تنشر رسائله على الملأ

وعندما عرض عليه أحد الكتاب في ذروة شهرته مشروع إعداد سيرة لحياته رفض المشروع بدون تردد (٣) . كذلك لم يأذن لزوجة اللورد جوردن بنشر رسائله التي كتبها لها وهي شابة يانعة حتى بعد مضي ما يزيد عن الثلاثين عاما على كتابتها وأجابها أن تلك الرسائل وما شابهها يجب أن تظل بعيدة عن النشر والانتشار ومن الواضح أن مردث لم يكن يفكر

---

(٢) Meredith's letters The Times Literary Supplement, 10&17 October, P.58&60.

(٣) كذلك حاول أمناء مردث بما فيهم اللورد مورلي صديقه اقناع السير جيمز باري ، أمينه في هذا الأمر ، بكتابة سيرة حياة مردث ، غير أن السير جيمز رفض المشروع قائلا إن مردث نفسه عارض بشدة هذه الفكرة في حياته وكل ما كان يريده هو أن يعرفه الناس من خلال أعماله الفنية . وقد وردت هذه الملاحظة في كتاب :
Robert Esmonde Secourt, The life of George Meredith (London, 1929), P. vii.

في الشهرة على المدى البعيد ، ويكفي أن نعلم أنه كان يستخدم صفحات المخطوطات التي فرغ من نشرها لفافات يشعل بها التبغ ، كذلك تروي ابنته أنها رأته يعمل حريقة وقود نارها المخطوطات التي اعتقد أنها غير لازمة او صالحة للنشر ، اما المخطوطات المتبقية فقد وزع اغلبها على الأمة التي كانت تعتني به ، والجنائني الذي كان يعمل عنده في البستان .

كل هذا يجعلنا نعتقد أن مردث كتب رسائله بتلقائية بعيدة عن التحسب والتخوف وما وصلنا منها كان في تقدير مردث أنه سيظل طي الكتمان ، أي أنه لم يكتب رسائله بمنظور يشبه منظور هنري جيمز Henry James الذي كان يكتب وهو يعلم أن الرسائل ستكون سجلا أدبيا للخلف ، وهذا ما جعله يكتب باستمرار وهو لا بد أنه كان على وعي بهذا ، فقد كتب مثلا ما يقرب من خمسمائة رسالة الى Edmund Gosse لوحده .

وفي عام ١٩٧٠ طلعت علينا مطبعة جامعة اكسفورد بثلاث مجلدات حوت بين صفحاتها حوالي الفي رسالة ، علاوة على السبعمائة والسبع والثمانين رسالة التي ظهرت في المجلدين السابقين . وقام بجمع وتحقيق الرسائل الأستاذ كلاين C. L. Cline وقضى باعترافه زهاء ربع قرن في هذه المهمة ، وجاء المتن هذه المرة ومن حوله الحواشي المفسرة والمرشدة أكثر دقة وانضباطا ، وقد عاب كلاين على وليم أنه لم يقم بمهمته على الوجه الأكمل واتهمه مثلا انه لم يرد بعض الرسائل التي وصلت اليه لنقلها ومن ثم نشرها كما وعد ، ومثل تلك الرسائل رسائل صديقه الحميم John Morley وخلال تلك الفترة التي قضاها في جمع الرسائل لم تقع في يد كلاين رسالة واحدة أصلية من مورلي حتى يستطيع ـ مثلا ـ مقارنتها بالرسائل المنشورة مما أدى إلى نشرها في المجموعة الجديدة كما هي [٤] وقد بالغ كلاين في حنقه على وليم وادعى أنه استعمل اسم مورلي ، صديق والده في الاعلان عن الاستعداد لنشر الرسائل كغطاء للحصول على الرسائل دون أن يدرك أن مورلي كان أحد الأوصياء الثلاثة الموكلين في شؤون وتركة مردث [٥] . كذلك ادعى أن القصور الذي بدا في جمع الرسائل ونشرها كان مرده الى أن وليم كان منفصلا عن زوجته وكان يقيم أغلب الوقت في منزله خارج لندن .

غير أن الرسائل التي كتبها وليم في العشرينيات تدل دلالة واضحة على اهتمامه برسائل والده وقد كان في نيته أن يجمع ما تبقى من رسائل والده ويخرج بطبعة جديدة ، ومن النظرة الأولى الى تلك الرسائل يمكن أن نستدل أن وليم كان جادا في الأمر وعلى وعي تام بالمسؤولية وانه لم يكن البتة مستهترا بالأمر[٦] .

ويبدو أنه غاب عن بال كلاين نفسه أن عمل أي محقق وجامع يظل ناقصا مهما حاول صاحبه الوصول الى درجة الرضا او الكمال ، مثلا هذه مقدمة كلاين لعمل أفنى فيه زهاء عقدين من الزمن تجيء خالية من أي اشارة الى القيمة

---

(٤) أنظر مقدمة الرسائل : C.L.Cline (ed.) The letters of George Meredith 3vols (London,1970), pp. xxix - xxxv.

وقد كتب كلاين عن نفس الموضوع قبل وبعد ظهور الرسائل ، وفي أكثر من مناسبة مضاهيا ومبالغا في هذه المشكلة !

(٥) John Morley, Recollections, vol.I, (London, 1917) p.36.

(٦) يدلل على نية وليم الحسنة واهتمامه الجاد نحو رسائل والده رسائله الكثيرة ونسخته من الرسائل المطبوعة التي ضمنها اشياء كثيرة زيادة على ما جاء في المجلدين والمحفوظين في مكتبة جامعة اكسفورد .

الأدبية التي يمكن أن تضيفها الرسائل وتكتفي بتمجيد عملية الجمع والتحقيق نفسها حتى أن العملية تتحول الى قصة شيقة في حد ذاتها ويؤكد ذلك أن كلاين كرر هذا التمجيد في مواقع كثيرة تمتد من الخمسينيات الى نهاية السبعينيات .

كذلك غفل كلاين عن الاعتراف بجهد أكثر من اهتم بدراسة وتحقيق مردث واسمه Maurice Buxton Forman وقد قام فورمان في العشرينيات بنشر مجلدين من الببليوجرافيا عن مردث كان لهما الفضل في تدوين المصادر الأولية والثانوية التي تتعلق بأعمال مردث ، ولولاهما لاختفت وربما الى الأبد معلومات قيمة عن مردث ومازال المجلدان مرجعين هامين عن مردث ، هذا بالاضافة الى كتاب نشره فورمان وجمع فيه مقالات تقديرية كتبت عن مردث ، أضف الى ذلك بعض الرسائل التي نشرها في ملازم محدودة الانتشار ، وقد حاول كلاين أن يتخطى فورمان عن عمد لاعتقاده أنه ابن موريس Harry الذي كان شريكا للببليوجرافي الشهير Wise والذي برع في تزوير عدد الملازم التي كان ينشرها بين الحين والآخر في بداية هذا القرن . وقد تصادف أن حصلت على بعض ما كان قد جمعه فورمان والذي تركه لابنته التي بعثت به الى أكبر مزاد في بريطانيا واسمه Sotheby[٧] . وفي حوزتي مجلدا الرسائل مع أوراق كثيرة مختلفة كان فورمان قد وضعها بداخل المجلدين . ومن الملاحظ أن فورمان قابل كل رسالة مطبوعة مع الأصل الذي جهد في الحصول عليه من مصادر مختلفة والذي كان قد انتهى الى مكتبات مختلفة في بريطانيا وأمريكا ومن الواضح أن فورمان كان ينوي إصدار طبعة جديدة للرسائل ، ولو قدر لها أن تخرج الى حيز الوجود لجاءت عمـلا جادا متميـزا بالـدقة والاتزان . ومن الطريف أن أغلب الرسائل التي جمعها كلاين وأضاع وقتا طويلا في الحصول عليها كانت موجودة عند فورمان ، إما منسوخة بخط يده أو مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ولكنها لسبب أو لآخر بقيت محفوظة في مكتبة فورمان بعد أن قرر الانقطاع عن عالم البحث في أواخر الثلاثينيات من هذا القرن . وقد أغراني الحصول على ما حصلت عليه من أوراق فورمان على تجهيز مختار لرسائل مردث نواته العمل الذي قام به فورمان ، ولكني أضفت اليه في السنوات الماضية شيئا من جهدي الشخصي بعد أن وصلت الى كل ما يمكن الوصول اليه من أوراق ورسائل مردث . . . ويضم المختار بعض الرسائل التي لم تظهر في المجموعة التي نشرها كلاين ورسائل أخرى ظهرت ، ولكنها لم تدقق لعدم تمكن كلاين من الحصول على أصولها ، وآمل ان تنشر هذه الرسائل في المستقبل القريب حيث إنها الآن جاهزة ومعدة للنشر .

ولا يعاب على محقق أن تكون مجموعة رسائله غير حاوية لبعض الرسائل أو أن تكون بعض الرسائل غير مقارنة مع النص الأصلي ، حيث إن الأمر في أحيان كثيرة يخضع لعامل الصدفة . ولكن النقد الذي يمكن أن يوجه الى كلاين هو أنه لم يحاول إبراز القيمة الأدبية لبعض الرسائل ، فهذه مقدمة مثلا تبجل مردث الأديب ولكن دون أية اشارة محددة ومفيدة للنواحي الأدبية ، كذلك الحواشي لم تتعرض لغير حوادث السيرة الأدبية ، أي أن كلاين عامل الرسائل معاملة تكاد تكون متساوية من حيث أهميتها . وربما هذا هو الذي جعل الاستاذ Christopher Cricks يقلل من قيمة الجهد الذي بذله كلاين عندما راجع الرسائل المنشورة على صفحات جريدة التايمز في ملحق السبت عام ١٩٧٠ بعيد نشرها . ولا أقصد من هذا أن يتحول كلاين من جامع ومحقق الى ناقد ومحلل ولكني أعني بشكل خاص أن ينوه على الأقل الى ما في بعض الرسائل من قيمة أدبية تتميز على غيرها من الرسائل التي كتبت بقصد التفاهم على عمل أو أمر ما .

---

(٧) **Sotheby's Catalogue (April 10, 1972), no 213.**

ومن المعروف أن رسائل الأديب تختلف عن رسائل غيره من عامة الناس من حيث ارتباطها غير المباشر بأدبه وهذه هي القيمة الحقيقية التي تظل محتفظة بها . ولو كانت رسائل الأديب مهمة في حد ذاتها لتساوت في قيمتها مع أية رسائل اخرى ، أو لربما كانت قيمتها أقل . فهنالك من غير الأدباء من يكتب رسائل تكون شيقة أكثر من رسائل الأدباء . . . ويمكن أن يكون هذا هو السبب الذي يجعل بعض المحققين يشركون من لديهم الخبرة والتخصص في الناحية الأدبية وذلك ليتحقق التوازن المطلوب وليظل كاتب الرسائل في نظر القارىء أديبا قبل كل شيء .



وفيما يلي عرض موجز لمختارات من رسائل مردث كتبها في ظروف معينة ولها أهمية خاصة في حياته سواء ما ارتبط منها بالحياة الشخصية أو بالنشاط الأدبي(٨) .

هذه مثلا مراسلات مردث مع R.H.Horne الكاتب الذي كان يعرف بنشاطاته الأدبية المتنوعة دون التخصص في نوع أدبي محدد وكان على صلة بالمجلات والصحف الأدبية وهذه رسالة من أوائل الرسائل التي أمكن الحصول عليها والتي نشرها كلاين في مجموعته ولكنها كانت في متناول فورمان وقد كتبها مردث في بداية حياته الأدبية في الثامن من مارس ١٨٤٩ .

سيدي ،

« أنت شاعر وناقد ومن خلال بعض كتاباتك تبين لي ما تكنه من عاطفة للشعراء الناشئين . ولما كانت هذه حقيقة نادرة بين رجال الأدب فقد أعطيت نفسي الحرية في الكتابة اليك بدون استئذان .

وأود أن أضع بين يديك بعض القصائد التي نظمتها لتعطيني رأيك (الذي أستطيع أن أثق به) في قيمتها أو بشكل خاص فيما أمتلك من قوة شعرية .

واذا كان هذا الطلب سيأخذ كثيرا من وقتك الثمين (الذي سعدت بالتعرف على ثماره) فإنني طبعا سأكون قانعا ومتفهما للوضع أما اذا كان في مقدورك أن تساعدني بنصيحتك فإنني سأكون مدينا لك بالشيء الكثير وشاكرا لفضلك » (I, ١ ـ ٢)

وفي رسالة أخرى كتبها اليه بعد ذلك بحوالي شهر أخبره فيها أنه كان سعيدا عندما وجد طلبه الذي أوصاه به وهو بعض أشعار جوته بالألمانية وشكره على ما أسداه من نصائح حول كتابة الشعر . وبعد ذلك بعام تقريبا أرسل له رسالة على شكل قصيدة مرفقة مع قصيدة طويلة كتبها مردث نفسه ونشرها في أول مجموعة شعرية له عام ١٩٥١ . وقد كان لهورن الفضل في تقديم مردث الى المجلة التي كان محررها تشارلز ديكنز وهي **Houshold Words** وقد أسهم مردث وزوجته ماري في تحريرها خلال السنوات الأولى من زواجهما في الخمسينيات .

(٨) المرجع الى رسائل مردث التي ترد في المتن هو المجلدات الثلاثة التي ترد في المتن هو المجلدات الثلاثة التي حققها وجمعها البرفسور كلاين والتي نشرتها جامعة اكسفورد عام ١٩٧٠م . والاشارة التي في المتن هي لرقم المجلد باللغة اللاتينية والصفحة بالارقام العربية .

وبعد ما يقرب من عقدين من الزمن كتب مردث الى هورن رسالة يشكره فيها على مسرحيته التي عنوانها **Tragedy of Marlowe** والتي يقول مردث بأنه أجبر أصدقاءه على قراءتها ويأمل أن يكون ثمن ذلك الاجبار هو أن يفعلوا مع غيرهم ما فعله هو معهم ، ثم يعتذر له عن عدم رده على رسالة كان هورن قد بعث له بها من استراليا . ويضيف قائلا بأنه لا تتوفر لديه صورة شخصية يبعث بها اليه تلبية لطلبه ولا نسخة واحدة من كتبه ، ويعزو السبب في الحالة الأخيرة الى أن الجمهور لا يقبل عليها بالدرجة التي يجعلها تنشر في طبعات متجددة ثم يؤكد أنه لم يعد يهتم بإرضاء الجمهور عن طريق كتابة ما يسليه من أدب لا يرقى الى المستوى الجاد الذي يتعامل هو (مردث) معه وأنه قانع بإرضاء ذوقه ، حيث يجد في ذلك سعادة ما بعدها سعادة (I, ٤٥٥)

والذي يقرأ بين السطور يلاحظ أن الرسالة شبه رسمية وأنها تخلو حتى من اللهفة العادية التي ينتظر الصديق أن يستقبل بها صديقه بعد غياب ما يقرب من سبعة عشر عاما قضاها هورن في استراليا .

وفي الأول من أغسطس عام ١٨٧٥ يكتب هورن الى مردث فيقول :
« مضت على فراقنا سنوات عديدة دون أن يرى أحدنا الآخر كما تعودنا أن نلتقي في البيوت ونمرح في الغابات ومازال الزمن يزحف علينا أو ينسل من بيننا » .

ثم يطلب من مردث أن يزوره وبعد ذلك يأتي عتاب مرّ من هورن يذكر فيه أن Wyse صديق الطرفين أخبره بصراحة عن حديث له علاقة بالفضيحة العائلية التي وجدها في انتظاره إثر عودته الى بريطانيا بعد طول غياب وأن الذي أدلى بالحديث (ويعني بذلك طبعا مردث نفسه) كان يجب أن يكون آخر شخص يقذف بمثل هذا الحجر عليه حتى لو كان الكذب (الفضيحة) حقيقة ثابتة ، ثم يستمر قائلا :

« أنا لم أقتد أبدا بالمثل السيء الذي ضربه ديكنز في استعراض أحزاني الشخصية ، لقد شعرت دائما أن من واجبي كتمانها »[٩]
وهذا هو رد مردث على هورن في الثالث من أغسطس عام ١٨٧٥ .
عزيزي هورن ،
« إنني سعيد أن أسمع منك مباشرة ، أولا دعني أكتب اليك بالنسبة لما جاء في رسالتك : لقد أخبرني وايز أنك تألمت بعض الشيء لأنني لم أقم بالاتصال بك عند عودتك . لقد تصادف أنني ذكرت خبرا يتعلق بك ، وأود أن أعلمك أنني لا أعير انتباها للفضائح العائلية وأنها لا تؤثر علي ولا أقول هذا تبريرا لما قلت ، فالذي ذكرته أنني تكلمت مع أناس أبدوا عدم رغبتهم في تجديد علاقتهم معك ربما بسبب تلك الفضيحة ولتعلم أن زمن الشهامة الفروسية في الدفاع عن المرأة من قبل العاطفيين المتطرفين قد ولى .
سأكون سعيدا بأن أقوم بزيارتك عندما أجد نفسي حرا من قيود العمل ، لكنني الآن غارق في العمل إلى أذني ، وأن قضاء ليلة في لندن يعني سلبي من صباح هادىء في البيت » .

(٩) **Letters of Horne to George Meredith, Letters from George Meredith to Richard Hengist Horne** (Privately printed , Cape Town, 1919) pp.5—6.

وبعد ذلك يعلق مردث تعليقا لا يخلو من القسوة لما فيه من الغمز واللمز الى الفرق بين منهج مردث في الكتابة ومنهج هورن فيقول :

« لو كنت كاتب نثر يباع على منصات القطارات أو مؤلف أشعار خفيفة لهان الأمر علي ، ولكني أكتب وأنا أدرس ما أكتب . . . »

ثم يعد أن يزوره ظهر يوم من الأيام ويخبره أنه من عشاق الجو الريفي وأنه لا يقوم بزيارات مجاملة لأصدقائه رغم أنه يودهم ويحبهم (I, ٥٠٥)

ولا يخفى على قارىء هذه المراسلات أن أسلوب الرسائل الأولى يختلف عن أسلوب الرسائل الأخيرة فالأولى ودية والأخرى أبعد من أن تكون كذلك ، ومن هنا يبرز التساؤ ل . وأول شيء يخطر على البال هو أن الزمن باعد بين الصديقين وجعل أحدهما ينظر الى الآخر على أنه غريب ، ولكن الذي يبطل هذا الافتراض هو أن مردث شخصيا لا يدع للزمن ذلك الأثر الذي يمكن أن يحوله عن صديقه كذلك لا يمكن أن يرضى مردث لنفسه أن يظهر بمظهر المتعالي على صديقه حتى لو تصادف وان الزمن جار على صديقه أو كرم عليه ، ومثل هذا السلوك (التكبر على الصديق الذي كان يقف بجانبه يوما ما على قدم المساواة) يعتبر معيبا ، على الأقل في التقاليد الانجليزية الاجتماعية وأكبر توضيح لمثل هذا الأمر يأتي من خلال تصور شخصية pip في رواية ديكنز « الآمال العظام » التي فيها يصور ضعف بب الذي يشار اليه عادة على أنه (Snob) في تحوله عن صديق صباه ، والافتراض الآخر هو أن يكون مردث قد تحول في ذوقه عن الصحفية التي تتميز بها كتابات هورن ، حيث كان هورن يكتب في أي موضوع كان ، وكتب فعلا في كل ما هب ودب ، ولكن هل هذا يوجد مبررا لمردث أن يهجر الكاتب الذي مد إليه يد العون عندما كان أحوج الناس إليها ؟

المهم أنه ليس من العسير على القارىء أن يتحسس اختلاف الموقف عند مردث . ماذا يفعل القارىء أو الباحث أو المحقق للرسائل في هذه الحالة من أجل أن يحاول ملء بعض الفراغ الذي نشأ في هوة تقرب من العشرين عاما ؟ في الحاشية يعلق كلاين على رسالة هورن لمردث من استراليا فيقول إن هورن أرسل لمردث من استراليا كتابا ورسالة وصورة شخصية معها في تشرين ثان عام ١٨٧١ « ولكني لا أعرف شيئا آخر » « I, ٥٠٥) . وفي ربع القرن الذي قضاه كلاين في البحث عن رسائل مردث لم يستطع أن يجد رسالة واحدة لمردث في عام ١٩٥٢ . ولو نظرنا الى جميع كتب السيرة التي كتبت عن مردث لوجدنا أن المعلومات عن حياته في الخمسينيات قليلة جدا ، فهي مثلا لا تذكر شيئا عن علاقة مردث بهورن أكثر مما ورد في الرسائل المذكورة أعلاه . وقد كانت في يوم من الأيام أي عند ظهور مجموعة الرسائل التي نشرها ابن مردث تقتصر على الرسائل التي كتبها مردث في الخمسينيات .

وأول من لاحظ هذا النقص هو فورمان حيث حصل من مكتبة والده (الذي كان أمينا على تركة هورن الأدبية) على المراسلات بين مردث وهورن في السبعينيات ، كذلك حصل فورمان على رسالة مطولة كتبتها زوجة هورن الى زوجها في نوفمبر ١٩٥٢ وبعثت بها اليه في استراليا بعيد مغادرته انجلترا . جمع فورمان كل هذه الأوراق واستعملها في محاضرة

ألقاها في بريتوريا بجنوب افريقيا[١٠] . ولكن الرسالة نفسها لم تر النور بعد ذلك وهي الآن في حوزتي وستظهر قريبا في دراسة عن حياة مردث ستنشر في مجلة **Modern Language Review** .

كتبت الرسائل المذكورة كاثرين Catherine المعروفة بـ Kate زوجة هورن وفيها وصف مفصل لأزمة عائلية بين مردث وزوجته ماري شهدتها هي بنفسها عندما كانت تقضي عطلة نهاية الاسبوع مع الاثنين ، وتصف الرسالة مزاج ماري العصبي الحاد وموقف مردث المتسامح معها وبقدر ما تلاحظ من نقص في ماري تلاحظ مقابله كمالا في مردث ولكنها تخشى عليه أن تضيع شخصيته مع كل هذا التسامح .

ولسنا هنا بصدد التعليق على الرسالة وقيمتها في سيرة مردث الادبية ولكن يمكن القول إن الرسالة تلقي ضوءا على أن العلاقة بين عائلة مردث وعائلة هورن تطورت بعد المراسلات الأولى وأصبحت علاقة ودية ، تلك العلاقة التي لا ذكر لها فيما كتب عن مردث . كذلك تكشف الرسالة بصراحة أن عواطف كاثرين كانت مع مردث لا مع زوجته .

وعندما تأزمت العلاقة بين مردث وزوجته تصادف أن تأزمت العلاقة بين كاثرين وزوجها في عامي ١٨٥٧ و ١٨٥٨ . ويبدو أن سلوك هورن كان مشابها لسلوك ماري فالأول وقع في غرام فتاة ولدت مولودا غير شرعي وهو مازال زوجا لكاثرين والثانية وقعت في هوى ذلك الفنان وولدت له مولودا غير شرعي وهي مازالت زوجة لمردث . وفي الوقت الذي رفضت كاثرين أن تبقى زوجة لهورن رفض مردث أن تعود ماري الى بيته . ولابد أن مردث كان يرى في حالة كاثرين ما كانت تراه في حالته من جور الشريك على شريكه .

ومهما حاول مردث التزام الموضوعية والحياد ، فلن يحيد عن مواساته لكاثرين التي لابد وأنه كان يعتبرها شريكة مماثلة في الأحزان ، عانت مما عانى من تحول قلب الشريك عن شريكه . ولكن مردث كان يحافظ فعلا على الأسرار العائلية سواء أسراره الخاصة أو أسرار الآخرين ، ولهذا نجده يتكتم على أسراره مثلما يتكتم على أسرار الآخرين . وربما هذا هو السبب الذي جعله يتخفى وراء الأسلوب بما فيه من اشارة وغمز ولمز وقد آثر أن يثير حنق صديقه القديم عليه على أن يكشف له ظلمه لزوجته (كاثرين) أو حبه وعطفه عليها . وعندما كتب في رسالته الى هورن الآتي :

The chivalry of the defence of women by Sentimentalists has gone greater lengths

كان يهدف ان ينفي عن نفسه تهمة الوقوف بجانب كاثرين . وعلى أي حال فدافع الوقوف بجانبها كان أعقد من أن يكشف عنه في رسالة حتى لو أراد ذلك .

●●●

---

(١٠) لقد تفضلت ابنة فورمان المسز B.Holmes وارسلت لي رسالة في ١٥ يونيو ١٩٧٢ تفيد ان والدها اللذي توفي عام ١٩٥٧ كان قد القي المحاضرة في بداية العشرينيات . وقد ضمنت الرسالة ايضا معلومات مفيدة اخرى عن جهود والدها فيما جمعة عن مردث .

وهذه المراسلات وما شابهها تعطينا مثلا على العلاقة بين حياة الكاتب الشخصية والمراسلات التي يمكن أن تكون حلقة وصل بين الأديب الشخص والأديب الفنان أو بين فن الأديب وبين ذاته . وقد تبدو العلاقة متشابكة يصعب علينا في بعض الأحيان النظر الى كل واحد منهما على حدة . ويمكن القول إن الأديب الذي يشعر عند الشدة أن الرسائل ليست هي الوسيلة للتعبير عن الموقف ، هو الأديب الذي لا يطول عليه الوقت حتى يجد نفسه على أبواب مدخل جديد أرحب أفقا . ولو كانت الرسائل تتسع لايواء حدة الأزمة لما برزت الحاجة أصلا للتعبير الفني . وعندما كانت الأزمة العائلية على أشدها في ابريل عام ١٨٥٨ كتب مردث الى صديقه :

« كيف يمكن أن أسرّي عنك ياصديقي العزيز ، فلو بدأت الحديث الطويل ، ياصديق العمر ، لوجدت نفسي مندفعا الى التحدث عما أنا فيه ، وهو أمر يخلو من البهجة . . . »

ثم يختتم الرسالة بقوله :

« أرجو أن تكتب لي مرة أخرى اذا تصادف وأن حل بك المقام بعيدا في أي وقت . ثم أرجوك ألا تفاجأ بالنسبة لما في هذه الرسالة من ملل وسأوافيك في رسالتي القادمة بأخبار أكثر حيث إنني الآن في حالة مرض وإنهاك لكثرة العمل وغيظ شديد ولكنني أتحسن تدريجيا . وما عليك الا أن تعتمد على حسن النية لدي » (I, ٣٤ - ٣٥)

ولأسباب لا نستطيع أن نجزم في أمرها التزم مردث الصمت الذي يكاد يكون كاملا في أمر الأزمة العائلية . وقد حافظ على سرية هذا الأمر لدرجة ان Hardman عندما التقى به في سبتمبر ١٨٦١ ونشأت بينهما صداقة بعد ذلك كان يظن أنه أرمل ، وربما استمر في ظنه لولا أن مردث كتب له بعد وفاة ماري بقليل يقول :

« عندما ثُبْت الى رشدي ووجدت نفسي في هذا العالم من جديد أيقنت أن شخصا ودعه الى الأبد حاملا معه اسمي . وقد أيقظ هذا في نفسي ذكريات الميلانخوليا التي يندر أن أدعها تتسرب الى نفسي ، ولحسن الحظ فان ابني العزيز لا يحس بالصدمة لأن ظروفه تختلف عن ظروفي » .

وإنني أكتب هذا لأجد ما يبرر صمتي في الكتابة اليك . . . » (I,١٠٨)

وعندما طلب مردث يد Marie Vulliamy طلب منه والدها ان يجيبه خطيا على عدة أسئلة منها سؤال يتعلق بطريقة انفصاله عن زوجته الأولى وهذه هي إجابة مردث :

« سوف يشرح لك مستر هاردمان الموضوع . أما الانفصال فقد كان من صنعها ، ولولا أمر طفلي لما تأسفت على هذا الانفصال . ولم يكن الانفصال رسميا ، ولم أعتبره نهائيا الا عندما توفرت لدي المعرفة التي جعلتني أرى ضرورة اعتباره هكذا . » (١١)

---

(١١) C.L.Cline, "The Betrothal of George Meredith to Marie Vulliamy" Nineteenth — Century Fiction, xvi (1961), 237.

ويبدو أن مردث شعر أن خيبة الأمل في الحب أو في الصداقة تكون من الحدة بمكان ما يجعل التعبير عنها أمرا عسيرا . ولا بد من كسر حدتها أولا حتى يتم التعبير عنها . وهذا لا يتسنى الا بمحاولة انفصال بين صاحب التجربة والفنان . وعندما أصبح مردث الشخص يقف على بعد نسبي من مردث الفنان ظهرت روايته الأولى وقصيدته الثانية . ولكن الجمهور لا يدع الأديب يستمتع بصمته مدى الدهر فعندما تظهر عواطفه الشخصية وهي مغلفة بفنه يبدأ الاستفزاز يلاحق الأديب من أجل الافصاح عن مكنون مشاعره في أدبه ويستسلم الأديب خصوصا عندما يجد القاريء أو الناقد أو المراجع (reviewer) أو من له علاقة ما بعمله الأدبي قد أساء فهمه أو عرقل سبيل انتشار عمله بطريقة أو بأخرى . ويمكن كذلك أن يكتب الأديب رسالة حول موضوع ادبه تحسبا من التجني على مضمونه او أسلوبه أو طريقة عرض غرضه . وهذه أمثلة على ذلك .

عندما ظهرت رواية مردث الأولى The Ordal of Richard Feverell استقبلها المراجعون بشيء من السخط لأنها تعرض موضوعا مؤلما في التربية كذلك اتهم مردث من قبل بعض المراجعين أن الرواية تعمل على إفساد خلق الجيل الناشيء وخصوصا من الفتيات والاشارة هنا الى قصة الغرام بين ريتشارد الذي يحاول والده أن يحيطه بجميع أنواع الرعاية كي لا يختلط بالجنس الآخر قبل سن معينة وماكان من ريتشارد الا أن وقع في غرام ابنة مزارع مجاور وبذلك يكون قد تخطى كل قيود الرعاية قبل الأوان وتزوجها بعيدا عن بيت أبيه ورغم معارضة كل من حوله . ونتيجة للمراجعات المعارضة أوقف Mudie (صاحب المكتبة المتنقلة التي كانت تتحكم في انتشار الكتب في ذلك الوقت) التزامه الذي كان قد التزم به من قبل بشأن شراء خمسمائة نسخة من الكتاب وتوزيعها على المكتبات . وقد غضب مردث كثيرا لأن ميودي أخل بالتزامه وكتب مردث عام ١٨٥٧ الى Samuel Lucas المحرر الأدبي لجريدة التايمز ورئيس تحرير صحيفة Once a Week التي كان مردث من بين المسهمين في تحريرها يقول :

« أما بالنسبة الى الرواية فيا للويل ! يبدو أنني أغضبت ميودي وجمهور الأمهات ، فهو الآن لن يجرؤ أن يعلن عني في كتالوج مكتبته وذلك بسبب المخالفات الأخلاقية التي أصورها . ياله من عصر مشين . إنني أتوقع بركانا جارفا يتبع ميودي الذي هو مترنخ Metternich وفي الوقت نفسه أود ان أخبرك أن ذكري اصبح محرما في جميع الصالونات المرموقة .

وعندما أعدت قراءة بعض أجزاء الرواية شعرت أنها مملة وضعيفة وبدأت أمزقها بأصابعي . ومع كل هذا فإن الهدف الرئيسي للكتاب يظل قائما على حاله ومن المؤكد أن أحدا من المراجعين لم يدرك كنهه حيث إنني بكل تأكيد أحطته بالغموض فنظام التربية الخاص (الذي ابتدعه الوالد لتربية ابنه) نجح فقط من خلال الصدفة الحسنة التي ساعدت الابن على أن يجد مثل هذه الفتاة الرائعة . ويظل حب ريتشارد الخالص لهذه الفتاة نجاحا الى أن يهدم الأب بنيان النظام الذي أقامه هو بنفسه . فالأمل الذي بني عليه النظام ، كما ترى ، هو كره الأب لزوجته لا حبه لابنه وهكذا يحمل النظام في داخله جذور الفناء ، والعظة من ذلك انه لا يمكن لمثل هذا النظام ان ينجح في اصلاح الطبيعة البشرية الا اذا تصوره صاحبه في الأصل بعيدا عن العاطفة الشخصية . فالنظام هو

طريقة ابتدعها Sir Austin الأب من أجل أن يشبع انتقامه من زوجته . ورغم كل هذا فالكتاب يحتاج الى قراءة ثانية لو أراد القاريء أن يتبين الغرض منه ، وقد أخطأت في أنني جعلت الكتاب مملا الى درجة أنه لا يشجع على قراءة أخرى ، على الأقل بين نقاد الصحافة الأفاضل .... » (Iو٤١)

وعلى أثر هذه الرسالة كتب لوكاس مراجعة مطولة في صالح الرواية ومبنية على ما ورد في الرسالة ولكن القاريء المتفحص للمراجعة يدرك أن قدرة لوكاس الأدبية والصحفية لم تنجح في إزالة الابهام الذي أدى الى سوء فهم القصد من وراء نظام التربية في الرواية . ويرجع السبب الى أن الرسالة نفسها لم تزد الامر توضيحا فمثلا كيف يكون النظام العقلاني ناجحا من خلال الخط اللاعقلاني ؟ ومع أن مردث أشار الى أن الرواية تتمركز حول الواقع الاصلي من وراء النظام الا أن قراءة الرواية تتعدى ذلك بكثير ، ومع هذا تظل الرغبة في توضيح ما ساور فهمه بارزة عند الأديب حتى لو كان الأديب على يقين أن رسالته ستنتهي الى ما انتهت اليه روايته .

وحول روايته The Abventures of Harry Richmond التي تشبه في إطارها الخارجي الرواية الأولى من حيث إنها تصور تاريخ حياة أب وابنه ، كتب مردث الى صديقه Augustus Jessopp قائلا :-

« تهدف الرواية الى عرض الحياة الداخلية كما تكشفها عقول الشخصيات في فترات مختلفة من حياتها وهي على درجة عالية من النشاط والحيوية . وهي تعرض نظرة شبه تأملية لتلك الشخصيات وترقب العالم الغاني ومصيره . أما بالنسبة للوعظ المقدس فإني أتركه لاساطين اللاهوت ، فبنظرتهم الثاقبة يتمكنون من التحدث عن الموضوع والاسهاب فيه . وأستطيع القول إن الرواية لن تستقبل استقبالا محمودا لكني أعرف سبيلي وأقوم بواجبي . وإن بقيت في فقر دائم ، فإني آمل أن تدفع ديوني في الوقت المناسب .... » (I١٥١)

وقد هدف مردث من هذه الرسالة أن يبين لصديقة أن حوادث الرواية ما هي الا خلفية ، القصد منها أن تكشف عن حياة الشخصيات الداخلية وألا تكون هدفا في حد ذاتها . وما كانت من المراجعات الا أن أشادت بالكتاب لما فيه من حوادث شيقة ومثيرة وأغلبها علق على شخصية الأب المغامرة والكوميدية وكأنها ضرب من الخيال . واستمر الموقف من روايات مردث على هذه الحال في الرواية التي تلت وهي Beauchamp,s Career وقد حاول مردث بنفس الطريقة أن يبين في رسائله أن شخصية البطل لا تقبل أن تخضع لأمر صانعها ، لأنها شخصية مستقلة وتتصرف بمحض من مكونات شخصيتها . ولكونها شخصية مثالية فنتائج الحياة العملية يجب ألا تكون الحكم القاطع على الشخصيات . ولكن المراجعات قامت بالتركيز على فشل البطل في الانتخابات وقومته من خلال هذه النتيجة .

●●●

ولقد كان مردث عصريا في نظرته الى فن الرواية حيث اعتقد أن الصورة الروائية هي ما ترسمه الشخصية لا ما يرويه الحدث وقد سبق جيمز في نظرته الى التلاحم بين الحدث والشخصية . ولم تكن لدى مردث القدرة على تضمين الرواية

حبكة محكمة وحوادث مثيرة بجانب الشخصية كما فعل ديكنز وجورج اليوت كتنازل للجمهور الكريم ، لهذا السبب ظلت رسائله حول الموضوع تدور في فراغ ولا تؤدي الرسالة النقدية المطلوبة . ولكنها ظلت شاهدا للقاريء الحديث ينتفع منها اكثر من قاريء مردث المعاصر .

ومن الجدير بالذكر أن مردث كان على وعي مستمر أن الجمهور سيسيء فهم رواياته وأنه لن يستقبلها بحماس ، ومع ذلك فقد واصل كتابة الرسائل التوضيحية . هذه رسالته . الى R.L.Stevenson عن أشهر رواية من رواياته وهي The Egoist كتبها في ابريل ١٨٧٩ :

لقد فرغت من روايتي هذه قبل شهرين من الزمان ولكن Kegan Paul لن ينشرها قبل أكتوبر . ولا أعتقد أنك ستحبها وأشك أنها ستكون مقبولة من الذين يقبلون على عملي ويهتمون به ، ولهذا السبب وبعد أن بذلت قصارى جهدي في كتابتها فإني لن أكون في عجلة من أمري لرؤيتها مطبوعة . وهي كوميديا نصغي فقط فيها ، ولهذا فمن غير المحتمل ان تسترعي انتباه الجمهور أو الأصدقاء . هذا وقد أتممت ما يقرب من الربع من رواية The Amazing Marriage والتي أعد أنها ستعجبك أكثر . » (II ٥٦٩) .

وكتب لصديق آخر حول نفس الرواية بعد ما يقرب من شهر ونصف : « لقد أتممت بسرعة رواية من ثلاث مجلدات وتعتمد على محاكمة العقل ولا شيء فيها يثير الخيال ولهذا كنت تواقا الى أن أفرغ منها فور تصورها » (II و ٥٧٣)

ويمكن للناقد أن يستخلص من رسائل مردث آراء نقدية كان له السبق في الوصول اليها ورغم مخالفتها لذوق العصر الا أنها عاشت الى عصرنا الحاضر لتأخذ مكانة رفيعة في النقد الحديث وربما كان هذا هو مصدر الخلاف بين مردث وجمهور عصره . وقد قال لي شخصيا أحد معجبيه المحدثين وهو E.M.Forster الذي تعلم من مردث الشيء الكثير في فنه الروائي أن مشكلة مردث تكمن في أنه كان تقدميا بالنسبة لعصره وأنه ولد مبكرا بالنسبة للعصر الفيكتوري[١٢] . وفي رسالة الى Bainton في سبتمبر ١٨٨٧ كتب مردث يقول :

أنا لا أصنع حبكة ولو تصادف ان شخصيات روايتي وجدوا أنفسهم مغلقين في حبكة عند بداية الرواية أو في مرحلة تصوري لها فإنه سرعان ما تبدأ ملامح هذه الحبكة تختفي . » (٨٨٨, II)

هذا ما سارت عليه Virginia Woolf وليس من المستغرب ان تجد هذه الكاتبة في روايات مردث نموذجا صالحا تقتدي به . وعندما قرأت روايات مردث ، ربما في مكتبة والدها Leslie Stephen الذي كان يدخرها لتثقيف أبنائه وبناته أعجبت بها وكتبت عن مردث ما كتبته من نقد ميزته فيه عن معاصريه بعصرية متقدمة .

(١٢) For details see: "Forster on Meredith", The Review of English Studies, xxiv (1973), 185—91.
وهي مقالة قصيرة ناقشت فيها الموضوع بشيء من التفصيل .

ولما كان القرن التاسع عشر يفتقد الى منصة يعبر الكاتب من خلالها عن آرائه النقدية فقد جاءت الرسائل لتملأ هذا الفراغ . وبالنسبة لمردث فقد كانت أكثر أهمية من غيرها في هذا المجال لأن مردث بطبيعة الحال كان لا يحبذ أن يكتب مقدمات نقدية لرواياته كما كان يفعل معاصروه ولذلك فقد كانت الرسائل هي المتنفس الوحيد وخصوصا في المرحلة الأولى والوسطى من تاريخ حياته الأدبية (وقد اعتمد مردث في بعض رواياته بعد رواية Beauchamp's Career على تضمين بعض الآراء النقدية في الرواية نفسها وهو تقليد اتبعه بعض الروائيين أمثال جورج اليوت وغيرها) ومن هنا اصبحت الرسائل المرآة التي يرى الكاتب نفسه فيها . كتب مردث مثلا الى لوكاس عندما كانت روايته Evan Harrington تنشر في مسلسلات أسبوعية :

« إن هذه الرغبة اللعينة ألتي تأسرني بالنسبة لعرض مسببات الأمور هي العائق الدائم في حرية الحركة في الرواية . »(٥٧,I)

وكان مردث يدرك جيدا أن رغبته أصيلة من الناحية الفنية ، وأنه ثار ضدها لأنها لا توافق هوى الجمهور الذي كان آنذاك يتعطش الى الحوادث المثيرة التي تدفع بتواليها الحركة الروائية الى الأمام . وعندما حاول أن يكبح جماح هذه الرغبة وكتب Emilia in England و Vittoria وضمن الروايتين حركة روائية ظل أسلوب مردث هو المسيطر وكأن الحركة الروائية لم تشفع له بالنسبة لأقبال الجمهور على رواياته .

وفيما بعد تطور العائق الدائم في حرية الحركة وأصبح يتمثل في عرض العقل الباطني للشخصية وأكثر ما يظهر هذا في روايته One of Our Conquerors حيث تقع حوادث اثني عشر فصلا في يومين فقط ولا يتحرك العمل الروائي من مكانه فوق لندن بردج الا بعد عدد من الصفحات .

ومن أهم القضايا النقدية التي كتب فيها مردث والتي كانت تشغل فكر معاصريه من الكتاب هي قضية الواقعية . والرسالة التالية توضح فكر مردث النقدي الذي تميز عن معاصريه بالنظرة المستقبلية :

« لا يوجد تباين حقيقي بين الواقعية والمثالية . إحداهما تكمل الأخرى فالواقعية هي الأساس عند البداية في الكتابة . ذلك الأساس الذي يتضمن الدراسة والملاحظة ووضع القوى الفنية موضع المحك . وينبغي على الكتاب الناشئين أن يكونوا واقعيين ، فهذا يساعدهم على الأقل في إنجاز عمل يرتكز على قاعدة صلبة . . . . أما الكاتب العبقري فعليه أن يستخدم وسائل المثالية لأنه يستطيع أن يجمع أطراف الصورة الكبيرة للواقع دون أن يتركها مجسمة فيه خاضعة للايحاء الحسي . والمثالية هي جو تنتقل تأثيراته إلينا من خلال مجموعة من الايحاءات التي تحتفظ بإيحائها عندما تكون منفصلة عن القاعدة الأساسية للواقع . والكاتب الذي يفصل الواقعية عن المثالية تظل كتاباته ناقصة . والكتاب الذين أنحني اليها اجلالا (مثل شكسبير وجوته وموليير) هم في واقع الأمر واقعيون . فهم يقدمون لنا أرضية صلبة ، ولكنها أرضية محاطة بجو المثالية . » (١٦٠,I - ١٦١).

ورسائل مردث مليئة بالآراء النقدية التي يمكن أن نقرنها بآراء النقاد المحدثين أمثال باوند واليوت وريتشاردز

وغيرهم ، لنرى كيف أن مردث كان يشق طريق النقد الحديث وكيف كان يدفع الثمن بسبب جدة فكره وأصالة أسلوبه .

●●●

ويمكن القول إن المراسلات عند مردث كانت حاجة عاطفية ملحة أكثر منها ضرورة للتوصيل ، والسبب في ذلك يرجع الى أنه قضى ما يقرب من نصف قرن منكبا على كتابة الرواية والشعر وهو يشعر أن الجمهور كان يعرض عنه لا لسبب إلا لأنه كان مجددا غير تقليدي ، وربما كان مردث نفسه مبالغا في هذا الشعور ولكنه عاش معه حتى آخر حياته وتكونت عنده مشاعر خيبة الأمل والضياع التي لا تقل في حدتها عن مشاعر الحب والاطمئنان . ومن خلال العديد من رسائله نجد أن مردث يومىء الى شعوره بعدم الانصاف . والذي يقرأ بين سطور بعض رسائله يلاحظ أنه كان تواقا لأن يجد من يحب ويستمع اليه ، ويستجيب الى صوته بأضعف وسيلة وهي الصمت والاستماع . وفي إحدى المرات كتب لمجلة محلية محدودة الانتشار رسائل تتعلق بموضوع تربية الأبناء في سن المراهقة ، وكان هو المرسل والمرسل اليه ونشرت الرسائل تحت أسماء مستعارة .

وفي خريف عام ١٨٨٦
أي بعد موت زوجته بقليل وجد مردث ضالته في هذا السبيل ، وجد من يبث اليها مشاعره بخيبة الأمل التي صحبته عبر السنين ، وهي فتاة في الرابعة والعشرين (وكان هو آنذاك في السابعة والخمسين) من عائلة كندية عريقة كانت تقيم في ذلك الحين في جنوب فرنسا واسمها Hilda DE Longueuil وتعرف عليها عندما كانت تزور بيت أحد أقربائها الذي كان يسكن في المنطقة المجاورة لبيت مردث وهو في نفس الوقت صديق لمردث واسمه Grant Allen . وعندما قابلها مردث لأول مرة وقع في غرامها وتأثر بمسحة الحزن الجميلة التي كانت تظهر عليها نتيجة تخلي حبيبها عنها آنذاك ، وكان يظهر عليها الخفر والحماس الساذج الذي كان يساعدها في أحيان كثيرة على التعبير عن نفسها بفكاهة وحيوية . ولم يخف على مردث ولا حتى على أصدقائه الذين كانت تقيم بينهم أنها كانت تبادله العاطفة وقد اعترفت هي نفسها لأقاربها بإعجابها الشديد بمردث ، وأخذ مردث يتردد على بيت أصدقائه أكثر من ذي قبل حتى يجد الفرصة لتجاذب أطراف الحديث معها .

وعندما رجعت الى فرنسا لم يجد مردث من وسيلة للتعبير عما في نفسه سوى المراسلة التي دامت قرابة عام كتب فيها مردث أرق رسائله وشعر أن الفرصة واتته لينقل ما في نفسه ليس فقط من صبابة بل من أمور أخرى شغلته في عالم الأدب والحياة . وفي إحدى رسائله اقترح عليها أن تتعاون معه في التعليق والاجابة على رسائله حتى تنشر المراسلة في النهاية تحت عنوان « رسائل الى سيدة حول فن الرواية » ولكن المشروع لم يتحقق لأنه لم يكن فعلا هدفا رئيسيا عنده ولا رغبة ضرورية عندها .

ويبدو أن هيلدا أشعلت نار الهوى والشباب في مردث من جديد ورجعت به الى الوراء سنوات طويلة عندما كان يتغنى

بحب ماري ألن في Love in the Valley وفي إحدى المرات كتب لها رسالة هي قصيدة عنوانها « أشعار لهيلدا تقرؤ ها عند الصباح والمساء » وتتكون من تسعة مقاطع ، وفيها يلي المقطعان الأولان :ـ

Can another Love be born
In heart that love has Ieft outworn;
Appearing dead to sweet desire;
Its mouths of earth once mounts to fire?

Question first, if thou wouldst know,
This wilful love that wasted so;
And ask one heart that wildly went
To ashes, why the flames are spent

أما المقطع الأخير ففيه دعوة الى أن تتوجه الى حب فيه نبل بدلا من ذلك الحب الذي خاب أملها فيه (ويعني هنا حبيبها الذي هجرها والذي لا يعرف مردث من أمره شيئا)

The past is dust,thy heart is blood;
It bears thy fate upon its flood,
Set it on noblemess, and soon
A nobler love will crown thy noon.
ll (و٨٥٣ ـ ٥٤)

وتبين أول رسالة بعث بها مردث اليها في ٢٨ نوفمبر ١٨٨٦ اهتمامه الشديد بتقديم مافي وسعه من ارشاد وتعليم من خلال التجربة العملية التي استوحى فلسفتها من تعليق بسيط عن الموت وصل اليه عن طريق أصدقائه :

« ان كلماتك الى جرانت الن فيها يتعلق بترحيبك بالنوم والموت تستحوذ علي وكأنها جزء من تاريخ حياتك ، وتكشف عن معاناة أو ضيق من المعاناة . ولكنها تبين لي أنك سائرة على درب الاستفسار مع رغبتك في الانعزال رغم أن الشوط الذي قطعته في الحياة ما زال قصيرا . وهذا يشير طبعا الى أنك لم تمتلكي بعد القدرة على اخضاع الحواس لتفهم ثابت في الحياة . وينتابنا جميعا مثل هذا التفكير عندما تبدو الحياة لنا محيرة لدرجة تميل عندها الى حب للنوم . ولن يكون باستطاعتنا الوصول الى هذا التفكير دون أن تكون لدينا القدرة عليه أصلا . أما اذا استطعنا الى ذلك سبيلا فاننا نتوصل الى تصور عالم من الطبيعة يمكن أن نهذبه متى شئنا ذلك العالم الذي يستطيع السير قدما بحرية وحبور فهو دائما في شغل شاغل وحياته هي في الفناء وراحته ما هي الا تجديد . ونتصور أيضا بكل تأكيد عالما من البشر تتحسن أحوالهم مع الزمن ولكن دون أن تتوافق رغباتهم أو قدراتهم ومن هنا تنشأ التعاسة .

وما زال أولئك الناس في وسط المعمعة العاطفية ويعني ذلك أن الحواس تظل ملتصقة بالفكر الذي أنتجته دون أن تدع السعادة تنطلق قبل ذلك . وعندما يتقدم بنا الزمن ندرك أنه لو تحرر الفكر من عواطفنا الشخصية فاننا نجد أنفسنا مع الطبيعة جنبا الى جنب مشاركين في نشاطها المبهج . وفي النظرة الى سير حياتها . . . . . اختطي في حياتك صورة واضحة للفهم . واعتقدي منذ البداية أن الحياة بهجة روحانية وهي شيء يتم بالمشاركة الا بالتملك .

أرجو المعذرة على هذا الوعظ الذي يبدو وكأنه درس يوم الأحد وان سمحت لي فاني سأكتب لك بين الحين والآخر وأعد ألا أثقل عليك كما فعلت هذه المرة . . . . وعندما تتوفر لدي التفاصيل فان كتابتي ستكون حيوية . أما الآن فاني أميل الى التعميم » (II و ٨٤١)

ويبدأ رسالة أخرى لها في ٢٦ يناير ١٨٨٦ بقوله انه بدأ يشعر برهبة البيت الصيفي (الذي يأوي اليه عند الكتابة) وبظل ثقيل يسكن البيت بسبب رحيلها الى فرنسا :

« إنني أتبع سير رحلتك خطوة خطوة وساعة بساعة . . . . »

وفي نهاية الرسالة يعبر لها عن لهفة بالغة لتسلم رسالة منها قبل أن يغادر المكان الى St. Ives ليحضر ابنته التي كانت تقيم مع عائلة لزلي ستيفن . (II و ٨٤٤ - ٤٦) .

وفي رسالة أخرى (٣٠ ابريل ١٨٨٧) يتحدث الى آنسته العزيزة عن السياسة والأدب :

« تعني السياسة شغل العالم الشاغل . ويمكن أن تصلح بعض السياسيين ولكنك لن تصلح المهنة نفسها . دعنا نتخيل ماذا سيحصل لو اسقطنا من اعتبارنا الحياة السياسية وتخلينا عن الفنون والآداب . عندها سنجد أنفسنا أمام اختيارين :

الراهب أحدهما وثانيهما الصياد ، ثم تصوري التحول الذي سيحدث فيما بعد . . » .

مع أن مردث وعد في رسالة سابقة ألا يثقل عليها الا أن هذه الرسالة لا تقل ثقلا عن سابقتها .

ويسر مردث عندما يعلم من رسالتها أنها أحبت قصائده التي أرسلها اليها . ويقول لها معقبا على قصائده . . . Ballads إن الالياذة وهي أعظم قصيدة وما هي الا (Ballaad) عظيمة . ثم يقول لها :

« ان الشعر القيم هو ما يتعانق فيه الفكر مع العاطفة كما هي الحال بين الرجل والمرأة . وفي هذه الحالة يلتحم أسمى ما في العقل مع أعمق ما في الطبيعة . . . ولهذا السبب فان الشعر أرفع مكانة من الفلسفة . . . . . » (II ٨٦١ - ٦٣) .

وفي رسالة أخرى يعرض مردث على هيلدا هموم الأزل عندما يشكو لها من المراجعين ويرسل لها مع الرسالة مراجعة لمجموعة أشعاره Ballads and poems of Tragic Life

« أرفق طيه نموذجا من ذلك النوع من الكتابة الذي أجلب دماره على نفسي من خلال ما أنشر ، وأنا لست من الناجحين عند المراجعين لأن رصيدي عند الجمهور قليل وأنا في الواقع لا أطالب بأي شيء منه ، كل هذا يدعو

أولئك المراجعين الى معاملتي بهذا الشكل من الظرف ، وأنا أعرف عندهم كبهلوان أو كصانع أشياء قديمة antics . وعندما أكتب فاني أختار التعبير الذي يبدو لخيالي مناسبا وهم يرفضون تعبيري لأنه غير تقليدي كذلك يكون تعبيري سلسا بالضرورة عند الأزمة العاطفية وهم يعترفون بهذا غير أنهم لا يسمحون لخيال الكاتب في المناسبات الأخرى أن يكون التعبير غير ذلك . وهكذا يستمر المراجعون في نسف كل كتاب جديد يظهر لي ولكنهم لا يساوون نقمتهم على الكتاب بكرهي شخصيا حيث أنهم يترددون في اظهار الأمر .

وفي الوقت نفسه نجد كل مجلد يفيق تدريجيا من الضربة القاصمة عندما يصبح تحت الطلب ويذكره القراء بشيء من الاحترام حتى ولو بعد حين فيعود ثانية الى الوجود . ولقد علمت أن المجلد الأول لأشعاري الذي ظهر عندما كنت كاتبا صغيرا يباع بمبلغ عشرة جنيهات . وكل كتبي يتضاعف ثمنها بعد حين ومع كل هذا فبعد أربعين عاما من العمل المخلص ما زلت أتلقى نفس الضربة . انني أزعجك بمزاجي الحاد هذا وبكل تأكيد سوف أجد منك كل تعاطف ، مع علمي أن فتاتي العزيزة تفكر في نفسها أنه من غير المستحيل ألا يكون لدى أولئك المراجعين ما يقولونه عن النقد رغم وجود فضولهم بجانب نقدهم .

وصدقيني أنني لا أشكو الا سوء الخلق . أنا لا أنكر أخطائي وجميع الكتاب عندهم بعض الأخطاء . ويقع الظلم عندما يرى المراجعون ما هو فاضل فقط فيما يحبون وما هو ضعيف فيما يكرهون . أرجو المعذرة . فأنا لن أنشر كثيرا من الآن فصاعدا ، ولكن أن يلاحقني سوط المراجعين حتى النهاية فهذا متعب حتى لو من قبيل كونه مملا . لماذا أنشر أشعاري ؟ لست أدري حقا فأنا أتحمل أعباء البشر المادية وملاحظات المراجعات السخيفة . لقد أرسلت لك نماذج شبه مختارة من أشعاري . . . . (II ، ٨٧٢ ـ ٧٣) .

وهكذا نرى مردث يخصص رسالة كاملة تستأثر بظلم المراجعين له الذي لم يرافقه طيلة حياته . ولو أرادت هلداه العزيزة أن تحكم ، بموضوعية لا تخلو من القسوة أو لو استطاعت أن تكون صريحة مع مراسلها العزيز لوقفت بجانب المراجعين حتى لو اقتصر حكمها على أسلوب مردث عن المراسلات بينها وبينه

●●●

ولا شك أن أسلوب مردث في الكتابة هو المصدر الرئيسي لموقف المراجعين الذين لا بد وأن مردث بالغ في معاداتهم له . ويرفض مردث بالفعل ، كما يقول في رسالته ، التعبير التقليدي جملة وتفصيلا ، ولما كانت ثقافة مردث هي في أغلبها من تحصيله الخاص لا حصيلة دراسة أكاديمية أو تدرب مهني في الكتابة فقد شعر بحرية في استخدام اللغة ووجدها طيعة عند الاستعمال . كل هذا جعل مردث ينظر الى اللغة على أنها أداة لتعبير جديد كلما دعت الحاجة الى التعبير حتى لو كان مضمون التعبير فيها مألوفا . وكتابات مردث شعرا ونثرا مليئة بالصور الغريبة التي يشعر القارىء وكأنه يواجهها لأول مرة في حياته . وهذا ما يجعل أمر الأسلوب معقدا عند مردث لأن المرجع اليها لا هو في متناول المألوف ولا في متناول اليد بل هو من صنع مردث وخياله . ولقد كان محقا عندما قال عن نفسه في رسالته الى هورن إنه يكتب ويدرس في آن واحد . وكذلك كان صديقه محقا عندما سأله أمام مجموعة من الأصدقاء سؤالا تعجبيا وقال لماذا لا يكتب كما يتكلم وقد روي أنه يتكلم بطلاقة وسلاسة غير معهودتين .

وكثيرا ما علق المراجعون على لغة مردث أنها مردثية وأن أسلوبه مردثي أيضا ولو وجد مردث تشجيعا أكثر من جمهور القراء والمراجعين لوصل التعقيد عنده ما وصل عند جويس مثلا ، ولساهم في إغناء اللغة الانجليزية كما أغناها جويس ، نجد كثيرا في معاجم اللغة الانجليزية اشارات الى أن مردث أول من استعمل هذا التعبير أو ذاك الاصطلاح . ويمكن أن يخرج الدارس للغة مردث بقائمة طويلة من المصطلحات الغريبة التي لم يصطلح عليها من قبل . ويعتقد بعض نقاد مردث المحدثين أن خير دراسة لمردث هي ما يعالج أسلوبه سواء في شعره أو في رواياته .

ورغم أن مردث عاصر ديكنز الا أن أسلوبه لا يمت لأسلوب ديكنز بصلة ومع أنه أيضا كان يعلم أن جورج اليوت كانت تجذب الجمهور بشدة وكانت رواياتها تدر عليها من الربح المادي ما يساوي أضعافا مضاعفة مما تجلب روايات مردث اليه . وقد عبر عن هذا التفاوت بحسرة عندما كتب لصديقه Frederick Maxse في يونيو ١٨٦٢ وقال :

« لقد علمت أن جورج اليوت حصلت على مبلغ طائل من المال لقاء نشر روايتها Adam Bede (حصلت على ثمانية آلاف جنيه Pound أو أكثر ، مع الاحتفاظ بحق النشر الى مالا نهاية)

ما شاء الله تعالى . هل سيحصل شيء من هذا القبيل بالنسبة لي في المستقبل ؟ » (I ـ ١٤٩) .

الا أن مردث لم يحاول تقليد أسلوبها . وهكذا ظل مردث نموذجا فرديا احتفظ بأسلوبه كمميز له بين كتاب عصره .

اذن لم تكن اللغة عند مردث توصيلا عاديا يستعمله كبقية الناس ، بل كانت أداة تخضع لتموجات العاطفة والفكر المعقدة . ومن أجل هذا السبب جاءت رسائله التي تختص بقضاء حاجة في العمل قصيرة ومقتضبة جدا وعند قراءتها تشعر كأنه كان يتعامل ببرقيات وقد كان الأستاذ Christopher Cricks غير محق عندما اقتبس بعض هذه الرسائل ليعمم حكما قاسيا على الرسائل بأكملها . حيث كان مردث يدخر اللغة الى مناسبات أخرى تبدو فيها محاكمات العقل أو مشاحنات العاطفة على أشدها .

لقد اعتقد مردث أنه عندما تحتد العاطفة وتتعمق وتنفصل عن الأهواء الشخصية (والانفصال دائما يكون نسبيا) كما ذكر في رسالته الى هيلدا ـ عند ذلك تجيء اللغة سهلة سلسة طيعة . ولكن هذا لا يتكرر كثيرا لا في حياة مردث ولا في كتاباته . وفي رسائله التي كتبها في بداية الستينيات الى Lady Duff Gordon ما يثبت ذلك لأنه كان فعلا يشعر أنها بعيدة المنال ورغم كل حبه لها الا أنه كان بعيدا في مطمعه عنها وكان ينظر اليها على أنها شيء جميل حقا يستحق التقدير والتعبير عنه بدون انفعال من النوع الذي يجعل العاطفة ملتصقة بصاحبها . ورغم أنها كانت تعيش مع أهلها على مقربة منه الا أنه كان يشعر أنها ستظل بعيدة عنه من ناحية عملية .

والمشهد الأول من روايته Harry Richmond هو قمة في السهل الممتنع لغويا ، ويعجب المرء عند قراءته لماذا لا

يستمر مردث على هذا الحال في الكتابة . وهو مشهد جميل حقا يصور النزاع الحاد على الطفل بين أبيه الذي جاء ليأخذه وجده الذي يريد أن يحتفظ به والطفل في خلفية الرجلين مصدر نزاع مشترك .

ويمكن أن نعفي مردث من اللوم اذا تذكرنا أن مثل هذه الحالات العاطفية لا تتوفر كثيرا ولا تدوم طويلا . ففي أغلب الأحيان تكون العاطفة حادة ولكنها لا تكون منفصلة عن صاحبها تماما كما يريد لها ليخف عنه عبء المعاناة فتظل المسألة معلقة دون أن يكون الأمر من اختيار صاحب الشأن . وهنا يصبح التركيب العاطفي أمرا معقدا ، يتطلب أسلوبا ولغة معقدين . ورسائل مردث الى هيلدا خير مثل على ذلك وخصوصا رسالته التي كتبها في ٢٦ ديسمبر ١٨٨٦ والتي تحتوي على صور يصعب فهمها وترجمتها . وروايته One of our Conguerors مثل بارز من كتاباته على هذا النوع من العاطفة . وقد كتب مردث كما ذكرنا سابقا روايته The Egoist بنظرة الفنان الحديث عندما جعل نصفه الفنان يسخر من نصفه الشخصي عن طريق ما يسمى في النقد بـ (aesthetic distance) . ولم يحقق مردث هذا الانجاز الفني الا بعد أن نجح في وضع حد بين الفنان المبدع والشخص الواقعي في الحياة .

وفي بعض الأحيان نجد أنه لا بد من الالتصاق بين العاطفة وصاحبها لأمور تخرج عن ارادته . والأمثلة على ذلك علاقة مردث بزوجته الأولى ، وعلاقة الصداقة بين مردث وهورن الذي ذكر سابقا ، وعلاقة مردث بأعز أصدقائه John Morley عندما فترت العلاقة بينهما ردحا من الزمن ، في مثل هذه الحالات يفضل مردث ألا يعبر عن الموضوع مباشرة لأنه في نظره لا يحتمل المواجهة فمشاعر الصداقة والحب ليست من النوع الذي يستطيع المرء أن يتخلى عنها حتى لو طرأ عليها طارىء من الخارج وأوقف سيرها الى حين . في هذه الحالة كان مردث يفضل الصمت عن التعبير المباشر أو تحويل العاطفة الى فن في رواية أو في قصة قصيرة . وهذا ما فعله في روايته الأولى وفي مجموعة قصائده التي نشرت تحت عنوان Modern Love فرغم كل ما كان يعلم مردث مثلا عن فضول الجمهور بالنسبة لزواجه الأول وبالنسبة لموضوع Diana of the Crossways الا أن مردث آثر الصمت . ويمكن تعليل ذلك أن مردث كان لا يميل الى ما يميل اليه الجمهور وكتابهم من الحوادث المثيرة بما فيها من فضائح ومغامرات وهو ما يعرف تحت اسم sensational .

ولو أردنا مثلا أن ننظر الى رسائل مردث مقارنة مع رسائل معاصريه أمثال تشارلز ديكنز وجورج اليوت وثكري وغيرهم لوجدنا أن رسائل غيره تشترك في شيء واحد ألا وهو وظيفتها التوضيحية ، فهي في أغلب الأحيان توضح أمرا له علاقة بالحبكة القصصية أو بصورة الشخصية أو بتفسير أهمية حدث من أحداث الرواية فات على القراء أو المراجعين قيمته الروائية . وبمعنى آخر تكون الرسائل بشكل عام اخبارية في أسلوب عرضها للموضوع . أما رسائل مردث فهي في الغالب ما تكون بشكل أو بآخر امتدادا لعمله الأدبي والذي يشكل هذا الامتداد هو الأسلوب الذي لا يتنازل عنه مردث عندما ينتقل من الرواية الى الرسالة . وفي الوقت نفسه فلا يوجد لدى مردث حبكة ولا حوادث قصصية مسرودة لأنه كان من أول المعارضين لهذا الوجه من الفن الروائي . ويمكن القول إن مردث كان يحاول تفسير ما كان يفوق فهم القارىء دون أن يدرك أن أسلوب المعالجة هو نفسه أساس المشكلة . ولهذا وجد مردث نفسه يدور في حلقة مفرغة بالنسبة للمراجعين حتى النهاية وكلما رد في رسائله على المراجعين ليفتح الباب بينه وبينهم وجد الباب يغلق عليه مرة أخرى . وربما هذا هو الذي جعل لمردث ترحيبا خاصا في فكرنا المعاصر .

شخصيات وآراء

شخصية البطل العربي في النثر اليوغسلافي

جمال الدين سيد

تمهيد :

انها بالفعل ـ لظاهرة تثير الاهتمام أن تقرأ رواية أو أقصوصة بقلم أديب يوغوسلافي جعل بطلها شخصا عربيا ، ولا شك في أنها ظاهرة ملفتة لأنظارنا ومثيرة لانتباهنا تستحق الدراسة والبحث . وكان أول من لفت النظر الى هذه الظاهرة هو الناقد اليوغسلافي والبحاثة يوفان سكرليتش[1] الذي لاحظ أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إجينا توفيتش كتب في الستينيات من القرن التاسع عشر قصتين هما « منصور وجميلة » و« الدم من أجل عشيرتي » جعل أبطالها من الشخصيات العربية ، هذا فضلا عن أن هذا الأديب اليوغسلافي لم يخف ميله الشديد الى العرب . ويمكن القول ـ الآن بكل تأكيد ـ أن يعقوب إجينا توفيتش لم يكن الوحيد في هذا المضمار ولم يكن الأخير كذلك ، فقد لوحظ أن العرب يقومون بمختلف الشخصيات والأدوار في قصص وروايات لأدباء آخرين وفي فنون متنوعة أخرى .

الا أن الناقد اليوغسلافي يوفان سكرليتش لم تكن لديه الامكانيات ولا بعد النظر ـ وربما الرغبة في المقام الأول ـ لأن يولي هذه الظاهرة اهتماما أكبر ويتعمق في بحثها ودراستها باستفاضة ، بل ان هذا الناقد نفسه هاجم بحدة هاتين القصتين من قصص إجينا توفيتش بحيث انه ـ حسبما يبدو ـ أغلق الباب أمام أية محاولات تالية جادة لدراسة هذه الظاهرة عند الأدباء اليوغسلافيين الآخرين . وهكذا لم يقم أحد من النقاد أو الباحثين بأي شيء في سبيل دراسة هذه الظاهرة واستنباط النتائج الثابتة المؤكدة ، التي ستكون على جانب كبير من الأهمية والفائدة العلمية بالنسبة للدراسات والأبحاث في هذا المضمار ، وعلى الأخص بالنسبة لتاريخ الأدبين اليوغسلافي والعربي . وحتى قبيل هذه الدراسة التي بين أيدينا لم يحاول أحد القيام بدراسة وفحص الروايات والأقاصيص التي عن طريقها ـ

---

(١) يوفان سكرليتش ، « يعقوب اجيناتوفيتش » ، بلغراد ١٩٢٢ .

فحسب ـ يمكن الحصول على انطباع شامل وكامل عن مقدار انتشار هذه الظاهرة في الأدب اليوغسلافي وعن كل الملابسات والظروف المحيطة بها وعن أسبابها ودوافعها وما إلى ذلك .

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحا لا بد وأن ننوه هنا بأن هناك بعض الباحثين الذين بحثوا ظواهر مماثلة ، ومنهم البحاثة الروسي موريس بوتيلوف(٢) الذي قام بمجهود لا بأس به ، وعلى الأخص عن القصائد الملحمية الخاصة بالصراع مع البطل العربي . ولكن بوتيلوف لم يفعل أهم شيء لدراسة هذه الظاهرة وهو جمع القصائد الشعبية التي تظهر فيها شخصية البطل العربي ، وهو ما يعد شرطا أساسيا لاستخلاص النتائج المؤكدة .

كما أن هناك دراسة لأحد الباحثين الشبان الذي قام بالفعل بجمع القصائد الشعبية ودراستها (٣) ولكنه كرر معظم ما ذكره بوتيلوف ولكن بشكل أكثر استفاضة وتفرعا ، الأمر الذي جعل النتائج تتوه وسط الزحام(٤) .

وبناء على هاتين الدراستين فانه يمكننا أن نقول ان هناك رأيين يفسران هذه الظاهرة ـ أي ظهور شخصية العربي في الشعر الشعبي اليوغسلافي ، وهما رأيان متباينان . فأصحاب الرأي الأسطوري يرون في شخصية العربي جذورا للمعتقدات الغابرة . أما ممثلو الرأي التاريخي فيرجحون سبب ظهوره الى التاريخ القديم ووقائعه . واذا كان لي أن أبدي رأيا في هذا المضمار فاني أقول انه ينبغي تفسير ظهور العربي في الشعر الشعبي تفسيرا أسطوريا وكذا تاريخيا ، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما ، بل ومن المستحيل تفسير هذه الظاهرة من جانب واحد فحسب لأن التفسير القائم على وجهة نظر واحدة سيقودنا ـ حتما ـ الى أخطاء وأوهام .

أسلوب البحث :

أما بحثنا هذا فسيتعرض لظهور شخصية البطل العربي في النثر الروائي باللغة الصربوكرواتية ، وهي اللغة السائدة في يوغسلافيا(٥) . بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك حديث عن هذه الظاهرة قبل أن نستعرض جميع الأعمال الروائية المنشورة ، والتي لها ارتباط بشخصية العربي ، ثم بعد ذلك ينبغي أن ندرس بعناية كل ما تجمع لدينا من مادة عن العرب وذلك عن طريق بحث وظائف ومهام وأدوار الشخصيات الرئيسية لهذه الأعمال الروائية وبحث موضوعاتها وأفكارها ، وكذلك القاء نظرة على زمن كتابتها وعلى مؤلفها وعلى كل ما يتبع ذلك حتى نصل في النهاية الى نتائج مؤكدة قائمة على أسس ثابتة .

ونظرا لضخامة مجال وزمن البحث فقد كان من اللازم في بداية الأمر أن نحدد ونحصر الدراسة ونقصرها على فترة زمنية محددة حتى يسهل علينا جمع المادة الأساسية اللازمة من المجلات والصحف الأدبية والكتب الموجودة في متناول اليد ، وحتى يمكننا كذلك الخروج بنتائج تقوم على أسس صلبة متينة .

من أجل كل هذا تم اختيار النصف الثاني من القرن التاسع عشر كمجال للدراسة ، وبالتحديد الفترة الزمنية ابتداء من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٩٠٠ م . وقد

(٢) موريس بوتيلوف ، « القصائد الملحمية الروسية والسلافية الجنوبية » ، موسكو ١٩٧١ ، ص٤٤ ـ ٦١ .

(٣) راداپوجوفيتش ، « العرب في الشعر الشعبي في المنطقة الناطقة باللغة الصربوكرواتية » ، بلغراد ١٩٧٧ .

(٤) واني أختلف معه كثيرا في محاولته التقليل من شأن التأثير العربي على الشعر الشعبي اليوغسلافي وبالتالي على الأدب اليوغسلافي بوجه عام . كما أعتب عليه محاولته ابراز العرب في بعض اماكن بحثه الذي تفترض فيه الأمانة والدقة العلمية ـ بصورة غير صادقة . وأرجو من الله أن تتوفر لى فرصة توضيح الثغرات الموجودة ببحثه هذا .

(٥) يوجد في يوغسلافيا ثلاث لغات رئيسية هي : الصربوكرواتية ويتحدث بها سكان جمهوريات صربيا وكرواتيا والبوسنا والهرسك والجبل الأسود ، واللغة السلوفينية ويتحدث بها سكان جمهورية سلوفينيا ، واللغة المقدونية ويتحدث بها سكان جمهورية مقدونيا ، هذا علاوة على لغات ولهجات اخرى اقل اهمية .

اخترنا هذه الفترة بالذات لأنها مفعمة بالروح والمزاج الرومانسيين . ففي بداية القرن التاسع عشر ظهرت الحركات الأولى والأفكار الأولية للرومانسية ، الا أن قوتها لا تبرز إلا في العقد الرابع منه مع ظهور الحركة الايليرية والحركة السلافية القومية وظهور كبار الشعراء أمثال نيجوش وبريشيرون وماجو رانيتش وبريرا دوفيتش . وسنتحدث - فيما بعد - بالتفصيل عن الرومانسية في يوغسلافيا لأننا نرى أن ظهور شخصية العربي مرتبط على نحو ما بظهور الرومانسية في يوغسلافيا .

ولكي يتم جمع المادة اللازمة لهذه الدراسة ، أي بعبارة أدق لكي نعثر على النصوص النثرية الروائية التي تظهر فيها شخصية العربي أو أي شيء يرتبط به جغرافيا أو ثقافيا ، أو يرتبط بحضارته المادية والروحية ، اطلع كاتب هذه السطور وتصفح جميع المجلات والصحف الأدبية الموجودة في متناول اليد والمجموعات القصصية ، وفي بعض الأحيان اطلع على الأعمال الكاملة لبعض الأدباء المنشورة باللغة الصربوكرواتية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وعند جمع المؤلفات الروائية اليوغسلافية التي يجري فيها ذكر العربي من مختلف المجلات والصحف والكتب ، **وقد بلغ عددها حوالي ١٤٨ أقصوصة ورواية** ، وعند الفحص الأولي لهذه المؤلفات تبين لنا أن شخصية العربي تظهر في بعض الأحيان بصفتها الشخصية الرئيسية - أي البطل - في الرواية أو الأقصوصة ، وفي أحيان أخرى تظهر على أنها شخصية ثانوية أو أنها تذكر بشكل عابر تماما . وبناء على ذلك قسمنا على الفور المؤلفات الروائية إلى مجموعتين :

١ - **المجموعة الأولى** وتقع فيها المؤلفات الروائية التي يكون فيها الانسان العربي هو الشخصية الرئيسية . وتقع هنا أيضا المؤلفات الروائية التي يكون فيها للمفاهيم الجغرافية والثقافية المرتبطة بالعرب الدور الرئيسي الهام . وبهذه المجموعة ثلاث وعشرون رواية وقصة .

٢ - **المجموعة الثانية** وتقع فيها المؤلفات الروائية التي يظهر فيها العرب أو المفاهيم الجغرافية والثقافية والحضارية ظهورا ثانويا . وبها ١١٧ رواية وقصة .

ولا شك أن التركيز الأساسي سيكون على قصص وروايات المجموعة الأولى ،من النصوص ،لأنها أكثر أهمية من نصوص المجموعة الثانية . ولكن هذا لا يعني على الاطلاق أننا سنغفل نصوص المجموعة الثانية ولكننا سنفرد لها فقرة خاصة ، فهي لها أهميتها وتستحق منا دراستها .

وينبغي أن أنوه على الفور ومنذ البداية الى أن **كاتب هذه السطور كان يرى التوسع في فهم وادراك المفاهيم المرتبطة بالعرب وبكل ما يتعلق بهم من مفاهيم روحية وجغرافية ومادية وما شابه ذلك من المفاهيم المتعلقة بالعرب والتي وجدناها في النصوص اليوغسلافية** . ولا شك أن هذا هو الأسلوب الأمثل الذي سيمكننا من استنباط النتائج المؤكدة عن طريق تحليل ودراسة النصوص النثرية المتوفرة بين أيدينا ، وعن طريق تحليل ودراسة الأفكار المتضمنة في هذه النصوص وتحليل وظائف الشخصيات وأدوارها والمدلولات اللفظية لها وغير ذلك .

وكان من المحتم عليَّ منذ البداية أن أحدد المهام والأهداف الرئيسية التي وضعتها نصب عيني في هذه الدراسة ، وهي ايجاد اجابات منطقية جلية على التساؤلات الآتية :

أ - من هو هذا البطل العربي الذي يظهر في الروايات والقصص اليوغسلافية ؟

ب - ما هو الأسلوب أو الكيفية اللذان ظهر بهما البطل العربي في النصوص المتوفرة أمامنا ؟

جـ - ما هو الشكل الذي ظهر به البطل العربي وما هي خصائصه ؟

د - كيف وبأي أسلوب استطاع النثر الروائي اليوغسلافي أن يتحدث عن العرب ويذكرهم ؟

هـ ـ ما مدى انتشار استخدام شخصية البطل العربي في النثر الروائي اليوغسلافي المكتوب باللغة الصربوكرواتية ؟

و ـ كيف وبأي أسلوب ومن أي مواقع أو زوايا يمكن أن نفسر وجود ذكر العربي واستمرار ذكره حتى وقت متأخر والانعكاسات الأخرى المترتبة على ذلك ؟

ز ـ هل يرجع ظهور شخصية البطل العربي إلى تراكمات تاريخية وأسطورية ؟

ح ـ من أين أتت هذه الكمية الوفيرة من المعلومات الموجودة في النصوص الروائية التي تتحدث عن شخصية العربي ، وعن كل ما يتعلق به من عادات وثقافة وأمور حياته ولغته وآماله وعن كل ما يتعلق بثقافته الروحية والمادية ؟

ط ـ هل يمكننا ـ بناء على المعلومات المتوفرة في هذه النصوص ـ أن نستنتج ماذا كانت الشعوب اليوغسلافية تعرف عن العرب الذين اتصلوا بهم عبر التاريخ ؟

« المحبوبان »

لا شك أن الوصف المفصل لرحلة ملادن بطل رواية « المحبوبان » يكشف لنا عن أديب يعرض أمامنا انطباعاته ومشاهداته خلال هذه الرحلة[٦] . وهذه الرحلة في معظمها هي رحلة المؤلف نفسه بتفاصيلها الجميلة والكاملة وعلى الأخص عند وصفه للأماكن التي مر بها بالفعل . ولكنه يتحدث في عبارات عامه وموجزة عن الأماكن التي سمع عنها فحسب ، أو التي كان بها لفترة وجيزة ، ومنها على سبيل المثال اقامة بطل الرواية في الجزائر . فوصف رحلة ملادن بطل الرواية إلى الجزائر يعد وصفا عاما يفتقر الى التفاصيل[٧] .

فالجزائر حسب ما رواه المؤلف في روايته كانت في ذلك الحين مستعمرة فرنسية ، وكان من الخطر أن يعيش الانسان فيها بسبب هجوم كتائب البدو ـ أي الجزائريين ، هذا فضلا عن أن الأجانب لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا شمسها المحرقة . وفي ذلك الحين كان سكان الجزائر مقاتلين ومحاربين أشداء بحيث كان من المستحيل السير على انفراد إلا ضمن مجموعة عسكرية كبيرة[٨] . ثم يعترف المؤلف للجزائريين بالشجاعة والاقدام ويعترف بشدة المعارك التي يستخدمون فيها الرصاص والرماح ، وكذلك بكثرة الضحايا في الجانب الفرنسي نتيجة لهذه المعارك الضارية . ولذا فان الفرنسيين كانوا ينعتون الجزائريين بنعوت غير طيبة[٩] . ومن بين الصفات الطيبة للجزائريين أنه كان بامكانهم أن يتعرفوا على الأجنبي حتى ولو كان يجيد التحدث بلغتهم وهي اللغة الفرنسية في تلك الأونة[١٠] .

وبناء على هذه المعلومات التي أوردها الكاتب عن الجزائر فانه يمكننا أن نفترض أن المؤلف ب . أ . كان في الجزائر لفترة من الزمن أو أنه ربما مر بها مرورا عابرا . ويمكننا كذلك أن نفترض أنه سمع بتلك المعلومات المألوفة عن الجزائر أو قرأها أثناء وجوده في باريس . وحيث ان المعلومات الخاصة بتاريخ حياة المؤلف تفيد أنه لم يسافر إلا إلى المجر وسويسرا وانجلترا وألمانيا وايطاليا وفرنسا[١١] . فاننا نرجح الافتراض القائل بأنه إما سمع بهذه المعلومات عن الجزائر ، أو قرأها خلال

---

(٦) أندرا جافريلوفيتش ، « تاريخ الأدبين الصربي والكرواتي » ، بلغراد ١٩١٠ ، ص ٣٨٦ .

(٧) بريميا جيفانوفيتش ، « بوجوبوي أتانتسكوفيتش » ، أعمال ب . أ . ، بلغراد ص٧١ .

(٨) المصدر السابق ، ص٧٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص٧٦ .

(١٠) المصدر السابق ، ٧٦ .

(١١) الأعمال النقدية ليوفان سكرليتش ، بلغراد ، ١٩٧٧ ، ص٩٨ .

وجوده في احدى الدول المذكورة التي سافر اليها ، وعلى الأخص خلال وجوده في فرنسا التي كانت الجزائر مستعمرة لها حينذاك . غير أني لا أستبعد أن يكتشف الباحثون في تاريخ الأدب اليوغسلافي معلومات تفيد قيام مؤلف روايتنا هذه بزيارة الى الجزائر .

ويتلخص موضوع رواية « المحبوبان » أن الشاب ملادن والفتاة روجا يحب أحدهما الآخر ، وبعد ذلك تحدث عقبات مختلفة تفصل وتباعد ما بينهما ، منها سفره في رحلة الى بلاد بعيدة ومنها سجنه . وفي النهاية يعثر أحدهما على الآخر . ويأتي عنوان هذه الرواية من أن بطلها ملادن يحب وطنه وحبيبته . وفي الرواية كلها نجد الاحساس القومي والاحساس العاطفي يسيران جنبا إلى جنب ويتشابكان ويتحدان . وبعد عودة بطل الرواية من الجزائر وجد في انتظاره قبر والديه . وهكذا انتهت القصة بالجزائر التي أراد لها المؤلف في كل فرصة أن يبرز ويؤكد فيها ما رآه أو سمعه . وعلاوة على ذلك قدم لنا المؤلف صورة صادقة لبعض الشخصيات الحقيقية لمعاصريه وبذلك تضيف الرواية قيمة جديدة علاوة على قيمها الأخرى ، فهي تقدم لنا معلومات تصلح ـ بلا شك ـ عند تسجيل التاريخ ووقائعه .

ومن التشبيهات الطريفة في هذه الرواية وصف المؤلف للمدينة اليوغسلافية سريمسكا كارلوفيتسا بأنها « القدس العربية »[١٢] . ثم ان الفصل الخامس عشر من هذه الرواية يبدأ ببيت شعر مقتبس من قصيدة شعبية يجري فيها ذكر العرب[١٣] . وبهذا البيت المقتبس يريد الأديب اليوغسلافي أن يقول ان المجريين فعلوا في سريمسكا كارلوفيتسا ما فعله العرب في معركة كوسوفو . وهو أمر ينافي الحقيقة التاريخية لأن العرب لم يكونوا على الاطلاق في معركة كوسوفو التي جرت حوالي عام ١٣٨٩ م ، وهي معركة جرت أساسا بين الأتراك بقيادة السلطان مراد الأول وبين الصرب وحلفائهم . وقد كانت معركة ضارية قتل فيها السلطان مراد الأول ، ولكن ابنه بايزيد انتقم من الصرب وحلفائهم انتقاما رهيبا ، الأمر الذي جعل الرواة في يوغسلافيا ينشدون القصائد والقصص عن هذه المعركة . ومن هنا يتبين الخلط بين العرب والأتراك وهو ناتج عن أن كليهما كان يدين بالدين الاسلامي . ولم يكن مؤلف روايتنا وحيدا في هذا الخلط بين العرب والأتراك ، بل شاركه في ذلك كثير من الأدباء اليوغسلاف .

وبوجوبوي أتانا نتسكوفيتش مؤلف هذه الرواية مولود عام ١٨٢٦ ـ وتوفي عام ١٨٥٨ . وقد أنهى دراسته الثانوية في مدينة « بايا » بيوغسلافيا . وفي بودابست ، وأنهى دراسة الحقوق في بودابست وبوجون وفيينا . وبعد ذلك احترف المحاماة . وكان يكتب القصص الرومانسية الحزينة ، معالجا فيها موضوعات تتناول ماضي يوغسلافيا ، وكتب كذلك روايات عاطفية غرامية عالج فيها موضوعات من الحياة العصرية . وقد لفت بوجوبوي نظر النقاد اليه بقصته هذه وامتدحه النقاد بحماس ، ورأى بعضهم فيه صورة نموذجية للشاعر الرومانسي بايرون .

وينبغي أن نشير الى أن بوجوبوي كان لديه من الحكمة والموهبة والجرأة ما جعله يقدم على ما لم يقدم عليه غيره من الأدباء في ذلك الحين وهو اغفال موضوعات وأفكار ذلك الوقت التي كانت تنبع من مصادر التاريخ ومن الخيال الملتهب للأدباء المتأثرين تماما بالرومانسية الألمانية ، واتجاهه الى بيئته ومجتمعه وعصره ينهل منها موضوعات وأفكارا لقصصه ورواياته فيلمس كل ما يراه الجميع ويحسون به ويشعر بالحاضر وبالحياة اليومية لبني وطنه . وبذا كان بوجوبوي أول من أغفل التقاليد الروائية لذلك العهد وانتقل الى مجالات

---

(١٢) ونرجح أن المؤلف يريد بذلك أن يضفي على بلدة سريمسكا كارلوفيتسا نوعا من القدسية لأنها كانت مركزا لرئيس الأساقفة الصرب .

(١٣) أعمال ب . أ . بلغراد ، ص ١٦٧ .

ومـوضـوعـات لم يمسسها أحـد قبله . ففي روايتـه « المحبوبان » قدم لنا صورة للأفكـار الثوريـة في ذلك العصر ، وتعرض لمفهوم الوحدة الأخوية بغض النظر عن الاختلاف في الدين .

ويعترف معظم النقاد بأن هذه الرواية هي أول رواية يوغسلافية جيدة تأخذ مادتها من الحياة العصرية(١٤) . ويمكن اعتبار الرواية مرآة للمساعي التي جرت خـلال الحركة الشعبية في عام ١٨٤٨ وللمناقشات التي دارت بعدها . ومؤلف الرواية يأخذ الكلمة عدة مرات لكي يقـول رأيـه في بعض الأحـداث ، وروايتـه للقصـة ولأحداثها بنفسه يوضح أنه اشترك شخصيا في الحركة الشعبية(١٥) . والحقيقة أن بوجوبوي كان متأثرا إلى أبعد حد بالأحداث الثوريـة التي جرت في صـربيا في عـام ١٨٤٨ الأمـر الذي جعله يحـاول أن يضفي لـونـا من البطولة على أبطال روايتـه هذه وأن يجعلهم يقـدسون العدالة الاجتماعية ويضحون بحياتهم من أجل وطنهم وأهلهم وبذلك يؤكد الكاتب رومانسيته .

وهناك أكثر من سبب لذكر المؤلف لمناطق عربية - أقصد الجزائر - في روايته . فنحن نجد بوجوبوي متأثرا بالرومانسية شبـه التاريخيـة التي أرسى قواعـدها لـدى اليـوغسلاف الأديب ميلوفـان فيـد اكـوفيتش ، ولكن بوجويـوي ليس تلميذا لفيـداكوفيتش ولا سـائرا عـلى دربـه . وليست رومانسيـة بـوجـوبـوي مـأخـوذة من فيـداكوفيتش وحـده . فقد تعـرف بـوجـوبـوي عـلى الرومانسية من منابعها الأصلية في ألمانيا وفرنسا وغيرها من البلاد . وكانت الرومانسية تمجد الشرق وبلاده . ويتأثر بوجوبوي كذلـك بالشعـر الشعبي اليوغسـلافي (بيت الشعر الذي سجله في مقدمة الفصـل الخامس عشر وذكر فيه العرب) الذي يحبذ تكرار ذكر العرب وما يتصل بها .

وهناك اعتقاد سائد بين النقاد بأن بوجـوبوي كـان واقعا تحت التأثير القوي للروح الفرنسية ، وأن الأدب الفرنسي الرومانسي في ذلك الحين أثر عليه تأثيرا قويا . ويؤكد الناقد اليوغسلافي ميلوش بينوفيتش هذا التأثير الفرنسي(١٦) ولم يكن هذا الـرأي وليد وقتـه بل كـان معروفا من قبل(١٧) . ويعتقد الناقد ميتابوبـوفيتش أن بوجوبوي كتب مؤلفاته تحت تأثير المدرسة الفرنسية وأنه لم يستطع التخلي عن التأثير الفرنسي . أما الناقد يوفان سكرليتش فيعترف بـأن هناك تـأثيرا فـرنسيا في روايـة « المحبوبان » فحسب ، ودليله على ذلك أن بوجوبوي لم يمكث في فرنسا إلا سنة واحدة وهي مدة ليست كافية لتقبل التأثيرات .

أما التأثـير الأعم والأهم فهو في المقـام الأول تأثـير الرومانسية الألمانية وربما الرومانسية المجرية . فقد درس بوجوبوي في المدارس المجـرية والألمـانية . وكـان أول عمل أدبي له هو ترجمته لاحدى قصص الأدب المجري في عام ١٨٤٤ ، علاوة على أن البيئة التي يصفها في أعماله الأدبية والروح والنغمة التي تسيطر عليها وكذلك اللغة التي تتحدث بها شخصياته والتشبه بالأسلوب الساذج للشاعر بايرون ، كل هذا يـذكرنـا بالنمـاذج المجريـة والألمانية الضعيفة وبمؤلفات أدبـائهم من الصف الثاني والثالث ، واللغة المكتوبة بها مؤلفاته الأولى تبدو وكأنها ترجمة سيئة عن الألمانية(١٨) .

وفي ذلك الحين كانت الروايات العاطفية تغمر ألمانيا الحالمة ، وفي نهاية الأربعينيات من القرن التاسع عشر

---

(١٤) أندرا جافريلوفيتش ، تاريخ الأدبين الصربي والكرواتي ، ، بلغراد ١٩١٠ ، ص٣٨٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٨٦ .

(١٦) ميلوش بينوفيتش ، « بوجوبوي أتانتسكوفيتش » ، مجلة براكوفو كولو ، ١٨٩٦ ، ص١٤٩٣ .

(١٧) وهذا هو ما تؤكده صحيفة « اليوميات الصربية » في نعيها لبوجوبوي في ٥ سبتمبر عام ١٨٥٨ .

(١٨) الأعمال النقدية ليوفان سكرليتش ، ص ١٢٤ .

كان التأثير الألماني على الأدب اليوغسلافي قويا ، وتتم ترجمة معظم مؤلفات الأدباء الألمان . ومعظم الأدباء اليوغسلاف في ذلك الحين كانوا يؤلفون أعمالهم الأدبية تحت تأثير ألماني قوي ، ولذا فانه من الطبيعي أن يتعرض بوجوبوي لنفس التأثير الذي تعرض له كل معاصريه ، حتى أقواهم وأكثرهم أصالة ، خاصة وأن تعليمه الألماني كان يشجعه على تقبل مثل هذا التأثير .

« حصار مدينة بلغراد »

في نفس السنة التي أخذ فيها بوجوبوي ينشر روايته « المحبوبان » ، أي في عام ١٨٥١ ـ نشرت مجلة فويفوجانكا التي كانت تصدر بضاحية زيمون في بلغراد أقصوصة تاريخية بدون مؤلف بعنوان « حصار مدينة بلغراد » . وهذه القصة القصيرة كما يتحدث عنوانها تحكي حصار مدينة بلغراد اليوغسلافية من جانب المهاجمين النمساويين الذين مكثوا عشرين يوما كاملة أمام بلغراد التي كانت واقعة في ذلك الحين تحت السيطرة التركية . وبالرغم من هذا الحصار لهذه الفترة الطويلة كلها فلم يتملك سكان المدينة أدنى قلق أو جزع . وكان على الاتراك أن يواجهوا البحرية النمساوية .

وكان قائد عربي يقود القوة العسكرية التركية في مواجهة القوة النمساوية التي يقودها شفندمان النمساوي الذي كان ينتظر في برود وثبات وصول القائد العربي المتباهي وجنوده المغاوير . وكانت جميع القطع البحرية التركية تقصف وترعد دون انقطاع أو توقف ، وأخذت سحب الدخان تغطي نهر الدانوب كله في حين لا تزال البحرية النمساوية ملتزمة بالصمت والتربص . وأخيرا أعطى القائد النمساوي إشارة البدء ، وفجأة انطلقت جميع المدافع على السفن ودوت طلقاتها . وفقد الأتراك حماسهم وحاولوا النزول إلى الشاطيء إلا أن الجنود النمساويين أطلقوا نارا شديدة على الأتراك وأجبروهم على اللجوء مرة أخرى إلى السفن . وبعد ساعتين من القتال المتواصل تأكد القائد العربي من انتصار النمساويين ، وتحرك لكي يخترق بسفنه قلب الأسطول النمساوي حتى يتمكن بعد ذلك من مهاجمته من الخلف . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، فقد أصيب القائد العربي بطلقة قاتلة ، وبعد مصرع القائد أدار الأتراك سفنهم وعادوا إلى بلغراد .

وكما نرى فاننا نجد في هذه الأقصوصة الأتراك والعرب المسلمين في جانب والنمساويين المسيحيين في الجانب الآخر . وهذا يعني بكل بساطة أن هذه الأقصوصة التاريخية تركز من بدايتها على الصراع بين عالمين متباينين ، ويمكن أن نعثر على آثار مشابهة لهذا الصراع في التراث الشعبي اليوغسلافي سواء أكان شعرا أم نثرا . وقد كانت قيادة السفن التركية موكولة إلى القائد العربي ، وهذا في حد ذاته شرف ومفخرة للقائد العربي ، ويشير إلى كثير من المزايا القتالية المعروفة عن العربي والتي تصورها الأقصوصة بجلاء ، ورغم أن القائد العربي كان يكافح بكل بطولة وشجاعة حتى اللحظة الأخيرة فقد انهزم ولقي مصرعه ـ بالضبط كما يحدث في القصائد والحكايات الشعبية . وبعد مصرعه أدرك الأتراك أن المعركة مفقودة وخاسرة وضاع كل أمل لهم في القتال والنصر فولوا أدبارهم عائدين إلى ديارهم . وبذا تكتمل في أذهاننا الصورة المشرفة التي رسمتها هذه القصة لهذا القائد العربي .

وحسبما يبدو فهذه الأقصوصة تتضمن عناصر تاريخية حقيقية ولكن لا يترك قارئها الانطباع بأن هذه الأقصوصة من حيث موضوعها وأسلوب عرضها تشبه ـ إلى حد كبير ـ الحكايات الشعبية . وعدم وجود مؤلف لها يؤكد هذا الافتراض ، ولا ريب أن هذه الأقصوصة التاريخية هي ثمرة من ثمار الرومانسية اليوغسلافية لأن الأدب اليوغسلافي في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان مفعما بهذه الذكريات التاريخية وقد أتت الرومانسية لكي تدعم ـ فحسب ـ تقليدا شعبيا قويا للغاية وعادة أدبية عامة(١٩) .

(١٩) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص١٥٣ .

« منصور وجميله »

تغلغلت الرومانسية بكل أفكارها إلى وعي الأديب يعقوب إجيناتوفيتش (١٨٢٢ ـ ١٨٨٩م) وجعلت منه مدافعا متحمسا عن القومية الصربية ولذا فان المضمون التاريخي في قصتيه « منصور وجميلة » (منشورة في عام ١٨٦٠) و « الدم من أجل عشيرتي » (منشورة في عام ١٨٦٢) مخضب لأعلى درجة بحبه للوطن .

ورواية « منصور وجميلة » قصة رومانسية وطنية تتلخص في أن ميلكا بنت بوشكو باكيتش وقعت عند سقوط مدينة بلغراد أسيرة في أيدي الأتراك وجعلوا منها جارية لدى الحاكم التركي . وقد استطاع الشاب العربي الجزائري وحامل الراية العظيم أن ينقذها من بين براثن الجنود ، ولكنه لم يستطع أن يساعدها أكثر من ذلك لانتقالها الى حريم الحاكم التركي . وقد أحب منصور جميلة حبا شديدا وتمكن من ايجاد السبل والوسائل لمقابلتها سرا داخل جناح الحريم . وكان هذا بمساعدة احدى الجواري العربيات الجزائريات . وكان منصور وجميلة خلال هذه اللقاءات السرية يندبان حظهما وحظ بلديهما اللذين يقعان تحت سيطرة الأتراك وكانا يجدان السلوى في الحب والغرام . وفي احدى المعارك يلتقي منصور باخوة جميلة الستة ، ويحكي لهم ما حدث لها ويتآخون ويعدون « منصور » بتزويجه من جميلة . وينجح منصور فعلا في العمل على هرب جميلة من قصر الباشا التركي ويهربان معا الى الجزائر .

وفي محاولة منا لالقاء مزيد من الضوء على شخصيات هذه القصة نلفت النظر الى أن الشخصية الرئيسية في هذه القصة هو منصور العربي من بلاد الجزائر التي يمتدحها الأديب اليوغسلافي بأنها « بلاد الشرف العربي وبلاد الأبطال والفتيات الجميلات والخيول الأصيلة السريعة والابل الأليفة . وأبو منصور من أمراء الجزائر واهله من الفرسان الأبطال الذين يسابقون الرماح والغزلان . وهم من أفضل المرشدين ، واذا ما أتعبك الظمأ فانهم يمتطون الخيول ويحملون لك الماء في القرب خلال ساعات »[٢٠]. وبعد استيلاء الأتراك على الجزائر نقلوا « منصور » إلى تركيا حيث أجبروه على الانضمام الى جنود الانكشارية وأصبح جنديا حاملا للراية .

تلك هي الصورة التي رسمها الأديب اليوغسلافي يعقوب إجينا توفيتش لبطله العربي ، ومن هذه الصورة يمكننا أن نتبين أن إجينا توفيتش كان على معرفة طيبة بتاريخ العرب بوجه عام وتاريخ الجزائر بشكل خاص . وقد جعل الأديب اليوغسلافي من منصور العربي في هذه القصة تجسيدا حيا للبطولة والكرم العربيين . فمنصور لا يهاب الموت أبدا ، وهو في مقدمة الجيش دوما إذ يقول : « منذ أن عشت معكم وأنا لا أخشى الموت مطلقا من أجل رفعة وشرف النبي . انني أول من رفع الراية على قلعة شاباتس وكان الأعداء يتساقطون من حولي . وأنا أول من دخلت بوابة بلغراد وفتحت لكم باب النصر » . وكان أصل منصور النبيل لا يسمح له بالسرقة أو النهب . والوعد شيء مقدس عند منصور كما هي الحال عند كل عربي . وهو يقدر أحسن تقدير ضيوفه ويحترمهم ويبجلهم . ومنصور بطل همام يحمي البؤساء والضعفاء . وهو دائما يتذكر أيام العرب المجيدة اذ يقول : « انني عربي وخلفاؤ نا وقادتنا السابقون كانوا سادة حتى في الأماكن البعيدة »[٢١]. والجميع يعترفون بحسن خلق منصور ويحيونه بأجمل التحيات والأماني الطيبة اذ يقول أحدهم : « منحك الله الصحة أيها العربي ، ومنحك الذرية ، وأكثر من عشيرتك ، وندعو الله أن تتحول حالكم وحالنا الى الأحسن » . وكل شخص يعجب بمنصور البطل الجميل وبحصانه السريع ، وكل شخص يقول ليس هناك ند للجندي العربي .

---

(٢٠) أعمال يعقوب اجيناتوفيتش ، الجزء الأول ، نوفي ساد ـ تيمشفار ١٨٧٤ ، ص١١٣ .
(٢١) المصدر السابق ، ص١٦٦ .

وتأتي بعد منصور في الأهمية شخصية عربية ثانية هو مخليل بن جانال من الجزائر أيضا . وهو كذلك من أصل نبيل وشريف ، ولكن ما ان تم أسره حتى اضطر الى الخنوع والاستسلام . ثم أخذ يشتغل بالتجارة وبأعمال الصرافة . وهو رجل طيب ولكنه أصبح يحب المال حبا جما ، فهو يشتري ويبيع الثمين من الأشياء ، ويقرض النقود لجواري الحاكم ثم يقوم صراف الحاكم بدفع كل هذه النقود دفعة واحدة دون أن يسأل عن قلتها أو كثرتها . وكان مخليل يستغل ثقة الأتراك به ويحاول أن يعوض الجواري فيشتري لهن كل ما تشتهيه أنفسهن ويملأ أيضا جيوبه بالمال فهو لا يهتم بالأتراك ولا يبالي برفعة شأنهم أو مجدهم . لقد كان مخليل قاسي القلب ، ولكن سمعه كان قويا لدرجة أنه كان يميز بين أنواع النقود من رنينها ، وقد قدم إلى منصور مساعدات جليلة اذ كان يساعده في الدخول والخروج من قصر الحاكم مختفيا داخل صندوق الملابس ، بيد أن « مخليل » دفع حياته ثمنا لذلك في النهاية .

والشخصية العربية الثالثة في رواية « منصور وجميلة » هي المسئولة عن الجواري في قصر الحاكم التركي . وهي كذلك عربية من الجزائر . وهي تحب أهل بلدها ، وتحب موطنها ومسقط رأسها الجزائر . وقد قدمت الكثير من المساعدات إلى منصور لأنه من أهل بلدها . ورغم أن هذه المساعدات عرضتها للأخطار ورغم ذكائها الفريد إلا أنها فقدت حياتها بسبب مغامرات منصور مع جميلة في قصر الحاكم التركي .

ومن الحتم أن نبرز هنا بعض النقاط التي لفتت أنظارنا في رواية « منصور وجميلة » ، ذلك أن الأديب اليوغسلافي كان يستغل كل فرصة للتأكيد على التشابه بين الشعب العربي والشعب الصربي فيقول : « لابد أن الانسان العربي والانسان الصربي كانا من عشيرة واحدة في حين من الأحيان ، ليعيش المواطن الصربي والمواطن العربي البطلان »[٢٢]. وقد شدد إجينا توفيتش عدة مرات على الصداقة بين الشعبين العربي والصربي . ولا يفوتنا هنا أن ننوه بأن الأديب اليوغسلافي يعرف شيئا عن الاسلام وعن القرآن اذ يقول : « غير مكتوب في القرآن أن يسلم المسلم المسلمة أو أن تسلم هي نفسها كالدابة »[٢٣]. ولكن اتضح لنا فيها بعد أن معرفته بالقرآن لم تأت من مصادر موثوق بها ، لأنه يورد بعض المعلومات غير الصحيحة عن الاسلام . ومن الغريب أن الأديب اليوغسلافي يعرف كذلك بعضا من العادات والتقاليد الاسلامية ، فهو يشرح بالتفصيل كيفية دفن الميت المسلم[٢٤]. ويتحدث المؤلف على لسان منصور ليؤكد تسامحه الديني فيقول : « الله واحد والأنبياء كثيرون »[٢٥] ويصرح الكاتب في هذه الرواية بكراهيته وبغضه الشديدين للأتراك الذين احتلوا البلاد ، ويعبر أيضا عن رأيه في أنه لولا العرب ومساعدتهم لما ساد الأتراك العالم ولما كونوا امبراطوريتهم الكبيرة ، إذ يقول على لسان منصور : « انني عربي وهم أبطال حقيقيون ، ولو لم يكن العرب يؤازرون الأتراك لما رأوا كوسوفو على الاطلاق ولا حتى بلغراد »[٢٦].

هكذا صور الأديب اليوغسلافي في روايته ثلاث شخصيات عربية متباينة في شكلها وتصرفاتها ولكنها كلها من الجزائر ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن يعقوب إجينا توفيتش كان يميل ميلا شديدا الى العرب بوجه عام ، والى الجزائريين بشكل خاص . ولكن إجينا توفيتش لم يكن الأول في هذا المضمار ، فقد سبقه كما بيّنا بوجوبوي أتانا تسكوفيتش الذي تحدث أيضا عن الجزائر والجزائريين . إلا أن الدوافع والأساليب تختلف لدى

(٢٢) المصدر السابق ، ص٢١٢ ، ١٦٢ .
(٢٣) المصدر السابق ، ص١٤٨ .
(٢٤) المصدر السابق ، ص٢١٣ .
(٢٥) المصدر السابق ، ص١٦٨ .
(٢٦) المصدر السابق ، ص٢٠٥ .

الكاتبين . ولكن مما لا شك فيه أن الأعجاب لدى إجينا توفيتش أكبر وأعمق ، فهو معجب بالعرب وبماضيهم وتاريخهم أيما اعجاب . ومن الأدلة على ذلك أنه كتب في عام ١٨٦٠ مقالة أدبية مطولة بمجلة « دانيتسا » عبر فيها بكل صراحة وجلاء عن حبه الشديد للعرب وعن إعجابه بهم وبتاريخهم وحضارتهم . ومن بين ما سجله إجينا توفيتش في هذا المقال « أن الناس يسمون المواطن الصربي بالمواطن العربي الأوروبي . وهم على صواب في هذه التسمية . ولا تظن أنه ذلك المواطن العربي الذي يسير وراء سيده ويشعل له الغليون عند اللزوم . إن المواطن الصربي مشابه لذلك الانسان العربي الذي كان في حين من الأحيان يحكم بغداد والذي هيمن على الشرق تحت إمرة محمد وخلفائه . . مشابه لذلك الانسان العربي الذي ساعد بحكمته وبطولته الجنس التركي على أن يهز كيان أوروبا . مشابه لذلك الانسان العربي الذي حارب الفرنسيين العتاة في افريقيا منذ ثلاثين عاما من أجل وطنه . إن دماء الانسان العربي من أشرف الدماء ، مثله في ذلك مثل حصانه الأصيل . وذهن الانسان العربي صاف على الدوام ، وهو يحب وطنه وأسرته ويسعى الى المجد ويتحلى بصفات الفرسان » . **ويختتم الأديب اليوغسلافي مقاله بجملته المأثورة : « لو لم أكن مواطنا صربيا لوددت أن أكون عربيا . وما دمت لا أستطيع أن أكون عربيا فالأفضل أن أكون مواطنا صربيا »** .

وليس بعسير علينا أن نستخلص من هذه الكلمات الموجزة للأديب اليوغسلافي أنه يعرف الكثير عن تاريخ العرب وحياتهم وخصالهم ، وهذا يدعونا بل ويدفعنا إلى التأكيد بأن هذه الكلمات الصادقة لم تصدر عن كاتبها من قبيل الصدفة المحضة أو عن هوى عرضي في حنايا نفسه ، أو تعاطفا منه مع الانسان العربي الذي كان متخلفا عن أجداده في ذلك الحين ، بل على العكس لقد صدرت هذه الكلمات المنتقاة عن ايمان عميق بها وعن اعتناق أكيد بصحتها وصدقها . ولذا لابد أن نأخذ كلمات الأديب اليوغسلافي مأخذ الجد فهي ليست مديحا أو اطراء ، بل هي كلمات صحيحة نابعة عن تجربة واقعية وهذا يضفي عليها أهمية خاصة .

وكالعادة اختلف النقاد حول رواية « منصور وجميلة » فمنهم من إعترف بأن هذه الرواية الرومانسية العاطفية تلهب على الدوام خيال الجماهير العريضة من القراء وتثير دوما اعجابهم ، ومن جهة أخرى يزعمون أن مثل هذه الرواية التاريخية من روايات إجينا توفيتش تمثل الجانب الضعيف من أعماله الأدبية . وكان أشد النقاد هجوما على هذه الرواية هو الناقد اليوغسلافي يوفان سكرليتش ، إلا أن آراءه بشأن إجينا توفيتش متناقضة ومتعارضة بشكل لا يتفق والموضوعية العلمية ، ويسمح لنا بألا نعول عليها كثيرا . فبنظرة موضوعية بعيدة عن التحيز والانفعال يمكننا ألا نقبل اليوم مثل هذه الآراء من جانب هذا الناقد اليوغسلافي ، لأنه في نقده أغفل السمة العامة للكتابة آنذاك وأغفل الظروف المختلفة التي أحاطت بكتابة هذه الرواية . من أجل ذلك نجد أن هناك نقادا غير سكرليتش عارضوه في هجومه الشديد على إجينا توفيتش وعلى أعماله الأدبية الأولى، ونذكرعلى سبيل المثال لا الحصر الناقد اليوغسلافي سلوبدان ماركوفيتش الذي ركز في نقده الموضوعي على النوعية الجيدة لهذه الرواية وعلى تهافت القراء على قراءتها وعلى الجوانب الايجابية في هذه الرواية[٢٧].

ولا خلاف في أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إجينا توفيتش كتب هذه الرواية الرومانسية الوطنية مستخدما فيها التاريخ الفعلي بأقل درجة ممكنة . وركز على العناصر الثلاثة التالية : تعظيم التاريخ وحب الوطن والاعجاب بالشرق ، وهي من مميزات الأدب الرومانسي الذي يمكننا القول الآن بأن يعقوب إجينا توفيتش هو أحد أعلامه ، رغم أن النقاد ينكرون عليه هذه الصفة نظرا لأنه فيها بعد ترك الأدب الرومانسي ، وأصبحت رواياته التالية هي النموذج الذي يحتذى به في الأدب الواقعي .

(٢٧) سلوبودان ماركوفيتش ، « الأعمال المختارة ليعقوب اجيناتوفيتش » ، بلغراد ١٩٦٢ ، ص٧ .

وقد نوهنا من قبل إلى أن الرومانسية اليوغسلافية تتلمذت في مدرسة الرومانسية الألمانية ، بل إن معظم الأدباء في القرن الثامن عشر تعلموا في الجامعات الألمانية أو كانوا يجيدون اللغة الالمانية ويقرأون الأدب الألماني الرومانسي الذي ركز على الاهتمام بالشرق . وفي عهد الرومانسية كتب كثير من كتاب الغرب عن الشرق وعن تاريخه وعن عاداته وتقاليده . فقد كان الشرق بغرائبه ومباهجه وأدبه مادة خصبة لرواياتهم ولأشعارهم ، بل كان الشرق يوحي للأدباء بالأفكار ويلهمهم بكثير من الموضوعات ، وفي هذا العهد حدث تقارب عجيب بين أوروبا الغربية والشرق ، ومعظم كبار الشعراء قرضوا شعرا عن الشرق ومنهم جوته وبايرون وبوشكين ولامارتين وغيرهم . وكانت الرومانسية كذلك تحيط الماضي والتاريخ القديم بهالة عظيمة . وهذا التعظيم للماضي كان يمنح الجماهير أملا في مستقبل أفضل . وقد انتقلت هذه الأفكار من أفكار الرومانسية الألمانية إلى الأدب اليوغسلافي الذي امتلأ خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر بالموضوعات التاريخية في معظم الفنون الأدبية .

يضاف إلى هذا كله أن هذا الاهتمام الرومانسي بالشرق كانت وراءه في يوغسلافيا بعض الظروف المحلية الأخرى . حيث أسفر هذا الاهتمام عن اكتظاظ المجلات الأدبية اليوغسلافية بترجمات كثيرة عن العرب والشرق بوجه عام وبترجمات من الأدب العربي، واهتم الأدباء اليوغسلاف بالشعر العربي للمسلمين اليوغسلاف ، رغم أنهم يمقتون الأتراك ـ كمسلمين ـ وكل ما يمت لهم بصلة .

ويمكننا أن نؤكد أن السبب الأساسي الذي دفع إجينا توفيتش إلى كتابة مثل هذه الرواية الرومانسية الوطنية هو تأثره العميق بالأفكار الرومانسية التي كانت قد تغلغلت في الأدب اليوغسلافي . ولالقاء المزيد من الضوء على الدوافع التي دعت إجينا توفيتش الى الكتابة عن العرب ـ أي عن الجزائريين ـ يمكنني أن أضيف أن الباحثين اليوغسلاف من خلال كتاباتهم عن حياة وشخصية الأديب اليوغسلافي يعقوب إجينا توفيتش ذكروا أنه سافر الى بلاد الشرق ، وسافر عدة مرات الى القسطنطينية في تركيا ، وأنه حارب في الجزائر ، ذلك لأنه في عام ١٨٤٩ كان مهاجرا الى باريس حيث سنحت له الفرصة آنذاك للانتظام في صفوف جيش الأجانب الفرنسي الذي كان يحارب في الجزائر وترقى به حتى أصبح ضابطا[٢٨] . وكما يحكي إجينا توفيتش بنفسه فقد أصيبت احدى عينيه في معركة مع الجزائريين في الصحراء . وقد أدت هذه الاصابة الى فقد عينه حتى أنه عاش طوال حياته فيما بعد يقرأ ويكتب بعين واحدة[٢٩] . وهناك بالطبع من يشككون في مسألة اقامة إجينا توفيتش بالجزائر . ويقول آخرون أن اتصاله بالجزائر ربما كان عن طريق غير مباشر ، أي أنه ربما تصادق أثناء اقامته في باريس مع بعض الجزائريين وعرف عنهم المعلومات التي ذكرها في روايته .

« الدم من أجل عشيرتي »

وهذه القصة الثانية لاجينا توفيتش تتميز تميزا خاصا ، لا باعتبارها شكلا من أشكال قصص إجينا توفيتش الرومانسية الوطنية فحسب بل باعتبارها النموذج الأول ، وربما مصدرا لجميع القصص اليوغسلافية الوطنية في الستينيات من القرن الثامن عشر . ونلاحظ في هذه الرواية ثلاثة مشاعر رئيسية : الكراهية الشديدة تجاه الأتراك ، وابراز كفاح المناضلين في صربيا ، والميل الشديد تجاه العرب .

وتتلخص هذه الرواية في أن البطل فوينو راديتش اقتيد من سرايفو إلى الجيش التركي في عربستان .

(٢٨) يولان سكرليتش ، يعقوب اجيناتوفيتش ، ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص ٤٢ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص٤٢ .

ورغب عثمان باشا التركي في الزواج من أنجيليا خطيبة فوينو ووحيدة القسيس لوكا . وحاول الأب دون جدوى أن ينقذ وحيدته بتهريبها ، إلا أن الجنود الأتراك لحقوا بها وأشعلوا النيران في الدير الذي كانت تختبىء فيه وقادوا الفتاة الى حريم الباشا . وجلست الفتاة تندب حظها داخل حريم الباشا ولم تفقد الأمل في امكانية الهرب . وذات مرة دعت أنجيليا رجب طبيب القصر لكي يساعدها ، وبالفعل تمكنت ، بمساعدته ، من الهرب وذهبت الى خالها الذي أعادها الى ديانتها . ولسوء الحظ وشى به أحد الرهبان فقتل الأتراك خال الفتاة ونصبوا القسيس الواشي رئيسا للدير . ويعلم فوينو ـ الذي أصبح « عمر » بعد إسلامه ـ كل ما فعله الأتراك بانجيليا وبخالها فيسرع مع اخوته لكي ينقذها وينجحوا في ذلك . ويعود فوينو أيضا الى ديانته المسيحية ، ولكن لم تعد به رغبة في الزواج من أنجيليا التي أصبحت في حريم الباشا كالوردة الذابلة . ويتعاهد الجميع على مقاتلة الأتراك حتى النفس الأخير وأن تسيل دماؤهم من أجل عشيرتهم .

ويستمر فوينو ورفاقه من المناضلين في قتال الأتراك ولكن دون جدوى فعدد الأتراك كبير ، وقوتهم عظيمة . وفي احدى المعارك تبحث أنجيليا عن حبيبها فوينو فتعثر على الطبيب رجب بين الجرحى فتضمد له جراحه وتعالجه وتطلب منه البحث عن فوينو . ويجتمع شملها مع فوينو ثانية . وفي معركة أخرى مع الأتراك يخشى فوينو أن تقع حبيبته أسيرة في أيدى الأتراك فيطعنها في صدرها . غير أن اصابتها لم تكن قاتلة ويعالجها الأتراك وتصبح جارية مرة أخرى . وفي قتال آخر يأسر الأتراك فوينو ويعذبونه حتى الموت . وحينما تعلم انجيليا بذلك يتملكها اليأس وتريد أن تنتحر فينصحها رجب بأن تنتقم أولا من عثمان باشا . فتذهب اليه وتطعنه طعنه نجلاء ويقتل رجب أنجيليا بيديه حتى لا يعذبوها ، ويأمر السلطان التركي بخنق رجب .

والطبيب العربي رجب ـ كما رسمه اجيناتوفيتش في هذه الرواية ووضح معالمه ـ هو صورة مجسدة لكل الصفات الطيبة للعرب . انه عربي يحترم وعده إذ يقول : « العربي الذي يخلف وعده اليوم يخون شرف شعبه »[٣٠] . وهو شريف ونبيل فيقول له أخو انجيليا : « انني أرى الآن أنك من عشيرة طيبة وليست هناك عشيرة غير العرب تضحى بنفسها من أجل الشرف »[٣١] . وكان أهم مبدأ لديه هو القيام بأعمال الخير فيقول : « أنت الفتاة التي أنقذتها من قبل وقد جئت لتنقذيني . لقد أرسلك الله لى . وقد كان الخليفة الرشيد على صواب حين قال : « افعل الخير ولن تندم عليه »[٣٢] . وكانت كرامة وكبرياء رجب فوق كل شيء فيقول إجيناتوفيتش في روايته : « وكان رجب يعرف فوينو ولكنه لا يريد أن يكلمه ، اعتقادا منه بأن فوينو لن يعرفه ورجب لا يطلب الرحمة من أحد »[٣٣] . ولم يكن رجب أنانيا فهو لا يريد الحرية طالما ظل زملاؤه في الأسر فيقول : « يافوينو ، لقد حررتني ولكني لا أستطيع أن أكون حرا مالم تطلق سراح باقي الأبطال الأسرى . هؤلاء وأولئك الذين سقطوا ناضلوا بشجاعة ، أما الجبناء فهم الذين تراجعوا . أطلق سراح هؤلاء الاثنى عشر وإلا فسأظل معهم في الأسر وأشاركهم الموت »ولا ينسى إجيناتوفيتش أن يعترف ويشهد لرجب العربي بالبطولة وقوة الشخصية .

ومن السهل علينا أن نلحظ في هذه الرواية كما في سابقتها أنها تحوى معلومات وفيرة عن العرب وعن حياتهم وعن الاسلام وعن المسلمين وعن عاداتهم وما شابه ذلك . وليس هناك أدنى شك في أن أجينا توفيتش

(٣٠) الدم من أجل عشيرتي ، ص ٣٠ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

يعرف الكثيرعن تاريخ العرب والاسلام ، بل هو يعرف كذلك عادات العرب في دفن موتاهم .[٣٤]

ووصف النقاد اليوغسلاف هذه الرواية بالسذاجة والضعف ، وكان أشدهم هجوما على هذه الرواية الناقد يوفان سكرليتش الذي يعتقد أنها رواية مفعمة بالسذاجة والتحيز الشديد للصرب والكراهية العميقة للأتراك[٣٥] ، ومعظم أحداث الرواية خيالية رومانسية يظهر فيها الصرب كالملائكة في طهرهم وكالأسود في قوتهم . ويظهر الأتراك في صور قبيحة مشينة وكلها صفات تتنافي مع الواقع . وبالرغم من هذه العيوب وهذا الهجوم العنيف فقد اعترف النقاد بأن هاتين القصتين من قصص إجينا توفيتش قد لاقتا قبولا رائعا واعجابا شديدا من الجماهير اليوغسلافية عند صدورهما ، وشهد النقاد بأن ما يذكرونه من عيوب ونقائص كانت تعتبرها جماهير القراء فضائل ومزايا في حينها . والحقيقة المهمة في كل هذا أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إجيناتوفيتش لم يكتب هاتين الروايتين التاريخيتين باعتباره أديبا فحسب ، بل باعتباره وطنيا يحب وطنه أولا وقبل كل شيء وفوق كل شيء .[٣٦] لقد كان إجيناتوفيتش يقصد أساسا من هاتين الروايتين أن يحكى لأهل وطنه مقتطفات من تاريخهم بأسلوب شاعرى ، حتى يستمتع أهل وطنه بماضيهم ويأخذوا منه العظة ويتحمسوا لحاضرهم ومستقبلهم . لقد كان إجينا توفيتش يهدف إلى ايقاظ المشاعر القومية لقرائه وإلى دعم ثقة الشعب بنفسه ولفت أنظاره إلى القيم النبيلة في الحياة[٣٧] .

ويعتقد النقاد اليوغسلاف أن روايات اجينا توفيتش الرومانسية التاريخية هى إستمرار للخط الذي سار عليه رواد القصة الرومانسية التاريخية في الستينيات من القرن الثامن عشر . وحسب ما كتبه الناقد سلوبودان ماركوفيتش فان المعلم الأول لاجيناتوفيتش في مجال الأدب كان الأديب ميلوفان فيداكوتيتش (١٧٧٠ ـ ١٨٤١ م) الذي كتب أيضا بعض الروايات التاريخية ، وكان مدرسا ومربيا هادئا في حياته وفي قصصه المعسولة ، وكان المعلم الثاني هو الأديب سيماميلوتينوفيتش (١٧٩١ ـ ١٨٤٧ م) الذي كان على صلة شخصية بالشاعر جوته الألماني ، وبكثير من الشخصيات الأدبية في أوروبا ، والذي كانت حياته الشخصية تختلط بأشعاره الحالمة . وعلى الرغم من اختلاف طباع معلمى إجيناتوفيتش إلا أنهما كانا يشتركان في خط واحد ، وهو أن كلا منهما كان على طريقته الخاصة مناضلا قويا وداعية للقومية . وربما هذا هو ما جذب إجيناتوفيتش اليهما لأنه كان هو نفسه مشبعا بالروح القومية .

ولا بد أن نبرز أيضا هنا تعلم إجيناتوفيتش في المجر حيث انتقل إلى كثير من الأماكن وتعرف على مجموعة كبيرة من الناس . وتحت تأثير تربيته ومعلميه وعصره اشترك إجينا توفيتش في الحركة الرومانسية اليوغسلافية ، وأصبح أحد كتاب النثر الرومانسي النادرين . وقد ساهم مع زملائه من الأدباء في عصره في أن يكون للرومانسية ـ كمذهب أدبي ، وللموضوعات والأفكار الرومانسية ـ أدباؤها البارزون في مجال النثر أيضا . ونتيجة لكل هذا ظهرت شخصية العربي في قصتى إجيناتوفيتش .

« حياة المتمردين »

في عام ١٨٦١ بدأ الأديب اليوغسلافي يوكسيم نوفيتش أوتوتشانين (١٨٠٦ ـ ١٨٦٨ م) ينشر في مجلة

(٣٤) المصدر السابق ، ص٨٣ .
(٣٥) يوفان سكرليتش ، « يعقوب اجيناتوفيتش » ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص١٨٠ .
(٣٦)المصدر السابق ، ص ١٢١ .
(٣٧) جيفوين بوشكوف ، « الأعمال المختارة ليعقوب اجيناتوفيتش » ، الجزء الأول ، نوفي ساد ـ بلغراد ، ص١٥ .

« دانيتسا » قصته « حياة المتمردين » وهي من ناحية الترتيب الزمني تقع بعد نشر قصة « منصور وجميلة » وقبل نشر قصة « الدم من أجل عشيرتي » . ومؤلف هذه القصة بمحاكاته للحكايات الشعبية كان يصف - باللغة الأدبية - حياة الشعب وحياة المتمردين[٣٨] في البوسنا . وهو يروى ثانية بأسلوبه بعض الحكايات الشعبية وربط بعضها بالبعض الآخر عن طريق البطل الشعبي ستارين نوفاك . وبالطبع كان للعرب مكان أيضا ، لأن الحكايات الشعبية هي الأخرى مليئة بالقصص عن العرب .

وعلى سبيل المثال يحكي البطل الشعبي المشهور ماركو كرالفيتيش كيف أنه مزق اثنى عشر وزيرا . وفي الحقيقة كان المؤلف يوكسيم يعيد سرد نفس القصيدة أو الحكاية الشعبية بلغة أدبية نقية جميلة . وبالطبع يوجد الكثير من التفصيلات عن العرب وعن شجاعتهم وبطولتهم وما الى ذلك . وفي بعض الأماكن توجد كلمات طيبة كثيرة عن العرب ، فيقول البطل اليوغسلافي ماركو كراليفيتش عن العرب أنهم شعب شريف يدفع الناس الى حبه ، والعربي طيب كشعبه ، وتسرى في عروقه دماء الأبطال[٣٩] . وكان ماركو مضطرا الى قطع رقاب هؤلاء العرب الاثنى عشر ، لأن السلطان التركي وعد بأنه لن يهاجم الصرب اذا ما أخضع ماركو وقتل المتمردين الاثنى عشر في عربستان ، وجعل الهدوء مستتبا فيها . ولنلق نظرة إلى الرد الطريف الذي ذكره مؤلف الرواية على لسان العرب مرسلا إلى السلطان . يقول رد العرب على السلطان « ان الدولة العربية أعرق ، والعرب سادة ، والأتراك ليسوا إلا خدما لهم ، لأن محمدا أيضا كان عربيا وكان الخلفاء الراشدون والمسلمون كذلك من العرب . وكانت تركيا والشام والأناضول تحت السيطرة العربية ، في حين لم تقع الدولة العربية على الاطلاق تحت سيطرة الأتراك »[٤٠] . ويمكن بناء على هذه الكلمات أن نستنتج أن المؤلف - أو الراوى الشعبي - كان على علم - من مصادر مختلفة - ببعض الحقائق التاريخية .

ويعترف ماركو في معرض حديثه أنه لو لم يكن هو مع الأتراك لهلكوا ، لأن العرب قاتلوا بمنتهى البطولة ، وقطعوا الكثير من رؤوس الأترك » كم هم ملفتون للنظر وأبطال ، ولكن ماذا أفعل وعندى بلدى صربيا أهم من أى شيء في العالم »[٤١] . وبوجه عام كان ماركو حزينا لاضطراره إلى مقاتلة العرب فيقول : « لن أنسى على الاطلاق كم هم أناس على قدر من الروعة والسمعة .

---

(٣٨) المتمردين أو الهايدوتسي هي ظاهرة نشأت في يوغسلافيا ابتداء من النصف الثاني للقرن السادس عشر وخلال السيطرة التركية على الأراضي اليوغسلافية ، وقد بدأت ظاهرة التمرد في يوغسلافيا حينما اشتد سوء حال المسلمين اليوغسلاف بعد انهيار النظام الاقطاعي التركي وضعف النظام والانضباط والسلطة المركزية التركية . وبعد تزايد الهجمات الحربية وانتشار الأمراض والجدب الذي أصاب المحاصيل لعدة سنوات لم تجد الرعية ما تدفع به الجزية والضرائب الأخرى المفروضة واضطر أفراد الشعب إلى بيع أطفالهم حتى يسددوا هذه الضرائب . وساءت الأحوال كذلك في الأماكن الواقعة بالقرب من شرايين المواصلات الحيوية والتي كانت القوات التركية تتوافد اليها ، وساءت أيضا في المناطق التي كانت توجد بها كتائب مستديمة من الجنود الأتراك . ومثل هذه الظروف والأحوال كانت تفرض معارك وقتالا متكررا بين أفراد الشعب اليوغسلافي وبين ممثلي السلطات التركية ولذا فان كثيرا من هؤلاء الأفراد اضطر إلى الهروب الى الجبال والغابات القريبة وأصبح يطلق عليهم لقب المتمردين أو الهايدوتسي .

وفي البداية كان هؤلاء المتمردون ينتقمون من الظلم والطغيان الواقعين على أفراد الشعب من جانب السلطة التركية . وكانوا ينتقمون من الظالمين العتاة وفارضي الجزية ومن التجار الأتراك ومن كل من كانوا يؤيدون السلطة التركية . ويقال ان المتمردين والقصائد الشعبية اليوغسلافية هما الحصن الذي كانت تحتمي به الرعية . ومثل هذا المسلك من جانب المتمردين جعل لهم شعبية كبيرة عند جماهير الشعب الذي كان يتغنى بأعمالهم في عديد من القصائد الشعبية .

وبسبب قسوة الظروف وبسبب هجمات الأتراك المتكررة فقد شكل المتمردون كتائب ، وكل كتيبة تختار لنفسها قائدا أو زعيما يطلق عليه اسم « حرامي باشا » وكان يطلب من المتمرد أن يكون شجاعا وألا يخشى الموت وأن يكون مخلصا لزميله . وأصبحت ظاهرة التمرد موجودة - تقريبا - في جميع المناطق الأوروبية الواقعة تحت السلطة التركية . وظهور حركة المتمردين يمثل أول شكل للكفاح المسلح ضد السلطات التركية .

(٣٩) يوكسيم أوتوتشانين ، « حياة المتمردين » ، مجلة دانيتسا ١٨٦١ ، ص٣٥٥ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

(٤١) المصدر السابق ، ص٣٥٦ .

وكنت أتمنى لو أنهم فكروا في ذلك الحين وتركوا القتال اللعين » .

وفي حكاية أخرى يجرى قتال بين البطل اليوغسلافي ماركو وبين العربي العملاق ، وهو ضخم الجسم وعظامه كبيرة بحيث أن أضخم الأتراك في ذلك الحين كانوا لا يبلغون إلا صدر العربي العملاق »[٤٢] . وكان الأتراك في صف العربي وضد ماركو ، وهذا يقودنا الى الافتراض بأن المؤلف يريد أن يؤكد بشدة على فكرة الصراع بين عالمين ، وهي فكرة تتكرر على الدوام في الحكايات الشعبية .

وهاهي حكاية ثالثة عن إلغاء جزية الزواج وتروى أن ماركو قتل طاغيا عربيا عند صوفيا في بلغاريا ، وذلك لأن هذا العربي كان يفرض مختلف الجزيات ، وكانت آخر بدعة هى فرضه جزية على الزواج . والفكرة أو الموضوع هو نفسه الموجود في القصيدة أو الحكاية الشعبية التي تحمل نفس العنوان . وعلاوة على اللغة الأدبية النقية فالفارق الوحيد هو أن يوكسيم قد عالج الموضوع بشكل أفضل وبتفاصيل طريفة أكثر . وبالمقارنة بين الحكاية الشعبية الأصلية وحكايات يوكسيم هنا نجد أنه لم يضف شيئا جديدا فيما يتعلق بالعرب .

والمؤلف يستخدم هنا تعبير « العربي الأسود » من أجل المقارنة فحسب[٤٣] .

مما سبق يتبين لنا أن المؤلف يوكسيم قلد الحكايات الشعبية بلغته الأدبية النقية ووصف حياة الشعب وحياة المتمردين في البوسنا وتعرض لبعض الأحداث التاريخية من الماضي القريب أو البعيد . وقد اختار عن عمد الموضوعات التي تمكنه من تحميس الشباب للمثاليات الوطنية وتربيته على التقاليد التاريخية النبيلة . وليس عسيرا أن نلحظ في حكايات يوكسيم كراهيته الشديدة تجاه الأتراك وميله وتعاطفه الجلي تجاه العرب . وهو في هذا الأمر لا يختلف عن الراوى الشعبي الأصلي الذي كان يتخذ موقفا مماثلا تجاه الأتراك والعرب . وكما هو واضح فان هذه الحكايات في أساسها ليست حكايات يوكسيم ولا من تأليفه ، ولكن المؤلف عند إعادته لسردها أطلق العنان لخياله المبدع ولقدرته على الابتكار .

من هذا يمكننا أن نستنتج أن يوكسيم قد استغل في الأغلب العرب كشخصيات رئيسية في رواية « حياة المتمردين » تحت تأثير التقاليد الشعبية اليوغسلافية وتحت تأثير الأدب الشعبي . والأديب يوكسيم في هذه الرواية يعد راويا شعبيا طيبا ورومانسيا ، لأنه حاول محاولة حرفية وكاملة في أن ينفذ الفكرة الرومانسية التالية : وهي أن يؤلف على أساس الشعر الشعبي وعلى أساس الموضوعات والأفكار التي قدمها الأدب الشعبي ـ أقصوصة فنية روائية[٤٤] .

ومن تاريخ حياة يوكسيم يمكننا أن نفصل بعض العناصر التي يمكنها أن تلقي مزيدا من الضوء عن أسباب ظهور شخصية في روايته هذه . فقد درس يوكسيم بالمدرسة الثانوية في سريمسكا كارلوفيتسا وفي ساروش بوتوك وفي المجر ، ودرس الفلسفة في بينا وجيتنج وهاج ، ودرس الحقوق في فيينا في عام ١٨٢٤ . وقد انضم إلى المتمردين في جبال البوسنا والهرسك ، وعاش بين الأرناؤوط وقضى سنتين في السجن . وفي عام ١٨٤٩ اشترك في المعارك ضد المجر ، وفي نفس الوقت حاول القيام بثورة في البوسنا . وأثناء قيامه بأعمال المتمردين في رومانيا وفي دورميتور وخلال اقامته في قصور الباكوات البوسنويين وقضائه فصل الشتاء في المراعي الأرناؤوطية وفي مراعي الجبل الأسود ، في هذه الحياة الرومانسية خلق يوكسيم لنفسه ـ وهو ابن الضابط والنبيل وخريج المدارس الألمانية ـ روحا مغايرة تماما ، وأصبح من أفراد الشعب ، وبطلا من أبطال الحكايات

(٤٢) المصدر السابق ، ص٤١٤ .

(٤٣) المصدر السابق ، ٤٨٩ .

(٤٤) يوفان سكرليتش ، « تاريخ الأدب الصربي الحديث » ، بلغراد١٩٥٣ ، ص٢٧٩ .

الشعبية (٤٥). ومما لا ريب فيه أن العيش في مثل هذه الظروف وهذه البيئات قدم الأساس والقاعدة لرواية «حياة المتمردين» (٤٦).

ومن العناصر الهامة الأخرى في حياة يوكسيم أنه أقام في فيينا فترة من الزمن في نفس الوقت الذي كان يقيم فيه بفيينا المصلح اللغوي فوك كراجيتش . وقد قدم يوكسيم المساعدات لفوك بشأن اختيار القصائد الشعبية ، وكذلك بشأن اللغة ، لأن يوكسيم ترعرع في منبع هذه القصائد . وفي سريم في منزل والد يوكسيم الذي كان شاعرا ملحميا ، كان يتوافد كل يوم ضيوف أعزاء من محبي القصائد الشعبية . هذا علاوة على أن يوكسيم كان يجيد معرفة اللغات اللاتينية واليونانية والسلافية القديمة وكان يفهم التركية ، ولا أحد أفضل منه كان يعرف الحياة الشعبية وعادات ولغة الشعب (٤٧).

« الهوى لا يسمع »

منذ نشر رواية «حياة المتمردين» التي نشرت نهايتها في مجلة «دانيتسا» في عام ١٨٦٣ ، وحتى عام ١٨٧٠ حينما تم نشر الأقصوصة التاريخية «الهوى لا يسمع» بقلم بطرس دسبوتوفيتش في مجلة «دانيتسا» أيضا لم ينشر أي شيء آخر فيما يتعلق بالعرب . ويتحدث المؤلف في هذه الأقصوصة التاريخية عن بطولة وجرأة خارقة لامرأة عربية تسمى «قولة» . ولا يمكن بسهولة التأكد من هذه الشخصية وإثبات وجودها في الواقع خاصة اذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الأقصوصة حدثت في القرن الثامن . ومن ناحية أخرى أراد المؤلف أن يقدم موعظة بأن الهوى لا يرى ولا يسمع .

والمرأة العربية «قولة» انضمت الى الجيش العربي الذي كان يحاصر دمشق بحيث أن المدينة كانت في أكبر خطر . وقد عرض مواطنو هذه المدينة على القائد العربي خالد بن الوليد الكثير من الذهب لا لشيء إلا لكي يتخلى عن حصاره . وفي دمشق كان هناك الشقيقان «بافلو» و«بطرس» ، وهما مشهوران ببطولتهما في كل الجيش اليوناني . ولكن منذ فترة من الزمن وقد سيطر عليهما شرود الذهن ولا تندفع رماحهما كالبرق كما كانت تندفع من قبل . وكان السبب في ذلك هو البطلة العربية ، «قوله» الجميلة . وبالرغم من بطولة الشقيقين فقد كانا عاشقين ، ولذا فقد أجبرتهما أمهما على أن يقسما بأنهما سيطيعانها أثناء المعركة . وتم أسر شقيق «قوله» في القتال وهرب جميع العرب الى أن وصلت اليهم «قوله» وجعلتهم يقلعون عن الهرب . وبعد ذلك أخذت مجموعة صغيرة واستطاعت ان تنقذ أخاها من الأسر .

وفي معركة أخرى هجم «بافلو» بجنوده وحطم كتيبة الفرسان العربية غير أن «قولة» ظهرت على صهوة جوادها الجميل فأشعلت الحماس بين العرب الذين ما ان رأوا بطلتهم القوية حتى عادت إليهم حيويتهم وهجموا بهمة شديدة على الكتائب اليونانية . وبنظرة استطاعت «قولة» أن تأسر الفارس اليوناني العاشق الذي أخذ يهرول وراءها دون أن يسمع أو ينصت لصوت أمه . وأخذ الهوى الذي لا يسمع ولا يرى يلتهب في أعماقه . وهكذا تم القبض على الفارس «بافلو» ولم يكن شقيقه بأحسن حظا منه ، فبعد فترة وجيزة أسرت هذه العربية الجميلة بطرس أيضا الذي لم يسمع هو كذلك صوت أمه الذي كان ينبهه إلى واجبه ، بل على العكس كان يهرول هرولة عمياء وراء المرأة العربية الجميلة .

وأهم شخصية عربية في هذه الأقصوصة التاريخية هي المرأة العربية «قولة» . وحينما وصلت إلى الجيش العربي

---

(٤٥) بوفان سكرليتش ، «الرومانسية والواقعية» بلغراد ١٩٦٢ ، ص٩٦ - ٩٧ .

(٤٦) اميل تشوكرا ، «يوكسيم أوتوتشانين» ، مجلة دانيتسا ١٨٦٨ ، ص٣٦ - ٤١ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص٤١ .

كانت ترتدي أجمل ثيابها وأثمنها التي لا توجد إلا في الشرق ، وكانت تعتلي صهوة حصان جميل ضخم مغطى بغطاء موشى بالذهب بدلا من السرج . وكان وجهها أبيض من وجوه العرب وكانت أشجع بطلة . وحينما رأت أهلها من العرب يهربون صاحت بأعلى صوتها بحيث ان الصحراء اهتزت لمسافة بعيدة وشجعتهم بالكلمات الجريئة حتى أقلعوا عن الهرب . وكذلك حينما سمعت أن اخاها قد أسر لم تهدأ إلا بعد أن أنقذته من الأسر . ومن المؤكد أن « قولة » كانت في غاية الجمال والجاذبية ما دام كل من بافلو وبطرس قد افتتنا بها بهذا الشكل . وطالما لم تكن « قولة » موجودة في الجيش العربي كانت أمها تنام في هدوء ، ولكن منذ أن ظهرت « قولة » تلاشى هذا الهدوء وانهزم أبناؤها ولم يهزمها القائد الشجاع خالد بن الوليد ولم يطحنها ضرار المسمى بالصاعقة الفظيعة ، بل هزمتها امرأة ، هزمها الهوى .

وهناك انطباع بأن هذه الأقصوصة التاريخية لها أساس تاريخي رغم أنه مشكوك في أصالتها . ومن الأرجح أن بطرس دسبوتوفيتش قد عرف هذه الأقصوصة عن طريق طرف آخر ثم أعاد سردها ، أو ربما ترجمها إلى اللغة الصربوكرواتية ترجمة حرفية أو محرفة . والدليل على ذلك عدم وجود أية شخصيات يوغسلافية بالأقصوصة ، وكذلك احساسنا في القصة كلها بنوع من التعصب الديني والنظر إلى كل شيء من خلال الصراع بين المسلمين والمسيحيين . وحسب روح ولهجة الأقصوصة ، وحسب بعض الاهانات الموجهة الى العرب فليس عسيرا أن نستنتج أن بطرس دسبوتوفيتش كان في صف المسيحيين ، وأن آراءه كانت عتيقة متعصبة وكأنه لا يزال يعيش في عصر الحروب الصليبية .

ومن المؤكد أن بطرس دسبوتوفيتش قد كتب هذه الأقصوصة التاريخية تحت تأثير الرومانسية التي كانت تشجع على الاهتمام بالشرق وبالموضوعات التاريخية ، وعلى وجه السرعة تحمس الرومانسيون اليوغسلاف الذين كانوا يبحثون عن نماذج وقواعد الذوق في الأدب الألماني في ذلك الحين [٤٨] .

وفيما عدا ذلك فقد كان بطرس دسبوتوفيتش من العاملين في مجال التربية فهل كان يريدبقصته هذه أن يحمس الشباب المسيحي ؟ احتمال قائم ولكنه لم يثبت . والعجيب أن بطرس لم يستمر كثيرا في مجال الأدب ، فقد أسدلت عليه ستائر النسيان بشكل سريع ، وواضح أن لذلك مبرراته ، فقدراته وإمكانياته الأدبية محدودة . وكان الجمهور ذو الذوق الأدبي غير المتطور يقرأ مؤلفاته . ومما يذكر أنه قد أنهى دراسته الثانوية ثم التحق بمدرسة المعلمين في سومبور وبعد انتهائه من الدراسة بها اشتغل مدرسا في نفس المكان ثم مدرسا في مدرسة المعلمين في باهراتس . وبعد ذلك درس علوم الأحياء في فيينا . ومن الغريب أنه مثل أمام المحكمة في فويفودينا بتهمة الخيانة العظمى، وعلى أثر ذلك فقد وظيفته كمدرس . وكان يكتب كتب التربية والقصائد والأقاصيص . وفي التربية التاريخية كان في الأغلب يعرض الحقائق بشكل موضوعي . وإذا ما تعمق في معالجتها فانه يتخذ موقفا مثاليا [٤٩] .

« بكم الدجاجة أيها الفلاح » ؟

هذه الأقصوصة هى في الحقيقة الفصل الرابع من رواية « ليلى التى جعلوها مسلمة » تأليف الكاتب ميلان جاكوف ميليتشقيتش . وفكرة هذه الأقصوصة بايجاز أن المرأة العربية « نجيبة » كانت جارية عند ليلى التى هربت من والديها وذهبت إلى « حسن أغابك » وأصبحت زوجته . ولفترة طويلة بحث عنها والداها إلى أن عرفا مكانها وحضرا إليها في المكان المخصص للحريم في

(٤٨) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ٢٩٦ .

(٤٩) دائرة المعارف اليوغسلافية ، جزء ٤ ، ص٦٩٤ .

القصر . وعندئذ أحضرت لهم الجارية العربية القهوة وكذلك الهدايا .

وقد يظن أحد أن هذا الدور لجارية عربية دور صغير ولا يستحق أى اهتمام منا . ولكن على العكس من ذلك يعتقد كاتب هذه السطور أن الأمر مناقض لذلك ، وأن دور مثل هذه الجارية العربية مهم للغاية ويستحق دراسة مفصلة . فمن جهة يمكننا أن نؤكد أن مثل هذه الجارية العربية كانت وسيلة من وسائل انتقال الثقافة العربية الاسلامية ، ومن جهة أخرى كانت هى وأمثالها من العناصر المهمة بشكل لا مثيل له في نشر وتعميق التصورات المختلفة والحكايات المتنوعة عن العرب في جميع المجالات . وليس من المبالغ فيه أن نقول أن تصور الشعوب اليوغسلافية عن العرب كان مرتبطا في المقام الأول بمثل هؤلاء الجوارى العربيات .

وفي القصة التى أمامنا دخلت الفتاة اليوغسلافية « يانا » الاسلام بمحض رغبتها وأصبحت ليلى . وتغير مسلكها تماما وعاداتها وطريقة ارتدائها للملابس وما إلى ذلك . ويؤكد هذا كله الدهشة الكبيرة التي أثارها هذا التغير عند والديها اللذين ـ بكل بساطة ـ تسمرا في مكانيهما حينما رأياها في قصر « حسن بك » . بل انهما لم يتمكنا من التعرف على ابنتهما التى أنجباها . فمن اذن يقف وراء هذه التغيرات المذهلة في الملبس والمسلك والعادات وغير ذلك عند ليلى ؟

ليس هناك أدنى شك ولا أى خلاف على أمثال هؤلاء الجوارى العربيات . . كن البطلات المجهولات وراء مثل هذه التغيرات . فقد كن مسئولات عن تعليم وتربية وتهذيب وتثقيف الفتيات حديثات العهد بالاسلام أمثال ليلى . وليس من نافلة القول أن ننوه هنا بأن الجارية المشهورة « تودد » قد نجحت أمام علماء هارون الرشيد في امتحانات الطب والحقوق والرياضة ومختلف مجالات العلم والثقافة[٥٠] .

ولذا فان كاتب هذه السطور يعتقد أن هذه الأقصوصة قائمة على أحداث حقيقية واقعية ، وهى في الوقت نفسه تثبت وتؤكد الافتراضات المذكورة ، ومن هنا تأتى أهمية هذه الأقصوصة بالرغم من أن الدور الذى تقوم به الجارية العربية « نجيبة » صغير في الظاهر .

ومن المعلومات التى تهمنا عن مؤلف هذه الأقصوصة يمكننا أن نذكر أن ميلان جاكوف (١٨٣١ ـ ١٨٧١م) درس المدرسة الثانوية واللاهوت وقد بدأ نشاطه الأدبى بترجمة المقالات التربوية . وكان يجيد معرفة اللغتين الروسية والفرنسية . وبعد انتهائه من الدراسة عمل بوزارة الثقافة ، وقد سمح له هذا العمل بالتجول فى أنحاء صربيا وبذلك سنحت له الفرصة لأن يرى الشعب ويتأمله ويتعرف على آلامه وأمانيه . ولذا فانه ترك المؤلفات التربوية واشتغل بتصوير ووصف حياة الشعب ، وكتب عدة مؤلفات تاريخية وجغرافية وأثنوغرافية . وقد اكتسب معارفه بالقراءة والرحلات . وكان يمتاز بالملاحظة النشيطة ويسجل هذه الملاحظات والبيانات ويعالجها عندما تحين له الفرصة بلغة نقية مفهومة للشعب .

« حاج بالقوة » :

نشر المؤلف ميلان يوقانوفيتش هذه الأقصوصة في مجلة « يافور » في عام ١٨٨٠ ويحكى فيها عن لورد شاب لم يذهب الى فلسطين من أجل الحج بل بأمر من والده الجنرال لكي ينسى فتاة أحبها ، وهى من طبقة أدنى من طبقته وحتى لا يتخذها زوجة له ، وحتى لا تتدفق دماء الدهماء في العروق الارستقراطية لأحفادها مما قد يؤدى الى طرد العائلة النبيلة من الطبقة الارستقراطية . وقد قام اللورد الشاب بالانتحار في رحلته ما بين يافا وبوزسعيد وذلك لأنه في يافا وجد في انتظاره رسالة من حبيبته تودعه فيها الوداع الأخير لأنها تنوى الانتحار .

---

(٥٠) فيليب حتى ، « تاريخ العرب منذ أقدم العصور » ، سرايفو ١٩٦٧ ، ص ٣١٤ .

ولم يقدم لنا المؤلف أية أوصاف مفصلة للمدن العربية المذكورة في هذه القصة ، ومعلوماته عن فلسطين وعن القدس معلومات عامة فيقول : « يعلم المسيحيون أن فلسطين بلد مقدس حيث يذهب إليها لكي يصلي لله كل من لديه وقت ومال . وحينما نتحدث عن فلسطين فاننا نتذكر القدس والاردن وعبران والصليب وقبر المسيح ، ومن يذهب إلى هناك باعتباره انسانا عاديا يعود إلى بلده وهو حاج حكيم»[٥١] .

وقد كان مؤلف هذه الأقصوصة طبيبا وكان يكتب عن رحلاته . ولا شك أنه كتب أقصوصته هذه متأثرا بالأفكار الرومانسية . فنحن نلحظ هنا أن أشخاص القصة كلهم أجانب - أي ليسوا يوغسلاف - كما أن أحداث القصة تقع في أماكن أجنبية . ويسمى الرومانسيون هذا النوع من القصص « بالقصص الأجنبية » [٥٢] وهم لم يبتدعوا هذا النوع من الأدب وانما ورثوه من القرن الثامن عشر ، وقد ولعوا بهذا النوع من القصص لكي يرضوا به نزعاتهم في الفرار من الواقع ، واشباع الخيال بوصف بلاد أغنى مناظر ، وأحفل بالمخاطرات وأكثر حيوية مما ألفوا في وطنهم . [٥٣] .

« ابن الصحراء » :

هذه القصة من تأليف الأديب اليوغسلافي نيكا جرويتش أوجنيان ، وهي بالفعل أقصوصة تاريخية تحكي الأحداث التاريخية الحاسمة في العالم العربي الاسلامي خلال عهد الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي . وتروي لنا هذه الأقصوصة أن محمد بن الخليفة أبي بكر أحب زليخة التي كانت كل نجد تسميها « لؤلؤة الصحراء » ، وكانت هي أيضا تحبه ، وكانت تتحدث معه في حماس عن فضائل الانسان بحيث أن محمدا الرجل النبيل حمل في قلبه أرق الأحاسيس لهذه الفضائل ، التي تغلغلت وتعمقت جذورها في قلبه حتى أنه أصبح يعيش لأجل أمرين مقدسين ، من أجل حبيبته « لؤلؤة الصحراء » ومن أجل المشاعر والفضائل البشرية . ومن أجل زليخة كان محمد بن أبي بكر يرفض أية عروض للسيادة أو السلطة ، وكان يشعر بأنه غاية في السعادة لأنه يعيش في هدوء من أجل حبه ومن أجل شعبه . وحينما دعته طبول الحرب لكي يدافع عن شرف شعبه ولكي ترتفع أمجاد هذا الشعب كان يقف في مقدمة المناضلين ولا يبخل برخيص أو غال في هذا المضمار . وحينما ينقطع صليل السيوف يبتعد على الفور من المكان الذي يجري فيه تقسيم الغنائم وتوزيع المديح ، ويذهب الى واحته في الصحراء حيث يستريح في خيمته المتواضعة ويفكر في حبه وفي سعادة بني وطنه . ولم يك يقضي لحظة واحدة في العبث لأنه كان يعرف أن عمر الانسان قصير للغاية حتى أن الانسان يمكنه أن يفكر في الطيب النافع ويحققه لشعبه .

وكان يوسف صديق محمد يسيء استغلال صداقته بل ويسيء سمعته أمام حبيبته زليخة . وكان يوسف قادرا على تزييف الأمور والحقائق بمهارة بالغة حتى أثقل عبء صديقه بافتراءاته وكان آخرها اشاعته أنه هو - أي محمد - مدبر قتل الخليفةعمر . وصدقت زليخة هذه الافتراءة لأن يوسف كان يدس لها على مهل السم في قلبها بشكوكه المستمرة . وبذلك فقد محمد حبه وحياته من أجل سعادة بني وطنه .

والأقصوصة كلها مكتظة بمختلف الشخصيات العربية المتنوعة ولذا فاننا سنتحدث هنا عن أهمها فحسب ، وعن أهم ملامحها كما وصفها المؤلف في قصته .

---

(٥١)ميلان يوفانوفيتش ، « حاج بالقوة » ، مجلة يافور ١٨٨٠ ، ص٧

(٥٢) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، القاهرة ، ص ١٦٥

(٥٣) المصدر السابق ، ص١٦٥ .

محمد بن أبي بكر رجل نبيل ، من خصائصه الأساسية حبه للعدل . وكان مسلما بقلبه وروحه ، ولم يكن يفسر الاسلام وتعاليمه بحيث يثير بتفسيراته هذه عذاب وشقاء وسوء معاملة الأخرين ، وكان يعتبر أن من يفعل ذلك من المسلمين لص . كان قلبه رقيقا غير فاسد . وكان صديقه يوسف يقول عنه انه انسان كامل وصديق وفي ، وأن نجد كلها تمتدح نبله (٥٤) . وكان محمد يضع على الدوام حياته ونفسه كلها في خدمة تلك الحركة الشعبية التي كانت تهدف إلى مجد بني وطنه وعظمتهم . وبعد موت عمر اتفق أغلبية أعضاء المجلس على أن يعلنوا محمدا خليفة فقد كانت تزينه كل الفضائل الجميلة ، ولكنه رفض .

وحينها علم محمد بالثورة حول مكة والمدينة ضد عثمان هاجم المتمردين على وجه السرعة . ولم يستطع عثمان أن يأمل في مثل هذا السمو ولم يعرف كيف يجد الكلمات إلتي يشكر بها محمدا . لقد كان محمد يعرف طهارة نفسه من كل رذيلة ، ولذا فلم يكن يخشى أي شيء ، ورفض مرتين أن يتم اختياره خليفة لجميع المسلمين .

وكان الشعب تحت أشجار الكستناء وأشجار النخيل يحكي وينشد ما شاء له عن نبل محمد بن أبي بكر . وكان المنشدون يتنقلون من واحة الى أخرى ويحكون وينشدون عنه الأعاجيب . وكانت أعمال محمد تمجد على أنها مقدسات ، وكان اسمه يذكر بأكبر درجات الاحترام ، لقد كان أثيرا لدى كل عربي وبدوي . ولو أنه جلس على كرسي الخلافة لكان من الممكن ألا يكون محترما ومحبوبا بهذا الشكل ، ولكن لأن الشعب يرى أعماله الوطنية الصادقة ويرى عدم أنانيته وتضحيته ، ويرى تفوقه الفعلي في المجال الذي يحتاج اليه فيه ، فقد كان يخلص له ويحبه بصدق . وقبر محمد الآن من المقدسات لدى البدو ، فهم يحترمونه أشد الاحترام ويمتدحون أعماله ، وظلوا أوفياء لرغبته الأخيرة ، فهم يحيون حتى اليوم حياة متواضعة بسيطة .(٥٥)

وخلافا لمحمد كان يوسف يطلب الجنتين : جنة الأرض وجنة السماء . ولأنه اشتهى أن يأخذ زليخة لنفسه فقد كانت كل كلمة من كلماته تتهم محمدا ، وكان دائما يصب السم على الجرح الذي لم يلتئم . وكان ماهرا في إخفاء آرائه ، ولكن بمجرد أن امتلك زليخة وتزوجها ظهرت طباعه على حقيقتها ، فقد أصبح مغرورا وطاغيا وقاسيا . وأصبحت قبيلته المشهورة لا تجرؤ على طلب أي شيء من أميرها الجديد ، لأنه كان لا ينظر إلى أفرادها على أنهم بشر بل على أنهم عبيد مطيعون خاضعون . وكان يطلب لنفسه الحرية ولكنه يستأصل جذورها في كل مكان . وكان يتصرف في جميع الأمور بديكتاتورية وقسوة . وإذا ما ارتكب مظلمة من المظالم وسمعت زليخة بذلك كان يكذب أمامها ويقلب الأمر لصالحه . وبعد زواجه كان يعارض بصراحة كل ما يقوله محمد وزليخة . وعلاوة على ذلك كان يعاقب « لؤلؤة الصحراء » بتهديداته وكلماته القاسية .

وقد فقد يوسف هدوءه وسروره حينها اتضح له أن جميع مؤامراته وافتراءاته التي حاكها ضد محمد سقطت كلها على رأسه . ولكن الجبان السافل ليس له حياء الأبطال وشيمتهم . والرجل الذي يكثر من الكلام الأجوف ليست لديه الجرأة لأن يثبت قوله بالفعل . فبمجرد أن عرف يوسف بافتضاح سره وبمعرفة محمد لافتراءاته عليه لم تبق لديه الجرأة لأن ينتظر مواجهته بل لاذ بالفرار حتى يحافظ على حياته . ولم يكن ليوسف أصدقاء على الاطلاق لأنه لم يكن يثق بأحد ولم يكن يحب فعل الخير .

وتكتظ الأقصوصة بالكلمات الجميلة المنتقاة عن العرب وعن البدو وعن حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم .

(٥٤) مجلة بالفور ـ ١٨٨ ، ص ٧٧٣ .

(٥٥) المصدر السابق ، ص١٢٧٢

وهذه الكلمات يمكن أن تبين لنا معرفة المؤلف بالعرب ، فهو يعرف عن العرب أنهم يسلكون الطريق الذي يؤدي من واحة إلى أخرى[٥٦] وأن البدوي قليل الكلام ولكنه اذا قال شيئا ووعد بأمر فانه يضمن كلمته بحياته[٥٧] ، ويعرف الكاتب عن منطقة نجد أن نجوم الجمال ، والحكمة والانسانية تتلألأ في سمائها[٥٨] . ويعرف الكاتب أن أهل نجد طيبون وعاقلون وأنه بإمكان المرء أن يتحدث معهم عن كل ما هو حكيم وأنهم ليسوا متعصبين على الاطلاق[٥٩] . غير أنه علاوة على ذلك تحتوي القصة على بعض المعلومات غير الصحيحة[٦٠] مما يجعلنا نرتاب في أصالة وحياد المصدر الذي استلهم منه المؤلف مادة أقصوصته التاريخية .

وقد عرض المؤلف كذلك معلومة تاريخية غير صحيحة فيما يتعلق بمكتبة الاسكندرية . فهو يزعم أن الخليفة عمر قد أمر باحراق كتب مكتبة الاسكندرية . ولكن المؤرخين يؤكدون أن مكتبة الاسكندرية أحرقت في عام ٣٨٠ م حسب أوامر الأمبراطور ت تيوديسا . وبناء عليه ففي زمن الفتح العربي لمصر في عام ٦٤٧ لم تكن هناك أية مكتبات مهمة في الاسكندرية ، ولم يتهم أي مؤرخ على الاطلاق القائد عمرو ولا الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية[٦١] .

وفي الجملة فقد ظهر العرب في أقصوصة ابن الصحراء في مكانهم الطبيعي لأنها قصة تاريخية عن العرب فحسب . ونلاحظ أن هناك تشابها بين هذه القصة وسابقتها من حيث ان أحداثها تدور في بلاد أخرى غير تلك التي يقيم فيها المؤلف . وهذه القصة كذلك تنطبق عليها سمات كثيرة من سمات الرومانسية فهي قصة تاريخية أجنبية تتعلق أحداثها بالشرق ، ويحضرنا الآن قول فريدرش شليجل « بأنه يجب علينا أن نبحث في الشرق عن أسمى المواد والصور الرومانتيكية »[٦٢] . والقصة التي بين أيدينا ما هي إلا دليل جديد على ولع الرومانسيين بالشرق وبتاريخه . وبناء عليه يمكننا أن نؤكد ان هذه القصة مكتوبة تحت تأثير الرومانسية الألمانية وتأثير الأدب الألماني الذي كان يميل ميلا شديدا إلى الشرق وإلى حياته[٦٣] .

« نيميا » :

الممثل فيليام ميلكوفيتش نشر في مجلة « يافور » في عام ١٨٨٦ هذه الأقصوصة الطريفة التي تحدثنا عن أن « ياكور » دمر قبيلة الملك بوسيت وأسر ابنته « نيميا » ولكنها نجحت في أن تقتله وأن تهرب مع العبد « إزرياض » إلى قبيلة نوبية . وقد وعدت « نيميا » العبد « إزرياض » بالزواج . ولكن بمجرد أن رأت الملك النوبي العربي نسيت وعدها . واتفقت مع الملك على أن تكون زوجته وملكة على القبيلة . وسمع العبد « إزرياض » بكل هذا وأجبر « نيميا » على احتساء السم .

والملك النوبي العربي كان رجلا جميل الطلعة ، حسن القوام ، نظراته نارية ، وعيونه رمادية اللون . وكان في مقتبل شبابه ، إذ لم يكن قد أنهى الخامسة والعشرين من

---

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٦٧٨ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص٧٤٣ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٧٦٤ .

(٦٠) يذكر المؤلف أن لدى البدو عادة بأن تحتفظ النساء الثريات بأكثر من زوج ، وأن هذه العادة استمرت حتى بعد ظهور الاسلام (ص ١٢٠٣) وهو طبعا أمر ينافي الحقيقة .

(٦١) فيليب حتى ، « تاريخ العرب » ، ص ١٦٢ ، وكذلك Edward Gibbon, The history of decline and fall of the Roman Empire, London 1855 ,p 452 .

(٦٢) . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص٦٤ .

(٦٣) يوفان سكرليتش ، « الشباب وادبه » ، ص ٢٩٣ .

عمره ولم يكن متوحش الطباع . وكان يقدر كل ما هو جميل ونبيل وقد كان هو نفسه نبيلا .

وكما نرى فان مزايا هذا الملك العربي ليست محددة أو بعبارة أخرى ليست مزايا عربية مائة في المائة ولا تقتصر على العرب فحسب . فأسماء الشخصيات وتصرفاتها في هذه الأقصوصة لا تسمح لنا بأن نؤكد إن كانت عربية أم نوبية . ولكن المؤكد أنه ليس لدى المؤلف تصور مسبق عن النوبيين أو عن العرب . ولا شك في أن ظهور هذه الشخصيات النوبية العربية هو وسيلة للفت الأنظار ، وهذا هو الأرجح في نظرنا . فقد تعمد كاتب هذه الأقصوصة - وهي الأولى والأخيرة - أن يلفت أنظار القراء بهذه الأسماء الأجنبية وهذا الجو الغامض والمسلك العجيب لشخصياته . ويمكننا أن نرجح كذلك أنها تشبه بجوها هذا إحدى القصص الفرعونية أو أن فكرتها مأخوذة من قصة فرعونية . ويحتمل أن تكون القصة رمزية ، ولكننا لم نعثر على ما يمكننا من حل هذه الرموز .

ولم أتمكن على الاطلاق من العثور على معلومات مفصلة عن الممثل ميلكوفيتش يمكنها أن تلقى مزيدا من الضوء على نشاطه الأدبي . ، ومن هنا يمكن الافتراض بأن ميلكوفيتش لم يكرر هذه المحاولة غير الناجحة بسبب ضعف قدراته وإمكانياته الأدبية . وهذه الأقصوصة التي بين أيدينا هي - فيما يبدو - الدليل الوحيد الذي لا يقبل الجدل بالنسبة لهذا الافتراض .

« المولى محمد »

الأديب اليوغوسلافي نيكو بيساروفيتش عاشق الحكايات الشعبية بدأ نشاطه الأدبي بتسجيل القصائد والمؤلفات الشعبية ، وبعد ذلك نشر عدة قصص من حياة منطقة البوسنا بيوغسلافيا : أولا قصة « المولى محمد في عام ١٨٨٧ ثم قصة « عارف الوزير الكبير » وقصة « حورية من الجنة » .

ويمكن أن نوجز فكرة قصتنا في أن المولى محمدا كان يعمل في ترقيع الملابس بسرايفو . وقد تزوج سبع مرات ، وتوفيت ثلاث من زوجاته وطلق أربعا منهن . وأقنعه جيرانه بأن يتزوج للمرة الثامنة . وكانوا يمدحون له ابنة لرجل عجوز كانت تعرف نقش الأغصان على النحاس وتكسب بذلك في اليوم خمس جروشات » . وفي اليوم التالي للزفاف لاحظ أن زوجته سوداء كالعربية . وقد كانت بالفعل امرأة عربية نشيطة ، إلا أنها تعرفت على امرأة سيئة كانت تدفعها إلى عمل كل شيء ، وتحت تأثير هذه المرأة السيئة أرادت المرأة العربية أن تذبح زوجها ، ولذا فان القاضي حكم عليها بالسجن ستة شهور .

ومما لا ريب فيه أن المؤلف هنا صور هذه المرأة العربية تحت تأثير الحكايات الشعبية التي كانت الشخصيات العربية تظهر فيها أيضا . ولذا سنفرد لها - مستقبلا - دراسة خاصة . وفي بداية القصة وصفها بأنها سوداء كالعربية ، وهذه المقارنة كثيرا ما تظهر في الابداع الشعبي . وهو بذلك يرسم ملامحها ، فالمرأة العربية في قصته « ضخمة وطويلة وأصابعها طويلة وكأنها بعبع ، وشعرها أجعد وقصير وفمها منفصل كما في أنثى الفرس » [٦٤] انه وصف غريب أشبه بالخيال وهذا يقودنا إلى التقرير بأن الغرابة والخيال هي أجزاء لا تتجزأ من هذه القصة ، وهي بذلك تتشابه مع الحكايات الشعبية الخيالية التي ينبغي أن نبحث فيها عن جذور هذا الرأي الغريب للمؤلف فيمايتعلق بالنساء العربيات . وكأن كاتبنا هذا قد رسم صورة كاريكاتيرية للمرأة العربية ، أي أنها صورة مبالغ فيها ، ولا شك أنها صورة ساذجة تعبر عن ضيق الأفق .

وكما كان راوي الحكايات الشعبية يفعل عند سرده لأية قصة فقد كان المؤلف يركز هنا في هذه الأقصوصة على سواد المرأة العربية . وقبل الزفاف رأى المولى محمد في حلمه « أن رجلا حطم على رأسه سبع بيضات والبيضة الثامنة كانت سوداء كالزفت » ، وعند لعبه

---

(٦٤) مجلة حورية البوسنا (بوسانسكا فيلا) ، ١٨٨٧ ، ص ١٣٠ .

بأوراق اللعب كان لا يحصل إلا على الآس الأسود أو الثمانية السوداء . وهكذا نرى أن السواد هنا قد أصبح رمزا ، الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن تصور المؤلف عن النسوة العربيات مختلط ببعض عناصر المعتقدات الشعبية القديمة ومختلط بالتراث الروحي القديم وببعض المعارف الواقعية . وكل هذا يبين ويؤكد لنا إلى أي مدى كان المؤلف متأثرا بالأدب الشعبي عند كتابته لهذه القصة . وبالرغم من هذا كله فلا نستبعد أن يكون لهذه القصة أساس واقعي .

« حورية من الجنة »

هذه القصة هى من أفضل ما ألف نيكوبيساروفيتش ، وهى قصة لها نغمة عاطفية ، فكرتها مأخوذة من قصيدة شعبية معروفة [٦٥] . وتروى لنا هذه القصة أن زوجة « بيجو » الأولى توفيت وذهبت الى الجنة وأصبحت حورية فيها ، وفى ليلة من الليالى رأى « بيجو » فى منامه أن أنكا زوجته المتوفاة تأمره بأن يذهب الى الكعبة وأن يوزع على الفقراء أكبر كمية من المال ، لأنه ليس حتى الآن أهلا للجنة . وأدرك بيجو أنه لم يكن يحسن معاملة أنكا زوجته الأولى لأنه لم يكن يسوى بينها وبين زوجته الثانية . وبالفعل ذهب بيجو الى الحج ولكن إثر عودته من الكعبة أصيب بالمرض وتوفى بعد بضعة شهور . وفى الجنة أعادت الملائكة عقد قرانه على أنكا .

وتصور لنا القصة البيئة الاسلامية فى البوسنا بأسلوب واقعى . ومن المعروف أن الأديب اليوغسلافى من البوسنا نيكو بيساروفيتش علم نفسه بنفسه فى مجال الأدب وكان يحاكى فى أسلوب كتابته للقصص أسلوب الحكايات الشعبية اليوغسلافية . وكان يكتب أولا وقبل كل شىء لجمهوره الصغير المحدود فى البوسنا سرايفو وعلى الأخص لجمهور المدن الذى يعرف مزاجه معرفة جيدة . ورغم أن أسلوبه كان بعيدا عن أية مدرسة واقعية أدبية الا أن المؤلف استطاع من خلال تصوره للبيئة القديمة فى سرايفو ، لا أن يضيف المزيد من الواقعية التى أعرب عنها بتنوع لغته فحسب ، بل أن يضيف موضوعات معينة من الحياة العائلية الخاصة ببيئة المسلمين فى البوسنا[٦٦] .

وفيما عدا ذلك فمن المعروف أن المؤلف كان يجمع المؤلفات الشعبية بجميع أجناسها وعلم نفسه بنفسه عن طريق القراءة واكتسب كذلك نوعا من الثقافة الأدبية ، وفيما بعد وصل بجهده الخاص الى مستوى طيب ، وتعلم بمفرده اللغة التركية قراءة وكتابة ولغة حديث . وحينما جرى إصدار مجلة « حورية البوسنا » اشترك مع مجموعة محرريها ، وكانت الموضوعات التى تنشرها هذه المجلة ترتبط بالتراث الشعبى الاسلامى الخاص بمنطقة البوسنا والهرسك وكانت متأثرة بالموجة المتأخرة من الرومانسية وتعمل على ايقاظ الشعب ثقافيا بلغة شعبية نقية » [٦٧] .

« الملك فلاديمير دوكليانسكى »

يؤكد فولفاج كايزر فى كتابه « العمل الفنى اللغوى » أنه يوجد فى تاريخ الأدب الألمانى فصل خاص عن « روايات الأساتذة » يجرى فيه الحديث عن أساتذة الجامعات الذين يكتبون الروايات وكان عددهم ليس بالقليل[٦٨] . ويبدو أن الأديب اليوغسلافى ستيفان سريماتس ، وكان يكتب تحت اسم مستعار وهو « سيتنشانين » ، بقصصه التاريخى الذى كان يعتمد فيه على التراث الشعبى تمثل فى كتابته بهؤلاء الأساتذة الذين يكتبون الروايات . ومن المفيد أن نضيف أن التراث الشعبي عنصر هام للغاية للحفاظ على الوعى القومى وتنميته لدى جميع الشعوب ، وهو الوعى القومى الذى

---

(٦٥) يوفان كرشيتش ، « مقالات مختارة » ، سرايفو ١٩٥٢ ، ص ٢١٧ .
(٦٦) المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(٦٧) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .
(٦٨) فولفانج كايزر ، « العمل اللغوي الفني » ، بلغراد ١٩٧٣ ، ص ٦٠ .

تم الحفاظ على استقلاله عبر عديد من القرون . ويستخدم التراث الشعبي عبر فترات التاريخ والتغيرات المختلفة كوسيلة قوية للحفاظ على الاستقلال السياسى والقومى ، وفى نفس الوقت يعد هذا التراث هو المصدر الوحيد تقريبا للمعرفة الفريدة بالحياة الشعبية المتعددة الجوانب(٦٩) .

وسريماتس فى هذه القصة التى بين أيدينا ، يحاول ، بأسلوب حيوى ، أن يرسم صورة رائعة لهذه المأساة التقليدية الطريفة التى عاش فيها الملك دوكليان وترعرع وأنهى فيها حياته أيضا . انها قصة عن الحب الحزين الكئيب بين الملك فلاديمير دوكليان وبين كوسارا ابنة صمويل . والمهم بالنسبة لبحثنا هذا أنه يجرى الحديث فى هذه القصة عن الشرقيين ، وهو تعبير يطلق على العرب والمسلمين بوجه عام (٧٠) . وقد أرادوا الاستيلاء على الامبراطورية فى آسيا وعلى قبر المسيح فى الشرق . والأمر الذى يميز بشكل خاص هذه الأقصوصة لسريماتس هو « أنها ليست قصة خيالية مبتدعة عن ماضى منطقة صربيا بل ان المؤلف اقتبس كل هيكل القصة من حقائق تاريخية ثابتة »(٧١) .

وعبر سطور القصة يتلألأ كقطع الكريستال سيل جارف من التعبيرات الشاعرية والمقارنات ، وهى تذكرنا الى حد ما بمأساة شكسبير المشهورة « روميو وجوليت » (٧٢) . وهذه الأقصوصة بعناصرها الشاعرية تقترب من روايات الكاتب الانجليزى والترسكوت رائد الروايات التاريخية (٧٣) .

وقد نوهنا فيما سبق الى أن من بين ما ركزت عليه الرومانسية هو تقديس الماضى . وعن طريق تعظيم الماضى العريق وتمجيده يتم توليد وخلق ايمان بمستقبل أفضل (٧٤) . ومثل هذه الأفكار للرومانسية الألمانية فى العشرينيات وفى الثلاثينيات من القرن الماضى انتقلت أيضا عند الصرب بحيث ان الأدب الصربى ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان مفعما بالموضوعات التاريخية ، وقد أتت الرومانسية لدى الصرب لكى تدعم فحسب تقليدا شعبيا وعادة أدبية عامة موجودة من قبل(٧٥) .

وعلى هذا النحو ظهر الشرقيون أو العرب فى هذه الأقصوصة . لقد كان الرومانسى ستيفان سريماتس وفيا غاية الوفاء لفكرة الرومانسية ، وكان يحب حبا جما ماضى بنى وطنه ، ولذا فقد كتب هذه الأقصوصة التاريخية التى يظهر فيها العرب فى دورهم التاريخى والطبيعى . ومن المستصوب أن نضيف هنا أن التاريخ فى هذه القصة اختلط بالشعر ولكنه كان كان مخصصا للتربية القومية(٧٦) كما سنبين فيما يلى .

« الدوق الكبير تشاسلاف »

هذه القصة الثانية لسريماتس نشرت أيضا فى مجلة

---

(٦٩) جورج بلينيتش ، « من كتاب القدماء » ، الجزء الثاني ، مجلة ديلو رقم ٣٤ ، ١٩٠٥ ، ص١٣٤ .

(٧٠) في هذا المضمار يقول د . ابراهيم علي طرخان في كتابه « المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى » ص٢٥ «أن الاجانب لم يقتصروا على استعمال كلمة عرب للدلالة على العرب وعلى المسلمين بعد ذلك ، بل أطلقوا أيضا كلمة « سراكيني » للدلالة على العرب والمسلمين . وقد أراد اليونان والرومان بهذه الكلمة القبائل العربية المقيمة على حدود الامبراطورية الرومانية في بادية الشام والأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، وفي شبة جزيرة سيناء . وكانت هذه القبائل كثيرة الاغارة على حدود الامبراطورية . غير أن اليونان والرومان لم يكونوا مبتدعين لهذا المصطلح ، وانما نقلوه عن العبرانيين ، فهم الذين استخدموه وأطلقوه على القبائل الاسماعيلية ـ نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ـ المقيمة في شرق فلسطين والشام ، وكانت هذه القبائل تحيا حياة بدوية . ويعدد المؤلف اشتقاقات المصطلح واحتمالات أصله ولكنه في النهاية يرجح أن كلمة سراكيني تصحيف لكلمة شرقيين . (ص ٢٧٠) .

(٧١) جورج بلينيتش ، « من كتاب القدماء » الجزء الثاني ، مجلة ديلو رقم ١٩٠٥،٣٤ ، ص١٣٦ .

(٧٢) ميلي بوبوفيتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، بلغراد ١٩٣٧ ، ص٦٨ .

(٧٣) جورج بلينيتش ، « من كتاب القدماء » ، ص١٣٥ .

(٧٤) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص١٥٢ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص١٥٣ .

(٧٦) يوفان سكرليتش ، « دراسات » ، الجزء الأول ، نوفي ساد ـ بلغراد ١٩٦١ ، ص ٣٦٠ .

« حورية البوسنا » مثل القصة الأولى . وهى تحكى أن القيصر البلغارى « سيمون » نادى باتحاد مع حاكم القيروان الخليفة « مظلوم » لكى يهاجما القسطنطينية المتباهية . ولكنهما لم يفلحا فى ذلك لأن البيزنطيين أمسكوا فى عرض البحر برسل القيروان وألقوا بهم فى عرض البحر . ويحاول الكاتب فى قصته هذه أن يخرج بدرس مستفاد وهو أن الله والقدر موجودان لكي يحافظا على المثاليات وعلى العدالة .

وعبر سطور هذه القصة يجرى حديث طويل عن الشرقيين أى العرب وعن هجماتهم المنطلقة من بحر السين . وهؤلاء العرب حسب كلام الكاتب شجعان وحكماء ، وبحكمتهم أصبحوا على قدر كبير من القوة[٧٧] ، كما أنهم لا يحبون الهدوء والسكينة[٧٨] . وفى بعض الأحيان يصفهم بأنهم قراصنة متوحشون وبما هو أسوأ من ذلك .

ويتجلى على أوضح وجه فى هذه القصة الارتباط ، الذى لا ريب فيه على الاطلاق ، بين التاريخ الحقيقى وبين الأدب الجميل ، ذلك لأن الخيال الحر والأسلوب الأدبى فى عرض القصة اذا انضما الى الهيكل المأخوذ من حقائق التاريخ فبامكانهم جميعا أن يقدموا لنا صورة حية لفترة تاريخية سابقة أو لحدث مشهور[٧٩] . ويمكن أن نلحظ بسهولة فى كلتا قصتى سريماتس اتجاها محددا ، وهو السمو بماضى الشعب وبعظمائه وتمجيدهم . ويجرى هنا تصوير الماضى بشكل شاعرى وبألوان براقة أكثر مما يفعله التاريخ نفسه . ويعتقد الناقد اليوغسلافى بافلى بوبوفيتش أن طابع وموضوع وأسلوب معالجة وعرض هاتين القصتين يذكرنا بشىء مماثل لدى يوفان جورجيفيتش[٨٠] وهو خال المؤلف ، ويبين أن ابن الأخت قد وجد نموذج كتابة مثل هذه القصص لدى خاله[٨١] .

ولا ينبغى أن نغفل أن مثل هذه القصص التاريخية للأديب اليوغسلافى ستيفان سريماتس قد وجدت كبار المعجبين المتحمسين لها . ويؤكد الناقد لوبومير نيديتش أن القصص المذكورة والتى نشرت فيها بعد فى كتاب يحمل عنوان « من كتب القدماء » هو مؤلف سيعمر لفترة طويلة بعد سريماتس[٨٢] . وحسب اعتراف رئيس تحرير مجلة « حورية البوسنا » نيكولا كاشيكوفيتش فقد كان القراء أنفسهم فى طول البوسنا والهرسك وعرضها يمتدحون هذه القصص مدحا عظيما وكأنها القصص الوحيدة التى تعجب القراء[٨٣] . وهاتان القصتان المذكورتان تعجبان الناقد اليوغسلافى جورج يلينيتش أكثر من قصصه التى تعالج موضوعات عصرية[٨٤] . وكان سريماتس يضع كثيرا من الآمال على هذا القصص التاريخي ولذا فانه ألفه بعناية فائقة وبضمير ووعى ، وأضاف عليها من أحاسيسه الشاعرية ورومانسيته ولكنه راعى ألا تنتقص أو تشوه الحقائق التاريخية .

وهناك رأى آخر يقول ان سريماتس وهو يكتب هذه القصص كان له علاوة على الالهامات الشاعرية هدف تعليمى عملى مباشر . فباعتباره مدرسا للتاريخ أدرك جفاف الحقائق والمعلومات التاريخية التى تشتمل عليها كتب التاريخ ولذا بدأ بخياله المبدع أن يحيى مادتها ويكملها[٨٥] . إلا أن الناقد اليوغسلافى يوفان

---

(٧٧) مجلة حورية البوسنا ١٨٩٨ ، ص ١٠١ .
(٧٨) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .
(٧٩) جورج يلينيتش ، « من كتاب القدماء » ، ص ١٣٦ .
(٨٠) يوفان جورجيفيتش (١٨٢٦ ـ ١٩٠٠) أديب يوغسلافي اشترك في تحرير ورئاسة تحرير عديد من المجلات اليوغسلافية وكان مدرسا للتاريخ العام في المدرسة العليا في بلغراد ونظرا لانه خال ستيفان سريماتس فقد أثر عليه تأثيرا كبيرا .
(٨١) ميلي بوبوفيتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، ص ٢٨ .
(٨٢) يوفان سكرليتش ، « دراسات » ، الجزء الأول ، ص ٣٦١ .
(٨٣) ميلي بوبوفيتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، ص ٧١ .
(٨٤) من كتاب القدماء ، ص ١٣٦ .
(٨٥) ميهايلوجور جيفيتش ، « سريماتس كمؤرخ » ، مجلة العلم المصري ، رقم ١٨٣ ، ١٩٠٦ ، ص ٢ .

سكرليتش يعتقد أن هذا القصص التاريخي لم يكن تاريخا ولا أدبا ، فبالنسبة للتاريخ لم يكن قائما على أسلوب علمي بالدرجة الكافية ولم يكن مؤسسا على الحقائق وعلى المعرفة بتفاصيل العصر الذي يتم وصفه . وبالنسبة للأدب فان هذه القصص لم تكن أدبية بدرجة كافية لأن سريماتس لم يكن يمتلك الكثير من الخيال ومن الحساسية بل كان يحصر نفسه في الاستطرادات البلاغية المتحيزة ، وفي الحزن المصطنع ، وفي الصبغة المحلية السطحية الشاحبة ، وفي المؤثرات السهلة بالعبارات وبالكلمات الرنانة(٨٦) .

ومن المؤكد أن من بين الأسباب التي دعت ستيفان سريماتس الى كتابة هاتين القصتين التاريخيتين وأمثالهما من القصص التاريخية(٨٧) : تأثير الرومانسية عليه ، فقد كانت تشدد على تقديس التاريخ الماضي . وكان هذا النوع من القصص مجالا للتغني بالوطنية الى جانب عرض القضايا الاجتماعية ، وكان له تأثير في دراسة التاريخ دراسة جديدة فكان جنسا أدبيا ذا طابع ذاتي(٨٨) . وكانت هناك أيضا بعض الظروف المحلية المساعدة على ذلك فلم يكن الصرب الذين عانوا من الاستعباد والاحتلال - يملكون شيئا في حاضرهم ولذا وجهوا عيونهم الى أيام الماضي يبحثون فيها عن العزاء في مواجهة بؤس وخزي الحاضر ، وكان هذا الماضي يمنحهم الدافع والحافز في كفاحهم ومعاركهم ويهبهم الأمل في مستقبل أفضل (٨٩) .

واذا نقبنا في حياة ستيفان سريماتس (١٨٥٥ - ١٩٠٦ م) بحثا عن بعض الجوانب في حياته التي يمكنها أن تقدم لنا مبررات أكثر لظهور شخصية العربي او الشرقي في قصصه ، فيمكننا أن نضيف أنه درس دراسات لغوية وتاريخية في المدرسة العليا ببلغراد وبعدها أصبح مدرسا في المدارس بمدن نيش وبيروتا وبلغراد . وكما نرى فقد قادته مهنته الى مدينة نيش ، وهي في ذلك الحين مدينة صغيرة تشعر فيها بروح الشرق وبرائحة العصر التركي وبنكهة النظام العتيق . وبالنسبة له - وهو الرومانسي القومي التقليدي - كان لا بد أن يعجبه هذا الشرق الفاتن غير المألوف . وقد عاش سريماتس في نيش أكثر من عشر سنوات، وتشبع بشذا المدينة المتميزة في جنوب صربيا وتأمل وسجل التفاصيل والأحداث من حياة هذه المدينة (٩٠) . هذا علاوة على أننا نجد في قصصه صورة للتراث الشعبي وأساطيره وينعكس هذا أكثر في استخدامه الغزير للرموز والتشبيهات والمجازات وأساليب الأدب الشعبي بوجه عام .

« رحلة الى سيناء »

في عام ١٨٨٨ بالقاهرة كتب الحاج سافاكوسانوفيتش قصته هذه - التي وصف فيها رحلته الى جبل الطور بسيناء وكتب فيها أيضا بعض ذكرياته وانطباعاته وتجاربه أثناء السفر . وفي هذه القصة توجد شخصيات عربية كثيرة كتب عنها المؤلف . ومن المهم هنا أن نذكر أنه كان لدى الحاج سافا تصور مسبق عن مصر وعن أحوالها الجوية ، فهو يعرف أن الثلج لا يسقط على الاطلاق في القاهرة وأن الأمطار تسقط مرة أو ثلاث مرات على الأكثر على مدار العام ، وأثناء الشتاء تدفئك شمسها الساطعة الجميلة، وفي الربيع تزدهر الورود والفواكه والزهور الأخرى(٩١) . وهو يعرف كذلك شيئا عن تاريخ الأسكندرية التي - كما يقول المؤلف - أنشاها الاسكندر الأكبر المقدوني في حوالي ٣٣٣ ق . م وأنه مع

---

(٨٦) يوفان سكرليتش ، « دراسات » ، ص ٣٦٢ .

(٨٧) للمؤلف قصة تاريخية اخرى بعنوان « راشكو » ذكر فيها الشرقيين أى العرب والمسلمين ذكرا ثانويا .

(٨٨) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ١٦٨ .

(٨٩) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ١٥٣ .

(٩٠) ديمترى فوتشينوف ، « الأدباء الواقعيون الصرب ومن سبقوهم » ، بلغراد ١٩٧٠ ، ص ٢١٢ .

(٩١) حاج سافاكوسانوفيتش ، « رحلة الى سيناء » ، سراييفو ١٨٨٨ ، ص ٨ .

مصر قد عبرها كثير من الغزاة من السوريين والأثيوبيين والفارسيين واليونان والرومان والأتراك والعرب ، وفي الفترة الاخيرة احتلها الفرنسيون والانجليز(٩٢) . وفي بعض الأحيان نحصل على انطباع بأن مؤلف هذه القصة قد درس بالتفصيل تاريخ الاسكندرية فهو يعرف أنها ميناء هام ونقطة حيوية بالنسبة للتجارة لتوسطها بين الشرق وأوروبا وكذلك الهند خاصة اذا تم ربطها بالسكك الحديدية بالسويس على البحر الأحمر(٩٣) .

الا أن معرفته ليس موثوقا بها وليست صحيحة من الناحية التاريخية على الدوام فهو ينسب الى أتباع النبي محمد (صلعم) حرقهم لمكتبة الأسكندرية وأنهم كانوا يستخدمون كتبها وقودا للتدفئة بدلا من الفحم (٩٤) وقد بينا من قبل عدم صحة هذه المعلومة .

وكان للمؤلف أسلوب متميز فبمجرد وصوله الى مكان من الأماكن كان يصفه ويتحدث بعض الشيء عن تاريخه وعن آثاره الثقافية . وحكايات المؤلف مكتظة بالمعلومات القيمة عن العرب وعلى الأخص أولئك الذين يعيشون في مصر . أما خلال رحلة الكاتب الى سيناء فقد كان يرافقه مرشد عربي اسمه عيد كان يهتم بشؤ ون الحمار وكان يسير أمامه ويحمل له العصا ويعلق في وسطه مصباحا ويحمل كذلك سيفا عريضا قصيرا معلقا بالحزام ، وهو سيف حاد كالحية . وهكذا كان العرب الآخرون يتسلحون .

وكان المؤلف يتفاهم مع عيد في الأغلب بالاشارات وببعض الكلمات ، لأن عيدا بمرافقته للرهبان تعلم بعض الكلمات اليونانية القديمة ، وحفظ الحاج سافا بعضا من الكلمات العربية واليونانية القديمة كذلك . وبعد أن قتل عيد إحدى الحيات السامة يحكي المؤلف بعض انطباعاته وحكاياته عن الحيات .

وأخيرا وصلا الى الجنة أي الى جبل الطور بسيناء حيث توجد كنيسة رائعة مزينة بالذهب والفضة تجعل كل شيء فيها يثير اعجابك . وفي الكنيسة وحولها كان يوجد الكثير من العرب الذين يعدون من أمهر الصيادين ، وما عليك إلا أن تقول لهم كلمة واحدة فيتفرقون إلى أماكن يعرفونها ويعودون حاملين شمواة أو أرنبا أو حجلا أو طائر السماني .

ويتحدث الكاتب بالتفصيل عن تاريخ هذه الكنيسة والجامع المجاور لها . ومن الطريف أن الكاتب وضع بعض الكتب اليوغسلافية في مكتبة سيناء(٩٥) . ويحدثنا المؤلف عن القبائل العربية التي تعيش في شبه جزيرة سيناء . وبعد أن أنهى المؤلف مراسم حجه الى جبل الطور بسيناء انتقل الى القاهرة التي يقوم بوصفها ووصف سكانها . ومن بين المعلومات الطريفة التي يعرضها المؤلف عن القاهرة هو أنه كان يعيش فيها في ذلك الحين حوالي ٣٢٢ شخصا من اليوغسلاف أغلبهم من الصرب وأهل الجبل الأسود ـ وكذلك من الرومانيين(٩٦) .

وقد جرى هنا تصوير العربي بشكل واقعي بدون أية اضافات ، ولذا فان هذا الكتاب يمثل وثيقة ومستندا غاية في الأهمية في مجاله . وقد كان مؤلف هذا الكتاب مطرانا لمدينة سرايفو وكان أديبا أيضا وكان يشتغل بجمع الأشياء القديمة والكتابات الموجودة على قوائم القبور .

«جريفنا»

في عام ١٨٩١ نشرت مجلة « يافور » أقصوصة جرفنا التي كتبها جورج يوفانوفيتش . وهي قصة تاريخية تتحدث عن الثورة في البوسنا ، وتحكي عن البطلة جريفنا التي كانت تكافح مع أهل وطنها ضد الأتراك .

---

(٩٢) المصدر السابق ، ص١٨ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٩٤) المصدر السابق ، ص١٩ .

(٩٥) يذكر المؤلف أنه وضع في مكتبة سيناء القصة الشعرية « السلاسل الجبلية » للشاعر اليوغسلافي بطرس نيجوش ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٩٦) المصدر السابق ، ص٨٦ .

وكان العربي هنا يعمل خادما لدى درويش باشا الشجاع ، وكان يطيع أوامره فحسب وينفذها وقليلا ما كان يتكلم .

وقد تحدثنا من قبل عن الدور الذي يقوم به مثل هؤلاء العرب في نقل الثقافة العربية الاسلامية ، وفي نشر مختلف الحكايات عن العرب . ومن الملاحظ أن أمثال هؤلاء العرب كانوا على الدوام مرتبطين بشخصيات تركية . وهكذا كانت الحال في قصة « ليلى التي جعلوها مسلمة » . وهذا يدعونا الى الافتراض بأن ظهور العربي في هذه القصة يحتمل أن يكون نتيجة طبيعية لقدوم الأتراك الى يوغسلافيا .

« الخادم الغريب »

لاحظ الباحثون أن عددا كبيرا من قصص الأديب يانكو فيسيلينوفيتش كان مشابها للقصص الشعبية من حيث لهجة السرد ومن حيث اللون والصوت والترنيم ، وبعض منها كان له الهيكل الانشائي للحكاية الشعبية[٩٧]. وهذه الملحوظة تسري أيضا على قصة الأديب يانكو فيسيلينوفيتش « الخادم الغريب » التي نشرتها مجلة « ديلو » عام ١٨٩٥ . ومؤلفها يعترف بنفسه بأنها حكاية شعبية خرافية[٩٨]. وهي تحكي عن تاجر يدعى « يفتا » كان غنيا يملك الكثير من الأموال ، وبالرغم من ذلك فقد كان بخيلا يجمع الذهب ولا يريد أن يعيش كانسان . من أجل هذا فقد تقرر أن تذهب ثروة « يفتا » البخيل إلى « بيرا » القصاب . وكان العربي الأسود يحرس هذه الثروة ورفض أن يلمسها « يفتا » لأنها لم تعد ملكه . وهذا هو ما حدث بالفعل فقد حصل « بيرا » القصاب ذو القلب الطيب على هذه الثروة كما كان مقدرا .

يتضح من هذا الموجز للقصة أن مؤلفها كاتب شعبي بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . وهذا ليس فحسب لأنه يضفي على الأقصوصة الروح الشعبية بل لأنه كان يكتبها في شكل الحكايات الشعبية أيضا . وبداية الأقصوصة تذكرنا بالفعل بالحكاية الشعبية ، والحوار أيضا مشابه لحوار الشعب لأن المؤلف يضفي عليه الصبغة واللهجة الشعبية ويصيغه بمهارة بالغة وبشكل طبيعي بحيث يحصل المرء على انطباع بأن كل كلمة وكل صوت في مكانه . ومن المفيد أن تضيف هنا أن المؤلف قد أخذ فكرة هذه الأقصوصة من فكرة الحكاية الشعبية المسماة « بثروة بكري باشا »[٩٩].

سواد العربي :

وقد ضمن المؤلف في قصته اعتقادا شعبيا قديما بأن الانسان العربي أسود اللون . ونظرا لتكرار هذا الوصف في كثير من القصص فانه يحتاج إلى وقفة وتمعن . لقد كان يوجد بالمعتقدات القديمة للسلاف الجنوبيين ـ وهم أسلاف اليوغسلاف الحاليين ـ صراع بين الاله الأسود والاله الأبيض[١٠٠] وقد انعكس هذا الصراع في عديد من القصص الشعبية . وبعدها اكتشف السلاف أن هناك عربا سود البشرة . ويبدو أن هذا الاكتشاف كان صدمة لهم . وقد ازداد عدد العرب السود منذ أن بدأ اختلاط مسلمي افريقيا والبربر بالعرب ، ومن المرجح أن السلاف الجنوبيين عرفوا عربا سودا أكثر من معرفتهم للعرب غير السود وذلك خلال التعارف التاريخي بين العرب والسلاف الجنوبيين[١٠١] في المعارك التي جرت بين العرب والبيزنطيين . كما أن للعباسيين دورا خاصا هنا ببشرتهم السوداء وكذلك بعباءتهم السوداء . وقد انطبع لونهم وشكلهم في ذهن السلاف الجنوبيين وذلك

---

(٩٧) الأدباء الواقعيون الصرب ، ص ١٤ .

(٩٨) مجلة ديلو ، ١٨٩٥ ص ١٩٩ .

(٩٩) مجلة « حورية البوسنا » رقم ١٩ ، ١٩٠٠ ، ص ٢٦٨ وما بعدها .

(١٠٠) فيسيلين تشايكانوفيتش ، « الاسطورة والدين عند الصرب » ، بلغراد ١٩٧٣ ، ص ٣٥١ .

(١٠١) لكاتب هذه السطور دراسة مفصلة عن العلاقات بين العرب والسلاف الجنوبيين عبر التاريخ ستنشر في فرصة لاحقة وقد أوجزناها في نهاية هذه الدراسة .

علاوة على التأثير المحتمل لقصص البطولات الشعبية العربية التي يقوم ببطولتها عرب سود البشرة مثل عنترة ابن شداد والظاهر بيبرس . واختلط كل هذا بمختلف الأفكار الخاطئة المتعلقة بالمصائب التي يجلبها اللون الأسود والخرافات المتعلقة بهذا اللون . ومما لا ريب فيه أن تصور وانطباع السلاف الجنوبيين عن العرب اختلط ببعض عناصر المعتقدات والتراث الروحي والواقع الحقيقي .

وقد كانت هذه الصفة تستخدم في الأدب الشعبي فحسب . واستخدام المؤلف لنفس هذه الصفة يقرب قصته من الحكايات الشعبية . وفي هذا المضمار يعترف المؤلف نفسه بأن للفن الشعبي تأثيرا عظيما على تطور نشاطه الروائي ويعترف كذلك بأنه بدأ الكتابة متمثلا ومحتذيا بالحكاية الشعبية باعادته سرد أفكارها ومراعيا أن يكون صادقا في التعبير عن لهجتها ولغتها(١٠٢) . وزيادة في الايضاح نضيف أن للمؤلف في حياته ثلاثة معلمين وهم : الشعر الشعبي وخادمه الخاص (نيكولا) وجدته « بويانا » . أما الشعر الشعبي فقد منحه الالهام والخيال . وكان خادمه الخاص الذي زار عديدا من البلاد يحكي للمؤلف حكايات كثيرة عن هذه البلاد . ومن جدته « بويانا » تعلم المؤلف كثيرا من الحكايات الشعبية التي لا تنسى(١٠٣) . وعند كتابته لأول قصصه كان المؤلف يجتهد في أن يفعل ذلك كما يفعله الشعب وكما سمعه من فم جدته . هذا علاوة على أنه تعلم تعليما جيدا في مدرسة الشعب ، ففي خلال فترة قيامه بالتدريس حمل في قلبه أقوى الانطباعات من حياة الشعب وكان هذا هو مصدر هذه الحكاية وغيرها من الحكايات الاخرى .(١٠٤)

« الصوم الكبير »

هذه القصة القصيرة لمؤلفها ياشاتوميتش والمنشورة في مجلة « ديلو » عام ١٨٩٦ هي في الحقيقة جزء من رواية طويلة بعنوان « الناصريون » وتحكي عن « بوريفوي » الذي أنقذ أحد الرهبان ، فحدثه الأخير عن بيت المقدس وعن تلك العجائب التي تحدث هناك وقص عليه الراهب كيف أن أعدادا غفيرة من الناس تذهب إلى هناك لكي يريحوا أنفسهم ويتقبلوا الغفران لذنوبهم . ومنذ ذلك الحين ازداد إهتمام بوريفوي بالقدس إلى أن أعلن هو و « سيما » بائع الخبز أنهما يريدان أن يريحا أنفسهما وأن يذهبا إلى القدس وأن يأكلا خبز البركة هناك . وقبل ذلك يريد كل منهما أن يستعد استعدادا لائقا لهذا الغفران ويصوم أكبر صوم للحج وهو ثلاث سنوات متواصلة . إلا أن « سيما » بائع الخبز لم يتحمل الصيام وبعد ستة شهور أقلع عنه ، وأخذ يدافع عن نفسه أمام الناس بأنه لم يستطع أن يتحمل اختبارات الشيطان الذي كان يأتي له كل ليلة . أما « بوريفوي » فلم يستسلم إلى أن ظهر له الشيطان الذي كان من بين ما وسوس له به أن زوجته تخونه . ولم يستطع « بوريفوي » أن يتحمل أكثر من ذلك وقتل زوجته انتقاما لشرفه الذي لم يمس على الاطلاق ، وبدلا من أن يذهب إلى القدس ذهب لقضاء عقوبة الأشغال الشاقة .

وفي هذه القصة تدور جميع الأحداث حول مدينة القدس التي ـ فيما يبدو ـ لا يعرف عنها المؤلف معلومات كثيرة ، فعلى سبيل المثال لا يعرف عن الطريق المؤدي إليها إلا أنه يمر عبر ممالك وصحارى ومدن وبحار(١٠٥) . ومن الطريف أن رواية « الناصريون » مكتوبة كلها في السجن(١٠٦) . والكاتب هنا لم يؤلف روايته حسب مبدأ الفن للفن بل حسب مبدأ الفن من أجل الأفكار . وذكره هنا للأماكن العربية الدينية مرتبط أساسا بالفكرة الدينية التربوية لروايته .

(١٠٢) يوفان سكرليتش ، « أدباء وكتب » ، الجزء الثاني ، بلغراد ١٩٣٢ ، ص ١١٠

(١٠٣) ستيفان بيليتشا ، « ياتكوفيسليتوفيتش حياته ومؤلفاته » ، بلغراد ، ص ×١× ـ ××

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ١١١× .

(١٠٥) ياشاتوميتش ، « الناصريون » ، نوفي ساد ١٨٩٦ ، ص ٢٧ .

(١٠٦) فلاستوي الكسيفيتش ، « تاريخ حياة ياشاتوميتش » ، بلغراد ١٩٣٨ ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

ويـاشـاتـوميتش (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢م) اشتغـل بالصحافة والسياسة وبالأدب،وقد درس الطب والأدب في فيينـا وبراج ، ولكن شغله بـالسياسـة أبعـده عن الدراسة . ومعظم أعمالـه الأدبية تمثـل محاولـة القيام بمعالجة أدبية لموضوعات سياسية لها مضمون اشتراكي في البداية ثم مضمون راديكالي برجوازي فيها بعد . ومن المحتمل تأثره بالرومانسية من ناحية اهتمامها بالشرق .

« ماركو يلغي جزية الزواج »

من المعروف أن الأدب الحقيقي لكل شعب هو مرآة لحياته وصدى لمشاعره وموقظا للأفكار العظيمة ، ونظرا لأن منطقة الجبل الأسود بيوغسلافيا ثرية جدا بـالشعر الشعبي وبالمؤلفات الشعبيـة بوجـه عام فلم يكن من العجيب أن مجلاتها في ذلـك الحين كـانت تفسح عـلى صفحـاتهـا مكـانـا لنشـر هـذه الأجنـاس من الأدب الشعبي (١٠٧).

وعلى صفحات مجلة « الشعلة » التي تصدر في مدينة تستينيا بمنطقة الجبل الأسود وفي عددهـا لعام ١٨٩٦م نجد محاولة لتأليف مسرحية أخذت فكرتهـا من الشعر الشعبي ، فقد كتب المؤلف « يوفو توتا » مسرحية من فصلين تقوم في أساسها على نفس فكرة القصيدة الشعبية التي تحمل عنوان « ماركو يلغي جزية الزواج » .

ويركز الكاتب في مسرحيته هذه على أن عربيا اشترى منطقة كوسوفو من السلطان التركي بايزيد ، وقد منحه هذا حقا في أن يفرض قانونا وحشيا صارما على الصربي البائس . وقوة العربي وظلمه هنا أكثر بروزا وجلاء منها في القصيـدة أو الحكايـة الشعبية اللتين تحملان نفس العنوان . ونظرا لأن العربي كان ـ على نحو مـا ـ ممثلا للسلطة التركية ، فقد كان الشعب يكرهه كما كان يكره الأتراك ، ومن هنا تـأتي العداوة الشـديدة ، والخـوف المريع من العربي الذي كان ينشر الهلع والفزع بطغيانه وجبروته .

ولقد كان سكـان منطقـة الجبل الأسـود هـم الجنود المتأهبون على الدوام في الكفاح الدامي ضد الأتراك من أجل حريتهم واستقلالهم ، ولذا فان قصائـد البطولـة ازدادت وفرة وخصوبة في ذلك الحين . وبناء عليه فان المؤلف « يـوفو تـوتا » لم يختر بمحض الصـدفـة هـذا الموضوع الخاص بالغـاء جزيـة الزواج لكي يضعـه في قالب مسرحي ، بل أراد أن يقدم بأسلوبه مثالا نموذجيا للطريقة التي يتم بها تأليف عمل أدبي جديد على أساس شعبي ـ أي قائم على فكرة مأخوذة من القصائد الشعبية أو من الأدب الشعبي بـوجه عـام . إلا أنـه ليس من المفهوم على الاطلاق تجاهل النقاد في ذلك الحين ـ بل وحتى النقاد فيها بعـد ـ وعدم تقـويمهم لهذه المسـرحية الدرامية رغم أنها كانت تمثل محاولة فريدة في نوعها وفي مجالها .

وحسب ما كُتب عن مجلة « الشعلة » التي نشرت هذه المسرحية الدرامية يمكن أن نستنتج أن هذه المسرحية لم تحظ بالنقد الحقيقي المطلوب (١٠٨). وبغض النظر عن كل هذا فقد نجح المؤلف في أن يكون كاتبا مسرحيـا جيدا وأن يحقق فكرته الرومانسية بتأليف مسرحية درامية على أساس فكرة مأخوذة من القصائد الشعبية .

« بلا هدف »

كاتبا هـذه الروايـة قدمـا في حينهما عـددا كبيرا من القصص المرتبطة بمنطقة البوسنا والهرسك . وفي هـذه القصص كان الكاتبان ، عثمان ـ عزيز ، لا يحـاولان إحياء بقايا الأساليب الرومانسية ، بل حاولا أن يتحدثا بأعلى صوت لقدراتهما على إصلاح بيئتهما . وهكذا كانت أيضا روايتهما « بلا هدف » التي شرحا فيها على ما يقرب

(١٠٧) تريفون جوكيتش ، « عرض للنشاط الأدبي لمنطقة الجبل الأسود » ، تستينيا ١٩٥١ ، ص ٨٦ .

(١٠٨) دوشان فوكسان ، « عرض للصحافة في منطقة الجبل الأسود من ١٨٣٤ وحتى ١٩٣٤ » ، تستينيا ١٩٣٤ ، ص ٧٣ .

من مائتي صفحة الفكرة الأساسية التالية · لا يمكن تقديم أية مساعدة على الاطلاق إلى الجيل الأول من الشباب الحالي ، لأن جذوره وأعماقه أصابها الفساد ولن تنبت منها بعد ذلك أية نباتات فيها حياة ، ولكن لا يأس مع الحياة فلديهما حل للمشكلة وهو أنه علاوة على التطبيق السليم للاسلام ـ الذي حسب رأي الكاتبين لم يتفقه فيه العلماء بالدرجة الكافية ـ لابد ألا يُقبل من الثقافة الغربية إلا كل ما هو طيب وجيد . وهذا الحل وحده يمكن أن ينقذ مسلمي البوسنا والهرسك .

وفي ذكرهما لمبررات هذه الفكرة الأساسية كان لابد للكاتبين أن يتحدثا عن العرب وعن ثقافتهم وحضارتهم . فتحكي لنا الرواية على سبيل المثال أن البطل قد التحق بالمدرسة بناء على رغبة والديه ورغبته هو أيضا لأنه كان يتمنى منذ صغره أن يكون واعظا وأن يكون بامكانه أن يرتدي الجبة والقفطان اللذين عادة ما يُعتبران عند المسلمين في البوسنا والهرسك علامة على العلم في حين يرتديها كل عربي لديه ما يكفي من النقود لشرائها . ومن الجلي أن أحد الكاتبين أو كليهما يعرف اللغة العربية وأن معرفتهما بالعرب على مستوى طيب ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالمناقشة التي جرت عن الاسلام بين شخصيات الرواية والتي نخرج منها بأن الكاتبين يعتقدان أن الاسلام لا يمنع أحدا من التمسك بقوميته ، أي أن يكون مسلما فرنسيا أو ألمانيا حسب ماضيه ودمه ولغته ، ذلك لأن الاسلام ليس دينا محصورا ضيقا ، وفي مقارنة بين الأدب الأجنبي والأدب العربي يدلي المؤلفان برأيهما بأن كل شيء مسروق من العرب .

وبوجه عام يتحدث المؤلفان عن الاسلام على أساس معرفتهم الكاملة بالموضوع من مصادره العربية الأصلية . وهذا يؤكد معرفة أحدهما أو كليهما باللغة العربية معرفة جيدة . ويؤكد هذا أيضا الكثير من التعليقات عن اللغة العربية وعن قواعد نحوها المتناثرة في كل الرواية [١٠٩] ويعترف المؤلفان ـ على لسان بطل الرواية ـ أنهما شاهدا اخوتهما المسلمين في أفريقيا وآسيا وأن بينهم تشابها كبيرا[١١٠] .

« المهاجر »

أما قصة « المهاجر » لنفس المؤلفين فتحكي عن « هاسو » الذي يستعد للذهاب إلى استامبول لقضاء بعض الأعمال . ولكي يرى أكثر خلال رحلته فقد توجه إلى مصر ومنها بحرا إلى تريستا . وقد زار الاسكندرية ومنها توجه إلى بورسعيد حيث ركب الباخرة المتجهة الى تريستا . وعلى ظهر الباخرة تعرف على قبطانها الكرواتي الذي كان يعرف صديقه ورفيق صباه « رضوان » . وقد قص القبطان على « هاسو » كيف رأى « رضوان » منذ سنة في ميناء بورسعيد وهو يعمل حمالا . وفي احدى المرات انقلب « رضوان » بالحمل الذي كان يحمله وسقط به في البحر . وعند سقوطه ارتطم رأسه بالباخرة ولم يعد هناك أمل في انقاذه . والمعلومات المذكورة عن هذه المدن المصرية ضئيلة للغاية ، ولا يمكننا على أساسها أن نقدر مقدار معرفة الكاتبين لهذه المدن .

ونجد في تاريخ حياة عثمان حاجيتش أنه يجيد اللغة العربية وأنه ترجم كثيرا من المؤلفات العربية[١١١] . أما عزيز (إيفان ميليتشيفيتش) فقد درس الحقوق في جامعة فيينا[١١٢] وكان محررا ومؤسسا لبعض المجلات القانونية في زغرب[١١٣] .

(١٠٩) عثمان ـ عزيز ، « بلا هدف » ، زغرب ١٨٩٧ ، ص ٣٧ ، ١٦٩ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(١١١) كان من بين ما ترجمه عثمان حاجيتش هو كتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام تأليف أبو الفدا وصدر في سراييفو ١٩٠٣ ، واشترك كذلك في ترجمة قصص ألف ليلة وليلة .

(١١٢) دائرة المعارف اليوغسلافية ، الجزء السادس ، زغرب ١٩٥٥ ، ص ١١٢ .

(١١٣) بيتار لاستا ، « الأدب في منطقة الهرسك » ، مجلة أوروبا الجديدة ، العدد السابع والثامن ١٩٣٥ ، ص ٢٧٣ .

« الدغل الأخضر »

يتحدث الأديب اليوغسلافي « أدهم مولى عبديتش » في هذه الرواية عن دخول الجيش النمساوي إلى البوسنا . وهذه الرواية في حقيقتها تجربة شخصية للمؤلف ، تجربة ذاتية موضوعية ، تجربة محزنة في جوهرها وبعيدة المدى باعتبارها تحولا وفتحا لحضارة جديدة واكتشافا لأفق روحي جديد[١١٤] وقد عالج المؤلف هذه التجربة وطورها فنيا بشكل مؤثر في روايته .

وتحكي الرواية عن مدينة « ماجلاي » التي كان يوجد فيها مقهى صغير يسمى مقهى العربي . وكان مالك هذا المقهى عربيا حضر مع سيده من الكعبة ، وبعد وفاته أصبح حرا وفتح هذا المقهى التي كان يجلس فيه الشباب ، ورغم فقر هذا العربي فقد حطم كل ما في مقهاه وذهب لكي يكافح مع الشعب ضد المحتل النمساوي . واشترك العربي بكل جرأة في هذا النضال ضد المحتل ، وكان على الدوام في المقدمة إلى جانب الراية رغم أن المعارك كانت عنيفة ، وفي النهاية فقد العربي حياته في كفاحه البطولي ضد المحتل رغم هرب الكثيرين .

ونجد أن أدهم مولى عبديتش اتخذ من بعض جوانب حياته وذكرياتها مادة موضوعية لأحداث روايته أو أنه أوجزها في أفكار طورها إلى مواقف ونظريات تتشابك في عمله الأدبي كله . وهذا يدلنا على صدق المؤلف وعلى خوضه لهذه المواقف في الحياة وعلى معرفته لأبطال الرواية ولأوهامهم وآمالهم ولعثراتهم ونجاحاتهم . ويبدو لنا في بعض الأحيان أنه يريد أن يقدم موعظة معينة أو أنه يدعو لفكرة معينة .

وأول جانب من تاريخ حياة المؤلف هو خوضه لغمار الاحتلال النمساوي الهنغاري للبوسنا والهرسك . وقد عاش هذه التجربة بشكل مأساوي وكأنها مصيبة كبيرة يمكن أن تصيب أي شعب وأي بلد . والجانب الثاني من تاريخ حياته هو تقديسه للعمل وللتعليم والتعلم ، الأمر الذي يبرز في حيرته العلمانية[١١٥] .

ويذكر النقاد أن المؤلف في وصفه لزوجة عمر أفندي ولأبنائها قد سجل العديد من المعلومات عن عائلته الشخصية بينما يؤكدون أن شخصية الابن الأصغر في الرواية ما هي إلا شخصية المؤلف نفسه . ومن المعروف أن المؤلف قد ولد في مدينة « ماجلاي » وفي خلال الحكم التركي لهذه المناطق أنهى دراسته الأولية ثم الرشيدية[١١٦] وبعد ذلك أنهى دراسته بمدرسة المعلمين . وبناء عليه فمن المؤكد أنه يعرف اللغتين التركية والعربية . وأدب المؤلف نابع من التقاليد الروائية الشعبية وكذلك من ملاحظاته للحياة العصرية . ومن جهة أخرى نرى أن أدبه لا يعالج إلا المشاكل الراهنة للتطور الاجتماعي والثقافي للمسلمين في البوسنا والهرسك . وبذلك فان أدبه يجمع بين الماضي والحاضر ، بين التقاليد العريقة والواقع الحالي لمسلمي البوسنا والهرسك إبان حكم النمسا الهنغارية . ولكنه يتعايش مع كل هذا بشكل ذاتي وشخصي وكأنه أجزاء مكملة لحياته ولمصيره .

وعند قراءة تاريخ حياة المؤلف نحصل على انطباع بأن رواية « الدغل الأخضر » ليست شيئا آخر سوى تجربة واقعية صادقة للمؤلف . وهذه التجربة تدفعنا إلى التساؤل : ألا يمكن أن تكون شخصية العربي في هذه الرواية حقيقية هي الأخرى . ورغم أنه من السهل للغاية أن نفترض ذلك إلا أن ذلك يصعب اثباته . وبالاضافة إلى ذلك يمكن أن يكون ظهور العربي في هذه الرواية رمزا للتعاون والوفاء مع شعب البوسنا والهرسك . والعربي أيضا رمز للكفاح المستمر ضد المحتل النمساوي الهنغاري . وقد أثبت العربي ذلك بأفعاله فقد كان قلبا وروحا في جانب الشعب وكافح معه

(١١٤) محسن رزفيتش ، « الأعمال المختارة لأدهم مولى عبديتش » ، الجزء الثاني سرايفو ١٩٧٤ ، ص٨ .

(١١٥) المصدر السابق ، ص٨ ـ ٩

(١١٦) الرشيدية هي المدرسة الاعدادية وهي مستخرجة من الكلمة العربية « رشيد » بمعنى ناضج .

ورافق أحمد بطل الرواية كظله الذي لا ينفصل ، وحاربا معا بشراسة وشجاعة ضد المحتل إلى أن ضحى العربي بحياته في النهاية من أجل استقلال ماجلاي .

« القاطرة »

وتتحدث هذه الأقصوصة التي كتبها كذلك أدهم مولى عبديتش عن أول قاطرة بخارية تدخل المدينة ، وقد تم استقبالها استقبالا حافلا . وعند وصفه للقاطرة ذكر المؤلف أنه هبط منها عربيان وتركاها وحدها . ومثل هذا الرأي كان سائدا بين الناس الذين كانوا يعتقدون أن القاطرة البخارية قد أتت من جهنم وكان يدفعها عربيان وكأنهما زبانية جهنم . والحقيقة أن سواد الدخان قد غطى وجهي السائقين بحيث أنهما كانا يبدوان كائنين من السود .

وقد وصف المؤلف العرب بأنهم سود اللون وهو في ذلك متأثر بالأدب الشعبي كما وضّحنا من قبل . والمقارنة هنا معبرة وتشبه التوابل التي تضاف إلى التعبيرات من أجل ابراز مجازات معينة . ويورد أحد الباحثين في الأدب الشعبي أن الشعب قد أخذ المقارنة بالألوان من بيئته المباشرة عن طريق تداعي الأفكار والخواطر . ولكن هذا الباحث لم يثبت لنا بالأدلة افتراضه هذا ، ولم يعالجه على نحو مفصل ، ولم يذكر لنا كذلك شيئا عن المقارنة المشهورة : أسود كالعربي [١١٧] . ويغض النظر عن كل هذا فمن اليسير أن نلاحظ أن روح الأدب الشعبي بمعتقداته قد سيطرت على أدب المؤلف .

وأدهم مولى عبديتش (١٨٦٢ - ١٩٥٤م) قضى الجزء الأكبر من حياته في سرايفو عاصمة منطقة البوسنا والهرسك المملوءة بالمسلمين وكان رئيسا لتحرير مجلة « بيهار » ، وكان يكتب القصص والروايات والمسرحيات الدرامية ويصور في مؤلفاته حياة مسلمي البوسنا والهرسك .

الذكر الثانوي :

رغبة منا في القاء مزيد من الضوء على هذه الظاهرة قررنا أيضا دراسة ما أسميناه بالذكر الثانوي للعرب وكل ما يتعلق بهم من ثقافة وحضارة وأماكن جغرافية وما الى ذلك . فهذا الذكر الثانوي يشمل جوانب عديدة من حياة العرب ويتناثر هذا الذكر في مؤلفات عديدة من مختلف ألوان وأجناس النثر ويتم عرضه بأساليب مختلفة وأشكال متباينة . ومن المؤكد أن لهذا الذكر أيضا أهميته فهو ليس بالظاهرة اليومية المألوفة التي يمكننا أن نتغاضى عنها وألا نلتفت اليها .

ولاينبغي أن نغفل الحقيقة القائلة بأن عدد النصوص النثرية التي وجدنا فيها ذكرا ثانويا للعربي بلغت ١٢٣ نصا يوجد فيها بهذا أو ذاك الأسلوب ذكر للعرب ولأشياء كثيرة مرتبطة بهم سواء من قريب أو من بعيد . ولابد أن تكون لهذا كله دوافعه وأسبابه . ولاشك أن دراسة وتحليل هذه النصوص يمكن أن تقدم لنا أساسا لبعض الاستنتاجات الجديدة المفيدة الهامة أو على الأقل يدعم الاستنتاجات التي خرجنا بها من دراسة نصوص المجموعة الأولى .

وحسب قائمة النصوص النثرية التي تم جمعها يمكن ملاحظة أن هناك كتابا وأدباء يوغسلافيين يكثرون من ذكرا العرب وكل مايتصل بهم ذكر ثانويا ، ولذا فاننا سنلقي نظرة موجزة على أهم هؤلاء الكتاب حتى تكون الصورة أمامنا أكثر وضوحا .

ولقد كانت الرومانسية خلال عشرين عاما هي الطابع الأساسي لمؤلفات الأديب « جورا ياكشيتش » (١٨٣٢ - ١٨٧٨ م .) وكانت الاحداث الثورية التي جرت في الفترة من ١٨٧٥ وحتى ١٨٧٨م قد ملأت قلب « جورا » بحب الوطن [١١٨] ، وكل قصصه الرومانسية تعالج الأحداث التاريخية من الماضي البعيد أو القريب ويصور فيها « جورا » الوقائع كما يصور

---

(١١٧) ميليفوى كنجيفيتش ، « الأدب الشعبى » ، سرايفو ١٩٧٤ ، ص ٢٦٧ - ٢٧٨ .

(١١٨) يريمى جيفانوفيتش ، « الأعمال الكاملة لجورا ياكشيتش » ، الجزء الرابع ، بلغراد ١٩٣١ ، ص XX١X .

الرسام الواقع في لوحاته . [١١٩] وأقاصيصه التاريخية ليست الا تعبيرا عن الموضة الرومانسية في تصوير القرون الوسطى . وقد قدم لنا في قصصه صورة للبؤس الفظيع الذي كان على أفراد الشعب العربي أن يتحملوه وهم ينوءون بعبء سيطرة أغنياء المجر وسلطانهم . والعناصر الأساسية لأسلوبه هي التعبير العاطفي والكلمات الخطابية والوصف الجميل ، وهو أسلوب أصيل للغاية ومكتظ بالتشبيهات ولهجته عاطفية على الدوام . والأديب الرومانسي جورا ياكشيتش يعرف كيف يعثر على التعبير الخاص بالرقة وبالحزن وبالألم .

والأديب اليوغسلافي جالسكي كساقر شاندور (١٨٥٤ ـ ١٩٣٥ م) الذي أكثر من ذكر العرب في مؤلفاته ـ رومانسي أيضا . وهو يعد مؤسس الرواية الاجتماعية السياسية ، وهو الأديب الذي عقد صلة وثيقة بين فن القصة الكرواتية وبين الأدب الحديث لأوربا الغربية وبين الأدب الواقعي الروسي . ومؤلفاته وثائق تاريخية تقدم في كثير من الأحيان صورة موثوقا بها أكثر مما تقدمه الدراسات السياسية أوالثقافية أو التاريخية[١٢٠] .

أما الأديب أوجست شنوا (١٨٣٨ ـ١٨٨١) فقد ورث في مؤلفاته جميع أفكار الرومانسية وكل أشكالها وقد أخذ عن الرومانسية أيضا اهتمامه بالرواية التاريخية . وفي قصة « اليهودي الأبدي في زغرب » قدم لنا شنوا صورة للكروات كما رآهم في طفولته وفي سنوات صباه وفي فترة دراسته بالجامعة ، ويصور كذلك تصرفاتهم على مر العصور . وفي قصة « ذهب الصائغ » حاول شنوا أن يعرض صورة للحياة الكرواتية القديمة ، أما رواية « ثورة الفلاحين » فهي رواية تاريخية الى حد كبير ولدرجة أنه يمكن تسميتها بالدراسة التاريخية في شكل رواية [١٢١] .

أما الأديب لاذا لاذاريفيتش (١٨٥١ ـ١٨٩١م) ، فبالرغم من أنه كان يكره كل ماهو ألماني إلا أن أفكاره عن المجتمع والانسان تكونت في برلين بالذات . وهذا الأديب الذي فهمه النقاد وقدموه لفترة طويلة على أنه كاتب واقعي لم يكن هكذا على الاطلاق بالمعنى الكامل للكلمة . لقد كان لاذا في أساسه رومانسيا يعبر عن نفسه بلغة واقعية في الظاهر بالتكنيك الأدبي لعصره ، انه رومانسي يشمئز من رومانسيته . وقد حقق لاذا في مؤلفاته دقة التعبير وتوازنه وشفافيته العجيبة بشكل لم يعرف له مثيل في الأدب اليوغسلافي [١٢٢]

وقد ذكرنا عن المؤلفين عثمان ـ عزيز أن أكثر أقاصيصها من منطقة البوسنا والهرسك التي حكمها الأتراك مايقرب من خمسة قرون وتركوا فيها الكثير من عناصر الثقافة والحضارة العربية . وكان عثمان يعرف اللغتين العربية والتركية مما أتاح له أن يعرف الكثير عن العرب وعن الاسلام ويتجلى هذا في قصصها .

وكان يوسيب توميتش يسعى في مؤلفاته الى تركيز اهتمامه على الدقة التاريخية رغم روايته التاريخية كانت تلميحا والماعا الى الظروف العصرية . أما فلاديمير بوروتا فقد كتب أقاصيص تعالج موضوعات من بيئة البوسنا وركز فيها على تميز البيئة ووصف التناقضات بين العادات الجديدة والتقاليد الاسلامية ([١٢٣] .

وبالنسبة للأديب الرومانسي لوبيشا ميتروث (١٨٢٤ ـ١٨٧٨ م) فقد كان يقرأ المؤلفات الايطالية في أصولها وكان مشغوفا بالأدب الايطالي [١٢٤]وكان

(١١٩) سفيتسلاف فولوفيتش ، « الأقصوصة الفنية في الادب الصربي الحديث » ، بلغراد ١٩٣٠ ، ص٣٢٦ .

(١٢٠) إميل تشامير ، « جالسكي ك . شاندور » ، زغرب ١٩٥٢ .

(١٢١) أنطون بارانس ، « اعمال اوجست شنوا » ، الجزء الثاني ، زغرب ١٩٥١ ، ص٤٥٩ ـ ٥٣٥ .

(١٢٢) يوفي جيفانوفيتش ، « الاعمال الكاملة للاذا لاذاريفتش » ، بلغراد ، ص XIII — XLVIII .

(١٢٣) دائرة المعارف اليوغسلافية ، الجزء الثامن ، زغرب ١٩٥٥ ، ص٢٦٦ ـ ٣٦٧ .

(١٢٤) كتاب القصة القصيرة في صربيا « اعداد داود بوجدانوفيتش ، الجزء الأول ، زغرب ، ص٧ ، ٨ .

يحتذي بالعاطفة الأدبية والخيال الجامح لكتاب القصة اليوغسلاف الذين تتلمذوا على يد ضعاف الأدباء الألمان . انه رومانسي يحتذي بالرومانسيين الايطاليين ، ومعروف عنه حبه للغة الشعب وعاداته (١٢٥) . وقصته « الحجر الملعون » هي تاريخ كامل عن المشعوذات وعن أعمالهن الشريرة ، وقصته الفتاة القافزة » هي رواية تاريخية صغيرة قدم فيها صورة عريضة لفترة حكم عائلة باشتروفيتش.(١٢٦) .

والأديب ميلوراد بوبوفيتش شابتشانين كان يقرأ منذ شبابه المبكر مؤلفات اليوغسلاف والأجانب ، وكان يقرأ على الأكثر باللغة الألمانية وكان يفضل قراءة كتب التاريخ اليوغوسلافية والأجنبية . وكان يجيد معرفة اللغة الألمانية ،ويتابع المراجع التربوية والتخصصية عن طريق المؤلفات والمجلات الألمانية . وعلاوة على ذلك كان يقرأ باللغات الروسية والفرنسية والبولندية التي كان يترجم منها أيضا (١٢٧) . وقصته الطويلة « حسن أغا » هي رواية كاملة تعالج موضوع ثورة حسن أغا ، وبعض أحداث من تاريخ البوسنا . وبالقصة مجال كبير للرومانسية وتحتوي على قصص ثانوية تضيع فيها الأحداث والشخصيات الأساسية . وركز فيها المؤلف على الاتجاه الوطني ، وفي بعض الأحيان كان يكثر من تكرار الحقائق التاريخية فتضيع بذلك الفكرة الرئيسية للاقصوصة . وقصة « الأسقف جينيديا تحتوي على الكثير من الرومانسية والعاطفية وتحكي قصة حب سطحي بين شاب صربي وفتاة تركية وبذا يكون فيها مجال لأشياء ترتبط بالعرب .

أما الأديب الرومانسي بوجوبوي أتانا تسكوفيتش فقد قضى ـ كما ذكرنا من قبل ـ فترة طويلة في فرنسا وألمانيا وسويسرا وايطاليا وانجلترا . والوطنية تبرز من كل سطر من سطوره ، وهناك صلة قريبة بين كتاباته وبين الشعر الشعبي الذي يستعير منه الكثير من التفاصيل والموضوعات ، وهي كلها أمور كانت تحبب القراءة في أعماله . انه رومانسي ونادرا ما كان يبتعد عن رومانسيته ، ويعتقد الناقد يوثان سكرليتش أن قصة « الأم والابنة » تبدو في بعض أماكنها وكأنها ترجمة ألمانية عاطفية محزنة (١٢٨) .

وهكذا نرى أن معظم الأدباء الذين يذكرون العرب في أقاصيصهم ورواياتهم هم أدباء رومانسيون خاضعون لتأثير الرومانسية.سواء أكانت يوغسلافية أم ألمانية ، هذا علاوة على تأثير الأدب الشعبي على مؤلفاتهم وكذلك تأثير معرفتهم للغات الأجنبية . وقد قصدنا بعرضنا لمقتطفات من حياة بعض الأدباء الذين ذكروا العرب في كتاباتهم بشكل أو بآخر أن نؤكد هذه الأمور من واقع حياة هؤلاء الأدباء .

واذا ألقينا نظرة على قائمة النصوص النثرية التي جمعناها تبين لنا أن بعض النصوص منشورة في مجلات أدبية والبعض الآخر في كتب . ومن ثم تعين علينا اعادة ترتيب النصوص حسب نشرها ، واتضح لنا على الفور أن مجلة الاكليل (فيناتس) (١٢٩) التي كانت تصدر في

---

(١٢٥) يوفان سكرليتش ، « لوبيشاستييان ميتروث » ، مجلة ليتوبيس ماتيتسا صربسكا لعام ١٩٠٨ ، العدد ٢٤٨ ، ص٢٠ .

(١٢٦) ميلوش سافكوفيتش ، « الأدب اليوغسلافي » ، بلغراد ١٩٥٨ ، ص١٣٨ .

(١٢٧) أوروش جونيتش ، «(١٢٧) أوروش جونيتش ، « الاعمال الكاملة لميلوراد شابتشانين » ، بلغراد ١٩٣٢ ، الجزء الخامس ، ص١×

(١٢٨) الاعمال النقدية ليوفان سكرليتش ، ص١٠٨

(١٢٩) مجلة الاكليل ـ فيناتس (١٨٦٩ ـ١٩٠٣) تصدر في زغرب وكانت ـ في حينها ـ هي المجلة الكرواتية الرئيسية وكان لها دور ونشاط كبير في المجال الادبي . وقبل ظهور هذه المجلة كانت افضل المجلات الادبية في كرواتيا تعالج الأدب معالجة لغوية فحسب او تعتبره انه وسيلة مساعدة في الكفاح من اجل التحرر القومي . وكان شعار هذه المجلة انها تعمل من اجل التسلية والموعظة وهي تسعى في نفس الوقت الى التأثير على البيئة الثقافية في كرواتيا عن طريق الادب الجميل وسرعان ما اصبحت هي الحكم الرئيسي على الادب علاوة على انها كانت توجهه نحو الادب الاوروبي . وليس هناك كاتب كرواتي لم ينشر اعماله الادبية من خلال هذه المجلة بغض النظر عن المذهب الادبي الذي ينتهجه او ينتمي اليه . ونظرا لأنه لم يكن هناك نشاط منظم لنشر الاعمال الادبية فقد كان كل الانتاج الادبي في هذه الفترة مركزا على هذه المجلة بحيث لم يكن لها منافس او منازع في هذا المضمار . وظلت المجلة تعمل على جمع الكتاب والمحررين الجدد والقدامى حولها ، وعلى نشر الاخبار الادبية العالمية وكانت دوما هي النافذة المفتوحة على اوروبا مسجلة كل المظاهر الثقافية الهامة . وبهذا الشكل اصبحت المجلة وثيقة ومستندا لاغنى عنه لكل من يقدم على دراسة الأدب اليوغوسلافي عامة والأدب الكرواتي خاصة في تلك الحقبة .

زغرب نشرت أكبر عدد من هذه القصص والروايات ويبلغ عددها ثلاثين نصا وأغلبها بقلم مؤلفين كروات . وتليها مجلة « حورية البوسنا » (بوسانسكافيلا) [١٣٠] التي كانت تصدر في سرايفو ونشرت تسعة عشر نصا ، وتليها مجلة شجرة القبقب (يافور) [١٣١] التي كان يصدرها الأديب الشاعر يوفانوفيتش زماي في نوفي ساد ونشرت ستة عشر نصا .

وقد وجدنا أن هذه القصص والروايات تحتوي على كمية ضخمة من المعلومات المرتبطة بالعرب وبكل مايتعلق بهم . واذا جمعنا هذه المعلومات المذكورة عن العرب وعن كل مايرتبط بهم من مفاهيم جغرافية وثقافية ومادية وجدنا أن هذه النصوص النثرية قد قالت الكثير عن العرب . ومن الأماكن الجغرافية العربية المذكورة في هذه النصوص : الاسكندرية ، الجزائر ، العربية السعودية ، عربستان ، بغداد ، الجليل ، دمشق اليمن ، القدس ، الأردن ، القاهرة ، المدينة (المنورة) ، مكة والكعبة ، مصر ، النيل ، عدن ، الفرات ، النوبة ، الصحراء ، البحر الأحمر وغيرها . ومن الكلمات المتعلقة بثقافة العرب : الأرابيسك (الفسيفساء) واللغة العربية واسم النبي محمد (صلعم) والقرآن والاسلام وغيرها ، ومن هذا يتبين لنا أن الأدباء اليوغسلاف أكثروا من ذكر الأماكن الجغرافية العربية عن ذكرهم للمفاهيم الثقافية العربية ، ولم يترك الأدباء الكرواتيون ـ بصفة خاصة ـ الحصان العربي دون أن يذكروه في مؤلفاتهم .

وينبغي أن ننوه الى أن النصوص النثرية المذكورة ، لم تنشر في نفس السنوات بل في فترة زمنية طويلة تبدأ من عام ١٨٥٢ وحتى ١٩٠٠ ، ولاشك أن هناك أهمية معينة لسنة وتاريخ نشر هذه القصص والروايات . ولكن ينبغي على الفور أن ننوه الى أنه كان من العسير للغاية في بعض الأحيان التوصل الى التاريخ الصحيح لنشر أو كتابة نص من النصوص ، وفي أحيان أخرى كان من المستحيل على الاطلاق التأكد من دقة هذا التاريخ . وحتى لا تقودنا المعلومات الناتجة الى استنتاجات غير دقيقة فقد جمعنا النصوص الموجودة في كل عشر سنوات حسب الجدول التالي :

	عدد النصوص
١ ـ من ١٨٥٢م حتى ١٨٦٠م	٢
٢ ـ من ١٨٦١م حتى ١٨٧٠م	٢
٣ ـ من ١٨٧١م حتى ١٨٨٠م	٢٢
٤ ـ من ١٨٨١م حتى ١٨٩٠م	٣٥
٥ ـ من ١٨٩١م حتى ١٩٠٠م	٥٦

ومن هذا يتبين لنا أن عدد هذه النصوص كان في تزايد مستمر ، وعلاوة على ذلك يمكننا أن نخلص الى أن القصتين الأوليين قد تم نشرهما في ١٨٥٢م ، وهناك كذلك سنوات لم يتم العثور فيها على أي نص يتعلق بالعرب ، وعلى الأخص في الفترة من عام ١٨٥٢ حتى عام ١٨٦٢ . وأخيرا نجد أن أكثر النصوص التي جمعناها موجودة في أعوام ١٨٩١ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ أو

(١٣٠) ومجلة حورية البوسنا ـ بوسانسكافيلا (١٨٨٥ ـ ١٩١٤م) كانت تصدر في سرايفو وتنشر جميع الاعمال الادبية من جميع مناطق يوغسلافيا باللغة الصربوكرواتية . وقد تفوقت على مثيلاتها من المجلات الاوروبية واكتسبت شعبية خاصة منذ عام ١٨٨٧ وحتى ١٩٠٩ ، وبسبب اتساع شهرتها حاولت الحكومة اصدار مجلة ادبية مضادة الا انها لم تستمر رغم الامكانيات المادية الكبيرة التي كانت متاحة لها . وفي عام ١٨٩٦ حصل رئيس تحريرها نيكولا كاشيكوفيتش على وسام من السلطان التركي بسبب مجهوداته المبذولة في الاخاء بين الصرب والمسلمين . وخلال فترة صدورها كانت المجلة مصدرا لمعرفة الادب والحياة الثقافية في يوغوسلافيا في تلك الفترة علاوة على تجميعها للقصائد الشعبية وللمؤلفات الشعبية ذات القيمة العظيمة .

(١٣١) مجلة شجرة القبقب ـ يافور كانت تصدر في مدينة نوفي ساد منذ عام ١٨٦٢ من اجل التسلية والعلم والادب . وكانت من اهم المجلات الادبية في صربيا في ذلك الحين . ومن خلالها نشر افضل الادباء مؤلفاتهم الشعرية او النثرية وذلك علاوة على ترجمات لاعمال لامارتين وجوجول وجوته وبوشكين وتورجينيف وزولا وديستوفسكي ومارك توين وموباسان وغيرهم وكان لها اهتمام خاص بالمسرح وتنشر مختلف الاخبار الثقافية والادبية ومناقشات حول مشاكل اللغة .

(١٣٢) من اجل مزيد من التفصيلات انظر « العربي في النثر باللغة الصربوكرواتية » للمؤلف ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة بلغراد بيوغسلافيا ١٩٧٩م » .

في الفترة الزمنية من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩٠٠ (١٣٢) وهي فترة كانت تسودها الأفكار الرومانسية .

الأسباب الرئيسية :

مما سبق يتبين لنا أن شخصية البطل العربي تظهر في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية في مختلف الوظائف والمهام والأدوار الرئيسية ، وبأساليب مختلفة ، ولأسباب متنوعة ومتعددة . ويمكننا أن نؤكد أن شخصية البطل العربي محفورة حفرا عميقا في هذا الأدب الروائي ، الا أنه لم تتم على الدوام معالجة هذه الشخصية بشكل متكافيء ، ففي بعض الأحيان تم تصويره من جوانب متباينة ، وفي أحيان أخرى صدرت عليه احكام وتقديرات متضاربة . وغالبا ماظهرت هذه الشخصية في ثوبها التاريخي وفي بيئتها الطبيعية ، وقد أصدر كتاب هذه الأقاصيص والروايات أحكاما وتقديرات متناقضة وغير متكافئة على البطل العربي مما يجعلنا نستنتج أن كاتب الأقصوصة أو الرواية كان من خلال شخصية البطل العربي يتحدث عن ملاحظاته وانطباعاته عن العرب ، وهي ملاحظات وانطباعات تم التوصل اليها بالخبرة العملية أو تحت تأثير التقاليد الشعبية المنقولة من جيل الى جيل . تلك التقاليد الشعبية التي ظهر تحت تأثيرها بعض الأوهام . ومثل هذا الظهور لشخصية العربي يعد أمرا منطقيا وطبيعيا للغاية لأن كل كاتب ينتقي بشكل مستقل موضوعاته وأفكاره الشخصية ويعالجها حسب قوانينه التأليفية الداخلية ، وهكذا تتشكل لدى الكتاب تصورات معينة عن العرب ، منها الجيد والسييء ومنها الصحيح وغير الصحيح .

من الدراسة المتقدمة يمكننا أن نوجز أسباب ظهور شخصية العربي كشخصية رئيسية أو ثانوية في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية في الأسباب التالية :

العلاقات التاريخية :

اذا ألقينا نظرة نحو الوراء في الحقبة الأولى لبدء الفتوحات الاسلامية وجدنا أن هناك علاقات متباينة بين العرب وبين أسلاف اليوغسلاف ، وهم السلاف الجنوبيون ، في أحوال الحرب وأوقات السلم . وقد أدت هذه العلاقات الى تعرض السلاف الجنوبيين لتأثيرات متنوعة لاحصر ولا حد لها من جانب الحضارة الاسلامية العربية ، وتشير المعلومات والحقائق التاريخية الى أن التعارف بين العرب والسلاف الجنوبيين وما استتبع ذلك من تأثيرات محتملة قد تم أساسا من خلال السبل التالية :

١ ـ **عن طريق الامبراطورية البيزنطية :** فلقد أصبحت شبه جزيرة البلقان بلادا سلافية بعد نزوع السلاف الجنوبيين وتدفقهم على هذه المنطقة ابتداء من القرن السادس الميلادي ، وكانت شبه جزيرة البلقان تقع آنذاك تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وفي بداية القرن السابع احتاجت الامبراطورية البيزنطية الى تكوين جيش قوي جديد ، وحيث ان عدد الجنود البيزنطيين لم يكن كافيا فلم يكن من الممكن سد هذا الفراغ في الجيش الا بتجنيد السلاف الجنوبيين ، وبذلك أضافوا دما جديدا الى الجيش البيزنطي (١٣٣) وتحول السلاف الجنوبيون الى قوات تحارب وترد هجمات العرب المتكررة (١٣٤) الا انه في عام ٦٥٨م وفي عهد القيصر قسطنطين الثاني انتقلت وحدة عسكرية بيزنطية قوامها خمسة آلاف جندي من السلاف الجنوبيين الى صف القائد العربي عبد الرحمن واستوطنت في سوريا (١٣٥) ، وهذا يقودنا ـ توا ـ الى الاستنتاج بأن السلاف الجنوبيين كانوا يحاربون مع البيزنطيين ومع العرب على حد سواء . وقد جرت على الحدود بين الدولة الاسلامية

---

(١٣٣) جيورجي اوستروجورسكي ، « بيزنطة والسلافة » ، بلغراد ١٩٧٠ ، ص٥ .

(١٣٤) تاريخ يوغوسلافيا ، بلغراد ١٩٧٢ ، ص٢٥ وكذلك Aleksandar Vasilev, Histery of the Byzantine Empire 324 — 1453, I, Madison 1970 — 1971, p.218.

(١٣٥) قسطنطين يريتشيك ، « تاريخ الصرب » ، المجلد الأول ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص٧٦ .

وبين الامبراطورية البيزنطية حروب استمرت الى مايقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف الجنوبيون مع العرب المسلمين ومع البيزنطيين . وتدفعنا هذه الحقيقة الى التقرير بأن استعراض العلاقات الحربية وغير الحربية بين العرب والسلاف الجنوبيين .

وعلى أساس هذه الحقائق يمكننا أن نؤكد أن أول اتصال مباشر مسجل بين العرب وبين السلاف الجنوبيين تم في بداية القرن السابع الميلادي وبالتحديد في عام ٦٢٩ م . على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية [١٣٦] . وفي عهد الأمويين والعباسيين وحتى بداية القرن العاشر الميلادي تقريبا جرت معارك مريرة على هذه الحدود من أجل كل شبر من الارض ، وكانت تتكرر كل عام تقريبا الهجمات من كلا الجانبين ، ويتم أسر الجنود من الطرفين وتبادلهم . ومن المؤكد أن كل هذا كان يؤدي الى حدوث اتصالات مباشرة بين العرب وبين السلاف الجنوبيين وقد انعكس هذا فيما بعد على الأدب الشعبي ومنه على الأدب الروائي اليوغسلافى، وقد عرفت هذه الحدود أيام السلم أيضا عندما كان يمكن أن يتم بلاعقبات أو عوائق تبادل اللقاءات والاتجاهات والأفكار الروحية وأسباب الحضارة والثقافة .

ولا شك أن العرب كانوا أول خصم للسلاف الجنوبيين عبر التاريخ ، علاوة على أن السلاف الجنوبيين كانوا يتحاربون مع العرب الذين كانوا في ذروة قوتهم ومجدهم . وظل العرب على هذه الصورة في وعي كل سلافي جنوبي الذي نقل بدوره هذه الصورة إلى أحفاده وإلى الأجيال من بعده .

ولا خلاف على أن الحرب المديدة المتواصلة التى اشترك فيها كل من العرب والسلاف الجنوبيين قد سمحت بعلاقات ثقافية متنوعة متميزة بينهما . ومن المعروف أن الحياة المشتركة قد تفرض على الأعداء في بعض الأحيان أن يتصلوا ببعضهم وأن يتعاونوا في جميع المجالات الممكنة وبمختلف الأشكال ، وبناء على ذلك فمن المنطقي تماما أن نفترض أنه كان يوجد لدى البيزنطيين وجنودهم من السلاف الجنوبيين الموجودين على الحدود العربية البيزنطية شكل من أشكال قصص البطولات يشبه قصص البطولات العربية ، ولا شك أن الجندي السلافي قد حاول أن يحكي ـ على طريقته الخاصة في أيام السلم وفي لحظات الاطمئنان حكايات عما كان يحدث كما كان يفعل الجندي العربي أيضا . وهذا يدفعنا ببساطة إلى الاستنتاج بأن قصص البطولات الشعبية عند السلاف الجنوبيين لا بد أنها نشأت على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية وبين الدولة الاسلامية العربية . وهنا تعرف السلاف الجنوبيون على الأدب والحضارة العربيين . وبالتوازي مع هذا كله كانت الخبرات والتقاليد الشعبية تنتقل من العرب إلى السلاف الجنوبيين في وقت الحرب وكذلك في زمن السلم .

٢ ـ **عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط** : اذ من الحقائق المؤكدة أن الهجمات العربية على بحر الأدرياتيك خلال القرن التاسع الميلادي استمرت قرنين كاملين على فترات متقطعة بالطبع . ومما لاشك فيه أن هذه الهجمات العربية أثبتت بروز عنصر خارجي جديد له قوته الأمر الذي سيؤثر فيما بعد على تاريخ دول بحر الادرياتيك . وقد جرت معارك قاسية بين البيزنطيين والفرنجة على شواطىء بحر الأدرياتيك فى اطار الصراع الاستراتيجى العسكرى والاقتصادى فى منطقه البحر المتوسط من أجل التجارة بين غرب أوروبا والشرق [١٣٧] .

٣ ـ **وقد قام تجار الدولة الفاطمية** بدور بالغ في التجارة بين مصر والهند وكذلك مع أوروبا [١٣٨] ويذكر أنه كان

(١٣٦) فيليب حتى ، « تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم » ، سرايفو ، ١٩٦٧ ، ص١٤٥ .
(١٣٧) A.Vasilev, History of the Byzantine Empire, p.212.
(١٣٨) The Cambridge history of Islam, Cambridge, 1970 p.187.

لدى الخليفة المهدي حرس خاص أغلبه من السلاف الجنوبيين القادمين من شواطىء شبه جزيرة البلقان [١٣٩] وعلاوة على ذلك كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعرف اللغة السلافية وهذا يؤكد وجود عدد كبير من الجنود والضباط من السلاف الجنوبيين لديه .

٤ ـ وقد أعادت الحروب الصليبية الاتصال المباشر بين العرب والسلاف الجنوبيين . وقد اشترك الكروات بقيادة الملك أندريا الثاني الكروات والمجر في هذه الحروب [١٤٠] التي كانت تعني الكثير بالنسبة للحضارة الغربية ، وأدت الى ازدهار النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وأثر هذا النشاط على أحوال أوروبا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ونتيجة لنمو التبادل التجاري انتقلت كثير من المؤثرات العربية الى الحياة الأوروبية . وفي هذا المضمار اعترف المؤرخون بان التأثير العربي على الأدب الأوروبي كان قويا وشديدا حينما استمع الصليبيون ومن بينهم أسلاف اليوغسلاف الى قصص من كتاب ألف ليلة وليلة » وكليلة ودمنة ونقلوها إلى بلادهم . وأصبح المماليك ـ وعلى الأخص أولئك المماليك الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ـ صورة للبطل العربي المثالي الذي لم تنقطع الأساطير والأقاصيص عن تجميل مآثره كما في قصة عنترة بن شداد وقصة الظاهر بيبرس ، وبنفس الأسلوب أخذ المنشد أو الراوي ينقل من المجتمع الطباع والعادات والتقاليد الشعبية التي يراها حوله في قاهرة المماليك .

٥ ـ وكانت قرطبة الأموية بأسبانيا من أعظم مدن العالم مركزا للحياة الثقافية والروحية بالغرب الاسلامي كله ، لأن الحضارة العربية فيها بلغت ذروتها وكان عدد السلاف الجنوبيين بها كبيرا ، وكانوا يشكلون الحرس الخاص لبعض الحكام مثل الخليفة الحكم [١٤١] والخليفة عبد الرحمن الثالث [١٤٢] ، وبوجه عام كان الدور السياسي للسلاف الجنوبيين في أسبانيا دورا كبيرا للغاية وعلى قدر عظيم من الأهمية . وكان منهم بعض المحاربين والحكام أصحاب القصور الرائعة . وعلى الصعيد الثقافي يوجد عدد كبير من الشخصيات السلافية التي برزت بفضائلها وخدماتها [١٤٣] ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هرمان الدالماسي الذي يقال عنه انه أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية [١٤٤] واستمرت الحضارة العربية بالأندلس تشع نورها الثقافي والاقتصادي والفني ، وظهر أثر ذلك واضحا في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما .

٦ ـ عن طريق طائفة الباشقرد المسلمين بالمجر ، وكان عدد كبير منهم من المقاتلين الرحل ، وكان تعليمهم الاسلامي ممتازا [١٤٥] ، وكان لهؤلاء المقاتلين الرحل علاقات متنوعة بالسلاف ، ولذا فمن البديهي أنهم نقلوا عناصر الحضارة الاسلامية والعربية إلى شبه جزيرة البلقان .

٧ ـ ومن المؤكد أن الامبراطورية التركية قد حلت محل الامبراطورية البيزنطية في دور الوسيط والناشر لعناصر الثقافة العربية الاسلامية بين السلاف في البلقان [١٤٦] ، وهنا كانت سبل نشر الثقافة والحضارة عديدة ومتعددة الجوانب . وقد قام بنقل عناصر الحضارة الاسلامية كل من الجنود والتجار ورجال الدين والحجاج وكذلك الحكام ورجال القلم .

---

(١٣٩) ل . أ . سيمينوفا ، من تاريخ مصر الفاطمية ، موسكو ١٩٧٤ ، ص١١٨ .

(١٤٠) دائرة المعارف اليوغسلافية ، الجزء الأول ، زغرب ١٩٥٥ ، ص١٥٠ .

(١٤١) انظر فيليب حتى ، ص٤٧٤ وكذلك Cambridge history of Islam, p.413.

(١٤٣) فيليب حتى ، ص٤٧٤ ، وكذلك احمد عبدالفتاح العبادى « الصقالبة فى اسبانيا » ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص١١ .

(١٤٣) يوراي اندراساي ، « السلاف في اسبانيا منذ الف عام » ، مجلة نارودنا ستارينا ، عدد ١٦ ، زغرب ١٩٢٨ ، ص٨٨ وما يليها .

(١٤٤) ميركوبراير ، « النشاط الادبي لهيرمان الدالماسي » ، مجلة فيناتس ، ١٨٩٦ ، ص٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(١٤٥) History of the Byzantine Empire, p. 316.

(١٤٦) ميلينوكو فيليوفيتش ، « العناصر الشرقية في الحضارة الشعبية للسلاف الجنوبيين » ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، ص١٠٧ ـ ١٠٩ .

وتعرض لنا الكتب العربية القديمة معلومات عن مبعوثين ورسل وحملة رسائل الذين كان العرب والسلاف الجنوبيون يرسلونهم لتأدية مختلف المهام . ومازال ثابتا حتى يومنا هذا ما كتبه العرب عن هؤلاء السلاف الجنوبيين . المهم انه لا خلاف على أن الرسل والمبعوثين كان لهم دور هام في تعريف السلاف الجنوبيين بالعرب .

الاعجاب بشخصية العربي :

كثمرة للعلاقات التاريخية والحضارية المذكورة أعجب السلاف الجنوبيون بشخصية العربي وأعربوا عن ذلك في قصائدهم وأقاصيصهم الشعبية التي تناقلتها الأجيال حتى وصلت الينا وفيها نجد تعاطفا وميلا نحو العربي . ونتذكر في هذا المضمار كلمات الأديب اليوغسلافي يعقوب اجيناتوفيتش وهي كلمات لم تصدر عن فراغ أو عن حب أعمى او هوى مؤقت بل هي تعبير عن معرفة حقيقية وعن اعجاب قائم على حقائق التاريخ .

الأدب الشعبي :

ذكرنا في معرض حديثنا أن عديدا من الأدباء اليوغسلاف قد أبرزوا شخصية العربي في أدبهم الروائي تأسيا بالأدب الشعبي الذي يكثر من ابراز العرب . والمقصود بالأدب الشعبي اليوغسلافي الفنون الأدبية المختلفة ، شعرا ونثرا ، التي لم ترتبط باسم مؤلف معروف ، والتعبير الشعبي هنا يعني تبعيتها للشعب ككل . وانتقلت هذه الفنون الأدبية شفاهة سواء بانشادها أو سردها وحكايتها من جيل الى جيل ومن بيئة الى أخرى . والمعروف أن بدايات هذا التقليد ترجع الى عصور سحيقة ، كما هي الحال لدى أي شعب من الشعوب ، حينما أخذت الحياة الاجتماعية لأسلاف اليوغسلاف تأخذ شكلها ، الا ان التغيرات القوية المتعددة في حياة اسلاف اليوغسلاف كانت تمحو باستمرار من ذاكرتهم الأشكال الادبية القديمة وتحل محلها نصوصا جديدة . وقد خلف لنا بعض المؤرخين البيزنطيين من القرنين السادس والسابع الميلادي معلومات تشهد بوجود القصائد الشعبية لدى اسلاف اليوغسلاف الذين كانوا قد نزحوا الى مناطق البلقان الواقعة تحت السيطرة البيزنطية[١٤٧] .

وبسيطرة الأتراك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على معظم الأراضي اليوغسلافية أصبح الأدب الشعبي بألوانه وفنونه المتباينة هو التعبير الوحيد عن عواطف الشعب وآماله وأفكاره فحصل بذلك على موضوعات وأفكار جديدة ترتبط اساسا بمقاومة الأتراك الغزاة . وكان اللون الاكثر بروزا من فنون الادب الشعبي هو الملحمة التي نجد آثارها منذ القرن السادس عشر تقريبا . وهناك مجموعات كاملة من القصائد الملحمية تحكي عن الأحداث والشخصيات الهامة في الصراع الرهيب بين الأتراك واليوغسلاف . وهناك ـ على سبيل المثال ـ مجموعة كاملة من القصائد عن معركة واحدة هي معركة كوسوفو وعن الأبطال الذين سقطوا في ساحتها ، وعن تفاصيلها ووقائعها وما الى ذلك . وتوجد ايضا مجموعة قصائد عن البطل اليوغسلافي ماركو كاركيفيتش وعن مبارزاته ولقاءاته مع البطل العربي . وفي هذه القصائد تبرز روح الثورة والنضال والتضحية والبطولة . وهنا يتخذ الأبطال ملامح أسطورية لا تمحي ، فالبطل ماركو كارليفيتش يتحول الى رمز للنضال من أجل العدالة والشعب والحرية ، ويصبح العربي رمزا للبطش والاستبداد والطغيان وما الى ذلك من الرموز التي سرعان ما اختلطت بالرموز الأسطورية . وكان المقصود أساسا من هذه الرموز هو رفع الحال النضالية لدى جماهير الشعب واشعال حماسه لمواجهة أي مستعمر أو غاز ، وهكذا يمتزج الواقع التاريخي الفعلي بخيال المنشدين وبأحوالهم النفسية ،

(١٤٧) ميودراج بوبوفيتش ، د.الرومانسية ، ، الجزء الأول ، بلغراد ١٩٧٤ ، ص١١ .

وهكذا تمتزج قضايا ومعارك الماضي بقضايا الحاضر ومعاركه . وقد أبدع المنشدون في هذا المزج بين الواقع والخيال بحيث يصعب الفصل بينهما .

وخلال القرن الثامن عشر لم يكن الأدب الشعبي معروفا لدى جماهير المثقفين اليوغسلاف . ويرجح أن الاهتمام الفعلي بهذا النوع من الأدب بدأ منذ عام ١٧٧٤م حينما أطلع الكاتب الايطالي البرتو فورتيس (١٧٤١ ـ ١٨٠٣م) الرأي العام على القصائد الشعبية اليوغسلافية من خلال ترجمته للقصيدة الشعبية المشهورة عن زوجة حسن أغا[١٤٨] .

وعلى أثر ذلك أخذ الشعر الملحمي ينتشر ويتغلغل بين جميع طبقات الشعب ، وأدى الانتشار الى اثراء مضمونه وتكامل أشكاله بحيث انه في نهاية القرن الثامن عشر وعلى الأخص خلال الثورة التي انفجرت من عام ١٨٠٤ وحتى عام ١٨١٥م عاشت الملاحم عصرها الذهبي ، خاصة أن المنشدين اخذوا يفرضون ذاتيتهم وبطولة الثورة على القصائد الملحمية مما صبغها بصبغة رومانسية وحيث انهم كانوا في اشعارهم يدعون الى تغيير المجتمع الاقطاعي البالي عن طريق الثورة فقد كانوا باشعارهم هذه يبكرون بالدعوة الى عصر الرومانسية في الادب اليوغسلافي بوجه عام .

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كان للأدب الشعبي اليوغسلافي وعلى الأخص الشعر ـ التفوق على مؤلفات الادباء اليوغسلاف من حيث الاصالة وعمق الأفكار والموضوعات ومن حيث الانتشار الاجتماعي والجغرافي . وبينما كان الأدباء اليوغسلاف المثقفون يعبرون عن وعي الجزء المثقف من المجتمع ، كان الأدب الشعبي وعلى الأخص شعر الملاحم يحمل بين جنباته روح وآمال الشعب كله . وعن طريق القصائد الملحمية كانت الاساطير القومية تربط برباط قومي جميع طبقات الشعب في جميع أنحاء البلاد . وخلال القرن الثامن عشر أصبح شعر الملاحم الشعبي قوة تلقائية للشعب . وفي بداية القرن التالي فرض نفسه كأدب قومي رئيسي . وفي ثورة ١٨٠٤ ـ ١٨١٥م سيكون هذا الشعر الملحمي رسولا وأداة للثورة القومية والاجتماعية . وبوجه عام كان للأدب الشعبي أهمية قومية ، ذلك لأنه لم يكن يعرف التقسيمات وكان يتجاوز الحدود الاقليمية والقومية[١٤٩] .

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ فوك كراجيتش يجمع ويسجل بشكل منتظم جميع المؤلفات الشعبية وشرع في نشرها في كتاب تلو الآخر[١٥٠] . وبفضله وبفضل اتصالاته العلمية مع اوروبا أصبح الشعر الشعبي اليوغسلافي محل اهتمام وعناية كبار رجال الثقافة في العالم وعلى الأخص الرومانسيين منهم ، وأخذ يدرسه ويترجمه كبار رجال الثقافة في العالم امثال هردرو والاخوة جريم وجوته وبروسبير ووالتر سكوت وبوشكين وميتسكيفيتر وغيرهم ، واخذت الرومانسية الاوروبية ـ وعلى الأخص الالمانية والمجرية ـ تستوحي الالهام من الشعر الشعبي اليوغسلافي . هذا علاوة على اقتراب الادب الشعبي من ناحية حريته ولاحدوديته وتحريره للذات الابداعية للانسان ـ من الروح الرومانسية ومن افكارها التي أخذت تسيطر على الادب العالمي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

وكانت لغة الشعر الشعبي لغة أدبية خصبة متكاملة ، وبينما تفيض لغة الشعب بالخصب والجمال والنضارة، لم يكن للأدب المكتوب لغة ادبية حقيقية مما جعل الجماهير المتخلفة ثقافيا تقبل على تذوق الشعر الشعبي وتتعلق به وبانشاده وتبتعد أكثر فاكثر عن الأدب الفني المثقف واتاحت زيادة انتشار الشعر الشعبي الى ان يفرض لغته على الشعر الفني في يوغسلافيا خلال

---

(١٤٨) المعجم الادبي اليوغسلافي ، بلغراد ١٩٧١ ، ص٣٥١ .
(١٤٩) ميودراج بوبوفيتش ، الرومانسية ، ص١٣ .
(١٥٠) الاعمال المختارة لفوك كراجيتش ، بلغراد ١٩٦٤ ، ص٢٧ .

القرن التاسع عشر ، وبذلك كان الشعر الشعبي سباقا الى توحيد الشعب توحيدا لغويا وبالتالي توحيدا روحيا قبل جميع الحركات والافكار الخاصة بتوحيد الشعوب اليوغسلافية .

وتميز الأدب الشعبي وخاصة الشعر بأسلوبه وبافكاره وموضوعاته وبنقاوة وسلاسة لغته وبارتفاع قيمته الفنية والابداعية ، ومن ثم فقد أخذ يؤثر على الأدب المكتوب الذي كان أقل في المستوى واضعف في الاسلوب والافكار والذي كان تائها بين الكلاسيكية والعاطفية .

الرومانسية والأدب الالمانيان :

ألمحنا فيما سبق الى ان الفترة التي كثر فيها عدد المؤلفات المرتبطة بشخصية العربي هي الفترة التي كانت تسيطر عليها الأفكار الرومانسية ، وان معظم كتاب هذه المؤلفات من الرومانسيين ، وبذلك يكون ظهور شخصية العربي راجعا إلى تأثر الأدباء المذكورين بالرومانسية وبأفكارها . والمعروف ان الرومانسية هي من الظواهر الأدبية التي سادت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وظهرت أولا في المانيا ثم انتقلت منها الى انجلترا وفرنسا وروسيا والى باقي البلاد الاوروبية . ومن العسير ان نعطي تعريفا قصيرا لهذا المذهب الأدبي المعقد الجوانب . وكتب الأديب الالماني فريدرش شليجل (١٧٧٢ - ١٨٢٩م) انه جمع محاولات تعريف الرومانسية في مائة وخمس وعشرين صفحة ، وقد أحصى بعض مؤرخي الادب عام ١٩٢٥ مائة وخمسين تعريفا للرومانسية[١٥١] . ولاشك ان معرفة الرومانسية تحتاج الى الالمام باتجاهاتها ، وربط هذه الاتجاهات بالحقائق التاريخية والاجتماعية ليمكن فهم الروح الرومانسية في خصائصها واستجابتها للحاجات الفنية للمجتمع ، ذلك لأن الرومانسية روح عامة تسيطر على مشاعر الرومانسي وارائه وهي مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ وبالحياة الاجتماعية .

والرومانسية في يوغسلافيا انبثقت عن المدرسة الالمانية الرومانسية . وفي الوقت الذي يظهر فيه اليوغسلاف على ساحة الثقافة الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبحوا يجدون أسوتهم في الالمان المتفوقين عنهم ثقافيا . وبالرغم من ان الانسكلوبيديين الفرنسيين هم الذين لهم الشعبية الكبرى في العالم اذ أن المثقفين اليوغسلاف كانوا يتجهون الى الجامعات الالمانية لتلقي العلم ولسماع محاضرات الفلاسفة الالمان أمثال فولوف وايرهارد ثم كانت وشيلنج وهيجل وخاصة الشاعر هردر الذي بذر البذور لدى اليوغسلاف بأفكاره عن الشعر الشعبي وعن تنبؤاته وعن مستقبل السلاف . وفي مجال الادب كما في مجال الفلسفة التأثير الالماني هو المسيطر وهو الأقوى بشكل خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر[١٥٢] . وفي هذه الفترة تنشر الصحف في صربيا ترجمات من الأدب الالماني للأدباء هردر وفيلاند وشيلر وجوته وغيرهم .

وفي أغلب الأحيان كان الالمان هم الملهمون للكثير من الاتجاهات التقدمية في مجال الادب . ولاشك ان اتجاه الجيل الرومانسي الجديد نحو الروح الشعبية ونحو الادب الشعبي ونحو الافكار الخاصة بالدفاع عن الثقافة المحلية ونقاء لغة الشعب . هذا كله كان تحت تأثير الرومانسيين الالمان ، وعدد كبير من الأسماء البارزة في العلوم والآداب الالمانية يعضدون فوك كراجيتش في اصلاحاته اللغوية وفي نضاله من اجل ادخال الروح الشعبية في الأدب ، ومنهم جريم وجوته وتالفي وزانكه وجرهارد وبيرخ وفاتر ، وكذلك الجامعات في يينا وجيتنجن تعضده كذلك[١٥٣] . ومن الجلي ان الالمان

---

(١٥١) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ١ .

(١٥٢) ميودراج بريوفيتش ، « تاريخ الادب الصربي » ، بلغراد ١٩٧٢ ، ص ٢٩ .

(١٥٣) ميودراج بريوفويتش ، « الرومانسية » ، ص ١٥ .

يؤثرون على شكل الملامح الثقافية لليوغسلاف خلال هذه الفترة وتأثيرهم أقوى من تأثير الفرنسيين والانجليز والروس، والوطنيون اليوغسلاف ـ اسوة بالالمان ـ يصرون على ايقاظ روح الشعب الذي يجدون منابعها في ماضيه ، ويركزون كذلك على العنصر الفولكلوري والقومي التاريخي . وهكذا أخذ اليوغسلاف يعرفون قيمتهم الذاتية الحقيقية تحت تأثير الالمان ، فالصحف الالمانية في فيينا هي أول صحف تكتب عن الأدباء اليوغسلاف حتى قبل الصحف اليوغسلافية نفسها وتنشر ترجمة القصائد الشعبية اليوغسلافية .

وهناك بعض الكتاب الأوروبيين كتبوا بشعبية كبيرة عن الشرق باعتباره بلاد الخيال والاحلام ، ذلك لأن شعوب الشرق وعاداتهم وتقاليدهم ـ وعلى الأخص كما صورتهم ليالي الف ليلة وليلة ـ كانت تبدو غاية في الطرافة ، وكانت مصدر الهام للأدباء والشعراء(١٥٤) ومعظم الادباء المشهورين امثال جوته وبايرون وبوشكين ولامارتين وميتسيكيفيتش وغيرهم تحمسوا للشرق في عصر الرومانسية ومن اقوال فريدرش شليجل واضع نظريات الرومانسية الالمانية انه « يجب علينا ان نبحث في الشرق عن أسمى المواد والصور الرومانسية » . وولع الرومانسيون بطبيعة الشرق الجميلة ومناظره العجيبة وشمسه الوضاءة المشرقة ،وكان فلوبير يذوب شوقا للشرق ليبحث فيه عن صور(١٥٥) . أما في يوغسلافيا فان الاهتمام بالشرق كان علاوة على هذه الأمور مدفوعا بظروف محلية(١٥٦) .

ونظرة واحدة الى المجلات الأدبية في يوغسلافيا تبين انه كان يوجد بها الكثير من الترجمات . وكان ببعض المجلات الأدبية أجزاء أو أبواب ثابتة للشعر وللنثر المترجم . وهذا طبعا تأسي بالمجلات الأدبية الالمانية . وعلى سبيل المثال لا الحصر تنشر مجلة « فويفوجانكا » اليوغسلافية في عام ١٨٥٢ مقالا عن الشعر العربي ، وتنشر مجلة « سيدميتسا » ترجمة غير حرفية لبعض القصص العربية ولبعض الأمثال الشعبية العربية والتركية(١٥٧) . وكانت الترجمة تتم من جميع اللغات الاجنبية الهامة تقريبا . وفي بعض الاحيان كانت توجد صور لبعض المناطق او الشخصيات العربية(١٥٨) ومن الأمور المتناقضة ان الكتاب الرومانسيين اليوغوسلاف كانوا يعشقون الشعر الاسلامي اليوغسلافي أي الشعر الذي كتبه المسلمون اليوغسلاف بينما كانوا قبل ذلك يكرهون الاتراك وتمتلىء قلوبهم بالبغض تجاههم(١٥٩) . وتفسير هذه الظاهرة ان الرومانسيين الصرب في بحثهم عن قواعد التذوق في الادب الالماني الرومانسي في ذلك الحين ـ الذي كان مفعما أكثر من أي ادب اخر بالميل نحو الشرق والتعاطف معه ـ تحمسوا هم ايضا للشرق ونسوا بغضهم وكراهيتهم للاتراك . ولا ننسى ان الاديب الرومانسي الفرنسي فيكتور هيجو رسم لاستانبول التركية صورة تكادتباري بها باريس جمالا وفتنة(١٦٠) .

وينبغي ان نذكر انه كان في يوغسلافيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر اهتمام خاص باللغة الالمانية وقراءة مؤلفات الكتاب الالمان . فالمجلات الادبية الصربية تنشر عن طريق الترجمة من الالمانية كثيرا

(١٥٤) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ٦٣ .
(١٥٥) المصدر السابق ، ص ٦٥ .
(١٥٦) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ٣٠١ .
(١٥٧) يوفان سكرليتش ، « يعقوب إجينانوفيتش » ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص ٦٦ .
(١٥٨) على سبيل المثال تنشر صحيفة « شومادنيكا » في عدد ٣٥ لعام ١٨٥٢ ، ص ١٣٧ صورة لمنظر على نهر النيل ، وتنشر مجلة « يافور في عدد ٣٠ لعام ١٨٦٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ صورة لنساء أحد الأعراب في الصحراء ، ومجلة « فيناتس » في عدد ٣٥ لعام ١٨٨٣ ص ٥٦١ منظرا للنيل عند القاهرة ، وفي عددها ٤٢ ، ص ٦٧٣ ، صورة للموصل بالعراق .
(١٥٩) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ١٥٤ .
(١٦٠) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ٦٦ .

من مؤلفات الشعوب الاخرى ، ومنها على سبيل المثال ترجمة مؤلفات بايرون وشكسبير وبيتشر ستيوفا ودفوا وفولتير ولاسيج وبيلتسكي وبوشكين ولامارتين وغيرهم . وتصبح المراجع والكتب الالمانية مصادر لدراسة تاريخ الادب . واول كتاب لتاريخ الادب الصربي كتبه مؤلفه شافريك في عام ١٨٢٦ باللغة الالمانية ، وهناك كذلك كتب أخرى عن اليوغسلاف باللغة الالمانية . وهناك بعض الأدباء اليوغسلاف الذين ينشرون مؤلفاتهم باللغة الالمانية .

وهذا ناتج عن تعلم معظم المثقفين اليوغسلاف في المانيا ، فمنذ المهد واليوغسلاف يعرفون لغتين : لغة وطنهم واللغة الالمانية . وهم يدرسون الادب الالماني في المدارس المتوسطة والعليا الجامعية . وفي المكتبات الشخصية نجد في الاغلب العدد الأكبر من الكتب والمجلات باللغة الالمانية . واليوغسلاف يقرأون مؤلفات الادباء الالمان في اصولها ويترجمون بعضها . وبعض الكتاب يحاكون المؤلفات الالمانية ، وبعض آخر يترجم الاعمال الالمانية ويضفي عليها الطابع اليوغسلافي اي يعالجها ويحورها ويكيفها لاحتياجات القراء ودون تقيد بالأصل ، وفي اغلب الاحيان يفعل ذلك دون ان يذكر اسم المؤلف الاصلي .

والمعروف ان الادب الرومانسي انصرف الى احياء العصور الوسطى في القصص التاريخية وفي عنايته ببعث ماضي الامة وتاريخها في مؤلفاته . ويعد والترسكوت رائد القصص التاريخية وسن لمن بعده أصولا ظلت هي المتبعة دون تغيير في مختلف الآداب الاوروبية[١٦١] فكان يختار ابطاله من الماضي البعيد ، وخاصة من أبطال العصور الوسطى ، ويجعل للشخصيات المكان الثاني في قصصه لئلا يتقيد بحقائق التاريخ ، ويجتهد في احياء العصر التاريخي بعاداته وتقاليده وملابسه ومقوماته المختلفة . وقد اجتهد في احياء معالم العصور مع الاستعانة بخياله في ملء الفجوات الزمنية مستعينا بالمعلومات التاريخية الواسعة . وقد تأثر الأدب اليوغسلافي تأثرا كبيرا بهذا الاتجاه الرومانسي ، واكبر دليل هو ما بين ايدينا الآن من عرض للقصص التاريخية التي كتبها الادباء اليوغسلاف واعطوا فيها للعرب أدوارا رئيسية . وهناك من يعتقد ان الاهتمام بالموضوعات التاريخية في الادب اليوغسلافي له جذور أعمق من ذلك وانه لا يمكن قصره على التأثيرات الخارجية فحسب[١٦٢] .

تأثير الأدب المجري :

كان التأثير المجري قويا في الآونة التي نتحدث عنها ، ذلك لأن اليوغسلاف وهم يعيشون بين المجر ويتلقون العلم في المدارس والجامعات المجرية كانوا يتخذون المجر أسوة وبموذجا يحتذون به في حياتهم الخاصة والعامة وعلى الأخص في حركاتهم القومية والسياسية . وكان للتجديد السياسي والأدبي في المجر في حوالي عام ١٨٢٥ صدى كبير بين اليوغسلاف ايضا ، وتأسيا بالمجر أخذ اليوغسلاف يصبغون حياتهم وادبهم بالصبغة القومية ويؤسسون المؤسسات الأدبية والفنية . والكتاب اليوغسلاف الرومانسيون يتعرفون على الأدب المجري المزدهر في الفترة من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٨٦٠م . ويتحمس الشباب المجري واليوغسلافي الموجود في بودابست لقصائد الشاعر الثوري القومي الاجتماعي المجري شاندور بيتيف . وبوجه عام تتم ترجمة اعمال الأدباء والشعراء المجريين الداعين الى الحرية والاستقلال ويؤثرون تأثيرا كبيرا على الشعراء اليوغسلاف في الستينيات من هذا القرن[١٦٣] .

---

(١٦١) المصدر السابق ، ص١٦٧ .

(١٦٢) ميودراج بوبوليتش ، « تاريخ الأدب الصربي » ، ص٢٩ .

(١٦٣) يوفان سكرليتش ، « الرومانسية الواقعية » ، بلغراد ١٩٦٢ ، ص ٢٦ .

معرفة اللغات الأجنبية :

وقد لاحظنا أن عددا كبيرا من الأدباء الذين يكررون ذكر العربي في مؤلفاتهم ويمنحونه الادوار الرئيسية في اعمالهم يجيدون بعضا من اللغات الأجنبية وعلى الأخص اللغات الالمانية والعربية والتركية والمجرية وغيرها . وليس من اللازم ان ندلل هنا على اهمية معرفة اللغات الاجنبية وعلى التأثير الذي يمكن أن يكون لهذه المعرفة على الأدباء اليوغسلاف وعلى أهمية هذا كله بالنسبة لظهور شخصية العربي في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية . وقد دللنا في معرض حديثنا على اللغات الاجنبية التي يعرفها كل كاتب .

للتشبيه :

ثم ان هناك بعض الأدباء اليوغسلاف الذين ذكروا العربي في مؤلفاتهم من اجل التشبيه أي لكي يوضحوا فكرتهم بأفضل اسلوب ممكن وبأصدق ما يمكن وبشكل اكثر واقعية . وعلى سبيل المثال فان الأديب ايفانوف لم يذكر العربي مصادفة في تشبيهه : « سيقول العربي انها واحة ضئيلة للغاية »(١٦٤) ، لأنه أراد ان يكون واقعيا وصادقا في تعبيره ، فاستخدم هذا التشبيه للعربي . ومن جهة اخرى لا يمكن ان يكون هناك شك في ان معرفة الكاتب بالعرب على مستوى عال ، الأمر الذي مكنه من ان يصل الى مثل هذا التشبيه والمجاز الصادق . ومثال آخر يؤكد ان المثال السابق ليس وحيدا على الاطلاق ، وفي هذا المثال (١٦٥) اراد الكاتب « بيترو فيتش برالا » ان يصور كيف ان الشاب يوفو قد تعذب في بحثه عن الفتاة سميليا طوال حياته الى ان وجدها في النهاية بالضبط كما يتعذب العربي في بحثه عن واحة الى ان يجدها في النهاية . ولاشك ان هذا الكاتب كذلك أراد ان يعبر بشكل اكثر صدقا وواقعية فاستخدم هذا التشبيه التصويري .

الخلط بين العرب والأتراك :

أوردنا ان العرب كانوا على نحو ما ممثلين للسلطة التركية خلال سيطرتها على الأراضي اليوغسلافية ، وعند ذكر الاتراك يتعرض المؤلفون اليوغسلاف الى ذكر العرب أيضا والأمور المتعلقة بحضارتهم المادية والروحية . وكثيرا ما كان يحدث خلط بين العرب والاتراك على اساس أن دينهم المشترك هو الاسلام ، وحينما يوجه المؤلف كلمات حادة الى الاسلام فانه يقصد بذلك الاتراك لا العرب ، والدليل على ذلك ما ذكر من انه لولا العرب لما سيطر الاتراك ولما كونوا امبراطوريتهم .

وهذه الأسباب كلها تترابط مع بعضها وتتشابك بحيث يصبح في كثير من الأحيان من العسير للغاية ان نفصل سببا عن آخر .

الخاتمة :

وبناء على هذه الدراسة يمكننا ـ علاوة على ما سبق ذكره ـ ان نفترض آراء اليوغسلاف في العرب . وقد لوحظ ان اليوغسلاف يعرفون العرب معرفة جيدة وواقعية أقرب الى الحقيقة وهو أمر طبيعي للغاية ومنطقي اذا أخذنا في الاعتبار الأسباب التي عددناها وشرحناها لظهور شخصية البطل العربي في الأدب الروائي باللغة الصربو كرواتية . وقد نوهنا الى ان هذه المعرفة لم تكن صحيحة على الدوام واشرنا الى بعض الاوهام والاخطاء في الحكم على العرب وهي أساسا ناتجة عن الترجمات من اللغات الاخرى وعلى الاخص ترجمات بعض المستشرقين من العرب ، وناتجة كذلك عن اوهام الادب الشعبي الذي اختلط فيه الواقع بالخيال والحقيقة بالاسطورة . وكان الأدب الشعبي برومانسيته في كثير من الاحيان يصدر احكامه الخاصة على الأحداث

---

(١٦٤) مجلة فيناتس ١٨٩٥ ، ص ١٠٥ .

(١٦٥) مجلة « حورية البوسنا » ١٩٠٠ ، ص ٣٦٠ .

ويضفي مضامينه على الحقائق التاريخية، وبذلك يخلق نموذجه الخاص به للتاريخ الذي يبتعد كثيرا جدا عن الواقع :

وبصرف النظر عن قبولنا او عدم قبولنا لهذا التعرف اليوغسلافي على العرب وعن نقدنا لآراء اليوغسلاف عن العرب التي تضمنتها النصوص الروائية التي بين ايدينا ، فان الحقيقة الجوهرية والحاسمة انه توجد امامنا كمية كبيرة من المعلومات عن العرب كتبها كتاب يوغسلاف .

واذا كان الأدب يتحدث بلغته الذاتية وبأساليب متباينة عن الناس وعن الحياة، فان المعلومات اليوغسلافية المذكورة عن العرب في الادب الروائي اليوغسلافي هي حديث وحوار فريد عن كل ما رآه اليوغسلاف وسمعوه وجربوه في اتصالهم بالعرب خلال التاريخ . ومن الطبيعي ان هذه المعلومات كلها ليست حقائق علمية مؤكدة نستطيع ان نطبق عليها أساليب البحث العلمي الدقيقة . ولكنها بالتأكيد معلومات تتحدث بوضوح عن العلاقات الدولية وعن كثير من خصائص عصر وزمن .

***

الأحوال الداخلية في سلطنة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ٧٦٤-٧٧٨هـ - ١٣٦٢-١٣٧٦م

حياة ناصر الحجي
قسم التاريخ - جامعة الكويت

لعل أول ما يلفت النظر في دراسة موضوع الأحوال الداخلية في سلطنة المماليك ، في عهد الأشرف شعبان[1] ، هو أن هذا السلطان تولى الحكم وعمره عشر سنين[2] أي أنه كان طفلا محدود التفكير ضيق الادراك مما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي أوصلته الى كرسي السلطنة خلفا للسلطان المعزول صلاح الدين بن محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون . وعلى ذلك ، فاننا نود أن نعرف لماذا ياترى عُزل السلطان صلاح الدين محمد ؟ يقول أبو المحاسن : « أشيع في هذه السنة (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) عن السلطان الملك المنصور محمد أمور شنعة نَفّرت قلوب الأمراء منه ، واتفقوا على خلعه من السلطنة ، فخُلع في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ، وتسلطن بعده ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وحسين[3] المذكور لم يتسلطن غير أنه كان لُقبَ بالأمجد من غير سلطنة . وأخذوا الملك المنصور محمدا وحبسوه داخل الدور السلطانية بقلعة الجبل . وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام ، وليس له فيها من السلطنة إلاّ مجرد الاسم فقط . والأتابك يلبغا[4] هو المتصرف في سائر أمور المملكة[5]» .

ويضيف أبو المحاسن قائلا : « وسبب خلعه والذي أشيع عنه أنه بلغ الأتابك يلبغا أنه كان يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن ، وأنه كان يعمل مكاريا للجواري ويركبهن ويجري هو وراء الحمار بالحوش السلطاني ، وأنه كان يأخذ زنبيلا فيه كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة . وأنه يفسق في الناس ويخل بالصلوات ، وأنه يجلس على كرسي الملك جنبا وأشياء غير ذلك ، فاتفق الأمراء عند ذلك على خلعه ، فخلعوه وهم يلبغا العمري الخاصكي وطيبغا الطويل[6] وأرغون الأسعردي وأرغون الأشرفي وطيبغا العلائي وألجاي اليوسفي[7] وأروس المحمودي وطيدمر البالسي وقطلوبغا المنصوري وغيرهم من المقدمين والطبلخانات والعشروات »[8] .

---

(١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص٢٨٨ .

(٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص٨٣ ، قارن ، بدائع ، جـ ١ ، ص٢١٢ .

(٣) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص٢١٣ - ٢١٥ .

(٥) النجوم ، جـ ١١ ، ص٦ .

(٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص٣٣٢ .

(٧) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص٤٤٣ .

(٨) النجوم ، جـ ١١ ، ص٧ ، انظر كذلك بدائع ، جـ ١ ، ص٢١٢ .

ومن ثم يمكننا أن نستنتج عدداً من الملاحظات حول طبيعة الحال في البلاط السلطاني حينذاك ، فنجد أولاً تسلط كبار الأمراء على صلاحيات السلطان الحاكم اسميا ، والتفرد بادارة شئون الدولة دون الرجوع اليه . وثانيا حرص كبار الأمراء المماليك على تعيين سلطان طفل لا يتجاوز العاشرة من العمر حتى يتمكنوا من التصرف في شئون الدولة دون معارضة أو تدخل منه . ثالثا اصرار هؤلاء الأمراء الأوليجاركية المملوكية على تعيين سلطان من البيت القلاووني على الرغم من أنه كان بوسعهم تعيين أحدهم سلطانا ، ولعل ذلك يعود الى رغبتهم في وجود سلطان شرعي من بيت حاكم معروف لسد أفواه الناس عن الكلام ، بالاضافة الى أن وجود السلطان الطفل على كرسي السلطنة يتيح لهم جميعا فرصة التمتع بصلاحيات الحكم وامتيازات السلطة ، في حين أن وصول أمير قوي الى كرسي الحكم يقيد الى حد كبير ما يتمتع به الآخرون من سلطات في مختلف المجالات . رابعا حرص أولئك الأمراء الأقوياء على أن يكون السلطان الطفل محمود السيرة ، حسن الأخلاق ملتزماً بأصول وقواعد الشريعة الاسلامية فيكون بذلك صفحة مشرقة فاضلة أمام الرعية ولا يثير بالتالي سخط العلماء ، أو مقت رجال الدين ، أو نقمة الرعية بمختلف طبقاتها ، مما يتيح لهم فرصة مناسبة لحكم البلاد كيفما يشاؤون دون الالتفات لقضايا جانبية ناتجة عن سوء أخلاق السلطان أو اعوجاج سلوكه .

وفي ظل هذه المطالب والشروط التي كان الأمراء الأوليجاركية يرغبونها تم وصول السلطان الأشرف شعبان الى حكم سلطنة المماليك .

وعلى ذلك يتبين لنا أهمية الدور الذي يلعبه الأمراء الأوليجاركية في خلع سلطان وتعيين آخر بما يتفق مع مصالحهم العامة والخاصة ، كما أن سير زمام الأمور متعلق باتفاقهم على شخص دون آخر دون بذل أي اعتبار لمشورة الخليفة العباسي أو رأي القضاة الأربعة ، فمتى تم الاتفاق بينهم حصل الخلع ، وتم تعيين الشخصية المناسبة ، ويبقى استدعاء الخليفة العباسي وقضاة القضاء الأربعة لغرض اضفاء طابع الشرعية على الحاكم الجديد مما ييسر للأمراء الأوليجاركية ادارة شئونهم كيفما يرغبون دون معارضة أي فئة في المجتمع .

وعلى ذلك يكون حضور الخليفة والقضاة الأربعة من أجل اقرار خلع السلطان السابق ، وتأكيد شرعية السلطان الجديد ، حيث يتم بعد ذلك جلوس السلطان المتفق عليه على كرسي الحكم ، وتكتمل الصورة بلبس خلعة السلطنة واللقب السلطاني ثم الحلف له تصديقا لمبايعة الخليفة العباسي بصلاحيته وأهليته لكرسي السلطنة ومسئولياتها ، وتبقى مسألة ابلاغ ذلك التغيير في شخصية السلطان الى الأقاليم والأعمال أمراً عادياً ومقبولا ومتوقعا حدوثه بين الفينة والفينة خلال تلك الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك .

وعلى ذلك يكون الأمراء المماليك الأوليجاركية المحور الرئيسي المحرك لما يجري من حوادث مختلفة على مسرح السياسة في البلاط السلطاني ، في حين تكون بقية الأطراف فروعا ثانوية ليس لها من الفعالية قيد أنملة .

بالاضافة إلى كل ذلك يظهر لنا واضحا ذلك الدور المهم الذي قام به يلبغا في خلع المنصور محمد وتولية الأشرف شعبان مما يدل على قوة الصلاحيات التي كان يتمتع بها حينذاك ، ويعود أمر يلبغا الى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون[9] عندما « اشترى مملوكا يدعى يلبغا ، فقربه وأدناه وأفاض عليه احسانه ، وأكرم مثواه ولقبه بالخاصكي ، فكبر شأن يلبغا وعظم حاله »[10] .

ولكن قبل أن نستطرد في معالجة الأحوال الداخلية والعلاقات الخارجية في عهد الأشرف شعبان ـ ربما ـ يجدر بنا أن نعرف شيئا عن شخصية هذا السلطان يقول المقريزي :

« مولده في سنة أربع وخمسين ، ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وشهران وخمسة عشر يوما . وعمره اربع وعشرون سنة . وكان لينا يحب أهل الخير ويقف عندما يحسن له من فعل الخير إلا أنه كان يحب جمع المال وتفرقته . جدد في أيام دولته تفرقة الأقبية الحرير بالطرز المزركش في كل سنة على الأمراء ، مع ركوبهم الخيل وقت لبس الأقبية المذكورة بالسروج الذهب ، والكنابيش الزركشي ، فكان يعم بذلك الوف الأمراء والطبلخاناة والعشرات والمماليك الخاصكية ، على قدر رتبهم . ولم يتقدمه ملك لفعل ذلك . وكانت أيامه في هدوء وسكون ، وأبطل مكسين شنيعين كان يتحصل منهما مال عظيم ، فبطلا من بعده ، ولم يكن فيه أذى ولا تجبر ، بل يرفع يديه ويسأل الله تعالى أن يخرب ديار من يريده بالناس سوءا . بالجملة فكان الى التشبه بالنساء أميل منه الى التشبه بالرجال ، وترك من الأولاد سبعة ذكور : أمير علي ، وأمير حاجي ، وكلاهما

(٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص١٢٤ ـ ١٢٥ .
(١٠) الاعلام ، جـ٤ ، ص١٦٨ .

تسلطن ، وقاسما ، ومحمداً واسماعيل ، وأبابكر ، وأحمد وسبع بنات »[١١].

وبعد مرور قرابة عام على تولي الأشرف شعبان السلطنة ، بدأت سلسلة من الانعامات الأميرية ، فيشير المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م الى أن السلطان قد أنعم على جماعة بأمريات طبلخاناة ، منهم تمرقبا العمري ، ومحمد بن قماري أمير شكار ، والطنبغا الأحمدي ، وأقبغا الصفدي . وأنعم على كل من ابراهيم بن الأمير صرغتمش وطشتمر العلاي[١٢] طاجار من عوض ، وأروس بغا الخليلي ، ورجب بن كلفت التركماني بإمرة عشرة[١٣] كما يذكر مع بداية حوادث السنة التالية أنه :

« أنعم على كل من قطلوبغا البلباني ، وكمشبغا الحموي ، وجنغرا السيفي ، وآقبغا الجوهري بأمرة طبلخاناة ، وعلى كل من سلجوك الرومي ، وأروس السيفي ، وسنقر السيفي بإمرة عشرة »[١٤].

فإذا كنا نعرف أنه الأشرف شعبان كان لا يتعدى الثانية عشرة من العمر فلابد لنا أن ندرك أنه أسبغ بهذه الانعامات الأميرية على هؤلاء المماليك بوحي من أولئك الذين كانوا يحكمون السلطنة بصلاحيات مطلقة وفعاليات غير محدودة .

ولكن الطفل يكبر ويتسع ادراكه ويتعمق في التفكير والنظر فيما يدور حوله من حوادث ووقائع لاخيار له بمنعها ، وبالتالي يبدأ يأمل في العمل على أن يكون له رأي في مسار الأحوال في دولته .

ويظهر أن العامة التي كانت تقاسي الأمرين على يد كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية قد أدركت تلك السلطة القوية التي ابتدأ الأشرف شعبان يمارسها في علاقاته مع الأمراء والخاصة فطمعت في عطفه وشفقته وحمايته من أذى وظلم كبار الاداريين في البلاد .

وأصبح الناس وقد بلغ السلطان الخبر ، فشق عليه وأنكره وقال للأمير بكتمر المؤمني « عجلت بالأضحية على الناس » وتوعده فرجف فؤاده ونحب قلبه ، وقام فلم يزل صاحب فراش حتى مات . وأمر السلطان بالافراج عن المسجونين ، ونودي بالأمان ، وفتح الأسواق ، ففتحت . وقد كان الناس قد أصبحوا على تخوف شديد لما مر بهم في الليل »[١٥].

وعلى ذلك بدأت تظهر الى الوجود تلك العلاقة الودية بين الأشرف شعبان ورعيته من عامة الناس ، فأحس أنهم يجدون فيه النصير الرحيم لحقوقهم من أجل خلاصهم مما يعانونه من ظلم وقهر ، في حين أنهم بدأوا يدركون أن في القلعة سلطاناً يتعاطف مع قضاياهم ويفتح صدره لشكاواهم ضد كبار الولاة وأصحاب السلطة .

وتشير المصادر التاريخية المعاصرة الى تلك الرابطة الوثيقة التي كانت قائمة بين الأشرف شعبان والعامة حيث كان يكن لهم الود والرحمة ، ولعل ذلك يعود الى يوم وقوف العامة الى جانبه في حركة المماليك الأجلاب « لما قصدوا أذى السلطان مع الأمير أسندمر الخاصكي ، فاستجاشت العوام وقتلوا الأجلاب ، وجعلوهم مطرّحين على التراب ، وهم غلف بغير ختان ، فعلم بذلك أنهم نصاري بعيدون عن الايمان ، فصارت العوام عند السلطان في أعز مكانة يحبهم لنصرتهم له ، وقيامهم معه ، فصاروا له جيشا ملتزمين الطاعات من غير جوامك ولا اقطاعات »[١٦].

ويعقب النويري الاسكندراني على هذه الواقعة بقوله :

فلما نصحت العوام للسلطان ، ألقى الله في قلبه محبته لهم في جميع البلدان ، حتى أهل الاسكندرية نالوا من احسانه أن نثر عليهم الذهب فالتقطوه وكل منهم بما حصل له منه أخذه وذهب ، تال به السبب ، وتركهم يتفرجون بايوان ملكه ، ويشاهدون جمال حسنه ، من غير طرد ولا منع[١٧] . وعلى ذلك يمكن القول أن الأحوال السياسية التي عانى منها الأشرف شعبان كان لها بالغ الأثر في تلك المشاعر الطيبة التي كان يحملها لرعاياه من العامة ، وفي نفس الوقت كانت تلك الأوضاع سببا رئيسيا في تعاطف العامة معه ومحبتهم اياه واشفاقهم عليه .

ومع ذلك فان بعض المؤرخين للعصر المملوكي كانوا يرون أن

---

(١١) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٨٢ - ٢٨٣ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٢٤ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٢ ، شذرات ، جـ٦ ، ص٢٠٠ .

(١٢) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص٣٢١ .

(١٣) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٠ - ٩١ .

(١٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٧ .

(١٥) السلوك ، جـ٣ ، ص١٧٣ - ١٧٤ ، انظر كذلك بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٦ .

(١٦) الالمام ، جـ٦ ، ص١٨ .

(١٧) الالمام ، جـ٦ ، ص١٩ .

زمام الأمور في السلطنة مازال في قبضة كبار الأمراء المماليك مدبري أحوال البلاد فيقول ابن حجر :

وعلى ذلك فان كلاً من الخليفة والسلطان كان دون سلطة أو قوة تذكر ، في حين حظي الأمراء الأوليجاركية بمختلف السلطات والصلاحيات غير المحدودة ، وبما أن هؤلاء أصحاب الكلمة في الدولة كانوا منشغلين بمصالحهم الخاصة ومنافعهم المادية[١٨] فان الكثير من الأمور غير العادية والمشينة كانت تقع في أثناء هذه السنوات من حكم الأشرف شعبان حيث يذكر في عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م « اشتد الحر بوادي الأخيضر على الحاج الشامي وهم رجوع ، فمات منهم جماعة عطشا ، وكان السبب في ذلك أن أمير الحاج في الذهاب ضرب الموكلين على الفساقي بسبب قلة ما بها من الماء فلما عاد الحاج لم يجدوا أولئك ملوءا في الفساقي أصلا حقدا منهم على ما صنع بهم ، وكان في ظن الحاج أنهم يجدون الفساقي ملأى فقدموا معتمدين على ذلك حتى ان بعضهم سقي ببقية ما معه من الماء للجمال ، ولما وصلوا فلم يجدوا الماء اقتتلوا على البئر فمات منهم خلق كثير من الزحمة ومن العطش ، ومات بعد ذلك منهم أكثر ممن قتل بالعطش »[١٩].

ولا شك أن وقوع هذه الحادثة يدل على أن نواب الأقاليم المملوكية كانوا لا يبذلون الاهتمام الكافي لمصلحة الاقليم وسكانه ، مما أوقع بهؤلاء الكثير من الأمور البغيضة في سلطنة تميزت بالثراء الفاحش في خزائنها مع انتعاش أسواقها التجارية وازدهار علاقاتها الاقتصادية مع الدول القريبة والبعيدة .

وبالاضافة الى صغر سن الأشرف شعبان ، وانفراد كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية بالسلطة والحكم ، وانشغال نواب الأقاليم بمنافعهم الشخصية ، فان مجلس الأشرف شعبان كان يفتقر الى أهل العلم والنصيحة الطيبة حيث اتصف أصحاب المشورة بالجهل وسوء النصيحة ، ولكن رغم كل ذلك فان الأشرف شعبان كان حريصا على أن يقتدي بمن سبقه من سلاطين أسرة بني قلاوون ، فاجتهد في عمارة مدرسته حيث يقول ابن حجر :

« وفي صفر (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) ابتدى في عمارة المدرسة الأشرفية تحت قلعة الجبل ، وهدم من جوارها عدة أماكن للناس ، منها بيت كبير لسنقر الجمالي ونقل اليها عمودان عظيمان وجدا في بيت خوند الحجازية عمة السلطان برحبة العيد ، وكان المشد عليها اينبك »[٢٠] ويؤكد المقريزي ذلك بقوله انه :

« في نصف صفر (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) ابتدأ السلطان بعمارة مدرسة بالصوة تجاه الطبلخاناة من قلعة الجبل ، وشرع في هدم بيت الأمير سنقر الجمالي ، ليضيفه اليها .

وفي هذا الشهر وجد في قصر الحجازية من القاهرة - حيث كان باب الزمرد أحد أبواب القصر الفاطمي - تجاه رحبة باب العيد عمودان عظيمان الى الغاية تحت ردم ، فرسم بسحبهما الى عمارة السلطان »[٢١].

كذلك كانت :

« خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان وكانت ذات حسن وجمال وذات دين وخير ولها بر ومعروف وهي التي أنشأت المدرسة التي بالتبانة ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة وحضورا في كل يوم للصوفية ومكتبا للأيتام وحوضا وسبيلا ولما ماتت دفنت بهذه المدرسة »[٢٢].

كما عني معاصرو هذا العهد بانشاء المدارس بكثرة حتى ازداد عددها الى درجة كبيرة[٢٣]. وهذا يدل على وفرة الأموال في أيدي كبار رجالات الدولة ، الى جانب الازدياد المطرد في أعداد طلاب العلم والمعرفة .

ويبدو في أواخر حياة الأشرف شعبان أنه أخذ يؤسس لنفسه

---

(١٨) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٠٤ .

(١٩) انباء ، جـ١ ، ص٣٧ .

(٢٠) انباء ، جـ١ ، ص١٥٣ .

(٢١) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥١ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٦٧ .

(٢٢) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢٣) انباء ، جـ١ ، ص١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٩٩ - ٤٠٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٧ .

قاعدة متينة يرتكز عليها من أجل بداية عهد جديد يكون فيه صاحب الكلمة العليا في الدولة حيث يذكر المقريزي أنه :

« في أخريات هذا الشهر (ربيع الاخر سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م) استجد السلطان عدة خاصكية من مماليكه ، وأسكنهم في بيت الأمير أنوك[٢٤] بجوار باب الدار من القلعة ، وقدم عليهم الطواشي شرف الدين مختص الأشرفي وأمره أن يوقفهم بين يديه ، ولا يدع أحدا منهم يجلس ، فصاروا مضافية منهم الأمير بشتاك عبدالكريم الخاصكي »[٢٥] [٢٦] .

الا أن القدر لم يمهل الأشراف شعبان كي يعاصر هذا العهد الجديد فالأمراء المماليك الأوليجاركية ما كانوا ليسمحوا له بهذا فتخلصوا منه ، وقد « كانت مدة سلطنة الملك الأشرف أربع عشرة وشهرين وعشرين يوما ، ومات وعمره أربع وعشرون سنة » .[٢٧]

وبعد هذه النبذة عن حياة الأشراف شعبان وواقعة توليه الحكم في سلطنة المماليك لا بد لنا من الدراسة لحوادث هذا العهد حتى يمكننا أن نتعرف بشكل موضوعي على علاقة الأشرف شعبان بما كان يحدث في الدولة من تغييرات ووقائع والى أى مدى كانت الأوضاع الداخلية في السلطنة مرتبطة بشخص السلطان الجالس على كرسي الحكم ، وبالتالي العوامل التي أثرت في مجرى الحوادث حتى أعطت هذا العهد طابعا خاصا يستحق الدراسة .

●●●

مع بداية حوادث سنة ٧٦٧هـ /١٣٦٥ م يذكر المقريزي بعض التفاصيل الخاصة بغزو القبارصة وبعض طوائف الفرنج الصليبيين للاسكندرية ، بينما كان السلطان الأشرف شعبان والأتابك منشغلين بالصيد خارج القاهرة ، من ذلك قوله :

« وفيه سرح السلطان على العادة الى سرياقوس ، وتوجه الأمير يلبغا الأتابك الى الصيد بالعباسة . فورد الخبر في يوم السبت رابع عشرينه بمنازلة الفرنج مدينة الاسكندرية ، وأنهم قدموا يوم الأربعاء حادى عشرينه ، فسرح الطائر بذلك الى الأمير يلبغا ، فتوهم أن تكون هذه مكيدة يكاد بها فبادر ودخل الى داره خارج القاهرة ، وتبعه السلطان ، فصعد القلعة في يوم الأحد خامس عشرينه ، فلما تحقق يلبغا الخبر عدى النيل من ساعته الى البر الغربي ، وتلاحق به أصحابه ونودى بالقاهرة : من تأخر من الأجناد غدا حل دمه وماله فخرج الناس أفواجا ، وسار السلطان بعساكره الى الطرانة ، وقدم عسكرا عليه الأمير قطلوبغا المنصوري والأمير كوكنداى ، والأمير خليل بن قوصون ليدركوا أهل الثغر ، فقدر الله تعالى في ذلك أن أهل الثغر كان قد بلغهم منذ أشهر اهتمام الفرنج بغزوهم فكتب بذلك الأمير صلاح الدين خليل بن عرام ـ متولى الثغر ـ الى السلطان والأمير يلبغا ، فلم يكن من الدولة اهتمام بأمرهم فلما توجه ابن عرام الى الحج ، واستناب عنه في الثغر الأمير جنغرا ـ أحد أمراء العشرات ـ وجاء أوان قدوم مراكب البنادقة من الفرنج ، لاح للناظور عدة قلاع في البحر ثم قدم في بكرة يوم الأربعاء حادى عشرينه الى الميناء ، ثمانية أغربة ، وتلاها من الأغربة والقراقر ما بلغت عدتها ما بين سبعين الى ثمانين قطعة ، فأغلق المسلمون أبواب المدينة ، وركبوا الأسوار بآلة الحرب ، وخرجت طائفة الى ظاهر البلد وباتوا يتحارسون ، وخرجوا بكرة يوم الخميس يريدون لقاء العدو فلم يتحرك الفرنج لهم طول يومهم ، وليلة الجمعة فقدم بكرة يوم الجمعة طوايف من عربان البحيرة وغيرهم ، ومضوا جهة المنار ، وقد نزل من الفرنج جماعة في الليل بخيولهم وكمنوا في الترب التي بظاهر المدينة ، فلما تكاثر جمع المسلمين من العربان ، وأهل الثغر ، عند المنار ، برز لهم غراب الى بحر السلسلة ، حتى قارب السور ، فقاتله المسلمون قتالا شديدا ، قتل فيه عدة من الفرنج ، واستشهد جماعة من المسلمين وخرج اليهم أهل المدينة وصاروا فرقتين ، فرقة مضت مع العربان نحو المنار ! وفرقة وقفت تقاتل الفرنج بالغراب ، وخرجت الباعة والصبيان وصاروا في لهو ، وليس لهم اكتراث بالعدو فضرب الفرنج عند ذلك نفيرهم ، فخرج الكمين وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، ورمى الفرنج من المراكب بالسهام فانهزم المسلمون ، وركب الفرنج أقفيتهم بالسيف ، ونزل بقيتهم الى البر فملكوه . بغير مانع ، وقدموا مراكبهم الى الاسوار فاستشهد خلق كثير من المسلمين . وهلك منهم في الازدحام عند عبور باب المدينة جماعة . وخلت الأسوار من الحياة ، فنصب الفرنج سلالم ، وطلعو السور ، وأخذوا نحو الصناعة ، فحرقوا ما بها وألقوا النار فيها

(٢٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤٤٧ .

(٢٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص١٠ .

(٢٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٦٦ .

(٢٧) النجوم ، جـ ١١ ، ص٨٣ .

ومضوا الى باب السدرة ، وعلقوا الصليب عليه فانحشر الناس الى باب رشيد ، وأحرقوه ، ومروا منه على وجوههم وتركوا المدينة مفتوحة بما فيها للفرنج ، وأخذ الأمير جنغرا ما كان في بيت المال ، وقاد معه خمسين تاجرا من تجار الفرنج كانوا مسجونين عنده ، ومضى هو وعامة الناس الى جهة دمنهور فدخل وقت الضحى من يوم الجمعة ، ملك قبرص ـ واسمه ربير بطرس ابن ريوك ـ وشق المدينة وهو راكب ، فاستلم الفرنج الناس بالسيف ، ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق ، وأسروا وسبوا خلائق كثيرة ، وأحرقوا عدة أماكن ، وهلك في الزحام بباب رشيد ، مالا يقع عليه حصر ، فأعلن الفرنج بدينهم ، وانضم اليهم من كان بالثغر من النصارى ، ودلوهم على دور الأغنياء فأخذوا ما فيها واستمروا كذلك يقتلون ويأسرون ويسبون ، وينهبون ويحرقون من ضحوة نهار الجمعة الى بكرة نهار الأحد ، فرفعوا السيف ، وخرجوا بالأسرى والغنايم الى مراكبهم ، وأقاموا بها الى يوم الخميس ثامن عشرينه ، ثم أقلعوا ومعهم خمسة آلاف أسير فكانت اقامتهم ثمانية أيام ، وكانوا عدة طوائف ، فكان فيهم من البنادقة أربعة وعشرون غرابا ومن الجنوية غرابين ، ومن أهل رودس عشرة أغربة ، والفرنسيس في خمسة أغربة ، وبقية الأغربة من أهل قبرص .

وكان مسيرهم عند قدوم الأمير يلبغا بمن معه ، فلما قدم عليه الامير قطلوبغا المنصوري ، لم يجد معه سوى عشرين فارسا وعليه اقامة فارس ، فغضب عليه ، ووجد الأمر فات ، فكتب بذلك الى السلطان ، فعاد الى القلعة ، وبعث بابن عرام ، نائب الاسكندرية على عادته ، فأمر الامير يلبغا بمواراة من استشهد من المسلمين ورم ما احترق ، وغضب على جنغرا وهدده ، وعاد فأخذ في التأهب لغزو الفرنج ، وتتبعت النصارى فقبض على جميع من بديار مصر ، وبلاد الشام وغيرهما من الفرنج ، وأحضر البطريق والنصارى ، وألزموا بحمل أموالهم ، لفكاك أسرى المسلمين من أيدى الفرنج ، وكتب بذلك الى البلاد الشامية ، وتتبعت ديارات النصارى ، التي بأعمال مصر كلها ، وألزم سكانها باظهار أموالهم وأوانيهم ، وعوقبوا على ذلك » .(٢٨)

وفي الحقيقة نحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل واقعة الاسكندرية حيث أن هذا الموضوع قد درس أكثر من مرة على يد الباحثين من المسلمين والغربيين ، الا أن ما يهمنا في هذا الموضوع هو علاقته بوجود الأشرف شعبان على كرسي الحكم ، أو بتعبير آخر لماذا وقعت غزوة الاسكندرية في عهد الأشرف شعبان دون غيره من السلاطين المماليك ؟ لكي نعرف الاجابة على ذلك ينبغي علينا أن نطلع على الأسباب التي يعددها النويرى الاسكندراني ، وبالتالي حملت بطرس لوزجنان على غزو الاسكندرية(٢٩) ، كما يشرح النويرى بالتفصيل كيفية نجاح هذه الحملة القبرصية في دخول الاسكندرية من أجل السلب والنهب والتخريب .(٣٠) كذلك كان لعامل المفاجأة أثر ايجابي في حصول الفرنج على الكثير من الغنائم الثمينة والنفائس الغالية ،(٣١) ولكن مع كل هذا الشرح المفصل الا أن هذا المؤرخ المعاصر لا يشير على الاطلاق الى أى نوع من العلاقة بين وجود الأشرف شعبان على كرسي السلطنة وبين وقوع هذه الحملة في هذا الوقت بالذات ، مما يجعلنا نتساءل ونحاول البحث عما يفيد هذه الظاهرة ، وما اذا كان باستطاعتنا أن نعتمد بعض الحوادث كدليل يفيد أى نوع من العلاقات التي يمكن أن تربط بل وتحتم قدوم هذه الحملة في هذه الفترة .

ويبدو أن وقوع الغزو الصليبي ضد الاسكندرية جعل سلطنة المماليك متخوفة دائما من احتمال حدوث ذلك مرة أخرى(٣٢) ، ولذا كان الأشرف شعبان دائم الاهتمام بحراسة ثغرى الاسكندرية ودمياط خشية تعرضهما لأى هجوم كما حدث ذلك سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠ م حينما أرسل « الى الاسكندرية من الأمراء اسنبغا بن البوبكرى وقطلبغا المنصوري والأمير المعروف بسيدى ابن عمة السلطان الملك الأشرف شعبان ، وأتى أيضا لها أروس البشتكي والأمير ابن تفردمر والأمير شرف الدين بن الازكشي والأمير اخواتبغا جلب والأمير مبارك الطازي بأجنادهم ومماليكهم ، فكان دخولهم الاسكندرية مستهل ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة غير من بها مثل ملك الأمراء صلاح الدين خليل بن عرام وتمراز أمير حاجب وبكتمر العلمي أمير حاجب ايضا بما معهم من الأجناد والمماليك الى غير ذلك من قياد الصناعة ورماة القاعات المتطوعة والعربان المركزة ظاهر الاسكندرية وبباطنها أيضا الألوف

(٢٨) السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٤ ـ ١٠٧ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٢٩ ـ ٣٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٤ ـ ٢١٥

(٢٩) الالمام ، جـ ٢ ، ص٩٢ ـ ١١٨ .

(٣٠) الالمام ، جـ ٢ ، ص١٣٠ ـ ١٦٠ .

(٣١) الالمام ، جـ ٢ ، ص١٧١ ـ ١٧٤ .

(٣٢) شذرات ، جـ ٦ ، ص٢٠٨ .

المؤلفة من أهلها والغرباء التي صارت مقيمة بها ومهيأة للحرب فيه وكلهم طالبون الجهاد في سبيل الله ، وما النصر الا من عند الله » .(٣٣)

ترى ألا يدل هذا على أن الأشرف شعبان قد أصبح أكثر وعيا وادراكا لما يدور حوله من حوادث ووقائع ؟ واذا كان الرد بالايجاب فلا بد لنا أن نتساءل عن مدى علاقة هذا الوعي والادراك الفكري عند الأشرف شعبان بعزله بعد فترة على يد كبار الأمراء المماليك . على أية حال حتى نعرف الجواب على ذلك يجب علينا أن نؤكد بأن الحذر والترقب قد أصبح من مسئوليات السلطنة المملوكية تجاه الثغور المصرية من أجل حماية البلاد ضد غزوات الصليبيين ، مما يجعلنا نحس بشكل مؤكد أن صفحة من صفحات الجهاد الاسلامي بدأت تظهر مرة أخرى ضمن برنامج السياسة الاستراتيجية للحكم المملوكي ، ومن النتائج التي ترتبت على واقعة الاسكندرية اهتمام سلطنة المماليك بتجهيز سفن حربية مناسبة للدفاع عن الثغور المملوكية من ناحية ، وغزو الفرنج في عقر دارهم من ناحية أخرى انتقاما للاعتداءات الصليبية المتكررة ضد السواحل الاسلامية الأمر الذي كان يتطلب اتخاذ الاجراءات الحربية الحازمة من أجل استقرار وأمن السلطنة بجميع أقاليمها السواحلية في مصر والشام ، يقول المقريزي :

« وفي هذه المدة اهتم الامير يلبغا الاتابك بعمل الشواني البحرية لغزو الفرنج فجمع من الأخشاب والحديد والآلات ما يجل وصفه ، وشرع النجارون في عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى ، وتولى عملها الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينة(٣٤) فقام في ذلك اتم قيام ، وبذل همته ، واستفرغ وسعه ، وتصدى له ليلا ونهارا ، واستقر شاد العمل الأمير علاء الدين طيبغا العلاى استادار الأمير يلبغا ، وناظر العمل بهاء الدين بن المفسر فقدم للعمل مائة شيني ، ما بين غراب وطريدة ، برسم حمل الخيل ، فكان أمرا مهولا ، ونودى بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ، ومن يريد الجهاد في سبيل الله ، الى بيت الأمير يلبغا الاتابك للعرض وأخذ النفقة للسفر في المراكب فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر ، وكتبت أسماؤهم ، وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت لهم نقباء ، وقاموا في مساعدة صناع المراكب ، وكتب الى طرابلس ، ونحوها من بلاد الساحل بانشاء مراكب حربية ، وجمع رجالها ، فكان عملا جليلا »(٣٥) .

ويبدو أنه نتيجة لهذه الاستعدادات العسكرية الشاملة في القاهرة أن « قدم الخبر بفرار تجار الفرنج من الاسكندرية من البحر ، فلم يقدر عليهم »(٣٦) .

يظهر لنا من هذه الحادثة أن الأمير يلبغا كان صاحب الكلمة العليا في حقل الشئون العسكرية والحربية بحيث أن مختلف القرارات التي تتخذ في هذا المجال كانت مقرونة برأيه الشخصي دون منازع ، بالاضافة لما يترتب على ذلك من مصروفات وموظفين ورتب عسكرية جديدة وقرارات حاسمة تحدد طبيعة الجهود الحربية الواجب بذلها .

وبناء على دراستنا لحقيقة أحوال هذا العهد ، فاننا لا نستغرب هذه الصلاحيات العسكرية المطلقة التي تمتع بها الأتابك يلبغا في حقل الشئون الحربية ولكننا نسأل الى أى مدى استطاع يلبغا أن ينجح في القبض على زمام الأمور في هذا المجال الاستراتيجي داخل الجهاز الاداري ؟ يقول المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥ م :

« طلب نقباء أجناد الحركة ، وألزموا بأن لا يخفوا أحدا من أجناد الحلقة ، وهددوا ان أخفوا أحدا منهم ، فكتب كل نقيب مضافيه وأحضروهم للعرض ، فقطع الأمير يلبغا منهم جماعة »(٣٧) .

وهذا يبين أن الأمير يلبغا لم يكن ذلك الشخص القوى المهيب الذي يستطيع أن يلزم نقباء الجيش بالخضوع لأوامره ونواهيه ، ولذا فهم لا يتورعون عن اخفاء من تحت امرتهم من الجند ، مما تطلب مثولهم بين يدي يلبغا كي يسمعوا التهديد الشخصي منه بالعقاب الشديد ما لم يبادروا الى العمل الفورى لحضور الجند وجمعهم للعرض من أجل تصنيفهم طبقا لما يتلاءم مع الاحتياجات العسكرية للدولة .

ورغم كل ذلك فان الأمير يلبغا مضي في تكملة الاستعدادات الحربية لمحاربة الفرنج ، وبناء على ذلك :

استقر الشريف بكتمر والى القاهرة في ولاية الاسكندرية عوضا

---

(٣٣) الالمام ، جـ ٣ ، ص٨٦ - ٨٧ .

(٣٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٦١ .

(٣٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص١١٣ .

(٣٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص١١٤ .

(٣٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص١١٤ .

عن صلاح الدين خليل بن عرام ، وكانت ولاية حرب ، فاستقر لبكتمر نيابة بتقدمه ألف ، وهو أول من باشرهـا نيابة سلطنة ، وعمل معه حاجب أمير طبلخاناة ووالى حرب امرية عشرة وخمس مائة فارس بالثغرة »[٣٨]

ومن ثم ؛ فقد كان لواقعة الاسكندرية أثر كبير على التصنيف الاداري للاسكندرية من مجرد ثغر مثل دمياط الى نيابة على رأسها نائب مثل نيابة الشام ، مما يدل على زيادة الاهتمام بها عقب ذلك الهجوم الصليبي المعروف ، وقد تبع ذلك تعزيز في الكتائب الحربية القائمة على حمايتها ضد اى اعتداء مفاجىء .

على أية حال يبدو أن الاستعدادات كانت قائمة على قدم وساق من اجل عمارة السفن الحربية للانتقام لما وقع للاسكندرية حيث يذكر المقريزي معلقا على ما حدث في الاسكندرية بقوله :

« فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ومنهـا اختلت أحوالهـا واتضع أهلهـا ، وقلت أمـوالهم ، وزالت نعمهم ، وكان الناس في القاهرة ، منذ أعوام كثيـرة تجرى عـلى ألسنتهم جميعا : « في يوم الجمعة تؤخذ الاسكنـدرية » ، فكـان كذلك ، ومـر بمن خرج من الاسكنـدرية في وقت الهـزيمة ، من العربان بلاء لا يوصف » .[٣٩]

ويضيف المقريزي قائلا :

« وفي هـذا الشهـر (ربيـع الاول سنـة ٧٦٩هـ /١٣٦٧ م) كملت عمارة الشواني البحرية ، وعدتها مابة قطعة ما بين غربان وطرايد ، فاستخدم الأمير يلبغا لها من الرجال ما يكفيها ، وجمعهم ما بين مغاربة وتراكمين وصعايدة ، ورتب لهم رؤسـاء ونقباء ، وأنفق فيهم المعاليم المقررة ، وشحن الأغـربة بـالعدد الحـربية ، وجميع آلات السلاح ، فلما تهيأت كلها فـرقها الأمير يلبغا عـلى الأمراء ، فتسلم كل أمير ما خصه من الشواني وزينها بأعـلامه ، وأقام فيها الطبول والأبواق وأنزل بها عدة من مماليكه ، وقد ألبسهم آلة الحرب ، وأمـرهم بالمسـير فيها للغـزو اذا سارت ، ثم ركب السلطان والأمير يلبغا وسائر أمراء الدولة وأعيانها لرؤ ية الشواني ، وقد كملت وتم أمرها ، وتهيأت رجالها ، وخرج الناس من أقطار المدينة وأتوا من كل جهة في يوم السبت رابع عشرين ربيع الأول .

فســار السلطان بعساكـره من القلعة الى جـزيـرة أروى ، وركب الحراقة ، وقد امتلأت تلك الأراضي بالناس ، فقدمت الشواني ، ولعبت رجالها بالآلات الحربية ، كما يفعل عند لقاء العدو ، ودقت كوساتهـا ونفخت بوقـاتها ، وأفلتت النفـوط ، فكان أمـرا مهولا ومنظرا جميلا ، وأمرا حسنا لو تم »[٤٠]

ومن جانب آخر :

رسم للأمير طيبغـا حاجب الحـاجب بعرض أجنـاد الحلقة ، فاستدعاهم وجلس لعرضهم بجزيرة أروى حيث تعمـل الشواني الحربية ، وتشدد عليهم ، وقطع منهم جماعة في عدة أيام ، حتى منهم ثلثيهم » .[٤١]

بالاضافة الى ذلك :

« قدم الحاج محمد التازي المغربي ريس البحر ، وقد تسلم من الشواني التي عمرها يلبغا غرابا كمله بالعدد والآلات ، وشحنـه بالمقاتلة من رجال المغاربة ، وأخذ غرابا آخر من الاسكندرية مكملا بالعدد والرجال ، ومضى في البحر وهجم على الفـرنج ، فملك منهم غرابا قتل منه جماعة وأسر باقيهم ، وقدم في تاسـع عشرين شعبان فتلقاه من الأمراء بتجمل عظيم ، وخرج الناس الى لقائه وسروا به ، فلما تمثل بين يدي السلطان خلع عليه ، وأنعم عليه بجميع ما أحضره من الغنايم » .[٤٢]

ويبدو كذلك أنه من أسباب الاجتهاد في بناء السفن الحربية « أن جماعة من الفرنج صاروا يعيشون في البحر ويقطعون الطريق على التجار ، فعين لهم السلطان تجريدة وأنشأ مائة غراب »[٤٣] .

علاوة على ذلك كان الفرنج يقومون بعمليات التجسس لصالح حكوماتهم فيأتون الى الثغور المصرية على هيئة تجار يحملون البضائع الغربية لتبادلها ببضائع الشرق الاسلامي ، في حين أنهم في حقيقة الأمر يتجسسون على الأوضاع الداخلية في سلطنة المماليك لمعرفة حقيقة القوة العسكرية والانضباط الاجتماعي داخل البلاد من أجل هدف خدمة أطماع دولهم في غزو سواحـل السلطنة المملوكيـة ، وعلى ذلك يذكر المقريزي أنه :

« في خامس عشرينه (جمادى الاولى ٧٦٩-٨ /١٣٦٧ م) قدم الاسكندرية نحو ماية وخمسين من الفرنج في الخشب ، وذلك انه

---

(٣٨) السلوك ، جـ٣ ، ١١٤ ـ ١١٥ .

(٣٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٨ .

(٤٠) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٩ ـ ١٣٠ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٣٥ ـ ٣٦ ، شذرات ، جـ٦ ، ص٢٠٨ .

(٤١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٩ .

(٤٢) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٩ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٣٥ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٧ .

(٤٣) بدائع ، جـ١ ، ص٢١٧ .

ورد ميناء الاسكندرية عدة مراكب في هيئة أنها مراكب تحمل البضائع فدخل منها الى المدينة نحو مائة وخمسين رجلا فعوقهم الأمير اسنبغا النائب حتى يتبيث له أمرهم ، فسارت المراكب مقلعة وعادت من حيث أتت ، فأمر بتخشيب أيدي المذكورين وحملهم الى القاهرة ليرى السلطان فيهم رأيه » .(٤٤)

ويظهر أن غزو الفرنج للاسكندرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥ م كان سهلا هينا ومغنيا وفيرا ، مما شجع الفرنج على العزم للقيام بعمليات هجومية أكثر ضد الثغور المملوكية من أجل التخريب والهدم من ناحية ، والسلب والنهب من ناحية أخرى ، من ذلك قول المقريزي :

« وفي أول صفر (٧٦٩هـ /١٣٦٧ م) ورد الخبر بوصول الفرنج الى طرابلس في مائة وثلاثين مركبا ، ما بين شيني وقرقورة وغراب وطريدة ، وشختور عليها متملك قبرص ، ومتملك رودس ، والاسبتار ، وكان النائب غائبا ، فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا ، حتى اقتحم العدو المدينة ، ونهبوا من أسواقها ، فتحامل المسلمون عليهم واشتدوا في قتالهم ، حتى أخرجوهم بعد ما قتلوا منهم نحو الألف ، واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلا . فركبوا سفنهم وانقلبوا خايبين ، فرموا بمدينة اياس فيماية قطعة ، فسار اليهم الأمير منكلي بغا نايب حلب ،(٤٥) وقد فر أهل اياس منها ، فدخلها الفرنج فلما قدم نايب حلب جلوا عنها » .(٤٦)

ويناقش ابن اياس هذا الغزو الصليبي بأن الفرنج كانوا يستهدفون كافة الثغور المملوكية بدليل قدومهم قلعة اياس في بادىء الأمر فلما تصدت لهم العساكر المملوكية توجهوا نحو طرابلس فكان غزوهم لها سهلا بسبب غياب نائبها في الوقت الذي كانت فيه الأوليجاركية الحاكمة مشغولة بالوباء الذي كان منتشرا في القاهرة ، مما أعاق ارسال نجدة عسكرية الى الثغور السورية لحمايتها ضد الهجوم الصليبي اذ نجده يقول :

« ثم دخلت سنة تسع وستين وسبعمائة فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا الى قلعة اياس وحاصروها فخرج اليهم الأمير منكلي بغا الشمسي نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاءوا في مائتي مركب حربية ، فلما جاءوا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة فطمع الفرنج في أخذ المدينة ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس فوقعوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفي انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاءوا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت ملوك الافرنج كسرة قوية ورحلوا عن ساحل طرابلس فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى اضطرب السلطان من ذلك والأمراء وقصدوا أن يعينوا لهم تجريدة وكان في تلك السنة بالقاهرة وباء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة في كل يوم اثنا عشر ألف جنازة وكان أكثر عمله في الأطفال والغرباء » .(٤٧)

ولكن رغم انشغال الأمراء المماليك بمصالحهم الشخصية ونفوذهم ، وسوء الأوضاع الداخلية بسبب ارتفاع اسعار الغذاء وانتشار الأوبئة ، الا أن الدولة المملوكية بدأت تهتم بحماية الثغور المملوكية ، وبدأ السلطان الأشرف شعبان يدرك ضرورة تحصين هذه المناطق المفتوحة ، ولذا نجده يزور الاسكندرية حيث يقول النويري الاسكندراني انه :

« في يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى سنة سبعين وسبعماية دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ثغر الاسكندرية المحروس »(٤٨) .

وقد فرح أهل الاسكندرية بزيارة الأشرف شعبان حيث « اجتمعت الرجال والنساء والعبيد والاماء لرؤيته ، فصاروا يدعون له ، والنساء صرن يزرغتن فرحا به لشبابه وحسنه وجماله »(٤٩) .

ويفهم من كتابات المعاصرين أن الهدف من زيارة الأشرف شعبان للاسكندرية هو الاطمئنان الشخصي على سير الأحوال فيها

(٤٤) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٦ .
(٤٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص١٣٧ .
(٤٦) السلوك ، جـ٣ ص١٤٩ ـ ١٥٠ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٥٢-٥٣ .
(٤٧) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٢ ، انظر كذلك ، شذرات ، جـ٦ ، ص٢١٣ .
(٤٨) الالمام ، جـ٥ ، ص٣٨٠ .
(٤٩) الالمام ، جـ٦ ، ص٠١ .

بعد هجوم الحملة الصليبية القبرصية حيث يذكر النويري الاسكندراني انه :

« في ذلك اليوم لم يبق بالاسكندرية افرنجي تاجر ولا علج غلام الا وتحصن بالمراكب خوفا من السلطان . . . ثم ان السلطان شاهد المكان الذي صعدت منه العلوج السور والخندق الجديد الذي أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم ، ولم يكن قبل ذلك المكان خندق . . . ثم شاهد السلطان أيضا الخندق الغربي المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق » .(٥٠)

وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن احتياطات الدفاع قد تم انجازها جميعا على أتم حال عقب وقوع الغزو الفرنجي ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل تم ذلك بأمر من السلطان الذي كان سنه حينذاك « دون الستة عشر »(٥١) ؟

وقد كشفت تلك الزيارة الى الاسكندرية عن الكثير من صفات الأشرف شعبان ذلك أنه :

« لما طلع دار الطراز قلع قلويته ، وتخفف حتى صار في ملوطة وقبع نوفرة وجعل يطوف على الأنوال يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها ، لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناع كيف ينسجون ، والى مكاكيهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد من أعلى الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى ولها يحطون وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشاذرونات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة الى أن يكمل كل طائر وغير » .(٥٢)

ولا شك أن هذا يدل على مدى حبه للمعرفة والرغبة الشديدة في التعرف على ما كان موجودا في السلطنة من حرف وصناعة بقصد الاستفادة الشخصية لخدمة الصالح العام .

ورغم كل هذه الاستعدادات والاهتمام الكبير من جانب الحكومة المملوكية الا أن الفرنج استمروا في غزوهم الصليبي ضد مدن السواحل المملوكية ، ففي سنة ٧٧٠ هـ/١٣٦٩ م « كثر الخوف ببلاد الساحل من الفرنج والعشير ، ووصل الى صيدا عدة من مراكب الفرنج فحاربوا المسلمين ، ورجعوا خايبين »(٥٣)

بالاضافة الى ذلك فقد حدث في :

« يوم الجمعة ثامن ذي الحجة (٧٧٠ هـ/١٣٦٩ م) قدم الخبر بنزول أربع قطايع على الاسكندرية من الفرنج ، وأنهم رموا على المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون أميرا ، منهم ثلاثة من الألوف وعشرة من الطبلخاناة وعشرة من أمراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت أن المغاربة والتركمان نزلوا في المراكب ، وقاتلوا الفرنج وقتلوا منهم نحو المائة وغنموا منهم مركبا »(٥٤) .

الى جانب أنه :

« في أول المحرم (٧٧١ هـ/١٣٦٩) ورد قاصد الامير ناصر الدين محمد ابن الامير طاز ، ومعه اربعة وعشرون من الفرنج ، أسرهم من ناحية الطينة ، وكان مجردا بها »(٥٥) .

الا أنه يبدو أن هذه الغزوات السريعة والمفاجئة لم تحقق للفرنج سوى بعض المغانم ، وفشلوا في أن يحصلوا من ورائها على أي انتصار عسكري أو سياسي ، بل على العكس من ذلك تماما ، فقد تشنجت العلاقات الاقتصادية بين دولة المماليك والدول الاوروبية ، وتجمدت الروابط التجارية ، وحرم الفرنج من القدوم الى الأسواق المملوكية الأمر الذي جعلهم يفكرون في اقامة الصلح مع السلطنة من أجل خدمة منافعهم التجارية .

ومن جانب آخر بدأت الأوضاع في الدول ذات الاهتمامات الصليبية تخدم السلامة والأمن داخل الأقاليم المملوكية .

اذ يقول ابن العماد :

« في رجبها (٧٧٠ هـ/١٣٦٨ م) هلك صاحب قبرص الذي هجم على الاسكندرية وتولى ولده فأرسل بهدية وطلب الهدنة فوقع الصلح ولله الحمد »(٥٦) .

ومن ثم بدأت وفود الدول الاوروبية تقدم الى البلاط السلطاني تسأل الصلح والصداقة فيذكر المقريزي أنه :

---

(٥٠) الالمام ، جـ ٦ ، ص٣ ـ ٤ .
(٥١) الالمام ، جـ ٦ ، ص٣ .
(٥٢) الالمام ، جـ ٦ ، ص٤ ـ ٥ .
(٥٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٧٤ .
(٥٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٥٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٨٠ .
(٥٦) شذرات ، جـ ٦ ، ص٢١٧ .

« أول صفر (٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م) قدمت رسل الفرنج لطلب الصلح ، فحلفوا على ألا يغدروا ولا يخونوا وخلع عليهم ، وسافروا ومعهم من يحلف ملكهم ، وأخذت منهم رهائن بالقلعة »(٥٧) .

بل علاوة على ذلك عمل الفرنج على اعادة الأسرى المسلمين الى بلادهم رغبة في كسب رضى الحكام المماليك وعودة العلاقات التجارية الى ازدهارها السابق حيث يقول المقريزي :

وفيه (جمادي الاول سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م عادت رسل الفرنج ومعهم عدة ممن أسروهم من المسلمين نحو المائة »(٥٨) .

وقد تكررت مسألة اطلاق سراح الأسرى المسلمين بعد ذلك أكثر من مرة حيث « بعث الفرنج من بقى من أسرى المسلمين بلادهم ، وتم الصلح وفتحت كنيسة القيامة بالقدس »(٥٩) .

من ذلك يظهر أن الفرنج رغبوا بالاضافة الى تحقيق المصالح الاقتصادية فتح كنيسة القيامة في القدس ، ولذا عمل سفراؤهم على مناشدة السلاطين المماليك لتحقيق ذلك ، فتم لهم ما أرادوا ـ ربما ـ رغبة من الدولة المملوكية في ارساء قواعد علاقات الصداقة بين الجانبين .

ورغم ذلك فقد كان يحدث بين فترة وأخرى أن تقوم جماعة صليبية بشن الغارات ضد السواحل المملوكية اذ يذكر ابن اياس أنه في عام ٧٧٥ هـ/١٣٧٢ م « جاءت الفرنج الى رشيد فخرج اليهم الأتابكي منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم وهربوا منهم الى بلادهم »(٦٠) .

ولكن على الرغم من حدوث ذلك الا أن سير الحوادث يؤكد أن تلك الاعتداءات كانت تتم على يد جماعات صليبية صغيرة ، وأن الممالك المسيحية ذات الاهتمامات التجارية كانت حريصة على العلاقات الودية مع سلطنة المماليك .

ويؤكد المقريزي ذلك بالاشارة الى حرص حاكم جنوه على اطلاق سراح الأسرى المسلمين وراسالهم الى القاهرة محملين بالهدايا الى البلاط السلطاني مع الاعتذار لما حدث للاسكندرية على يد حاكم قبرص عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م ، وأن ملك جنوه كان حريصا على حسن معاملة الأسرى الذين بعث بهم حاكم قبرص اليه هدية له ، يرسلهم الى بلادهم رغبة في كسب صداقة سلطنة المماليك اذ يقول المقريزي :

« قدمت أيضا رسل متملك جنوة بستين أسيرا من أهل الاسكندرية ، وهدية للسلطان وللأمير يلبغا ، وذكر أن هذه الأسرى كانت نصيبه ، واعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الاسكندرية الا بعد وقوعها ، وانه مستمر على الصلح ، ومتى قدر على أخذ متملك قبرص قبضه وقتله . فقبلت هديته وأثنى الأسرى عليه خيرا ، وأن متملك قبرص لما عاد من الاسكندرية ، قسم ما غنمه منها بين ملوك الفرنج ، وبعث بهؤلاء الى متملك جنوه ، فعرضهم وتغمم لهم ، وأحسن اليهم ، وكساهم ، وأجرى لهم الرواتب حتى بعث بهم »(٦١) .

ولا شك أنه كان لصغر سن الأشرف شعبان وانهماك الأمراء المماليك الأوليجاركية بمصالحهم المادية بالغ الأثر في حدوث واقعة الاسكندرية وما تبعها من غزوات صليبية ضد الثغور المملوكية ، اذ وجد حكام الفرنج في تلك الأحوال الظرف المناسب لتحقيق رغباتهم في الانتقام من سلطنة المماليك التي كان لها فضل القضاء على المعاقل الصليبية في الساحل السوري ، الا أن هذه الممالك الفرنجية وجدت أنها قطعت بذلك علاقاتهم التجارية وروابطها الاقتصادية بدولة المماليك مما كان له آثاره الاقتصادية السيئة فما كان منها الا أن عجلت بارسال السفارات والبعثات للاعتذار عما حدث واسترضاء الحكومة المملوكية بتقديم الهدايا الثمينة واطلاق سراح الأسرى المسلمين .

وعلى ذلك يظهر لنا من سير الحوادث أن الفئة الحاكمة في سلطنة المماليك هي تلك الطبقة من الأمراء المماليك الأوليجاركية أصحاب الكلمة العليا في تسيير سياسة الدولة داخليا وخارجيا اذ أننا نعرف أن الأشرف شعبان كان لا يتجاوز العاشرة من العمر عندما تولى الحكم ، كما أننا ندرك أن ذلك تم من أجل هدف أن تحظى تلك الجماعة بما تريد من السلطة والقوة والصلاحيات غير المحدودة ، وعلى ذلك فان اختياره لذلك المنصب الحساس لم يأت اعتباطا وانما عن قصد معين هدفت اليه الطبقة صاحبة الكلمة الفعلية في حكم البلاد ، وقد ترتب على ذلك أن « استقر الأتابك

---

(٥٧) السلوك ، جـ٣ ، ص١٨٩ .
(٥٨) السلوك ، جـ٣ ، ص١٩٠ .
(٥٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٩١ .
(٦٠) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٩ .
(٦١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٢ -١٢٣ .

يلبغا العمري الخاصكي مدبر الممالك ومعه خجداشه الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح على عادتها »[٦٢] .

فاذا كنا نعلم أن يلبغا العمري هو الذي مهد لجلوس الأشرف شعبان على كرسي الحكم ، فليس لنا أن نستغرب استقراره في منصب الأتابكية وتدبير شئون المملكة ، ولكن لا بد لنا أن ندهش حين نقرأ عن هيبة المكانة التي يتمتع بها القضاء في نفس يلبغا رغم ما كان بيده من سلطات مطلقة اذ يذكر المقريزي أنه :

« في يوم الاثنين سادس عشر جمادي الآخرة عدى قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة[٦٣] النيل الى بر الجيزة ، وقد خيم بها السلطان على العادة ، بكوم برا ، وسأل الأمير يلبغا في اعفائه من القضاء ، وتشفع اليه بمصحف معه ، وعزل نفسه ، وقام ، وقد اقر الامير يلبغا نواب الحكم على حالهم فلما عدى السلطان النيل وصعد القلعة في يوم الخميس تاسع عشرة ، وجه الامير يلبغا بالامير جرجي امير آخور[٦٤] الى ابن جماعة يدخل عليه في عوده الى وظيفة القضاء ، فامتنع غاية الامتناع ، فبعث اليه بكاتب السر علاء الدين علي ابن فضل الله فلم يجبه ايضا ، فركب الامير يلبغا بنفسه في يوم السبت حادي عشرينه ، واتاه الى منزله بالجامع الاقمر والح في سؤاله وهو يمتنع . فلما ايس منه سأله ان يعين من يصلح ، فاشار بولاية ابي البقاء ، ثم لصلى وراءه المغرب وانصرف . فاستدعى في يوم الاثنين ثالث عشرينه بأبي البقاء وفوض اليه السلطان قضاء القضاة ، عوضا عن ابن جماعة وخلع عليه واضاف اليه نظر وقف الاشراف ، وخلع معه على بهاء الدين احمد بن السبكي[٦٥] واستقر في قضاء العسكر عوضا عن ابي البقاء ، وخلع على تاج الدين محمد ابن بهاء الدين ، واستقر في وكالة الخاص زيادة على ما بيده من نظر المارستان .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه ، خلع على عز الدين بن جماعة واستقر في نظر جامع احمد بن طولون ، وتدريس الفقه ، وتدريس الحديث به ، ورتب لـه على بيت المـال في كـل شهـر الف درهم »[٦٦] .

وهذا التصرف من ابن جماعة واصراره على ترك وظيفة القضاء برهان على رفضه لما كان يجري من وقائع على ارض السلطنة المملوكية وداخل الجهاز الاداري الحكومي ، في حين كان الامير يلبغا حريصا على استمرار هذه الشخصيات في وظائفها القضائية ـ ربما ـ لانه يرى ان رفض هؤلاء لتلك الوظائف يتضمن دلالة واضحة امام الرعية لرفض رجال الدين لسياسة يلبغا وعدم التزامه بمبادىء الشريعة الاسلامية ، فكان دائم الالحاح على استرضائهم واستبقائهم في وظائفهم القضائية ، ولكن يبدو ان ابن جماعة كان مصرا على الامتناع عن ممارسة هذه الوظيفة والاقتصار على العناية بشئون تدريس الموضوعات الدينية بعيدا عما يجري على يد الامراء المماليك الاوليجاركية .

ومن جانب آخر تمتع هؤلاء الامراء المماليك الاوليجاركية بثروات كبيرة وعاشوا في رفاهية من العيش الكريم ، ولاشك ان ذلك قد حصل اما نتيجة لوصولهم الى خزائن الدولة بسهولة دون سؤال من احد ، واما بالتطاول على حقوق الرعية وظلمها والتعدي على امتيازاتها وثرواتها واراضيها في حين كان الاشرف شعبان مجردا من كافة السلطات التي تتيح له التدخل والاستفسار ، بل كان لا يتاح له معرفة ضخامة تلك الثروات الا بعد وفاة اصحابها حيث يقول المقريزي :

« وفي ثانية (جمادي الآخرة سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) عرضت مماليك الامير الكبير الاتابك منكلي بغا الشمسي على السلطان بعد موته وهم مائتان وواحد ، فجعلهم في خدمة ولده امير علي »[٦٧] .

ومن ثم فاننا قليلا ما نقرأ انه وصل الى تلك المناصب العليا في البلاد شخصيات تتصف بعمل الخير من اجل الصالح العام ، الا ان هذا لا يعني انه لم يصل الى تلك المناصب شخصيات من هذا النمط ، وقد كان من بين هؤلاء المخلصين على المارديني اذ يذكر ابن اياس « وفي هذه السنة (٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) توفي الامير علي الماردیني[٦٨] الناصري نائب السلطنة بمصر وكان اميرا دينا خيرا كثير البر والصدقات قليل الاذى كثير الخير قريبا من الناس تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ومات والناس راضون عنه وكثر عليه الاسف والحزن من الناس ولما مات خلع السلطان على

(٦٢) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٢٤ .

(٦٣) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ .

(٦٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٦٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٩ .

(٦٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٦٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٤ .

(٦٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ .

الامير طشتمر العلائي واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الامير علي المارديني الناصري »(٦٩) .

وقد تعاقب على منصبي الاتابكية ونيابة السلطنة عدد من الشخصيات المهمة التي حظيت بصلاحيات مطلقة ورواتب وفيرة ، فنلاحظ من ضمن حوادث عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م « ان السلطان ارسل خلف المقر السيفي ايدمر نائب طرابلس(٧٠) فلما حضر خلع عليه واستقر به اتابك العساكر عوضا عن الجاي اليوسفي فاقام ايدمر في نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفي الى رحمة الله تعالى فراسل السلطان خلف المقر السيفي منجك اليوسفي نائب(٧١) الشام فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به اتابك العسكر عوضا عن ايدمر ، واضاف اليه نيابة السلطنة مع الاتابكية وفوض اليه امور المملكة قاطبة من الديار المصرية والبلاد الشامية ورسم له بان يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من اربعمائة دينار الى ستمائة دينار ، وكانت عادة نواب السلطنة من قديم الزمان ان لا يخرجوا من الاقطاعات اكثر من اربعمائة دينار الى مادون »(٧٢) .

غير انه يبدو ان الاشرف شعبان عندما كبر وبدأ يدرك طبيعة مجريات الحوادث من حوله اخذ يضجر من تلك القوة التي تمتع بها اولئك الاشخاص ، ومن ثم ابطل في الاشهر الاخيرة قبل مقتله منصب نيابة السلطنة(٧٣) ، ولعل هذا الادراك والوعي هو السبب الرئيسي الذي جعل الامراء الاوليجاركية يعملون على التخلص من الاشرف شعبان حيث بدأوا يحسون انه اخذ ينتهج منهجا آخر مخالفا لما اعتادوه منه ، وكان يرضي نفوسهم بما يتيحه لهم من التلاعب بصلاحيات الحكم وسلطاته فما كان منهم الا ان بادروا بالتخلص منه بالقتل .

من الامور التي تستحق الدراسة ايضا في هذه الحقبة تلك التغييرات الشاملة فيمن يتولى المناصب الادارية العليا في الدولة ، فنجد عند تولي اي سلطان جديد لكرسي الحكم ان ذلك التغيير يشمل ايضا العديد من الوظائف الادارية ، وكأن الجهاز الحاكم كله تغير . يشير بعض مؤرخي العصر المملوكي الى تجديد في وظائف نيابة الشام وحلب وطرابلس وصفد وحماه والكرك وغزة ، وكذلك في ولاية القاهرة وقطيا والجيزة والاشمونين ومنوف ودمياط والفيوم .(٧٤) ترى لماذا كان كبار الامراء يصرون على حدوث هذا التجديد مع تولي كل سلطان جديد طالما اننا ندرك ان هذا التغيير لم يحدث بناء على طلب السلطان الذي لم يتجاوز عمره عشر سنوات ؟ ولا يفهم بالتالي اهمية هذه المناصب او حتى طبيعة عمل من يتولاها ، هل يمكننا ان ندرك ان السبب وراء ذلك هو رغبة هؤلاء الامراء اصحاب السلطة في ايهام الرعية بان عهدا جديدا قد بدأ ، ومن ثم ، فان ذلك يتضمن تغييرات في الجهاز الاداري للدولة . وعلى ذلك فان هذه الطبقة الحاكمة تفترض الجهل في الرعية في مختلف الطبقات الاجتماعية فتغفل ادراكهم بان شيئا لم يتغير بولاية سلطان جديد لا يتعدى العاشرة من العمر ، وان الاحوال مستمرة على ما كانت عليه طالما ان جماعة الامراء الاوليجاركية مازالت تسوس امور الدولة وفقما تريد وبنفس الاسلوب المعتاد قبل ولاية السلطان الجديد ، وان كل الذي تغير ينحصر في خلع طفل وتعيين آخر بدلا منه على كرسي السلطنة حسبما يتناسب مع مطامع هؤلاء الامراء ، ويؤيد ابو المحاسن هذا الاسلوب المتبع لدى اصحاب السلطة عند بداية ولاية اي سلطان جديد ، فيحدث تغيير شامل في شخصيات من يتولون وظائف الدولة(٧٥) - ربما - من اجل تعيين الموالين لهم والعاملين على خدمة مصالحهم ، وربما ايضا كما سبق ان اشرنا لاسكات الالسنة عن التقولات المختلفة حول تلاعب اصحاب السلطة بتعيين سلطان وخلع آخر لما فيه خدمة مطامعهم الشخصية .

كذلك نلاحظ انه عقب وقوع اية مؤامرة يقوم بها احد كبار الامراء المماليك الاوليجاركية وتنتهي بالفشل وظهور فئة متسلطة اخرى يحدث تغيير في الاشخاص المسئولين في الوظائف الادارية بالدولة ، كما يتم عزل جماعة وسجن اخرين ، في حين يحظى البعض بالخلع السلطانية والمناصب الادارية العليا(٧٦) مما يجعلنا نقرر دون شك ان الوصول الى تلك المناصب في ظل ذلك الوضع

(٦٩) بدائع ، جـ ١ ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٧٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص٤٥٨ .

(٧١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص١٣٠ - ١٣١ .

(٧٢) بدائع ، ، جـ ١ ، ص٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٧٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص٢٧١ .

(٧٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص٨٤ - ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٧٥) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ٢٦ .

(٧٦) النجوم ، جـ ١١ ، ص٤٥ - ٤٦ .

غير المستقر ليس دليلا على الكفاءة والقدرة وانما ذلك مرهون بمدى اهمية هذا الشخص في مجال تحقيق مطامع تلك الفئة الجديدة صاحبة السلطة في هذه الوظيفة او ذلك المنصب .

ويصف ابن اياس ذلك الوضع الاداري الجديد عند تولي الاشرف شعبان الحكم على انه نتيجة طبيعية لتغير شخص السلطان الجالس على كرسي السلطنة اذ انه يقول :

« فلما تم امر الاشرف شعبان في السلطنة اقر الاتابكي يلبغا اميرا كبيرا على عادته واستقر بالامير قشتمر المنصوري(٧٧) في نيابة السلطنة عى عادته كما كان ثم عمل الموكب وجلس على سرير الملك وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفي طنبغا الطويل واستقر به امير سلاح عوضا عن الامير ازدمر العمري الناصري(٧٨) الشهير بالخازندار واستقر بالأمير أزدمر المذكور نائب طرابلس وخلع على الأمير عشتقمر المارديني واستقر به أمير مجلس على عادته وخلع على الأمير أرغون الشهير بالأسعردي واستقر به دوادارا كبيرا وخلع على الأمير أرغون الأرقي واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على الأمير طيبغا العلائي واستقر به حاجب الحجاب ثم عمل الموكب الثاني وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم أرباب الوظائف وهم المقر السيفي منكلي بغا الشمسي واستقر به نائب الشام وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلوبغا الأحمدي(٧٩) بأن يكون نائب حلب على عادته ثم خلع على الأمير قشتمر المنصوري واستقر به نائب صفد وخلع على الأمير عمر شاه وهو صاحب القنطرة واستقر به نائب حماه وخلع على الأمير عمر بن أرغون(٨٠) النائب واستقر به نائب غزة ثم فرق الاقطاعات على جماعة من المماليك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ، ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند بكل ما يمكن فاستقام أمره في السلطنة ونفذت أحكامه » .(٨١) .

وتتكرر عمليات الخلع والتنصيب في وظيفة ولاية الأقاليم المملوكية في مصر والشام فيذكر المقريزي :

« واستقر آل ملك السيفي في ولاية الشرقية ، وفخر الدين عثمان الشوفي في ولاية البهنسا ، عوضا عن الشهاب أحمد بن جميل واستقر ابن جميل في ولاية الأشمونين ، واستقر شمس الدين ابن الديناري في ولاية الفيوم ، عوضا عن علاء الدين العمري » .(٨٢) .

وهذا الشيء يدل بشكل مؤكد على عدم استقرار الوضع الاداري والشؤون الداخلية في هذه الأقاليم ، مما يجعلنا نبحث عن السبب في ذلك ، وعلاقته بمسألة صغر سن السلطان الأشرف شعبان .

اعتمادا على مصادر التاريخ المملوكي يتبين لنا أن أصحاب السلطة في هذا العهد كانوا يهدفون الى تغيير شامل لجميع الشخصيات في نيابة الأقاليم وولاياتها(٨٣) ولعل ذلك يعود الى رغبة الأمير يلبغا في تعيين شخصيات جديدة تدين له بالطاعة والولاء ، ويعتمد عليها بالتالي في تحقيق ما يرغب به من مصالح .

ويؤكد ابن اياس هذا الاستمرار في تغيير متولي الوظائف الادارية العليا بقوله :

« ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمائة فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلوبغا الأحمدي نائب حلب وخلع على الأمير طشتمري المارديني واستقر به نائب حلب عوضا عن قطلوبغا الأحمدي ثم خلع على الأمير خليل بن قوصون واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير طشتمر المارديني » .(٨٤) .

وهكذا نلاحظ أن المصادر المملوكية تشير بكثرة الى التغيير في الوظائف الادارية في الدولة سواء في الحسبة أو القضاء أو استيفاء الخاص أو نيابة الأقاليم أو ولاية المدن(٨٥) مما يدل على عدم الاستقرار الاداري في الأجهزة الحكومية ، هل يمكن أن نعتبر هذه الحقيقة اشارة الى عدم الاستقرار في الوضع السياسي داخل دولة المماليك حيث كان السلطان طفلا صغيرا في حين لم يعد يلبغا قادرا

---

(٧٧) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٧٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص٣٧٨ .
(٧٩) انظر ترجمته ؛ الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٣٦ - ٣٣٧ .
(٨٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص٢٢٩ .
(٨١) بدائع ، جـ ١ ، ص٢١٣ .
(٨٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص٩٨ .
(٨٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص٩٩ ، ١٠٠ ، ١٢٠ .
(٨٤) بدائع ، جـ ١ ، ص٢١٣ - ٢١٤ .
(٨٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص٩٦ - ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

على مسك زمام الحكم ، الأمر الذي كان يتطلب التغيير المتواصل في شخصيات الاداريين في الجهاز الحكومي في مصر والشام .

يروي المقريزي أنه « في المحرم (٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م) استعفى الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي[٨٦] من وكالة بيت المال ، حنقا من الوزير فخر الدين بن قزوينة[٨٧] ، فأعفي . وخلع على علاء الدين علي بن عرب[٨٨] واستقر عوضه في الوكالة والكسوة ، مضافا الى حسبة القاهرة »[٨٩] .

ترى هل يمكن أن نعتبر هذا التصرف من الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي على أنه رفض لسوء الأوضاع الادارية ، وما كان يدور في ذلك الجهاز من تلاعب لصالح فئة معينة في البلاط السلطاني ؟ ومن ثم هل نقبل رد فعل علاء الدين علي بن عرب على أن البعض كان يوافق تلك الفئة بما كانت تقوم به من أفعال في سبيل أن يحقق هو بالتالي منفعة خاصة من وراء ذلك ؟ للاجابة على هذه التساؤلات ينبغي علينا معرفة شيء عن أخلاق الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينة . يقول عنه ابن حجر :

« كان ظالما ، جماعا للمال ، كثير الأنفة مستطيلا على الأكابر بجاه يلبغا ، وقد خلف لما مات بيوت الأموال عامرة بالذهب والفضة ، والأهراء بالغلال حتى قيل أنه ترك تكفية ثلاث سنين »[٩٠] .

ولا شك أن هذا القول بما يتضمنه من شرح لسوء سيرة الوزير ابن قزوينة دليل على أن هذا الوزير كان لا يتورع عن اقتراف المظالم ، ومصادرة أموال الناس ، وممارسة الظلم على الأغنياء الضعفاء من أجل الكسب الحرام ، وملء خزائن بيت المال بالذهب والفضة لغرض اشباع أطماع الأمراء المماليك الأوليجاركية وعلى رأسهم يلبغا . وبالطبع فان جمال الدين الأسنوي الذي كان فقيها ماهرا ومعلما ناصحا ومفيدا ، صالحا مع البر والدين والتودد والتواضع »[٩١] لا يمكن أن يوافقه على ما كان يأتيه من المظالم فأعفي نفسه من وظيفة وكالة بيت المال حتى لا يكون بصمته وسكوته موافقا له على ما كان يرتكبه من مظالم في حق الرعية . ومن جانب آخر ربما قبل ابن عرب وظيفة وكالة بيت المال ، أما من أجل تحقيق منفعة مادية ، واما رغبة منه في الاصلاح والحيلولة دون وقوع الظلم في ذلك الجهاز الاداري المهم .

وفي نفس الوقت حرص الأمراء المماليك الأوليجاركية على أن يكون أصحاب الوظائف ذات الاتصال المباشر بالناس من ذوي الأخلاق العليا والصفات المثالية حفاظا على صورة الدولة في نظر الرعية ومنعا لشكاوي التظلم عند القضاة . ولعل أبلغ مثال على ذلك ما يذكره ابن حجر يقول :

« وفيها (٧٧٣هـ -٨/١٣٧١ م) كائنة بعادة القبطي مشارف المواريث الحشرية ادعى عليه بأشياء منها أنه يديم ترك الصلاة فحكم بعض المالكية بقتله فقتل وطيف برأسه ، وكان الرهوني قد تعصب له وأفتى بحقن دمه فلم يقبل منه »[٩٢] .

بالاضافة الى حرص بعض نواب الأقاليم على تطبيق مبادىء الشرف والفضيلة في المجتمعات المحلية التي يتولون ادارة شؤونها من ذلك اشارة ابن حجر ضمن حوادث سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧١ م اذ يقول :

« شدد منجك نائب الشام على أهل اللهو وأمر بقطع اشجار الصفصاف التي بين النهرين وبتخريب المكان الذي أحدث بالشرف الأعلى ، وأزال المنكرات من هذا المكان ومن الذي فوق الجبهة أيضا وهدم الأبنية والحوانيت المستجدة هناك »[٩٣] .

الى جانب ذلك يذكر المقريزي أنه :

« في يوم الاثنين تاسع عشرة (ذي الحجة سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) قبض على الصاحب كريم الدين شاكر ابن الغنام وعلى حواشيه وعلى مقدم الدولة الحاج سيف وشريكه عبيد البازدار ، وعلى الأمير شرف الدين حمزة شاد الدواوين ، وأبطل الوزارة، وأمر فأغلق شباك الوزارة بقاعة الصاحب من قلعة الجبل فخلع على الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي أطلسين ، واستقر مشير الدولة بامرة طبلخاناة ورسم له أن يحمل الدواة والمرملة كما هي عادة الوزراء ، وخلع على سعد الدين ابن الريشة ، وعلى أمين الدين

(٨٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص٤٦٣ .

(٨٧) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٦١ .

(٨٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص١٥٨ .

(٨٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص٩٦ .

(٩٠) الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٦١ .

(٩١) الدرر ، جـ ٢ ، ص٤٦٤ .

(٩٢) انباء ، جـ ١ ، ص٧ .

(٩٣) انباء ، جـ ١ ، ص١٤ .

مين ، واستقرا في نظر الدولة ، ورسم لهما أن يجلسا من وراء شباك الوزارة وهو مغلق ، وخلع على كريم الدين صهر النشو وعلي فخر الدين ابن علم الطويل ، واستقرا في استيفاء الدولة » .[٩٤]

وعلى ذلك يتبين لنا قيام رجال الدولة بنوع من حملة للتطهير شملت بعض الاداريين في الحكومة ـ ربما ـ من أجل الاصلاح والصالح العام . بل زيادة على ذلك تضمنت هذه الحملة ابطال الوزارة بسبب ما ارتكبه الوزراء في السابق من التطاول على حقوق الرعية والتمتع برفاهية زائدة من العيش الوثير حتى اقتضى الوضع القبض على بعضهم ومن حولهم من الحاشية والصبيان . ولعله كان للأشرف شعبان دور فيما حدث للوزارة في هذه الفترة المتأخرة من تاريخ سلطنته . الا ان ابطال الوزارة لم يطل فبعد شهور قلائل تم اعادة منصب الوزارة حيث يذكر المقريزي انه :

« في يوم الاثنين ثامن عشرينه (ربيع الاول سنة ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) خلع على الصاحب تاج الدين النشو الملكي [٩٥] وأعيد الى الوزارة بعد ابطالها [٩٦] وقد يكون ذلك بسبب الحاجة الى وجود وزير في الدولة لادارة بعض الشئون المتعلقة بهذا المنصب الحساس ، أولعل الاشرف شعبان قد وجد في شخص تاج الدين النشو ضالته من حيث الكفاءة والخلق الكريم مما جعله يقدم على اعادة منصب الوزارة في الحكومة المملوكية ، الا اننا نستبعد هذا الرأي بسبب ما يرويه المقريزي من عزل تاج الدين الملكي بعد بعض شهور حيث يذكر أنه .

« في يوم الاحد ثاني عشرين ذي القعدة (٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) عزل الملكي عن الوزارة . وخلع من الغد يوم الاثنين ثالث عشرينه على أمين الدين مين ، واستقر في نظر الدولة ، بغير وزير ، فانفرد الصاحب شمس الدين أبو الفرج المقسي ناظر الخاص بالتدبير وخلع عليه ، واستقر مشير الدولة ، وخلع على أمين الدين جعيص واستقر مستوفي الدولة » . [٩٧]

ونتيجة لذلك كله يمكننا القول بأن الوضع الاداري في سلطنة المماليك كان غير مستقر في هذه الفترة بسبب تلاعب بعض كبار الاداريين بصلاحيات المناصب الادارية العليا في الدولة ، في حين كان الأشرف شعبان صغير السن ، مغبون الحق ، مجردا من السلطة والقوة حتى لم يكن بمقدوره التدخل سواء بالرفض على تعيين شخص بعينه في منصب اداري ، أو حتى بالموافقة على ذلك فقد كانت كافة تلك الأمور تجري خارج نطاق كلمته وسلطانه الاسمي .

ولعله يجدر بنا أن ندرس وضع أحد أولئك الأشخاص الذين تولوا منصب الوزارة في عهد الأشرف شعبان كمثال على ما يذكره المؤرخون لأحوال سلطنة المماليك في هذه الفترة من أن هؤلاء كانوا غير جديرين في القيام بمسئوليات هذا المنصب المهم في جهاز الدولة الاداري . يأتي على رأس هؤلاء « ماجد [٩٨] ابن تاج الدين موسى [٩٩] بن ابي شاكر القبطي المصري فخر الدين ، كان صاحب ديوان يلبغا ، ثم ولي الوزارة في دولة الأشرف ونظر الخاص » . [١٠٠]

وعلى ذلك فان ابن قزوينه لم يأت هذا المنصب بناء على ما كان يتمتع به من خصال وصفات مثالية ، وانما نتيجة لتلك الصلة الوطيدة التي تربطه بمدبر شئون الدولة يلبغا العمري . ومما يدل على سوء تدبيره في أحوال البلاد ما يذكره المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م من أنه :

« ترك بالاهراء السلطانية ما ينيف على ثلثماية ألف أردب . وفي النواحي مغل سنتين . وكان يحمل الى الأمير يلبغا بعد تكفية السلطان ، وتكفية الأمير يلبغا وصرف الرواتب في كل شهر ، ستين ألف دينار . وكان أمينا عارفا مهابا ، عمر بيوت الأموال وخزائن الخاص بأنواع الأموال ؛ الا أنه كان كثير الترفع حتى على الأمراء ، فعذب عذابا شنيعا ، ضرب غير مرة بالمقارع ؛ ولفت أصابع يده اليمنى بالمشاق ، وغمست في الزيت ثم أشعلت بالنار حتى احترقت يده كلها ، وعمل في عنقه الحديد ، وصار يمر بالأسواق ، وهو

(٩٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٤١ .
(٩٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .
(٩٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥٢ .
(٩٧) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥٩ .
(٩٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٣٦١ .
(٩٩) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص١٤٤ ـ ١٤٥ .
(١٠٠) أنباء ، جـ١ ، ص ١٤٨ ، أنظر كذلك ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٤٧ .

كذلك على حمار ، ويذكر أن فقيرا قدم له قصة فى وزارته ، فمزقها وطرده ، فدعا عليه ، وخرج ، فلم يمض سوى أيام حتى قبض عليه وعذب الى أن مات » . [١٠١]

وعلى ذلك فقد ارتكب الوزير ابن قزوينة مختلف أنواع المظالم فى سبيل الفائدة المادية والمنفعة الخاصة محتميا بسلطة الأتابك يلبغا الخاصكي ، الا أن أمره لم يطل عقب وفاة يلبغا بسبب كراهية كبار الأمراء له فعجلوا بامساكه والقضاء عليه ، فنجد المقريزى يقول :

« وتوفى (سنة ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) الوزير الصاحب ناظر الخاص فخر الدين ماجد ، ويدعى عبدالله ، ابن تاج الدين موسى بن علم الدين أبى شاكر بن سعيد الدولة ، فى يوم الجمعة عاشر ذى القعدة ، وأبوه حي » [١٠٢]

وعلى ذلك فان السؤال الذى ينبغى طرحه هنا هو الى أى حد تأثر المحيط الادارى فى سلطنة المماليك فى هذا العهد بمطامع كبار الأمراء المماليك فى سبيل هدف التمتع بالسلطة العليا فى الدولة ؟

كذلك فى ظل هذا الوضع الادارى غير الطبيعى لا بد لنا أن نسأل عن ماهية الحالة السياسية ابان هذه الحقبة ، والى أى مدى شهدت طابعا من الاستقرار والثبات فى ظل حكم سلطان بلا سلطة وأمراء بيدهم كل مقاليد الأمور فيها يختص بمختلف أجهزة الدولة السياسية والعسكرية والادارية ؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغى علينا تقصى تطور الوضع السياسي خلال سنوات هذا العهد آخذين بعين الاعتبار ما وقع فى أثنائها من مؤامرات وفتن اما من أجل مزيد من السلطة ، وأما لهدف الاستئثار بجميع مقاليد الحكم ، واما لقصد اطاحة حكم الأشرف شعبان . ويذكر المقريزى وقوع أول مؤامرة خلال هذا العهد ، وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من تولى الأشرف شعبان حكم سلطنة المماليك . ويبدو أن الهدف منها كان التخلص من الأمير طيبغا الطويل بسبب رغبة يلبغا فى الانفراد بحكم الدولة دون منافس ، وقد حاول طيبغا الطويل أن يستفيد من هذه المؤامرة بالتخلص من مدبرها يلبغا العمرى ، الا أن الأمير طيبغا الطويل فشل فى تحقيق أهدافه وانتهى الأمر بالقبض عليه ، وقد بدأ ذلك عندما « كان الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح قد خرج الى العباسة يتصيد ، فبعث الأمير يلبغا اليه مرسوم السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث عشره (جمادى الاخرة سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م) مع الأمير أقبغا العمرى [١٠٣] الحاجب ، بأن يتوجه الى دمشق نائب السلطنة بها ، وحمل معه التقليد والتشريف ، فلم يوافق على ذلك ، ورد الحاجب ردا غير جميل ، وكان الأمير يلبغا بتربه ملكتمر المارديني [١٠٤] مقيما على قبره ، فلما بلغه الحاجب جواب الأمير طيبغا ، غضب ، وبعث اليه الأمير أرغون الأسعردى ، الدوادار ، والأمير أروس المحمودى ، والأمير أرغون الأزقى ، والأمير طيبغا العلاى بالتشريف وتقليد النيابة ، وأكد عليهما فى ترجيعه عن الفتنة ، وان لم يمض فليقبضوا عليه . فما هو الا أن مضوا حتى أبعدوا قليلا ، فتأخر عدة من مماليك الأمير طيبغا العلاى ومماليك أرغون الأزقى ، ووافى الأمير طيبغا فامتنع من اجابتهم الى السفر ، وقال : « ليس بيني وبينهم الا السيف » . فمال اليه أرغون الأسعردى والأمير أروس ، وقبضوا على الأمير طيبغا العلاى ، ففر أرغون الأزقى الى الأمير يلبغا ، وهو بالتربة ، ثم لحق به الأمير طيبغا العلاى ، وأخبراه بما وقع ، فركب من فوره الى قلعة الجبل ، وأمر فدقت الكوسات حربيا ، ولبس السلطان وعامة العسكر السلاح ، وركبوا ليلة السبت سابع عشره ، وعمل كمينا فى خلف الجبل ، قريبا من قبة النصر ، فما طلع الفجر حتى وافى الأمير طيبغا الطويل قبة النصر ، فاقتتل الفريقان ، فاستظهر طيبغا الطويل على القوم وكادت النصرة تتم له ، فخرج الكمين من ورائه . وعاد الأمير يلبغا بعدما أبعد قليلا ، فانهزم طيبغا الطويل ، وتفرق جمعه ، فاختفى بالقاهرة .

وعاد السلطان الى القلعة ونودى باحضار من وجد من المنهزمين ، وهدد من أخفاهم ، فلم يسر والى القاهرة ، والنداء بين يديه ، عن بين القصرين ـ من القاهرة ـ غير قليل ، حتى دله بعض الناس ، على طيبغا الطويل فدخل خانكاة بيبرس وأخذه منها ، وصعد به القلعة ، فقيده وسجن ، وظفر أيضا فى آخر النهار بالأمير أروس ، وبالأمير أرغون الأسعردى ، والأمير كوكنداى أخى طيبغا الطويل ، والأمير كليم ، ثم قبض على الأمير جركتمر السيفى منجك الجوكندار ، والأمير أرغون عبد الملك شاد الشرابخاناة والأمير جق الشيخونى ، والأمير تلك ، وأقبغا العمرى البالسي ، وقرا السلاح دار ، والأمير أزكاه السيفى ، وجرجى بن كوكندى ، وأزرمق بن مصطفى ، وطشتمر العلاى ، فحملوا الى ثغر

(١٠١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٤٧ ـ ١٤٨ .

(١٠٢) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٤٧ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٩٧ .

(١٠٣) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤٢٠ .

(١٠٤) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص١٣٩ .

الاسكندرية فى النيل مقيدين ، وسجنوا هناك ، وأخرج الأمير حسين بن طوغان الساقى منفيا الى الشام . وارتجع اقطاع ولدى طيبغا الطويل - وهما علي وحمزة - وأنعم فى يومه على الأمير طيدمر البالسي ، واستقر أمير سلاح عوضا عن طيبغا الطويل ، واستقر الأمير طيبغا البوبكرى المهمندار ، دوادارا بامرة طبلخاناة .

وفى ثانى عشرينه خلع على الأمير أرغون الأزقي ، واستقر استادار السلطان عوضا عن أروس ، واستقر الأمير قطلوبغا الشعباني شاد الشراب خاناه ، بامرة طبلخاناة ، عوضا عن أرغون عبد الملك ، واستقر الأمير تمرقيا العمرى جوكندار ، عوضا عن جركتمر السيفى ، وأنعم على كل من الأمير أقبغا الأحمدى المعروف بالجلب ، والأمير أسندمر الناصرى بتقدمة ألف .

وفى يوم الأحد خامس عشرينه ، نودى بزينة القاهرة ومصر ، فزينتا أحسن زينة »[١٠٥]

ويؤكد أبو المحاسن مقالة المقريزى موضحا السبب وراء رغبة الأتابك يلبغا العمرى فى التخلص من خشداشة طيبغا الطويل رغبة فى السيطرة على جميع زمام الأمور فى الدولة ، وربما أيضا خوفا من ازدياد نفوذ طيبغا فيبدأ فى منافسة يلبغا والتخلص منه اذ انه يقول :

« هذا ، وقد ثقل على يلبغا وطأة خشداشة طيبغا الطويل فأراد أن يستبد بالأمر وحده وأخذ يلبغا يدبر عليه فى الباطن ولقد حكى لى بعض من رآهما قال : كانا ينزلان من الخدمة السلطانية معا ، فتقول العامة : يا طويل حسك من هذا القصير ! فكان طيبغا يلتفت الى يلبغا ويقول له وهو يضحك : ما يقولون هؤلاء ! فيقول يلبغا : هذا شأن العامة يثيرون الفتن » .[١٠٦]

وهذا يبرهن بوضوح على أن الرعية كانت تدرك نوايا يلبغا العمرى الأتابك فى الانقضاض على طيبغا وايداعه السجن ، فبات يتربص به ، ولم يكن الطلب اليه أن يسافر الى نيابة الشام الا خطوة أولى من أجل التخلص منه نهائيا ، ومن ثم بدأ يخطط من أجل تحقيق هذا الهدف « واستمر يلبغا على ذلك الى أن خرج طيبغا الطويل الى الصيد بالعباسة أرسل اليه يلبغا جماعة من مقدمى الألوف وهم : أرغون الاسعردى الدوادار والأمير آروس المحمودى الاستادار وأرغون الأزقى وطيبغا العلائي حاجب الحجاب ومعهم تشريف له بنيابة دمشق فساروا حتى قدموا على طيبغا الطويل وأخبروه بما وقع ، فلما سمع طيبغا ذلك غضب وأبى قبول الخلعة ، وخامر واتفق معه أرغون الأسعردى الدوادار وآروس المحمودى وهرب طيبغا العلائي وأرغون الأزقى ولحقا بالأتابك يلبغا وأعلماه بالخبر فركب يلبغا فى الحال ومعه السلطان الملك الأشرف شعبان بالعساكر فى صبيحة اليوم المذكور وقد ساق طيبغا الطويل من العباسة حتى نزل بقبة النصر خارج القاهرة ليأتيه من له عنده غرض فوافاه يلبغا فى حال وصوله بالعساكر وقاتله فاقتتلا ساعة وانكسر طيبغا الطويل بمن معه وأمسك هو وأصحابه من الأمراء وهم أرغون الاسعردى وآروس المحمودى وكوندك أخو طيبغا الطويل وجركتمر السيفى منجك وأرغون من عبدالله وجمق الشيخونى وكليم وأخو طيبغا الطويل وتلك أخو بيبغا الصالحى وآقبغا العمرى البالسي وجرجي ابن كوندك وأرزمك بن مصطفى وطشتمر العلائي ، وأرسلوا الجميع الى سجن الاسكندرية ، وأخذ يلبغا اقطاع ولدى طيبغا الطويل وهما : علي وحمزة وكانا أميرى طبلخاناه »[١٠٧]

وفى هذا كله دلالة أكيدة على أن يلبغا العمرى كان صاحب الكلمة العليا فى الدولة دون منافس ، وكان يوحى الى الأشرف شعبان أنه انما يعمل على التخلص من هذا الأمير وذاك الوزير رغبة منه فى حماية الأشرف والابقاء على حكمه . وقد كان يفعل كل ذلك مستغلا طيبة أخلاق الأشرف شعبان وقصر ادراكه لما يدور حوله بسبب صغر سنه ، ولذا كانت الأمراء تلجأ الى السلطان لانجاز أى أمر يخالف رغبة يلبغا فيقول أبو المحاسن :

« ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين شعبان من سنة سبع وستين وسبعمائة ، باست الأمراء الأرض للسلطان ويلبغا الأتابك معهم ، وطلبوا من السلطان الافراج عن الأمراء المسجونين بثغر الاسكندرية المقدم ذكرهم ، فقبل السلطان شفاعتهم ، ورسم بالافراج عن طيبغا الطويل خاصة ، فأفرج عنه ورسم بسفره الى القدس بطالا ، فسافر الى القدس وأقام به ، ثم بعد ذلك فى يوم عيد الفطر رسم السلطان بالافراج عمن بقى فى الاسكندرية من أصحاب طيبغا الطويل ، فأفرج عنهم وحضروا فأخرجوا الى الشام متفرقين بطالين وصفا الوقت ليلبغا العمرى وصار هو المتكلم فى الأمور من غير مشارك والسلطان الملك الأشرف شعبان معه آلة فى السلطنة ، وأنعم يلبغا باقطاعات أصحاب طيبغا الطويل على جماعة من أصحابه ، فأنعم على الأمير أرغون بن بلبك الأزقى بتقدمة الف ، عوضا عن ملكتمر الماردينى بحكم وفاته ، وأنعم على أينبك

---

(١٠٥) السلوك ، جـ٣ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(١٠٦) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٠ .

(١٠٧) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣١ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ، ص ٢١٦ .

البدرى أمير آخور يلبغا العمرى بامرة طبلخاناة واستقر استادار استاذه يلبغا » . (١٠٨)

وعلى ذلك فكأنما الأشرف شعبان عمد الى تقليص نفوذ طيبغا الطويل وما كان يتمتع به هو وأصحابه من اقطاعات من أجل أن يسبغها على الأتابك يلبغا العمرى وأتباعه حتى بدأ ذلك يظهر وكأنه السبب الرئيسي الذى جعل يلبغا العمرى يخطط من أجل القبض على خشداشه ، وان كنا نعتقد بأن الرغبة الشخصية عند يلبغا العمرى فى التمتع بنفوذ وسلطات مطلقة فى الدولة دون منافس كانت أيضا عاملا مهما فى قيامه بذلك الاجراء المقصود ضد طيبغا الطويل ، ويضيف المقريزى أنه :

« أخرج الأمير قطلوبغا العمرى الحاجب ، والأمير أحمد بن ابى بكر ابن أرغون النايب ، بعدما قطع لسان كل منهما ، ونفى الى الشام » . (١٠٩)

وهكذا عمل يلبغا العمرى على تأديب كل من عمل على مساعدة طيبغا الطويل ومساندته وكأنه يريد أن ينذر كل من تسول له نفسه العمل على مساعدة متمرد ضد الدولة ، أو مساندة منافس يرغب فى مجاراته بما يخص به نفسه من سلطات غير محدودة وصلاحيات مطلقة فى ادارة شئون الدولة دون رقيب أو حسيب . كما اجتهد يلبغا فى نفى كل من يطلق سراحه من أتباع طيبغا الطويل الى الشام فلا يعملون على اثارة الأمراء الآخرين والقضاة وأهل العلم ضده . بالاضافة الى أن هؤلاء لن يجدوا لهم الأنصار الذين يأملون فى بلاد الشام خاصة بعدما حرموا اقطاعاتهم وثرواتهم ، وبذلك يصفو له الوضع السياسى الملائم لأطماعه الشخصية وتطلعاته فى السلطة العليا فى الدولة .

وعلى ذلك يذكر المقريزى انه :

« فى يوم عيد الفطر رسم بالافراج عن الأمير أرغون الأسعردى ، والأمير أروس المحمودى ، وبقية الأمراء المسجونين ، فأفرج عنهم وأخرجوا الى الشام متفرقين » . (١١٠)

وهكذا لم يطل الوقت بطيبغا الطويل فى السجن اذ أفرج عنه ـ ربما ـ خشية الفتنة بين صفوف الامراء المماليك ، وخرج الى القدس حيث عاش بطالا فترة من الزمن ، حتى انتهى الأمر بتوليته نيابة حماة .

فيقول المقريزى انه :

« فى تاسع صفر (٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م) استقر الأمير طيبغا الطويل فى نيابة حماة » . (١١١)

ولكن يبدو أن كبار الأمراء المماليك استمروا يخشون تمرد طيبغا الطويل بعد الذى قاساه بسببهم ، وبات الأشرف شعبان يتخوف من الفتنة حتى شاع « الخبر باتفاق الأمير طيبغا الطويل نايب حماة ، والأمير اشقتمر (١١٢) نايب طرابلس على المخامرة ، فتجهز الأمير أسندمر الاتابك للسفر ، وتقدم بتهيؤ الأمراء ، وبعث القصاد للكشف عن ذلك على البريد ، فعادوا باستمرار بقية النواب على الطاعة ، ما عدا المذكورين ، فكتب بالقبض عليهما ، فقبضا وقبض معهما على اخوة طيبغا الطويل ، وحملوا الى الاسكندرية مقيدين .

واستقر اسندمر الزيني فى نيابة طرابلس ، وأعيد عمر شاه الى نيابة حماة فى أوائل ذى القعدة ، واستقر أرغون الازقى فى نيابة صفد » . (١١٣)

وبذلك يظهر واضحا أن تأثير يلبغا العمرى على الأشرف شعبان استمر حتى عقب مقتل يلبغا العمرى وتولى اسندمر منصب الاتابكية اذ استمر الأشرف شعبان متخوفا من طيبغا الطويل خشية أن يدبر فتنة تطيح بسلطانه ، ولذا بات يشك فى تصرفاته وتحركاته حتى انتهى الأمر بالقبض عليه وسجنه للمرة الثانية . وفى الحقيقة لا تشير المصادر المملوكية الى أن طيبغا الطويل قد فكر ولو مرة واحدة فى التمرد ضد الأشرف شعبان أو اثارة الفتنة . ويثبت ابو المحاسن حدوث هذه الوقائع ضد طيبغا الطويل فنجده يقول :

« واستقر طيبغا الطويل الناصرى رفيق يلبغا العمرى الخاصكي المقدم ذكره فى نيابة حماة وكان بطالا بالقدس فى تاسع صفر فلم تطل مدته وقبض عليه منها فى ذى القعدة واعتقل بالاسكندرية ثانيا » . (١١٤)

---

(١٠٨) النجوم ، جـ١١ ، ص٣١ ، قارن ، السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٠

(١٠٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٠ .

(١١٠) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢١ .

(١١١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٧ .

(١١٢) أنظر ترجمه ، الدرر ، جـ١ ، ص٤١٦ .

(١١٣) السلوك ، جـ٣ ، ص١٤٥ .

(١١٤) النجوم ، جـ١١ ، ص٤٦ .

وهذا يدل على عدم استقرار الوضع السياسى داخل دولة المماليك حيث امتلأت النفوس بالظنون والشكوك ، وباتت الثقة فى الأمراء مهزوزة ، والأشرف شعبان حائر فى معرفة مواقع الصدق فيما يحدث من اتهامات فى النوايا الشخصية والاخلاص فى العمل ، حتى اننا نقرأ عن اطلاق سراح طيبغا الطويل بعد فترة وجيزة ، بل واستقراره فى نيابة حلب اذ يقول المقريزى :

« وأفرج عن الأمير طيبغا الطويل ، واستقر فى نيابة حلب عوضا عن منكلى بغا الشمسي » . (١١٥)

وهذا يثبت بشكل مؤكد عدم وجود الأدلة الكافية لادانة طيبغا الطويل بالتآمر ضد السلطان أو اثارة الفتن ، الأمر الذى يدل على أن كل الاتهامات التى وجهت ضده كانت قائمة على الشكوك المجردة من أى برهان مما يبين عدم صفاء الجو السياسي بسبب الأطماع الشخصية والتطلعات السياسية حتى ولو كان ذلك على حساب المصلحة العامة فى الدولة . وقد استمر طيبغا الطويل نائبا فى حلب حتى وفاته فيقول المقريزى :

« ومات الأمير طيبغا الطويل نائب حلب بها ، فى تاسع ذى القعدة (٧٦٩ هـ/١٣٦٧ م) » (١١٦)

ومن ثم ففي « العشرين من ذى القعدة (سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م) استقر اسنبغا بن البوبكرى في نيابة حلب عوضا عن طيبغا الطويل بعد موته(١١٧) .

وبذلك انتهت بوفاة طيبغا حياة شخصية مملوكية رغبت في خدمة الدولة باخلاص ، الا أن الوضع السياسي غير الطبيعي قد حال دون نجاحها في تحقيق ذلك الهدف في حقبة طغت فيها المطامع الخاصة على خدمة المصلحة العليا .

ولكن من هذه الشخصية التي تيسر لها أن تلعب هذا الدور الرئيسي في عهد غلأشرف شعبان ؟ هويلبغا بن عبد الله الخاصكى الناصرى الذى كان « رأس من قام على أستاذه الناصر حسن حتى قتل ، وتسلطن المنصور محمد بن حاجى واستقر أتابك ثم خلعه في شعبان سنة أربع وستين ، وتسلطن الأشرف شعبان وتناهت اليه الرياسة ولقب نظام الملك ، وصار صاحب الأمر والنهي والحل والعقد ، **وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم** ، وانتهى اليه الى أن صار العدد الكثير من مماليكه نواب البلاد ومقدمي ألوف واستكثر من المماليك الجلبان وبالغ في الاحسان اليهم والاكرام حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة يركب معه منهم نحو الف نفس » .(١١٨) وبناء على هذه الحقيقة يمكننا أن نتبين الدور الذى قام به يلبغا للتخلص من أستاذه السلطان الناصر حسن الذى كان صاحب الفضل عليه لما وصل اليه من مكانه وسلطة ـ ربما ـ من أجل سيطرة أكبر وصلاحيات أكثر فكان سببا في تسلطن المنصور محمد ليصبح اتابك ، ولكن الرغبة في الوصول الى صورة سياسية للسلطنة تتناسب مع ما كان يتطلع اليه من سلطة وقوة كانت عاملا اساسيا في قيامه على خلع المنصور محمد وتولية الأشرف شعبان ليمارس صلاحيات مطلقة في حكم سلطنة المماليك دون أية معارضة أو منافسة ، « فأصبح صاحب الأمر والنهي والحل والعقد وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم »(١١٩)ولكن الشعور بعدم عدالة ما اقترفه من أعمال الظلم والتآمر أدخل هواجس الخوف الى نفسه ، وباتت تزعج فكره ، فاجتهد باحاطة نفسه بالمماليك من اجل حراسته وحمايته ، بل لقد بلغ الامر أن عدد مماليكه كان « ثلاثة آلاف »(١٢٠) كما كان حريصا على تعيين بعضهم نوابا للاقاليم المملوكية فيكونون بذلك ركائز ثابتة له في كل مكان بحيث يعتمد على ولائهم له من أجل خدمة أهدافه الخاصة ومطامعه الشخصية في مختلف النواحي .

يقول ابن حجر : « كانت ليلبغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ، ومعروف كثير في بلاد الحجاز ، وهو الذى حط المكس عن الحجاج بمكة وعوض أمراءها بلدا بمصر » .(١٢١)ترى هل كان يلبغا يبحث عن شعبية له بين الرعية في سلطنة المماليك فيعين طلاب العلم ، ويساعد الحجاج ، ويوزع الصدقات . أم أنه كان يفعل كل ذلك كي يضمن ما كان يحظى به من مكانه وثراء وسلطة ، فتصمت الألسن عن التحريض للثورة ضده أو التخلص

---

(١١٥) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٦ .
(١١٦) السلوك ، جـ٣ ، ص١٦٥ .
(١١٧) السلوك ، جـ٣ ص١٥٩ .
(١١٨) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ .
(١١٩) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ .
(١٢٠) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ .
(١٢١) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٤ .

من وجوده وأفعاله . يصعب في الحقيقة تعيين السبب وراء ذلك ، ولكن يمكن القول أن كل ذلك كان عنصرا أساسيا لابد من عمله كي يستمر الوضع الذى كان يلبغا يريده لنفسه بغض النظر عن نوعية الدافع وراء ذلك .

ويؤكد المقريزى هذه الواقعة بقوله :

« وكتب مرسوم باسقاط ما يؤخذ من مكس الحجاج بمكة فيها يحمل اليها من البضائع . خلا مكس الكارم تجار اليمن ، ومكس الخيل ، ومكس تجار العراق وعوض امير مكة عن ذلك اقطاعا بمصر ، وحمل اليه مبلغ اربعين الف درهم فضة ، عنها يومئذ نحو الالفى مثقال ذهبا »[١٢٢]

بالاضافة الى ذلك :

« أبطل يلبغا المكوس من مكة والمدينة ورتب عوض ذلك من بيت المال مائتي الف وستين الفا » .[١٢٣]

ومن جانب آخر تمتع يلبغا بمظاهر الترف والرفاهية في العيش « فكان موكبه من أعظم المواكب ، ويقال ان فخر الدين بن قزوينه كان يحمل الى خزانة يلبغا في كل يوم ألفي دينار » .[١٢٤]

ويذكر المقريزى :

« وفيها (٧٦٤هـ) فرق الأمير يلبغا كثيرا من الغلال والمال في الفقهاء والصوفية . وولى من ذلك جانبا موفورا للقاضي محب الدين ناظر الجحش ، فارتفق الناس بهذه الصدقات بحيث استغنى منها جماعة »[١٢٥]

ترى هل يمكن أن نعتبر هذا المسلك من الأمير يلبغا محاولة منه في التقرب الى أهل الدين ، فيكسب محبتهم ورضاءهم عنه ، وبالتالي يدحض شكوكهم حول موقفه المتآمر من السلاطين فيعزل هذا ويولي هذا بما يخدم مصالحه وأطماعه ، وأنه لم يفعل ذلك الابدافع من الحرص على مصالح الدولة والرغبة في خدمة أهدافها ، وأن ذلك لا يمكن أن يتم في ظل حكم سلطان لعوب ما جن ولابد من استبداله بآخر ، وكأن الناس لا تدرك بأن كلا السلطانين طفل لا حيلة له ، وان زمام الأمور مرهون برأى الأمير يلبغا وتدبيره . وعلى ذلك هل يمكن أن نعتبر تصرفه نوعا من الدعاية السياسية أو الرشوة الاجتماعية من أجل خدمة أهداف شخصية بحتة حتى ولو كان في ذلك مضرة للمصالح العامة للدولة ، ولكن لماذا يهتم الأمير يلبغا رغم ما كان يتمتع به من الصلاحيات بارضاء هؤلاء « الفقهاء والصوفية »!؟ هل هو الخوف من أن يكون هؤلاء مصدر تحريض للرعية ضده ، فيكون في ذلك نهاية للمنزلة العالية التي كان يحظي بها ؟ أم هي الخشية من أن تحاول الرعية أن تجد من خلال هؤلاء الأتقياء منفذا للثورة ضد حكم الطغاة من الأمراء الأوليجاركية ، بل وتخليص أولئك السلاطين الأطفال من لعبة العزل والتولية بما يتفق مع مصلحة الأمراء المماليك ؟ لعله يمكننا أن نقول انها كل هذه الاسباب مجتمعه حيث لا يعقل أن نعتقد أن يلبغا قد انتهج ذلك المسلك بدافع من الرغبة في مساعدة الفقراء من أهل الدين اذ لابد أن يحول دون اعتقادنا هذا ما كان يقوم به يلبغا من تلاعب بأشخاص أولئك السلاطين الأطفال من بيت قلاوون .

كذلك يشير المقريزى ضمن حوادث سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م أن الأمير يلبغا الأتابك حفر « ترعة استجدها من البدرشين بالجيزية فكثر النفع بها » .[١٢٦] وعلى ذلك تتعدد الوسائل التي كان ينتهجها يلبغا من أجل المصلحة العامة ، وان كان يصعب علينا التكهن بطبيعة الدوافع الكامنة وراء مثل هذه الأعمال . ومن المحتمل كثيرا أن يلبغا كان يرى في خراب البلاد نهاية لما كان يسعد به من مكانه وثراء ورفاهية ، ومن ثم اجتهد في خدمة البلاد لهدف استمرار اسباب سعادته .

كذلك عنى الامير يلبغا بتوزيع الرتب الاميرية على اتباعه المماليك[١٢٧] - ربما - من أجل أن يجتهدوا في العمل على خدمته في مختلف ميادين النفع والمصلحة .

ولكن هذه الابهة والرفاهية غير العادية لم تستمر حيث عمل يلبغا على قطع أخبار بعض الأجناد ، الى جانب تسلطه على مماليكه الجلبان وتطاوله عليهم حتى أدى الأمر الى تعاونهم من أجل هدف التخلص منه مما عجل بوقوع فتنة كبيرة هددت بتحطيم سلطنة المماليك في مصر لولا التفاف مختلف الطوائف والفئات حول السلطان الأشرف شعبان ، والتمكن بالتالي من هزيمة يلبغا وأنصاره حيث يقول امقريزى : :

« وكان الأمير يلبغا - لأمر يريده الله تعالى - قد شحت نفسه ،

---

(١٢٢) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٨ .
(١٢٣) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٤ .
(١٢٤) الدرر ، جـ ٥ ، ص٢١٣ - ٢١٤ .
(١٢٥) السلوك ، جـ٣ ، ص٨٥ .
(١٢٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٣ .
(١٢٧) السلوك ، جـ٣ ١١٤ - ١١٨ ، أنظر كذلك بدائع جـ١ ، ص ٢١٩ .

وساءت أخلاقه فاجتمع مماليكه الأجلاب الى رؤوس النوب ، وشكوا ما يلقوه من الامير يلبغا وانه يجفوهم ، ويهينهم ، ويبالغ في معاقبة أحدهم على الذنب اليسير ، حتى انه ضرب عدة منهم بالمقارع وقطع ألسنة جماعة ، وأنهم قد صاروا يدا واحدة ، يريدون قتله ، وقتل من لم يوافقهم على ذلك ، فأشار الاكابر منهم عليهم بالتمهل قليلا حتى يأخذوا ما عند الأمير يلبغا ويحدثوه في شأنهم . وانتدب منهم الامير اسندمر الناصرى . (١٢٨) والامير اقبغا جلب الاحمدى(١٢٩) . والامير قجماس الطازى ، والامير تغرى برمش العلاى ، والامير اقبغا جركس امير سلاح ، والامير قرابغا الصرغتمشي ، ومضوا الى الامير يلبغا ، وحدثوه في امر المماليك ، وسألوه الرفق بهم ، فجبههم . ورد عليهم ردا جافيا ، وتهددهم ، وحلف بالايمان الحرجة انه لابد من ضرب جماعة من مماليكه بالمقارع ، واشهارهم في الوطاق ، فشق ذلك عليهم وخرجوا من بين يديه وقد توغرت صدورهم وحدثوا اخوانهم من المماليك بما كان من الامير يلبغا ، واتفقوا جميعا على الفتك به وتحالفوا على ذلك ولبسوا سلاحهم ليلة الاربعاء خامس ربيع الاخر ، وكبسوا مخيم يلبغا وأحاطوا به ليأخذوه فمضى اليه بعض خواصه منهم ، وأعلمه الخبر ، فبادر الى الفرار على فرس وقصد بولاق التكرورى في نفر من خاصته ، وبعث الى الامير طيبغا حاجب الحجاب يعلمه بما هو فيه ، فلم يشعر الحاجب ، وقد جلس بكرة يوم الاربعاء لعرض الاجناد على عادته ، وهم منه على تخوف ان يقطعهم كما فعل بغيرهم ، اذ جاءه أحد مماليك يلبغا وأسر اليه طويلا ، ثم قام عنه ، وقد تغير حاله ، فأمر الاجناد بالانصراف ، وأبطل عرضهم ، وركب الى داره ، فلبس آلة الحرب هو ومماليكه ، وعاد الى الجزيرة ، وتقدم بطلب اجناد الحلقة ومن تأخر بالقاهرة من الأمراء ، فأتوه في السلاح ، وقد ارتجت القاهرة بأهلها وخرجت العامة من كل موضع الى الجزيرة ، وما حولها ، ومنع أرباب المراكب النيلية ان يعدوا بأحد النيل من البرين ، وجمعت المراكب كلها الى بر مصر ، وضموا الشواني الحربية ، والقوا مراسيها في وسط النيل ، وأخرجوا منها رجالها . وتقدم حاجب الحجاب الى فتح الدين صدقة رئيس الحراقة السلطانية ان يخرج الحراقة الذهبية من بر الجيزة ، ولا يعدى الا بالسلطان والامير يلبغا فقط ومن يصحبهما ، وكان الامير عمر بن النائب ـ نائب الغيبة ـ قد اغلق ابواب القلعة ، وألبس من بها من مماليك السلطان السلاح وأقامتهم على الاسوار ، واستعد .

وأما يلبغا فانه سار ليلة من جزيرة القط الى بولاق التكرورى ، فلم يأتها الا عند نصف النهار من يوم الاربعاء فلم يجد مركبا يعدى به النيل الى الحراقة الذهبية فعدى فيها ، وقد عرفه الرايس صدقة حتى وافى حاجب الحجاب بالجزيرة ، ومن انضم اليه من الامراء والاجناد ، فأكد في المنع بالتعدية بأحد ، من بر الجزيرة ، وسار في جحفل كبير الى القلعة ، فمنعهم نايب الغيبة من دخولها ، ورأوا منعتها عليهم بمن فوقها من المقاتلة ، فعاد عنها بجمعه الى منزله بالكبش وظل فيه بقية نهاره ، وبات ليلة الخميس ، وقد رجع الامير طيبغا حاجب الحجاب الى الجزيرة لحراسة المعادى .

وأما المماليك فانهم لما بلغهم فرار يلبغا نادوا « من أراد مخدومه يلبغا فليتبعه ، ومن أراد السلطان فليقم معنا » . فتبع يلبغا طايفة وتأخر أكثرهم ، فأسرع القوم الى من فارقهم وأخذوهم وقيدوهم واقتسموا جميع ما معهم . وتجمعوا بأسرهم عند وطاق السلطان ونزلوا عن خيولهم ، ومثلوا بين يديه وقبلوا الارض ، وأعلموه بما كان من يلبغا في حقهم ، وما رده من الكلام الجافي عليهم ، وسألوه نصرتهم عليه ، فوعدهم بخير ، وقوى عزايمهم ، فحلفوا له . ثم ساروا به الى بولاق التكرورى في ليلة الاربعاء ، حتى وافى شط النيل فلم يجد مراكب يعدى بها النيل ، فخيم هناك بمن معه ونودى بالاقامة ثلاثة ايام . وكتبت البطايق الى الاسكندرية ودمياط ورشيد البرلس على أجنحة الحمام ، يقدوم من بها من الامراء والاجناد المركزين في اليزك على العادة لحفظ الثغور من الفرنج ، وكتب بحضور من بالوجه القبلى والوجه البحرى ايضا ، فقدموا شيئا بعد شيء ، وأخذ ولاة الجيزة في جمع المراكب من شاطيء النيل ، فجمعوا منها عدة ركب بها طائفة في الليل ، وأخذوا كثيرا من الشواني الحربية التي في وسط النيل وضموا بها ما بقي منها وصاروا بها جميعها الى بولاق التكرورى ، وفيها آلات الحرب ، فما طلع النهار ، حتى زينت ونصبت عددها ، وعمرت بالرجال البحرية والمماليك السلطانية فكأن الامير يلبغا انما تعب فيها لتكون مقاتلة له ومزيلة لنعمته ، وسالبة لملكه .

فلما كان يوم الخميس ، ركب الامير يلبغا في عسكر موفورا الى الجزيرة ، فبرزت اليه الشواني من بر الجيزة حتى صارت في وسط النيل ورمته المماليك السلطانية منها بالسهام ، والنفط فما زال القوم يترامون نهارهم ، ثم أمر يلبغا فجيء اليه بالخليفة ، وأنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون . وطلب يلبغا من الخليفة ان يفوض اليه السلطنة عوضا عن أخيه شعبان ابن حسين ، فامتنع الخليفة من

(١٢٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٣ .

(١٢٩) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .

ذلك واحتج بأن الشوكة للأشرف شعبان ، فأمر يلبغا بالكوسات ، فدقت ، وأقام شعار السلطنة كله . وقال « أنا أعينه وأؤ يده ، ومن الشوكة غيرى؟ » فلم يجد الخليفة بدا من سلطنة آنوك . فأقاموه سلطانا ولقبوه بالملك المنصور ، وأركبوه بالشعار السلطاني .

واشتدت الحرب بين الفريقين يوم الخميس وليلة الجمعة . وجلس المنصور آنوك بكرة يوم الخميس وبين يديه ارباب الدولة من الامراء وأرباب الاقلام على العادة ، فلما انقضت الخدمة ركب بالعساكر مع الامير يلبغا للحرب ، واستمر الرمي من الشواني طول نهار يوم السبت . ثم نزل عدة من الاشرفية في اربعة شواني يريدون جهة الروضة ، فنذب يلبغا جماعة من اصحابه الى جهتهم حتى يمنعوهم الصعود الى البر ، ثم خرجت ثلاث طرايد ايضا ومضت من بولاق التكرورى تريد جهة جزيرة الفيل وشبرا ، فسير اليهم يلبغا طائفة أخرى تمنعهم النزول الى البر ومنهم الامير طغاى تمر النظامي ، والامير قرابغا البدرى ، والامير طيبغا المجدى ، فالتقوا قريبا من الوراق وصار البدرى والنظامي في جملة الاشرفية ، فبعثوا بها الى بولاق التكرورى ، ونزل الاشرفية الى ناحية شبرا في نحو ثلاثة آلاف فملكوا البر الشرقي .

هذا وأسواق القاهرة طول هذه الايام مغلقة ، والاسباب متعطلة ، وليس للناس شغل سوى التفرج في شاطىء النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية ، وصاروا يلهجون كثيرا بقولهم « سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة » يريدون ان أمر آنوك لا يتم ويهزأون به . وصار الامير قجماس الطازى يمر في تارب لطيف ومعه طائفة ، حتى يقرب من البر ، ويرمي بالنشاب ، فيرموه ايضا ويتسابقوا ، وتعصبت العامة للسلطان ، وعملوا لهم رايات ، وسبحوا النيل اليه ، وصاحوا عنده «السلطان منصور »فأخذ امر يلبغا ينحل فلما قدم البدرى والنظامي على السلطان ، وأعلماه بأخذ السلطانية البر الشرقي ، وتفرق اليلبغاوية في طلب الشواني ، وأشارا عليه بتعدية النيل . ركب في بقية الاغربة بمن معه ، ومضى الى جهة شبرا والعامة تحاديه من البرين . وتستغيث بالدعاء له . حتى نزل شبرا ، والتفت عليه جموعه ، فسار يريد القلعة فتسلل أصحاب يلبغا عنه . طائفة بعد طائفة ، فلم يجد يلبغا بدا من الفرار ، وتوجه يريد القلعة ، وقد فر عنه من كان قد بقي معه من الامراء ، وهم يعقوب شاه ، وأرغون ططر [١٣٠] ، وبيبغا العلاى الدوادار ، وخليل بن قوصون . وآقبغا الجوهرى . [١٣١]وكمشبغا . وبيبغا شقير ، وأينبك . ولحقوا جميعهم بالسلطان . ولم يتأخر مع يلبغا سوى علاى الدين طيبغا حاجب الحجاب . وكان العامة قد لقبوه قنصاونسن . وفر مماليكه شيئا بعد شيء . فأيقن الزوال . وبعث بسلطان الجزيرة آنوك الى القلعة ، وأصعد بكوساته الى الطبلخاناة ، ونزل عن فرسه تحت الميدان بسوق الخيل . وصلى ركعتين . وحل سيفه من وسطه ، وأمر طيبغا حاجب الحجاب ان يمضي به ، ثم ركب فرسه ومضى الى داره بالكبش ولم يبق معه الا دون المائة فارس ، والعامة تهزأ به وتسبه ، وترجمه بالحجارة حتى وصل داره .

وقدم السلطان الى القلعة في عساكره ، وعساكر يلبغا ، وعالم كبير من العامة ، فدخل من باب الاصطبل أول ليلة الاحد ، فنزل عند بابه ، والكوسات تدق ، والعساكر واقفة تحت القلعة في الرميلة . ثم أمر باحضار يلبغا ، فاحضر اليه في الحال ، مع عدة من الامراء والمماليك المتوجهين اليه من قبل السلطان . وأحضر معه طيبغا حاجب الحجاب ، فحبسا بالقلعة . فخشيت المماليك منه ان يفرج السلطان عنه ، فيبيدهم ، فصاروا بأجمعهم الى أكابرهم والاعيان منهم ، وهم الامير أسندمر ، والامير اقبغا جلب ، والامير قجماس ، وما زالوا بهم حتى طلبوا من السلطان ان يمكنهم منه ، فخلاهم وإياه ، فأخرجوه من السجن ومشوا به حتى قرب من باب السلسلة ، قدم له فرس ليركبه ، فعندما أراد ركوبه ، بدره من مماليكه قراتمر ، الفى رأسه عن بدنه ، واقتحم بقيتهم عليه بسيوفهم ، حتى أتلفوا شلوه ، وحملوا رأسه الى السلطان ، وبين يديه مشعل قد اضرمت ناره وعلاهبه ، فألقوا الرأس في النار ، ثم اخرجوه وغسلوه ، فعرفه من هنالك بسلعة كانت تحت اذنه ، وحملت جثته الى خلف القلعة . فعند ذلك قام السلطان وصعد الى قصره من القلعة ، فأخذ الامير طاش تمر - دوادار يلبغا - الرأس ، وتتبع الجثة حتى وجدها في ليلته ، ثم غسل الجميع ، ودفنه بتربته المعروفة بتربة يلبغا ، خارج باب المحروق من القاهرة ، وذلك ليلة الاحد عاشر شهر ربيع الاخر ، حتى أصبح نهار الاحد ، صعدوا الى الخدمة بالقلعة ، وقد تعين منهم الامير اقبغا الجلب والامير اسندمر والامير قجماس ، وأخذوا في تدبير امور الدولة ، وقبضوا على الامير قرابغا البدرى . والامير يعقوب شاه ، والامير يبلغا الداودار وقيدوهم وبعثوا بهم فحبسوا بالاسكندرية ، وألزم الامير خليل بن قوصون بأن يقيم في داره بطالا .

هذا وقد امتدت ايدي العامة وأسافل الاجناد الى بيوت الاعيان فنهبوها بحجة انهم من حواشي يبلغا ، حتى شنع الامر في ذلك ،

(١٣٠) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٣٧٢ .

(١٣١) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤١٩ .

ونهبوا بيت الامير علاى الدين والى القاهرة ، وصار من يريد ان يبلغ عن عدوه ما يريد يقول عنه انه يلبغاوى ، فما هو الا لن تسمع العامة عنه ذلك ، واذا بهم اتوكأنهم جراد منتشر ، فما يعفوا ولا يكفوا ، وان صدفوا في طريقهم احدا سلبوه ثيابه . فحل بالناس من هذا بلاء لا يمكن وصفه وتخوف كل أحد ان يصيبه بلاؤهم ، فتنهب داره ثم تخرب . وتتفرق آلاتها في الايدى كما فعل بجاره او قريبه أو صديقه ، فلما تجاوز العامة في افسادهم المقدار . ركب الامير ضروط الحاجب . ومعه الى القاهرة في عشية النهار . ونودى بالامان . وأن غريم السلطان قد امسك ومن تعرض لاحد من الناس او نهب شيئا حل ماله ودمه للسلطان وشنق ، فانكفوا عن افسادهم .

وفي يوم الاثنين حادى عشر ، جلس السلطان بدار العدل من القلعة على العادة ، وخلع على الامير قشتمر المنصورى(١٣٢) ، واستقر حاجب الحجاب . وخلع على الاميرايدمر الشامي ،(١٣٣)واستقر مقدم الف ناظر الاحباس دوادارا كبيرا ، وعلى الامير قجماس الطازى ، واستقر امير سلاح . وعلى الامير ضروط ، واستقر حاجبا ، عوضا عن يعقوب شاه ، وعلى الامير ناصر الدين محمد بن قمارى .وواستقر امير شكار ، عوضا عن جمال الدين عبدالله بكتمر الحاجب .(١٣٤) وخلع على الوزير فخر الدين ما جد بن قزوينه . واستمر على عادته وقبض على الامير ارغون العزى ، والامير أرغون ارغوني ، والامير ازدمر العزى ابو دقن ،(١٣٥)والامير يونس العمر الرماح ، والامير اقبغا الجوهرى .(١٣٦)والامير كمشبغا الحموى رأس نوبة يلبغا ، وسجنوا بالقلعة ما عدا كمشبغا الحموى وأقبغا الجوهرى ، فانهما سجنا بخزانة شمايل .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرة قبض على الامير اينبك البدري فصالح عن نفسه بأن ينفق على المماليك الاجلاب من ماله ، فأنفق فيهم ، وكانوا الفا وثماني ماية مملوك ، اعطى كل مملوك منهم الف درهم فضة ، عنها يومئذ زيادة على خمسين مثقالا من الذهب ، وحمل مالا جزيلا الى الأمراء حتى اعيد اليه اقطاعه .

وفي ليلة الأربعاء ثالث عشرة توجه الأمير تغري برمش بعدة من الامراء والمماليك المقبوض عليهم اى الاسكندرية فسجنوا بها .

وفي يوم الخميس رابع عشرة قدم الأمير الطنبغا البشتكي نائب غزة .

وفي ليلة السبت سادس عشرة اخرج كمشبغا الحموي واقبغا الجوهري من خزانة شمايل ، الى الاسكندرية .

وفي يوم السبت المذكور خلع على الامير طيدمر البالسي واستقر استادارا . وانعم على الامير قرابغا الصرغتمسي احد العشرات بتقدمه الف . وفي عشرينه خلع على الامير اسنبغا القوصوني ، واستقر لالاغوضا عن اقبغا الاحمدي(١٣٧) . واستقر قراتمر المحمدي خازندارا عوضا عن ملكتمر المحمدي .

وفيه قدم الطواشي سابق الدين مثقال الأنوكي(١٣٨) من قوص فقربه السلطان واكرمه .

ونودي في الناس « من قطع طيبغا حاجب الحجاب خبزه وقت العرض فليحضر ويأخذه » ، فاجتمع كثير منهم في دار الامير قشتمر حاجب الحجاب فرد اليهم اخبازهم »(١٣٩) . وهكذا انتهت حياة الاتابك يلبغا العمري ومن تبعه من الأنصار والاصحاب ، وقد اظهرت هذه الحركة بعض الملاحظات التي تجدر الاشارة اليها :

١) الجبروت الذي كان عليه يلبغا في ادارته لشئون الدولة والحكومة مما اثار روحا من الكراهية حوله .

٢) كثرة العساكر والاجناد والمماليك الذين كانوا يعملون لخدمة يلبغا وصيانة مصالحه الكثيرة .

٣) تمرد مماليك يلبغا عليه وخاصة طائفة الجلبان التي استقوى امرها ، مما عجل بنهاية يلبغا على يدهم ، بل انهم نجحوا في كسب السلطان الاشرف شعبان الى جانبهم ضد يلبغا بسبب ادراكهم حقيقة موقف الاشرف من اتابكة بسبب تسلطه عليه وعلى حقوقه .

---

(١٣٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
(١٣٣) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص ٤٥٨ .
(١٣٤) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٢١ .
(١٣٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص ٣٧٨ .
(١٣٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص ٤١٩ .
(١٣٧) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص ٤١٩ .
(١٣٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٣٦٣ .
(١٣٩) السلوك ، جـ٣ ص ١٣٠ - ١٣٩ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص ٣٦ - ٤٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

٤) نجاح يلبغا في تعيين آنوك اخي السلطان الاشرف سلطانا جديدا لدولة المماليك وهي اللعبة التي كان يمارسها بنجاح من اجل اهدافه الشخصية ، الا ان الوضع هنا يختلف بسبب وجود سلطان شرعي معترف به على كرسي الحكم ، ولا يمكن ان يستمر الحال بوجود سلطانين في دولة المماليك ، بل زاد ذلك من خطورة الموقف ، وان بدا وضع الخليفة العباسي ضعيفا حيث بادر باعطاء البيعة للسلطان الجديد المنصور آنوك بسبب ضغط يلبغا .

٥) مناصرة العامة للاشرف شعبان وتأييدهم له من اجل استمرار سلطنته مما يدل على شعبيته الواسعة .

٦) تأثير الوضع السياسي داخل المجتمع المملوكي في مصر على الحياة العامة اذ تسببت هذه الفتنة في تشنج الحياة الاقتصادية وتجمد النشاط الاجتماعي اليومي حيث دأبت الرعية على متابعة مراحل هذا الصراع بين الاشرف شعبان واعداء اتابكه وبين يلبغا العمري وانصاره يوميا ، فتوقفت الاسواق واقفلت الدكاكين وانشغل الناس عن ممارسة انشطة موارد الرزق المختلفة .

٧) كراهية العامة للاتابك يلبغا العمري فوجدوا في هذه الفتنة فرصة مناسبة للانتقام منه .

٨) ضيق الاشرف شعبان البالغ بسبب ما كان يتعرض له من الحجر والتحقير على يد يلبغا فوجد في هذا الموقف مجالا للانتقام منه بسبب ما حصل له عى يديه .

٩) استغلال بعض العامة لحالة عدم الاستقرار السياسي وانشغال الحكومة والعسكر بالفتنة ، فعملوا على السلب والنهب ، والاعتداء على منازل الناس ودكاكينهم مما كاد ان يؤدي الى انفلات زمام الامور لولا انتباه كبار الامراء لذلك الوضع ، ومبادرتهم للعمل على نشر الامان والاطمئنان في نفوس الناس ، مع الاجتهاد في العمل من اجل أن يستتب النظام في المجتمع وتستقر الامور .

١٠) نجاح العسكر السلطاني في القبض على انصار يلبغا وعلى رأسهم الوزير ماجد بن قزوينة الذي طالما تطاول على حقوق الرعية ، وكذلك كل من عمل على مساعدة يلبغا في حركته هذه .

وهكذا انتهت هذه الفتنة بالتخلص من يلبغا وابن قزوينة وغيرهم حيث كان لتلك المؤامرة نتائج عديدة فيذكر المقريزي انه :

« في يوم الخميس تاسع عشرة (جمادى الأولى) نزل جماعة الامراء من القلعة الى المدرسة المنصورية ، فحلفوا بها ، وخلع عليهم بالشرابيش على العادة ، وركبوا الى القلعة ، وقد زينت القاهرة لهم ، فكان يوما مشهودا »[١٤٠] كما تم في ذلك اليوم « نقل الامير علاء الدين والى القاهرة الى ولاية مصر ، واستقر عوضه في ولاية القاهرة الشريف بكتمر ، فسر الناس بعزله وزوال دولة يلبغا ، وقبض ابن قزوينه ، وابقوا الزينة يومهم كله »[١٤١] .

وكأن الاشرف شعبان كان يريد بذلك مكافأة العامة بسبب وقوفها الى جانبه ضد الاتابك يلبغا ، فحقق لها مطلبا كانت ترغب فيه . وتذكرنا هذه العلاقة الودية بين الاشرف شعبان ورعاياه من العامة بتلك التي ربطت بين الناصر محمد والعامة طوال عهده حيث انهم طالما وقفوا الى جانبه مناصرين له ، كما كان هو حريصا على تلبية مطالبهم من اجل كسب رضائهم .

كذلك من النتائج التي ترتبت على وقوع مؤامرة يلبغا ضد الأشرف شعبان ثم فشله والقبض عليه ان حدث تغيير شامل في ولاة الوظائف الادارية[١٤٢] . بما يتفق مع مصالح الفئة الجديدة التي وصلت الى السلطة من طائفة كبار الامراء المماليك حيث « استقر الامير طغيتمر النظامي هو المتحدث في حل المملكة وعقدها ومعه آقبغا جلب الاحمدي واسندمر الناصري »[١٤٣] بالاضافة الى ذلك نجد انه :

« في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى قبض على فخر الدين ماجد بن قزوينة وسلم لقرابغا الصرغتمشي ليستخلص منه الاموال »[١٤٤] .

وهذا يدل على ان ابن قزوينة كان ناهبا لكثير من الاموال بغير حق حتى امتلأت خزائنه بثروات الغيز الى ان جاء الوقت لتخليصها من يده .

بالاضافة الى ذلك :

« اشتد الطلب على المماليك اليلبغاوية ، فقبض منهم على نحو الألف ، وحبسوا ، فبلغ السلطان ان الاميرين يلبغا آص وتلكتمر يريدا اخراج المذكورين وسكني بيت يلبغا في الكبش وركوبهما بهم على السلطان وقتله ، فبادر وقبض على يلبغا آص من الغد يوم

---

(١٤٠) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٠ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
(١٤١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤١ .
(١٤٢) النجوم ، جـ ١١ ، ٤١ .
(١٤٣) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٠ - ٤١ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٩ .
(١٤٤) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤١ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

الثلاثاء سابع عشرة (جمادى الأولى) ، وعلى تلكتمر المحمدي وجماعة من المماليك ، وحمل الاميران الى الاسكندرية ، فسجنا بها »(١٤٥) .

ومن ناحية اخرى نلاحظ انه :

« في ليلة الخميس تاسع عشرة (جمادى الأولى) اغرق السلطان في النيل جماعة من المماليك اليلبغاوية الذين اتفقوا على قتله وامر بتقوية زينة القاهرة ومصر ، فبالغ الناس في تحسينها .

وفي بكرة يوم الخميس هذا سُمِّر من الأجلاب اليلبغاوية مائة من اعيانهم ، ووسطهم ، واغرق جماعة منهم ، ونفى باقيهم الى الشام والى اسوان ، فكان ممن نفى من اليلبغاوية برقوق وبركة ، والطنبغا الجوباني ، وجركس الخليلي(١٤٦) واقبغا المارديني ، فتسلمهم الشريف بكتمر والى القاهرة ، واوقفهم في داره وقد جعلت ايديهم في الخشب ، وحضر غداؤه فلم يطعمهم شيئا ، ورسم عليهم من توجه بهم الى قطيا ، فتسلمهم والى قطيا وبعث بهم الى غزة ، فأرسلهم نائبها الى الكرك ، فسجنوا بجب مظلم في قلعتها عدة سنين . ثم افرج عنهم ومضوا الى دمشق ، فخدموا عند الامير منجك نائب الشام حتى استدعى السلطان بالمماليك اليلبغاوية ليستخدمهم بديوان ولديه فحضر برقوق وبركة وغيرهما الى القاهرة . وخدم برقوق فيمن خدم عند ولدي السلطان حتى قتل السلطان بعد عودة من عقبة ايلة ، وقام الامير اينبك بامر الدولة ، فصار برقوق من جملة امراء الطبلخاناة ، ومنها ملك الاصطبل ، واقام به حتى تسلطن »(١٤٧) .

ومن ثم بدأت الاوضاع تستقر بعد هذه الفتنة التي هددت بتقسيم الدولة والحكم ، واخذت الامور تعود الى وضعها الطبيعي حيث :

« اخلع الملك الاشرف في تاسع عشرين شهر رمضان على الامير ارغون الازقي باستقراره رأس نوبة كبيرا عوضا عن تلكتمر بن بركة واستقر تلكتمر المذكور امير مجلس عوضا عن طغيتمر النظامي(١٤٨) » . (١٤٩)

ولكن يظهر ان موقف الاشرف شعبان الناصر للمماليك الجلبان قد زاد من صلابة موقفهم وما كانوا عليه من تكبر وتسلط ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل يلبغا يجتهد في كبح جماحهم . وبعد ان خمدت هذه الفتنة استقوى المماليك الجلبان اكثر واخذوا يتطاولون على حقوق الناس وحرماتهم ، الامر الذي هدد بانفلات الزمام لولا تدخل كبار الامراء الذين تجمعوا لمحاربة هذه الفئة المستقوية الطائشة خشية ان يستفحل امرها وتهدد استقرار المجتمع في تلك الفترة .

وبذلك تم التخلص مما كانوا يثيرونه في المجتمع من اعمال العنف والسلب . يقول المقريزي :

« في يوم الخميس سادس عشر من شهر رجب ركب الامراء للحرب بالسلاح ووقفوا تحت القلعة ، وكان قد اشيع ان الاجلاب اليلبغاوية يريدون الحرب ، وقبض الامراء ، واول ما بدأوا به ان قبضوا على الامير قرابغا الصرغتمشي وحبسوه ، واقاموا على تخوف ، هذا وقد تفاحش امر الاجلاب بحيث سلبوا الناس في الطرقات ، وهجموا الحمامات على النساء ، واخذوهم بالقهر وقصدوا ارباب الاموال بالاذى ، حتى شمل الخوف الناس . فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشرينه ركب الامير تغري برمش للحرب في جماعة كبيرة من الاجلاب ، فركب الامراء لحربهم ، وقبضوا على تغري برمش المذكور ، وعلى الامير اينبك البدري ، والامير قرابغا العزي ، والامير مقبل الرومي ، واسحق الرجبي ، وبعثوا بهم الى الاسكندرية ، وقبضوا ايضا عدة من الاجلاب ونفوهم من ارض مصر .

وفي سادس عشرينه انعم على الامير اقطاي بتقدمة الف وعلى الامير قطلوبغا جركس بتقدمة الف »(١٥٠) .

وبذلك انتهى امر يلبغا الذي كان ظالما حيث اصبحت « الطرقات في زمانه في غاية الفساد من العربان والتركمان بالبلاد الشامية لقطعه اخبارهم ، واغزى بعض الامراء اسوان ففتك باولاد الكبير فكر بعضهم على اسوان فأخرجها وفتك في اهلها وصاروا يقطعون الطرق على المسافرين »(١٥١) .

---

(١٤٥) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٣ ـ ١٥٤ .

(١٤٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٧٠ .

(١٤٧) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٤ ـ ١٥٥ .

(١٤٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

(١٤٩) النجوم ، جـ١١ ، ص٥١ .

(١٥٠) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٤١ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٤٢ .

(١٥١) الدرر ، جـ٣ ص٢١٤ .

الا ان السؤال هنا هو هل امكن بالقضاء على هذه الفتنة الخطيرة الوصول الى الاستقرار السياسي المطلوب من اجل استمرار مسيرة مختلفة التيارات الحضارية والمظاهر الحيوية في المجتمع المملوكي ؟ يقول المقريزي :

« وكان الامير اسندمر[١٥٢] قد صار في رتبة استاذه يلبغا ، واليه تدبير امور الدولة ، وعنه يصدر ولاية اربابها وعزلهم ، وسكن في دار يلبغا بالكبش »[١٥٣] .

ويبدو ان الامير اسندمر بدأ ينهج نفس سلوك يلبغا العمري من الانفراد بالسلطة والحكم وهو السبب الذي ادى الى الاطاحة بالاتابك يلبغا العمري ، بل كان اسندمر « ممن ثار على استاذه ، فلما قتل استقر مدبر المملكة »[١٥٤] .

الا انه « لما استقل بتدبير المملكة ارادوا (الامراء) الثورة عليه فظفر بهم ، وقبض على خمسة وعشرين اميرا ، واقام غيرهم من جهته »[١٥٥] .

ويشرح المقريزي هذه الواقعة غير العادية بقوله :

« فلما كان يوم الاحد سابع شوال (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) بلغ الامير اسندمر ان جماعة من الامراء قد اتفقوا على الفتك به وبالاجلاب ، وهم اعضاده وبهم يصول . فخرج ليلا من داره الى دار الامير قجماس الطازي ، وبذل له مالا كبيرا حتى استماله اليه ، ثم فارقه ، وفي ظنه انه قد صار معه ، ولم يكن كذلك ، وعاد الى منزله بالكبش واستدعى خواصه من اليلبغاوية ، وقرر معهم انه اذا ركب للحرب يقتل كل واحد منهم اميرا ، او يقبض عليه ، وبذل لهم مالا كبيرا حتى وافقوه ، وما هو الا ان خرج اسندمر من عند قجماس ليدبر ما قد ذكر مع الاجلاب ، ركب قجماس الى جماعة من الامراء وقرر معهم القبض على اسندمر ، فركبوا معه للحرب ، ووقفوا تحت القلعة ، فنزل السلطان في الحال الى الاصطبل ، ودقت الكوسات حربيا .

واما اسندمر فانه بات هذه الليلة في اصطبله ، حتى طلعت الشمس ، وركب من الكبش بمن معه من اليلبغاوية وغيرهم ، ومضى نحو القرافة ، ومر من وراء القلعة ، حتى وافاهم من تحت دار الضيافة ، ووقف تحت الطبلخانات فالتقى مع الامراء ، واقتتلوا فهزموهم بمن كان قد دبر معهم من اليلبغاوية في الليل قبض الامراء او قتلهم وثبت الامير الجاي اليوسفي[١٥٦] والامير ارغون ططر ، وقاتلا اسندمر الى قبيل الظهر ، فلما لم يجدا معينا ولا ناصرا انكسرا الى قبة النصر ، وانفض الجمع بعدما قتل الامير ضروط الحاجب ، وجرح الامير قجماس والامير اقبغا الجلب[١٥٧] ، وكثير من الاجناد والعامة ، فقبض الامير اسندمر على الامير قجماس ، والامير اقبغا الجلب والامير اقطاي ، والامير قطلوبغا جركس ، وهؤلاء امراء الوف ، وقبض من امراء الطبلخاناة على قرابغا شاد الاحواش ، واختفى كثير من الامراء ، ومرت مماليك اسندمر وطائفة من الاجلاب في خلق كثير من العامة ، فنهبوا بيوت الامراء ، فكانت هذه الواقعة من اشنع حوادث مصر واعظمها فسادا .

وفي يوم الثلاثاء غد الواقعة ، قبض على الامير ايدمر الشامي الدوادار[١٥٨] ، فضربه الامير اسندمر ضربا مبرحا ، وعنفه على مخالفته عليه ، ثم قيده مع بقية من قبض عليه ، وفيه امسك ايضا الامير الجادي اليوسفي احد امراء الالوف والامير يلبغا شقير احد الطبلخاناة ، فقيدوا وحمل الجميع الى الاسكندرية ، فسجنوا بها .

وفي يوم الاربعاء قبض على الامير طغاي تمر النظامي ـ احد الالوف ـ وعلى الامير ارغون ططر ـ احد الالوف ـ وعلى قطلوبغا الشعباني ، وايدمر الخطاي ، وتمراز الطازي ، وهم من الطبلخاناة ، ثم قبض على الامير الطنبغا الاحدي احد مقدمي الالوف ، وعلى طاجار من عوض ، وآسن الناصري ، وقراتمر المحمدي . وقرابغا الاحدي ، من الطبلخاناة ، وعلى جماعة اخرى ، فكانت عدة من قبض عليه اسندمر خمسة وعشرين اميرا »[١٥٩] .

وبذلك تكون هذه الحركة قد حققت عكس الاهداف التي رغبت

---

(١٥٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤١٣ .

(١٥٣) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٤١ .

(١٥٤) الدرر ، جـ١ ، ص٤١٣ .

(١٥٥) الدرر ، جـ١ ، ص٤١٣ .

(١٥٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤٣٣ .

(١٥٧) أنظر ترجمته ، الدرر ، ج ١ ، ص٤١٩ .

(١٥٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤٥٨ .

(١٥٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٤٢ - ١٤٣ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٤٢ - ٤٥ ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

فيها فبدلا من التخلص من اسندمر وما وصل اليه من سلطان وسطوة ، تم القبض على عدد كبير من امراء الالوف الذين كانوا يعارضونه حيث سجنوا وتعين بدلا منهم جماعة من مؤيدي اسندمر ، ومن ثم يكون قد نجح في تثبيت ركائز له في مختلف الاجهزة الادارية في الدولة .

وهكذا اضحى البلاط المملوكي في هذه الحقبة مسرحا للصراعات السياسية بين طوائف الامراء المماليك في سبيل النفوذ الشخصي والمصالح الخاصة .

ويلفت نظرنا محاولة اسندمر في التخلص من وجود عدد من الامراء الكبار حيث يجتهد باتهامهم امام السلطان الاشرف شعبان فيجد في ذلك مبررا لزجهم في السجن الى اجل غير مسمى مما جعل عملية اختلاق التهم سهلة عند اصحاب السلطة العليا ، ولعل من اهم الوقائع المؤيدة لما نقول ما يذكره المقريزي من انه في :

« يوم الثلاثاء ثالث عشرة (رمضان ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م) قبض على الامير طغاي تمر النظامي والامير ارغون ططر ، واتهما باثارة فتنة على السلطان »[١٦٠] .

ولكن يبدو ان هذا الاتهام كان قائما على شكوك لا اساس لها من الحقيقة والدليل على ذلك ما يرويه ابن حجر اذ يقول :

« ارغون ططر بن عبدالله التركي ، كان من مماليك حسن ، وتقدم في دولة يلبغا ، ثم ولي رأس نوبة ثم قبض بعد كائنة يلبغا سنة ثمان وستين وحبس بالاسكندرية ، ثم افرج عنه ، وولي امرة حماة واستقر بها الى ان مات في اوائل هذه السنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) »[١٦١] .

وعلى ذلك يمكن القول بانه حدث عقب القضاء على هذه المؤامرة وجود نوع من الاستقرار السياسي في سلطنة المماليك في ظل حكم مجموعة جديدة من كبار الأمراء الأوليجاركية التي حرصت على استتباب الامان والسلام في المجتمع المملوكي من اجل الاهداف التي لابد انها استجدت مع تغيير الجهاز الاداري ووصول مجموعة اخرى من الامراء الى المناصب العليا في الدولة .

ومن ناحية اخرى حققت طائفة المماليك الجلبان لنفسها عن طريق تأييد اسندمر ضد الامراء مزيدا من الامتيازات والحقوق والسلطة بحيث اصبح من الصعب السيطرة عليها من اجل المحافظة على الاستقرار الاجتماعي بين طبقات الرعية ، بل انه يبدو ان اسندمر نفسه بات رهين اشارتهم بدليل ما يذكره ابن حجر من انه لما كانت فتنة الاجلاب وافقهم اسندمر خشية منهم وتقوية بهم فكسرهم الله وكفى شرهم ، وسجن اسندمر بالاسكندرية فمات بها في رمضان سنة ٧٩٦هـ »[١٦٢] .

ومن ثم كان هؤلاء المماليك الجلبان سببا في ضياع اسندمر وما حظى به من سلطة وصلاحيات واسعة اذ يفصل المقريزي ذلك بقوله :

« وفي يوم الجمعة سادس (صفر سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م) ركب المماليك الاجلاب اليلبغاوية لمحاربة الامير اسندمر الناصري الاتابك ، وطلبوه في ان يسلمهم بيرم الدوادار[١٦٣] وازدمر ابو دقن[١٦٤] وجركتمر[١٦٥] امير مجلس في عدة اخرى . فلم يجد بدا من ان بعث الى الامراء ، فلما اتوه قبض على الامير جركتمر والامير ازدمر ابو دقن امير سلاح ، والامير بيرم العزي الدوادار ، والامير يلبغا القوصوني امير اخور ، والامير كبك الصرغتمشي الجوكندار ، وحملهم مقيدين الى الاسكندرية . فلم يقنعهم ذلك ، وباتوا بسلاحهم ، وغدوا يوم السبت على حربهم ، وطلبوا منه خليل بن قوصون ، فسلمه اليهم ، فافتدى نفسه منهم بمائة الف درهم ، عجل منها ربعها ورسموا عليه ليقوم بباقيها ، واهانوه اهانة بالغة ، ونزعوا السلاح ، وفي باطنهم غل كثير ، ثم تجمع اكابرهم في ليلة الاحد واتفقوا على قتل الامير اسندمر وقتل السلطان ، واقامة سلطان غيره ، وتحالفوا على ذلك ، وركبوا من ليلتهم وقصدوا القلعة ، فأمر السلطان بالكوسات ، فدقت ليجتمع الامراء والعسكر ، واحضر الامير خليل بن قوصون ، واركب معه المماليك السلطانية ، وهم نحو المائتين ، والأجلاب نحو الالف وخمسمائة ، ونودي في القاهرة بركوب اجناد الحلقة ، وحضور العامة لقتال الاجلاب . وكانت النفوس قد مقتتهم لقبح سيرتهم ، وكثرة شرهم ، وزيادة تعديهم . فبادروا الى تحت

---

(١٦٠) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٩ .
(١٦١) أنباء ، جـ ١ ، ص ٤٥ .
(١٦٢) الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٣ .
(١٦٣) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٤٧ .
(١٦٤) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ .
(١٦٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

القلعة زمرا زمرا ، وركب الامير اسنبغـا بن البوبكـري ،(١٦٦) والامير قشتمر المنصوري(١٦٧) وغيره . فتناولت العامة الاجلاب بالرجم من كل جهة ، وتقدم اليهم المماليك السلطانية والامراء والاجناد وقاتلوهم فكسروهم فمضوا في كسرتهم الى الامير اسندمر بمنزله من الكبش ، وما زالوا به حتى ركب معهم في موكب عظيم ، ومر على القرافة حتى اتى من وراء القلعة ، كما فعل فيما تقدم ، فلم تثبت له المماليك السلطانية ، وانهزمت عند رؤ يته ، فثبتت العامة وحدها لقتاله ، وتقدموا اليه ورموه بالحجارة رميا متتابعا ، وهو ومن معه يرمونهم بالنشـاب ، فكان بـين الفريقـين قتال شـديد شنيع ، قتل فيه جماعة منهما ، وطـالت المعركـة بينهما ، فعـادت المماليك السلطانية والامراء ، وحملوا هم والعـامة عـلى اسندمـر والاجلاب حملة منكرة ، فلم يثبت لهم ، وولى الادبار بمن معه ، وامتنع باصطبله من الكبش وقت الظهر ، فقبض من اصحابه على الامير قرمش الصرغتمشي والامير اقبغا آص الشيخوني ، والامير ارسلان خجا وسجنوا بخزانة شمايل من القاهرة .

وركب الـوالي عن امر السلطان ، ونـادى بـالقـاهـرة ومصـر وظواهرهما ، « من قدر على احد من الاجلاب فله سلبه ، ويعطي كذا من المال اذا احضره » فتتبعت العامة عند ذلك الاجلاب في الازقة والحارات ، واخذوا منهم جماعة ، وركب الامير خليل بن قوصون الى الامير اسندمر ، فأخذه من داره وطلع به الى القلعـة ليقيد ويسجن ، فشفع فيه جماعة من الامراء وقرروا عليه مالا لينفق في مماليك السلطان ، فقبل السلطان شفاعتهم وخلع عليه ، واقره على حاله ، فنزل الى داره في ليلة الاثنين ، ومعه الامير خليل بن قوصون مرسما عليه ، حتى يحضر من الغد بالمال ، فخدع اسندمر ابن قوصون ووعده بأن يقيمه في السلطنة ، فانه ابن بنت السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاون ، فانخدع ابن قوصون ، ومال اليه وتحالفا على ذلك فبعث اسندمر فجمع اليه الاجلاب . وبذل فيهم المال ، ووعدهم ومنـاهم ، فما طلع نهار يـوم الاثنين حتى ركـب اسندمر وابن قوصون في جمع كبير ، ووقفا تحت القلعة ، فعادت الحرب وركب الامراء والاجنـاد ، وخرج عـامة النـاس ، فكان الامراء اذا رأوا ابن قوصون بجانب اسندمر انضموا اليه ، ظنا منهم انه سلطاني . فأمر السلطان فدقت الكوسات ، ونزل الى الاصطبل بآلة الحرب ، فاجتمع اليه الامراء والمماليك السلطانية والعامة ، وبعث الى اسندمر وابن قوصون ليحضرا اليه فامتنعا ، وصـرحا بأنهما يريدان نزع السلطان من الملك واقامة غيره في السلطنة لتخدم الفتنة . فلما عاد جوابهما الى السلطان ، بعث ثانيا يخوفهما عـاقبة الغدر ، فاظهرا انهما اجابا ، وهما بالحضور ، ثم سـلا سيفيهما ، ومرا ليفتكا بالسلطان . وقد ركب ووقف تحت الاصطبل ، فتبعهما من معهما من الاجلاب ، وهم شاهرون السلاح ، ليفعلا فعلهما . فبادر السلطان بالنداء في العامة « هؤلاء مخامرون فارجموهم » . فصاحت العامة باجمعها « مخامرين » ورجموهم بالحجارة ، ورمتهم المماليك السلطانية بالنشاب ، فلم يكن غير سـاعة حتى انكسر اسندمر وابن قوصون ، وقتل عدة من الاجلاب ، فأخذتهم العامة في هزيمتهم ، واتوا بهم الى السلطان ارسالا وقد نزعوا ثيابهم ، وكشفوا رؤوسهم ، ونالوا منهم ما شفى صدورهم ، ثم قبضوا على خليل بن قوصون من ناحية المطرية ، واتوا به . ثم اخذوا اسندمر من نحو وادي السـدرة تجاه قبة النصر . وقبض على الامير الطنبغا اليلبغاوي ، والامير سلطان شاه بن قرا . وهما من امراء الاولوف . وقبض على احد عشر اميرا سوى هؤلاء من اليلبغاوية وقيدوا ، ومضى بهم الامير ملكتمر ، والامير الطنبغا العـلاي ، والامير درت بغا البالسي الى الاسكندرية .

ونودي في آخر النهار بالامان ، فلا ينهب احد شيئا ، فلقد ظفر السلطان بغرمائه ، فزينوا القاهرة ومصر ، فزينتا احسن زينـة ، وفرح الناس بزوال دولة الأجلاب »(١٦٨) .

علاوة على ذلك :

« أمر بهدم بيت الامير يلبغا الخاصكي بالكبش ، فهدم جميعه حتى لم يبق منه سوى بعض سوره »(١٦٩) .

لعل الملاحظة الرئيسية التي تثبتها هذه المؤامرة هو ضعف مكانة الاشرف شعبان حيث لا تقيم له اية فئة شيئا من الاعتبار ، فالجميع يرغبون في عزله واقامة سلطان آخر ، وكان ذلـك اسهل الامـور ويبقى بعد ذلك معالجة الامور الاخرى ، الا انه يسترعي اهتمامنا ذلك التأييد الكبير الذي كان يحظى به الاشرف شعبان بين صفوف العامة الذين كانوا يجتهدون لمناصرته ودعمه ضد الامراء والمماليك الآخرين بقصد حمايته واستمرار سلطنته ولعل في ذلك نـوعا من

(١٦٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٢ .

(١٦٧) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(١٦٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥٣ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٦ - ٤٩ ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ .

(١٦٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٥ .

التعاطف الضمني معه بسبب ما كان يعانيه من حجر وضغط واهانة لشخصه وحقوقه على يد كبار الامراء في الدولة .

بالاضافة الى هذا وذاك يلفت نظرنا الحزازات التي كانت شائعة بين طوائف الامراء وجماعات المماليك الاميرية والسلطانية والجلبان ، كل يهدف الى تحقيق المزيد من المنافع الخاصة والفوائد المادية .

كذلك يظهر ان السلطة العليا كانت الشغل الشاغل لتلك الجماعات كافة دون بذل ادنى اهتمام بتطوير اجهزة الدولة او اصلاح المرافق وانشاء مراكز التعليم والفكر وكأنه لم يعد هناك في سلطنة المماليك مسألة تستحق الاهتمام سوى السلطة وامتيازاتها ، فكان الجميع يعيشون في دوامة من النزاع والصراع الذي لا يكاد يتوقف حتى ينبثق مرة اخرى على يد جماعة جديدة ، والاشرف شعبان يصارع تلك الفئات من اجل استمراره على كرسي الحكم والابقاء على حياته ، في حين انه كان مغبون الحرية بمختلف معانيها .

ومن ثم فقد تولى منصب الاتابكية بعد اسندمر الامير « منكلي بغا بن عبدالله الشمسي ، اتابك العساكر بعد قتل اسندمر ، وكان قبل ذلك نائب السلطنة بمصر ، وولي امرة دمشق وحلب وصفد وطرابلس في اوقات ، وتزوج بنت الملك الناصر ثم بنت ابنه حسين اخت الملك الاشرف ، وكان مشكور السيرة »[١٧٠] .

وقد توفي سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م ، وهو الذي فتح باب كيسان ، وكان له من عهد نور الدين الشهيد لم يفتح ، وجدد خطبة في مسجد الشهرزوري . قلت : وبنى بحلب جامعا ايضا ، وعمر الخان عند جسر المجامع والخان بقرية سمسع ، وهو والد خوند زوج الملك الظاهر برقوق »[١٧١]

ومن الجدير بالذكر ان كل فتنة أو مؤامرة تخلق من ورائها شخصية كبيرة يقدر لها ان تلعب دورا مهما في الحوادث التالية ، ومن ثم تكون هذه الشخصية السبب الاساسي في حدوث فتنة جديدة يكون لها بالغ الأثر على مجريات الأحداث . ولعل السبب في ذلك أن وجود تلك الشخصيات في المناصب العليا يتيح لها التمتع بالكثير من الصلاحيات والسلطات المطلقة فتظهر نوازع الجشع والطمع ثم الرغبة في مزيد من القوة والسلطة والامتياز مما يجر الى وضع الخطط من اجل الاطاحة بالسلطان ، فتقع الفتنة مرة أخرى ويجد الأشرف شعبان نفسه من جديد أمام مؤامرة ربما تؤدي الى القضاء على حياته وحكمه وحريته . وفي أحيان أخرى يبدأ الأمير صغيرا برتبة معتدلة ثم يكبر تدريجيا حتى يصل الى أعلى المناصب في الدولة ، وبالتالي يبدأ يخطط من أجل الاستحواذ الكامل على السلطة العليا بعيدا عن تدخل السلطان ، وهذا هو بالفعل ما حدث مع الجاي اليوسفي اذ بدأ ذلك حسب قول المقريزي عندما « خلع على الأمير الجاي اليوسفي واستقر امير سلاح ، عوضا عن ازدمر » . [١٧٢]

ومن ثم أخذ يترقى في سلك المناصب الوظيفية العليا في الدولة مما يعني حصوله على مزيد من النفوذ والسلطة . ويصف المقريزي هذا الترقي المطرد الذي حظى به الجاي فيقول :

« الأمير الكبير الأتابك الجاي اليوسفي ، أحد مماليك الناصر حسن ، ترقى حتى صار حاجب الحجاب ، ثم عزل في تاسع رجب سنة ثلاث وستين واستقر أمير جاندار ، الى أن كانت فتنة الأمير أسندمر والأجلاب ، تولى حربه وقاتله قتالا عظيما ، كانت بينهما فيه ست عشرة وقعة ، فلما انتظر اسندمر قبض على الجاي ، وسجنه بالاسكندرية الى أن زالت أيام اسندمر أفرج عنه وعمل أمير سلاح ، ثم صار الأتابك واليه أمور الدولة كلها » . [١٧٣]

وقد حدث بعد ذلك انه « في يوم السبت عشرينه (رمضان ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) تنكر السلطان على الأمير آقتمر الحنبلي لكلام جرى بينه وبين الأمير الجاي ، وأمر بنفيه الى الشام » . [١٧٤]

وهذا يدل على أن السلطان الأشرف شعبان أخذ يخص الجاي اليوسفي برعايته وعنايته بحيث يعادي من يعاديه ويقربه على حساب خصومه حتى جاء اليوم الذي وصل فيه الجاي الى منصب الاتابكية حيث يقول ابن حجر : « وفيها (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) امر أن لا يزيد عدد الشهود في كل مركز على أربعة وأن لا يستنيب أحدا من القضاة من غير مذهبه ، وذلك من قبل الجاي اليوسفي » المتحدث في المملكة .

---

(١٧٠) أنباء ، جـ ١ ، ص ٧٠ .

(١٧١) أنباء ، جـ ١ ، ص ٧٠ - ٧١ ، أنظر كذلك شذرات ، جـ ٦ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(١٧٢) السلوك ، جـ ٣ ص ١٥٥ .

(١٧٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(١٧٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ .

وفيهـا استقر الجـاي أتابـك السلطنة ، وولي نـظر المـارستـان فاستناب كريم الدين بن الغنام فيه » . (١٧٥)

ولكن من جانب آخر يذكر المقريزي :

« واستقر (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) الأمير الجاي اليوسفي أتابك العسـاكـر ونـاظـر المارستـان ، عـوضـا عن الأمير منكـلي بغـا الشمسي فسأل قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة(١٧٦) في التحدث عنه في نظر المارستان فلم يقبل ، فولى الصاحب كريم الـدين شـاكـر بن ابراهيم بن غنـام في نيابـة النـظر عنـه بالمارستان » (١٧٧)

ونتيجة لذلك بدأ الأتابك الجاي اليوسفي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة . الا أننا نعجب من موقف قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة من تلك المناصب التي يعرضها كبار الأمـراء عليه فيـرفض وكأنـه يتحاشى العمـل معهم ويمتنع عن التعاون معهم حيث أنه لا يقر ما يقدمون عليه من أعمال مخالفة للدين في كثير من الأحيان من أجل خدمة المنافع الشخصية . وفي نفس الـوقت اجتهد الجـاي في تقريب اتباعه وأهله وتعيينهم في المراكز العليا فيكون له خير مساعد على تحقيق ما يصبو اليه حيث يذكر ابن حجر :

« أرسل الجاي أخاه طغيتمر الحسني الى دمشق لعرض الأجناد بها فحصل أموالا عظيمة حتى قيل : ان الذي خصه خمسون ألف دينار ، وأخذ من ذخائر القلعة أشياء نفيسة ، وبالـغ في الظلم فاستغاث الناس الى منجك نائب الشام ، فكاتب فيه . ثم توجه المذكور الى جهة حلب ففعل في بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق ولولا تلطف النائب وناظر الجيش بالناس لهلكوا معه ، واستناب الجاي في نظر الأوقاف الشريف بكتمر الذي كان والي القاهرة وصار يحمل اليه المعلوم » . (١٧٨)

وبذلك بدأ الجاي يغتني من أموال الناس بالحق والظلم مما يعني الاساءة الى الرعية دون علم السلطان الأشرف شعبان أو تدخله . وهذا يدل دون شك على عدم القيام بمسئوليات المنصب كما يجب ، بل استغلال امتيازات هذه المراكز بما يناسب تحقيق الكثير من المنافع الخاصة والأموال الوفيرة ، ويسيء بالتالي الى سمعة الحاكم الجالس على كرسي السلطنة . كما يظهر أنه أخذ يصرف أمور الدولة دون استشارة الأشرف شعبان أو محاولة معرفة رأيه بـدليل مـا يرويـه المقريزي من أنه :

« في عشرينه (جمادى الاولى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) تقـدم الامـير الكبير الجـاي اليوسفي بـأن لا يجلس في كل حـانوت من حوانيت الشهود سوى أربعة ، وأمر القضاة الا يجلس كل قاض من الشهود الا من كان على مذهبه ، فانحصر الشهود من ذلك ، ثم تنجـزوا مرسـوم السلطان باعـادتهم الى ما كـانوا عليـه ، فبـطل ذلك » . (١٧٩)

ومع ذلك كله فقد استمرت مكانة القضاة الأربعة لها هيبتها التي يحترمها هؤلاء الأمراء المماليـك الأوليجاركية رغم ما تيسـر بين أيديهم من قوة وسلطة وصلاحيات . ومن ثم حظي القضاة الأربعة باحترام الأتابكة ونواب السلطنة حتى ولو أن هذا الاحترام قد جاء رغم عدم رضاء النفس الطبيعي الا أنه استمر موجودا ، وحد بالتالي من تلك الامتيازات المطلقة في السلطة التي كان كل أتابك يفسرها حسبما يريد وبما يرضي أطماعه وجشعه في سبيل مزيد من الـسلطة المطلقة والمنفعة المادية . ولعل أبلغ مثال على ما نقول مـا يذكـره المؤرخ ابن حجر من أنه في أواخر ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م :

« عقد الجاي مجلسا بالعلماء في اقامة خطبة بالمنصورية ، فأفتاه البلقيني وابن الصائغ وآخر بالجواز ، وخالفهم بالباقون ، فانفصل بالمجلس على ما قاله الجمهور » . (١٨٠)

وعلى ذلك يمكن القول أنه في كثير من الأحيان في أثناء هذه الحقبة كانت كلمة القضاة هي العليا التي لا يجرؤ أي مسئول في الدولة على عدم احترامها والعمل وفقها .

ونتيجة لذلك كان القضاة هم الملجأ الذي يهرع اليه الضعفاء من الرعية طلبا للمساعدة والاطمئنان النفسي الذي لابد أنهم يفتقدونه في ظل تلك الأحوال غير المستقرة .

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو ما السبب الذي جعل الأشرف شعبان يفضل الجاي اليوسفي ويقربه على هذا النحو غير

---

(١٧٥) أنباء ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

(١٧٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٣٩ ـ ٤٠

(١٧٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٤ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٧ .

(١٧٨) أنباء ، جـ ١ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(١٧٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٨٠) أنباء ، جـ ١ ، ص ٣٩ ، أنظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٦ .

العادي ؟ نلاحظ أن الجواب على هذا السؤال يقع في صلة النسب التي كانت تربط الجاي بالأشرف اذ كان الأول زوج والدة السلطان ، ومن ثم حظي بهذه المنزلة الرفيعة في بلاط الأشرف شعبان واستمر ذلك حتى عقب وفاة زوجته ـ أم الأشرف ـ بقليل . ويشرح ابن حجر طبيعة هذه الرابطة مبينا أهمية مكانة أم السلطان فيقول :

« بركة خاتون [١٨١] بنت عبدالله المولدة ، والدة الملك الأشرف تزوجت الجاي في سلطنة ولدها ، وماتت في عصمته في ذي القعدة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) ولها مدرسة بالتبانة ، وكان الأشرف كثير البر لها بحيث أنه عادها مرارا حتى الروضة مقابل مصر ، وماتت في ذي القعدة ، فأراد الأشرف أن يزوج الجاي ابنته ، فقيل : لا تحل له ، فجمع القضاة فأفتوه بالمنع لأن بنت الربيب ربيبة ، فعوضه عنها بسرية له وكان يحبها اسمها « بستان » فأعتقها وزوجها له ، ثم وقع بينهما منافرة بسبب تركه أم الأشرف التي ماتت رحمها الله تعالى » . [١٨٢]

ومن جانب آخر يقول المقريزي :

« وتوفيت خوند بركة أم السلطان ، في يوم الثلاثاء آخر ذي القعدة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م) وهي التي بنت المدرسة المعروفة بمدرسة أم السلطان ، بخط التبانة ، قريبا من قلعة الجبل ، وبنت الربع المعروف بربع أم السلطان ، وقيسارية الجلود التي تحت الربع المذكور ، بخط الركن المخلق ، وكانا في جملة أوقاف مدرستها هذه حتى أخذهما الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فيما أخذ من الأوقاف والأملاك » . [١٨٣]

ومن ثم لم يمض قليل على وفاة والدة الأشرف شعبان حتى دب النزاع بين الأشرف وألجاي بسبب الارث مما أثار الفتنة في البلاط السلطاني ، بل أن ألجاي طمع في السلطنة والحكم حتى أدى الأمر الى القتال بينهما حيث يقول ابن حجر :

« فيها في المحرم (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) قتل الجاي اليوسفي وكان قد تنافر هو والسلطان الأشرف بسبب منازعة وقعت بينهما في تركة والدة السلطان ، فركب الجاي ، واقتتل مع مماليك السلطان بسوق الخيل فكسروه ، فانهزم الى بركة الحبش ثم رجع من وراء الجبل الأحمر الى قبة النصر ، فهرب جماعة من أصحابه الى السلطان ، وخامر اينبك عليه ، ثم ثار له العسكر السلطاني فهرب فساقوا خلفه الى الخرقانية من أعمال قليوب ، فرمى بنفسه في بحر النيل فغرق ، ثم أطلع من بحر النيل ودفن في تربته ، وكان أول أمره حاجبا في أول دولة يلبغا ثم استقر خازندارا ، ثم حبس في ايام اسندمر ، ثم أفرج عنه بعد قتل اسندمر واستقر أمير سلاح ، وتزوج أم السلطان وعلت كلمته الى أن صار هو الحاكم في الدولة كلها ، وكان تام الشكل حسن التودد الى العوام مع هوج فيه أداه الى أن ركب على العامة بالسيف في سنة سبعين ، فلولا أنه كان في آخر النهار لأفنى منهم خلقا كثيرا ، وذكر بعض خواصه أنه كان يتصدق في كل يوم اثنين وخميس بألف درهم دائما ، وكان استقراره في الأتابكية بعد منكلي بغا ، فلم تطل أيامه في ذلك وقبض على جماعة من حواشيه ، فقيل ان سبب مخامرته انه كان يبيت عند السلطان ليلة الموكب فجاءه من أخبره أن السلطان يريد القبض عليه ، فتأخر وأرسل فأحضر ثياب مبيته ، فأرسل له السلطان يعاتبه فاعتذر ، ثم شرع في تفرقة السلاح على أتباعه ، فبلغ السلطان فأمر الأمراء بالاجتماع عنده ، فلما كان في السابع من المحرم ركب الجاي بمن معه الى الرميلة ، والتقى مع أطلاب الامراء ومماليك السلطان ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى قيل انهم التقوا أحد عشر وجها وقتل جماعة وجرح جماعة ، وفي الأخر انهزم الجاي الى قبة النصر وتفرق عنه الجيش وتردد الناس من عند السلطان اليه في الصلح فلم يتم ، وأرسل اليه خلعة بنيابة حماة فلم يقبل ، ثم تقلل الجمع عنه الى أن صار في خمسمائة فخرج اليه أرغون شاه في جماعة من الخاصكية فقاتلوه فانهزم وتفرق من معه ، ونودي بالقاهرة : من أمسك مملوكا من مماليك الجاي أخذ خلعة ، فقبض على أكثرهم وصودر من كان في خدمته ، واستقر ايدمر نائب طرابلس أتابك العساكر ، أحضره السلطان منها بعد قتل الجاي في صفر ، واستقر في نيابة طرابلس يعقوب شاه ، واستقر اقتمر عبدالغني في نيابة السلطنة بمصر » . [١٨٤]

وبذلك انتهت حياة الجاي اليوسفي الذي حباه الأشرف شعبان بالمناصب العليا ، والمال الوفير والنسب السلطاني ، فكبرت نفسه وازداد طمعه حتى أدى ذلك الى نهايته على أسوأ حال وأشنع عاقبة .

« ثم قبض السلطان على مماليك ألجاي ونودي بالمدينة ان كل من

---

(١٨١) أنظر ترجمتها ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٧ ـ ٨ .

(١٨٢) أنباء ، جـ ١ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ، أنظر كذلك ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .

(١٨٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٠ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٥٩ ـ ٦١ .

(١٨٤) أنباء ، جـ ١ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ، أنظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٥ ، النجوم جـ ١١ ، ص ٥٧ ـ ٦٢ .

لقي أحدا منهم يحضره الى السلطان ويأخذ لـه خلعة . ثم أخـذ السلطان أولاد الجاي وهم أخوته لأمه ورَتب لهم ما يكفيهم واحتاط على سائر موجود الجاي وأخذ جميع مماليكه وصفح عنهم وجعلهم في خدمة ولديه : أمير علي وأمير حاج .

ثم قبض السلطان على جماعة من الأمراء ممن كان يلوذ بالأمير ألجاي وهم صراي العلائي وسلطان شاه بن قراجا وطقتمر الحسني وعلي بن كلبك وصادره ثم أمسك بيبغا القوصوني وخليل ابن قماري الحموي فشفع فيهما الأمير طشتمر الدوادار .

ثم في آخر صفر رسم السلطان بنفي جماعة الى البلاد الشامية ، وهم محمد شاه دوادار الجاي وخليل بن عرام المعزول عن نيابة الاسكندرية وعلى بن كلبك واقبغا البشمقدار خازندار الجاي وكان السلطان في تاسع المحرم رسم لبوري الحلبي الخازندار أن يتوجه الى طرابلس لاحضار نائبها الأمير عز الدين ايدمر الدوادار الناصري الى مصر ، فتوجه بوري اليه وأحضره ، فلما مثل بين يدي السلطان خلع عليه باستقراره بأتابك العساكر بالديار المصرية ، عوضا عن ألجاي اليوسفي وتولى عوضه نائب طرابلس الأمير يعقوب شاه ، وبعد موت ألجاي أنعم السلطان على جماعة من الأمراء باقطاعات ووظائف فأخلع على الامير صرغتمش الأشرفي باستقراره أمير سلاح خـاصكيـا يجلس بـالايـوان في دار العـدل واستقـر أرغـون الأحمدي [١٨٥] الّا لا أمير كبير برانيا وأجلس بالايوان » . [١٨٦]

ومن ثم بدأت الأوضاع تستقر وتعود الأحوال الى نصابها حيث يشير المقريزي الى أنه في محرم ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م » استدعى بأولاد الجاي وأسكنوا بالقلعة ورتب لهم كفايتهم ، ووقعت الحوطة على جميع ما خلفه الجاي ، فكان شيئا كثيرا ورتبت مماليكه فى خدمـة ولدى السلطان ، وقبض على محمد شاه دوادار الجاى ، وعلى أقبغا البجمقدار خازن داره ، وعلى مباشرى ديوان والزامه ، والزموا بمال كبير ، فحملوا بعض ما ألزموا به وخلي عنهم » . [١٨٧]

من جـانب آخـر نـلاحظ أنـه في « رابـع صفـر (٧٧٥هـ ك ١٣٧٣م) قدم الأمير ايدمر الدوادار من طرابلس ، فخلع عليـه واستقر أتابك العساكر ، عوضا عن الجاي اليوسفي » . [١٨٨]

ثم بعد ذلك بقليل « فتحت مدرسة الجاي بعد موته ، وكان قد بقي من عمـارتها شيء فـأكمله الأوصياء ، واستقـر في تـدريس الشافعية بها الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي تدريس الحنفية جمال الدين محمود القيسري [١٨٩] » . [١٩٠]

ونتيجة لذلك تجدر الملاحظة بأن منصب الأتابكيـة [١٩١] كان سببا في وقوع أكثر من فتنة في عهد الأشرف شعبان ، الأمر الذي طالما هدد مكانـة الأشرف عـلى كرسي السلطنـة والحكم . ولعل السب في ذلك أن صاحب هذا المنصب يعتبر بمثابة القائد الأعلى للجيش ، فتكون جميع الكتائب رهن كلمته واشارته مما يجعله يشعر بأنه سيد الموقف وبيده ما يرغب به من سلطات مطلقة وصلاحيات غير محدودة . ومن هنا تظهر النزعة الشديدة من أجل الاستحواذ على السلطة الرسمية والتخلص من وجود السلطان الشرعي الذي كان يمثل رغم سلطته الاسمية منافسا خطيرا لأتابك العساكر خاصة اذا ما كنا نعلم قوة الرابطة الودية بين السلطان وقضاة السلطنة ، في حين كان هؤلاء يمثلون العنصر الرافض لكل ما بيد الأتابك من صلاحيات وامتيازات .

ويلفت نظرنا أن سلطة أتابك العساكر قد طغت على سلطة نائب السلطنة طيلة عهد الأشرف شعبان بعكس الحال ابان عهد الناصر محمد بن قلاوون حين بلغ من قوة نائب السلطان أن كانت لديه القدرة على عزل السلطان والجلوس على كرسي الحكم بدلا منه الى أن بدأ العهد الثالث لسلطنة الناصر محمد وأضحى قويا قادرا على تسيير زمام الأمور فعمل على الغاء وظيفة نيابة السلطنة كي لا تعود مصدرا لكثير من المصائب التي تحل بسلاطين الدولة .

ولعله من الأسباب التي أدت الى تزايد سلطة أتابك العساكر ، وبالتالي تفاقم خطورة هذه القوة على شخص السلطان هو صغر سن السلطان الشرعي الجالس عـلى كرسي الحكم ، فكـان في هـذا الوضع عنصرا مشجعا لكبار الأمراء من أجل الوصول الى مزيد من النفوذ والسطوة ، بل العمل على خلع السلطان الصغير والجلوس بدلا منه على كرسي الحكم .

(١٨٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .
(١٨٦) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦١ - ٦٢ .
(١٨٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٦ .
(١٨٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ .
(١٨٩) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(١٩٠) أنباء ، جـ ١ ، ص ٧٩ .
(١٩١) أنظر ، صبح ، جـ ٤ ، ص ١٨ .

ومن ناحية أخرى نجد أن تمتع أتابك العساكر بذلك النفوذ الواسع كان سببا في اشتداد الصراع بينه وأتباعه وبين بقية طوائف الأمراء المماليك الأوليجاركية بدافع من الحسد والطمع والحقد مما كان يجر الى الفتن والخلافات التي لا تكاد تنتهي حتى تشتعل مرة أخرى . وقد نتج عن تلك الخلافات ذلك القتال المتواصل بين طوائف المماليك السلطانية والأميرية والجلبان واليلبغاوية وغيرهم في مناطق البلاد حظيت كل فرقة بالكثير من النفوذ والامتيازات فوجدت في ذلك الوضع الكبير وسيلة مناسبة لهزيمة هذه الطائفة أو تغريم تلك ، بالاضافة الى التطاول على حقوق الرعية وحرماتها ، فكانوا يدخلون المنازل وينهبونها ، ويعتدون على الناس ، ويسرقون الدكاكين ، مما أشاع جوا من عدم الاستقرار الاجتماعي خلال سنوات هذا العهد ، الى جانب الاستقرار السياسي الذي شهدته الدولة طوال هذه الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك .

والى جانب منصب الأتابكية وجد أيضاً منصب نيابة السلطنة الذي تعاقب عليه عدد من كبار الأمراء المماليك ، وان كان يبدو أنه لم يكن بيد هؤلاء النواب سلطات واسعة كالتي تيسرت لدى الأتابكة . ومن ثم قدم بعض أولئك النواب خدمات جليلة للدولة في أثناء حكم الأشرف شعبان ، ويأتي على رأس هؤلاء « منجك بن عبدالله التركي [١٩٢] ، تنقل في الولايات بالبلاد ، وولي الوزارة بالقاهرة ، واستقر في الآخر نائب السلطنة بمصر واليه امور المملكة ، وقد عمر خانات نافعة وجوامع وأصلح الجسور ، والطرقات ، مات في تاسع عشرين ذي الحجة (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) وقد جاوز الستين . ومن أحكامه مع ما كان ـ يعني به من تعمير المدارس والخوانق والخانات والقناطر ـ أمره بكسر أواني الخمر ومنع عملها ، ومنع النساء من الركوب بين الرجال والخروج الى مواضع النزه والخروج في الليل ، وتضييق الأكمام ، ومنع تعليق الأجراس بأعناق الحمير ، وألزم كل من يدخل الحمام بالتستر بالميازر وغيرها » . [١٩٣]

ولكن كيف تيسر لمنجك الوصول الى وظيفة نيابة السلطنة ؟ يشير ابن حجر الى أن منجك هذا كان نائبا للشام حيث يذكر أنه :

« في أول يوم من جمادي الاخرة (سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م) وصل قود نائب الشام منجك يشتمل على شيء كثير جدا حتى اتفق أهل المعرفة أنه لم يتقدمه بمثل ذلك نائب ، ومن جملة ما كان فيه اسدان وصبع وابل ونحو الخمسين من الكلاب المعلمة ونحو الخمسين من البخاتي بلبوسها وخمسة من البخاتي أيضا كل منها بسنامين وكلها بثياب أطلس ونحو الأربعين حملا يشتمل على قماش وحلوى وفاكهة ونحو الأربعين هجينا ومن المنابيش الزركش والعرقيات الزركش والقبي الحرير شيء كثير جدا ومن الصوف الملون والحرير والفرى خمسون بقجة الى غير ذلك » . [١٩٤]

وهذا يدل من غير شك على سمو المكانة التي حظي بها منجك في بلاد الشام ، فكان صاحب الكلمة العليا فيها خاصة وأن الأحوال السياسية لا تكاد تستقر في مصر بسبب التطلعات الخطيرة لدى الأتابكة ، ومن ثم أدار منجك بلاد الشام بحرية وعدل ، فنال الكبر في المكانة والعزة في العيش الكريم بدليل هذه الهدايا التي أغدقها على الأشرف شعبان عند قدومه البلاط السلطاني في القاهرة .

ومن ناحية أخرى كان الأشرف شعبان يقدر نائب الشام ويدرك ما يتصف به من جميل الخصال وفضائل الصفات ، ولذا فعندما خلى منصب نيابة السلطنة في عام ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م استدعى الأشرف شعبان نائب الشام كي يتولى مسئوليات هذه الوظيفة الحساسة في البلاط السلطاني حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) في شهر رمضان حضر منجك نائب الشام الى مصر فاستقر نائب السلطنة بها ، فوضت اليه جميع أمور المملكة من الكلام في الوزارة والخاص والأوقاف والأحباس واخراج الاقطاع الى ستمائة دينار والعزل والولاية لأرباب المناصب بما يقتضيه رأيه ، وقرىء تقليده بذلك ، وكان النائب قبله اقتمر عبدالغني فنفي الى الشام في جمادى الأولى ، وكانت مدة نيابته أربعة أشهر ، ثم قرر نائبا بطرابلس عوضا عن يعقوب شاه » . [١٩٥]

ونعجب في الحقيقة اذ نرى الأشرف شعبان يحمل منجك مسئوليات كل هذه الوظائف فأصبح نائب السلطنة والوزير وناظر الخاص وناظر الأوقاف والأحباس ، وحدد له مرتبا قدره ستمائة دينار ، وفوض اليه صلاحيات تعيين من يريد وعزل من لا يريد ، فكأن منجك أصبح الشخصية الثانية في الدولة بعد الأشرف شعبان ولعلنا نستطيع ان نفسر سبب ذلك بالمعاناة التي قاساه الأشرف على

---

(١٩٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(١٩٣) أنباء ، جـ١ ، ص١٤٨ .

(١٩٤) أنباء ، جـ١ ، ص١٣ ـ ١٤ .

(١٩٥) أنباء ، جـ١ ، ص٧٥ .

يد يلبغا وأسندمر والجاي وما أثاروه من فتن وتمرد وتنكر لما حباهم به من مكانة وعزة .

ومن ناحية أخرى يشير ابن حجر الى تلك الحفاوة التي استقبل بها منجك عند قدومه القاهرة كي يستقر ويزاول مسئوليات مناصبه الجديدة ، فيذكر أنه في جمادى الاخرة سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م « نقل منجك الى القاهرة وكان دخول منجك الى القاهرة في ذي القعدة ، وخرج جميع العساكر لملتقاه ، ولم يتأخر عنه الا السلطان وولاه النيابة » . (١٩٦)

ويؤكد المقريزي تسلم منجك مقاليد هذه الوظائف ، وكذلك ما استقبل به من حفاوة وترحيب (١٩٧)

وهكذا ، فان الاشرف شعبان بعد أن ضاقت به الحيلة يلجأ الى انصار جده الناصر محمد لعلهم يعينونه على تأسيس حكم مستقر في الدولة لدرجة انه يوكل الى منجك التصرف في « سائر أمور المملكة » ، خاصة وأن منجك معروف فعلا جدير بالمسئوليات التي ألقيت على عاتقه وغير ذلك من الأفعال الحسنة التي ضاعفت من أهمية وجوده في ذلك المركز المهم (١٩٨)

وهكاذ استمر منجك يزاول مهام وظائفه طيلة عام كامل الى أن توفي اذ يقول ابن حجر :

« منجك الناصري ، أحد أكابر الأمراء ، (توفي سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) وأول ما ولي امرة حلب عقب طاز سنة تسع وخمسين ، ثم تنقل في الولايات وولي الوزارة وغيرها وله أوقاف كثيرة على وجوه البر وجاوز الستين » . (١٩٩)

وقد استمر طيلة نيابته جليل القدر في نفس الأشرف شعبان الذي كان يحترمه ويعزه ، وعندما :

« مرض الأمير منجك اليوسفي النائب نزل السلطان لعيادته ، ففرش منجك تحت رجلي فرسه الشقق الحرير وقدم له عشرة مماليك وعشره بقج وعدة خيول فقبلها السلطان ثم أنعم بها عليه ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء سابع عشرين ذي الحجة ومات منجك بعد يومين » . (٢٠٠)

وقد دفن الأمير منجك اليوسفي في خانقاته التي أنشأها في رأس الصوة تحت القلعة . (٢٠١)

وبوفاة منجك خسر الأشرف شعبان شخصية مهمة كان يعول على وجودها الكثير في حقبة تكافأت فيها جميع الظروف على أن يكون الأشرف في حاجة الى رجال لا تطغى على نفوسهم النظرة المادية ، وانما يحرصون من أجل العمل لهدف المصلحة العامة .

واذا نظرنا الى هذا العهد من زاوية أخرى مختلفة ندهش اذ نجد خشية الأمراء المماليك الاوليجاركية من طبقة القضاة الذين يمثلون الركيزة الأساسية لتطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية ، فهؤلاء الذين لا يقيمون وزنا لسلطان الدولة ، يعملون الكثير من الحساب لأولئك القضاة ، فيجتهدون من أجل كسب رضائهم ، ويحتاطون خشية اثارة غضبهم وسخطهم على ما يقومون به من أعمال منافية للحق والعدل . ويمكننا أن نلاحظ هذا كله مع توالي الحوادث مع بدء سلطنة الأشرف شعبان بشكل يثير التساؤل والعجب يقول المقريزي :

« وفي يوم الخميس ثالث عشرين رمضان عزل قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي نفسه من أجل أن الأمير يلبغا استدعاه ، فوافاه القاصد وهو نايم ، فلم يتمهل عليه حتى ينتبه ، بل أمر به فأيقظ وقد انزعج ، فغضب لذلك ، وعزل نفسه ، وأبى أن يجيب القاصد أو يجتمع به ، فشق ذلك على الأمير يلبغا . وما زال يرسل اليه ويترضاه حتى رضي . ثم استدعي في يوم الاثنين سابع عشرينه الى مجلس السلطان ، وخلع عليه ، وأعيد الى وظيفة القضاء على عادته » . (٢٠٢)

وهكذا يتكرر ظهور الامير يلبغا في مجرى الحوادث بشكل ظاهر مما يؤكد أنه فعلا القائم على ادارة شئون الدولة في مختلف مجالاتها ، بل بلغ به الأمر الى التطاول على شخص القضاة القائمين على أمور الشرع الشريف من أجل خدمته فأدى الحال الى رفضهم هذا الأسلوب بالامتناع عن ممارسة مسئوليات الوظيفة ، ولكن يبدو أن الأمير يلبغا كان حريصا على رضاء القضاة عنه ، ربما ، من أجل

---

(١٩٦) أنباء ، جـ١ ، ص٧٨ .

(١٩٧) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(١٩٨) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٣٥ .

(١٩٩) أنباء ، جـ١ ، ص١٩٠ .

(٢٠٠) النجوم ، جـ١١ ، ص٦٥ .

(٢٠١) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٤٧ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢٣٠ .

(٢٠٢) السلوك ، جـ٣ ، ص ٨٤ .

تحقيق الاستقرار الاجتماعي الذي يتيح له التمتع بما يرغب فيه من امتيازات فكان لا يرى بأسا في استخدام المجلس السلطاني وشخص السلطان لتحقيق ذلك الهدف . ويتم له ما يريد بشكل ربما يبين ضعف نفوس القضاة حينذاك ، أو لعلها الرغبة في المشاركة حتى عن غير رغبة للاطلاع على ما يدور من أمور غير مشروعة في ظل حكم سلطان طفل . ومن المحتمل أن الأمير يلبغا كان يجد في كسب رضاء القضاة اذنا له بالموافقة على ما كان يحظى به من صلاحيات ، بل لعله كان يرى في سكوتهم عما يمارسه من عزل وتولية لسلاطين الدولة مع الاستفادة البالغة مما يتيحه ذلك الظرف من مكاسب موافقة منهم على شرعية ما يقوم به ، فيطمئن فكره بأنه انما يفعل ذلك من أجل صالح الدولة فحسب . ولكن مع كل ذلك الا يلفت نظرنا ما كان يعتبر حقا من حقوق القضاة ، الا وهو عزل القاضي لنفسه من وظيفة القضاء دون الرجوع لأولي الأمر في الدولة ، الأمر الذي كان بالفعل مصدر قلق لهؤلاء أصحاب السلطة ، فيعملون جاهدين من أجل تلافيه ، وعلى ذلك تختفي فعالية ذلك الحق في ممارسة قليل من الحرية الشخصية في ظل حكم الطغاة . ومع ذلك يظل وجود هذا الحق الشخصي في حرية ممارسة مسئوليات تلك الوظيفة مصدرا للأمل لمعاصري ذلك العصر نحو مجتمع أفضل . بالاضافة الى ذلك ، فإننا نعجب لكيفية استخدام السلطان الصغير في سبيل ترضية القاضي الذي يطلب بناء لأمر السلطان أو بالأحرى الأمير يلبغا للخضور بين يدي المجلس السلطاني ، فيخلع عليه ويخاطبه بودّ كي يعود الى ممارسة وظيفته كقاض ، وتستقر الأمور الى ما كانت عليه ويبقى أمرٌ واحدٌ مغفلا ، ترى ما السبب في عودة القاضي الى وظيفته ، هل هي الرغبة في الاستفادة من وجود سلطان طفل على كرسي الحكم ؟ أم هو العزم على الوقوف الى جانب السلطان الطفل ؟ لعل في ذلك عونا له واصلاحا للوضع ؟

لقد كان القضاة يحرصون دائما على الوقوف الى جانب الضعفاء للدفاع عن حقوقهم أمام أصحاب السلطة بغض النظر عن علو المكانة وسلطات صاحبها فقد كانوا على أتم الادراك بأنهم أقوى في المنزلة من هؤلاء الأمراء . ومن الأمثلة على ذلك ما يذكره ابن حجر اذ يشير الى أن عمر بن اسحاق بن أحمد الغزنوي [٢٠٣] ، سراج الدين الهندي قاضي الحنفية بالقاهرة ، توفي سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م [٢٠٤] « تكلم في أوقاف الشافعية لما ولي الجاي نظر الأوقاف ، فلما حضر معه استعرض الدروس في الجامع الطولوني وبالمدرسة الأشرفية وضيق عليهم ، فقام الهندي في ذلك قياما عظيما وأغلظ له القول حتى قال : اقطاعك يبلغ ألفي ألف درهم وتستكثر على الفقيه المسكين هذا القدر ؟ فقال : أنا آخذ الاقطاع لحفظ بلاد المسلمين فقال : ومن علمكم الجهاد الا الفقهاء ؟ فسكت وترك كل أحد على حاله » . [٢٠٥]

وهكذا كانت كلمة القضاة باستمرار تعلو على كلمة رجال البلاط السلطاني دون خشية أو وجل ، وانما على أساس من الاحترام والتبجيل .

كذلك مما يدل على مكانة القضاة وشيوخ الدين ما حدث أيام الشيخ المنفلوطي ولي الدين محمد بن أحمد الديباجي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) [٢٠٦] حيث « كان ابن عقيل قد ولي درس مدرسة حسن قبل موت السلطان ، فلما قتل أراد يلبغا هدم المدرسة ومنع ابن عقيل من تدريسها وولاها الشيخ ولي الدين ، فغضب ابن عقيل وهجر ولي الدين ، ثم استرضى يلبغا ابن عقيل بالخشابية واستمر التراضي بينهما » . [٢٠٧]

وعلى ذلك يمكننا أن نتبنى قاعدة سلوكية ثابتة اشتهر بها رجال السلطة في هذا العصر ألا وهي الحرص على استرضاء القضاة ورجال الدين وشيوخ الشريعة الاسلامية ـ ربما ـ لأن هذا السلوك هو خير وسيلة توصلهم الى كسب رضي الرعية وسكوتها عما يقترف بحقها من ضياع الحقوق وامتهان الحرمات .

ويصف المقريزي بأسلوب غير مباشر استغلال بعض أصحاب السلطة لوظيفة القضاء من أجل خدمة مصالحهم مما كان له بالغ الأثر في اعتزال عدد ممن تولوا هذا المنصب ، فيقول عند سيرة حياة القاضي عز الدين ابو محمد عبدالعزيز ابن جماعة (ت ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) [٢٠٨] :

« وولي قضاء القضاة بديار مصر تسعا وعشرين سنة بأحسن

---

(٢٠٣) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .
(٢٠٤) انباء ، جـ١ ، ص ٢٩ .
(٢٠٥) انباء ، جـ١ ، ص ٣٠ ـ ٣١ .
(٢٠٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٣٩٥ .
(٢٠٧) انباء ، جـ١ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .
(٢٠٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ .

سيرة وأجمل طريقة ، ثم ترك ذلك تنزها وتعففا ، وجاور بمكة ، فقضى بها نحبه » . (٢٠٩)

بالاضافة الى ذلك يقول ابو المحاسن :

« وفي هذه السنة وهي سنة ست وستين وسبعمائة عزل قاضي القضاة عز الدين عبدالعزيز بن محمد بن جماعة نفسه من قضاء الديار المصرية في سادس عشر جمادى الأولى ونزل اليه الأتابك يلبغا بنفسه الى بيته وسأله بعوده الى المنصب فلم يقبل ذلك وأشار على يلبغا بتولية نائبه بهاء الدين ابي البقاء السبكي فولي بهاء الدين قضاة الشافعية عوضه » . (٢١٠)

وهكذا كان بعض القضاة يسعى لعزل نفسه من وظيفة قضاء الديار المصرية - ربما - بسبب ا كان يحيق بها من تدخل كبار الأمراء في هذه القضية أو تلك من أجل منافعهم الخاصة مما يؤدي الى تكرر الصدام بين الجماعتين ، فيؤثر القضاة الابتعاد عن هذه الوظيفة تزهدا وتعففا . ومن ثم كان القضاة في هذه الفترة مظهرا من مظاهر الحق والعدل والاصلاح في المجتمع المملوكي الذي كان يشهد تطاحنا مستمرا بين طوائف الاوليجاركية في سبيل السلطة والنفوذ .

ومن الجدير بالذكر أنه تعاقب على هذه الوظائف في مراكز القضاة الأربعة سلسلة من كبار الشخصيات الجليلة التي عرف أصحابها بالخلق الطيب والعلم الغزير . علاوة على ذلك تجدر الاشارة انه عندما يعزل أحد القضاة نفسه من وظيفة القضاء يحرص على أن يرشح شخصية بعينها على تولي المنصب من بعده - ربما - بدافع من الحرص على نوعية القاضي الجديد بحيث يكون كفئا لمسئوليات المنصب فيقوم بها على خير ما يرام . وعلى ذلك نجد أن عز الدين عبدالعزيز بن جماعة يرشح أبا البقاء السبكي الذي كان يتصف بالخلق الكريم والسمعة الطيبة والعلم الوفير حيث يقول ابن حجر :

« محمد بن عبدالبر بن يحيى بن علي بن تمام بهاء الدين ابو البقاء السبكي ، ولد سنة ثمان وسبعمائة - وفي معجم ابن رافع : سنة سبع وسبعمائة ، وتفقه على القطب السنباطي والمجد الزنكلوني وعلاء الدين القونوي والزين الكتناني ، وأخذ عن ابي حيان ولازمه والجلال القزويني ، وسمع من وزيره والحجار والواني والختني وغيرهم وحدث عنهم ، وانتقل الى دمشق سنة تسع وثلاثين وولي قريبه تقي الدين القضاء وناب عنه في الحكم بدمشق ، ثم ولي استقلالا بعد صرف ابنه تاج الدين السبكي مدة شهر واحد ، وذلك سنة تسع وخمسين ، ثم ولي قضاء طرابلس ، ثم رجع الى القاهرة وولي قضاء العسكر ، ووكالة بيت المال في سنة خمس وستين ، ثم ولي قضائها في سنة ست وستين بعد عز الدين ابن جماعة بعد ان كان ينوب عنه وذلك في جمادى الاخرة ، ثم ولي قضاء دمشق ومات بها في ربيع الآخر . وكان الشيخ جمال الدين الاسنوي يقدمه ويفضله على أهل عصره ، وكان الشيخ عماد الدين الحسباني يشهد انه يحفظ الروضة ، وكان الشيخ بدر الدين الطبندي يحكي عنه أنه كان يقول : أعرف عشرين علما لم يسألني عنها بالقاهرة أحد ، ومع سعة علمه لم يصنف شيئا . قال ابن حبيب : شيخ الاسلام وبهاؤه ، ومصباح أفق الحق وضياؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها ، كان اماما في المذهب ، طرازا لردائه المذهب ، رأسا لذوي الرئاسة والرتب ، حجة في التفسير واللغة والنحو الأدب ، قدوة في الاصول والفروع ، رحلة لارباب السجود والركوع ، مشهورا في البلاد والأمطار ، سالكا طريق من سلف من سلفه الانصار ، درس وأفاد ، وهدى بفتاويه الى سبيل الرشاد ، وباشر القضاء بمصر والشام .

ولما عزل من قضاء القاهرة وسعى في قضاء الشام بعد أن كان السلطان الأشرف أمر باخراجه فاستقر بها ، ثم في هذه السنة (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) سعى اشد السعي حتى استقر ولده ولي الدين في قضاء الشام في حياته ، وعاش بعد ذلك قليلا ومات » (٢١١) في ربيع الاول سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م .

علاوة على ذلك كان للسلطان الحق في عزل من لا يرغب به من القضاة لأسباب مختلفة رغم أننا ندرك تماما بأن السلطان الأشرف شعبان كان يعاني من الحجر عليه ومحروما من جميع حقوقه كحاكم للبلاد ما عدا عزل القضاة ، وهذا بالفعل ما حدث مع القاضي أبي البقاء السبكي حيث يذكر المقريزي :

« وفي يوم الاثنين ثامنه (جمادي الاولى ٧٧٣هـ / ١٣٧١م) كانت الخدمة السلطانية بدار العدل من القلعة ، وحضر قضاة القضاة على العادة ، ثم انقضت الخدمة ، فمضى القضاة على عادتهم وجلسوا بالجامع من القلعة ، اذ أتاهم رجل من عند السلطان ، وأسر الى أبي البقاء ثم التفت الى بقية القضاة وبلغهم

---

(٢٠٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٥ .

(٢١٠) النجوم ، جـ١١ ، ص٢٨ ، انظر كذلك ، الدرر ، جـ٤ ، ص١١٠ .

(٢١١) أنباء ، جـ١ ، ص١٨٣ ـ ١٨٥ ، انظر كذلك ، الدرر ، جـ٤ ، ص١٠٩ ـ ١١٠ .

عن السلطان أنه قد عزل أبا البقاء ، وأمره أن يلزم بيته ، فانفضوا على ذلك » . (٢١٢)

ولعل السبب وراء ذلك هو رغبة السلطان في اسناد منصب القضاء الى برهان الدين ابن جماعة حيث وصل الخطيب « في خامس جمادى الآخرة وكان برهان الدين حين عزل أبا البقاء بدمشق زائرا لأهله من ربيع الأول ورجع بعد خمسين يوما بعد أن فوض له النائب نظر القدس والخليل فخالفه البريدي في الطريق فأمره النائب بلحاقه الى القدس فلحقه فخطب في السادس عشر من جمادى الآخرة خطبة بليغة تعرض فيها لتوديعهم فأبكاهم وتوجه على البريد ، فلما اجتمع السلطان عرض عليه المنصب فاشترط شروطا كثيرا فالتزم له السلطان بها ولبس الخلعة وركب معه الحجاب والقضاة على العادة ومشى معه الجاي اليوسفي والأمير الكبير الى باب القلعة وركب في حشمة عظيمة وأبهة زائدة ، فراح الناس الى تهنئته حتى القاضي المعزول فرحا منه به لعلمه برياسته وحسن سياسته » . (٢١٣)

وكانت مدة عطلة الناس من ولاية قاضي القضاة سبعة وعشرين يوما ، وقد وقع مثل ذلك في أيام الناصر محمد بن قلاون ، تعطلت القاهرة من بعض قضاة القضاة سبعة وعشرين يوما » . (٢١٤)

وبذلك يخضع القضاة لأمر السلطان في تولي مهام وظيفة القضاء في مصر ويبدأ القاضي بممارسة مسئوليات المنصب حتى يظهر الاختلاف بين رغبتهم في الاصلاح واقبال كبار الأمراء على تحقيق المنافع المادية ، فيقع الصدام الذي طالما انتهى بعزل القاضي لنفسه كي لا يكون باستمراره في المنصب عنوانا لرضائه عما يحدث على يد الأمراء ، أو اشارة لضعفه وعدم قدرته على مقاومة ذلك السلوك الشائن ، ومن ذلك نرى أنه :

« في رابع عشرين ذي الحجة عزل القاضي برهان الدين ابن جماعة نفسه من القضاء بسبب تثقيل بعض الأمراء عليه في أمر بعض الموقعين ، فراسله السلطان فامتنع ، فأرسل اليه بهادر أمير آخور (٢١٥) فحلف عنده بالطلاق ان السلطان حلف بالطلاق انه ان لم يجب الى العود نزل الى بيته وألزمه به ، ولم يزل به الى أن ركب معه الى القلعة فاجتمع بالسلطان فسأله ان يعود وألح عليه ، فكان آخر كلامه الامهال الى أن يستخير الله تعالى في الليلة ، فلما أصبح طلع الى القلعة في الخامس والعشرين من ذي الحجة واشترط شروطا أجابه السلطان اليها ، ونزل في أبهة عظيمة الى الغاية ، وازدادت مهابته وتصميمه في الامور » . (٢١٦)

ولا شك أن في هذا دلالة بالغة على علو المنزلة التي حظي بها القضاة في هذا العهد من تاريخ سلطنة المماليك . ولكن كان يحدث في بعض الأحيان أن يرفض البعض منصب القضاء محتجا بهذا العذر أوذاك ، بل يبلغ الأمر الى الاصرار على الرفض والامتناع كما حدث عندما « شغر قضاء الحنفية بموت قاضيه صدر الدين ابن التركماني ، فطلب الأشرف القاضي شرف الدين ابن منصور لذلك من دمشق فحضر فلم يتم له أمر ، وعرض السلطان القضاء على الشيخ جلال الدين التباني ، فامتنع فألح عليه وأحضرت الخلعة فأصر على الامتناع وقال : العجم لا يعرفون أوضاع أهل مصر ، فآل الى استقرار صدر الدين ابن الكشك » . (٢١٧)

الا أنه حينما يقبل البعض الآخر بهذا المنصب ، فانه يكون صارما في تطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية ، شديدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قويا مع ولاة الأمر في النصح لهم بالأسلوب الأكثر ملاءمة في معاملة الرعية حيث يذكر المقريزي :

« وفيه (محرم ٧٧٨ هـ /١٣٧٦ م) طلب قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة دوادار الأمير آقتمر الحنبلي نائب السلطان ، وأنكر عليه ، ونهره في مجلس حكمه ، ووضع من استاذه بسبب ما يجري من أحكامه بين الناس ، فانه بلغه عنه أنه ضرب رب دين بحضرة مديونه . فترقق له وتلطف به في المداراة حتى خلص من مجلسه وقد ملىء قلبه منه خوفا » . (٢١٨)

ولعل من أهم النواحي التي لعب فيها القضاة دورا ايجابيا في خدمة المجتمع مسألة ابطال الضرائب المكوس التي كانت تشكل عبئا ثقيلا على بعض الطوائف اذ طالما تدخل القضاة من أجل

---

(٢١٢) السلوك ، جـ٣ ، ص١٩٧ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص٢٧٧ .

(٢١٣) انباء ، جـ١ ، ص ١٠ ـ ١١ .

(٢١٤) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٩٧ .

(٢١٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٣٠ .

(٢١٦) انباء ، جـ١ ، ص٩٤ ـ ٩٥ ، انظر كذلك السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٢١٧) انباء ، جـ١ ، ص٩٣ ـ ٩٤ .

(٢١٨) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ .

التخفيف عن هذه الفئات رغبة في الاصلاح وخدمة للصالح العام حيث يذكر ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ /١٣٧٣م) في صفر أبطل الملك الأشرف ضمان المغاني ومكس القراريط التي كانت في بيع الدور ، وقرىء بذلك مرسوم على المنابر ، وكان ذلك بتحريك الشيخ سراج الدين البلقيني واعانة أكمل الدين وبرهان الدين ابن جماعة ، ويقال ان السلطان كان توعك فأشاروا عليه بذلك فاتفق أنه عوفي فأمضي ذلك واستمر »[٢١٩] .

والسؤال هنا ترى ما هو ضمان المغاني والقراريط ؟

يقول المقريزي : « آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الأغاني وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون . فأما ضمان الأغاني فكان بلاء عظيما وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة ، وكان على النساء اذا تنفسن أو عرسن امرأة وخضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لا بد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف . وأما ضمان القراريط فانه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما وكان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا »[٢٢٠].

ولا شك أن هذا يعني أن الحكومة تشجع بطريق غير مباشر تعاطي البغاء بواسطة تعيين ضامنة تجمع الضرائب لصالح الحكومة من عمل البغاية حيث أن الحكومة بعد أخذ الضريبة تكفل لتلك المرأة فرصة تعاطي هذه المهنة الشائنة الأمر الذي يتعارض مع مبادىء الشريعة الحنيفة ، فعمل القضاة جاهدين للحيلولة دون استمرار ذلك ونجحوا في تحقيق مبتغاهم حينما أصدر الأشرف شعبان مرسوما بهذا المنع .

ولكن يبدو أن بعض كبار الأمراء المماليك كانوا يستنفعون من وراء هذه المكوس والضرائب ، وعز عليهم أن يبطل السلطان ذلك فيحرموا من هذا المصدر المالي المنتظم ، ولذا اجتهدوا من أجل اعادة العمل بهذا الحقل لهدف الفائدة المادة من الضرائب المتحصلة منه ، وفي هذا الموضوع يقول ابن حجر :

« كان ابن آقبغا آص تكلم في اعادة ضمان المغاني ، فبلغ ذلك برهان الدين ابن جماعة فغضب ، وامتنع من الحكم فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني وغيره مع السلطان في ذلك فأنكره السلطان وأمر بابطال ذلك من مصر وقبض بعد مدة يسيرة على ابن آقبغا آص ونفي الى الشام وصودر ، وكان ضمان المغاني من القبائح الشنيعة ما كان أحد يقدر يعمل عرسا حتى يغرم قدر عشرين الى ثلاثين مثقالا ذهبا وكانوابمصر والقاهرة لاتغيب مغنية عن بيتها ولو الى زيارة أهلها الا أن أخذ الضامن منها رشوة . وأما بلاد الريف فكان للمغاني حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهرا ما يقبح ذكره ، ومن اجتاز بها غلطا ألزم أن يزني بخاطئة ، فان لم يفعل فدى نفسه بشيء ، وأبطل الأشرف أيضا ضمان القراريط وكان مكسا يؤخذ من كل من باع دارا ولو تكرر بيعها في الشهر الواحد مرارا لا بد ان يأخذ الضامن على ذلك مكسا معلوما ، ولا يستطيع أحد من الشهود أن يكتب خطه في مكتوب دار حتى يرى الختم في المكتوب »[٢٢١] .

ومن جانب آخر يذكر المقريزي :

« في سنة ٧٧٨هـ /١٣٧٦ م عزم الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص على اعادة ضمان المغاني فغضب من ذلك قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة ، وامتنع من الحكم ، وحضور دار العدل ، فاستدعاه السلطان وسأله عن امتناعه من الحكم ، فقال : « بلغني أن ضمان المغاني أعيد وهذا يوجب الفسق » . فحلف له السلطان أنه ما أمر باعادته ، ولا عنده منه علم ، وبعث الى ابن آقبغا آص يعلمه بذلك ، فاعتذر بعذر غير طائل ، فرسم بابطاله ، وكتب بذلك تواقيع قرئت على الناس وسيرت الى النواحي ، فبطل ذلك ولم يعد »[٢٢٢] .

وهكذا يظهر واضحا أنه كان بامكان كبار الأمراء المماليك أن يتلاعبوا بالقوانين السلطانية ، الا أن القضاة ادوا للمجتمع المملوكي خدمة كبيرة في سد هذه الثغرة ، فوقفوا ضد تطاول الامراء على السلطة التشريعية والتنفيذية التي تعتبر من أخص حقوق السلطان . كما اجتهدوا في مساندة السلطان ودعمه للحد من تطلعات هؤلاء الأمراء في الاستفادة من ضعفه وقلة حيلته . وقد استطاع أولئك القضاة بجهودهم المستمرة في حقول العلاقات

(٢١٩) انباء ، جـ ١ ، ص ٧٥ ، انظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ ؛ بدائع ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ .

(٢٢٠) الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .

(٢٢١) انباء ، جـ ١ ، ص ١٩١ - ١٩٢ ؛ انظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢٢٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٨ .

الانسانية في المجتمع المملوكي أن يحققوا نصرا كبيرا في سبيل خدمة الرعية وحمايتها من جشع الطبقة الأوليجاركية .

بالاضافة الى ذلك نلاحظ أنه :

« في يوم الاثنين ثاني عشره (جمادى الآخرة سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) قبض على الأمير ناصر الدين محمد ابن آقبغا آص الاستادار ، وأحيط بموجوده بمصر والشام ، وأمر بنفيه وولده الى طرطوس . فلم يزل الأمراء بالسلطان حتى رسم أن يستقر بالقدس بطالا فسار اليها من يومه ، ولحق به ابنه من الغد . هذا مع شدة تمكنه من السلطان ، وكثرة اختصاصه به ، حتى انه كان يقول لولده في الملأ اذا ادعاه « سيدي محمد » .(٢٢٣)

ولعل نجد في ذلك دليلا على أن السلطان الأشرف شعبان بدأ يدرك أن أخصاءه المحيطين به من الامراء لا يشيرون عليه الا بما يخدم منافعهم الشخصية دون النظر الى ما قد يجر اليه هذا الفعل أو ذاك المرسوم من ظلم وامتهان في حقوق الناس وكراماتهم ، بل انهم في كثير من الأحيان كانوا يستغلون وجودهم قريبا منه في البلاط سببا مشجعا لهم على فعل الكثير من الأعمال المنكرة من أجل المنفعة الخاصة ، الأمر الذي يحمل دائما سوء سيرة الأشرف بين الرعية والتي كانت لاتدرك في أغلب الاحيان أن كثيرا من الامور تقع دون علم السلطان . ويرجع الفضل في ادراك السلطان ووعيه لما يقع حوله من أمور منكرة الى القضاء الذين اجتهدوا من أجل تنبيه السلطان الى ما يحدث حوله من أعمال يعاني منها الشعب الكثير من المذلة والمهانة الى جانب الخسائر المادية .

كذلك أبطل الأشرف شعبان المكس الذي يجمعه أمير مكة عجلان بن رميثة بن أبي نمى(٢٢٤) من المأكولات « وعوض عن المكس الذي كان يأخذه من المأكولات بمكة بألف أردب قمح يحمل اليه من مصر » ؛ وقد استمر ذلك قائما حتى وفاة عجلان هذا عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م(٢٢٥) .

أما بالنسبة للجماعات والاوبئة في هذه الفترة فنلاحظ أن هذا العهد قد بلي بأزمات ومحن عديدة في هذا المجال حيث توالي وقوع ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة والمجاعات التي ابتلى بها بوجه خاص الطبقات الدنيا في المجتمع . فبعد اعتلاء الأشرف شعبان كرسي الحكم بوقت قصير يذكر المؤرخ أبو المحاسن :

« ثم وقع الفناء في هذه السنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) في البقر حتى هلك منها شيء كثير وأضر ذلك بحال الزراع » .(٢٢٦)

ومن جانب آخر يشرح ابن العماد حال الوضع الاجتماعي لسلطنة المماليك في بداية هذا العهد فيقول :

« فيها (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) اشتد الوباء والطاعون بالبلاد الشامية والعربية »(٢٢٧) كذلك من بين حوادث سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م يقول أبو المحاسن : « ثم وقع الوباء بالديار المصرية حتى بلغت عدة الموتى في اليوم أكثر من ألف نفس ، وأقام نحو الأربعة اشهر وارتفع » .(٢٢٨)

ولا شك أن هذا يدل على عدم التفات الجهاز الحاكم لما يحدث في البلاد من أزمات ومصائب حيث يجب اتخاذ الاحتياجات اللازمة للحيلولة دون وقوع مثل هذه المحن وتكرارها . بالاضافة الى أننا نلاحظ اهمالا كبيراً في الوقاية والرعاية الصحية بدليل انتشار الأوبئة وتفشيها بشكل كبير حيث يذكر المقريزي أنه :

في سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م « وكان الوقت خريفا كثرت الأمراض في الناس بالقاهرة ، والوجه البحري ، وتجاوز عدد الأموات بالقاهرة ثمانين في كل يوم » .(٢٢٩)

وفي الحقيقة لا بدلنا أن نتوقع حدوث ذلك نتيجة لعدم الاستقرار السياسي الذي كانت تشهده السلطنة في هذا العهد الى جانب اضطراب الأحوال الاجتماعية واهمال كبار المسئولين من الأمراء لواجبات وظائفهم .

ولم يقتصر هذا الوضع السيء على مصر بل امتد أيضا فشمل الشام حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) كان الوباء بدمشق فدام قدر ستة أشهر ، ويبلغ العدد في كل يوم مائتي نفر . وفي ربيع الأول الموافق لتشرين الأول زادت الانهار بدمشق فسدت أبوابها فانكسر بعضها

---

(٢٢٣) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٦٨ .
(٢٢٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٦٨ .
(٢٢٥) انباء ، جـ١ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
(٢٢٦) النجوم ، جـ١١ ، ص ٢٦ .
(٢٢٧) شذرات ، جـ٦ ، ص ٢٠٠ .
(٢٢٨) النجوم ، جـ١١ ، ص ٥٢ .
(٢٢٩) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٩٠ .

فانقلب على نهر بردى فتلف بسبب ذلك شيء كثير وبطلت طواحين كثيرة وحمامات » .(٢٣٠) كذلك يقول المقريزي :

« وفيها (٧٧٤هـ /١٣٧٢م) فشت الطواعين ببلاد الشام مدة ستة أشهر » .(٢٣١)

كما يقول المقريزي :

« وقدم الخبر بغلاء الأسعار بمكة ، حتى بيعت الغرارة القمح ـ وهي مائة قدم مصري ـ بأربعمائة درهم وثمانين درهما . وعز وجود الأقوات بها فهلك جماعة كثيرة جوعا ، ونـزح أكثر أهلها عنها ، فجهز الأمير يلبغا الاتابك في جمادى الأولى الى مكة ألفي أردب قمحا ، وواصل الارسال حتى حمل من مصر اليها اثني عشر ألف أردب ، فرقت كلها في الناس ، فعم النفع بها » .(٢٣٢)

لا شك ان في هذه الواقعة دلالة على تقلب سعر الغلال في الاقاليم المملوكية مما كان يهدد اهل هذه المناطق بالموت جوعا ، في حين توفر بيد الامراء المماليك الاوليجاركية كميات هائلة من الغلال والحبوب برهاناً على سوء تصرف الساسة اصحاب السلطة حيث تمتعوا بكل شيء من اجل الرفاهية في العيش ، في الوقت الذي كانت فيه الرعية تعاني الهلاك من الجوع نتيجة الاهمال والطمع وسوء الادارة .

ومن ثم يظهر اسهام يلبغا في مدِّ يد العون لأهل مكة فيرسل اليهم « ألفي أردب قمحا ، وواصل الارسال حتى حمل من مصر اليها اثنى عشر ألف أردب » .(٢٣٣)

ومع ذلك اما كان من الأجدى له أن يحول منذ البداية دون وقوع ذلك الارتفاع في الأسعار حيث هلك « جماعة كثيرة جوعا »(٢٣٤). خاصة وأنه صاحب الكلمة الأولى في السلطنة المملوكية . ولكن رغم كل ذلك لا يسعنا الا الاشارة الى أن قيام يلبغا بهذا العمل دليل على أن السلطنة المملوكية بجميع أقاليمها كانت وحدة متكاملة تتشارك أجزاؤها في المنفعة بما يحول دون وقوع الضرر .

وفي بعض الأحيان ارتبط وقوع الوباء بارتفاع الأسعار والغلاء الفاحش فيعاني عامة الناس الجوع والمرض في حين تشهد الطبقات العليا من كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية صراعها السياسي المعهود حيث تكون النتيجة الطبيعية لذلك اهمالاً لشئون المجتمع الاقتصادية والصحية فيبلى الناس بلاء عظيما .(٢٣٥)

وهذا يدل على أن النشاط الاقتصادي والتجاري كان في حالة تجمد وتشنج نتيجة لعدم الاستقرار السياسي في المجتمع المملوكي في أغلب سنوات هذا العهد الأمر الذي أدى الى البطالة والكساد حيث لا يجد العامل المال الكافي لغذائه . وكثيرا ما أعقب ذلك ، بسبب ندرة الغذاء ، انتشار الأوبئة بين طبقات الشعب بشكل كبير حيث تكثر أعداد الموتى في الطرقات ، ولا تجد جثث المسلمين من لديه المال الكافي للكفن والدفن مما جعل الحال الصحي في أقصى درجة من السوء والاهمال حيث يقول المقريزي :

« وفي آخره (ذي القعدة سنة ٧٧٦هـ /١٣٧٤م) فشت الأمراض في الناس بالطاعون ، وقل وجود الاموات الطرحاء ، وبيع الأردب الشعير من عشرين درهما الى ستة وعشرين درهما » .(٢٣٦)

وهذا يبين الارتباط المتلازم في تغير طبيعة الأحوال الداخلية في مصر والشام فما أن يطرأ أي تغيير في أحوال مصر حتى يسرى ذلك على الأوضاع في بلاد الشام ، وهذا أمر طبيعي بسبب خضوع كلا البلدين لحكم واحد تشمل آثاره مختلف الأقاليم السلطانية(٢٣٧) دون تمييز أو اختلاف . واذا حدث وقوع الاختلاف فان هذا يعود دون شك الى شخصية نائب بلاد الشام وما يمكن أن يقوم به من واجبات حيال الأوضاع الداخلية هناك .

ويظهر أن وقوع الأوبئة قد قل في أواخر عهد الأشرف شعبان وان استمر الاهمال في الشئون الصحية حيث يقول المقريزي ضمن حوادث الشهور الأخيرة من حكم الأشراف شعبان :

« وفي هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) بدت الأمراض بالحميات في الناس ، واستمرت الى آخر شعبان فمات خلق كثير » .(٢٣٨)

كذلك نلاحظ كثرة عدد المرات التي يحدث فيها ارتفاع كبير في

(٢٣٠) انباء ، جـ ١ ، ص ٣٧ .
(٢٣١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ ، انظر كذلك ، شذرات ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .
(٢٣٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢٣٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢٣٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢٣٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ؛ انظر كذلك النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٦ ـ ٦٨ .
(٢٣٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .
(٢٣٧) شذرات ، جـ ٦ ، ص ٢٠٧ .
(٢٣٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٨ .

الأسعار حيث يتعسر على متوسطي الحال الحصول على الغذاء اليومي . وقد كان لتدهور الوضع السياسي ابان هذا العهد اثر بالغ على عدم استقرار أسعار الغذاء ، والتقلب المستمر في أسعار مختلف السلع الضرورية للحياة اليومية ، ومن ثم فاننا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من الأزمات الاجتماعية الناتجة عن ارتفاع الأسعار .

علاوة على ذلك كان لزيادة مياه النيل عن المعدل أثر كبير على عدم الاستقرار في الاسعار ، كما كان عدم وقوع الفيضان في موعده سببا في ارتفاع الأسعار مما كان يثير الفزع بين طبقات الشعب خاصة العامة منهم .

ولعل أصدق مثال على ما نقول هو ما يذكره ابن حجر : « وفيها (٧٧٣هـ /١٣٧١م) زاد النيل زيادة مفرطة وثبت الى أيام من هاتور فاجتمع جماعة بالجامع الازهر وبجامع عمرو وسألوا الله تعالى في هبوطه وكرروا ذلك فهبط وزرع الناس » . (٢٣٩)

وهذا يدل على عدم الاهتمام بانشاء القنوات المناسبة للتخفيف من ضغط المياه الزائدة وقت فيضان النيل ، وعدم تعمير الترع والسواقي على ضفتي النيل لتسهيل مجرى المياه الفائضة مما يدل على وجود تلاعب في أموال الدولة دون الادراك بضرورة صرفها على الانشاءات اللازمة من أجل النفع العام .

ومن جانب آخر نلاحظ انه في عام ٧٧٥هـ /١٣٧٣م « توقف النيل عن الزيادة وأبطأ الوفاء إلى أن دخل توت اول السنة القبطية ، . . . . . ، واستمر التوقف الى تاسع توت فاجتمع العلماء والصلحاء بجامع عمرو بن العاص واستسقوا وكسر ذلك اليوم الخليج عن نقص أربعة اصابع من العادة ، ثم توجهوا الى الآثار وأخذوها الى المقياس فأقاموا من قبل العصر الى آخر النهار يتوسلون الى الله تعالى ويبتهلون ويستسقون ، فلم يزدد الأمر الا شدة ، ثم نودي بصيام ثلاثة أيام ، وخرجوا في ثالث ربيع الآخر الى الصحراء مشاة ، وحضر غالب الأعيان ومعظم العوام وصبيان المكاتب ونصب المنبر فخطب عليه شهاب الدين ابن القسطلاني خطيب جامع عمرو وصلى صلاة الاستسقاء ودعا وابتهل وكشف رأسه ، واستغاث الناس وتضرعوا ، وكان يوما مشهودا .

وابتدأت زيادة الاسعار في الغلال والحبوب من شهر ربيع الاول وهلم جرا الى أن بلغ سعر الأردب خمسين درهما تقدير دينارين هرجة ونصف وثلث ، ثم تزايد الى الستين والسبعين وهذا في ذلك الوقت نحو أربعة دنانير » . (٢٤٠)

وهكذا كان كل من زيادة مياه النيل عن الحد المعقول وقت الفيضان ، وعدم حدوث الزيادة المتوقعة من ناحية أخرى سببا في زيادة الأسعار خاصة المواد الغذائية مما كان يثير الفزع والانزعاج بين الناس ، بل وتتفاقم نقمتهم ويقع اللوم على السلطان .

« وفيها (٧٧٥هـ/٢٣٧٣ م) لازم شخص من العوام الصباح تحت القلعة : اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم فأخذ وضرب بالمقارع وشهر » . (٢٤١)

ولكنها نعلم من دراستنا المتفحصة هذه أن السلطان لم يكن له يد فيما يقع من حوادث أو تغيير في شئون البلاد ، وأن السلطة كلها كانت بيد الأتابك الى جانب طائفة كبار الأمراء الأوليجاركية حيث كان السلطان مجرد صورة شرعية للوضع السياسي لا تتجاوز حقوقه اطار الرسميات والحكم الاسمى ، فى حين مارس أولئك الأمراء مختلف فعاليات الحكم والنفوذ (٢٤٢)

« ليلة السبت ثاني عشرة (ربيع الآخر ٧٧٥هـ/١٣٧٣ م) أرعدت السماء وأبرقت ، وسحت بأمطار غزيرة ، عمت كثيرا من أراضى مصر بحيث زرع بعضها لريها من هذه المطرة البرسيم ، فسر الناس بذلك وانحل سعر القمح خمسة دراهم الاردب ، وكان قد بلغ أربعين درهما » . (٢٤٣)

ولكن ذلك لم يطل اذ « أخذ سعر الغلال يرتفع وفى خامس عشر جمادى الاولى ـ وهو سابع هاتور ـ زاد النيل اثنى عشر أصبعا ، وفى الغد ، وبعد الغد ثمانى أصابع ، ثم نقص ، ولم يعهد مثل ذلك » . (٢٤٤)

واستمرت الأسعار تزيد حتى « بلغ سعر الأردب القمح الى

---

(٢٣٩) انباء ، جـ١ ، ص٨ ؛ انظر كذلك السلوك ، جـ٣ ، ص ١٩٥ .
(٢٤٠) انباء ، جـ١ ، ص٧٦ ـ ٧٧ .
(٢٤١) انباء ، جـ١ ، ص ٧٩ .
(٢٤٢) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .
(٢٤٣) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ .
(٢٤٤) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ .

خمسين درهما ، والأردب من الشعير والفول الى خمسة وعشرين درهما ، والحملة الدقيق ـ وهى ثلاثمائة رطل الى أربعة وثمانين درهما » . (٢٤٥)

ومع حلول ذى الحجة سنة ٧٧٥ هـ/١٣٧٣ م كما يقول المقريزى : « تزايد سعر الغلة ، فبيع الخبز أربعة أرطال بدرهم ، بعدما كان خمسة أرطال . وفى ثالث عشر ذى الحجة قبض على رجل مغربي كان يقف فى الليل تحت القلعة ويصيح : اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم ويجرى نيلكم ، فضربه والى القاهرة بالمقارع وتركه لحاله » . (٢٤٦)

واذا ما أدركنا ان كل ما فعله السلطان كان لا يعدو أكثر من حل سطحى للتخفيف من معاناة الرعية ، فاننا لا نعجب اذا ما استمر حدوث تلك المحنة فى السنة التالية حيث يقول ابن حجر :

« فيها (٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) طلع النيل على عادته وأوفى فى ربيع الاول رابع عشرى مسرى ، واستهلت والغلاء قد تزايد جدا الى أن بلغ الأردب بمائة وعشرة ثم بلغ فى شعبان مائة وخمسة وعشرين ، وقيمتها بالذهب اذ ذاك خمسة مثاقيل وربع ، وبيع اذ ذاك دجاجة واحدة بأربعة دراهم ، وصار أكثر الناس لا يقدر الا على النخالة كل قرص أسود بنصف درهم وأكل الفقراء السلع والطين ، وكادت الدواب أن تعدم لكثرة الموت بها ، وأكلوا الميتات ، وأمر السلطان بتفرقة الفقراء على الأغنياء فكان على الأمير المقدم على الألف مائة فقير ، وعلى كل أمير بعدد مماليكه ذلك ، وعلى الدواوين كل واحد بحسبه ، وعلى التجار كذلك ، ونودى فى البلد بأن من سأل فى الأسواق صلب ، ومن تصدق عليه ضرب .

وفيها عقب الغلاء وزيادة النيل وتكامل الزرع وقع الفناء فتزايد فى الفقراء لا سيما لما دخل البرد . وزاد ذلك الى أن بلغ فى اليوم من الحشريين مائتى نفس ومن الطرحاء نحو خمسمائة ، ثم بلغوا الى نحو الألف ، وتصدى الأمير ناصر الدين ابن اقبغا اص والأمير سودون الشيخونى لدفن الطرحاء من أموالها . (٢٤٧)

كذلك بلغ سعر مكيال الشعير مائة درهم . (٢٤٨) كما « وقع الغلاء بحلب وأعمالها كنحو ما وقع بمصر » (٢٤٩) بالاضافة الى أن الطاعون كان « فاشيا بدمشق من رمضان السنة الماضية ، فتزايد فى المحرم الى أن بلغ خمسمائة ثم تناقص بعد ذلك ، ومات فيه جماعة من الأعيان » . (٢٥٠)

وهكذا شهدت مصر وبلاد الشام أزمة كبيرة نتيجة لنقص الغذاء ، وارتفاع الأسعار ، وانتشار الوباء . (٢٥١)

ومع مرور الوقت تزايدت مرارة الأزمة حيث شهدت الشهور التالية ارتفاعا هائلا فى الأسعار ، ولكن يلفت نظرنا الدور الذى قام به الأشرف شعبان لمعالجة هذه الأزمة حيث يقول المقريزى :

« وفى شهرى رجب وشعبان (٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) اشتد الغلاء ، فبلغ الأردب القمح مائة وخمسة وعشرين درهما والأردب الشعير تسعين درهما ، والأردب الفول ثمانين درهما ، والبطة الدقيق زنة خمسين رطلا بأربعة وثلاثين درهما ، وشفع الموت فى الفقراء من شدة البرد والجوع والعرى ، وهم يستغيثون فلا يغاثون . وأكل أكثر الناس خبز الفول والنخال ، عجزا عن خبز القمح . وبلغ الخبز الأسود كل رطل ونصف بدرهم وكثر خطف الفقراء له ، ما قدروا عليه من أيدى الناس . ورمى طين بالسجن لعمارة حائط به ، فأكله المسجونون من شدة جوعهم . وعز وجود الدواب لموتها جوعا .

وفى رابع عشرين شعبان انتدب الأمير منجك نائب السلطان لتفرقة الفقراء على الأمراء وغيرهم ، فجمع أهل الحاجة والمسكنة ، وبعث الى كل أمير من امراء الألوف مائة فقير ، والى من عدا أمراء الألوف على قدر حاله ، وفرق على الدواوين والتجار وأرباب الأموال كل واحد عددا من الفقراء . ثم نودى فى القاهرة ومصر بأن لا يتصدق أحد على حرفوش وأى حرفوش شحذ صلب . فآوى كل أحد فقراءه فى مكان ، وقدم لهم من الغذاء بما يسد رمقهم على قدر همته وسماح نفسه ، ومنعهم من التطواف لسؤال الناس . فخفت تلك الشناعات التى كانت بين الناس ، الا أن الموت عظم ، حتى كان يموت فى كل يوم من الطرحاء على الطرقات ما يزيد على خمسمائة نفر ، ويطلق من ديوان المواريث ما

(٢٤٥) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٢١ .
(٢٤٦) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٢٦ ؛ انظر كذلك بدائع ، جـ١ ، ص ٢٢٩ .
(٢٤٧) انباء ، جـ١ ، ص ٩٢ - ٩٣ .
(٢٤٨) انباء ، جـ١ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٢٤٩) انباء ، جـ١ ، ص ١٠٠ .
(٢٥٠) انباء ، جـ١ ، ص ١٠٠ .
(٢٥١) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

ينيف على مائتي نفس . وتزايد في شهر رمضان مرض الناس وموتهم ، ونفدت الأقوات واشتد الأمر ، فبلغت عدة من يرد اسمه للديوان في كل يوم خمسمائة ، وبلغت عدة الطرحاء زيادة على خمسمائة طريح . فقام بمواراة الطرحاء الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير آقبغا آص ، والأمير سودن الشيخوني ، وغيرهما . وكان من أتى بميت طريح أعطوه درهما ، فأتاهم الناس بالأموات ، فقاموا بتغسيلهم وتكفينهم ودفنهم أحسن قيام ، بعدما شاهد الناس الكلاب تأكل الموتى من الطرحاء . [٢٥٢]

وفي الحقيقة اننا لا نندهش عندما نقرأ عن هذا الدور الايجابي الذي لعبه السلطان الأشرف شعبان في سبيل مد يد المساعدة الى رعيته في تلك الأيام العصيبة ، ولعل سبب عدم دهشتنا أن ذلك وقع أيام أتابكية منجك اليوسفي الذي عرف بالأخلاق الفاضلة ، والسمعة الطيبة ، فبذل جهودا كبيرة من أجل التخفيف من وقع هذه الأزمة على مختلف الطبقات وبوجه خاص الطوائف الفقيرة التي كانت عاجزة عن ايجاد ما يسد الرمق . وقد نجح في أن يجعل الأغنياء والمقتدرين على قدر المساواة في المساهمة للتخفيف من نتائج هذه المحنة الشاملة ، حيث أصبح كل واحد منهم مسئولا عن رعاية عدد من المعدمين والفقراء كي لا يقعوا فريسة سهلة للجوع والمرض والوفاة وفي هذا تحقيق لهدف الشريعة الاسلامية في المشاركة الجماعية لدفع وقوع البلاء ، وحق الفقير في مال الغني خاصة في وقت الشدة والحرج .

كما يشير المقريزي الى حدوث مثل ذلك في بقية الأقاليم المملوكية فيقول : « وقدم البريد بغلاء الأسعار بحلب ، حتى بيع المكوك القمح بمائة وخمسين درهما » [٢٥٣] ولكن الازمة انفرجت بعد أشهر وقبيل انتهاء السنة اذ انخفضت الأسعار وتوفر الغذاء في الأسواق بأسعار معتدلة . [٢٥٤]

وهكذا تكاتفت العناصر على تخفيف وقع تلك الأزمة على الناس ، فتم بناء على الأوامر السلطانية توزيع الفقراء على الأغنياء كل حسب منزلته وثرائه ، كما وصلت تراويج القمح الجديد فأدى ذلك الى انخفاض الأسعار . بالاضافة الى الدور الكبير الذي قام به ناظر الحسبة شمس الدين محمد الدميري من تحديد سعر الخبز وفرض رقابة صارمة على الطحانين والمخابز والأفران ، وان ظل طمع التجار عقبة في سبيل تطبيق أوامر المحتسب بحيث كان عدم التعاون بين فئات المجتمع المملوكي هو احدى العقبات التي أثرت من طبيعة الاستقرار الاجتماعي في الأقاليم المملوكية من ذلك قول المقريزي :

« وفي رابع ذي الحجة (٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) قطع الدميري المحتسب سعر الخبز ثمانية أرطالبدرهم ، وقد كان خمسة أرطال وثلث بدرهم ، فامتنع الطحانون أن يشتروا القمح الا بثمانية عشر درهما ، فأبى تجار الغلال الجلابة بيع القمح بهذا ، وعادوا بمراكب الغلال من حيث أتوا فعز وجود القمح وبلغ أربعة وثلاثين درهما الأردب ، وتعذر وجود الخبز في الأسواق عدة أيام ، وبيع أقل من ستة أرطال بدرهم » . [٢٥٥]

ولكن ما أن خفت الأزمة في مصر ، وأمكن الوصول الى حلول ناجعة للحيلولة دون انتشارها حتى وصلت الأنباء بوقوع « الغلاء العظيم بدمشق » [٢٥٦] ، بل لقد استفحلت المصيبة « حتى أكلوا الميتة والقطاط والكلاب ، وباع كثير من المقلين أولادهم ، وافتقر خلق كثير » . [٢٥٧]

ويثبت المقريزي حدوث هذه المحنة في بلاد الشام فيقول :

« وقدم ذي الحجة ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) البريد بغلاء الأسعار بدمشق ، وأن الغرارة القمح بلغت نحو خمسمائة درهم ، وبيع الخبز بحلب كل رطل حلبي بستة دراهم والمكوك القمح بثلاثمائة درهم ونيف . وأكلت الميتات والكلاب والقطاط . ومات خلق كثير من المساكين . وانكشف عدة من الأغنياء وعم الغلاء ببلاد الشام كلها ، حتى أكلت القطاط وبيعت الأولاد بحلب وأعمالها » [٢٥٨]

وفي الحقيقة لم يقتصر وقوع تلك الأزمات الخاصة بالغذاء والمرض بين الناس داخل الأقاليم المملوكية فحسب ، وانما كان يحدث أن يتعرض الحجاج وهم في طريق الحج الى مثل تلك المحن

---

(٢٥٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ .

(٢٥٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٥ .

(٢٥٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ٢٣٧ .

(٢٥٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٢٥٦) انباء ، جـ ١ ، ص ١٥٤ .

(٢٥٧) انباء ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، انظر كذلك ، ص ١٥٨ ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ١٣٦ ، شذرات ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠ .

(٢٥٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٥٩ .

وارتفاع الأسعار وتفشى المرض . ويشير ابن حجر الى « نهب الحاج المصرى فى رجوعهم » (٢٥٩) من الحج عام ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م . بالاضافة الى ذلك :

« جرى للحاج الشامى أشد مما جرى للمصرى ، فانهم جاءهم سيل بخليص تلف منهم بسببه شىء كثير ، وفى الرجعة هبت عليهم ريح عاصف ، ثم اشتد عليهم الغلاء فى الطريق حتى بيعت الغرارة الشعير بمائة درهم » (٢٦٠)

ومن ناحية أخرى يذكر المقريزى :

« وفى هذا الشهر (ربيع الآخر سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥ م) ارتفع سعر اللحم ، فبيع الرطل من لحم الضأن بدرهم ونصف ، والرطل من لحم البقر بدرهم وثمن » . (٢٦١)

كذلك من الأسباب التى كانت تؤدى الى ارتفاع الأسعار عدم استتباب الأمن فى الطرق التجارية ، وكثرة قطاع الطرق ، فيتم الاستيلاء على مختلف أنواع البضائع حيث يندر وجودها فى السوق مما يزيد فى ارتفاع أسعارها . وهذا دليل على اهمال السلطة فى ملاحقة وتأديب هذه الجماعات الاقطاعية اذ يقول المقريزى :

« قدم الخبر بكثرة فساد أولاد الكنز ، وطائفة العكارمة بأسوان ، وسواكن وأنهم منعوا التجار ، وغيرهم من السفر ، لقطعهم الطريق ، وأخذهم أموال الناس . وأن أولاد الكنز قد غلبوا على ثغر أسوان ، وصحراء عيذاب وبرية الواحات الداخلية ، وصاهروا ملوك النوبة ، وأمراء العكارمة ، واشتدت شوكتهم » . (٢٦٢)

من دراستنا لأحوال هذه الحقبة يمكننا أن نصل الى بعض العناصر المؤثرة فى ارتفاع اسعار :

١ ـ زيادة النيل فى وقت الفيضان كان لها أثر فعال فى عدم استقرار الأسعار اذ حينما لا يصل فيضان النيل الى الزيادة المطلوبة لتوفير الماء للزراعة فان ذلك يعنى ارتفاعا فى سعر الغلال . (٢٦٣)

٢ ـ وقوع الوباء بين المواشى والأغنام كان يؤدى بالحتم الى زيادة سعر الغلال . (٢٦٤)

٣ ـ انتشار الجراد والقضاء على المزروعات فى أى اقليم من أقاليم سلطنة المماليك كان على الدوام سببا رئيسيا من أسباب ارتفاع أسعار الغلال والحبوب . (٢٦٥)

٤ ـ تفشى الطواعين والأمراض الحادة بين الناس كان ينتج عنه دائما ارتفاع في سعر الغذاء(٢٦٦) .

٥ ـ طمع وجشع كبار الأمراء الأغنياء وحرصهم على تجميع الغلال والحبوب بحيث يعز وجودها فى الأسواق فترتفع أسعارها ، ومن ثم يعمل هؤلاء على اخراجها بشكل قليل ومتقطع من أجل الربح الكبير ، وهذا هو السبب فى أن المؤرخين المعاصرين دائما ما يشيرون الى بعض هؤلاء بعبارة « وانكشف عدة من الاغنياء » الذين كانوا دائما يظهرون الفقر ويدعون عدم الثراء ، فاذا حلت المصيبة تبين أنهم أثرياء بما يكفي عدم تضررهم .

٦ ـ كذلك جشع السلطان الأشرف شعبان (٢٦٧) وحبه الشديد لجمع المال ، فى حين كان يجب عليه العناية بشئون البلاد الداخلية واصلاح المرافق العامة والمنشآت الاجتماعية ، وان كنا لا ننكر سلامة النية عند الأشرف ، ولكنه افتقر الى الأسباب التى توفر له فرصة العمل من أجل الصالح العام .

٧ ـ الاعتماد الكلي على مياه النيل وانتظار احتمال حدوث الفيضان ، وكذلك على المطر الذى قد لا ينزل . فى حين أنه كان من الأجدى الاهتمام بانشاء الترع والجسور والبرك والقنوات المؤدية للأراضى الزراعية بحيث يمكن المحافظة على مياه النيل فى أثناء حدوث الفيضان لمدة عام أو أكثر من أجل استخدامها على مدار السنة ، ولكننا نقرأ شيئا فى كتابات المعاصرين عن الاهتمام بهذا الموضوع .

٨ ـ عدم وجود جهاز ادارى قوى يعمل من أجل مصلحة البلاد ، فيتم توزيع الطحين بانتظام على الطحانين ، وتراقب

---

(٢٥٩) انباء ، جـ ١ ، ص ١٥٧ .

(٢٦٠) انباء ، جـ ١ ، ص ١٥٧ .

(٢٦١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٢٦٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(٢٦٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .

(٢٦٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩١ .

(٢٦٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٢ .

(٢٦٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٢ .

(٢٦٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ .

الأفران من أجل بيع الخبز بالأسعار المحددة لكى يتمكن العامة والفقراء من الحصول على حاجتهم بسعر يقدرون على دفعه .

٩ - عدم كفاءة شخصية الأشرف شعبان بحيث لو كان على درجة من القوة والمهابة لعمل على منع الأمراء من تخزين الحبوب فى الأجران وتقسيط بيعها بأسعار مرتفعة فى حين كان المعدمون يموتون جوعا فى الطرقات .

١٠ - تلاعب بعض رجال الحسبة مثل علاء الدين بن عرب الذى لم يهتم بمصلحة العامة وخدمتهم فطالبوا السلطان بعزله ، فخلع فى عام ٧٧٥ هـ/١٣٧٣ م .

١١ - عدم وجود استراحات حكومية عامة على طول طريق الحج توفر للحجاج الغذاء والماء والحاجات الضرورية بأسعار معتدلة فلا يتعرضوا لارتفاع الأسعار وشح الطعام والعطش المميت ، ولكن يبدو أن البلاط السلطانى كان مشغولا بما يحال فيه من مؤامرات سياسية تهدف الى خلع السلطان والاستحواذ المطلق على السلطة والحكم ، فكانت نتيجة ذلك أبعد ما يكون عن التفكير فى تلك الشئون العامة المتعلقة بتوفير الرعاية اللازمة للرعية .

كل هذه العوامل تكافأت على أن يشهد هذا العهد سلسلة طويلة من الأزمات والمحن المتعلقة بارتفاع الأسعار وقلة الغذاء فى الاسواق ، وبالتالى انتشار الجوع والمرض الذى كثيرا ما يؤدى الى كثرة الوفيات ، فى حين حظى كبار الأمراء المماليك بثروات طائلة وأموال وفيرة الى جانب كثرة ما تحت أيديهم من المماليك والحاشية .

ولعل هذا التفاوت الكبير فى الحالة المالية يعود بالدرجة الأولى الى عدم قدرة السلطان الحاكم على الوصول الى نظام اقتصادى للبلاد يوفر للفرد من كافة الطبقات مختلف حاجاته الضرورية وبخاصة الغذاء بأسعار معتدلة .

أما فيما يتعلق بالوضع الادارى فى سلطنة المماليك ، فنلاحظ حدوث بعض التغييرات الادارية مثل تحويل القدس من ولاية الى نيابة حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) استقر تمراز فى نيابة القدس ، وهو أول من ولي نيابتها ، وكانت قبل ذلك يكون فيها والي من جهة والي الولاية بدمشق » . [٢٦٨]

كما كانت العلاقات ودية بين آل مهنا وسلطنة المماليك اذ يقول ابن اياس :

فى عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م « حضر الى الأبواب الشريفة الأمير حيار بن[٢٦٩] امير آل فضل من عربان الشام فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذه السلطان وحلم عليه » .[٢٧٠]

اما فيما يختص بالعلاقات بين سلطنة المماليك وآل فضل فيذكر المقريزي انه في سنة ٧٧٠هـ /١٣٦٩م « اتفق ايضا ان بني كلاب[٢٧١] كثر فسادهم وقطعهم الطريق فيما بين حماة وحلب ، واخذوا بعض الحجاج . فخرج اليهم الامير قشتمر نائب حلب بالعسكر ، حتى اتواتل السلطان بظاهر حلب ، فاذا عدة من مضارب عرب آل فضل ، فاستاق العسكر جمالهم ومواشيهم ومالوا على بيوت العرب فنهبوها . فثارت العرب بهم وقاتلوهم ، واستنجدوا من قرب منهم من بني مهنا ، واتاهم الامير حيار وولده نعير بجمع كبير ، فكانت معركة شنيعة ، قتل فيها الامير قشتمر النائب وولده وعدة من عسكره ، وانهزم باقيهم ، فركب العرب اقفيتهم فلم ينج منهم عريانا الا من شاء الله ، فكان ذلك وهنا في الدولة ، جره اليها طمع عساكرها »[٢٧٢] .

ونتيجة لذلك تجمدت العلاقات بين آل فضل وسلطنة المماليك مدة خمس سنوات حيث يبدو ان حيار امير آل فضل ندم على ما اقدم عليه نحو دولة المماليك ، ومن ثم قدم الى البلاط السلطاني يسأل عفو الاشرف شعبان اذ يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ /١٣٧٣م) وصل حيار بن مهنا امير آل فضل الى باب السلطان طائعا ، فخلع عليه واستقر في امرة العرب وكان السلطان قد غضب عليه بسبب قشتمر بحلب قبل هذا التاريخ »[٢٧٣] .

---

(٢٦٨) انباء ، جـ١ ، ص١٥٨ .

(٢٦٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص١٦٩ .

(٢٧٠) بدائع ، جـ١ ، ص٢١٦ .

(٢٧١) بنو كلاب ، بطن من عامر بن صعصعة وكانت ديارهم في جهات المدينة المنورة ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام . السلوك ، جـ٣ ، ص ١٧٥ ، هامش (١) .

(٢٧٢) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٧٥ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢٢٦ .

(٢٧٣) انباء ، جـ١ ، ص٧٨ .

ومن جانب آخر ارتبطت دولة المماليك في عهد الاشرف شعبان بعلاقات طيبة مع اليمن حيث حرص حكام اليمن على ارسال الهدايا الى البلاط السلطاني المملوكي توطيدا لعلاقات الصداقة مع دولة المماليك منذ ايام المجاهد علي بن داود[٢٧٤] الذي كان حريصا على تلك الرابطة الودية الى ان توفي عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م[٢٧٥] . ولما تسلطن ولده الافضل عباس استمر يبعث الرسل الى البلاط السلطاني اذ يقول المقريزي :

« وقدم وزير متملك اليمن بهدية من جملتها فيل »[٢٧٦] بالاضافة الى ذلك يذكر المقريزي :

« في يوم الخميس ثالث المحرم (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) قدمت رسل الملك الافضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن بهدية سنية على العادة ، وهم وزيره شرف الدين حسين بن علي الفارقي ، وامير اخوره ناصر الدين فوقفوا بين يدي السلطان وادوا رسالتهم ثم انزلوا في الميدان الكبير على شاطيء النيل ، وقدموا هدية مرسلهم في يوم السبت خامسه »[٢٧٧] .

وهكذا ظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الجانبين في ايام الافضل بن المجاهد مما يؤكد ان تلك الاسرة الحاكمة في اليمن كانت حريصة على استمرار الروابط الودية مع سلطنة المماليك اذ يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) وصلت هدية صاحب اليمن الملك الافضل بن الملك المجاهد الى الديار المصرية صحبة ناصر الدين ابن الفارقي وغيره »[٢٧٨] .

ويؤكد المقريزي حدوث ذلك فيقول :

« وفيه (عام ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) قدم شرف الدين حسين الفارقي وزير صاحب اليمن بكتابه وصحبته امير آخوره ناصر الدين محمد ، ومعهما هدية سنية »[٢٧٩] .

ومن ناحية اخرى نلاحظ ان دولة الاشرف شعبان قد حققت بعض الفتوحات العسكرية في الحدود الشمالية حيث تم ـ على سبيل المثال ـ فتح مدينة سيس التي كانت تحت حكم الارمن حلفاء الدول الصليبية ، ففتحها اشقتمر الماردبني نائب حلب حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) فتحت سيس ـ وكانت قد بقيت في يد الارمن النصارى ـ على يد اشقتمر الماردبني[٢٨٠] نائب حلب ، وكان قد تجهز اليها بعسكر حلب فنازلها شهرين الى ان قلت عندهم الاقوات ، فنصب عليها المجانيق وقدم في القتال التركمان من جميع الاصناف الارج فيه واليورقية ، وكان الذي نصب المنجنيق يقال له : المعلم خليل الغساني ، وهو ممن اشتهر بالمعرفة فيه ، فأبلى فيهم فأحسوا بالبوار ، فطلب صاحبها تكفور الامان وسلم القلعة ، فعلت كلمة اهل التوحيد بتلك البقعة بعد دهر طويل ، وجهز اشقتمر فاكثروا . وفوض الاشرف نيابة سيس ليعقوب شاه ، وهو اول من حكم فيها من ملوك الترك ، ثم استقر عوضه في هذه السنة اقبغا عبدالله ،[٢٨١] واستقر نجم الدين ابن الشهيد كاتب السر بها ، ثم جعلت مملكة برأسها وسميت « الفتوحات الجاهانية » واضيفت اليها طرسوس واذنة واياس وغيرها واستقر في امرتها شرف الدين موسى بن محمد بن شهري[٢٨٢] واستقر بها »[٢٨٣] .

ومن ثم بدأ تنظيم الجهاز الاداري حسب النمط الاسلامي المعروف اذ يقول المقريزي :

« في ثالث المحرم (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) خلع على نجم الدين بن الشهيد موقع الدست واستقر كاتب السر بسيس »[٢٨٤] .

كذلك يظهر لنا واضحا حرص دولة المماليك ابان هذا العهد على فتح جميع المدن والبلاد الواقعة في الحدود الشمالية ، ولعل ابلغ

---

(٢٧٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ١١٨ ـ ١٢٠ .

(٢٧٥) شذرات ، جـ ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٢٧٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

(٢٧٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٧ .

(٢٧٨) انباء ، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(٢٧٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢٨٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٦ .

(٢٨١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .

(٢٨٢) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٢٨٣) انباء ، جـ ١ ، ص ٩٧ ـ ٩٩ ، انظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٦ ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٢٨٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ .

مثال على ما نقول ما يذكره المقريزي من انه « كتب الى الاميرجرجي نائب حلب[٢٨٥] ان يسير لأخذ قلعة خرت برت من ديار بكر ، واخذ صاحبها خليل بن قراجا بن دلغادر[٢٨٦] مقدم التركمان ، فنازل قلعتها نحو اربعة اشهر ، وعاد بغير طائل ، لمنعتها وحصانتها ، ثم ان ابن دلغادر طلب الامان ، فأمن ، وقدم الى القاهرة »[٢٨٧] .

بالاضافة الى تلك الجهود يقول ابن حجر : « وفيها (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) تسلم نواب السلطان سنجار واحضر صاحبها الى القاهرة واستناب السلطان بها حيدر بن يونس المعروف بابن العسكري »[٢٨٨] .

كذلك ربطت العلاقات الطيبة بين سلطنة المماليك ومدينة ماردين منذ بداية حكم الاشرف شعبان حيث توالى على حكم ماردين الملك الصالح بن المنصور غازي[٢٨٩] الذي توفي عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م[٢٩٠] ، ثم حكمها ابنه داود[٢٩١] الذي توفي عام ٧٧٨هـ - ١٣٧٦م[٢٩٢] ، ثم في اواخر عهد الاشرف حكمها الظاهر عيسى بن داود الذي كان حريصا على طيب الروابط مع دولة المماليك[٢٩٣] .

كذلك يشير المقريزي من بين وقائع سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م الى حادثة تثير الكثير من التساؤلات ، اذ يقول :

« وفيها حدثت وحشة بين السلطان اويس متملك بغداد وتوريز »[٢٩٤] وبين نائبه ببغداد ، خواجا مرجان ، فعصى عليه مرجان ، وخطب ببغداد للسلطان الملك الاشرف ، وبعث رسله بذلك فقدموا في اوائل جمادى الأولى ، ومعهم كتابه بأنه قد خلع اويس ، واقام الخطبة ، وضرب السكة باسم السلطان الاشرف ، واخذ له البيعة على الناس ببغداد ، وعزم على محاربة اويس وانه نائب السلطان ببغداد . ان نصره الله عليه وان تكن الاخرى ، قدم الى ابواب السلطان فاكرمت رسله . وجهز له تشريف جليل واعلام خليفتيه واعلام سلطانية . وكتب له تقليد بنيابة بغداد . وجهز ايضا عدة خلع لامرائه واكابر دولته ، وخلع على رسله . واعيد »[٢٩٥] .

وعلى ذلك يمكننا ان نستنبط ان الحكم المغولي في بغداد قد ضعف ايام سلطنة اويس بن حسين بن حسن بن آقبغا المغولي الذي تسلطن سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م[٢٩٦] مما حدا بنائبه في بغداد الى الاستقلال عنه . الا انه يبدو ان خواجا مرجان كان متخوفا بعض الشيء من حركته الاستقلالية الانفصالية هذه ، فاظهر الولاء لسلطنة المماليك والاشرف شعبان ، وبعث رسله الى البلاط السلطاني في القاهرة ، في حين خطب في مساجد بغداد للاشرف شعبان وسكت النقود باسمه . بينما من ناحية اخرى رحب اصحاب السلطة المماليك برسل خواجا مرجان واكرموهم ، وكتب للنائب المنفصل اقرار سلطاني مملوكي بنيابة بغداد ، بالاضافة الى عدد من الخلع لكبار رجال دولته ونجد انفسنا ندهش في الحقيقة لما يجري ، ولكن في ضوء طبيعة الوضع السياسي لسلطنة المماليك في هذه الفترة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) يمكن القول بأن ضعف دولة مغول فارس كان عاملا مشجعا لخواجا مرجان للتفكير في الانفصال الا ان دهاءه جعله يفكر بضرورة الاستناد على مساعدة دولة اخرى مجاورة تحسبا لما قد يقع من نتائج لحركته الانفصالية ، مما يدل على انه بالرغم من صغر سن الاشرف شعبان في هذه الفترة الا ان دولة المماليك كانت لا تزال تحتفظ بثقلها السياسي بين جيرانها من الدول القريبة ، مع الاخذ بالاعتبار ان النائب المنفصل كان ينظر لهذه التبعية لسلطنة المماليك كنوع من الخضوع الاسمى لدولة قوية بحيث يكون هذا

(٢٨٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٧١ .
(٢٨٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ١٧٨ .
(٢٨٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
(٢٨٨) انباء ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .
(٢٨٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ١٥١ .
(٢٩٠) بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
(٢٩١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .
(٢٩٢) انباء ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .
(٢٩٣) انباء ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .
(٢٩٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .
(٢٩٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١١٢ .
(٢٩٦) الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .

الخضوع مصدرا دائما لمساعدته ضد دولة مغول فارس ، ونصيرا له من اجل تدعيم سيادته في بغداد . وعلى ذلك فهو يستبدل سلطة فعلية من مغول فارس بسيادة اسمية من سلطنة المماليك مستفيدا بذلك من عامل استعداد دولة المماليك لمساعدته على تثبيت حكمه المنفصل بالمال والسلاح والجند .

ومن ناحية اخرى اذا كان هذا النائب الثائر على ادراك تام بطبيعة الاحوال السياسية داخل دولة المماليك ، فلا بد انه كان يعلم حقيقة عدم جدوى الاعتماد على مساعدتها ، وانه لم يتخذ تلك الخطوات بالتقرب اليها الا بدافع من التلويح الذي يتضمن تهديدا لدولة مغول فارس بأن السلطنة بترحيبها برسله انما هي على اتم الاستعداد دائما لمساعدته على الاستمرار بحكمه المستقل في بغداد ، فاذا تأثر المغول بهذا الموقف السياسي يكون ضمن لنفسه حكما مستقلا ثابتا في بغداد ، اما اذا ادرك المغول حقيقة اللعبة ، وان المماليك لن ينجدوه وهم على ما كانوا فيه من عدم استقرار فيكون بذلك قد ضمن لنفسه شخصيا ولاتباعه مكانا يصلح للهجرة اليه طلبا للحماية والنجدة ، وفي كلتا الحالتين يكون قد حقق لنفسه شيئا من النفع بالاعتماد على سلطنة المماليك والتقرب اليها .

ولكن الامور لم تسر وفق مخططات خواجا مرجان اذ : « قدم قاضي تبريز في جماعة برسالة السلطان اويس ان مرجان قد عصي عليه ، وانه قصد المسير لقتاله ، فلا يمكن - اذا فر - من دخوله الى الشام ومصر ، فأجيب بما لا يريد ، وانه ان اراد نجدة سيرنا اليه العساكر لنصرته ، واهين رسوله واعيد خائبا »(٢٩٧) .

ولا شك انه كان لقدوم هذه السفارة المغولية الى القاهرة وقع المفاجأة على نائب بغداد ، لولا ان سلطنة المماليك حافظت على وعدها له بالمساعدة وانها ستمده بالجند اللازم لمقاتلة السلطان اويس ، وبالتالي عادت السفارة المغولية الى بلاط السلطان اويس خائبة دون ان تحقق هدفا واحدا من الاهداف التي قدمت من اجلها ، وباتت على يقين بان أصحاب السلطة في دولة المماليك عازمون على القتال الى جانب خواجا مرجان ضد جند السلطان اويس ، وعلى ذلك يجب عليه ان يكون مستعدا في السلاح والعساكر لمحاربة دولة المماليك .

ولكن تطور الوضع لم يمهل خواجا مرجان كي يهنأ بحركته الانفصالية اذ سرعان ما بلغت اخبار هذه الحركة بلاط السلطان اويس في توريز ، فسارع من اجل الوصول الى بغداد وتخليصها من يد خواجا مرجان وعودتها الى حكم المغول اذ :

« قدم الخبر بمسير السلطان اويس من توريز الى بغداد ، وقبضه على خواجا مرجان وسمل عينيه ، وحبسه . وان حيار بن مهنا ، لما خرج عن الطاعة ، ثم فر الى العراق ، وطردت عربه من بلاد الشام ، خدم اويس زيادة على سنتين ، حتى خالف عليه خواجا مرجان ببغداد ، وقبض عليه ، فرمه بعض امرائه الى حيار . فلما طلبه منه اويس ، لم يبعث به اليه فبعث اويس يطرده من بلاده ، فسار عنها ، وسأل الامير عمر شاه ، نائب حماه ، ان يشفع الى السلطان فيه ، ويسأله رد اقطاعه اليه . فكتب بذلك عمر شاه ، فأجيب الى قبول شفاعته وان يجهزه الى الابواب السلطانية صحبته . فقدم الامير عمر شاه ، ومعه الامير حيار في يوم الخميس خامس عشرة . وقدم عقيب ذلك رسول السلطان اويس يطلب الامير الذي فر الى حيار وان لا يمكن احدا فر من مملكته ان يعبر الشام ومصر ، فلم يجب الى قصده . وخلع على حيار وولده الامير نعير وخواصه ، واعيد الى الامرة ، وخلع على الامير عمر شاه ، واعيدوا الى محل ولايتها .

وفي اول ذي القعدة قدم رسول متملك ماردين بأن بيرم خجا التركماني قد تغلب على الموصل منذ سنين وبلغ عسكره نحو الثلاثين الفا . فلما اخذ السلطان اويس نائبه مرجان بعث الى الموصل جيشا ففر منه بيرم خجا الى بلاد العجم ، وملكها اويس ، وقد عزم على اخذ ماردين ، ومتى ملكها تعدى منها الى حلب . وطلب نجدة ، فخرج من يكشف عن هذا الامر »(٢٩٨) .

ونتيجة لذلك نلاحظ انه في :

« يوم الخميس ثالث عشرين صفر خلع على الامير منكلي بغا الشمسي ، واستقر في نيابة حلب عوضا عن جرجي الادريسي ، فصارت نيابة حلب اكبر رتبة من نيابة دمشق ، واضيف من عسكر دمشق الى حلب اربعة الاف فارس »(٢٩٩) .

وهكذا يظهر واضحا ان سلطنة المماليك بدأت تخشى احتمال هجوم السلطان اويس على حلب ، فاجتهدت في تكثيف الدعم العسكري في حلب لرد اي هجوم مباغت من اويس . ولكن يبدو ان السلطان اويس لم يكن راغبا في مهاجمة حلب بل في توطيد روابط العلاقات الطيبة من جديد مع سلطنة المماليك ، ولذا نجده يبادر في

(٢٩٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٤ .

(٢٩٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢٩٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٧ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٤ .

بعث الرسل الى البلاط السلطاني لتوثيق الروابط الودية بين الدولتين اذ يقول المقريزي :

« وفي حادي عشرين ذي الحجة ، قدمت رسل السلطان اويس من بغداد »(٣٠٠) ومن ناحية اخرى حرصت سلطنة المماليك على بناء العلاقات الطيبة من جديد مع دولة السلطان اويس بعد ان فشلت محاولة مرجان الانفصالية حيث يقول المقريزي :

« وفيه (ذي الحجة سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م) توجه الامير ناصر الدين محمد بن الامير سرتقطاي في الرسالة الى اويس متملك بغداد »(٣٠١) .

بالاضافة الى ذلك عفا اويس عن نائبه في بغداد مرجان ، بل واسبغ عليه المنصب نفسه في حكم بغداد اذ يقول ابن حجر :

« مرجان بن عبدالله الخادم ، نائب السلطنة ببغداد لأويس ، وكان قد تغلب عليها فقصده اويس من تبريز ثم حضر اليه طائعا فعفا عنه وذلك في سنة سبع وستين ، واستمر نائبا ببغداد الى هذه الغاية . وكان شهما شجاعا ، كانت الطرقات قد فسدت بسبب عزله ، فلما اعيد اصلحها »(٣٠٢) .

وبعد ذلك توفي مرجان هذا سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م . وقد استمرت العلاقات الودية بين الدولتين حتى وفاة السلطان اويس بن الشيخ حسن المغلي عام ٧٧٦هـ /١٣٧٤م(٣٠٣) .

ويبدو ان اخبار هذه الاستعدادات الحربية قد بلغت بلاطات الممالك الاوروبية ، فخشي بعضها فداحة الخسائر التي قد تصيب قبرص فيما لو قرر حكام السلطنة غزوها ، ومن ثم رأى اصحاب السلطة في هذه الممالك العمل على الحيلولة دون ذلك عن طريق ارسال سفارات اوروبية الى بلاط الاشرف شعبان لاسترضائه ، فان اصر على محاربة القبارصة فانهم يتعهدون له بمساعدة دولهم مقابل اطلاق سراح الاسرى الصليبيين ، وتجديد الصلح ، وصلاحية التبادل التجاري الآمن بين الجانبين ، وفتح كنيسة القيامة بالقدس ، الا ان السلطان الاشرف شعبان وضح لافراد هذه السفارة الديبلوماسية عزمه وتصميمه على محاربة القبارصة في بلدهم ، وانه لن يتفق على اي تعاون معهم ما لم يحقق اولا ما يرجوه من نصر ضد القبارصة ومن ساعدوهم على مهاجمة الاسكندرية وتخريبها ونهبها ، فغادر الرسل البلاط السلطاني دون ان يحققوا المطالب المأمولة حيث يقول المقريزي :

« وفي اول شهر رجب قدم الخبر ، بوصول رسل الفرنج الى ميناء الاسكندرية ، وانهم طلبوا رهائن عندهم ، حتى ينزلوا من مراكبهم ويؤدوا رسالتهم ، فلم تؤمن مكيدتهم ، واقتضى الحال اجابتهم ، فاخرج من سجن الوالي ـ المعروف بخزانة شمايل ـ جماعة وجب قتلهم ، وغسلوا بالحمام ، والبسوا ثيابا جميلة ، وسفروا الى الاسكندرية . فأكرمهم النائب . واشاع انهم من رؤساء الثغر ، وبعث بهم الى الفرنج ، وشيع خلفهم نساء وصبيانا ، يصيحون ، ويبكون ، كأنهم عيالهم وهم يخافون الفرنج عليهم ، فمشى ذلك على الفرنج ، وعلى اهل الثغر لانتظام حال المملكة ، وملاك امرها ، وجودة تدبرها فتسلم الفرنج الجماعة ونزلت رسلهم من المراكب . وقدموا الى قلعة الجبل ، وقد عدى السلطان الى سرحة كوم برا بالجيزة ، فحملوا الى هناك . وجلس لهم الامير يلبغا الاتابك ، وقام الامراء والحجاب بين يديه وادخلوا عليه فهالهم مجلسه وظنوا انه السلطان ، فقيل لهم « هذا مملوك السلطان » . فكشفوا عن رؤ وسهم ، وخرجوا على وجوههم يقبلون الارض ، ثم قاموا ، ودنوا اليه وناولوه كتاب ملكهم ، وقدموا هديته اليه ، ففرق ذلك بحضرتهم فيمن بين يديه ، واختار منه طشتا وابريقا من ذهب ، وصندوقا لم يعرف ما فيه ، وتضمنت رسالتهم ، انهم في طاعة السلطان ومساعدوه على متملك قبرص ، حتى ترد الاسرى ، التي اخذت من الاسكندرية ، ويعوض المال . وسألوا تجديد الصلح . وان يمكن تجارهم من قدوم الثغر ، وان تفتح كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت قد غلقت بعد واقعة الاسكندرية . فأجابهم ، بأنه لابد من غزو قبرص ، وتخريبها ثم اخرجوا فأقاموا بالوطاق ثلاثة ايام ، وحملوا الى دار الضيافة بجوار قلعة الجبل . فلما عاد السلطان من السرحة ، وقفوا بين يديه ، وقدموا هديتهم وادوا رسالتهم ، فلم يجابوا ، واعيدوا الى بلادهم خائبين »(٣٠٤) .

ورغم ذلك ، فان الممالك الاوروبية حرصت على استمرار بعث السفراء والرسل الى البلاط السلطاني في دولة المماليك في سبيل ارساء اواصر الصداقة بين الطرفين ، فنقرأ عن وصول رسل جنوه في عام ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م يسألون السلطان ان يسمح بقدوم

(٣٠٠) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٦١ .

(٣٠١) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٧٦ .

(٣٠٢) انباء ، جـ١ ، ص ٧٠ .

(٣٠٣) انباء ، جـ١ ، ص ١١١ ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٤٥ ، النجوم ، جـ١١ ، ص ٦٦ ، شذرات ، جـ٦ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٣٠٤) السلوك ، جـ٣ ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

تجارهم الى الاسكندرية حيث اجاب طلبهم[٣٠٥] كذلك تكرر قدوم رسل الامبراطورية البيزنطية في السنوات ٧٧٠هـ /١٣٦٨م[٣٠٦] ، ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م محملين بالهدايا عنوانا للنية الخالصة في ارساء روابط السود مع سلطنة المماليك[٣٠٧] . كذلك قدمت في عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م رسل الملك ارخان بن عثمان حاكم الروم معبرة عن رغبته في نجدة سلطنة المماليك ضد ملك قبرص .[٣٠٨]

وقد انتهى حكم الاشرف شعبان نهاية متوقعة حيث تآمر عليه عدد من مماليكه مع فئة من كبار الامراء ، فاطاحوا بحكمه ، واستولوا على القلعة ، ثم تخلصوا منه شخصيا بالقتل ، ويلخص ابن حجر هذا الحادث بقوله :

« وفيها (٧٧٧هـ / ١٣٧٦م) تجهز السلطان الملك الاشرف الى الحج فارسل اخوته واولاد اعمامه جميعا الى الكرك فسجنوا بها وارسل معهم سودون الشيخوني ليقيم عندهم محتفظا بهم وارسل اقتمر الحنبلي الى الصعيد في جماعة امراء لحفظ البلاد من العرب ، وارسل عدة من الأمراء الى سائر الثغور لحفظها ايضا[٣٠٩] .

وفيها خرج السلطان في تجمل زائد الى الغاية طالبا للحج ، فأقام بسرياقوس يوما ثم سافر في الثاني والعشرين من شوال ، فلما وصل عقبة أيلة في مستهل ذي القعدة خامر عليه الامراء الذين صحبته واكثر مماليكه ، وكانوا طلبوا منه ان ينفق عليهم نفقة اخترعوها فامتنع فداروا على الامراء فمن اجابهم الزموه بالركوب معهم ومن امتنع تهددوه بالقتل وركبوا بغتة فناوشهم الخاصكية القتال الى الليل ، فلما بلغه ذلك هرب راجعا الى القاهرة ، وكان الذين خلفهم بالقلعة قد واعدوا مع الذين خامروا عليه بالعقبة انهم يسلطنون ولده عليا ففعلوا ذلك بان اتفقوا وجاءوا الى الزمام فأخبروه ان السلطان مات وطلبوا منه ان يخرج لهم ولده عليا ، فامتنع فهجموا عليه وكسروا بابه ونهبوا بيته وامسكوه واخرجوا الصبي قهرا فأقعدوه بباب الستارة ، ثم اركبوه الى الايوان ، وارسلوا الى الامراء الذين بالقاهرة فامتنعوا من الحضور فأنزلوا الصبي الى الاصطبل ولقبوه بالعادل ثم بعد يومين بالمنصور فصعد اليه الامراء واحضروا اليه اكمل الدين وضياء الدين القرمي وحلفوا له ، فأمسكهم بعض القائمين بالامر وهم طشتمر اللفاف وقرطاي واسندمر وإينبك وحبسوهم بالقلعة واقروا آقتمر عبدالغني نائب السلطنة ، ثم عهد الى الامراء الاكابر ولما ارادوا سلطنة علي عارضهم الضياء القرمي ووعظهم وقال لهم : ان الاشرف استاذكم قد احسن اليكم واخرجكم من السجن واعطاكم الاموال فكيف تكون هذه مجازاته منكم ؟ فلم يقبلوا منه بل هموا بقتله فردهم عنه قرطاي ورجع الى بيته فتحول الى القاهرة ، وفي غضون ذلك وصل قازان الصرغتمشي فاخبر بكائنة السلطان بالعقبة فارسلوا الى قبة النصر فوجدوا ارغون شاه وصرغتمش ويلبغا وغيرهم من الامراء الذين كانوا صحبة السلطان وهربوا معه قد وصلوا صحبته على الهجن فغلب عليهم النوم هناك فكبسوا عليهم فقتلوهم وهرب السلطان لما دهموه هو ويلبغا الناصري[٣١٠] ، ثم استخفى السلطان عند آمنة بنت عبدار امرأة ابن المستوفي المغنية كان يعرفها قبل ذلك فاخفته ، ثم دلهم عليه بعض الناس فكبسوا البيت فوجدوه قد اختفى في البادهنج فأمسكوه واطلعوه الى القلعة ، فتولى اينبك تقريره على الذخائر ، وضربه تحت رجليه نحوا من سبعين ضربة بالعصي ، ثم خنق في خامس ذي القعدة ودفن بالقرب من الست نفيسة ثم نقل الى تربة امه . وكان الاشرف هينا لينا محبا في المال محبا في اهل الخير والفقراء والصلحاء والعلماء مذعنا للأمور الشرعية ، ملك اربع عشرة سنة وشهرين ونصفا ، وكانت الدنيا في زمانه طيبة آمنة . وفيها عقب استقرار على ولد الاشرف في السلطنة لقب « الملك المنصور » وعمره اذ ذاك ثماني سنين ، واستقر »[٣١١] .

وهكذا انتهى عهد السلطان الاشرف شعبان بن حسين بوفاته مقتولا في ذي القعدة عام ٧٧٨هـ /١٣٧٦م عن اربع وعشرين سنة .[٣١٢]

---

(٣٠٥) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٤١ .

(٣٠٦) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٦٩ .

(٣٠٧) انباء ، جـ١ ، ص١٥٦ ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٣٠٨) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٢١ .

(٣٠٩) قارن السلوك ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .

(٣١٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٥ ـ ٢١٨ .

(٣١١) انباء ، جـ١ ، ص١٩٢ ـ ١٩٥ ، انظر كذلك ، السلوك ، جـ٣ ، ص٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ـ ٢٨٢ ، النجوم ، جـ١١ ، ص٦٩ ـ ٨٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٤ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٣١٢) انباء ، جـ١ ، ص٢١٠ .

ومن الجدير بالذكر انه « لما فر السلطان من العقبة اضطرب الناس ، فانحدر القاضيان برهان الدين الشافعي وجار الله الحنفي الى القدس ، فأقاما فيه الى ان سكنت الفتنة ثم قدما القاهرة يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة ورجع اكثر الرؤساء الى القاهرة . وتوجه بهانر المشرف بمن بقي الى مكة واخذت خزائن السلطان فنهبت ورجع طشتمر والخليفة وتقي الدين ابن ناظر الجيش وكان سافر معهم عوضا عن ابيه لضعفه وبدر الدين كاتب السر وبدر الدين الاخنائي قاضي المالكية والشيخ سراج الدين البلقيني وصحبتهم حريم السلطان الى ان دخلوا القاهرة ، فلما دخلوا انكر طشتمر ماجرى وركب الى قبة النصر وأراد ان يسلطن الخليفة فلم يوافق على ذلك . فاقتتلوا معه فانكسر ثم اعطى النيابة بدمشق وتوجه اليها في عاشر ذي القعدة . وجددت البيعة في ثامن ذي القعدة للملك المنصور ثم ثار المماليك الذين اعانوا الامراء على قتل الاشرف فطالبوهم بالنفقة التي وعدوهم بها وهي على ما قيل لكل نفر خمسمائة دينار فماطلوهم فجاهروهم بالسوء ، فلما خشوا على انفسهم امروا بمصادرة المباشرين والتجار ودام ذلك مدة وكان ما اخذ من المودع الحكمي مائتي الف دينار فيما قيل ومن مثقال الجمالي مائة الف دينار ومن صلاح الدين ابن عرام نحو خمسين الف دينار وما اخذ من الوزير وناظر الخاص وغيرهما من الدواوين جمل مستكثرة . وعمد قرطاي الى الخزائن فانفذها في النفقات والهبات وكان كثير السخاء وانفق على المماليك كل واحد خمسمائة دينار وعشرة آلاف درهم فضة نقرة وكانت عدتهم ثلاثة آلاف من الاجلاب وغيرهم ، وقيل بل الفين وقيل بين ذلك »(٣١٣) .

من سير الحوادث الاخيرة من حكم الاشرف شعبان ، نلاحظ انه لم يكن يثق باحد على الاطلاق حتى اخوته واولاد اعمامه حيث كان يدرك تطلع كل منهم للوصول الى الحكم . كما كان يخشى قيام حكام الاقاليم المملوكية بحركات انفصالية بدليل ارساله الامراء لحفظ الاقاليم البعيدة شمالا وجنوبا .

ويفسر المقريزي هذه التحفظات التي عمل بها الاشرف شعبان بقوله : « وندب الامير اقتمر الحنبلي ان يخرج الى بلاد الصعيد ، ومعه عدة من الامراء والاجناد ، ويقيم به لحفظه مدة غيبة السلطان بالحجاز وندب الى الثغور ـ مثل الاسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس ـ جماعة من الامراء والاجناد يكونوا مركزين بها لدفع العدو من الفرنج . وندب عدة امراء للمبيت كل ليلة في اماكن عينت لهم من خارج القاهرة ومصر . ورتب الامير ايدمر الشمسي للاقامة بقلعة الجبل لحفظها . وجعل نائب الغيبة بالقاهرة الامير اقتمر عبدالغني ، ورسم له ولجميع الامراء المقيمين ان يحضروا في ايام المواكب الخدمة عند باب الستارة من القلعة ، ويقبلوا ايدي ولدي السلطان ، ويقفوا ساعة لطيفة . ثم يقوم اميرعلي ابن السلطان من مجلسه ويقول للامراء بيده « باسم الله » فينصرفوا بعد ان يسقوا مشروبا .

ولما قوي العزم على السفر اشار على السلطان جماعة من اهل الصلاح بأن لا يسافر ، فلم يقل وصمم على السفر »(٣١٤) .

وبهذا يظهر لنا ان الاشرف شعبان كان يعرف جيدا الوضع في البلاط المملوكي مما جعله يندب « عدة امراء للمبيت كل ليلة في اماكن عينت لهم من خارج القاهرة ومصر »(٣١٥) طوال فترة غيبته . كذلك نرى انه « لما قوي العزم على السفر اشار على السلطان جماعة من اهل الصلاح بان لا يسافر ، فلم يقبل وصمم على السفر »(٣١٦) . وهذا يدل دون شك على وجود جماعة من النصحاء المخلصين الذين كانوا يرغبون حقا في مساعدة الاشرف شعبان واستمرار بقائه عى كرسي السلطنة حيث انهم كانوا على وعي تام بنوايا بعض كبار الامراء المحيطين بالسلطان ومخططاتهم في سبيل التخلص منه ، وانهم يبيتون من اجل ايجاد فرصة مناسبة في سفره للحج لقتله .

كذلك يتبين لنا من خلال الترتيبات التي اتخذت من اجل سفر السلطان للحج تلك الرفاهية والعيش الكريم الذي كان يحظى به السلطان(٣١٧) ، في حين كانت الازمات الاقتصادية تتوالى على عامة الشعب الذين يعانون الجوع ، وقلة الغذاء ، وارتفاع الاسعار ، والمرض والوباء ، بحيث يبرز هذا التفاوت الكبير في الحالة الاجتماعية الاقتصادية عدم اهتمام السلطان بالصرف من ماله وما يتمتع به من ترف من اجل اسعاد الطبقات الوسطى والدنيا في المجتمع . ولعل هذه المباهج والمتع في العيش هي الشيء الوحيد

---

(٣١٣) النهاية ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٨ .

(٣١٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣١٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

الـذي حظى بـه السلطان من سيمات الحكم والسلطة اذ عـاش محروما من ممارسة حقوقه كسلطان لدولة المماليك ، وبلغ من خشيته على نفسه انه اوصى بتولية ابنه علي فيما لو حدث له شيء ، وكأنه كان يقرأ ما في صدور المتآمرين من النوايا المكيدة ، واحتمال التآمر ضده للاطاحة به والقضاء عليه ، فيتمكنون من ممارسة ما يرغبون فيه من السلطة المطلقة والحكم دون عقبة او قيد . ويبدو انه اصبح من الصعب عليهم تحقيق ذلك في ظل حكم سلطان في الرابعة والعشرين من العمر مدركا لما يدور حوله من الفتن والمؤامرات ، ولـذا اصبح بحكم الضـرورة لديهم ان يتم تعيين سلطان طفل للتمتع بالصلاحيات المطلقة ، والامتيازات غير المحدودة .

كذلك يتبين لنا بوضوح أن الأمراء الذين حوله ، وكذلك بعض المـماليك كـانوا يتحينـون الفرصـة من أجـل الانقضـاض عليـه والتخلص منه في سبيل السلطة العليا ، ولا نجد سبباً لذلك سوى أن الأشرف شعبان قد بلغ الرابعة والعشرين ، وأصبح شاباً يافعاً يتطلع الى ممارسة مقاليد السلطة والحكم وهو الأمر الذي يرفضه كبار الأمراء الأوليجاركية ، فباتوا يتصيدون مناسبة ملائمة لقتله وتعيين سلطان صغير سهل المراس . وتظهر هذه النية واضحة في تسلطن علي ابن الأشرف شعبان الذي كان لا يتجاوز الثامنة من العمر . أما الأمراء الذين رفضوا المشاركة في هذه المؤامرة فتم القبض عليهم وأودعوا السجن ، كما تم الاستيلاء على الـذخائر والنفائس التي كانت بحوزة السلطان ، وفي هذا الموضوع يقول المقريزي :

« فلما كان يوم السبت ثالث ذي القعدة أنتـدب لاثارة الفتنـة بالقاهرة أينبك البـدري ، وأسندمـر الصرغتمشي ، وقـرطاي ، وطشتمـر اللفاف ، ومشـوا فيمن تـأخـر بـالقلعـة من المـماليـك السلطانيـة ، وفي مماليـك الأسياد ولـدى السلطان ، وفي مماليـك الأمراء المسافرين صحبة السلطان ، وفي جماعة من المماليك البطالة وواعدوهم جميعاً عـلى القيام معهم ، ووعـدهم بأن ينفقـوا فيهم خمسمائة دينار ، عنها عشرة آلاف درهم ، لكل واحد منهم فمالوا اليهم وتحالفوا جميعاً على الانفاق وركبوا بآلة الحرب .

ونزل المماليك السلطانية الذين بالطباق من قلعة الجبل وصعد الذين كانوا أسفل القلعة اليها ، وصار الجميع بباب الستارة ، وفي داخله الطواشي سابق الدين مثقال زمام الدور ، والأمير جلبان لالا الأسياد ، والأمير أقبغا جركس اللالا ، فأغلقـوا باب الستـارة . وأخـذ القوم يـطرقون عليهم البـاب ، ويطلبـون الأمير عـلي بن السلطان ويقولون : « قد مات السلطان ونحن نريد نسلطن ابنه الأمير علي » . فقيـل لهم : « من كبيـركم حتى نسلم اليـه ابن السلطان » . فتآمروا فيما بينهم ساعة وجمعهم يكثر ، ثم كسروا شباك الزمام المطل على تلك الجهة وصعدوا منه فنهبوا ما في بيت الزمام ، ونزلوا الى رحبة باب الستارة وقبضوا على الطواشي مثقال الزمام ، وعلى الأمير جلبان ، ودخلوا من باب الستارة بأجمعهم ، وأخرجوا الأمير علي ، وأجلسوه بباب الستارة . وأحضروا الأمير أيدمر الشمسي ، والزموه بتقبيل الأرض ، فقبلها ، وأركبوا الأمير علي الى الايوان المعروف بدار العدل ، وأجلسوه على تخت الملك ، ولقبوه بالملك العادل » .(٣١٨) .

ونلاحظ أن هذه المؤامرة تمت على يد فئة صغيرة من كبار الأمراء الأوليجاركية بمساعدة المماليك الطامعين في أموال السلطنة ، وقد انجزت بشكل فوضوي يدل على عدم التخطيط الواعي . كذلك يتبين لنا رفض بعض الأمراء لما حدث والرغبة في تولية الخليفة العباسي سلطاناً لدولة المماليك . وخلال كل تلك الحوادث كانت الكلمة العليا للقوة والسلاح ، كما كان الجشع والطمع هو السبب في مشاركة عدد كبير من المماليك المقربين الى الأشرف شعبان من أجل الحصول على حفنة من المال من الخزائن السلطانية ، حيث يذكر المقريزي :

« فلما أصبح نهار الأحد رابعه ، غيروا لقب الأمير علي وجعلوه الملك المنصور ، وأخذوا خطوط جميع العلماء والأمراء إنهم رضوا به سلطاناً ، ونادوا بالقاهرة وأعمالها ثانياً بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المنصور ، وخرج البريد لاحضار الأمير اقتمر الحنبلي من بلاد الصعيد . وتقسموا الأمريات ، فأخذ طشتمر اللفاف تقدمة أرغون شاه رأس نوبة ، وأخذ قرطاي تقدمة صرغتمش ، وأخذ اينبك تقدمة بيبغا السابقي ، وأخذ أسندمر الصرغتمشي تقدمة ، وأخذ بلاط الصغير تقدمة ، حتى عموا من أرادوا منهم بالأمريات .

واستقر الأمير شهاب الدين قرطاي أتابك العساكر . ونصبوا لهم خليفة من بني عم الخليفة المتوكل . وأقاموا عز الدين حمزة بن علاء الدين علي بن محيي الدين بن فضل الله في وظيفة كتابه السر ، حتى يحضر أخوه بدر الدين » (٣١٩) .

ثم وقع ذلك التبذير غير المحدود في مال الخزائن السلطانية حيث كان نصيب كل مملوك من الأجلاب قدراً كبيراً يفوق ما وعدوا به ، مما يدل على عدم وجـود الشعور بـالمسئوليـة تجاه الصـالح العـام

(٣١٨) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٣١٩) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٧٨ .

للدولة ، بل بلغ من سوء الحال ان الأمراء أصحاب السلطة في العهد الجديد عمدوا الى مصادرة كبار المسئولين الاداريين والمباشرين ، والتجار في سبيل جمع أكبر قدر من الأموال والنفائس .

وتجدر الاشارة الى أنه :

كان لحدوث هذه الفتنة السياسية في القلعة بالغ الأثر على اضطراب الوضع الاجتماعي في القاهرة وعدم استقرار الناس حيث يقول المقريزي :

« فأمروا أن ينادى في الناس بالأمان ، فنودي في القاهرة ومصر بين يدي والي القاهرة » الأمان والاطمئنان ، افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا ، وترحموا على الملك الأشرف والدعاء لولده الملك العادل علي ، ونائبه الأمير اقتمر الحنبلي ، فكثرت القالة بين الناس » (٣٢٠) .

ولكن الناس لم يهدأوا اذ استمر الوضع السياسي غير مستقر والأمراء على أهبة الحرب حتى وصل الأمر أن :

« اضطرب الناس بالقاهرة ، وأغلقوا ما فتح من الحوانيت ، وكثر تخلقهم للحديث في أمر السلطان والقائمين بالدولة . ونودي بالقاهرة ومصر على السلطان ، وتوعد من أخفاه ، فاضطرب الناس ، وباتوا ليلة الاثنين على تخوف وقلق شديد » (٣٢١) .

وعلى ذلك فقد كان لا يمكن أن تستقر أحوال الناس ويستمروا في ممارسة نشاطاتهم الاقتصادية في ظل تلك الظروف التي لا تكاد تستقر حتى تضطرب مرة أخرى . ونتيجة لذلك فمن غير المعقول أن نتوقع ازدهار النشاط الاقتصادي والتجاري في ظل مثل هذه الأحوال .

كذلك يتضح لنا الموقف المهزوز الذي وصلت اليه الخلافة العباسية في هذا العهد ، فالخليفة مجبور على إعطاء البيعة لأي شخص يرضى به الأمراء المماليك حتى ولو كان هناك سلطان آخر جالس على كرسي الحكم ، فلم يكن عندهم مانع من وجود سلطانين والغلبة للأقوى . كما كان من السهل كثيراً خلع خليفة وتعيين بدل منه من العائلة العباسية على حسب المنهج الذي يرضى ويتماشى مع رغبات الأمراء . لقد وصلت سلطنة المماليك في هذه الفترة الى موقف سياسي حرج للغاية حيث فلت الزمام من يد السلطان الحاكم وتركزت السلطة بيد طائفة من الأمراء المماليك الأوليجاركية الذين وجدوا أن القوة هي الطريق الأنسب الذي يمكنهم مما يرغبون فيه من صلاحيات مطلقة في مجال السلطة والحكم ، وقد توفر لهم ذلك بالفعل في ظل سلطنة طفل ، ولكنه عندما كبر ووعى في ظل عدد كبير من الفتن والمؤامرات أخذ يعمل من أجل المساهمة الفعالة في مجال الحكم ، وهنا ظهر الصراع الذي لا بد أن يظهر بينه وبين أولئك الطامعين ، وانتهى بمقتله وهو في مطلع الشباب لكي يتسلطن ولده ويعاصر حقبة مماثلة في أحداثها وفعالياتها .

* * *

(٣٢٠) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(٣٢١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٨١

قائمة الاختصارات

الأرقام هنا تدل على رقم المصدر في قائمة المصادر والمراجع .

الالمام	النويري	٨٠
انباء	ابن حجر	١٥
بدائع	ابن اياس	٣
الخطط	المقريزي	٧٥
الدرر	ابن حجر	١٤
السلوك	المقريزي	٧٦
شذرات	ابن العماد	٥٥
النجوم	ابن تغري بردي	١٠
مآثر	القلقشندي	٦٥

المصادر والمراجع :

الأدفوي : أبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .
١ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد .
تحقيق سعد محمد حسن .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
ابن الأكفاني : محمد بن ابراهيم (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .
٢ ـ نخب الذخائر في أحوال الجواهر .
تحقيق أ. م. الكرملي .
القاهرة ، ١٩٣٩م .
ابن اياس : محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) .
٣ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور .
٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٣ ـ ١٨٩٦م .
الباشا : حسن .
٤ ـ الألقاب الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
٥ ـ الفنون الاسلامية والوظائف ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦م .
ابن بطوطة : محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) .
٦ ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
القاهرة ، ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م .
ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) .
٧ ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور .
جزئين تحقيق ويليام بوير .
لوس انجلوس ، ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢ .
٨ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي .
الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
٩ ـ مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة .
باشراف ج. د. كارليل .
طبعة أوربا ، ١٧٩٢م .
١٠ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦م .
الجبرتي : عبد الرحمن (ت ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) .
١١ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار .
الجزء الأول تحقيق حسن محمد جوهر وآخرين .
الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
ابن الجيعان : يحيى بن شاكر (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) .

١٢ ـ التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية .
باشراف د. مورتز .
القاهرة ، ١٨٩٨م .
ابن الحاج : محمد بن محمد (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) .
١٣ ـ المدخل .
٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٩م .
ابن حجر : أحمد علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) .
١٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .
٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
١٥ ـ انباء الغمر في أبناء العمر .
جزءان ، حيدر آباد ، ١٩٦٧م .
١٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
١٣ جزء ، القاهرة ، ١٣١٩هـ/١٩٠٩م .
حسن : علي ابراهيم .
١٧ ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني .
القاهرة ، ١٩٦٤م .
١٨ ـ تاريخ المماليك البحرية .
القاهرة ، ١٩٦٧م .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨١٨هـ/١٤٠٦م) .
١٩ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .
٧ أجزاء ، بيروت ، ١٩٦٥م .
٢٠ ـ المقدمة .
القاهرة ، طبعة دار الشعب .
دراج : أحمد .
٢١ ـ المماليك والفرنج .
القاهرة ، ١٩٦١م .
ابن دقماق : ابراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
٢٢ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
جزءان في كتاب واحد .
القاهرة ، ١٨٩٣م .
الدواداري : أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (معاصر للناصر محمد بن قلاون) .
كنز الدرر وجامع الغرر .
٢٣ ـ ج ٨ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية .
تحقيق و. هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م .
٢٣ ـ ج ٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر .
تحقيق هـ. ر. رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) .

٢٥ - العبر في خبر من غبر .
٥ أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦م .
٢٦ - خلاصة تهذيب الكامل في اسماء الرجال .
تحقيق أ. أ. الخزرجي .
القاهرة ، ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م .
٢٧ - كتاب دول الاسلام .
جزءان ، حيدر آباد ، ١٣٣٧هـ/١٩١٨م .
٢٨ - سير أعلام النبلاء .
٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦ - ١٩٦٢م .
٢٩ - تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام .
٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٦٨-١٣٦٩هـ/١٩٤٨-١٩٤٩م .
٣٠ - تذكرة الحفاظ .
٤ أجزاء ، حيدر آباد ، ١٨٩٧م .
الزبيدي : محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م) .
٣١ - تاج العروس من جواهر القاموس .
طبع منها ١٦ جزءاً ، الكويت ، ١٩٦٥-١٩٧٦م .
زيتير شتين :
٣٢ - تاريخ سلاطين المماليك .
نشرة كارل ف. زيتير شتين .
ليدن ١٩١٩م .
السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب .
٣٣ - معيد النعم ومبيد النقم .
طبعة داود ولهلم موهرن .
ليدن ١٩٠٨م .
السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) .
٣٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ/١٩٣٤ - ١٩٣٦م .
٣٥ - التبر المسبوك في ذيل السلوك .
القاهرة ، ١٨٩٦م .
السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .
٣٦ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .
جزءان ، تحقيق م. أ. ابراهيم .
القاهرة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨م .
٣٧ - تاريخ الخلفاء .
تحقيق م. م. عبد الحميد .
القاهرة ، ١٩٦٤م .
ابن شاكر : محمد بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٩٣م) .

٣٨ ـ فوات الوفيات والذيل عليها .
٤ أجزاء ، تحقيق إحسان عباس .
بيروت ، ١٩٧٤م .
الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) .
٣٩ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .
جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م) .
الصفدي : خليل ابن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) .
٤٠ ـ إمارة دمشق في الاسلام .
دمشق ، ١٩٥٥م .
٤١ ـ الوافي بالوفيات .
٨ أجزاء ، ١٩٣١ ـ ١٩٧١م .
نشرة Bibliotheca Islamic
الصقاعي : فضل الله بن أبي الفخر .
٤٢ ـ تالي كتاب وفيات الأعيان .
تحقيق جاكلين سويله .
دمشق ١٩٧٤م .
الظاهري : خليل بن شاهين (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) .
٤٣ ـ زبدة كشف الممالك .
تحقيق بول ريفز .
باريس ، ١٨٩٤م .
عاشور : سعيد عبد الفتاح .
٤٤ ـ العصر المماليكي في مصر والشام .
القاهرة ، ١٩٦٥ م .
٤٥ ـ مصر في عصر دولة المماليك البحرية .
القاهرة ، ١٩٥٩م .
٤٦ ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني .
القاهرة ، ١٩٧٠م .
٤٧ ـ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك .
القاهرة ، ١٩٦٢م .
٤٨ ـ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التاريخ السياسي .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
٤٩ ـ بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى .
مقالة في المجلة التاريخية المصرية ـ العدد الرابع عشر ٦٦ ـ ١٩٦٧م .
عبد السيد : حكيم أمين .
٥٠ ـ قيام دولة المماليك الثانية .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
ابن عبد الظاهر : محيي الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

٥١ ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور .
تحقيق م. كامل .
القاهرة ، ١٩٦١م .
٥٢ ـ الروض الزاهر في سيرة الظاهر .
تحقيق عبد العزيز الخويطر .
بحث دكتوراه ، لندن ، ١٩٦٠م .
٥٣ ـ الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية .
ليبزج ، ١٩٠٢م .
العريني : البـــــاز .
٥٤ ـ المماليك .
بيروت ، ١٩٦٧م .
ابن العماد : عبد الحي أحمد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) .
٥٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣١ ـ ١٩٣٢م .
العمري : ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) .
٥٦ ـ التعريف بالمصطلح الشريف .
القاهرة ، ١٨٩٤م .
عنـــــان : محمد عبد الله .
٥٧ ـ مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية .
القاهرة ، ١٩٦٩م .
العيد روسي : عبد القادر ابن الشيخ بن عبد الله (ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٩م) .
٥٨ ـ كتاب تاريخ النور السافر .
بغداد ، ١٩٣٩م .
أبو الفدا : اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
٥٩ ـ المختصر في أخبار البشر .
٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م .
٦٠ ـ تقويم البلدان .
تحقيق م. رينود ، م. سلان .
باريس ، ١٨٤٠م .
ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) .
٦١ ـ تاريخ الدول والملوك .
ج ٨ ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين .
بيروت ، ١٩٣٩م .
ابن أبي الفضائل : مفضـــل .
٦٢ ـ النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .
ج ٢ ، ٣ ، تحقيق أ. بلوشيه .
باريس ، ١٩٢٨ .

فهمي : نعيم زكي .
٦٣ ـ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب .
القاهرة ، ١٩٧٣م .
الغوطي : عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) .
٦٤ ـ الحوادث الجامعة .
تحقيق مصطفى جواد .
بغداد ، ١٩٣٢م .
القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .
٦٥ ـ مآثر الاناقة في معالم الخلافة .
٣ أجزاء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج .
الكويت ، ١٩٦٤م .
٦٦ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا .
١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩٢٢م .
ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) .
٦٧ ـ أحكام أهل الذمة .
دمشق ، ١٩٦١م .
كازانوفا : بـــول .
٦٨ ـ تاريخ ووصف قلعة القاهرة .
ترجمة وتقديم أحمد دراج .
مراجعة جمال محرز .
القاهرة ، ١٩٧٤م .
ابن كثير : اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) .
٦٩ ـ البداية والنهاية .
١٤ جزء ، ١٩٣٢م .
الماوردى : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصرى (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٧م)
٧٠ ـ الأحكام السلطانية .
الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
مسعد : مصطفى
٧١ ـ الاسلام والنوبة في العصور الوسطى .
القاهرة ـ ١٩٦٠م
المقريزى : أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
٧٢ ـ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب .
تحقيق م . عابدين .
القاهرة ، ١٩٦١م .
٧٣ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة .
حمص ، ١٩٥٦م .

٧٤ - الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام .

القاهرة ، ١٨٩٥م .

٧٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط المقريزية » .

جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣م .

٧٦ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

ج ١ ، ٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة .

ج ٣ ، ٤ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .

القاهرة ، ١٩٣٩ - ١٩٧١م .

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .

٧٧ - لسان العرب .

٢٠ جزء ، طبعة بولاق .

موسى : محمد يوسف .

٧٨ - ابن تيمية .

القاهرة ، ١٩٦٢م .

النويري : احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) .

٧٩ - نهاية الأرب في فنون الأدب .

١٨ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٣ - ١٩٣١م .

النويري : محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني .

(توفي بعد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٢م) .

٨٠ - كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به .

الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية .

تحقيق اتيين كومب عزيز سوريال عطية .

٦ أجزاء ، حيدر آباد ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣م .

ابن الوردي : عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .

٨١ - تتمة المختصر في أخبار البشر .

جزءان ، القاهرة ، ١٨٦٨م .

اليافعي : عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م) .

٨٢ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان .

٤ أجزاء .

حيدر آباد ١٣٣٧ - ١٣٣٩هـ/١٩١٨ - ١٩٢٠م .

ياقوت : شهاب الدين بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

٨٣ - معجم البلدان .

٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٦م .

اليوزبكي : توفيق سلطان .

٨٤ - تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي .

الموصل ، ١٩٧٥م .

***

إعادة بناء الفكر الديني عند ابن المقفع

مفهوم الدين في أدبيه الصغير والكبير

سعيد حسين منصور
أستاذ بقسم اللغة العربية جامعة قطر

نريد أن نبدأ هذا البحث بما انتهى اليه أحمد أمين في آخر حديثه عن ابن المقفع في ضحى الاسلام ليكون ذلك في الوقت نفسه امتدادا لبحث سابق[١] عن دور العقل في أدب هذا الكاتب الأديب المفكر كما يمثله كتاب الأدب الصغير . . غير أننا ننتقل هنا نقلتين ، نقلة من العقل الى الدين . ونقلة أخرى لتضم الأدب الكبير الى الأدب الصغير ولانريد هنا أن نتجاوز هذا القدر الى غيرهما من كتابات ابن المقفع لأسباب كثيرة تتضح لنا خلال خطوات البحث غير أن الذي لابد أن نشير اليه الآن من هذه الأسباب أن الكتابين يشملهما لون من ألوان الوحدة الفكرية يصطبغ بروح واحدة تسري عبر كلماتها ، لاشك أنه اذا كان يطبع كتابات ابن المقفع بطابع عام الا أنه يتبلور في الكتابين على نحو خاص . . هذا سبب أول . . وسبب ثان يتمثل في صعوبة القضية . . قضية الدين في فكر ابن المقفع . . فهي قضية شائكة معقدة محيرة الى أبعد حد . . تضاربت فيها الآراء وكثرت فيها التهم في القديم وفي الحديث أيضا . . واذا كانت في القديم قد أدت الزندقة بحق أو بغير حق الى مقتله . . وتناقلتها الروايات والأخبار مما حشدته الكتابات الحديثة في كل كتاب أو فصل أو مقال أو مجموع من الصفحات يتناول ابن المقفع من قريب أو بعيد . اذا كان هذا شأن القضية في القديم فهي في الحديث قد اختلف الباحثون في أمرها أيضا . . وان كان منهم من دافع عن الرجل خاصة أنه لم يعلن اسلامة الا في مرحلة متأخرة من حياته . . ونحن لانريد أن نخوض في هذه الامور كلها الآن ، وان كنا قد اتفقنا على أن تكون نقطة بدئنا هي ما انتهى اليه أحمد أمين في قوله عن ابن المقفع :

---

(١) دور العقل في أدب ابن المقفع - حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر (الدور السادس - ١٤٠٣/ ١٩٨٣) - ص١٣٥ - ١٦٥

« ان نبله وعلو خلقه أتيا من طريق الفكر والفلسفة ، لا من طريق الدين ، ورجال الخلق قد يكون خلقهم تدينا ، وقد يكون خلقهم تفلسفا . فأخلاق الحسن البصري العالية ـ مثلا مبعثها الدين ، يتجلى ذلك في حكمه وأقواله وسيرته . فهو يصدق ويحسن ويعدل لأن الله أمر بالصدق والعدل والاحسان ، أما ابن المقفع فباعثه الخلقي فلسفي ، يصدق لأن في الصدق شرفا ورفعة ، ولو لم يأمر به دين لكان في نفسه حسنا ! يظهر ذلك في حكمه ، فقل أن يستند في قوله الى آية أو حديث ، وانما يعلل ذلك تعليلا عقليا ، فهو رجل مدني وعالم مدني ، لا رجل دين ولا عالم دين . يتجلى في أقواله ايمان بالله ، وايمان بدين ، لكن لايتجلى فيها ايمان بتفاصيل دين [٢] .

نريد أن نضع هذا كله على بساط البحث ، وأن يكون بذلك منطلق نظرنا في الأمر . . وأن ينحصر النظر في الأدبين كما ذكرنا ، عسى أن تتضح الملامح في دائرة أحكمت ، حلقاتها اذ لاشك أن الامور تشتبه وتختلط اذا تركناها تتسع على مساحة أوسع . . والقضية شائكة . . وان كانت المساحة كلها لابد أن يشملها النظر . . وتحتاج المساحة اذن الى أن ترتب عبر مراحل . . وأن تتدرج الخطى في كل مرحلة منها . . فليكن أول ما يكون النظر في أمر الخالق والمخلوق .

(١)

من أول الأمور التي تشغل تفكير ابن المقفع في الأدبين قضية الخلق ، بل ان قلمه ليلهج بذكر الخالق والمخلوق . . وليس الخالق سبحانه في عقيدة الكاتب المفكر غير الله تعالى . . قدرت قدرته على الخلق . . فكان المخلوق . . ولا يبدأ كتاب الأدب الصغير الا بهذا . . فيسطر أول كلمة فيه على هذا النحو يقول :

« أما بعد ، فان لكل مخلوق حاجة ، ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلا ، والله وقت للأمور أقدارها ، وهيأ الى الغايات سبلها ، وسبب الحاجات ببلاغها » [٣] .

ولا نكاد نمضي في قراءة هذا النص بعد ذلك أسطرا قليلة حتى نرى الأشياء في الخلق لاتحدث الا باذن الله وحده . . فهو جل شأنه صاحب الاذن والأمر والقدرة ، ولاتحدث القوة والحياة في الحبة المدفونة في الأرض ولاتخرج الحياة من يبسها الا باذن الله يقول بن المقفع :

«فكما أن الحبة المدفونة في الارض لا تقدر على أن تخلع يبسها ، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونمائها ، الا بمعونة الماء الذي يغور اليها في مستودعها ، فيذهب عنها أذى الموت ويحدث لها باذن الله القوة والحياة ، فكذلك سليقة العقل . . . » (ص ٥) .

وابن المقفع في هذا انما يقتبس من قوله تعالى في كتابه الكريم :

« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »
(سورة يس ٨٢)

« كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله »
(سورة آل عمران ٤٩)

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه)
(سورة الأعراف ٥٨)

واذا كان كل مايحدث انما يكون باذن الله ، فانظر بعد ذلك خاصة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة :

(٢) ضحى الاسلام ـ الجزء الأول (بيروت ـ الطبعة العاشرة) ـ ص ٢٢٧ .

(٣) رسائل البلغاء ـ تحقيق محمد كرد علي ـ (القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٦٥ /١٩٤٦) ـ ص٤ (ستكتب أرقام الصفحات بعد النصوص المأخوذة من هذه الرسالة) .

« ولا حبة في ظلمات الأرض ولارطب ولايابس الا في كتاب مبين »

(سورة الأنعام ٥٩)

ويظهر من هذا أن الحبة المدفونة في الأرض كما جاءت عند الكاتب ليست غير الحبة في ظلمات الارض كما وردت في الآية الكريمة ، وهي لم تخلع يبسها عنده الا لأنها جاءت في الآية يابسة وقد رأينا أن العقل نفسه عند ابن المقفع لايعمل الا تحت ضوء الدين ، فهو يعمل باذن الله وأمره ، يقول :

والعقل باذن الله هو الذي يحرز الحظ . . . » (ص١٧) فلولا اذن الله وأمره للعقل أن يعمل ، ما بدأ العمل ولا سار فيه ولايخرج هذا كله عن الرؤية الاسلامية في شيء ، على نحو مايمضي بعد ذلك في قوله :

« وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتهم علمها الا من قبل العليم الحكيم » (ص٥)
فابن المقفع في هذا لايقول الا بما جاء في قوله تعالى :
« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

(سورة البقرة ٣٢)

وقوله تعالى :
« ولايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء »
(سورة البقرة ٢٥٥)

وبذلك تسلك الأساليب البلاغية والصور البيانية القرآنية طريقها الى أسلوب الكاتب ، لا لتوجه فنه الأدبي من ناحية الشكل فحسب ، بل لتعينه على بلورة الفكرة أيضا من ناحية المضمون ، والفكرة هنا فكرة دينية . ولتنظر معي بعد ذلك في قوله :

« وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة ، وسلكت سبلا جعلها الله ذللا ، فصار ذلك شفاء وطعاما وشرابا منسوبا اليها ، مذكورا به أمرها وصنعتها » . (ص ٦) .

مرة أخرى يندرج موضوع النحل هذا في صميم عملية الخلق التي نقف عندها ، واذا كنا قد وصلنا مع الخلق الى دائرة النحل ، فانظر الى قوله تعالى :

وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون »

(سورة النحل ٦٨ ، ٦٩)

فهل خرج قول ابن المقفع هنا عن كلام الله تعالى في شيء ، أليست الفاظ المعجم القرآني نفسها هي التي استخدمها ؟ بل هو المعنى بعينه ، الا يتبع هذا أن تكون هي العقيدة الدينية التي نص عليها القرآن في قضية الخلق ؟!

وفيما يخص قضية الخلق أيضا يعرض ابن المقفع لاثبات وجود الله والسبيل الى معرفته عن طريق دلالة الخلق على الخالق . . وسنرى من النص الآتي أنه يتضمن نفيا لقدم العالم ومعارضة الدهرية ، حتى هؤلاء الذين أصابهم الشك في الله تعالى لايرى ابن المقفع الا أنهم قد أقروا بانهم أنشئوا حديثا . . فهذا هو السبيل الموصل عنده الى الحق . . والحق هو الله تعالى . . يقول في الأدب الصغير :

« مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان ، أن وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا ، صغير أو كبير ، عينا فهو يصرفه ويحركه . فمن كان معتبرا بالجليل من ذلك فلينظر الى السماء فيعلم أن لها ربا يجري فلكها ، ويدبر أمرها ، ومن اعتبر بالصغير فلينظر الى حبة الخردل فيعرف أن لها مدبرا ينبتها ويزكيها ، ويقدر لها أقواتها من

الأرض والماء ، يوقت لها زمان نباتها وزمان تهشمها ، وأمر النبوة والأحلام وما يحدث في أنفس الناس من حيث لايعلمون ثم يظهر منهم بالقول والفعل ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى وتعظيمه ، واجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الاقرار بانهم أنشئوا حديثا.ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم . فكل ذلك يهدي الى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور ، مع مايزيد ذلك يقينا عند المؤمنين ، بأن الله حق كبير ، ولايقدر أحد أنه باطل » .

(ص ٢٢-٢٣) .

لايحتاج هذا النص على نحو ما نرى الى كبير جهد لرؤ ية الأثر القرآني في أسلوبه وبلاغته ، وفي فكره وفلسفته معا ، من تأمل في الكون وتحليق في أرجائه من السموات الى الأرض بل من فلك السماء الى حبة الخردل . . من أجل الاهتداء الى الصانع الأكبر ، عالم الغيب ، مدبر الأمر ، وبهذا يصل ابن المقفع الى معرفة الله ، والايمان به . . مثلما جاء في قوله تعالى :

« ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

(سورة يونس ٣)

« وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور »

(سورة البقرة ٢١٠)

« والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

(سورة البقرة ٢١٣)

ومن صور الايمان بالغيب يذكر ابن المقفع في النص السابق مسألة النبوة والأحلام ، فهو يؤمن بالنبوة وان لم ينص هنا على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكنه يقرن النبوة بالأحلام تمشيا مع الفكرة الاسلامية ، اذ يروي البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين « أنها قالت أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤ يا الصالحة في النوم فكان لايرى رؤ يا الا جاءت مثل فلق الصبح »[٤] والحديث الشريف أيضا يقول :

« الرؤ يا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » [٥]

وتتمثل في النبوة اذن وفي الأحلام والرؤ ي الصادقة صور العلاقة التي تربط بين الخالق والمخلوق ، كما تبدو في نظرة ابن المقفع الى الوجود

(٢)

نصل من هذا بعد قضية الخلق واثبات وجود الخالق الأعظم ، والايمان بالغيب ، الى العلاقة بين الخالق والمخلوق ، تلك العلاقة التي لاتقوم عند ابن المقفع إلا بالدين فلا يعني الدين عنده سوى أن يكون حبلا جعله الله ليعتصم الناس به ، والانفكاك عن هذا الحبل عنده أيضا لاشك يلقي بالانسان من حالق ، فلا يدري بعد ذلك أين يكون موضع قدمه . والكاتب الأديب المفكر حين يقدر العقل حق قدره لاينفصل به عن حظيرة الدين ، أو يبتعد عنه . وها هو ذا يتبلور مفهوم الدين واضحا في هذه الصورة حين يقول :

« الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه ، وأعظمها منفعة ، وأحمدها في كل حكمة ، فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحا على ألسنة الجهال على جهالتهم بهما وعماهم عنهما » .

(ص ٢٠)

فما دام الدين هبة من الله تعالى كما يرى ابن المقفع يمنحها للانسان ليربط به ما بينه وبين خالقه برباط

---

(٤) صحيح البخاري ـ (دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ بدون تاريخ) ج ١ ص ٣ .

(٥) صحيح مسلم ـ الجزء الرابع ـ (دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢) ـ ص ١٧٧٣ .

وثيق ، فهو اذن هبة إلهية ، أو هو صنع رباني ، وليس نتاج عقل انساني ، فالعقل البشري لايستطيع أن يشرع لنفسه الدين ، بل ان محاولة ذلك لاتؤدي الا إلى فقدان الدين . يقول :

« فصل مابين الدين والرأي أن الدين يسلم بالايمان ، وان الرأي يثبت بالخصومة . فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأيا ، ومن جعل الرأي دينا فقد صار شارعا ، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له » . ويقول :

« قد يشتبه الدين والرأي في أماكن لولا تشابهها لم يحتاجا الى الفصل » . (ص ٢١) .

هذه قضية سبق أن عرضنا لها وبينا أن ابن المقفع ـ على عكس ما كان يظنه الكثيرون ـ يرفض الشريعة العقلية [٦] . ولكننا ونحن نترك جانب العقل هنا لننتقل الى جانب الدين لانرى الا أن الفكرة الدينية تتغلغل في ذهن الرجل كما تعانق عقيدته وتتعلق بايمانه . ونحن لانفعل سوى أن نستخلص من الكلمات معناها ، وأن نستشف من هذا المعنى ما يمكن أن يكون وراءه من أشياء ، لانضيف اليه شيئا من هنا أو هناك ، أو نقتطع جزءا من شيء وضعه الكاتب في موضعه غير مقتطع ، غير أننا بطبيعة الحال نعمل على تنظيم الأفكار وتنسيق هيكلها وبناء طبقاتها طبقة فوق طبقة عسى أن تعيننا هذه المحاولة على اعادة بناء التفكير الديني عند ابن المقفع بما يمكن من التوصل الى حقيقة الرؤية الدينية عن,ة ومداها وابعادها وهو انما يؤكد على هذا بما لايختلف كما نرى ـ على أقل تقدير ـ عن الرؤية الاسلامية . وها هو ذا يوطد العلاقة الدينية بين الانسان وخالقه ، وهي علاقة بين العبد والرب المعبود ، وهو اذ يجعل للعاقل ساعات أربع يقسم وقته بينها ، يكون أولها : « ساعة يرفع فيها حاجته الى ربه » (ص١٣) .

ومن هنا لايكون الانسان عاقلا الا اذا اتصل بالله . ويقول :

« قد بلغ فضل الله على الناس من السعة ، وبلغت نعمته عليهم من السبوغ ، مالو أن أخسهم حظا ، وأقلهم منه نصيبا ، وأضعفهم علما ، وأعجزهم عملا ، وأعياهم لسانا ، بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص اليه من فضله ، ووصل اليه من نعمته مابلغ له منه أعظمهم حظا ، وأوفرهم نصيبا ، وأفضلهم علما ، وأقواهم عملا ، وأبسطهم لسانا ، لكان عما استوجب الله عليه مقصرا ، وعن بلوغ غاية الشكر بعيدا . ومن أخذ بحظه من شكر الله وحمده ، ومعرفة نعمة الثناء عليه ، والتحميد له ، فقد استوجب بذلك من أدائه الى الله ، والقربة عنده ، والوسيلة اليه والمزيد فيها شكره عليه ، من خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة» . (ص٢٠)

ويؤكد الكاتب على هذه المعاني الدينية السابقة ، بل انها لتصطبغ أحيانا بصبغة صوفية ، معاني القرب من الله ، وحب الله ، وحب حكمته ، والشكر له ، والطاعة والصلاح ، فلا يكون أحكم الناس الا أبعدهم من الشك في الله ، ولا يكون أصوبهم الا أوثقهم به تعالى ، ولا يكون أحقهم بالنعم الا أشكرهم لما أوتي منها . بل انه يعبر عن معاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي معاني كلها أصيلة في الايمان ، لاتكون الا وليدة الدين ، يقول :

---

(٦) البحث المشار اليه سابقا ـ حولية كلية الانسانيات ـ جامعة قطر ـ العدد السادس ص ١٥٣ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥

« أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح ، أن يستصلح بما أوتي من ذلك من استطاع من الناس ، ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حبّ الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته . . وأقربهم من الله أنفذهم في الحق علما ، وأكملهم به عملا ، وأحكمهم أبعدهم من الشك في الله ، وأصوبهم رجاء أوثقهم بالله . . . . وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها » ويقول : « وليكن شكورا ليستوجب الزيادة » . (ص ٢٠ ـ ٢١ ، ٢٤)

فالكاتب في هذا كله لا يرى الا أن الآيات القرآنية تتلألأ أمام عينيه وهو يسطر كلماته ، « ولأن شكرتم لأزيدنكم » ، في حين أنه المتهم بمعارضة القرآن ، وفي الأدب الصغير وحده أقام الكاتب محرابا من الفكر الديني الذي اذا ما أعيد بناؤه وجدناه يصعد في خط واحد عمودي لا يميل عنه ، ومع أن الادب الصغير وحده ينهض بهذا كله خير نهوض ، فلتنظر معي فيما يقوله الكاتب أيضا في الأدب الكبير ، فلا يكاد يبلؤه بعد مقدمته الا بباب في أصول الأدب في الدين ، وان كان موضوعه قد شغل أكثر ما شغل بغير الدين من أمور ، يقول :

« أصل الأمر في الدين أن تعتقد الايمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لاغناء عنه طرفة عين ، ومن يعلم أنه ان حرمه هلك . ثم ان قدرت على أن تجاوز ذلك الى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل » (ص٤٢) .

واضح أن في هذه الاسطر القليلة ـ على ايجازها ـ شيئا من تفاصيل الدين ، ففيها من مظاهر الايمان الصحيح ، ومن الصواب في الاعتقاد لزوم العبادة ، واداء الفريضة ، وتجنب الكبائر . بل ان في الالتزام بالحدود من الأوامر والنواهي نجاة من الهلاك . ولا يقف هذا عند حد الدعوة الى الاعتقاد في الدين بل يتجاوزه الى الحث على التفقه فيه ، وكلام ابن المقفع لا يعني الا أن المزيد من العلم بالدين يؤدى الى المزيد من الايمان ومزيد من العبادات ، فتتوثق الصلة بين الانسان وخالقه ، وهي صلة وسيلتها الدين ، ومن هنا ترسخ منزلة الدين وتتوطد دعامة ميزانه . وتتعدد صور هذا في أدبه ، ولتنظر في صورة الامام في الدين كيف تكون منزلته ، وعلى أي نحو تكون الحقيقة فيه بما يتصل بمعاني القدوة والأسوة والسيرة ، وهي معان استمدت أول ما استمدت في الاسلام من شخصية رسوله عليه الصلاة والسلام متمثلة في سنته ، لكن ابن المقفع يقول :

« ومن نصب نفسه للناس اماما في الدين ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والاخوان . فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه . فانه كما أن كلام الحكمة يونق الاسماع ، فكذلك عمل عمل الحكمة يروق العيون والقلوب . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم » . (ص١٤) .

فاذا كان في هذا النص السابق أمور تتصل بالاخلاق العملية ، من تمييز بين اللسان والسيرة ، أو بين كلام الحكمة وعمل الحكمة ، فان انتهاء هذا كله انما هو انتهاء الى الدين ، والمثال الذي يحتذي يتمثل في الامام في الدين . واذا لم يكن قد ورد ذكر لفظ القرآن أو ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أو التصريح باسم الدين الذي يتحدث عنه في هذه المواضع الآن ، فان لهذا شأنا

آخر سنراه فيما بعد ، . لكن الذي تراه معي هنا هو أن المعاني قد سبقت الالفاظ ، فقد رأينا المعاني القرآنية بكل ما تنبثق به من فكر وبيان تسبق الاستشهاد بالنص القرآني نفسه من الآيات .

ومن هنا فإنه اذا لم يكن قد جرى فيما مضى من كلامه آي الذكر الحكيم يتلوه لسانه فانه قد سرى في أعماق تفكيره وبجرى لغته ومسالك أسلوبه ليوجه تيار أدبه وجهة لا تختلف عن الوجهة الدينية الاسلامية . واذا كان ابن المقفع قد ذكر أنه وضع في هذا الكتاب أو في غيره « من كلام الناس المحفوظ حروفا ، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجليه أبصارها ، واحياء للتفكير ، واقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق (ص٨) . . مما يمكن أن يكون في كلام الناس هذا من أخذ عن الثقافة الفارسية ونقل عن حكماء الفرس أو من غيرهم ، فان هذا لا يمنع ـ بكل ما رأيناه من أدلة دون أن نقصد الى الاحصاء أو الاستقصاء. أن تكون له ثقافة اسلامية وفكر ديني وأن يقتبس من البلاغة القرآنية وهو الذي لا يكتب الآن الا بلغة الاسلام ولا يعبرالا بالبيان العربي . . ومع هذا كله فنحن لا نقول انه كان عالما من علماء الدين أو أنه كان داعية من دعاته وهو الذي لم يسلم الا في مرحلة متأخرة من حياته . . وانما هو كاتب أديب مفكر كان صاحب فكر ديني لا شك كما كان صاحب فكر اجتماعي وأخلاقي وسياسي كذلك . . ونحن انما نتعرف على وجهة هذا الفكر الديني من خلال تنظيم حركته ورصد اتجاهاته ورد ما يمكن أن يرد منه الى مصادره الاسلامية .

وأنا أرى أنك تريد أن تنكر ذلك لتقيم فكر الرجل على غير هذا كله . . لتقع بذلك تحت تأثير أحكام وأفكار مسبقة . . لكن الذي ينبغي أن أشير عليك به الآن في هذا الموقف كما ينبغي أن يشار اليه في كل موضع هو أنه لا يصح أن تسبق الزمن فتسرع بالخروج على ما سبق بيانه لتحثني بذلك على أن نتعجل الاحكام . . فلا خير في عجلة تؤدى بصاحبها الى فساد الأمر كله . . وقد اتفقنا على أن نسير في الأمر على مهل فنلتزم الاناة مبتعدين تماما عن أي اندفاع . . مما اندفع فيه بعض الدارسين في الحكم على ابن المقفع حتى غدا الأمر يشبه المسرح الذي تتردد في جنباته أصداء الهتاف ورنات التصفيق أو كالزحام الذي تتدافع فيه الأيدي وتتلاطم الاقدام . . وسنرى أمثلة لهذا مما لا يغيب عنك معرفته . . كما لا يغيب عني أنك تريد أن تثير من الاسئلة الآن ما ترى أنه لا بد أن يثار . . لكننا ينبغي ألا نشغل في هذا الموضع بغير ما شغلنا به من كلام الرجل نفسه ، حتى لا تختلط الأمور اختلاطا يسوقنا الى مسرح أو زحام . والذي لا شك فيه أننا ما دمنا قد أخذنا نسير معا في هذا الطريق الذي سار فيه الكثيرون منذ أيام ابن المقفع الى اليوم ، فلا بد اذن والأمر كذلك أن نضيء معا جنبات الطريق ليكون كل شيء أمامنا واضحا غير مظلم . . وان كان هذا لا يعني أن تكون وسائلنا في اجتياز الطريق ينبغي أن تكون هي بالضرورة وسائل الأخرين ممن دافع عن الرجل أو ممن اتهمه أو ممن أغلظ في التهمة حتى قتل فكر الرجل مقتلا فوق ما كان من بشاعة مقتله . الا يكون إذن من حق الحقيقة أن تعيد النظر معي في هذا الفكر بصبرك وأناتك دون أن ندافع عنه من حيث أسباب دفاع أو نتهمه حيث لاتكون دواع لتهمة ، عسانا نستطيع أن نقيم البناء على أساس من خطة أو رسم جديد ، وكل محاولة قد يفشل المرء فيها وقد لايكون مآلها الفشل ، لكنك توافقني على أن الخوف من ذلك ان كان ثمة خوف لاينبغي أن يحول بيننا وبين أن نحاول ، وسبيلنا في ذلك كله لا يخرج عما سرنا عليه من قبل من اعمال ما أمكن من طرائق الفهم أو التفهم

واستخدام وسائل الاستقراء والاستنباط وأدوات البناء الفكرية المختلفة قدر ما يمكن عمل ذلك والقيام به .

ولقد شغل ابن المقفع كما رأينا بمنزلة الدين ، ورأى الدين أدق ميزان للعمل في الحياة ، لا تنحرف به كفة ، أو تميل به الى غير ما ينبغي أن ترجح به على الأخرى ، فهو مقياس لا يخيب ولا يفسد عمله ، عمله عمل دائم ، واحصاؤه دقيق ، ومع هذا فهو لايبلى على الدهر . لذلك كان لا يحيا المرء عنده في الحياة الا بدينه وعقله ، والعقل عنده لا يكون الا عقلا هذبه الدين ونماه وهداه ، ولا يمكن أن يكون الدين عنده في واد والعقل في واد آخر ، وانما لا يرى العقل الا في موقعه في رحاب الدين ، وهو هو العقل نفسه الذي مجده ابن المقفع وأطال الوقوف عنده ، غير أن العقل ما كان ليعمل أو يشع منه ضوء دون أن يكون قد استمد هذا الضوء نفسه من الدين ، وهو في اختزان هذا الضوء واحتفاظه به والحرص عليه والامتثال له والصدور عنه والانبثاق منه ، انما يسلم من الآفات سلامة الدين منها وسلامة العقل كذلك . ومن هنا لا تكاد تختلف الآفة التي تؤدي الى هلاك الدين عن الآفة التي تؤدى الى هلاك العقل . يقول :

«كان يقال : عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى ، والهوى آفة العفاف ، وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون ، والتهاون آفة الدين ، واقدامه على ما لايدري أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل » . (ص٢٧)

ومن هنا كان حرص ابن المقفع على العلم بالدين يهدف الى حفظ الدين من كل شائبة تشوبه ، حتى أنه ليعدد آفات كل شيء كما سبق ، فلا يرى آفة الدين شيئا غير التهاون ، فإذا جاز التهاون في أي أمر من أمور الحياة فإنه لا يجوز التهاون في أمر الدين . ويقول :

« فضل العلم في غير الدين مهلكة ، وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد الى النار ، والحفظ الذكي الواعي بغير العلم النافع مضر بالعمل الصالح ، والعقل غير الوازع عن الذنوب خازن للشيطان » . (ص٣٢)

ويقول :

« ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا » (ص٨)

وقد رأينا من قبل دعوته الى التفقه في الدين ، وان كان العلم الذي يصلح به الدين لا يتنافى مع العلم الذي تصلح به الدنيا ، لكن هذا لا يمنع من أن يكون للآخرة علمها ، وأن يكون للدنيا علمها : يقول :

« من اراد أن يبصر شيئا من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك ، ومن أراد أن يبصر شيئا من علم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه » . (ص٢٤)

ويقول :

« ليكن المرء مسئولا ، وليكن فصولا بين الحق والباطل . . وليكن ذا حياء لئلا يستذم للعلماء ، فإن مخافة العالم مذمة العلماء أشد من مخافته عقوبة السلطان » . (ص٢٥)

والعلماء الذين تخاف مذمتهم ليسوا عنـده الا علماء الدين ، أو هم الاتقياء على نحو ما يعود بعد ذلك فيقول حين يضع الأتقياء قبل غيرهم من الناس :

« لا يستخدم ذو العقل بأحد ، وأحق من لم يستخف بـه ثـلاثـة : الأتقيـاء ، والـولاة ، والاخوان . فانـه من استخف بالاتقيـاء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالاخوان أفسد مروءته » . (ص٢٩) .

بـل أنه حين يصنف أصحاب السلطان من الملوك لايـراهم الا ثلاثـة ، ولا يكون أولهم الا ملك دين ، يقول في الأدب الكبير :

« اعلم أن الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى . فأما ملك الدين فانه اذا أقام لأهله دينهم ، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم ويلحق بهم الذي عليهم ، أرضاهم ذلك ، وأنزل الساخط منهم بمنزلـة الراضي في الاقرار والتسليم . . . . » . (ص٤٩)

ويقول في آداب السلطان :

« لتكن حـاجتـك في الـولايـة الى ثـلاث خصال : رضى ربك ، ورضى سلطان ان كان فوقك ، ورضى صالح من تلي عليه . ولا عليك أن تلهى عن المال والذكر ، فسيـأتيك منهـما ما يكفي ويـطيب . . . » ويقول : « اعـرف أهـل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة ، فيكونوا هم اخـوانك وأعـوانك وبـطانتك وثقـاتك » . (ص٤٥)

والمروءة اذا لبست زي الدين لم تكن في الاسلام شيئا غير التقوى ، فقد عرفت الجاهلية المروءة . . . لكنها لم تعرف التقوى . . والدين والمروءة الآن عند ابن المقفع توأم متجانس ، لا يصلح عقل بغيرهما ، فهو يقول في الأدب الصغير :

« أمور لا تصلح الا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع . . ولا المروءة بغير تواضع . » .

ثم يقول :

« أمورهن تبع لأمور ، فالمروءات كلها تبـع للعقل » . (ص٢٨)

واذا كان للدين أهله فإن للدين كذلك اخوانه ، وهم عند ابن المقفع أفضل الاخوان ان كنت تبحث في أمر الاخاء لتبتعد عن صداقة السـوء . . يقول في الأدب الكبير :

« اذا نظرت في حال من ترتئيه لاخائك ، فإن كان من اخوان الدين فليكن فقيها ليس بمراء ولا حريص ، وان كان من اخوان الدنيا فليكن حرا ليس بجـاهـل ولا كـذاب ولا شـريـر ولا مشنوع . (ص٧٧)

هذا وأنا أعلم ما سيدور بخلدك حين تنظر في ذكره لاخوان الدين ، فستقول انه يـذكر اخـوان الدين ولا يصرح بذكر المسلمين ، فأي دين ذلك الذي يتحدث عنـه ؟ ولكنك لا تنس أنـه يوازن بـين اخوان الـدين واخوان الدنيا ، فالمقابلة في الأصل بين هؤلاء وأولئك وأهـل كل منهـما . . وان كنت لا زلت أرى أن قضية التصريح أو التلميح هذه من الأمور التي لا زالت قيد بحث ، وموضع نظر . . ولم العجلة مما لا يمكن أن نصل منه الى شيء . . الا اذا أردت أن تسرع الخطو لتعود بنا من حيث أتينا ، وما هذا الذي أرتضيـه أو ترتضيـه . وعلى ذلك فإن عليك أن تنظر كذلك في قوله :

« لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبدا ،
ولكنه لايزال اما زائدا واما
ناقصا » . (ص٢٦) .

ان نظرك في هذا القول لا شك يثير أشياء كثيرة ، غير أنني هنا سأعفيك من القول وقد استجبت لما طلبته منك . . ولم أكن أريد كما عرفت منذ أول هذا الحديث أن أشغلك بالآراء والأحكام التي طالما أسرع الباحثون للادلاء بها والتوصل اليها والتأكيد عليها . . لكنني وقد أعفيتك من القول سأدعك تستمع معي الى مثال من أمثلة تلك الآراء والاحكام ، ويحسن أن نضع الصورة بكاملها - ما أمكن - حين نظر الدكتور عبد اللطيف حمزة في هذا الأمر الذي نحن فيه ومضى ليقول (٧) :

أما كتاب « مزدك » فقد نسب في الفهرست الى ابن المقفع . وقيل أن أبان بن عبد الحميد اللاحقي قد نظمه كما نظم « كليلة ودمنة » . ثم لا يكاد الباحثون يعلمون عنه فوق ذلك شيئا . ومن أجل ذلك آثرت أن أشير اليه فيما أشير اليه من الآثار التي يمكن أن تكون موضعا للشك . ولست أدري علام اعتمد العلامة « نولدكه » - كما نقل عنه ذلك الاستاذ « براون » في كتابه تاريخ الأدب الفارسي - حين قال الأول « انه كتاب أدب وضع للتسلية ويعتبر بمصاف كليلة ودمنة ولا تضر قراءته مسلما » . لست أدري - في الحق - كيف قال هذان العالمان الكبيران ذلك . والى أي شيء استندا في هذا القول . والكتاب نفسه مفقود ، ولم يكد يشير اليه مصدر من المصادر القديمة عدا الفهرست . وغاية القول عندي في هذا الكتاب أن اسمه قد يدل عليه ، ومن يدري لعل ابن المقفع كتبه في الفترة التي كان يستعرض فيها الاديان دينا دينا . وهو بسبيله - كما ذكرت ذلك من قبل - الى البحث في هذه المشكلة الهامة التي شغلته وهي مشكلة « حرية الارادة » . فهل صحيح أن الانسان يعتبر حرا في ارادته فهو مسئول حقا عن هذه الأفعال التي تصدر عنه وهو يختار لنفسه هذه الأفعال ولا يختارها الله له ؟ يظهر أن ابن المقفع كان يلقي على نفسه حينا بعد حين مثل هذا السؤال . ويظهر أنه كان حريصا في هذه الفترة على أن يسجل نزعاته تسجيلا دقيقا يستفيد منه في الوصول الى حل واضح لهذه المشكلة التي أثارها على هذا المثال . ومن يدري لعله ابتدأ بالاسلام ، وهو دين الدولة ، فعرضه على عقله وكتب في فضائله ؟ ثم نظر في المزركية وهي دين آبائه وأجداده فكتب مثل هذا الكتاب الذي ساقنا مرة أخرى الى الكلام في الزندقة ، ومن يدرى لعله بعد ذلك لم يشأ أن يقنع بجواب عن هذه المسألة في هاتين الديانتين ، وانتهى به الأمر الى أن كتب في « المانوية » فجاءت كتابته في هذه الديانة دالة على ارتياحه اليها ، وظفره فيها بالجواب الذي أراد ؟ ولا تعجب أن تمر بالرجل كل هذه الاطوار فهو القائل في كتابه « الأدب الصغير »

« لايثبت دين المرء على حال واحدة أبدا ،
ولكنه لا يزال اما زائدا واما
ناقصا » . (ص٢٦) .

وبذلك نكون قد عدنا الى عبارتنا ، وبعودتنا اليها بعد كل ما مربنا لا شك أنك ستعجب معي من كل ما رأيته من افتراضات لاطائل وراءها يتلو بعضها بعضا دون أن تؤدى الى شيء يمكن الافادة منه . واذا كان الأصل في الكلام السابق هو كتاب « مزدك » فان الكاتب نفسه قد صرح أنه يشير اليه - والكتاب مفقود - باعتباره من الآثارالتي يمكن أن تكون موضع الشك . .

---

(٧) ابن المقفع (القاهرة - الطبعة الثانية) - ص١٥٧ - ١٥٨ .

وكان هذا الشك كفيلا في أن يحول بيننا وبين أن نمضي طويلا في مثل هذه الافتراضات . . وأما بحث ابن المقفع في الاديان واستعراضها دينا دينا ، ثم بحثه في المشكلة الهامة التي كانت تشغله وهي مشكلة حرية الارادة . . فليس بين أيدينا شيء يمكن أن يدل على ذلك . . فالترجمات التي تنسب الى ابن المقفع هي أعمال قصد منها الترجمة ، أما ما وصلنا من كتابته مما يمكن أن يكون من تأليفه فليس فيه ما يدل على حيرة في مشكلة حرية الارادة . . فقد رأينا ابن المقفع يمجد العقل ورأيناه يعمل على تأديبه وتهذيبه حتى يحقق بصحته وسلامته وعمله في ظل الدين صلاح الدين والدنيا ، ومعنى ذلك كله أنه كان يرى أن الانسان حر في ارادته وأنه لم يكن ليقبل شكلا من أشكال العقيدة الجبرية وهو الذي آمن بالثواب والعقاب وآمن بالجنة والنار وأن في قدرة الانسان التي وهبها الله اياه أن يختار الانسان طريق الصلاح أو غير هذا الطريق . بل انه كان يؤمن بالغيب كما رأينا ، ويؤمن من صور هذا الغيب بحقيقة الشيطان ، وما يحث عليه من ذنوب تسوق الانسان الى جهنم . . يقول في الأدب الصغير :

« حياة الشيطان ترك العلم ، وروحه وجسده الجهل ، ومعدنه في أهل الحقد والقساوة ومثواه في أهل الغضب ، وعيشه في المصارمة ، ورجاؤه في الاصرار على الذنوب » . (ص٢٥) .

ويقول : « ليكن المرء سئولا ، وليكن فصولا بين الحق والباطل . . وليكن ودودا لئلا يكون معدنا لأخلاق الشيطان » . (ص٢٤) .

ويقول : « أشجعهم أشدهم على الشيطان ، وأفلحهم بالحجة أغلبهم للشهوة والحرص ، وآخذهم بالرأى أتركهم للهوى ، . . . . وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتى منها » . (٢١) .

ومن كان هذا قوله لا يمكن إلا أن يكون رأيه هو الرأى القائل بحرية الارادة ، فالاستطاعة عند الانسان قادرة إذا أراد أن تغلب الشهوة والحرص ، وأن تأخذ بالرأى وتترك الهوى ، وأن تفصل بين الحق والباطل ، فتتبع الحق إذا أرادت وتترك الباطل إن شاءت ، وهى بعد هذا كله شديدة على الشيطان قادرة عليه ، لأن الله تعالى وقد خلق الشيطان فقد خلق في الانسان العقل المهتدى القادر على اختيار طريقه فلا يندرج في حزب الشيطان أو يتبع هواه . والذى بين أيدينا من كلام ابن المقفع يدل على ذلك ، بل إن الأدب الصغير والأدب الكبير والآداب كلها ليست إلا غذاء يقوِّم به الكاتب العقل ليعينه على المضى في طريق الصلاح ، هذا فيما يخص العقل ، وأما فيما يخص الدين فهو ما نحن فيه منذ بدأنا القول فيه ، وسنرى بعد قليل كيف يعرض ابن المقفع لأمر النفس في مجاهدتها الأهواء وصراعها معها ، مبينا السبيل الذى تستطيع بسلوكه أن تنجح في ذلك . . وهو السبيل نفسه الذى تسلكه حرية الارادة .

ولقد كنت حريصا منذ بدأت معى النظر في القضية أن نمضي معا في محاولتنا حتى نفرغ من إعادة البناء الفكرى عند ابن المقفع استنادا إلى ما يقوله الرجل من ناحية واعتماد ا على استخدامنا لأدوات البناء من ناحية أخرى دون أن ندخل في شيء من ذلك الزحام الذى سبقت الأشارة اليه ، غير أن مثالا صغيرا كهذا ربما يزيل عنك بعض الشكوك التى قد تعترض الطريق لنمضى بعد ذلك فيما نحن فيه ، وقد رأيت أن هذا المثال أخذ يفترض أن ابن المقفع ابتدأ « بالاسلام » وهو دين الدولة فعرضه على عقله وأنه نظر بعد ذلك في « المزدكية » وهى

دين أجداده فكتب كتاب مزدك - وهو موضع شك - مما قاده إلى الزندقة ، ثم لما لم يقنعه هذا ولا ذاك ، كتب في « المانوية » « فجاءت كتابته في هذه الديانه دالة على ارتياحه إليها وظفره فيها بالجواب الذي أراد » . ولكن الذي نعرفه مما ذكرته المصادر القديمة ورددته المراجع الحديثة أن ابن المقفع نشأ مانويا أو مجوسيا ثم أعلن إسلامه في قصة كثر ترددها ، فاهتداؤه إلى الاسلام كان آخر ما توصل إليه ، وربما أمكننا التوصل إلى شيء من ذلك في محاولة الاقتراب من الحقيقة استنادا إلى ما بين أيدينا من النصوص ، على ما يكتنف هذا بطبيعة الحال من صعاب .

أما عبارة ابن المقفع السابقة في عدم ثبات دين المرء على حالة واحدة وتعرضه للزيادة والنقصان ، ليس هذا دليلا على مروره بهذه الأطوار العقائدية التي سبق تصورها ، وإنما فيها دليل على تلك القضية التي كان قد بدأ يجادل فيها علماء الكلام حينما دار الجدل في مسائل العقيدة . . مما عاصره ابن المقفع . . والقضية هي قضية الايمان فيما إذا كان شيئا ثابتا بمعنى أن يكون إيمانا أولا يكون ، أو أن يكون شيئا متغيرا يقبل الزيادة والنقصان . وفي آيات القرآن ما يشهد بصحة ما ذكره ابن المقفع ، إذ نقرأ قوله تعالى « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » (سورة الفتح ٤) فإيمانهم اذن لم يثبت على حال واحدة ، وإنما قبل الزيادة ، فازدادوا إيمانا ، مع أنهم كانوا قبل الزيادة في إيمانهم مؤمنين . وقول ابن المقفع في العبارة السابقة لا يعكس شيئا غير هذا ، ولا علاقة له بأية أطوار أو شكوك دينية يفترض المفترضون أن يكون قد تنقل بينها .

وما دمنا قد طرقنا هذا المثال ، فلنمض معه إلى آخره حيث يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : « ثم هو القائل في نفس الكتاب (أي الأدب الصغير) ، وقد أتعبه الشك وأضناه العذاب : « المؤمن بشيء من الأشياء وإن كان سحرا خير ممن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معادا » (رسائل البلغاء ص ٢٥) . فما أقرب الشبه بين ابن المقفع في هذا الكلام وبين أحد فلاسفة الاسلام ، وكان ممن يصطنعون الشك في تفكيرهم وفلسفتهم ، حتى كاد الشك أن يضلهم ويذهب بعقولهم ، فصاح في نفسه قائلا « اللهم إيمانا كإيمان العجائز » .[٨]

ليس في قول ابن المقفع هذا ما يصور شكا كاد أن يضله ويذهب بعقله حتى تمنى إيمانا كايمان العجائز ، لأن كل ما بين أيدينا إنما يدل على أن إيمان ابن المقفع كان يستند إلى العقل ويحكمه الدليل والبرهان ، وقد رأينا كيف حلق في فضاء الوجود ليصل من ذلك إلى الخالق الأعظم ، وكيف آمن بالغيب وذكر النبوة والأحلام وأكد العلاقة بين الخالق والمخلوق واعتبر « الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه » . ومن هنا فلا تشابه بين ابن المقفع في هذا وبين أحد فلاسفة الاسلام مما كانوا يصطنعون الشك في تفكيرهم وفلسفتهم . هذا شيء ، وأما الشيء الثاني ، فليس في قول ابن المقفع ما يدل على أن الشك قد أتعبه وأن العذاب قد أضناه ، وقد رأيناه يقول في هدوء في نفس الكتاب ، ولعل الموقف يستدعي أن نعيد قوله :

« مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان . . . . اجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الاقرار بأنهم أنشئوا حديثا ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم فكل ذلك يهدي إلى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور ،

(٨) ابن المقفع - ص١٥٨ - ١٥٩ .

مع ما يزيد ذلك يقينا عند المؤمنين ، بأن الله حق كبير ، ولا يقدر أحد أنه باطل » . ص ٢٢ - ٢٣

كل هذا ورد في الأدب الصغير ، ومن هنا فإن هذه العبارة من كلام ابن المقفع تلك التي أدت إلى مثل هذا التصور البعيد للشك الذي أتعبه والعذاب الذي أضناه لا يمكن إلا أن يكون مضمونها عكس ذلك تماما ، فابن المقفع يجادل هؤلاء الذين أتعبهم الشك وأضناهم العذاب ، فهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعتقدون الآخرة ، وإنما يؤمنون بالدهر بمعنى أنهم لا يؤمنون بشيء ، وهم مثل هؤلاء الذين صورهم الله تعالى في قوله : »

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)

(من سورة الجاثية ٢٤)

يجادل ابن المقفع إذن هؤلاء ليوازن بين أمرين حتى يضعهم أمام أنفسهم ليروا حقيقة ما هم فيه من ضياع . ذلك أنهم وهم لا يؤمنون بشيء ولا يرجون معادا سيجدون خيرا منهم أولئك الذين يمكن وضعهم في أدنى الدرجات لأنهم قد آمنوا بشيء من الأشياء وإن كان سحرا . . ومن هنا يصبح الذين لا يؤمنون بشيء في الدرك الأسفل من الحضيض ولا يسعنا إلا أن نمضي مع ابن المقفع وهو الذي كان يرجو معادا لنرى صورة الطريق في عينه من المعاش إلى المعاد

(٣)

يشمل الوجود في عقيدة ابن المقفع حياتين : الحياة الدنيا الظاهرة التي لا يجادل أحد في أمرها شيئا ، والحياة الآخرة في الغيب التي يؤمن بها المؤمنون وينكرها الجاحدون والدهريون . . مما يتصل بقضية الخلق التي مرت بنا . ولقد كان في عقيدة الرجل إيمان بالغيب شهدناه في مثل قوله :

« مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان ، أن وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا ، صغير أو كبير ، عينا فهو يصرفه ويحركه » (ص ٢٢)

فصاحب هذه العيون هو الله علام الغيوب ، « **عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم** » (سورة الحشر ٢٢) ، ومن هذه العيون المحركة المتصرفة مفاتح الغيب « **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو** » (سورة الأنعام ٥٩) ، « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا** » (سورة الجن ٢٦)

وإذا كان العلم المادي تدركه الحواس ، فإن عالم الكائنات اللامرئية هو من الغيب الذي إن غاب عن الحس فهو لا يغيب عند ابن المقفع عن دائرة الايمان . . ولهذا كله تنقل تفكيره الديني في حركة دائبة نشطة قوية ما بين الدنيا والآخرة ، أو بين المعاش والمعاد ، أو ما بين الظاهر والغيب ، في صورة واحدة لا يفصلها إلا ليجمع بينهما ، ولا يفرق بين هذا وذاك إلا ليسلك بهما سبيلا يدرج به الخطو من هنا إلى هناك . . « **ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا** » (سورة الاسراء ٧٢)

وعند كل نقطة على طريق الحركة المستمرة يوازن ويميز ، لا يلقي بنظرته يمنة إلا لتكون في اليسار نظرة أخرى ، في نقلة سريعة تقابل بين هذه وتلك . . (**وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور**) (سورة فاطر ١٩ ، ٢٠) (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) (سورة فصلت ٣٤) .

ومن هنا تبلورت في فكر ابن المقفع المفاهيم الدينية في أدبه جميعا متتابعة متلاحقة لتكسو المعاني الأخلاقية ببردة

قرآنية امتزجت بالآيات الكريمة ، وصبغت بألوانها ، دون أن يستشهد بنصها ، كما سبق أن بينا ، حتى ليمكن القول إن المعاني القرآنية قد امتزجت بروحه ، وسرت في دمه ، وانتفض بها بيانه ، على الرغم مما امتلأ به عقله الكبير من ثقافة الأمم وتراث الشعوب . وإليك الدلائل من النصوص الأدبية الدينية التي اتفقنا منذ البداية على أن نقرأها معا قراءة غير صامتة ولا خافتة ، عساها تسمع داخل المسرح أو سط الزحام .

لقد قلنا إن الرجل رأى الدنيا طريقا للآخرة ، بل رآها زوالا يؤدي إلى بقاء ، ووقف عند كل منها وقفات طوالا ، لا يفتأ يردد ويؤكد ، فتتعدد صور الدنيا والآخرة لتلتقي بالأضواء تنسكب عليها من كل جانب من جوانب فكره وعقيدته معا ، دون أدنى تضارب بين العقل والايمان ، يقول :

« من لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة » . (ص ٣٤)

ويقول : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها » . (ص ٣٠)

وكأنه يقول بذلك « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ويقول : « السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول : لا شيء بعدها ، فاذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ، ولم ينقصه من سروره فيها » . والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول : لا شيء غيرها ، فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التى آثر مع الخزى الذى يلقى بعدها » .

(ص ٣٠)

وليست رغبة الانسان في الدار الآخرة مع أخذ نصيبه من الدنيا سوى ما يدعو الله إليه في قوله تعالى :

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين) (من سورة القصص ٧٧)

وأما التنغيص في الدنيا والخزى في الآخرة ، وهما شيء واحد ، لأنه خزى قائم هنا ، وخزى دائم هناك ، فقد جاء في آيات كثيرة مثل قوله تعالى :

(ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم)

(من سورة المائدة ٣٣)

(. . . ذلك الخزى العظيم)

(سورة التوبة ٦٣)

وأكثر من هذا أن الكاتب حين يصنف الناس يقيم هذا التصنيف على أساس نظرة الانسان إلى دنياه وآخرته ، وبذلك صار المقياس في ذلك مقدار نصيبه منهما ، يقول :

« الرجال أربعة : جواد ، وبخيل ، ومسرف ، ومقتصد . فالجواد الذى يوجه نصيب دنياه جميعا في أمر آخرته ، والبخيل الذى لا يعطي واحدة منهما نصيبا . والمسرف الذى يجمعهما لدنياه ، والمقتصد الذى يلحق بكل واحدة منهما نصيبها » . (ص ٣٠)

ويقول : « فاذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا . . . » . (ص ٩)

وكأنه يهتدي بقوله تعالى :

(وللآخرة خير لك من الأولى)

(من سورة الضحى ٤)

أما الذين لا يرون ذلك فهم ـ في قوله تعالى ـ

(الـذين يستحبـون الحيـاة الـدنيـا عـلى الآخرة . . .)

(سورة ابراهيم ٣)

وفي قوله تعالى :

(بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى)

(سورة الأعلى ١٦ ـ ١٧)

ويسير الدين والعقل في ذلك كله جنبا إلى جنب ، لذلك رأى ابن المقفع أن « من أحسن ذوى العقول عقلا من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده ، تقديرا لا يفسد عليه واحد منها الآخر . فان أعياه ذلك رفض الأدنى ، وآثر عليه الأعظم » . (ص ٢٥)

لكن الطريق من الدنيا إلى الآخرة ، أو ما بين المعاش والمعاد ، طريق قصير ، مهما طالت أيامه وتعددت لياليه ، فهو طرفة عين . والنفس الانسانية عند ابن المقفع في هذا الطريق لا بد أن تصحو وتتنبه :

« فانه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق » . (ص ١٠)

إن الطريق على قصره وسرعة السير فيه طريق صعب ، وعر المسلك ، كثير المشاق ، مثقل بالأعباء ، محفوف بالمخاطر . . وهو مع ذلك أيضا قد زين بالزخرف ، فزخرفته الزينة ، وعلاه الاغراء ، وماج فيه المتاع واللهو ، يقول تعالى :

(حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . . .)

(سورة يونس ٢٤)

وقوله تعالى :

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة . . . . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)

(سورة الحديد ٢٠)

ثم قوله تعالى :

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، لو كانوا يعلمون)

(سورة العنكبوت ٦٤)

هذه إذن هي الرؤية الاسلامية لحقيقة الحياة ، وطريق الانسان فيها في أبسط صورها ما بين طرفيها أو الدارين فيها . . وهي كذلك عند كاتبنا المفكر في رؤيته الدينية ، لا يسير إلا في هذا الطريق ، طريق الحياتين ، ولا يصل إلا الى هذه الحقيقة ، ولا ينظر إلا بهذه النظرة الاسلامية نفسها ، لا يتردد ولا يتلعثم ، لا يمل القول فيه ، ولا يرتد عن المضي به ، يقول :

للدنيا زخرف يغلب الجوارح مالم تغلبه الألباب ، والحكيم من لم يغض عليه طرفه ، ولم يشغل به قلبه ، اطلع من أدناه فيما وراءه ، وذكر في بدئه لواحق شره ، فأكل مره ، وشرب كدره ، ليحلولي له ويصفو في طول من إقامة العيش الذي يبقى ويدوم » .

(ص ١٩)

ويقول : « قد انتزعت الدنيا ممن قد استمكن منها واعتكفت له ، فأصبحت الأعمال

أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وأخذ متاعهم من لم يحمدهم ، وخرجوا إلى من لا يعذرهم ، فأصبحنا خلفا من بعدهم ، نتوقع مثل الذى نزل بهم . فنحن إذا تدبرنا أمورهم أحقاء أن ننظر ما نغبطهم به فنتبعه ، وما نخاف عليهم منه فنجتنبه » .

(ص ١٩)

وعلى ذلك فان الألباب اذا استطاعت أن تغلب زخرف الدنيا ، فلم تغض عليه الطرف ، حرصا على العيش الذى يبقى ويدوم ، من غير زخرف زائل ، لا يلبث أن ينتزع من يد من ظن أنه قد استمكن منه . . فان العاقل هو الذى لا يحزن على شىء منه ، يقول :

« وعلى العاقل أن لا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى ، وأن ينزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب » . (ص١٢)

وهو فى هذا يقتبس من الأسلوب القرآني فى قوله تعالى :

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم »
(سورة آل عمران ١٥٣)

بل إنه لا يخفى ما فى وجهته نحو التزهيد فى الحياة الدنيا من أثر لأقوال الحسن البصرى ونظراته ، ونغمات عمر بن العزيز الدينية فى أدبه ومواعظه . . ويتضح من ذلك كله أن العاقل لا يكون فى رأى ابن المقفع الا اذا أضاء عقله قبس وهاج من الدين ، يصلح به أمر دنياه أو معاشه ، ويتزود منه لآخرته أو معاده ، ويفصل فى كل ذلك فصلا بين الحلال والحرام ، يقول :

« وعلى العاقل ألا يكون راغبا الا فى احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم » . (ص١٣)

ويقول فى الأدب الكبير :

« وأصل الأمر فى المعيشة أن لا تنى عن طلب الحلال ، وأن تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق » . (ص٤٣)

وهو حين يبدأ الأدب الكبير لا يبدؤه الا بمقدمة يثنى فيها على السابقين من الناس قبلنا :

« فكان صاحب الدين منهم أبلغ فى أمر الدين علما وعملا من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل » . (ص٤٠)

وهو اذ ينظر فى كتب الأولين ليأخذ من حكمهم وينقل من أقوالهم انما يلفت نظره من ذلك كله ما ذكروه من تعظيم الله وترغيب فيما عنده ، ومن تصغير للدنيا وتزهيد فيها ، يقول :

« فمنتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية احسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم . . ولم نجدهم غادروا شيئا يجد واصف بليغ فى صفة له مقالا لم يسبقوه اليه الا فى تعظيم لله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا فى تصغير فى الدنيا وتزهيد فيها . . ولا فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق » . (ص٤١)

ونقول ان الأمر الذى لا شك فيه أن الكاتب الأديب المفكر كان يرجع فى بعض ما يصدر عنه من حكمة وما يلتفت اليه من رؤية خلقية الى آداب الفرس وحكمائهم

وتراثهم في وجوه الأدب وضروب الأخلاق على نحو ما قال . . ومعروف أنه يجمع من ذلك ثقافة واسعة كما كان يضيف الى ذلك كله ثقافة يونانية وهندية وغيرها . . ولم يكن في ذلك نسيج وحده فقد كان كذلك سلفه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وخلفه أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ . بل كان كذلك أيضا من بعدهم امام أهل السنة الفقية المحدث المفسر ابن قتيبة على الرغم مما حمل عليه من بعض ألوان الثقافة . وكذلك كان عصرنا العباسي كله بكل ما انصهر فيه من ثقافات وامتزج فيه من عصارات بل اختلط فيه من الشعوب والأجناس تحمل اليه عقولها وتنقل تراثها ، وتخرج الثقافة الاسلامية في ذلك العصر بعد هذا بكل ما نبع من داخلها وكل ما أضيف اليها من خارجها لتستوعب ذلك كله ، فيقوم لها بذلك كيان فتى تحفظ به شخصيتها وتعلو به هامتها . . قوية الملامح بارزة الخصائص . . لا تنطوى تحت لواء غير أن يكون لواءها . . وكذلك كان كاتبنا ابن المقفع على الرغم من كل ما كان من تالد فارسيته . . وكل ما كان من قديم مجوسيته أو مانويته . . لكن هذا كله لم يكن ليحول بينه وبين أن تنسكب هذه الثقافات في وعاء الفكر الاسلامي بحيث تبدو الصورة كما رأينا عند كل نقطة على الطريق صورة دينية تتفق مع الوجهة الدينية الاسلامية في أقل ما يمكن أن يقال عنها ، وهي تلك الوجهة التي كانت تتوجه اليها البيئة ويسير نحوها المجتمع . . وهي نفسها البيئة التي كان يعيش فيها الكاتب ويتوجه بالحديث اليها . . يأخذ منها كما يعطيها . . ويستقى من قيمها ومبادئها بقدر ما يعود ليمنحها من فكره وخلاصة حكمته وفلسفته بما لا يتعارض فيما نقرأ له مع أصول الدين وفروع العقيدة فقد كان على الرغم من ماضيه انما يعيش حاضره . . ولذلك كنا دائما نراه على طول الطريق . . طريق الحياة الدنيا الى ما بعدها . . لا تخلو خطوة من خطواته . . أو لحظة من لحظاته من المعاني الاسلامية . . والمفاهيم الدينية . . تتبلور الواحدة بعد الأخرى في رؤيته أو نظرته الشاملة الى الوجود . . والطريق كما هو معروف على نحو ما شهدناه طريق وعر محفوف بالمخاطر ، فيه الخير والشر ، فيه الحق والباطل ، فيه الصلاح والفساد ، فيه الرشد والغى ، فيه الرأى والهوى ، فيه الأمر والنهى ، فيه الحسنة والسيئة ، فيه التوبة والذنب ، فيه الثواب والعقاب ، فيه البر والحياء والمعروف والمروءة والعفاف ، كما أن فيه الحرص والشره والرذيلة والعدوان . . وتقع النفس الانسانية ـ أياما معدودات من حياتها الدنيا ـ بين حومة ذلك الصراع أو بين شقى الرحى ـ لكن حقيقة الصراع . . ليست بين هذه القوى المتضاربة ، ولا بين هذه المنازع المتناقضة ، وانما الصراع الحقيقى هو في داخل النفس ذاتها ، أو هو بين النفس ونفسها ، حين تتجاذبها القوى ، وتتقاذفها المنازع . . فكيف يكون أمر النفس وهي على ما جاءت في قوله تعالى :

« ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى »
(سورة يوسف ٥٣)

وفي قوله تعالى :

« بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره »
(سورة القيامه ١٤ ـ ١٥)

وفي قوله تعالى :

« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى »
(سورة الحديد ١٤)

وليست النفس عند ابن المقفع شيئا يختلف عن

هذا ، بل هى النفس كما رأتها النظرة الاسلامية ، بل هى ألفاظ المعجم القرآنى حين يقول :

« . . . فان من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تـدعى المعـاذيـر فيما مضى ، والأمـانى فيما بقى . . » (ص١١)

واذا كان هذا شأن النفس ، فما السبيل الى انقاذها من الضلال ، أو من سوء نفسها . . لا شيء غير ما خلق الله فيهـا من قدرة عـلى نفسها . . واقتـدار على نوازعها . . ومن هنا كان جهاد النفس . . وكان جهاد النفس فى الاسلام هو الجهاد الأكبر . . وليس القوى من غلب الناس ، وانما القوى من غلب نفسه . .

(٤)

يمضى ابن المقفع فى هذا السبيل الى آفاق بعيـدة ، يطيل التحليق فيها ، ويطول الحديث عنها ان مضينـا نجول آفاقه ، ونتتبع أبعاد التفكير الدينى فى أدبيه . . وقد نال الدين من فكره نصيبا أوفى حتى لتبدو رسالة الأدب الصغـير وحدهـا لا تفارق العقـل الا لتصحب الدين ، ولا تفارق الدين الا لتصحب العقل . . وليس لهـذا معنى سوى أن فكـر الرجـل لم يكن لينأى عنهـما لحظة . . فى هذه الرسالة وحدها . . ومن هنا يتأكد لنا فى كل خطوة نخطوها أن لا بد من اعادة قراءة ابن المقفع والانصراف اليه بعيدا عن سلسلة الآراء والأحكام التى تبدو أحيانا كأنها سلسلة من الرواية والاسناد دون ما رواية أو اسناد . . وانما هو ترديد وتكرار . . فكان لا بد أن يفرغ الناظر فى الأمر الى النظر فى الأمر وحده دون أن يلتفت يمنة أو يسـرة ، فـلا ينـظر الا الى الـطريق فى استقامته وعلى امتداده لا يعجل الخطو دون حاجة الى العجلة . . ولا يكف عن السير والهدف لم يبلغه بعد . .

ونحن لم نصل بعد الى نهاية الطريق ، ولا وصلنا الى القطع بحكم من الأحكام . . وكـان علينا أن نجهـد السير وأن يستحثنا السعي من أجل الوصول الى الحقيقة في محاولة اقامة بناء فكري ربما تثبت أركانـه في أرض تعاورتها العواصف وأربد فيها وجه البـرية ، وتهـاوى الفكر فيها تحت الحطام المتراكم من وراء السنين ، كما تداعى كيان الحقيقة وارتعشت صورتهـا خلف ضباب الدهر وظلام الزمن . . . . ولكم أخفت سحب الزمان من حقائق الفكر وطوته أو نثرته في الفضاء البعيد . . . من ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يلحق ببساط الريح يجمع ما تناثر أو يقرب مما شرق وما غرب . . . . والأيام تجري سراعا تلتف منها عصور من حولها عصور . . . . حتى لتفصل بيننا وبين العصر القديم حلقات يشتد من حولها سياج عتيق . . . كيف ينفذ الخاطر وقد ضعفت حيلته عبر حلقات تشابكت أواصرها وتقلصت مسالكها وتجمدت مفاصلها ببرودة ليالي الدهر السحيقة . . . . ترى هل يملك المرء أن يزعم قدرة على فك الطلاسم أو حل الرموز أو ضرب حاجز الزمن لرؤية عمق التاريخ بما قد كان يجري فيـه . . . إن هي الا محاولـة محدودة الحيلة مقيـدة بسـلاسـل الخـطو . . . . تسعى الى الفهم . . . . وقد تخطىء الفهم . . . . أو قد تصبو الى الافهام دون أن تحقق منه الكثير .

ولقد كنا اتفقنا على أن نمضي في الطريق . . . . ولا يصـح أن أنقض ما اتفقنـا عليه . . . مهـما تكن شدة المصاعب أو هول المشاق . . . . ولقد كنت تقـرأ معي لابن المقفع كلاما كثيرا في جهاد النفس . . . . ولكنك لاحظت ـ وأنت على حق فيما تلاحظه ـ أنه على كثرة ما قاله في هذا الموضوع لم يذكر لفظة الجهاد ، وإن أكثر من مترادفاتها . . . . ولا شك أنك تريد أن تأخذ عليه أمرا بعد أن أطلت الصبر وأجدت الانتظار . . . . غير أني

أقول لم لا نؤجل الحكم حتى نفرغ من القراءة وننظر الى الكلمات من جميع زواياها . . . وإلى الأفكار مجموعة كلها في اطار .

ذلك أنه ان لم يصرح بذكر الجهاد جهاد النفس فقد أكثر من ذكر معانيه . . . ومن القول بمحاسبة النفس . . . . وأطال السير في هذا الطريق متوجها فيه الوجهة التي تتفق مع روح الاسلام ، وتسلك سبيله . ثم انه ان لم يصرح بلفظ الجهاد فقد ذكر الاجتهاد . يقول في الأدب الصغير :

« أمور لا تصلح الا بقرائنها ، لا ينفع العقل بغير ورع . . . . ولا الاجتهاد بغير توفيق » . (ص ٢٨)

ويقول : « من حاول الأمور احتاج فيها الى ست : الرأي : والتوفيق ، والفرصة ، والأعوان ، والأدب ، والاجتهاد . وهن أزواج : فالرأي والأدب زوج ، لا يكمل الأدب الا بالرأي ، ولا يكمل الرأي بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج ، لا تنفع الأعوان الا عند الفرصة ، ولا تنفع الفرصة الا بحضور الأعوان . والتوفيق والاجتهاد زوج ، فالاجتهاد سبب التوفيق ، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد » . (ص ٢٩) .

ثم يقول : « يسلم العاقل من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس » . (ص ٢٩) .

لكنه يقف وقفة خاصة عند محاسبة النفس ، يرسم لها المنهج الذي تتبعه ، وهو منهج يقوم على فهم دقيق لأحوال الناس وسبيل معالجة هذه الأحوال بالتدرج المنطقي خطوة بعد خطوة ، حتى يستقيم أمرها في النهاية ، وهو إذ يذكر هذه الخطوات مجملة يعود عليها بالتفصيل ليشرح ما يتصل بكل واحدة منها ، مبينا الخطة العملية التي تحتاج الى مران وتدريب دقيق كما تحتاج الى دأب وأناة ، حتى تذعن النفس بعد هذه الرياضة الطويلة وتستجيب لحكم العقل وتنبذ سلطان الهوى . يقول :

« وعلى العاقل مخاصمة نفسه ، ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والاثابة لها ، والتنكيل بها » .

أما المحاسبة ، فيحاسبها بمالها ، فانه لا مال لها الا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع الى الحق . فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول اذا حال ، والشهر اذا انقضى ، واليوم اذا ولى ، فينظر فيما أفنى من ذلك وما كسب لنفسه فيه ، وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك في كتاب فيه احصاء وجد ، وتذكير وتبكيت للنفس ، وتذليل لها ، حتى تعترف وتذعن .

وأما الخصومة ، فان من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعى المعاذير فيما مضى ، والأماني فيما بقي ، فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

وأما القضاء ، فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة مردية موبقة ، وللحسنة بأنها زائنة منجية مربحة .

وأما الاثابة والتنكيل ، فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ، رجاء عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقب نفسه بالتذكر للسيئات ، والبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها .

« فأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذا ، وأقلهم عنها فترة » .(ص ١٠ ـ ١١)

وواضح أن معالجة أحوال النفس وترويضها لتسلك سبيل الحق قد مرت عبر مراحل تنتظمها تلك السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تؤدي كل حلقة الى تاليتها دون أن تختل أجزاء السلسلة أو تفقد عنصر التدرج والتنسيق اللازمين لها في تصاعد من الأدنى الى الأعلى . . . وتمثل المحاسبة المرحلة الأولى لتشمل عملية الاحصاء لكل ما كسب الانسان لنفسه وما اكتسب عليها ، وهو في هذا ـ يأخذ ـ من الآية الكريمة في قوله تعالى في ختام سورة البقرة :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . (سورة البقرة ٢٨٦)

ومع الاحصاء يتم جمع كل الأعمال مما يتصل بأمور الدنيا وأمور الدين ، ليدون ذلك كله في كتاب ، ومع التدوين تتوالى الحسنات والسيئات الواحدة بعد الأخرى ، وتصحب ذلك كله حركة دائبة تراقب الانسان فيما قدمت يداه وما لفظ به لسانه . . . . ومع كل فعل وكل قول تتوهج شعلة وضاءة لتكشف عما سجلته الصفحات من خير ومن شر ليتقدم هاتف الضمير ، ولا تملك النفس سوى أن تنصت اليه في تذكيره وتبكيته وتذليله لها « حتى تعترف وتذعن » .

وليس هذا مما يجري فترة من الزمن ثم يتوقف وانما هي دورات من المحاسبة لا ينقطع عملها في التنبيه والترويض على مدى العمر « عند الحول اذا حال ، والشهر اذا انقضى ، واليوم اذا ولى » .

وتتبع ذلك مرحلة ثانية هي مرحلة الخصومة يقتضيها ادراك طبيعة النفس وما تأمر به من سوء وما تنجذب اليه من ذنب وما تشتهيه من شر ، ومع كل ذلك تمضي النفس لتتلمس المعاذير ، وتلوذ بالأماني ، وتختلق العلل والأسباب ، وتزعم الشبهات ، فتكون هذه المرحلة من أجل أن يقف الانسان فيها خصما لنفسه ليردعها « فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها » .

وفي المرحلة الثالثة ، من مراحل الجهاد ، جهاد النفس . . . . . يتمثل دور القضاء ، لتقف النفس أمام منصة العدالة فتسمع حكم القضاء ، ويتم الاعلان عن السيئة « بأنها فاضحة مردية موبقة » ، وعن الحسنة « بأنها زائنة منجية مربحة » .

ثم تكون المرحلة الرابعة والأخيرة فيما يسميه ابن المقفع « الاثابة والتنكيل » ، وهي مرحلة الثواب والعقاب فيما يكون بين الانسان ونفسه ، فتبدو الاثابة في صورة « من يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ، رجاء عواقبها وتأميل فصلها » ، ويكون نقيض ذلك حين « يعاقب نفسه بالتذكر للسيئات ، والبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها » . فهذه وسائل اثابة النفس أو عقابها ، وقد جعل الانسان هنا خصما وحكما في الوقت نفسه ، ويكون حساب الانسان لنفسه بيقظة الضمير وحركته قبل أن يتولى الله تعالى أمر الحساب . ونصل الى النتيجة المنطقية في نهاية هذه المراحل جميعها التي تشبه السلم الصوفي بأن يكون « أفضل ذوي الألباب » هو « أشدهم لنفسه بهذا أخذا ، وأقلهم عنها فترة » .

ويتضح من ذلك كله مدى حرية الارادة عند الانسان فيما سبق أن عرضنا له ، فالنفس قادرة على أن تكبح جماح هواها اذا أرادت ، غير أن الأمر قد لايكون سهلا . . ومن هنا يكون الوعي بحقيقة الأوامر والنواهي ، فقد تهوى النفس ما تقرر النهي عنه ، وقد تكره النفس ما تأكد الأمر به ، ويلعب الشيطان دوره الكبير عند مفترق الطرق ، فيدفع النفس في طريق لا ينبغي أن تسير فيه هو

طريق الشر ، ويحول بينها وبين طريق ليس لها نجاة بدونه هو طريق الخير . . وهنا تكون القدرة ، وتكون الاستطاعة ويكون امتحان النفس فيما يمكن أن يئول اليه أمرها من فلاح أو فشل .

يقول ابن المقفع :

« كان يقال : ان الله تعالى قد يأمر بالشيء ويبتلي بثقله ، وينهى عن الشيء ويبتلي بثقله ، وينهى عن الشيء ويبتلي بشهوته . فاذا كنت لا تعمل من الخير الا ما اشتهيت ، ولا تترك من الشر الا ما كرهت ، فقد اطلعت الشيطان على عورتك ، وامكنته من أزمتك ، فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه اليك ، وفيما تكرهه من الشر فيحببه اليك . ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه ، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه » . (ص١٩)

ويقول : « وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويف الرأي واسعاف الهوى ، فيخالف ذلك ويلتمس أن لايزال هواه مسوفا ، ورأيه مسعفا . وعلى العاقل اذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره » . (ص١٤) .

ومع شدة وطأة الأهواء على النفس وقوة تيار الشهوات من حولها . . لايني ابن المقفع بكل ما يملك من طاقة فكرية عن القاء مزيد من الضوء أمام ملعب النفس وفي طريق مجراها . . يعينها به على نفسها . . ويقودها في مسالك المران الشديد ، ولا يلبث أن يعود عليها مرة بعد مرة بالتدريب والتهذيب ، وتتبلور من ذلك كله فكرة الكتاب ، لأن تدوين الأعمال ادعى الى أن تكون المراقبة والمراجعة دقيقة ، والى أن ترى النفس الصفحة السوداء وترى كذلك البيضاء من غير سوء . . وهنا تكمن أهمية المران العملي في متابعة ذلك كله واقتفاء آثاره في سبيل جهاد النفس . . يقول مرة أخرى :

« وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها اصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفا ، من اصلاح الخلة أو الخلتين والخلال ، في اليوم أو الجمعة أو الشهر فكلما أصلح شيئا محاه ، وكلما نظر الى محو استبشر ، وكلما نظر الى ثابت اكتأب » . (ص١١ - ١٢)

وكأنما السبيل الى اصلاح النفس وتربيتها أشبه ما يكون بتقويم طفل صغير ، نقوم بتنبيهه ليتجنب الخطأ ، ونسعى الى حثه على عمل الصواب . . ويمضي ابن المقفع في منهجه هذا ليستخدم وسائل التحليل النفسي في علاج أمور النفس . . ويتبع في ذلك كله عدة سبل ، السبيل الاولى تهدف الى أن تزن النفس أعمالها ، فلا تترك شيئا دون وضعه في الميزان مع متابعة حركة كفتيه والمضي في عملية التقييم من ناحية والاصلاح من ناحية أخرى . والسبيل الثانية تسعى الى أن يؤلف لها من ذلك كله كتاب احصاء يتابع حركة التقويم وتطور الأمور ما بين الحسن والقبيح ، والسبيل الثالثة تتابع حركة الانفعال في داخل النفس ازاء التغيرات القائمة ، لترصد لها مشاعر الاستبشار عند زوال القبيح وأحاسيس الاكتئاب عند ثبات الحسن .

ولا ينسى ابن المقفع حقيقة ضعف النفس وانحسار قدرتها عن المضي في الطريق الى نهايتها ، فلا يتردد من

أن يقدم لها القوة والعون من الخارج ، فيقيم لها حرسا من ذوي الالباب يقفون عند السمع والبصر والفؤاد ، فاذا هو غفل عن نفسه أدرك أنهم لا يغفلون . يقول :

« وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجرئهم عليها ، حتى يصيروا حرسا على سمعه وبصره ورأيه ، فيستنيم الى ذلك ويريح له قلبه ، ويعلم أنهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه » . (ص١٢ ـ ١٣)

هذا وليس من غرضنا ان نستقصي كل معاني جهاد النفس التي ادار ابن المقفع حولها فكره الاخلاقي وهو فكر ديني في وقت واحد معا . . لأن العقل عنده كما رأينا دائما لا ينأى عن الدين . . وفكرة الكتاب التي طالما وقف عندها وهو كتاب النفس التي تحصى فيه أعمالها . . هي الفكرة القرآنية التي تفيض بذكرها الآيات الكريمة من قوله تعالى :

« وكل شيء أحصيناه كتابا » (سورة النبأ ٢٩)
« اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (سورة الاسراء ١٤)
« فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا » (سورة الانشقاق ٧ ـ ٨)
« وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا » (سورة الانشقاق ١٠ ـ ١١)
« فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا »(سورة الاسراء ٧١)

ولما كان كتاب النفس هذا على طريق الحياة الدنيا قد سجلت فيه الحسنات ودونت فيه السيئات ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ويكون للتوبة عند ابن المقفع عملها الفعال في نسخ الذنوب . . التي تولدت في النفس من صنع الشيطان . . يقول :

« لاتؤدى التوبة أحدا الى النار ، ولا الاصرار على الذنوب أحدا الى الجنة » . (ص٢٥)

ومن هنا كان لذكر النفس للموت في رأيه أثر قوي في توجيه خطاها نحو خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة . . ذلك أن ذكر الموت عنده لا يوقع النفس في اليأس كما يمكن أن يرى شيء من ذلك في شعر أبي العتاهية ، وكأن عناصر الزهد أو التزهيد عند ابن المقفع عناصر اسلامية خالصة ، فذكر النفس للموت بل كثرة ذكر ذلك لا يلقى بها في غياهب الكآبة واليأس والظلام . . وانما يفتح أمامها باب الأمن والأمان . . لأنها النفس المطمئنة . . الراضية المرضية . . يقول :

« وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مرارا ، ذكرا يباشر القلوب ، ويقذع الطماح ، فان في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر ، وأمانا باذن الله من الهلع » . (ص١١)

وهو حين يتحدث عن صلاح ذي الصلاح من حب الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته ، والرجاء لحسن ثوابه في المعاد اليه ، يقول :
« ليلحقه اجره من بعد الموت . . »(ص٢٠)
« أما النفس النادمة ، فهو يذكر منها خمسا تكون احداها نفس الجريء على الذنوب اذا حضره الموت » . (ص٢٨)

ليس الموت اذن نهاية الحياة ، وانما الحياة تبدأ بعده ، هو جسر يربط بين الدنيا والآخرة ، والحياة متصلة ، ان انقطعت الأولى بالموت ، فالآخرة دار بقاء .

تلك هي فلسفته في الحياة والموت ، وبذلك تكتمل في فكر ابن المقفع رؤية متكاملة تتفق تماما مع الرؤية الاسلامية ان لم تكن هي نفسها هذه الرؤية .

(٥)

غير انه يبقى بعد هذا شيء . . مما سبق ان لاحظناه معا من خلو الأدبين من التصريح باسم الدين الذي يتحدث عنه الكاتب فيهما ، او اسم الرسول صاحب هذا الدين . . او اسم القرآن الذي نزل به . . الى غير هذا مما اشرنا اليه . . ذلك أننا لا نرى علة لذلك سوى ان يكون تاريخ كتابة الأدبين انما يرجع الى الفترة التي سبقت اسلام ابن المقفع حينما كان لا يزال على مانويته او مجوسيته . . وقد كان في ذلك صادقا مع نفسه اذ لم ير حاجة لكي يذكر دينا لم يكن قد آمن به بعد . . غير ان ذلك كله شيء وتأثره بالثقافة الاسلامية وصدوره عن الفكرة الاسلامية شيء آخر ، وهو الذي عاش في المجتمع الاسلامي وكتب ليخاطب هذا المجتمع بلغة البيان الذي نبغ فيه وصوت البلاغة العربية الذي صدح به وتغني بألحانه بأساليب لم تكد تشهدها لغة التأليف قبله وظل بها من بعد استاذ البلغاء وسيد امراء البيان . . فقد استمدت بلاغته من المعاني القرآنية كما استمد فكره الديني من الاسلام صورة كاملة للحياة والكون . . بحيث امكن رد الكثير من اتجاهاته الفكرية الدينية في الكثير من تفاصيلها الى مصادرها الاسلامية . . وليس هذا بغريب فقد كان الأخطل وهو نصراني شاعر بني امية وكان يعبر عن الفكر الاسلامي كما كان غيره من شعراء النصرانية ، لأن الثقافة الاسلامية هي الثقافة التي كانوا ينتمون اليها الانتماء الاكبر سواء أسلموا او لم يسلموا او كانوا من اصل عربي او كانوا غير ذلك ، ولقد اثبت هذا البحث حقيقة المصدر الاسلامي للتفكير الديني عند ابن المقفع .

واذا كان هذا شأن الدين عند ابن المقفع في أدبيه ، فان الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحد . . وانما تطور التفكير الديني في أدبه تطورا بعيد المدى فيما يمكن ان يرد الى الفترة الاسلامية من حياته . . والاسلام يجب ما قبله وان كان لم يصلنا له مما قبله شيء يمكن ان يكون زندقة او شيء يتعارض في كثير او قليل مع الفكرة الاسلامية . . ويكفي ان نشير مجرد اشارة ـ مما يمكن ان يرد الى عهد اسلامه ـ الى ما ورد من كلامه فيما نشره بعد الأدبين مصنف رسائل البلغاء تحت عنوان « يتيمة ثانية لابن المقفع » . . فان فيه ما يوضح ان طريقا جديدا قد اخذ يشق مجراه في تفكيره ليتبلور فيه الجانب الديني مع وضوح الرؤية الاسلامية بكل التصريح وضوحا كاملا . . وذلك حين يتوجه بالخطاب الى امير المؤمنين . . وهو فيما يبدو الخليفة المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية يقول :

« غير أنا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح امامنا ، ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا . فقد رأينا حظه من الله عز وجل في التثبت والعصمة . فلم يبرح الله يزيده خيرا ، ويزيد به رعيته مذ ولاه ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبينات . ونحتسب من الله عز وجل أن لايزال امامنا يسارع في مرضاة ربه بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبهم ، ويفتح له أسماعهم ، وأبصارهم فيجمع ألفتهم ، ويقوم أودهم ، ويلزمهم مراشد أمورهم ، وتتم نعمة الله على امير المؤمنين ، بأن يصلح به وعلى يديه ، فيكونوا رعية خير راع ، ويكون راعي خير رعية ، ان شاء الله ، وبه الثقة .

والذي أصبحنا نحمد من أمير المؤمنين فكثير ، أنا ذاكر ما تيسر منه . . . . فاننا قلما نلقى من أهل العقل

والمعاينة منكرا لنعمة الله بأمير المؤمنين على المسلمين . . . . ومن أشد جهلا وأقطع عذرا ، ممن لم يعرف النعمة ، ولم يقبل العافية ، نعوذ بالله من الذين لايعقلون . . .

. . . فلعمري ان الشيطان من أهواء الناس وألسنتهم في الأمر لمصيب ، وان له لمستراحا حين يستوفي أمنيته ، ويصدق عليهم ظنه ، ويوحى اليهم بمكايده . فجعل الله كيده ضعيفا ، وحزبه مغلوبا ، وجعله وأياهم نصيبا لجهنم ، من أجزائها المقسومة لأبوابها ، وحطبها ووقودها وحصبها المعد لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فان أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولادها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبي الرحمة ، وامام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة ، والمهيمن عليهما ، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاما محمودا . شرع الله به دينه ، وأتم به نوره على عهده ، ومحق به رؤوس الضلالة ، وجبارة الكفر ، وخوله الشفاعة ، وجعله في الرفيق الاعلى ، صلى الله عليه وسلم » . (ص ١١٠ -١١١) .

عند هذا يكون الفكر الديني عند ابن المقفع قد دخل في طور اسلامي جديد ،وكأن الأمر لم يكن ينتظر سوى أن يعلن الكاتب الحكيم المفكر اسلامه من أجل أن تتضح تفاصيل دين - على غير ما ظن الاستاذ أحمد أمين في أول هذا البحث - ذلك الدين الذي سارت خطاه من قبل كما اتضحت من بعد في مدارج الفكر الاسلامي لم تختلف عنه وان لم يصرح به . . وذلك كله في نطاق ما وصلنا وما عرفنا ه من كلامه . . لأننا لانملك أن نحكم على غير هذا . . واذا قيل ان ابن المقفع كان يجاري المجتمع الاسلامي ويتملق الخليفة العباسي الجديد - وقد رأى زوال دولة وقيام أخرى - فكيف يمكن القطع بذلك ونحن لا نعلم ما تخفي الصدور ، ولا من سرائر الناس من حولنا شيئا ، فكيف بالماضي ممن قطع الدهر بعدهم ما يزيد عن اثنى عشر قرنا ونصف قرن من الزمان ، نحاول بعدها أن نقيم بناء الفكر الديني عند الرجل على أساس جديد من كلماته . والجدير بالذكر أن أكثر ما كان اعتمادنا في ذلك على كتاب الأدب الصغير الذي لم يلق من الباحثين أية عناية تذكر من حيث ظن بعضهم أن غيره هو الجدير بذلك على نحو ما يقوله الدكتور طه حسين : « والأدب الكبير خليق بالعناية ، فهو كتاب منظم له مقدمة وبابان ، أحدهما في علاقة الانسان بالسلطان ، والثاني في علاقة الانسان بالانسان » . (٩)

اذا كان هذا شأن الأدب الكبير ، وكان لذلك جديرا بالعناية ، فان الأدب الصغير وان بدا غير منظم في توزع كلماته وتباعد نظراته مما أعدنا بناءه ، فان فيه على الرغم من ذلك كله نظرة شاملة للحياة ، وكان أهم ما يشتمل عليه يتمثل في علاقة الانسان المخلوق بالخالق الاعظم .

***

(٩) من حديث الشعر والنثر - ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين - المجلد الخامس - بيروت (الطبعة الأولى - ١٩٧٣) - ص ٦٠٠

الموهبة والمستقبل

عبدالله محمود سليمان
أستاذ علم النفس المساعد بجامعة الكويت

اذا كنت سعيد الحظ واكتسبت خصائص الانسان السوي ، فلا بد أنك ستهتم بالمستقبل ، واذا ابتسمت لك الحياة وأصبحت تعيش في تحقيق مستمر لذاتك ، فستكتشف أن النظر الى الأمام ، الى ما يمكن أن يكون ، والى ما تريد أن يحدث هو إطار حياتك . فالاهتمام بالمستقبل والتفكير فيه هما من خصائص الانسان السوي ، وهي خصائص تشتق من الطبيعة الفريدة للانسان التي تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى . ومن خصائص الانسان التي تهمنا عند تحليل العلاقة بين الانسان والمستقبل ، قدرة الانسان على استخدام الرموز [١] ، التي تمكنه من اختزال الخبرة واستعادة الخبرة ، وبذلك تمكنه من استحضار الماضي والاستفادة منه في التفكير في الحاضر وفي تصور المستقبل .

فالانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتصور المستقبل ويفكر في تحقيق عالم أفضل ، وبذلك يكوِّن له مُثُلاً يسعى الى تحقيقها . ويهتم الانسان بالمستقبل منذ سنى حياته الأولى . واذا لاحظنا الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة ، لوجدنا أنهم يدرسون المستقبل حينما يقومون بلعب الأدوار المختلفة أثناء لعبهم التلقائي . فالأطفال في سن السنتين وسن الثلاث سنوات يجدون إشباعاً كبيراً في لعب دور الأم ودور الآباء وغيرهما من أدوار الراشدين [٢] . وهم اذ يلعبون هذه الأدوار إنما يتدربون على ما يمكن أن يقوموا به في المستقبل حين يمارسون هذه الأدوار في الواقع .

التغير والتفكير في المستقبل

لعل حياة الانسان وما فيها من انتظام واضطراب ، وتفاعل ، واشباع لحاجات الانسان أو عدم إشباع لها ،

(١) Shoben, E.P., Jr. Toward a concept of normal personality .American psychologist, 1957,12,183,189 .
(٢) Torrance, E.P. Sociodrama as a creative-solving approach to studying the future. Journal of Creative Behavior, 1975,9,182-195.

هو ما يدفع الانسان الى التفكير في المستقبل . فما يحدث لنا ، وما يحدث في العالم من حولنا يؤدي الى استثارة أفكارنا عن المستقبل ، ويؤدي بنا الى التفكير في تصور ما يمكن أن يترتب على أحداث اليوم من نتائج ، ويحفزنا الى بذل الجهود بهدف العمل على تحقيق نتائج معينة أو منع أخرى من الحدوث . وبقدر ما يكون المجتمع واعياً بما يحدث فيه وما يحدث حوله ، بقدر ما يسهل عليه محاولة التأثير في مجرى الأحداث . لذلك نجد أن الباحثين والمفكرين يهتمون برصد الظواهر الاجتماعية ومحاولة التنبؤ بما يمكن أن يترتب عليها من أحداث في المستقبل . ويهتم العاملون في ميادين الارشاد النفسي والتخطيط الاجتماعي وغيرهما ، بدراسة ما يحدث في مجتمعاتهم وفي العالم ، ثم توقع ما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج ، والتخطيط لمواجهة هذه النتائج . وعلى سبيل المثال ، كتب س. جلبرت رن عام ١٩٧٠ عن « العالم من حولنا والارشاد النفسي » يحلل بعض القضايا الاجتماعية التي كانت تشغل المجتمع الأمريكي في ذلك الوقت ، فتحدث عن : (٣) .

١ - **الحروب** : يلاحظ « رن » أن عام ١٩٦٩ يتميز بتصعيد العنف في داخل أمريكا وخارجها . وعلى خلاف كل الحروب كانت حرب فيتنام تعمل على إثارة الاضطرابات ، وتصعيد العنف في الداخل والخارج . ففي الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية كان المجتمع الأمريكي متحداً وراء الهدف المشترك . وفي سنوات الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات كان الأمريكيون يشعرون بمشاكل بعضهم بعضاً . أما حرب فيتنام ، فقد أدت الى تمزيق الأمة الأمريكية ، وإثارة الخلافات بين أفرادها وجماعاتها .

٢ - **العنف في أمريكا** : وهو العامل الثاني من عوامل صدمة الحاضر في المجتمع الأمريكي . واذا ما سأل الانسان عن أسباب العنف وانتصاره ، فسيجد أسباباً متعددة منها :

(أ) يجد العنف والقتل في حرب فيتنام تبريراً له فيما يحدث في داخل أمريكا .

(ب) إنهيار الاتصال بين القطاعات المتنازعة في المجتمع الأمريكي كالبيض وغير البيض ، والصغار والكبار ، والذين يمثلون السلطة والذين يخضعون لها . كل ذلك يجعل العنف ضرورياً لكي « يفهم » الطرف الآخر . وبما أن الكلمات أو الوعود ، أو حتى الرغبة في أن ينصت الآخر اليَّ قبل أن يتحدث معي لم تؤدِّ الى أن يفهم الآخر موقفي ، فربما كان الخيار الوحيد الذي يتبقى لي هو العنف .

(جـ) يؤدي الخوف الى العنف . فخوف الأغلبية ، وخوف الراشدين ، وخوف السلطة ، خوف كل أولئك مما يمكن أن تحدثه الثورة في المجتمع ونظمه ، يؤدي الى تشريع قوانين صارمة تعمل على إخضاع الناس للنظام ، مما يؤدي الى الشعور بعدم العدالة ، ويؤدي الى مزيد من العنف . وهكذا تسير الأمور في دائرة مفرغة .

٣ - **صراع الأجيال** : ولصراع الأجيال مغزى خاص .

---

(٣) Wrenn, C.G. The world about us and counseling. in Van Hoose, W.H. & Pietrofesa. J. (Eds.) **Counseling in the twentieth century: Reflections and reformulations.**
Boston : Houghton-Mifflin, 1970, Pp. 317-333.

علم النفس الارشادي أو الارشاد النفسي هو أحد فروع علم النفس التطبيقية الذي يهدف الى مساعدة الأفراد على النمو وتحقيق أقصى مستويات الفاعلية الانسانية الممكنة لكل منهم . وهو يساعد الأفراد على تحديد أهدافهم واتخاذ القرارات واختيار أسلوب حياة ملائم بما فيه من نوع التعليم أو المهنة أو الأنشطة الأخرى ، ولكي يحقق ذلك يحاول مساعدة الفرد على أن يفهم ذاته ويفهم العالم من حوله ، ويجد أفضل مكان له في هذا العالم (أفضل تعليم أو مهنة أو اسلوب حياة ممكن) كما يساعده دائما على تنمية مهاراته المختلفة .

هناك قطاعات في المجتمع الأمريكي لم تثق في بعضها أبداً ، غير البيض لم يثقوا أبداً في البيض ، والفقراء لم يثقفوا أبداً في الأغنياء ، وغير المتعلمين لم يثقوا أبداً في المتعلمين . لكن الشباب أظهروا دائماً احتراماً لذويهم من الكبار . فالشباب لم يوافقوا الكبار دائماً ، بل ثاروا عليهم أحياناً ، ولكنهم في النهاية كانوا يصغون اليهم . أما الآن ، فما أقل إصغاء الشباب للكبار . وانما هم يقومون باخبارهم بالأمر الواقع . وما يحدث الآن هو أن الشباب لا يثقون في الكبار ، في أهداف الكبار وقيمهم وانجازاتهم . ويقتنع الشباب بأن الكبار لن يفهموهم حين يتحدثون اليهم . لذلك فهم (أي الشباب) يعبرون عما يريدون بالفعل ، إما انسحاباً ، كما في حالة الهبي ، أو بالاحتجاج ، كما نرى في حالة الشباب الذي ينظم المظاهرات ، أو بالعنف والسلوك البناء وهو ما يمثل الاتجاه الذي يقوم بالفعل والتصرف .

٤ ـ السعادة الوقتية : هنا يهتم « رن » بما يذاع عن اهتمام بعض الشباب بما يسمى بالسعادة الوقتية ، ويعتقد أن هذا يرتبط بعدم ثقة الشباب بما يمكن أن يتعلموه من الماضي ، وعدم تأكدهم من المستقبل ، وشعورهم بأن أشياء كثيرة تحدث من حولهم دون أن يفهموها . ومن أجل ذلك فهم يقولون : « فلنعش اللحظة الراهنة بتمامها » ومما يدعم هذه الفلسفة توفر النقود للكثيرين ، ومرونة القوانين الأخلاقية الراهنة ، وتوفر عقاقير الهلوسة . ويفزع الكبار من هذه الحال ، ومع ذلك فلا يستطيع المجتمع أن يقيد حرية الشباب .

٥ ـ وسائل الإعلام : ويرتبط بانتشار العنف تأثير وسائل الإعلام التي تتسم بعدم المسئولية . ولا يحتاج القاريء الى التدليل على هذا ، فشاشة التليفزيون تزخر بمشاهد العنف والسلوك اللا أخلاقي واللا مسئول ، كما أن الصحف تنشر أخبار الجريمة في صفحاتها الأولى .

٦ ـ تأثير الثراء : ولوفرة النقود تأثير كبير . فالناس يركزون على الأشياء ويهتمون بها دون الاهتمام بالانسان . ويؤدي الرخاء الاقتصادي الى أن تعمل النساء ، كما يمكن أفراد الأسرة من أن يمضوا أوقاتاً كبيرة خارج المنزل مع جماعات أخرى من غير أفراد أسرهم ، مما يؤدي الى تغيير نمط حياة الأسرة . ومن تأثير الثراء أيضاً ، توفر العمل للعمال المهرة والمتخصصين دون غيرهم ، فالحاجة الى الذين يقومون بأعمال كالنظافة مثلاً ، أخذت تقل نظراً لتوفر الأدوات الكهربائية ، مما يعني تعطل عدد كبير من الذين لم تتح لهم ظروفهم التخصص واكتساب المهارات أو الذين ليست لديهم القدرات على تعلم المهارات .

ولعلك تتساءل : هذه مشكلات مجتمع غريب عنا في عاداته وتقاليده وقيمه ، فلماذا نقلق نحن ؟ حين تنشأ في بلادنا حرب ، فانها محدودة ، ولغرض شريف ، والعنف لا يمثل مشكلة عندنا ، فبلادنا آمنة مطمئنة ، وليس لدينا صراع أجيال ، فلقد ربينا أبناءنا على احترامنا واحترام تقاليدنا ، ونحن لا نسمح لهم بأسباب السعادة الوقتية ، بل الواقع أنه لا توجد عندنا سعادة وقتية ، فلقد عودنا أبناءنا على الصلاح والتقوى . أما وسائل الاعلام ، فمقص الرقيب كفيل بتهذيبها ، وأما الثراء فليس بمشكلة ، اذ هو ليس ظاهرة تنتشر بين عامة الناس .

التغير سمة العصر

شيء هام يجب أن ننتبه اليه ، هو أننا لا نعيش في عالم منغلق ، « فشبكة العلاقات الاجتماعية اليوم متشابكة تماما ، حتى أن نتائج الأحداث المعاصرة يكون لها صدى

في الحال حول العالم » (٤) فما يحدث في بلد تنقله الأقمار الصناعية في ثوان الى بلاد أخرى . كما أن انتشار وسائل الاتصال وسرعتها وقلة تكاليفها ، واقبال شباب اليوم على السفر والتنقل بين مختلف البلاد ، يعرضهم لثقافات وعادات وتقاليد وأساليب حياة مختلفة . وأكثر حقائق الثلث الأخير من القرن العشرين وضوحاً هي « التغير » . وهو جامح جارف يغمر الجبال ويطوي المحيطات ، ونخطيء الظن لو اعتقدنا أننا سنكون بمأمن عنه .

فاذا كانت حياة الانسان في الماضي قد سارت رتيبة بطيئة ، فان حياته في السنوات الأخيرة قد شهدت تغيراً هائلاً في شتى مجالات الحياة ، مما دعا الاقتصادي كينيث بولدنج الى أن يعتبر أن القرن العشرين يمثل نقطة تحول فى تاريخ البشرية ، بحيث يمكن تقسيم حياة الانسان الى ما قبل القرن العشرين وما بعد القرن العشرين . ويوضح ألفن توفلر في كتابه « صدمة المستقبل » ذلك بتقسيم الخمسين ألف سنة الأخيرة من حياة الانسان الى دورات حياة طول كل منها ٦٢ سنة لتصل الى ٨٠٠ دورة حياة (٥) . ويوضح « توفر » أن ٦٥٠ دورة حياة من هذه الدورات الثمانمائة دورة قد أمضاها الانسان في الكهوف . أما أكثر الانجازات الحضارية فقد حدثت في السنوات الأخيرة من حياة الانسان . ففي السبعين دورة الأخيرة فقط ، أمكن للانسان أن يتصل بفاعلية من دورة حياة الى دورة أخرى . ولم ير الناس أبداً كلمة مطبوعة الا في الست دورات الأخيرة ، كما أن قياس الزمن بأي قدر من الدقة لم يحدث الا في الأربع دورات الأخيرة . ولم يستطع أحد في أي مكان من العالم استخدام محرك الكيروني الا في الدورتين الأخيرتين . كذلك فان معظم الأدوات والمنتجات التي نستخدمها اليوم لم تنتج الا في آخر دورة من الدورات الثمانمائة ، أي في حياة الانسان المعاصر .

وتمثل الدورة الـ ٨٠٠ أي الـ ٦٢ سنة الأخيرة نقطة تحول هامة في كل الخبرات الانسانية السابقة . ويتضح هذا أكثر ما يمكن ، في مجال النمو الاقتصادي . لأنه في هذه الفترة من حياة الانسان فقدت الزراعة سيادتها باعتبارها أساس الحضارة الانسانية ، حتى أن العاملين في الزراعة في عدد كبير من البلاد أصبحوا يمثلون أقل من ١٥٪ من مجموع القوى العاملة . وفي الولايات المتحدة الأمريكية التي تطعم مزارعها ٢٠٠ مليون أمريكي ، بالاضافة الى ١٦٠ مليون إنسان في بلاد العالم المختلفة ، تهبط هذه النسبة الى ٦٪ وما زالت تتقلص . وفي هذه الدورة أيضاً قامت نسبة كبيرة من العمال الذين يرتدون الياقات الزرقاء ويعملون في المصانع أو في الأعمال اليدوية بخلع هذه الياقات . وقد كاد عدد هؤلاء العمال يفوق عدد العاملين في ما يسمى بمهن أصحاب الياقات البيضاء مثل تجارة الجملة والادارة والاتصال والبحث والتربية وغير ذلك من المهن . وهكذا نجد أن المجتمع في فترة واحدة وقصيرة من حياة الانسان تخلص من استعباد الزراعة كحرفة ثم تخلص من سيطرة العمل اليدوي ، وقد شهدت هذه الفترة مولد اقتصاد الخدمات . لقد ظلت الزراعة تسود الاقتصاد عشرة آلاف سنة ، وسادت الصناعة قرناً أو قرنين من الزمان . أما الآن ، فنحن نشهد مولد عصر جديد ، هو عصر الصناعة الكبرى Super-indurstrialism أو عصر ما بعد الصناعة .

(٤) Toffler, A. Future shock. New York: Bantam Books, 1970, p.150
(٥) ibid. pp.31 — 15 .

التغير وعلم المستقبل

لقد أدى انتشار التغير في شتى مظاهر الحياة ، كما أدى ازدياد سرعته بشكل فائق ، الى التفكير في مستقبل الانسانية ، وأصبح السؤال الملح هو : كيف سيكون مصير الانسان في المستقبل ؟ ومن ثم أخذ الباحثون والمفكرون يفكرون في الصورة التي ستكون عليها الحياة على هذه الأرض في السنوات القادمة ، فبدأوا يلاحظون اتجاهات الأحداث ، ويحللونها ، ويخططون لها . ومن ثم نشأ علم المستقبل ، وشهدنا بداياته في بحوث العمليات وتحليل النظم ، والتخطيط على المدى الطويل ، ولقد بدأت هذه الجهود في مجالات الدفاع والأعمال والصناعة . وأخذت بعض المنظمات تتبنى إتجاهاً قوياً نحو المستقبل ، فأسست إدارات للتنبؤ والتخطيط ، كما أخذ المخططون يتعمقون النظر في المشكلات الاجتماعية والنفسية والسياسية (٦) .

لقد أدت تنبؤات العلماء بالمستقبل الى زيادة الاهتمام بدراسته والتخطيط له . كما أبرزت هذه التنبؤات الحاجة الى تنمية الموهبة والابتكار لكي يحيا الانسان ويستمر في التوافق مع العالم الذي يتغير بمعدل سريع (٧) ويستعرض « توارنس » عدة أمثلة للتنبؤات التي ترد في كتابات المستقبلين (٨) ففي تقرير لمكتب التربية بالولايات المتحدة (وزارة التربية) يتنبأ تيري نويل أن الأطفال الذين سيولدون في عام ١٩٧٥ سوف يعيشون في عالم (٩) :

- يتطلب باستمرار أن ينمي الأفراد فيه طاقاتهم الى أقصى مدى لهم .

- وأن يخلقوا باستمرار إمكانيات للعمل متعددة ومختلفة وعديدة ، ومن هذه الامكانيات ما لا يوجد اليوم .

- وان يوجدوا فرصاً جديدة وتحديات للنمو الشخصي والاجتماعي من خلال أنشطة أوقات الفراغ . والمغزى المباشر لهذه التنبؤات هو أن الحاجة الى التفكير الابتكاري سوف تكون أكثر مما حدث في أي وقت مضى . اذ أن العالم يتجه الآن الى ما يسمى بمجتمع ما بعد الصناعة والذي نشاهده خاصة في البلاد المتقدمة . ويصف بعض المستقبليين هذا المجتمع ، فيرون أن المورد الأساسي في هذا المجتمع سوف يكون المعرفة ، وأن مركز القوى يتحول الى الجماعات ومراكز البحوث ، وسيكون الأفراد الأكثر أهمية هم العلماء والباحثين (١٠) .

وقد حدد مستقبلي آخر (١١) . تحول الاهتمام في المجالات الآتية :

- من التجانس الى التغاير .

---

(٦) Weber. R.E. Human potential and the year 2000 art I. **Journal of Creative Behavior,** 1973,7,2, 133..151 .

(٧) Torrance, E.P. Creativity and futurism in education : Retooling. Education, 1980, 100,298-311 .

ibid.

(٨) Newell,T. Why career education? In Career education: The state of the scene. Washington,D.C.:

(٩) Office of career education, United states office of education 1974. Torrance 1980 .

Torrance,1980 .

(١٠) Maruyame,M. The post industrial logic. In A.A. spekke (Ed.) The next 25 years : Crisis and opportunity. Washington, D.C. World Future society, 1875.

(١١) عن المصدر السابق

Torrance,1980 .

ـ من التقنين الى عدم التقنين .
ـ من التنافس الى الاعتماد المتبادل .
ـ من التنظيم الهرمي الى التفاعل .
ـ من الاشباع المادي الى الاشباع الثقافي .
ـ من الفاعلية الى التذوق الجمالي والأخلاقي .
ومن التفكير الذي يقوم على التصنيف الى التفكير في السياق الاجتماعي .

وفي الوقت الذي يتنبأ فيه المستقبليون بهذه الاتجاهات ، وفي الوقت الذي يتعرفون فيه على هذه التحولات في الفكر والسلوك ، فانهم يلاحظون في حياتنا المعاصرة من مظاهر الانهيار والاضطراب الكثير . ولا يحتاج المرء أن يدلك على ذلك « فحتى بالنسبة لأولئك الذين لا يفكرون أساساً توجد أدلة عديدة على وجود إنهيار حقيقي وإنهيار في مراحله الأولى . فالأنظمة التي تهتم بالاقتصاد والرفاهية والجريمة والسياسة تظهر عليها كلها علامات التوتر والانحراف . وقد أجريت توقعات وتنبؤات بالاضافة الى ما نجده يحدث الآن ، سواء في مراحله المبكرة أو ما هو حقيقة واضحة . ولنذكر الآن بعضاً من ذلك » (١٢) .

ـ يقترح وليس هيرمان نمطا مستقبلياً للأمة يتميز بـ « غياب الحكومة ، ودولة عسكرية تمثل قمعاً شاملاً للنضال ، والعدوان العابث يتبعه إعادة بناء المجتمع ، وتقييم تدريجي ، وقمع للعدوان مع عود الى توازن القوى السابق » .

ـ مع افتراض عدم الوصول الى تقدم في استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية في العشرة آلاف يوم القادمة ، فان هناك احتمالاً بضرورة التخلص من ٤٠٠٠٠ طن من فاقد المواد الاشعاعية في العام .

ـ تضاعف السكان كل أربعين سنة اذا لم يمكن التحكم في معدل الخصوبة .

ـ قوى عاملة تتميز بالنمط التالي « . . أقلية تعمل بجد في القمة ، وأغلبية زائدة عن العمالة في الوسط ، وأقلية مستبعدة في أسفل سلم العمل » .

هذه التغيرات تجعل العالم اليوم يواجه مجموعة من الظروف لم تواجهها أية ثقافة من قبل ، مما يجعل التفكير في المستقبل والتخطيط له قضية أساسية في عصرنا . هذه الظروف هي : (١٣) .

ـ التعامل مع اثراء الحياة دون إفساد الكرة الأرضية .

ـ التهديد بالابادة النووية .

ـ قابلية أجهزتنا المعقدة (الانساق ، والنظم) للتخريب .

ـ التعامل مع التطور بحيث يؤدي الى مجتمع متزن .

ـ انتاج كميات كبيرة من السموم بدون ضوابط محددة .

ـ التخلص من فاقد المواد الاشعاعية المتراكم منذ زمن طويل .

ـ تكاثر المعرفة .

ـ الكثافة السكانية الفائقة .

وهكذا نجد المستقبل محملاً بمشكلات كثيرة . ومن أجل ذلك يجب أن نفكر فيه ، ونتعرف على مشاكله ،

(١٢) Weber,R.E., 1973.
(١٣) **ibid.**

ونحاول فهمها . ومن مبررات التفكير في المستقبل أيضاً ما يلي : (١٤) .

- بعض التغير غير مرغوب فيه .

- بعض التغير يحدث بسرعة هائلة لدرجة أننا لا نستطيع التعامل معه (خاصة التغير الذي يتضاعف بسرعة كبيرة) .

- بعض التغير المرغوب فيه بطيء الحدوث .

- تنقصنا في الوقت الحاضر القدرة على التخطيط على نطاق واسع لبدائل مستقبلية .

- بعض التغير يؤدي الى الاضطراب .

- تتميز بعض الأنظمة بالاستثارة الذاتية وتمتنع على التحكم والتنظيم .

- الأنظمة الموجودة تظهر عليها أمارات الانهيار والاجهاد .

- أصبح الأفراد والمجتمعات أكثر إعتماداً على بعضهم البعض .

- تتطلب حلول كثير من المشكلات بالتأكيد تعاوناً بشكل أكثر مما نستطيع تقديمه .

- قد تصبح قدرة الانسان على التكيف في نهاية الأمر بداية سقوطه (على سبيل المثال) : التكيف لصور عديدة من التكيف للتلوث والافساد .

- نفتقر في الوقت الحاضر الى الوسائل التي تمكن من خلق الثبات الدينامي .

- الأنظمة الحالية تبدو غير معدة لتقديم إجابات قابلة للتطبيق .

- فشلت التربية تماماً في أن تعدنا لكي نتعامل مع أنواع ومقادير التغير في مدى زمني لم نعرفه من قبل .

وهكذا نرى أن القضية الأساسية التي تواجه الانسان ، سواء فكر في مستقبل الحياة أم لم يفكر فيه ، يمكن أن تلخص في كلمة واحدة هي التغير . ويمكن أن يستجيب الانسان للتغير بأسلوبين . أما الأسلوب الأول فهو أن يغلق الانسان حواسه وادراكه عن التغير ، لا يستمع اليه ، ولا يهتم بالظروف الجديدة التي يأتي بها . غير أنه لا يلبث أن يجد نفسه في وسط ما أتى به التغير من ظروف تتنازعه وتؤثر عليه ، فلا يلبث أن يقف حيالها عاجزاً لا يعرف ماذا يفعل . وقد يهمل الانسان الاهتمام بالتغير ، غير أن الجديد الذي يأتي لا يلبث أن يصدمه ويؤثر فيه ، فلا يملك الانسان الا أن ينفعل بالظروف الجديدة ويحاول أن يستجيب لها ، ومن ثم يكون منفعلاً مستجيباً Reactive للتغير . لكن الانسان الفعال هو الذي يهتم بمستقبل الحياة ويفكر فيه ، ويتوقع ما يمكن أن يأتي به هذا المستقبل ويتنبأ به ومن ثم يسارع الى التخطيط لمواجهته والتأثير فيه محاولاً أن يتفادى ما يمكن ان يكون له من آثار ضارة ، وباذلاً الجهود لكي تحدث نتائج إيجابية تفيد الحياة والناس . ومن ثم فهناك حاجة شديدة الى مثل هذا الانسان الفعال Proactive الذي يستجيب مقدماً بايجابية في إحداث التغير المطلوب وهذا هو الأسلوب الثاني للاستجابة للتغير . وهكذا نجد أن جهود المستقبليين تفيد في : إبطاء سرعة أنواع مختلفة من التغير ، أو إسراع التغير المرغوب ، أو تجنب مستقبل غير مرغوب ، أو خلق

(١٤) ibid.

مستقبل بديل أفضل ، أو زيادة التحكم في الظروف المستقبلية ، أو وضع علامات التحذير عندما تلوح عوامل التهديد في المستقبل (١٥) .

ومن الطبيعي أن نتصور أن التفكير في المستقبل والتحكم فيه يحتاج الى عقل غير عادي ، عقل يستطيع أن يتصور سير الأحداث في بدايتها الأولى ، ويتخيل ما يمكن أن يترتب على ما نفعل اليوم من نتائج . ماذا يمكن أن يحدث لو استمر الاسراف في استهلاك الطاقة ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو استمر تكاثر السكان بهذا المعدل الكبير؟ ماذا يمكن أن يحدث لو استمرت كراهيتنا لبعضنا البعض ؟ ماذا يحدث لو استمر التنافس المريض بين الأفراد حتى لكي ينجح الفرد يجد أنه لا بد أن يدس للآخر ويشي به ، بدلاً من أن يركز على تحسين مهارته وزيادة فاعليته ؟ ماذا يحدث لو استمرت الدول والمنظمات تعتمد على أهل الثقة بدلاً من أهل الخبرة ؟ وهل من سبيل الى جمع الثقة والخبرة في الفرد الواحد ؟

وكثيرة هي الأسئلة التي تثيرها مشكلات اليوم .

عالم متغير - الى أين ؟

هكذا نجد أن العالم يتغير بمعدل هائل . في فترة قصيرة من حياة الانسان حدث كل هذا التحول ، فماذا بعد ذلك ؟ أليس لهذا التغير من نهاية ؟ نخطيء لو تصورنا أن التيار سيقف في مكان ما ، فان ذلك سيعني نهاية البشرية . فماذا اذن نحن فاعلون ؟

لقد أصبح التغير حقيقة هذا العصر التي فرضت نفسها على ادراك الانسان . فلا تكاد تمر ساعات بل دقائق حتى تحمل وسائل الاتصال لنا خبراً عن شيء جديد . ولقد جعلت هذه التطورات الانسان يتساءل : ماذا بعد ؟ وماذا نحن فاعلون ؟ كما خلقت عنده مشاعر القلق والضيق من أنه قد لا يستطيع أن يلاحق هذه التغيرات الهائلة . . فلقد أصبح من المعتاد أن نسمع عن « تحدي التغير للانسان » . ومع ذلك لا يشعر كل فرد بخطورة هذا التغير الذي يحدث في شتى مجالات الحياة . فهناك الملايين من البشر الذين يسيرون في حياتهم كالنائمين والذين يشعرون وكأن شيئاً لم يتغير منذ الثلاثينيات ، أو كأن شيئاً لن يتغير . وهم يحاولون الانسحاب من التغير ، وكأنهم يستطيعون ايقافه بتجاهله . أو كأنهم في انسحابهم الى حياة هادئة منعزلة يكتسبون مناعة دبلوماسية ضد التغير . ويرى المرؤ أمثال هؤلاء البشر في كل مكان ، هم أفراد تقدم بهم العمر رغم صغر سنهم يستقيلون من حياتهم ، وان ظلوا يذهبون كل صباح الى أعمالهم ، ويحاولون تجنب الجديد بأي ثمن ، أفراد عجائز في الخامسة والثلاثين أو الخامسة والأربعين من عمرهم تثور أعصابهم من تظاهر الطلاب أو الجنس أو إنتشار الملابس القصيرة ، فيحاولون بكل جهد أن يقنعوا أنفسهم أن الشباب كان دائماً ثائراً ، وأن ما يحدث اليوم لا يعد مختلفاً عما حدث في الماضي . والمشكلة الأساسية هي أن الكثيرين منهم يشعرون بأن التغير يهددهم فيبذلون كل الجهد لتجاهله (١٦) .

غير أن من العلماء والمفكرين من يرى أن التغير هو حقيقة العصر التي يجب أن نوجه اليها كل اهتمام . ذلك أننا اذا لم ننتبه الى هذا التغير ، ونحاول أن نفعل شيئاً للتعامل معه ، فسيجرفنا التيار الى أرض غريبة قد لا نرضى عن وجودنا فيها فضلاً عن قدرتنا على الحياة

(١٥) ibid.
(١٦) ibid.

والبقـاء فيها . ولنستمـع الى كارل روجـرز أحد علماء النفس البارزين ، وهو يوجه أنظارنا الى مـا يحدث في عصرنا من تغير ، والى ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج لو لم نتعامل معه بأسلوب خاص . يقول كارل روجرز :

« في الوقت الذي تتقدم فيه المعرفة سواء كانت بناءة أو مخربة في وثبات وقفزات كبيرة الى عصر ذري هائل ، يبدو أن التكيف الابتكاري هو الاحتمال الوحيد الذي يمكن الانسان من أن يصبح متمشياً مع التغير المتعدد الجوانب في العالم الذي نعيش فيه ، وفي الوقت الذي تتقدم فيه الاكتشافات العلمية والاختراعات على أساس متوالية هندسية ، يصبح الأفراد السلبيون الذين يخضعون لثقافتهم عاجزين عن التعامل مع القضايا والمشكلات المتزايدة . وما لم يستطع الأفراد والجماعات والأمم أن يتخيلوا ، ويبنوا ، ويراجعوا بابتكار أساليب تعاملهم مع التغيرات المعقدة فان النور سينطفيء ، وما لم يستطع الانسان أن يأتي بأساليب جديدة وأصيلة للتكيف مع بيئته بسرعة تماثل سرعة العلم في تغيير بيئته ، فان ثقافتنا ستضمحل . وسيكون الثمن الذي ندفعه لافتقارنا الى الابتكار ، ليس فقط سوء تكيف الفرد ، وتوتران الجماعة ، بل أيضاً الابادة الدولية » (١٧) .

ولنستمع الى رائد آخر من وارد التفكير الابتكاري هو إيبول تورانس يؤكد على أهمية الابتكار في مواجهة التغير :

« ان عصر الفضاء يأخذنا الى أماكن لم تعد فيها الأفكار القديمة والمريحة صالحة . لذلك سيتوقع الكثير من تلاميذ اليوم الذين لديهم استعداد للابتكار . فالأخطار التي تهدد بقاء الانسان تتحدانا وتدفعنا الى أن نفكر في أفضل ما يمكن أن يصير اليه الانسان والى أن نبحث عن طرق جديدة لمساعدة الأطفال على تحقيق إمكانياتهم الابتكارية . (ونحن لا نعرف ما يمكن أن يصير اليه الانسان) . ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن التطور الانساني يدخل مرحلته الأخيرة . ولأن نمو تفكير الانسان ، ونمو تفكيره الابتكاري مستمر ، فان انسان الستينيات سيبدو للأجيال القادمة ساذجاً واحمق ، مثلما يبدو لنا الآن إنسان الكهف » (١٨) .

الابتكار والموهبة هما الحل

من حسن حظ الانسان أنه تعلم أن يفكر في المستقبل . ولا يجب أن يدعو ذلك الى الدهشة ، ففئران التجارب التي كان يقدم لها الطعام أحياناً ويمنع عنها أحياناً أخرى ، تعلمت أن تقتصد بعضاً من الطعام الذي يقدم لها ثم تحفظه في مكان آمن . لكن الانسان الذي نما ذكاؤه نمواً هائلاً ، تفوق فيه على أقرانه من أفراد المملكة الحيوانية ، تعلم ألا يقتصد مما يمتلك اليوم للغد فحسب ، بل تعلم أيضاً أن يفكر مقدماً في ما يمكن أن تصير اليه الحياة في الغد ، فأخذ يرصد ما يحدث في حياته من تغيرات ، ويدرس إتجاهات هذه التغيرات ، ويتصور الطريق التي يمكن أن تسلكها هذه التغيرات في المستقبل ، ثم أخذ يحاول الاحتياط لهذه التغيرات والتأثير فيها .

(١٧) Rogers, C.R. Towards a theory of creativity : In P.E. Vernon (Ed.) **Creativity.** Middlesex, England : Penguin Books,1970,pp 137-151 .

(١٨) Torrance, E.P. **Education and the creative potential.** Minneapolis, Minnesota: The University of Minnesota Press, 1963,P.3.

الموهبـة والابتكار

لكي يستطيع الانسان التفكير في المستقبل ، والتنبؤ بما يمكن أن يحدث فيه ، فانه يحتاج الى عقل غير عادي ، وأساليب في التفكير غير مألوفة يحتاج الى أن يكون مبتكراً وموهوباً .

لكن ما هي الموهبة ؟ وما هو الابتكار ؟

الموهبـــة

كانت الموهبة موضع الاهتمام عبر العصور . ويشهد تاريخ الانسان على ما انتجته مواهبه من فن وأدب وعلم . لكن العصر الحديث يتميز بالاهتمام بدراسة الموهبة وفهمها ومحاولة الوصول الى طرق لاكتشافها بشكل مبكر حتى يمكن رعايتها والاهتمام بها . لقد أدى اهتمام علماء النفس بالموهبة الى أن يشعروا بالقلق بالنسبة للمواهب التي تعيش دون أن يلحظها أحد أو يهتم برعايتها . لنستمع الى القصة الطريفة التي رواها دونالد ماكنون في كتابه « في البحث عن الفاعلية الانسانية » :

« هناك قصة رواها في البداية مارك توين ، ولو كان والتر فان دايك بنهجهام قد سمعها لكانت من أكثر ما يحب من القصص . كانت هذه القصة عن رجل يبحث عن أعظم جنرال عاش على ظهر الأرض . وعندما أخذ يسأل : أين يمكن أن يجد مثل هذا الجنرال ، أخبروه بأن الرجل الذي يبحث عنه مات وذهب الى السماء . وعند الأبواب اللؤلؤية أخبر الرجل القديس بطرس عن مطلبه ، وعندئذ أشار القديس بطرس الى روح قريبة منهما . لكن الرجل قال محتجاً : « لكن هذا ليس بأعظم الجنرالات قاطبة . اني أعرف هذا الرجل حينما كان يعيش على الأرض ، فقد كان يعمل اسكافياً ، وأنا أعرف ذلك » أجاب القديس بطرس : « لكنه لو كان قد عمل جنرالاً لكان أعظم الجنرالات جميعاً » (١٩) .

ومغزى هذه القصة هي أن هناك من البشر من يعيش حياته دون أن يحقق ما هو قادر على تحقيقه . واذا عاش الانسان حياته دون أن يحقق ما يستطيع تحقيقه ، فان الخسارة لن تقتصر عليه وحده وانما ستكون خسارة لمجتمعه الذي يحتاج الى كل من فيه من مواهب . لذلك كان الاهتمام بالمواهب سمة العصر الحديث ، وسبيل المجتمعات للتقدم والرقي . وقد ترتب على ذلك أن أخذ العلماء يهتمون بدراسة المواهب لفهمها والكشف عنها ورعايتها .

ويعتبر لويس تيرمان الأب لحركة دراسة الطفل الموهوب ، وتعد دراسته لأطفال كلفورنيا الموهوبين والتي تتبع فيها نمو هؤلاء الأطفال أساساً هاماً لهذه الحركة (٢٠) . ولقد كان الاعتقاد السائد في العشرينيات من هذا القرن أن الموهبة هي نتاج لعوامل تكوينية ، ومن ثم كان يعتقد أنه يمكن الكشف عنها بواسطة اختبارات الذكاء (٢١) . وعلى أساس هذا الاعتقاد

---

(١٩) Mackinnon, D.W. **In Search of human effectiveness,** Great Neck, N.Y.: Creative Synergetic Associates, 1978, p.35.

(٢٠) Gowan, J.C. Creativity and gifted child movement. **Journal of Creative Behavior,** 1978, 12, 1, 1-13.

(٢١) Gallagher, J.J. Issues in education for the gifted. in A.H. Passow (Ed.) **The gifted and the talented : Their deucation and development: The seventy-eight Yearbook of the National Society for the study of education.** Chicago : The University of Chicago Press, 1979, 28-44.

قامت دراسات تيرمان والتي ظهرت في خمسة أجزاء من كتابه دراسة العبقرية [٢٢] لكن المغزى الخطير لهذا الاعتقاد هو أنه ما دامت الموهبة ولادية ، فان التغير الذي يطرأ عليها بتقدم العمر لن يكون كبيراً ، لأن تدخل البيئة عن طريق تعريض الفرد لخبرات تعليمية ومؤثرات بيئية تهدف الى تنمية مواهبه لن يحدث تغييراً كبيراً في هذه المواهب . بل ان هذا الاعتقاد أدى الى نتائج أخطر تمثلت في الايمان بصحة الفروق التي توجد في المواهب بين الجماعات والشعوب ومن ثم أدى ذلك الى تدعيم حركات اجتماعية مثل حركة التعصب العنصري [٢٣] .

غير أن جهود الباحثين من أمثال جيلفورد . وجتسلز وجاكسون ، وتورانس ، الذين حاولوا التمييز بين الأذكياء والمبتكرين ، ساعدت على تغيير هذا التصور الضيق للموهبة ، فلقد شجع جيلفورد في خطابه الرئاسي لرابطة علم النفس الأمريكية الباحثين على أن يتخلوا عن الافتراض بأن اختبارات الذكاء مثل تلك التي وضعها تيرمان يمكن أن تسهم في الكشف عن جميع الأطفال الموهوبين [٢٤] . كما ميز جتسلز وجاكسون بين الأطفال الأذكياء والأطفال الموهوبين ، وكشفت دراستهما عن أن الأطفال الذين يكونون مرتفعين في الابتكار ومنخفضين في الذكاء يمكنهم أن يحصّلوا مثل الأطفال الأذكياء جداً [٢٥] ، كما أن دراسات تورانس المتعددة للابتكار والتي اهتم في بعضها بخصائص الأطفال المبتكرين أدت الى تغيير التصور المحدود للموهبة [٢٦] . وقد كان للدراسات التي تناولت تأثير الثقافة والبيئة على الشخصية أثر في توجيه الاهتمام الى أبعاد أخرى غير الذكاء لفهم الموهبة ، والى النظر اليها باعتبارها ذات أبعاد متعددة وقد أدى هذا الى تهيئته الجو للبحث عن تعريف شامل للموهبة . . وقد ظهر مثل هذا التعريف في تقرير للكونجرس الأمريكي أعده سدني مارلاند الابن الذي كان مفوضاً للتربية . وقد ظهر هذا التعريف في كثير من التشريعات الفيدرالية ، التي تمت الموافقة عليها ، كما أنه يمثل أول اعتراف رسمي على المستوى الفيدرالي بمشكلات تربية الأطفال الموهوبين ، وفيما يلي نص هذا التعريف [٢٧] :

« الأطفال الموهوبون أصحاب المقدرة هم أولئك الذين يتعرف عليهم المتخصصون ، والذين بسبب تميز قدراتهم يستطيعون الوصول الى أداء ممتاز . ويحتاج هؤلاء الأطفال الى برامج تربوية وخدمات خاصة غير

(٢٢) Terman, L.M. et al. **Genetic studies of genius, Vol.I, Mental and physical haits of a thousand gifted children.** Stanford, calif. : stanford University Press, 1925.

(٢٣) Gallagher, 1979.

(٢٤) Guilford, J.P. Creativity. **American Psychologist, 1950. 5. 444-454.**

(٢٥) Getzels, J & Jackson, p . **Creativity and intelligence.** New York: Wiley , 1962.

(٢٦) Torrance, E.P. **Guiding creative talent.** Englewood Cliffs,N.J.; Prentice Hall, 1962. Torrance, E.P. **Rewarding creative Behavior.** Englewood-Cliffs, N.J. : Prentice-Hall,1965.

(٢٧) Marland, S.P. Jr. Education of the gifted and talented. Vol.1. Report to the Congress of the United States by the U.S. Commissioner of Education. Washington, D.C.: U.S. Government priniting office, 1972, P.2

تلك التى تقدمها المدارس العامة فى العادة حتى يستطيع هؤلاء الأطفال تحقيق اسهاماتهم لذواتهم ولمجتمعاتهم .

والأطفال الذين يستطيعون الوصول الى أداء عال هم أولئك الذين يثبتون انجازاتهم أو تكون لديهم قدرات ممكنة فى أى من المجالات الآتية :

(أ) القدرة العقلية العامة .

(ب) استعداد أكاديمي خاص

(جـ) التفكير الابتكارى أو المنتج .

(د) القدرة على القيادة .

(هـ) الفنون البصرية وفنون الأداء .

(و) القدرة الحركية النفسية .

وقد لا يوجد اختلاف كبير على تصور وتحديد الفئات الثلاثة الأولى والفئة الخامسة ، لكن هناك من يصرف النظر عن الفئة السادسة . (٢٨) ومن الباحثين من يرى أننا فى اهتمامنا بتحديد أبعاد جديدة للموهبة أسرفنا فى تصور هذه الأبعاد باعتبارها منفصلة عن القدرة العقلية . فأبحاث جتسلز وجاكسون التى سبقت الاشارة اليها ، والتى تحدثت عن المرتفعين فى الابتكار المنخفضين فى الذكاء ، لم تقم فى الواقع بدراسة أفراد منخفضين فى الذكاء ، اذ كان هؤلاء الأفراد منخفضين فى الذكاء بالنسبة للمجموعات الأخيرة ، حيث كان متوسط نسبة ذكائهم هو ١٢٧ ، وهى درجة تؤهلهم للانضمام الى برامج الموهوبين أكاديميا فى معظم الولايات الأمريكية . (٢٩) وكذلك يرى بياجيه أن الذكاء أساسى بالنسبة للمواهب المختلفة ، فالأطفال الموهوبون يكون لديهم العقل الذى يستطيع أن ينظم الخبرات ويربط بينها (٣٠) . وبالمثل يرى ترمان أن المواهب الخاصة يجب أن يسندها قدر مرتفع من عامل سبيرمان العام الذى يتميز بالقدرة على تكوين كثير من المفاهيم المجردة ومعالجة هذه المفاهيم وادراك العلاقات بينها ، وبمعنى آخر القدرة على القيام بالتفكير المجرد (٣١) . ويؤكد تيرمان وجهة نظره بالملاحظات التى أجريت فى مدرسة فنون الأداء فى مدينة نيويورك والتى أثبتت أن معظم التلاميذ الموهوبين فى الموسيقى والدراما والرقص كان تقديرهم عاليا فى اختبارات الذكاء العام الأمريكية . لكن هناك من الباحثين من يرى أن الذكاء باعتباره احد المحكات التى يستند اليها فى تحديد الموهبة والابتكار يجب أن يكون فوق المتوسط ، وليس بالضرورة ذكاء غير عادى (٣٢) . فدرجات الذكاء التى تتعدى المستوى المتوسط لا تكون أساسا سليما لاتخاذ قرارات بالنسبة لمستقبل التلميذ (٣٣) وانما يجب أن تؤخذ محكات أخرى فى الاعتبار . ويمكن القول ان الذكاء

---

(٢٨) Interview with E.Paul Torrance, Educater and Psychologist, **U.S. News & Word Report,** December 51, 1980, 67-68.

(٢٩) Gallagher 1979.

(٣٠) Piaget, J. **The origin of intelligence in children** (translated by M. Cook.) New York : International University Prens, 1952.

(٣١) Terman, L.M. The discovery and encouragement of exceptional talent. **American Psychologist,** June 1954, 9, 221-230.

(٣٢) Renzulli, J.S. & Smith, L.H. Developing defevsible programs for the gifted and talented. **Journal of Creative Behavior,** 1978,12,1,21.

(٣٣) Wallach, M.A. Tests tell us so little about talent. **American Scientist, 1976,64,57-63.**

المرتفع ليس الشرط الوحيد للموهبة ، فتحقيق الابتكار يتوقف على توفر الدافعية والمهارات بالاضافة الى القدرات (الاستعدادات) (٣٤) .

لقد أسهمت آراء الباحثين ودراساتهم فى النظر الى الموهبة باعتبارها ذات أبعاد متعددة وليست متطابقة مع الذكاء المرتفع . ولقد كان دونالد ماكنون (٣٥) من أوائل الذين عملوا على توضيح هذا التصور للموهبة . فلقد عمل قبل سدنى مارلاند بعقد من الزمان على توضيح الابعاد المتعددة للموهبة وهو يحدثنا أنه بالرغم من أن الباحث عن مصطلح Talent فى مجلة « المخلصات السيكولوجية » فى الثلاثينيات كان يحال الى مصطلح « القدرة العقلية العامة » الا أن كلمة talent لم يكن ينظر اليها هذه النظرة الضيقة . فكثرة استخدام علماء النفس لهذا المصطلح فى السنوات الأخيرة ، يكشف عن اعتراف بأن هذا المفهوم يشير الى شىء أوسع وأعقد من مجرد القدرة والاستعداد مهما كانا متميزين . وكلمة ta- lent التى جاءت من الكلمة الاغريقية talanton تعنى فى الأصل وحدة وزن ونقود ، وكانت أمثل وحدة وزن تستخدم لأغراض مالية ومعاملات ، ومن ثم فهى شىء ذو قيمة . أما الاستخدام المجازى للكلمة باعتبارها مواهب طبيعية ومنحة من الله للانسان ، فقد جاء متأخرا نتيجة تحريف فى فهم ما ذكر عن المواهب . ومن ثم فان الاشارة فى انجيل متى كانت الى الاستخدام الحكيم للنقود لا الى التذكير بضرورة رعاية الفرد لاستعداداته وقدراته الأصلية . وكما أدى ارتباط كلمة talenton بالنقود الى مفهوم الموهبة باعتبارها قدرات واستعدادات عقلية ذات قيمة ، كذلك أدى معناها الأصلي باعتبارها وحدة وزن تستخدم للموازنة إلى اعتبارها قوى وجدانية ودافعية فى الفرد . وبهذا المعنى استخدمها تسوشر لتعني الميل والرغبة والشهرة والارادة . وفى القرن الرابع عشر ، كان الشخص الموهوب يعتبر قويا ومدفوعا بقوة للفعل . ومن ثم ، فان ماكنون يفيدنا بأن استخدام الموهبة عبر المسنين كان يشير الى العوامل غير العقلية (الوجدانية والدافعية والدينامية) كما يشير الى العوامل العقلية (الادراكية والمعرفية) فى الشخصية بالرغم من أن استخدام الكلمة لتشير الى الحالات الوجدانية والدافعية قد بطل منذ زمن طويل .

وبالرغم من أن اصطلاح الموهبة giftedness قد ارتبط فى أوائل القرن العشرين بالقدرة العقلية العالية ، الا أن دراسات جيلفورد وجتسلر وجاكسون وتورانس ، أوضحت أهمية الابتكار للموهبة ومن الباحثين ، من يشير الى الطفل الموهوب بمصطلح gifted,creative,talented ، وكذلك صدرت دوريات تحمل هذا العنوان (٣٦) . وحتى الآن لا يوجد اتفاق على التمييز بين هذه الألفاظ ، لكن الباحثين لا يزالون يحاولون التمييز بين هذه المصطلحات . فمن التعريفات التى قدمت تعريف جوان (٣٧) الذى يقول

(٣٤) Torrance, E.P. The search for satori & creativity. Great Neck N.K. : Creative synergetic Associates, 1979.
(٣٥) Mackinnon, D.W., 1978.
(٣٦) على سبيل المثال دورية : Gifted/Creative/Talented/Children.
(٣٧) Gowan, J.C., 1978.

فيه : « الطفل الموهوب gifted هو الطفل الذى يكون لديه الامكانية كي يصبح مبتكرا لفظيا ،أما الطفل المبتكر talented فهو الطفل الذى يكون لديه الامكانية لكي يصبح مبتكرا بطريقة غير لفظية » . ويتضح من هذا التعريف أن الباحث يطابق بين الموهبة والابتكار . فما هو اذن الابتكار ؟

الابتكار ـ ما هو ؟

توجد عدة مداخل وعدة نظريات فى تفسير الابتكار . فهناك النظريات الخاصة للابتكار التى تصدق فقط فى مجال معين من مجالاته . وهناك النظريات العامة التى تهتم بتفسير الأسس والعوامل التى توجد فى كل عملية ابتكارية بصرف النظر عن نوع الناتج الابتكارى (٣٨) . واذا كنا بصدد دراسة الصلة بين الابتكار والمستقبل ، فسيصبح من الضرورى أن نهتم بالنظريات العامة فى فهم الابتكار . من هذه النظريات ، تلك التى توصل اليها علم النفس خاصة النظريات التى اهتمت بالابتكار كعملية . process وبهذا المدخل ، فانى سأتناول واحدة من النظريات السيكولوجية ، التى اهتمت بتحليل عملية الابتكار ، وهى نظرية ابول تورانس . يعرف تورانس الابتكار بأنه « العملية التى يصبح فيها الفرد حساسا للمشكلات وأوجه النقص والفجوات فى المعرفة والعناصر الناقصة وعدم الانسجام ، وهكذا . ويقوم بتحديد الصعوبة والبحث عن الحلول وعمل تخمينات ، أوتكوين فروض عن أوجه النقص ، ثم اختبار هذه الفروض واعادة اختبارها ، ثم تعديلها ، واعادة اختبارها اذا تطلب الأمر ، ثم توصيل نتائج هذا كله الى الآخرين » (٣٩) . وتستثار قدرات الانسان الابتكارية عندما يواجه مشكلة ، أو يصادف شيئا غامضا أو غير كامل أو غير منسجم . عندئذ يشعر الانسان بتوتر وعدم ارتياح ، ويحاول أن يتخلص من هذا التوتر بأن يجد حلا للمشكلة ، التى يواجهها أو يستكمل النقص الذى يصادفه . على أن الطرق وأساليب السلوك المتعارف عليها عادة ما تفشل بالنسبة لكثير من المشكلات ، لذلك يلجأ الانسان الى البحث عن حلول جديدة . لكن التوتر لا يزول ، حتى يختبر الانسان هذه الحلول ، ويعدلها ، ويعيد اختبارها حتى يتأكد من فاعليتها ، ويوصل ما انتهى اليه من نتائج الى الناس (٤٠) .

ونستطيع أن نتبين مغزى هذا التصور لعملية الابتكار حين نفكر فى المستقبل . وفى ما يمكن أن يأتى به من أحداث بناء على مالدينا اليوم من مؤشرات . فتوقع حدوث ظواهر معينة فى المستقبل يحتاج الى عقل حساس يستطيع أن يتبين بدايات هذه الأحداث فى منابعها الصغيرة كذلك فان التخطيط للمستقبل والتأثير فى المستقبل يحتاج الى عقل مبتكر يستطيع أن يفكر فى طرق غير مألوفه وبدائل تنجح فى التعامل مع هذا القادم الغريب : المستقبل .

(٣٨) Arieti, S. **Creativity.** New York: Basic Books, 1976, P.14.

(٣٩) Torrance, E.P. **Torrance tests of creative thinking: Norms technical manual. Lexinfton, Mass: Grinn and Company, 1974,P.8.**

(٤٠) ibid.

لكن ما هى خصائص العقل المبتكر ؟ لقد كشف التحليل العلمى عن عدة خصائص أو مكونات للعقل المبتكر . وقد بنى تورانس مقاييسه للابتكار على أساس عدة أبعاد اعتبرها مكونات الابتكار ، وهى :

١ ـ **الطلاقة** fluency : وهى سهولة انتاج الأفكار . والشخص الطلق هو الذى يفيض بالافكار ، بالرغم من أنه قد لا يكون أكثر الأفراد حديثا ، كما أن بعض أفكاره قد لا تبدو جيدة (٤١) وهناك طلاقة لفظية ، تبدو عندما نطلب من الفرد أن يأتينا بمرادفات كلمة ما ، فيأتينا الفرد الطلق بعشرين مرادفا ، بينما لا يأتينا الفرد غير الطلق الا بمرادف أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير . كما أن هناك طلاقة عملية . تتضح فى اختبار الدوائر أو الخطوط المتوازية من اختبارات تورانس ، ، حيث يقدم للفرد عدد كبير من الدوائر المتكررة أو الخطين المتوازيين المتكررين ، ويطلب منه أن يرسم أكبر عدد من الأشكال مستخدما الشكل المتكرر كأساس فى رسم كل شكل .

٢ ـ **المرونة** Flexibility . والفرد المرن هو الذى يكون قادرا على اتباع اساليب مختلفة لعلاج مشكلة ما ، وعلى أن يأتى بأنواع مختلفة من الأفكار . ويعرف تورانس الأفراد الذين يتميزون بالمرونة بأنهم أولئك « الذين اذا فشلت خطة لهم أو طريقة ، فسرعان ، ما يأتون بطريقة مختلفة . وهو يستخدمون استراتيجيات مختلفة أو مداخل مختلفة فى حل المشكلات ، كما أنهم يدركون سريعا المداخل غير المنتجة دون أن يتركوا الهدف أبدا ، وانما هم ببساطة يبحثون عن أسلوب آخر لتحقيق الهدف » (٤٢)

٣ ـ **الاصالة** origanility وتتميز الاستجابة الأصيلة بالجدة وبعدها عن المألوف . ويصف تورانس الأطفال الذين يأتون بأفكار أصيلة بأنهم « قادرون على أن يبتعدوا عن الواضح والمألوف وعن الطريق المطروق . وهم يرون علاقات ويفكرون فى أفكار وحلول مختلفة عن حلول وأفكار زملائهم فى المدرسة وعن الحلول والأفكار التى ترد فى الكتب المدرسية وكثير من أفكارهم ـ وليس كلها ـ يثبت فائدته . وبعض هذه الافكار يدعو الى الدهشة برغم صحته » (٤٣) . والأفكار الأصيلة هى الأفكار النادرة احصائيا .

٤ ـ **التفاصيل** elaboration : لا يتم عمل بنجاح الا اذا أمكن تحديد تفاصيله ، وكذلك لا يمكن تنفيذ فكرة ما الا اذا حددنا أبعادها وتفاصيلها . وهكذا يتطلب النجاح فى حل المشكلة ابتكاريا أن نحدد تفاصيل الحل ، ونعد خطة لتنفيذه ، لكن درجة التفصيل والتنميق يمكن أن تكون كبيرة الى الدرجة التى تغرق بها التفاصيل الفرد المبتكر . ولقد كشفت الدراسات أن الشخص الذى يهتم بالتفاصيل عادة ما يضحى بابعاد الطلاقة والمرونة والأصالة . بل ان هناك أدلة على أن الاغراق فى بعد التفاصيل يقلل من فاعلية الفرد فى عمله . برغم ذلك فان القدرة على وضع التفاصيل ورسم الخطط وتنفيذها وتقديم الحلول هى قدرة هامة ، ويجب أن يتدرب الفرد عليها (٤٤) .

---

(٤١) ibid, p. 73.
(٤٢) ibid, p. 73.
(٤٣) ibid, p. 74.
(٤٤) Torrance, E.P., 1979.

« فهناك قصص كثيرة عن أفراد اخترعوا شيئا ، أو فكروا فى فكـرة عظيمـة . ولكنهم لم يحددوا تفـاصيل تنفيـذ الاختراع أو تلك الفكرة العظيمة ، لكن شخصا آخر يخترع نفس الاختراع أو يفكر فى نفس الفكرة العظيمة فى وقت لاحق ويصنع تفاصيلها ، ويحصل على المكافأة على انجازه . اذ ليس يكفى أن نخلق أو نخترع شيئا ، أو نصل الى كشف علمي ، أو نفكر فى قصة عظيمة ، أو ننتج فكرة كبيرة لحل مشكلة مستقبلية ، اذ لكى يكون للفكرة أو الاختراع قيمة يجب أن نحدد تفـاصيلها . (٤٥) والافـراد الذين لـديهم هذه القـدرة هم « الذين يستطيعون أن يأخذوا فكرة أو عملا ويحددوا تفاصيله . وهم يستطيعون أن يأخذوا فكرة بسيطة ويزخرفوها لكى يجعلوها تبدو ساحرة أو جذابة . كـما تكون رسـومهم مفصلة تمـاما ، وهـو يستطيعـون أن يضعـوا خططا أو مشروعات مفصلة ومتكاملة » (٤٦) .

على أن تورانس توصل بعد ذلك الى أبعـاد اخرى للتفكـير الابتكـارى نـاقشهـا فى كتـابـه « البحث عن الساتورى والابتكار » (٤٧) ، منها الانفتـاح ، والوعي بـالمشـاعـر ، ووضـع الأفكـار فى سيـاق ، والـربط والتأليف ، واثراء الصور وتلوينها ، واستخدام الخيال والاستمتـاع بـه ، والتعبـير عن الحـركـة والصـوت ، واستخـدام منظور غـير عـادى ، وتـوسيـع الحـدود ، واستخدام الفكاهة والنظر الى المستقبل .

الموهوبون فى الولايات المتحدة : نظرة تاريخية

تكشف الدراسة التاريخية للموهوبـين فى الولايـات المتحدة الأمريكيـة عن حقيقة هـامة هى أنـه لا سبيل لمجتمع ما كى يتقدم وينمو ، فضلا عن أن يستمر وجوده الا بالاهتمام بالموهوبين ورعايتهم . كذلك تكشف هذه النـظرة التـاريخيـة عن أن الـذين يعملون فى الـدرس والبحث والاختراع يجب أن يتحلوا بصفات التواضع ، وأن يعتقدوا دائما أنهم اذا كانوا قد وصلوا الى كشوف جديدة وهامة ، فما زال هناك الكثير من الظواهـر التى تحتاج الى الكشف والدراسة . ومن ثم يكون على العلماء أنفسهم كما يكون على الدولة نفسها أن يستمروا فى نشاط دائم لا يهدأ لفهم الظواهر واكتشاف الجديد فيها . ولن يتحقق ذلك الا اذا كانت رعاية الموهوبين الذين يمكن أن يصلوا الى الكشف والاختـراع مـوضـع الاهتمـام المستمر . هذه الدروس نتعلمها اذا ما استعرضنا تاريخ الاهتمام بالموهوبين فى الولايات المتحدة الامريكية منذ فترة ما قبل اطلاق القمر الصناعى الروسي (٤٨) .

لقـد مثـل اختـراع القنبلة الـذريـة انجـازا علميـا

---

(٤٥) ibid, P.65.
(٤٦) Torrance, 1974, P. 74.
(٤٧) Torrance. 1979.
(٤٨) اعتمد فى هذا القسم على الدراسة التالية :

Tannenbaum, A.J. Pre-Sputnik to Post-Watergate concern about the gifted. In A.H. Passow (E.D) **The gifted and the talented: Their education and development. The seventy-eight yearbook of the National Society for the Study of education.** Checago : The Univetsity of Checago Press, 1979, 5 —17.

وعسكريا كبيرا فى الولايات المتحدة ، مما أدى بالقوات المسلحة الى أن تعتمد على اختراعات العلماء وابتكاراتهم . (٤٩) ولقد اعتمد الجيش الأمريكي على عدد كبير من العلماء أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد لا يوجد طالب واحد من طلاب الجامعات فى الولايات المتحدة الامريكية لم يسمع من أكثر من استاذ من اساتذته أنه كان مجندا فى الحرب العالمية الثانية ليخدم جيش بلاده فى ميدان تخصصه . كذلك تقوم القوات المسلحة الامريكية بتقديم الكثير من المخصصات المالية للانفاق على البحوث العلمية التى تجرى فى مجالات مختلفة من المعرفة تهتم القوات المسلحة بنتائج دراستها . ولقد أدى اختراع القنبلة الذرية الى اعتقاد الامريكيين بأن بلادهم تحتل مركز الصدارة فى ميادين العلم والتكنولوجيا ولذلك توقع الأمريكيون أن يكونوا دائما المتقدمين فى شتى مجالات الحياة . ويعترف الأمريكيون بفداحة الصدمة التى أصابتهم حينما نجحت روسيا فى اطلاق القمر الصناعى سبوتنيك ، وذلك أثناء الحرب الباردة التى كانت تقوم بينهم وبين روسيا . ولم يكن اطلاق القمر الصناعى مجرد انجاز علمى تكنولوجي وعمل بطولي يعمل على خفض الروح المعنوية للأمريكيين ، وانما كانت له تطبيقاته العسكرية . وكما يقول أحد الباحثين الأمريكيين » وفجأة أصبحت مكانة الأمة ووجودها فى خطر ، لأن عقول العدو الكبيرة قد فاقت عقول علمائنا ، وقد استثمر الروس هذه الضربة بأن أخذوا يذيعون فى كل أمة على الأرض نجاحهم أخيرا بأن يجعلوا أمريكا قوة من الدرجة الثانية « (٥٠) .

وهكذا كان الاختيار واضحا أمام الامريكيين ، اما أن يسارعوا الى الاهتمام بالموهوبين من أفرادهم ، أو أن يتقهقروا الى زوايا التخلف . وبذلك كان اطلاق القمر الصناعي هو العامل الذى أثار أولى الأمر الى بذل أكبر الجهود فى الاهتمام بالموهوبين ورعايتهم . لكن الحدث الروسي لم يكن هو العامل الوحيد الذى أثار الاهتمام بالموهوبين ، اذ لو لم تكن قد سبقته عوامل أخرى تساعد على هذا الاهتمام وتشجع عليه ، لما أخذت رعاية الموهوبين هذا الشكل الجدى الذى سيكون له أثر كبير فيما بعد . وتتضح هذه العوامل فى النقد الذى وجه الى المجتمع ككل والى التربية بوجه خاص نتيجة عدم اهتمامهم بالموهوبين . ففى وقت مبكر من الخمسينيات عبر المربون عن استيائهم من عدم اهتمام الجمهور بالاطفال الموهوبين . وفى عام ١٩٥٠ انتقدت لجنة السياسات التربوية بشدة تجاهل المدارس للأطفال الممتازين عقليا مما يؤدى الى انكماش الطاقات البشرية فى مجال العلوم والفنون والمهن . (٥١) وبعد عام كشفت لجنة أوهايو للأطفال والشباب عن أن ٢٪ فقط من المدارس فى هذه الولاية توجد بها فصول خاصة بالموهوبين ، وأن ٩٪ فقط من هذه المدارس أفاد أنه يوجد به نوع ما من اثراء الفصول المدرسية العادية . وكذلك وجه الأكاديميون النقد للتعليم الابتدائى

---

(٤٩) ibid.
(٥٠) ibid.
(٥١) Educational Policies Commission. **Education for the gifted.** Wachington, D.C. National Education Association, 1950.

عن المصدر السابق

والتعليم الثانوى (٥٢) . ففى عام ١٩٥٣ نشر بستور اتهاما صارخا للتعليم العام لممارسته نوعا خاصا من الخداع لأطفال امريكا . (٥٣) وقد كان بستور مقتنعا بأن المدارس تقدم غذاء عقليا أو تشجيعا على التفكير ضعيف القيمة خاصة للموهوبين الذين يأخذون فى عدِّ الأيام حتى يخلصهم التخرج من الملل الذى يخيم على حياتهم المدرسية . أما سبب ذلك فقد كان وضع السلطة فى أيدى التربويين الذين لا يعرفون شيئا .

كذلك كان قادة السياسة والاقتصاد يشعرون بالقلق بسبب انخفاض رصيد امريكا من القوى البشرية ذات المستوى المرتفع فى العلوم والتكنولوجيا ، ومن ثم فقد أخذوا يشجعون على الاهتمام بزيادة رصيد الأمة من المواهب البشرية . وعلى سبيل المثال أكد ولفل رئيس لجنة المصادر الانسانية والتدريب المتقدم أن الولايات المتحدة الامريكية فشلت فى أن تعد عددا كافيا من الرجال والنساء فى مجالات العلوم الطبيعية والصحة والتعليم والهندسة (٥٤). فخريجو المدارس الثانوية الذين كانوا يلتحقون بالجامعات ليحصلوا على دبلوماتها كانوا يمثلون ستة من عشرة طلاب فى أعلى ٥٪ ونصف أعلى ٢٥٪ من المتخرجين . أما فى ميدان الدراسات العليا فقد حصل على درجة الدكتوراه ٣٪ فقط من الأفراد الذين لديهم القدرة للحصول على مثل هذه الدرجة .

وزاد الأمر سوءا توقع أن يزداد النقص فى هذه المجالات فى أواخر الخمسينيات الا اذا نجحت المدارس فى تشجيع التلاميذ الموهوبين على الاستمرار فى الدراسة فى المستويات العليا . وترجع هذه الظاهرة التى تدعو الى الانزعاج الى حرص المدارس على التعامل مع متوسطى القدرة . وليس مع الممتازين ، اذ كان المدرسون يهيئون للعمل مع التلاميذ المتوسطين أو مع الاقل من المتوسطين ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح التلاميذ ذوو القدرات العالية موضع التجاهل (٥٥) .

وقد كانت جهود العلماء من العوامل الهامة التى ساهمت فى اثارة الاهتمام بالموهوبين فى وقت مبكر من الخمسينيات . فقد ألقى جيلفورد خطابه الرئاسى فى مؤتمر رابطة علم النفس الأمريكية السنوى والذى عقد فى كلية ولاية بنسلفانيا فى ٥ سبتمبر ١٩٥٠ (٥٦) وكان موضوع هذا الخطاب : « الابتكار » . وقد بدأ جيلفورد خطابه بقوله : « انى أناقش موضوع الابتكار بتردد كبير ، لأنه يمثل مجالا خشى علماء النفس - سواء كانوا ملائكة أو غير ذلك - أن يدخلوه » وأشار جيلفورد الى تجاهل علماء النفس المروع للابتكار . وأنه لم يتحقق من مدى هذا التجاهل الا فى وقت متأخر . ولكي يحصل على تصور واقعى لمدى تجاهل علماء النفس للابتكار ،

(٥٢) Ohio Commission on Children and Youth. **The status of the gifted in Ohio.** Columbus. Ohio: department of Education. 1951.

عن المصدر السابق
(٥٣) Bestor. A.E. **Educational wastelands.** Unbana, Illinois: University of Illinois Press, 1953.

عن المصدر السابق
(٥٤) Wolfle, D. **Americas resources of specialized talent** New York : Harper & Row, 1954.

(٥٥) Tannenbaum, 1979.

(٥٦) Guilford, J.P. Creativity. **American Psychogist,** 1950,5,444-454.

قـام جيلفـورد بفحص مجلدات مجلة الملخصـات السيكولوجية منذ نشأتها . وقد وجد انه من بين ١٢١٠٠٠ عنوان تقريبا فى هذه المجلة صدرت فى الثلاثة والعشرين عاما الماضية ، كان هناك ١٨٦ عنوانا لدراسات لها صلة بموضوع الابتكار . وبذلك تمثل الكتابات التى اهتمت بهذا الموضوع الحيوى أقل من ٢ , ٠٪ من الكتب والمقالات المذكورة فى مجلة الملخصات السيكولوجية . وحتى ذلك الوقت كان الافتراض السائد أن الطفل الموهوب هو الطفل شديد الذكاء ، وأن اختبارات الذكاء التى طورها تيرمان تمكننا من أن نحدد الأطفال الموهوبين . غير أن الأفكار التى عرضها جيلفورد فى خطابه ونموذجه فى « بناء العقل » جعل الدارسين يتحققون من أن هناك استعدادات أخرى غير الذكاء العام يمكن أن تستخدم لاكتشاف الموهوبين من الاطفال ، ومن بين هذه الاستعدادات التفكير الافتراقى divergent thinking . وقد توصلت جهود جيلفورد وزملائه الى أنه يمكن قياس الابتكار ، كما استطاعوا وضع الاختبارات التى تكشف عنه . وقد طور جتسل وجاكسون هذه الأفكار حين قاما بدراسة العلاقة بين الذكاء والابتكار (٥٧) . كما قام تورانس بدراسة المشكلة فى وقت لاحق (٥٨) . وقد برهنت هذه الدراسات على أنه يوجد مصدر آخر للموهبة غير الذكاء العام هو الابتكار . وقد كان ذلك موضع ترحيب كبير ، مثل ترحيبنا اليوم باكتشاف مصدر جديد للطاقة (٥٩) .

وبالرغم من تحذير المتخصصين ودراساتهم ، وبالرغم مما كان يتواتر من أخبار عن جهود روسيا فى بناء رصيدها من المواهب ، الا أنه لم يكن هناك عمل جاد فى المدارس الأمريكية حتى أطلقت روسيا القمر الصناعى سبوتنيك . فى ذلك الوقت بدأ النقاش يزداد والبحوث العلمية تكثر ، مما أدى الى تغييرات جذرية فى التعليم العام . فلقد اقتنع الامريكيون أن الروس قد سبقوهم فى تكنولوجيا الفضاء لأنهم (أي الأمريكيين) لم تكن لديهم القوى العاملة التى تعمل على تقدم العلم . لذلك اهتم الأمريكيون بالتعليم السوفيتى الذى يؤدى الى انتاج العلماء وقارنوا بينه وبين التعليم الامريكي . وعلى سبيل المثال ورد فى أحد التقارير أن التلميذ قبل أن يتخرج من المدرسة الثانوية فى روسيا يكون عليه أن ينجز خمس سنوات من الدراسة فى علوم الطبيعة والبيولوجيا واللغة الاجنبية ، وأربع سنوات فى الكمياء ، وسنة فى الفلك ، وعشر سنوات فى الرياضيات . وبالمقارنة بهذه المتطلبات تحقق المربون الامريكيون من أن تلاميذهم دون هذا المستوى العلمى بكثير . وأسوأ من هذا ، فإن عدد التلاميذ الامريكيين الذين حصلوا على درجات جامعية فى العلوم ، وانتظموا فى مهن ترتبط بالدفاع كانوا أقل من زملائهم الروس بكثير (٦٠) .

---

(٥٧) Getzels, J.W. & Jackson, P.W. **Creativity and intelligence**. New York John Wiley, 1962.

(٥٨) Torrance, E.P. 1962.

(٥٩) Tannenbaum, 1979.

(٦٠) Soviet commitment to education. Report of the first U.S. Educational Mission to the UssR, Bulletin 1959, No. 16, office of education, U.S. Department of Health, Education, and Welfare. Washington , D.C., U.S. Government Printing Office, 1959.

عن المصدر السابق

فى ذلك الوقت كان على الامريكيين أن يسارعوا الى بناء الطاقة البشرية ذات المستوى العالى « أو أن يخاطروا برؤية حالة من الطوارىء القومية تنقلب الى كارثة قومية » . فى ذلك الوقت بدأ المختصون يعترفون بأنه يجب أن يحدث كثير من الاصلاحات . فالواقع أن الانتقادات كانت توجه الى التعليم الامريكي باستمرار ، ومن ثم كان رد الفعل لاطلاق سبوتنيك سريعا وقويا . ونتيجة لهذا المناخ سارع المربون الى الاهتمام بالموهوبين ، ومن ثم توفرت الاعتمادات المالية من الدولة والهبات المالية من الأفراد للمساعدة على اكتشاف الموهوبين والعمل على توفير الامتياز فى القوى البشرية . وقد أعيد تخطيط المقررات الاكاديمية بحيث أصبحت أكثر عمقا وشمولا حتى يمكن اختبار القدرات العقلية للموهوبين ، كما أن بعض المقررات التى كانت تقدم على المستوى الجامعى ، أخذت تقدم كبرامج لتنمية الموهبة على مستوى المدارس الثانوية والابتدائية . وبالرغم من أنه لا يمكن التأكد من عدد المدارس التى كانت تقدم برامج خاصة للموهوبين ، وبالرغم من أن بعض البرامج التى كانت تقدم لهم لم تستمر طويلا ، الا أن بعض البرامج التى بدأت كبرامج اثرائية للموهوبين فقط ، استمرت بعد ذلك وأدت الى تغيير المنهج الدراسى للتلاميذ جميعا . وكثير مما يدرس الآن فى الرياضيات والعلوم هو فى الواقع ميراث فترة ما بعد اطلاق سبوتنيك من البرامج التربوية التى صممت للموهوبين .

وبالاضافة الى وفرة الأنشطة والبرامج الخاصة التى بدأت فى الخمسينيات وبداية الستينيات فقد كانت هناك طفرة فى البحوث العلمية التى تهتم بخصائص الموهوبين وتربيتهم . ولقد ركزت البحوث فى ذلك الوقت على موضوعات مثل مدى فاعلية بعض الخطط الادارية لمعاملة الموهوبين ، المكانة الاجتماعية للموهوبين فى المدرسة وأثرها على دوافعهم للتعليم ، أسباب وعلاج التأخر الدراسي عند التلاميذ ذوى الموهبة العالية ، دوافع الانجاز وغيرها من العوامل غير العقلية فى التعليم ذى المستوى العالي ، والعوامل النفسية والاجتماعية المرتبطة بعمليات التفكير الافتراقى . وقد غمرت الدوريات العلمية بالبحوث والمناداة بتوفير امكانيات خاصة للموهوبين مما زاد من الكتابات المتخصصة عن الموهوبين حتى أن أحد الكتاب زعم بأنه كان هناك من المقالات التى نشرت فى الفترة ما بين ١٩٥٦ وحتى ١٩٥٩ أكثر مما كان فى الثلاثين سنة الماضية [٦١] .

فى هذه الفترة اهتمت المدارس بتأكيد المعايير الأكاديمية العالية والتقدم الأكاديمى والتفكير فى المستقبل المهنى . وأصبح الطفل الموهوب لا يفكر اطلاقا فى أن يترك المقررات الجادة ويدرس المقررات ذات المطالب المحدودة . فلم يكن ذلك هو الزمن الذى يتصرف فيه الشباب على هواه أو لا يعمل شيئا على الاطلاق . وانما نشأ الشباب فى وقت تنشط فيه المواهب ، حيث يطلب من أكثر العقول أن يحققوا امكانياتهم ويخضعوا قدراتهم النامية فى سبيل خدمة الأمة .

---

(٦١) عن المصدر السابق . French, J.L. (Ed) **Educating the gifted.** New York : Henry Holt, 1959. Tannenbaum.

الستينيات وعصر جون كينيدى

بدأت الستينيات بانتخاب جون كينيدى رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية . وقد صاحبت انتخاب كينيدى أحلام ووعود بتحقيق دولة مثالية حديثة . ولقد أكد كينيدى فى خطبه وتصريحاته أن العقول والاخلاص للدولة هى أهم رصيد للأمة . كما أعلن اصراره على أن يرسل انسانا ليهبط على القمر فى عام ١٩٧٠ ، وكان ذلك يعنى قبول تحدى روسيا للتفوق فى استكشاف الفضاء . وأعلن أنه سيجند لذلك أبرز العلماء لكى يعملوا على تحقيق ذلك . وكان هذا يعنى تشجيع أقدر التلاميذ على أن يدرسوا العلوم حيث يقدم لهم أفضل البرامج الخاصة ، اذ كان المتوقع أن يخرج من بين هؤلاء التلاميذ الموهوبين مجموعة من العلماء الذين يعملون على تحقيق تصميم الرئيس .

ومن الأمثلة التى تكشف عن اهتمام جون كينيدى بالموهوبين أنه جمع أفضل عقول أمريكا كي يعملوا مستشارين له . وكان بعض هؤلاء قد اكتسب شهرة كأساتذة فى الجامعات أو قادة فى مجالات الصناعة . وكان كل منهم يمثل تميزا عقليا وحماسا لمعالجة أكثر مشكلات الدولة صعوبة . وقد برهنت هذه السياسة على أنه أصبح أمام الاطفال الموهوبين نموذجا يتمثل فى هؤلاء المستشارين الذين كانوا بدورهم أطفالا موهوبين والذين اكتسبوا نتيجة لموهبتهم الشهرة والقوة المرتبطتين بالمراكز التى كانوا يشغلونها .

ومع ذلك فلا يجب أن نتسرع فنستنتج من ذلك أن العقل الموهوب قد وجد أخيرا مكانه اللائق به فى المجتمع . فالدراسات التى أجريت تكشف أنه كان من السهل فى ذلك الوقت أن يكتسب التلميذ مكانة بين زملائه اذا كان بطلامن أبطال الرياضة البدنية أكثر مما لو كان فى قائمة الشرف . ولكن سنوات حكم كينيدى كانت تقدم أملا فى الحصول على مدعمات اجتماعية واقتصادية لأولئك الذين يريدون تنمية قدراتهم العقلية الممتازة (٦٢) .

وقد كانت روح العصر فى حكم كينيدى ترجح من كفة العلوم . فقد كان هناك شعور بأن العالم يستطيع أن يخدم الأمة أفضل مما يستطيع الشاعر وقد كشفت خطط الأطفال الموهوبين فى الخمسينيات وأوائل الستينيات عن أن الطلاب شديدى الذكاء تخصصوا فى العلوم ، وكثير منهم كان يخطط للتخصص فى التكنولوجيا التى تخدم أهداف الدفاع (٦٣) .

ومع ذلك فان الاهتمام برعاية الموهوبين والجهود التى بذلت من أجلهم لم تخل من بعض المثالب . فلم يكن التهديد الروسي الذى تمثل فى اطلاق سبوتنيك ، ولم يكن الحماس الذى ساد فى عصر كينيدى ، كافيين للاستمرار فى رعاية الموهوبين فى المدارس . ويبدو أن عصر كينيدى لم ينجح فى ارساء دعائم الفلسفة التى تؤكد الاهتمام بالامتياز فى القوى البشرية والبحث عن هذا الامتياز وبذل الجهود من أجل تنميته . فقد اعتبر اثراء المنهج الدراسي بمثابة حلي يسارع المربون الى التخلى عنها حين تزداد تكاليفها . كذلك فان كثيرا من الطلاب الذين عمل المرشدون فى المدارس الثانوية على توجيههم الى التخصص فى مجالات العلوم غيروا تخصصاتهم حينما

(٦٢) Tannenbaum, 1979.
(٦٣) Ibid.

وصلوا الى الفرقة الثالثة فى دراستهم الجامعية ، كما أنه لم تبذل جهود كبيرة للاهتمام بالتلاميذ الموهوبين فى المجالات غير الأكاديمية كالفنون والميكانيكا وقيادة الجماعات . كما أن الجهود العلمية التى بذلت فى دراسة وقياس التفكير الافتراقى الانتاجى ظلت حبيسة معامل البحوث . وقد اتجه قليل من الجهود الى ابتكار وسائل لتنمية هذا النوع من الاداء العقلي وترجمته الى مناهج دراسية . وأخيرا فان البرامج القومية للبحث عن المواهب فشلت فى أن تصل الى الأقليات المحرومة اجتماعيا ، والتى كان أداؤ ها أقل من المستوى القومى ، اذ كان من الصعب الوصول الى هؤلاء الطلاب الموهوبين لأن بيئاتهم لم تكن تقدم لهم التشجيع الكافى الذى يمكن مواهبهم من الظهور . (٦٤)

عوامل مضادة

كان النضال لالغاء التمييز العنصرى من العوامل الهامة التى أثرت فى الاهتمام بالموهوبين ، فلقد قررت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة الغاء التمييز العنصرى فى المدارس العامة فى عام ١٩٥٦ ، تحقيقا للديمقراطية ، ومن ثم برز الاهتمام بتحديث الدستور وخاصة قانون الحقوق المدنية ، لتحقيق هذا الهدف . وبطبيعة الحال تركز الاهتمام على التربية . لكن الدوافع الى هذا الاهتمام لم يكن فى هذه المرة اكتشاف المواهب وتنميتها ، بل كان تحقيق العدالة الاجتماعية ، والاهتمام بالمحرومين اجتماعيا . وقد أدت هذه الحركات الى تركيز الهجوم على اختبارات الذكاء باعتبارها الأساس الذى يحدد ما اذا كان الطفل موهوبا . كما وجه النقد أيضا الى جمع التلاميذ فى فصول الموهوبين على أساس هذه الاختبارات . فقد اعتبرت هذه الاختبارات من عوامل التمييز العنصرى ، لأن أفراد الأقليات لم يكونوا يحسنون الأداء على هذه الاختبارات لاعتمادها الكبير على اللغة وثقافة البيض . ومن ثم فان حصول أطفال البيض على درجات عالية فى هذه الاختبارات كان يعطى الانطباع بأنهم أكثر ذكاء من أقرانهم من الأقليات . (٦٥) وكان ذلك من العوامل التى ساهمت فى تقهقر الاهتمام بالموهوبين فى أواخر الستينيات ، لكن هذا الاهتمام برز من جديد ، وبشكل أقوى فى السبعينيات . ففى عام ١٩٧٠ . أضاف الكونجرس تعديلات لقانون التعليم الابتدائي والثانوى يتيح توفير امكانيات للموهوبين ، وقد كان ذلك تعبيرا عن اهتمام المشرعين بالموهوبين ، وفى عام ١٩٧٤ أسس مكتب الموهوبين فى وزارة التربية الأمريكية ، كما خصص ٢,٥٦ مليون دولار لابتكار برامج لرعاية الموهوبين . وأعيد تخصيص ميزانيات لهذا الغرض فى عام ١٩٧٧ . وفى حين أنه فى عام ١٩٧٣ كان ٤٪ فقط من الموهوبين يحصلون على نوع من الاهتمام فى مدارسهم الا انه يمكن القول بأن كل مدرسة وكل ولاية تظهر الآن اهتماما بالموهوبين . وبالرغم من أن تراث الستينيات وما اتسم به من تحول الاهتمام بعيدا عن الموهوبين كان ثقيلا ، الا أن الرغبة فى السعى الى

---

(٦٤) ibid.

(٦٥) ibid.

تحقيق الامتياز فى تنمية المواهب عاد من جديد فى السبعينيات (٦٦) .

يتضح من الاستعراض السابق أنه يوجد عدة عوامل ساهمت فى جعل الاهتمام باكتشاف المواهب وتنميتها جزءا أساسيا من عمل التربية :

١ ـ جهود العلماء فى التنبيه الى أهمية المواهب واكتشافها وتنميتها ابتداء من دراسات تيرمان حتى جهود جيلفورد وتورانس وغيرهم ، وقيامهم بالدراسات والبحوث التى ألقت كثيرا من الضوء على طبيعة الموهبة وساعدت فى الكشف عنها وابتكار برامج لتنميتها .

٢ ـ التناسق بين أمريكا وروسيا ونجاح روسيا فى اطلاق القمر الصناعى مما أشعر الأمريكيين بتخلفهم علميا وتكنولوجيا .

ولقد أصبح نجاح روسيا فى اطلاق القمر الصناعى عام ١٩٥٦ درسا من الصعب أن ينسى . فالمفكرون يأخذون على عاتقهم اليوم بأن يعملوا على زيادة وعى المجتمع الأمريكي بما يحدث فيه . وها هو واحد من العلماء المؤثرين الذين أسهموا فى الدراسة العلمية للموهوبين وابتكار البرامج لتنميتهم يكتب فى عام ١٩٧٩ (٦٧) .

« كانت الولايات المتحدة فى الستينيات تبدو فى مقدمة العالم فى ميدان الابتكار ، وكان علماؤ نا يقومون بانجازات هامة . فقد هبطنا على القمر الصناعى ، وكان مخترعونا كثيرى الانتاج . وأجريت تغييرات هامة فى المناهج والكتب المدرسية . كما كان المناخ القومى للابتكار يتحسن . لكن يبدو الآن أن هذه الاتجاهات تنقلب رأسا على عقب . ففى عام ١٩٧٩ هبطت براءات الاختراع التى صدرت لمواطنى الولايات المتحدة الى أدنى مستوى خلال خمسة عشر عاما . كما ارتفع العجز فى ميزاننا التجارى الى ٢٨ مليون دولار فى عام ١٩٧٨ ، ويتوقع أن يزداد هذا العجز فى عام ١٩٧٩ ، كما يتوقع أن يستمر هبوط انتاجنا للبضائع ، وهذا يشير الى أن لدينا مشكلة قومية فى انخفاض الانجاز تشبه مشكلة الانجاز المنخفض الذى أثار اهتمام المعنيين بتربية الطلاب الموهوبين والممتازين لعدة سنوات » .

ولقد أوضح تورانس في دراسته كيف أن اليابان قد تفوقت على الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة في مظاهر عديدة من الحياة ، حتى أصبحت تسمى « اليابان باعتبارها الدولة رقم ١ : دروس لأمريكا » وهو عنوان أحد الكتب التي صدرت عن اليابان وطبعته مطبعة جامعة هارفارد في عام ١٩٧٩ (٦٨) . وقد كتب تورانس دراسته هذه بعد أن عاد من زيارة علمية لليابان استغرقت ثلاثة شهور في بداية عام ١٩٧٩ ، وفي هذه الزيارة درس تورانس العوامل التي أدت باليابان الى التفوق في كثير من المجالات . وما يمكن أن نستخلصه من دراساته هو : إنهم في اليابان يدعمون الابتكار في شتى مظاهر الحياة الى أبعد حد ممكن ، كما أنهم يدعمون المثابرة على العمل وبذل الجهد .

---

(٦٦) ibid.

(٦٧) Torrance, E.P. Lessons about giftedness and creativity from a nation of 115 million overachievers. Gifted Child Ouarterly, 1980, 24 (1), 10-74.

ظهرت ترجمة لهذا المقال تعلم كاتب هيه الدراسة في مجلة العلوم الاجتماعية ، ١٩٨٠ ، ٨ (٣) ، ١٦٣ ـ ١٩٧٤ .

(٦٨) Vogel, E.F. **Japan as No. 1 : Lessons for America. Cambridge: M.A: Harvard University Press, 1979.**

التربية والموهبة والمستقبل

الحقيقة التي لا يجب أن تغيب عن ذهن أي مجتمع هي أن معدل التغير أصبح سريعا في عدد من المجتمعات ، وأن المجتمعات تتسابق في التقدم نحو التحكم في الحياة وما فيها ، ونحو تنمية طاقاتها وخاصة البشرية . والمجتمعات التي يكون فيها معدل التغير بطيئا ، لا تقف منعزلة عن هذا المناخ . بل انه حتى في المجتمعات المتقدمة يشاهد الشباب ما يحدث في هذه المجتمعات من تغيرات وما يوجد فيها من تنظيمات ويلعبون أدوارا ايجابية ، ويتخذون مواقف بازاء هذه التغيرات . وثورات الشباب في امريكا على حرب فيتنام ، وفي فرنسا وغيرها من البلاد المتقدمة ليست ببعيدة عن الذهن ، ولقد ثار الشباب حتى على أساتذتهم ، وحرقوا ملفات بحوث أحد أساتذة جامعة كلومبيا ، محاولين أن يبرزوا أن عبقرية الاستاذ كان يمكن أن تستغل بشكل أفضل من العمل في البحوث العقيمة التي يقوم بها والتي لم توصلهم الى المجتمع الطيب الذي ينشدونه (٦٩). والدرس الذي يمكن أن نتعلمه من ثورات الشباب ومن الحروب ومن تقدم بعض المجتمعات أو تأخر بعضها هو أنه لا خيار أمام أي مجتمع بازاء التغير ، اذ لابد لأي مجتمع من أن يعي ما يحدث فيه وفيما حوله من تغير ، وأن يرصد هذا التغير ، وما يمكن أن نستخلصه من كل ذلك هو :

١ ـ أن التغير هو حقيقة العصر . وأنه يحدث سواء أردنا أو لم نرد .

ب ـ من الأفضل أن نتدارس هذا التغير ، ونتنبأ به ، ونحاول الاستجابة له بشكل يحقق فاعلية الانسان والمجتمع وتكاملهما .

ج ـ أن نقطة البداية في الاستجابة للتغير هي التربية ، بكل مؤسساتها سواء في ذلك المدرسة أو الأسرة أو غيرهما من مؤسسات المجتمع .

د ـ أن نقطة الانطلاق في التربية التي تستجيب للتغير هي أن يكون لدى المجتمع والأفراد صور قوية وايجابية للمستقبل ، سواء كان مستقبلا للفرد أو مستقبلا للمجتمع ، فالمستقبليون يخبروننا بأن المجتمعات التي كان لديها صورة ضعيفة عن المستقبل انقرضت ، أما المجتمعات التي نمت وازدهرت فهي التي كان لها صور قوية وحية عن المستقبل . وفي التنبؤ بسلوك الفرد ، تتضح أهمية تصوره للمستقبل اذ يبدو أن تصور المستقبل يحدد الى حد كبير الأشياء التي سيكون الفرد مدفوعا الى تعلمها وانجازها ، وكيف سيحيا ويتكيف ويتعامل مع المجتمع الذي يتغير بدرجة كبيرة (٧٠).

وحين تبرز في مجتمع ما ظواهر سلبية ، تشير أصابع الاتهام عادة الى التربية ولقد شاهدنا كيف تركز الهجوم على المدارس في أمريكا حين أشار اطلاق القمر الصناعي الروسي الى تخلف الولايات المتحدة في ميادين العلم والتكنولوجيا . والواقع أن التربية هي انعكاس لما يحدث في المجتمع . فاذا كان المجتمع يدعم الابتكار والاختراع فستهتم التربية بتنشئة التلاميذ لكي يكونوا مبتكرين ومخترعين ، واذا كان المجتمع يدعم التقليد والعادة والعرف ، فستعمل المدارس على تدعيم ذلك . لكن التربية لا تقوم بها المدارس فقط . فالمؤسسة الأولى للتربية هي الأسرة . وكل مؤسسات المجتمع وقطاعاته التي تتعامل مع أفراده في شتى مراحل حياتهم لها دور في تربية أفراده . وكل دراسة لدور التربية في المجتمع يجب أن تأخذ اسهام كل مؤسسات التربية في الاعتبار ، غير أن الاهتمام كان دائما منصبا على دور المدرسة ، فالمدرسة هي المؤسسة التي تديرها الدولة لتنشئة أفراد المجتمع . والسؤال الآن هو : ماذا فعلت المدرسة لتنمية المواهب ؟

---

(٦٩) Tannenbaum, 1979.
(٧٠) Toffler, A. (Ed.) **Learning for tomorrow: The role of the future in education.** New York: Vantage Books, 1974.

دور التربية في تنمية الموهبة في الولايات المتحدة

كان من نتيجة اطلاق روسيا للقمر الصناعي ، وشعور امريكا بتخلفها في ميدان العلم والتكنولوجيا ، والنقد الذي وجه الى المدارس ، والبحث عن بدائل لأساليب التربية القائمة ، أن حدثت في الستينيات ثورة في التربية ، أخذت ثمارها تظهر في السبعينيات وقد اشتملت هذه الثورة على الجوانب الآتية (٧١) :

١ - حدثت تغيرات أساسية في أهداف التربية . وتكشف دراسة أهداف تدريس المواد الاجتماعية عن أنه لم يكن ثمة اهتمام بتنمية أي نوع من مهارات التفكير . فطلاب الدراسات العليا والباحثون الذين كانوا يريدون دراسة أساليب حل المشكلات والتفكير الابتكاري لدى التلاميذ قلما كانوا يجدون مثل هذا السلوك لكن الاهتمام بالتفكير الابتكاري أخذ يزداد بعد ذلك ، وعلى سبيل المثال قام تورانس بمراجعة ١٤٢ دراسة تجريبية صممت لتيسير التفكير الابتكاري في المدارس الابتدائية والثانوية وتكشف هذه الدراسات عن اهتمام المربين والباحثين بابتكار أساليب لتنمية التفكير الابتكاري . وقد كشفت مناقشة تورانس لهذه الدراسات عن أنه يمكن تدريس مهارات حل المشكلات الابتكاري ، وأنه حيث يتدرب التلاميذ على هذه الأساليب ويمارسونها فانهم يكتسبون هذه المهارات ، ويصبح في امكانهم انتاج حلول ابتكارية للمشكلات . ويشير تورانس الى دراسات أجريت في الستينيات تكشف أن المدرسين لم يكونوا يدعمون أو يثبطون اساليب السلوك والظروف البيئية التي تؤدي الى تنمية السلوك الابتكاري . لكن دراسة أجريت بعد ١٥ سنة أي في عام ١٩٧٥ تكشف أن ٩٦٪ من ٤٠٨ مدرس في خمس مدن كبيرة كانوا يرون أن نشاط الفصول يجب أن يخصص لتدريس التفكير الابتكاري وحل المشكلات ، وأن ٨٧٪ منهم رأوا أن تدريس الابتكار وحل المشكلات يجب أن يتم من خلال المجالات المنهجية العادية (٧٢) .

٢ - حدثت تغييرات هامة في أساليب التدريس وفي علاقة المعلم بالتلاميذ . فقد انتشرت في الستينيات حركة تعديل السلوك Behavior Modificationوخشي المهتمون بالتفكير الابتكاري أن تؤدي هذه الحركة الى أن تتبنى المدارس الأساليب التي تمكن المدرسين من التحكم في سلوك التلاميذ مما يتعارض مع الجهود التي تهدف الى تنمية السلوك الابتكاري . لكن الذي حدث هو أن المربين تعلموا الكثير من أساليب التحكم في السلوك والبيئة لصالح تنمية السلوك الابتكاري . وقد أنتج الكثير من الأفلام والشرائط والكتب ، وغيرها من وسائل الاتصال التي يمكن أن تستخدم في البرامج التي تهدف الى تدريب المدرسين على اتقان مهارات تنمية التفكير الابتكاري (٧٣) .

٣ - تأثرت أساليب التدريس بانتاج مواد تستخدم في المنهج الدارسي في عدد من المجالات مثل القراءة ،

(٧١) Torrance, E.P. Creativity and futurism in education: Retooling., **Education,** 1980, **100**, 298-311.

(٧٢) Torrance, E.P. & Torrance, J. Pansy. **Is creativity teachable.** Bloomington, Indiana: Phi Delta Kappa, 1973.

راجع أيضا Torrance, E.P. Can we teach children to think creatively ? **Journal of Creative Behavior,** 1972, 6, 114-143.

راجع أيضا Torrance, E.P., 1980.

(٧٣) راجع ايضا Torrance, E.P. Students of the future: Their abilities, achievements, and images of the future. **Creative Child and Adult Quarterly,** 1976, 1, 76-90.

والـدراسـات الاجتمـاعيـة ، العلوم ، الفنـون ، الرياضة ، الموسيقا وغير ذلـك . ومن أهم هذه المـواد كتاب المعلم ، وكتاب التلميذ المرتبطان بمجال ما ، فقد كانت هذه الكتب تساعد كلا من المعلم والتلميذ ، على القيام بالأنشطة التي يمكن استخدامها قبل وخلال وبعد دروس القراءة لتيسير التفكير الابتكاري والمهارات التي يمكن توقعها في مراحل العمر المختلفة (٧٤).

٤ ـ انتجت مواد للتعليم في المنهج تساعد على تيسير التفكـير الابتكاري وهنـاك أمثلة عـديـدة لهـذه المـواد التعليمية (٧٥).

٥ ـ تآزرت جهود الباحثين مـع تنبؤات المستقبليين بالتغيرات المتوقعة في السلوك الانساني والمتصلة بقدرات الانسان على التعلم . وقد تنبأ المستقبليون بأن كثيرا من تعلم الانسان في المستقبل سيكون موجهـا ذاتيا self-directed learning وفي نـفـس الـوقـت أخـذ الباحثون يبتكرون برامج للتعلم الموجهة ذاتيا وبـرامج لحل المشكلات الابتكاري والمستقبلي . كذلك أخـذوا يعملون على ابتكار وسائل تمكن من تقـدير القـدرات والمهـارات والدوافـع اللازمـة للتعليـم الموجـه ذاتيـا ومساعدة التلاميذ على اكتسابها (٧٦).

٦ ـ من أهم العوامل التربوية التي أثرت في تنميـة الموهبة ابتكار اختبارات سيكولوجية وأساليب ملاحظة تمكن من اكتشاف الموهوبين . وقد أشار تورانس في عام ١٩٥٩ الى أن اختيار أعلى ٢٠٪ من تـلاميذ المـدارس باعتبارهم موهوبين على أساس اختبار ذكاء يؤدي الى عدم اكتشاف ٧٠٪ من الموهوبين الذين يمكن اكتشافهم بواسطة اختبار في الابتكار . وقد بنى تورانس رأيه هذا بناء على دراسات في عدد من المدارس أجراها في عام ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ وقد دلت الدراسات التي أجراها في السبعينيات على أن استنتاجه ما زال قائما (٧٧). ومما هو جدير بالذكر أنه حتى عام ١٩٦٠ لم يكن هناك اختبارات منشورة تجاريا تستخدم في الكشف عن الموهبة (٧٨). أما الآن فتوجد عدة اختبارات يمكن شراؤها واستخدامها على نطاق واسع في الكشف عن الموهوبين (٧٩). كما أن بعض هذه الاختبارات أجيز استخدامه في عدة ولايات أمريكية للكشف عن الموهوبين وللاستخدام في عدد من برامج الموهوبين الخاصة .

٧ ـ تـركـز الاهتمـام في الاعـداد لمستقبـل الحيـاة Career Education عـلى استثـارة القـدرات الابتكارية للتلاميذ بهدف المزج بين التعليم المدرسي والخبرات المرتبطة بالعمل ، وفهم الذات . وقد اهتمت المناهج التي صممت للاعداد لمستقبل الحياة بـالكشف عن التضمنـات ، والـوصـول الى تغييـرات والتنبؤ باتجاهات ، ونتائج القرارات . وتفصيل البدائل واثارة أسئلة مرتبطة بالقضايا ، واتخاذ القرارات والحصول على

---

(٧٤) ibid.

(٧٥) ibid.

(٧٦) ibid.

(٧٧) Torrance, 1980 & 1962.

(٧٨) Torrance, 1980.

(٧٩) راجع المصادر الآتية للاطلاع على اختبارات الابتكار المنشورة :

(1) Guiford, J.P. **Creativity tests for children : A manual of interpretation**. Qrange, calif. : Sheridian psychological services, 1971.
(2) Khatena, J. and Torrance, E.P. **Novms-technical manual Thinking creatively with sounds and words.** Lexington Mass. : Personnel 1973.
(3) **Schaefer,** C.E. **Similes test manual.** Goshen, N.Y. Research psychologists Press, 1971.
(4) Torrance, 1974.

معلومات جديدة والتعرف على امكانيات الفرد وفهمها ، وتغيير الفرد لخصائصه ، وهكذا ونجد في كل هذه المهارات وأنواع السلوك هذه ابتكارا كما نجد فيها توجيها مستقبليا (٨٠).

والآن كيف أثرت كل هذه العوامل التربوية على قدرات وانجازات التلاميذ ، وصورهم المستقبلية ؟

يشير تورانس في مقاله عام ١٩٧٦ (٨١) الى الصورة التي تتسم بالخلط والاضطراب عن التلاميذ وقدراتهم وتحصيلهم . فتقارير شركات نشر الاختبارات النفسية تشير الى أن التلاميذ أصبحوا أقل ذكاء وأنهم يعرفون أقل مما كانوا يعرفون في الماضي . في نفس الوقت تشير دراسات أخرى الى أن التلاميذ في الجامعة يحصلون على درجات أفضل مما كانوا يحصلون عليه في الماضي . ويشير تورانس الى عدد من الدراسات التي كشفت عن انخفاض في تحصيل التلاميذ المدرسي وقدراتهم ، وقد وجه النقد الى الاختبارات التي انخفض أداء التلاميذ عليها فوصفت بأنها أصبحت غير حديثة ولا صلة لها بأهداف التربية اليوم ، كذلك اتهمت الجامعات بأن متطلباتها أصبحت تتسم بالتساهل . وأخذ كل من الفريقين ينكر ما يوجه اليه من اتهامات ويبحث عن تفسير لنتائج الدراسات في أداء التلاميذ وبالنسبة لأداء التلاميذ في الجامعة فقد كشفت إحدى الدراسات عن سبب يبدو معقولا لارتفاع تحصيل التلاميذ . فالجامعات اليوم تسمح للتلاميذ باختيار مقرراتهم ومعنى هذا أنه أصبح بامكان التلميذ اليوم أن يختار مقرراته الجامعية التي يشعر بميل الى دراستها ، ومن ثم تكون لديه دوافع لتعلمها والنجاح فيها .

وقد شعر تورانس بالحيرة بازاء هذه التقارير التي تشير الى انخفاض في قدرات التلاميذ ، لأنه بدا له ، كما يبدو لغيره ، أن التلاميذ اليوم في كل المستويات التعليمية ، يعرفون ويفكرون بشكل أفضل مما كانوا عليه منذ خمس أو عشر سنوات مضت . وقد توصل تورانس الى هذا الرأي خاصة وأنه يشرف على تصحيح اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري ، حيث يصحح في كل عام ما يقرب من ٢٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ اختبار من الولايات المتحدة وكندا ، ومن ثم كان يلاحظ الازدياد في قدرات التفكير الابتكاري لدى التلاميذ . لكنه خشي أن الاختبارات التي ترد اليه من أنحاء امريكا وكندا المختلفة ربما أجريت على أطفال موهوبين حيث إنه من المعتاد أن تجري هذه الاختبارات على الموهوبين . لذلك اهتم تورانس بقياس قدرات التفكير الابتكاري لتلاميذ الفصل السادس الابتدائي في مدرسة كان قد أجريت اختبارات التفكير الابتكاري على كل تلاميذها في عام ١٩٦٧ . وقد اختار تورانس هذه المدرسة لاعادة قياس قدرات التفكير الابتكاري للتلاميذ فيها عام ١٩٧٦ لأنها كانت مدرسة عادية في تمثيلها لغيرها من المدارس العادية ، فتلاميذها يأتون من بيئة تتميز بتعدد المستويات الاقتصادية الاجتماعية ، كما أنها تتميز بالاستقرار في الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٦ . فقد استمر في هذه الفترة كثير من المدرسين ، وبقي المرشد المدرسي ، ورقي مساعد الناظر فصار ناظر المدرسة . وفي خلال هذه الفترة لم تقدم أية برامج مما يشجع التفكير الابتكاري ، باستثناء بعض مواد المنهج التي أدمجت الابتكار مع محتوى المنهج التقليدي . وقد وجد تورانس أن أداء تلاميذ الفصل السادس الابتدائي على اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري عام ١٩٧٦ كان أفضل من أداء أقرانهم على نفس الاختبارات عام ١٩٦٧ . ومن دراسة الفروق بين أداء المجموعتين من التلاميذ نجد أن أكبر تحسن طرأ في حالة الأبعاد الكيفية للابتكار وهي الأصالة والتفاصيل ، وقد وجد تورانس تأييدا لنتائجه في نتائج دراسة فلانجان المشهورة والتي أجريت على

(٨٠) Torrance, 1980.
(٨١) Torrance, 1976.

مستوى الولايات المتحدة والمعروفة باسم Project TALENT[٨٢]. فقد قارن فلانجان بين أداء تلاميذ الفرقة العاشرة في عام ١٩٦٠ وأداء أقرانهم في عام ١٩٧٥ على مجموعة من الاختبارات. وقد وجد فلانجان أن تلاميذ الفرقة العاشرة في عام ١٩٧٥ احتفظوا بمستوى أقرانهم في عام ١٩٦٠ في الفهم والقراءة والرياضيات، لكن أداءهم كان منخفضا عن أداء أقرانهم في الكلمات واللغة الانجليزية والحساب في الرياضيات. لكنهم تفوقوا على أقرانهم عام ١٩٦٠ في الابتكار والتفكير والاستدلال المجرد. ويفسر فلانجان هذه الزيادة بازدياد الاهتمام بأسلوب حل المشكلات في المنهج. ويعلق تورانس على هذه النتائج بأن الانخفاض في الأداء على اختبار المفردات كان نتيجة أن مفردات تلاميذ عام ١٩٧٥ أصبحت مختلفة عن مفردات أقرانهم عام ١٩٦٠، ويعتقد أن تلاميذ ١٩٦٠ سيكون أداؤهم منخفضا على اختبار مفردات وضع على أساس المفردات السائدة عام ١٩٧٥. كما أن انخفاض الأداء في حساب الرياضيات يرجع الى انتشار الحاسبات الآلية التي يستطيع التلميذ أن يحملها معه في جيبه، مما يجعله غير متحمس للتدريب على الحساب. ويلخص تورانس هذه النتائج فيقول أنه يتوقع أن تلاميذ الجامعة في المستقبل سيكون أداؤهم منخفضا على الاختبارات التي تقيس القدرات المدرسية والانجاز المدرسي، بينما سيكون مرتفعا على الاختبارات التي تقيس التفكير الابتكاري وحل المشكلات.

تنمية قدرات الانسان على التصور المستقبلي:

العقل الذي يستطيع تصور المستقبل هو العقل المبتكر. ومن المفيد أن نشير الى أن هناك من المفكرين من يعتقد أن لكل منا حظه من الابتكار، وأن قدرات الانسان الابتكارية قابلة للاستثارة والتنمية في أي مرحلة من مراحل حياته. فالابتكار أسلوب في التفكير والحياة يمكن تعلمه. والعقل المبتكر يتميز بأنه يتجه الى المستقبل. ولقد قام تورانس بقياس قدرات التفكير الابتكاري للتلاميذ في مرحلة الدراسة الثانوية، ثم طلب منهم بعد اثني عشر عاما ان يصفوا له انجازاتهم الابتكارية بأن يجيبوا على استبيان به عدد من المنجزات الابتكارية يضع التلميذ علامة على ما أنجزه منها. كما طلب أن يعبروا عن طموحاتهم عن المستقبل. ومن النتائج التي انتهى اليها تورانس[٨٣].

- التلاميذ الذين كشفت نتائج اختبارات الابتكار التي أجريت عليهم في المرحلة الثانوية عن أنهم مبتكرون يميلون الى أن يكونوا مبتكرين في مرحلة الرشد بعد تخرجهم من الجامعة.

- اختار التلاميذ الذين يتميزون بابتكار مرتفع مهنا غير عادية. وقد أثبتت الدراسات التتبعية عن أن المهن التي اختاروها تميل الى أن تتحقق في المستقبل.

- يميل تلاميذ المرحلة الثانوية المبتكرون الى أن يسيروا في مستقبل مهني يشتمل على انعطافات تتطلب تدريبا وخبرة ذات عناصر غير عادية، ولكنها مرتبطة ببعضها.

وهكذا نجد أن التلاميذ الذين يكون لهم استعداد للابتكار، يميلون الى تحقيق أفكارهم في المستقبل حين يخرجون الى الحياة العملية. كذلك نجد أن اختيار هؤلاء التلاميذ لمهن غير عادية تتحقق في المستقبل يكشف عن رؤية ابتكارية للمستقبل، لا يستطيعها الا عقل مبتكر.

واذا كان المستقبل يتطلب عقلا ابتكاريا. فان واجب

(٨٢) Flanagan, J.C. Change in school levels of achievement: Progect TALENT ten and fifteen years retests **Educational Researcher,** 1976, 5 (8), 9-12.
راجع المصدر السابق

(٨٣) Torrance, E.P. **The search for satori & creativity.** Great Neck, N.Y.: Creative syngertic Associates, 1979.

التربية أن تعمل على استثارة قدرات الموهوبين والمبتكرين بحيث تتجه هذه القدرات الى المستقبل . غير أن ذلك يتطلب بيئة من نوع خاص . ولنستمع الى تورانس يصف لنا هذه البيئة (٨٤) .

« لكي نتيح للأطفال في المنازل والمدارس أن يحصلوا على لمحات من اللانهاية ، وأن يجعلوا تصورهم للمستقبل ممتدا وغنيا ودقيقا ، يجب أن يكون لدى البيئة درجة من الانفتاح . وكذلك يجب أن تعمل مواقف العمل ومنظمات الجامعة وادارات الحكومة وأماكن العبادة وغير ذلك من المؤسسات على خلق نهايات مفتوحة ، اذا أرادت هذه المؤسسات أن يحقق هؤلاء الأفراد امكانياتهم وأن يخلقوا مستقبلا أفضل . ففي المدارس يمكن لمواد المنهج وأساليب التدريس ذات النهايات المفتوحة أن تتيح للتلاميذ أن يستجيبوا بحسب ما تمكنهم قدراتهم وخبراتهم مهما كانت . ويعتبر بعض المدرسين وأساليب التدريس خطرة . لكن حينما يستجيب التلاميذ بحسب ما تمكنهم قدراتهم وخبراتهم ، فان ذلك يأخذ المدرسين أنفسهم الى عالم أرحب من قدراتهم وخبراتهم . والبرامج ذات النهايات المفتوحة لا يمكن أن تفحص مقدما ويرخص بتوفر الأمن فيها . اذ يجب أن يؤدي فيها شيء الى آخر ، حيث لا يمكن للمرء أن يتأكد الى أين توصل هذه النهايات المفتوحة » .

ويناقش تورانس عددا من الأساليب التربوية التي تهدف الى تنمية قدرات الانسان على تصور المستقبل والحصول على لمحات من اللانهاية . وهذه الأساليب هي :

١ ـ النهايات المفتوحة وعدم الاكتمال

من أبسط الطرق التي تساعد الأطفال على أن يحصلوا على لمحات من اللانهاية الكتب والقصص ذات النهايات المفتوحة التي تزخر باحتمالات لا حدود لها . ويقترح تورانس الأنشطة التالية التي تتميز بأنها فعالة في خلق نهايات مفتوحة في كل مجالات المنهج المدرسي .

- اللعب بالغامض وغير المحدد .
- تحرير الأطفال من العوامل والتوقعات التي تعمل على كف تفكيرهم .
- خلق الوعي بعدم اكتمال المعلومات التي تقدم .
- جعل التفكير الافتراقي شرعيا .
- استخدام الخيال للبحث عن حلول للمشكلات اليومية .
- تشجيع الافتراضات المتعددة .
- جعل الشيء يؤدي الى آخر .
- تشجيع تحويل المعلومات .

٢ ـ الربط بين المباديء التي تبدو متباعدة

اذا تطلب الأمر ربط مبدأين أو أكثر غير مرتبطين ، فانه يحتمل أن تؤدي الوثبة العقلية التي ستحدث الى شيء أصيل . ومن التدريبات التي تعطي للأطفال تدريب « كون قصتك » ، حيث يعطى للطفل ثلاثة شخصيات أو حيوانات أو موضوعات ، ويطلب منه أن يكون قصة .

ومن الأساليب التي تستخدم لتشجيع الربط بين المباديء غير المرتبطة والتي يمكن أن تطبق في كل مجال من المجالات تقريبا :

- البحث عن الحلول الأنيقة (الحلول البسيطة التي تأخذ في اعتبارها أكبر عدد من العوامل)
- استخدام المتشابهات للبحث عن الحلول .
- تجريب ومعالجة الموضوعات والأفكار .
- تشجيع الأطفال على استخدام المعرفة في مجال ما لحل مشكلات في مجال آخر .
- تطلب اعادة تنظيم المعلومات والموضوعات . . . الخ .

---

(٨٤) ibid., p. 195.

ـ التأليف بين الموضوعات والأفكار غير المنظمة في تنظيمات ذات معنى .

٣ ـ انتاج المباديء والربط بينها

يمكن زيادة ما نحصل عليه من لمحات مستقبلية بأن نجعل الأطفال ينتجون المباديء التي سيقومون بالربط بينها في قصة أو دراما أو صورة أو أية وسيلة اتصال أو تعبير ابتكاري .

ومن الأنشطة التي تساعد على إنتاج المباديء ثم الربط بينها :

ـ دراسة مشكلة أو معلومة أو موضوع من عدة نواحٍ ثم الربط بين ما نصل اليه من أفكار .

ـ البحث عن كل الحقائق المرتبطة بشيء غامض ثم محاولة ايجاد حل له .

ـ عمل سلسلة من التنبؤات على أساس تراكم المعلومات .

ـ تعلم المهارات التي يتطلبها عمل معقد ثم الربط بينها للقيام بهذا العمل .

ـ إنتاج عدة متشابهات ثم الربط بين الأفكار التي نصل اليها من استخدام هذه المتشابهات .

٤ ـ إنتاج الأفكار من خلال بناء معين

يمكن استخدام هذا الأسلوب لانتاج عدد لا نهائي من الأفكار في كل الأساليب السابقة . وعلى سبيل المثال يمكن استخدام هذا التكنيك في كتابة خماسية شعرية بأن نطلب من الفرد أن يتبع البناء الآتي :

السطر الأول : كلمة واحدة (العنوان) .

السطر الثاني : كلمتان يصفان العنوان .

السطر الثالث : ثلاث كلمات تصف الفعل المرتبط بالعنوان .

السطر الرابع : أربع كلمات تعبير عن شعور .

السطر الخامس : كلمة أخرى تعبر عن العنوان بحيث تصف جوهره .

٥ ـ خبرات التهيؤ

يمكن أن تكون خبرات التهيؤ مفيدة جدا في تحرير خيال الأطفال وربطهم باللانهاية . ويمكن أن تكون هذه الخبرة رحلة ميدانية أو تسجيل موسيقا أو سوسيودراما ، أو مقطوعة شعرية ، أو تعبير ابتكاري استجابة لمقطوعة شعرية ، أو أية خبرة تؤدي الى استثارة التفكير والشعور بشكل كبير .

وتساعد الأنشطة التالية على التهيؤ ، ويمكن تطبيقها في أية مادة دراسة أو منهج في أي مستوى من مستويات التعليم :

ـ اثارة التوقع .

ـ اثارة الاهتمام بمشكلة .

ـ استثارة حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة .

ـ جعل هدف النشاط واضحا ذا دلالة .

ـ اعطاء أقل قدر من المؤشرات والاتجاهات .

٦ ـ تحديد الفجوات في المعرفة

لا يتفق الاتجاه اللانهائي مع الاكتمال . لكن الأطفال حينما يتعلمون القراءة ، ويتقدمون في الدراسة ، يميلون الى أن يتقبلوا ما يقرأون على أنه مكتمل . ولكي يتغلب المعلمون على هذا الموقف ، ويساعدوا التلاميذ على أن يشعروا بالراحة مع اللانهائي يمكنهم أن يعرفوا التلاميذ عند مناقشة موضوع ما بأنه يبقى دائما عدد لا نهائي من الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع . ويستطيع المدرسون استخدام التمارين التي تنمي مهارات توجيه الأسئلة المرتبطة بالصور أو الموضوعات أو القصص أو لعب الأدوار أو غير ذلك . ويذكر لنا تورانس أن من أفضل القصص التي تخدم هذا الهدف قصة ولد صغير يريد أن يصادق أرنبا . ويتساءل هذا الولد في القصة عما تفعله الأرانب وكيف تعيش في الغابات ويقول تورانس إنه بعد أن يقرأ هذه القصة المثيرة للأطفال يصبح هو الأرنب الذي يتكلم من خلال دمية ، ويبدأ الأطفال في توجيه الأسئلة التي يريد الولد أن يعرفها ويريدون هم الاجابة عليها .

٧ ـ اللعب بالأشياء غير المحتملة

هذا نوع آخر من الخبرات التي تعطي الأطفال لمحات من اللانهائي . ويمكن أن يتخذ اللعب بـالأشياء غـير المحتملة عدة صور منها أن نوجه الى الأطفال السؤال : ماذا يمكن أن يحدث اذا . . . . . (ونضع حدثا أو شيئا غير محتمل الحدوث) وقد استخدم تورانس وميرز هذا الأسلوب في اختبارهما : هل تتخيل ؟ ومن أمثلة هذا الأسلوب :

ـ ماذا يمكن أن يحدث اذا أمطرت السماء دائما يوم السبت ؟

ـ ماذا يمكن أن يحدث اذا كان الغناء مخالفا للقانون ؟

ومن الأمثلة الأخرى أسلوب « افترض أن » الـذي استخـدمـه تـورانس في اختبـارات تـورانس للتفكـير الابتكاري . ومثال ذلك :

ـ افترض أنك تستطيع أن تخلق نـوع المناخ الـذي تريده بأن ترقص بطريقة خاصة .

ـ افترض أنك تقوم بزيارة قسم ما قبل التاريـخ في المتحف ، ثم دبت الحياة في الحيوانات .

ويمكن استخدام هذه المواقف في تداعي الأفكار وفي التمثيل ، وبعد ذلك يصبح من السهل على الأطفال أن يؤلفوا قصصا شيقة وأغاني وأشعارا عن هذه المـواقف الغير محتملة الحدوث .

الموهبة في البلاد العربية :ـ

لا يحتاج العالم العربي اليوم الى شيء أكثر من حاجته الى رعاية الموهبة وتنميتها وأرجو أن تـلاحظ أني أقول « الموهبة » ولا أقول الموهوبين « فأنا مع الرأي القائل بأن لكل منا حظه من الموهبة ، ويحتاج الفرد الموهـوب الى المناخ الذي تستثار فيه قدراته الكامنة ، والى الظروف البيئية التي تساعد على تنمية هذه القدرات ومن ثم يكون الهدف هو خلق مناخ تربوي وأساليب تعليم تتيح لكل فرد تنمية حظه من الموهبة .

ولا شك أن المجتمع العربي اهتم ببعض الموهوبين من أبنائه ، والا ففيم استمرار هذا المجتمع ؟ لكن السؤال هو : هل يعد هذا الاهتمام كافيا ؟ لنرجيء الاجابة على هذا السؤال ، ولنحاول الآن التعرف على طبيعة اهتمام المجتمع العربي بالموهوبين من أبنائه .

الاهتمام بالموهوبين في البلاد العربية :

كان كثير من الأفراد الموهوبين مـوضع الـرعايـة في البلاد العربية على مر العصور ، فقد كان حكـام هذه البـلاد يـرعـون الأدبـاء والشعـراء والفنـانـين والعلماء والفـلاسفة ، ويتيحـون لهم التفـرغ لآدابهم وفنـونهم وعلومهم . ولعل من الحكام من أدرك أن الدولة لا تقوم الا على انجازات الموهوبـين ، اذ نجد السلطان سليم الأول يجمع الموهوبين من الصنـاع المهرة وغيـرهم من المنجزين من أبناء مصر ويرسلهم الى الآستانة . كما نجد محمد علي والي مصر يقلد الدولة العثمانية ، فيرسل الى الكتاتيب في أنحاء البلاد والي الأزهر الشريف ليجمع التلاميذ الموهوبين ، وكان يستند في الحكم على تفوقهم الى آراء مدرسيهم (٨٥) وقد أرسل محمد علي من هؤلاء التـلاميذ البعثـات الى البـلاد الأوربيـة ليتلقـوا العلم ويتخصصوا في مختلف المعارف والفنون ، وقد عادوا الى الوطن وأسهموا اسهاما كبيرا في نهضته .

وفي العصـر الحديث نجـد مظاهـر عديـدة لرعـاية الموهوبين في البلاد العربية فمصر تقيم عيد العلم في كل عام حيث يقدم رئيس الـدولة الجـوائز لمن أنجـزوا في مجـالات الفن والأدب والعلم . وتمنح الـدولة جـوائز الـدولة التقـديريـة والتشجيعية للعلماء الـذين حققـوا انجـازات في هذه الميـادين . وتقدم مؤسسـة التقـدم العلمي بالكويت جوائز لعلماء الكـويت وعلماء العرب وفنـانيهم وأدبائهم ، وكـذلك تقـدم المملكة العـربيـة السعـودية جـوائز مماثلة . ومـا من شـك في أن هـذه المجهودات تستحق كل تقدير .

---

(٨٥) ibid.

تنشئة الموهوبين ورعايتهم في البلاد العربية :

رعاية الموهوبين وهم في مرحلة التكوين والنمو ، لا تكاد تكون معروفة في العالم العربي الا في حالة بعض الأفراد الذين يسعدهم الحظ فتظهر موهبتهم في وقت مبكر وتسترعي انتباه بعض المسئولين . ولكن رعاية الموهوبين كفئة لم تلق الاهتمام في العالم العربي وباستثناء مدرسة المتفوقين في مصر ، فلا تكاد تعرف في العالم العربي برامج لرعاية الموهوبين ، أما نصيب الموهوبين من البحث العلمي فباستثناء دراسة محمد نسيم رأفت للطلاب المتفوقين (٨٦) ، وجهود بعض الباحثين (٨٧) ، فلا نكاد نجد اهتماما بدراسة الموهوبين . عمّ يكشف هذا القصور في رعاية الموهوبين في البلاد العربية ؟ هل يكشف عن عدم وعي بأهمية الموهبة لتنمية المجتمعات ؟ أم يكشف عن عدم اهتمام بتنمية المجتمعات العربية أصلا ؟ أم أن هذا القصور هو نتيجة لاحتجاج البعض بأنه مما يناقض الديمقراطية أن نهتم بفئة على حساب الفئات الأخرى ، ومن ثم فليس من العدل أن تخصص ميزانيات خاصة لتربية الموهوبين ورعايتهم ؟

لو كان هذا القصور في رعاية الموهبة هو نتيجة لعدم الوعي بأهميتها لتنمية المجتمع ، فما أشد الحاجة الى أن يقوم علماء التربية والاجتماع والنفس والاقتصاد وغيرهم من المهتمين بتوعية المسئولين بأهمية الموهبة للتنمية . ولو كان القصور في رعاية الموهبة يرجع الى عدم الاهتمام بتنمية المجتمعات أصلا ، فما أشد حاجتنا الى أن نوضح أن استمرار الحياة على الأرض ، واستمرار المجتمعات في البقاء هو رهن بالتنمية المستمرة وأن العقول التي تستطيع تحقيق التنمية هي العقول الموهوبة . أما العامل الثالث الذي يحتج به أحيانا لعدم الاهتمام بالموهبة فسنكتشف أنه سبب غير منطقي . اذ لو كانت رعاية الموهوب تعود بالخير عليه هو وحده ، لقلنا انه ليس من العدل أن ننفق عليه الأموال الطائلة ونقصر عليه الجهود الكبيرة . لكن العائد من تربية الموهوب ورعايته يفيد المجتمع بأكمله ويساعد على تحسين الوجود الانساني كله ، هذا فضلا عن أن تصوري للموهبة يقوم على التسليم بأن لدى كل منا نصيبه من الموهبة ، ومن ثم فان رعاية الموهوبين لن تقتصر على فئة دون فئة أو فرد دون آخر . اذ أن الموهبة التي ستسمح الظروف باكتشافها ستكون موضع الرعاية . وربما يتحقق في يوم ما الحلم بأن تعمل المجتمعات كلها على خلق الظروف التي تساعد على ابراز موهبة كل فرد من أفرادها .

قصور الموهبة والكشف عنها :

وربما كان القصور في رعاية الموهوبين يرجع الى صعوبة التعرف عليهم والكشف عنهم في سن مبكرة . ويرتبط هذا بافتقارنا الى فلسفة ترتبط بتصورنا للانسان ودراسته . فللانسان خصائص كالقدرات والاستعدادات وسمات الشخصية وغيرها ، يمكن الكشف عنها وتقديرها باستخدام أدوات علمية . ومن الواضح أننا في العالم العربي نفتقر الى الايمان بأهمية وجدوى أدوات تشخيص السلوك الانساني . فلست أعرف وزارة تربية واحدة في العالم العربي تجري على كل تلاميذها اختبار ذكاء في مرحلة ما من مراحل التعليم . ولا يخفى على التربويين العرب أن تشخيص قدرات التلاميذ وميولهم وسمات شخصياتهم وغير ذلك من الخصائص قد أصبح جزءا من العملية التربوية في كثير من البلاد وخاصة المتقدمة . ومن ثم فالحاجة شديدة الى أن يدرس المربون العرب دور التشخيص في العملية التربوية ، والفوائد التي تعود على تربية المواطنين من

---

(٨٦) رأفت ، محمد نسيم . رعاية الطلبة المتفوقين . في جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ادارة التربية) . حلقة تربية الموهوبين والمعوقين في البلاد العربية ، الكويت ١٧ ـ ٢٢مارس ١٩٧٣ ، ص ٥٥ ـ ٦٩ .

(٨٦) رأفت ، محمد نسيم بحث الطلبة المتفوقين ، الجزء الاول . القاهرة :
اللجنة الدائمة للبحوث بوزارة التربية والتعليم ، ١٩٦١ .

(٨٧) على سبيل المثال انظر
عبدالغفار ، عبدالسلام . التفوق العقلي والابتكار . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٧ .

استخدامه . وهذا يعني أن تتبنى الدول تطوير أدوات للتشخيص وتعميم استخدامها ووضع السياسات التي تضبط إجراءها . وتجب الاشارة هنا الى أن هناك جهودا لكثير من العلماء العرب الذين اهتموا بتطوير أدوات لقياس السلوك البشري . غير أن هذه الجهود الفردية غير كافية لأن كثيرا منها قام على ترجمة اختبارات أجنبية تقيس متغيرات على أساس تصورات قد لا توجد في مجتمعاتنا . كما أن الكثير من هذه الأدوات قد درس وجرب على عينات محددة لا تمثل كل قطاعات المجتمعات العربية التي يمكن أن تجرى عليها مستقبلا . ولا يعتبر الباحثون الذين طوروا هذه الأدوات مسئولين عن هذا النوع الثاني من القصور . اذ أن المسئول عنه هو عدم توفير الاعتمادات المالية الكافية التي تمكن من العمل الجاد على تطوير أدوات تشخيص السلوك .

ولا يقتصر الأمر على الافتقار الى أدوات الكشف عن المواهب ، بل يرتبط به ، وربما يكون مسئولا عنه ، عدم وجود تصور صحيح لطبيعة الموهبة في بلادنا ـ ويتضح هذا من النظر الى الدراسات التي تناولت الموهبة اذ يكشف استعراض هذه الدراسات عن أنها في أغلبها قد اقتصرت على فئة واحدة من فئات الموهوبين هي فئة المتفوقين عقليا ، أو المتفوقين في التحصيل . لكن التفوق في التحصيل قد يفقد انتماءه الى التصور الحديث للموهبة ، اذا كان التحصيل المتوقع يعتمد على الحفظ ومعرفة المعلومات دون معالجتها ، واذا كانت أساليب التقويم تؤكد هذه المهارات . وبالتالي فان حظ الفئات الأخرى للموهبة من البحث ، كان قليلا أو معدوما . فالباحثون الذي اهتموا بدراسة الابتكار باعتباره أحد فئات الموهبة أو باعتباره ـ كما يرى البعض ـ أحد العوامل العامة في الموهبة ، يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وحتى الآن لا يبدو أن هناك وعيا بأهمية الابتكار لمستقبل العالم العربي ، كذلك لم يهتم الباحثون بدراسة القيادة الابتكارية Creative Leadership التي نحن في أشد الحاجة اليها في مجتمعاتنا . وكلنا يعرف أن نوع القائد يعتبر من العوامل الحاسمة في عمل وانتاجية أية مؤسسة في مجتمعاتنا على وجه الخصوص .

الأرقام تتكلم :

على مستوى العالم العربي يوجد قدر من الوعي بأهمية الموهوبين فقد عقدت الجامعة العربية حلقتين لتربية الموهوبين والمعوقين في البلاد العربية ، عقدت أولاهما في القاهرة من ١٠ الى ١٥ مايو ١٩٦٩ ، وعقدت الثانية في الكويت من ١٧ الى ٢٢ مارس ١٩٧٣ ، ويلاحظ أن الموهوبين والمعوقين يوضعون في اطار واحد . وقد اشتمل تقرير الحلقة الثانية على متابعة توصيات الحلقة الأولى . وقد رد على الاستفتاء الذي أرسل لمتابعة هذه التوصيات تسع دول عربية هي : الأردن ، والكويت ، ومصر ، وسوريا ، والسعودية ، وقطر ، واليمن الديمقراطية الشعبية ، وليبيا ، والسودان . وتكشف هذه المتابعة عن أن نصيب المعوقين من الاهتمام كان أكبر . فعدد التوصيات التي خصصت للمجموعتين معا كان ٣٠ توصية ، وكان نصيب المعوقين فيها هو الأكبر ، وعدد التوصيات التي أفردت للمعوقين كان ٢٦ توصية ، أما عدد التوصيات التي خصصت للمتفوقين فقد كان ٧ توصيات [(٨٨)] .

ويلاحظ أنه من بين الدول التسع لم تقم سوى دولة واحدة بتنفيذ توصيات الحلقة الأولى الخاصة بالمتفوقين ، وهذه الدولة هي مصر ، وتجدر الاشارة هنا بأن كثيرا من التوصيات كان منفذا فعلا في جمهورية مصر العربية قبل انعقاد هذه الحلقة . والتوصيات التي نفذتها مصر هي :

١ ـ انشاء فصول أو مدارس ثانوية للمتفوقين .
٢ ـ ضرورة وضع مناهج اختيارية ذات مستوى رفيع .
٣ ـ عناية طرق تدريس المتفوقين بفردية كل تلميذ .
٤ ـ وضع شروط لاختيار التلميذ المتفوق حسب المستوى التحصيلي .
٥ ـ تجهيز فصول ومدارس المتفوقين بالأندية الصالحة والمعامل وغيرها .

(٨٨) جامعة الدول العربية . حلقة تربية الموهوبين والمعوقين في البلاد العربية ، الكويت ١٧ ـ ٢٢ مارس ، ١٩٧٣ ، ص ١٣٧ ـ ١٤١ .

٦ ـ ارتباط تعليم المتفوقين بالتطبيق العملي الى جانب الدراسة النظرية .

أما التوصية التي لم تنفذ في مصر أو في غيرها من البلاد فهي :

٧ ـ متابعة المتفوقين خلال دراستهم الجامعية وتوفير الرعاية الاجتماعية لهم .

من الواضح إذن أننا لا نستطيع أن نزعم أننا في البلاد العربية نهتم برعاية الموهبة رعاية تربوية منظمة تقوم على الكشف عن الموهوبين في وقت مبكر من حياتهم ثم رعاية مواهبهم وتنميتها حتى تحقق ذاتها وتعود بالخير على الموهوب وعلى المجتمع ، فما هو السبب ؟

رعاية الموهبة والتفكير المستقبلي :

للاجابة على هذا السؤال . أقدم فرضا لا أزعم أني متأكد من صحته ، وإنما هو احتمال على أية حال . فأنا أعتقد أن عدم اهتمامنا بالموهبة هو نتيجة عدم اهتمامنا بالتفكير المستقبلي . ويسجل الأنثربولوجي ادوارد هول [٨٩] انطباعه بأن العرب لا يحبذون التفكير في المستقبل فيروي قصة أمريكي متخصص في الشئون الزراعية ذهب الى القاهرة ليعلم الفلاحين المصريين أساليب الزراعة الحديثة . وفي احدى جولاته طلب من مترجمه أن يسأل الفلاح الذي كان يزوره عن المحصول الذي يتوقع أن يجنيه من حقله هذا العام فاهتاج الفلاح واستشاط غضبا ، وحاول المترجم أن يلطف الموقف ، فقال للزائر الأمريكي أن الفلاح يقول بأنه لا يعرف . ولقد أحس الزائر الأمريكي من خلال استجابة الفلاح المصري بأنه قد حدث خطأ ما ، ولكنه لم يعرف طبيعة هذا الخطأ . لكنه عرف فيما بعد بأن العرب يعتبرون أن كل من يحاول النظر في المستقبل مجنون الى حد ما . وحين سأل الأمريكي الفلاح المصري عن محصوله المستقبل غضب لأنه اعتقد أن الأمريكي يعتبره مجنونا . فالعرب يعتقدون أن الله وحده هو الذي يعرف المستقبل ، وأنه ليس من المقبول حتى مجرد التفكير في المستقبل ، ويحلل فؤاد زكريا [٩٠] هذه الظاهرة في مقالة « العقل العربي والتوجه المستقبلي » ويوضح العوامل الكامنة وراء الاتجاه الذي يقول بأن المستقبل ليس نتيجة منطقية للحاضر ، وليس تطورا طبيعيا له . ويعطي أمثلة عن غياب النظرة المستقبلية عند الأفراد أو الحكومات على حد سواء ، ويرد هذه الظاهرة الى عدد من الاتجاهات الدينية . والأسباب الحاضرية والاجتماعية والسياسية .

واذا كانت هناك أسباب تكف تفكيرنا في المستقبل ، واذا كانت هناك عوامل تجعل تصورنا للمستقبل متشائما وقاتما ، فكيف نفكر في الاهتمام بالموهوبين صناع المستقبل .

خلاصة :

اهتمت هذه الدراسة بتوضيح العلاقة بين الموهبة والتفكير المستقبلي ومن النتائج التي يمكن أن ننتهي اليها :

١ ـ أن العالم يتغير بمعدل هائل .

٢ ـ أن استمرار بقاء النوع الانساني وقف على التفكير في هذا التغير وفي توقعه والتنبؤ به ومحاولة التحكم فيه لصالح الحياة والانسان أي في تبني الاتجاه المستقبلي .

٣ ـ أن التفكير المستقبلي يحتاج الى عقل من نوع خاص هو العقل الموهوب .

٤ ـ أننا في العالم العربي لا نهتم اهتماما منهجيا بالكشف عن الموهبة في مراحل العمر المبكرة ، كما لا توجد لدينا فلسفة أو تصورات دقيقة عن الموهبة ، ومن ثم نفتقر الى البرامج التربوية التي ترعى الموهبة وتربي العقل على الابتكار .

٥ ـ أنه يوجد لدينا عوامل تعطل النظر المستقبلية للحياة والانسان .

٦ ـ أن بقاءنا كأمة ، وتقدمنا ، رهن بتدعيم الموهبة والابتكار والتفكير المستقبلي .

---

(٨٩) Hall, E.T. **The silent language.** Garden city, N.Y. : Anchor Books, Doubleday, 1959.

(٩٠) زكريا ، فؤاد . العقل العربي والتوجه المستقبلي . بحث قرىء في ندوة الابداع الفكرى الذاتي في العالم العربي التي عقدت في الكويت من ٨ الى ١٢ مارس ١٩٨١ .

صدر حديثاً

المعنى والنظام في المجتمع المغربي

عادل مصطفى
معهد البحوث والدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة

تميل كثير من الدراسات الانثروبولوجية الأمريكية الى الاهتمام بعرض أكبر قدر من البيانات والمعلومات الوصفية عن ثقافات المجتمعات المحلية التي تعالجها ، بل ان بعض ماينشر منها يعتبر البيانات والمعلومات الوصفية هدفا في ذاتها . ومثل تلك الدراسات تعتبر دراسات اثنوجرافية أكثر من كونها دراسات أنثروبولوجية ، تستخدم المعلومات المتراكمة أساسا كوسيلة للتحليل والتفسير .

والكتاب الذي نحن بصدد عرضه « المعنى والنظام في المجتمع المغربي » هو واحد من تلك الكتب الامريكية التي تجمع كما هائلا من المعلومات الاثنوجرافية حول ثقافة احدى المناطق بالمملكة المغربية . لكنه في الحقيقة وفي اكثر من موضع منه حاول أن يرقي من مجرد الوصف للوقائع المشاهدة الى مستوى من التجريد الذي يسمح بالتحليل العميق . وسنرى أن ذلك التحليل قد قام على رموز ثقافية تعتمد في أغلبها على التاريخ من جهة وعلى المفهومات السيكولوجية « كمفهوم محتوى الذات وعوامل النزوع والامكانات الوراثية على سبيل المثال » من الجهة الأخرى . وهذا هو شأن الدراسات الأنثروبولوجية التي تتخذ من الثقافة موضوعا لاهتماماتها ، عكس الحال بالنسبة للدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية التي تهتم بالمجتمع ـ العلاقات الاجتماعية فيه والنظم والأنساق المتفاعلة فيما بينها والتي تكون بناءه الاجتماعي ـ والتي تحاول تفسير كل تلك الوحدات على المستوى الاجتماعي البحت .

ويضم الكتاب عددا من المقالات المنفصلة التي لايربط بينها رابط سوى اتخاذها مجتمع اقليم ومدينة « صفرو » ـ في احدى المناطق الشمالية الوسطى من

---

* Geertz, C.& Geertz, H. & Rosen, L., Meaning and Order in Moroccan Society, Cambridge U.p., U.S.A., 1979.

المملكة المغربية ـ ميدان بحث ومجال دراسة ، وسوى أنها حاولت جميعا ـ رغم انفصالها ـ أن تعطي صورة للحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع ، من خلال التعبيرات الثقافية التي يتضمنها سلوك الناس ـ في شكل رموز ثقافية أو انساق للمعنى تعمل على حفظ وبقاء ، النظام ، القائمة عليه حياة ذلك المجتمع ـ ولكن من زوايا ومداخل مختلفة .

●●●

وقبل أن نعرض للمقالات التي يحتوي عليها الكتاب ، نود أن نشير الى الظروف التي أدت الى اخراجها الى حيز النشر بهذا الشكل .

فقد بدأ الاهتمام بدراسة المنطقة (اقليم ومدينة صفرو) في عام ١٩٦٥ ، حين أوفدت جامعة شيكاغو عددا من علمائها وباحثيها للاقامة فيها دوريا بغرض دراسة الأحوال المعيشية لسكانها . وقد استمر ايفاد المبعوثين الى المنطقة حتى عام ١٩٧١ ، قضي كل واحد منهم فيها فترة زمنية معينة من السنوات الست التي حددتها الجامعة . ولم يصادف أن اجتمع الباحثون معا ـ ولو لمرة واحدة ـ ككل في الميدان ، كما لم تكن أمامهم « خطة محددة أو مشتركة » للعمل الميداني كفريق بحث ، ولكن تركت الفرصة أمامهم ليدرس كل منهم ثقافة المجتمع من وجهة نظر معينة ، تتناسب وتخصصه وخبراته . ولذلك فان التقارير التي جمعت في النهاية ـ والتي تعد موضوعات الكتاب الذي بين أيدينا جزءا منها ـ كانت تمثل صورة عامة عن تلك المنطقة من زوايا ومداخل متباينة . فمثلا قدم « توماس ديتشار » تقريرا عن ثقافة المراهقين والشبان وعن النسق الدراسي ، واهتم « كليفورد جيرتز » بدراسة الدين والسوق والعلاقات المتبادلة بين الانسان والبيئة (الايكولوجيا)

وقامت « هيلدرد جيرتز » بدراسة نسق القرابة والأسرة ودور المرأة في المجتمع الى جانب اهتمامها أيضا بدراسة الشعر الشفاهي ، وامتد اهتمام بعض الباحثين الى دراسة بعض القرى المنتشرة في الاقليم ، فقدم « لورانس روزين » تقريرا ـ الى جانب تقريره عن البناء الاجتماعي الحضري وعن القانون ـ عن تنظيم احدى قرى البربر المنتشرة هناك ، كذلك اهتم « بول رابينو » بدراسة الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية لاحدى قرى الاقليم ، والى جانب كل ذلك قدم « بول هيمان » ـ وهو مصور محترف اكثر منه انثروبولوجيا ـ تقريرا مصورا يحتوي على مجموعة ضخمة من الصور الفوتوغرافية عن مجتمع صفرو .

وقد اتفق أخيرا ثلاثة من الباحثين المذكورين ـ ربما لأغراض التدريس ـ وكذلك المصور المحترف ، على نشر تقاريرهم في شكل كتاب ، هو الكتاب الذي بين أيدينا ، وذلك على الرغم من أنهم ـ على حد قولهم ـ لم يكونوا يوما يعتزمون ذلك . ووضعوا مقدمة له تعرض لما يحويه الكتاب ، لكنها لم تستطع أن تربط بين المقالات الثلاثة في كل واحد ، كما اعترفواهم بذلك أيضا فضلا عن أن الكتاب ـ كما هو معتاد في الكتب المماثلة في الأغلب ـ لم ينته بخاتمة تؤكد وحدة أجزائه ، الى جانب ما يمكن أن تضيفه من قيمة علمية .

(١)

ومهما يكن من شيء ، فان المقال الأول « الشخصية الاجتماعية المميزة ونقاط الارتباط ـ مدخل الى التنظيم الاجتماعي « والذي كتبه » لورانس روزين » ، أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة برنستون ، يهتم بالاسس الايكولوجية والاجتماعية للمجتمع المحلي الحضري (مدينة صفرو) ، والريفي (اقليم صفرو) معا . ومن خلال تلك الأسس يستعرض الباحث الأنساق الادارية

والقانونية والسياسية ، باعتبارها فئة نظمية تؤدي وظائفها المختلفة في محيط الموضع الجغرافي للمجتمع . ويتساءل الباحث عن العوامل التي تؤدي الى ترابط الناس في اقليم ومدينة صفرو ، ويجيب على تساؤله من خلال تقديمه الصور الثقافية الجمعية التي يصنفها في فئتين رئيسيتين ، تضم الأولى بعض المفهومات الثقافية كالأصل والموطن الاقليمي والقرابة ، وهي العوامل التي تسهم في تحديد ورسم سمات الشخصية الاجتماعية المميزة ، وتضم الفئة الثانية بعض المفهومات الثقافية الأخرى كقوى الالزام (أو القهر أو القسر)والالتزام (أو الطاعة أو الخضوع) وعوامل الميل (أو النزوع) الى جانب علاقات التفاوض ، باعتبارها جميعا قوى أو عوامل أو امكانات متأصلة في الأفراد ، وتتحدد عن طريقها ـ ومن خلال أدائها لوظائفها المختلفة ـ العلاقات المتبادلة بين الأفراد ، فتتشعب وتتسع من ناحية ، أو تضيق وتنكمش من الناحية الأخرى .

ولم يكتف الباحث هنا بحصر وعرض الأطر النظمية ومفهوماتها الثقافية المحددة ، وانما اهتم بالتأكيد على العمليات الثقافية التي ينظم من خلالها أعضاء المجتمع أساليبهم الاجتماعية ليتمكنوا من نسج شبكات من العلاقات الاجتماعية المجمعة ، فعرض من خلال أسلوب « دراسة الحالة » لشبكة العلاقات الشخصية التي نسجها أحد أفراد المجتمع حوله داخل منطقة البحث ، وامتدادها في مناطق أخرى .

وحين تناول الباحث مفهوم « الايكولوجيا » والبناء الاجتماعي ، لم يكتف بالوصف التقليدي [1] للظروف والعوامل البيئية والجغرافية في المنطقة ، وانما امتد اهتمامه ـ وهو هنا يؤكد المفهوم العلمي للايكولوجيا ـ الى دراسة العلاقات المتبادلة (أو التفاعل) بين الانسان والبيئة « فلا البيئة وحدها ، ولا الأساليب الثقافية بمفردها ، يمكن أن تفهم الواحدة منها بعيدا عن الأخرى ، كما أن كلا منها بمفردها لاتستطيع أن تعطي صورة صحيحة للشخصية المميزة للمنطقة ولسكانها في علاقاتها المتبادلة » ، ولذلك فهو حين عرض للنطاقات الجغرافية الثلاثة [2] التي تميز المنطقة ، ومن خلال عرضه لسماتها المناخية شديدة التمايز [3] حاول الباحث أن يربط كل تلك العوامل البيئية والطبيعية بالانشطة الاقتصادية المعيشية لسكان المنطقة المتغايرين حجما وكثافة وعرقا [4] وبأنماطهم السلوكية المتباينة ، وعناصر حياتهم الثقافية المختلفة ، بحيث قدم صورة رائعة لنوع المواءمة الحادث بين الانسان والبيئة ، والذي يضمن للمجتمع بقاءه واستمراره .

---

(١) المتأثر بالجغرافيين ، والذي لا يهتم بابراز الدلالة الاجتماعية او الثقافية لمثل تلك العوامل والظروف .

(٢) الأول هو السهول الممتدة من قرب ساحل المحيط الاطلنطي الى حافة جبال اطلس الوسط حيث توجد مزارع الحبوب المكثفة ، والثاني هو جبال اطلس ذاتها والتى تقل فيها الزراعة بشكل ملحوظ ـ رغم وجود بعض الحدائق المثمرة ـ وتحل محلها مراعي الأغنام والماعز ، اما النطاق الثالث فهو نطاق السفوح (او الدير) الذي يتوسط النطاقين السابقين ، ويتميز بوفرة ينابيع المياه اللازمة للري وللسكان معا ، وفيه تقع الواحة التي تضم مدينة صفرو .

(٣) تتفاوت نسبة الامطار ودرجات الحرارة والضغط في المنطقة تفاوتا حادا خلال السنة الواحدة ومن سنة الى اخرى ليس فقط بين النطاقات الثلاثة ، وانما ايضا في النطاق الواحد من تلك النطاقات .

(٤) طبقا للتمايز العرقي بين اهل صفرو ينقسم السكان هنا الى مجموعتين هما العرب والبربر ، ولكل مجموعة منها سماتها الثقافية والاجتماعية المتميزة . وقد سبق ان عرضنا تفصيليا لهذا الموضوع في منطقة المغرب العربي والصحراء الكبرى . انظر ، عادل على مصطفى : التحضر في موريتانيا ـ دراسة في الانثروبولوجيا الحضرية لمدينة نواكشوط (رسالة دكتوراه غير منشورة) ؛ مكتبة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

وبنظرة مقارنة بين مجتمعين متقابلين ، المجتمع الريفي (الاقليم) والمجتمع الحضري (المدينة) عرض الباحث للتنظيمات المختلفة التي تؤلف البناء الاجتماعي من منظور سياسي بحت ، فقدم عرضا مستفيضا لنظام الحكم الرسمي وغير الرسمي ، ولطرق التقاضي المنظمة والتصالح الودي ، وللقانون والعرف ، وباختصار لكل مايؤدي الى حفظ النظام الداخلي ، أو ما من شأنه أن يمنع الصراع العنيف المدمر بين الأفراد .

ويخلص الباحث من كل ذلك الى أن الفرد في « صفرو » يكتسب سمات شخصية المميزة من خلال عوامل الأصل والموطن الاقليمي والقرابة ، وكلها عوامل متداخلة يصعب تمييزها بدقة ، وان كان في مصطلحات السكان المحلية ما يشير الى امكان تمييز الواحد منها عن الآخر ، كأن يشار الى أحدهم مثلا باسم المنطقة التي وفد منها - أو بمعنى أدق التي ولد فيها - أو باسم القبيلة التي ينتمي اليها ، أو العائلة التي انحدر منها . . . ويرى الباحث أن تلك العوامل تكسب الشخص السمات المميزة حتى بعد أن يهاجر من موطنه الأصلي أو ينفصل عن جماعته القرابية أو القبلية ، ويظل يحمل تلك السمات الى أن تذوب شيئا فشيئا في مجتمع المدينة الذي يتسم هو ذاته بسمات أخرى حضرية تطغى على الأصل والموطن الاقليمي والانتهاء القرابي . وهنا يخرج الباحث بنتيجة مؤداها ان تداخل تلك العوامل معا (وان كان كل منها على حدة يؤدي الى التمايز الشخصي) يلعب دورا هاما في الحد من التوكيد على التمايزات بين الأفراد ، فضلا عما للمفهومات الثقافية المختلفة والدين والبناء الاجتماعي الكلي من تأثير على محو - أو على الأقل التقليل من - تلك التمايزات .

(٢)

أما المقال الثاني المعنون « السوق - اقتصاد البازار في صفرو » ، فقد كتبه « كليفورد جيرتز » ، أستاذ العلوم الاجتماعية بمعهد الدراسات العالية ببرنستون .

وتنصب الدراسة هنا على السوق من ثلاث زوايا مختلفة :

فمن ناحية ، باعتباره مكانا فيزيقيا تتم فيه عمليات البيع والشراء ، كما تتم فيه بعض عمليات التبادل أو المبادلة المعروفة « بالمقايضة » . وهو كمكان تفد اليه أعداد غفيرة من التجار والمشترين وكذا الحرفيين ، من أهل صفرو والمناطق المحيطة بها لممارسة العمليات التجارية المختلفة . وينقسم السوق في صفرو - وهي سمة مشتركة بين جل إن لم يكن كل المناطق في المملكة المغربية - الى ثلاثة قطاعات رئيسية ، أولها : المراكز التجارية الدائمة في المدينة القديمة[٥] وخارجها بما تضمه من حوانيت تعرض سلعا وبضائع متنوعة ، وثانيها : هو السوق الدوري الذي يعقد أيام الخميس من كل أسبوع ، وتعرف أقسامه المختلفة بما يعرض فيها من سلع وما يقدم فيها من خدمات حرفية مختلفة ، وأخيرا : منطقة الاعمال التي تقع في محيط المدينة الحديثة ، وتكتسب الطابع الغربي ، وهي تضم بعض المحال التجارية والورش والمصانع الصغيرة التي تعرض أو تنتج سلعا مختلفة كالادوات الكهربية وقطع غيار

---

(٥) تنقسم كل مدن المملكة المغربية عموما الى قسمين : احدهما يطلق عليه « المدينة القديمة » وهي المدينة الوطنية التي اسسها ويسكن فيها اهل المغرب الوطنيون من العرب والبربر ، وتتميز بمبانيها القديمة المتلاصقة وشوارعها الضيقة الملتوية وتفصل بين الاحياء فيها اسوار عالية ذات ابواب ضخمة . ولعل من اهم ما يميز تلك الأحياء هو وجود « الحمام العام » . والقسم الثاني هو ما يطلق عليه « المدينة الحديثة » وهي التي اسسها الفرنسيون ويسكنها الاجانب وبعض الموسرين من المغاربة ، وتمتاز بالطابع الأوروبي عموما .

السيارات والاثاثات الحديثة . . . فضلا عما تضمه من هيئات الخدمات كمكتب البريد والمصرف . . .

وتهتم الدراسة من الناحية الثانية برسم صورة ثقافية للسوق تبرزه متمايزا عن بقية الاسواق الشرقية الاخرى (البازار) التي تنتشر في شمال افريقيا وفي الشرق الاوسط عموما . فهو يعتبر معرضا لفن الزخرفة والنقش العربي « الارابيسك » وربما لا يدانيه في هذا المجال سوى القليل جدا من أسواق شمال افريقيا وعلى الاخص في مصر حيث توجد على سبيل المثال منطقة خان الخليلي ، والمتخصصة في تجارة العاديات . كذلك يتميز السوق في صفرو عن بقية أسواق الشرق باعتباره ليس نسقا ثقافيا في ذاته بقدر ما هو جزء من نظام ثقافي اكبر ، أو باعتباره جزءا متكاملا ومتلاحما ومتفاعلا مع بعض النظم الفرعية من نظام اكبر هو « الاسلام » . وأخيرا ـ وربما تكون هذه هي السمة المميزة والاكثر وضوحا لسوق صفرو وأسواق المملكة ككل على الأقل حتى الآن ـ هو سيطرة المجتمع المحلى اليهودى على السوق وتأثيره القوى على وظيفته وعلى التجارة وتطورها فيه .

ومن الناحية الثالثة ، تهتم الدراسة بالسوق كمجال أو كوسط اجتماعي تلتقي فيه جماعات وفئات (أو أفراد) متغايرة ، يصنفها الباحث في مجموعتين رئيسيتين ، الاولى وتضم اليهود وأهل صفرو « الاصليين » ، وهم قلب السوق ومحور النشاط فيه ، اذ هم المسيطرون على كل أنواع الانشطة فيه (تجارة ـ حرف ـ سمسرة ـ مزايدات ـ سلفيات والثانية وتضم رجال القبائل من العرب والبربر وهم يمثلون ـ باعتبارهم أفرادا وليسوا جماعة أو فئة أو طبقة ـ حشدا ثانويا أو هامشيا ، بالنسبة لغيرهم من أفراد المجموعة الاولى .

ولا يكتفي الباحث بسرد صور السوق الفيزيقية والثقافية والاجتماعية سالفة الذكر ، وما قدمه من بيانات احصائية ـ وملاحق ـ مختلفة عنها ، ولكنه يحاول أن يربط السوق كنظام اقتصادي بنظام آخر ، ربما يبدو أنه على طرف نقيض من ذلك النظام الاقتصادي ، وهو النظام الديني ، وعلى الاخص « الاسلام » . . . ثم « اليهودية » ، وما يرتبط بهما من نظم فرعية أخرى . الا أنه حين تحدث عن المجتمع المحلي اليهودي ، لم يتحدث عنه باعتباره نظاما دينيا ، وانما باعتباره « جماعة عرقية » [٦] لها دورها المؤثر والفعال في السوق وفي عديد من جوانب النشاط التجاري في صفرو على وجه العموم .

ومن النظم التي قدمها الباحث باعتبارها نظما فرعية تندرج تحت الاسلام ، كنظام ديني اكبر ، فضلا عن تأثيره في سلوكيات الممارسين [٧] ـ ولها دورها الاساسي في مكونات النظام الاقتصادي ـ نظام (الحبوس) أو الوقف ، ونظام الزاوية (أو الاخوان أو الطريقة الصوفية) . فمن ناحية يرى الباحث أن النظام الاول (الحبوس) له تأثير على الملكية أو بمعنى أصح على حق الانتفاع والايجارات ، وكذا على المزايدات التي تتم على أملاك الحبس . ومن الناحية الاخرى ، فان نظام الزاوية يؤثر على نظام تقسيم العمل ، وعلى الاخص على الجانب الحرفي منه ، وعلى ترتيب الحرف على سلم

---

(٦) الجماعة العرقية هي جمع من الناس ، ينتمون الى جماعة اكبر او الى شعب اكبر ، ويشتركون في انماط سلوكية معيارية متميزة عن تلك التي يشترك فيها غيرهم من اعضاء الجماعات الاخرى ، وتقوم بينهم وبين هؤلاء الغير علاقات من نوع معين في اطار نسق اجتماعي عام يضمهم جميعا .

(٧) يرى الباحث ان بعض الصور الثقافية المؤثرة الى حد كبير في نظام السوق وفي العمليات التجارية عموما مأخوذة من الاسلام اصلا او على الاقل متأثرة به . ومن هذه الصور : الصدق ، والثقة ، والامانة ، والقدرية او الاتكالية . .

متدرج [٨] الى جانب ما يستتبع ذلك النظام من عمليات تكافلية ـ في المجال الحرفي أيضا ـ تقوم بين جماعات المساعدة المتبادلة التي يطلق عليها (الحنطة) .

واذا كان الباحث قد استطاع ان يحلل بعض النظم الاسلامية الفرعية ويربطها بالنظام الاقتصادي ، ويوضح تأثيرها على السوق ، فانه بنفس المقدرة استطاع ان يقف على دور المجتمع المحلي اليهودي في التأثير الموجه والمطور لنظام السوق والتجارة عموما في المنطقة .

ومن خلال عرض تاريخي بارع ، قدم الباحث صورا لبعض النظم الرئيسية التي كانت تنظم التجارة بوجه عام في مجتمع صفرو مثل نظام « الفندق او النزل » الذي كان يعتبر مركزا تجاريا هاما في طريق القوافل يؤمه كثير من المشاركين في النشاط التجاري ، ونظام « القروض أو السلفيات التي كانت تعطي للتجار من قبل الممولين ـ وأغلبهم من اليهود ـ لتعود اليهم مع نسبة ربح متفق عليها سلفا في حالة نجاح التجارة أو ليتحملوا وحدهم (أي الممولون) الخسائر في حالة فشل العمليات التجارية التي تمت عن طريق التجار الذين كانوا يتمتعون بكامل الحرية في توظيف تلك القروض سواء كانت من النقود أو السلع ، وأخيرا نظام « الزطاطا » الذي يعنى اقتصاديا « رسوم الصبور » وكانت القوافل التجارية تدفعها لرؤساء القبائل او لحكام المناطق حين تعبر أقاليمهم نظير المرور والحماية والضيافة معا .

وعلى الرغم من ان تلك النظم قد اختفت تماما الآن في مجتمع صفرو ، فان الباحث استطاع ان يكشف عن استمرارية وظائفها ـ بعد ان تطورت بما يتلاءم وتطور المجتمع ـ فهي ما زالت تؤثر في نشاط السوق والتجارة ، فمثلا تحولت الفندقة إلى بيوت تجارية ثابته تضم مئات المحال والورش في السوق الدائم ، وتحول نظام القروض الى عمليات واجراءات مالية اكثر تنظيما ـ كنظام الشركات ـ يتقاسم فيها الممول والتاجر الربح والخسارة معا . .

●●●

بعد . . فانه من الجدير بالذكر هنا هو أنه على الرغم من أن مدخل الباحث هو المدخل الاقتصادي ، فان التركيب البنائي للظواهر الثقافية ، أملى عليه ضرورة التعامل مع ظواهر أخرى غير اقتصادية ، فضلا عن أنه مكنه من أن يعطي صورة شاملة ومتكاملة عن المجتمع ، من خلال الدراسة الاقتصادية .

(٣)

والموضوع الثالث الذي يحتوي عليه الكتاب ، والذي يشير مؤلفوه اليه ـ في اصرار ـ باعتباره « مقالا » ، فهو مجموعة ضخمة من الصور الفوتغرافية التي التقطها « بول هيمان » عن « أهل صفرو وأطلس الوسط » . وبول هيمان ليس واحدا من العاملين في الحقل السوسيولوجي أو الميدان الانثروبولوجي ، وانما هو ـ على نحو ما سبق أن أشرنا ـ مصور محترف ، رافق مؤلفي الكتاب في ميدان البحث لمدة أربعة أشهر خلال عام ١٩٦٩ ، وانكب على التقاط الصور بنفسه وبدون توجيه من أحد . وبحساسيته الفنية استطاع أن يقدم مجموعة مكونة من أربع وستين صورة تعتبر ـ على حد

(٨) تبدأ من الخياطين وبائعي الملابس وتجار الحرير والصوف (باعتبارها حرفا او مهنا عليا ونقية) وتنتهي ببائعي الفاكهة والخضر والباعة الجائلين عموما ، فضلا عن الحدادين (باعتبارها مهنا او حرفا دونية او مهينة) .

* يعني اللفظ حرفيا عند البربر : قطعة صغيرة من الثياب .

قول المؤلفين ـ مجالا مرئيا للحياه في صفرو دون حاجة الى تعليق مكتوب [٩] .

والواقع أن الغرض من الصور والرسوم والأشكال التي « يزين » بها الباحثون عادة مقالاتهم ، هو في المحل الأول محاولة لتوضيح شيء ما ، أو لتقديم دليل أو برهان على شيء ما فهي وسيلة إيضاح أو تدعيم لحقيقة قائمة أو لموقف معين . لكن المؤلفين هنا يقولون إن مجموعة هيمان المصورة « تريد أن تقول شيئا . . . أنها رؤية . . . ورمز . . . وتأويل . . . لصفرو ولحياة الناس فيها » . فهل هي بالفعل كذلك ؟

ان الصورة ـ وبخاصة الثابتة ـ لم تستطع حتى الآن ـ وبمفردها ـ أن تقول شيئا ، وان هي استطاعت ، فان ذلك لا يتعدى مجال العناصر المادية من ثقافة شعب ما أو مجتمع ما . فمثلا الصور التي بين أيدينا تقدم لنا شكل الملابس والمساكن وأدوات العمل ونوعه ، وأماكن ممارسة بعض أوجه النشاط في المجتمع ، كالمدرسة والسوق والمرعى والمسجد ، كما أنها توضح بعض السمات والملامح الفيزيقية الظاهرية لأهل صفرو ، لكنها لم تقل شيئا عن العلاقات المتبادلة بين الناس في كل تلك المجالات ، ولم تقدم لنا شيئا هاما عن النظم والانساق الاجتماعية التي يتألف منها بناء ذلك المجتمع . انها تبرز فقط « المظاهر الثقافية الخارجية » ، أما ما وراء تلك المظاهر ، فما زالت عدسات المصور قاصرة عن ادراكه أو الوصول اليه لاستخلاصه وتوضيحه . ان السلوك البشري ، والثقافة الانسانية يمدانا بفئتين من المعلومات والحقائق ، احداهما معلومات وحقائق ذات دلالة مادية بحته ، وهذه يمكن التعبير عنها بالصورة أصدق تعبير ، بل ان الكلمة المكتوبة قد تقف أحيانا عاجزة عن الوصف الدقيق لها . لكن هل عناصر الثقافة المادية تعني في ذاتها ـ أو بمفردها ـ شيئا ، وبدون أن ترتبط بعناصرها الأخرى اللامادية؟ وثانيتهما هي معلومات وحقائق ذات دلالة كيفية أو نوعية أو لا مادية ، وأمامها تقف الصورة ـ حتى الآن ـ عاجزة عن التعبير عنها أو وصفها . ان مثل تلك الحقائق والمعلومات تحتاج الى باحث ماهر ، يلتقط صورا لها « بحواسه المدربة جميعا » ، والتي تعتبر حتى الآن الوسيلة الفعالة في البحوث الأنثروبولوجية ، ان أحكم استخدامها .

واذا كانت الصورة لا تستطيع أن تعبر الا عن الحقائق المادية الملموسة ، فانها من ناحية أخرى بعيدة عن أن تكون أداة تحليل وتفسير [١٠] فالاهتمام بتفسير سلوك الناس ، بمقارنتة بما يقابله في نفس المنطقة أو بمثيله في مناطق أخرى ، أو في ضوء المواقف الاجتماعية المختلفة ، يتطلب نوعا من الدراسة المركزة المتأنية ـ عبر فترة طويلة نسبيا ـ والقائمة على ما اصطلح على تسميته بالطريقة الأنثروبولوجية التي تتيح جمع البيانات والمعلومات ، عن طريق المقابلات الحرة أو المفتوحة والتي ترتبط ارتباطا شديدا بالملاحظة بالمشاركة ، كما تستخدم كل الوسائل والاساليب المتاحة ، ومن بينها الصور وأيضا البيانات الاحصائية. وتعتبر وسيلة جمع البيانات والمعلومات عن الحقائق والمواقف الاجتماعية المختلفة هي خطوة أولى (فقط) تأتي بعدها خطوات أخرى ، لترتقي بالمعلومات الوصفية الى مستوى أعلى من التجريد ، أي بتحويل تلك المعلومات الى رموز ذات دلالات ومعان ، تتيح الفرصة للتحليل الدقيق

---

(٩) كاجراء تنظيمي يتعلق بالنشر وضع مؤلفو الكتاب في نهاية المجموعة المصورة قائمة قصيرة تصف كل صورة على حدة .

(١٠) باستثناء تلك التي تستخدم في الاختبارات الاسقاطية .

والتفسير الصحيح ، وهو ما لم تستطع مجموعة هيمان أو غيرها من الصور أن تقترب منه

وهكذا يتضح أن صور هيمان « العشوائية » لم تكن رؤ ية ورمزا وتأويلا لصفرو وحياة أهلها كما يقول عنها مؤلفو الكتاب ، ولكنها كان من الممكن أن تقول شيئا لو أنها كانت موزعة على المقالات التي يحتوي عليها الكتاب ، ولاستطاعت أن تسهم بطريقة فعالة « كوسيلة » للتوضيح والتوكيد لبعض ما جاء في تلك المقالات من حقائق ومعلومات وبيانات .

(٤)

أما المقال الأخير « معاني الروابط العائلية » الذي كتبته « هيلدرد جيرتز » رئيسة قسم الأنثروبولوجيا بجامعة برنستون ، فيدور حول الحياة العائلية المغربية ، وما يحكمها من قواعد ومعايير ثقافية تنظم أنماط السلوك والتصرفات داخلها ، وتحدد شكلها الخارجي ، وذلك عن طريق تحليل شبكات العلاقات الشخصية القائمة بين أعضاء احدى العائلات المغربية كبيرة الحجم ذات الأصل العربي الممتد والتي تتمتع ـ كوحدة كلية ـ بثراء واسع وملحوظ في منطقة صفرو . وقد قدمت الباحثة ـ من خلال تلك العائلة ، والوحدات الأصغر (الأسر) التي تتكون منها ، والتي تتمركز في أحد أحياء المدينة في بيوت متلاصقة ، وان كان لها امتدادها في كل المملكة المغربية ، وأيضا في خارجها [١١] ـ صورة حية للتفاعل العائلي اليومي في صفرو (كالعلاقات التي تجمع بين النساء في العائلة ، وعلاقات تجنب الذكور داخل السكن للاناث اللائي يحتجبن دائما من الأغراب ، وعالم الأطفال المرتبط بعالم النساء . . .) ، والدور الذي يلعبه كل عضو من أعضاء العائلة ومكانة كل منهم بالنسبة للآخر . ولم تقف الباحثة عند حد رسم صورة وصفية لحياة العائلة ، بل حاولت أن تفسر في أكثر من موضع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يشترك فيها أعضاء العائلة ، والأفعال وردود الافعال المختلفة بينهم أو طرق التعامل والسلوك والتصرفات فيما بينهم ، من خلال « مصطلحات القرابة » المحددة والوصفية ، مستعينة في ذلك ببعض الصور والمبادىء الثقافية التي تحكم مثل تلك العلاقات ، ومنها على سبيل المثال « الصداقة » التي تقوم على أساس التماثل بين الأعضاء المشتركين فيها ، و « المعاضدة » التي تقوم على العكس من ذلك تماما ، أي على أساس من التفاوت والتمايز [١٢] وتؤكد الباحثة أيضا على عامل « المصلحة المشتركة » أو « الهدف المشترك » بين وحدات العائلة الاصغر والتي (أو الذي) تتمثل في الكسب المادي أو الدخل الذي تقوم عليه حياة كل اسرة ، كما يتحدد عن طريقة « العائل » الذي يستطيع أن يحصل على الدخل لمصلحة أعضاء الأسرة ككل ، ومن ثم يصبح المحور الأساسي الذي تدور حوله كل شئون تلك الأسرة ، فهو مصدر الفعل الاجتماعي ومركز العملية الاجتماعية فيها ، بالنسبة للمعتمدين عليه . لكن هذا العائل في نفس الوقت يعتبر « معولا » بالنسبة لغيره من كبار أو أثرياء العائلة الآخرين ، وتقوم بين الطرفين علاقة « معاضدة » ، يصبح فيها العائل « الجديد » مسيطرا ،

(١١) تؤكد الباحثة على ان الزيارات المستمرة بين اعضاء العائلة ، تؤدي الى تقصير واختزال المسافة الفيزيقية التي تفصل بينهم .

(١٢) المقصود بعلاقات المعاضدة هي تلك العلاقات التي تقوم بين طرفين غير متكافئين ـ كالعلاقة بين الوالدين وطفلهما ـ والتي تتلخص في انها علاقة سيطرة من ناحية ، وخضوع من الناحية الاخرى ، او هي علاقة رعاية او عناية من ناحية ، واعتماد من الناحية الأخرى . وسنرى ان مثل تلك العلاقات تعتبر من العوامل الثقافية الهامة التي تعمل على تدعيم واستمرار الجماعة العائلية الكبرى كوحدة واحدة متميزة .

ويصير « المعول » معتمدا عليه ، وتمتد سيطرة العائل الى أعضاء أسرة المعول حتى في غيابه الفيزيقي عنهم . وترى الباحثة أن ترحيب كل عائل بزيادة عدد المعتمدين عليه ، لا يعود فقط الى أن هؤلاء المعتمدين يعتبرون معاونين له في شئونه الخاصة ، أو الى ضمان استمرار فرض سلطانه عليهم ، ولكن أيضا ـ وأساسا ـ لأن مثل تلك العلاقات تعطي للعائلة ككل وحدتها ، باعتبارها تتألف من وحدات تعتمد بعضها على البعض الآخر ، رغم ما فيها من تمايزات داخلية ، ورغم التفاوت الحاد بين وحداتها (١٣) وتعتبر هذه هي أهم وظيفة لمثل تلك العلاقات .

وقد اهتمت الباحثة بابراز التفاوت أيضا في الأسرة الواحدة ، من خلال عناصر فيزيقية كالسن والجنس ، فالنساء والاطفال ، وحتى البالغون من الأخوة والأخوات ـ ان لم يكن لبعضهم مصدر خارجي للدخل ـ يظلون خاضعين لسلطة « العائل » الذي يجمع في يد كل مصدر للثروة في الأسرة ، وفي اليد الاخرى كل السلطان على شئونها .

لكن ليست العناصر الفيزيقية وحدها هي سبب التفاوت بين أعضاء كل اسرة وأعضاء العائلة ككل ، فهناك عامل آخر ـ ربما أكثر أهمية في توكيد ذلك التفاوت ـ هو عامل « الفردية » . فالفردية ـ ليس في الأسر أو العائلة فحسب ، بل وفي المجتمع المغربي ككل ـ لها دور هام في إكساب الشخص مركزا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا معينا ، ويتوقف ذلك على جهود مثل ذلك الشخص الخاصة أو بمعاونة الآخرين . واذا كانت ثروته ـ عند مماته ـ توزع بين أكبر عدد من أقربائه ، فان مركزه الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي لا يورث بل يظل لصيقا به حتي بعد الممات . لكن هذه الفردية وان كانت تؤدي الى التفاوت بين الاعضاء داخليا ، فانها تضفي على الاسرة أو العائلة من الخارج (أو ككل) سمة مميزة ترتبط بالمركز الذي حصل عليه أحد أعضائها .

وربما من أطرف الموضوعات التي تطرقت اليها الباحثة في مقالها المضطرد (١٤) هو موضوع « الأسماء والألقاب » التي تطلق أو تخلع على الشخص منذ ولادته وفي مواقف أخرى مختلفة . فالشخص في الأسرة المغربية يطلق عليه اسم « شخصي » عند ولادته ، يؤخذ عادة من بين أسماء الرسل والأولياء وأبطال الاسلام ، ويظل ينادي به داخل حدود الاسرة ، ولكن حين تتسع دائرة أو شبكة علاقاته ، تطلق عليه أسماء أخرى تضاف الى اسمه الشخصي لتمييزه عن الآخرين الذي يشتركون معه في نفس الاسم . وهذه الاسماء الجديدة ترتبط بلقب العائلة التي ينتمي اليها أو بموطن اقامته أو بمهنته أو بسمة مميزة فيه . وهناك فئة أخرى في هذا المجال هي « الألقاب » وهي في أغلبها ألقاب تشريف ان لم تكن مرتبطة بمهنة أو بحرفة معينة ، كالشريف ، أو سيدي ، أو مولاي . . ولعل من أهم الوظائف التي تؤديها تلك الاسماء والالقاب ـ الى جانب دورها في تحديد شخص بعينه من بين أشخاص آخرين يشاركونه نفس الاسم الشخصي ـ هي أن بعضها قد يضفى على الشخص أو

(١٣) مهتم الباحثة باظهار ذلك التفاوت من خلال مظاهر مادية بحتة كشكل الملبس واثاث المسكن . .

(١٤) عرضت الباحثة لمعظم العلاقات والنظم التي تندرج تحت انساق القرابة والمصاهرة ، كالزواج والاجراءات التي تسبقه او تلحق به كالخطبة والمهر (لملاك) ، والطلاق والارث والعلاقات بين الاقارب والاصهار المباشرين وغير المباشرين . . وقد عرضنا لاهمها هنا .

يؤكد فيه سمة معينة ، وبعضهـا الآخر يحـدد المكانـة الاجتماعية التي يحتلها الشخص . وهي بذلك تؤدى دورا هاما في تحديد الطريقة التي يمكن أن يعامل بها هذا الشخص ، وما ينبغي أن يراعيه الآخرون في سلوكهم وتصرفاتهم ازاءه .

●●●

هذه باختصـار ، أهم الموضـوعات التي جـاءت في الكتاب ، وكلها ـ رغم انفصالها وكما سبق أن أشرنا ـ تعطي صورة واضحة للحياة الاجتماعية في صفرو من مداخل وزوايا مختلفة . والكتاب وان كان قد أسرف في عرض حقائق وصفية عن المجتمع المغربي ـ الى جانب ما جاء في الملاحق العديدة [١٥] ـ فانه في نفس الوقت قد نجح في تحليل وتأويل بعض تلك الحقائق والبيانات ، تحليلا وتأويلا ثقافيا عميقا .

***

(١٥) يضم الكتاب ٥١٠ صفحة من الحجم الكبير ، فضلا عن ٦٤ صفحة اخرى مصورة .

من هندسة الحديد إلى هندسة المجتمع

لبيبه موسى

لعبت ثنائية المصادفة والأوضاع دورا ظاهرا فى حياة العالم الايطالي باريتو . فقد ولد لأب من جنسية . . وأم من جنسية ثانية . وولد فى دولة . . ثم دفن فى دولة ثانية وحصل على مؤهل علمى . . ثم نقل تخصصه نقلا تاما الى مجال ثان مختلف تماما .

وتزوج مرة أولى . . . ثم مرة ثانية .

وقضى معظم سنوات عمره يدافع عن مبدأ الحرية . . ثم شايع وأيد قرب وفاته مبدأ ثانيا مختلفا تماما .

وحتى الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه تحت عنوان :

باريتو الآخر **The other pareto** كان كل هم كاتبه **placedo bucolo** أن يظهر الصورة الأولى الحقيقية لباريتو والتى تختلف تماما عن الصورة الثانية التى رسخت فى ذهن معاصريه الايطاليين ومن تبعهم وهى صورة غير محبوبة رسمتها اتجاهاته الأخيرة . قبل وفاته مباشرة ، عندما أيد الفاشية كنظام للحكم فى ايطاليا ، وامتدح زعيمها موسولينى ، فارتبطت ذكراه فى مخيلة الايطاليين بهذا النظام الدكتاتورى الكريه ، وزعيمه المستبد الذى قاد ايطاليا الى الأزمات والحرب ـ والهزيمة .

وهكذا شاءت ثنائية الأوضاع والأقدار أن تشيع باريتو بعد وفاته بصورة ثانية أيضا غير الصورة الأولى التى عاش فى إطارها مدافعا عن الحرية .

وقد بذل الكاتب **Bucolo** جهدا كبيرا لاظهار الصورة الحقيقية لباريتو كعالم اجتماع واقتصاد وسياسى

---

* **Plqcido Bucolo , The Other Pareto , Scolar Press London, 1980**

بارع يمتاز بأسلوبه الذاتي المبتكر فى البحث والتأصيل والكتابة ، ودفاعه عن الحرية معظم سنى حياته .

وكان **Bucolo** موضوعيا ومحايدا فى تقديم باريتو الحقيقى الى القارىء ، وذلك من خلال عرض مقالاته وموجز عن مؤلفاته ليستظهر القارىء بنفسه شخصية باريتو واتجاهاته وأفكاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وقبل أن نستعرض مقالات باريتو ومؤلفاته وتلمس أفكاره واتجاهاته ، سنعرض لتاريخ حياته عرضا موجزا .

حياة باريتو Vilfredo pareto

ولد فى باريس فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٨ لأب ايطالى وأم فرنسية . وكان أبوه المهندس الايطالي رافائيل يعيش فى فرنسا لاجئا سياسيا ثم عاد الى ايطاليا قبل سنة ١٨٥٤ حيث استمرت حياة باريتو فى وطنه ايطاليا الذى يفخر به ويدافع عنه ويموت ويدفن فيه بعد حياة حافلة استمرت خمسة وسبعين عاما كان ختامها فى أغسطس عام ١٩٢٣ .

وفي بادىء الأمر تخصص باريتو فى علم الهندسة . وحصل على شهادة فيها من مدينة تورينو عام ١٨٦٩ . وعمل مهندسا فى شركة روما للسكك الحديدية بفرعها الموجود فى فلورنسا فى المدة من ١٨٧٠ الى ١٨٧٣ حيث ترك عمله بتلك الشركة وانتقل الى شركة أخرى لصناعة الحديد . وعاش مع عمال المناجم والحديد ولمس فقرهم والظروف الصعبة التى يعيشون فيها . وكانت اهتماماته ودراساته فى الاجتماع والاقتصاد والسياسية حافزا لربط مشاهداته العملية بدراساته وقراءاته . وبدأ التعبير عن ذاته بمحاضرة ألقاها فى ٢٩ يونيو/١٨٧٢ فى أكاديمية جورجوفيلي **Georgofili** بفلورنسا تناولت موضوع « التمثيل النسبي فى البرلمان » . وكانت هذه المحاضرة نقطة تحول فى حياته وبداية تحوله من تخصصه الأصلى فى هندسة الحديد الى السياسة والاقتصاد والاجتماع . وكرس باريتو نفسه للدفاع عن الحرية الفردية واتسعت آفاق اهتماماته بالحرية لتشمل الحرية السياسية والقانونية والاقتصادية .

كما اهتم بموضوع القوة والتأثير والاقناع فى اتخاذ القرارات وتشكيل السياسات الاجتماعية الفعالة .

وكانت المحاضرة الأولى لباريتو فى أكاديمية جورجوفيلي فاتحة محاضرات ودروس متتابعة فى هذه الأكاديمية وغيرها فضلا عن مقالات متعددة شملت السياسة والاقتصاد والاجتماع لفتت نظر الكتاب والصحافة اليه ، وكانت سببا فى أن يدعوه رئيس تحرير جريدة الاقتصاديين لأن يشترك معه فى تحرير الجريدة فى عام ١٨٨٧ ، وكانت تلك نقطة تحول ثانية وكبيرة فى حياة باريتو اذ هجر تخصصه الهندسى وكرس نفسه للدراسات الاقتصادية والاجتماعية وكتب مقالات أدخلته من أوسع الأبواب الى مجتمع الكتاب الاقتصاديين حيث تعرف بالمشاهير منهم .

وعندما تزوج من زوجته الأولى عام ١٨٨٩ اعتزل فى فيلته فى فيزول عام ١٨٩٠ واستغرق تماما فى دراساته وصدرت له أبحاث ومقالات عديدة تناولت المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فضلا عن مؤلفات اقتصادية واجتماعية كان أولها فى عام ١٨٩٦ تحت عنوان « دروس فى الاقتصاد السياسى » . . وقد درس هذا المؤلف فى جامعة لوزان ، وكان مؤلفا رائدا فى الاقتصاد والاجتماع فضلا عن مؤلفه الهام فى علم الاجتماع الجديد . وقد قادت هذه المؤلفات اسم باريتو

ليوضع مع كبار المفكرين فى علم الاجتماع خلال السنوات الاولى من القرن العشرين . فأصبح اسم باريتو يوضع الى جانب أسماء العلماء من أمثال تونيز **Tonnies** ، ودركايم وماكس فيبر وزيميل وغيرهم . وكان تحليله للصفوة قد جذب الكثير من الانتباه وبصفة خاصة فى علم الاجتماع السياسي مثلما حدث بالنسبة لافكار موسكا وميشلز . بل لقد ذهب البعض الى مقارنة أفكار باريتو وتحاليله خاصة لموضوع الرواسب والمشتقات بدراسات فرويد . وقال عنه آخرون أنه كارل ماركس الفاشية بسبب كتاباته التى اعتبرها الفاشيون أساسا لنظامهم .

وفى عام ١٩٠٠ حدثت تغيرات هامة فى ايطاليا وكذلك فى حياة باريتو ، فقد ورث ثروة عن عمه المتوفى فاشترى من ميراثه فيلا جديدة فى سيلجنى وانتقل للاقامة فيها عام ١٩٠١ وهو نفس العام الذى شهد انفصال زوجته الاولى عنه . وحزن باريتو اذ هربت زوجته مع خادم واضطربت حياته وسعى للحصول على الطلاق الذى سمح له بالزواج مرة ثانية من المرأة التى وقفت الى جانبه السنوات العديدة التى ظل خلالها مريضا بالقلب .

وقبل سنوات قليلة من وفاة باريتو كانت ايطاليا تعيش حالة من الفوضى يتنازعها فيها الشيوعيون والفاشيون والمخربون ، وضاع القانون والنظام فى زحمة الاضطرابات والاضرابات والمظاهرات وعمليات الاعتداء على الافراد والممتلكات .

وبدا لباريتو أن ايطاليا تحتاج الى حكومة قوية حديدية تفرض احترام القانون والنظام والضبط فى المجتمع ، وتضع حدا لهذه الفوضى . وذلك ما دعاه لتأييد الفاشية عندما وصلت للحكم فى اكتوبر عام ١٩٢٢ آملا فى أن تكون المنقذة لايطاليا من الفوضى التى تعيش فيها ومن تفكك المجتمع الايطالى واضطراباته . فكتب مقالات يؤيد فيها نظام الحكم الفاشى - ويمتدح فيها زعيمها موسولينى . وكان هذا معجبا بكتابات باريتو وفكره ، ويعتبره ملهمه ومعلمه فعينه شيخا **Senator** فى البرلمان .

ومن هنا ارتبطت ذكرى باريتو بذكرى الفاشية البغيضة وزعيمها الدكتاتور موسولينى وظلت هذه الذكرى عالقة بصورة باريتو عندما توفى فى أغسطس عام ١٩٢٣ ، وغطت على صورته الأولى التى بدأ بها وعاش فى اطارها مدافعا عن الحرية .

ان مؤلف **Placido Bucolo** بعنوان باريتو الاخر **the other pareto** يحاول أن يقدم لنا الصورة الحقيقية لباريتو ، والصورة الموضوعية له كعالم اجتماع واقتصاد وكاتب سياسى يتميز بذاتيته الفكرية وأسلوبه الخاص فى البحث والتأصيل ، وسعة أفقه وأسلوبه اللاذع القوى فى الكتابة . ويلفت **Bucolo** نظر القراء الى أن باريتو يترك لدى قرائه انطباعات متفاوتة بل ومتعارضة أحيانا حسب وجهة نظر القارىء فيما يقرأ . فقد ينتهى الأمر بوصف باريتو بأنه مفكر عقلانى **rationalist** أو غير عقلاني **Liberal** **irrationalist** أوفاشى **fascist** مؤيد للجماعية أو الفردية **individualism** متخذا خط فكر الفيلسوف الالماني هيجل **Hegel** أومنحازا لفكر الفيلسوف الفرنسي بسكال **Pascal** وسنحاول نحن من جانبنا أن نعرض لافكار باريتو فى شتى الموضوعات التى تناولها كتاب **Placedo Bucolo**

محتويات الكتاب

قسم **Bucolo** كتابه الى ثلاثة أجزاء . خصص الجزء الاول لمقالات باريتو ومؤلفاته التى تدور حول

الحرية الاقتصادية والسياسية . ويتضمن هذا الجزء سته عشر موضوعا .

أما الجزء الثانى فقد شمل واحدا وأربعين موضوعا تحت عنوان مشاعر وارستقراطيات **Sentiments and Aristocracies** ثم كان الجزء الثالث والأخير من الكتاب واشتمل على ثلاث فقط تحدث فيها الكاتب عن المعاصرين لباريتو والناقدين له . وحاول فى النهاية استخلاص الوجه الحقيقى لباريتو كما قصد فى البداية عند صياغة عنوان الكتاب « **the other pareto** باريتو الآخر .

عرض موجز

وحتى يمكن التعرف على فكر وشخصية باريتو بغير ايجاز مخل أو تطويل ممل فاننا سنختار بعض الموضوعات التى تحدث عنها باريتو ، وسنكتشف من خلال هذا العرض مسار أفكاره وفلسفته ومنظوره الشخصى للأمور . وعلى ذلك فاننا نعرض فيما يلى للموضوعات المختاره من الكتاب .

الموضوع الأول

التمثيل النسبى proportional representation

تحدث باريتو عن التمثيل النسبى فى البرلمان الايطالى وذلك فى محاضرة ألقاها يوم ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٢ بأكاديمية جورجوفيلى **Georgofili** بمدينة فلورنسا . وطالب باريتو فى هذه المحاضرة بتعديل نظام الانتخاب للبرلمان الايطالى عن طريق السماح بتمثيل مختلف الأحزاب والاتجاهات السياسية حسب نسبة الأصوات التى حصل عليها كل حزب أو اتجاه . وبذلك يكون البرلمان ممثلا لجميع فئات واتجاهات الشعب ، ويضم بصفة خاصة صفوة المثقفين الذين يمكنهم عندئذ المشاركة فى المناقشة وانارة الطريق أمام قرارات الحكومة . ويوضح باريتو أن صفوة المثقفين والاذكياء فى ايطاليا هى أقلية صغيرة ، وانها لن تتحكم فى اصدار القرار ولكنها ستسهم فى ايضاح أفضل السبل لاصدار القرارات عن طريق مناقشاتها الواعية فى البرلمان ، ومعاونتها للأغلبية البرلمانية فى استجلاء معالم الطريق قبل التصويت على القرارات .

وكانت تلك المحاضرة بداية شهرة باريتو وبداية اهتمامه بعرض المشاكل بطريقة تأصيلية تقوم أساسا على معايير عقلية ويمكن القول بأن المهندس باريتو قد تحول بهذه المحاضرة من فنه الهندسى الاصلى الى السياسة والاجتماع .

وقد ذهب باريتو فى هذه المحاضرة الى القول بأن كل مواطن ليس من حقه فقط أن يختار نوابه بل إن من حقه أيضا أن يختار برامج النواب . فالمواطنون لا يحتاجون الى حراس **Guardians** ولكن الى مندوبين ينوبون عنهم بوكالة محددة . فمن حق كل انسان التعبير عن آرائه ومعتقداته بحرية حتى ولو كانت هذه المعتقدات والآراء تمثل وجهة نظر أقلية وتبدو غير مقبولة ظاهريا .

وهكذا اتجه باريتو فى خطابه الى دعم الأقلية التى ينظر اليها كصفوة ثقافية **cultural elite** والتى يعتبر نفسه منتسبا اليها . فقد استهل محاضرته بهذه العبارة التى يقول فيها :

« إن موضوع هذه المحاضرة يشجعنى على الحديث اليكم لأن النظر الى مشاكل تمثيل الأقلية قد يكون حافزا لتسامحكم معى وأن تنصتوا بصبر وتعاطف الى واحد ممن ينتسب الى الاقلية بسبب معتقداته من ناحية ، وربما أيضا بسبب كونه الوحيد غير المعروف . بين أناس مشهورين شهرة واسعة » .

ثم يتابع باريتو عرض حجته فى تأييد التمثيل النسبي قائلا :

إنه حتى يمكن الحكم على مبدأ التمثيل النسبى فانه من الضرورى قبل كل شىء أن تتضح لنا رؤ ية واضحة عما نعتبره أفضل وسيلة للتمثيل النيابي عن المواطنين ، ثم نخلص عندئذ الى أفضل الطرق لتحقيق هذا الهدف .

ولا شك أن الآراء حول الحكومات وتمثيل المواطنين مثار خلاف بين الناس ، ومن الصعب تعدد تلك الآراء .

ويرى باريتو انه توجد ثلاث نقاط يجب النظر اليها عند اختيار افضل الاشكال لتمثيل المواطنين في البرلمان وهذه النقاط هي :

١ ـ دور الحكومة .

٢ ـ مصدر سلطاتها .

٣ ـ حدود هذه السلطة .

١ ـ وفيما يتعلق بالنقطة الأولى فان البعض يريدون من الحكومة ان تكون نشطة وإيجابية بصفة اساسية . فتقدم الخير للمواطنين وتقود شعبها في طريق الرخاء . وعلى العكس من ذلك فان آخرين يريدون من الحكومة ان تكون سلبية يتحدد دورها في كونها ضد الشر فقط . أي ان تقوم بدور الحارس ليس الا .

والذين يؤ يدون الغرض الأول يطالبون دائما بنصيب اوفر من الذكاء والجهد والمثابرة لدى الحكومة . وهو نصيب لا يهتم به المشايعون للغرض الثاني السلبي . ولهذا فان الفئة الأولى اكثر تأييدا من الفئة الثانية لفكرة التمثيل النسبي باعتباره الانسب لتكوين برلمان يتكون من اكثر العناصر المتعلمة والذكية في الامة كلها تضم صفوة ابناء المجتمع . وعندما يصل باريتو الى الصفوة المثقفة فانه يعترف بان الجماعة المثقفة او الشطر المثقف في الشعب الايطالي كان دائما اقلية صغيرة جدا tiny minority وانه من الضروري تمكين هذه الاقلية من ارسال بعض الممثلين عنها الى البرلمان حتى لا تقتصر العضوية فيه على رجال متواضعي الذكاء والكفاءات .

ويقصد باريتو في ذلك الى تطعيم البرلمان بعناصر مثقفة ومستنيرة وعلى مستوى عال من المقدرة وذلك عن طريق الاخذ بمبدأ التمثيل النسبي الذي يسمح بتمثيل الاحزاب الصغيرة والتي تضم اقلية مثقفة ثقافة جيدة .

ويرى باريتو انه توجد ثلاث طرق لحث الاخرين ودفعهم الى فعل شيء ما . وتتمثل تلك الطرق في : القوة ، الخداع ، الاقناع force, deception, Persuation وبالنسبة للطريقتين الأولى والثانية فانهما ليسا من طرق الحضارة والمدنية ، بينما الطريقة الثالثة هي الوحيدة التي تتفق مع المدنية . ولهذا يحبذ باريتو الالتجاء لطريقة الاقناع في الحكم وليس الاقتصار على طريقي القوة والخداع اللتين سادتا في ايطاليا ويعتبر التمثيل النسبي في البرلمان احدى طرق الاقناع التي ينبغي التمسك بها لصلاحية الحكم في ايطاليا .

٢ ـ وبالنسبة للنقطة الثانية التى ذكرها باريتو والتى تتعلق بمصدر سلطة الحكومة فان البرلمان عندما يمثل كل أفكار ومعتقدات المواطنين بنسبهم الصحيحة أى بنسبة كل فكر الى مجموعة المواطنين المنتمين اليه فان قرارات البرلمان حينئذ الصادرة بأغلبية الأصوات سوف تكون متمشية مع تمثيل هذه الأفكار والمعتقدات . والفائدة المؤكدة التى تستفيدها الأقلية من تواجدها داخل البرلمان تبعا لتطبيق نظام التمثيل النسبي هى فائدة معنوية تتمثل فى السماح لهم بأن يتحدثوا فى البرلمان وأن تسمع كلماتهم وأن ينيروا الطريق أمام قرارات الجمعية التشريعية . ومفاد هذا أن الحكومة تصبح مستمدة

سلطاتها من جموع الشعب بمختلف أفكاره ومعتقداته . ويصبح الشعب حقيقة مصدر السلطة .

٣ ـ وأخيرا فإنه بالنسبة لحدود سلطة الحكومة فيذهب البعض الى القول بانه لا توجد حدود لسلطات الجمعية النيابية بينما يذهب الآخرون الى ضرورة وجود حدود لارادة الأغلبية بل واستبدادها المحتمل الذى قد يعصف بالحرية الفردية ويحطم كل مبدأ للعدالة .

وبعد أن عرض باريتو لهذه الأفكار هاجم السياسيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه فى ايطاليا فى تلك الأيام وطالب بقوة بتعديل نظام الانتخاب وجعله بنظام التمثيل النسبي . فاذا كان هناك مثلا مائة ألف ناخب ينتمون لحزب واحد وخمسون ألف ناخب ينتمون لحزب آخر فان الحزب الأول سيكون له مائة نائب والآخر خمسون نائبا وبهذا يسمح بوجود المعارضة .

ونستخلص مما عرضه باريتو فى محاضرته أنه كان مدافعا قويا عن الصفوة المثقفة فى البلاد باعتبارها أقلية لا ينبغى إلغاء وجودها وتأثيرها فى اتخاذ القرارت بسبب اقتصار البرلمان على ممثلي أحزاب الأغلبية الذين قد لا تتوافر فيهم الكفاءات الكافية .

بينما أن الأمر يختلف تماما فيما لو فتحت أبواب البرلمان لتمثيل الأقلية المثقفة والتى تضمها أحزاب صغيرة اذ ستساهم هذه الأقلية فى عملية إصدار القرارات المستنيرة بحكم قدرتها على الاقناع . وبهذا يدخل عنصر الاقناع **Persuation** كعنصر مؤثر في الحكم ولا يقتصر الامر على عنصرى القوة والخداع المستخدمين على نطاق واسع فى ساحة الحكم ان مشاركة أسلوب الاقناع كوسيلة فى إصدار القرارات سوف تيسر فى ظل نظام التمثيل النسبي الذى يكفل حمل ممثلي الأقلية المثقفة الى داخل البرلمان حيث تستخدم علمها وذكاءها وقوة حجتها فى التأثير على أعضاء البرلمان قبل التصويت على القرارات بما قد يضمن تعديل مسار مشروعات القرارات فى الاتجاه الصحيح الذى تدافع عنه الصفوة المثقفة .

الموضوع الثاني

الاقتراع العام Universal Suffrage

ويرتبط هذا الموضوع بالموضوع السابق عليه مباشرة اذ يتحدث باريتو عن أسلوب الانتخاب فى ايطاليا ويطالب بإصلاحه وذلك فى خطاب مفتوح نشره فى جريدة الشعب **gazzeta del populo** ويتضمن هذا الخطاب الهجوم على الاقتراع المقيد الذى يقوم على قصر حق الانتخاب على المواطنين الذين يدفعون ضريبة مباشرة للحكومة كالملاك وأصحاب المشروعات . . فقد كانت الثروة هى معيار الحكم على المواطن بصلاحية مشاركته فى شئون البلاد عن طريق استخدام حقه فى الانتخاب واختيار النواب الذين يحكمون البلاد فهؤلاء الملاك وأصحاب المشروعات الذين يدفعون الضرائب المباشرة هم فى نظر مؤيدى الاقتراع المقيد أصلح من يشترك فى توجيه دفة الحكم اذ أن لهم مصالح حيوية يخافون عليها ويهمهم الدفاع عنها ولذلك يكونون أكثر حرصا على استخدام حق الانتخاب واختيار أصلح النواب لدخول البرلمان .

ويعترض باريتو على ذلك ولا يقر بأن معيار الثروة هو أصلح المعايير لاشتراك المواطنين ـ فى الانتخاب بل يفضل عليه معيار التعليم ويحبذ اشتراط حصول الناخب على الشهادة ـ الابتدائية **elmentary** بحيث تتواجد هيئة ناخبين واعية لأهمية الصوت الانتخابي وقدرة وكفاءة النائب عنها . ولذلك يطالب باريتو بجعل نظام

التعليم الابتدائي إجباريا ولا يعتبر ذلك خرقا لحرية الآباء فى تعليم أو عدم تعليم أبنائهم بل هو ينظر الى حق الأبناء أنفسهم فى التعليم واعتبار ذلك حرية لهم لا يجوز مصادرتها عن طريق عدم فرض التعليم الالزامى على الآباء وهكذا يقف باريتو بقوة الى جانب التعليم باعتباره احدى الطرق الى نظام الحكم المستنير . كما أنه لا يعتبر شرط تحصيل العلم فى المدارس الابتدائية شرطا ينفى وجوده مبدأ الاقتراع العام فى الانتخاب الذى ينادى به .

وفيما يلي مقتطفات موجزة من خطاب باريتو الذى يقول فيه بأسلوبه الساخر :

سيدى العزيز :

نرجو أن تسمح لأحد المتواضعين من أتباع حزب الحرية **Freedom** أن يبدى بعض الملاحظات على أفكاره بشأن الاقتراع العام المنشور فى هذه الجريدة .

« . . . انني أرى أن الخطأ الذى وقع فيه الذين يريدون التطبيق المباشر لحق الاقتراع العام ، وكذلك الذين يربطون نوعية الناخب بالثروة إنما ينبع من حقيقة كونهم يعتبرون الصوت الانتخابي حقا **Right** اكثر منه مجرد ممارسة لواجب **duty** ضرورى لمصلحة المجتمع المتمدين وطبقا لرأى الفئة الأولى فان كل مواطن يجب أن يتمتع بحق الانتخاب لأنه يشارك فى الدفاع عن الوطن . كما أنه يدفع نصيبه فى النفقات العامة للدولة عن الضرائب غير المباشرة .

أما الفئة الثانية فانها تعرض حجتها القائلة بأن المواطنين الذين يشاركون فى النفقات العامة هم فقط الذين يجب أن يتمتعوا بحق المشاركة فى الحكم ومن ثم يقصرون حق الانتخاب على من يدفع ضرائب مباشرة للدولة .

ولن أذكر هؤلاء الذين يرون فى الأغنياء طبقة عليا أسمى **Superior** يجب أن تكون لها شرعا حق السيطرة على الشئون العامة . وأنا أعتقد مثلما يقول مل **Mill** إن ممارسة حق الانتخاب يجب أن ينظر اليه على أنه وظيفة فى الدولة . ومن أجل هذا فانه يبدو لى أن من يحمل حق الانتخاب يجب أن تتوافر فيه الثقافة والمعرفة الضرورية للقيام بمهامه بكفاءة بصرف النظر عن الثروة . ولهذا فانني استبعد الشخص الأمى من التصويت فى الانتخابات . وأفضل أن يكون حق التصويت إذا أمكن لهؤلاء فقط الذين أتموا التعليم الابتدائى بنتائج طيبة . ويجب أن يكون من حق كل شخص أن يتعلم فى المدارس الابتدائية . ومن هنا لن يكون الاقتراع العام مجرد كلمة خاوية بل حقيقة مفيدة . كما أن فرض التعليم الابتدائي على جميع الابناء لن يكون انتهاكا لحرية الآباء فى تعليم أو - عدم تعليم أبنائهم . فالأب الذى لا يعلم ابنه تعليما ابتدائيا على الأقل لا يمارس حقا أو حرية وانما يرتكب اثما فى حق ابنه » .

ونستخلص من خطاب باريتو ايمانه بحيوية التعليم وضرورته للانسان واعتباره ليس فقط وسيلة لتطوير المجتمع فى مدارج الحضارة والمدنية وانما وسيلة لاصلاح الحكم عن طريق توفير هيئة ناخبين مثقفة . تكون قادرة على اختيار هيئة نواب صالحة لحكم البلاد . كما أن باريتو لم يعتبر شرط الحصول على الشهادة الابتدائية لكل ناخب انتهاكا لحرية الانتخاب للمواطنين وهى الحرية التى ظل مدافعا عنها معظم أيام حياته قبل أن ينحاز الى الفاشية فى الفترة القليلة قبل وفاته .

الموضوع الثالث

الاشتراكية والحرية Socialism and Freedom

لقد تحدث باريتو عن الاشتراكية والحرية فى مقال نشر فى صحيفة **Il pensiero Italiano** المفكر الايطالى

فى ابريل عام ١٨٩١ وأبدى فى ذلك المقال لأول مرة اهتماما كبيرا - بالاشتراكية التى أصبحت بعد ذلك احدى الموضوعات الرئيسية فى كل كتاباته . ويوضح باريتو فى هذا المقال العلاقة بين الاشتراكية ومذاهب الحماية الاقتصادية والمذاهب الحرة الاخرى وأثر كل هذه المذاهب على مستوى حياة الناس ، وتتبع القصد الحقيقى من تطبيق كل مذهب وهل هو فى مصلحة عامة الشعب من الفقراء أم فى مصلحة صفوة الحكام والأغنياء . فيقول فى هذا الشأن إن الاشتراكية تهدف الى تدخل الدولة لأجراء تعديل فى توزيع الثروة ، على أن هذا الهدف نجده أيضا فى نظم أخرى مثل نظم الحماية **protectionism** اذ تفكر بنفس طريقة تفكير الاشتراكية بصفة عامة ، ولكن لا يطلق عليها لفظ اشتراكية . ويخلص باريتو الى جمع الاشتراكيين وأصحاب نظام الحماية **protectionists** تحت اسم أصحاب القيود **restrictionists** وهم يختلفون عن أولئك الذين يريدون أن يكون توزيع الثروة قائما فقط على المنافسة الحرة ويطلق عليهم الأحرار **Liber-ationists** أو أصحاب مذهب الحرية .

ويرى باريتو أن الاشتراكيين الحقيقيين يرغبون فى تدخل الدولة من أجل إعادة توزيع الثروة لمصلحة الفقراء بينما أن أصحاب مذهب الحماية يعملون لمصلحة الاغنياء حتى ولو لم يقصدوا ذلك وهذا عن طريق تأييدهم للحماية التجارية والتنظيم والاجتماعي ذى الطابع العسكرى **military type**

ويعدد باريتو طرق تدخل الدولة لتعديل توزيع الثروة ويقسمها الى ثلاثة أقسام يشمل أولها الحماية الجمركية والاحتكارات والمشروعات العامة والدين العام .

ويتجه ثانيها إلى فرض الضرائب غير المباشرة على نطاق واسع أما ثالثها فيركز على الحرب والاستعداد لها بالسلاح أو ما يسمى بالسلام المسلح .

أما الحماية الجمركية فانها تفيد الرأسماليين الذين وضعت الحماية الجمركية من أجل مشروعاتهم . بينما هى تضر بسائر المواطنين حيث يحرمون من ميزة المنافسة مع سلعة الرأسماليين وهى منافسة قد تشمل الجودة والأسعار . وينتهى الأمر بأن تقتصر الفائدة من وراء الحماية الجمركية على ما تحققه الصفوة المسيطرة رأسماليا من أرباح طائلة وهى ذات الصفوة التى تؤثر على الحكومات لاستصدار قرارات الحماية الجمركية بحجة المصلحة الوطنية ولكنهم هم المستفيدون منها فى النهاية .

ونفس الأمر نجده فى الاحتكارات **monopols** فهى تضر بالثروة الوطنية لدرجة كبيرة وتزيد من نسبة فقر الشعب اكثر مما تفعله الحماية الجمركية بينما هى تفيد الصفوة الرأسمالية التى تتمتع بهذه المشروعات بقرارات من السلطة الحكومية . وبقدر ما يستفيد الاغنياء من الحماية الجمركية والاحتكارات فانهم يستفيدون كذلك من الديون العامة إذ يحصلون على عائد لرأسمالهم أعلى مما كانوا سيحصلون عليه لو استخدموا هذا المال فى الصناعة أو التجارة حيث أنهم سيقرضون الحكومة بفوائد عاليه . وهكذا يزيد العبءعلى عامة الشعب من الفقراء نتيجة زيادة ديون الدولة ويزيد فى نفس الوقت من ثراء الطبقة الرأسمالية الغنية . وكان المفروض فى المشروعات العامة التى تنفذها الحكومة أن تحقق مصالح المواطنين غير أن هذا الهدف لا يتحقق لأن هذه المشروعات العامة تلبي رغبات ورفاهية الطبقات الحاكمة اذ أن نفوذ هذه الطبقات يطغى عند اقرار المشروعات والاشغال العامة بحيث تتجه الفائدة الحقيقية منها الى صفوة الحكام والأغنياء .

وبعد أن فند باريتو كل طريقة من الطرق السابقة فى تدخل الحكومات لاعادة توزيع الثروة وأوضح أن الهدف منها ليس لمصلحة عامة الشعب من الفقراء وانما مصلحة صفوة الرأسماليين والحكام انتقل باريتو الى مناقشة استخدام الحكومة لأسلوب الضرائب غير المباشرة كوسيلة من وسائل الحصول على موارد تعيد توزيعها لمصلحة الشعب . وقال إن هذه الضرائب غير المباشرة تضاعف أعباء الحياة على الطبقات الفقيرة التى تدفع الضريبة غير المباشرة عند شراء السلعة وهى مسألة لا يحس بها الأغنياء كما يحس بها عامة الشعب الفقراء وانتهى باريتو من الحديث عن أساليب التدخل الذى تقوم به الدولة فى شئون المجتمع الاقتصادية بالحديث عن موضوع الحرب والسلام المسلح واضعا إياه بأنه أغلى أنواع الترف **most expensive Luxuries** التى تنعم بها الطبقات الحاكمة ضد مصلحة الشعب ويذكر أن البريطانيين ما زالوا يدفعون ديون الحروب التى جلبتها عليهم الطبقات العليا فى حربها مع الجمهورية الفرنسية ودفاعها عن ملوك أوربا وحكمهم المطلق . ويندد باريتو فى نفس الوقت بالحكومة الايطالية بسبب النفقات الباهظة التى تنفقها استعدادا للحرب والتى لا يستفيد منها الا أقلية صغيرة بينما تزداد معاناة الغالبية العظمى من الشعب فيما يتحمله الأغنياء فى نفقات الحروب لا يتناسب مع ما تتحمله غالبية الشعب فى هذه النفقات . ولا يدفع الأغنياء بنسب ثروتهم نظرا لان نفقات الحروب يتم تغطية معظمها بالضرائب غير المباشرة التى يتحمل عبئها سواد الشعب ولا يحس بها الأغنياء .

ويخلص باريتو من تحليله لحال المجتمع الايطالى الى القول بأن معظم الثورات الكبيرة فى ايطاليا ترجع الى احدى وسائل تدخل الدولة فى صورة الحماية الجمركية أو الاحتكارات كما هو الشأن فى احتكار صناعة الدخان والسكك الحديدية مثل تلك التى كان يعمل بها أو عن طريق أشغال الحكومة التى تطرحها من مناقصات أو مضاربات أخرى تحولها الدولة أو المجالس المحلية أو ما تجنيه تلك الطبقات من مكاسب نتيجة للحروب والاستعداد لها وما يستتبعه ذلك من نفقات حكومية وديون يستفيد من ورائها الرأسماليون . ولا يخفى باريتو نقده فى هذا العرض لطبقة الصفوة المستفيدة من سياسات الحكومة التى تزيدهم ثراء . وهو يقر بضرورة تدخل الحكومة فى الشئون الاقتصادية واعادة توزيع الثروة ولكن ليس كما هو موجود أمامه فى ظل البورجوازية التى يطلق عليها بورجوازية اشتراكية **bourgeois socialist** والتى تعمل لمصلحة الأغنياء ويطالب بحكومة اشتراكية حقيقية تعمل لمصلحة الفقراء وليس الأغنياء .

ويرفض باريتو أن تسود ايطاليا صورة من صور الاشتراكية المتطرفة **excessive** فهو يقيم معادلة متوازنة بين الاشتراكية والحرية .

وعندما يصل باريتو الى هذه النقطة فإنه ينتقل الى الحديث عن النظم الحرة **liberal** ويقسمها الى نظم بدائية **apriori** وتتمثل فى تلك النظم التى تريد العودة بالانسان الى حالته الطبيعية البدائية وتشمل مذاهب العدمية **nihilist forms** والفوضوية **anarchist form** مثل المجتمع الذى يتحدث عنه **Herzen** هرزن وهو مجتمع بدون حكومة ودين بدون إله .

أو مثلما يذهب **Bakunin** الذى كره الشيوعية لأنها تقضى على الحرية وتعطى الدولة ملكية الارض ووسائل الانتاج .

فاتجه الى أقصى النقيض وطالب بتحطيم الدولة وتحطيم أى تنظيم قائم فى المجتمع . وهذا الذى يذهب اليه العدميون **nihilists** لا يختلف عما يذهب اليه أما القسم الثاني من النظم الحرة الذى يتحدث عنه باريتو فهو النظم التجريبية الحرة **experimental liberal systems** التى يفصح عنها التاريخ والتجربة والتى تضمنها كتابات الاقتصاديين والسياسيين والفلاسفة الواقعيين من أمثال سبنسر **Spencer** وبكل **Buckle** ومولينارى **Molinari** ويحبذ باريتو هذا الاتجاه العملي القائم على التجربة وتلمس المشاكل الواقعية للمجتمع واختيار النظام الاقتصادى الملائم له والممكن تطبيقه . فالاعلان مثلا عن المبدأ المجرد الذى ينادى بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج كما هو الشأن فى الاشتراكية الماركسية لن يفيد شيئا على الاطلاق اذا لم يضع فى الاعتبار المشاكل الخاصة بتنفيذ ذلك المبدأ من الناحية العملية .

ويعبر باريتو عن خشيته من اعطاء هذه المهمة ـ أى مهمة تحقيق الاشتراكية كما يراها ـ الى الحكومات المعاصرة التى لا يثق فى قدرتها على حل المشاكل وتقليل معاناة الشعب وينادى بضرورة دراسة كل خطوة تلزم لتقدم المجتمع الايطالي وأن يستخدم فى هذه الدراسة كل الوسائل التى تيسرها العلوم الاجتماعية من أجل معرفة حقائق الأمور فاذا لم تكن تلك الوسائل كافية فيجب الاعتماد على التجربة واستخدامها بعناية فى أصغر جزء من المجتمع الايطالي . فاذا ما نجحت تلك التجربة أمكن تعميمها . وهو أسلوب متبع فى سويسرا والولايات المتحدة . اذ أن كل كانتون **Canton** وكل ولاية تراقب ما يحدث فى باقى الكانتونات والولايات وتقلد أو تطبق كل شىء تتم تجربته بنجاح .

تلك كانت مقالة باريتو عن الاشتراكية والحرية عرض فيها لوسائل تدخل الدولة ولمذاهب الحرية الاقتصادية وانتهى الى وجوب دراسة واقع المجتمع الايطالي الذى يعيش فيه لمعرفة أصلح النظم لتطبيقها بحيث تجمع بين الاشتراكية المعتدلة والحرية التى يعشقها ويدافع عنها ، ويطالب بالاعتماد على التجربة أولا قبل تعميم أى نظام فاذا ما نجحت تجربة هذا النظام فى قطاع محدود . من المجتمع الايطالي أمكن تعميمه على سائر المجتمع . وتلك كانت طريقة باريتو فى التفكير التى تعتمد على المذهب التجريبي أو الأسلوب والطريقة التجريبية حيث لكل مجتمع ظروفه الخاصة والتى تتطلب استجابات مناسبة فى التطبيق لأى نظام اجتماعى أو اقتصادى . وقد دفعه حرصه على استيعاب المجتمع للنظام المقترح أن يطالب بتجربة هذا النظام فى قطاع صغير من المجتمع فاذا ما نجح أمكن تعميمه .

واذا كان باريتو فى تلك المقالة التى نشرها عام ١٨٩١ قد دافع عن الحرية وعن عامة الشعب بقدر ما دافع عن الاشتراكية المعتدلة وليس الاشتراكية المتطرفة ، فانه كان يعبر فى ذلك الوقت عما تنطوى عليه نفسه من ميل للحرية حيث كان على نحو ما ذكره رونالد فليتشر **Ronald Fletcher** بأن باريتو بدأ كتاباته متخذا جون ستيوارت ميل **J. stuart Mill** نموذجا له . كما يصر **Bucolo** على تأكيد هذا الوجه الحر لبارتيو قبل أن يتحول من نهاية حياته الى اتخاذ جانب الفاشية ولعل **Bucolo** قد نجح فى تقديم هذا الوجه الآخر لباريتو من خلال عرض وتحليل محاضرات ومقالات باريتو منذ بدأ فى القاء أول محاضرة فى ٢٩ يونية ١٨٧٢ وبذل جهودا مضنية فى جمع هذه المحاضرات والمقالات وتتبع خطوط فكر باريتو وانتهى الى أن باريتو مخلص للحرية ومدافع عنها وظل **Bucolo** يكرر ذلك فى صفحات ١٩ و ٤٣ و ٧٤ ثم استشهد بقول **Zuccarini** فى

صفحة ٣٠٣ من أن هذا الاتجاه الحر ظل ملازما لباريتو الذى كان على يقين بـأنه لن يتحقق تقـدم فى المجتمع بدون حريـة وان كان هـذا الاتجاه يختفى أحيـانا تحت السطح .

الموضوع الرابع

الدولة الاخلاقية Ethical state

ينتقد باريتو فى هذا المقال الادعاء القائل بـأنه لا يمكن تحقيق الحرية فى ايطاليا بسبب تعارضها مـع مصالحهـا الطبقة الحاكمة . فالطبقـة السائـدة dominating class فى المجتمع تعارض الحرية الاقتصادية لأنها تضر بمصالحها .

وكان باريتو فى تلك المقالة يرد على ما كتبه البرفسور Coletti كوليتى وينتقده قائلا :

« أنه إذا سلمنا أن الدولة هى أداة تستخدمها الطبقة الاجتماعية الأقوى فأى فائدة يجنيها أصحاب مـذهب الحرية من دعوتهم المستميته الى الحرية وفى نفس الوقت يثيرون اليأس من امكان تحقيق هذه الحرية » .

لقـد كان بـاريتو يـدافع عن الحـريـة الاقتصـاديـة ويتحـدث عنها من منـطلق الواقـع والملوس فى الحيـاة الايطالية دون أن يحلق فى آفاق الخيال . وهذا مادفعه الى انتقاد البروفسور كوليتى عندما تحدث عن الدولة الحرة Liberal state واصفا اياهـا بأنها دولـة أخلاقيـة ethical state مثل التى ينادى بها الاشتراكيون .

ويرد باريتو على ذلك بأن كوليتي والاشتراكيـين إنما يستندون على حجج ميتافيـزيقية بينـما أن الحديث عن الدولة هو حديث عن واقع وعن منظمة يحكمها الناس في ظل اسس مختلفة قد ترجع الى القول بوجود حق الهي في الحكم او تستند الى حكم العادة المتوارثة او قد ترجع هذه الاسس الى اختيار الفئة الحاكمة من جانب الاغلبية بطريقة نيابية شرعية .

ويربط باريتو بذلك الدولة بالواقع العملي الملموس للمجتمع وحياة افراده حكامـا ومحكومـين كما يـرفض الحجج الميتافيزيقية التي يستند اليها البـرفسور كـوليتي والاشتراكيون في اصطلاح الدولـة الاخلاقيـة . وبهذا يكون منهج باريتو في البحث منسجما مع أسلوبه العلمي التجريبي في معالجة مشاكل المجتمع .

الموضوع الخامس

الجامعة

مقال منشور في اول مارس عام ١٨٩٥

يتحـدث باريتـو في هذا المقـال عن الاضـطرابـات والفوضى وعدم احترام القانون في ايطاليا ويضرب مثالا لـذلـك بـالجـامعـات الايـطاليـة حيث تسـود فيهـا الاضطرابات من جانب الطلاب مما يدفـع السلطات لاغلاق الجامعـات . ويقارن بـاريتو حـال الجامعـات الايطالية بالجامعات السويسرية التي يسود فيها النـظام والانضباط واحترام القانون مع التمتع بالحريـة . وان الطلاب والاساتذة يحترمون نظم الجـامعة فـاذا ارادوا تعديلها فان لهم الحرية الكاملة في المطالبة بهذا التعديل وتستمـع لهم السلطات وتستجيب لمطالبهم اذا كـانـت عادلة . ومن هنا يسود السلام والنظام واحترام القانون في الجـامعات السـويسريـة ويطالب بـاريتو بـان يسـير المجتمع الايطالي على نهج المجتمع السويسري من حيث احترام القانون وسيادة الحرية فالحرية لا تعني عدم التقيد بالقوانين كما ان التقيد بالقانون لا يعني اننا قيدنا الحرية اذ يجب ان تكـون هناك ضـوابط للحريـة في صـالـح المجتمع .

ان باريتو في هذا المقال ينعي حال المجتمع الايطالي ويغبط السويسريين على مجتمعهم الذي لا تعكره فوضى الاضطرابات ويضع باريتو يده على مصدر الداء في المجتمع الايطالي والمتمثل في الفوضى وعدم احترام القانون مع عدم توفر الحرية الكافية . وينادي باصلاح المجتمع الايطالي ليتبدل حاله الى افضل مما هو عليه .

الموضوع السادس
ما للاشتراكية وما عليها For and against Socialism

كان عام ١٨٩٦ عاما سيئا في ايطاليا اثر الهزيمة الساحقة للحملة الايطالية على اثيوبيا اذ تعرضت القوة الايطالية للابادة واضطر رئيس الحكومة Crispi لتقديم استقالته وساد البلاد جو عام من الاستبداد الحكومي ، وزاد تقييد الحريات الفردية وتعرض السياسيون والكتاب للاضطهاد والاعتقال وكان اغلبهم من الاشتراكيين والاحرار حيث تعاون الفريقان في مقاومة استبداد الحكومة وطغيانها مما اكسبها عطف الشعب وعطف باريتو الذي وجد فيهم المناضلين والمدافعين عن الحرية ضد الظلم وضد النزعة الحربية التي سادت ايطاليا وكانت مسئولة عن تخريب ميزانية الدولة وزيادة اعباء الفقراء .

وفي هذا الجو العام نشر باريتو مقالا في ٢٠ يونيو عام ١٨٩٦ تحت عنوان ما للاشتراكية وما عليها For and against socialism وقد قارن باريتو في تلك المقالة بين الاشتراكية المعارضة والبورجوازية الحاكمة في ايطاليا موضحا خطأ القاعدة الاقتصادية الاشتراكية على اساس ان الملكية الخاصة هي اساس التقدم الحضاري للشعوب . ولكن بالرغم من خطأ اساس الاشتراكية فان ما يذكر لها بالفضل انها التقت مع وجدان الشعب الايطالي في شكواه من ظلم وعيوب واخطاء البورجوازيين الذين يحكمون ايطاليا . اذا فشل هؤلاء البورجوازيين في تحقيق العدالة التي يأمل فيها الشعب وكانوا يرددون شعارات جوفاء لا تجد طريقها الى التنفيذ حيث تصطدم بمصالح فئات كثيرة مستفيدة من نظام الحكم السائد .

ويوجه باريتو في تلك المقالة نقده للطبقة البورجوازية كما يقدم لها نصيحة بان تعدل من اسلوبها في الحكم حتى تنتصر على الاشتراكيين وتغلق امامهم ابواب استهدار عطف الشعب وتأييده لمذهبهم .

ويضرب باريتو امثلة للبورجوازية الناجحة في سويسرا حيث يوجد بورجوازيون يستجيبون لرغبات الشعب ولهذا لا يوجد ميل شعبي نحو الاشتراكية والاشتراكيين بدليل ان الشعب السويسري يرفض في الاستفتاءات تلك القوانين التي تشوبها شبهة الاشتراكية . بينما يختلف الامر في اسبانيا حيث تجد الاشتراكية ويجد الاشتراكيون مرتعا خصبا بين صفوف الشعب بسبب ظلم البورجوازية الحاكمة .

ويوجه باريتو في هذه المقالة نقدا بناء للطبقة الحاكمة في ايطاليا اذ يظهر عيوبها موضحا الطريق السليم الذي ينبغي ان تسلكه ويفتح اعينها للمخاطر التي تتعرض لها بسبب زيادة التأييد الشعبي للاشتراكيين . كما ان باريتو لا يخفي تقديره للاشتراكيين الايطاليين الذين برزوا من بين جماهير الشعب الايطالي ليعارضوا ويقاوموا السياسة الخاطئة للحكومة ، ويطالبوا بتحقيق العدالة متحملين رد فعل الحكومة المتمثل في الاعتقال والاضطهاد .

خطر الاشتراكية

مقال منشور في جريدة الاقتصاديين في شهر مايو عام ١٩٠٠ .

مع بداية القرن العشرين ظهرت تطورات هامة في الحياة العامة للمجتمع الاوروبي والحياة الخاصة لباريتو ، وكان لذلك اثره وانعكاساته الواضحة على فكر باريتو . ففي ايطاليا تم اغتيال الملك البرتو الأول على يد احد الفوضويين الذين سمموا الحياة الايطالية في نظر باريتو . وفي انجلترا ماتت الملكة فيكتوريا في يناير ١٩٠١ . وقد صاحب هذه التطورات في القيادات العليا تطورات اخرى على مستوى الحكومات واتجاهاتها وظهور ثقل الطبقات العاملة في اوروبا . فقد حصلت هذه الطبقات العاملة working classes على مزيد من السلطة . فقد ولد حزب العمل في بريطانيا ، بينما تشكلت اول الحكومات الحرة بمساندة وتأييد الاشتراكيين في ثلاث دول هي بريطانيا وفرنسا وايطاليا .

والى جانب هذه التطورات العامة حدثت تغييرات خاصة في حياة باريتو اذ استثمر ميراثه عن عمه في شراء فيلا خاصة في غابة سيلجني Celigny وعاش فيها حتى وفاته منتميا وجدانيا الى البورجوازيين ولكن مع رؤية صافية للتفاعلات الاشتراكية في المجتمع وفي تلك الواحة من واحات السلام والسكون في وسط غابات الصنوبر كان باريتو يتأمل الحياة بأعصاب باردة وان كان يشارك ويشايع الجو العام السائد حينذاك والذي يقوم على الثقة المتبادلة بين الاحرار والاشتراكيين . ومع ان باريتو كان ينظر الى الاشتراكيين من ناحية كونهم حلفاء للاحرار في الدفاع عن الحرية الا انه كان يتوجس خيفة منهم اذا ما وصلوا السلطة واستولوا عليها .

فقد حذر باريتو من ضياع الحرية في ظل الاشتراكية التي يقودها الاشتراكيون المتطرفون radical social-ists اذ يفرق باريتو بين ثلاثة انواع من الاشتراكيين يذكر في مقدمتهم الاشتراكيين العلميين Scientific Socialists وهم قلة وليس لهم نفوذ سياسي ولكنهم يستحقون الاحترام لاخلاصهم في البحث عن الحقائق . ويلي هؤلاء الاشتراكيون الاورثوذكس Orthodox Socialists وهم يتمتعون بنفوذ على الساحة العملية ويعترفون فعلا بأهمية رأس المال مثلما يفعل الاقتصاديون كل ما هنالك انهم يريدون فقط ان يصبح رأس المال جماعيا وليس فرديا ثم يأتي في النهاية الاشتراكيون المتطرفون radical Socialist وهم الأكثر عددا والاقوى نفوذا والاشد خطرا على المجتمع .

ويمتدح باريتو الاشتراكيين المعتدلين . -Ortho dox Soc وينظر اليهم على انهم هم وحدهم الذين سيكونون في يوم ما المدافعين عن الحرية والمنقذين للمجتمع الايطالي ويعترف بفضلهم في الدفاع عن الحرية في ايطاليا ويقر بأنهم هم وحدهم الذين يطالبون باحترام القانون والدستور والذين يقاومون الحكومه التي تزور الانتخابات بأسلوب عصابات المافيا .

ومع ان باريتو يمتدح هؤلاء الاشتراكيين المعتدلين الا انه يبدي مخاوفه منهم اذا ما وصلوا الى السلطة اذ يخشى ان يضنوا على الناس بالحرية عندما ينقلون من فئة المضطهدين الى فئة الحكام .

ولم يفت باريتو في هذه المقالة ان يشن هجوما على الطبقة البورجوازية الحاكمة متهما اياها بالعجز والجبن والتقاعس في مواجهة خصومها الاشتراكيين الذين يزداد نفوذهم ويطلق باريتو لأول مرة على هذه الطبقة الحاكمة عبارة « البورجوازية الجبانة » Cowardly bourgeoisie ويحذر باريتو طبقة الحكام من ان ايطاليا في طريقها الى ثورة اقتصادية بسبب جهل وسطحية Superficialty واهمال الطبقة المالكة التي ستجردها الثورة من كل ما تملك .

ان باريتو في هذه المقالة يحذر البورجوازيين ويرفع لواء الخطر من الاشتراكية وسيادتها لنظم الحكم ، وهو يقصد بذلك الاشتراكيين المتطرفين وليس الاشتراكيين المعتدلين الذين يدافعون عن الحرية ويصونون المجتمع المتحضر وهكذا فان باريتو كما يقول عنه Bacolo مازال قلبه ينبض بنبض الحرية His heart still beat for freedom .

هل يمكن للبورجوازية ان تنهض ثانية ؟
Can the boutgeoisie rise again?

يتحسر باريتو في هذه المقالة على البورجوازية وما وصلت اليه من ضعف شديد امام الاشتراكيين الذين يكتسبون باستمرار مساحات جديدة في ساحة الرأي العام . وقد نشرت هذه المقالة في يناير ١٩٠٤ خلال فترة تميزت بالمرارة الشديدة والتشاؤم deep bitterness and pessimism الذي ترك اثره على فكر باريتو وكتاباته ودخل باريتو في مناظرات وحوار مع كتاب آخرين على صفحات الجرائد من بين هؤلاء الكتاب Prezzolini الذي كان لا يزال يأمل في معركة حاسمة قادرة على اعادة نهضة البورجوازية ومثاليات الحرية التي كانت تدافع عنها . بينما كان باريتو يرى ان الوقت قد فات وان البورجوازيين الذين كانوا من قبل تقدميين Progressivists ويعرضون افكارا جديدة عندما كانوا صفوة لم يعد لديهم جديد يقدمونه ، وانهم دخلوا في زمن افولهم وانهيارهم ، وان مكانهم سوف تحتله صفوة جديدة ناهضة من عامة الشعب ويستدل على ذلك من الفارق الكبير الذي يلاحظ في ايطاليا بين نشاط وحيوية الاشتراكيين وخمول وضعف وتراجع البورجوازيين امام خصومهم قائلا : بأن قلة من الاشتراكيين اقوياء وذوو عزيمة قد هزموا الاغلبية في البرلمان الايطالي .

وتعكس تلك المقالة فكر باريتو عن دورة الصفوة التي تبدو كحقيقة واضحة في كل المجتمعات والتي تتميز بحركة الافراد وحراكهم من الطبقة الدنيا الى الطبقة العليا الحاكمة حيث لا تدوم الارستقراطيات aristocracies do not Last وتزول حتما بعد فترة من الزمن . ويعتبر باريتو ان التاريخ مقبرة الارستقراطيات ويعطي امثلة لذلك من تاريخ مختلف المجتمعات البشرية كمجتمع اليونان والرومان والجرمان وغيرها كما يرى باريتو ان الاقليات لا تزول في عددها فقط ولكن في صفاتها ومميزاتها كذلك حيث تفقد تلك الاقليات قوتها Vigour ويصيبها الوهن بسبب ضعف نسبة الرواسب التي مكنتها من كسب السيطرة والسلطة وعندئذ تكون الفرصة سانحة ومواتية لصعود صفوة جديدة للحكم من بين الطبقات الأدنى Lower يكون لها قوتها الخاصة ونصيبها من الرواسب او الصفات اللازمة التي تمكنها من الاحتفاظ بالسلطة والبقاء في الحكم الى ان تضعف ويحل غيرها محلها . فدورة الصفوة تكون في حالة تحول دائم كالنهر لا تبقى على حال ولا تصير اليوم على ماكانت عليه بالأمس حيث يحدث من وقت لآخر تطور لنظم الحكم قد يكون هذا التطور بطيئا او قد يحدث على شكل اضطراب مفاجيء وعنيف كفيضان الانهار فتتولى مقاليد الامور صفوة حاكمة جديدة لتستقر الامور وتعود لمجراها الطبيعي والمعتاد وهكذا . .

الفاشية وتعديل النظم الدستورية
Fascism and constitutional re — orgnisation

كانت الفوضى تسود ايطاليا مما دعا ملكها الضعيف بأن يعهد الى موسوليني في اكتوبر عام ١٩٢٢ بتشكيل حكومة جديدة . وكان البعض ينظر الى الفاشية على انها

ملاذ ايطاليا ومخرجها من الاضطرابات والفوضى التي عمت البلاد .

وقبيل وصول الفاشستيين fascists الى الحكم في ايطاليا كان باريتو ناقما على الأوضاع السائدة ويقول : « انه من الصعب على شعب متمدن ان يعيش بدون قوانين وان النظام ضروري ولا غنى عنه للحياة المتمدنة المتحضرة » وكان يدعو الى قيام نظام حكم جديد في ايطاليا اما من الفاشستيين او خصومهم ، وتكون مهمة هذا النظام الجديد اعادة الاستقرار للبلاد .

وكانت تلك الافكار التي يعلنها باريتو في ذلك الوقت متمشية مع منهج الفاشية الذي يدعو الى فرض النظام وقمع اعمال الشغب والاضطرابات واعادة حكم القانون الى ايطاليا مثلما قال موسوليني Mussolini في يوليو ١٩٢٢ بأن حزبه هو حزب النظام وأنه هو الذي سيعيد النظام الذي هدمته الحكومة القائمة بضعفها وتهاونها وتركها البلاد للمشاغبين والمتظاهرين وأعداء النظام وهكذا كانت افكار الفاشية عن النظام ووجوب عودته لايطاليا وحمايته للقوة افكارا متماثلة مع افكار باريتو المعلنة قبل تولي الفاشية للحكم في ايطاليا وهذا ما دفع بعض الكتاب للقول بأن كتابات باريتو هي التي مهدت الطريق للفاشية . وذهب آخرون الى ان باريتو كان في ايطاليا بمثابة كارل ماركس الفاشية . وقد اكد موسوليني ذلك في عام ١٩٢٤ عندما ذكر ان باريتو كان اكبر مرشد له ومعلمه .

وقد ساهم باريتو في رسوخ هذا الاعتقاد لدى معارضيه عندما نشر مقالا في ٢٥ مارس عام ١٩٢٣ تحت عنوان : « الأمة » ذكر فيه ان الفاشية تحاول ان تجد حلا لمشاكل ايطاليا وان المستقبل القريب سوف يظهر عما اذا كانت ايطاليا قد دخلت عصرا جديدا أم أنها ستكرر الأخطاء القديمة التي قادت الى الفوضى . وامتدح باريتو زعيم الفاشية موسوليني ووصفه بأنه زعيم بارع ومقتدر في سياسته وان كان باريتو قد تحفظ بعض الشيء عندما قال ان الحكم على السياسة الداخلية للفاشية يعتبر امرا سابقا لأوانه وان كانت البداية طيبة وتنبيء بمستقبل سعيد لايطاليا .

غير ان باريتو لم يقف عند حد امتداح الفاشية وزعيمها وانما عبر عن خوفه من استمرار الاجراءات الاستثنائية المقيدة للحرية ولهذا طالب بأن تكون تلك الاجراءات مؤقتة ولا تستمر طويلا وان تعمل ايطاليا على حل مشاكلها الدستورية الخطرة .

وكان باريتو قد نشر تلك المقالة قبل وفاته بخمسة اشهر فقط ولهذا كانت ضمن اسباب اتهامه بمشايعة الفاشية وتأييدها وهي النظام الذي قاد ايطاليا الى الحكم الدكتاتوري الاستبدادي الذي ادى في النهاية الى توريط ايطاليا في الحرب وهزيمتها واعدام زعيمها موسوليني .

كل ذلك ألحق بذكرى باريتو سمعة لم تكن في صالحه وقد حاول المحبون لباريتو ان يجردوه من هذه السمعة السيئة فكانوا يؤكدون دائما ان باريتو كان محبا للحرية ومدافعا عنها وانه لو عاش بضع سنوات اخرى لكان قد غير رأيه في الفاشية وعارضها . ويستخلص Bucolo هذا الرأي ايضا من مقال آخر لباريتو كتبه قبل وفاته ولكنه نشر بعدها في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٣ ويدور حول مستقبل تعديل النظام الدستوري في ايطاليا وقد اتضح من هذا المقال ان باريتو لا يؤيد استمرار الفاشية لدرجة تجعل Bucolo يذهب الى القول بأنه : « من الاهانة لباريتو ان يقال عنه انه كان فاشستيا fascist .

الحريـــة :

كتب باريتو هذا المقال قبل وفاته بأيام قليلة معبرا عن تأييده لوضع قيود على الحرية في الظروف الاستثنائية بل لقد ذهب الى حد تبرير الدكتاتورية وتسويغها حيث كان يرى ان معنى الحرية قد أسيء استخدامه حسب وجهة نظر المتحدث عنها . واعتبر ان دكتاتورية البروليتاريا لا يتعين رفضها لمجرد انها دكتاتورية ولكن بسبب المساويء التي ترتبت عليها وعلى العكس من ذلك فأن الوحـدة الايطالية قد تحققت على يد دكتاتورية بورجوازية طيبة بالنظر الى آثارها الجيدة . كما ان النـظام الفاشي ليس طيبا لمجرد انه دكتاتوري ولكن لأن نتائـج الفاشيـة في ايطاليا حتى الآن كانت جيدة اذا ما قورنت بـالظروف السائدة في ايطاليا قبـل اكتوبـر عام ١٩٢٢ خـاصة في السنوات ١٩١٩، ١٩٢٠ التي تميزت بالارهاب الأحـمر red tyranny الذي قاده الشيوعيون .

ومع ان باريتو قد انحاز الى الفاشية في تلك المقالة إلا أنه لم يقطع بأنها ستحقق كل الخير لايطاليا في المستقبل وان كان قد رجح نتائجها الطيبة على ضوء ما شـاهده فعلا في الفترة القصيرة التي عاشها في ظل الفاشية .

غير أن باريتو مات في أغسطس عام ١٩٢٣ قبل ان تظهر له مساويء الفاشية كحكم استبدادي دموي اوقع ايطاليا في الأزمات ثم الهزيمة . ولذلك ارتبطت ذكرى باريتو بذكرى الفاشية البغيضة وهذا ما حدا بالبرفسور Bucolo الى بذل جهود مضنية لكي يظهر الوجه الآخر لباريتو وهو الوجه المؤيد للحرية والمدافع عنها .

ولعـل Bucolo قد نجـح في مهمته اذ أظهـر لنا حقيقة هذا الوجه الأخر لباريتو من خلال عرض مقالاته العديدة التي استعرضنا اهمها فيما سبق .

❊❊❊

العدد التالى من المجلة

العدد الرابع - المجلد الرابع عشر

يناير - فبراير - مارس

قسم خاص عن

الاعلام والرأى العام

بالإضافة الى الابواب الثابتة

طبع في
مطبعة حكومة الكويت

البلد	القيمة	العملة
لخليج العربي	٥	ريالات
لسعودية	٥	ريالات
لبحرين	٤٠٠	فلس
ليمن الشمالية	٤٫٥	ريال
ليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
لعراق	٣٠٠	فلس
لبنان	٢٫٥	ليرة
لأردن	٢٥٠	فلسًا
سوريا	٣	ليرات
القاهرة	٢٥٠	مليمًا
السودان	٢٥٠	مليمًا
ليبيا	٣٥	قرشًا
مسقط	٤٠٠	بيسه
الجزائر	٥	دنانير
تونس	٥٠٠	مليم
المغرب	٥	دراهم

لاشتراكات :

لبلاد العربية ٢٫٥٠٠ دينار

لبلاد الاجنبية ٣٫٠٠٠ 〃

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت

عالم الفكر

٤

- الثورة الحاليه فى اساليب الاتصال
- النظام الجديد للإعلام الدولى
- الرأى العام فى الدول النامية
- المسرح السياسى

المجلد الرابع عشر - العدد الرابع
يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

الاعلام والرأي العام

•••

مطالعات

•••

من الشرق والغرب

•••

صدر حديثا

تمهيد

الاعـــلام والـرأى العـــام

من المشكلات التي تشغل بال المهتمين بـدراسة الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري البحث فيما إذا كانت وظيفة الاعـلام هي التعبير عن الـرأي العام أو السيـطرة عليه والتحكم فيـه وتوجيهـه وجهات معينـة بالذات . وقد تبدو هـذه المشكلة قضية أكـاديمية قليلة الجدوى نظرا لصعوبة الفصل بين الناحيتين فصلا تاما أو تعيين الحدود الفارقة بين تكوين الرأي االعام وصياغته وتشكيله ، والتعبير عنه وإبرازه وتوكيده . ولكن الواقع أن هذه القضية أكثر أهمية وعمقا وأشد تعقيدا مما تبدو لأول وهلة ، خاصة وأن الاعلام يرتبط ارتبـاطا وثيقـا ببناء المجتمع ككل ، ويتأثـر تأثـرا مباشـرا بالأوضـاع الثقافية والاجتماعية والتنظيمات السيـاسية والأنسـاق الأيديولوجية السائدة في ذلـك المجتمع المعـين . فهذه كلها عوامل تتدخـل في رسم السياسـة الاعلاميـة وفي تحديد أهداف العملية الاعلامية بـل وفي اختيار المـادة الاعلامية ذاتها ، وبذلك فإنها تعتبر مسئولة إلى حد كبير عن ذلك الاختلاف في الرأي حول وظيفة الاعلام ودوره في المجتمع . ومع أن معظم الكتابات تحاول التمييز بين ثـلاثة أهـداف رئيسية لـلاعـلام هي نقـل وتـوصيـل المعلومـات لـلآخـرين ، ومحـاولـة التـأثـير في آرائهم وأفكـارهـم وتشكيلها ، ثم التـرفيـه والتسليـة وتمضيـة أوقات الفراغ ، فإن هذه الأهداف الثلاثة تتشابك معا وتتفاعل ويكمل بعضها بعضا في الحقيقة بحيث يمكن القول إن المادة الاعلامية ـ أيـا كانت ـ قـد تحقق هذه الأهداف الثلاثة معا في وقت واحد ، وإن يكن بدرجات متفاوتة . ومع ذلك فإن السياسة الاعلامية التى ترسمها الدولة لنفسها كثيرا ما تعطى أولوية نسبية لأحد هـذه الأهداف على حساب الهدفين الأخرين ، وتسخر كل

وسائل وأجهزة وأساليب الاعلام والاتصال الجماهيري بها لخدمة هذا الهدف . ولكن سواء أكان محتوى العملية الاعلامية وهدفها هو الكشف عن أهم الاتجاهات والآراء والمواقف السائدة بالفعل في المجتمع ، أو إصدار « تعليمات » وتوجيهات تعبر عن سياسات وايديولوجيات معينة تريد الدولة عن طريق أجهزة الاعلام نشرها بين الناس وتغيير الآراء السائدة فعلا بينهم ، أو أن يكون المحتوى مادة ترفيهية يراد بها شغل أوقات الفراغ والتسلية والترويح ، فإن جوهر العملية الاعلامية يقوم دائما على الاتصال ، أو التواصل ، وعلى توصيل المعلومات ونقلها ونشرها على أوسع نطاق ممكن . وربما كان هذا هو ما يقصده عالم الاجتماع الامريكي الشهير تشارلز رايت ميلز C. Wright Mills حين يقول في كتابه الممتع العميق 'The Power Elite' إن جانبا يسيرا فقط مما نعرفه عن الحقائق الاجتماعية عن العالم توصلنا إليه بأنفسنا وبطريق مباشر ، بينما معظم التصورات والأخيلة التي في أدمغتنا عن العالم وصلت الينا عن طريق وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري » (١)

وثمة تعريفات كثيرة جدا للرأي العام . وأحد هذه التعريفات السائدة الآن ينظر الى الرأي العام على أنه « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات الفردية التي تعتنقها نسبة لها دلالتها من أعضاء المجتمع حول موضوع معين بالذات » . (٢) وتكاد كل هذه التعريفات تجمع على أن التعبير عن الرأي العام من ناحية ، ومحاولة تغييره وتوجيهه والتأثير فيه أو حتى تكوين رأي عام من جديد من الناحية الأخرى ، لن تتم الا عن طريق الاقناع الذي يتطلب التواصل بكل ما يستلزمه من مناقشة لمختلف الآراء وفحصها ونقد الأفكار المعارضة مع الاستعداد لقبولها إن ثبتت صحتها . ففرض الرأي أو الفكر عن طريق القهر والقسر والاملاء ومطالبة الآخرين باعتناقه والأخذ به بغير اقتناع منهم لا يعني أبدا تكوين « رأي عام » بالمعنى الدقيق للكلمة . أي أن حرية التفكير وحرية التعبير وحرية إبداء « الرأي » ، هي الأساس الذي يقوم عليه الاتجاه العام في المجتمع الذي يمثل الحد الأدنى من الاتفاق حول موضوع معين أو قضية معينة أو أوضاع معينة بالذات . وواضح من هذا أن « الرأي العام » لا يعني أبدا « الرأي » الواحد أو « الرأي » الموحد لكل أفراد المجتمع ما دام الأساس الأول في تكوين الرأي العام وظهوره هو الحوار الحر الذي يترك الباب مفتوحا طيلة الوقت لاختلاف الآراء وتباين وجهات النظر وإمكان التعبير عن هذه الاختلافات . وربما كان هذا هو السبب وراء ذلك الاعتقاد السائد لدى الكثيرين من أن وظيفة الاعلام في النظم السياسية الليبرالية (التي يقصد بها عادة الديمقراطيات الغربية) هي التعبير عن الرأي العام ومؤازرته ومساندته ، على افتراض أن هذه النظم تبيح درجة أكبر من حرية التعبير عن الرأي وأن وسائل الاعلام فيها أقرب الى أن تكون أداة للتعبير عن الرأي العام والدفاع عنه في مواجهة السلطة الحاكمة إذا أرادت أن تتخذ قرارات لا تتفق مع « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات » السائدة في المجتمع ، وذلك بعكس الحال في النظم الشمولية (التي يقصد بها عادة الدول الشيوعية) التي تتخذ من وسائل الاعلام أداة للتعبير عن رأى أجهزة الحكم وليس عن رأي الجماهير ، وتتولى نشر المبادىء والأفكار والفلسفات التي يؤمن بها النظام الحاكم . ويساعد على ذلك أن الدولة هي التي تملك كل وسائل الاعلام هناك ، وذلك على عكس الوضع في المجتمعات

---

(١) C. Wright Mills, The Power Elite; O.U.P., P. 311

(٢) Micropaedia, Vol. VIII; 'Public Opinion'

الليبرالية حيث تكون الصحافة ـ على الأقل ـ مملوكة في الاغلب ملكية خاصة ، سواء للافراد أو الاحزاب السياسية أو بعض المؤسسات المستقلة التي قد تمارس أنشطة مختلفة الى جانب النشاط الاعلامي والثقافي .

ولسنا هنا على أية حال في مجال الدخول في مناقشة هذاه الآراء لتبيين ما بها من صدق أو زيف . إنما الذي يهمنا هنا هو إبراز تلك العلاقة القوية بين الرأي العام وحرية التعبير واستقلال أجهزة الاعلام وقدرتها على ترجمة ونقل آراء الجماهير والدفاع عنها ، وعدم الخضوع لسيطرة الحكومة ، بل والقدرة على معارضة سياسة الحكومة حين يتطلب الأمر ذلك . ومن هنا كان الاتجاه السائد في معظم الكتابات التي تدور حول العلاقة بين الاعلام والرأي العام أقرب الى الزعم بوجود رأي عام قوى ومتفتح في المجتمعات الليبرالية دون المجتمعات الشمولية ، تشكك في وجود رأى عام مؤثر وناضج وواضح المعالم في مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات النامية حيث يقف دون ذلك انخفاض المستوى الثقافي وفجاجة أساليب وطرائق الاعلام والاتصال الجماهيري وخضوعها لاشراف الدولة وتحكمها ، وقلة البدائل الثقافية وضحولة وضيق التجربة والخبرة . فهذه كلها أمور وعوامل تؤدي إلى سهولة الانقياد لكل ما تلقيه أجهزة الاعلام الحكومية على الناس من آراء وأفكار وتعليمات وتوجيهات ، وتقبل هذه الآراء والتوجيهات بدون مناقشة أو بحثأو اختبار لمدى ما تتضمنه من صدق وما تستند اليه من منطق .

وليست هذه المشكلات المعقدة وليدة اليوم أو أنها ظهرت نتيجة لتقدم وتعقد وتشابك وسائل الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري في العصر الحديث ، وانما هي مشكلات قديمة نجد لها مثيلا في العصور السابقة ولكن على نطاق ضيق . وكثير من كتابات المفكرين والفلاسفة والاجتماعيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا بالذات كانت تتعرض لمسألة العلاقة بين قوة الرأي العام وسلطة الحكام وكيف يمكن تطويع هذه القوة وترويضها وإخضاعها لصالح هؤلاء الحكام ولما فيه خير الحكومة . ولكن زاد الاحساس بوطأة الرأي العام وتأثيره بعد ظهور الطباعة ، وبوجه خاص بعد ظهور الصحافة التي تخاطب الجماهير على نطاق أوسع من جمهور الكتاب . والمؤلفات التي تتناول بالدراسة دور الاعلام بعامة والصحافة بخاصة في المجتمع ، وهل هي أداة السلطة في تكوين الرأي العام والسيطرة عليه والتحكم فيه أو أنها أداة المجتمع للتعبير عن « مجمل آرائه وافكاره ومعتقداته » كثيرة جدا . ولعل من أحدث وأمتع هذه المؤلفات التي تتميز في الوقت ذاته بدرجة عالية جدا من الدقة العلمية والاحاطة بكل جوانب الموضوع مع الموضوعية في العرض والتحليل كتاب الاستاذ ستيفن كوس Stephen Koss عن « قيام الصحافة السياسية وسقوطها في بريطانيا » . وقد ظهر الجزء الاول من الكتاب عام ١٩٨١ وفيه يعالج الموضوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٣] ، بينما ظهر الجزء الثاني في أوائل هذا العام (١٩٨٤) ويعرض للصحافة السياسية في بريطانيا خلال النصف الأول من القرن الحالي . والذي يهمنا هنا الآن هو الجزء الأول الذي يعرض للمشكلة في وقت كانت فيه الصحافة ـ وبالتالي بقية وسائل الاعلام ـ لا تزال على درجة كبيرة من البساطة التي قد تبلغ أحيانا حد السذاجة ـ مع بعض استثناءات فيما يختص ببعض

(٣) Stephen Koss, **The Rise and Fall of the Political Press in Britain,** Vol. I; The 19 th Century, Hamish Hamilton, London 1981

الصحف الكبرى ، والدور الذي لعبه بعض رجال الصحافة الأفذاذ في تحديد المسار الذي تسير فيه الصحافة والذي أدى بها الى المكانة التي تحتلها الآن في حياة المجتمع الحديث ، والدور الذي تلعبه سواء في تشكيل الرأي العام وتوجيهه أو في التعبير عنه . وقد حرص الأستاذ كوس على أن يرجع الى كل الصحف والمجلات ، بل والجزازات والقصاصات والاحاديث والتصريحات والتعليقات والرسائل والمكاتبات التي صدرت عن مشاهير رجال الصحافة ورجال الدولة والسياسيين في تلك الفترة ليقارن بينها ويحلل ما تتضمنه من معلومات . بل إنه رجع إلى مائة وعشرين مجموعة ضخمة من السجلات والمحفوظات (الأرشيف) ليتعرف منها على وضع الصحافة في ذلك الحين ، وكانت نتيجة كل ذلك العمل الضخم هذا الكتاب الذي يجمع بين غزارة المعلومات ودقتها وعمق التحليل ورصانته والذي لا يخلو مع ذلك من براعة العرض ورشاقة الأسلوب .

والنقطة المحورية التي يدور حولها الكتاب هي : كيف كان رؤساء تحرير الصحف يصوغون الآراء والافكار التي يعبرون ، عنها في مقالاتهم الرئيسية وفي (الافتتاحيات) بالذات ، والأساليب التي كان يتبعها رجال الدولة كي يضمنوا أن تأتي هذه المقالات متمشية مع آرائهم هم أنفسهم أو مع متطلبات الحزب أو مع وجهة نظر الحكومة القائمة . وهذا في حد ذاته مؤشر كاف على أن الصحافة كانت اكثر ميلا الى أن تكون أداة في يد الحكومة ووسيلة لتوضيح سياسة الدولة ، وشرح وجهة نظر رجال الحكم في المشكلات التي يعاني منها المجتمع ، وتبرير القرارات التي يتخذونها وإقناع (الرأي العام) بصواب هذه القرارات . وهذا معناه بقول آخر أن الصحافة كانت في خدمة الدولة أكثر مما كانت في خدمة الجماهير أو الشعب ، مع وجود بعض حالات استثنائية هامة بطبيعة الحال . ولقد انتشرت الصحف انتشارا واسعا في ذلك الحين وزاد الاقبال عليها بعد أن انخفضت أثمانها نتيجة لانخفاض أسعار الورق بعد رفع كل الضرائب عنه . وكان المصدر الرئيسي للأخبار هم رجال الدولة والسياسيين أنفسهم ، وكان الكثيرون منهم يختارون من بين رجال الصحافة أو رؤساء التحرير أشخاصا معينين بالذات يختصونهم بالأخبار الهامة نظير أن يجدوا لديهم التأييد والتعضيد والدفاع عن سياساتهم . بل إن بالمرستون كان يتولى بنفسه كتابة بعض المقالات الرئيسية والافتتاحيات التي تعبر عن آرائه وأفكاره ووجهة نظره في كثير من الأمور ؛ وكثيرا ما كان يضمن تلك المقالات بعض عبارات من أقواله ومن خطبه ليستشهد بها على صحة هذه الآراء والأفكار والسياسات . وهكذا كان كل شيء يبدو سهلا وميسورا أمام رجال الصحافة فيما يتعلق بالحصول على ما يحتاجون اليه من أخبار ودون أن يضطروا الى الالتجاء الى الاساليب التي يتبعها زملاؤهم في الوقت الحالي . فقد كان رجال الدولة أنفسهم يقدمون لهم كل ما يستطيعون تقديمه بما في ذلك « أسرار » السياسة العليا للدولة اذا لزم الحال نظير تلك المؤازرة والدعاية لهم . ولقد حصل عدد كبير من رجال الصحافة في مقابل « خدماتهم » على مكاسب أخرى خاصة وشخصية الى جانب الحصول على الاخبار ، كما تولى بعضهم عددا من المناصب الرفيعة في الدولة ثمنا لهذه الخدمات مع أنهم لم يكونوا مؤهلين لشغل تلك المناصب .

والمهم هنا هو أن الصحافة كانت في أغلب الأحوال في خدمة رجال الحكم اكثر مما كانت في خدمة القراء او الشعب . ولكن لم يلبث أن طرأ على هذا الوضع كثير من التغيير باقتراب القرن التاسع عشر من نهايته ، فقد زاد الميل الى الاهتمام بإبراز وجهة نظر الجماهير والتعبير عن آراء الناس في المشكلات والقضايا التي كان يعاني منها المجتمع . ويرى

الأستاذ كوس أن هذا التحول في موقف الصحافة واهتماماتها يعتبر ثورة هائلة على الأوضاع القديمة وانقلابا شاملا في تصور الصحافة لوظيفتها ، وأن هذا التغير كان هو البداية التي رسمت الطريق الذي تسلكه صحافة القرن العشرين وحددت لها الدور الذي يمكن أن تقوم به باعتبارها أداة للتعبير عن الرأي العام والدفاع عنه ، حتى ولو اقتضى الأمر الوقوف موقف المعارضة الصريحة من الحكومة . وساعد على التغير ، وبالتالي التخلص من سيطرة رجال الحكم وتسلط الدولة على الصحافة ، عدة أمور لعل أهمها تقدم وانتشار استخدام التلغراف التجاري على نطاق واسع يتجاوز حدود الدولة الواحدة مما أدى إلى سهولة الحصول على الاخبار والمعلومات من كل أنحاء العالم دون حاجة إلى الاعتماد المباشر وشبه الكامل على المصادر الشخصية المتمثلة في السياسيين ورجال الدولة . ولعبت وكالات الأنباء العالمية الكبرى دورا هاما في نقل الأخبار وتزويد الصحف بها حال وقوع الأحداث . وجاء قانون التعليم الأولي الذي صدر في بريطانيا عام ١٨٧٠ ليكون بمثابة الحرب المباشرة ضد الأمية وأدى الى توسيع قاعدة التعليم وازدياد المتعلمين زيادة سريعة ومطردة . وكانت هذه كلها بغير شك عوامل أساسية وفعالة ليس فقط في الاقبال على قراءة الصحف بل وأيضا ـ وهذا هو الأهم ـ في ظهور ما يعرف باسم « الصحف الشعبية » وزيادة الوعي والادراك بأحوال المجتمع وأوضاعه لدي كثير من الطبقات والفئات التي كانت محرومة من التعليم والتي أصبحت نتيجة لذلك أكثر قدرة على مناقشة هذه الأوضاع وإبداء الرأي فيها ومناقشة الأخبار والتصريحات الرسمية ونقد سياسة الدولة ومعارضتها . واستجابت الصحافة بدرجات متفاوتة لهذا التغير وأصبحت أكثر اهتماما بالتعبير عن الرأي العام . ومع ذلك فإن الاستاذ ستيفن كوس يرى أن العامل الرئيسي والحاسم في حدوث هذا التغير الجذري كان اتساع قاعدة التنظيمات الحزبية ونموها وارتكازها على أسس قويمة وسليمة أدت الى انضمام عدد كبير من رجال الصحافة الى الأحزاب جنبا الى جنب مع رجال السياسة ، ولو أنه يزعم ان وراء ذلك الاقبال على عضوية الأحزاب كانت تكمن أسباب ودوافع عديدة ومتباينة تتراوح بين الرغبة في تحقيق المكاسب الشخصية والالتزام الفكري والسياسي . وقد تعقدت العلاقات بين رجال السياسة والصحافة نتيجة لذلك وأصبحت مزيجا غريبا من المداهنة والخوف والتواطؤ . ولكن الذي يهمنا من كل ذلك هو التغير الذي طرأ على موقف الصحافة من الرأي العام باعتبارها أهم وسائل الاعلام وأكثرها فاعلية في ذلك الحين .

●●●

ولا يرجع اختيارنا لكتاب ستيفن كوس الى أنه مجرد مثال طيب لدراسة ممتازة عن علاقة إحدى وسائل الاعلام المهمة بالرأي العام في بلد له شهرته الراسخة في احترام حرية الرأي وحرية التعبير والمحافظة على حرية وسائل الاعلام لدرجة أن هيئة الاذاعة به تتمتع باستقلال كامل في رسم سياستها الاعلامية ولا تخضع لتوجيهات الحكومة على عكس المألوف حتى في (الديمقراطيات الغربية) ذاتها . وانما يرجع اختيارنا لهذا الكتاب بالذات الى ما يمكن أن نستخلصه من دروس تستحق أن نتوقف أمامها ، وهي دروس تتجاوز الصحافة الى بقية وسائل الاعلام وتصدق عليها .

وربما كان أهم هذه الدروس هو أن العلاقة بين وسائل الاعلام والرأي العام هي في جوهرها علاقة تفاعل وتكامل واعتماد متبادل ، أو علاقة تساند وظيفي كما يقول الأنثربولوجيون . ويقتضي التساند الوظيفي أن تكون العلاقة بين الأطراف المختلفة على نفس المستوى من التأثر والتأثير ، بمعنى أن كل طرف في العلاقة يؤثر في الأطراف الأخرى ويتأثر

بها في الوقت ذاته دون أن يكون أحد الأطراف علة أو معلولا لأي طرف آخر ، وأن مايبدو في الظاهر على أنه علة أو سبب لظهور أحد أطراف العلاقة انما هو في الحقيقة مجرد شرط أساسي لازم لقيام تلك العلاقة وأدائها لوظيفتها . فإذا كانت وسائل الاعلام المختلفة من صحافة أو إذاعة مرئية أو صوتية وما إليها تلعب دورا هاما في تشكيل الرأي العام ومحاولة توجيهه والتأثير فيه عن طريق تقديم مادة إعلامية معينة بالذات وترديد هذه المادة وتكرارها وإعادتها في أشكال مختلفة كي ترسخ في أذهان الناس وتصبح جزءا من نسقهم الفكري ، فإن الرأي العام نفسه ، من حيث هو « مجمل وجهات النظر والاتجاهات والمعتقدات » السائدة في المجتمع ، يلعب هو أيضا دورا في توجيه الاعلام نحو الاهتمام بمواد إعلامية من نوع معين والكف عن غيرها ، ويلجأ في سبيل تحقيق ذلك الى وسائل وأساليب وطرق مختلفة تتراوح بين الانصراف عن المادة الاعلامية التي لا تتفق مع « وجهات نظره واتجاهاته ومعتقداته » ، الى السخرية من تلك المواد الاعلامية والاستهزاء بها والتهكم عليها ، إلى النقد العنيف القائم على الدراسة والفهم والتحليل العميق . فكأن هناك إذن نوعا من « الحوار » المستمر بين وسائل الاعلام والرأي العام يهدف الى تحقيق درجة من الاقتناع المتبادل برسالة الاعلام من ناحية ومتطلبات الرأي العام من الناحية الأخرى . ويتوقف نوع الحوار الى حد كبير على مستوى التعليم ومدى انتشاره في المجتمع ، كما يتدخل التعليم في تحديد المادة الاعلامية بحيث تتلاءم مع المستوى الثقافي العام الذي يعتبر التعليم أحد مكوناته الأساسية . وبالمثل فان تعدد المنابر ـ التي تتمثل في كتاب الأستاذ كوس عن بريطانيا في تعدد الأحزاب وتقدم الحركة الحزبية واتساع نطاقها ـ يعتبر شرطا آخر من شروط قيام علاقة التفاعل المتبادل أو التساند الوظيفي ، بين الاعلام والرأي العام وقيام ذلك الحوار الذي يؤدي الى الاقتناع القائم على عرض مختلف وجهات النظر ومناقشة كل الافكار ونقدها واتاحة الفرصة لكل ذي رأي للدفاع عن رأيه . وبقول آخر أبسط وأوضح ، فإن التساند الوظيفي بين الاعلام والرأي العام من حيث هما طرفان في علاقة واحدة متكاملة يترجم عن نفسه في حرية التعبير عن الفكر وعن المواقف ووجهات النظر . ومع الاعتراف بأن حرية التعبير عن الرأي هي إحدى الحريات التي يكفلها إعلان حقوق الانسان ، فان هناك من الكتّاب من يرون أنه من الصعب المناداة في مجال الاعلام بالحرية المطلقة في نقل الأخبار . إذ لابد من التوفيق بين طرفين هامين هما حرية وسائل الاعلام من ناحية ، والمصلحالعامة بما في ذلك المحافظة على أسرار الدولة العليا من الناحية الأخرى . وبين هذين الطرفين يقوم كثير من التنازع داخل دائرة ونطاق الاعلام .

وربما يكون فيما جرى في الشهور الأولى من هذا العام (١٩٨٤) في بريطانيا أيضا من أحداث تدور حول حرية الصحافة ما يلقي الضوء على ما أريد أن أقول . وأود أن أستشهد هنا بحادثين يكشفان عن مدى صعوبة تحقيق تلك الحرية المنشودة للاعلام ، وكيف تصطدم هذه الحرية أحيانا مع مصلحة الدولة العليا وموقف الرأي العام من هذا كله . أما الحادث الأول فهو تسليم إحدى الموظفات في وزارة الخارجية البريطانية بعض الوثائق السرية التي تتعلق بنشر الصواريخ الامريكية في أوربا الغربية لجريدة « الجارديان The Guardian » وتقديم الفتاة للمحاكمة وإصدار الحكم عليها بالسجن لمدة ستة شهور . وقد أثار الحادث والحكم على السواء ضجة ضخمة في بريطانيا وفي الخارج ، وانقسم الرأي العام على نفسه حول حق الصحافة ـ ووسائل الاعلام الاخرى بالتالي ـ في الحصول على المعلومات بكل الطرق الممكنة ، وحق نشرها لتعريف الرأي العام بما يدور في سراديب ودهاليز السياسة ، وما تتخذه الدولة من قرارات قد تلحق الأذى والضرر بالمجتمع ، وحق الحكومة في إخفاء ما تعتقد أنه من الاسرار العليا المتعلقة بأمن الدولة . ولم تسلم

صحيفة الجارديان ذاتها من اللوم لأنها كشفت عن (المصدر) الذي قدم لها تلك الوثائق وأنها خذلت بذلك الفعل أحد المبادىء الأساسية المتعلقة بأخلاقيات المهنة ، خاصة وأن تاريخ الصحافة في بريطانيا ذاتها شهد بعض الحالات المماثلة التي رفض فيها رجال الصحافة الكشف عن مصادر معلوماتهم وعّرضوا أنفسهم للايذاء والضرر نتيجة لتمسكهم بهذه المبادىء .

ويتمثل الحادث الثاني في تصادم المصالح الاقتصادية لأصحاب جريدة الأوبزفر The Observer مع مبادىء حرية التعبير عن الرأي الذي يتمسك به كبير محرري تلك الجريدة ذات السمعة الطيبة . فقد زار كبير المحررين زيمبابوي منذ بعض الوقت وكتب بعد عودته مقالا طويلا عن أنواع التعذيب الذي يخضع له معارضو الحكومة الحالية في احدى المقاطعات . وادرك أصحاب الجريدة أن هذا المقال قد يسيء الى مصالحهم الاقتصادية الواسعة في زيمبابوي ويعرضها للخطر ، فأرسلوا خطابا لرئيس وزراء زيمبابوي يعتذرون فيه عن المقال ، كما وجهوا اللوم إلى كبير المحررين نفسه على خروجه على قواعد اللياقة . وأثار ذلك (التدخل) من أصحاب الجريدة كثيرا من رد الفعل على اعتبار أنه يمثل نوعا من التعدي والاعتداء على حرية الرأي وحرية الكتابة وحرية التعبير . وانتقلت الثورة من صحيفة الأوبزرفر الى غيرها من المجلات والصحف وكان لها صدى واسع في الصحافة العالمية . ووقف الرأي العام « المثقف » الى جانب حرية الرأي بحيث لم يجد أصحاب الجريدة مفرا من التراجع عن موقفهم .

وهذان المثالان المستمدان من الصحافة البريطانية ، باعتبارها من أعرق الصحافة في العالم ومن أشدها تمسكا بالقيم والاخلاق والمبادىء المهنية التي تنظم حرية الرأي ، يكشفان عن الدور الذي تقوم به الصحافة في الوقت الحالي كوسيلة هامة من وسائل الاعلام في تنوير الرأي العام والافصاح عن كثير من خبايا السياسة وخفاياها وفضح الأسرار والقرارات الخطيرة الخاطئة التي قد تحاول بعض السلطات الحاكمة إخفاءها عن الرأي العام حتى لا تثير عليها غضبته ونقمته ، وكيف أن الرأي العام من الناحية الثانية يؤازر الصحافة الحرة في تصديها لمثل تلك السياسات والقرارات ويساندها في دفاعها عن القضايا التي تتعلق بمصير الشعوب وأقدارها ، وكيف أنه يتخذ من الصحافة ذاتها أداة ووسيلة للتعبير من موقفه عن تلك السياسات والقرارات وعن نظرته الى المشكلات الأساسية التي يعاني منها المجتمع . وهذا هو ما كنا نقصده حين قلنا إن العلاقة بين الاعلام والرأي العام علاقة تفاعل وتكامل وتساند وظيفي ، وأن الاعلام يؤدي ، نتيجة لذلك ، دورا مزدوجا جوهره الاتصال أو التواصل ، سواء أكان ذلك يتخذ شكل نقل المعلومات أو التعبير عن الرأي .

●●●

وقد يصدق هذا كله على المجتمعات الأكثر تقدما ورقيا وبخاصة « الديمقراطيات الغربية » حيث تتمتع وسائل الاعلام بقدر كبير من الاستقلال ، وحيث تضمن الأوضاع العامة والتقاليد والقوانين السائدة ما يكفل لها حق حرية التعبير عن الرأي . ولكن الأمر لن يلبث أن ينكشف عن بعض المفارقات الصارخة حين ننظر الى العلاقة بين هذه المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية في مجال الاعلام وتبادل المعلومات وتدفقها من ناحية ، والعلاقة بين الاعلام

والرأي العام داخل هذه المجتمعات النامية ذاتها من الناحية الأخرى ، وهي مفارقات خليقة بأن نعطيها بعض العناية والاهتمام .

وتتمثل المفارقة الأولى في تحكم الدول الكبرى ، دون غيرها ، في مصادر المعلومات وعملية بث الأخبار على نطاق واسع ، وساعدها على ذلك ما حققته من تقدم علمي وتكنولوجي في مجال الاتصالات ، مما يعطيها القدرة بالتالي على نقل وتوصيل المعلومات ، أو حجبها ومنعها أو تزييفها أو تحويرها ، وبذلك يمكن لهذه الدول عن طريق التحكم في الأخبار وصياغتها أن تلعب دورا أساسيا في تشكيل آراء وأفكار الشعوب الأقل تطورا وإخضاعها لقيمها الخاصة . . . يظهر ذلك واضحا في البرامج التليفزيونية بوجه خاص ، إذ تأتي معظمها من مصادر غربية وبالأخص من مصادر أمريكية ، وهي تصور بطبيعة الحال أساليب الحياة وأنماط السلوك وأنساق القيم والأفكار والأيديولوجيات والمعتقدات التي تسود هناك والتي لابد أن تؤثر بشكل أو بآخر في الأنماط الفكرية في المجتمعات التي تتعرض لتأثير ووطأة هذه البرامج . ولكن الأمر لا يقتصر على مجال التلفزيون ، وانما يتعداه الى كل مجالات الاعلام والاتصال الجماهيري بما في ذلك الصحافة نفسها . فالمعروف أن وكالات الأنباء العالمية الكبرى وكالات أجنبية ، أربعة منها تابعة للغرب والخامسة للاتحاد السوفييتي ، ومن الطبيعي أنها تعبر عن سياسة هذه الدول والأيديولوجيات السائدة فيها . والعادة أن الصحافة في الدول النامية تنشر مايرد اليها من هذه الوكالات دون محاولة جدّية للتأكد من مدى صحتها أو زيفها أو اكتمالها أو نقصانها أو تحريفها ، بل ودون محاولة لقراءة هذه الأخبار من زاويتها ووجهة نظرها الخاصة . بل إنها كثيرا ما تنشر ما تتلقاه من تعليقات وتحليلات للأخبار تعبر عن وجهات النظر الأجنبية . ومن هنا فان الرأي العام في هذه المجتمعات المتخلفة يتأثر بغير شك بنوع المادة الاعلامية التي تصل اليها عن طريق هذه الوكالات وبالأسلوب والطريقة التي تُعرض بها هذه المادة الاعلامية . ومن ناحية أخرى فإن إشراف الدولة في المجتمعات المتخلفة إشرافا تاما على وسائل الاعلام معناه خضوع المادة الاعلامية للرقابة الحكومية الشديدة التي تحدد نوع المادة التي يباح تداولها مما يضع قيودا على نمو الرأي العام . ويزيد من خطورة هذا الوضع نفس حالة التخلف والانعزال الفكري الذي تعيشه هذه المجتمعات وعدم اتصالها بالعالم الخارجي ، وبالتالي عدم إدراكها أدراكا كافيا لما يدور في العالم من حركات فكرية وسياسية . وهذا يسهم بدوره في سرعة تقبل شعوب العالم الثالث لما يعرض عليها من مواد إعلامية تهدف الى صب عقول الناس وأفكارهم في قوالب محددة جامدة تتلاءم مع رغبات الحكومات القائمة . وبذلك فإن أجهزة الاعلام تكون أدوات فعالة في المحافظة على حالة التأخر والتخلف التي ترزح تحتها هذه الشعوب ، بدلا من أن تكون أداة تفتح وتقدم . وهذه على العموم مسألة خلافية قابلة للجدل والمناقشة والنقد أو حتى النقض . ولكن الذي لا شك فيه هو أن إدراك شعوب العالم الثالث لما يتهددها من أخطار نتيجة لتركز النشاط الاعلامي في أيدي الوكالات والمؤسسات الكبرى في الدول المتقدمة كان وراء الدعوة التي ظهرت في السنوات الأخيرة نحو ضرورة قيام نظام اعلامي جديد ، وكانت احدى نتائجه انشاء ما يعرف باسم Pan African News Agency في مايو ١٩٨٣ كمظهر من مظاهر الرغبة في التحرر ، ولو جزئيا ، من السيطرة الغربية على الأخبار . وكان من الطبيعي أن تواجه هذه الحركة بكثير من الاعتراض من الدول الغربية ووكالات الأنباء والمعلومات الكبرى ، بل ومن بعض حكومات العالم الثالث ذاتها .

وتتمثل المفارقة الثانية في أنه على الرغم من كل ما يقال عن دور وسائل الاعلام في مخاطبة الرأي العام ومحاولة التأثير فيه وتغييره فإن كل ما تفلح فيه في معظم الأحوال هو تقوية المواقف والاتجاهات السائدة بالفعل بين الجماهير ، قلما

تنجح في خلق وإيجاد تيارات فكرية أو مواقف أيديولوجية جديدة تماما ، إلا إذا كان الرأي العام مهيأ من قبل ، ونتيجة لعوامل وظروف أخرى كثيرة ومعقدة ، لتقبل هذا التغيير . وقد أثبتت بعض الدراسات التي أجريت في أمريكا مثلا حول مدى تأثر الرأي العام بالمواد الاعلامية الموجهة على أن الرجل العادي قلما ينتبه أو يعطي أهمية خاصة لوسائل الاعلام أو المادة الاعلامية ، الا تلك التي تعكس أفكارا ووجهات نظر مشابهة لتلك التي يعتنقها هو ، بينما يُعرِض عن تلك التي تتعارض بشكل واضح وصارخ مع أفكاره وآرائه ومعتقداته . ومن هنا كان الرأي الذي يعتنقه بعض العلماء من أن المهمة الأساسية الحقيقية للاعلام هي ترسيخ القيم والأفكار أكثر من تغييرها وتعديلها أو استبدالها . بل إن بعض هؤلاء العلماء يرون أن القدر الضئيل الذي قد تحققه هذه الوسائل في مجال تغيير الرأي وتعديله هو في حد ذاته دليل ومقياس لعملية الترسيخ والتقوية وليس العكس كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . فالفرد لا يغير رأيه الا بالنسبة للآراء والمواقف والسياسات التي كان يدرك مسبقا ـ بشكل أو بآخر ـ أنه يرفضها ولا يرضى عنها ، ثم تأتي وسائل الاعلام لكي تقوي عنده هذا الاتجاه . فالتغيير الذي تحدثه وسائل الاعلام لا يمكن أن يأتي من فراغ أو أن يحدث في فراغ ، وإنما لا بد من أن تكون هناك تربة صالحة ومهيأة لتقبل هذا التغيير . والملاحظ على أية حال أن تحويل (الرأي العام) الى أفكار وأيديولوجيات جديدة إنما يتم في الأغلب في المجالات التي لا يكون لدى المجتمع عنها آراء ومعتقدات ثابتة أو واضحة . فهذا هو المجال الحقيقي الذي يمكن لوسائل الاعلام أن تقوم فيه بدور فعال ومؤثر ومثمر . ولكن حتى هنا أيضا ، فإن الملاحظ أنه بمجرد أن يتم قبول هذه الآراء الجديدة ويتم ترسيخها وتثبيتها يصبح من الصعب تغييرها لأنها أصبحت جزءا من كيان المجتمع أو الجماعة . وكل هذا معناه أن ثمة نوعا من المقاومة الخفية أو المستترة من الرأي العام لأية مادة إعلامية جديدة ، وأن تغيير اتجاهات الرأيّ العام ليس بمثل تلك السهولة التي يظنها الكثيرون ، كما أن عملية خلق الرأي العام تكون أقوى ما تكون حين لا يكون أمام الفرد أي مصدر آخر للمعلومات عن ذلك الموضوع يمكن أن يتخذ منه محكا ومقياسا يقيس اليه هذه المادة الاعلامية الجديدة ، فلا يجد مناصا من أن يعتمد اعتمادا كليا على مصدر الاعلام المتاح له .[٤] فالفارق الكبير بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة أو النامية في مجال الاعلام هو توفر مصادر المعلومات في المجتمعات المتقدمة وتنوع المادة الاعلامية ذاتها وتباينها مما يتيح الفرصة أمام الجماهير للمقارنة والاختيار سواء بين وسائل الاعلام التي يستمدون منها معلوماتهم ، أو بين المواد الاعلامية التي تتدفق في كثرة وسهولة ويسر من مختلف المصادر . وهذا أمر تفتقر اليه المجتمعات المتخلفة . ومن هنا كان إمكان تأثر الرأي العام بوسائل الاعلام وأساليب الاتصال الجماهيري في المجتمعات المتخلفة أسهل وأوضح منه في المجتمعات المتقدمة التي تناقش وتجادل وتفحص كل ما يقدم لها ولا تقبل شيئا الا عن اقتناع تام .

وهذه على أية حال مسائل تحتاج الى مزيد من الدراسات الميدانية حتى يمكن الحكم فيها حكما قاطعا .

●●●

وأيا ما يكون الأمر ، فالذي لا شك فيههو أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الاعلام وعصر الاتصال

(٤) Joseph T. Klapper, 'Basic Research in Persuation and Motivation' in F.H. Voelker and L.A. Voelker (eds.) **Mass Media: Forces in Our Society**; Harcourt, Brace and Jovanovich, N.Y. 1978, p. 333

الجماهيري بكل معاني الكلمة . ولقد أدى النمو والتطور الهائلان في وسائل الاعـلام وعلوم الاتصال في السنـوات الأخيرة إلى أن أصبح الاعلام جزءا أساسيا من حياتنا اليومية . ولكن من الخطر أن نأخذ كل ما يقدم على أنها أمور طبيعية ومسلم بها ولا تقبل المناقشة أو الاختبار . اذ لا بد من أن يدرك الفرد الدور الذي يمكن أن تقوم به هذه الوسائل والأساليب والمواد الاعلامية في تشكيل حياته وكيانه والبيئة التي يعيش فيها . واذا كانت وسائل الاعـلام والاتصال الجماهيري المختلفة تؤلف قوى هامة وفعالة ومؤثرة في المجتمع الحديث بفضل ما تقدمه لنا من معلومات وما توفره من أسباب الترفيه فإنها تحمل في الوقت ذاته بين ثناياها قدرة هائلة على الاقناع سواء بشكل واضح صريح أو بشكل خفي ومستتر ، بحيث يمكنها أن تدخل كثيرا من التعديلات على حياتنا وأفكارنا(٥) ، ولو أن هذه التغييرات لا تتم بسهولة أو بغير مقاومة . ولكن المقاومة يمكن أن تقل وتضعف وتتضاءل ، بل وتتلاشى ، نتيجة للتكرار والترديد والالحاح والمثابرة من وسائل الاعلام . ولعل أكبر خطر يمكن أن ينجم عن ذلك هو أن ينفصل الفرد بأفكاره وآرائه الجديدة المكتسبة عن واقع الحياة الذي يحيط به فتحدث ازدواجية رهيبة في سلوكه وفي موقفه من الحياة . وقد تختلف وسائل الاعلام في تأثيراتها ومدى عمقها نتيجة لقوة الصلة بينها وبين الناس وتغلغلها ، في حياتهم ، وسهولة المادة التي تقدمها لهم ونوع المقاومة التي يبذلونها نتيجة لدخولهم في حوار معها . فاذا كانت الصحيفة أو الجريدة تتيح للفرد فرصة أكبر للتفكير والتأمل والتحليل وبالتالي للقبول أو الرفض ، فإن ذلك قلما يتوفر في التلفزيون الذي يدخل إلى كل بيت ويخاطب بشكل مباشر وبسيط كل فرد ويتسلل في سهولة ويسر إلى كل ذهن ، ليس فقط عن طريق البرامج الاعلامية التي يبثها ، ولكن أيضا وبشكل خاص عن طريق المادة الترفيهية . وهذا هو مكمن خطورته على « مجمل وجهات النـظر والاتجاهـات والمعتقدات الفردية » . ومهما يكن من أمر هذه المقاومة ، فإن كثيرا من التغييرات التي تحدث في المجتمع الحديث لا يمكن فهمها الا في ضوء وسائل الاعلام ودورها في المسارعة بحدوث هذه التغييرات . والمشكلة التي تواجه المرء الآن إزاء ذلك وإزاء تدفق المادة الاعلامية الضخمة التي تنهال عليه من كل وسائل الاعلام هي : كيف يختار ؟ وماذا يختار ؟ حتى يتم التغيير بطريقة مدركة وواعية ومقصودة . وليس هذا بالأمر السهل على أي حال .

دكتور أحمد أبو زيد



(٥) Ibid, PP. 3-4.

الثورة الحالية في أساليب الاتصال*

كيف تكتب الأخبار للإذاعة والتلفاز والصحافة

صلاح الدين طلبه

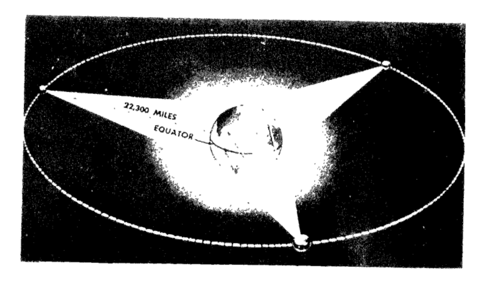
١ - مقدمة

في ربع القرن الماضي شهدت ميادين العلم والتقنية فتوحات جديدة أدت الى تغييرات شاملة في طبيعة الاتصالات . ففي سنة ١٩٥٧ بدأ عصر الفضاء باطلاق الاتحاد السوفيـاتي لقمره الصناعي الأول « سبوتنيك ١ » ،وفي سنة ١٩٦٠ بدأ عصر « الضوء المتلاصق Coherent Light باختراع الليزر نتيجة جهود مجموعة من العلماء السوفييت والأمريكيين . وقد جاء عصر الفضاء بأقمار الاتصالات البعيدة ، وأدى اختراع الليزر الى تطوير صناعة « الألياف البصرية » وتطويعها لخدمة تلك الاتصالات . واذا كان الناس قد بهرهم ما تحقق حتى الآن في ميدان اتصالات الأقمار الصناعية ، فالدور قادم على انبهارهم بقنوات الاتصال العظيمة السعة التي ستجيء بها تلك الألياف . وبتعاون أقمار الاتصالات التي تعمل بمثابة متابعات في الفضاء لموجات الراديو الدقيقة ، والألياف البصرية التي تعمل بمثابة أنابيب توجيه لموجات الليزر وغيره من أشكال الضوء البالغ الشدة ، ستتشعب شبكة الاتصالات الكبرى التي تغطي العالم اليوم لتصل أي مكان بكل مكان .

ولا يعرف أحد كيف نشأت فكرة اتصالات الأقمار الصناعية ، ولكن أول من اقترح استخدام القمر الصناعي الذي يبدو ثابتا في السماء لخدمة الاتصالات هو آرثر كلارك محرر المجلات العلمية ومؤلف قصص العلم الخيالية . فقبل إطلاق « سبوتنيك ١ » باثني عشر عاما ، وبالتحديد في فبراير ١٩٤٥ ، كتب كلارك في مجلة Wireless World يقول :

* كتب هذا المقال عام ١٩٨١ . وقد طرأ تغير كبير منذ ذلك الحين على عدد الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء كما اشترك في هذا النادي عدد آخر من الدول . كذلك حدث تقدم هائل في مجال الألياف الضوئية بحيث تضاعفت المسافة بين محطات تقوية الاشارة الى ثلاثة أمثال ما كانت عليه تقريبا ، ودخلت الى مجال استخدام الالياف الضوئية دول أخرى أيضا . ونرجو أن نعود الى ذلك في مقال آخر .

« اذا وجد قمر صناعي على الارتفاع الصحيح من الأرض فانه يستطيع أن يقوم بدورة كل ٢٤ ساعة ، أي أنه سيبقى ثابتا في نفس النقطة ، وسيكون في مدى البصر لنصف سطح الأرض تقريبا . وبامكان ثلاث محطات موجودة بفاصل ١٢٠ درجة في المدار الصحيح أن تقوم بتغطية هذا الكوكب بالتلفزيون والموجات الدقيقة » .



شكل (١) . كيف تصور آرثر في سنة ١٩٤٥ تغطية سطح الأرض بالتلفزيون والموجات الدقيقة باستخدام ثلاثة أقمار صناعية على الارتفاع الصحيح

وقد مضى الى الآن ٣٦ عاما على حلم آرثر كلارك ، ولكن ١٦ عاما منها شاهدت تشغيل نظم تجارية لاتصالات الأقمار الصناعية على المستويات الوطنية والاقليمية والدولية . وفي هذه المدة أطلق أكثر من ٨٠ قمرا من النوع الذي تصوره كلارك ثابتا في السماء ، بالاضافة الى الأقمار الكثيرة الأخرى التي تبدو متحركة وتؤدى دورا في الاتصالات الوطنية . ويمكن أخذ فكرة عن معدل اطلاق أقمار الاتصالات من جدول (١)الذي يحتوي على بيانات عن ٢٠ قمرا للاتصالات كانت ضمن ٧٢ قمرا صناعيا رئيسيا أطلقت في المدة من ١/١٠/١٩٧٧ الى ٣٠ / ٩ / ١٩٧٩ .

وفي الستة عشر عاما التي مضت منذ ٦ ابريل ١٩٦٥ يوم أطلق قمر الاتصالات التجارية الأول « ايرلي بيرد » تغيرت طبيعة الاتصالات تغيرا جذريا . فعلى الصعيد الدولي ما زال يبهرنا ما يقدمه التلفزيون العالمي من الاذاعة الحية للحوادث الهامة مثل الألعاب الأولمبية ورحلات الفضاء وجلسات مجلس الأمن والمؤتمرات الدولية . على أن الاتصالات التلفزيونية تستنفد معظم الارسال عن طريق الأقمار الصناعية . ولهذه الاتصالات التي تقدمها الأقمار لأكثر من ١٠٠ دولة أكبر وقع على الأعمال والأفراد على السواء . وعلى الصعيد الوطني في البلاد ذات المساحات الشاسعة تقدم تلك الأقمار قنوات الاتصال المختلفة للقرى النائية . وفي قطاع الحركة تتاح الآن بفضل الأقمار الصناعية قنوات يوثق بها للاتصالات بين البر والبحر والجو . أما في القطاع الحربي فقد أصبحت اتصالات الأقمار جزءا حيويا من النظم الاستراتيجية التكتيكية للدول التي تطلق هذه الأقمار .

جدول (١) أقمار الاتصالات العشرون ضمن ٧٢ قمرا رئيسيا اطلقت في ٢٤ شهرا (١/ ١٠/ ١٩٧٧ - ٣٠/ ٩/ ١٩٧٩)

اسم القمر	الهيئة أو الدولة	تاريخ الاطلاق	الوزن (كجم)	البعد عن الارض (كم)		زمن الدورة (دقيقة)	
				الأصغر	الأكبر		
SAKURA	اليابان	٧٧/١٢/١٥	٦٧٦	٣٥٥٦٧	٣٦١٥٧	١٤٣٩,٩	(١)
INTELSAT 4A (F—3)	الولايات المتحدة	٧٨/١/٧	١٥١١	٣٥٧٦٨	٣٥٨٠٦	١٤٣٦,١	
FLTSATCOM 1	الولايات المتحدة	٧٨/٢/٩	١٨٨٤	٣٥٥٢٢	٣٥٦٦٦	١٤٢٦,١	
Navstar 1	الولايات المتحدة	٧٨/٢/٢٢	٧٣٦	١٩٧٥٥	١٩٩٥٣	٧٠٤,٧	(٢)
OSCAR 8	الولايات المتحدة	٧٨/٣/٥	٢٧	٩٠٣	٩١٧	١٠٣,٢	(٣)
INTELSAT 4A (F—6)	الولايات المتحدة	٧٨/٣/٢١	١٤٨٠	٣٥٧٦٨	٣٥٨٠٦	١٤٣٦	(٤)
YURI	اليابان	٧٨/٤/٧	٦٧٨	٣٥١١٤	٣٥٦٦١	١٤١٥,٨	(٥)
OTS 2	الوكالة الأوروبية للأقمار	٧٨/٥/١١	؟	٣٥٧٨٢	٣٥٧٩٤	١٤٢٦,١	
Navstar 2	الولايات المتحدة	٧٨/٥/١٣	٤٣٣	٢٠٠٨٣	٢٠٢٨٠		(٦)
COMSTAR D3	الولايات المتحدة	٧٨/٦/٢٩	١٥١٨	٣٥٧٨٤	٣٥٧٨٧	١٤٣٦,١	(٧)
RADUGA 4	الاتحاد السوفياتي	٧٨/٧/١٨	٥٠٠٠	٣٦٤٧٣	٣٦٧٣١	١٤٧٨	
RADIO 1	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٠/٢٦	؟	١٦٨٥	١٧٠٦		(٨)
RADIO 2	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٠/٢٦	؟	١٦٨٥	١٧٠٦		(٩)
NATO 3—C	الناتو	٧٨/١١/١٩	٣٧٥	٣٥٤٦٠	٣٥٨١٤	١٤٢٨,٥	
ANIK 4	كندا	٧٨/١٢/١٦	٥٤٤	٣٥٧٨٢	٣٥٧٩١	١٤٢٦,١	
الأفق ١	الاتحاد السوفياتي	٧٨/١٢/١٩	؟	٢٢٥٨١	٤٨٣٦٥	١٤٢٠	
MOLNIYA 3 (11)	الاتحاد السوفياتي	٧٩/١/١٨	١٥٠٠	٤٧٤	٤٠٨٠٦	٧٣٦	
AYAME	اليابان	٧٩/٢/٦	٣٦٠	٣٣٩٦٦	٣٥٤٢١	١٣٨٠,٦	(١٠)
RADUGA 5	الاتحاد السوفياتي	٧٩/٤/٢٥	٥٠٠٠	٣٥٩٠٢	٣٥٩٠٢	٣٥٩٠٢	١٤٤٢
الأفق ٢	الاتحاد السوفياتي	٧٩/٧/٥	؟	٣٦٥٥٠	٣٦٥٥٠	٧٥٧	

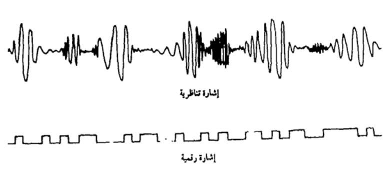
(١) تجريبي متزامن مع الأرض (٢) للملاحة (٣) لهواة الراديو (٤) فوق المحيط الهندي (٥) أول قمر اتصال ياباني متزامن مع الأرض (٦) للملاحة (٧) لخدمة التليفونات الوطنية (محلي) (٨) و (٩) جزءان من قمر لهواة الراديو (١٠) تجريبي .

ويدعو تحقق حلم آرثر كلارك بهذا الشكل الى التأمل ، خاصة وأن رجال العلم لم يكونوا يتصورون امكان تحقيقه بهذه السرعة ، كما أن بعضهم لم يكن يتصور امكان تحققه على الاطلاق . فبعد ١٠ شهور من ظهور مقال كلارك قال الدكتور فانيفر بوش ، الاستاذ بمعهد ماساتشوستس للتقنيةMIT ومخترع الكمبيوتر التفاضلي-differential com-puter ، ما يعني ذلك . ففي شهادته أمام مجلس الشيوخ الأمريكي في ديسمبر ١٩٤٥ قال بوش ان صنع صاروخ يحمل قنبلة لمسافة ٣٠٠٠ ميل (٤٨٠٠ كيلومتر) مستحيل . . . « ومن الوجهة التقنية ، لاأظن أن أحدا في العالم يعرف كيف يصنع شيئا كهذا . . . وأظن أنه يمكننا أن نترك هذا الشيء من تفكيرنا » . وقبل ذلك ببضعة أشهر كان الاستاذ ف . أ . لينديمان ، مستشار ونستن تشرشل العلمي ، قد قال كلاما بنفس المعنى أمام مجلس اللوردات البريطاني . وصحيح أن آرثر كلارك بنى حلمه على أساس انجازات الالمان في صناعة صواريخ « ف-٢ » التي أطلقوها من شواطىء بحر الشمال الجنوبية على لندن في أواخر الحرب العالمية الثانية ، الا أن مسافة ٣٠٠٠ ميل التي جاءت في شهادة بوش شيء آخر . والأهم من ذلك أن الارتفاع الصحيح الذي ذكره كلارك للأقمار الصناعية التي تخيلها هو ٢٢٣٠٠ ميل ، أي ٣٥٧٠٠ كيلومتر ، فهذا هو تقريبا الارتفاع الذي توجد عليه اليوم أقمار « انتلسات » الدولية ، و « أنيك » الكندية ، و « رادوجا »السوفييتية ، و « ساكورا » اليابانية ، وغيرها .

ومن المعلومات الأولية في علوم الاتصالات أن الموجات الأقصر تستطيع أن تحمل اشارات أكثر في نفس الزمن . ومن هنا كانت قيمة الموجات الدقيقة . فهي ، بقصرها البالغ بالنسبة لموجات الراديو الأخرى ، تستطيع أن تمدنا بقنوات اتصال بالغة السعة . على أن موجات الضوء أقصر من بعض الموجات الدقيقة المستخدمة في الاتصالات بمائة ألف مرة . فلو استطاع الانسان تحميل اشاراته على موجات الضوء لحصل على قنوات اتصال ذات سعات خيالية ، لذلك أدى اختراع الليزر سنة ١٩٦٠ الى بدء سلسلة من البحوث لايجاد قنوات يمر فيها الليزر بعيدا عن الظروف الجوية التي تؤثر فيه كما تؤثر على غيره من أشكال الضوء الأخرى . وتدل أخبار السنتين الماضيتين على حدوث تطور هائل في هذا الاتجاه ، فقد استطاعت شركتان أمريكيتان وشركة انجليزية وأخرى يابانية انتاج أربعة أنواع مختلفة من الألياف الزجاجية الشفافة للانثناء في كل الاتجاهات دون أن تنكسر (بسبب دقة قطرها الذي لايزيد على قطر الشعرة الا قليلا) ، والقادرة على الاحتفاظ باشارات الضوء داخلها بعد قطعها عدة كيلومترات . ومعنى هذا الكلام أنه باستخدام المتابعات يمكن ارسال الاشارات الضوئية لمسافة آلاف الكيلومترات داخل كابلات هذه « **الألياف البصرية** » . وقبل نهاية العقد الحالي سيكون هناك كابلات منها ممدودة تحت مياه المحيط الأطلسي بين أوربا وأمريكا الشمالية . وبالاضافة الى ذلك تقوم الخطط على قدم وساق في أمريكا الشمالية وأوروبا واليابان على مد شبكات الألياف البصرية عبر أراضيها وداخل مدنها لتحل محل « الكابلات المتخذة المحور »الممدودة حاليا .

وهكذا بعد أن كان معظم الاهتمامات في ميادين الاتصالات موجها الى الاتصالات القمرية ، ها هو ذا الانتباه يعود بثقله مرة أخرى الى الاتصالات الأرضية .

ولا تقتصر التغيرات التي تحدث الآن في ميادين الاتصالات على ادخال وسائل جديدة ، اذ أن التغيير يشمل طرق الارسال أيضا . فالتحول جار الآن ، وان يكن ببطء بسبب عوامل اقتصادية مؤقتة ، من الارسال « التناظري » الى الارسال « الرقمي » لما في ذلك من التحسين الكبير للارسال من الناحيتين الكيفية والكمية .



شكل (٢) . الارسال الرقمي والارسال التناظري

والارسال التناظري هو الذي تتغير فيه الاشارت تغيرا مستمرا طول الوقت مثلما يتغير ارتفاع سطح الماء عن نقطة معينة من سطح البحر المتموج مارا بجميع الارتفاعات الواقعة بين قمة الموجة وقاعها .

والارسال الرقمي هو الذي يتم باستخدام نبضات بينها فواصل بنظام يتوقف على المعلومات المرسلة .

والاشارات من كلا النوعين تضعف كما تصيبها « الضوضاء » مع طول المسافة . ولعلاج الضعف توضع على طول طريق الارسال متابعات تقوم بتقوية الاشارات . فاذا كانت الاشارات تناظرية فان الضوضاء تقوى أيضا ، وهذا عيب في الارسال التناظري ويصعب التخلص منه . أما اذا كانت الاشارات رقمية فانه من الممكن ، في الظروف العادية ، أن يعاد توليدها كما كانت قبل أن تصيبها الضوضاء ، وهذه ميزة كبرى للارسال الرقمي تتيح الارسال عبر آلاف الكيلومترات بدون ما ضوضاء تقريبا ، ما لم تقع حوادث غير عادية . أما الميزة الثانية للارسال الرقمي فهي أنه يسمح بمضاعفة استغلال قنوات الاتصال الواسعة التي أصبحت متاحة بعد تطويع الموجات الدقيقة والضوء لحمل الاشارات .

والقناة المعدة للارسال الرقمي لاتصلح للارسال التناظري . فاذا كانت الاشارات الاصلية تناظرية ، كما هو الحال عند ارسال الصوت أو الصورة ، فانه يلزم أولا « تعديل » الاشارات بترجمتها الى اشارات رقمية بشفرة ما ، ثم ارسالها على القناة الرقمية ، على ان يعاد تعديل تلك الاشارات الرقمية في نهاية الارسال بحيث تنتج اشارات تناظرية قريبة بقدر الامكان من الاشارات الأصلية ، الا اذا اريد غير ذلك . وتعرف عمليات التعديل الأول باسم التعديل بشفرة النبضات

Pulse code Modulation (PCM)

على أن معظم منشآت الاتصالات الحالية مبنى على أساس الارسال التناظري . ومن الوجهة الاقتصادية يجب استغلالها لأطول فترة ممكنة . وهذا ما يؤخر التحول الكامل الى الارسال الرقمي .

وللكمبيوتر الرقمي الالكتروني عدة أدوار في ثورة الاتصالات ، فهو لازم لعمليات اطلاق الأقمار الصناعية ووضعها في مساراتها المحسوبة ، ولمراقبة سيرها وضبط مداراتها كلما تأثرت بالجاذبية والاشعاعات الشمسية . وهو لازم أيضا في المقسمات الآلية التي تنظم العمل في شبكات الاتصالات الحالية الشديدة التعقيد . كما أن له الدور الأساسي في استخراج المعلومات في بنوكها والحصول عليها في الحال عبر قنوات الاتصال التي يكون طولها شيئا بين بضعة أمتار وآلاف الكيلومترات .

●●●

٢ - الموجات وشرائط التردد

الموجات الكهرومغنطيسية electromagnetic waves

عندما تحدث ذبذبات كهربائية فإنه ينشأ عنها موجات كهربية وأخرى مغنطيسية . ويطلق على مجموعتي الموجات الناشئة اسم « الموجات الكهرومغنطيسية » . وتنتشر هذه الموجات بسرعة الضوء ، أى أنها تسير في الفضاء بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية .

ويطلق اسم « **الطيف الكهرومغنطيسي** electromagnetic spectrum» على مجموعة الموجات الكهرومغنطيسية .

و « **التردد** » freguency هو عدد الذبذبات في الثانية . ومن المعلوم أن :

سرعة انتشار الموجات = التردد × طول الموجة وحيث أن سرعة انتشار الموجات الكهرومغنطيسية لا تتغير بتغير التردد فإن طول الموجة ينقص بزيادة التردد .

وتستخدم كلمة « هرتز » **hertz** بمعنى « ذبذبة في الثانية » . فمثلا « ٣٠٠٠ هرتز » أو « ٣ كيلو هرتز » تعني « ٣٠٠٠ ذبذبة في الثانية . و « ١٠٠ ميجاهرتز » تعني « ١٠٠ مليون ذبذبة في الثانية » ، و « ٤ جيجا هرتز » معناها « ٤ آلاف مليون ذبذبة في الثانية » .

ويتوقف نوع الموجات المغنطيسية على مقدار التردد الذي تنشأ عنه . فعندما يكون التردد واقعا بين ٢٠ كيلوهرتز ، و ١٠ ميجا هرتز تنشأ موجات الراديو . وعندما يكون التردد واقعا بين ١٠ ميجاهرتز ، و ٣ جيجا هرتز تنشأ الموجات الدقيقة . وهكذا حسب ما هو مبين بجدول (٣) .

ويطلق اسم « **شريط تردد** » **freguency band** أو اختصارا ، « **شريط** » **band** على أية مجموعة من الترددات المتتالية القيمة . فمثلا الشريط « ٣,٩ - ٦,٢ جيجا هرتز » هو « مجموعة الترددات التي تبدأ بتردد قدره ٣,٩ جيجا هرتز وتنتهي بتردد قدره ٦,٢ جيجا هرتز » .

جدول (٢) بعض الوحدات المستخدمة في العد

الوحـــدة		الرمـــز	القيمـــــة	القوة العشرية
كيلو	Kilo	K	ألف	$١٠^{٣}$
ميجا	mega	M	مليون	$١٠^{٦}$
جيجا	giga	G	ألـف مليـون	$١٠^{٩}$
ميكرو	micro	μ	جزء من مليـون	$١٠^{-٦}$
نانـو	nano	n	جزء من الـف مليـون	$١٠^{-٩}$

جدول (٣) ـ الطيف الكهرو مغنطيسي

نوع الموجة	طول الموجة (بالتقريب)	التردد بالتقريب (هرتز)
كهرو مغنطيسية طويلة	فوق ١٦ كم	تحت ٢٠٠٠٠
موجات الراديو	١٦كم إلى ٣٠م	٢٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠٠
الموجات الدقيقة	٣٠م إلى ١٠ر٠	$١٠^{٧}$ إلى ٣ × $١٠^{١٢}$
الأشعة تحت الحمراء	١٠ر٠سم إلى ٠٠٠٠٧٥ر٠سم	٣ × $١٠^{١٢}$ إلى ٤ × $١٠^{١٤}$
الضوء المنظور	٠٠٠٠٧٥ر٠سم إلى ٠٠٠٠٣٨ر٠سم	٤ × $١٠^{١٤}$ إلى ٨ × $١٠^{١٤}$
الأشعة فوق البنفسجية	٠٠٠٠٣٨ر٠سم إلى ٠٠٠٠٠١ر٠سم	٨ × $١٠^{١٤}$ إلى ٣ × $١٠^{١٦}$
الأشعة السينية *	١٠٠أ إلى ١ر٠أ	٣ × $١٠^{١٦}$ إلى ٣ × $١٠^{١٩}$
أشعة جاما *	تحت ١ر٠أ	فوق ٣ × $١٠^{١٩}$

* « أ » اختصار انجسترم وهي وحدة طول تساوي جزء من مائة مليون من السنتيمتر .

وهنا بعض الشرائط التي يطلق عليها أسماء . وبعضها يوجد في جدول (٤) .

و « عرض الشريط » **bandwidth** هو الفرق بين أدنى الترددات وأعلاها في الشريط . فمثلا عرض « الشريط ـ حـ » ، وهو الشريط الثالث في جدول (٤) يساوى ٦,٢ ـ ٣,٩ أى ٢,٣ جيجا هرتز .

والشريط ذو العرض الصغير جدا يسمى « شريحة »**slot**

والوحدة المستخدمة في قياس عرض الشريط هي ، غالبا ، « القناة الصوتية **voice channel** وتساوى ٤ كيلوهرتز .

وإذا كان الشريط أعرض كثيرا من القناة الصوتية ، أى إذا كان عرضه أكبر كثيرا من ٤ كيلوهرتز ، فيقال له « شريط واسع »**broad band** .

الارسال التلفوني

عندما يتكلم شخص فإن أوتاره الصوتية تهتز معا في نفس الوقت بترددات مختلفة قد يصل أعلاها إلى ١٢ كيلوهرتز أو أكثر . على أن الذبذبات التي تحدث بتردد تحت ١٠٠ هرتز أو فوق ٣١٠٠ هرتز تكون ذات طاقة ضعيفة جدا . لذلك يمكننا تمييز صوت من يحدثنا على التليفون مع أنه قد يكون كل ما يرسل لنا هو الشريط ١٠٠ ـ ٣١٠٠ هرتز ، وهو بعرض ٣ كيلوهرتز . على أن الارسال التليفوني يحدث عادة بتخصيص شريحة عرضها ٤ كيلو هرتز لكل متكلم . وهذا هو السبب في اطلاق اسم « قناة صوتية » على ذلك العرض .

وتحتوي الشبكة التليفونية الكبيرة على ما يلي :

ـ دوائر المشتركين subscriber loops (وتسمى أيضا « الدوائر المحلية ») ، **وتحتوى الدائرة منها على زوج من الأسلاك . ويحمل السلك ترددات من صفر إلى ٤ كيلو هرتز .**

جدول (٤) بعض شرائط التردد ذات الأسماء

اسم الشريط	الترددات في الشريط
L — band	**.390 — 1.550 GHz**
S — band	**1.550 — 3.900 GHz**
c — band	**3.900 — 6.200 GHz**
X — band	**6.200 — 10.900 GHz**

ـ مقسمات (سنترالات) محلية **local central offices** ويتصل المقسم المحلي بكل المشتركين ، ويصل أى مشترك بآخر عند الطلب .

ـ مقسمات رئيسية تصل بين المقسمات المحلية .

وقد يوجد من المقسمات ما هو أكبر فيصل بين المقسمات الرئيسية .

ـ ترنكات **trunks** وهي خطوط تصل بين مقسم وآخر . ويحمل الترنك شريط تردد مساويا عددا كبيرا من القنوات الصوتية .

نسج الاشارات multiplexing عندما تتجمع إشارات تليفونية (واردة من دوائر المشتركين) في المقسم المحلي بغرض ارسالها إلى مقسم آخر فالعادة أنها تحزم معا بطريقة ما وترسل كإشارة واحدة . ويطلق على عملية ارسال مجموعة من الاشارات واحدة اسم « نسيج الاشارات » .

وهناك طريقة شائعة الاستعمال لنسج الاشارات تسمى « النسج بتقسيم التردد » **frequency division multiplexing FDM** وتتم بتقسيم شريط الارسال إلى قنوات صوتية بترددات متتالية الارتفاع . فإذا كان الارسال يحدث على شريط ٦٠ ـ ١٠٠ كيلو هرتز مثلا ، فإن الاشارة التليفونية الأولى ترفع الى ٦٠ ـ ٦٤ كيلو هرتز والثانية إلى ٦٤ ـ ٦٨ كيلو هرتز ، والثالثة إلى ٦٨ ـ ٧٢ كيلوهرتز ، وهكذا

وقد تمر الاشارة التلفونية بمقسمين أو أكثر . وعند وصول الاشارة المنسوجة إلى المقسم المحلي الأخير يعاد فصل القنوات الصوتية وتخفض كل قناة إلى التردد الأصلي لها (أى إلى ٠ ـ ٤ كيلوهرتز) وترسل على الدائرة المحلية الخاصة بها .

الارسال على الترددات المرتفعة

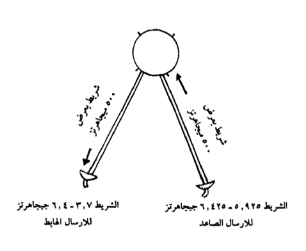
من المعلومات الأولية في الاتصالات أن مقدار الاشارات التي يمكن ارسالها باستخدام قناة ما يتوقف على عرض شريط الترددات المستخدم . والضغط يزداد باستمرار على قنوات الارسال . فالمحادثات التلفونية في مدينة كبيرة تتم بالآلاف في نفس الوقت ، والقناة التلفونية الواحدة تحتاج الى ١٢٠٠ قناة صوتية . ولذلك يحدث البحث دائما عن قنوات كبيرة العرض للاتصالات .

والموجات الدقيقة تعطى قنوات اتصال عريضة بدرجة لم يكن يحلم بها الانسان قبل إمكان توليد تلك الموجات . أما موجات الضوء ـ إذا أمكن استخدامها للاتصالات بنجاح ـ فتعطى قنوات اتصال ذات سعات خيالية . فكما يظهر من جدول (٣) ، فإن عرض طيف الموجات الدقيقة يساوى الفرق بين ٣ آلاف جيجا هرتز و ١٠ ميجا هرتز ، أى أكثر من ٢٩٠٠ جيجا هرتز ، وهو عرض كبير . فإذا قسم إلى شرائط ذات عرض نصف جيجا هرتز (أى ٥٠٠ مليون هرتز) فإن عرض الشرائط يكون أكثر من ٥٠٠٠ . ولكن على أنه توجد صعوبات تقابل محاولة استخدام الشرائط ذات الترددات المرتفعة في ذلك الطيف . منها التأثر بالظروف الجوية . وكلما ذللت العقبات التي تقابل استخدام شريط مرتفع التردد أتيح للانسان قنوات واسعة إضافية .

ارسال الأقمار الصناعية على الموجات الدقيقة

للارسال باستخدام الأقمار الصناعية تستخدم شرائط تحددها الاتفاقات الدولية والهيئات التنظيمية الوطنية . ومن **الشرائط المخصصة** لأقمار الاتصالات المدنية نجدالشريط ٣,٧ ـ ٤,٢ جيجا هرتز للموجات الهابطة ، والشريط ٥,٩٢٥ ـ ٦,٤٢٥ جيجا هرتز للموجات الصاعدة . ويلاحظ أن عرض كل من الشريطين نصف جيجا هرتز أي ٥٠٠ مليون هرتز . وهناك شرائط أخرى مخصصة للأقمار الصناعية مثل الشريط ١٠,٩٥ ـ ١١,٢٠ جيجا هرتز وعرضه ربع جيجا هرتز ، أي ٢٥٠ مليون هرتز .

ويشار الى الشرائط المخصصة بعبارات مثل GHz — 4/6 band; 11/14 — gHz band; 21/16 /gh z dand bandأي شريط ٤/٦ جيجا هرتز ، شريط ١١/١٤ جيجا هرتز . ١٢/١٦ جيجاهرتز وفي أي من هذه العبارات يشير العدد الأول الى شريط ترددات الموجات الهابطة ، والعدد الثاني الى شريط ترددات الموجات الصاعدة .



شكل (٣) قمر اتصالات مدنية يستخدم الشريطين ٤/٦ - جيجاهرتز

٣ ـ أقمار الاتصالات

يعمل قمر الاتصالات بمثابة متابع من نوع فريد للموجات الدقيقة . فهو ، بوضعه العالي في الفضاء ، يستطيع متابعة الاشارات عبر المسافات الطويلة التي قد لاتستطيع تغطيتها وصلة واحدة تقدمها أية وسيلة أخرى للاتصالات . ولعل أهم مزايا أقمار الاتصالات قدرتها الفريدة على تغطية العالم . وقد بقيت شبكات الاتصال في العالم شبه منعزلة بعضها عن بعض ولم يتيسر ضمها كلها في شبكة واحدة الا بعدمجيء تلك الأقمار . واليوم لايلزم لضم أي مكان ناء في العالم الى تلك الشبكة الا اقامة محطة أرضية هناك . ولا يستلزم ذلك وقتا طويلا ولا يحتاج الى رؤوس الأموال الطائلة التي يلزم توافرها لوصل أي مكان ناء بشبكة رئيسية من شبكات الاتصالات .

ومن مزايا أقمار الاتصالات الأخرى أنها تتيح شرائط تردد أعرض من أي شيء كان معروفا من قبل . وقد بَقي الارسال التلفزيوني عبر المحيطات معلقا حتى مجيء الأقمار الصناعية .

فالكابلات البحرية الحالية لاتقدم شرائط التردد العريضة التي تكفي الاتصالات التليفونية والارسال التلفزيوني معا . ولم يكن من المتيسر مد كابلات اضافية تحت الماء لسد العجز في قنوات الاتصال اذ أن ذلك المد يحتاج الى أموال طائلة وجهود مضنية ـ **ولقد كان الغرض الأساسي من الالتجاء الى الأقمار الصناعية من أجل الاتصالات هو تيسير الارسال عبر المحيطات .**

وقد كانت الأقمار الأولى للاتصالات صغيرة الحجم قليلة الوزن بسبب ضعف الصواريخ الأولى بالنسبة للصواريخ الحالية . ولذلك لم تكن تحمل الأجهزة الألكترونية اللازمة لتعديل موجات الارسال وتقوية الموجات المعدلة وارسالها ، وكان عملها مقتصرا على عكس الاشارات الصادرة اليها من الأرض . وبعبارة أخرى كانت تلك الأقمار « سلبية » . على أنه سرعان ما أمكن صنع صواريخ قوية . وبذلك أمكن مد أقمار الاتصالات بالتجهيزات الكافية لتعديل الاشارات التي تستقبلها وتقويتها ثم اعادة ارسالها . وبعبارة أخرى أمكن صنع واطلاق أقمار اتصالات « ايجابية » . وقد حدث ذلك التقدم في سنوات قليلة . ومما تم في تلك السنوات أيضا التوقف عن استخدام البطارية الكيميائية لمد الأقمار بالطاقة اللازمة ، فقد كانت البطاريات الشمسية قد اخترعت . وبعد أن كان عمل البطارية في الأقمار الأولى لايستمر الا أسبوعا أو أسبوعين ، أصبحت الأقمار تستمد الطاقة اللازمة لها طوال سنوات عملها من البطاريات الجديدة .

الأقمار المتزامنة مع الارض geosynchronous satelItes

كانت أقمار الاتصالات الاولى تحلق على ارتفاعات منخفضة نسبيا (بسبب الضعف النسبي لصواريخ ذلك الوقت) ولذلك كانت دورتها تتم في ساعات قليلة مما يجعلها لاتظهر في السماء الا دقائق معدودة . بالاضافة الى ذلك كان من اللازم استمرار تحريك أطباق المحطات الأرضية لتكون مواجهة لقمر الاتصال طوال مدة ظهوره . على أنه في أوائل الستينات أمكن صنع الصواريخ التي تستطيع أن تدفع القمر الصناعي الى ارتفاع ٣٥٧٠٠ كيلومتر ، كما تقدمت التقنية في كل شيء لازم لتصحيح مسار القمر عند ذلك الارتفاع واعطائه السرعة اللازمة (أي ١١٠٠٠ كيلومتر في الساعة) لكي يدور حول الأرض في نفس الزمن التي تدور فيه حول محورها ، أي في ٢٤ ساعة . واذا كان القمر فوق نقطة من خط الاستواء ويسير بتلك السرعة في اتجاه دوران الأرض فانه يبدو ثابتا في مكانه في السماء ويقال انه « **متزامن مع الأرض** » . وقد كان القمر الامريكي « سينكوم ٢ SYNCOM II » الذي أطلق في سنة ١٩٦٢ هو أول قمر له هذه الصفة .

المحطات الأرضية

تتألف المحطة الأرضية من طبق كبير ، طول قطره عدد من الأمتار ، يشير إلى قمر الاتصالات . وقد كانت المحطات الأرضية الأولى على شيء كبير من الضخامة . فقد كان للمحطة التي تشير الى « ايرلي بيرد » ـ أول أقمار

جدول (٥) زمن دورة القمر الصناعي حسب ارتفاعه

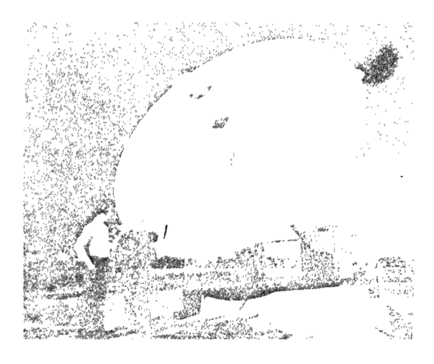
ارتفاع القمر عن الأرض (كم)	زمن الدورة (ساعة)	زمن البقاء في مدى بصر المحطة الأرضية
١٦٠ ـ ٤٨٠	٥ر١ تقريباً	٤/١ ساعة أو أقل
٩٥٠٠ ـ ١٩٠٠٠	٥ ـ ١٢	٤ر٢ ساعة
٣٥٧٠٠	٢٤	مدى عمر القمر

الاتصالات ـ قبة ارتفاعها ١٨ طابقا تحتوي على هوائي على شكل بوق يتحرك بالادارة ويزن ٣٨٠ طنا ، وتصحبه دوائر الكترونية تبرد بالهليوم السائل . على أنه سرعان ما ظهر أن الاحتياطات الكبيرة التي سببت ضخامة المحطة كان مبالغا فيها فبطل بناء القباب فوق المحطات الأرضية . كذلك ظهر أنه في الامكان التحكم في ثبات القمر في مكانه الظاهري في الفضاء ولذلك استبعد لزوم الادارة المستمرة للمحطة . وكل ما يلزم الآن هو إعادة توجيه الهوائي بين الحين والآخر .

وبالتقدم الهائل الذي حصل في الالكترونيات في الستينات والسبعينات أمكن مد أقمار الاتصالات بأجهزة أقوى كثيرا من سابقاتها ، وبذلك أصبح في الامكان استخدام محطات أرضية أصغر من المحطات الكبيرة الأولى التي كان قطرها ٣٠ مترا . واليوم توجد محطات ذات أقطار مختلفة : ٣٠ مترا ، ١١ مترا ، ٥ أمتار ، وغيرها . وبينما بقيت أثمان المحطات الكبيرة مرتفعة كما كانت (من ٦ مليون الى ٨ مليون دولار) نجد أن المحطات الصغيرة ذات أسعار منخفضة إلى حد كبير . وفيما يلي بعض الأسعار السائدة حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية لبعض أنواع المحطات الأرضية :

نظام (أ) بقطر ٣٠ مترا	٦ ـ ٨ مليون دولار
نظام (ب) بقطر ١١ مترا	٨,٠ ـ ٢,١ مليون دولار
نظام لاستقبال ارسال الأقمار الوطنية	أقل من ٣٠٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو والتلفزيون بدون ارسال	أقل من ١٠٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو بدون ارسال	أقل من ٥٠٠٠ دولار
نظام لاستقبال الراديو في المنزل (ما زال خطة)	أقل من ٢٥٠ دولار

وقد أدى انتاج النظم الصغيرة للمحطات الأرضية الى إمكان اقامتها قريبا من المستخدم النهائي . فحيث لا يخشى تداخل الموجات يمكن إقامة المحطة في الأرض الفضاء الموجودة خلف المبنى ، وكذلك يمكن وضعها فوق أعلى المنزل .



شكل (٤) محطة أرضية متوسطة على شكل طبق

وكما هو ظاهر من النظم السابقة ، تقوم المحطات الكبيرة بالارسال والاستقبال . على أنه من اللازم وجود محطة تقوم بعمليات التحكم في القمر الصناعي ، وربما بتشغيل محطة أرضية أو أكثر مما لا يوجد بها أشخاص لتشغيلها .

الترانسبوندر transponder

في علم الاتصالات يعرف الترانسبوندر بأنه تسهيلات للاستقبال والارسال وظيفتها إرسال الاشارة أوتوماتيكيا عند تلقي الطلب الصحيح . وفي الأقمار الصناعية تقوم الترانسبوندرات باستقبال الاشارات الواردة على موجات الراديو الدقيقة في شريط تردد معين ثم تعيد ارسالها بتردد آخر ، وذلك تلافيا لتداخل الاشارات القوية الصادرة من القمر مع الاشارات الضعيفة الواردة إليه .

ولأغلب أقمار الاتصالات الحالية أكثر من ترانسبوندر . ويختلف عرض الشريط الذي يتيحه الترانسبوندر من قمر صناعي إلى آخر . وللقمر الصناعي « انتلسات ٤ » مثلا ٢٠ ترانسبوندر وعرض شريط تردد كل منها ٣٦ ميجاهرتز . ويتوقف استخدام الشريط على تجهيزات المحطة الأرضية . ففي بعض النظم يمكن استخدام الشريط بعرض ٣٦ ميجاهرتز في حمل أي مما يأتي :

- قناة تلفزيونية واحدة مع صوت البرنامج .
- ١٢٠٠ قناة صوتية .

بيانات بمعدل ٥٠ مليون رقم ثنائي (واحد أو صفر) في الثانية - الأربعة والعشرون ميجاهرتز الوسطى من كل شريط يمكن أن تقوم بمتابعة أي من :

أ - ١٦ قناة ذات ١,٥٤٤ مليون رقم ثنائي في الثانية .

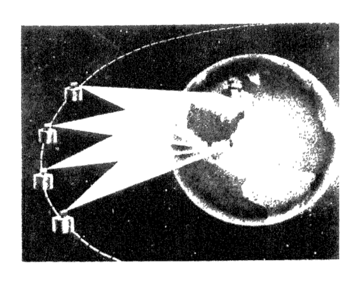
أو ب - ٤٠٠ قناة ذات ٦٤٠٠٠ رقم ثنائي في الثانية .

أو جـ - ٦٠٠٠ قناة ذات ٤٠٠٠ رقم ثنائي في الثانية .

الهوائيات في الفضاء antennas

توصف هوائيات الموجات الدقيقة بأنها توجيهية directional لأنها تستطيع أن تقوم بتوجيه تلك الموجات . ويحتاج توجيه الموجات الأقصر إلى هوائيات أصغر . ولم تكن هوائيات أقمار الاتصالات الأولى توجيهية بدرجة عالية . على أن هوائيات « ايرلي بيرد » - وهو أول أقمار الاتصالات التجارية وكان اطلاقه في سنة ١٩٦٥ - كان يحمل هوائيات على درجة لا بأس بها من القدرة على التوجيه . وكانت تلك الهوائيات توصف بأنها « حولاء » لأنها كانت موجهة إلى شمال المحيط الأطلسي مع جزء من شواطئه الأوروبية والأمريكية دون باقي القارتين وذلك بغرض احتفاظ الارسال بقوته لخدمة الاتصالات بين شاطئي شمال المحيط .

وفي المدار المتزامن مع الأرض تقابل الأرض زاوية مقدارها ١٧° أو ١٨° وإذا كان التوجيه نحو الأرض كلها فان الهوائيات توزع الارسال على هذه الزاوية . وإذا كان الهوائي يغطي زاوية أقل من ذلك فإن الاشارات التي تستقبل على الأرض تكون أقوى (إذا لم تتغير قوة القمر) . ويحمل القمر « انتلسات ٤ » هوائيين يقابل كل منهما ٤,٥°، وذلك بالاضافة الى هوائي ذي ١٧°. والقمر الوطني الصناعي المصمم لخدمة دولة معينة (ويسمى قمرا وطنيا) مثل كندا أو البرازيل يحتاج إلى هوائي يغطي تلك الدولة .



شكل (٥) زوايا توجيه الارسال من قمر صناعي

والقمر « NASA ATS 6 » الذي أطلقته « ناسا » سنة ١٩٧٤ كان يحمل هوائيا ذا زاوية ٢٥ , ٠° مما كان يجعله يستطيع توجيه الارسال إلى « بقعة » Spot تساوي مساحة انجلترا . (وقد كان ذلك القمر تجريبيا . ومن التجارب الكثيرة التي صمم لخدمتها مساعدة الحكومة الهندية في برنامج تعليمي يذاع على ٥٠٠٠ قرية هندية ، وكان لدى نصفها مراكز استقبال مباشرة) . وكان هوائي ذلك القمر على شكل مظلة تفتح في الفضاء (حتى تأخذ حيزا صغيرا أثناء الاطلاق) ليصير قطرها ٣٠ قدما . وكان تحت المظلة أجهزة « تغذية » تبث الارسال عبر الهوائي الذي يوجهه في شكل « حزمة بقعة » وكانت المظلة تقوم بالاستقبال أيضا وتبعث بالاشارات الواردة إلى التغذية * .

وتتجه التصميمات الآن إلى أن يكون ارسال القمر على شكل حزم ضيقة متعددة . فبالاضافة إلى ما يؤديه ذلك من تقوية الارسال فإنه يتيح استعمال نفس التردد للارسال إلى بقع مختلفة من الأرض ، كما يتيح للأقمار المختلفة إعادة استعمال نفس التردد .

التأخير

يعيب الارسال باستخدام الأقمار الصناعية حدوث تأخير يسببه أن الاشارة تقطع المسافة من الأرض إلى القمر ثم من القمر إلى الأرض ، ومجموع المسافتين أكثر من ٧٠٠٠٠ كيلو متر بالنسبة للأقمار المتزامنة مع الأرض . ويتوقف التأخير على البعد بين القمر وكل من نقطتي الارسال والاستقبال ، ولكنه يكون حوالي ٢٧٠ ملليثانية .

وفي المكالمة التليفونية إذا كان الارسال في كلا الاتجاهين يستخدم القمر الصناعي فإنه يكون على المتحدث أن ينتظر نحو ٥٤٠ ملليثانية حتى يسمع الرد . ولذلك أثر نفسي سيء ولكنه يقل بالتعود . ومن الطرق المتبعة في بعض النظم للتخلص من نصف التأخير أن يكون الارسال في أحد الاتجاهين عبر القمر الصناعي ، وفي الاتجاه الآخر باستخدام الكابلات التليفونية .

على أن أهم ضرر للتأخير هو ما قد يحدث عند ارسال البيانات . ويستلزم الأمر أخذ احتياطيات معينة عند تصميم نظم ارسال البيانات في الاتجاهين باستخدام أقمار الاتصالات .

مدارات أقمار الاتصالات

يكون مدار القمر على شكل دائرة مركزها عند مركز الأرض ، أو على شكل قطع ناقص (بيضي) تقع الأرض عند إحدى بؤرتيه . (ويمكن اعتبار الدائرة قطعا ناقصا تتطابق بؤرتاه) . وعندما يكون المدار قطعا ناقصا فإن بعد القمر عن الأرض يتغير باستمرار ، ويكون له قيمة صغرى تسمى البعد الأصغر Perigee وأخرى كبرى تسمى البعد

* كان العمر المصمم للقمر سنتين وكان وزنه ١٣٦٠ كيلو جراما منها ٢٣٤,٥ كيلو جراما لخدمة الاتصالات موزعة كالآتي :

عاكس على شكل قطع ناقص	٨٧ كجم
تغذية الهوائي	٢٦,٨ كجم
ترانسوندر	١٢٠,٦ كجم

الأكبر apogee وأقمار النظام السوفييتي « مولنيا » MOLNIYA من هذا النوع . فمثلا القمر MOLNIYA (11)3 الذي أطلق في ١٨/١/٧٩ يتراوح بعده عن الأرض بين ٤٧٤ كيلو مترا و ٤٠٨٠٦ كيلو مترا . ويدور هذا القمر حول الأرض في ١٢ ساعة تقريبا ، ولكن شكل مداره يتيح بقاءه أطول مدة ممكنة في مدى بصر معظم محطات الاتحاد السوفييتي الأرضية .

هيئات ونظم أقمار الاتصالات

يوجد في الوقت الحاضر عدد كبير من أقمار الاتصالات التي تقوم بعمليات مختلفة . وهي تجريبية أو عاملة . ويمكن تصنيف نظم أقمار الاتصالات العاملة كما يأتي :

تجارية	حربية
١ ـ ثابتة	١ ـ ثابتة
أ ـ دولية	٢ ـ متحركة
ب ـ اقليمية/وطنية	
٢ ـ متحركة	
٣ ـ إذاعة	

ويوجد نظامان دوليان من النظم الثابتة وهما :

- انتلسات INTELSAT وهو نظام ناجح تمام
- انترسبوتنيك Intersputik وهو نظام سوفييتي محدود الامكانيات بالقياس إلى النظام الأول .

ومن النظم الاقليمية/الوطنية غير الأمريكية يوجد ما يلي :

- تليسات كندا TELESAT Canada
- أي اس ايه (أوروبا) ESA (European Satellite Agency)
- بالابا (إندونسيا) PALAPA
- سيريو (ايطاليا) SIRIO
- عربسات ARABSAT
- سيمفوني (المانيا ـ فرنسا) Symphonie
- إنسات (الهند) INSAT

أما النظم التابعة للولايات المتحدة الأمريكية فبعضها يظهر في جدول (٦) الذي يحتوي على خطط اطلاق الأقمار الصناعية على مدى ٦ سنوات تقريبا .

ومن النظم المتحركة يوجد :

- ماريسات MARISAT (COMSAT General
- ماروتس (الوكالة الأوروبية) MAROTS (ESA)

جدول (٦) خطط إطلاق أقمار الاتصالات الأمريكية الوطنية لسبع شركات
خلال السنوات القليلة التي تبدأ من نوفمبر ١٩٨٠

القمـــــر	تاريخ الاطلاق
sbs 1	نوفمبر ١٩٨٠
sbs 2	يناير ١٩٨١
sbs 3	نوفمبر ٨٢ ـ سبتمبر ٨٣
RCA SATCOM 3-R	يونيو ١٩٨١
RCA SATCOM 4	اكتوبر ١٩٨١
RCA SATCOM 5	اكتوبر ١٩٨٢
RCA SATCOM 1-R	مارس ١٩٨٣
RCA SATCOM 2-R	سبتمبر ١٩٨٣
COMSTAR D-4	مارس ١٩٨١
AT & T TELSTAR I	مارس ١٩٨٣
T & AT TELSTAR II	مارس ١٩٨٤
T & AT TELSTAR III	مارس ١٩٨٦
WESTAR 4	مارس ١٩٨٢
(WESTERN Union)	
WESTAR 5	أغسطس ١٩٨٢
ADVANCED WESTAR-A	١٩٨٣
ADVANCED WESTAR-B	١٩٨٣
HUCHES H-1	١٩٨٢
HUCHES H-2	١٩٨٢
HUCHES H-3	١٩٨٣
SPCC 1	
(SOUTHERN Pacific)	
SPCC 2	١٩٨٣
GTE 1	١٩٨٤
GTE 2	١٩٨٤

كومسات Comsai

في فبراير ١٩٦٣ تأسست شركة أمريكية باسم « شركة اتصالات الأقمار الصناعية » Communications Satellite Corporation (COMSAT)

وتعرف باسم « كومسات » . وذلك للتشغيل والاطلاق في أمريكا للأقمار الصناعية التجارية مع تغطية عالمية واسعة . وتعمل الشركة لتحقيق ذلك وللمساهمة في ملكية وتشغيل نظام عالمي للأقمار الصناعية والمحطات الأرضية . وسيتضح فيما يلي دور هذه الشركة الأساسي في الاتصالات العالمية عن طريق الأقمار الصناعية .

انتلسات INTELSAT

في ٢٠ أغسطس ١٩٦٤ وقعت ١١ دولة ذات سيادة على اتفاقيات أدت الى إنشاء هيئة فريدة في نوعها باسم « الاتحاد الدولي لأقمار الاتصالات » وتعرف باسم « انتلسات » International Teleommunications Satellite Consortium (INTELSAT)

وذلك بهدف تصميم وتطوير وإنشاء وإقامة وتشغيل القطاع الفضائي من نظام عالمي تجاري لاتصالات الأقمار الصناعية . وتنص الاتفاقيات على أن تساهم الهيئة التي تسميها الدولة العضو في تمويل وامتلاك الأقمار الصناعية وأجهزة المتابعة والتحكم اللازمة لها ، ولكن الدول الأعضاء تمتلك وتدير المحطات الأرضية التي تقع في أراضيها . ومن حق أية دولة أن تنضم للاتحاد نظير اشتراكها في الاستثمارات . وتحصل كل هيئة على أرباح استثماراتها في النظام . وكلما انضمت دولة أخرى تقل نسبة مساهمة باقي الأعضاء . ويوجد في الوقت الحاضر أكثر من ١٠٠ عضو في الاتحاد . وتشترك الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق « كومسات » التي تمتلك الآن ٣٧,٥٪ من الاستثمارات . ويساهم معظم الأعضاء عن طريق هيئات البريد والبرق والهاتف لديهم . والدول التي ليست أعضاء في الاتحاد ولم توقع على الاتفاقيات يمكنها أن تستخدم أقمار الهيئة نظير دفع تكلفة استئجار دوائرها .

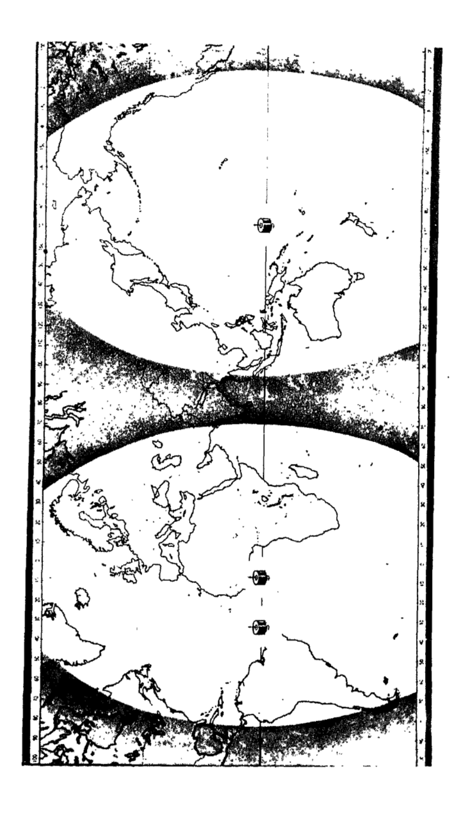
ولشركة « كومسات » الأمريكية اليد العليا في أمور « انتلسات » ، فهي تقوم بإدارتها بالنيابة عن جميع الجهات التي تسميها الدول الأعضاء ، وهي التي تتولى تصميم الأقمار الصناعية المطلوبة لها .

وتقوم « انتلسات » في الوقت الحاضر بتقديم خدمات اتصالات الأقمار الصناعية على أساس عالمي لمناطق المحيطات الأطلسي والهادي والهندي . وتوجد للهيئة ثلاثة أقمار عاملة فوق الأطلسي بالاضافة إلى قمر احتياطي ، ويوجد قمر عامل فوق كل من المحيطين الهادي والهندي بالاضافة الى قمر احتياطي لكل منهما . وتستخدم أقمار النظام نحو ٢٠٠ محطة أرضية قطر طبقها ٣٠ مترا وتعمل على الشريط ٤/٦ جيجا هرتز .

وقد أطلقت شركة « كومسات » الأمريكية حتى الآن أربعة أجيال من الأقمار الصناعية لحساب « انتلسات » وهي : « انتلسات ١ » الذي عرف باسم « ايرلي بيرد » و « انتلسات ٢ » ، و « انتلسات ٣ » ، و « انتلسات ٤ » . وتوجد خطة لاطلاق الجيل الخامس « انتلسات ٥ » في أواخر هذا العام .

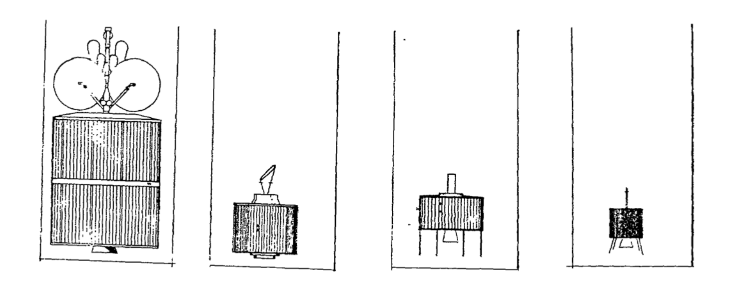


شكل (٦) : موضع القمر « ايرلي بيرد » فوق خط الاستواء وتغطيته على جانبي شمال الأطلسي ، يونيو ١٩٦٥ .

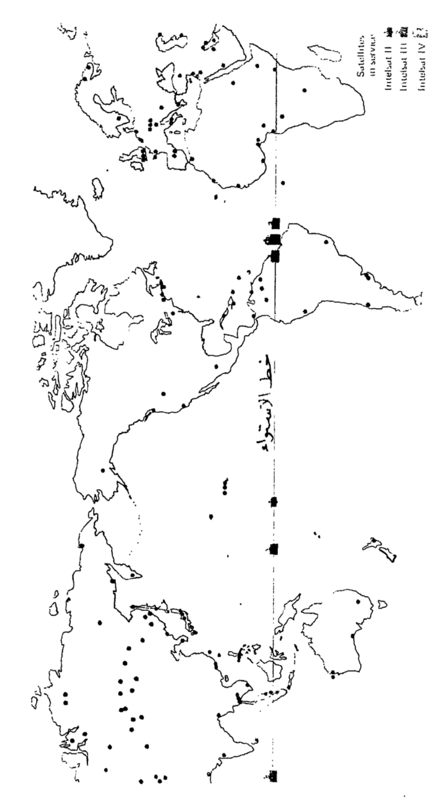




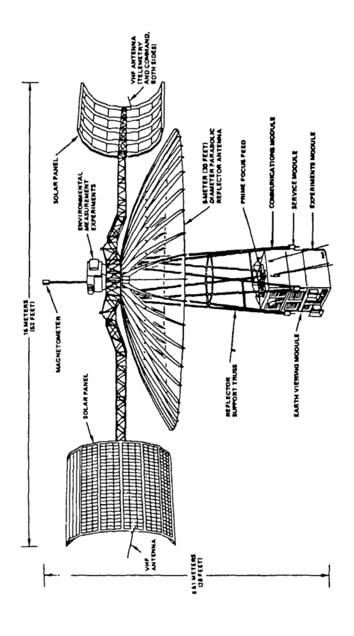
شكل (٨) . نظام عالمي كامل . سنة ١٩٦٨ .



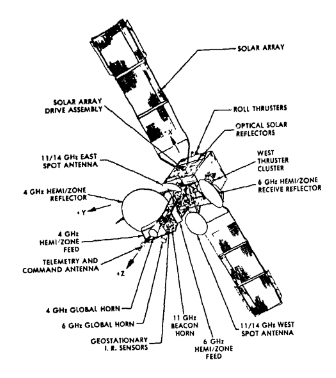
شكل (٩) . أقمار أجيال انتلسات الأربعة التي اطلقت بين سنتي ١٩٦٥ ، ١٩٧٤ العمر الايمن هو « ايرلي بيرد » أو « انتلسات » ثم « انتلسات ٢ » ، « انتلسات ٣ » و « انتلسات ٤ »



شكل (١٠) . نظم أقمار انتلسات ٢ ، ٣ ، ٤ في مواضعها فوق خط الاستواء



شكل (١١) . مكونات القمر التجريبي ATS — 6 الذي أطلقته وكالة « ناسا » للفضاء في ٣٠ مايو ١٩٧٤ من « كيب كانافيرال » في فلوريدا



شكل (١٢) . مكونات القمر « انتلسات ٥ » حسب مواصفات شركة Ford Aerospace Communication Corporation

وقد كانت أقمار « إنتلسات » معدة في الأصل للاتصالات الدولية . على أن عددا من الـدول تستخدم تلك الأقمار لاتصالاتها الداخلية ، ومنها : أوغندا ، والبرازيـل ، وبيرو ، والجـزائر ، وزائـير ، والسودان ، وشيـلي ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، ونيجيريا ، واليمن . على أن بعض الدول التي كانت تلجأ الى « إنتلسات » لتغطية اتصالاتها الداخلية قد أنشأت لنفسها نظما وطنية ، مثلما حدث لانـدونيسيا . وهنـاك خطط مماثلة لكل من أستراليا ، والصين ، والمكسيك ، والهند ، وغيرها .

جدول (٧)
بيانات أقمار أجيال « انتلسات » الخمسة)

الجيـــل	١	٢	٣	٤	٥*
سنة الاطلاق	١٩٦٥	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٧١	١٩٨
الوزن كجم	٣٨ر٥	٨٥	١٤٦	٧٠٠	٩٠٠
العمر المصمم (سنة)	١ر٥	٣	٥	٧	١٠
عدد الترانسبوندرات	٢	١	٢	١٢	حوالي ٥٠
عرض شريط الترانسبوندر (مليون هرتز)	٢٥	١٣٠	٢٢٥	٣٦	متغير
عدد الدوائر	٢٤٠	٢٤٠	١٢٠٠	٦٠٠٠	٦٠٠٠٠
تكلفة القمر (مليون دولار)	٣ر٦	٣ر٦	٤ر٥	١٠ر٥	
تكلفة الاطلاق (مليون دولار)	٤ر٦	٤ر٥	٦	١٦	
التكلفة الكلية (مليون دولار)	٨ر٢	٨ر١	١٠ر٥	٢٦ر٥	٢٨ر٥
التكلفة السنوية للدائرة (دولار)	٢٢٨٠٠	١١٣٠٠	١٨٠٠	٦٠٠	٣٠

* تقدير .

ماريســات Marisat

تقوم شركة « كومسات » الأمريكية بتشغيل النظام التجاري الذي أنشأته في سنة ١٩٧٦ باسم « النظام البحري لاتصالات الأقمار الصناعية » المعروف باسم « ماريسات » Marine Satellite Communications System (MARISAT) ويتكون هذا النظام من ثلاثة أقمار صناعية فوق المحيط الأطلسي والهادي والهندي ، وثلاثة

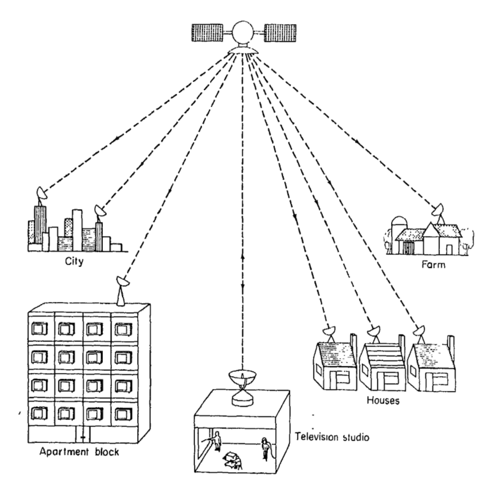
محطات أرضية في كونيكتيكات وكاليفورنيا واليابان . ويوجد حاليا نحو ٤٠٠ مركز اتصال أنشأتها « ماريسات » على ظهر السفن ونحو ١٠٠ طلب في انتظار إنشاء مراكز أخرى . وتقوم « ماريسات » بخدمات إرسال الصوت والبيانات والمستندات المصورة والطباعة عن بعد ، وبالاضافة إلى ذلك تقدم خدمات للأسطول الأمريكي .

ويوجد في قمر ماريسات ثلاثة ترانسبوندرات تعمل على الشرائط التالية :

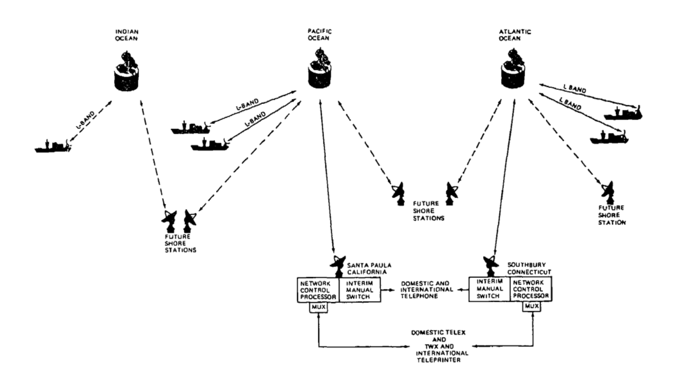
٤ ـ ٦ جيجا هرتز للاتصالات بين المحطات الأرضية والقمر

١,٥ ـ ١,٦ جيجا هرتز للاتصالات بين القمر والسفن

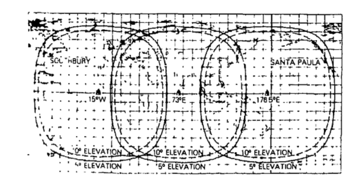
وتستعمل مراكز الاتصال بالسفن هوائيات بقطر ١,٣م



شكل (١٣) . البث المباشر من قمر صناعي . اطباق ذات قطر ٥ قدم فوق الأسطح تستقبل اشارات تلفزيونية أو اشارات ذات اتجاه واحد من قمر تقوية



شكل (١٤) . الأقمار الصناعية « ماريسات » للاتصالات البحرية



شكل (١٥) . تغطية نظام الأقمار « ماريسات »

٤ - الأليـاف البصريـة

في سنتي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ تم إنجازان كان كل منهما فتحا رئيسيا في ميدانه . وباستخدام ما يقدمه هذان الانجازان معا يتاح للانسان قنوات اتصال من نوع جديد تماما تستخدم فيها الفوتونات الضوئية محل الالكترونات في حين تستخدم « الألياف البصرية » محل أسلاك النحاس . والمهم أن القنوات الجديدة لها من السعات ما لم يكن يحلم به الانسان . فهذه الألياف الجديدة تعمل بمثابة موجهات للضوء ذي التردد الذي يقع بين مائة ألف جيجا هرتز ومليون جيجا هرتز . ويزيد ذلك عن ترددات الموجات الدقيقة عشرات الآلاف من المرات .

ففي سنة ١٩٦٠ اخترع الليزر وأتيح بذلك لأول مرة مصدر للضوء « المتلاصق » coherent light الذي له من القوة ما لم يتح للانسان من قبل ، فهو إذا فقد ٩٩٪ من هذه القوة فإن ما يتبقى منها يكفي لاكتشافه بغاية السهولة . وفي سنة ١٩٧٠ استطاعت مصانع كورننج الأمريكية للزجاج انتاج « ألياف بصرية » على درجة غير عادية من الشفافية ، إذ أنه لو دخل الضوء إحدى هذه الألياف من أحد طرفيها وسار داخلها مسافة كيلو متر فإن ما يتبقى لا يقل عن ١٪ من ذلك الضوء . والمعنى الواضح لذلك أنه لو كان ذلك الضوء من نوع الليزر لأمكن استخدامه في إرسال إشارات لمسافة لا تقل عن كيلو متر . وبوضع أجهزة الاعادة على الطريق يمكن بعث تلك الاشارات إلى ما نشاء من المسافات .

ومنذ اختراع الليزر كان كل شيء في ميدان الضوء يعاد دراسته من جديد . وقد نتج عن ذلك اكتشاف مصادر أخرى للضوء غير المتلاصق لها من القوة ما لم يكن متاحا إلا من الضوء المتلاصق . ولما كان اختراع الليزر قد جاء في وسط الثورة الالكترونية فقد أفاد ذلك في اختراع أنواع جديدة من كاشفات الضوء لها حساسية بالغة . وهكذا أصبح لدى الانسان مصادر الضوء العظيم القوة ، وقنوات الاتصال الضوئية البالغة الاتساع ، والكاشفات الضوئية الشديدة الحساسية . ولم يبق هناك عائق أمام التطبيق الاقتصادي لاستخدام قنوات الاتصال الضوئية الجديدة . وقد تعزز صحة هذا الكلام بالتجارب الكثيرة التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وانجلترا واليابان . وبالاضافة الى ذلك فإن التجارب تجري الآن في المانيا والدانمرك لاختبار النظم التي تقوم على الارسال الرقمي في قنوات الاتصال الضوئية الجديدة ، وهو شيء ينتظر أن يحدث وحده ثورة أخرى في ميادين الاتصالات .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التجارب كانت المختبرات في أمريكا وانجلترا واليابان تتنافس على إنتاج أنواع أفضل من الألياف البصرية . وهناك الآن شبكات من تلك الألياف لا يفقد من الضوء بعد سيره فيها كيلو مترا إلا ٤٠٪ من قوته ، كما أن هذه النسبة بلغت في إنتاج بعض المختبرات ما يقرب من ٢٠٪ . أي أن التقدم في خلال ١٠ سنوات نقل الشفافية من درجة فقد ٩٩٪ من الضوء في الكيلو متر إلى فقد ٢٠٪ فقط من نفس المسافة .

والألياف البصرية هي ألياف من الزجاج الشفاف سمكها حوالي سمك شعر الرأس ، ويمكن ثنيها دون أن تنكسر ، وذلك بفضل دقة قطرها . وهي متينة أيضا ، فالاجهاد اللازم لكسر ليفة قطرها ٠,٠٢٥ من المليمتر قد يصل إلى معدل ٨٠٠٠ كيلو جرام للسنتيمتر المربع . ويمكن ضم عدد من هذه الألياف في كابلات مرنة تشبه « الكابلات المتحدة المحور » التي تستخدم في الوقت الحالي . إلا أن كابلات الألياف أقل قطرا ووزنا .

وهناك الآن أربعة أنواع من الألياف البصرية تحضر بطرق مختلفة . وينتج اثنان من هذه الأنواع في الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما ينتج نوع مختلف في كل من انجلترا واليابان .

ومما يعطينا فكرة عن سعة قنوات الألياف الضوئية أن علماء « مختبرات بل للتليفونات » الأمريكية قد عرضوا في سنة ١٩٧٩ إمكان استخدامها في إرسال المعلومات بمعدل ٢٠٠ ألف مليون رقم ثنائي في الثانية ، وهو معدل لم يسبق السماع عن شيء يماثله ويزيد ٢٠٠٠ مرة عما عرضته نفس المختبرات في شيكاغو في سنة ١٩٧٨ . كما أنه قد حدثت تطبيقات ناجحة منذ سنة ١٩٧٩ تشمل استخدام ألياف بطول من ٦ إلى ٨ كيلو مترات للارسال الضوئي بدون إعادة على الطريق ، بينما أنتجت في المختبرات ألياف تقوم بالارسال لمسافة ٤٠ كيلو مترا بدون إعادة . وتقوم شركة « ايي تي تي » الأمريكية بدراسة صنع كابلات من الألياف الزجاجية لمدها تحت مياه المحيط الأطلسي في أواخر الثمانينيات لتكون الجيل الخامس من كابلات ذلك المحيط (الجيل الأول مد سنة ١٩٥٦ والرابع سنة ١٩٧٦) . وسوف يتيح ذلك الجيل إرسال الاذاعة التلفزيونية على قنوات كثيرة باستخدام الكابلات .

وليس استخدام الكابلات في توصيل الاذاعة التلفزيونية شيئا جديدا . فمنذ سنة ١٩٧٢ يوجد في أمريكا ما يسمى « تلفزيون الكابلات » . فحيث توجد منطقة بين الجبال يصعب وصول الاذاعة التلفزيونية إليها يمكن اقامة محطة أرضية فوق أحد الجبال لتلقي الاذاعة التلفزيونية من مختلف المحطات ثم إعادة ارسال ما تتلقاه (عن طريق الكابلات المتحدة المحور) إلى المشتركين . ويوجد حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية ملايين المشتركين في مثل هذه النظم . وبالاضافة الى ذلك تقوم هيئات « تلفزيون الكابل » بإرسال برامج محلية وتعليمية ، كما أنها تختار ما تشاء وتهمل ما تشاء من البرامج التي تصل اليها عبر الهواء .

وفي السنتين الماضيتين أجريت تجارب ميدانية لاختبار أداء الألياف البصرية في دول مختلفة . منها كندا حيث شملت تجربة في « ايلي » ٣٥ منزلا موجودة في حدود ٥ كيلو مترات من مقسم يتصل مباشرة بكل من هذه المنازل بواسطة ليفتين . والليفة تنقل الارسال التليفوني والتلفزيوني والبيانات . وتقدر تكاليف إنشاء خط لأحد المنازل بما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ دولار (حسب الأسعار المقدر أن تسري سنة ١٩٨٥) . ولما كانت تكاليف الدائرة التليفونية العادية الواحدة تقع بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ دولار فهذا يدل على أن المشروع ليس باهظ التكاليف إذا أدخل في الحساب أن تكاليف الخط ستوزع على خدمات عديدة .

ومن التجارب الناجحة أيضا نظام ياباني للألياف البصرية أنشىء في إحدى ضواحي مدينة أوساكا يشمل ١٥٨ منزلا . وفي هذه التجربة يقوم النظام بإمداد المنزل بخدمات مختلفة كما هو الحال في النظام الكندي . إلا أنه فريد في نوعه لأن كل العملاء خاصون ، على أن الخط في هذا النظام يقل طوله عن كيلو متر .

على أن الاستخدام الواسع للألياف البصرية سينتظر نشوء الاحتياجات الفعلية للقنوات الواسعة التي يقدمها . ومن تجربة كندا نجد أن الليفة الواحدة تكفي لأغراض كثيرة ، ولكن تكاليفها ، بمقياس متوسط الدخل ، ليست قليلة . وإذا لم تكن هناك حاجة لكل ما تقدمه الليفة من الخدمات فليس هناك ما يحث على إحلال الليفة محل الخطوط البسيطة العادية .

٥ ـ الليزر واتصـالات الفضـاء

الليزر LASER كلمة تتكون من الحروف الأولى من كلمات عبارة انجليزية معناها « تضخيم الضوء بالبث المحثوث عليه للاشعاع » Light Amplification by Stimulated Emission of Radiation وتطلق كلمة ليزر على عملية التضخيم كما تطلق على الجهاز المستخدم في ذلك . ويحتوي كل جهاز ليزر على مادة معينة هي التي تحث ذراتها على إطلاق الطاقة في شكل إشعاع بتردد معين يتوقف على طبيعة تلك المادة . وأول مادة استخدمت في عملية ليزر كانت الياقوت الصناعي . ومنذ ذلك الوقت استخدمت مواد أخرى في ذلك ، منها ما هو صلب وما هو سائل وما هو غازي . وفي عملية الليزر تقوم الذرات بإطلاق الطاقة في الوقت الصحيح لكي تقوي الموجات الناتجة بعضها بعضا . ويمكن تشبيه تلك الموجات بجنود يسيرون بإيقاع واحد وبنفس طول الخطوة وفي صفوف متتالية ، أو بعبارة أخرى ، يسيرون بخطوات متزامنة وفي مواقع متلاصقة . ومن هنا فإن ضوء الليزر يسمى « ضوءا متلاصقا » coherent light وتكون أشعة الليزر « وحيدة اللون » monochromatic أي أن لها ترددا واحدا (بالنسبة لكل مادة مستخدمة) . ولا يقتصر الليزر على الضوء المنظور . فعملية « التضخيم » ممكنة عند ترددات تقع في مدى الأشعة دون الحمراء ، وعند ترددات تقع في مدى الأشعة فوق البنفسجية .

وبالرغم من أن الليزر اخترع سنة ١٩٦٠ فإن الناس ـ فيما عدا أفراد قلائل ـ لم يعلموا عنه شيئا حتى مارس ١٩٦٢ . ففي ذلك الشهر قام علماء معهد ماساتشوستس للتقنية بتصويب حزمة ليزر خلال تلسكوب إلى قمر الأرض واستقبلوا ما انعكس من تلك الحزمة . وقد كرروا ذلك بنجاح في ثلاث ليال متعاقبة . وقد صنعت تلك التجربة عناوين الصحف في العالم كله في ذلك الوقت وعرف معظم الناس باسم الليزر لأول مرة . والأمر الذي كان مثيرا في أنباء



شكل (١٦) . خمسة من علماء الفيزياء الامريكيين والسوفيت ممن حضروا مؤتمر « الكترونيات الكم » في ولاية نيويورك سنة ١٩٥٩ . ومن هؤلاء ثلاث يعود اليهم الفضل في اختراع الليزر وهم : بازوف (الثاني من اليسار) . بروكهوروف (الرابع) . تاونز (الأخير) .
N.G.Basov (2 md), A.M.Prokhorov (4 th), C.H.Townes (5 th).

التجربة أن حزمة الليزر أضاءت بقعة على سطح القمر قطرها ميلان فقط مع أنه كان على بعد ربع مليون ميل من الأرض ، كما أن ضوء الحزمة كان من القوة بحيث أمكن استقباله بعد قطع مسافة نصف مليون ميل في ذهابه وإيابه . .

وفي سنة ١٩٦٨ اتضحت قوة الليزر بشكل أكثر جلاء . ففي أوائل تلك السنة هبطت مركبة الفضاء الأمريكية « سرفييور ٧ » Surveyor 7 على سطح القمر وعندما واجهت الجانب المظلم من سطح الأرض كشفت عدستها التلفزيونية حزمتي ليزر صادرتين من الأرض ، إحداهما من كاليفورنيا والأخرى من أريزونا . وقد كانت الصورة المرسلة تحتوي ما يشبه رأسي دبوس صغيرين وحادين جدا .

ويتضح من تجربتي ١٩٦٢ و١٩٦٨ أن التفكير في استخدام الليزر في اتصالات الفضاء بدأ مبكرا ولم ينقطع . لكن هناك مشكلة تقابل ذلك الاستخدام هي امتصاص السحب والضباب والمطر الغزير له . على أنه توجد « نوافذ » في الطيف يقل فيها الامتصاص . وتوجد إحدى هذه النوافذ عند تردد ليزر ثاني أكسيد الكربون ، أي عند ٣٠٠٠٠ جيجا هرتز ، وهو يقابل طول موجة يساوي ١٠ ميكرومتر (والميكرومتر جزء من مليون من المتر) . وعرض هذه النافذة ٤٠ جيجا هرتز . و« الأضعاف » attenuation الذي يحدث لأشعة الليزر عند هذه النافذة أقل منه عند أي تردد في الضوء المنظور أو فوق البنفسجي .

وقد كانت الفكرة الأولى في صدد استخدام الليزر في الاتصالات البعيدة أن يكون ذلك في الفضاء العميق . إلا أنه اتضح في النصف الأخير في الستينيات أن أهم الاستخدامات سيكون في الفضاء القريب من الأرض ، وخاصة في بعثات الاستشعار عن بعد . وقد حدثت محاولة لوضع نظام لاتصالات الليزر على قمر « الناسا » الصناعي ATS 6 ولكن المحاولة ألغيت بسبب قيود الميزانية . ولكي لا يتكرر إلغاء مثل تلك المحاولة أجريت دراسة لاختبار مدى صحة الشكوك التي أدت إلى إلغاء المحاولة الأولى . وقد ابتدأت تلك الدراسة سنة ١٩٧٠ واستمرت خمس سنوات . وفيما يلي بعض نتائجها .

استخدام ليزر ثاني اكسيد الكربون في اتصالات الاستشعار عن بعد :

يقوم قمر الاستشعار عن بعد بتصوير شريط swath من الأرض من ارتفاع مناسب أثناء سيره في السماء . واذا افترضنا أن التصوير لا ينقطع فإن معدل جمع القمر للبيانات يتوقف على عوامل معينة منها سرعته وعرض شريط الأرض الذي يصوره . واذا كان ذلك العرض ١٨٥ كيلومترا ، وهو شيء عملي ، فإن معدل البيانات قد يصل إلى ألف مليون رقم ثنائي في الثانية (ولو أنه يمكن انقاص هذا العدد بطرق فنية) . ولكن الاحتياجات الفعلية في الثمانينات قد تصل الى شيء بين ٣٠٠ ، ٥٠٠ مليون رقم ثنائي في الثانية . فكيف ترسل هذه البيانات من قمر الاستشعار الى الأرض ؟ هناك ثلاثة طرق يمكن اقتراحها في هذا الصدد .

في الطريقة الأولى تسجل البيانات على شرائط مغناطيسية موجودة على قمر الاستشعار على ان ترسل الى الارض حالما تظهر محطة ارضية مناسبة في مدى بصر قمر الاستشعار . ولكن التجارب علمتنا انه لا يمكن الاعتماد على هذه الطريقة ، اذ أنها تتضمن عمليات ميكانيكية مما يجعلها عرضة للعطل بالإضافة إلى عجزها عن مجاراة سرعة الجمع الالكتروني للبيانات .

وفي الطريقة الثانية تعالج البيانات على سطح قمر الاستشعار باستخدام كمبيوتر يكون موجودا عليه ولكن المشاكل الفنية التي تقابل هذه الطريقة لم تحل بعد .

وفي الطريقة الثالثة ترسل البيانات من قمر الاستشعار بمجرد الحصول عليها الى قمر اتصالات يكون في مدى بصره ، على ان يقوم الأخير بارسالها الى محطة ارضية معدة لاستقبالها ، أو الى قمر آخر يتولى ارسالها الى تلك المحطة . وتكون كل الاتصالات بين الاقمار الصناعية باستخدام ليزر ثاني اكسيد الكربون ، بينما يكون الارسال من قمر الاتصالات إلى المحطة الأرضية باستخدام الموجات الدقيقة بدون ليزر (وهو ما يسمى بطريقة « تردد الراديو ») . وفي هذه الطريقة يكون على كل من قمر الاستشعار وقمر الاتصالات ان يكتشف موضع الآخر في الفضاء ويتابعه اثناء تحركه ، وذلك لأن قمر الاستشعار سيوجه ارساله الى قمر الاتصالات ، كما ان الاخير سيوجه هوائياته الى الأول . ويمكن ادراك صعوبة الأمرين عندما نقارن حجمي القمرين الصناعيين بالفضاء السحيق الذي يسيران فيه . على ان المصاعب الفنية التي تقابل هذه الطريقة امكن حلها واستقر الرأي على اتباعها .

عربسات :

في سنة ١٩٧٦ تأسست « المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية » أو « عربسات » بهدف انشاء نظام للاتصالات عبر الاقمار الصناعية بين الدول العربية . وتضم هذه المؤسسة كل الدول العربية تقريبا ، ومقرها الرياض . وقد بدأت فكرة انشاء المؤسسة باقتراح قدم في سنة ١٩٧٤ من الكويت التي تساهم حاليا بنسبة ٨,٤٪ من رأس المال . على أن نسب المساهمة سوف تعدل فيها بعد حسب استخدام الاعضاء لتسهيلات النظام ، ويشمل ذلك البث التلفزيوني والاذاعي والاتصالات التلفونية والتلغرافية وارسال الصور والبيانات (بما في ذلك الانباء) وقد وقعت المؤسسة عقدا مع شركة فرنسية لصناعة ثلاثة اقمار صناعية خلال ٣٠ شهرا اعتبارا من مايو ١٩٨١ . وتقضي الخطة باطلاق اول الاقمار الصناعية في سنة ١٩٨٣ وثانيها بعد ٣ أشهر . اما القمر الثالث فسيبقى (على الارض) احتياطيا . وسيكون الاطلاق من جزيرة « كورو » بامريكا الجنوبية على أن يحلق القمران فوق مدينة طبرق الليبية لتوسطها بين بلدان الوطن العربي . وسيكون في قيام اقمار « أراب سات » بالخدمة تخفيف كبير عن أقمار « انتلسات » الدولية التي تعتمد عليها البلاد العربية في شئون الاتصالات الفضائية في الوقت الحاضر . على أن أقمار « اراب سات » ستكون اقليمية ولن تنقل اية برامج من خارج الوطن العربي وسوف تقدم القنوات التالية :

- قنوات تلفزيونية بين الدول العربية .
- قنوات للاتصالات بين الدول العربية
- قنوات للاتصالات الداخلية ولبث البرامج التعليمية المحلية في الدول العربية ذات المساحات الواسعة كالسعودية والجزائر وعمان وليبيا .

ومن خطط المؤسسة انشاء محطة ارضية أو أكثر في كل بلد عربي للاستقبال من الأقمار العربية بالاضافة الى محطتي مراقبة من السعودية وشمال افريقيا . وتتطلع المؤسسة الى الاستعانة بالخبرات العالمية المتخصصة من أجل تصنيع وتركيب المحطات الارضية في الدولة العربية .

المراجـــع

(1) Harvey J. Hindin, "**Telecommunication**", **Encyclopaedia Britannica** Book of the Year 1980, PP 453-454.

(2) Cleo D. Anderson, Robert F. Gleason, paul T. Hutchinson and peter K. Runge, **An Undersea communication System Using Fiberguide cables** Proceedings of the IEEE, Vol. 68, No. 10, October 1980 pp 1299-1303.

(3) peter C. Schuitz, **Fabrication of OPTICAL Wareguides by the Outside Vapor Deposition Process,** Proceedings of the IEEE Vol. 68, No. 10 october 1980 pp. 1187-1190.

(4) John B. Mac Chesney, Materials and Processes for Preform Fabrication-**Modified Chemical Vapor Deposition and Plasma Chemical Vapor Deposition** Proceedings of the IEEE, Vol 68, No. 10, October 1980 pp 1181-1183.

(5) Keith J. Beales, clive R. Day, Anthong G. Dunn and Sally Partington, **Multicomponent Glass Fibers for Optical Communications,** Proceeding of the IEEE, Vol 68, No. 10, October 1980 pp 1191-1194.

(6) Tatsuo Izawa, **Material and Processes for Fiber Preform Fabrication- Vapor-phase Axial Deposition,** Proceedings of the IEEE, Vol 68, No. 10, october 1980, pp 1184-1187.

(7) John E. Midwinter, **Poteential Broad-Band Services,** Proceedings of the IEEE Vol. 68, No. 10, october 1980 pp 1321-1327.

(8) James Martin, "PcM : A Revolution Begine" in **Telecommunications and the computer,** 2nd edition, prentice-Hall, 1976, PP 263-278.

(9) S. Ramabhadran, **Telecommunications, Principles, Circuits and Systems,** Khanna, Delhi, 1976, pp 408-419, 439-446, 728-732.

(10) Mitchel R. Sharps, "Major Satellites and Space Probes Launched Oct 1, 1977-Sep. 30, 1978 "**Encyclopaedia Britannica Book of the** Year 1979, p 623.

(11) Mitchel R. sharpe, "Major Satellites and space probes, launched oct 1, 1978-sep. 30, 1979, **"Encyclopaedia Britannica Book of the Year 1980", p 629.**

(12) Guy W. Breakley "Satellite Communications Growth and Future", **ICS Telecommunications, NO** v 1980, pp 19-24.

* * *

النظام الجديد للاعلام الدولي

خليل صابات

وافق المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو الذي انعقد في مدينة بلغراد عاصمة يوغسلافيا في خريف عام ١٩٨٠ ، على مشروع لنظام عالمي جديد للاعلام والاتصال ، وضعته لجنة مكونة من ستة عشر خبيرا اعلاميا برئاسة الاستاذ شون ماكبرايد ـ هو ايرلندي حائز جائزة نوبل وجائزة لينين للسلام وميدالية اليونسكو الفضية ـ والجدير بالذكر أن هذه اللجنة العالمية ضمت عضوين عربيين هما الدكتور جمال العطيفي (مصر) والدكتور مصطفى المصمودي (تونس) . وقد عقدت اجتماعات هذه اللجنة طوال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أسفرت عن وضع أسس نظام عالمي للاعلام والاتصال فاز بموافقة الدول الأعضاء بمنظمة اليونسكو ، بعد أن بذلت محاولات ضخمة لتضييق شقة الخلاف بين الأنظمة السياسية المختلفة حول بعض المبادىء التي أثيرت خلال اجتماعات هذه اللجنة والتي سوف نشير اليها في هذه الدراسة .

وتعود فكرة اقامة هذا النظام الاعلامي الى مؤتمر اليونسكو الذي عقد في مدينة نيروبي (كينيا) في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٦ ، فقد طرحت البلاد النامية الاعضاء في هذا المؤتمر تساؤلات تدور حول الاعلام . . . من يمتلكه ويتصرف فيه ؟ . . من أين يأتي والى أين يذهب ؟ . . هل الذين « ينتجون » الاعلام هم أنفسهم الذين « يستهلكونه » ، ان صح أن نستخدم « انتاج » و « استهلاك » عند الكلام عن الاعلام ؟ وألا تؤدى تكنولوجيا وسائل الاتصال الحديث الى أن تحتكر البلاد الصناعية المتقدمة الاعلام وتسيطر عليه سيطرة كاملة ؟ وسألت البلاد المتقدمة بدورها عما اذا كانت البلاد النامية لا تضع العراقيل أمام تداول الأخبار لأسباب ايديولوجية أو قومية فتجعل من حكوماتها الرقيب الذي يسمح بمرور خبر ويمنع مرور

خبر آخر . . ؟ ولاشك في أنه خلال السنوات المقبلة سوف تفرض هذه التساؤلات الملتهبة نفسها على المحافل الدولية ، مثلها في ذلك مثل الحوار الذي يدور بين الشمال والجنوب .

والواقع أن صعود العالم الثالث على المسرح الدولي وانفجار الثورة النفطية في خريف ١٩٧٣ قد حتما قيام نظام اقتصادي دولي جديد (١) . ولكن مطلب]البلاد النامية لايقتصر على المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، بل انه يشمل كذلك قطاعات متنوعة أخرى ، مثل التربية والتعليم والتغذية واستغلال أعماق البحار والمحيطات وادارة الاتصال الصناعية والتبادل الثقافي وسياسات الاتصال وما اليها . .

ان قضية ضرورة إقامة نظام عالمي جديد للاعلام قد طرحت بمناسبة المؤتمر الرابع لرؤساء دول وحكومات البلاد غير المنحازة الذي انعقد في مدينة الجزائر في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٣ . وفي اطار اليونسكو احتلت هذه القضية مكان الصدارة في المؤتمر الاقليمي الذي عقد في سان خوزيه (كوستاريكا)في يوليو (تموز) ١٩٧٦ ، ثم في مؤتمر اليونسكو العام الذي عقد في نيروبي خلال شهري أكتوبر ونوفمبر (تشرين الأول وتشرين الثاني) ١٩٧٦ ، كما سبقت الاشارة اليه .

وقد حاولت منظمة اليونسكو جاهدة أن تعد « مشروع اعلان يتعلق بالمبادىء الرئيسية لاستخدام وسائل الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وتعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب . وأمام استحالة التوصل الى موافقة اجماعية على هذا المشروع في نيروبي ، أجل المؤتمر مناقشته الى المؤتمر العام التالي له والذي انعقد في ١٩٧٨ ، باعتبار أن هذه المهلة سوف تسمح للدول الاعضاء بمراجعة مشروع الاعلان بروية وامعان ، وفي مناخ تكون الأعصاب فيه أهدأ .

وقد أضفى الحوار حول المشروع بعدا وضوءا جديدين عليه والواقع أن هذا الجدل لم ينقطع منذ عام ١٩٤٥ (٢) ، وقد وضع الديمقراطيات الغربية في مواجهة الاتحاد السوفييتي وحلفائه . وما المؤتمر الذي تناول الأمن والتعاون في أوروبا إلا حلقة من حلقات الحوار بين الشرق والغرب حول الاعلام . وان عقد هلسنكي النهائي الذي وقعته خمس وثلاثون دولة في أول أغسطس (آب) ١٩٧٥ قد نص على « التعاون في المجالات الانسانية وغيرها » - وعلى عدد من الاجراءات التي من شأنها تعزيز الاعلام وتطويره وتشجيع التعاون والتبادل في حقلي التعليم والثقافة .

غير أن عقد هلسنكي ، ولو أنه تضمن عناصر غاية فى الايجابية ، الا أنه لم يستطع ازالة كل العقبات القائمة بين الشرق والغرب حول مفهوم حرية الاعلام .

وقد برزت هذه الخلافات من جديد في مؤتمر بلغراد ، ثم بعد ذلك في لجنة الفضاء الخارجي التابعة للامم المتحدة ، أثناء المفاوضات التي تناولت بشكل خاص استخدام الأقمار الصناعية في بث برامج التلفزيون .

---

(١) اعلان الأمم المتحدة الصادر في أول مايو (أيسار) ١٩٧٤ .

(٢) **Vers un nouvel ordre international de l'information, La Documentation Francaise, numero 324, 25 novembre 1977, p.3.**

وهكذا نجد أن مشكلات حرية الاعلام ـ بمعناها الواسع ـ قد أصبحت ـ في وقت معا ـ في قلب العلاقات بين الشرق والغرب والعلاقات بين الشمال والجنوب . ولم يعد يكتفي بدعوة الأمم المتحدة لمناقشة هذه المشكلات ، بل أصبحت أغلب المؤسسات المتخصصة والمنبثقة من هذه المنظمة الدولية ، تعنى بها ، مثل اليونسكو والاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية والمنظمة العالمية للملكية الذهنية والاتحاد الدولي للبريد . والى جانب هذه الهيئات الدولية قام في يونية (حزيران) ١٩٧٧ ، المعهد الدولي للصحافة في مدينة أوسلو والجمعية الفرنسية للقانون الدولي في مدينة ستراسبورج الفرنسية باجراء حوار حول حرية الصحافة والتداول الحر للأخبار ، كما قام المجلس الأوروبي من جهته بتناول هذه المشكلة .

ان قضية اقامة « نظام دولي جديد للاعلام » هي قضية واسعة ومعقدة ، في آن واحد ، لأنها ان لم تطرح بصراحة النظرية الكلاسيكية للاعلام التي أعدتها الديمقراطيات الغربية وتبنتها اليونسكو منذ انشائها ، فانها طرحت ـ على الأقل ـ ممارسة هذه الحرية والاعتداءات التي وقعت عليها . . ومن المعروف أن النظام السوفيتي قطع صلته ، منذ عام ١٩١٧ ، بالمبادىء الليبرالية التي تتعلق بالصحافة والاعلام . ومنذ ذلك الحين ، وباسم منطق مذهبي مختلف ، أعلن هذا النظام أن « لاحرية صحافة ولا حرية كلام لأعداء الاشتراكية » و أكد أن « الاعلام هو الاثارة والتهييج بواسطة الوقائع »وأغلق حدوده دون الصحف والكتب والاذاعات الأجنبية [٣] . وهكذا نجد أن الاتحاد السوفيتي قد طبق مفهوما لحقوق الانسان وللحريات الاساسية يختلف جذريا مع المفاهيم الغربية . واذا تركنا جانبا البلاد المرتبطة مباشرة بالمعسكرين السوفيتي أو الصيني ، وجدنا أن الاعتراض منصب بالنسبة لعدد كبير من بلاد العالم الثالث ، على الاعلام وحريته ، لا من حيث العقيدة ، ولكن من حيث الواقع . فالأمم الفقيرة تشجب « الاعلام ذا الاتجاه الواحد »واحتكار البلاد الصناعية للوسائل الحديثة للاتصال ، مثل وكالات الأنباء ووسائل الاتصال الجماهيرية والافلام الخ . . انها تطالب بتداول للأخبار في الاتجاهين أي تسمية « التداول المتوازن » ، وتعمل على اقامة وتعزيز أنظمة اتصال مناسبة لها وملبية لحاجاتها .

ويفرض هذا الموقف نظاما داخليا للاعلام يرتبط بالدولة ولا يحتمل النقد الموجه من المعارضين المحليين ولامن الصحف والاذاعات الأجنبية . وفي مواجهة المعسكر الشرقي الملتزم بالمذهب الماركسي اللينيني من جهة ، وبلاد العالم الثالث التي لها اليوم أغلبية الأصوات في اليونسكو من جهة أخرى ، تأبى الديمقراطية الغربية أن تضحى بمبادىء حرية الاعلام ، حسب مفهومها الليبرالي القائم على مبدأ « دعه يعمل دعه يمر » .

ان حرية تداول الأخبار ، على المستوى الدولي ، تصطدم ، بحاجز سيادة الدولة ، مما يثير مجموعة من الأسئلة ، هي في النهاية أسئلة سياسية تدور حول : هل ينبغي لمبدأ الحرية أن يتغلب على مبدأ السادة ؟ ما هو سلطان الدولة في مجال الاعلام ؟ وعلى سبيل المثال ، هل يستطيع القانون الدولي أن يسمح للدولة ، بحجة حماية نظامها الداخلي ، بأن تحرم شعبها من حقه في الحصول على اعلام حر ؟ ومن جهة أخرى ، هل يمكن اعتبار دولة من الدول مسئولة أمام دول

---

(٣) Voyenne, Bernard, La presse dans la societe contemporaine, Librairie Armand Colin, Paris, 1962,p.218 et seq.

أخرى عن مواقف اتخذتها وسائل اعلام حرة تعمل في أراضيها ؟ ان ثمة عدة نصوص أو تصريحات أو اتفاقيات أو قرارات تقدس رسميا هذا الحق المبهم ، « حق الاعلام » ، ولكن السياسات الاعلامية للدول تختلف باختلاف ايديولوجياتها . ويصعب التوفيق بين هذه وتلك . ذلك أن الحكومات تستند تارة الى نظام موجه ، وتارة أخرى الى نظام ليبرالي وتستخدم في الغالب مسميات ليست لها المعنى نفسه بالنسبة للناس جميعا . ان بعض الدول الغربية ـ ومنها فرنسا ـ انضمت بطيب خاطر الى الرأي الداعي الى تعزيز تداول للأخبار أكثر توازنا . وهي من أجل ذلك تعترف بضرورة مساعدة البلاد النامية على التزود بأفضل وسائل الاعلام على الصعيدين الوطني والاقليمي .

ان العالم يشهد ، منذ بضع سنوات ، مبادرات لدول نامية تنشد التزود بأجهزة تقترب بالاعلام نحو التوازن . فالدول غير المنحازة ـ مثلا ـ توصلت ، في قمة مدينة الجزائر (سبتمبر ـ أيلول ـ ١٩٧٣) وفي قمة كولومبو (أغسطس ـ آب ـ ١٩٧٦) الى قرارات تسترعي الانتباه . وقد أنشأت دول عدم الانحياز في يوغسلافيا سنة ١٩٧٥ ، « اتحادا لوكالات الانباء » ويمكن أن نذكر أيضا وكالة الصحافة المستقلة للبلاد المتحدثة بالانجليزية في البحر الكاريبي التي بدأت تعمل منذ شهر يوليو (تموز) من عام ١٩٧٥ . وجرى التفكير في انشاء مكتبي اتصال دائمين على مستوى اتحاد وكالات الأنباء العربية واتحاد وكالات الأنباء الأفريقية [٤] . . .

ولكن هل تحقق التوازن المنشود ؟

●●●

كيف يمكن اذن معالجة عدم التوازن بين الأخبار وتحريفها وتشويهها ، ولا سيما الأخبار الدولية ؟ وما شروط الخبر المرسل في اتجاه واحد والذي يحتكره القابضون على السلطة ـ سواء كانت هذه السلطة مؤسسة على المعرفة أو على المال أو على السلطة فقط ـ لكي تصبح له ابعاد اعلام ديمقراطي حقيقي مؤسس على حوار قائم بين الجميع ومن أجل الجميع ؟ ما المبادىء التي ينبغي أن يقوم عليها نظام عالمي للاعلام والاتصال يكون في الوقت نفسه أكثر توازنا وفعالية ؟ تلك هي بعض الأسئلة التي حاول الاجابة عليها الأعضاء الستة عشر الذين تكونت منهم عام ١٩٧٧ اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال والتي قام بتشكيلها مدير عام اليونسكو برئاسة الاستاذ شون ماكبرايد كما رأينا [٥] .

ونكتفي في هذه الدراسة بتناول خلاصة التقرير الذي وضعته اللجنة الدولية والمقترحات التي توصلت اليها والملاحظات التي أبديت بشأنها .

ان الاتصال يمكن أن يكون أداة في يد السلطة أو سلاحا ثوريا أو انتاجا تجاريا أو وسيلة تربوية وتعليمية . ويمكن أن يستخدم لأغراض تحررية أو طغيانية . ويمكن أن يشارك في تكوين شخصية الفرد أو في تجنيد الكائنات البشرية تجنيدا

(٤) Vers un nouvel ordre.. op. Cit. p.4

(٥) idem ibidem

متماثلا . وعلى كل مجتمع أن يختار أفضل الطرق لتحقيق المهمة المناطة بالبشرية جمعاء وأن يجد وسائل تذليل الضغوط المادية والاجتماعية والسياسية التي تعطل التقدم(٦) .

ان دراسة الاتصال في جميع أنحاء العالم تظهر تنوع الحلول التي اتخذتها الدول المختلفة ، حسب التقاليد والأنماط المتنوعة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وحسب احتياجات كل بلد وامكاناته . ان هذا التنوع لبالغ الأهمية وينبغي المحافظة عليه . فيجب عدم التفكير في تعميم نماذج موضوعة مسبقا على الصعيد العالمي . ومع ذلك ، فانه ينبغي أن يكون من الممكن تحديد قيم وأهداف مشتركة في مجال الاتصال ، تقوم على مصالح مشتركة في عالم مترابط . ان الجنس البشري في مجموعه مهدد بسباق التسلح باستمرار عدم المساواة بين الشعوب . وكلاهما يؤدي الى التوتر الذي يعرض مستقبله للخطر ، لا بل وجوده ذاته . **وان التطلع الى نظام اجتماعي أفضل وأعدل وأكثر ديمقراطية ، قائم على احترام الحقوق الأساسية للانسان أصبح اليوم مطلب العالم كله . ولا يمكن تحقيقه الا بالتفاهم والتسامح اللذين يقومان على حد كبير باتصال حر ومفتوح ومتوازن .**

ومن أجل ذلك لا بد من عدم الاستقلال والتنمية الذاتيين . فلكل فرد ولكـل شعب الحق في التطلع الى حيـاة أفضل . وأيا كانت الطريقة التي يتصور بها هذا التقدم ، فينبغي أن تكفل حدا اجتماعيا أدنى على المستويين الوطني والعالمي . ويفترض هذا الهدف تقوية القدرات وازالة اللامساواة التي من شأنها أن تهدد الوفاق الاجتماعي ، لا بل السلام العالمي . ولما كانت البلاد تبدأ طريقها الى النمو من مستوى الكفاف والتبعية . فينبغي أن تتطلع الى الاعتماد على الذات والى المزيد من المساواة . ولما كان الاتصال مرتبطا بكل أوجه الحياة ، فانه من الأهمية بمكان تضييق الشقة القائمة في هذا المجال توطئة لسدها بالتدريج .

وقد أوصت اللجنة الدولية بعدم اعتبار الاتصال مرفقا طارئا يترك أمر تطوره الى المصادفة ، كما أوصت بتطوير الامكانات النوعية لكل شكل من أشكال الاتصال ، ابتداء من الأشكال التقليدية وحتى الأشكال المتقدمة ، وبتوعية الشعوب بحقوقها وتعزيز تطوير الأفراد ومجتمعاتهم داخل اطار التنمية في عالم مترابط .

وقد رأت هذه اللجنة أن اللغة التي تجسد الخبرة الثقافية لشعب من الشعوب يجب أن تتطور بحيث تلبي المتطلبات المعقدة والمتعددة للاتصال الحديث ، وهي لذلك توصي الشعـوب الناميـة والمجتمعات متعـددة اللغات بـأن تضع سياسات لغوية تسهل تقدم كل اللغات الوطنية حتى لو اضطر الأمر الى اختيار لغة أو أكثر تستخدم في الاتصال والتعليم العالي والادارة بصورة أوسع .

ان الهدف السياسي الاساسي لأي شعب هو قيامه بنشر التعليم الأولي فيه ومكافحة الأمية بواسطة طرق تدريب عملية تضاف الى نظام التعليم التقليدي ، وذلك في اطار تعليم مستمر ومناسب يتم من خلال الراديو والتلفزيون أو المراسلة .

---

(٦) **Voix multiples un seul monde, Communi cation et Societe aujourd'hui et demain, Documentation francaise, Nouvel- les Editions Africaines- Unesco, France 1980, p. 315**

وينبغي لكل بلد ـ في اطار السياسات الوطنية التنموية ـ أن يرتب أولوياته آخذا في الاعتبار أنه ليس بالامكان الوصول الى كل الأهداف في آن واحد . ومع ذلك فان على سياسات الاتصال أن تعمل على تطوير كل وسائل الاعلام كما وكيفا .

وعلى البلاد النامية أن تقيم أو تطور العناصر الأساسية لنظمها الاتصالية ، مثل الصحافة المكتوبة والاذاعة والاتصالات السلكية واللاسلكية ، وأن توفر وسائل التدريب والانتاج المرتبطة بهذه النظم .

ولابد من انشاء وكالات وطنية قوية للانباء ، وذلك لتحسين الطريقة التي تغطي بها أخبار كل بلد بواسطة الصحافة الوطنية أو الدولية . كما يجب اقامة شبكات اقليمية دائمة من أجل زيادة انسياب الأخبار وخدمة كل الجماعات اللغوية المهمة في المنطقة . وعلى المستوى الوطني . ينبغي أن تشجع هذه الوكالات انتشار الصحف في الريف والمدن تحسينا لنظام جمع الأخبار وتوزيعها في الدولة .

كذلك يجب تشجيع الانتاج الوطني للكتب وذلك بانشاء شبكات لتوزيع الكتب والصحف والمجلات وحث المؤلفين الوطنيين على الابداع الأدبي بمختلف اللغات .

وينبغي أن تعطي الأولوية لاقامة شبكات وطنية للراديو يصل ارسالها الى الأقاليم المنعزلة . ويستحق التلفزيون ـ بدوره ـ التشجيع ما أن تسمح الظروف بذلك . كما ينبغي توجيه عناية خاصة للاقاليم التي تنتشر الأمية فيها . وعلى البلاد النامية أن تكون قادرة على أن تنتج محليا برامج للراديو تجنبا للتبعية للخارج ولعدم تجاوز المستوى المطلوب فيما يتعلق بتبادل البرامج . فينبغي اذا انشاء مراكز وطنية أو اقليمية لانتاج برامج وأفلام روائية وتسجيلية . كما ينبغي انشاء شبكة للتوزيع .

ومن الضروري توفير التسهيلات اللازمة لتعليم وتأهيل العاملين في وسائل الاتصال ومؤسسات الانتاج ، وكذلك من أجل تكوين الاداريين والتقنيين والقائمين على صيانة الأجهزة . ويجب تشجيع التعاون بين البلاد المتجاورة أو الواقعة في المنطقة نفسها .

ورأي اللجنة الدولية ضرورة تمويل أجهزة الاتصال تمويلا مناسبا في كل مشروع من مشروعات التنمية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من كل واحد من هذه المشروعات . وأن أوجه النشاط المعروفة بـ « الاتصال من أجل دعم التنمية » لهي أساسية لتعبئة المبادرات وتقديم الاعلام الضروري للعمل في كل مجالات التنمية مثل الزراعة والصحة وتنظيم الأسرة والتعليم والدين والصناعة الخ . .

ورأت اللجنة الدولية ضرورة توسيع خدمات البريد وشبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية بفضل أنظمة للتبادل الالكتروني ذات أحجام صغيرة تخدم البيئة الريفية في الدول النامية . وان استخدام الراديو المحلي والتلفزيون وأنظمة الفيديو ذات الأحجام الصغيرة والتكاليف القليلة وكذلك اللجوء لتكنولوجيات أخرى مناسبة ، من شأنها أن تسهل انتاج البرامج التي تدعم جهود التنمية داخل مجتمع القرية وتنشط المشاركة وتتيح تعبيرا ثقافيا متنوعا .

وان استخدام الاتصال لأغراض التعليم والاعلام ينبغي أن يكون على قدم المساواة لاستخدامه لأغراض الترفيه . وفي الوقت نفسه فان الأنظمة التربوية يجب أن تؤهل الصغار للاستفادة من الاتصال . وان تدريب تلاميذ التعليم

الابتدائي والثانوي على استخدام وسائل الاعلام مثل قراءة بعض الأبواب في الصحف والمجلات واختيار برامج الراديو والتلفزيون وتعلم استخدام التقنيات الأولية للوسائل السمعية والبصرية ، من شأنها أن تتيح لهم معرفة أوسع واحاطة أكبر بمشكلات الساعة .

وتردف اللجنة قائلة بأنه لا يكفي التأكيد على وجوب أن يكون للاتصال الأولية فى التنمية الوطنية ، بل يجب البحث عن مصادر للتمويل والاستثمار كفرض رسوم أكبر على الجماعات المتمتعة بالامتيازات ، وبخاصة تلك التي تعيش في البيئات الحضرية كما يمكن التفكير في فرض ضريبة على الاعلانات التجارية للصرف من حصيلتها على وسائل الاعلام .

ولكن ثمة صعوبات كبيرة تقف حائلا بين تحقيق أي تقدم حقيقي في مجال الاتصال في البلاد النامية مثل قلة الورق وارتفاع أسعاره وتكاليف ارسال الأخبار سلكيا أو لاسلكيا ونقل الصحف والمجلات والكتب والوسائل السمعية والبصرية . كل تلك العقبات تحول دون اقامة تيار اعلامي حر ومتوازن . ولا بد أن تقوم الدول الغنية بازالة هذه العقبات ، أو على الأقل بالحد منها ، ان كانت جادة فعلا في تقريب المسافات بينها وبين بلاد العالم الثالث .

ولا بد لاستراتيجيات التنمية من أن تعتمد على سياسات اتصال تتماشى مع الاحتياجات والأولويات المتفق عليها . وفي هذا المضمون ينبغي أن يعتبر الاتصال عنصرا أساسيا للتنمية وعاملا يسمح بمشاركة سياسية حقيقية عند اتخاذ القرارات ، ويوفر قاعدة للاعلام المركزي تقوم بتحديد الاختيارات الكبرى وتساعد على الوعي بالأولويات الوطنية . وفي هذا السبيل ، لابد من أن تكون لغة الاتصال سهلة ومفهومة من الجماهير حتى تنبع قراراتها عن قناعة حقيقية لاعن حماس منشؤ العاطفة لا العقل .

ان الانفجار التقني في مجال الاتصال يتيح امكانات واسعة ، ولكنه ينطوي على أخطار جسيمة . والأمر كله متعلق فى النهاية بالقرارات التي سوف تتخذ وبالجانب الذي سوف تتخذ منه وبالذين سوف يتخذونها . لذا ترى اللجنة وجوب اعطاء الأولوية لعملية اتخاذ القرار على أساس المشاركة والوعي الكامل بالأثر الاجتماعي للاختيارات المختلفة .

وان ابراز الظروف التي تتوقف عليها المحافظة على الهوية الثقافية لكل مجتمع ، يتيح اقامة علاقات متبادلة ومنسجمة وخلاقة مع ثقافات أخرى . وانه من الضروري أيضا تعديل وضع التبعية الثقافية التي تعاني منها عدة بلاد حققت تنميتها أو أنها في سبيلها الى ذلك .

وان عزمت دولة على تقوية نظم الاتصال فيها . وجب عليها أن تختار الأشكال غير التجارية للاتصال الجماهيري . وينبغي أن يرتبط تطوير هذه الأنماط من الاتصال بالتقاليد والثقافة وبأهداف التنمية والنظام الاجتماعي والسياسي لكل بلد . ويمكن رصد أموال عامة لهذا الغرض ، كما هي الحال بالنسبة للتعليم .

وان تيار الاعلام التقني داخل البلاد وعبر الحدود الوطنية يعتبر مصدرا من المصادر الأساسية للتنمية . وان الوصول الى هذا الإعلام الذي تحتاج اليه البلاد لاتخاذ القرارات على كل المستويات لا يقل أهمية عن الوصول الى مصادر الأخبار . وغالبا ما يتركز هذا النمط من الاعلام في البنيات التقنية الكبيرة . وتلاحظ اللجنة أن البلاد المتقدمة لاتقدم الى البلاد النامية ما يكفيها من هذا النمط من الاعلام الذي لا تحصل عليه في العادة بسهولة .

واذا انتقلنا الى الصحفيين وأوضاعهم ، نجد أن لجنة ماكبرايد الدولية تخصص لهم جزءا كبيرا من مشروعها ، فهي ترى أن الحرية والمسؤولية متلازمتان بالنسبة لهم . فالحرية بدون مسؤولية تؤدي الى شتى أنواع التعسف ولكن بدون حرية لايمكن أن تكون هناك مسئولية . وان مفهوم الحرية المتناسقة مع المسئولية يؤدي بالضرورة الى الاهتمام بآداب المهنة التي تفترض بدورها تناولا متوازنا للأحداث أو المواقف أو التحولات .

وتقرر الجنة الدولية أن تقديم خبر يتناول بلدا أجنبيا تقديما كاملا وواقعيا هو مشكلة المشاكل ! وترى أن لذلك أسبابا عدة ، أهمها الظروف التي يعمل المراسلون فيها وأهليتهم واستعدادهم ومفهومهم المختلف لمعايير اختيار الخبر فضلا عن مواقف الحكومات الخ . . وعليه فقد أوصت بأن تعمل الدول الأعضاء على قبول المراسلين الأجانب في أراضيها وتسهيل جمعهم للأخبار وتوزيعها ، وبأن تحترم الالتزافات التي قبلها الموقعون على عقد هلسنكي [٧] النهائي . أما وصول الصحفيين بحرية الى مصادر الأخبار ، فهو ضروري لكتابة تقارير صحفية صحيحة وأمينة ومتوازنة . وتشمل حرية الوصول الى مصادر الأخبار حرية الوصول الى المصادر غير الرسمية أيضا ، أي الوصول الى كل الآراء .

وقد علق الخبير السوفييتي سيرجي لوسيف على هذه التوصية قائلا : « ان هذه الفقرة لاتتفق مع عقد هلسنكي النهائي وتناقض مصالح البلاد النامية . وهي في النهاية غيرمقبولة ، واني أعترض على أن يتضمنها هذا التقرير . وأقترح أن يستبدل النص التالي : « على جميع الدول أن تتخذ اجراءات مناسبة لتحسين الظروف التي تسمح للمراسلين الأجانب باتمام رسالتهم المهنية في البلد المضيف طبقا لأحكام عقد هلسنكي النهائي ومع احترامهم للاستقلال الوطني للبلد المضيف وهويته » بهذه التوصية .

وبعد هذا التعليق أو الاعتراض الذي أثبت في التقرير على أنه تحفظ ، استأنف الخبراء الدوليون توصياتهم بطلب دراسة الضوابط المتبعة لاختيار الأخبار والتقارير الصحفية ، وذلك من أجل أن يكون القراء والمستمعون في العالم كله قادرين على تلقي تقرير أصدق وأكمل للاحداث التي تجري في البلاد المتقدمة والبلاد النامية . وان تفسير الصحفيين للمواقف غير المألوفة بلغة مفهومه يجب الا يحجب عنهم مخاطر التعصب لشعوبهم وأوطانهم . **ويكفي اختيار بعض الأخبارعلى حساب أخبار أخرى لكي تنطبع في مخيلة الجمهور صورة للعالم قد تكون ناقصة أو مشوهة** . ومن الضروري ايجاد ضوابط مهنية تتيح للصحفيين تسليط الأضواء على مختلف ثقافات العالم الحديث ومعتقداته دون أن يتهموا بالانحياز أو التعصب . فيتوجب على الصحفيين الذين يعينون خارج بلادهم أن يتلقوا تعليما يتناول لغة البلد أو المنطقة التي سوف يغطون أخبارها وتاريخها ومؤسساتها واقتصادياتها وبيئتها .

وقد أوصت اللجنة صحافة العالم الصناعي واذاعته بأن تخصصا مساحة أكبر ووقتا أطول للتقارير الصحفية عن الأحداث ولتنشر الأخبار الأساسية التي تتناول البلاد الأجنبية بعامة وبلاد العالم النامي بخاصة . ان وسائل الاتصال في الدول المتقدمة يجب أن تزداد تعودا على ثقافات الشعوب النامية وأحوالها . وهي مدعوة الى المساهمة في تصحيح عدم التوازن الاعلامي بينها وبين العالم النامي .

---

(٧) عقد هذا المؤتمر في هلسنكي وتناول عقده النهائي الذي تم التوقيع عليه في أول أغسطس (آب) ١٩٧٥ التعاون في المجالات الانسانية وغيرها وتحسين إذاعة الأخبار والوصول إلى مصادرها وتبادلها . كما تناول تحسين ظروف عمل الصحفيين .

ومن أجل علاج الآثار السلبية للتقارير الصحفية غير الدقيقة أو الضارة ، ينبغي أن يكون حق التصويب والرد موضعا لدراسة أعمق . وقد تكون الأخبار الكاذبة أو المحرفة ضارة [٨] ، ولكن نشر التصويبات أو الردود عن رضي أفضل من وضع قواعد دولية يصعب تنفيذها . وقد أوصت اللجنة بأن تؤخذ في الاعتبار ممارسة الحق الدولي للرد والتصويب لكي يطبق عن رضي في كل بلد تبعا للممارسات الصحفية المعمول بها والبنيات القانونية الوطنية . كما طلبت اللجنة بأن تقوم الأمم المتحدة ، بالتشاور مع الهيئات ذات العلاقة ، بدراسة الشروط التي بمقتضاها يمكن تعميم هذا الحق على المستوى الدولي ، مع الأخذ في الاعتبار صعوبات تطبيق اتفاقية ١٩٥٢ حول حق التصويب الدولي . ولاحظت اللجنة مع الأسف أن استخبارات عدة بلاد قد جندت في وقت ما بعض الصحفيين لكي يقوموا بنشاط تجسسي مختبئين وراء عملهم الصحفي . وهي تشجب هذه الممارسة ، لأنها تضر بسمعة المهنة وتضع الصحفيين موضع الريبة وتعرضهم للمخاطر الجسدية . وتطلب اللجنة من الصحفيين والمؤسسات الصحفية أن يقاوموا كل محاولة من هذا القبيل . كما تلح على الحكومات بأن تمتنع عن استخدام الصحفيين في أعمال التجسس .

وفي كل يوم تصل من أنحاء العالم أخبار عن الاعتداءات التي تقع على الصحفيين أثناء ممارستهم لمهنتهم . وعلى العالم بأسره أن يحول دون وقوع هذه الاعتداءات على حقوق الانسان . واهتمت الأوساط المهنية بحماية الصحفيين قبل لجنة ماكبرايد . ففي الحروب التي وقعت في الخمسينيات والتي قتل خلالها بعض المراسلين بدأ الكلام عن حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام خطيرة . وكانت هذه المهام الخطيرة ، في ذلك الحين ، في كوريا وفيتنام وفي بعض أنحاء أفريقيا وأمريكا اللاتينية .

واهتمت المنظمات المهنية بهذه المشكلة بالتعاون مع اللجنة الدولية لرجال القانون في نهاية الستينيات . وقد طلب رئيس جمعية الصحافة الأجنبية بسويسره في سنة ١٩٦٧ الى سكرتير عام اللجنة الدولية لرجال القانون ، شون ماكبرايد ، دراسة هذه المسألة واعداد مشروع أول لاتفاقية تكفل حماية الصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالخطر . وقدم المشروع الأول في بداية سنة ١٩٦٨ الى حلقة دراسية عقدت في جنيف وأجرت عليه عدة تعديلات ومن جهة ثانية اتصل منظمو هذه الحلقة بادارة جمعية الصليب الأحمر الدولية دعما لتنفيذ هذا المشروع . وقد عرض بعد ذلك على منظمات مهنية تولت مناقشته .

وخلال عام ١٩٧٠ قتل عدد كبير من الصحفيين . فقد اختفى سبعة عشر مراسلا أجنبيا في كمبوتشيا وحدها في ذلك العام ، مما أدى الى مضاعفة يقظة المنظمات المهنية والى ايجاد اجراءات لحماية الصحفيين . وقد اجتمع الاتحاد الدولي لناشري الصحف والمعهد الدولي للصحافة والاتحاد الدولي للصحفيين والمنظمة الدولية للصحفيين عدة مرات بهدف اعداد مشروع لحماية الصحفيين الذين يرسلون في مهام محفوفة بالمخاطر . وقد عرض هذا المشروع على الأمم المتحدة لاعداد وثيقة تتبناها الحكومات . وفي ديسمبر ١٩٧٠ وافقت الجمعية العامة لهذه المنظمة الدولية على مشروع قرار حول حماية الصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالمخاطر ، في المناطق التي تجري على أراضيها نزاعات مسلحة ، ودعت لجنة

---

(٨) Rigassi, Georges, Ce qu'il faut savoir de la presse moderne, Editions Vie, Lausanne 1955, p. 117.

حقوق الانسان الى دراسة امكانية اعداد مشروع اتفاق دولي يكفل حماية الصحفيين وطلبت الى السكرتير العام للأمم المتحدة أن يقدم تقريرا عن هذا الموضوع الى الجمعية العامة في دورتها التالية .

واجتمعت المنظمات المهنية للصحفيين التي طرحت المشروع لدراسته للمرة الثانية وأعدت مخططا لمشروع اتفاقية دولية لانشاء لجنة لحماية الصحفي ورفعته الى لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة . وقد وافقت هذه اللجنة عليه في مارس (آذار) ١٩٧١ . وطلبت الى المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة أن يقدمه الى الدورة المقبلة للجمعية العامة للأمم المتحدة .

وفي ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٢ وافق الاتحاد الدولي للصحفيين الذي انعقد مؤتمره في استانبول على قرار أبدي فيه ارتياحه للجهود التي تبذل في الأمم المتحدة من أجل الموافقة على اتفاق حول حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام محفوفة بالمخاطر . وقد طالب المؤتمر الدول الأعضاء بعدم تسليم الصحفيين بطاقات حمايتهم وبأن يترك هذا الأمر للجنة مهنية تتكون من أعضاء منتخبين أو معينين من قبل الأمم المتحدة بالتشاور مع المنظمات الصحفية [٩] .

وفي ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٢ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تدرج هذا الموضوع في جدول أعمال دورتها الثامنة والعشرين . وقد تقدمت الدول الأعضاء خلال دراسة مشروع الاتفاقية بعدة مشروعات تعديل . وفي قرار اتخذ في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٣ عبرت الجمعية العمومية عن أمنيتها في اقرار اتفاقية تكفل حماية الصحفيين الذين يكلفون بمهام محفوفة بالمخاطر ، في المناطق التي تقوم فيها منازعات مسلحة . وطلبت الى السكرتير العام أن يبلغ « المؤتمر الدبلوماسي حول تأكيد وتطوير القانون الدولي الانساني المطبق في المنازعات المسلحة » بمشروع الاتفاقية والتعديلات المقترحة والملاحظات التي أبديت خلال الدورة الثامنة والعشرين .

وبعد أن قام المؤتمر الدبلوماسي بدراسة الموضوع دراسة متأنية ، تولى اعداد مشروع مادة حول حماية الصحفيين تلحق بمشروع البرتوكول الاضافي رقم١ لاتفاقيات جنيف التي أبرمت سنة١٩٤٩ ، كما قام بوضع نموذج لبطاقة شخصية مخصصة للصحفيين المكلفين بمهام محفوفة بالمخاطر . وقد قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، خلال دورتها الثلاثين المنعقدة سنة ١٩٧٥ بادراج هذا الموضوع من جديد في جدول أعمالها وأكتفت بأخذها علما بتطور المشروع دون أن تتمكن من الوصول الى قرار نهائي فيه .

واهتمت اليونسكو بهذا الموضوع ابتداء من الدورة التاسعة عشرة لمؤتمرها العام المنعقد في نيروبي في اكتوبر ١٩٧٦ . وخلال مؤتمراته الصحفية التي عقدت في نيروبي وباريس سنة ١٩٧٦ أكد مدير عام اليونسكو أهمية هذا الموضوع واقترح دراسة الاجراءات الواجب اتخاذها لحماية الصحفيين .

وفي شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٧ دعت اليونسكو الى اجتماع لتبادل وجهات النظر حول هذا الموضوع خلال حلقة دراسية أقيمت في فلورنسا حول التبادل الحر والمتوازن للأخبار بين الدول المتقدمة والدول النامية . ولكن مبدأ حماية

---

(٩) Le Monde, 1 — 2 Octobre 1973

الصحفيين أخذ مكانه لأول مرة في برنامج ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ الذي وافق عليه المؤتمر العام لهذه المنظمة الدولية في دورته العشرين بمقتضى فقرة عنوانها : « تحسين القواعد المهنية وظروف الصحفيين وحمايتهم » تنص على اجراء دراسات « تكفل للصحفيين الحماية الضرورية لممارسة مهنتهم تحت أفضل ظروف موضوعية » ، وكذلك بمقتضى فقرة عنوانها : « تقديم الأخبار الدولية تقديما مسئولا وكاملا » تنص على طلب تنظيم اجتماع لدراسة الوسائل التي بواسطتها يمكن تأمين حماية الصحفيين والمخبرين لكي يمارسوا مهنتهم بكل موضوعية » . هذا الى جانب أن الاعلان الخاص بالمبادىء الأساسية المتعلقة باسهام أجهزة الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وتعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب ـ يتضمن فقرتين عن حماية الصحفيين . وقد تمت الموافقة على هذا الاعلان في الدورة العشرين للمؤتمر العام . فالمادة ٢ (الفقرة٤)تنص على أنه « من الضروري أن يتمتع الصحفيون وغيرهم من ممثلي أجهزة الاعلام ،في بلادهم أوخارجها ، بحماية تضمن لهم أفضل الظروف لممارسة مهنتهم ، وتنص المادة ٩ على ما يلي : « يكون من حق المجتمع الدولي ، بمقتضى هذا الاعلان ، أن يسهم في وضع شروط حماية الصحفيين ووكالات الأنباء أثناء ممارستهم لأعمالهم .

ومن ناحية أخرى عقدت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال التي تم تشكيلها عقب المؤتمر العام في نيروبي ، اجتماعين لاجراء مشاورات حول حماية الصحفيين ، الأول في فبراير (شباط) ١٩٧٩ والثاني في مايو (أيار) ١٩٧٩ شاركت فيهما عدة منظمات مهنية تعني بالاتصال . وقد خصص قسمان من التقرير النهائي لحماية الصحفيين .

والمراحل الأخيرة لتطور هذا الموضوع تمت في اجتماع لتبادل الآراء نظمته اليونسكو في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠ ، وفي اجتماع المنظمات الدولية والاقليمية للصحفيين الذي عقد في مكسيكو في أبريل (نيسان) ١٩٨٠ حيث تحقق تقدم على جانب من الأهمية .

●●●

ولكن ما الذي حدث منذ اعداد المشروع الابتدائي في سنة ١٩٦٧ وحتى اليوم ؟لقد حدثت أمور كثيرة ومهمة . ففي البداية اقتصر الأمر على مشروع محدود للغاية يهدف الى حماية الصحفيين أثناء قيامهم بأعمال محفوفة بالمخاطر . أما اليوم فقد تجاوزنا هذه المرحلة وأصبحنا نتحدث عن حماية الصحفيين خارج أوطانهم وداخلها .لأن المخاطر التي يتعرض لها الصحفيون ليست فقط في تغطية المنازعات المسلحة في الخارج ، ولكنها تكون في أحيان كثيرة في بلادهم ذاتها ! فمنذ أن استشرت أعمال الارهاب والعنف في العالم أصبح الصحفي يتعرض للمخاطر نفسها أينما كان وأينما ذهب . فهو معرض للتهديد والتوقيف والأضطهاد والتعذيب وسوء المعاملة والضرب والحبس ، لابل القتل . وهكذا أصبح العالم بأجمعه منطقة نزاع وبالتالي منطقة خطر مترامية الأطراف . ان الصحفي لم يعد يتمتع بالطمأنينة والأمان في أي مكان يذهب اليه . وفي كثير من الأحيان يكون محروما من أي ضمان . ان قراءه ومستمعيه ومشاهديه يطلبون اليه أن يكتب وأن يقول الحقيقة ويظهرها ، دون أن يخفي شيئا منها أو يهمله . ولكن بأي ثمن ؟ وكيف نتخذ الاجراءات التي توفر له بعض الحماية ؟

ويجيب حفظي توبوز (١٠) على ذلك بقوله : ان كانت الحكومة هي التي ينبغي أن تتخذ هذه الاجراءات فقد يساء تفسير ذلك من قبل الصحافة التي تعتبره تدخلا في شئون الصحفي . واذا كانت المهنة نفسها هي التي ينبغي أن تقوم بذلك ، فانه يخشى أن تأتي اجراءاتها ناقصة الفاعلية بالنسبة للعديد من البلاد ، فالأمر يتعلق باخلاقيات المهنة ، ولا بد اذا من معالجته في اطار حقوق الصحفيين ومسئولياتهم ، على الرغم من أنها تسبب ، في كل مكان ، مشكلات سياسية معقدة .

ومن جهة ثانية ، فانه من العسير اقامة حوار بين الصحفي الذي يصبح المشتكي ، وبين الأشخاص الذين يضعون العقبات في طريق المهنة والذين يصبحون متهمين . فالموضوع شائك للغاية وعلاجه عسير جدا في بعض البلاد . وهو يؤدي - من الناحية القانونية - الى تعقيدات كثيرة . فهل من حق الحكومات أن تتخذ أي اجراءات لتضييق نشاط الصحفيين ؟ والى أي حد يمكن أن تذهب هذه القيود ؟ ومن يكن الحكم في هذه الحالة ؟

ان موضوع حماية الصحفيين يجب أن يأخذ مكانه في اطار نظام عالمي جديد للاعلام والاتصال يعطي ضمانا للصحفي أثناء ممارسته لمهنته . ولكن كيف نكفل هذا الضمان وهذه الحماية ؟ ان الاجتماعات التي يعقدها رجال المهنة تميل الى دراسة هذا الموضوع بعيدا عن تدخل الحكومات . وتطلب الى اليونسكو أن يلعب دور المنسق بين المنظمات المهنية . ويكتفي لفترة اختبارية بمراقبة الحالة وجذب انتباه الأوساط المهنية والحكومية . ويمكن فيما بعد دراسة انشاء جهاز دولي مناسب ، اذا دعت الحاجة اليه .

●●●

واذا عدنا الى اللجنة الدولية ، وجدنا أنها لم تفعل الا ما من شأنه جمع الآراء المتباينة حول حل وسط يرضى عنه الجميع ، وقد اهتمت اللجنة بصورة خاصة بحقوق الانسان وأوصت كل الذين يعملون في خدمة أجهزة الاعلام بأن يسهموا في الدعوة الى احترام هذه الحقوق وبألا يقصروا هذا الاسهام على الدفاع عن هذه المبادىء . ان عليهم أن يكشفوا الانتهاكات أينما تحدث وأن يساندوا الذين انتهكت حقوقهم أو أنكرت عليهم . وطلبت اللجنة من الجمعيات المهنية والرأي العام مساندة الصحفيين الذين يعانون من ضغوط أو الذين يقعون ضحايا اخلاصهم لقضية حقوق الانسان . وناشدت اللجنة الدولية أجهزة الاعلام أن تسهم في مساندة القضايا العادلة للشعوب التي تناضل من أجل التحرر والاستقلال ، ومن أجل حقها في أن تعيش في سلام ومساواة دون أي تدخل تعسفي .

ان حاجات المجتمع الديمقراطي في مجال الاتصال يجب اشباعها بانشاء حقوق نوعية تمثل حق الانسان في أن يعلم (بفتح الياء واللام) وحقه في أن يعلم (بضم الياء وكسر اللام) وحقه في أن تحترم حياته الخاصة وفي المشاركة في الاعلام العام ، أي في الاعلام الذي تشرف عليه الدولة . ان هذه الحقوق تدخل كلها في اطار هذا المفهوم الجديد الا وهو الحق في الاتصال .

---

(١٠) Topuz, Hifzi, Nouvel ordre de la communication 4, La protection des journalistes, Unesco, Paris, p.6

وترتيبا على ذلك أوصت اللجنة الدولية بلاد العالم جميعا بأن تعمل على توسيع الاخبار الضرورية للمواطنين في حياتهم اليومية ، وبأن تدقق في فحص القوانين واللوائح القائمة من أجل التخفيف من القيود المفروضة على الممارسات الاعلامية والحد من النصوص السرية التي لا يعلم الصحفيون عنها شيئا . كما أوصت بالغاء الرقابة والاشراف التعسفي على الاعلام . وعلق المندوب السوفييتي على هذه التوصية بقوله « ان مشكلة الرقابة والأشراف التعسفي على الاعلام تخضع للتشريع الوطني لكل بلد وينبغي أن تحل في هذا الاطار ، مع الأخذ في الاعتبار مصالح كل دولة » .

وبعد أن سجلت اللجنة هذا التعليق قالت انه اذا كان هناك ما يبرر فرض قيود معقولة فإنه لابد من النص على هذه القيود بقانون وأن يكون تطبيقه خاضعا لرقابة القضاء . وأن يلتزم بالمباديء التي يتضمنها ميثاق الأمم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .

وأكدت اللجنة على ضرورة دراسة العوائق والقيود الناجمة عن تركيز ملكية أجهزة الاعلام سواء كانت عامة أم خاصة ، أو تلك الناتجة عن تأثير العامل التجاري على الصحافة وعلى الراديو والتلفزيون ، أو عن الاعلام الخاص أو الحكومي . كما أن الظروف المالية التي تفرض نفسها على أجهزة الاعلام والاجراءات التي تهدف الى دعم استقلال التحرير ، ينبغي أن تكون موضع دراسة دقيقة ومتأنية .

ورأت اللجنة الدولية ضرورة اتخاذ إجراءات قانونية فعالة لوضع حد لتفاقم ظاهرة التركيز والاحتكار ، بأخذ عهد على الشركات عبر الدول بأن تخضع لمعايير وشروط نوعية منصوص عليها في قوانين وسياسات التنمية الوطنية ، وبوقف الاتجاه نحو الاقلال من عدد الذين يتخذون القرارات في عالم تزداد فيه فاعلية الاتصال وحجم الجماهير ، وبالإضعاف من تأثير الاعلان على سياسة التحرير وبرامج الراديو والتليفزيون ، وبدعم استقلال أجهزة الإعلام في مجال الإدارة وسياسة التحرير ، سواء كانت هذه الأجهزة تتبع القطاع الخاص أم العام أو الحكومي .

وقد علق ايلي أبيل الخبير الأمريكي على هذه التوصية بقوله إن التشريع المضاد للاحتكارات أيا كانت فاعليته ، لا يمكن قبوله إلا في البلاد التي يوجد فيها قدر من المنافسة . ويمضي غامزا الاتحاد السوفيتي قائلا : « من نافلة القول أن نتصدى لاجراءات مضادة للتركيز والاحتكار في بلاد تتخذ وسائل الاتصال فيها شكل الاحتكار الحكومي او تعمل كأداة لحزب سياسي واحد مسموح به . والمفروض في الشركات عبر الدول أن تخضع لقوانين البلاد التي تعمل فيها . فاذا أمكن إثبات وجودها أصبح من المناسب دراسة تأثير وكلاء الإعلان على مضمون الصحف أو برامج الراديو والتليفزيون دراسة متأنية . ولكن المطالبة بعبارات عامة بالإقلال من هذا التأثير دون وقفة لدراسته أو محاولة قياسه في ظروف نوعية ، إنما هي دليل على انحياز ايديولوجي » .

واتفق أعضاء اللجنة على أن التنويع والاختيار في مضمون الاتصال هما الشرطان اللذان تتوقف عليهما المشاركة الديمقراطية . لذا ينبغي تمكين المواطن من صياغة أحكامه بناء على أكبر قدر ممكن من الأخبار ومن الرسائل والآراء ،

ويجب أن تتاح له فرصة مشاطرة غيره الرأي . كما أن تطوير وسائل الاتصال المحلية وتنويعها يوسعان مدى امكانية المشاركة الحقة والمباشرة للسكان في تطوير الاتصال .

وتعني اللجنة بالمرأة وشئونها وتطلب من أجهزة الاتصال الاهتمام بها وبمطالبها على قدم المساواة مع الرجل ، كما تدعوها إلى الحرص على عدم تشويه صورتها مباشرة او عن طريق الإعلان . فتدعو اللجنة كذلك إلى الاهتمام بالمشكلات التي تمس الأطفال والشبان والأقليات الوطنية واللاتينية والدينية واللغوية وسكان المناطق النائية وكبار السن والمعوقين ، فإن لهذه القطاعات من المجتمع حاجاتها الخاصة في مجال الاتصال .

وليكون الانسان قادرا على الاتصال داخل المجتمع المعاصر ينبغي أن توضع تحت تصرفه أجهزة مناسبة . إن التكنولوجيا الجديدة تقدم له عدة وسائل للإعلام والتسلية ، ولكنها تكون في الغالب غير قادرة على أن تضع تحت تصرفه وسائل اتصال تناسب الجماعة التي ينتمي إليها أو تجمعه الاجتماعي أو الثقافي . ومن أجل ذلك يصبح من الضروري في غالب الأحيان البحث عن وسائل جديدة للاتصال .

وقد أوصت اللجنة الدولية بدراسة استخدام وسائل الاتصال في بيئات العمل والحياة دراسة أعمق . فبدلا من أن تعزل وسائل الاتصال الرجال والنساء بعضهم عن بعض ، تعمل على إدماجهم في الجماعة . وقد لاحظت اللجنة أن القراء والمستمعين والمشاهدين يعاملون في الأغلب والأعم على أنهم يتلقون الإعلام بطريقة سلبية . لذا كان على المسئولين عن وسائل الاتصال أن يشجعوا جمهورهم على القيام بدور اتصالي أكثر إيجابية ، وذلك بأن تفرد له مكانا أرحب في الصحف أو في البرامج الإذاعية والتليفزيونية من أجل أن يتاح لأعضاء المجتمع والمنظمات الاجتماعية التعبير عن آرائهم . وإن انشاء وسائل اتصال على كافة المستويات يسمح بالوصول إلى أشكال جديدة للمشاركة الجماهيرية في إدارة هذه الوسائل ، كما يتيح ايجاد وسائل أخرى للتمويل .

وعلى المسئولين عن اتخاذ القرارات في مجال الاتصال أن يبذلوا جهدا اكبر حين يحددون الطريقة التي تجعل إدارة وسائل الاتصال اكثر ديمقراطية مع الحفاظ على التقاليد والمميزات الوطنية . إن عليهم أن يشركوا الفئات التالية وهي : (أ) مالكو وسائل الاتصال ومديروها (ب) الصحفيون ورجال الاتصال المهنيون (ج) منتجو البرامج (د) التقنيون (هـ) ممثلو الجمهور . إن ادارة وسائل الإعلام الجماهيرية إدارة ديمقراطية في حاجة لمساندة وتفهم كل العاملين فيها ، بحيث يقومون ، بفضل هذا الأسلوب الجديد ، بدور أكثر إيجابية في سياسة التحرير والإدارة .

وأهم التوصيات التي توصلت إليها اللجنة الدولية هي الخاصة بتعزيز التعاون الدولي . فإن التفاوت في مجال وسائل الاتصال إنما مبعثه التباين الاقتصادي أو الاختلاف في الأنماط السياسية والاقتصادية أو الاهمال أو سوء الاستغلال الحضاري . ولكن أيا كانت الأسباب ، فإن هذا التفاوت غير جائز ، لأن مفهوم النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال يفترض تشجيع التعاون الدولي القائم على المساعدة الدولية وعلى التفاهم الدولي . لقد أصبح للأبعاد الدولية

للاتصال معنى جديد بحيث أمسى من الضروري تنمية التعاون على الصعيد العالمي . وعلى الجماعة الدولية أن تتخذ الإجراءات المناسبة لإحلال علاقات التبادل والتكامل القائمة على المساواة بين الشعوب واحترام كرامتها محل الهيمنة والتبعية واللامساواة . إن مثل هذا التعاون يتطلب مزيدا من الالتزام الدولي إذا أريد تصحيح الوضع الحالي . وهو يشكل حاجة بالنسبة للدول النامية والجماعة الدولية في آن واحد باعتبارهما كلا متكاملا .

وبعد هذا العرض الوافي لأوضاع الإعلام الدولي ، دعت اللجنة الدولية إلى التدرج في إجراء أي تغيير بحيث يتم تشييد صرح نظام عالمي جديد للإعلام والاتصال بسهولة ويسر . كما أوصت **بأن يكون لتطوير الاعلام والاتصال نصيب من المعونة الدولية مساويا لنصيب القطاعات الأخرى ، كالصحة والزراعة والصناعة والعلوم والتربية إلخ .. باعتبار أن الاعلام هو أيضا أساسي لتقدم الفرد والجماعة وللتنمية الشاملة** . ويمكن الوصول إلى هذا الهدف باستخدام الاعتمادات المنصوص عليها في الاتفاقيات الثنائية بين الحكومات أو الاعتمادات التي تخصصها المنظمات الدولية والاقليمية . وينبغي لهذه المنظمات أن تدرج المزيد من الاعتمادات لتطوير الاتصال في بنياته التحتية والفوقية . وينبغي الحرص على أن تكون المعونة المقدمة متناسبة مع احتياجات البلاد النامية . كما ينبغي دراسة إمكانية تقديم معونة مرتبطة ببرامج عامة لا بمشاريع خاصة . وعندما توافق الأمم المتحدة على الخطة الدولية للتنمية يجب أن تعتبر قطاع الاتصال جزءا لا يتجزأ من هذه الخطة لا منفصلا عنها .

وفي رأي اللجنة الدولية أن البلاد النامية هي المسئولة أساسا عن إجراء التغييرات الضرورية للتغلب على تبعيتها لغيرها في مجال الاتصال . وتبدأ هذه الإجراءات على المستوى الوطني ، ولكن ينبغي إكمالها باتفاقيات فعالة ثنائية وإقليمية ودولية .

وترتيبا على ذلك أوصت اللجنة الدولية بإدخال البعد الاتصالي في برامج واتفاقيات التعاون الاقتصادي القائمة بين البلاد النامية . كما ينبغي زيادة تطوير النشاط المشترك في مجال الاتصال والاهتمام بوجه خاص بالتعاون بين وكالات الأنباء الوطنية وبتقوية اتحاد وكالات الأنباء وهيئات الراديو والتليفزيون في البلاد غير المنحازة والعناية بالتبادل المنتظم لبرامج الراديو والتليفزيون والإعلام بوجه عام . وفيما يتعلق بالتعاون في مجال الإعلام التقني ، فإن إنشاء بنوك للمعلومات ومراكز لمعالجة الأنباء وأخرى للتوثيق على المستوى الإقليمي[١١] ، يجب أن يكون لها الأولوية الأولى .

وينبغي بذل جهود خاصة للتأكد من أن الإعلام عن سائر البلاد النامية ، داخل الاقليم الذي تنتمي إليه وخارجه يكون موضع عناية أكبر ، ويعالج مطولا في أجهزة الاعلام . ويمكن إنشاء مشروعات خاصة لتأمين تدفق مستمر لمواد شيقة ومهمة ، يتم اختيارها وفق معايير تضع في اعتبارها حاجات البلاد النامية .

كما يجب تشجيع قيام علاقات وعقد اتفاقات بين المنظمات المهنية من ناحية ، وبين الباحثين في مجال الاتصال في مختلف بلاد العالم من ناحية أخرى . ومن الضروري إقامة شبكات من المؤسسات ومن الاخصائيين العاملين في حقل

---

(١١) راجع دراسة جدوى إنشاء مركز اقليمي عربي للبحث والتوثيق الاعلامي التي أجراها الخبير العراقي الدكتور مصباح الخير و لحساب اليونسكو (١٩٨٠) .

الاتصال ، وذلك من أجل تبادل التجارب والخبرات وتنفيذ مشروعات مشتركة ذات منفعة متبادلة يكون مضمونها ذا أثر ملموس .

إن التعاون في تطوير الاتصالات هو موضع اهتمام العالم أجمع ، وهو بالتالي موضع اهتمام المنظمات الدولية حيث يمكن لكل الدول الأعضاء أن تناقش بكل حرية المشكلات الناتجة عن هذا التطوير وأن تقرر الإجراء الدولي الواجب اتخاذه . وعلى الحكومات أن تفحص بعناية بنيات الوكالات الدولية وبرامجها في مجال الاتصالات وأن تشير إلى التغييرات التي من شأنها إشباع الحاجات المتنامية .

وأوصت اللجنة الدولية الدول الأعضاء في اليونسكو بمضاعفة مساندتها لبرنامج المنظمة في هذا المجال . ورأت من المناسب التفكير في إنشاء قطاع متميز للاتصال ، ليس فقط لمجرد التأكيد على أهمية هذا القطاع ، ولكن إبرازا للعلاقات المشتركة بينه وبين التربية والعلوم والثقافة . ومن أهم التوصيات التي تقدمت بها اللجنة الدولية دعوة الأمم المتحدة إلى أن تنشيء لنفسها نظاما للإعلام أكثر فاعلية ، يشتمل على تجهيزات إذاعية خاصة بها ـ وعند الاقتضاء ـ إلى أن تستخدم قمرا صناعيا للاتصال . إن مثل هذا النظام يمكن أن يتيح للأمم المتحدة أن تكون على صلة إعلامية وثيقة بشئون العالم وأن تذيع رسائلها لكل شعوب العالم بصورة أكثر فاعلية .

وأشارت اللجنة بإنشاء مركز دولي لدراسة الإعلام والاتصال في إطار اليونسكو يتولى تطوير الأنظمة الوطنية للاتصال في البلاد النامية وتعزيز تدفق الإعلام الدولي المتوازن وتبادله . ويعمل على توفير الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض وإدارة الأموال التي توضع تحت تصرفه ، ويكفل التناسق بين الأطراف المهتمة بتطوير الاتصال وببرامج التعاون المختلفة ، ويقوِّم نتائج النشاط الثنائي ومتعدد الأطراف في هذا المجال . ويدعو إلى موائد مستديرة ومحاضرات ودوروس لاعداد المخططين والباحثين والصحفيين ، لا سيما هؤلاء الذين يعدون أنفسهم للعمل في المجال الدولي . كما يتابع عمليات نقل تكنولوجية الاتصال بين الدول المتقدمة والدول النامية ، ويسهر على تنفيذ هذه العمليات في أفضل الظروف الممكنة .

وتختتم اللجنة الدولية توصياتها بديباجة تؤكد فيها أن تدعيم السلام والأمن والتعاون الدولي وتخفيف حدة التوتر الدولي هي في صالح جميع الشعوب . وترى أن أجهزة الاعلام تستطيع أن تسهم في تحقيق هذه الأهداف إسهاما ذا شأن . فقد طلبت الأمم المتحدة ، خلال دورتها حول نزع السلاح ، إلى اجهزة الاعلام : أن تبذل مزيدا من الجهد لتعبئة الرأي العالم للمطالبة بوقف سباق التسلح والدعوة إلى نزع السلاح . ومن جهة أخرى فان إعلان اليونسكو الذي يتناول المبادىء الأساسية الخاصة باسهام أجهزة الاعلام في تدعيم السلام والتفاهم الدولي ، وفي تعزيز حقوق الانسان ومكافحة العنصرية والفصل العنصري والتحريض على الحرب ، ينبغي أن يكون الأساس لسياسات جديدة للاتصال تهدف إلى تعزيز التفاهم الدولي . إن نظاما إعلاميا جديدا للاعلام والاتصال يتطلب تعاونا سليما بين الشعوب وينبغي أن يصبح أداة لهذا التعاون .

وترتيبا على هذه الديباجة ، أوصت اللجنة الدولية بأن تكون السياسات الوطنية للاتصال متماشية مع المبادىء المعتمدة في مجال الاتصال الدولي ، وأن تعمل على تهيئة جو من التفاهم المتبادل والتعايش السلمي بين الشعوب .

كما ينبغي أن تشجع الدول الأجهزة الاذاعية وسائر وسائل الاتصال الدولي التي تمتلكها على الاسهام ما أمكن في بناء السلام وفي التعاون الدولي وأن تمتنع عن إثارة الكراهية الوطنية أو العنصرية أو الدينية وعن التحريض على الفصل العنصري أو العداوة أو العنف أو الحرب .

وقد رأت هذه اللجنة أن مشكلات الحرب ونزع السلاح وحقوق الانسان والتنمية والقضايا المتصلة بإقامة نظام جديد للاتصال ، يجب أن تنال الاهتمام الذي تستحقه . وأن على وسائل الإعلام الكبرى ، سواء كانت مطبوعة أم سمعية بصرية ، التعريف بالوثائق المهمة التي صدرت أو تصدر عن الأمم المتحدة واليونسكو والحركات العالمية للسلام وسائر المنظمات الدولية والوطنية التي تعني بالسلام وبنزع السلاح . **وعلى مدارس الصحافة أن تعني في برامجها بدراسة هذه المشكلات الدولية وبالآراء التي تثار حولها في إطار الأمم المتحدة .**

كما حثت اللجنة على تشجيع كل أشكال التعاون بين أجهزة الاعلام والمهنيين وجمعياتهم لأنه يسهم في تعريف الشعوب والثقافات بعضها ببعض تعريفا أفضل . وإن على الصحفي الذي يكلف بتقديم تقرير عن أحداث دولية أو عن توترات وأزمات قد تقع في هذا البلد أو ذاك ، أن يتوخى الحذر الشديد وأن يعمق شعوره بالمسئولية ، ذلك أن أجهزة الإعلام تكون في مثل هذه الظروف الصلة الوحيدة الباقية بين الجماعات المتقاتلة أو المتعادية . ومن هنا يتضح الدور الخاص الواجب على هذه الأجهزة أداؤه بحصافة وموضوعية .

●●●

ويقرأ المتشككون هذا المشروع ويخلصون إلى أنه حل وسط مليء بالمتناقضات وسوء الفهم ، ويقولون إنه يفترض ـ بحرفية نصه ـ أن الاتحاد السوفيتي وحلفاءه الاشتراكيين قد قبلوا إلغاء « الحواجز الداخلية والخارجية التي تحول بين التدفق الحر للإعلام » واعترفوا بضرورة « تعدد مصادر الاعلام وقنواته » . كما يزعمون أنه يفترض أن الدول الغربية ـ من جهتها ـ قد قبلت « إلغاء الآثار السلبية لبعض الاحتكارات العامة أو الخاصة والتركيزات المفرطة » أو بمعنى آخر ، فرض رقابتها على وكالات الأنباء الدولية والاحتكارات الكبرى لوسائل الاعلام .

وقد لوحظ ، قبل أخذ الأصوات على هذا المشروع الذي اعتبره البعض « ثورة » ، أن بعض الوفود صرحوا بأن النص لا يمكن قبوله بسهولة ، ولكنهم لا يريدون رفض قرار رضيت عنه دول العالم الثالث ، لأنه يعترف « بعدم توازن تدفق الأخبار » و « بحق كل شعب بأن يعلم (بضم الياء وكسر اللام) الرأي العام العالمي بمصالحه » .

ويواصل المتشككون تعليقهم على هذا المشروع قائلين : إن الأعضاء المعتمدين من قبل حكوماتهم للمؤتمر العام لليونسكو لن يتكلفوا شيئا اذا اتخذوا قرارات يعرفون مقدما أنهم لن يلتزموا بها . فالبلاد الاشتراكية يمكنها التحجج بمسئولية الصحفي او « باحترام القانون العام » لحذف خبر . أما حكومات الدول الغربية ، فانها لا تستطيع التدخل في تنظيم صحافتها ـ الوطنية والمتعددة الجنسيات ـ دون أن تخالف المبدأ نفسه الذي دافعت عنه طوال مؤتمر بلغراد ، وهو حق الصحفيين وأجهزة الصحافة في أن يضعوا بأنفسهم قواعد المهنة التي ينتمون إليها .

وكان رد فعل صحيفة « نيويورك تايمز » معبرا ، فقد أنكرت هـذه الصحيفة عـلى كل مفـاوض أمريكي حق التحدث باسم « الصحافة الحرة في الولايات المتحدة »، ففي استطاعة الدبلوماسيين أن يلتقوا وأن يتباحثوا وأن يوقعوا على قرارات ، ولكن ليس هناك ما يجبر الصحافة الغربية على الخضوع لقواعد مخالفة للقواعد الأخلاقية التي سنتها لنفسها .

إن الاتفاق الوحيد والحقيقي الذي توصلوا إليه في بلغراد هو أن كل دولة يجب ان تحتفظ بسيادتها داخل حدودها في مجال الاعلام . وسواء تعلق الأمر بالولايات المتحدة او الاتحاد السوفيتي او الصين أو كوبا ، فقد انتهت الوفود إلى قبول المبدأ الذي يقول : إذا اقتضى الأمر تطبيق قواعد تعتبر مخالفة للمصلحة الوطنية ، أصبحت كل دولة حرة في تنظيم أمورها بنفسها .

وهكذا يصبح النظام العالمي الجديد للاعلام التزاما مفروضا على الآخرين وأملا يداعب الطوباويين ، مثله في ذلك مثل أغلب ما صدر عن الأمم المتحدة والمنظمات المنبثقة عنها .

وكأن اللجنة قد توقعت أن يوجه إلى تقريرها مثل هذه الانتقادات فسبقت أصحابها إلى القول « إن النظام الجديد الذي نسعى إليه ليس هدفا فحسب ، إنما هو مرحلة على الطريق . إنه جهد يحتاج إلى نفس طويل من أجل إقامة علاقات أكثر حرية ومساواة وعدلا في كل المجتمعات وبين كل الأمم والشعوب . إن هذا التقرير يؤكد ما نعتقد أننا حفظناه . وهذا ما نبتغي إبلاغه بصفة خاصة » .

ومهما يكن من أمر ، فان أعمال اللجنة الدولية قد أتاحت ، في مجموعها ، فرصة تحديد مفهوم النظام العالمي الجديد للاعلام وابراز مبادئه الأساسية وفتح آفاق عريضة للاتصال ولتطوير وسائل الاعلام في العالم . وإن ما وصلت إليه اللجنة لا يعتبر ، بأي حال ، عقدا نهائيا . إنه قابل للتعديل والتطوير في عالم ينشد مزيدا من التفاهم بين شعوبه .



الرأى العام فى الدول النامية
بيئته ومشاكل قياسه

كمال المنوفى

مدرس ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة .

تقديم :

فى المقالة الموسومة « حول أصول الحكم » من كتابه « المقالات : الاخلاق والسياسة والادب » والمنشور لأول مرة عام ١٧٤١ ، كتب « دافيد هيوم » يقول « ليس ثمة شىء يبدو مثيرا للدهشة فى نظر من يتابع مجريات الحياة الانسانية بعين فلسفية أكثر من السهولة التى يتم بها لحفنة من بنى الانسان أن تحكم الأكثرية ، والخضوع الضمنى الذى يسلم معه الأفراد أحاسيسهم وعواطفهم لأحاسيس وعواطف من يحكمهم . وحين نمعن النظر فى هذا الأمر ، فلسوف نجد أنه ما دامت القوة فى جانب المحكومين ، فلن يجد الحكام شيئا يساندهم سوى الرأى . لهذا يتأسس الحكم على الرأى فحسب ، يستوى فى ذلك أكثر الحكومات استبدادا وأكثرها حرية » .

هكذا رفع هيوم رأى الجماهير المحكومة الى مرتبة الركيزة التى يعتمد عليها أى نظام حكم . وتبعه فى هذا الخصوص كثرة من الفلاسفة والعلماء الاجتماعيين الذين نظروا الى الرأى العام بوصفه المصدر الأعظم للسلطة والجزاء غير المنظم لها حينما تخطىء . وذهب هؤلاء الى أن الرأى العام بوصفه كذلك يقترن أساسا بالديمقراطيات الغربية التى تكفل للمواطن حرية التعبير عن الرأى والمناقشة وتكوين التجمعات السياسية . . . الخ . **وكان طبيعيا ، والحالة هذه ، أن تزدهر دراسات واستطلاعات الرأى العام فى الدول الديمقراطية الغربية أكثر من غيرها .**

أما المجتمعات غير الغربية ، وأعنى بالذات المجتمعات الآخذة فى النمو ، فلا تعرف مسوح الرأى العام الا لماما نظرا لما يواجهه إجراء المسوح هنالك من مشاكل يفرضها التخلف بشتى صوره .

هذه القضية نحاول أن نعرض لها من خلال تسليط الضوء على نقطتين : السياق المجتمعى للرأى العام فى الدول النامية ، ثم تلمس المصاعب التى تجابه قياساته هناك .

●●●

أولا : بيئة الرأى العام

إن الرأى العام ، باعتباره وجهات نظر كل أو أغلب أفراد المجتمع حيال القضايا والأحداث والفاعلين فى النظام السياسى ، لا ينشأ ولا يدور فى فراغ . فهو أحد أنماط سلوك البشر الذين يعيشون فى ظل أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية معينة . وبالتالى يتأثر من حيث تشكيله وامكانية قياسه بهذه المتغيرات المجتمعية . وعلى هذا ، يبدو ضروريا ونحن بسبيل الحديث عن الرأى العام وامكانية قياسه فى الدول النامية ، أن نعرض لاطار الرأى العام فى هذه الدول من جوانبه المختلفة .

١ ـ الاطار الاقتصادى ـ الاجتماعى :

تعرف الدول النامية نمطا انتاجيا متخلفا قوامه الزراعة أو الاستخراج ، وينطوى على علاقات اجتماعية متخلفة وفنون انتاجية هابطة . هذا الوضع يقترن بحالة فقر عام تعانى منها جمهرة البلدان النامية على نحو ما يتمثل فى انخفاض متوسط نصيب الفرد من الدخل القومى . فطبقا لتقديرات تعود الى منتصف السبعينيات يقل هذا المتوسط فى حوالى نصف الدول النامية عن ٥٠٠ دولار سنويا ، ويتراوح بين ٥٠١ ، ١٠٠٠ دولار فى ١٤ دولة ، بينما يزيد عن ١٠٠١ دولار فى أربع دول فقط كلها مصدرة للبترول . (١)

هذا الفقر صاحبته ابنية طبقية يكاد ينعدم فيها بينها الحراك الاجتماعى وتعكس تفاوتا شديدا فى توزيع الدخول بين الطبقات . اذ تبعا لأحد الدارسين ، يقبع فى سفح الهرم الاجتماعى أشباه البروليتاريا الحضرية كما سحى الأحذية والخدم من ناحية والمعدمين فى الريف من ناحية اخرى (نسبة هؤلاء المعدمين ٢٠٪ من جملة سكان الريف المصرى ، ٦٠٪ من جملة سكان الريف الايرانى) . يلى هذه الشريحة الحرفيون وعمال الصناعة . ويأتى بعد هؤلاء الطبقة الوسطى وهى طبقة صغيرة العدد تضم أساسا موظفى الحكومة وضباط الجيش . ويتربع على قمة الهرم الارستقراطيون والبورجوازيون : كبار ملاك الأرض الزراعية ، وكبار رجال الأعمال وأصحاب المهن الحرة كالطب والمحاماة والهندسة . هذه الشريحة العليا ، التى تشكل ما يربو على ٢٠٪ من السكان ، تستأثر بأكثر من نصف الدخل القومى هذا فى الوقت الذى يتراوح فيه نصيب الشريحة الدنيا بين ٣٪ ، ٥٪ (٢) .

---

(١) اعتمدنا فى تقدير ذلك على المصدر التالى :

Arthur. S. Banks, ed., Poliical :
Handbook of the World; 1976, New York, Meegraw Hill, 1976.

(٢) R. Gandarme, "Reflections on the Approaches to the Problems of Distribution in Underdeveloped Countries", Jean Marchal and Bernasd Pucros, eds., The Distribution of National Ircome, London, Macmillan, 1968, pp. 361-388.

حقا إن كثيرا من الدول النامية شهدت وضع وتنفيذ خطط للتنمية استهدفت زيادة الناتج القومى الاجمالى . غير أن ما حدث فى كل الحالات تقريبا هو « نمو غير مصحوب بعدالة » . اذا اقترن النمو الاقتصادى بتزايد التفاوت فى الدخول الشخصية والدخول الاقليمية ، وتصاعد البطالة وتدهور الخدمات الاجتماعية (٣) .

إزاء ذلك الفقر المطلق والنسبى ، ليس غريبا أن يستبد القلق بسكان العالم النامى حول أوضاعهم المعيشية . ذلك ما أظهره استفتاء للرأى أجراه معهد جالوب فى أواخر عام ١٩٧٦ . إذ ذكر أكثر من ثلثى المبحوثين فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا أن ما يشغل بالهم حقا طوال كل أو أغلب الوقت هو كيفية مواجهة نفقات أسرهم . وأشار حوالى النصف الى أنهم لا يستطيعون تدبير المال اللازم لشراء الطعام لأسرهم . بل ان نسبة عالية ذكرت العجز أحيانا عن شراء الملابس أو دفع تكاليف العلاج (٤) .

كذلك ، يمكن القول أنه مع الفقر والاستغراق فى مشاكل الحياة اليومية ، يختفى أو يتضاءل الاهتمام بالقضايا العامة . ولعله بالامكان أن نجد ما يساند هذا فى التحقيقات التى أجرتها مجلة الطليعة مع نماذج مختلفة من المواطنين المصريين ونشرتها تباعا فى أعدادها الصادرة خلال الأشهر الاولى من عام ١٩٧٦ . فالمواطن « عبد التواب » نموذج لقطاع عريض من المصريين الذين يتقاضون الحد الأدنى للأجور . ليس فى شقته جهاز راديو أو تليفزيون ، وان كان يسمع الراديو أو يشاهد التليفزيون لدى أحد الجيران فى بعض الأحيان . وباستثناء صحيفة « الاخبار » التى يطالعها بانتظام ، فانه لا يكاد يقرأ شيئا آخر لكثرة همومه الناجمة عن قسوة أحواله المعيشية . انه يشعر بالضآلة ويفتقد الاحساس بالقدرة على التأثير فى الحياة العامة ، ويتصور عدم جدوى ابداء الرأى فى مشاكل المجتمع (٥) . اما الست « أم محمد » فتمثل شريحة واسعة من المصريات اللاتى يقمن فى الريف والحضر . فكرها وأفعالها وردود أفعالها تنحصر فى دائرة أولادها وبناتها وكيف تعولهم . ولكنها خارج هذه الدائرة ، تعيش فى حالة اغتراب كامل لا تتعرض لأى أداة اعلامية ولا تعرف شيئا عما يجرى فى المجتمع رغم مضى عشرين عاما على وجودها بالقاهرة (٦) . ويعتبر الفلاح الصغير « فتحى حمادة » نموذجا لقطاع ضخم من فلاحى مصر . يمكث فى الحقل طول النهار . فقير الى درجة أنه لا يستطيع اقتناء أى وسيلة اعلامية حتى الراديو الترانزستور . لا يكاد يتعرض لوسائل الاعلام . ليس له دور يذكر فى الحياة العامة لقريته . معارفه ومعلوماته عن المؤسسات والشئون العامة وأوضاع الوطن العربى والعالم المحيط بنا تتسم بالضحالة المؤسفة . لا يستشعر فى نفسه القدرة على التعبير عن مصالح الفلاحين ويرى ذلك من اختصاص « الناس الكبار الجامدين » (٧) .

إن الفقر زامله تفشى الأمية على نحو مخيف . يقول محبوب الحق المخطط الاقتصادى الأول فى باكستان خلال الفترة ١٩٧١/٥٨ « لم يكن هناك قط طيلة سنواتى الثلاث عشرة كمخطط اقتصادى فى باكستان ما يثبط همتى قدر

(٣) محبوب الحق ، ستار الفقر : خيارات أمام العالم الثالث ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠

(٤) George Gallup, "What Mankind Thinks about Itself, Reader's Dist, October, 1976, pp. 132-136.

(٥) هموم المواطن عبد التواب ، مجلة الطليعة ، يناير ١٩٧٦ ، ص ١٨ - ٤٣ .

(٦) « هموم الست أم محمد » ، الطليعة ، فبراير ١٩٧٦ ، ص ٤٥ - ٥٢ .

(٧) « هموم الفلاح فتحي حمادة » ، الطليعة ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٥٣ - ٦٤ .

الاغفال المتحجر لقطاع التعليم فى التنفيذ الفعلى لخطط التنمية . فكلما كان وضع الموارد المالية صعبا ـ وكثيرا ما كان الحال كذلك ـ كانت مخصصات التعليم فى مقدمة المخصصات التى ينالها التخفيض . ولذلك فلا عجب أن ـ انحدرت باكستان من مستوى كان فيه ١٨٪ من أبنائها يعرفون القراءة والكتابة فى عام ١٩٥٠ ، وهو مستوى بائس بما فيه الكفاية الى مستوى ١٥٪ عام ١٩٧٠ » (٨) ـ ولا شك أن ارتفاع نسبة الأمية معناه أن أغلبية السكان تكون بمنأى عن تيار المعلومات المتدفق من خلال الرسالة الاعلامية المكتوبة على الأقل .

كذلك يتميز البناء الاجتماعى فى الدول النامية بظاهرة التعددية pluralism فهذه المجتمعات توصف بأنها مجتمعات فسيفسائية Mosaic حيث يوجد فى كل منها جماعات عديدة متباينة فى أصولها اللغوية والدينية والعرقية . فمن حيث اللغة يلاحظ مثلا أن سكان غانا ينقسمون الى خمس مجموعات لغوية كبرى ، ويتوزع سكان الهند بين ثمانى لغات وأكثر من ثمانمائة لهجة ، ويتحدث النيجيريون أربع لغات . ويمثل الدين أحد مصادر الانقسام الاجتماعى . فاللبنانيون ينقسمون الى ست مجموعات دينية رئيسية . ويضم سكان سريلانكا ، أغلبية بوذية وأقلية هندوسية . ويتوزع الهنود بين سبع مجموعات دينية . وعلاوة على التنوع اللغوى والدينى ، تسود الاختلافات العرقية والقبلية : نيجيريا وزائير ، الأقليات الهندية فى شرق أفريقيا والأقليات الصينية فى ملاييزيا وسنغافوره (٩) .

والمهم أن هذه التعددية الاجتماعية تمثل مشكلة عند التصدى لدراسة الرأى العام لما تفرضه من صعوبات خاصة بصياغة الأسئلة حيث يمكن أن يفهم السؤال بمعان مختلفة من جانب مفردات العينة . ففى مصر مثلا ، ورغم عدم وجود جماعات لغوية ، توجد عبارات وألفاظ قد تفهم فى الصعيد ولا تفهم فى الدلتا أو تستخدم فى المناطق الساحلية ولا تعرف فى مصر العليا (١٠) .

وبالاضافة الى ما سبق ، توصف المجتمعات النامية بأنها مجتمعات فلاحية حيث يعيش أغلب السكان فى الريف (حوالى ٧٣٪ حسب احصاءات تعود الى منتصف السبعينيات) وهنالك يسود نسق قرابى محوره القبيلة أو العائلة الممتدة . ويعرف هذا النسق بناء سلطة تعتمد على السن والجنس فالصغير يخضع حتما للكبير والانثى تخضع للذكر . وحق اتخاذ القرار وإبداء الرأى يزاوله فقط رب العائلة أو شيخ القبيلة . ولا يجوز لأى فرد أن يعبر عن رأيه إزاء كثير من الموضوعات ، حتى التى تتصل بحياته الشخصية ، طالما كان يشغل وضعا اجتماعيا معينا بحكم سنه أو نوعه (١١) .

٢ ـ الاطار السياسي :

فى البلدان النامية ، يصعب القول بوجود مجال سياسى متميز عن مجالات العلاقات الاجتماعية والشخصية . فما

(٨) محبوب الحق ، مرجع سابق ، ص٤٨ ـ ٤٩ .

(٩) للوقوف على مزيد من التفاصيل بهذا الخصوص ، يمكن الرجوع الى :
Rupert Emerson, From Empire to Nation; The Rise to Self-Assertion of Asian African Peoples, Boston, Bacon Press, 1960.

(١٠) د صفوت فرج ، الاعتبارات المنهجية والعلمية في قياس الرأي العام ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، جهاز قياس الرأي العام ، ص ١٠ .

(١١) د. ناهد صالح ، اللا رأي في قياسات الرأي العام بالدول النامية ، المجلة الاجتماعية القومية ، يناير ١٩٨٠ ، ص ١١ .

هو سياسى يرتبط الى حد كبير بما هو اجتماعى وشخصى . بمعنى أن نمط العلاقات السياسية يتحدد بنمط العلاقات الشخصية والاجتماعية والصراع السياسى يتركز أساسا حول مسائل النفوذ والمكانة ، بل والشخصيات ، وليس حول بدائل العمل السياسى . وتمثل الصفوة الحاكمة مجموعة متجانسة من حيث الخلفية الاجتماعية . ولا يتوقف الانخراط فى صفوف الصفوة على اعتبارات الأداء أو الكفاءة بقدر ما يتوقف على اعتبارات غير سياسية : الانتماء العائلى أو القبلى أو الدينى أو العرقى . . . الخ (١٢) .

هذا الاطار الطائفى للسياسة يجعل من الصعب على الأفكار أن تكتسب تأثيرا فى حد ذاتها . فرد الفعل لفكرة أو وجهة نظر ما لا يتأثر بمضمونها قدر تأثره بالوضع الاجتماعى لصاحبها أو المدافع عنها . وعليه يصعب وجود سوق مفتوح يضمن لمختلف الأفكار والآراء السياسية أن تتنافس بحرية فى سبيل الحصول على التأييد اعتمادا على مضامينها الخاصة . ومن ناحية أخرى ، يقيد هذا الاطار الطائفى من حرية تغيير الولاءات السياسية . اذ يتطلب ذلك التغيير تحولا فى الروابط الاجتماعية والشخصية .

كما تتسم البلدان النامية بغياب أو ضعف التجمعات السياسية التى يمكن أن تسهم فى تزويد المواطن بالمعارف السياسية وبالتالى فى تشكيل وبلورة الرأى العام . اذ أن كثيرا من الأحزاب السياسية مجرد تنظيمات من خلق فرد وبالتالى تتحدد طبيعتها بشخصيته أكثر منها بآرائه السياسية ، بل ويمكن أن تنتهى بمجرد وفاته أو فقدانه الاهتمام بالسياسة لأى سبب كان . وهناك أحزاب ذات اطار أيديولوجى ، ولكنها ضعيفة تنظيميا . وتعانى معظم الأحزاب من نقص الكوادر السياسية والادارية ، وقصور الموارد المالية ، فضلا عن أنها تعمل فى اطار غير تنافسى حيث يسود نظام الحزب الواحد فى كثرة من الدول النامية بدعوى أن التعدد الحزبي يؤدى الى تفاقم الصراع وتهديد وحدة الدولة . ومع أن بعض الدول تأخذ بنظام تعدد الأحزاب ، الا أن الوضع انتهى من الناحية العملية بسيطرة حزب واحد على باقى الأحزاب ، الأمر الذى يعنى بالطبع سيادة رأى واحد هو رأى السلطة . (١٣)

وفيما يتعلق بجماعات المصالح مثل نقابات العمال واتحادات الفلاحين وغرف التجارة ، والاتحادات المهنية ، يلاحظ أن منها من لا وجود له فى بعض الأحيان ، وفى حالة تواجدها ، فانها غالبا ما تعانى من ضعف يرتد الى أكثر من سبب . أولها التبعية للحكومة أو الحزب الحاكم بما يعنيه هذا من استخدامها أساسا فى تعبئة قطاع من السكان لتأييد أفعال الصفوة الحاكمة . وثانيها صغر حجم أعضائها . فنقابات العمال مثلا لا تضم سوى قطاع صغير من العمال (١٧٪ فى الجزائر ، ٢,٥٪ فى الهند ، ١٣٪ فى كولومبيا ، ١٪ فى ايران والعراق ونيكاراجوا) . ثالثها نقص مواردها المالية حيث لا يستطيع أغلب الأعضاء سداد الاشتراكات بانتظام . (١٤)

---

(١٢) Lucian Pye, "The Non-Western Political Process", H. Eckstein and D. Apter, eds., Comparative Politios, New York, Free Press of glencoe, 1963, p. 657.

(١٣) David Roth and Frank Wilson, The Comparative Study of Politics, Boston, Houghton, Mifflin Comp., 1976, pp. 207-211.

(١٤) Joseph La Palombara, Politics Within Nations, N. J., Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, 1974, pp. 358-359.

كذلك تشهد الحياة السياسية فى الدول النامية غياب أو هامشية المعارضة السياسية [١٥] . فالقيادات السياسية لا تفتأ تزعم أنها تمثل مصالح كل أفراد الأمة وتعمل فى سبيل تحقيقها ، وأن المعارضة معوق للتقدم . وبعيدا عن هذا الزعم ، يمكن القول أن الحكام فى بعض الدول النامية يعطون الأولوية المطلقة للحفاظ على السلطة . ويتورطون فى أشكال عديدة من الفساد السياسى . ويعكسون مستوى هابطا من الأداء السياسى . ولهذا ، فانهم يصرون على اسكات المعارضة حتى يتجنبوا أى انتقاد علنى لتصرفاتهم ويضمنوا بالتالى استمرار وجودهم . وبهذا الخصوص ، فانهم غالبا ما يحظرون قيام أحزاب معارضة . واذا حدث وسمحوا بذلك ، فانهم عادة ما يعرقلون نشاطها . كما يفرضون رقابة على اجهزة الاعلام بما يجعلها مجرد أداة الاعلان ومباركة سياسات وقرارات الحكومة . وطبقا لنتائج مسح عن مدى حرية وسائل الاعلام فى ١٠٧ دول نامية اجرى عام ١٩٧٦ ، تبين أنه فى ١٩ دولة ، تمتلك الدولة كل ادوات الاعلام . وفى ٥ دول فقط ، توجد أدوات اعلامية خاصة تتمتع بحرية شبه تامة . وفى ٤٠ دولة ، تتمتع الادوات الاعلامية الخاصة بقسط كبير من الحرية فى استقصاء ونشر الأخبار ، وان كانت تخضع لرقابة حكومية تضمن عرض وجهة نظر الحكومة على الشعب . وفى ٤٣ دولة ، تتعايش أدوات الاعلام الخاصة جنبا الى جنب مع أدوات الاعلام الحكومية . غير أن الرقابة على الادوات الخاصة شديدة مع اختلاف أسلوبها - وطبيعتها من دولة الى أخرى . فمثلا ، يتعين على دور الصحف الهندية أن تقدم نسخة من كل صحيفة قبل النشر الى اداة الرقابة . بل لقد أصدر البرلمان الهندى عام ١٩٧٦ ، حينما اشتد ضغط المعارضة على حكومة انديرا غاندى ، قانونا يحظر نشر أى مادة تسىء الى شخص رئيس الجمهورية ونائبه ورئيس الوزراء ورئيس البرلمان وحكام الولايات . وفى بيرو والمكسيك ، تمارس الحكومة رقابة صارمة على دور الطباعة تكفى لمنع أى انتقاد لسياستها وفى تانزانيا ، يملك رئيس الدولة بموجب قانون صدر عام ١٩٦٨ حق فرض الحظر على أية صحيفة مادام ذلك من أجل الصالح العام . وفى أوغنده ، يعتقل ويعذب الصحفى الذى يتعرض بالنقد للحكومة .

ويتصل بما سبق الافتئات المستمر على الحريات ، فحسب بيانات تعود الى منتصف السبعينيات ، اتخذت ٧٠ حكومة فى دول نامية اجراءات تراوحت بين حظر نشاط أحد الأحزاب وبين حلها جميعا . وفى ٦٩ دولة ، تم اعتقال أفراد بتهمة الافصاح عن معتقداتهم السياسية . وفى ٦٥ دولة ، فرضت الرقابة على أدوات الاعلام . وفى ٤٦ دولة ، تم حل أو وقف البرلمان . وفى ٢٩ دولة تعرض المسجونون السياسيون للتعذيب الى حد لفت انتباه منظمة العفو الدولية . وفى ٩ دول صدرت ونفذت أحكام بالاعدام ضد المناوئين لنظام الحكم .

كذلك يشيع فى البلدان النامية ظاهرة مركزية اتخاذ القرار والانفصال بين الحكام والمحكومين ، الأمر الذى يؤدى الى نقصان المشاركة السياسية [١٦] . ان الحكام يعتبرون أنفسهم الأعلم بمصالح الرعايا وبكيفية تحقيقها وأغلب ظنهم أن الرعايا لا يعرفون مصلحتهم جيدا . إنهم جهلاء وقصر وبالتالى يحتاجون لأوصياء . من ثم يبدو عدم واقعية

---

(١٥) لتفاصيل أكثر راجع : Edward Shills, Opposition in the New States of Asia and Africa, Government and Opposition, Vol, I, No. 2, 1966, PP. 175-204; Hans Daalder, Government and Opposition in the New States, Government and Opposition, Vol. I, No. 2, 1966, PP. 205-226, and Arthur Banks, Op. Cit.

(١٦) Lucian Pye, op. cit, p. 661.

بعض العبارات التى رددتها قيادات كثيرة فى العالم النامى من قبيل « الشعب المعلم » و « الشعب القائد » و « الشعب الذى يلقن طلائعه الثورية » .

إن القرارات تصنع مركزيا وتفرض على الجماهير دون اعتداد بمطالبها الحقيقية ودون مشاركتها . واذا كانت هناك حالات دعيت فيها الجماهير الى المشاركة ، فقد كان ذلك بقصد التأييد والمساندة لا غير . لا عجب اذا فى وصف الديمقراطية التى عرفتها بعض الدول النامية بأنها « ديمقراطية تأييد » وليست « ديمقراطية مشاركة » .

هذا الوضع يزامله غياب ما يسمى « التغذية المرتدة Feedback حيث لا تعبأ القيادات السياسية عموما بمعرفة ردود أفعال الجماهير لما تتخذه من سياسات وقرارات .

وفضلا عن كل ما سلف ، تعانى الدول النامية من غياب الاتفاق العام حول غايات المجتمع وأفضل الأساليب لبلوغها . فالأهداف والأساليب ليست واحدة بالنسبة للحكام والمحكومين ، بل وقد تختلف فى الدولة الواحدة بتغير الحكام .

٣ ـ الاطار الثقافى :

على الرغم من وجود قشرة خفيفة من الثقافة الحديثة ، ما زالت عناصر الثقافة السياسية تقليدية لدى السواد الأعظم من أبناء الدول النامية (١٧) .

فالانسان العادى فى هذه الدول يفتقر الى الاستعداد لتكوين آراء حول المشاكل والأحداث البعيدة عن حياته اليومية المباشرة . وفى كثير من الأحيان ، نراه يجيب « لا أعرف » اذا سئل عن هذه الأمور .

كما ينقصه الاحساس بالقدرة على مجابهة وتغيير الاطار المجتمعى الذى يعيش فيه . ان موقفه تجاه المحيط ، خصوصا فى جانبه السياسى ، يعكس نوعا من القبول والتقليد والاستسلام ، والطاعة وليس المجابهة والتحدى . إنه يعتقد ، كما هو الحال فى بعض الدول العربية ، أن الله خلق الدولة لحكمة يعلمها سبحانه وما عليه الا ان يطيعها ويجاريها مهما كانت . هذا الشعور بالعجز إزاء المحيط يدفع المرء الى الاعتماد على غيره فى تقرير ما يعن له من أمور : كبير العائلة ، شيخ القبيلة ، وجهاء القرية .... الخ .

---

(١٧) حول مكونات الثقافة السياسية في الدول العربية راجع مثلاً
د. حليم بركات ، « النظام السياسي بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة » ، النظام السياسي الأفضل للانماء في العالم الثالث ، آراء نخبة من رجال الفكر ، بيروت ، مكتبة الفكر الجامعي ، ١٩٧١ ، ص ٨٠ ـ ٩٢ د. كمال المنوفي ، الديمقراطية والثقافة السياسية للشعوب العربية دراسة للحالة المصرية ، الباحث ، اكتوبر ١٩٧٩ ، ص ٢١ ـ ٣٣ .

وحول الثقافة السياسية في الدول النامية بوجه عام ، انظر
A. Inkeles and D. Smith, Becoming Modern, Individual Change in Six Developing Countries, Cambridge Mass, Harvard, 1974; Philip Hauser, "Some Cultural and Personal Characteristics of the less Developed Countries", J. Finkle and R. Gable, EDS., Political Development and Social Change, N. Y., John Wiley and Sons, 1968, PP. 58-60.

كما ينقص المواطن ما يسميه علماء السياسة الشعور بالاقتدار السياسى political . efficacy، أى الاحساس بالقدرة على ابداء الرأى فى مختلف المسائل المحلية والقومية مع الاقتناع بأن لهذا الرأى قيمة ويمكن أن ينتصت اليه . ولقد اتضح من بعض الدراسات الميدانية التى أجريت فى مدن مصر وقراها أن أغلب المبحوثين لا يجرأون على إبداء وجهات نظرهم فيما تفعله الحكومة دون خشية أو جزع .

إن جماهير العالم النامى تتميز بقدر كبير من اللامبالاة السياسية يعكس على الارجح ، غياب الاقتناع بضرورة وجدوى المشاركة . واذا كانت تشارك فى بعض الأحيان فأغلب الظن أنها تغفل ذلك خشية الوقوع تحت طائلة القانون ، أو بدافع الضغوط الاجتماعية أو تشيعا للغير .

والى ما تقدم ، يلاحظ غياب « التسامح الفكرى المتبادل » اذ لا يكاد يوجد اقتناع عام بأن اختلاف الآراء والاجتهادات إزاء أية مشكلة تواجه المجتمع ظاهرة صحية . إن الشخص عادة ما يتعصب لرأيه ويعتبره جزءا لا يتجزأ منه ، وينظر الى الرأى المضاد على أنه هجوم شخصى عليه . وهذا ما يجعل الصراع الفكرى بمنأى عن الموضوعية وأقرب الى المهاترات الشخصية . يتصل بذلك ضعف الميل عموما الى الحوار الذى ينظر اليه على أنه مضيعة للوقت واستنفاد للطاقة طالما لن يثمر شيئا ذا بال .

هذا النسق الثقافى هو فى الحقيقة نتاج للقهر الاجتماعى والسياسى الذى عانى ولا يزال يعانى منه انسان العالم النامى . وهو بدوره يعمل على تكريس أوضاع اجتماعية وسياسية متخلفة .

●●●

ثانيا : مشاكل قياس الرأى العام

لقياس الرأى العام ينبغى أن يوجد رأى عام متبلور إزاء موضوعات القياس ومراكز متخصصة لاجراء الاستطلاعات تتوفر لها الامكانيات المادية والباحثين الاكفاء ثم استعداد وتعاون من جانب المبحوثين ، وأخيرا جسد من البحوث الاجتماعية والاحصاءات عن المجتمع موضع الاهتمام .

والواقع أن قياسات الرأى العام فى الدول النامية عملية تكتفنها صعوبات شتى تتعلق بطبيعة الرأى العام نفسه فى تلك البلدان ، ووضع مراكز دراسة الرأى العام هناك ، وخصائص المبحوثين ، ووضع البحوث الاجتماعية والاحصاءات الرسمية . ونعمد فيما يلى الى مناقشة هذه الصعوبات .

١ ـ طبيعة الرأي العام :

في ضوء ما ذكرناه عن واقع المجتمعات النامية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً ، يعكس الرأي العام في تلك الدول جملة من الخصائص تعقد قياسه .

فالرأي العام يفتقر الى النضج وتعتريه السطحية ، الأمر الذي يسهل انتقاله من النقيض إلى النقيض . (١٨) هذه السمة هي نتاج طبيعي لأوضاع الفقر والأمية وشيوع قيم العاطفية والفورية التي تأبى المنهجية العلمية القائمة على الربط بين الأسباب والنتائج . كما أنها أيضاً نتيجة لاختفاء المناخ الديمقراطي ، ومن ثم غياب منطق الحوار ، وغياب أو عدم فاعلية القنوات التي تثير اهتمام الناس بمشكلة ما وتغذيهم بالمعلومات التي تساعد على النقاش والجدل حولها . لقد سبق أن نوهنا إلى هامشية دور الأحزاب وجماعات المصالح في صياغة الرأي والتعبير عنه ، وكذلك إلى الرقابة الرسمية التي تخضع لها أدوات الأعلام بشكل يحد من دورها في إثراء النقاش حول قضايا المجتمع . وبقي أن نذكر في هذا المقام أن الصحف كأداة إعلامية محدودة التوزيع والتأثير بسبب الأمية وعدم وجود نظام سريع للنقل ، وتواضع الإمكانيات المالية اللازمة لإنشاء دور الصحف وتزويدها بالتجهيزات . كما أن وسائل الاعلام المسموعة عموماً والمرئية خصوصاً ليست في متناول قطاعات لا يستهان بها من السكان لا سيما في المناطق الريفية . كما أن قصور الامكانيات المادية ونقص الأشخاص المهرة من مهندسين وفنيين ومعدي ومنفذي البرامج يحدان من إمكانية تطوير الإرسال الإذاعي والتلفزيوني لتغطية المناطق الريفية والنائية . فالخطط الخمسية الهندية المتعاقبة مثلاً لم تخصص للانفاق على الارسال الاذاعي والتلفزيوني سوى ٢ر٪ من جملة الاستثمارات وهو ما يمثل حوالي ٦,/١ من مخصصات التعليم (١٩) . وحتى حينما تصل الرسالة الاعلامية إلى القرية من خلال قراء الصحف أو المستمعين إلى الراديو أو مشاهدي التلفزيون ، فلا توجد تقريباً تغذية عكسية . فالراديو يتحدث إلى القرويين ولا يتحدث معهم . كذلك فإن وسائل الاعلام تهتم أساساً بعنصر الترفيه وتتجاهل إلى حد كبير عرض القضايا التي تهم الرأي العام ، بل وغالباً ما تقتصر على عرض وجهة نظر معينة وتبتعد عن أسلوب الحوار كلما أمكن (٢٠) . ومن ناحية أخرى ، يتصف الرأي العام في الدول النامية بالتعصب الذي يعني عدم احترام الرأي الآخر المخالف (٢١) . وليس هذا بالأمر الغريب إذا تذكرنا ما قلناه سلفاً عن اختفاء قيم التسامح الفكري نتيجة القهر السياسي وعدم التعود على المناقشة منذ الصغر داخل المؤسسات الأولية كالأسرة والمدرسة .

وفضلاً عن هذا وذاك ، تظهر في الدول النامية حالة « اللارأي » بشكل ملفت للنظر . إذ تتسع هنالك شريحة من لا رأي لهم سواء كانوا هم كذلك بالفعل ، أم غير راغبين في إبداء آرائهم أم لم تتيسر لهم سبل المعرفة بالموضوع قيد الاستطلاع ، أم غير مبالين به أصلاً . هذه الظاهرة يوجدها ويكرسها نقص المعلومات ، والشعور بالاغتراب ونمط التنشئة الأبوي الذي يؤكد قيم الانصياع والتبعية وليس الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس (٢٢) .

---

(١٨) د. حامد ربيع ، مقدمة في العلوم السلوكية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٢ ، ص٢٥٣ .

(١٩) M. Irish and E. Frank, Introduction to Comparative Politics, N. J. Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, 1978, P. 173.

(٢٠) ذلك ما خلصت إليه إحدى الدراسات القيمة عن الحالة المصرية ، انظر : د. عبد الباسط عبد المعطي ، الاعلام وتزييف الوعي ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٩ ، ص٢٨ - ٩٨ .

(٢١) د. حامد ربيع : مرجع سابق ، ص٢٥٥ .

(٢٢) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص٩ .

٢ ـ أجهزة قياس الرأي العام :

الدول النامية دول حديثة الاستقلال لم تفرغ بعد من حل مشاكل بناء الأمة والدولة . قياداتها السياسية بوجه عام في واد ، والجماهير في واد آخر . لاغرو إذن أن تخلو غالبية هذه الدول من أجهزة متخصصة لقياس الرأي العام بغية ترشيد السياسات والقرارات (٢٣) .

حقاً إن بعض هذه الدول راحت في السنوات الأخيرة تنشيء أجهزة لمسوح الرأي العام . إلا أن تلك الأجهزة لا تتمتع بأي استقلال عن الحكومة وإنما تتبع الجهاز الإعلامي الرسمي أو أي جهاز رسمي آخر . فعلى سبيل المثال ، يعود إنشاء جهاز قياس الرأي العام في مصر الى عام ١٩٧٦ . وهو جزء من جهاز رسمي هو المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية . ويتبع مباشرة رئيس مجلس إدارته (٢٤) .

وليس يخفى أن تبعية أجهزة استطلاع الرأي العام ، على قلتها ، للحكومات إنما يحد من حرية حركتها في اختيار الموضوعات التي تستحق إجراء قياسات الرأي بخصوصها . فنراها تتناول أساساً الموضوعات الاجتماعية أو الاقتصادية ، وتتجنب قدر الامكان الموضوعات الحساسة من الناحية السياسية . وحتى إذا تصدت لموضوع من طبيعة سياسية فعادة ما يكون الهدف إعلان التأييد والمساندة لأفعال القادة على المستويين الداخلي والخارجي . وإذا حدث وتبين من معالجة استجابات المبحوثين وجود معارضة معقولة نسبياً لسلوك القيادة ، فإن نتائج الاستطلاع لا تجد سبيلها إلى الاعلان .

ومن جهة أخرى ، تعاني أجهزة قياس الرأي العام ، رغم ضآلة عددها ، نقصاً شديداً في خبراء الرأي العام والباحثين الميدانيين الأكفاء ، الأمر الذي يرتب قصوراً منهجياً في مسوح الرأي العام سواء بالنسبة لاختيار موضوع الاستطلاع أو اختيار العينة أو تصميم صحيفة الاستطلاع ، وجمع البيانات من مفردات العينة وعرض وتفسير النتائج وكتابة التقرير النهائي . وللتدليل على هذا ، يكفي مثلاً استعراض جملة المثالب التي تعتور تقارير الرأي العام التي تعدها مراكز الإعلام الداخلي في مصر . فهذه التقارير تعد في المكاتب ولا تمثل رأي الجماهير الحقيقي بخصوص القضية أو الحادثة المثارة . ثم هي تعد بعد مضي فترة من الزمن على إثارة القضية بحيث يفقد التقرير قيمته . ويغلب عليها التطويل والأسلوب القصصي . وتستخدم لغة أقرب للعامية . وهي أخيراً تتسم بضعف المضمون (٢٥) .

---

(٢٣) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(٢٤) جهاز قياس الرأي العام في ثلاث سنوات (١٩٧٦ ـ ١٩٧٩) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٤ ـ ٥

(٢٥)سوسن مشرفة ، العقبات التي تواجه عملية تجميع الرأي العام ، دورة أخصائي الرأي العام ، مركز النيل للاعلام ، القاهرة ، ١/ ٦ ـ ١٠/ ٦/ ١٩٨١ .

٣ ـ المبحوثون :

يفترض قياس الرأي العام علانية إبداء المبحوث لرأيه مع قيام الباحث بتسجيل هذا الرأي لا سيما في الدول النامية حيث تنتشر الأمية وحيث يستحيل استطلاع الرأي بالتليفون وذلك بطبيعة الحال ، يزيد من حساسية المفحوص مما قد يحمله على مجاراة السائل أو رفض الإجابة كلية .

إن المبحوث يرى في باحث الرأي العام شخصاً غريباً ، وربما رجل الحكومة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار مشاعر الشك المتبادل التي تخيم على العلاقات الاجتماعية والسياسية في الدول النامية ، لا نعجب إذا ألفينا المبحوث يتحوط في الإجابة بقوله لا أعرف أو الادلاء برأي يتصور أنه يرضى الباحث بغض النظر عن اتساقه أو عدم اتساقه مع ما يعتقده ويؤمن به فعلاً .

ولما كان الفرد في الدول النامية ، خصوصاً في الريف قد نشيء على طاعة الكبار بصفتهم أهل الحكمة والرأي السديد ، ولم ينشأ على حرية إبداء الرأي ، فإنه قد لا يرى في نفسه الصلاحية أو لا يرى أن من حقه التعبير عن وجهة نظره إزاء العديد من القضايا . ففي دراسة حديثة أجراها كاتب المقال على عينة من الفلاحين في إحدى القرى المصرية بهدف التعرف على مكونات ثقافتهم السياسية ، كانت إجابة البعض ، وكلهم من الشباب ، على سؤال نصه « لو فرض وأن فيه مسئول جه البلد في اجتماع أنت حاضر فيه علشان مناقشة مشكلة تهم البلد كلها ، وكان لك رأي ياترى حتقوله ولّا حتفضل قاعد ساكت » كما يلي « ما يصحش الواحد يتكلم والناس الكبار قاعدين لأنهم همه اللي يقدروا يشوفوا المشكلة تتحل إزاي » [٢٦] .

ونظراً لأن القيادة السياسية لا تأبه كثيراً بآراء الناس وتضع السياسات وتتخذ القرارات في غيبة من هذه الآراء فإنه تنشأ لدى الفرد قناعة مؤداها أن رأيه لا قيمة له فيعزف عن الإدلاء به . ففي الدراسة المشار إليها آنفاً ، أجاب البعض على السؤال المذكور بالآتي : « أنا راجل فلاح . وكلامي مش هيكون له نتيجة لأن الحكومة بتعمل اللي هي عايزاه في الآخر . وعلشان كده الواحد أحسن له يقعد ساكت » [٢٧] .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، يميل الفرد في بعض البلدان النامية ، خصوصاً جنوب شرق آسيا ، إلى المجاملة [٢٨] . وفي مصر ، يسود نمط الشخصية الفلهوية على حد تصور عدد من الباحثين . وأحد المظاهر السلوكية للفهلوي يتمثل في

(٢٦) د. كمال المنوفي ، الثقافة السياسية المتميزة في القرية المصرية ، الأهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ٨١

(٢٧) د. كمال المنوفي ، نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٢٨) د. ناهد صالح ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

القدرة على التكيف السريع لمختلف المواقف وإدراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرف وفقاً لمقتضياتها . وأحد جوانب هذا التكيف السريع هو المسايرة التي يراد منها إخفاء المعتقدات والمشاعر الحقيقية (٢٩) . والمهم أن الباحث المجامل أو الفهلوي يعد عقبة في سبيل استطلاعات الرأي العام . وبيان ذلك أن نتائج الاستطلاع قد لا تعكس الرأي العام الحقيقي ، بل مجرد الآراء التي يظن المبحوثون أنها ترضي الباحث . كما قد تعكس ارتفاعاً في نسبة من لا رأى لهم إذ يحجم المبحوث عن إبداء رأيه إذا استشعر أنه قد لا يوافق هوى الباحث .

٤ ـ البحوث الاجتماعية والإحصاءات الرسمية :

لدراسة الرأي العام في مجتمع معين ، ينبغي أن يوجد مسبقاً تصور كامل ودقيق قدر الإمكان عن حالة هذا المجتمع إقتصادياً واجتماعياً وسياسياً . هذا التصور يساعد باحث الرأي العام في تصميم العينة ، وصياغة الأسئلة ، وإجراء المقابلة ، وتفسير النتائج . وتسهم في بنائه إلى حد كبير كل من الدراسات الاجتماعية التطبيقية الجادة والاحصاءات المفصلة والدقيقة .

والمؤسف أنه في الدول النامية بوجه عام ، لا يوجد ذلك التصور ، وإن وجد فبشكل جزئي ، ومعيب . هذا الوضع هو في الواقع نتاج لحالة البحث الاجتماعي والبيانات الرسمية (٣٠) .

فالدول النامية ليست لها تقاليد واضحة للبحث العلمي . وينقصها الإيمان بأهميته وتفتقر إلى سياسة عامة بخصوصه حتى وإن زعمت قياداتها خلاف ذلك . حقاً إن من بينها من شيد مراكز للبحث . غير أن هذه الأخيرة تخضع لإشراف وتوجيه الحكومة وتعاني من نقص التمويل وندرة الباحثين الملتزمين ، وتعسف الأداة البيروقراطية . كل هذا يعكس نفسه في قلة الدراسات الاجتماعية الجادة . وطول فترة إجرائها بل وتوقف بعضها أحياناً .

ورغم التسليم بأهمية الدراسات التي أجراها باحثون أجانب عن هذه الدول النامية ، إلا أنها محدودة من حيث العدد والموضوعات التي تصدت لها . كما أنها تعكس انحيازاً لقيم ومفاهيم وأطر فكرية مرتبطة بالتقاليد الغربية علاوة على رؤ ى باحث بعيد في الغالب عن المجتمع موضع الدراسة مادياً وثقافياً ، الأمر الذي يفرض التحوط في الاعتماد على ما تقدمه تلك الدراسات من تحليل وما تخلص إليه من استنتاجات (٣١) .

---

(٢٩) د. حامد عمار ، في بناء البشر ، القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٣٠) د. حامد ربيع ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

(٣١) انظر مثلاً عرضاً نقدياً للدراسات الأمريكية للسياسة الايرانية في :
James Bill, The American Analysis of Iranian Politics, Iranian Studies, Vol X, No. 3, summer 1977. PP., 64-195.

وفي بعض الأحيان ، يتم إجراء بحوث بتمويل أجنبي وبتعاون بين باحثين أجانب وباحثين من أبناء البلد محل الدراسة . إلا أنه يلاحظ بصفة عامة أن الكلمة الأولى والأخيرة في تحديد موضوعاتها عادة ما تكون للعنصر الأجنبي بوصفه مصدر التمويل ، كذلك تدفع إليها اعتبارات سياسية من قبيل محاولة خطب ود المثقفين أو جمع بيانات معينة توضع تحت تصرف صانعي السياسة الخارجية في الدول المانحة . تبقى بعد هذا الدراسات التي قام بها باحثون من أبناء المجتمع المدروس بصفة فردية وتمويل ذاتي . فكل هذه الدراسات تقريباً أعدت لنيل درجات علمية مع ما قد يلابس ذلك من احتمال التضحية بالجودة لحساب الانجاز السريع خاصة إذا تذكرنا ما يعنيه الحصول على الدرجة من زيادة في المرتب ، وما لهذا من أهمية بالنظر إلى ظروف المعاناة الاقتصادية . كذلك فإن معظمها من طبيعة ميكروكزمية حيث ينصب مجالها الجغرافي والبشري على مجتمع محلي واحد (قريه ، حي ، قسم) . وفضلاً عن كل هذا ، يغلب عليها « النمطية » سواء من حيث الموضوع أم المنهج . (٣٢) . وليس الوضع بالنسبة للاحصاءات الرسمية أفضل حالاً . ففي بعض الدول النامية لا تكاد توجد إحصاءات أصلاً . وفي دول أخرى ، قد توجد إحصاءات قديمة نسبياً وغير مفصلة مما يحد من إمكانية الاستفادة منها . وفي حالات عديدة ، قد تتضارب البيانات مما يشكك في مصداقيتها ويجعل الاعتماد عليها أمراً محفوفاً بالمخاطر . ففي مصر مثلاً ، قدرت النتائج الأولية لتعداد ١٩٧٦ نسبة الأمية في المجتمع ككل بـ ٥٦٫٥٪ ، هذا في الوقت التي قدرتها إحصاءات نشرتها اليونسكو عام ١٩٧٨ بـ ٨٨٫٩٪ (٣٣) . كما أظهرت نتائج التعداد المذكور عدد المسيحيين بـ ٢٫٣١٥٫٥٦٠ نسمة ، هذا بينما يقدر البابا شنوده الثالث عدد الأقباط بحوالي ٧ مليون نسمة . ويشكك في صحة الرقم الأول على إعتبار أن تعداد ١٩٦٦ بالعينة قدر عددهم بحوالي ٤ مليون . وبالتالي لا يعقل أن يكون هذا العدد قد انخفض بشدة :كما يفيد تعداد ١٩٧٦ خاصة وأنه لا توجد أحداث تبرره أو تفسره (٣٤) .

ملاحظـــات ختاميـــة :

١ ـ من العرض السابق ، وضح أنه بقدر تقدم المجتمع وديمقراطية نظامه السياسي بقدر إمكانية قياس الرأي العام فيه . فهذا القياس ليس مجرد مسألة فنية تتحقق بمجرد تواجد جهاز متخصص . ولكنها أيضاً مسألة سياسية وحضارية . وعليه فإن قضية استطلاع الرأي العام في الدول النامية بأبعادها المختلفة يحسن أن تناقش في إطار واقع هذه الدول . وكما رأينا ، يحد تخلف هذا الواقع من إمكانية إجراء مسوح الرأي العام بصورة منهجية وموضوعية .

٢ ـ ولا يعني هذا أننا نرى إرجاء القيام بمثل هذه الاستطلاعات حتى تتهيأ إمكانية ذلك تماماً ببلوغ الدول النامية مستوى عالياً من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسى . إننا على العكس ، نعتقد أن الاستطلاعات ، حتى ولو

(٣٢) انظر : د. علي الدين هلال ، د. كمال المنوفي ، تقرير مبدئي عن الدراسات الاجتماعية حول القرية المصرية ، (غير منشور) ، مشروع بحث الاحتياجات الاتصالية من أجل التنمية الريفية في مصر ، برنامج التخطيط التكنولوجي ، مركز التنمية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

(٣٢) جريدة الجمهورية ، ١٩٧٨/٧/١٥ ، ص٢ .

(٣٣) Makram Samaan and Soheir Sukkary, "The Copts and Muslims of Egypt, Suad aseph and Barbara Phillsbury, eds., Muslim-Christian Conflicts : Economic, Political and Social Origins, Colorado, Westview Press, 1978, P. 130.

كانت قليلة وحتى ولو كانت موضوعاتها من طبيعة غير سياسية ، يمكن أن تفيد بدرجة ما في ترشيد الجهود الانمائية إذ ما دامت المشاركة الشعبية إحدى مرتكزات التنمية ، تبدو أهمية نتائج الاستطلاع باعتبارها قياساً لرأي الجماهير .

٣ ـ إزاء المصاعب التي تواجه دراسة الرأي العام في الدول النامية باتباع التكنيكات التي تستخدم في دراسته في الدول الغربية ، ألا يمكن التوسل بطرق أخرى للوقوف على اتجاهات الرأي العام الحقيقي في الدول النامية ؟ سؤال اكتفي بطرحه للمناقشة . ولا أدعي في نفسي القدرة على تقديم إجابة مرضية عليه . كل ما أستطيعه مجرد إثارة المزيد من علامات الاستفهام : ما مدى إمكانية الاستدلال بالمظاهرات والاضرابات وغيرها من أعمال العنف الجماهيري على الرأي العام في الدول النامية ؟ هل يمكن من خلال دراسة الشكاوي والالتماسات التي يرفعها المواطنون إلى المسئولين معرفة اتجاهاتهم حيال المخرجات الحكومية ؟ ما مدى الاعتداد بحالات مخالفة قانون ونظام معين (الدورة الزراعية في مصر مثلاً) في الكشف عن رأي الجمهور في هذا القانون أو النظام ؟ هل حالات التهرب الضريبي يمكن الخروج منها بشيء عن اتجاه الجماهير إزاء النظام السياسي ؟ .



المسـرح السـياسى

امين العيوطى

عندما نتكلم عن « المسرح السياسي » فإن أذهاننا غالبا ما تتجه إلى ذلك النوع من المسرح الذي ازدهر في ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أو في أمريكا إبان أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية ، وجاء محملا بوعي سياسي ، متوسلا بأساليب فنية جديدة سواء في أسلوب صياغة هذه الرسالة أدبيا ، أو في أسلوب عرضها على المسرح . غير أن هذا لا يعني أن المسرح لم يكن ، منذ بدايته ، يحمل رسالة سياسية في طيات رسالته الفكرية . بل إننا نخطىء إذا توهمنا أن الأدب في كل صوره ، وعلى اختلاف مذاهبه الفنية ، لم يكن يعبر ، في المقام الأول ، عن رؤ يا سياسية .

لهذا ، ليس من الغريب أن نجد الدراما الاغريقية تخضع بسهولة للتحليلات التاريخية والسياسية . فنجد ناقدا فذا مثل جورج لوكاتش ـ ولعله القمة النقدية الشامخة التي أنتجها القرن العشرون على الاطلاق ـ يتحدث عن ضرورة ربط ظهور التراجيديا الاغريقية بالتحول التاريخي العالمي في تاريخ الجنس البشري ، ويقول :

من المؤكد أنه ليس من باب الصدفة أن تتفق فترات التراجيديا العظيمة مع التغيرات التاريخية العالمية العظيمة في المجتمع الانساني . وقد رأى هيجل بالفعل في الصراع الذي ينشب في أنتيجون سوفوكليس ، رغم غموض رؤ يته ، ذلك الصدام الذي نشأ بين تلك القوى الاجتماعية التي أدت إلى تحطيم الأشكال البدائية للمجتمع ، وإلى ظهور المدينة الاغريقية . وعلى الرغم من أن تحليل باتشوفين لاورستيا اسخيلوس يدفع بالاتجاهات الغامضة إلى مدى أبعد مما يفعل هيجل ، إلا أنه يضع صياغة لهذا

الصراع الاجتماعي بشكل أكثر تحديدا ، أي بصفته صراعا تراجيديا بين النظام الأمومي الذي كان يحتضر والنظام الأبوي الجديد . . .[١]

على هذا الأساس يمكننا أن نتبين في الدراما الاغريقية ، حتى في جانبها الغيبي ، انعكاس الصراع بين طبقة الأشراف وطبقة العامة . فحين اضطرت طبقة الأشراف في أثينا إلى تعبئة الشعب ضد الفرس ، لجأت إلى إصدار تعديلات ديموقراطية في الدستور تمنح الشعب حق الانتخاب ، بل حق شغل المناصب العليا . وبعد تحقيق النصر على الفرس تشكل في أثينا حزبان : الحزب الارستقراطي والحزب الديموقراطي . ومن ثم جاءت مسرحيات اسخيلوس ، من موقعه الارستقراطي ، تعبيرا عن موقف ينادي بالعدالة الاجتماعية والديموقراطية . يقول د . ابراهيم سكر في تحليله لمسرحية المستجيرات :

> لقد أثار اسخيلوس في هذه التراجيديا بعض المشاكل الاجتماعية والخلقية والسياسية . فهو يندد بالزواج القائم على الإكراه ، ويشيد بمبدأ حماية الصغار ، ورعاية المستجيرين ، كما أنه ينادي بضرورة أخذ رأي الشعب في كل أمر من أمور الدولة[٢] .

والفرق بين موقف سوفوكليس السياسي وبين موقف يوريبيديس أمر معروف . هكذا يرد رأي جورج طومسون في سوفوكليس :

> لقد جاء سوفوكليس من عائلة أرستقراطية . وفي حياته الواعية قبل وجهة نظر طبقته التقليدية . وهذا ما يظهر دعمه الفعال للدستور المعادي للديموقراطية ، الذي وضع قيودا على حق الانتخاب في السنوات الأخيرة من الحرب البلوبونيزية ٤١٢ق . م ، كما يظهر موقفه من الموحي الدلفي الذي كان يعاديه الديموقراطيون بسبب سياسته الرجعية[٣] .

أما يوريبيديس ، الذي كان أول من يمزج في أعماله بين شخصيات من عامة الشعب ، وشخصيات نبيلة أسطورية ، فإنه ، كما يقول عنه جلبرت مري :

> قدم في أعماله أناسا عاديين ، قريبين في موقفهم الطبقي ، وأسلوبهم في الحياة ، وموقفهم منها ، من موقف الغالبية العظمى من رواد المسرح في ذلك الحين ، مما يؤدي إلى أن يرى جمهور المشاهدين أنفسهم ممثلين على خشبة المسرح ، ويزيد من تأثرهم ، وسهولة استقبالهم للآراء والأفكار التي يحملها يوريبيدس لشخصياته . . .[٤] .

وما يقال هنا عن المسرح الاغريقي ينطبق أيضا على المسرح الاليزابيثي في أبرز كتابه : ويليام شيكسبير . فلم يكن في أعماله إثراء للمسرح العالمي على امتداد تاريخه فنيا فحسب ، بل إثراء لما يحمله من فكر سياسي وتاريخي ، وهو

---

(١) Georg Lukacs, The Historical Novil, Hannah and Stanley Mitchell, London, 1962, p.97.

(٢) د . ابراهيم سكر ، الدراما الاغريقية ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٠٣ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص . ٢٣ .

(٣) جورج طومسون ، ايسخيلوس واثينا ، ت . جواد الكاظم ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص٤٨٢

(٤) جلبرت مري ، يوريبيديس وعصره ، ترجمة د . عبدالمعطي شعراوي ، القاهرة ب . ت ، ص١٥٢ .

تلك العبقرية التي عاشت في فترة تميزت بالصراع التاريخي الحاد بين المجتمع الاقطاعي ، وبين المجتمع الرأسمالي الذي كان يسعى لتأكيد ذاته ، حتى وصل إلى الحكم من خلال الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ ، أو من خلال الوسائل الدستورية في انجلترا في ١٨٣٢ ، وعن تصوير شيكسبير لهذا الصراع التاريخي يقول جورج لوكاتش :

إن شيكسبير يخلق في الملك لير أعظم ما عرفه الأدب العالمي من التراجيديات وأشدها أثرا عن انهيار الأسرة بصفتها مجتمعا انسانيا . . . إن شيكسبير يصور في علاقات لير وبناته ، وجلوستر وابنيه ، الحركات والاتجاهات الخلقية النمطية التي تبرز بشكل قوي إشكالية العائلة الاقطاعية وانهيارها[٥].

هذا الحس التاريخي عند شيكسبير هو الذي جعله هدفا للتحليلات السياسية المتباينة . هكذا نجد جورج برنارد شو يصور شيكسبير في مسرحيته الكوميدية الخفيفة **السمراء في أغاني شيكسبير** ، على أنه فنان ينمق الكلمات ولا يقدم فكرا ، يهتم بإرضاء أولي الأمر ، ويتملق السلطة ، ويقف إلى جانب الديكتاتورية في **يوليوس قيصر**[٦].

غير أن شاعرا وناقدا آخر ، وهو الجرنون سوينبيرن ، يرى في شكسبير رأيا مختلفا . فهو يراه مفكرا حديثا في نظرته السياسية والاجتماعية ، ويرى أن النغمة الأساسية في مسرحياته هي الدعوة إلى الثورة الاجتماعية . ويستشهد على ذلك بمسرحية **يوليوس قيصر** أيضا ، فيقول إن شيكسبير كان في أعماقه جمهوريا ، وإنه في **الملك لير** ديموقراطي واشتراكي روحا[٧].

ولعل مما يعزز وجهة نظر سوينبيرن في شيكسبير اختيار ايروين بيسكاتور ، رائد المسرح السياسي ، لمسرحية **الملك لير** لعرضها بأسلوب مسرحه السياسي ، واختيار برتولت بريشت لمسرحيتي **ماكبث** و**هاملت** لإعدادهما للإذاعة ، ومسرحيتي **يوليوس قيصر** و**كوريولينوس** لإعدادهما للمسرح ، فضلا عن استخدامه لأسلوب مسرحيات شيكسبير التاريخية في **الأم شجاعة** و**جاليليو** ، بل وتأثر المسرح الملحمي عموما بفن شيكسبير المسرحي .

بل لعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذا الإدراك المبكر لوظيفة المسرح الاجتماعية والسياسية موقف النقد الكلاسيكي المتزمت في انجلترا في القرن السادس عشر . فوسط كل تأكيد النقد الشكلي عند فيليب سيدني ، وبن جونسون وغيرهما على الالتزام بالوحدات الثلاث ، والمحافظة على نقاء القوالب والتقاليد الفنية بحيث لا تمتزج الكوميديا بالتراجيديا ، أو النثر ، بالشعر ، نستطيع أن نتبين هدفا سياسيا واضحا ، وموقفا سياسيا محافظا . كان مزج الكوميديا بالتراجيديا يعني ، في التحليل النهائي ، مزج أنماط سامية من الشخصيات والموضوعات التي لا يصح لها إلا القالب التراجيدي ، بأنماط متدنية من الشخصيات والموضوعات لا تصلح لها الا القوالب الكوميدية الشعبية . أو بعبارة أخرى ، كان مزج القالبين التراجيدي والكوميدي يعني مزج الأشراف والعامة في إطار واحد .

كذلك كانت الدعوة إلى فصل اللغة الشعرية عن الحوار النثري واللغة الدارجة تهدف إلى فصل الأسلوبين ، ، إذا أراد الكاتب المسرحي أن يحتفظ للأبطال الذين ينتمون إلى طبقات المجتمع العليا بتميزهم وسموهم فيما ينطقون به

---

(٥) Georg Lukacs, op. cit., p.93.

(٦) انظر جورج برناردشو ، السمراء في اغاني شيكسبير ، ترجمة د . اخلاص عزمي ، مجلة المسرح ، العدد٤ ، القاهرة ١٩٦٤ ، وايضا ج . ب . شو ، « الفصل من شيكسبير ؟» مقدمة يوليوس قيصر ، ت . د . اخلاص عزمي ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٧) See R. Wellek, A History of Modern Criticism, 1750-1950, vol IV, London, 1971 ed., p.380.

ويعبرون عنه من عواطف نبيلة ، وأن يترك للعامة العواطف واللغة الأكثر تدنيا . كان الإصرار على الاحتفاظ بالقوالب المسرحية والتقاليد الشعرية « نقية » يعني في المحصلة النهائية ، المحافظة على القوالب الاجتماعية على الإطار العام للمجتمع الطبقي ، بحيث لا تتهدده أية مزاوجات بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من المجتمع . بل إن أي إخلال بهذه القوالب والتقاليد الفنية كان في نظر الكلاسيكيـة المحافـظة إخلالا بـالقوالب الاجتمـاعية ، وتهـديدا للنـظام الاجتماعي السائد .

مثل هذا المعنى يتأكد في الدعوة إلى إحياء الكلاسيكية التي نادى بها ت . أ . هيوم ، وعزرا باوند ، و ت . س . اليوت في أوائل القرن العشرين . ففي مقاله عن « الرومانسية والكلاسيكية » يرى هيوم أن الرومانسية ترتبط بموقف سياسي محدد . فالرومانسية ، في رأيه ، دعوة الى إعادة تنظيم المجتمع من خلال الإطاحة « بنظام غاشم » أي بالنظام الاقطاعي بطبيعة الحال . وهو يرى الرومانسية ترتبط بثورة الطبقة الوسطى في فرنسا ، ووصولها إلى الحكم في انجلترا ، مما يعني الفوضى في نظره . أما الكلاسيكية فترتبط بالكنيسة والاقطاع ، ولذلك تعني النظام . وهكذا يقول :

لو انك سألت رجلا من مجموعة معينة ما إذا كان يفضل الكلاسيكيين أو الرومانسيين . لاستطعت أن تستدل من ذلك على اتجاهاته السياسية(٨) .

نادى هيوم بهذه الدعوة السلفية قبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى ، التي قوضت الكثير من الأسس الاجتماعية والفكرية التي كان المجتمع الانساني يقوم عليها ، وقبل أن ترتفع الصيحة ضد المجتمع الطبقي في كل أشكاله ، وضد الرأسمالية التي جعلت الحرب ، والاستعمار ، واستغلال الشعوب ، واضطهاد الانسان أمورا ممكنة . كانت تلك هي الصيحة التي أطلقها المسرح السياسي كما نعرفه اليوم . وقد جاءت من ألمانيا ، لتتلقفها منها أمريكا ، ولتتـرك على المسرح العربي الحديث بصمتها .

●●●

كان لهزيمة ألمانيا في ١٩١٩ آثارها المدمرة على المجتمع الألماني ، التي أدت إلى اهتزاز مؤسساته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية . وجاءت ثورة ١٩١٩ الاشتراكية ، التي فشلت واغتيل كل زعمائها ، تعبيرا عن السخط عما أنزلته الرأسمالية والحرب بالشعب الألماني ، وعن الفوضى الاقتصادية التي أطاحت بكل الآمال المعقودة على نهايـة الحرب من انتشار الأخوة والانسانية والحب ، وعن خيبة الأمل التي تولدت عن هذا كله . ولم تلبث الأزمة التي ضربت الاقتصاد الامريكي في ١٩٢٩ أن امتدت لتشمل آثارها العالم الرأسمالي كله بما في ذلك ألمانيا ، ولتنزل بكل فئات الشعب وعلى الأخص الطبقة العمالية التي انتشرت بينها البطالة ، مما أثار معارك في الشوارع بين العمال والشرطة ، ودفع بالبرجوازية إلى أن تحكم قبضتها على الأمور فأسلمت زمام السلطة إلى هتلر .

وسط هذا المناخ لم يعد المسرح الطبيعي ، بتركيزه على تصوير سطح الحياة اليومية وأساليب السلوك ، قادرا على التعبير عن آثار هذا الواقع الحاد على النفس البشرية وجدانيـا وعقليا . وهكـذا جاء المسـرح التعبيري ، والمسـرح السياسي ، وقد وضعا نصب أعينهما هدفا سياسيا محددا ضد الرأسمالية والحرب ، والاستعمار ، والاستغلال . التقى

(٨) R. Rushdy ed., Criticism from Matthew Arnold to the Present Day, Cairo, N.D. p53.

المسرحان على فكرة توعية الجماهير سياسيا ، وتوجيهها نحو فكرة مجتمع انساني يقوم على أسس اجتماعية وسياسية جديدة .

غير أن المسرح التعبيري اتبع في سبيل تحقيق هذا الهدف أساليب تختلف عن أساليب المسرح السياسي . ففي حين أتجه المسرح السياسي إلى أساليب مباشرة تخدم هدف التوعية السياسية ، اتجه المسرح التعبيري إلى أساليب عاطفية تترجم أفكار الشخصيات وخيالاتها وأحلامها ووقع العالم الخارجي على ذواتها ، وتنحو منحى تجريديا ، جماليا ، في استخدام الديكور والاضاءة الملونة والأداء التمثيلي ، حتى قال عنها برتولت بريشت :

« إن التعبيرية التي أغنت وسائل تعبير المسرح كثيرا ، وجاءت بحصيلة لم تستنفد حتى الآن . كشفت عن عجزها التام في تفسير العالم كموضوع نشاط انساني ، ودمرت القيمة التعليمية للمسرح »[٩].

لم تدم الحركة التعبيرية في المسرح ، على أية حال ، سوى فترة قصيرة من ١٩١٨ ـ ١٩٢٥ . كان ذلك لأن البرجوازية تنبهت الى أثر الحركة الثقافية في تثوير الفكر العمالي ، فأقامت العقبات في وجه أية عروض مسرحية يشتم منها رائحة معارضتها لها ومحاولة كشفها وتعريتها ، وأغلقت المسارح الكبيرة في وجه العروض « المشبوهة » . وهكذا تحول الكثير من أقطاب التعبيرية مثل فالتر هازنكليفر ، وبرُوكنر ، وتسوكماير ، إلى تقديم عروض تخدم أهداف البرجوازية وكانت تلك عروضا تستهدف الإثارة الجنسية والتسلية لا غير .

غير أن المسرح السياسي تبنى رسالة سياسية ، قبل أن يتبنى أساليب فنية . أو أنه ، بعبارة أخرى ، استنبط من الرسالة التي حددها لنفسه الأساليب الفنية التي تخدم هدفه لتوصيل رسالته . كانت هذه الرسالة مباشرة ، واضحة ، ترمي إلى التأثير في الجماهير من أجل توعيتها ، واجتذابها إلى جانب المعركة ضد المجتمع الرأسمالي الطبقي ، للوصول الى مجتمع العدالة الاجتماعية والسلام . ولم يكن الأمر مجرد طرح أفكار ، بقدر ما كان استفزاز الجماهير ، وتحريضها على الثورة .

وقد ارتبط بهذا المسرح اسم ايروين بيسكاتور . كان رأي بيسكاتور أن الاهتمام بالشكل الفني للعرض من الممكن أن يطمس ملامح الرسالة السياسية ، كما أن النص المسرحي لا يجب أن يكتفي بتصوير أحداث شخصية ، أو انعكاسات الواقع الاجتماعي على الذات الانسانية ، كما فعل التعبيريون . فلابد أن يكون العرض المسرحي ، بكل مقوماته ، تحليلا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية . لهذا كان تأكيده على عرض الظروف التاريخية والاجتماعية عرضا مباشرا لا كمجرد خلفية للأحداث الشخصية . وهكذا فإن أي عرض لمسرحية **روميو وجولييت** ، مثلا ، لا يجب أن يؤكد خط قصة الحب ، بحيث تبدو الظروف الاقتصادية التاريخية التي تحكم التنافس والثأر بين عائلتي مونتاجيو وكابيوليت مجرد خلفية للأحداث ، بل أن تتأكد الخلفية ذاتها . ويصاحب تأكيد هذه الخلفية إسقاطات على شاشة سينما في خلفية الديكور للقطات من الحروب ، وإحصائيات للإنتاج الصناعي في بلدان العالم الرأسمالي ، ولعدد القتلى فى الحروب ، ولاستغلال البشر في المستعمرات ، وما شابه ذلك . ومعنى هذا أن تحتل السياسة المستوى الأول ، وأن تتراجع القصة الشخصية إلى المستوى الثاني ، بهدف توضيح التناقضات الاجتماعية ، وإدانتها ، والدعوة إلى الثورة عليها وتغييرها .

---

(٩) برتولت بريشت ، « حول المسرح التجريبي » ، مسرح التغيير ، مقالات في منهج بريشت الفني ، اختيار ومراجعة قيس الزبيدي ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص١٨٣

وتتضح الخطة المسرحية التي ينبني عليها هذا المسرح في أسلوب عرضه لمسرحية راسبوتين تولستوي ، على سبيل المثال . وفي وصف البيئة المنظرية لهذه المسرحية ، والوسائل التكنولوجية التي استخدمها بيسكاتور مزاوجا بهذا بين الفن والعلم لخدمة أهداف مسرحه في عصر أصبح العلم والآلة فيه يحكمان تفكير البشر ، يقول سعد أردش :

كان الديكور بانوراما ضخمة من الخيش تمثل العالم ، وقد ركبت من أقسام ، تتيح للمخرج أن يفتح كلا منها على قطاع مختلف من خشبة المسرح ، يعرض عليه مشهد من العرض المسرحي ، بينما تعرض الأفلام السينمائية على البانوراما الأمر الذي تتشوه معه الأشكال بفعل ثنيات الخيش . وكانت موضوعات هذه الأفلام الأحداث الكبيرة ، السياسية ، والعسكرية ، المرتبطة بفترة خدمة راسبوتين في بلاط رومانوف ، بشكل يؤدي إلى توضيح الخطوط التاريخية لقدر أوروبا . وقد لعبت السينما في هذا العرض ثلاث وظائف : التعليم ، والتفسير ، والمناخ الدرامي . فالوظيفة الأولى تتحقق بتوسيع دائرة الأحداث التي تجري على خشبة المسرح ، بحيث تبدو نتيجة منطقية لما كان يحدث في الماضي . والوظيفة الثانية تتحقق باستفزاز الجماهير إلى ممارسة النقد والاتهام . أما الوظيفة الثالثة فإنها تتحقق باعتبار أن ما يقدمه الفيلم هو في الواقع بديل لما لا يستطيع الممثلون تقديمه على خشبة المسرح لأنه في هذه الحالة سيكون مصطنعا وغير مقنع(١٠).

وإذا أضفنا إلى استخدامه للأفلام السينمائية كوسيلة لتوسيع مجال الحدث ، وربطه بالظروف التاريخية ، وإبراز دلالاته السياسية ، استخدامه لوسائل أخرى مثل اللافتات والشرائح الزجاجية ، والأفلام التسجيلية ، فإننا نتبين في أعماله الأخرى بداية فكرة المسرح الملحمي ، التي قام برتولت بريشت بعد ذلك بتطويرها لخدمة نفس الهدف السياسي التعليمي الذي بدأه بيسكاتور . ومن خلال استفادة بيسكاتور من امكانيات التقدم التكنولوجي في العرض المسرحي ، فإنه ، كما يقول بريشت ، حول خشبة المسرح إلى قاعة آلات ، وحول صالة العرض إلى قاعة اجتماعات . ويضيف بريشت قائلا :

وبالنسبة إلى بيسكاتور كان المسرح برلمانا ، والجمهور هيئة تشريعية . وقد عرضت أمام هذا البرلمان بوضوح المسائل العامة الكبيرة التي هي بحاجة إلى قرار . وبدلا من خطبة النائب حول ظروف اجتماعية لا يمكن تفاديها ظهرت نسخة فنية لهذه الظروف . وطمع المسرح بدفع البرلمان ـ الجمهور ـ استنادا إلى الصور المسرحية والإحصائيات والشعارات الى اتخاذ قرارات سياسية . ولم يستغن مسرح بيسكاتور عن التصفيق ، لكنه طمع أكثر من ذلك بالنقاش . ولم يسع إلى تهيئة تجربة لمشاهده ، وإنما دفعه الى اتخاذ قرار عملي بالتدخل في الحياة بنشاط(١١).

كان بيسكاتور مضطرا إلى ابتكار هذه الأساليب حين فشل في أن يجد مسرحيات تنطلق من موقف اشتراكي . غير أنه وجد أن الامكانيات التكنولوجية لمثل هذه العروض التي تتلاءم مع أهداف مسرحه ، كانت تتطلب تمويلا لا يمكن للمسارح الشعبية أن تتحملها لذلك لم يكن أمامه إلا أن يعمل من خلال المسارح البرجوازية ، غير أن هذه الأجهزة

---

(١٠) سعد اردش : المخرج في المسرح المعاصر ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٩ ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص١٩٨ .

(١١) برتولت بريشت : حول المسرح التجريبي ، سبق الاستشهاد به ص١٨١ .

بدأت تفرض عليه الدخول في مساومات أيديولوجية ، وتنازلات ، مما اضطره آخر الأمر إلى التخلي عن عروض مسرحية تستخدم آلات وتكاليف ضخمة ، والاتجاه إلى المنظمات العمالية ، وكانت هذه تتألف من فرق عمالية بسيطة ، وفرق هـــواة تعمل بامكانيات متواضعة في مسارح النوادي . وقد أدى إغلاق المسارح البرجوازية الكبيرة في وجه مثل هذه العروض الى أن يحاول فنان المسرح أن يلائم بين تقنيات العمل وبين الوسائل المتواضعة المتاحة للفرق العمالية ، كان هذا هو الدور الذي كان على برتولت بريشت أن يستكمله في مسرحه الملحمي .

●●●

من الأفكار الشائعة بيننا في العالم العربي أن برتولت بريشت بدأ حياته الفنية كاتبا تعبيريا بمسرحية **طبول في الليل** التي عرضت لأول مرة في ميونيخ ، ١٩٢٢ . وربما استند هذا التفسير إلى أن بريشت يتناول في هذه المسرحية نفس الموضوع الذي كان يتناوله تعبيريون آخرون مثل كايزر وتوللر ، وهو موضوع الجندي العائد من ميدان القتال ليجد حبيبته قد خطبها أحد أغنياء الحرب ، فينضم إلى الثوار ، لكن خطيبته تلحق به ، فيهجر الثوار ويمضي معها . وربما تلتقي هذه المسرحية مع المسرحيات التعبيرية في اهتماماتها السياسية ، وتعريتها للعلاقة بين الرأسمالية والاستغلال والحروب . كان هذا هو التفسير الذي أضفاه عليها إخراج مسرح الجيب بالقاهرة ، ١٩٦٦ . لكن المسرحية في الواقع لا تعالج التمزق الداخلي في الشخصية ، بل التمزق في العلاقات الانسانية ، وتكشف طبيعة هذه العلاقات في مجتمع تسوده الثورة والانحلال الخلقي . بل إنها تحمل البذور الأولى لمسرح بريشت الملحمي[١٢] من توجه بخطاب مباشر إلى الجمهور ، وتنبيهه إلى أن ما يجري على خشبة المسرح ليس إلا تمثيلا . وهكذا تحطم المسرحية الإيهام المسرحي ، وتدعو الجمهور إلى التفكير . كذلك يدخل بريشت العالم الموضوعي إلى مجال الحدث ، بحيث يؤكد عالم الثورة ، والعلاقات البشرية ، لا عالم الذات .

بل إن موقف بريشت من التعبيرية كان موقفا واضحا . فقد كان يكره ، كما يقول جون ويليت ، أن يصنف مع التعبيريين لما يطرحونه من أفكار طوباوية مجنحة ، في أشكال فضفاضة ، ولإغراقهم في الذاتية التي لا تسمح للمسرح أن يخلق شعورا جماعيا مشتركا . ويورد ويليت قول بريشت عن مسرحيات إرنست توللر :

> انها في أحسن حالاتها كلام جرائد موزون . الرؤى فيها مسطحة ، يحسن بنا أن ننساها على الفور . الكون فيها مهلهل . والانسان مصور على أنه مادة ، بيان سياسي ، لا على أنه انسان . الانسان مجردا ، مفرد انسان ، وأموره قد أوكلت إلى أيد هزيلة[١٣] .

---

(١٢) راجع لكاتب المقال :

١ - « بريخت عن العرض الملحمي » ، مجلة المسرح ، العدد ٢٦ ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٦ ، ص٧١ - ٧٤ .

٢ - « طبول في الليل » ، مجلة المسرح ، العدد ٢٢٩ القاهرة ، مايو ١٩٦٦ ص٣٢ - ٣٥ .

٣ - « المسرح الملحمي عند بريخت » ، مجلة المسرح ، العدد ٣٥ ، القاهرة نوفمبر ١٩٦٦ ، ص١١ - ١٥

٤ - « الانسان الطيب » ، مجلة المسرح ، العدد ٣٨ ، فبراير ١٩٦٧ ، ص٤٢ - ٤٤ .

(١٣) See John Willett, The Theatre of Bertolt Brecht, London, 1967 ed pp.107 -108.

والواقع أن ما حققه بريشت في هذه المسرحية ، وفيما تلاها : **بعل (١٩٢٣) وفي ظلمات المدينة ، والانسان هو الانسان** ، لم يكن إلا نوعا من الواقعية الجديدة التي مهدت لمسرحه الملحمي كما نعرفه ، حتى في ملامحها السياسية .

ولم تكن محاولة بريشت تطوير الشكل المسرحي من المسرحيات الواقعية الجديدة ، مرورا بالمسرحيات التعليمية التي تبرز الجوانب السياسية من خلال مناقشة جدلية[١٤] إلى المسرحيات الملحمية التي كتبها أو أعدها عن مسرحيات أخرى[١٥] سوى محاولة للوصول إلى أكثر الأشكال دقة في توصيل رسالة مسرحه السياسية . ولقد قامت بعض المحاولات لعزل مسرحياته الملحمية عن المسرح السياسي نتيجة لعدم توخيه أسلوب الجدل المباشر فيها . وفي هذا يقول ماكس شريدر :

> إن مسرح بريشت مرتب بمقدرة فائقة للحد الذي يحاول فيه أرباب الفن أن يقيموا الدليل على وجود تناقض بينه وبين المسرح السياسي . والحق أن مسرح بريشت قد وصل إلى تفوقه الفني واستطاع أن يخرج الحقائق السياسية إلى النور ، كما أنه يكرس كل ذكائه لإزالة الأنقاض ولبناء مجتمع رجال سياسة الكوارث[١٦] .

الحقيقة ، إذن ، أن بريشت قد وجد الشكل الدرامي التقليدي عاجزا عن توصيل أية رسالة سياسية بشكل يضمن استفزاز المتفرج ، وتحريضه على أن يكون إيجابيا في العمل لتغيير الواقع الاجتماعي . لقد عرف ارسطو الدراما التقليدية بأنها عرض يحاكي حدثا كاملا بذاته ، وأن هذا الحدث لا يروي وإنما يعرض بواسطة الأشخاص المشتركين فيه . وهذا الحدث يثير الشفقة والرهبة ، وبذلك يطهر نفوس المتفرجين عن طريق إثارة إشفاقهم على الشخصية التراجيدية ، وخوفهم من أن يحل بهم نفس المصير .

ولنبدأ هنا بالحديث عن الفرق بين الأثر الذي يخلقه الشكل الدرامي والأثر الذي يخلقه الشكل الملحمي ، قبل أن نصل إلى تحديد مفهوم المسرح الملحمي .

إن المسرح الملحمي يعترض على إثارة الشفقة والرهبة في نفس المتفرج ، بقصد تطهير عواطفه ، وعلى جذب المتفرج داخل الحدث بحيث يتوحد مع البطل وينسى ذاته نسيانا تاما ، وعلى إثارة الإيهام بواقعية الأحداث في نفس المتفرج كوسيلة لتحقيق هذين الهدفين . فهو يرى أن المتفرج ، في مثل هذه الدراما التقليدية ، يفقد القدرة على التفكير فيما يجري أمامه ، ويسلب القدرة على مواجهة المشاكل السياسية وحلها بشكل فعال يقضي على أصل المشكلة المطروحة ، بعد أن تكون عواطفه قد تطهرت .

وقد كان هدف بريشت الأول أن يجعل المتفرج يرى العالم الحقيقي ، ويفهمه ، أن يجعله يفهم كيف تدور الحياة في المجتمع الرأسمالي المعاصر بحيث يسعى إلى تغييره . كانت هذه هي الرسالة السياسية التي كرس لها مسرحه الملحمي . ولهذا فإنه راح يقيم مسرحه على أساس عقلاني يكاد يخلو من

(١٤) الرجل الذي يقول نعم والرجل الذي يقول لا ، الاجراء ، القاعدة والاستثناء .

(١٥) اوبرا بثلاث بنسات ، المرأة الطيبة من ستشوان ، دائرة الطباشير القوقازية . الأم شجاعة ، حياة جاليليو ، القديسة جون .

(١٦) ماكس شرويدر ، « الاسلوب المسرحي عند بريخت » ترجمة محمد خليل خليفة ، مسرح التغيير ، سبق الاستشهاد به ، ص٨٥ ـ ٨٦ .

العاطفة في أداء الممثل ، أو في تلقي المتفرج ، بحيث لا يتوحد المتفرج مع الممثل فيفقد بهذا قدرته على إعمال عقله . فالمسرح الملحمي لا يخاطب العواطف ، بل يخاطب العقل ، بهدف توجيهه إلى الأفكار الثورية التي تتضمنها المسرحية .

فقد كان هم بريشت الأول أن يركز المتفرج انتباهه على المضمون السياسي في مسرحه . كان هذا هو الهدف الذي سخر له كل عناصر العرض من ديكور ، وأداء ، وحرفية مسرح ، وموسيقى وإضاءة ، والمؤثرات الأخرى من شرائح وأفلام . كل هذه المقومات تخضع عنده لنوع من الواقعية الجافة ، واقعية عصر العلم والآلة بحيث تتحول وسائل التسلية إلى وسائل تعليم تشحذ إمكانيات المتفرج العقلية ، وتحفزه إلى تغيير واقعه .

وكما هاجم بريشت فكرة التطهر ، كذلك هاجم فكرة الإيهام في الدراما التقليدية . ففي رأيه أن المؤلف ، والمخرج ، والممثل الذين يهدفون إلى خلق إيهام قوي بأن ما يجري على خشبة المسرح إنما هو أمر واقع فعلا الآن في لحظة المشاهدة ، إنما يتآمرون على المتفرج . فتوحد الجمهور مع الشخصيات يجعل التفكير مستحيلا تقريبا ، لأن نفوس الجمهور التي تزحف إلى داخل نفس البطل ، ترى الحدث كلية من وجهة نظره . وبما أنهم يتابعون ما يجري أمامهم على أنه حقيقي ، فإنهم لا يتوقفون لكي يفكروا بروح نقدية في المعنى السياسي للمسرحية .

ورأى بريشت في هذا صريح . فالمسرح لابد من أن يحاول تحطيم أي إيهام بالحقيقة . ولذلك لابد من أن يكون واضحا لدى المتفرج أنه لا يشاهد أحداثا واقعية تجري أمام عينيه الآن ، ولكنه جالس في مسرح يسمع تقريرا حيا ، واضحا ، عن أحداث حدثت في الماضي ، في وقت ما في مكان ما . وعليه أن يسترخي في مقعده ، ويفكر في الدرس الذي يتلقاه عن هذه الأحداث الماضية . ومن هنا كان المسرح الملحمي مسرحا تاريخيا يذكر الجمهور بأنه يتلقى تقريرا عن أحداث حدثت في الماضي ، لا أحداث تجري الآن .

ثم إنه مسرح سياسي ، ينقل رسالة على المتفرج أن يستوعبها من خلال الانفصال عن الشخصيات والأحداث ، لا التوحد معها . وعلى المخرج أن يحاول بكل الوسائل خلق تأثيرات تحافظ على انفصال الجمهور وتغريبه عن الحدث ، كأن يجعل الشخصيات تقدم نفسها مباشرة إلى الجمهور ، أو أن تسقط أسماؤ ها على شاشة . ويستطيع أن يخبر الجمهور مقدما بنهاية المسرحية ، وبهذا يحرر عقل المتفرج من التشتت الذي يفرضه التوتر في المسرح التقليدي . كما يستطيع أن يستخدم رواية يصف أفكار الشخصيات والدوافع التي تحركها . وبهذا كان بريشت يقول إن المسرح مسرح ، وليس الحياة ذاتها .

كذلك كانت عناصر العرض المختلفة تخدم نفس الهدف . ففي ديكور المسرح التقليدي يهدف المصمم أيضا إلى خلق إيهام بحقيقة المكان . أما ديكور مسرح بريشت فيلغي الإيهام بهذه الحقيقة . فمصمم الديكور لا يعيد بناء منظر واقعي ، بل يتجنب وضوح الطبيعة من خلال اختيار دقيق من تفاصيل الواقع . . فبدلا من غرفة كاملة يختار جانبا منها : مجرد حائط أو باب ، أو قطعة أثاث ، بأسلوب تلخيصي ، أو كما قال بريشت لمصمم ديكور الأم مورد خاي جورليك :

ليكن لدينا منصة ، وسوف نضع على هذه المنصة كراسي ، ومناضد، وفواصل ، كل ما يحتاجه الممثلون ، ولكي نعلق ستارا أعطني عامودا خشبيا ، أو قضيبا معدنيا . ولتعليق صورة أعطني جدارا . وسوف أحتاج شاشة كبيرة للعرض . لتكن رشيقة ، نحيلة ، ناعمة ، مثل الأعلام اليابانية ، هشة مثل الطائرات والمصابيح الورقية اليابانية ، واعمل حسابك أن تجعلنا ندرك النسيج الطبيعي للخشب والمعدن . وسوف نضع آلتي بيانو بشكل واضح في جانب من منصة المسرح ، ويجب أن تكون للمسرحية نوعية الكونسرت ونوعية الدراما . وسوف نبين وحدات الضوء وهي تضيء وتنطفىء ، وتتلاعب فوق المشهد(١٧) .

كذلك يظل ستار المسرح مفتوحا حتى يرى المتفرجون إعداد المنظر ، وكيف يشيد ، وكيف يزال أمامهم ، ليظلوا واعين بأنهم في مسرح ، وذلك لكسر الإيهام . ولنفس السبب تظل مصادر الضوء مكشوفة ، وتظل الإضاءة بيضاء صريحة حتى لا تستوعب المتفرج أية إضاءة ملونة مبهرة .

أما الموسيقى كعنصر تغريب في العرض الملحمي فهي أشبه بوحدة مستقلة لها كيان قائم بذاته . فهي ليست كالموسيقى تصاحب الحدث ، وتكون عاصفة في المناظر العاصفة ، وهادئة في المناظر الهادئة . لكنها تضاد الحدث ، فنسمع الموسيقى الهادئة في المشاهد العاصفة ، في علاقة تضاد جدلية تفصل المتفرج عن الحدث .

وأسلوب أداء الممثل يعتمد على ألا يعتبر الممثل نفسه متقمصا للشخصية ، بقدر ما هو قصاص يسرد علينا أفعال شخصية أخرى في لحظة من الماضي . فهو أشبه برجل يعيد على مسامعنا حادثة رآها تحدث لشخص آخر . ويعيد علينا روايتها . فبما أنه لا يريد أن ينقل المتفرج إلى حالة غيبوبة يفقد فيها وعيه ، فلابد أن يظل محتفظا هو الآخر بحضوره ، وتمالك حواسه ، وأن يبتعد عن الإيماءات العصبية ، ويكتفي بالإيماءات التي تكفي لحكاية قصة ، أو كما جاء في كتاب **عمل المسرح** لمسرح البرلينر انسامبل : « ان التمثيل في المسرح الملحمي يعني سرد حكاية »(١٨) .

ولعل هذا في التحليل الأخير ، ما يعنيه « المسرح الملحمي » . فهو ، عكس المسرح التقليدي ، ينقلنا إلى عالم الحكايات البعيدة ، عالم السرد التاريخي الملحمي . فمن الشائع عندنا أن نتكلم عن أساليب التغريب ، ونعني بها المسرح الملحمي . أما التغريب فليس في حقيقة الأمر سوى وسيلة لسرد ملحمة ، ولتصوير الأحداث على أنها حالة تاريخية تنتمي إلى الماضي ، حتى ولو كانت معاصرة . المسرح الملحمي ، إذن ، مسرح سردي تاريخي يحكي لنا قصة . والقصة هي تتابع أحداث تكون التجربة الاجتماعية ، وتصور تفاعل الشخصيات إحداها مع الأخرى . وهذا التفاعل هو الذي يبرز لنا مغزى التجربة الاجتماعي . ومن خلال التركيز على التعبير عن السلوك الاجتماعي لانسان تجاه آخر يحول بريشت الاهتمام من حياة الشخصيات الداخلية إلى الطريقة التي تسلك بها تجاه إحداها الأخرى ، أو بمعنى آخر إلى العلاقات الاجتماعية ، ومغزاها السياسي .

---

(١٧) **Reprodueed by John Willett, op. cit., p.149.**

(١٨) « عمل بريشت مع الممثلين » ، من كتاب (العمل الفني) فرقة برلين ١٩٥٢ ، ترجمة محمد خليل خليفة ، المرجع السابق ص٩٧ .

ولعل المشاهد لا يفتقد في كل هذا المتعة التي يتوقعها من المسرح . هي بالتأكيد ليست المتعة العاطفية التي نستأثر بلبه في العرض الدرامي التقليدي . لكنها متعة جمالية حسية تصل إليه من خلال تأثيرات الديكور وبناء المشهد ، ومتعة جمالية عقلية من خلال جدليات الصراع في العمل نفسه ، والعلاقة الجدلية بين الوسائل المختلفة ، بين الموسيقى والمشهد الذي يؤدي مثلا ، وهي أيضا متعة اكتشاف المعنى ، وشحذ القدرة على الفعل والتغيير .

بهذه الأساليب كان بريشت يهدف إلى استخدام المسرح كوسيلة لخدمة المجتمع . فلقد كان مؤمنا بأن المسرح الملحمي بتركيزه على تصوير الانسان في علاقاته الاجتماعية ، كان قادرا على إيقاظ قدرات المتفرجين لإحداث تغيير في المجتمع . فهو لا يترك ، كما في المسرح التقليدي للمتفرج أن يستخلص النتائج الممكنة من العرض . بل إنه يزودنا بالخلفية الاجتماعية ، ويعلق عليها من خلال الراوي . فعن طريق إبقاء المتفرج في حالة عقلية نقدية تمنعه من رؤية الصراع كلية من وجهة نظر الشخصيات ، ومن تقبل عواطفها ودوافعها على أنها محكومة بالطبيعة البشرية والمجتمع ، ولا يمكن تغييرها ، يستطيع المسرح أن يجعل المتفرجين يرون التناقضات الموجودة داخل المجتمع ، وأن يجعلهم يسعون لتغييرها .

●●●

لم يكن من الغريب أن يتأثر المسرح الامريكي بموجة المسرح السياسي الالماني . فقد كانت بدايات الأزمة الاقتصادية الامريكية محسوسة حتى قبل أن تقع في ١٩٢٩ ، حين وجد ثمانية عشر مليون عامل أنفسهم عاطلين . وبالتالي تأثر المسرح الامريكي بالممارسات الفنية التي بدأها التعبيريون ورواد المسرح السياسي والملحمي ، خاصة وأن بيسكاتور نزح الى امريكا في ١٩٣٢ ، حيث عمل أستاذا بمعهد ومسرح ورشة الدراما ، وهناك أنشأ مسرحا تجريبيا ، وتتلمذ على يديه الكثير من الطلبة قبل ان يعود الى المانيا في عام ١٩٥٠ . كما أن بريشت الذي بدأ منفاه الاختياري في ١٩٣٢ ، انتهى به المطاف في امريكا في ١٩٤٧ حيث كانت كتاباته في الصحف والدوريات الاوروبية قد سبقته ، وحيث وصل الى قمة نضجه الفني في صياغة المسرح الملحمي . وكان من بين من عملوا معه المصمم المسرحي موردخاي جورليك الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي سيرد ذكره فيما يلي :

وهكذا نجد بعض كتاب المسرح ، وعلى رأسهم جون دوس باسوس ومايكل جولد ، يتجهون في عام ١٩٢٧ الى تأسيس مسرح جديد باسم « مسرح الكتاب الجدد » . كان هذا مسرحا يعكس وجهة نظر يسارية ، ويهدف الى مزيد من مزيج من الفن والسياسة معا ، خاصة وان من بينهم من كان ماركسيا مثل جولد ، او متعاطفا مع الفكر الماركسي مثل ام جو باش . وقد تأثر هذا المسرح بحرفيات المسرح البنائي الروسي عند فيزفولد مايرهولد ، واسكندر تايروف ، كما تأثر بالمسرح التعبيري والسياسي في المانيا .

وقد اسهم كتاب هذا المسرح الجديد بالعديد من الأعمال[١٩] ، كانت كلها أعمالا ثورية من نوع الدراما التحريضية ، على غرار الاعمال التي كانت تقدم في اوروبا ، تدور حول الحياة الامريكية . لكنها كانت تختلف في أنها

---

(١٩) جون هوارد لوسون ، مكبر الصوت (١٩٢٧) النشيد العالمي ، (١٩٢٨)، مايكل جولد ، انغام هوبوكين الحزينة (١٩٢٨) ، ام جوباش ، الارض ، القرون(١٩٢٧)، جون سيفتون ، الحزام (١٩٢٨) ، ابتون سنكلير ، المسجونون الصداحون (١٩٢٨) ، جون دوس باسوس ، مؤسسة الخطوط الجوية (١٩٢٩) .

استخدمت الأسلوب الطبيعي ، الذي رفضه التعبيريون وبيسكاتور وبريشت ، في تصوير بذخ حياة رجال الاعمال الأمريكيين وبحثهم عن الجنس والسلطة ، وصراع نقابات العمال معهم ، والاستغلال الذي كان يتعرض له العمال والأقليات من السود واليهود على حد سواء . غير ان العروض التي قدمها المسرح كانت عروضا تتوخى البساطة دون الابهار فقد كانت الديكورات التي قام بتصميمها موردخاي جورليك ، وجون دوس باسوس تتوخى البساطة في تصميمها ، بحيث لا تعدو ان تكون تركيبات من الدرجات والمنصات الخشبية على خلفية عارية ، او كتلتين خشبيتين يحتل احداهما ممثلو الطبقة المستغلة من الاثرياء ويحتل الاخرى ممثلو العمال ، ويفصل بينهما ممر يرتفع في آخره برج . وكانت تشترك في العرض فرقة من موسيقى الجاز ، وكورس غنائي لمنع المتفرج من الاندماج في العمل والتركيز على القضية السياسية المطروحة[٢٠] .

غير ان هذا المسرح كان قد سبقه في ١٩٢٦ قيام المسرح العمالي ، الذي كان يتألف من اثنتي عشرة مجموعة تتحد في مجلس عمال درامي ، ويشرف على قيادتها مسرح العمال المعملي . كانت هذه المجموعات مكونة على غرار المجموعات التي تأسست في روسيا بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، وكانت تقدم عروضا نضالية في ساعات الراحة ، او في اثناء الاجتماعات العمالية . كان الممثلون عمالا يعرضون امام زملائهم بهدف نشر الوعي الطبقي بين العمال . بل انهم اتخذوا شعارا لهم : « طبقة ضد طبقة » . ولما لم يكن لديهم مسارح مجهزة يعرضون عليها ، فقد كانت التجهيزات والازياء التي تلزمهم بسيطة . مثل هذا المسرح لم يكن يلزمه اعمال محبوكة تتألف من مادة معقدة عسرة الهضم بالنسبة لجمهور كان كله من بين العاملين من المحلات التجارية والمخازن الاستهلاكية والمصانع ولا يستطيع متابعة حدث معقد طويل ، او هضم عمل لا يتوخى المباشرة . لهذا فقد اعتمد كليا على لوحات من حواريات قصيرة عن موضوعات الساعة ، تهدف الى الدعاية والتحريض .

وقد اتخذت اعمال المسرح العمالي شكل لوحات من أغان ورقصات تؤديها جوقة من العمال . وكانت كلمات الأغاني وحركات الراقصين تشبه اعمال جورج كايزر وارنست توللر التعبيريين الالمانيين . غير انها كانت تتخذ احيانا شكل مسرحية هزلية قصيرة بين عامل يساري وصاحب العمل الذي يعضده وزير وزعيم عمالي ، في حوار يحاول فيه العامل ان يسحق اعداء العمال ، وان يدعو العمال الى الانتظام في الحزب الشيوعي . وكانت المسرحية تنتهي بالنشيد الوطني العالمي تؤديه الجوقة .

ولم يلبث هذا النوع من المسرح ان اتجه الى نوع من الدراما التعليمية ، على غرار مسرحيات بريشت التعليمية ، تخلو من الصياح ، والدعوة الى الثورة ، والسباب ، والتصوير الكاريكاتيري للشخصيات ، وان ظلت دعائية

---

(٢٠) See Malcolm Goldstein, The Political Stage, American Drama and the Theatre of the Great Depression, N.Y., 1974.

وقد اعتمد هذا الجزء من البحث الحالي في جمع الحقائق عن المسرح السياسي ، دون الرأي الذي خرجنا به من قراءة هذه الحقائق ، على هذا الكتاب .

تحريضية . بل ان الحركة عمدت الى فتح ستديو يقوم فيه ممثلون ومخرجون مشهورون بتدريب مجموعة من العمال ، كان من بينهم الكاتب المسرحي الذي لمع اسمه فيما بعد ، كليفورد اوديتس . وقد انضم الى العمل مع هذه المجموعة اعداد من العمال الذين كانوا يعملون ممثلين غير متفرغين . ولم يلبث هذا الاستديو ان تحول الى « مدرسة المسرح الجديد » ، كما تأسست جمعية عمالية لتدريب العمال على الرقص . واتجهت الحركة الى تقديم عروض مسرحية ماركسية تدعو الى النضال ضد الرأسمالية والمجتمع الطبقي .

وكان من نتيجة هذا التطور ان قام بعض العمال بخلق اعمال درامية محبوكة تقوم على تصوير موقف متصاعد تتغير فيه مواقف بعض الشخصيات العمالية التي تميل الى اليمين . كانت هذه المسرحيات تدور حول الصراع الطبقي ، واستغلال العمال . وقد اسقطت هذه الاعمال جانب الدعاية التحريضية المباشرة ودعت الى ما اسمته « مسرح الفعل »، وان لم يخل هذا المسرح تماما من العنصر الدعائي التحريضي .

ومن ابرز هذه الاعمال كانت مسرحية كليفورد اوديتس في انتظار ليفتي وتدور احداثها حول اضراب سائقي سيارات الاجرة . وقد قدمت المسرحية على مسرح عار ، حيث تجمع الممثلون في شكل عرض غنائي ، وراح كل واحد منهم ينهض من وسط المجموعة ليؤدي دوره ، ويشرح اسباب طرده من عمله ، مؤيدا الدعوة الى اضراب . وكانت الخطة التي تقوم عليها المسرحية تجمع بين مشاهد من حياة العمال ، تتلوها فقرات من الحوار تكشف الطبقة المستغلة ، وتنتهي بتضامن العمال وتبنيهم الدعوة الى النضال . وربما كانت المسرحية تدور حول مشاكل فئة من الطبقة الوسطى الصغرى ، لكن الهدف كان بالفعل اجتذاب تعاطف هذه الفئة مع طبقة العمال .

وقد اجتذب هذا النوع من المسرح عددا من الاكاديميين والكتاب من العناصر الليبرالية ، الذين وجدوا في هذا اللون شكلا جديدا يسمح بالتجريب . وهكذا انضم الى هذه الحركة اثنان ممن كانوا يقومون بتدريس الدراما ، هما هالي فلاناجان ومارجريت كليفورد ، بمسرحية **هل تستطيع ان تسمع اصواتهم** ، كانت المسرحية تنويعا على الدراما الدعائية التحريضية ، تقوم على الاسس الدعائية من ناحية تقسيم المسرح الى جانبين يحتل احدهما فئة تمثل السلطة والثراء ، ويحتل الجانب الآخر مجموعة تمثل العمال والفقراء والضعفاء ، ويتبادلان فيما بينهما الشد والجذب .

ثم قام تشارلز ووكر ، وهو روائي وباحث في اقتصاديات العمل ، بانشاء **اتحاد المسرح** ، وقد ضم في عضويته كل اصحاب المبادىء ابتداء من الليبراليين الى اليساريين الثوريين ، بحيث لم يعد للمسرح هوية سياسية معينة . ولعلنا نستطيع ان نستخلص من هذا ان دخول المثقفين الى حركة العمال المسرحية قد ادى الى تمييع قضيتهم . ويتضح هذا في ان الدعوة الى الثورة فقدت دفعها ، وحلت محلها الدعوة الى الديمقراطية . هذا هو ما نلمسه في الجزء التالي من بيان المسرح ، رغم اللغة اليسارية التي صيغت بها اجزاؤه الأخرى ، أو تعقيبات أخرى اكثر ثورية . يقول البيان :

اننا نعرض مسرحيات تتناول بجرأة الصراعات الاجتماعية الجارية ، والمشكلات الثقافية والعاطفية

والاقتصادية التي تواجه الأغلبية . ومسرحياتنا تخاطب مباشرة هذه الأغلبية التي عادة ما يتجاهلها المسرح او يصورها بشكل كاريكاتيري . ونحن لا نتوقع أن تتلاءم هذه المسرحيات مع الأنماط الاجتماعية المتعارف عليها . فهذا نوع جديد من المسرح الاحترافي ، يقوم على اهتمامات وآمال الجماهير الغفيرة من العمال(٢١) .

وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه الجديد كان يضم جماعة من خريجي الجامعات الذين كانوا يؤمنون بالحل الاشتراكي ، واعين باستغلال الرأسمالية للعمال وبأن أصحاب الأعمال هم أصحاب المصلحة في إشعال نار الحروب التي يدفع العمال أنفسهم ثمنها ، وعلى الرغم من دعوة المسرحة للعمال ان يتحدوا في وجه الحرب والطبقة الحاكمة ، الا ان همه الأول كان تحقيق توازن بين الدعوة إلى الفعل الثوري وبين أساليب مسارح برودواي في العروض . وهكذا راح يعرض مسرحيات تصور هزيمة شخصيات ذات نوايا طيبة تحاول النضال ضد السلطة القائمة ، كما تصور الصراع بشكل ميلودرامي ، أو بأسلوب طبيعي ، وهو الاسلوب الذي وجده المسرح الملحمي عاجزا عن تصوير العلاقات في المجتمع الطبقي . ويتضح هذا تماما من قراءة مسرحيات **وعلى الأرض السلام** لجورج سكلار والبرت مولتز ، **وستيفدور** لجورج سكلار وبول بيترز ، **وبحارة كاتارو** لفريدريك وولف . وقد أوجز أحد النقاد الرأي في مسار المسرح السياسي بقوله عن مسرحية الحفرة السوداء لألبرت مولتز :

> لقد اتخذ البرت مولتز خطوة باتجاه آخر مختلف عن المسرحيات السابقة . فأهمية هذه المسرحية ترجع الى انها تدلل على نمط مختلف في اختيار المادة وفي التناول . فاذا كانت مسرحيات مثل **وعلى الأرض السلام** ، **وستيفدور** ، **وفي انتظار ليفتي** تصور الانسان وهو يقاوم هجمات الرأسمالية ، ويقاتلها بلا هوادة ، ويقهرها ، على الأقل مؤقتا ، فان **الحفرة السوداء** تتناول انسانا مسحوقا . وكلا النوعين من المسرحيات يكشف قوى الظلم ، لكن النوع الأول يكشفها من خلال وسائل مباشرة ، والثاني بشكل غير مباشر . وكلا النوعين دعاية مؤثرة بالتساوي . لكن تظل هناك خاصية اخرى مميزة . ففي **ستيفدور** تصور افعال البطل تصويرا دراميا ، لكن الحفرةالسوداء لا تصور افعال البطل فقط بل الصراعات الخلقية والنفسية . وبعبارة اخرى ، اذا كانت **ستيفدور** تؤكد الفعل ، فان **الحفرة السوداء** تؤكد الشخصية وليس هناك بطبيعة الحال ما يستبعد كلا من الشخصية والفعل من ان يوجدا في مسرحية بنفس الدرجة . وليس هناك ، فيما نرى ، أي شيء في تناول المادة التي تحدد الضغوط تناولا مباشرا ، أو غير مباشر . وما زال أمامنا في امريكا ان ننتج مسرحية ثورية تحقق توازنا فعالا بين الصراع الداخلي والأحداث الخارجية ، بين دراما الفرد ودراما طبقته(٢٢) .

إنه في الحالين يؤكد على تخلي المسرح عن الرسالة السياسية كما نراها في المسرح السياسي او في المسرح الملحمي .

---

(٢١) Ibid., p.59.

(٢٢) Ibid., p.74.

كما أن هذا الاستعراض الذي أوردناه يؤكد أن المسرح السياسي في امريكا بدأ يتجه ـ بدخول العناصر المثقفة فيه ـ إلى تصوير دراما الفرد أكثر من التأكيد على العلاقات البشرية في المجتمع الطبقي ، كما نراها في المسرح الملحمي . أو لعله ، في أحسن أحواله ، كان صيغة أمريكية أخرى مختلفة عن صيغة المسرح السياسية والمسرح الملحمي الالمانيين اللذين حاولنا التعرف عليهما .

هذا الفرق الجوهري يتضح في اتجاه المسرح الامريكي ، في مرحلته الأخيرة في النصف الثاني من العقد الرابع ، إلى العروض المبهرة كما في فتى النسر الذهبي لسيلفين ليفي ، أو في تبني أسلوب مسرح ستانيسلا فسكي الطبيعي ، وكذلك في استخدام الديكورات الفخمة الثقيلة ، والاستعراضات النسائية الراقصة المثيرة كما في السيدة المهذبة التي كتبها لوسون .

ولعل هذا التحول يمكن تفسيره في ضوء التحسن الاقتصادي الذي طرأ في منتصف الثلاثينات ، مما سمح للنزعة الفردية في المجتمع الامريكي أن تستعيد توازنها مرة أخرى . كذلك كانت يقظة المانيا تهدد بحرب عالمية أخرى ، مما كان يدعو الى تضامن كل القوى الاجتماعية للوقوف في وجه النازية ، مما ادى بالفعل الى اتجاه اليسار الى التحالف مع البرجوازية . كما ظهر اتجاه واضح ضد المسرحيات الدعائية التحريضية بحجة أنها « غير محترمة » وأنها حافلة بالشعارات . وهكذا لم تعد الدعوة الى الثورة هي الصيحة ، بل تحولت دعوة الى الديمقراطية ، والى حق الطبقات المختلفة في عرض وجهة نظرها . من المؤكد ، على أية حال ، أن المسرح السياسي المحترف تحول الى تقديم العروض المسرحية الموسيقية ، والاستعراضات الراقصة ، والكوميديا الاجتماعية الساخرة ، أي انه ، بعبارة أخرى ، تحول إلى مسرح اجتماعي ، وفقد صبغته السياسية .

●●●

ولعلنا مما تقدم نستطيع أن نلمس أن المسرح السياسي هو في أساسه مسرح أزمات . فهو لا يزدهر إلا في ظل الأزمات الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، سواء في ألمانيا الهزيمة والقهر النازي ، أو في امريكا الأزمة الاقتصادية . ولهذا فلم يكن من الغريب ان يحفر المسرح السياسي ، والمسرح الملحمي أثرا عميقا في المسرح العربي في ظل الصراع العربي ـ الصهيوني الذي ألقى بظله الكئيب على الساحة العربية ، وعلى وجه الخصوص بعد هزيمة ١٩٦٧ بكل آثارها التاريخية والانسانية .

هكذا جاء اتجاه الفريد فرج الى نوع من المسرح السياسي في النار والزيتون التي عرضت في المسرح القومي بالقاهرة في ابريل ١٩٧٠ . لم تكن بالضبط نفس المسرح السياسي الذي قدمه بيسكاتور ، ولا المسرح الملحمي كما نعرفه عند بريشت . كانت نوعا له نفس اساليب العرض الفنية ، ونفس الرسالة السياسية . لكن رسالتها تجيء بشكل اكثر مباشرة من خلال التسجيل الوثائقي لحقائق تاريخية سياسية ، الذي نجد شبيها له في المسرح التسجيلي عند بيتر فايس .

والنار والزيتون لا تعتمد على تصوير حدث شخصي ، او عالم ذاتي ، او تفاعل بين عالم الذات والعالم

الموضوعي . فهي مسرحية تتناول اساسا عالم الواقع الخارجي ، حيث صراع القوى الاقتصادية والسياسية التي تحاول تشكيل الواقع العربي المعاصر . والكاتب نفسه ينطلق من وعي بالغ الحدة بما يبغي طرحه . فهو يريد ، في المقام الأول ، أن يطرح قضية عامة ، لا قضية شخصية . فالقضية ، في نهاية الأمر ، قضية شعب ، ربما كان له وجه فلسطيني ، لكنه وجه يلوح على كل الأفق العربي . هو وجه له امتداده الجغرافي ، وجذوره التاريخية . ازاء هذه الخاصية العامة لا يملك الفريد فرج ان يتصدى لهذه القضية ، كما يقول في مقدمة المسرحية ، من خلال اختيار « قصة شخصية ، ذات دلالة شاملة ، لأحد الضحايا او لاحد المناضلين في هذه القضية »، فهو لا ينشد « اقل من طرح قصة شعب كامل »[٢٣] .

وإلى ذلك تظل القضية المطروحة ذات مستويات متعددة . فمن خلال طرح مؤامرة الرأسمالية العالمية ، والامبريالية ، والصهيونية لاغتصاب فلسطين ، يتوسل الكاتب الى طرح القضية على مستوى كوني ، بحيث تصبح الثورة الفلسطينية جزءا من الثورة العالمية في فيتنام ، انجولا ، بوليفيا ، وغيرها ، ضد الامبريالية في كافة وجوهها ، والتي اكتسبت في مرحلتها الأخيرة ملامح الصهيونية العالمية . وليس الهدف النهائي مجرد طرح القضية على هذا النحو ، بل استفزاز الغضب ، والشحن ، والتعبئة ، والتحريض .

مثل هذه القضية ذات الامتداد التاريخي ، والجغرافي لا يمكن ان نتصور لها اطارا منظريا محددا . ولذلك لا يملك المؤلف الا ان يطرحها على خشبة مسرح عار ، مستغلا كل وسائل المسرح السياسي والوثائقي ، وكل الوسائل التكنولوجية الممكنة . فهناك ستار من الضوء يفصل مقدمة المسرح عن عمقه ، واقل ما يمكن من التجهيزات اللازمة لتصوير بيئة منظرية لمشهد درامي قصير ، وهناك شاشة عرض سينمائي في عمق المسرح . على هذه تسقط مشاهد فيلمية ، او شرائح ثابتة ، لأرض التدريب في معسكر ، لمعالم طريق جبلي يشقه الفدائيون في طريقهم لنسف مصنع ذخيرة في مستعمرة اسرائيلية ، لمشاهد الاعتقال الجماعي ، والقتل الجماعي في كفر قاسم ودير ياسين ، لمشاهد الهجرة الجماعية فوق جسر اللنبي ، كما تسقط افلام تسجيلية اخبارية . وهذه الشاشة تكتسب نكهة محلية في استخدامها وسيلة لعرض من عروض خيال الظل تصور عربات تجرها بغال ، او لوريات محملة بركاب عرب ، قبل ان يتجسم الركاب على خشبة المسرح افرادا يخضعون للاعتقال ، والاغتصاب ، والتعذيب ، والقتل .

وبالاضافة الى استخدام السينما ، هناك استخدام لوحات تحمل احصائيات بتعداد فلسطين من العرب واليهود في ظل الانتداب الانجليزي قبل ١٩٤٨ ، وبمقدار مساحات الأرض التي كان يمتلكها العرب واليهود ، وبتعداد العمال الزراعيين العرب ، وظروف حياتهم وعملهم ، بالمقارنة الى نظائرهم من الاسرائيليين ، واحصائيات عن المدارس وظروف التعليم ، ونسبة الطلبة العرب الى الطلبة الاسرائيليين . وهناك ايضا لافتات بأسماء الشخصيات الصهيونية التي تشترك في اداء مشهد ، أو تلقي بمقولات تاريخية .

---

(٢٣) الفريد فرج ، النار والزيتون ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص٣

واستخدام هذه الوسائل لا يهدف فقط إلى نقل معلومات إخبارية تاريخية إلى المتفرج ، أو إلى نقل تقرير تاريخ فهو يخدم أيضا نفس هدف المسرح السياسي ، والملحمي ، في خلق مسرح آلي . والفريد فرج واع تماما بهذا ، إذ يقول في مقدمة مسرحيته :

انني اطمح بتأليف هذه المسرحية الى التقدم خطوة نحو المسرح الميكانيكي المركب ، مسرح التوفيق الكامل ، المسرح الذي يعمل كالآلات الدقيقة بقدرة وكفاءة ومهارة بحيث يكون لهذا الضبط الداخلي الدقيق قوة تضفي على مهارات الخلق الفني الطلق أطارها وإحكامها وحسن استثمارها[٢٤] .

كل هذه الخلفيات التقنية ليست الا وسائل لخلق مسرح شامل يقوم على تصوير مشاهد درامية تشخص صراعا انسانيا ، او معاناة انسانية تكشف علاقات القوى المتورطة في الصراع السياسي والعسكري ، كما يقوم على حكايات عن مآسي الهجرة الجماعية ، وحياة اللاجئين في الخيام ، والكفاح ، والاستشهاد ، وعلى تصوير لقاءات صحفية تذكر بمسرح الجريدة الحية ، وعلى الغناء الجماعي ، وتعليقات الجوقة ، والخطاب التقريري المباشر ، والتمثيل الصامت ، والرقص التعبيري الذي يعبر بالحركة عن كلمات المغنين على نحو ما نعرفه في مسرح بريشت .

المسرحية تستخدم إذن ، كافة الوسائل التي يتيحها المسرح الشامل لطرح قضية سياسية ، ولخلق مسرح دعائي تحريضي يستفز الجمهور الى فهم القوى السياسية ، الاقتصادية ، العسكرية ، التي تدير المعركة العربية الاسرائيلية . ومن خلال هذا الفهم يستفز المسرح الجمهور الى التحرك ضد الرأسمالية التي نسجت خيوط مؤامرة فلسطين ، وضد الامبريالية ، والنازية الصهيونية الجديدة ، لتغيير هذه الظروف بالقوة .

ولم يكن سعدالله ونوس في حفلة سمر من اجل ٥ حزيران أقل طموحا . فالتجربة التي تعرضها المسرحية لا يمكن ان تحدها حدود شخصية . ولم يكن في امكان الفنان ان يعبر عن هزيمة ١٩٦٧ على امتداد العالم العربي من خلال دراما شخصية ، او مجموعة من الشخصيات ، اوكما يقول عبدالغني الشاعر ، المؤلف المسرحي في هذه المسرحية : « . . المسرح . . اجل المسرح ، ولكن هذه المرة كم ان رقعته اوسع من الخشبة الصغيرة التي يمثلها مسرحنا »[٢٥] . حدة التجربة هنا ، واتساع رقعتها ، تفجر في الكاتب تصورا لشكل مسرحي جديد يحكمه هدفه السياسي الذي لا ينحصر فقط في التوعية ذلك انه يدرك ان وعي الجماهير اكثر اصالة من ان يزيف او ان يضاف اليه جديد ، بل في استحضار التجربة بكل ابعادها في لحظة حادة بهدف التعبئة والتحريض .

اننا هنا امام نوع من المسرح الواقعي الخشن ، مسرح شخصياته بلا ملامح شخصية ، ولا هموم خاصة . هي ، كما يقول المؤلف :

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص٨ .

(٢٥) سعد الله ونوس ، حفلة سمر من اجل ٥ حزيران ، بيروت ، ب . ت ، ص١٩ .

أصوات ومظاهر من وضع تاريخي معين . ان الافراد بذاتهم لا يملكون اية ابعاد خاصة ، وملامحهم ترتسم فقط بما يضيفونه من خطوط او تفاصيل على صور الوضع التاريخي العام الذي هو شكل المسرحية ومضمونها في آن واحد [٢٦] .

هذه الصفة التاريخية هي التي تسقط عن الشخصيات ، والحدث المسرحي ، اي مجاز ممكن ، او اسقاط ، او رمزية . فهي شخصيات لا تميزها ملامحها ، وتتجاوز هذه الملامح الى صفات نمطية ، اورموز ، بل تميزها في الاساس اتجاهاتها ، ومواقفها من الحدث الاكبر ، هزيمة حزيران . اننا بعبارة اخرى ، امام نوع من المسرح التاريخي الذي يهتم الى حد تعبير هيجل بتصوير « كلية الحركة »[٢٧] ، او كافة الاتجاهات الممكنة التي تتجسم في لحظة تاريخية حاسمة في حياة امة ، لتنصب على هذه اللحظة التاريخية . وهي شبيهة بمسرح بيسكاتور السياسي من حيث انها تركز على الخط العام ، لا على الخط الشخصي .

وتصوير هذا الوضع التاريخي يأخذ شكل الصراع بين المسرح الرسمي وما يمكن ان نسميه بالمسرح الشعبي : المسرح الرسمي الذي يحاول ان يبدي ولاءه للسلطة ، وان يساندها من خلال عروض تعتمد على خلق صور وتأثيرات درامية تفرغ الوضع التاريخي من محتواه الانفعالي والفكري ،والمسرح الشعبي الأكثر تلقائية ووعيا . الصراع في جوهره اذن ، صراع بين السلطة والجماهير الشعبية .

واللحظة التاريخية التي تتناولها المسرحية تتجسم على المسرح من خلال اتجاهين اساسيين : اتجاه يمثله المخرج ، واتجاه يمثله الناس . والاتجاهان يصطدمان حول الاسلوب الممكن لتصوير الكارثة . فالمخرج ، رغم ادراكه للظرف التاريخي الصعب الذي يسعى لتجسيده على المسرح ، يرى ان « الذاكرة ليست اختصاص المسرح ، لعلها اختصاص المؤرخ ، اما هنا فاختصاصنا الوحيد هو الفن . . . »[٢٨] وهو لذلك لا يزعم انه « يقدم نسخة وثائقية عما حدث . نحن هنا في سياق عمل مسرحي . . . »[٢٩] ، ويسعى الى تصوير الهزيمة من خلال تأثيرات سمعية وبصرية جمالية ، في صور لا تعبر عن الواقع ، بقدر ما تعبر عن تصور برجوازي مهترىء ، يخدر المتفرجين ، ويسلبهم القدرة على الفعل الايجابي في مواجهة الواقع المهين .

ولما كان الحدث السياسي في **حفلة سمر** يتم من خلال منظور جدلي يقوم على تصوير الفعل ورد الفعل ، فان تصور المخرج يـدفع الجمهور الى الاحتجاج على هذا الاحتيال على اللحظة ، والتآمر على مشاعره وعقله : « نحن عشنا الصورة الواقعية »[٣٠] ولهذا يتجه الجمهور الى احتلال خشبة المسرح لطرح صورة اكثر واقعية وحيوية وعفوية .

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص٣ ـ ٤ .

(٢٧) Georg Lukacs, op. cit., p.93.

(٢٨) سعد الله ونوس ، حفلة سمر ، ص ٨ ـ ٩ .

(٢٩) المرجع السابق ، ٢٧ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص١٠٢ .

ففي حين بدأت المسرحية بخشبة المسرح الرسمية تخاطب الجمهور ، تنقلب الآية بحيث تصبح الصالة هي التي توجه خشبة المسرح ، اولنقل تخاطب خشبة المسرح .

المخرج : . . . الخشبة لنا ومقاعد الصالة لكم . تلك ابسط قواعد المنطق . وسيعلمـك هذا كثيـرا مما كنت تجهله .

المتفرج : قلت لك حاول مرة ان تكون متفرجا[٣١] هكذا تتبادلخشبة المسرح والصالة مكانيهما . عندئذ تتحول خشبة المسرح الى مسرح سردي ، يستعير الكثير من ادوات المسرح الملحمي ، يحكي عن الحرب ، والهجرة الجماعية والاكاذيب التي كانت تلقى الى الناس . هي حكايات تروي قصة اللحظة التاريخية من وجهة نظر شعبية . وهي حكايات تأخذ في لحظات شكل الخطاب المباشر الذي يوجه الى الجمهور :

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٣ ـ ضد الغاصبين واللصوص .

المتفرج٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٥ ـ ضد حماة اللصوص .

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٦ ـ ضد الجوع والبؤس والموت كل يوم .

المتفرج ٤ ـ كانت تلك حربنا .

المتفرج ٥ ـ وتمنينا جميعا ان نكون ذلك الذي كالجنود يحمل بندقية ، لكنه لا يلبس ثيابا خضراء وعن الجنود يختلف[٣٢] .

ان ما كان يقال سرا ، ينطلق الآن في ارجاء المسرح جهرا . فقد حول سعدالله ونوس المسرح الى قاعة اجتماعات تسيطر عليها الجماهير . وفي هذا المسرح الاستفزازي التحريضي يجد المتفرج طرحا لقضاياه الجوهرية يحفزه الى التحرك ضد الاعداء الذي يتآمرون عليه من الخارج ، والأعداء الذين يتآمرون عليه من الداخل ، ضد الهزيمة التي تمت ، والهزيمة التي مازالت مستمرة من خلال قوى القمع ، وهي القوى التي تنقض في نهاية المسرحية من بين الصفوف لتكمم الاصوات التي اندلعت من فوق خشبة المسرح .

وفي لبنان ، كان من الطبيعي ان ينبثق ايضا ، في ظل الظروف التي يمر بها ، نوع من المسرح له نفس الأهداف السياسية . ومن ثم كان مسرح الحكواتي . وهو مسرح ينطلق من موقف رافض للمسرح التجاري الاستهلاكي الذي تقوم البرجوازية بتمويله ، ويقوم على عروض تستهدف الاثارة والتسلية ، مثلما هو رافض للمسرح الرسمي الذي تقوم الدولة بتمويله ، ويعبر عن وجهة النظر الرسمية ، ولا يسمح بالتعبير عن الرأي المعارض او وجهة النظر الشعبية . مثل هذين المسرحين يتسمان ، من وجهة نظر مسرح الحكواتي ، بانعدام الاصالة ، كما يتسمان بقمع الرأي المعارض . فالمسرح السائد « مسرح غربي وقمعي في جوهره »[٣٣] وهكذا يأتي مسرح الحكواتي مسرحا سياسيا في المقام الأول .

---

(٣١) المرجع السابق ، ص١٣٥ - ١٣٦ .

(٣٢) المرجع السابق .

(٣٣) « بيان مسرح الحكواتي » البيان ، العدد ١٦٣ ، الكويت ، اكتوبر ١٩٧٩ . ص٦ - ١١ .

هذا الموقف السياسي يتضح في خطوات العمل التي يحددها لانتاج عروض . فهو يبدأ من النقاش بين الاعضاء « من اجل الوصول الى وعي مشترك لمتطلبات الظرف والواقع ».[٣٤] والظرف والواقع ، اللذان ينطلق منهما النقاش ، يتسمان بالصراع بين البرجوازية والفئات الشعبية . وهو صراع يأخذ شكل تشابك مصالح البرجوازية والاستعمار والصهيونية من ناحية ، وتشابك مصالح القوى المحلية الوطنية التقدمية والمقاومة الفلسطينية من ناحية اخرى . لذلك كان « الوعي المشترك » الذي ينشد المسرح الوصول اليه ، وتوصيله ، وعيا سياسيا في المقام الأول .

هذه الهوية السياسية تتضح معالمها اكثر في توجه المسرح توجها شعبيا . فهو يختار اعضاء الفرقة من خلال نوعية ارتباطهم بالجمهور الذي يمثلونه . وهو في هذا يؤكد على انتماء الاعضاء الى « اصول شعبية »[٣٥] كما يعتمد في اختياره لموضوعات من الحكايات الشعبية والتراث والتاريخ ، وهي ما يشكل في الاساس الذاكرة الشعبية ، وينتقل بعروضه الى مواقع الجماهير في الاندية ، والجمعيات المحلية ، والفروع الحزبية ، وينشد انتشار العمل المسرحي « بين اوسع الفئات الشعبية[٣٦] وربما كان مكان العرض وامكانيات التمويل ، هي ما يفرض على عروض هذا المسرح البساطة في الديكورات والتجهيزات والاضاءة والازياء . لكن الهدف الاساسي في هذا كله ، وهو الهدف الذي وضعه المسرح نصب عينيه ، هو تكوين اسلوب مسرحي شعبي .

وربما نلتمس في اسلوب العرض ، واماكنه ، والتوجه الشعبي شيئا من اصول المسرح السياسي الامريكي : مثلما نلمس في الموضوعات المطروحة ، واعتماد الحكاية الشعبية مضمونا واسلوبا ، بعض ملامح المسرح الملحمي . فشأن المسرح الملحمي يعتمد العرض اساسا على الحكاية الشعبية التي تعيد الجمهور الى علاقته بواقعه ، كما يستخدم الراوي ، والأدوات المسرحية البسيطة والمكشوفة لخلق التغريب الذي يحقق الانفصال النقدي الذي يركز لدى المشاهد المدلول السياسي للحكاية المعروضة . والصفة الملحمية تتأكد في اعتماد مسرح الحكواتي على ان « يشترك الجميع في بلورة طبيعة العلاقات التي تربط بين شخصيات المشهد ».[٣٧] أي انه يؤكد على العلاقات البشرية ، لا على الطبيعة البشرية مثلما يحدث في المسرح الدرامي التقليدي . كما ان اعداد الممثل من خلال الاداء الارتجالي الجماعي ، ثم المناقشة من اجل تحديد التركيب المسرحي الصحيح للمشاهد وتحديد اسلوب الاداء المناسب »[٣٨] يذكرنا مرة اخرى بأسلوب بريشت في الاخراج ، وهو الذي لم يكن يفرض على الممثل تأدية الدور ، في اطار الاداء الملحمي ، بشكل معين ، بل يطلب منه ان يكتشف ، من خلال الاداء الفعلي ، اثناء التدريبات ، طبيعة الشخصية التي يؤديها ، وطبيعة سلوكها ، قبل ان ينتقل الى مرحلة انفصاله عنها .

وربما دعا توفيق الحكيم من قبل الى استخدام الحكواتي كشكل شعبي ، او دعا يوسف ادريس بعده الى استخدام شكل السامر كشكل عربي شعبي ايضا . لكن الاضافة الحقيقية التي يضيفها مسرح الحكواتي اللبناني الى هاتين الدعوتين هي البعد السياسي بالتحديد ، واستفادته من تجارب المسرح الملحمي على وجه الخصوص ، من اجل نشر الوعي السياسي ، والدعوة الى تغيير الواقع من خلال الفعل الايجابي ، وهو ما كان على الدوام هدف المسرح السياسي .

---

(٣٤) المرجع السابق ، ص٧ .
(٣٥) المرجع السابق ، ص٨ .
(٣٦) المرجع السابق ، ص١٠ .
(٣٧) المرجع السابق ، ص٩ .
(٣٨) المرجع السابق ، ص٩ .

وسائل الاعلام واتجاهات شخصية الفرد

مصطفى احمد تركي
أستاذ مساعد ـ قسم علم النفس
جامعة الكويت

١ ـ مقدمة :

يرى رجال الاعلام أننا نعيش الآن في سنوات الثورة الاعلامية الثالثة ، سنوات السينما والاذاعة والتليفزيون . (حدثت الثورة الأولى بظهور المطبعة ، والثورة الثانية بظهور وكالات الأنباء) وتتميز الثورة الثالثة بأنها أتاحت للجمهور فرص اختيار هائلة بين الاستماع ، أو القراءة ، أو المشاهدة ، ولم تكن هذه الفرص متوفرة بهذا القدر من قبل .

ومن علامات الثورة الاعلامية الثالثة أن وسائل الاعلام احتلت مكان الوالدين والمدرسين في نقل العلم والمعرفة الى الأفراد ، فأصبح معظم التعليم يتم خارج الفصل الدراسي ، وأصبحت الكمية الفائقة من المعلومات التي تنقلها الصحف والمجلات والأفلام والاذاعة والتليفزيون في أيامنا هذه ، تفوق بكثير كمية المعلومات التي ينقلها مدرس الفصل ، وهذا التحدي حطم احتكار الكتاب كمساعد أساسي في العملية التعليمية ، وأحدث شرخاً في حائط الفصل الدراسي أدى الى إرباكنا . (٣ ص ٨٦ ، ١١ ص ١٦) * .

وخلال السبعينات من هذا القرن ، ظهرت مؤشرات جديدة تدل على تجدد واستمرار الثورة الاعلامية الثالثة ، فاتضح للعلماء أن هناك جوانب من السلوك الانساني تؤثر فيها وسائل الاعلام ، ولم يكن ذلك معروفاً لديهم قبل السبعينات ؛ كما بزغ عدد من الموضوعات الهامة التي أدت الى اتساع مفهوم « تأثير وسائل الاعلام » ، فازداد الاهتمام بموضوعات مثل دور النمو المعرفي عند الأطفال في فهمهم البرامج التليفزيونية ، وما اذا كان « المعنى » الذي يستخلص من الرسالة المطبوعة يدرك بنفس الطريقة التي تستخلص من التلفزيون ؟ ثم دور وسائل الاعلام في النمو الاجتماعي والاقتصادي .

* تشير الأرقام التي بين القوسين في نهاية الفقرة الى رقم المرجع ثم رقم الصفحة .

وبظهور تأثير وسائل الاعلام في عصرنا الحديث ، في هذه الجوانب ، ساد الاقتناع بين الباحثين والمربين ، والسياسيين ، ورجال الاعلام ، ورجال الأعمال ، بأن وسائل الاعلام تؤثر في كل جانب من جوانب السلوك : كالسلوك السياسي ، والسلوك الاجتماعي ، وسلوك المستهلك ، والصحة والتعليم ، والمعارف المهنية . وبايجاز أصبحت وسائل الاعلام لها دور حتى في تكوين الصور الذهنية عند الأفراد عن الدول والمواقف والأحداث ، بل يمكن القول انها تؤثر في الطريقة التي يدرك بها الناس الأمور ، والطريقة التي يفكرون بها ، وفي سلوكهم نحو عالمهم الذي يعيشون فيه . (١ ، ١٥) .

من هذه المقدمة السريعة عن مدى تأثير وسائل الاعلام في السلوك الانساني ، يتضح لنا أن هناك نوعين من التأثيرات التي تحدثها :

الأول على الأفراد الراشدين ، وهو ما سوف نطلق عليه في هذه الدراسة « التأثير المتعاصر » .

والثاني التأثير على الأطفال ، وهو ما سوف نطلق عليه « التأثير النمائي » . أما الأول فيحدث للأفراد وهم في مرحلة البلوغ والنضج ، أي بعد عبورهم مرحلة الطفولة ، والتأثير في هذه المرحلة العمرية يتم بالتفاعل بين شخصية الفرد الذي يتعرض للرسالة الاعلامية ، والرسالة الاعلامية ذاتها . وكانت الدراسات السابقة قبل الخمسينات تركز على هذا التأثير المتعاصر ، فدرس العلماء تأثير وسائل الاعلام على تغيير الاتجاهات ، وتوجيه وخلق الرأي العام ، وخاصة في الانتخابات والدعاية ، والاعلام السياسي ، والتجاري .

أما النوع الثاني من التأثيرات وهو التأثير النمائي ، فهو الذي يهتم بدراسة أثر وسائل الاعلام في سلوك الأطفال خلال مراحل نموهم منذ الطفولة وحتى البلوغ ، وقد بدأت مثل هذه الدراسات بعد ظهور التليفزيون خاصة . وهذا النوع من التأثير هو موضوع الدراسة الحالية التي بين أيدينا .

وحتى يتضح التمييز بين النوعين من التأثيرات نتحدث بايجاز عن التأثير المتعاصر لوسائل الاعلام ، قبل أن ننتقل الى موضوعنا الرئيسي .

٢ ـ التأثير المتعاصر لوسائل الاعلام :

يمكننا القول ان التأثيرات الأساسية لوسائل الاعلام في التأثير المتعاصر هي تأثيرها في الجانب المعرفي عند الفرد أي اعطاؤه معلومات جديدة تختلف عن معلوماته السابقة ، وتغيير أو تعديل أو خلق صور ذهنية عنده عن الأحداث أو المواقف أو الدول أو الأشخاص . ويحدث تأثير الرسالة الاعلامية اذا كان مضمونها يتفق مع بعض جوانب شخصيته ودوافعه وقيمه ولذلك فان الرابطة الأساسية بين مضمون الرسالة الاعلامية والسلوك الاجتماعي للشخص الراشد تصاغ من خلال التفاعل بين المعلومات المنقولة من جهة وبين العمليات المعرفية عند الفرد الراشد ، وشخصيته بصفة عامة من جهة أخرى .

وهذا يعني أن استجابة الأفراد لهذه الرسالة تختلف من فرد الى آخر وأحد الاتجاهات الحديثة في مجال دراسات وسائل الاعلام ، الاهتمام بمعرفة الظروف والمواقف التي على ضوئها يستجيب الأفراد للرسالة الاعلامية .

ولأن الوسائل الاعلامية أصبحت في عصرنا أهم مصدر نستقي منه معلوماتنا ومعارفنا عن العالم المحيط بنا ، كما أوضحت ذلك الدراسة التي أجريت عام ١٩٧٧ على العينة القومية الأمريكية ، حيث تبين أن ٩٥٪ من أفراد العينة أجابوا على السؤال : من أين حصلت على معلوماتك حول ما يدور في العالم ؟ أجابوا بأنهم حصلوا عليها من وسائل الاعلام . فمن هنا يأتي تأثير وسائل الاعلام ، ويتضح مدى أهميتها في توجيه سلوك الفرد الراشد ، فيمكن مثلاً لوسائل الاعلام أن تبث ما تريد في ثنايا المعلومات والمعارف والأخبار ، وبالتالي تحدث تأثيرها على الأفراد الذين يتلقونها بالطريقة وبالاتجاه المطلوب .

ونحن جميعاً في العالم العربي نستطيع ببساطة أن ندرك مدى استخدام وسائل الاعلام الأجنبية في إعطاء العالم المحيط بنا صورة مشوهة عن الفرد العربي ، وقد لا ندرك مدى الجهد المطلوب لازالة أو التخفيف من هذه الصور المشوهة عنا .

ومن التأثيرات الهامة لوسائل الاعلام على الفرد الراشد هو أن وسائل الاعلام تلعب دوراً أساسياً في خلق وتكوين ما يسمى « ببيئة الرأي » ، فحيث ان الناس يتحاشون العزلة الاجتماعية ، فانهم يميلون لأن يعبروا عن الآراء التي تؤيد ما يدركون أنها آراء سائدة أو شائعة بين الجماعة ، ويقمعون الآراء التي يرون أنها « غير شائعة » ، وهذا يدعم بدوره رأي الأغلبية ، الذي يؤدي بالتالي الى قمع أكثر لرأي الأقلية . . . وهكذا . ويطلق العلماء على هذا الميكانزم « لولب الصمت » وتلعب وسائل الاعلام المختلفة دوراً هاماً في هذا المجال ، ازاء القضايا المطروحة للجماهير وتتطلب رأياً عاماً .

ومن التأثيرات المتعاصرة الهامة لوسائل الاعلام أيضاً ، ويركز عليها علماء العلوم الاجتماعية حديثاً ، مساهمة وسائل الاعلام في نقل الثقافة ، أي نقل ثقافة مجتمع الى مجتمع أو مجتمعات أخرى . ففي دراسة أجريت عام ١٩٧٩ في كندا عن المناطق التي كانت معزولة في شمال كندا ، وبعد ادخال الارسال التلفزيوني اليها ، اتضح أن التلفزيون قد أسرع بنقل البناء الثقافي والقيمي الأوربي ـ الكندي الى المراهقين في هذه المناطق المخدومة حديثاً بالارسال التليفزيوني ، مما أدى الى زيادة الهوة الثقافية بين هؤلاء المراهقين وآبائهم الأكثر تمسكاً بتقاليدهم . (١٥) .

ونحن في العالم العربي نعيش خبرة من هذا النوع ، فالفرد العربي المثقف يكاد يعرف بدرجة كبيرة من الدقة عادات وتقاليد وقيم معظم الدول الأجنبية على الرغم من أنه قد لا يكون سافر الى تلك الدول ، وذلك بفضل وسائل الاعلام التي تحيط به . وما ظاهرة احتفال الأسر في عالمنا العربي « بعيد الأم » أو بعيد ميلاد الأبناء الا أحد الأدلة الواضحة على انتقال بعض العادات من ثقافة أخرى الى ثقافتنا العربية من خلال وسائل الاعلام المختلفة أيضاً .

هذه شواهد على مدى تأثير وسائل الاعلام في سلوك الأفراد وهم في سن الرشد . وننتقل الى النوع الثاني من التأثير وهو محور بحثنا هذا .

٣ ـ التأثير النمائي لوسائل الاعلام :

لكي نتحدث عن التأثير النمائي لوسائل الاعلام في شخصية الفرد وسلوكه ، من المفيد أن نعرف بقدر من الدقة والايجاز معاً ما هي الشخصية ، وما معنى نمائي في سياقنا هذا .

هناك تعريفات متعددة للشخصية ، ولكن معظم علماء النفس الآن يتفقون حول نوع من التعريفات ، والتعريف التالي للشخصية أحد التعريفات من هذا النوع الذي اتفق حوله العلماء ، فيعرف أحد العلماء الشخصية بأنها « التنظيم الدينامي الذي يكمن بداخل الفرد ، والذي ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التي تملي على الفرد طابعه الخاص في السلوك والتفكير » . وهذا التعريف يعرف شخصية الراشد السوي ، أن هذا « التنظيم » لا يصبح تنظيماً بهذا المعنى المتكامل الا في مرحلة البلوغ والنضج من حياة الفرد ، أما قبل ذلك أي خلال مرحلة الطفولة التي تمتد منذ الميلاد وحتى سن البلوغ فيكون الطفل في مرحلة نمو وارتقاء ، وهذا يعني أن شخصية الفرد لا تولد معه ، ولكنها تنمو بنمو الجوانب الأخرى ، كالجانب المعرفي ، اللغوي ، العضلي العصبي ، والاجتماعي للطفل . ويمكن القول ان نمو شخصية الفرد هي محصلة نمو كل هذه الجوانب مجتمعة . وبملاحظة هذه الجوانب ندرك أنها تتكون من جوانب فسيولوجية (الجانب العضلي والعصبي) وجوانب نفسية اجتماعية (النمو الاجتماعي) وَلذلك فالشخصية تشكلها العوامل الفسيولوجية والعوامل الاجتماعية ؛ الأولى موروثة أساساً والثانية مكتسبة ومتعلمة .

ودراستنا هذه تتعلق بالثانية ، حيث ان الأسرة والمدرسة والأصدقاء ووسائل الاعلام تكسب الطفـل وتعلمه عاداته وقيمه وتقاليده ، أي تكسبه العوامل الاجتماعية في شخصيته .

وباندماج وتفاعل وتكامل العوامل الفسيولوجية والاجتماعية معاً منذ الميلاد وخلال مراحل النمو المختلفة وحتى البلوغ ، تنمو شخصية الطفل ثم تصبح تنظيماً متكاملاً يوجه سلوكه عند البلوغ والرشد . وأثناء عملية النمو وعبر مراحله المبكرة تأتي التأثيرات الاجتماعية المختلفة ومنها تأثيرات وسائل الاعلام ، ولذلك أطلقنا على هذا التأثير « التأثير النمائي » .

ومن القضايا التي يتفق حولها علماء النفس أن خبرات الطفل أثناء عملية النمو في مرحلة الطفولة هي أساس شخصيته في مرحلة البلوغ والرشد .

وهذه الدراسة تركز على دور وسائل الاعلام وخاصة التليفزيون كأحد العوامل الاجتماعية وأثرها في تشكيل سلوك الطفل ومن ثم شخصيته وهو راشد .

ولكن لماذا التليفزيون خاصة ؟

أولاً : لماذا التليفزيون فقط :

منذ بدأ الارسال التليفزيوني في الانتظام لأول مرة في العالم في انجلترا عام ١٩٣٦ * والتليفزيون يتقدم بخطا ثابتة

* منذ عام ١٩٣٠ بدأت الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا والمانيا والاتحاد السوفيتي سلسلة من التجارب ، ساعدت فيها بعد على ظهور الارسال التليفزيوني وفي عام ١٩٣٦ كانت انجلترا أولى الدول في تقديم برامج تليفزيونية بصورة منتظمة ، وتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي عام ١٩٣٨ انتشر جهاز التليفزيون في أكثر المنازل بالولايات المتحدة ، وفي سنة ١٩٤٨ أصبح عدد محطات التليفزيون في الولايات المتحدة ٢٤ محطة وفي عام ١٩٥٨ وصل عدد المحطات الى ٥٢٩ محطة .

وفي نهاية عام ١٩٥٨ بلغ عدد محطات التليفزيون في الاتحاد السوفيتي ٦٣ محطة .

أنظر : دكتور عبد اللطيف حمزة . الاعلام والدعاية . بغداد . مطبعة المعارف سنة ١٩٦٨ ص ٩٧ .

حتى أصبحت له مكانة متميزة بين وسائل الاعلام . فكثرت الدراسات والبحوث حول مدى تأثيره في السلوك الانساني ، وقامت احدى المؤسسات العلمية بحصر مثل هذه الدراسات فوجدت أنها تصل الى ٢٣٠٠ دراسة ومرجع وهذا العدد يفوق بكثير عدد الدراسات التي أجريت على وسائل الاعلام الأخرى . وهناك عدد من الهوامل التي تجعل للتليفزيون هذه المكانة ، والتي تجعلنا نركز في دراستنا على التليفزيون فقط دون وسائل الاعلام الأخرى من هذه العوامل ما يأتي :

أ ـ التليفزيون له دور في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل :

ان التنشئة الاجتماعية للطفل من أهم مهام الأسرة وخاصة الوالدين ، فدورهما الأساسي هو تحويل الطفل من كائن بيولوجي كل وظائفه تناول الطعام والنوم والاخراج ، الى كائن بشري اجتماعي يستطيع التفاعل والتوافق مع غيره من البشر . وهذه هي عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال . ومع أن هذه العملية من أهم وظائف الوالدين ، الا أن التليفزيون أصبح له دور فيها وذلك بنقل عادات وقيم وتقاليد المجتمع الى الأطفال في الأسرة ، وسوف نرى بعد قليل أن هناك عدداً من العوامل جعلت للتليفزيون مثل هذا الدور في الأسرة المعاصرة .

والحقيقة أن الوالدين لم يقفا موقفاً سلبياً أمام هذا الجهاز ولكنهما ساهما بايجابية في أن يكتسب التليفزيون هذه المكانة بين أفراد الأسرة ، فلقد قلت عدد الساعات التي يقضيها الوالدان مع أطفالهم ، وبعد أن كان الطفل ينام على حكايات وقصص الأم أو الجدة ، أصبح ينام وهو يشاهد التليفزيون وبرامجه التي تحمل له غالباً قيماً وعادات وتقاليد لا تستطيع الأسرة التحكم في مضمونها ، ولا في مشاهدة الأطفال لها .

بل ان بعض الأسر أصبحت على وعي بذلك ، بل وتشجعه . ففي دراسة أجريت في الكويت اتضح فيها أن ٩ر١٢٪ من أفراد عينة البحث وهم من آباء وأمهات الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون بانتظام ، يرغبون في أن يشاهد أطفالهم بعض برامج التليفزيون لأنها « تكسب الطفل العادات والقيم المرغوبة » . كما اقترح معظم أفراد العينة من الآباء والأمهات (٣ر٨٤٪) انتاج برامج خاصة للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية (٢ ـ ٦ سنوات) تتوافر بعض الصفات منها : « أن تنمي مهارات وعادات واتجاهات سليمة (٣ر١٩٪) . (٥)

وهذه النتائج تدعم قولنا بأن معظم الأسر قد تنازلت عن بعض أدوارها في التنشئة الاجتماعية للتليفزيون ، وهذا العامل يجعلنا نهتم في دراستنا هذه بالتليفزيون اهتماماً خاصاً ، دون وسائل الاعلام الأخرى .

ب ـ التليفزيون أداة مسلية في متناول يد الطفل :

فضلاً عن أن التليفزيون وسيلة شيقة للتسلية ، فانه كجهاز كهربائي ، سهل الاستعمال فيمكن للطفل في عمر سنتين ونصف أو ثلاث سنوات أن يجعله يعمل ثم يجلس ليشاهده دون مساعدة من أحد من الكبار . فضلاً عن أن الجهاز متوفر في المنزل ولا يحتاج الطفل الى الذهاب خارج المنزل بمصاحبة أحد الكبار كالسينما .

والتليفزيون وسيلة متوفرة أمام الطفل في جميع أوقات اليوم ، كما أن البرامج التليفزيونية لا تحتاج الى معرفة القراءة مثل المجلات والصحف ، ولذلك يبدأ الأطفال في الانتباه والالتفات له منذ بداية ادراكهم للصوت والصورة .

جـ ـ يجذب التليفزيون انتباه الأطفال :

يتميز الارسال التليفزيوني عن وسائل الاعلام الأخرى ، بأن برامجه تجذب انتباه الأطفال في الأعمار المختلفة ، وذلك لعوامل جذب الانتباه التي تصاحب البرامج مثل : الموسيقى والألوان ، والأشكال الجذابة ، والتي تستعين بها البرامج عادة ، بالاضافة الى ألفة الأطفال بالمذيعين ومقدمي البرامج لتكرار مشاهدتهم مع البرامج الشيقة .

وقد أوضحت بعض البحوث أن الأطفال يبدأون المشاهدة الهادفة للتليفزيون من سن سنتين الى ثلاث سنوات وهي سن مبكرة جداً . (٥)

ولذلك يكاد يشترك التليفزيون مع الوالدين في الاتصال المبكر المستمر نسبياً مع الأطفال في الأسرة ، وبذلك يبدأ تأثير التليفزيون وارتباط الطفل به منذ بداية حياته .

د ـ يقضي الأطفال فترة طويلة يومياً أمام جهاز التليفزيون :

من العوامل الرئيسية التي تساعد على أن يكون للتليفزيون تأثير في سلوك الأطفال هو أن الأطفال لأسباب عديدة : منها ما يرجع الى برامج التليفزيون ، ومنها ما يرجع الى حاجة الطفل ذاته ، مثل حاجته الى المثيرات ، ومنها ما يرجع الى ظروف الأسرة في الحياة الحديثة تجعل الطفل يقضي وقتاً طويلاً أمام جهاز التليفزيون .

ففي دراسة أجريت في الكويت على عينة من الأسر الكويتية ، وكان بها أحد الأسئلة عن متوسط عدد الساعات التي يقضيها أطفال هذه الأسرة في مشاهدة التليفزيون ، اتضح من الاجابة على السؤال أن الأطفال يقضون ساعتين وربع تقريباً أمام التليفزيون يومياً طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة . أما يوم الجمعة فيزداد متوسط عدد ساعات المشاهدة الى ثلاث ساعات وثلث تقريباً . وذلك بالنسبة للأطفال من عمر سنتين حتى ست سنوات . (٥)

وفي دراسة أجريت في مصر على عينة من أبناء الأسر التي تملك جهاز تليفزيون ، تتراوح أعمارهم من ٨ ـ ١٨ سنة ، اتضح أن حوالي ٥٤٪ من أفراد العينة يشاهدون التليفزيون لمدة ساعة على الأقل في اليوم أثناء شهور الدراسة بالمدارس . أما خلال العطلات الدراسية فاتضح أن ٩٦ر٤٪ من الأبناء يشاهدون التليفزيون ساعة على الأقل يومياً . (٧)

ويلاحظ من هذه الدراسات التي أجريت في عالمنا العربي ، أن الأطفال في أعمار مختلفة يقضون حوالي ١٦ ساعة أمام التليفزيون في الأسبوع . مما يجعل التليفزيون له فعالية وتأثير على الأطفال نظراً لعامل طول الوقت الذي يقضونه في مشاهدته .

كما نلاحظ من الدراسة التي أجريت في مصر أن معظم الأطفال (٨٢ر٤٪) يفضلون التليفزيون عن السينما أو المذياع أو القراءة أو اللعب .

أما لو انتقلنا الى خارج العالم العربي ، لوجدنا أن متوسط عدد الساعات اليومية يزداد بشكل ملحوظ ، ففي

دراسة أجريت في أمريكا اتضح أن الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام التليفزيون في ازدياد مستمر منذ الستينات من هذا القرن . فاتضح بمقارنة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ أن متوسط عدد الساعات التي يعمل أثناءها التليفزيون في المنزل ازدادت من ٦ر٥ ساعة يومياً سنة ١٩٧٠ الى ٨ر٦ ساعة يومياً سنة ١٩٧٦ ، وذكر بعض أفراد عينة الدراسة أن التليفزيون يعمل على الأقل ٩ ساعات في اليوم ، وفي بعض الأسر يعمل التليفزيون في المنزل معظم فترة بعد الظهر وخلال فترة العشاء ، ومعظم المساء .

ومما يدعم نتائج الدراسة السابقة ، اتضح من دراسة أخرى أجريت في أمريكا عام ١٩٦٩ ، أن الطفل الذي عمره من ٥ ـ ٦ سنوات يقضي أمام التليفزيون أربع ساعات يومياً . (١٥)

وفي دراسة ثالثة أجريت عام ١٩٧٢ اتضح أن الأطفال في سن السادسة يقضون أمام التليفزيون من ٣٠ ـ ٣١ ساعة في الأسبوع في المتوسط ، أما الأطفال في سن الثامنة فيقضون ٢٧ ـ ٢٨ ساعة في الأسبوع أمام جهاز التليفزيون . (١٣)

وأفضل تعليق على طول الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام جهاز التليفزيون ذلك التعليق الذي قاله أحد الباحثين حين قال :

« عندما يحين وقت دخول الطفل الحضانة يكون قد قضى فعلاً ساعات عديدة يتعلم عن العالم أمام جهاز التليفزيون ، أكثر مما سيقضي في قاعة المحاضرات بالكلية للحصول على الشهادة الجامعية أو على درجة الماجستير » . (١١)

من كل ما سبق يمكن أن ندرك أهمية عامل الوقت الذي يقضيه الطفل أمام جهاز التليفزيون كأحد العوامل الهامة التي تجعل التليفزيون من أهم وسائل الاعلام تأثيراً في سلوك الأطفال .

هـ ـ ازدياد الاقبال على مشاهدة التليفزيون وانخفاض الاقبال على وسائل الاعلام الأخرى :

لاحظنا في البند السابق ازدياد إقبال الأطفال على مشاهدة التليفزيون ، وأصبحت هذه الظاهرة عالمية لا تقتصر على بلد دون الآخر ، ولكن على الرغم من هذا الاقبال على مشاهدة التليفزيون نجد في مقابله انخفاضاً في الاقبال على وسائل الاعلام الأخرى . فلقد أوضحت الدراسة التي أجريت في مصر أن نسبة أفراد العينة الذين يقبلون على مشاهدة التليفزيون بعد الانتهاء من الاستذكار يفوق نسبة الذين يقبلون على الوسائل الاعلامية الأخرى . فأوضحت الاجابة على السؤال « أين يذهب الأبناء بعد الانتهاء من الاستذكار » ، اتضح ما يلي :

٨٪ يذهبون الى السينما .
٨ر٣١٪ يستمعون الى الراديو .
٤ر٣٥٪ يلجأون الى القراءة .
٩ر٢٥٪ يلجأون الى الألعاب المختلفة .
٤ر٨٢٪ يشاهدون التليفزيون .

ويلاحظ أن أعلى نسبة (٨٢٫٤٪) من الأبناء تلجأ الى التليفزيون ولو لبعض الوقت ، بعد الانتهاء من الاستذكار . وأن التليفزيون هو الوسيلة المشتركة السائدة بين معظم هؤلاء الأبناء . (٧)

وفي دراسة أجريت على قراء الصحف في أمريكا ، اتضح أن نسبة من يقرأون الصحف يومياً في انخفاض مستمر ، فالذين أعلنوا أنهم يقرأون الصحف كل يوم انخفض من ٧٣٪ في سنة ١٩٦٧ الى ٦٦٪ في سنة ١٩٧٥ ثم الى ٧٥٪ في سنة ١٩٧٨ . وعند سؤال أفراد عينة الدراسة عن تفسير هذا الانخفاض ، اتضح أن أهم تفسير ذكر هو : مشاهدة البرامج الاخبارية في التليفزيون ، مما لا يجعل هناك حاجة الى الصحف اليومية . (١٥)

ونلاحظ من نتائج هذا البحث اعتماد عدد كبير من الأشخاص على مشاهدة البرامج الاخبارية في التليفزيون ، وترك قراءة الصحف اليومية ، ومن الملفت للنظر أن عينة هذه الدراسة كانت من الراشدين ، أي أن التليفزيون يجذب الراشدين كما يجذب الأطفال .

وفي دراسة حديثة نشرت بعض نتائجها بمجلة « أكتوبر » القاهرية الأسبوعية (العدد ٣٨ ، لسنة ١٩٨١ الصفحة الثالثة) أجريت في المجتمع الأمريكي ، وكان أحد الأسئلة بها عن : المؤسسات التي تحكم أمريكا فكان التلفزيون فى المرتبة الرابعة من بين المؤسسات التى تحكم أمريكا . وذلك بعد « البيت الأبيض » (المرتبة الأولى) ، و « كبار رجال الأعمال » (المرتبة الثانية) و « مجلس الشيوخ » (المرتبة الثالثة) . أما « الصحافة » فجاءت في المرتبة الثالثة عشرة ، والراديو في المرتبة التاسعة عشرة ، أما السينما فجاءت في المرتبة الثلاثين والأخيرة !

وهذه الدراسة تكشف لنا موقع ومكانة التليفزيون ومدى تأثيره في أمريكا .

هذه العوامل المختلفة والمتعددة جعلت للتليفزيون مكانة خاصة في الأسرة والمجتمع ودوراً أساسياً في امكانية التأثير على سلوك الأطفال خاصة . ولهذا سنقصر دراستنا هذه على أثر التليفزيون في سلوك الأطفال .

ويمكن القول ان اهتمام العلماء قد تركز حول دراسة أثر التليفزيون في سلوك الأطفال ونموهم في جوانب محددة هي :

- السلوك العدواني .
- الجوانب المعرفية .
- التنشئة الاجتماعية .

ونتحدث عن كل منها بقدر من التفصيل لتوضح لنا أثر التليفزيون في سلوك الأطفال بجوانبه المختلفة .

ثانيا : أثر التليفزيون في السلوك العدواني عند الأطفال :

منذ بدأ الارسال التليفزيوني في العالم بدأت معه الدراسات حول أثره في المجالات المختلفة ، كمجال الاعلام ، والتسويق ، والتأثير في الرأي العام ، وتأثيره في سلوك الأطفال .

ومن المجالات التي بدأت فيها الدراسات منذ ذلك الوقت واستمرت حتى الآن مجال تأثير العنف في التليفزيون في سلوك الأطفال . وبمعنى آخر هل عرض برامج العنف والعدوان في التليفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عند الأطفال المشاهدين ؟

وتفوق عدد الدراسات في المجال الأخير ، كل البحوث والدراسات في المجالات الأخرى بنسبة ٤ ـ ١ وهذه النسبة تعطينا فكرة واضحة عن مدى اهتمام علماء العلوم الاجتماعية بهذا الموضوع ، وأيضا مدى اهتمام المجتمع بهذه المشكلة .

وعلى الرغم من الانخفاض في معدل الدراسات حول هذا الموضوع منذ بداية السبعينات الا أن الدراسات لا تزال مستمرة فيه حتى وقتنا هذا ، لدراسة مختلف الظروف التي يمكن أن تتوسط بين مشاهدة الأطفال العنف في التليفزيون والعدوان في سلوكهم . (١٥)

ويمكننا القول ، بناء على ما نستمده من نتائج الكثير من البحوث في هذا المجال وآراء الآباء والباحثين ، أنه يكاد يكون هناك اتفاق بين المهتمين بهذه المشكلة على أن مشاهدة الأطفال العنف والعدوان في التليفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عندهم .

ولكن اذا كانت هناك بحوث قد أيدت نتائجها هذه الخلاصة الا أن هناك أيضا بعض البحوث عارضت نتائجها هذا المضمون ، ويمكن القول ان الذي أدى الى هذا التعارض بين نتائج البحوث عدم دقة المنهج الذي يتبعه بعض الباحثين في دراسة هذه المشكلة ، وهذا يكشف عن النظرة السطحية غير الملائمة للسلوك الانساني ونموه . ولأهمية هذا الموضوع نعرض بتفصيل موضحين رأينا الخاص في نتائج البحوث المختلفة . ولكن قبل ذلك نعرض بعض صور العنف في التليفزيون حتى يتضح لنا معنى العنف والعدوان الذي يشاهده الأطفال ، ونسبته ودلالته . حتى يمكننا متابعة الموضوع بعد ذلك .

١ ـ صور العنف في التليفزيون :

من أكثر الدراسات دقة وعمقا في هذا الموضوع الدراسة التي قام بها جربنر Gerbner عام ١٩٧٢ وركز فيها على تقدير مقدار العنف المعروض في برامج التليفزيون وتحليل نوع العنف المعروض .

وقامت هذه الدراسة على منهج تحليل المضمون ، فقام الباحث بتحليل مضمون البرامج التي عرضت خلال ثلاث سنوات هي ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ واتضح من نتائج الدراسة ما يلي :-

أ ـ مقدار العنف الذي يعرض في برامج التليفزيون : وقد خرج الباحث بالنتائج التالية :

١ ـ يوجد أعلى مستوى للعنف في التليفزيون التجاري الأمريكي ، اذ تحتوي كل ٨ برامج من ١٠ على العنف .

٢ ـ انخفض معدل عرض العنف من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٦٩ ، وظهر ذلك في انخفاض عدد الأشخاص المساهمين في العنف والقتل .

٣ ـ فيما يتعلق ببرامج الأطفال ، وخاصة ما يسمى بالكارتون ، ازداد فيها العنف ، فمن ٩٥ كارتونا عرضت في السنوات الثلاث للبحث ، اتضح أن اثنين فقط في سنة ١٩٦٧ ، وواحدا في كل من سنة ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ لا تحتوي على عنف .

ب ـ نوع العنف ونمطه المستخدم في برامج التليفزيون : وينقسم ذلك الى ثلاثة عناصر هي :

الذي يقوم بالعنف ، وسيلة العنف أو العدوان ، نتائج العنف أو العدوان .

من الذي يقوم بالعنف : بتحليل مضمون البرامج في فترة البحث ، اتضح أن الذي يقوم بالعنف في ٧٠٪ من الحالات هم من البشر . أما الكارتون الذي به عنف فيحتوي على أعلى نسبة من القائمين بالعنف من غير البشر (حيوانات ، كائنات فضائية . . . .)

أما عن الأدوات المستخدمة في العنف : اتضح أنه ازداد استخدام الأسلحة من ٥٢٪ الى ٨٣٪ من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٦٩ في جميع صور العنف المعروض متضمنا ذلك الكارتون الخاص بالأطفال .

أما عن نتائج العنف والعدوان : فقد اتضح أنها الجروح أو الموت للشخص المعتدى عليه ففي سنة ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كل عنف أدى الى جرح على الأقل للمعتدى علبه ، وفي سنة ١٩٦٩ قل ذلك بنسبة ١ : ٣ .

وبالنسبة للموت ، ففي سنة ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ كل ٢ من ٣ برامج بها عنف ، كانت نتيجة العنف فيها الموت ، وفي سنة ١٩٦٩ كان معدل الموت ١ : ١٠ ، أي أنه في سنة ١٩٦٩ انخفضت نسبة حدوث الجروح ونسبة حدوث الموت كنتيجة للعنف في البرامج المعروضة .

وفي دراسة أخرى حديثة قام بها باركوس ١٩٧٥ Barcus على احدى قنوات التيلفزيون الأمريكي اتضح ما يأتي :ـ

أن ٥٩٪ من التمثيليات المعروضة لا يوجد بها عنف الا عرضا .

١٦٪ من التمثيليات مشبعة بالعنف .

٢٥٪ من التمثيليات بها عنف واضح .

أي أن ٤١٪ من التمثيليات بها عنف ، كما اتضح من نتائج البحث أن ٥٠٪ من البرامج التي بها عنف استخدمت فيها الأسلحة كأداة للعنف . (١٣)

ونخرج من نتائج هذه البحوث أن نسبة يعتد بها من البرامج التي تعرض في التلفزيون ومعظمها يشاهدها الأطفال بها عنف واضح . وهذه النتائج تجيب على السؤال : هل هناك عنف في برامج التليفزيون ؟ بالايجاب وبشكل حاسم وواضح . كما أوضحت هذه البحوث صور العنف كما يقدم في برامج التليفزيون المختلفة سواء تمثيليات أو كارتون خاص بالأطفال .

يبقى بعد ذلك الاجابة على السؤال التالي : هل هذا العنف الذي يعرضه التليفزيون في برامجه المختلفة يؤدي الى السلوك العدواني عند الأطفال ؟

وللاجابة على هذا السؤال أجريت دراسات عديدة منذ الخمسينات من هذا القرن وحتى الآن ، ونعرض لبعض هذه الدراسات حتى نتعرف على الطريقة التي يتناول بها علماء العلوم الاجتماعية وخاصة علماء النفس هذه المشكلة ، وكيف يجرون بحوثهم في السلوك الانساني ، ويتضح لنا المنهج الذي استخدمه الباحثون مما يساعدنا على الحكم على نتائج الدراسات عند تقييمنا لها .

٢ ـ بعض البحوث التي لم تظهر نتائجها وجود علاقة بين العنف في التليفزيون والسلوك العدواني عند الأطفال :

في دراسة أجراها سايجل عام ١٩٦٥ Siegel ، على مجموعة من الأولاد والبنات (عددهم ٢٤) تتراوح أعمارهم بين أربع وخمس سنوات ، قسمت المجموعة الى مجموعات أصغر كل مجموعة تتكون من طفلين ، على ان يعرض على كل مجموعة في أوقات مختلفة نوعان من أفلام الكارتون ، أحدهما عدواني جدا ـ والآخر غير عدواني . وكان يطلب من كل مجموعة أن تبقى في غرفة خاصة بها بعد مشاهدة الأفلام ، وتحتوي هذه الغرفة على أنواع من اللعب بعضها عدواني (مثل خنجر من المطاط) وبعضها غير عدواني (مثل التليفون) وكان الباحث يلاحظ سلوك الأطفال في الغرفة الخاصة التي بها اللعب بعد مشاهدتهم الأفلام العدوانية ثم غير العدوانية وذلك لتسجيل مقدار العدوان الذي سيظهر على سلوك كل مجموعة بعد مشاهدتهم الأفلام ، وتسجيل أي علامات تظهر للعدوان ، أو الشعور بالقلق . ولم يكن الأطفال على علم بأنهم ملاحظون أو أن سلوكهم يسجل .

ولم توضح نتائج البحث وجود فروق في سلوك الأطفال بعد مشاهدتهم للأفلام العدوانية والأفلام غير العدوانية ، أي يمكن القول بناء على هذه النتائج ان العنف والعدوان في التليفزيون لم يؤد في هذه التجربة الى سلوك عدواني عند الأطفال . (٩)

وفي دراسة أجراها فيشباك وسنجر ١٩٧١ Feshbach & Singer على مجموعة من الأولاد (وعددهم ٣٩٥) في سن ما قبل المراهقة والمراهقة ، وطلب من الأولاد مشاهدة التليفزيون ٦ ساعات على الأقل في الاسبوع وذلك لمدة ستة أسابيع . وأجابت عينة البحث على مجموعة من الاختبارات النفسية قبل بداية التجربة ثم بعد انتهاء التجربة ، وذلك لمقارنة نتائج قبل و بعد مشاهدة التليفزيون .

والاختبارات النفسية التي طلب الى عينة البحث استيفاء بياناتها هي :

- مقياس للعداوة الصريحة .
- مقياس للعداوة المستترة .
- مقياس العصابية .
- مقياس للصراع .
- مقياس لقلق العدوان .

واتضح أن من أهم نتائج البحث التي تهمنا في دراستنا هنا ما يلي :

أ ـ أن التعرض للبرامج التليفزيونية ذات المضمون العدواني لمدة ستة أسابيع لم يؤد الى زيادة في السلوك العدواني عند عينة البحث .

ب ـ أن مشاهدة البرامج التليفزيونية ذات المضمون العدواني تقلل أو تنظم التعبير عن العدوان . (٩ ص ٥٥ ـ ١٤٠)

وفي دارسة ثالثة أجراها هملويت وآخرون عام ١٩٥٥ .Himmelwiet et al جمعت بياناتها من أربع مدن انجليزية ، وذلك في بحث موسع عن « تأثير التليفزيون في الأطفال الصغار » . وتكونت عينة البحث من ٤٥٠٠ طفل مجموعة منهم تتراوح أعمارهم بين ١٠ ـ ١١ سنة ومجموعه أخرى تتراوح أعمارها بين ١٣ ـ ١٤ سنة . وتتكون عينة البحث من أطفال تحوز أسرهم أجهزة تليفزيون في المنزل ويشاهدون البرامج بانتظام ، وأطفال لا تملك أسرهم أجهزة تليفزيون ولا يشاهدون البرامج التليفزيونية الا نادرا . والمجموعتان متساويتان تقريبا في السن ، والنوع ، والذكاء ، والطبقة الاجتماعية . ويجيب القائمون بالبحث على السؤال : هل البرامج البوليسية ، والقتل والجرائم المخيفة في التليفزيون تجعل الأطفال عدوانيين ؟ بأنهم لم يجدوا ما يبرهن على أن الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون بانتظام اكثر عدوانية من الاطفال الذين لا يشاهدون التليفزيون الا نادرا . فالتليفزيون في رأي هؤلاء الباحثين لا يؤدي الى السلوك العدواني ، وان كان يعمل به عند الاطفال المضطربين انفعاليا ، كما ان له جانباتفريغياللعدوان ايضا ، اي ان مشاهدة العدوان في التليفزيون قد يقلل من ظهور سلوك عدواني عند الاطفال .[١٢]

٣ ـ بعض البحوث التي اظهرت نتائجها وجود علاقة بين العدوان في التليفزيون والسلوك العدواني عند الاطفال :

في دراسة أجريت بكندا عام ١٩٧٧ تعتبر فريدة من نوعها ، حيث وجد الباحث فرصة نادرة وهى وجود مدينة ليس بها ارسال تلفزيونى ثم أدخل بها الارسال ، فقارن الباحث بين هذه المدينة ومدينة أخرى كان بها قناة واحدة ، ومدينة ثالثة بها عدة قنوات . ودرس العدوان عند أطفال المدارس الابتدائية فى المدن الثلاث فى بداية الدراسة (وقبل بدء الارسال التليفزيوني في المدينة المحرومة من الخدمة التليفزيونية) واشارت النتائج الى عدم وجود فروق في السلوك العدواني لاطفال المدارس الابتدائية في المدن الثلاث . وبعد سنتين وبعد ادخال الارسال التليفزيوني في المدينة المحرومة درس الباحث مرة اخرى السلوك العدواني عند اطفال المدن الثلاث ، فوجد ازديادا واضحا في العدوان عند اطفال المدينة التي ادخل فيها الارسال التليفزيوني حديثا ، واكدت هذه النتيجة المقارنات التفصيلية بين المدن الثلاث عند تقسيم عينة المدن الثلاث بناء على النوع والسن .

ويرى روبرت وباشن Roberts & Bachen ان هذه النتيجة ونتائج اخرى تمدنا بشواهد مقنعة نسبيا على ان هناك علاقة إيجابية سببية بين مشاهدة العنف في التليفزيون والسلوك العدواني عند الاطفال .[١٥]

ولكن الباحث لم يفسر لنا لماذا لم يظهر فرق في العدوان بين اطفال المدن المخدومة تليفزيونيا واطفال المدينة المحرومة من هذه الخدمة قبل بدء دراسته ، وقبل الارسال التليفزيوني في المدينة المحرومة .

ومن الدراسات التتبعية الهامة ، تلك التي قام بها ليفكويتز وآخرون ونشرت نتائجها عام ١٩٧٢ Lefkowitz ، حاولوا فيها الربط بين وصف زملاء الفصل الدراسي لافراد عينة البحث (في سن ٨ سنوات) فيما اذا كانوا عدوانيين ام لا ، ومدى عدوانيتهم ، وبين وصف الوالدين عن مدى تفضيل افراد عينة البحث للبرامج العدوانية . وبعد ذلك باحدى عشرة سنة وافراد العينة في سن ١٩ سنة ، اعادوا الدراسة مرة اخرى لنفس افراد العينة .

وبمقارنة نتائج البحث عن افراد العينة وهم في عمر ٨ سنوات ثم وهم في سن ١٩ سنة اتضح ما يلي : ـ

أ ـ وجود ارتباط واضح بين تفضيل الطفل لبرامج العنف في التليفزيون وهو في سن ٨ سنوات ، ووصف الزملاء لهم كعدوانيين في سن ١٩ سنة .

ب ـ وجود ارتباط واضح بين وصف الزملاء لمدى عدوانية عينة البحث في سن ٨ سنوات وسن ١٩ سنة .

جـ ـ وجود ارتباط بين تفضيل عينة البحث لبرامج العنف في التليفزيون ووصف الزملاء لهم عن مدى عدوانيتهم وهم في سن ١٩ سنة .

د ـ عدم وجود ارتباط بين وصف الزملاء لمدى عدوانية افراد عينة البحث وهم في سن ٨ سنوات ، وتفضيلهم العنف في التليفزيون في سن ١٩ سنة .

وتشير هذه النتائج وخاصة التي أوضحت العلاقة بين تفضيل برامج العنف في التليفزيون في سن ٨ سنوات ووصف الزملاء لهم كعدوانيين في سن ١٩ سنة ، مع وجود الارتباط بين وصف الزملاء لعينة البحث في سن ٨ سنوات ، وتفضيلهم برامج العنف في سن ١٩ سنة ، الى ان تفضيل مشاهدة برامج العنف في التليفزيون في سن ٨ سنوات مرتبط سببيا بالعدوان عند افراد عينة البحث ، كما ظهر في وصف زملائهم لهم وهم في سن ١٩ سنة . ان اهمية هذه الدراسة تكمن في انها تمدنا بأدلة واضحة وجيدة على التأثير المتراكم المستمر لمشاهدة برامج العنف في التليفزيوين .(١٣)

وفي دراسة اجراها كل من ستين وفريدرك ١٩٦٦ على مجموعة من اطفال الحضانة لمدة ثلاثة اسابيع ، حيث جعل الاطفال يشاهدون ثلاثة انواع من البرامج التليفزيونية ، برامج عدوانية ، برامج محايدة ، وبرامج تعلم الاطفال القيم والعادات المقبولة اجتماعيا . وقسم الاطفال الى ثلاث مجموعات كل مجموعة شاهدت نوعا من الافلام ، وبعد مرور الاسابيع الثلاثة للمشاهدة فحص الباحث درجة العدوانية عند كل مجموعة من المجموعات الثلاث ، فاتضح له ان المجموعة التي شاهدت الافلام العدوانية اكثر عدوانية من هؤلاء الذين رأوا الافلام المحايدة .(١٣)

٤ ـ نقد وتعليق على البحوث السابقة :

يبدو للقاريء لأول وهلة ان هناك تناقضا في نتائج البحوث ، وبالتالي في موقف علماء النفس وعلماء العلوم الاجتماعية بصفة عامة فيما يتعلق بتأثير العنف في التليفزيون في سلوك الاطفال ، وما اذا كان العنف والعدوان في البرامج التليفزيونية يؤدي الى السلوك العدواني عند الاطفال ؟

والحقيقة الواضحة لنا الآن ، وبعد عرض بعض نماذج من الدراسات والبحوث التي اجريت للاجابة على السؤال المطروح ، اختلاف طرق تناول الموضوع ودراسته . فيبدو لنا واضحا من المجموعة الألى من البحوث ـ التي لم تظهر نتائجها علاقة بين التليفزيون وسلوك الاطفال ـ ان تناولها للموضوع يتسم بالبساطة وعدم الدقة ، فضلا عن النظرة السطحية للسلوك الانساني وكيف يتكون .

ففي الدراسة الأولى ، دراسة سايجل ١٩٥٦ مثلا ، يتوقع أن الأطفال عندما يشاهدون برامج عدوانية سوف يسلكون سلوكا عدوانيا بعدها مباشرة ، وهذا أمر لا يمكن توقعه ومن العسير أن يحدث ، ولو حدث فهو تقليد مؤقت قد لا يعمم على مواقف أخرى .

وهذا ما حدث أيضا في تجربة فيشباك وسنجر ١٩٧١ حيث توقعا أن يظهر أثر البرامج التليفزيونية في المراهقين الذين يشاهدونها ٦ ساعات في الاسبوع لمدة ٦ أسابيع . وهذا تصور سطحي لكيف يتعلم السلوك ، وكيف يكتسب الطفل عاداته السلوكية . ان السلوك والشخصية ليس مكونا آليا من بعض العناصر اذا وضعناها معا تؤدى آليا الى منتج محدد جديد ، كما في بعض الصناعات أو المنتوجات ، ان الأمر جد مختلف ، فالعوامل أو المؤثرات التى تؤثر أو تدخل الفرد أو بمصطلح علم النفس يدركها الطفل أو الفرد تتفاعل داخله مع عوامل أخرى متعددة منها عوامل ذاتية خاصة بادراكه الخاص لها ، ـ وعوامل خارجية أخرى ، وعوامل خاصة بالطفل ذاته ، وبعد هذا التفاعل يظهر نتاجها في سلوك الطفل بطريقة خاصة به أيضا وفي وقت لا نستطيع تحديده . وهناك ظاهرة ـ فريدة بالسلوك البشرى ـ تعرف عليها كل من كاجان وموسن في الستينات من هذا القرن ، وهى ظاهرة «التأثير النائم » وتعنى أنه قد تكون هناك مؤثرات معينة أحدثت تأثيرها عند الطفل ولكن نتائج هذا التأثير لا يظهر لنا مباشرة فيظل نائما فترة طويلة ينتظر عوامل ـ خارجية وداخلية في الطفل ـ توقظه ليظهر . فقد يظهر في مرحلة البلوغ أو المراهقة أى بعد حدوث التأثيرات بسنوات عديدة . ولذلك ليس من المتوقع أن نرى سلوكا عدوانيا عند طفل ما بعد مشاهدته فيلما كارتونيا فيه عنف وعدوان واذا ظهر مثل هذا السلوك فمن العسير أن ترجعه الى الفيلم وحده ، لأن هناك عوامل عديدة تتوسط بين الفيلم وسلوك الطفل .(١٤)

وهناك عامل آخر هام يؤثر في تعلم الطفل للعادات السلوكية وهو التكرار ، فلابد من تكرار حدوث المثير لمدة طويلة ومرات عديدة حتى يحدث تأثيره في الطفل أو يظهر في سلوكه .

ولذلك فمنطق نمو وتكوين السلوك البشرى يختلف الى حد كبير عن منطق المنهج والطرق التى استخدمتها البحوث التى لم تجد علاقة بين برامج التليفزيون وسلوك الأطفال العدواني .

وهناك نقد آخر يمكن أن يوجهه كاتب هذا المقال الى بحث فيشباك وسنجر ، حيث كانت عينة بحثهما من الأولاد في سن ما قبل المراهقة والمراهقة أى من سن ١٠ ـ ١٢ سنة تقريبا ، ان المراهق في هذه السن يكون قد خضع احدى عشرة سنة تقريبا لتأثيرات أخرى في بيئته وأحدثت مفعولها قبل هذه التجربة ، فكيف نتوقع أن يتعدل سلوكه من مشاهدة

برامج تليفزيونية لمدة ستة أسابيع مثلا . فعمر الأطفال هام للغاية عند النظر الى مدى تأثير برامج التليفزيون في سلوكهم ، وهذا ما سيتضح فيما بعد ، فكلما اقتربنا من الطفولة وابتعدنا عن البلوغ والرشد كان ذلك أسلم منهجيا في سياقنا هذا ، حيث يكون هناك فرصة أكبر لمساهمة التليفزيون مع العوامل الأخرى في احداث تأثيره . ولذلك يجب ألا نعول كثيرا على نتائج مثل هذه البحوث .

ويمكن القول في ضوء ذلك ان بعض بحوث النوع الثاني ، والتى أظهرت نتائجها علاقة واضحة بين برامج التليفزيون وسلوك الأطفال ، يتفق منهجها والعينة التى درستها وطول فترة التأثير مع منطق نمو وتشكيل السلوك ، ومثال على ذلك الدراسة التي أجريت في كندا عام ١٩٧٠ ، وبحث ليفكوتز وآخرين ١٩٧٢ ، الذى تتبع فيه الباحثون أفراد عينة البحث احدى عشرة سنة ،فدرسوا الأطفال وهم في سن ٨ سنوات ثم درسوهم وهم في سن ١٩ سنة مرة أخرى . ومثل هذه البحوث تسير تبعا لمنطق تشكيل ونمو السلوك البشرى ، ولذلك يمكن الاعتماد على نتائجها .

وبعد أن استعرضنا بعض البحوث التى عالجت موضوعنا وناقشناها ، نعرض للأساس العلمى لتفسير تأثير التليفزيون في سلوك الأطفال عامة ، والسلوك العدواني خاصة .

٥ ـ التفسير العلمى لتأثير التليفزيون في السلوك :

ان الأساس العلمى الذى يمكن أن نفسر به تأثير التليفزيون في سلوك الطفل وشخصيته فيما بعد يقوم على كيف يدرك الطفل ـ وهل هو قادر على ادراك محتوى برامج التليفزيون التى يشاهدها ، فأى تأثير قد يحدث من التلفزيون في الطفل ـ يعتمد الى حد كبير على معنى البرامج كما يدركها أو يفهمها أو يفسرها الطفل المشاهد . ومع ذلك لم يهتم بهذا الأمر الا القليل جدا من البحوث ، والتى ظهرت حديثا فقط ، والتى نتوقع أن يزداد عددها بشكل ملحوظ خلال العشر سنوات القادمة . وقد بدأ الاهتمام بهذا العامل مع بداية انتاج البرامج التعليمية في التليفزيون ، كما بدأت محاولات حديثة لبحث التغيرات المرتبطة بالعمر والتي تحدث في الادراك والانتباه لفهم محتوى رسالة التليفزيون وأثرها في الجوانب المختلفة للنمو المعرفي عند الأطفال .

ففي احدى الدراسات المبكرة في هذا المجال أجريت على مستوى دولى عام ١٩٦٦ في خمس دول هى : انجلترا ، المانيا ، فرنسا ، تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الأمريكية ، حول أحد البرامج التليفزيونية الخاص بالأطفال والذى يعرض في هذه الدول ، وخرجت كل دولة منها بتقرير خاص عن هذه الدراسة .

وفي التقرير الانجليزى الذى نشر عام ١٩٦٩ ركز على العلاقة بين المستوى المعرفي للأطفال وفهمهم لبرامج التليفزيون ، أوضح أن الأطفال في عمر ٦ سنوات لم يفهموا تفاعل وتتابع أحداث الفيلم المعروض ، ويدركون الفيلم على أنه أحداث غير مترابطة . كما توصلت الدراسة الى الأطفال قبل عمر ٦ سنوات يدركون كل شيء في التليفزيون كما لو كان حقيقة وصادقا .

وهناك خلاصة أساسية توصلت اليها البحوث في هذا المجال وهى أن الطفل في السنوات المبكرة من عمره ، يمر خلال مرحلة نمو مبكر للعمليات المعرفية تقيد فهمه لمضمون الشيء المدرك ، أو الفيلم الذى يشاهده ، وفي عمر ٧ سنوات تحدث تغيرات كيفية في نمو الطفل ونمو قدراته المعرفية تؤدى به الى البحث عن البناء المنطقي خلف التغيرات التى تحدث في مظهر الأشياء ، وبذلك يرجع عدم فهم الأطفال قبل سن سبع سنوات ، وفي الوقت نفسه الفهم الخاص بهم لاحداث االفيلم الى عدم نمو القدرات المعرفية في السنوات المبكرة من حياة الطفل . (١٣ ص ٣ـ ٤) كما برهنت بحوث حديثة أجريت عام ١٩٧٨ على أن الأطفال الصغار (٢ ـ ٦ سنوات) يختارون معلومات مختلفة من العرض الدرامي ، عما يفعله الأطفال الأكبر سنا . ويفشلون في ادراك الاطار الدرامى لتنظيم وفهم المناظر القصصية ، ولذلك يقومون بعمل القليل من الاستدلال حول معنى المضمون والعلاقات بين عناصر البرنامج ، أو الربط بين الأفعال والنتائج . ولذلك فالطفل في هذه السن يدرك ويفهم مضمون الفيلم التليفزيونى بناء على ادراكه هو ، وخبراته المحدودة القاصرة ، وعوامل ذاتية خاصة به ، وليس بناء على الادراك الموضوعي ، أو على المعنى الذى أراده المؤلف أو سياق العمل الدرامى .

ولذلك فتأثير التليفزيون يكون أعظم في أطفال ما قبل المدرسة الابتدائية . (١٥) وهذه النتائج تتفق مع ما توصل اليه علم نفس النمو ، حيث توصل العلماء الى أن الطفل في سن الثالثة مثلا يكون عاجزا أيضا عن التمييز الدقيق بين الشخص والموقف الذى يوجد فيه أو بين الشيء ومحيطه ، حيث لا يزال الأنا غير ناضج وفي مستوى منخفض من النمو ، ولذلك فكثيرا ما يعمم الطفل تجاربه على الآخرين ، وتجارب الآخرين على ذاته ، فيكون عنده خلط بين الحقيقة والخيال (بين الفيلم والواقع) . وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل بعض الأنماط السلوكية الشائعة في مجتمعه ، والتى تؤثر فيها بعد في تشكيل شخصيته ، وذلك بفضل ومساعدة اللاتغاير بين الأنا والآخر .

ويذكر لنا الدكتور مصطفى سويف في كتابه « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي » موقف ابنته عندما كان عمرها سنتين وسبعة شهور ، ورأت نموذج الذئب يأكل الحمل في المتحف الزراعي بالقاهرة ، فبكت وانزعجت انزعاجا شديدا ويعلق الدكتور سويف على ذلك بقوله : إن هذا الانزعاج ينطوى على نوع من الاتحاد بين ذات الطفلة والحمل ، أى خلط بين الحقيقة والخيال بين الذات والموضوع ، ويظل الطفل على ذلك حتى قرب نهاية السنة الثالثة من عمره . (٦ ص ١٢٢ ـ ١٣١) .

بل ان كتب التحليل النفسي تعلق على مواقف سوء الحظ التى قد تحدث في السنوات المبكرة من حياة أحد الأطفال ، حينما يتشابه تتابع الخيال عند الطفل مع تتابع السلوك الواقعي ، فعلى سبيل المثال ، اتضح أن الطفل الصغير قد يلوم نفسه اذا توفى أحد الأقارب بعد فترة كان الطفل خلالها مشغولا في عداء خيالي مع هذا الشخص وقد يشعر بقدر كبير من الشعور بالذنب لما حدث .

وتعطينا هذه النماذج مدى الخلط عند الأطفال بين الحقيقة والخيال ، ويوضح لنا مدى القصور في الادراك والعمليات المعرفية عند الأطفال الصغار ، كما يعطينا مؤشرات الى ادراك الطفل الصغير للمشاهد التى يراها في برامج التليفزيون ، فعدم التمييز الدقيق بين الخيال والواقع عند طفل ما قبل السادسة ، تجعل الأشياء الخيالية التي يعرضها

التليفزيون عالما حقيقيا واقعيا بالنسبة له ، ومن هنا يأتى تأثير المثيرات الخارجية ومنها التليفزيون في سلوك الأطفال ، فيصبح ما يسمع أو يشاهد جزءا من حياته الخاصة التي تؤثر فيه ، فالقصة المخيفة قد تؤدي الى التوتر والى الكابوس أثناء النوم ، ومما لا شك فيه أن تكرار واستمرار مثل هذه التوترات أمام الطفل يؤدى الى أن تصبح جزءا من مكوناته السيكولوجية في الطفولة وبالتالي جزءا من سلوكه وشخصيته في الكبر .

واذا حاولنا أن نحلل الخيال ، حتى تتضح جوانبه المختلفة ومدى علاقته بالجوانب المزاجية والمعرفية الادراكية ، لوجدنا أنه يتكون من ثلاثة جوانب أساسية هي :

الأول : أن الخيال (وخاصة الذى يكون مصدره خارجيا) يتضمن جوانب حسية ، منها أساسا السمعية والبصرية ، واحتمال أن يكون هناك احساسات أخرى مثل : الاحساسات الحركية وحتى السمعية .

ثانيا : يتضمن الخيال جوانب معرفية ، فالخيال يتعلق بأمور يكون الناس قادرين على التفكير فيها ، وقد يكون هذا التفكير معقدا أو بسيطا ، صحيحا أو خاطئا ، ولكن الخيال يتضمن أسسا يكون الفرد قادرا على تصنيفها بطريقة أو بأخرى .

ثالثا : الخيال له جانب انفعالي أو عاطفي ، أى له بطانة وجدانية ، وقليل من الأخيلة ـ وربما لا يوجد ـ محايد . فالخيال يتضمن الأمل ، المرح ، التوتر ، الراحة ، السرور ، الخوف ، الغضب .... ومشاعر أخرى .

ومن الضرورى التمييز بين حدوث أو عرض العدوان الفعلي الواقعي ، وعرض أو تصوير العدوان الخيالي ، ولكن الأطفال الصغار ـ غالبا ـ لايستطيعون القيام بهذه التفرقة ادراكيا ولذلك ربما يستجيبون للعدوان الخيالي بنفس الطريقة التى يستجيبون بها للعدوان الحقيقي الواقعي وبطريقة مماثلة أيضا للأفكار التي تدور حول ايذاء الآخرين ، وبنمو الطفل وارتقائه التدريجي يصبح قادرا على التمييز بين الحقيقة والخيال ، ولا يتصرفون لكل منهما نفس التصرف وعندئذ لا يخاف الأطفال في هذه المرحلة من البرامج التليفزيونية التي كانت تخيفهم من قبل .

ومن المهم أن نذكر هنا وفى هذا السياق ، أن الأطفال عندما يصبحون قادرين على التمييز بين الحقيقة والخيال لا يتم ذلك بطريقة آلية ، وبناء على ميكانزمات النضج فقط ، ولكن أيضا من خلال خبراتهم الخاصة اليومية وادراكهم لنتائج أفعالهم المختلفة ، بالاضافة الى ـ وهو هام للغاية ـ التفسيرات المختلفة ، والمساعدة المباشرة للوالدين . ومن هنا يأتي دور الوالدين والبيئة المحيطة بصفة عامة في نمو الادراك والنمو النفسي عموما . فيعلم الوالدان الأبناء أنهم يجب أن يعملوا ليحصلوا على ما يريدون ، ويوضحون لهم من أن تلك المشاكل في حاجة الى حل وعمل ولا يمكن أن نرغب فيها فقط لكى تحل ، وبتكرار تفاعل الأطفال بالأشخاص المحيطين بهم يصبحون قادرين على التمييز بين الحقيقة والخيال . (٩ص ٣٦) .

يتضح لنا من المناقشة السابقة أن المرحلة العمرية التي يمر بها الطفل ترتبط بنموه النفسي الجسمي وتعمل كعامل

فعال في تحديد ما يستطيع الطفل أن يدركه أو يتعلمه كما يتضح أن تأثير التليفزيون في سلوك الطفل يختلف درجته من مرحلة عمرية الى مرحلة عمرية أخرى . وأن الأطفال في المرحلة العمرية ٢ـ٦ سنوات أكثر تأثرا بالتلفزيون من المراحل العمرية التالية .

واذا انتقلنا من العوامل التى تساعد على أن يحدث التليفزيون تأثيره في سلوك الأطفال ، الى الحديث عن النظرية التى وراء هذا ، لوجدنا أن النظرية التى يعتمد عليها معظم الباحثين في هذا المجال هى نظرية التعلم الاجتماعي : وترى هذه النظرية أن الأطفال يتعلمون من التليفزيون تماما مثلما يتعلمون من أى عرض مرئى آخر ، فالطفل يتعلم أساليب وطرق العدوان أو العنف التى قد لا تأتي في مجال انتباهه ، فقد يتعلم كيف يستخدم السكين في شجار ، كيف يشنق فردا ، كيف يطلق بندقية، أو قد يتعلم كيف يحصل على هذه الأدوات ، وذلك بالطريقة التى شاهدها في التليفزيون .

فضلا عن أن الكثير من البرامج التليفزيونية لها تأثير الاثارة العامة ، والتي تجعل العنف والعدوان أكثر ترجيحا . ويمكن تفسير ذلك بأن مناظر العنف في حد ذاتها مثيرة ، إنها ترفع من مستوى التوتر ومستوى النشاط عند الفرد ، والطفل النشط أكثر قابلية لأن يؤذى شخصا آخر أكثر من الطفل الهادىء . وتتفق هذه النظرية الى حد كبير مع نظرية أيزنك القائلة بأن الشخص المنبسط أكثر ميلا لأن يكون عدوانيا وأكثر ميلا الى أن يقع في سلوك مضاد للمجتمع من الشخص المنطوى ، ومن صفات الشخص المنبسط أنه نشط وتفسير ذلك واضح ، اذ أن علاقاته الاجتماعية تكون أكثر اتساعا ، وأكثر اندماجا بالآخرين من الشخص المنطوى ، مما يزيد من فرص العدوان وفرص السلوك المضاد للمجتمع .

وقد يكون العنف والعدوان من بين الميول السلوكية الكثيرة التي يتعلمها الطفل من المشاهدة ، ويعتقد أن النشاط العدواني في برامج التليفزيون يثير خيال الطفل العنيف من خلال التوحد ، والتوحد عملية سيكولوجية تعنى أن يدمج الطفل ذاته في ذات الشخص الذى يثير اعجابه ، فيدرك أنه هو وهذا الشخص شخص واحد ، وخلال عملية التوحد هذه يكتسب الطفل أنماطا وعادات سلوكية كثيرة . فعلى سبيل المثال عندما يرى الطفل البطل وهو يقتل شريرا في التليفزيون ، قد يجعل ذلك الطفل يتخيل نفسه الفتى الخير المعاقب الذى يعاقب أخاه السيىء ، وبتكرار تعرضه لمثل هذه المواقف وهذه التخيلات تزداد فرصة أن يؤذى أخاه بطريقة ما وبذلك قد يرى الطفل نفسه مماثلا للشخص ـ او هو الشخص ـ الذي يرتكب العنف في برامج التليفزيون ، ويرى الشخص الآخر الذي يقوم بايذائه انه الذي يستحق الايذاء . (٩ص١١ ـ ١٢) ويقارن بنديورا ١٩٧٣ « Bandura » وهو من رواد نظرية التعلم الاجتماعي ، بين تأثير الاعلان التجاري على المشاهدين وخاصة الاطفال ، وبين تأثير العنف في التليفزيون على السلوك ، وهذه المقارنة ذات منطق واقعي ، حيث اتضح في كثير من الدراسات ان الاعلان التجاري له تأثير فعال على سلوك المستهلكين وخاصة الاطفال منهم ، ففي احدى هذه الدراسات تبين ان ٧٤٪ من اطفال العينة يغنون أغاني الاعلانات التجارية ، كما ان الشركات التجارية لاحظت ازدياد مبيعاتها من السلع التي تعلن عنها في التليفزيون وخاصة عندما تكون هذه السلع خاصة بالأطفال .

كما يرى بنديورا ان السلوك الذي يتعلمه الطفل عن طريق المشاهدة لا يحتاج ـ لكي يتعلمه ـ لا الى مكافأة ولا الى عقاب . ويرد على المزاعم التي ترى ان التليفزيون ليس له تأثير على السلوك العدواني خاصة ، وان نتائج بعض البحوث اوضحت ذلك ، بقوله : ان عدم ظهور الاستجابة العدوانية عند الاطفال ، لا يعني ان الطفل لم يتعلمها ، فمن الممكن ان يكون الطفل قد تعلم هذه الاستجابة من الملاحظة ، او من مشاهدته لبرامج التليفزيون ، ولكنها لا تتحول الى سلوك ، ولذلك حتى اذا لم يقلد الطفل السلوك العدواني بعد مشاهدته مباشرة ، وهو ما حاولت بعض البحوث التحقق منه فأظهرت نتائج سلبية ، ويرى بنديورا انه لا يوجد دليل على ان الطفل لم يتعلم الاستجابة العدوانية عندما لا تظهر مباشرة ، ان ظهور الاستجابة العدوانية في سلوك ملاحظ يحتاج الى وقت وبيئة سيكولوجية وموقف خارجي حتى يمكن ملاحظتها . وقد لا تظهر الا بعد سنوات ، كما سبق القول عند الحديث عن « التأثير النائم » .

وويرهن بنديورا على ان الاطفال يتعلمون من الملاحظة اكثر مما يظهرون عادة في سلوكهم الظاهر .

ويمكن القول ان قبول نظرية التعلم الاجتماعي ، ونتائج بحوث بنديورا يؤكد المضمون القائل بأن التعرض للافلام العدوانية في التليفزيون يمكن ان يؤدي الى :

أ ـ ان يقلل من قدرة الاطفال على كف او منع الدفعات العدوانية مما يؤدي بهم الى ارتكاب العنف والسلوك العدواني .

ب ـ المساهمة في تشكيل صورة ونمط السلوك العدواني لدى الاطفال .

جـ ـ ان يقلد الطفل السلوك الذي يكافأ فاعله ، اكثر من ان يقلد السلوك المعاقب فاعله .

د ـ ان يقلد الاطفال السلوك العدواني الذي يشاهدونه ، وخاصة حينما يثاب الشخص الذي يقوم بالعدوان (١٣ص ٥ - ١٩) .

ويبدو لنا الآن ان معظم العلماء والمهتمين بمشكلتنا هذه يرون ان التليفزيون له تأثير واضح في سلوك الاطفال وان العنف والعدوان في التليفزيون يؤدي الى السلوك العدواني عند الاطفال . ولقد توصل لايبرت عام ١٩٧٣ « Liebert »الى ذلك في قوله :

« هناك درجة ملحوظة من الاتفاق . . . على وجود ارتباط بين العنف المشاهد والسلوك العدواني عند الصغار ، فالدراسات المعملية والبحوث الارتباطية الحقلية اظهرت جميعها ان التعرض للتليفزيون يمكن ـ وغالبا ما يحدث ـ ان يجعل المشاهد اكثر عدوانية ، وذلك عندما استخدمت المقاييس والمعاني المختلفة للعدوان » . (١٣٠ص٩) .

ولكن مع هذا الاتفاق ، يجب ان نضع في اعتبارنا ان العوامل التي تؤثر في السلوك وتشكل الشخصية متعددة ، فهناك عوامل اخرى تشترك مع التليفزيون في احداث مثل هذا التأثير في السلوك ، فلوحظ مثلا ان تأثير التليفزيون في السلوك العدواني المكشوف قد يختلف من الذكور الى الاناث ، ويختلف من الراشدين الى المراهقين والأطفال . كما ان درجة ونمط العدوان الذي قد ينجم عن مثل هذا التعرض للتليفزيون قد يختلف باختلاف مقدار الوقت الذي يقضيه الفرد امام التليفزيون ، ونوع البرامج بالاضافة إلى عوامل هامة اخرى خاصة بالفرد مثل : مستوى ذكائه ، ومستواه الاجتماعي الثقافي .

ففي دراسة مسحية امريكية ، اوضحت نتائجها ان الاطفال الذين من الطبقة الاجتماعية المتوسطة ، والذين يقضون وقتا طويلا امام التليفزيون اظهروا عدوانا ضد المجتمع اكثر من اطفال الطبقة المتوسطة والذين يقضون وقتا اقل في مشاهدة التليفزيون ووقتا اطول في القراءة . ولم تبين نتائج البحث مثل هذه العلاقة عند الاطفال الذين من الطبقة الاجتماعية الاقتصادية الأدنى ، ويبدو ان خيال التليفزيون بالنسبة لأطفال الطبقة الوسطى يجعلهم يتعرضون لاحباطات اكثر مما يواجه اطفال الطبقات الاخرى ، كما يبدو انه يعكس قدرا كبيرا من الصراع مع الوالدين .

كما اوضحت بعض الدراسات المسحية التي اجريت في عامي ١٩٥١ ـ ١٩٥٩ ان الشعور بالاحباط الشديد يرتبط بتفضيل برامج العنف ، كما ان استعدادات الشخصية العدوانية عند الاولاد ترتبط بتفضيل المضمون العدواني في برامج التليفزيون ، ما اتضح ان الاولاد الذين يفضلون مادة البطل العدواني يميلون الى ان يكونوا مضطربين انفعاليا ، ويأتون من اسر غير مستقرة .

كما اتضح ان الأولاد العدوانيين الذين في الصف الثالث (تسع سنوات) يفضلون برامج العنف في التليفزيون ، على الرغم من انهم قد لا يشاهدون التليفزيون كثيرا . (٩ص٢٥ ـ ٣٣) .

ويمكن الاستناد الى هذه النتائج كشواهد على ان برامج التليفزيون العدوانية تعتبر مكافأة للاطفال المحبطين ، غير المتوافقين والعدوانيين . كما يمكن الاعتماد عليها كبراهين على ان العدوان عند الأطفال تثيره برامج العنف والعدوان في التليفزيون ، وهو ما يتفق مع الخلاصة التي خلصنا اليها .

ويبدو لنا واضحا الآن ان صفات المشاهد تتفاعل مع خصائص البرنامج عند تحديد التأثيرات النهائية للعنف والعدوان لبرامج التليفزيون .

وبعد الانتهاء من الحديث عن العلاقة بين برامج العنف في التليفزيون وتأثيرها في شخصية الأطفال ، ننتقل الى موضوع آخر هو علاقة برامج التليفزيون بالجوانب المعرفية عند الأطفال .

ثالثا : أثر التليفزيون في النمو المعرفي للأطفال :

كان حديثنا عن علاقة العدوان في التليفزيون بالسلوك العدواني عند الاطفال ، بعد حديثنا عن علاقة التليفزيون بالجانب المزاجي او الانفعالي من الشخصية ، اما حديثنا عن علاقة التليفزيون بالنمو المعرفي عند الاطفال فهو حديث عن الجانب المعرفي من الشخصية ايضا . وكلا الجانبين يكونان الشخصية وبتفاعلهما تتكون الشخصية ، وأي تأثير في احدهما يؤثر في الآخر وأي نمو لأحدهما نمو للآخر ، وعندما تحدثنا عن أثر التليفزيون في السلوك العدواني قلنا ان ادراك الطفل لمعنى ومضمون البرنامج التليفزيوني هو الذي يحدد مدى تأثيره فيه ، والادراك جزء من الجانب المعرفي .

ولكن على الرغم من ان الجانبين هامان في تنظيم الشخصية ، وتحديد مدى تأثير التليفزيون في السلوك ، الا ان العلماء كانوا اكثر اهتماما بتأثير التليفزيون في السلوك العدواني ، وبدأ هذا الاهتمام مبكرا جدا ، اي عندما بدأ الارسال التليفزيوني ينتظم في العالم . اما علاقة التليفزيون بالجانب المعرفي فلقد تأخر العلماء في الاهتمام به او دراسته . حتى السبعينات من هذا القرن ، ويبدو ان الاهتمام العلمي العملي بهذا الموضوع بدأ مع بداية انتاج البرنامج الامريكي الشهير « شارع السمسم » حيث يؤرخ العلماء بداية عصر التليفزيون التعليمي ببداية انتاج هذا البرنامج ، وما دمنا نتحدث عن التعليم والتعلم فنحن نتحدث عن جزء من الجانب المعرفي .

ولم يعد عرض برنامج شارع السمسم مقصورا على امريكا ، بل يعرض في ٤٨ دولة ، ويشاهده مرة كل اسبوع على الاقل ٨ ملايين طفل ، ويشاهده ثلاث مرات او اكثر في الاسبوع ٦ ملايين طفل . وصمم ونفذ البرنامج لكي يعلم اطفال ما قبل المدرسة الابتدائية وخاصة في سن من ٣ ـ ٤ سنوات الذين يعيشون في المناطق الفقيرة والمحرومة من الخدمات في المدن ، ولكن يبدو انه كان اكثر انتشارا من ذلك .

وبتحليل مضمون برنامج « شارع السمسم » كما يقدم في امريكا ، وجد أنه يعلم الأطفال الجوانب التالية بالنسبة لقرين كل منها :

البنـــد	النسبة المئوية
أجزاء الجسم	٤,٠٪
حروف الكتابة	١٣,٩٪
الاشكـال	٢,٥٪
الأرقـام	٩,٩٪
العلاقـات	٤,٩٪
الفـرز	١,٩٪
التصنيـف	٠,٧٪

ومنذ بداية عرض هذا البرنامج الخاص بالاطفال بدأت الدراسات والبحوث حول تأثيره في الجانب المعرفي للاطفال . ومن أولى الدراسات في هذا المجال الدراسة التي أجراها مالكوم Malcolm ونشرت نتائجها عام ١٩٧٠ واوضح الباحث ان برنامج « شارع السمسم » له هدف اساسي هو تعليم اطفال ما قبل المدرسة المهارات التي يتعلمها الطفل في المدرسة مثل : الحروف الابجدية ، الارقام ، الاشكال ، العلاقات ، التصنيف ، واجزاء الجسم . وتبين من البحث النتائج التالية :

١ ـ ان الاطفال المحرومين الذين يعيشون في الاحياء الفقيرة ويشاهدون البرنامج بانتظام قد تعلموا اكثر من الاطفال

الاحسن حالا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والذين يشاهدون بعض الحلقات فقط ، وذلك دون النظر الى العمر او السن او المنطقة الجغرافية .

٢ ـ ان الاطفال الذين في سن ٣ سنوات ويشاهدون البرنامج بانتظام يتعلمون اكثر من الاطفال الذين في سن ٤ او ٥ سنوات واقل انتظاما في مشاهدة ومتابعة البرنامج .

٣ ـ تبين ان الاطفال يتعلمون جيدا عندما يشاهدون البرنامج في المنزل او في المراكز الخاصة باطفال ما قبل المدرسة .

كما تبين ان الاطفال الذين يتعلمون من البرنامج افضل من الآخرين ، تشاهد امهاتهم البرنامج معهم وتتناقشن معهم حوله بعد عرضه .

واجريت دراسة اخرى عام ١٩٧١ وكانت عينة البحث من اطفال تتراوح اعمارهم بين ٥ ـ ٦ سنوات ، وتبين من نتائج البحث عدم وجود فرق واضح في المعلومات التي يبثها البرنامج بين الاطفال الذين يشاهدونه والاطفال الذين لا يشاهدونه كما لم يجد فرقا واضحا بين الاطفال الذين شاهدوه لمدة سنة واحدة والاطفال الذين شاهدوه لمدة سنتين .

وفسر البعض ان هذه النتائج متوقعة لأن البحث أجرى على فئة عمرية لم يصمم البرنامج لتعليمها ، فلقد صمم البرنامج لتعليم الاطفال الذين في سن من ٣ ـ ٤ سنوات فقط .

ثم تعاقدت ورشة تليفزيون الاطفال التي تنتج برنامج « شارع السمسم » مع احد مراكز البحوث التربوية ليقيم فعالية البرنامج ، وقام المركز بدراسة مدى فعالية البرنامج ، وقدم تقرير البحث بنتائجه سنة ١٩٧٠ جاء فيه :

ان الاطفال من سن ٣ الى ٥ سنوات ، ومن مستويات اجتماعية واقتصادية متباينة ، ومن مناطق حضرية وريفية ، يكتسبون مهارات معرفية هامة ، وذلك نتيجة لمشاهدتهم البرنامج وتبين ان الذين شاهدوه اكثر تعلموا اكثر .

كما بينت الدراسة ان التليفزيون التعليمي كوسيلة ذات فعالية لتعليم مهارات معينة للاطفال الصغار بواسطة برنامج « شارع السمسم » قد برهنت عليها البحوث . كما اورد التقرير النتائج التالية :

١ ـ يحدث تحول للتعلم[1] الذي يكتسب نتيجة لمشاهدة برنامج « شارع السمسم » مثل التعرف على الكلمات الكاملة ، أو قدرة الأطفال على كتابة أسمائهم ، مع أن هذه المهارات لم تعلم في البرنامج .

٢ ـ أن الأطفال في سن ٣ سنوات أكثر تعلما وتحصيلا من البرنامج ، من الأطفال الذين في سن ٥ سنوات .

---

(١) تحول التعلم يعني انه قد يكون لتعلم مهارة معينة احيانا تأثير في تعلم مهارة اخرى وقد يكون هذا التأثير ايجابيا ، بمعنى ان تعلم المهارة الأولى يسهل تعلم المهارة الاخرى ويسمى هذا التأثير بتحول التعلم الايجابي ، وقد يكون التأثير سلبيا اي ان تعليم المهارة الأولى يجعل تعلم المهارة الأخرى صعبا ، ويسمى التأثير في هذه الحالة بتحول التعلم السلبي . لمزيد من التفصيل عن تحول التحول انظر :

دكتور محمد عثمان نجاتي . علم النفس في حياتنا اليومية . دار القلم . الكويت . الطبعة الثامنة . ١٩٨٠ص١٧٨ ـ ١٨٠ .

٣ ـ يتعلم الأطفال المهارات أفضل عندما تقدم هذه المهارات خلال البرنامج بطريقة مباشرة .
ونخرج من نتائج هذه البحوث بأن تأثير التليفزيون على الجانب المعرفي للأطفال يكون أكثر وضوحا عند الأطفال من سن ٣ الى ٤ سنوات ، وعندما تشارك الأم الأطفال في مشاهدة البرنامج وتناقشهم في معلوماته ، فلقد أشار تقرير مركز البحوث التربوية الى أن البرنامج يكون أكثر فعالية وتأثيرا عندما تستجيب بيئة المنزل ايجابيا للمثيرات التعليمية التي يعرضها البرنامج .

ثم انتقل اهتمام العلماء الآن خطوة أخرى الى الأمام في مجال النمو المعرفي ، فبعد أن كانوا يهتمون بدراسة مدى تأثير التليفزيون على الجانب المعرفي للأطفال ، بدأوا يهتمون حديثا جدا بمدى مساهمة التليفزيون في زيادة معدل النمو المعرفي عند الأطفال ، وانتقل هذا الاهتمام الى علماء النفس ، وعلماء النمو النفسي خاصة ، لدراسة ما اذا كان من الممكن زيادة معدل النمو المعرفي ؟ وسوف تزداد بحوث المستقبل القريب حول هذا الموضوع .
(١٣ ص ٤٣ ـ ١١٧ ، ١٥)

رابعا : دور التليفزيون في التنشئة الاجتماعية للطفل :

سبق الحديث عن أهمية التليفزيون ومكانته المتميزة عن وسائل الاعلام الأخرى ، ومن العوامل التي ذكرت وجعلت له هذه المكانة أنه أصبح له دور في تنشئة الأطفال اجتماعيا في الأسرة .
ولأهمية عملية التنشئة الاجتماعية وخطورتها على المجتمع ، اهتم علماء العلوم الاجتماعية ، وخاصة علماء النفس بدراستها ، وعندما اتضح أن التليفزيون له دور في هذه العملية بدأ العلماء يهتمون بتأثير هذا الدور على الأطفال ، ومدى قيام التليفزيون بدوره فيها ، ومدى تأثيره في السلوك الاجتماعي للأطفال .
فاهتم العلماء بأنماط محددة من السلوك الاجتماعي للأطفال وأثر التليفزيون فيها مثل : مساعدة الآخرين ، التعاون ، الصراع ، الصداقة ، التعاطف ، الشفقة ، المثابرة في عمل الواجب ، طاعة القواعد التي تضعها الجماعة .
ورغم أهمية موضوعنا هذا الا أن الدراسات حوله قليلة بل تكاد تكون نادرة .
وتبين من إحدى الدراسات التي أجريت عام ١٩٧٠ أن البرامج الاجتماعية في التليفزيون تدعم وتقوي من تعلم السلوك الاجتماعي للأطفال الذين في سن ما قبل المدرسة .

كما أوضحت دراسة أخرى أجريت في بريطانيا عام ١٩٥٥ وجود عدد من الأدلة على تأثير التليفزيون في سلوك الأطفال الذين في سن من ١٠ ـ ١١ سنة ، حيث تبين وجود تأثير قليل ولكن متسق للتليفزيون في الطريقة التي يفكر بها الأطفال عن العمل ، كما اتضح أن الاطفال الذين يشاهدون التليفزيون يظهرون طموحا أكثر في نظرتهم وقيمهم التي تتعلق بالعمل عن الأطفال الذين لا يشاهدون التليفزيون ، فلقد اقتربت قيم الأطفال الذين يشاهدون برامج التليفزيون من قيم الطبقة المتوسطة عن العمل .
وفي دراسة قامت على مضمون بعض المسرحيات التي تقدم للراشدين في التليفزيون البريطاني لا تتضمن هذه المسرحيات الفكاهية أو الاجرامية أو البوليسية) وحيث أن الأطفال يستمتعون بالعديد من المسرحيات التي تقدم للراشدين فيمكن أن تكشف لنا الدراسة عن محتوى هذه المسرحيات من قيم ، ومدى تأثيرها في الأطفال وقيمهم .

فاتضح من هذه الدراسة أن عالم الدراما في التليفزيون البريطاني يقدم قيم مجتمع أعلى الطبقة المتوسطة التي تعيش في المدن الكبرى ويتعرض لمهن الأفراد وعملهم في هذا المستوى الاجتماعي بشكل موسع . كما اتضح ان المسرحيات تقدم العمل اليدوي على أنه غير شيق ، وتعلم الأفراد أن الثقة بالنفس والصلابة لابد من توفرها لكي تحقق النجاح ، ونادرا ما تجلب الفضيلة السعادة ، وأن العنف جزء من الحياة يتعذر اجتنابه ، والأفراد الطيبون غالبا ما يكونون ضحايا .

كما اتضح من هذه الدراسة أن أوصاف الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون لمنازل الأغنياء تعكس علامات الثراء التي تصور في التليفزيون .

وتوضح هذه الدراسة أن القيم الاجتماعية التي يعرضها إلتليفزيون يمكن أن تحدث تأثيرا اذا ما قدمت في شكل درامي وبطريقة مستمرة[١٢].

ويرى أحد علماء النفس أن هناك اختلافات بين الطبقات الاجتماعية في أساليب تنشئة الطفل ، وحتى تظل هذه الاختلافات باقية يجب أن تنقل الى الأجيال القادمة عن طريق أنماط تنشئة الطفل الخاصة بكل طبقة اجتماعية ولقد وجد في أمريكا فروق ملحوظة بين الطبقات في أساليب تنشئة الطفل سنة ١٩٤٠ ، حيث وجد أن الآباء الذين من الطبقة الوسطى أكثر صرامة مع أبنائهم من الآباء الذين من الطبقة الدنيا ، ولكن في سنة ١٩٥٨ أوضحت احدى الدراسات تقارب الفروق بين الطبقات وتغيرت نظرة المجتمع الى معاملة الطفل ، ويرجع بعض علماء النفس هذا التقارب بين الطبقات الاجتماعية في أساليب تنشئة الطفل الى التليفزيون ، فيقول أحد علماء النفس :

« في الحقبة الحديثة ، عندما حدث تغير في نقل المعايير من المجلات والكتب التي تتطلب قدرا عاليا من الثقافة والتعلم الى التليفزيون الذي ينقل أساسا وسائل متشابهة عن تربية الطفل الى كل من أمهات الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا على السواء ، فان فروق الطبقة التي كانت ملحوظة يوما ما أخذت تميل الآن الى الاختفاء كلية ، ومن المحتمل أيضا أن نفس عملية التقريب يمكن أن تحدث عبر الثقافات التي أصبحت أقل انعزالا بعضها عن بعض ومن ثم توثق الصلة أيضا بين الثقافة والشخصية »[٤].

هذا عن دور التليفزيون في التنشئة الاجتماعية بصفة عامة للأطفال ، ومنذ خمس سنوات فقط بدأ الباحثون يهتمون بموضوع محدد من موضوعات التنشئة الاجتماعية وهو تأثير التليفزيون في اكتساب دور النوع . ويقصد بدور النوع أن كل نوع (ذكر أو أنثى) له دور محدد في الأسرة والمجتمع ، وله مهن معينة يزاولها ويقبل المجتمع مزاولته لها ، وله حقوق وواجبات محددة وله مكانة معينة في الأسرة والمجتمع ، والذي يحدد كل هذا المجتمع والثقافة السائدة فيه والذي ينقل كل ذلك الى أبناء الأسرة ، فنحن لا نولد بهذا الدور ولكن نتعلمه ونكتسبه خلال عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة ، ويصبح جزءاً من شخصيتنا ، ويحدد سلوكنا في المواقف الاجتماعية المختلفة ، ولذلك يختلف دور الأنثى ـ ودور الذكر في الأسرة وفي المجتمع من مجتمع الى آخر .

فهل التليفزيون له دور في تعليم الأطفال دور نوعهم ؟

أوضحت إحدى الدراسات أن مجموعة من البنات في سن من ٥ الى ٦ سنوات شاهدن كارتونا تليفزيونيا لا يفرق بين الذكور والاناث في الدور الاجتماعي ، وبعد مشاهدته أظهرن في سلوكهن دور نوع أقل تمييزا بين الذكور والاناث .

وعند تقييم أحد البرامج المصممة لتقليل نمط دور النوع بين الذكور والاناث من الأطفال الذين في سن من ٩ الى ١٢ سنة ، وليوسع الوعي والاهتمام المهني للبنات في هذه المرحلة العمرية اتضح ما يلي :

أنه على الرغم من أن البرنامج كان له تأثير محدود في تعديل نمط الاهتمام الفردي الا أن المشاهدين من سبع مدن أمريكية أصبحوا أكثر تقبلا واستحسانا للبنات في أدوار غير تقليدية (أدوار كان الذكور يقومون بها عادة) وأصبحوا أقل تنميطا في ادراكهم لدور النوع . وكان حدوث هذه التأثيرات أكثر يسرا عندما شاهد أفراد عينة البحث البرنامج في المدرسة ، مع مناقشته في الفصل الدراسي . كما تبين أن ٦٠٪ من تأثير البرنامج استمرت مع أفراد العينة لمدة ٩ أشهر بعد مناقشتهم للبرنامج[١٥].

ويمكننا أن نختتم حديثنا عن دور التليفزيون في التنشئة الاجتماعية للأطفال بالعبارة التي ذكرها رائد من رواد نظرية التعلم الاجتماعي البرت بنديورا عام ١٩٧٧ حيث قال :

« انه بازدياد استخدام نماذج رمزية (التليفزيون) فان دور الوالدين والمدرسين والنماذج التقليدية الأخرى للأدوار ، سوف تحتل دورا أقل أهمية في التعلم الاجتماعي »[٨].

واذا حاولنا في نهاية هذه الدراسة أن نستعرض مدى تأثير وسائل الاعلام وخاصة التليفزيون في سلوك الأطفال لوجدنا أن هذا التأثير حيوي وفعال ، وبرهنت عليه البحوث العلمية ، والملاحظات الخاصة الدقيقة ، وذلك في السلوك العدواني ، والجوانب المعرفية والتعلم الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية ، وأن فعالية هذا التأثير تزداد عندما يكون الطفل عنده الاستعداد النفسي لمثل هذه التأثيرات ، وعندما تكون ظروف الأسرة هذه تساعد على ذلك . وعندما أيضا يكون الطفل في مرحلة عمرية تساعد على حدوث مثل هذا التأثير ، حيث اتضح أن عمر الطفل عامل هام في حدوث تأثير التليفزيون .

ويرى كاتب هذه الدراسة أنه اذا كانت الدول الأخرى قد اهتمت بدراسة تأثير التليفزيون في سلوك الأطفال فاننا في الدول العربية ، يجب أن نهتم اهتماما مضاعفا ، فيجب أن نهتم بتأثير برامجنا العربية ومضمونها في سلوك أطفالنا ، ثم وهذا هو الأهم أن نهتم بتأثير البرامج الأجنبية في سلوك واتجاهات وقيم وعادات أطفالنا في العالم العربي ، خاصة بعد أن اتضح مدى تأثير التليفزيون في الجوانب المختلفة لسلوك الأطفال وشخصياتهم في الرشد .



مراجع البحث

١ ـ دكتورة سهير بركات . الاعلام وظاهرة الصورة المنطبعة . مجلة العلوم الاجتماعية . السنة الثامنة . العدد الأول . ١٩٨٠ . ص١٠٣ ـ ١١٩ .
٢ ـ دكتور سيد غنيم . سيكولوجية الشخصية . القاهرة : دار النهضة العربية . ١٩٧٣ .
٣ ـ دكتور عبداللطيف حمزة . الاعلام والدعاية . بغداد . مطبعة المعارف . ١٩٦٨ .
٤ ـ لازاروس . (ترجمة دكتور سيد غنيم) . الشخصية . القاهرة : دار الشروق . ١٩٨١ .
٥ ـ دكتورة محاسن أحمد . التنشئة الثقافية والمعرفية لطفل ما قبل المدرسة الابتدائية : الطفل والتليفزيون . بحث مقدم الى اسبوع التربية الثامن . الكويت . ١٩٧٨ .
٦ ـ دكتور مصطفى سويف . الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي . القاهرة : دار المعارف . ١٩٧٨ .
٧ ـ دكتورة ناهد رمزي . المفاضلة بين التليفزيون والوسائل الاعلامية الأخرى . المجلة الاجتماعية القومية . العدد ١ ـ ٣ ، المجلد ١٦ ، ١٩٧٩ . ص ٤٩ ـ ٦٨ .
8 — Bandura, A. Social Learning Theory: New Gersey: Prentice — Hall. 1971.
9 — Feshbach, S. & Singer, R. Television and Agression. San Franciscr: Gessey — Bass. 1967.
10 — Frank, G. Television: How to use it wisely with children. Child study Assaciation of America, INC. 1969.
11 — Heinty, A. et al. Mass Media. Loyola university Press. Chicago: 1972.
12 — Himmelwiet, H. et al. Television and the child. in: Berleson, B. & Gavowity, M. Reader in Bublic Opinion and Comrnunication. New york Free Press. pp. 418 — 448.
13 — Lesser, H. Television and the preschooal child. London: Academic press. 1977.
14 — Kagan, G, & Moss, H. Birth to Maturity. London: Wiley. 1962.
15 — Roberts, D. & Bachen, C. Mass Communication Effects. Aumual Review of psychology. V. 32, 1981, pp. 307 — 356.

مصادر أخرى للبحث :

ـ دكتور أحمد الخشاب ، دكتور أحمد النكلاوي . المدخل السوسيولوجي للاعلام . الاسكندرية : دار الكتب الجامعية . (بدون تاريخ) .
ـ دكتور سيد خيري . النمو الجسمي في مرحلة الطفولة . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص١٣ ـ ٥٠ .
ـ دكتور سيد غنيم . النمو النفسي من الطفل الى الراشد . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ٥١ ـ ١١٤ .
ـ دليور شرام . ترجمة : محمد فتحي . أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . ١٩٧٠ .
ـ دكتور عبدالرحمن العيسوي . النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة . عالم الفكر . المجلد السابع . العدد الثالث . ١٩٧٦ . ص ١٧٤ ـ ١٩٠ .
— Bandura, A. Aggression: Asacial Learning analysis. New Gersey; prentice — Hall. 1973.
— Liebert, R. et al. The Early Window: Effects of Television on Children and youth. New York: pergamon press. 1973.

الصحافة الافريقية

بين التبعية والاستقلال

عواطف عبدالرحمن
كلية الاعلام ـ جامعة القاهرة

تقدم لنا الدول الافريقية فى مجملها وجهين متضادين فهى تمثل من جهة ظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وسكانية متشابهة عند مقارنتها بالدول المتقدمة ولكن ما أن ينظر الى هذه الدول بمعزل عن بقية العالم حتى تبدو شديدة التنوع . وهذا التنوع لا يقتصر على الدول ذاتها بل إن فى كل دولة منها تنوعا مذهلا يرجع الى مجموعة من العناصر المركبة . فهى تتكون أولا من سكان ذوى أصول قبلية متنوعة وفى داخل كل وحدة من هذه المجموعات تتمتع الجماعات التى تكونها بأصالة قوية . كما أن تنظيم هؤلاء السكان كان يقوم عند احتكاكهم بالغرب على أسس اجتماعية مختلفة . كما توصلت الدول الافريقية فى تطورها الى نظم اقتصادية واجتماعية شديدة التباين يمكن وصف خطوطها العريضة بأنها تتراوح بين التنظيم القبلى الذى يقوم على الشيوع وبين النظم شبه الاقطاعية التى يتفاوت تنظيمها من بلد الى آخر بدرجات مختلفة . وفى معظم هذه البلاد تتعايش أشد أشكال التنظيم تطورا مع أكثرها بدائية . وخلافا للدول المتقدمة التى تطورت بصورة ذاتية فان الدول الأفريقية لا يمكن تقييم أوضاعها الراهنة اذا أغفلنا النفوذ الأجنبي . فلقد تباينت النظم الاستعمارية كثيرا بتباين الأمم واختلاف العصور وكذلك اختلفت وسائلها وأهدافها اذ تختلف بصورة واضحة نماذج كل من الاستعمار الاسباني والبرتغالى فى القرنين ١٦ ، ١٧ عن تلك التى تقابل العهود الأولى من الثورة الصناعية [(١)] .

وقد يبدو من الضرورى أن نستعرض بشكل موجز آثار الظاهرة الاستعمارية الأوربية على الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمجتمعات الافريقية ثم نتابع ردود الفعل الافريقية التى تمثلت فى حركة التحرر الوطنى الافريقى التى بدأت تفرض نتائج

(١) جون هاتش : تاريخ افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ترجمة عبدالعليم منسي ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٣٧ ـ ٤٥٦ .

وجودها منذ نهاية الخمسينات . وعندما نتأمل قليلا الظاهرة الاستعمارية الأوربية نلاحظ أنها تمخضت عن ثلاثة أشكال كان لكل منها أسلوبه المميز سواء فى الحكم أو فى الاستغلال الاقتصادى أو فى ادارة الصراع مع القوى المحلية . فنلاحظ أن الرأسمالية التجارية الاوربية قد أفرزت أقدم الاشكال الاستعمارية وأكثرها تخلفا وتتمثل فى كل من الاستعمار الاسبانى والبرتغالى فى القرنين ١٦ ، ١٧ تليها فى الترتيب الزمنى الرأسمالية الصناعية الأوربية التى أدى تطورها فى القرنين ١٨ ، ١٩ الى ظهور كل من الاستعمار البريطانى والفرنسي والألمانى والبلجيكى . أما الشكل الثالث والأخير فهو يتجسد فى ظاهرة الاستعمار الاستيطانى الأبيض فى بداية القرن العشرين وكان الجزء الجنوبي من القارة الافريقية هو مجالها الحيوى ولقد ساهمت طبيعة المستعمر ودرجة تطوره فى سلم الرأسمالية الأوربية فى تحديد شكل ومضمون الصراع مع شعوب المستعمرات . فنلاحظ أن كلا من الاستعمار الفرنسي والبريطانى قد خلق مناخا للصراع مختلفا عن ذلك المناخ الذى فرضه كل من الاستعمار البرتغالى والاستيطانى فقد اتسمت السلطة الاستعمارية الفرنسية بالطابع الأوتوقراطى أكثر من الاستعمار البريطاني الذى كان يعتمد على أساليب للحكم اتسمت بالمرونة والليبرالية من حيث السماح بقيام أحزاب وطنية وبالتالى صدور صحف وطنية تعبر عن هذه الأحزاب . وقد ساعد هذا المناخ على نشوء حركات وطنية اتبعت الأسلوب السلمى فى كفاحها ضد الاستعمار البريطانى . وقد حققت هذه الحركات السلمية أهدافها فى الحصول على الاستقلال الكامل أو المشروط أو مجرد وعد بالاستقلال ووصلت الى ذروة نجاحها فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات . . هذا بينما تجد أن المستعمرات الافريقية التى لجأت الى الكفاح المسلح هى التى خضعت للاستعمار الأكثر تخلفا والذى يتميز بروح القهر الصليبية حيث قام بتحويل الشعوب الافريقية التى خضعت له الى مجموعة من الكادحين المعدمين وبالتالى فقد جاءت ثوراتها الوطنية متأخرة عن سواها ولكنها تتميز بالعنف المسلح وتشتمل على مطالب كل من الثورتين الوطنية والاجتماعية معا .

هذا وقد تبلورت على أرض القارة الافريقية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل الستينات ثلاثة اتجاهات رئيسية لتحقيق التحرر الوطنى والحصول على الاستقلال يمكن ايجازها على النحو التالى : -

أولا : الاتجاه السلمى المعتدل الذى تمثل فى اقتناع بعض الزعامات الافريقية بفكرة العمل داخل النظام الاستعمارى للحصول منه على الاستقلال من خلال العمل الدستورى وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من نيجيريا والسنغال وساحل العاج .

ثانيا : الاتجاه السلمى الراديكالى وقد تبنته التنظيمات الشعبية التى تصدت للقوى للقوى الاستعمارية ووضعتها أمام الاختيار بين منح الاستقلال السياسى لهذه التنظيمات الوطنية أو المواجهة الشعبية الحادة التى كانت تملك هذه التنظيمات القدرة على تفجيرها وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من غينيا وغانا وتنجانيقا .

ثالثا : الكفاح المسلح وقد لجأت اليه الجماهير الأفريقية لمواجهة حكم المستوطنين الأوربيين مباشرة اذ أنها لم تجد مفرا من اللجوء الى الكفاح المسلح الذى واجه عدة انتكاسات فى روديسيا وصفى فى كينيا ونجح فى اطار الثورة الوطنية الشاملة فى كل من الجزائر وانجولا وموزمبيق وغينيا بيساو وزيمبابوى [٢] .

(٢) جاك وودسي : جذور الثورة الافريقية - ترجمة فؤاد بلبع - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧١ - ص ٤٠٢ - ٤٠٧ .

وقد انقسم المجتمع الافريقى أثناء الفترة الاستعمارية الى ثلاثة قطاعات ، القطاع التقليدى وقطاع المهنيين وعمال المدن وفيما بينهما قطاع الحرفيين الذى كان ينتمى بعض أفراده الى عائلات لها وزنها فى المجتمع اذ كانت تتمتع برسوخ مكانتها وثرائها النسبى . وقد كان للاستعمار الأوربى أثر على التركيب الاجتماعى للمجتمعات الافريقية يتكون من عدة أبعاد أولها أنه أضعف الحكم القبلى بأن قلل من شأن طبيعة المجتمع المستقرة وثانيها أنه خلق طبقة بورجوازية جديدة من المحامين والأطباء والمدرسين والتجار وثالثها أنه خلق طبقة بورجوازية صغيرة متمدينة ومتداخلة مع العمال وتتكون من العمال المهرة والكتبة وصغار المدرسين والتجار والصحفيين وهذه الطبقة تمثل غالبية سكان المدن كما كانت تعيش قريبة من القطاعات الواسعة من العمال الريفيين (٣) .

المثقفون الأفريقيون فى مرحلة التحرير الوطنى :

لقد لعب المثقفون الافريقيون دورا قياديا فى مرحلة التحرير الوطنى سواء الرعيل الأول منهم والذين كانوا ينتمون فى غالبيتهم الى الأوساط البورجوازية الاصلاحية وكانوا يهدفون فى أفضل الأحوال الى تحقيق التسويات مع السلطات الاستعمارية . أما الرعيل الثانى من المثقفين الأفريقيين فقد تميز بالاسلوب الراديكالى فى مواجهة السلطات الاستعمارية مما ساعدهم على تحقيق الاستقلال الوطنى وقد كان الحصول على الاستقلال نذيرا بحمل كثير من التغييرات الجوهرية التى طرأت على موقع المثقفين الافريقيين وأدوارهم فى الدول الافريقية المستقلة . اذ تبنى بعضهم فكر ومصالح الجماهير الافريقية بينما انصرف البعض الآخر عن مواقع الريادة يأسا من الأوضاع التى نشأت بعد جلاء المستعمرين هذا فى الوقت الذى تعلق فيه الفريق الثالث بأذيال الحكومات الافريقية الجديدة كناطقين باسمها ومبررين لسياستها . هذا هو التغير الذى طرأ على مواقع المثقفين الافريقيين بعد الاستقلال . أما أدوارهم فقد تعرضت لتغيرات أساسية وذلك بسبب المهام والمسئوليات التى أصبحت تواجهها الحكومات الأفريقية بعد الحصول على الاستقلال من ناحية وبسبب التغير الذى طرأ على علاقة المثقفين الافريقيين بالسلطة السياسية من ناحية أخرى . فقد أصبحت المهمة الأولى أمام الحكومات الأفريقية هى اعادة بناء الدولة بصورة جذرية سواء على المستوى الاقتصادى أو السياسى أو الثقافى . واذا كانت هذه المرحلة لا تحتاج بالدرجة الأولى الى دعاة سياسيين وخطباء بقدر حاجتها الى مهندسين وأطباء وخبراء فنيين فى شتى المجالات فان ذلك لا يعنى انتهاء دور المثقفين بقدر ما يعنى التغير فى نوعية هذا الدور اذ يبدأ دورهم فى التراجع كطليعة سياسية ويفتح أمامهم امكانيات وآفاقا جديدة لم تكن موجودة فى المرحلة الاستعمارية وتبدأ أمام المثقفين مهمة اعادة بناء الثقافة الوطنية وبعث الجوانب الايجابية فى التراث الأفريقى . والواقع أن الدور القيادى للمثقفين الأفريقيين فى مرحلة التحرر الوطنى ذو طابع مؤقت ومحدود تاريخيا . ويظل هذا الدور ممكنا طالما أن هناك ضرورة موضوعية تفرضها أوضاع الدول الأفريقية للتحرر من السيطرة الأجنبية . ولكن فى سياق تحول المجتمعات الافريقية التى كانت خاضعة للسيطرة الاستعمارية الى مجتمعات مستقلة تتطلع الى التصنيع واعادة البناء من خلال برامج طموحة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هنا يتغير موقع ودور المثقفين الافريقيين وتفرض عليهم المرحلة الجديدة مسئوليات ومهام جديدة (٤)

(٣) عدد من العلماء السوفيت : التركيب الطبقي للبلدان النامية ـ ترجمة داود حيدر ومصطفى الدباس ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٤ ـ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٧ .

(٤) عواطف عبدالرحمن : مقدمة في الصحافة الافريقية ـ منشورات الجمعية الافريقية ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ ص ٤٠ ـ ٤٢ .

الصحافة الأفريقية فى مرحلة التحرر الوطنى :

لم تشهد الدول الافريقية نشوء صحف وطنية طوال المرحلة الأولى من وجود الاستعمار الأوروبى والتى امتدت حتى بداية القرن العشرين فيما عدا بعض الدول مثل غانا ونيجيريا اللتين شهدتا ظهور صحافة وطنية مزدهرة وقادرة على توجيه النقد للسلطات الاستعمارية وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى نهاية القرن التاسع عشر . وتتميز منطقة غرب أفريقيا الناطقة بالانجليزية بأنها كانت مهدا لأول صحيفة أفريقية تصدر بالقارة ويمتلكها ويصدرها صحفى أفريقي هو شارل بانومان الذى أصدر صحيفة (أكرا هيرالد) منسوخة على اليد ١٨٥٧ . وقد تحولت فيما بعد الى صحيفة مطبوعة وتغير اسمها الى وست أفريكان هيرالد . ولا شك أن الاختلاف الأساسى بين السيطرة الفكرية والثقافية لكل من الاستعمار البريطانى والفرنسي علاوة على اختلاف نوعية ومعدل تطور الحضارات التقليدية فى الدول الافريقية التى خضعت لهذين النوعين من الاستعمار كان له تأثيره الواضح فى ازدهار الكلمة المطبوعة فى المناطق الناطقة بالانجليزية (الانجلو فون) عنها فى المناطق الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون)

وقد ارتبط نشوء الصحافة الوطنية فى أفريقيا بنمو النخبة الوطنية التى تصدت لقيادة الحركة الوطنية فى الدول الأفريقية وقد تبلور نشاطها فى شكل تجمعات أو تنظيمات شبه حزبية . وفى معظم الحالات الوطنية تتمحور حول النشرة السياسية ثم يأتى بعد ذلك التجسيد المادى للحركة فى شكل أعضاء أو كيان تنظيمى . وتبرز مصر كمثال واضح فى هذا الصدد فمن الظواهر الجديرة بالذكر فى تاريخ الحياة السياسية المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو أن أغلب الأحزاب قد بدأت خطواتها الأولى بتجمعات حول الصحف بمعنى آخر أنه بدلا من أن تنشىء الأحزاب صحفا ناطقة باسمها انشأت الصحف أحزابا كتجسيد مادى لأرائها فالحزب الوطنى كونه مصطفى كامل مؤسس صحيفة اللواء وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ترأسه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد كما أن حزب الأمة خرج أساسا من صحيفة الجريدة وكان لطفى السيد مدير تحريرها سكرتير الحزب والمعبر الحقيقى عن آرائه . هذا وقد لعبت الصحافة الوطنية فى أفريقيا عدة أدوار اختلفت وتنوعت باختلاف وتنوع مهام كل مرحلة من مراحل الكفاح الوطنى من أجل الاستقلال . فاذا كانت الصحافة قد استندت فى مرحلة الكفاح السلمى الى تنظيمات سياسية وأحزاب تمثل الشرائح المتوسطة أو الصغيرة من البورجوازية الوطنية . فان الصحافة الأفريقية فى مرحلة الكفاح المسلح قد عبرت عن ثورات وطنية يشكل الفلاحون الفقراء هيكلها النضالى وقد اقتصرت الصحافة الوطنية فى مرحلة الكفاح السلمى على رفع شعار الاستقلال السياسى وانحصر دورها فى طرح المطالب الوطنية فقط دون التعرض للأبعاد الاجتماعية . أما صحافة الكفاح المسلح فقد كانت تطالب بالاستقلال السياسى الشامل وتطرح رؤ ية كاملة للتغيير الاجتماعى . ولذلك فان مضمون هذه الصحافة كان أكثر شمولا وراديكالية فى طرحها لمختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من صحافة المرحلة الأولى وأبرز مثال لذلك صحيفة المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) التى لم تكن امتدادا للصحافة الوطنية السابقة عليها سواء من حيث الشكل أو المضمون أو كوادر المحررين . وقد عانت صحافة الكفاح المسلح من نقص الامكانيات وعدم وجود كوادر مدربة واعتمدت على المعونات التى كانت تتلقاها من الدول الافريقية المستقلة . والدول الاشتراكية وبعض الهيئات الأوربية المتعاطفة مع النضال الأفريقى . هذا بينما لم تعان صحافة الكفاح السلمى من نقص الامكانيات بقدر معاناتها من قيود السلطة الاستعمارية (المصادرة ـ

اعتقال المحررين ـ الغاء تراخيص الصحف) . واذا كان التراث القبلى والأمية وتعدد اللغات تمثل أبرز الصعوبات التى واجهتها الصحافة الافريقية فى المرحلتين فان صحافة الكفاح المسلح قد نجحت فى استخلاص أساليب جديدة للتغلب على أمية الجماهير وذلك بالاستعانة بالمسئولين السياسيين الذين كانوا يقومون بقراءة النشرات الثورية للجماهير وابلاغهم بنتائج المعارك علاوة على دورهم فى مجال التعبئة السياسية والثورية هذا بينما اقتصرت الصحافة الوطنية فى مرحلة الكفاح السياسى على التعامل مع شريحة صغيرة من الجماهير الملتفة حول النخبة الوطنية (٥) .

الصحافة الافريقية فى مرحلة الاستقلال :

لقد طرأ تغير شبه جذرى على دور الصحافة الأفريقية فى مرحلة بناء الدولة الوطنية بعد الحصول على الاستقلال اذ فقد النشاط الصحفى والدعائى أهميته السابقة وتغيرت طبيعة المهام التى كانت تقوم بها الصحافة أثناء مرحلة التحرر الوطنى . كما كان للميراث الاستعمارى تأثيره السلبى على مواقف الزعماء الافريقيين من الصحافة بعد الاستقلال . فلعله من المثير حقا أن نعلم أن معظم هؤلاء الزعماء قد بدأوا نضالهم السياسى فى الميدان الاعلامى كمحررين أو ناشرين لصحف أو نشرات وطنية وقد برز منهم كينياتا فى كينيا ونيريرى فى تانزانيا ونكروما فى غانا وازيكوى فى نيجيريا . وانطلاقا من هذه البداية فان معظم الزعماء الافريقيين أصبحوا يخشون الصحافة لانهم يدركون قدراتها التأثيرية على الجماهير وبالتالى قدرتها على تغيير النخبة الحاكمة . لذلك نجد أن كثيرا من الزعماء الافريقيين قد توسعوا فى الاطار القمعى ليس فقط من اجل المحافظة على نفوذهم وبقائهم فى السلطة فى الأساس ولكن أحيانا من أجل أهداف وطنية مثل ربط مسئوليات الاعلام بأهداف التنمية الوطنية .

ومن أبرز ما تتسم به الصحافة الافريقية فى مرحلة الاستقلال ذلك الانقسام القومى بين الصحف التى تكتب بالفرنسية وتتوجه الى العالم الناطق بالفرنسية وتلك التى تكتب بالانجليزية وتوجه أخبارها الى المناطق الناطقة بالانجليزية . ان هذا الانقسام حاجز معترف به فى أفريقيا المستقلة ويمثل عقبة فى طريق الوحدة الافريقية . وتعمل كثير من الصحف الافريقية الوطنية بوعى للتغلب على هذا الحاجز عن طريق محاولة إيجاد اجراء تغطية اخبارية حقيقية تشمل القارة الافريقية بأكملها ومن أبرز هذه الصحف (هوريا) فى غينيا و (ليسور) فى مالى وصحف تانزانيا والجزائر كذلك تتميز الصحافة الافريقية فى مرحلة ما بعد الاستقلال بعدم انتمائها للتراث الأوربى خصوصا فى المضمون اذ أنها تعد امتدادا لصحافة النضال ضد الاستعمار ولذلك غلب عليها الطابع الايديولوجى والتربوى أكثر منه الطابع الاخبارى والتثقيفى العام . كما استمرت كصحافة رأى تعتمد على المقال والريبورتاجات التى تتضمن خطب الزعماء والحكام . بينما تضاءل اهتمامها بالنشاطات الأخرى التى تزخر بها الحياة اليومية فى الميادين المختلفة مثل الاقتصاد والفن والخدمات والرياضة حتى كاد ينعدم فى بعض الاحيان .

(٥ أ) Rosalynde Ainslie: The press in Africa communications past and present — New york. 1967.

(٥ ب) Dennis Wilcox: Mass Media in Black Africa, pbilosphy and control. praeger publisher New york. 1976. pp 48 — 51.

(٥ ج) عواطف عبدالرحمن : الدعاية الثورية في افريقيا ـ دراسة تحليلية لصحافة حركات التحرر الافريقية ـ مذكرات غير منشورة ـ كلية الاعلام جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

وقد شهدت أفريقيا فى السنوات التى تلت الاستقلال (خلال عقد الستينيات) عدة مؤتمرات تناولت تطوير وسائل الاتصال وانشاء وكالات أنباء وطنية وتطوير استخدام الاذاعة والتليفزيون فى أغراض التنمية الاجتماعية والثقافة وتحقيق الوحدة بين شعوب القارة . وقد أسفرت ذلك عن انشاء ثلاثة تجمعات تتولى الاشراف على وسائل الاتصال الافريقية وهى اتحاد الصحفيين الافريقيين فى باماكو ١٩٦١ واتحاد الاذاعات الافريقية فى داكار ١٩٦٢ واتحاد وكالات الانباء الافريقية فى تونس ١٩٦٢

واستطاعت هذه التجمعات الاعلامية من خلال العديد من الدراسات التى قامت بها للاعلام الافريقى أن ترصد أهم السلبيات التى يعانى منها الاعلام الافريقى فى المرحلة الراهنة وتتلخص فيما يلى :

١ ـ نقص الكوادر المتخصصة والمدربة ونقص الأجهزة الاعلامية الحديثة .
٢ ـ سيطرة وكالات الأنباء الغربية على أجهزة الاعلام الافريقية .
٣ ـ وقوع وكالات الأعلان الافريقية في أيدي الشركات الأجنبية .
٤ ـ ارتفاع أسعار الورق والمواد الطباعية وارتفاع قيمة الاشتراكات في وكالات الأنباء العالمية .

هذا علاوة على المشكلات التقليدية التي تعاني منها الصحافة الأفريقية مثل تعدد اللغات وانتشار الأمية بنسبة مرتفعة بين الجماهير الأفريقية . [٦] ورغم مرور عقد كامل على نشوء هذه التجمعات وبدء ممارستها لنشاطها ولكن توقفت إنجازاتها عند حدود التوصيات والقرارات العامة .

وإذا كانت قضية الاعلام الوطني في أفريقيا قد نالت هذا الاهتمام المكثف على مستوى القارة من خلال المؤتمرات السابق ذكرها فإنها لم تحسم داخل الدول الأفريقية إذ بدأت الضغوط تظهر وتتصاعد بعد الحصول على الاستقلال من أجل أفرقة وسائل الاعلام سواء من حيث الملكية أو مضمون المواد الاعلامية الذي كان ولا يزال يدين بالتبعية للفكر الغربي . وقد حملت الستينات والسبعينات إجابات حاسمة على بعض التحديات التي يواجهها الاعلام الأفريقي بعد الاستقلال ولكن لا يزال الانتماء الايديولوجي للاعلام الأفريقي لم يتحدد بعد وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل .

ولعل أبرز ما يميز الستينات عن الخمسينات في مجال الاعلام الأفريقي هو نشوء وانتشار وكالات الأنباء الوطنية . وتتضح أهمية ذلك إذا تذكرنا أنه حتى منتصف الخمسينات لم يكن يوجد بالقارة الأفريقية بأكملها سوى وكالة أنباء جنوب أفريقيا التي أنشئت ١٩٣٨ كي تقوم بتزويد النصف الجنوبي من القارة الأفريقية بالأخبار المحلية والأجنبية ولم تكن هيئة حكومية . وقد كانت وكالة أنباء الشرق الأوسط أول وكالة أفريقية أنشئت في الخمسينات (١٩٥٦) ثم

MOHSEN TOURNI: la presse en Afrique. Rev ve Francaise d'etudes politiques Africaines No. 841 — Paris, Decembre, 1972 — pp. 50 — 52.

٦ ب) Ali MAZROUI: The press, intellectuals and the printed world in Massthonghts. Kampala Makere univ. press, 1972. pp. 18 — 22.

تلتها وكالة أنباء غانا (١٩٥٧) وعند بداية السبعينات كان يوجد حوالي سبع وعشرين وكالة أنباء وطنية في أفريقيا بعضها رسمي والآخر شبه رسمي [٧] . ولا شك أن نمو السيطرة الحكومية على وسائل الاعلام الأفريقية وتزايد عدد الوزارات الاعلامية الوطنية وتأميم وسائل الاذاعة والتليفزيون وإنشاء وكالات الأنباء الوطنية كل هذه الانجازات وغيرها كانت كفيلة بإحداث مرحلة التحول الرئيسية بالنسبة لوسائل الاعلام الأفريقية حيث أصبحت في الغالب أدوات للدعاية في أيدي السلطة السياسية سواء كانت ممثلة في الحزب الواحد أو في النظم العسكرية كما استخدمت لدى بعض الأنظمة كأدوات للتغيير الاجتماعي ولتحقيق التنمية الوطنية .

هل توجد نظرية إعلامية لأفريقيا .؟ !

تواجهنا مجموعة من الصعوبات النظرية والتطبيقية عندما نحاول أن نضع تصنيفا يضم كل التعقيدات التي يتسم بها الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي والتي تسهم في صياغة شكل الصحافة الأفريقية ومضمونها . ومهما اختلفت الآراء حول الصحافة ودورها في الدول النامية فمن الضروري مراعاة الانصاف عند إجراء مقارنة بينها وبين الصحافة الغربية . فالتقدم الذي حققته الصحافة الغربية سواء في النواحي التكنيكية أو مجال حرية التعبير استغرق مئات السنين فضلا عن أنه كان نتاجا للتطور المادي والفكري الشامل للمجتمعات الأوربية الذي تحقق من خلال استغلال الشعوب الافريقية والآسيوية أثناء فترة السيطرة الاستعمارية .

ويرى الصحفي الاسترالي ليلود سومرلاد مؤلف كتاب (الصحافة في الدول النامية) [٨] بأنه من غير اللائق أن نحاول تقييم الحكومات والصحافة في أفريقيا طبقا لنفس المعايير التي نستخدمها في تقييم المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة الأمريكية فالدول الأفريقية تمر بمرحلة أنتقال حيث لا تزال تقوم بتجربة كثير من الصيغ والتنظيمات الجديدة . ففي الغرب لا يوجد تناقض بين قيام الحكومات بإصدار الصحف وبين قيام المؤسسات المستقلة عن الحكومات بإنشاء صحف خاصة بها بينما في الدول الأفريقية فإنه يعتبر من الطبيعي والمنطقي أن تقوم الحكومات بإصدار الصحف التي لا تختلف في أساليب عملها عن أجهزة الاعلام الأخرى مثل الاذاعة والتليفزيون .

لكل هذه الأسباب وغيرها فإنه لا يمكن تناول الصحافة الأفريقية وتقييمها طبقا للمقاييس والفلسفات المتعارف عليها في الغرب وعند محاولة استخلاص الاطار النظري العام الذي يحكم الصحافة الأفريقية ينبغي تجنب الاعتماد على نظريات سابقة نابعة من واقع مختلف وتستند إلى قيم وأفكار غربية في معظمها . وسنحاول مناقشة التطبيقات المختلفة للنظريات الاعلامية أملا في التوصل إلى التصنيف النظري الذي يفسر لنا الواقع الاعلامي الأفريقي بكل معطياته وتناقضاته . . وسنبدأ بالتصنيف الذي وضعه ولبور شرام وزملاؤه ١٩٥٦ [٩] ويتضمن النظريات الاعلامية الأربعة وهي نظرية السلطة والنظرية السوفيتية والنظرية الليبرالية ونظرية المسئولية الاجتماعية .

---

(٧) عواطف عبدالرحمن : وكالات الأنباء الافريقية ـ مذكرة غير منشورة ـ كلية الاعلام ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٥ .

(٨) Sommerlad, E,L. The press in developing Countries — Sydney univ. press — 1966.

(٩) انظر : Schram, peterson and Sebert:
The Four theories of Mass Communica tion URbana Univ. Newyork 1956

وترتبط نظرية السلطة بنشأة وتطور الصحافة الانجليزية منذ القرن السادس عشر وتقوم على وجوب إخضاع الصحافة ذات الملكية الخاصة لسيطرة الحكومة من خلال قوانين الرقابة ووسائل السيطرة الأخرى مثل التصريح الرسمي والرقابة السابقة على النشر وفرض رسوم باهظة على البريد . وتعكس هذه النظرية الأهمية المتزايدة لسلطة الدولة على حساب حريات الأفراد . والواقع أنها تهدف إلى قهر الرأي المخالف أكثر مما تهدف إلى استخدام الصحافة بشكل إيجابي لتطوير الحياة القومية وترقية مستوى المعيشة . والواقع أن الصحافة الأفريقية رغم وجود كثير من التشابه بين ظروفها العامة وبين بعض ملامح نظرية السلطة غير أنه لا يمكن تصنيفها داخل هذا الاطار . فالنظرية تفترض ضرورة وجود صحافة ذات ملكية خاصة وتخضع في ذات الوقت للقيود الحكومية بينما نلحظ أن النمط السائد في أفريقيا هو ملكية الحكومة وإدارتها للصحف . كذلك النظرية السوفيتية التي قد تبدو في ظاهرها أنها أقدر على تفسير الوضع الاعلامي في أفريقيا إذ أن هناك بعض الدول الأفريقية التي تنتهج أسلوبا يماثل الأسلوب السوفيتي في ملكية الحكومة والحزب للصحافة وخضوعها للسياسة التي يضعها الحزب الحاكم . كما أن معظم الدول الافريقية تؤكد على ضرورة تعبئة وسائل الاعلام من أجل خدمة الأهداف القومية مثل قضايا التنمية والوحدة الوطنية . ورغم ذلك تظل النظرية السوفيتية قاصرة عن تفسير الأوضاع الاعلامية في أفريقيا فهي تستمد أساسها النظري من الفكر الماركسي اللينيني ولا يمكن تعميمها على الدول غير الاشتراكية التي تستخدم الصحافة كأداة للتنمية القومية فمن الواضح أن معظم الدول الأفريقية قد تحددت مواقفها من الصحافة طبقا لاختيارات سياسية واقتصادية وليس طبقا لاعتبارات أيديولوجية .

ومن الواضح أن النظرية الليبرالية لا تصلح للتطبيق على الواقع الأفريقي أو العالم الثالث ككل فهي مستمدة من التطور التاريخي للفكر الديموقراطي في أوربا الغربية . ويكمن الجوهر الرئيسي لهذه النظرية في وجود صحافة مستقلة من الناحية الاقتصادية وقادرة على القيام بدور الحارس لمصالح من تمثلهم في مواجهة الحكومة . ولا تتلاءم هذه النظرية مطلقا مع واقع الدول الأفريقية حيث تسود الأمية والفقر وحيث يستحيل قيام صحافة مستقلة ماليا .

أما فيما يتعلق بالنظرية الرابعة والتي تعرف بالمسئولية الاجتماعية فهي تجيز التدخل النسبي للحكومة كي تضمن أن جميع وجهات النظر سوف تأخذ طريقها للنشر . وتهتم هذه النظرية في الاساس بالمجتمعات التي تجاوزت مرحلة التصنيع ولذلك تنعدم علاقتها بالمجتمعات النامية في أفريقيا . وتؤكد هذه النظرية على أهمية المسئولية أكثر من تأكيدها على أهمية الحرية .

ومن الواضح أن النظريات الاعلامية الأربعة قد ركزت على متغير واحد هو علاقة الصحافة بالسلطة السياسية ولم تتعرض للبناء الاجتماعي والثقافي أو الواقع الاقتصادي الذي أفرز النظم الاعلامية القائمة في العالم الثالث وخصوصا أفريقيا . هذا فضلا عن أن جميع المحاولات الأخرى التي قام بها الباحثون الغربيون لحل الأشكالية النظرية للصحافة الأفريقية كانت في أغلبها محاولات ترقيعية حيث اعتمدت على اقتباس بعض جزئيات غير متسقة من النظريات الاعلامية السالفة الذكر مع إضفاء أسماء جديدة عليها . ومن أبرز هذه التصنيفات تصنيف رالف لوينشتين[١٠] الذي ركز على متغيرين هما الملكية والسلطة السياسية وقد خرج بتصنيف مقارب لتصنيف شرام مع اختلاف الأسماء فالنظرية السوفيتية

---

(١٠) Tohan C. Merril and Ralph Lowenstein: Media Messages and Men New York, David Nackay 1971 p.186

أطلق عليها اسم المركزية الاجتماعية ونظرية المسئولية الاجتماعية أصبح اسمها الليبرالية الاجتماعية . وكذلك دينيس ويلكوكس [(١١)] الذي أجرى تصنيفا للصحافة الأفريقية طبقا لأنماط الملكية الاعلامية السائدة وحاول استخلاص مواقف الحكومات الأفريقية من الصحافة في ضوء هذا التصنيف . وقد خرج بمجموعة نتائج أولية لا يمكن اعتبارها نظرية عامة بقدر ما هي توضيح للملامح الرئيسية لصورة الصحافة الأفريقية بشكل عام من حيث ارتباط الالتزام السياسي بنمط الملكية وقد اتضح أن جميع الدول الأفريقية تعكس دون استثناء تداخلا واضحا بين مختلف الأنظمة والنظريات الاعلامية وخصوصا كلا من نظرية السلطة والمركزية الاجتماعية . كذلك تبين أن هناك الكثير من الدول الأفريقية التي لم تمتلك أو تحدد بعد النظرية أو الفلسفة التي تحكم علاقتها بالصحافة . ويلاحظ أيضا بالنسبة للدول الأفريقية التي أعلنت التزامها بنظرية إعلامية محددة بأن ذلك لم يتم بناء على تحديد نظري أو فلسفي مسبق بقدر ما يعد ذلك بمثابة رد فعل لمشكلات ما بعد الاستقلال .

نظرية التبعية ومردودها في المجال الاعلامي :

إزاء القصور الذي تتسم به النظريات الاعلامية الأربعة السالفة الذكر وفشل المحاولات التي قام بها بعض الباحثين الغربيين لاستخلاص النظرية الاعلامية التي تحكم الدول الأفريقية كجزء من العالم الثالث أو في مقابل هذه الاتجاهات النظرية ظهر اتجاه آخر يركز على علاقة التبعية التي تربط دول العالم الثالث اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بالعالم الرأسمالي المتقدم . والواقع أن هذا الاتجاه قد ظهر كرد فعل للأزمة التي عانت منهاالتفسيرات الليبراليةأو بالأحرى النظرية الوظيفية للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي في دول العالم الثالث . وكذلك كرد فعل لأزمة الفكر الماركسي الكلاسيكي في فهم البناء الاجتماعي السياسي لمجتمعات العالم الثالث . ولعل أول ما يمكن أن يقال في هذا المجال إن مفهوم التبعية قد ظهر من خلال الجدل الحاد الذي دار بين العلماء الاجتماعيين حول مفهومي التخلف والتنمية فمفهوما التنمية والتخلف بالمعنى الذي استخدمته النظريات التقليدية لايتمتعان بقوة تفسيرية معبرة طالما أنهما لا يشيران بدقة إلى لب المشكلة التي تعاني منها الدول النامية وهي التبعية . لذا فمن الواضح أن مفهوم التبعية يستطيع أن يفسر لنا سبب تبني دول العالم الثالث أسلوبا في التنمية يختلف عن ذلك الذي اتبعته الدول الرأسمالية المتقدمة . فمن الطبيعي أن تختلف الظروف التي مرت بها الدول المتخلفة عن تلك التي مرت بها الدول المتقدمة فالدول المتخلفة كانت تمثل المورد الرئيسي للمواد الخام التي تحتاج اليها الدول المتقدمة . كما كانت تشكل سوقا هائلا ضخما لمنتجات الدول الرأسمالية المتقدمة ومن شأن هذا الموقف أن يخلق تبعية مطلقة من جانب الدول المتخلفة . وسيطرة كاملة من جانب الدول الاستعمارية * فلا شك أن تخلف العالم الثالث أو تبعيته بمعنى أدق يرجع إلى خضوعه للسيطرة الاستعمارية لعدة قرون و الشيء الذي لا يمكن تجاهله هو أن بقاء دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في حالة التبعية هو من فعل التقسيم الدولي للعمل الذي يتسم بالطابع الأمبريالي والذي فرض على دول العالم تفاوتا اجتماعيا واقتصاديا شديدا . وقد

---

(١١) Dennis Wilcox: Op. cit pp 101 — 105

* لقد أوضح فرانك هذه القضية بقوله إن تاريخ العالم ماهو إلا تاريخ واحد ومن ثم فإن التنمية والتخلف وجهان لعملة واحدة من حيث إنهما نتاج التوسع الرأسمالي الذي تغلغل في أعماق أكثر القطاعات انعزالا في المجتمعات المتخلفة . ومن ثم فإن مانراه من نظم اجتماعية وسياسية وثقافية في هذه المجتمعات بدءا من أصغر وحداتها الاجتماعية في الريف وحتى أعقد هذه الوحدات في المدن المتربوليتانيه ماهي الا نتاج للتطور التاريخي للنظام الرأسمالي .

تشكلت الأنظمة السياسية والأوضاع الاجتماعية والثقافية في دول العالم الثالث من خلال وضعها كمجتمعات تابعة داخل النسق الرأسمالي العالمي . وتتسم القوة السياسية في المجتمعات التابعة بالتركيز في أيدي فئة قليلة تتحكم في مصادر القوة الاقتصادية والتعبير السياسي والثقافي . وتتميز الأجهزة السياسية والبناء الفوقي بصفة عامة في دول العالم الثالث (التوابع) بالتضخم والبيروقراطية بشكل تقدمت فيه بصفة عامة على الأبنية التحتية التي تمثل امتدادا لمركز العالم الرأسمالي المتقدم . وإذا كان الدور المنوط بأجهزة الدولة في الفترة الاستعمارية هو إخضاع الطبقات المحلية لصالح علاقة التبعية الاستعمارية . فإن الوضع لم يختلف كثيرا في مرحلة ما بعد الاستقلال وفي ظروف تبعية ما بعد الاستعمار . إذ أصبحت الدولة بمثابة وسيط بين الرأسمالية العالمية والبرجوازية المحلية وملاك الأرض . والدولة هنا ليست أداة في يد طبقة واحدة وإنما تمثل هيكلا مستقلا يقوم بالدفاع عن مصالح الطبقات المسيطرة سواء في المركز أو في المجتمع التابع [(١٢)] . ولا يقتصر دور الدولة على إنجاز المهام السياسية المنوطة بها أو حماية المصالح الاقتصادية للرأسمالية العالمية والمحلية فحسب بل تخلق لنفسها إطارا أيديولوجيا يساعد على تعزيز هيمنتها الفكرية وترويج قيمها الثقافية من خلال أجهزة الاتصال والاعلام التي تحرص على امتلاكها والسيطرة عليها . غير أن تفسير التبعية يجب ألا يقتصر على العوامل العالمية وحدها بل يجب تفسيرها في ضوء العوامل المحلية الخاصة بدول العالم الثالث . مما تستلزم ضرورة التعرف على طبيعة البناء الاجتماعي والقوى الاجتماعية التي تستفيد من عائد التنمية وتلك التي تتحمل أعباءها في دول العالم الثالث . ذلك أن الاحتكار العالمي وحده لا يستطيع أن يفسر لنا تبعية دول العالم الثالث إلا إذا حاولنا التعرف على آثاره على هذه الدول وردود أفعالها إزاءه . كذلك لا تستطيع أن نتجاهل التأثير الذي أحدثته ثورة الاتصال على النظام الدولي . فلقد خلقت هذه الثورة عالما جديدا أشبه بوحدة واحدة .

ورغم وجود بعض الاختلافات بين أنصار اتجاه التبعية إلا أنهم يلتقون حول مجموعة من العناصر الأساسية التي يمكن تلخيصها على النحو التالي :ـ

١ ـ وجود العلاقة الوثيقة بين البناء الاجتماعي ـ والاقتصادي والبناء السياسي والثقافي في المجتمعات التابعة في العالم الثالث وارتباط ذلك بالنسق الرأسمالي العالمي .

٢ ـ الدور الذي تلعبه البورجوازيات المحلية في دول العالم الثالث التابعة في توجيه النظام السياسي والثقافي والاعلامى لخدمة مصالحها واستمرار علاقة التبعية .

ويترتب على ذلك غياب المناخ الديموقراطي الذي يسمح لجميع القوى الاجتماعية بحرية التعبير والمشاركة في الممارسات السياسية والثقافية والاعلامية وفي هذه الظروف لا تستخدم الديموقراطية الا بالقدر الذي يسمح باستمرار علاقات التبعية والتخلف [(١٣)] .

ويتضح مما سبق أنه على الرغم من أن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد استقلال ٨٠ دولة في العالم الثالث وحصول اثنين مليار من البشر على حريتهم وتخلصهم من السيطرة الاستعمارية إلا أن الظروف العالمية الراهنة

---

(١٢) انظر : السيد الحسيني : العالم الثالث تنمية أم تبعية ـ كتاب دراسات في التنمية الاجتماعية ـ القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٧ ـ ص ١٦٥ ـ ١٧٥ .

(ب) أحمد زايد : التفاعل بين جماعات الصفوة القديمة والصفوة الجديدة في الريف المصري ـ رسالة دكتوراة غير منشورة ـ جامعة القاهرة ـ فبراير ١٩٨١ ـ ص ١٦٠ ـ ١٦٦ .

(١٣) أحمد زايد : مصدر سابق ـ ص ١٦٨ .

السياسية والاقتصادية والثقافية والتقنية والعسكرية تتجه إلى تأكيد سيطرة الدول المتقدمة وتبعية غالبية الدول النامية . فمع تعزيز الاستقلال السياسي بحلول الستينات أصبح واضحا بصورة مطردة أن القضاء على الاستعمار السياسي لا بد وأن يستكمل بالقضاء على الاستعمار الاقتصادي والثقافي ذلك إذا ما كانت هناك رغبة في إحداث تغيير حقيقي في علاقات التبعية في دول العالم الثالث . وفضلا عن ذلك فإنه نتيجة لخضوع دول العالم الثالث خلال المرحلة الاستعمارية للاستعمار الاجتماعي والثقافي علاوة على الاستعمار السياسي والاقتصادي فقد أدى ذلك إلى تحول القيم والأنماط السلوكية في جزء كبير من العالم الثالث كي تعكس قيم وسلوكيات الدول الاستعمارية وبعد الاستقلال لم يحدث أدنى تغيير بل تم تدعيم الأنماط المنقولة من خلال مجموعة متنوعة من الميكاتيزمات . ومن ثم فبقدر ما يكون هناك إدراك لعدم إمكانية تحقيق الاستقلال السياسي بدون الاستقلال الاقتصادي لا بد أن يكون هناك ايضا إدراك بأن الاستقلال الشامل لا يتحقق إلا بالتحرر الاجتماعي ـ الثقافي . ولذلك فإنه من المستحيل تصور استمرار السيطرة السياسية والاقتصادية على العالم الثالث بدون الدعم الهائل الذي يوفره نسق إعلامي فعال كاداة للسيطرة الثقافية والأيديولوجية . لذلك توجد درجة ملحوظة من عدم التكافوء في توزيع القوة على أساس أن وسائل الإعلام مصدر رئيسي من مصادر القوة والنفوذ إذ يوجد عدد قليل من الدول (الدول الرأسمالية المتقدمة على وجه التحديد) يتولى عملية الأرسال بشكل أساسي . أما غالبية الدول (من العالم الثالث) فهي تستقبل ما يرسل إليها . وينتج عن ذلك عدم توازن ملحوظ في تبادل المعلومات والأنباء بين العالم المتخلف والعالم المتقدم بالرغم من أهمية ذلك الدور على المستوى الدولي إذ يرتكز عليه ضرورة إبلاغ الرأي العام العالمي بالمشاكل التي تهدد الانسانية وخصوصا تلك التي لن تتوفر حلولها إلا بالتعاون بين الدول مثل مشاكل سباق التسلح والبطالة والفقر والأمية والجوع ونقص الخدمات الصحية وتلوث البيئة والعنصرية والانفجار السكاني واضطهاد المرأة . ومن هنا يمكن استخلاص مفهوم التبعية الاعلامية بأنها العلاقة التي تجسد عدم التكافوء في الامكانيات المادية والمصادر الاعلامية بين الدول الغربية المتقدمة وبين الدول النامية كما تجسد عدم التوازن في التغطية الاخبارية وتبادل المعلومات بين الشمال والجنوب . مما يترتب عليه تشويه الصورة الذهنية لشعوب العالم الثالث لدي الرأي العام العالمي فضلا عن إلحاق الضرر الجسيم بالثقافة القومية والقيم والأنماط السلوكية لدي هذه الشعوب وتعميق الاغتراب الثقافي . وتحتل وسائل الاتصال موقعا مزدوجا عند أي مستوى من مستويات التحليل للتخلف والتبعية . لذا يجب عند تحليلنا لوسائل الاتصال أن نأخذ في الاعتبار مستويين للتحليل :

١ ـ المستوى الأول : ويتعلق بالبعد الذاتي الذي يتمثل في الامكانيات المادية والبشرية وتشمل الوسائل التكنولوجية والمراسلين .

٢ ـ المستوى الثاني : ويمثل الاتجاه الاعلامي الذي ينقل بواسطة وكالات الأنباء أي صيغة الأنباء ومضامينها .

وفيما يتعلق بالمستوى الأول الخاص بالامكانيات المادية والبشرية فالواقع أن وكالات الأنباء الخمسة العالمية تحتكر أكثر من ٨٠٪ من الأنباء في العالم تخصص ما بين ٢٠ ، ٣٠٪ للدول النامية وهناك ٣٥ دولة في العالم ليست فيها أية وكالات أنباء منها ١٨ دولة أفريقية . كذلك يتميز التدفق العالمي للأنباء بعدم التوازن في توزيع المراسلين على النطاق العالمي ويتميز أيضا بالتغطية المنتقاة لمناطق معينة على حساب مناطق أخرى . وتوضح إحصائيات (١٩٧٤) للتوزيع

العالمي لمراسلي وكالات الأنباء العالمية أن أوربا وأمريكا الشمالية هما الموقعان الرئيسيان لمراسلي الوكالات وأن أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وأفريقيا هم اقل المناطق بالنسبة لعدد المراسلين العالميين .

والمستوى الثاني الذي يؤكد تبعية دول العالم الثالث وفي مقدمتها الدول الأفريقية في المجال الاعلامي هو وجود التباين السافر في نوع التغطية الاخبارية للأحداث الدولية فقد أجمعت الدراسات العديدة على أن الأحداث في الدول الغربية المتقدمة هي المستهدف الأول في التغطية الاخبارية باستثناء بعض الأحداث في الدول التابعة . وتشير هـذه الدراسات الى أهمية الاعلام الاخباري الذي تنقله وكالات الأنباء العالمية في تشكيل صورة الحقيقة العالمية وأن أهميته تتفوق على الصورة الذهنية المسبقة وذلك لانتظامه ومواظبته وانتشاره[١٤] . كذلك نوع التغطية الاخبارية التي يقوم بها مراسلو وكالات الأنباء العالمية فهناك أسس وتعليمات لا يمكن أن يحيد عنها المراسل في تحديد الأولويات والأفضليات سواء في اختيار الأحداث أو تحريرها أو نشرها . ويؤكد ميليبان (أن وسائل الاعلام الدولية وخصوصا وكالات الأنباء الغربية تقدم خدماتها الاعلامية وفقا لمخطط مدروس ولتحقيق أهداف محددة وبشكل لا يخلو من التسلط والسيطرة وذلك من خلال إمكانياتها الهائلة وقدراتها على تكوين الأخبار بما يتفق مع مصالحها ولقد أثبتت وكالات الأنباء الغربية بصورة قاطعة أنها عنصر فعال تعتمد عليها المجتمعات الرأسمالية في نشر أفكارها ومعتقداتها ولا يمكن للوكالات أن تتخلى عن هذه الوظيفة[١٥] .

جدول (١) التوزيع العالمي لمراسلي وكالات الأنباء العالمية لعام ١٩٧٤

أمريكا	٣٤٪	أوربا	٢٨٪
آسيا واستراليا	١٧٪	أمريكا اللاتينية	١١٪
الشرق الأوسط	٦ ٪	أفريقيا	٤ ٪

ونلحظ من سياق هذا التصريح مدى أهمية وخطورة الدور الذي تلعبه وكالات الأنباء العالمية في الصراع الدولي وتشويه الصورة الحقيقية للأحداث وفرضها على الرأي العام العالمي كحقيقة إعلامية .

مظاهر التبعية الاعلامية (دور الشركات غير القومية) :

لا يمكن التطرق إلى قضية التبعية الاعلامية دون الاشارة إلى الدور الذي تلعبه الشركات غير القومية في هذا المجال وهو لا يتلخص فقط في ارسال التكنولوجيا ورؤوس الأموال بل يتسع ليشمل بيع العديد من المنتجات

(١٤) Phil Harris. International News Media Authority and dependence in Introduction to Mass communication in Nigeria. Lagos 1976. p.H10

(١٥) Milliband, R. The state in the Capitalist Socity. London Quarter books 1973. P.211

الاستهلاكية ذات الطابع الاجتماعي ـ الثقافي أو السوسيو ـ ثقافي التي تهدف في الغالب إلى نشر أفكار ومعتقدات تؤدي إلى تعميق الاغتراب الثقافي والاجتماعي لدى شعوب العالم الثالث التي تمثل دولهم الساحة الرئيسية لأنشطة هذه الشركات . هذا وسنحاول أن نحدد أبعاد التأثير الذي تمارسه الشركات غير القومية من خلال الدور الذي تقوم به كأحزمة ناقلة يتم من خلالها ترويج التفضيلات الاجتماعية ـ الثقافية (بل وأكثر من ذلك التفضيلات الاجتماعية ـ السياسية والاقتصادية) من البلدان الأصلية إلى البلدان الأخرى مما يؤدي إلى فقدان الخصائص القومية المميزة لثقافات الشعوب التي تتعرض لهذه التأثيرات . إننا سنحدد ملامح الدور الذي تقوم به الشركات غير القومية بوصفها نظما للاتصال لدولي مما يستلزم تفنيد المكونات الرئيسية للعمليات الاتصالية التي تتم عبر هذه الشركات وأنشطتها المتنوعة . وذلك سعيا للتعرف على مدى ما تسهم به هذه الشركات في تكريس تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية المتقدمة وخصوصا في مجالي الاتصال والاعلام . وتتحدد مكونات العمليات الاتصالية في ضوء المحددات الخمس المعروفة وهي :

١ ـ من (منتج المادة الاتصالية) ؟

٢ ـ قال ماذا (مضمون المادة الاتصالية) ؟

٣ ـ لمن (الجمهور المتلقى) ؟

٤ ـ كيف (الوسيلة الاتصالية) ؟

٥ ـ وماهو الأثر (الصدى) ؟

ويشير المحدد الأول إلى مصدر المادة الاتصالية أو منتجها الأصلي فنلاحظ أن الشركات غير القومية (حوالي ٢٠ ألف شركة غير قومية تسيطر على نحو ٨٠ ألف شركة تابعة) توجد مقارها الرئيسية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وجمهورية المانيا الاتحادية وسويسرا والمملكة المتحدة وفرنسا . وأن الأغلبية الساحقة من الشركات الأجنبية التابعة لهذه الدول توجد في دول العالم الثالث التي كانت تابعة لها بشكل رسمي أو غير رسمي وخصوصا المملكة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . والأهم من ذلك هو أن هذه الدول هي موطن وكالات الأنباء العالمية الأربعة (الوكالتان الأمريكيتان اسوشيتدبرس ويونيتدبرس وانترناشيونال ورويتر البريطانية وآجنس فرانس برس الفرنسية) وعليها تعتمد في الواقع كافة اقتصاديات السوق (ماعدا اليابان) اعتمادا كبيرا لأخبارها الخارجية . . وبالمثل فإن نسبة عالية من البرامج التليفزيونية لمعظم دول العالم الثالث يتم استيرادها من الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة وأخيرا فمن بين أكبر الوكالات العالمية الخمسة والعشرين في العالم في الاعلان الدولي (وهو صناعة رئيسية يتصل الأمر بالتأثير الاجتماعي الثقافي) هناك ٢٠ وكالة أمريكية ومعظمها تحصل على إعلاناتها من الخارج[١٦].

المحدد الثاني (ماذا ؟) الخاص بمحتوى الرسائل المنقولة من الدول التي توجد بها المقار الرئيسية للشركات عبر القومية ولا سيما ما يتعلق بالثقافة التجارية لهذه الشركات والواقع أن الثقافة التجارية تتضمن مجموعة من العناصر يمكن

(١٦) انظر : كارل سوفانت وبرنارد بيش : الاستثمارات الاجتماعية الثقافية في نطاق الاقتصاد السياسي الدولي لعلاقات الشمال والجنوب ـ دور الشركات عبر القومية ـ مركز دراسات الشركات عبر القومية بالأمم المتحدة ـ نيويورك ـ يونيو ـ ١٩٧٩ .

تلخيصها في بعدين أساسيين :ولهما يتعلق بالاتجاهات والقيم وأنماط السلوك وثانيها يتعلق بكل من أنماط التنظيم والانتاج والاستهلاك . ويتسع البعد الأول كي يشمل نطاقا أكبر من نطاق الثقافة التجارية فيتضمن على سبيل المثال التفضيلات الأيديولوجية العامة أو الاتجاهات وأساليب الحياة وأنماط السلوك العامة ويتضمن البعد الثاني للثقافة التجارية ميكانزمات تشجيع أنماط وعمليات إنتاجية واستهلاكية لا تلبي احتياجات المجتمعات التابعة بل تؤدي إلى خلق الإحساس بالحاجة إلى التوسع الاستهلاكي . ويمكن أن يتم هذا بصفة خاصة من خلال العلاقات العامة والتسويق والاعلانات الباهظة التكاليف .

المحدد الثالث (لمن ؟) ويتضمن الجمهور المتلقي للرسائل الإعلامية والسوسيوثقافية . ويلعب العاملون في الشركات الأجنبية التابعة دورا هاما في نقل القيم وأنماط السلوك باعتبارهم نماذج حية تجسد خبرة الشركات الأجنبية التابعة ويركز هؤلاء على الطبقات العليا والفئات العليا من الطبقة الوسطى في مجتمعات العالم الثالث . أما الشرائح الدنيا والطبقات الفقيرة الأمية التي تتكون منها أغلبية دول العالم الثالث فإنها بمعزل عن التأثيرات المباشرة ولكن هذا لا يمنع من تعرضها لتأثير الإعلانات عبر الإعلام المرئي والمسموع (الإذاعة والتليفزيون) .

والمحدد الرابع (كيف ؟) الخاص بالقنوات التي يتم عبرها ارسال الرسائل الإعلامية والتي تسهم في تشكيل الأنماط الاستهلاكية . وهنا تلعب الإذاعة والتليفزيون دورا رئيسيا ثم الصحف والمجلات والنشرات المهنية والكتب والاسطوانات وشرائط الفيديو ووكالات الأنباء . وثمة قنوات أخرى ذات صلة بالموضوع ألا وهي المعاهد التعليمية والمديرون والعاملون في الشركات الأجنبية التابعة بل وحتى اللغة وأساليب تدريسها وفضلا عن الإعلان وخصوصا في سياق الثقافة التجارية فإن شبكات الشركات الأجنبية التابعة للشركات عبر القومية تعد بطبيعة الحال القناة الرئيسية للاستثمارات الاجتماعية الثقافية . وهذه العوامل مجتمعة بالإضافة إلى التكنولوجيا الحديثة للاتصال تجعل من شبكات الشركات الأجنبية التابعة في الواقع جهازا عالميا ديناميكيا للاتصال . أما المحدد الخامس والأخير فهو يتعلق بالتأثيرات التي تحدثها الرسائل الاجتماعية الثقافية لدى الجماهير المتلقية من شعوب العالم الثالث عبر الإعلانات وسواها من المواد الاعلامية والاتصالية سواء المنشورة في الصحف أو المذاعة والمعروضة في كل من الاذاعة والتليفزيون . ومن الممكن قياس حجم التأثير ومداه من خلال توفر بعض الشروط الضرورية مثل مضمون الرسالة الإعلامية ومدى اختلافها عن البيئات الاجتماعية الثقافية للمتلقين أي اشتراط وجود فارق حضاري يعتد به . ومن المرجح على أساس هذا الشرط وحده أن يكون الأثر بالغ القوة في مجتمعات العالم الثالث . وثمة شروط أخرى تتعلق بالمضمون ألا وهي وضوح الرسالة وتكرارها ومدى قدرتها على الاقناع . كذلك عدد القنوات الإعلامية ومدى تنوعها يلعب دورا هاما في التأثير . وعندما يتعلق الأمر بالجمهور المتلقي فمن المعروف أنه كلما زاد تعرض أكبر عدد ممكن من الأفراد والمؤسسات للرسالة الاعلامية كانت الآثار أعظم وأعمق . ويبدو على وجه الإجمال أن مجموعة الشروط الرئيسية الواجب توافرها لحدوث التأثيرات تتحقق في عموميتها في معظم دول العالم الثالث وخصوصا الدول الأفريقية التي تتنوع فيها لتأثيرات السوسيو ثقافية طبقا للشركات عبر القومية التابعة لها . فنلاحظ أن المناطق الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون) تعتبر مناطق نفوذ ثقافي فرنسي وذلك على عكس باقي المناطق الأفريقية الناطقة بالانجليزية والتي تعتبر مجالات حيوية للنشاط الثقافي الذي تمارسه الشركات عبر القومية الأمريكية والبريطانية من خلال وسائل الاتصال العديدة .

وفي النهاية فإن التأثير الأساسي يتمثل في مدى استيعاب شعوب العالم الثالث للاستثمارات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالدول الرأسمالية من خلال الشركات عبر القومية والتي تؤدي إلى حدوث تغيير في الاتجاهات الاجتماعية والثقافية لمواطني العالم الثالث إزاء الصورة الاجتماعية والثقافية للدول الرأسمالية المتقدمة .

التبعية الإعلامية وحرية الصحافة في أفريقيا

لقد رأينا كيف أدى التطور الاقتصادي العالمي وما ارتبط به من تقدم تكنولوجي إلى التطور في وسائل الاتصال العالمية الأمر الذي جعل الحصول عليها واستيرادها وتصنيعها يحتاج إلى أموال طائلة وخبرات فنية متخصصة ووسائل تكنولوجية متطورة . مما أدى إلى سيطرة الدول الرأسمالية المتقدمة على وكالات الأنباء العالمية والاذاعات الدولية البارزة والصحف والمجلات الدولية وترتب على هذا الوضع ظهور مايسمى بالاحتكار والتركيز في الاتصال الدولي أي احتكار قلة من الدول الرأسمالية المتقدمة لمصادر الأنباء في العالم في الوقت الذي لا يتجاوز العالم الثالث الحدود الدنيا في المصادر الاعلامية وتعتبر أفريقيا أفقر القارات في المصادر الاعلامية من حيث الصحف والاذاعات ووكالات الأنباء .

وقد اتضح لنا أبعاد الدور الذي تقوم به الشركات عبر القومية في تكريس تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية المتقدمة ليس في المجالين الاقتصادي والسياسي فحسب بل في الميادين الاجتماعية والثقافية وذلك من خلال استخدامها لوسائل الإعلام الدولية السالفة الذكر (وكالات الأنباء العالمية ـ المجلات الدولية ـ الاذاعات ـ التليفزيون) . وتعد الاعلانات الأداة الرئيسية التي تستخدمها هذه الشركات لنشر الثقافة التجارية وتهديد الخصائص القومية للثقافة الوطنية في الدول الأفريقية . والواقع أن الإعلانات تلعب دورا مزدوجا في خلق عدة مستويات للتبعية الإعلامية والثقافية في الدول الأفريقية كما أنها تمثل خطراً مباشراً يهدد حرية الصحافة في أفريقيا . والدور الأساسي الذي تقوم به الإعلانات التجارية الخاصة بالشركات عبر القومية وتوابعها في الدول الأفريقية هو الترويج للسلع الاستهلاكية المستوردة مما يؤدي إلى خلق أنماط للاستهلاك تتعارض مع خطط التنمية القومية ومستلزمات الاقتصاد الوطني .

وهكذا يتم تكريس واستمرار تبعية الدول الأفريقية اقتصاديا وسياسيا للسوق الرأسمالية العالمية وممثليها حيث تسهم الاعلانات التجارية في تقويض محاولات الاستقلال الاقتصادي بشكل غير مباشر من خلال ترويض العقول وتنمية رغبات استهلاكية جديدة لدى الجماهير الافريقية .

ويتحقق ذلك في الغالب من خلال وكالات الإعلان الأجنبية التي تقوم باختراق وسائل الإعلام الأفريقية وتفرض عليها شروطها وأولوياتها بكل ما يحمل ذلك من تهديد لحرية الصحافة وللاقتصاد الوطني في آن واحد . وهناك أمثلة عديدة على وكالات الإعلان الأجنبية في أفريقيا منها الوكالة الفرنسية (وكالة هافاس للاعلانات) وهي تملك نفوذا واسعا في المنطقة الناطقة بالفرنسية (في غرب أفريقيا ومدغشقر) ولا تقل العقود التي توقعها مع الصحف الأفريقية عن خمسة أعوام تضمن خلالها نشر حد أدنى من الاعلانات وتحصل على ٤٠٪ عمولة على الاعلانات الأجنبية . ولها مساحات محجوزة بصفة دائمة في هذه الصحف . ولا يخفى ما تمثله هذه العقود من تهديد سافر لحرية الصحافة إذ من خلالها تستطيع وكالات الإعلان التدخل في مضامين المواد الإعلامية التي تنشرها تلك الصحف . وقد بدأت بعض

الصحف الأفريقية تتحرر من سيطرة وكالة هافاس الاعلانية عندما بدأت تظهر للوجود وكالة غرب أفريقيا للاعلانات رغم أنها تقتطع ٥٠٪ عمولة على الاعلانات . وقد أنشأت كل من مصر وتونس والجزائر وكالات إعلان حكومية في بلادهم ويتم من خلال هذه الوكالات تزويد الصحف بالاعلانات(١٧).

أما الدور الذي تقوم به الإعلانات في تهديد حرية الصحافة في أفريقيا فهو يـأتي أصلا من التمـويل . إذ أن استخدام أو الاعتماد على الاعلانات كمصدر لتمويل الصحف يضع في أيدي المعلنين سلطة كبيرة تجعلهم يتحكمون في مضمون ما تنشره الصحف إلا إذا كانت هذه الصحف خاضعة لإشراف الحكومة ، وهنا يمكن تحييد موقف المعلنين رغم أن هذا لا يلغي احتمال المواجهة بين بعض المعلنين الأقوياء والحكومة حينما يحاول هؤلاء فرض ضغوطهم غير المباشرة على الصحيفة والتي تهدف في النهاية الى تخريب خطة التنمية القومية داخل الدولـة . ويزداد الصـراع بين المعلنـين والحكومة عندما يكون هؤلاء المعلنون ممثلين للشركات الأجنبية .

وأخيرا فإذا كان لنا أن نلخص أنواع التبعية الإعلامية التي تخضع لها الصحافة الأفريقية فيمكننا أن نشير إلى ثلاثة أنواع من التبعية أولها التبعية للسلطة الحاكمة وثانيها التبعية لرؤ وس الأموال المحلية والدولية وثالثها التبعية لاحدى القوتين العظميين وخصوصا الكتلة الرأسمالية لأسباب تاريخية ورغم تفاوت درجات خضوع الدول الافريقية لأنواع التبعية المذكورة إلا أنه يبقى التحدي الرئيسي أمام الصحافة الوطنية في أفريقيا وهو كيفية التخلص من كافة أشكال التبعية الإعلامية . وهذا الأمل لن يتحقق بالطبع إلا إذا تخلصت الشعـوب الأفريقيـة من الصور الأخـرى للتبعية الاقتصادية والسياسية التي يعني استمرارها منح عمر أطول للتبعية الاعلامية والثقافية .



(١٧) Ekani O nambele: L, exploitation de la Presse en Afrique Sud de Sahara Thesis Universite de Paris 1965 p.45.

مطالعات

الاسلام والابداع الشعري

سليمان الشطي

الاسلام والابداع الشعري ، موضوع يفترض ان الحواشي قد تشعبت والتفت من حوله حتى كادت تفقده ملامحه الاساسية ولعلها فعلت !..

ولكن أبواب البحث في أي موضوع توارب ولا تقفل مادام الحديث يمس اصلا من أصول الثقافة لا يسهل هزه بما انه يعتمد على منظور معين ويسعى الى هدف محدد هو مناقشة هذه الغلالة التي أحاطت بفكرة الشعر فراح قول يصر على تلك الجفوة بين الاسلام والشعر وهي مفتعلة عند البعض وحقيقة عند آخرين وقد أصبح النظر مشدودا الى حشد نصوص كثيرة تغري الكاتب باستعراضها ومناقشتها ومن ثم التعليق عليها ..

ان التأكيد واجب على ان هناك منفذا دائم التوقد للمناقشة العقلية والمقارنات الواقعية والتي تؤكد وتنفي ، تضيف وتدفع بالتعليقات المفيدة مادام مثل هذه الموضوعات تعني الكثير للمتأمل الذي يرى جدية الموضوع وأهميته ، خاصة حينما يكون طرفاه بمثل هذه الأهمية الخاصة والمتميزة والدقيقة ، وتكون وثيقة الصلة بذات الانسان في جانبها الروحي والعقلي والعملي بحيث يشكل الحاق الضرر والنقص باحدهما أو حتى وضع الحواجز بينهما خطورة واضحة ، حينئذ يكون البحث والتناول المخلص جديرا بما يبذل فيه .

العلاقة بين الدين والفن ليست بالأمر العابر أو الشكلي ، ولكنها من الدقة بحيث تستدعي المراجعة دائما ، فالدين كمفهوم عام يتحلق حوله الفنانون لانه يقدم التشوق الروحي الذي يسعى اليه الفنان ، وهو من جهة اخرى ، ليس معنى غامضا ولكنه حقيقة اجتماعية لا يمكن تجاهلها . لذلك تلاقيا منذ الأزل فأصبح تاريخ الفن يتلمس بدايته الحقيقية من خلال الدين تماما كما أن اولئك الذين بحثوا في تاريخ العقيدة الدينية لم يجدوا خيرا من تلك التي احتضنها الفن . وحين دراسة التاريخ

الـديني والفني نلمس ذلك التـلازم بين شعـور التدين والقلق الروحي والاجتماعي الذي يجسده الفنانون .

هناك حشد طويل من الدراسات العلمية الدقيقة التي درست هذا التلازم من جانبه الايجابي الواضح ، تؤكد وتبرهن وتوضح ولكن كل هذا لم يستطع ان يزيل من الاذهـان الأقوال الشـائعة التي تجد سندهـا في بعض الأقوال المتناثرة ، وكما يقول كاسيرر فانه « منذ افلاطون حتى تولستوي كان الفن يتهم بانه يثير عواطفنا فيزعزع النظام والانسجام في حياتنا الاخلاقية » . وقـد ذهب افلاطون الى أن الخيال الشعري يروي تجارب الشهوة والغضب والرغبة والألم فينا فيمكنها من النمو بدلا من أن يظمئها ويخليها تجف . أما تولستوي فقد رأى في الفن مصدرا للعدوى[١] . وجمهورية أفلاطون لا يباح فيها من قول الشعر الا أن يكون تسبيحا لله ومدحا للصلاح ، وانه اذا أبحت تعظيم عرائس الشعر الغنائي القصصي حينئـذ يتحكم الألم واللذة في دولتـك بـدلا من تحكم الشريعة والمبادىء »[٢] وينفي أن يكون الشعر مفيدا ، وانه على أنصار الشعر أن يثبتوا أنه مفيد علاوة على كونه سارا[٣] . ومثل هـذه الأقوال سارت على شفـاة عصور كثيرة دون أن تطامنها الأقوال الأخرى الجادة في اثبات مكانة الشعر البارزة . فقد ظلت كلمات الرنين بـاقية تضرب في جوانب لا حدود لها ، فليس القول القائـل « أعذب الشعر أكذبه » الا واحدا من مقولات عديدة حرفت عن مقاصدها .

لقد تحول الخيـال وتوسيـع اطار المعـرفة الانسـانية والدور الايجابي الى عبث خطير يهدد المجتمع أو الدولة . وما يقوله ابن فارس هو أحد وجوه النظرة الافلاطونية فهو حين ينفي عن الرسول قول الشعر يستطرد متحدثا عن ذات الشعر حين يرى انه « للشعر شرائط لا يسمى الانسان بغيرها شاعرا . وذاك ان انسانا لو عمل كلاما مستقيما موزونا يتحرى فيه الصدق ومن غير أن يفرط أو يتعدى أو يمين أو يأتي فيه باشياء لا يمكن كونها بتة ، لما سماه الناس شاعرا ، ولكان ما يقوله مخسولا ساقطا . وقد قال بعض العقلاء ـ وسئل عن الشعر ـ فقال : « ان هزل اضحك ، وان جد كذب » فالشاعـر بين كـذب واضحاك . . . الخ .

وبعد فإننا لا نكاد نرى شاعرا إلا مادحا أو ضارعا أو هاجيا ذا قـذع ، وهذه أوصـاف لا تصلح لنبي[٤] . . « واذا وضعنا هذا القول بجانب ما ذهب اليه الاصمعي ـ وهو راوية الشعر المعروف ـ من ان طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان[٥] وقد حاولت جهود كثيرة ان تزيل هذه الفكرة من الأذهان ، فموقف أرسطو الدقيق في دراسته للشعر ودوره ، انما هو رد واضح على ما قاله سابقوه . وجاء بعد ذلك دفاع شيللي عن الشعر الذي رفع الشاعر الى مستويات عالية . وقد كان في دفاعه يرد ردا مباشرا على افلاطون حين طالب أن يكون الشعـر مفيدا بجانب كونه سارا فقد نبـه الى أن المنفعة ليست تلك التي تلبي غاية حيـوانية وان اللذة منفعـة حقيقية يجلبها لنا شعراء أو فلاسفة وشعراء .

---

(١) مدخل الى فلسفة الحضارة الاسلامية : ص ٢٥٦ ، يقول افلاطون ان الفن « يروي العواطف التي يجب ان تجف عطشا ، وينعشها ويحكمها فينا ، وكان يجب أن نتحكم فيها اذا رمنا ان نكون اسعد وارقى بدل كوننا ادنى واشقى » الجمهورية ص ٣٨٩ .

(٢) جمهورية افلاطون : ص ٣٨٩ .

(٣) السابق : ص ٣٩٠

(٤) الصاحبي : احمد بن فارس ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .

(٥) امالي المرتضي : القسم الأول ص ٢٦٩ ، وانظر النص موسعا في الموشح ص ٩٠ ولنا عودة له

واذا كان شيللي يختم كلماته بان الشعراء هم شراح الالهام الالهي وانهم المحرك بل هم مشرعو العالم فـان هذه الكلمات تذكرنـا وتدخلنا عالم الفكـر الاسلامي الذي لم يخلو من مثل هؤلاء ، فهـذا جابـر بن معدان يقول « كل حكمة لم ينزل فيها كتاب ، ولم يبعث بهـا نبي ، ذخرها الله حتى تنطق بها السن الشعراء »[٦].

ومن ذلك بقيت هذه الغلالة السوداء راسخة أو شبه راسخة . اذاً هي شنشنة باقية في كل الآداب وعند كل الأمم ويبقى الجانب الاسلامي لـه خصوصيـة تستلزم التوقف والافاضة قليلا .

●●●

ولنبدأ من حيث يجب أن تكون البداية ، من العصر الجاهلي لنرى طبيعة الدور الذي قام به الشعر فلعل فيها بعضا من تفسير أوجهة هذا الفهم الخـاص . ان أكثر الكلمات قسوة على حقيقة الشعر العربي الجـاهلي هي تلك المقـولة التي ربط الـدكتور طـه حسـين ومن قبله مرجليوت[٧] بين انعدام الحس الديني الجاهلي في ذلك الشعر وصحته ، وقولهما ان انتفاء هذا التعبير الديني ـ كما زعـما ـ دليل حي عـلى أن هذا الشعـر ينتمي الى غـير عصره .

ومع أن هناك شواهد كثيرة تكذب زعمهما ، فالتعبير الديني المباشر موجود وغير خاف فاننا أيضا نقول ان هذه الكلمات قاسية وانها تبسط الأمور تبسيطا مخلا ، وتنظر الى التعبير الديني من جهة جد مسطحة ، ترى ان التدين يقتضي رفع لواء فاقع اللون أو انه طبول ودعاية وحديث فقهي عقائدي . وفي هذا منافاة لطبيعة الفن الشعري التعبيرية والذي هو ليس اداة رخيصة للقول . ولكنـه يحمل في داخله المساواة الحقيقية للتوق الروحي والتأمل الباطني ، وحينها يلتصق بـالواقـع المبسط يقف موقف الراصد للحياة رصد رؤ ية متميزة لما تراه عينه وتلمسه يده فيصوغها صياغة تعمق وتجسيد وتفاعل ، متخـذا طبيعة الفن والدين في الاصلاح والتغيير .

الشعر ليس أداة سخرة ولكنه تعبير ، لـذلك لبس ثيابه لا ثياب غيره ، واستعمل اداته ولم يستعر وسائل غير وسائله ، ولم يحل ، ولا يريد ، مكان الكـاهن أو الواعظ أو المبشر اللهم إلا أن يكون الشاعر قد توحدت فيه هذه واختلطت حينئذ يكون هنـاك قول آخر[٨].

اذن ليست من مهمة الشاعر أن يكون رجل دين ، ولكن مهمته انه يعبر عن شعوره وموقفه العـام ، وقد يـزودنا ويغـذينا بـالملجأ الـروحي ، بل انـه يسعى في حالات كثيرة الى قلب السكون الذي يرون على سطح الحالة الروحية فيحد من بروز تقلباتها ، وهذا ما نلمسه في كثير من الشعر ، فـالتعبير الشعـري في الجاهليـة لم يخطيء أو يتجاوز عن حالة الشعور بالتدين وعدمه أو الحاجة اليه أو الاحساس بهذا الفراغ الذي تهوي فيـه النفـوس ، وهذه طبيعـة الاشياء ، فهـا نحن نرى في

---

(٦) بهجة المجالس : ١/ ٣٨ .

(٧) رأي طه حسين مبسوطا في كتاب « الادب الجاهلي » وعلى سبيل المثال نلاحظ قوله « فأما هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية » والا فأين نجد شيئا من هذا في شعر امرىء القيس أو طرفه أو عنترة أوليس عجيبا ان يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين » ص ٧٢ ـ ٧٣ ورأى مرجليوت مذكور في مقالته « أصول الشعر العربي » انظر على سبيل المثال ص ٧١ وما بعدها من ترجمة الدكتور يحيى الجبوري .

(٨) نجد على سبيل المثال شاعرا متدينا او يميل الى فكرة التدين مثل اليوت نجده يؤكد قائلا « ان الشعر لا يمكن أن يحل محل الفلسفة او الدين لان له مهمته الخاصة ، ولما لم تكن هذه المهمة فكرية بل شعورية كان من الصعب تعريفها تعريفا يسهل على الفكر ادراكه ، وكل ما نستطيع قوله هو ان الشعر يزودنا « بالعزاء » ـ وهو عزاء غريب لاننا يمكننا أن نناله على حد سواء من شاعرين مختلفين كل الاختلاف مثل دانتي وشكسبير » مقالة الفلسفة والشعر » ص ٦٠ من كتاب مختارات من النقد الادبي المعاصر .

العصر الحديث حيث تمر حالة التدين بأزمة واضحة فنرى مسوح الشك والضياع والقلق والخراب والرجال الجوف ، وهذا احساس بوحدة الانسان وخشيته من ان يكون وحيدا ، بل ان انتباهه لهذه الوحدة ، يثير في نفسه الرعب فيكون لا مهرب له من القلق . ومادام ليس ثم حائط يقف في وجه الظلم والألم والعزلة والموت ، فلابد من أن يعتمد على نفسه ، وهذا هو نفسه موقف الانسان الجاهلي الذي خشي الخشية ذاتها ووقف الموقف نفسه ، فها هو طرفه تستبد به وحدته وخوفه فينمو تحديه :

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني ابادرها بما ملكت يدي
فلولا ثلاث هن من لذة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودي
.... الخ

وان القسوة كل القسوة ، والألم الذي لا حد له حينما :

نرى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

ولا مفك من هذا ، فالمأساة الحقيقية انه يحس بهذا « الطول المرخى وثنياه في اليد » وليس ثمة ما يحميه ، فداخله هواء لم يعرف سكينة الاستقرار الذي يحققه الايمان .

وليس طرفة وحده ، بل ان شعراء ما قبل الاسلام يعانون من هذه المعاناة ، كل بمقداره وينداد باطن النفوس الى الظاهر فها هو سلمى بن ربيعة ينظر من المنظار نفسه واشراف على الحقيقة التي عاناها طرفه ، يقول :

انّ شواء ونشوة
وخبب البازل الامون
يجشمها المرء في الهوى
مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى
في الريط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمنا
وشرع المزهر الحنون
من لذة العيش والفتى
للدهر والدهر ذو فنون
واليسر كالعسر والغنى
كالعدم والحي للمنون[٩]

ان هذه الابيات تمثل هذا الموقف الانساني المعبر عن تجربة شعورية واحدة وتعطي رؤية الانسان للحياة ، وتصور قصة الانسان على الأرض ، فمتع ولذات الحياة التي قدمها الشاعر لم تصرفه عن رؤية الحقيقة المختفية وراء هذه المظاهر الخادعة وهو انه ملك للدهر يتصرف فيه كيف يشاء . وعندما يأتي الموت يتساوى لدى الانسان كل شيء فيصبح العسر كاليسر والغني كالعدم[١٠].

ان هذين الشاعرين يؤكدان لنا انعدام التجاوب مع الاحساس الديني السائد أو أن الشك تسرب الى هذه النفوس فراحت تتحدى ، وهذا التحدي دليل على الطرف الآخر الذي قام هذا التحدي في وجهه ، فهذا الشك لم يأت من فراغ ولكنه ، كالعادة ، استجاب لحالة التحدي هذه ، فهذه النفوس المتوثبة لم تجد في المألوف والسائد بين الناس ما يشفي غليل هذا التوثب فيها . وهذا الاحساس يزداد كلما أحس بان الدين من حوله عاجز مشلول .

اننا نغفل ان الشاعر هو عصره مجسدا من الناحية الاجتماعية والنفسية والخلقية فهو لا يعيش جسدا ميتا أو

---

(٩) شرح الحماسة للمرزوقي ج ٣ ص ١١٣٧ .

(١٠) قضايا النقد الادبي والبلاغة . د. محمد زكي العشماوي ص ٢٠٨ .

حركة آلية . فهو ، وان كان صنيعة هذا المحيط ، فانه يملك قدرة التجاوب والايجابية التي يتجاوز بها السطوح فيشير الى أعماق الروح العامة ، بل يملؤها تشوقا لاستقبال الثمرة القادمة .

ان دلالة هذه المواقف واضحة ، فالهاجس من القوة بحيث يدفعنا الى أن نقول ان حاسة الشعراء المخترقة لحاجز الظاهر نفذت الى ادراك الجديد القادم ، أو الحاجة الى ملء هذا الفراغ الذي بدأ يملأ النفوس ، فطرفه وسلمى يعكسان هذا التشوق أو يجسدان هذا القلق . لذلك نجد أن التساؤ ل العقلي ينفذ الى الذين تجاوزوا ما أحاط بهم ، فها هو قس بن ساعدة نعرف حق المعرفة يطرح اسئلته ويشير الى هذا التلازم بين العيش والموت « من عاش فات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت » و« مالي ارى الناس يموتون ولا يرجعون ، ارضوا فاقاموا ، ام حبسوا فناموا »(١١).

ان تساؤ لات قس بن ساعدة ـ ان صحت ـ هي نفسها ما اثاره هذان الشاعران ، انها حاسة سادسة للامة ، ولكنها قائمة على أساس موضوعي ، لذلك نجد أن الشاعر سلمى في ابياته يبدأ من ذاته الى الحقيقة الكبرى التى تحيط به ، وكذلك فعل طرفه وهذا نفسه الذي دارت حوله تساؤلات قس بن ساعدة . لقد تحولت هذه الافكار الى هاجس يقلق الانسان الجاهلى ، ومن غير الشاعر يعبر عن مثل هذا ، وهو ما نلحظه واضحا عند شاعر مثل أمية بن أبى الصلت الذى آمن لسانه وكفر قلبه .

ان هذه الحيرة قد لا نجد مثلها في عصور اخرى ، بعد الاسلام ، شهدت جدلا عقليا حادا ، ولكن التوق الجارف سمة مميزة للعصر الجاهلي لمن يحسن تأمل النصوص . وقد انتبه ابن سلام الى هذه القضية فرأى نمطين من الشعراء : شاعر يتأله وآخر يتعهر ، وعندما قدم الشاعر المتأله قال : « فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته يتعفف في شعره ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهكم بالفواحش(١٢) ولم يشر الى شعراء حملوا دعوات معينة ولكن قدم الذين التمسوا المفهوم الخلقي الذي يكون عادة محل احتفال ودعوة في أحوال التفكك ، فالمنظور الخلقي هو البقية الباقية التي تستند عليها نواميس الحياة والا اختل كل نظام ، لذلك نرى أن أي مجتمع ، مهما تحطمت عنده القناعات الدينية يتشبث بالمفاهيم الخلقية العامة بعد ان يقننها لصالحه . فالتأله ، اذن ، خلق وفرع من حالة التدين .

●●●

ان هذه المقدمات الاولى عندما نسوقها انما لاننا نريد أن نؤكد أمرا أساسيا هو أن العلاقة بين التدين والفن ليست علاقة تنافر بل تناغم واضح حينما تتبلور الحاجة . ونريد ، من جهة أخرى ، ان نشير الى ان هذا الميل القلق في الجاهلية والذي تبناه الشعر وجسده سيكون له دوره المتميز في الاسلام . .

وأمر آخر نستخلصه مما سبق وهو أن صفة الشعر التي وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لها مبرراتها عندهم لانهم عرفوا دور الشعر ولم يدرك عامتهم الفرق الدقيق بينه وبين القرآن ، لذلك كان القول انه : كاهن ، شاعر . الخ . . أما الذين تعمقت ثقافتهم فقد لمسوا الفارق بوضوح(١٣). وهذا الخلط عند البعض

---

(١١) البيان والتبيين . الجاحظ ج ١ ص ٣٠٩ ط هارون ٢ .

(١٢) طبقات فحول الشعراء : ١/ ٤١ .

(١٣) انظر تعليق انيس في صحيح مسلم ولقد وضعت على اقراء الشعر فما يلتئم على لسان احد بعدي : انه شعر » ص١٩٢٠ وكذلك ما ذكره الوليد بن المغيرة حين قال « ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطة فما هو بالشعر » .

مشروع ومقبول خاصة حينما نشير الى استغلال الكهان للايقاعات اللفظية في سجعهم فقد أفادوا من تأثير موسيقى الكلمة . وهذا الاستخدام لعب دورا خطيرا في العقائد القديمة . فاذا اختلطت الكلمة بسجعها وشعرها في الذهن مع السحر فان المتلقين للقرآن الكريم لابد أن تنهض في عقولهم مثل هذه المقارنة فيثور النقاش والجدل . ويضاف الى هذا كله ذلك الدور الذي لعبه الشعر سلاحا مشهرا في وجه الدعوة الاسلامية وكان سلاحا ماضيا .

ومادام هذا كله قائما فليس من الغريب ان تثار هذه العلاقة وان يخصص لها هذا الحيز الواضح لان الشعر قد دخل طرفا في الموضوع دخولا مباشرا عن طريق دوره الذي كان في الجاهلية وما تبقى منه في الذهن .

ولكن الذي يعنينا حقا هو نوعية المناقشة ومؤداها ، وطبيعة القضايا المثارة حول الموضوع لنرى مسارها أولا ، وهذه هي الخطوة الثانية التي نقترب بها من هذه القضية الكبرى : الاسلام والشعر وبعد ، فللموضوع تاريخ طويل متتابع يحسن الالمام ببعض أطرافه . بدأت الحكاية بمقولة عابرة نطق بها عمر بن الخطاب حين قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . وظاهره العبارة واضح ، فهي لا تتحدث عن أن الاسلام أضعف الشعر أو انصراف الناس عنه ، ولكنها تقرر واقعا كان معلوما خبره عمر بن الخطاب ، وهو أن الشعر كان أهم علوم الجاهلية واصحها . وهذا الرأي يتناسب مع ثقافة عمر ودرايته التي تكشفها الاخبار والأقوال التي انحدرت عنه فشاعت وذاعت .

وقد جاء بجانب هذا مقولة الاصمعي التي أشرنا اليها من قبل وكذلك نص ابن فارس الى آخر تلك الأقوال . ولكن أهم هذه الآراء تلك العبارة التي التصقت بها ، جاءت تكملة لها أو متابعة فأصبحت جزءا منها ، ولقد أضاف أو علق ابن سلام على قول عمر السابق بقوله : « فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته[١٤] » .

وتتقاذف الاقلام والالسن هذا الرأي ، لقد أصبحت هذه القضية مطروحة على بساط البحث . حتى ابن خلدون ، صاحب التصورات والنظرات الصائبة يؤكد ما ذهب اليه ابن سلام فقال « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام ، بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فاخرسوا عن ذلك وسكنوا عن الخوض في النظم والنثر زمنا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد في الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه »[١٥] .

ولا يفوتنا ان نشير الى هذه اللفتة الذكية من ابن خلدون حين فصل بين القول القائل ان الاسلام حرم الشعر وضعف الشعر ذاته ، وهذا يدل على أن ابن خلدون لا يرى أن الاسلام هو الذي أضعف الشعر ، ولكن الشعر قد ضعف لأن الناس تشاغلوا بالدعوة الكبرى ، وبمعنى أدق أن الشعر قد ضعف في تلك الفترة حقا ، ولكن ليس لان الاسلام حرمه فظروف الحياة في تلك الفترة هي السبب ، وهذا الرأي ينسجم مع دراسة ابن خلدون للحضارة في مقدمته تلك .

---

(١٤) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥ .

(١٥) مقدمة ابن خلدون : ص١١٢٢ .

آراء المحدثين : ـ

ايد بعض الباحثين المحدثين الرأى القائل بضعف الشعر ، وقد لخص الاستاذ نجيب البهبيتي أهم هذه الآراء قائلا : (ضعف الشعر فى صدر الاسلام نظرية صحيحة ـ والعرب قوم ذوو لسن وذوق قولى ممتاز . فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله كما اخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة ، المبرأة من النقائص التى كانت تصيب الشرائع الاخرى . فشغلوا بالقرآن وسكت الشعراء ليستمعوا الى كلمة الله . .

ثم ان تشبيه مشركى قريش النبى بالشاعر ، ورفع القرآن نفسه عن هذا المعنى جعل الناس ينظرون الى الشعر على أنه تقليد جاهلى ، فاصابه ما أصاب جميع التقاليد الجاهلية التى حاربها الاسلام ، وكأنما كان الناس ينظرون اليه نظرتهم الى أثر وثنى لعصر ذهب بكل رجاله وبذكرياته الدامية الرهيبة . . .

وساعد على اضعاف الشعر ايضا أن اعداء الاسلام كانوا يحاربونه بالشعر ، فلما عم الاسلام ـ كانت كراهة هذا الشعر قوية فى نفوسهم فتناسوه ، وامتنعوا عن رواية ما كان منه من هذا القبيل . وللنبى فى ذلك احاديث مشهورة لا داعى لترديدها . كما ساعد على اضعافه ايضا أنه كان قد أخذ فى العهد السابق للاسلام مباشرة يتجه الى نحو من التفكير جار حول العقائد والدين ، والشعر انما يذهب هذا المذهب فى طور شيخوخته فأرخصه ذلك ، وحطه عن مستواه القديم من ناحية ، واوقفه موقف المخالفة فى الاسلام من ناحية أخرى .

وبذلك ذهب مع عصر التقلقل ملوك الشعر الذين كانوا . اثرا من آثار عهد النضج الفنى وخلاصة عظمى لازهر مقاييسه . .) (١٦)

ونستطيع أن نلخص أهم الافكار فيما يلى :

١ ـ ان القرآن أخذهم بجماله وشريعته . .

٢ ـ ربط المشركون بين النبوه والشعر ، مما جعل القرآن ينزه نفسه عنه ، وقد اعتبر الشعر تقليدا جاهليا بحيث انصرف الناس عنه . .

٣ ـ محاربة اعداء الاسلام له بالشعر فأصبح الشعر كريها الى نفوسهم ، خاصة ما يتعلق منه بهذه الحرب .

٤ ـ اتجاه الشعر الى العقائد انزله عن مستواه ، وجعله فى موقف المعادى للاسلام .

ويتابع هذا الرأى الاستاذ محمد الكفروای فى كتابه « الشعر العربي بين التطور والجمود» الذى يؤكد هذا الاراء ، خاصة ما يتعلق بالشعر الذى قيل فى الحرب التى دارت بين المسلمين والكفار ، ويؤكد أن الشعر كان شديد الوطأة على المسلمين بحيث استحل الرسول دماءهم ، كما أن القرآن هاجم الشعراء ، إن اخلاقيات القرآن تختلف عن ما تعارف عليه الاقدمون فلم يعد هناك تعاظم بالاباء ، وقد حرم الخمر وينفر من التعرض للناس . . الخ . . .

ويختم كلامه بقوله (ولقائل يقول فما بال الشعراء لم يتجهوا الى الحديث عن المبادىء التى جاء بها الاسلام من زهد فى الدنيا ، وعمل للآخرة وجهاد فى سبيل الله .

والرد :

١ ـ ان المسلمين فى الصدر الاول كانوا على العمل احرص منهم على القول . .

٢ ـ سلطان الكتاب على نفوسهم كان اقوى من أن يدع لهم فرصة للتفكير فى سواه .

٣ ـ ان لغة القرآن كانت مقدسة ومعجزة ، ولعل الجيل الاول من المسلمين قد ظنوا أن مجرد التفكير فى

(١٦) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث . . . ص١١٣ .

محاكاتها أو النسج على منوالها يعد تحديا لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)
سورة الاسراء ـ الآية ٨٨

وهـذه الآراء تتكرر فى كتب الادب التى تـردد هذا الرأى ولسنا بحاجة الى تكرار القول فالجوهر واحد وان اختلفت الالفاظ [١٧] .

وقفة للنقاش : ـ

وقبل أن نواجه القضية الاسـاسية ، احب انـاقش قليلا بعض الاسباب التى أخذ يضيفها كل باحث معللا بها ضعف الشعر مثلا : ـ

١ ـ يقولون ان القرآن قد أخذهم باسلوبه فانصرفوا عن الشعر . وهذه دعوة لاتنهض الادلة لتأيدها ، لان لدينا احتمالين لا ثالث لهما وهما : اما أن يكون الشاعر كافرا فليس هناك ما يدعوه الى ترك الشعر والا لكان قد آمن بالاسلام !! . . او يكـون الشاعـر مسلما والادلة تثبت ان الشعراء المسلمين لم يقفوا عن نظم الشعـر ، فهذا حسان بن ثابت ، وعبدالله بن ابي رواحة وكعب بن مالك ، ولم يقف من الشعراء الا الذين توقفوا عن العطاء الشعرى منذ زمن ولم يكن الاسلام سببا مباشرا ، ولنترك لبيدا جانبا فقد ادرك الاسلام وهو شيخ كبير والا فالاسلام بحاجة الى شعره ، اما كعب بن زهير فها هو يلقى قصيدته « بانت سعاد . . » امام الرسول ، ومن الظلم ان نقول انه توقف عن قول الشعر لان الاسلام قد منعه بينما هذا حسان بن ثابت ينشد قصائده فى عاصمة الاسلام ونعنى بها يثرب مدينة الرسول . .

ان القرآن الكريم كتاب عقيدة وليس وسيلة لسحر العقول بحيث تمنع الشعراء من ان يقولوا الشعر ، بل ان هذا القرآن خليق بأن يفتح ابوابا للشعراء ينفذون من خلالها الى آفاق رحبة فسيحة الارجاء . . وحسبنا الواقع فالشعراء الذين ضربنا بهم المثل شعـراء مسلمون هـز القرآن اعماقهم وتحركت نفوسهم فجاشت بشعر يعبر عن مـوقفهم ، اما القـول فى انهم لم يتأثـروا باسلوب القرآن فهذا قول يجافى منطق الفن . فشعراء تلك الفترة تأثروا بروح القرآن فى بعض قصائدهم ولا يستطيعون ان يوجدوا تقاليد جديده للشعر بهذه السرعة . . فالفن ليس ردة فعل سريعة انما تقاليد قد تأصلت بحيث تحتاج الى شاعر يحمل فى شعره ثورة فنية ، وهـذا النوع من الشعراء لا يجود بهم الزمان الا بين فترة واخرى وليس ضربة لا زب ان يكون فى صدر الاسلام شاعر من هذا الـطراز ؛ وحسبهم اشارات تنم عن عقيـدتهم . حتى الحطيئة ، الذى يتهم بأنه من اكثر الهجائين فحشـا ، نجد انه باستثناء بعض الابيات التى تساق للمبالغة ، نلاحظ بقية قصائده وفيها صفاء الفكرة وان كان الهجاء هو الطابع فلان الحطيئة شاعر ركب بهذه الصورة . فلا يستطيع ان يتخلص من اخلاقه التي جبل عليها ولو لم يكن هذا طبعه لكان هو احق الشعراء بتمثيل الاسلام ، ألم يكن استاذه زهير بن ابي سلمى ؟ و نحن نعرف عفة وكرم اخلاق ذلك الشاعر الجاهلي .

٢ ـ أما القول القائل ان انصراف المسلمين عن قول الشعر راجعا الى اعتقادهم ان في هذا محاكاة للقرآن ، الذي لا يستطيع احد ان يحاكيه ، وانه تحدى لقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن . . . . الآية) .
هذا الرأي في قولنا السابق رد عليه ، كما انه لم يقل

---

(١٧) يلاحظ مثلا كتاب تاريخ الأدب العربي للاستاذ عمر فروخ ، وكذلك تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان وتاريخ الأدب العربي ، لأحمد حسن الزيات .

احد من المسلمين ان القرآن شعر والآية رد على المشركين الذين تحداهم القرآن في ان يأتوا بمثله ـ اي القرآن ـ في اكثر من موضع لذلك نجد أن الشعراء استمروا ينظمون الشعر وموقف القرآن والرسول واضح منهم كما سنبين بعد ذلك ولم يقل احد ان مسلك الشعراء هذا يتحدى القرآن .

٣ ـ اما القائلون بأن السبب هو محاربة الكفار للاسلام بالشعر ، فالرد على هذا واضح الم يرد المسلمون كذلك عليهم بالشعر ؟ . .

٤ ـ ما ذكره الاستاذ البهبيتي من ان سبب نزول الشعر عن مستواه هو انصرافه الى العقائد فلا يؤيده الدليل فليس هناك الا امية بن الصلت وابيات قليلة لبعض الشعراء ويقابل شعر كثير لا يمت بصلة الى ما ذهب اليه ، ولم يقل احد ان موضوع الشعر يضعفه ولكن الموضوعات كلما تشعبت أعطت الشاعر مجالا مفتوحا كي يعبر عن خلجاته ، لذلك نشطت ـ فيما بعد ـ المدائح النبوية وقصائد التصوف . . هذه ملاحظة حول بعض الاراء التي كانت تعلل ـ او بلفظ ادق تتلمس التعليل لضعف الشعر وقد تعرضنا لها مسرعين .

●●●

ولم تكن هذه الاراء وحدها في ساحة المناقشة ، فهناك اقلام كثيرة انبرت للدفاع عن حقيقة وضع الشعر في صدر الاسلام لذلك لا يحسن تجاوز هذا العرض دون الاشارة الى بعضها .

يقف عبدالقاهر الجرحاني في مقدمة المنافحين ، ففي تمهيده لكتابه « دلائل الاعجاز » يناقش بمنطقه المحكم فكان ، كالعهد به : مجليا موفقا ، وقد ادار رأيه حول ثلاث ركائز هي : أن الذي زهد بالشعر لا يخلو رأيه من أمور ثلاثة : ـ

الأول : ان يرفضه لما فيه من هزل وسخف وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة .

الثاني : لأنه موزون مقفي ويرى ان هذا بمجرده يقتضي الزهد فيه والتنزه عنه .

الثالث : يتعلق باحوال الشعراء وانها غير جميلة في الاكثر وانهم ذموا في التنزيل .

ويقول ان الذي ذمه لما فيه من هزل وسخف فليذم الكلام كله فان ما فيه في عصر واحد يربو على ما في الشعر كله ، وانك تستطيع ان تختار ما لا يعاب عليك فيه ، وراوي الشعر حاك وليس على الحاكي من عيب اذا لم يقصد بحكايته ان ينصر باطلا او يسوء مسلما ، فالله قد حكى كلام الكفار ، وان العلماء استشهدوا لغريب القرآن واعرابه بالأبيات الفاحشة ، وانهم لاقرار الحق تمثلوا بها وقد مثل لهذا بالحسن البصري وعمر بن الخطاب ، ويقول « واذا كان الباطل في الشعر قد وضعه عندك فلماذا لم يرفعه في نفسك ما فيه من حق وصدق وحكمه وفصل خطاب » الى آخر هذه المآثر .

ويعيب على الذين لهجوا بالحديث السالف الذكر « لأن يمتلىء جوف احدكم قيحا فيريه خيرا له من ان يمتلىء شعرا » وتركوا قوله ﷺ : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » وان الرسول امر بقول الشعر حينما قال لحسان : « قل وروح القدس معك » . وقد سمعه من الذين مدحوه ، واستنشده طالبا السماع وهناك اخبار تشير الى علمه عليه الصلاة والسلام بالشعر وارتياحه واستحسانه له .

اما الذي ذم الشعر من حيث هو موزون مقفي وان الكلام اذا نظم تغيرت معالمه فقد قال قولا لا معنى له « انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » . واما الذي كره الوزن لأنه سبب للتغني ، فان الدعوة للشعر انما لما فيه من لفظ جزل وقول فصل ومنطق حسن الخ . وانه لا حجة لمن تعلق بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » فالرسول لم يمنع من الشعر من اجل انه كان قولا فصلا وكلاما جزلا ، فان هذا يقتضي ان الله قد منع الرسول من البيان والبلاغة مع انه كان افصح العرب . واذا قيل انه نزه الرسول عن الشعر فان هذا التنزيه يتوجه الى الشعر من حيث انه كلام بليغ وليس لانه موزون ، ولكن التنزيه منه كالتنزيه من الخط وان الرسول لا يقرأ ولا يكتب حتى تكون الحجة ابهر واقهر .

ويبقى المعترض الثالث والذي يكره الشعر لما يتعلق باحوال الشعراء وليس هذا بسبب لذم الشعر وتهجينه ، لأنه يلزم ان يعيب استشهاد العلماء بالشعر مثل شعر امريء القيس واهل الجاهلية في تفسير القرآن وغريبه وغريب الحديث ، وان يدفع سائر ما ذكر من امر الرسول والشعر . وان من الواجب اذا ذم الشاعر على الشعر ان يستثني كما استثنى الله عز وجل ـ[18].

ولا يخرج صاحب كتاب « نصرة الاغريض » عن هذا الذي ذهب اليه عبدالقاهر الجرجاني ، وقد افرد صفحات كثيرة اورد فيها أخبارا وحوادث وناقش موقف الاسلام من الشعر بعرضه ومناقشته لها ، وعرض لذامي الشعر ، ويرد الاحاديث التي تروي في تهجين الشعر ، وان بعضها قصد به زمانا وقوما معينين لأن الرسول سمعه واستنشده وأمر به ، الى آخر هذه المناقشات .

ولكن المفيد في عرضه هو ذلك الربط بين الشعر والحكمة ، فان الرسول قال « ان من الشعر لحكما » وان الله عز وجل قال في القرآن الكريم في مدحه لداود عليه السلام قال : « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . وقال عن لوط « ولوطا آتيناه حكما وعلما . » فجعل الرسول ﷺ بعض الشعر جزءا من الحكمة التي خص بها الأنبياء[19] .

●●●

لنا ان نقف الآن امام القضية الرئيسية والتي تدور حول امرين : ـ

١ ـ موقف الاسلام من الشعر .

٢ ـ ضعف الشعر في فترة صدر الاسلام .

وسنعرض لكل قضية على حدة .

أولا : موقف الاسلام من الشعر :

لنشر اولا الى أمر لا يصعب الاتفاق حوله ، ملاحظة اولى ندفعها لتكون محور اهتمام خاص ، او لنقل انها تنبيه الى امر ظاهر وبارز قد يخفي على بعض الاعين احيانا . نقول انه مهما كانت حصيلة نقاش الموقف الاسلامي واينما امتدت دروبه ، فان هذا الموقف ان كان رافضا او مؤيدا او متوسطا او تنازعته الافهام بين هذه

(١٨) انظر تفصيل هذا الرأي في كتاب (دلائل الاعجاز) ص٨ الى ص٢١ .

(١٩) نصرة الأغريض . ص٣٥٢ وما بعدها .

واذا كانت هذه الاشارات تمثل رأي القدماء وتقدم موقفهم المنافح عن موقف الاسلام المؤيد للشعر فان المحدثين لم يتخلفوا عن المساهمة في هذا ، ويدفعنا الواجب الى التنويه بالكتاب الذي خصصه الأستاذ يحيى الجبوري فقد استقصى عددا كبيرا من النصوص وعرض لموقف القرآن والرسول والصحابة ويطول علينا الأمر لو استشهدنا بما قال . ونشير هنا الى الملاحظات الطيبة التي ذكرها الاستاذ شوقي ضيف في كتابه (العصر الاسلامي) ص٤٢ وما بعدها .

كلها او بعضها ، ان كان هذا او ذاك فلا يشكل سببا وحيدا لضعف الشعر او تدنيه كما ذهب الزاعمون . وتفصيل هذا ان الدين قد يأمر فلا يستجاب له وقد ينهي فلا يسمع له ، ومصداق هذا ما نلاحظه من ان الدين هدى وحث على مكارم الاخلاق المتواضع عليها ، ودفع لمزاولة الحسن من الامور ، وهذا موقف تؤكده شواهد هي اكثر من ان تصف في سطور الصحائف . ولكن المؤكد ايضا ان هذا ليس بلازم او متحقق في الواقع الملموس والا لكانت الارض هي الجنة الموعودة ، فالامر المؤكد لم يثمر نتيجة واضحة في الواقع ، واثر الموقف الاسلام العام لم ينعكس على الحياة انعكاسا تاما او لنقل انه لم يشمل واقع الحياة اليومية ، فالأمر والنصيحة لم يثمرا كما يحب الموقف الديني ان يثمر الا عند من رحم .

ومثل ذلك النهي ، فهو لا يجد كل الاذان صاغية له ، وما اكثر ما تجاوز الناس الامر المنهي واقترفوا ما غلظت الدعوات من حوله بل وقرنت بالروادع المبرحة في كثير من الاحيان ، وها هي امامنا النصائح العامة وقد كثر متجاوزوها ، فالخمر ، مثلا ، تواترت آيات محرمه له وقيل فيها ما قيل ، وقرن القول الزاجر بعقوبات مؤكدة ، ومع ذلك فالواقع والتاريخ يؤكدان لنا ان شاربيها سلسلة متتالية تذكر الكتب اخبارهم ويشاهدهم المشاهد . ويستوي حولها من خفت جذوة اسلامه ومن امتحن تدينه بخضوعه لها .

ان سوقنا لهذه الملاحظة انما للتنبيه فقط ولتأكيد الامر الواضح من ان واقع الناس قد لا تكون استجابته مساوية للدعوة المرفوعة . وهذا يصدق على الشعر ايضا فقد ينهي ولا ينتهون وقد يأمر ولا يطيعون وعندما يتوسط ويشترط لا يخضع له الا البعض وهكذا . وليس هذا القول تقليلا من اهمية الموقف العقائدي واثره على الواقع العملي ، وستأتي بعد ذلك سطور تالية تعرض لهذا الامر من الواقع لا التصورات .

عندما ننظر الى الاسلام نجد ان حقيقة موقفه العام تختلف عن بعض الاديان الاخرى ـ ككل المبادىء الكبرى ـ فهو لم يكن يدفع عنصر التدين الى ما تحت الستار الروحي والانضواء تحته مع مثاليات عامة وقيم خلقية متعارف عليها كما فعلت المسيحية ، دون ان نتجاهل دورها حينما قامت على مبادئها دول . وهو كذلك ليس كاليهودية انحسار ضمن حدود عرقية ضيقة . فمن الحقائق الثابتة ان الدعوة الاسلامية لامست الواقع مباشرة ، فهو ـ وان قامت دعوته على الجانب الروحي تطهيرا واطمئنانا ـ فانه لم يركز على هذا الجانب فقط ، فقد اعطت الدعوة اهتماما ملحوظا لواقع الناس ، وكان التجاذب واضحا بين ثبات العقيدة وواقعية التشريعات لأنه ارتبط بتكوين المجتمع واقامة دولة تفرع منها عدة وجوه اثناء جود صاحب الدعوة نفسه ، فصنعت لها وجها اجتماعيا وسياسيا وثقافيا . . وهذا الوجه الثقافي تتمثل صورته الكبرى في الفن ـ الشعر خاصة ـ ومن ثم فالتلازم قائم بين هذا الفن والدعوة ، فلم يعد الشعر تعبيرا فرديا ـ وان تحقق ـ وانما وظيفة . محدودة داخل اطار دعوة كبرى شملت كل جزء من هذا المجتمع الوليد .

١ ـ القرآن الكريم : ان الموقف الاسلامي ينبع اساسا من القرآن الكريم ـ فهو اصل لكل الاراء ـ ثم تأتي السنة مفسرة وموضحة ومبينة محددة ، ويبدأ بعد ذلك توالي الفهوم بين الدارسين . وها نحن مع القرآن اولا نبحث فيه الآيات التي تناولت الشعر عرضا او على القصد الصريح ، فنجد أن كلمة « شعر » وما اشتق منها قد وردت في عدة مواضع ها هي : ـ

١ ـ « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » .

سورة يس ـ الآية ٦٩

٢ ـ « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » .

سورة الحاقة ـ الآية ٤١

٣ ـ « بل قالوا اضغاث احلام ، بل افتراة ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما ارسل الاولون »

سورة الانبياء ـ الآية ٥

٤ ـ « ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون »

سورة الطور ـ الآية ٣٠

٥ ـ « ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »

سورة الصافات ـ الآية ٣٦

٦ ـ « والشعراء يتبعهم الغاوون . الم ترانهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون مالا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

سورة الشعراء ـ الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧

ست آيات ترددت فيها الكلمات : شعر . شاعر ـ شعراء :

الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ اوردت كلمة شاعر

الآية رقم (١) اوردت كلمة الشعر

الآية رقم (٦) اوردت كلمة الشعراء

واذا نظر نظرة سريعة سنلاحظ ان :

١ ـ الايات (١) ، (٢) رد على الكفار الذي ادعوا انه شاعر

٢ ـ الايات (٣) ، (٤) ، (٥) حكاية ماورد على لسانهم حينما ادعوا انه كان شاعرا .

٣ ـ الاية رقم (٦) وهي الوحيدة التي تتحدث عن الشعراء .

نلقي نظرة سريعة على الايات ٢ ، ٤ ، ٥ ، فنلاحظ أن الاية رقم (٢) جاءت في سياق رد على ما كان يقوله الكفار ، الذين قالوا عن القرآن المنزل انه قول شاعر تماما كما قالوا انه قول كاهن الى آخر اقوالهم ، فكان الرد القرآني ان هذا ليس بقول شاعر ، وهو ايضا ليس بقول كاهن .

واضح تماما ان هذا الرد يقرر حقيقة واضحة ، فلم يكن الرسول شاعرا ولاكاهنا تماما كما انه لم يكن ملكا او وزيرا .

اما الايتان الأخريان (٣ + ٤) فقد جاءتا حكاية على لسان الكفار ، فقد قالوا انه شاعر ، والشاعر انسان يخضع للموت ، ومن ثم ننظر موته ليهلك كما هلك غيره .

اما الاية الاخرى فتنقل وصفهم للرسول من انه شاعر مجنون . . . وليس في هذه الايات مايمس فن الشعر من حيث كونه فنا ، وهي كذلك لاتمثل رأيا اسلاميا ـ ومن حقنا القول : .

* ان ماجاء حكاية عن الاخرين لايمثل موقفا انما ينقل الاراء والاقوال .

* ان ما جاء نافيا عن الرسول كونه شاعرا لايحمل اي موقف فهو رسول وليس بشاعر وهذا تقرير واقع ولايمثل اي اتهام .

* ان ما جاء صريحا في قول يحده الظرف المعين الذي سنتحدث عنه فيما بعد ويضاف الى هذا الاستثناء الواضح الذي لايحتاج الى تعليق .

يأتي منبع هذه المجادلة من طبيعة الدعوة الاسلامية ذاتها ، فعندما قذف الرسول (ﷺ) في سكون بيئته رسالته وتلا آيات القرآن الكريم عليهم وقفوا متحيرين في أمرهم ، ماهذا الذي جاء به مؤثرا واضح التأثير ، هاهي كلمات تهز سامعيها وتحركهم دافعة الى الايمان به ، وما كانوا يعرفون من سحر الكلمات الا ما الفوا من

شعر ، لذلك بدأت اقوالهم تضطرب حول هذا المجال ، فنظروا الى أقواله على انها اضغاث احلام ولكنهم يعلمون حق العلم ان تماسك هذه الاقوال لايصدر عن الاحلام ، فلجأوا الى القول انه اخترعه اختراعا وليس هذا القول بأكثر تماسكا من سابقه . اذا لم يبق الأ أن يزج في دائرة الشعراء فهذا التميز جدير ان ينظر اليه من زاوية الابداع الشعري . ولكن هل هذا حق تنطبق عليه كلمة شعر ؟ . حكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « خرجت اتعرض رسول الله ﷺ قبل ان اسلم فوجدته . سبقني الى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت اعجب من تأليف القرآن : قال فقلت : هذا والله كما قالت قريش . قال فقرا انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون .

قال قلت كاهن قال : ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنامنه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين . الى آخر السورة . قال فوقع الاسلام في قلبي كل موقع . » [٢٠] وليس هذا فقط فها نحن ننتزع من اخبار كثيرة . مثل هذين الخبرين الكاشفين لمسار هذا الجدل والحوار حول دعوة الرسول والقرآن الكريم . روت كتب الصحاح خبر انيس الذي عاد من رحلة الى مكة فقال لاخيه ابي ذر الغفاري : (لقيت رجلا بمكة على دينك [٢١]يزعم ان الله ارسله . قلت فماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر [٢٢] وكان انيس احد الشعراء .

قال انيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على اقراء الشعر (اى طرقه وانواعه) فما يلتئم على لسان احد بعدي انه شعر والله انه لصادق . وانهم لكاذبون [٢٣] .

ونضع بجانب الخبرين السابقين خبر ضماد فقد سمع سفهاء اهل مكة يقولون : ان محمدا مجنون . وكان يرقي من هذه الريح (اي يكتب التعاويذ التي تشفي من الجنون) فقال : لو اني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي . قال فلقيه . فقال : يامحمدا اني ارقي من هذه الريح . وان الله يشفي على يدي من يشاء . فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ «ان الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وان محمدا عبده ورسوله . اما بعد ... »

قال فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء . فاعادهن عليه رسول الله ﷺ . ثلاث مرات . قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء . وقد بلغن ناعوس البحر » [٢٤] .

اشارة هذه الاخبار وغيرها الى هذه المقارنة بين القرآن الكريم والشعر هي التي دفعت الى مثل هذا الحوار من طرفين ، وقد ساعد على هذا ان اعتماد الدعوة على الكلمة المؤثرة المعجزة والمقنعة وقيام الشعر على بعض هذه المقومات ، اودخول هذه في البناء الفني السائد عند العرب ، اي الشعر ، ان هذا هو الذي اوجد هذه

---

(٢٠) مسند الامام احمد ١٧/١ .

(٢١) اي دين أبي ذر الذي كان قد ذكر انه صلى قبل ان يلقي الرسول بثلاث سنين ومعنى قوله انه كان يتبع طرق الحنفاء .

(٢٢) وهي مقولاتهم نفسها التي أوردتها الآية الكريمة .

(٢٣) صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة ص ١٩٢٠ ، وانظر مسند الامام احمد ١٧٤/٥ .

(٢٤) السابق . كتاب الجمعة . ص٥٩٣ . وناعوس البحر وسطه او لجته .

المقارنة من جانبهم ودعت القرآن الكريم الى نفي هذا الا عنه .

وعندما ننظر الى الاية الثالثة (بل قالوا اضغاث احلام . . الاية) نلحظ فيها هذا الاجمال لموقفهم المتذبذب والذي يناقشه الفخر الرازي بعقليته الفذة ، فيقدم اقوالهم الخمسة التي ساقوها في حق الرسول والقرآن الكريم . :

قال : « فاعلم انه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله (هل هذا الا بشر مثلكم افتأتون السحر) ثم قال (بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر) فحكى عنهم ثم هذه اقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا : (٢٥)

١ ـ ندعي ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى . سلمنا انه غير مانع ولكن لانسلم ان هذا القرآن معجز .

٢ ـ ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة من مقدور البشر ، قلنا لم لايجوز ان يكون ذلك سحرا .

٣ ـ وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا انه اضغاث احلام .

٤ ـ وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه .

٥ ـ وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لايثبت كونه معجزا ، ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا « فليأتنا بآية كما ارسل الاولون (٢٦)

ان الالمام بهذا الموقف يجعلنا اكثر تصورا لطبيعة هذا الحوار ، فالقرآن لايعرض للشعر من حيث كونه فنا او تعبيرا ، وهو لايعرض تصوره ابتداء ولكنه يعرض أو يعقب على الامر المعروض ، والذي يمس هذا الصراع الدائر بين الرسول ومنافحيه ، وهذا متعلق بجوهر الرسالة ، فنحن نلاحظ تصاعد اتهاماتهم والذي يسلمنا الى قمة التشكيك بالرسالة من خلال الطعن بانصع صفحاتها وابرز وجوهها وقد تصاعدت اتهاماتهم حتى وصلت قمتها الى أن هذا نوع من الشعر ، وان الناطق به يمتلك موهبة الشعر القادرة على التحكم بمواضع الكلام فتحسنه ، مع علمهم انه ليس بشعر لأنهم يعلمون حق العلم معنى الشعر ، الم يضعه انيس على اقراء الشعر وقد تبينه عمر بن الخطاب والوليد بن المغيره وآخرون . ولكن هذا الشكل اللغوي لابد له من وصف يقترب منه ، لذلك كان الاضطراب والتصاعد من الادنى الى الاعلى من اضغاث الاحلام الى الافتراء ثم الشعر بعد ان قالوا كذلك انه ساحر وكاهن ، ولما كان الشعر علوا وسموا في فن القول فليكن القرآن منه ، فهذا اقصى مايكن قوله بالنسبة لهم .

ليست مناقشة الامر وعرض حكاياتهم والتصدى لها تمثل اي موقف من الشعر ولكنها توضيح وتبيين الفارق بين أمور حاول الكفار ان يقيموا بينها علاقات لهدم اساسات الدعوة الاسلامية ، فقد قالوا ، فعرض موقفهم ورد عليها . بل انهم وصفوا الرسول باوصاف ليعتمدوا على نتائجها ، فهو « شاعر نتربص به ريب المنون » ، اي انه سيموت كما يموت الشعراء وتنقضي دعوته ، واضافوا كذلك انهم لن يتركوا آلهتهم لشاعر مجنون ، وهذا الجمع بين صفة الجنون والشعر يمثل غاية التردي العقلي والتوتر النفسي عندهم والا فكيف يجتمع قول الشاعر ودقته مع الجنون ؟ . .

لقد توترت العلاقة بين الدعوة والوسط المحيط

---

(٢٥) الترقيم والتقسيم ليسا من الرازي وضعتهما للتوضيح .

(٢٦) التفسير الكبير . الفخر الرازي ج ٢٢ ص ١٤٣ .

فاشهرت كل الاسلحة ولم تكن هذه الايات الا نتيجة لهذه المواقف ومن ثم يبرز الموقف الاسلامي واضحا ، لايكتفي بأن يحكي اقوالهم حكاية انما يتدخل موضحا الفرق بين وظيفتين : النبوة والشعر . فان بينهما فرق لايحسن تجاهله (٢٧) .

تأتي الاية الكريمة : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له أن هو الا ذكر وقرآن مبين » وهي تحمل معنى التنزيه . وهذا التنزيه ـ اي تنزيه الرسول عن قول الشعر ـ قد يدفع البعض الى ان في هذا ما يمس فن الشعر . ولكن الامر بين وواضح بعد ان الممنا بالواقع والمعركة الدائرة خاصة حينما حاول الكفار انقاص معنى الرسالة والقرآن بمقارنتهما بامور كثيرة من بينها الشعر ، وكان من الواجب الرد عليهم مع الالتزام بالاطار الذي تحدد على ضوء هذا النقاش (٢٨) .

ومن هذه الجهة فقط كان دخول موضوع الشعر ، فالله لم يعلمه قول الشعراء وصناعة الشعر ، ولم يعطه العلم بانشائه وما ينبغي له ان يقول الشعر من عند نفسه (٢٩) . وهذا يقف عند نفي صفة الشاعرية عن الرسول (ﷺ) وهو امر خاص بطبعة الرسول وغير متعلق بفن الشعر من حيث هو فن . بل ان الرسول بذاته ، كما يقول الطبري : « ان هو ، اي محمد ، الا ذكر لكم ايها الناس ذكركم الله بارساله اياه اليكم ونبهكم به على حظكم وقرآن مبين »(٣٠) . .

وتبقى كلمة « وما ينبغي له . » ، فالاية كانت تعرض امرين اولهما : ان الله لم يعلم الرسول الشعر ، والامر الثاني ان الشعر لاينبغي له ، وهذا ، الثاني ، هو الذي تراوحت التفسيرات بين اقوال او الفاظ لها دلالتها ، من مثل : لايجوز ، لايسهل ، لايليق ، هذه مستويات من الاحكام لم تلتزم بمنطوق « ماينبغي » انما حاولت ان تلقي بظلال تفسيرها عليها ، فرأت انه « لايمكن له ولا يصح ولايناسب » والتعليل لهذا « لانه عليه السلام في طريق جد محض والشعر اكثره في طريق هزل وتحسين ما ليس حسنا تقبيح لما ليس قبيحا . « وان الله جعله لايقرض الشعر كما جعله اميا لايخط لتكون الحجة اثبت والشبهة أدحض » ، ورأوا في هذه الاية دلالة على غضاضة الشعر ، لان الرسول قال « ما انا بشاعر ولاينبغي لي » . وواضح ان الرسول استخدم اللفظة القرآنية التي تمثل التنزيه له دون المقارنة لانه لا يحسن المقارنة بين نبي وشاعر .

ولعل الامر الدقيق هنا ، ان التفريق واجب لطبيعة الموضوعين ، فليس التشابه اللفظي في كلمة الوحي يعني تساويهما ، فلابد من التفريق بين مفهوم الكلمتين فالوحي عند الشاعر انما يعني لحظة الصفاء في الذهن البشري الموهوب حينما تتجاوز لحظته هذه طبيعته اليومية وكان الامر خارج عن المألوف فكان هذا الوضع الهاما او سمي كذلك .

اما طبيعة الوحي عند النبي فهي مختلفة تماما ، بل ان النبوة فيها نزوع الى مخاطبة الواقع من جهة الاقناع العقلي والروحي ، وقولها تنظير وتشريع ، اي ان الجانب العقلي المنطقي لازم لها ، داخل دخولا مباشرا لا يقبل الجدل ،

---

(٢٧) يقول ابن كثير : « هذا أخبار عن تعنت الكفار والحادهم واختلافهم فيما يصفون القرآن وحيرتهم فيه ، وضلالهم عنه ، فتارة يجعلونه سحراً وتارة شعراً وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى كما قال : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » . التفسير ح ٣ ص ١٧٣ .

(٢٨) روى الزمخشري (الكشاف ج ٣ ص ٣٢٩) القائل أن هذا شاعر هو عقبة بن أبي معيط . ولكن الأمر المؤكد أن وصف الرسول بهذه الصفة كانت عامة لا يختص بها واحد بدليل تواتر الأخبار حول هذه النقطة . . انظر كذلك البحر المحيط ج ٧ ص ٣٤٥ .

(٢٩) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ٨/٤٣٢ .

(٣٠) الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ح ٢٣ ص ١٩ .

فالنص محدد في منطوقه ، لـذلك نجـد الرازي يلمس بدقة هذا الجانب حينما يشير الى انه يجب حمل « ما ينبغي له » على مفهومه الظاهر وهو ان الشعر لا يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو الى تغيير المعنى لمراعاة اللفظة والوزن ، فالشارع يكون اللفظ تبعا للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ ، لأنه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر او قافيته فيحتاج الى التحيل لمعنى يأتي به لاجل ذلك اللفظ ، وعلى هـذا نقول : الشعـر هو الكلام الموزون الذي قصد الى الوزن . قصدا اوليا ، وامـا من يقصد الى المعنى فيصـدر موزونـا فلا يكـون شاعرا[٣١] .

ولنا ان نقبل هذا الرأي او نذهب - كما ذهب قوم - الى انه لا يسهل على الرسول قول الشعر حفاظا على مكانة الرسول واشفاقا وتهيبا من المقارنة ، وقد كانت قائمـة وملموسة .

ان الاخبار تؤكد عدم درايته بفن الشعر ، وان كان متذوقا له ، فانتفـاء الدرايـة بالفن تعني انـه ليس من اصحاب هذا الفن . اما تذوقه فلانـه ابن بيئة يـدرك مواضع الحسن بالقول ، فقـد اوتي جوامـع الكلام ، وملك ناصية البيان حينما يتحدث او يعظ .

تأتي الاخبار التي تؤكد تعجبه من هذه الملكة ، فها هو ابن ابي رواحة يروي حادثة مؤكدة لهذا حينما مر على الرسول وهو جالس بين نفر من اصحابه فدعاه اليه ، يقول : « فانطلقت اليه مسرعا فسلمت فقال » ها هنا « فجلس بين يديه فقال - كأنه يتعجب من شعري : - كيف تقـول الشعر اذا قلت ؟ . قلت : انـظر في ذلك فاقول . . قال فعليك بالمشركين[٣٢] » . فالرسول مثل غيره من الناس في تعجب من هذه القدرة الخاصة التي يتمتع بها الشعراء فيسأل ويستفسر ويدعو الشاعـر الى استخدامها في سبيل نصرة الدين[٣٣] .

فليس في نفي الشعـر عن الرسـول عليـه الصـلاة والسلام او انه لا ينبغي له ، اية اشارة الى فن الشعر من حيث هو فن ، واخراجه من دائرة الشعراء امر لا يمس الشعراء من حيث كونهم اهل فن وصناعة تماما كما اخرج من دائرة القارئين الكاتبين دون ان يغض هذا من القراءة والكتابة .

●●●

ان اهم نقطة جديـرة بالتـوقف هي تلك التي تحوم حول آخر آية من سورة الشعراء ، تلك الآية التي برزت وتصـدرت فكـانت اسـما للسـورة كلهـا . ونعني هنـا « والشعراء يتبعهم الغاوون ، . . الآية » .

عندما نستحضر ذلك التاريخ المتوتر بين كفار قريش والرسول ، وقـد رأينا طعنهم للنبـوة وتسمية الـرسول بالشاعر ووصفهم القرآن بالشعر حين نتمثل هـذا كله ندرك ان هذه الايـة من جنس السابق . ولكن ، مع هذا ، فان هنا امر متميز وخاص يحسن عرضه وابرازه فالقرآن يذكر هنا « الشعراء » بالذات ولا يتحدث عن الفن ، بل يشير الى هذه الذوات الحاملة للشعر ، أي الانسان من جهة كونه شاعرا ، وقد وضع ازاءهم مـا يلي : يتبعهم الغاوون

في كل واد يهيمون

وانهم يقولون ما لا يفعلون

الا الذين آمنوا .

. وبعد هذا كله يأتي الاستثناء :

---

(٣١) الفخر الرازي : التفسير الكبير : ح ٢٦ ص ١٠٥ - ١٢٦ .

(٣٢) السيوطي . الدر المنثورة ص ١٠٠ .

(٣٣) ويدخل في هذا الجانب ما روي من أنه لم يكن يحسن رواية الشعر والأخبار حول هذا الموضوع كثيرة .

ثلاثة اتهامات ، تتحدث عن امر محدد ، عن حالة متميزة ، تحمل معها جانب التأثير الذي يتركه الشعر عن الاخرين ، وانسحاب التهمة على التابع كما لصقت من قبل على المتبوع .

ولهذه القضية وجهان كلاهما جدير بالابراز ، اولهما الوجه التاريخي والثاني دلالة النص القرآني وسياقه .

الجانب التاريخي والذي لا يمكن اغفاله ، فهو مفسر وموضح وجزء من فهم النص ، فالعلم بالوسط القرآني وحوادثه واشاراته وعلاقاته له اهمية قصوى في التدبر والفهم .

تأتي الاخبار الموثقة والتي لازمت هذه الآية لتحد من اي تأويل ، فقد قال ابن عباس[٣٤] « والشعراء » عبدالله بن الزبعري ، واصحابه يقولون الشعر ، وان الغاوين هم الراوون يروون عنهم « الم تر » الم تخبر يا محمد » ان الشعراء يهيمون في كل فن ووجه يذهبون ويأخذون يذمون ويمدحون ويقولون في شعرهم مالا يفعلون ، وكلاهما غاويان كذا الشاعر والراوي الا الذين آمنوا وهم حسان واصحابه . وقد تناقل المفسرون هذا النص ، فالزمخشري مثلا يقول : « وقيل هم شعراء قريش عبدالله بن الزبعري وهبيرة بن ابي وهب ومسافع بن عبدمناف وابو عزة الجمحي ، ومن ثقيف امية بن ابي الصلت قالوا : نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع اليهم الاعراب من قومهم يستمعون اشعارهم واهاجيهم[٣٥] . » ومعنى هذا ان الآية نزلت في شعراء معينين ، او في موقف محدد متعلق بالصراع الدائر لتثبيت اركان الرسالة ، ومن ثم لا تنسحب على ذوات الشعراء على العموم من حيث كونهم اصحاب فن ، لذلك يكون الاستثناء الذي يختم الاية مزيلا للبس الذي يمكن ان يرد على الذهن . والرسول ﷺ قد نبه اصحابه الشعراء الى هذا الاستثناء حينما جاءوا يبكون خوفا من ان يشملهم القول .

ومن هذا الباب ما اشار اليه الطبري[٣٦] من ان هذه الاية نزلت في رجلين تهاجيا على عهد الرسول ، كان احدهما من الانصار والاخر من قوم اخرين ، وكان مع كل واحد غواة من قومه وهم السفهاء . وهذا التحديد الجديد لا ينفي ، بل يؤكد المعنى السابق ، فليس هجاء الرسول والمسلمين هو وحدة الذي يمكن ان يوصف بالغواية ولكن كل شاعر يسعى الى اثارة الشقاق واظهار التنافر ، يدخل في هذا المضمار وتبعه تابعون محرضون ومن ثم تخرج الاية من خصوصية السبب الى عمومية الموضوع دون ان تمس الشعر في ذاته او الشعراء انفسهم تماما كطبيعة الكلام بوجوهه الحسنة والسيئة ، وكما قال الزمخشري من ان الامر لا يزيد عن « القول فيه ان الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبح الكلام » .

وعندما ننظر الى الوجه الاخر من الموضوع بعيدا عن الملابسات التاريخية ، نجد ان دلالة النص تركز على الهيام في اودية القول وتشعباته وعلى القول دون الفعل . ولما كانت الاية كلا واحدا لا يمكن الفصل بينه ، وبعضه يفسر البعض الاخر ، فان السياق العام منصرف الى الحديث عن النص القرآني وانه تنزيل من رب العالمين ولم تتنزل به الشياطين ، فاذا كان لكل شاعر شيطان ، كما وقر في ذهنهم ، فان هذا لا ينطبق على الرسول . وهو يفرق بين طبيعة التكوين القرآني والبناء الشعري الذي

(٣٤) أهمية ابن عباس في مثل هذه الأمور لا تخفي عند دارسي التفسير ، انظر النص في تفسير ابن عباس ، هامش كتاب الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣٥) الكشاف : ح ٣ ص ١٣٣ وانظر كذلك الطبرسي في تفسيره لهذه الآية .

(٣٦) الطبري : م ٩/ح ١٩ ص ٧٨ ونشير هنا الى ان ابن كثير في تفسيره يذكر ان هذه الآية مكية وليست خاصة بشعراء الأنصار ، وقوله تعالى : الا الذين آمنوا . استثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم .

يستمد من الخيال اشياء كثيرة ، اما هذا القول القرآني فيطابق المنطوق وما يحمل من معنى .

وعندما ننظر الى كلمة « الشعراء » فان هذا لا يشمل كل جنس الشعراء ولكنها تتجه الى جهتها المعينة ، وهي لا تمس ذوات الشعراء على العموم الا بعد ان دمجتهم باهل الغوايةواعتبرتهمكلا واحدا . فالشاعر الذي يستهوي اهل الغواية انما هو يقول او يعبر عن غوايتهم ، واذا هام في اودية الكلام دون تحديد لخدمة هذا الاتجاه وقال ما لا يفعل . كل هذا يضع الشعراء في الجانب المذموم دون ان يشمل الحكم فن الشعر من حيث هو فن . وليس في القرآن ما يتعرض لهذا الفن كما لاحظنا . ولم يذم هؤلاء الشعراء لانهم قالوا الشعر ولكن لمحاربتهم بشعرهم الدعوة او تزيينهم الباطل . ويمكننا القول ان الله عز وجل عندما قال « قتل الانسان ما اكفره » لا ينصرف هذا القول الى جنس الانسان كله ، فهناك عباد الرحمن الذين مدحهم وكلأهم بعينه .

٢ - بين يدي الرسول :

حلقة القول لا تكتمل في هذا الموضوع الا بالاحاطة بقول الرسول وفعله ، ففيهما تجلية لاية غمامة تحجب النظر الصحيح الى الموضوع بسياج من شك ، فالرسول ادرى واعلم بدقائق القرآن ، فهو الذي هدّأ حسانا وابن ابي رواحة ومن معهما حينما هزهم القول القرآني حول الشعراء ، بل انه قال لكعب بن مالك حين سأله « ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما بوجههم مثل نضح النبل[٣٧] .

فالموقف الاسلامي يأخذ شكله التطبيقي من تلك الاحكام القولية والممارسات العملية التي يسنها الرسول الكريم ، فهي المدخل الذي يساعد على ازالة اي ابهام وينحي اي شك ، وكما ان آيات القرآن الكريم احيطت باقوال واجتهادات كثيرة فان اقوال الرسول واجهت الامر نفسه ، فمع انها وردت متناسقة متكاملة ويحكمها منطق محكم فان الانفراد بخبر دون آخر او وصول بعض الكلام دون البعض الاخر ، او النظر ليه من غير جهته عند البعض كل هذا قد يسحب عليه رداء يحجب الرؤية السليمة فالاقوال الطائرة تنتشر وتأخذ شهرة ويبقى الحق يبحث عن الاقوال المدافعة .

ان الشيء المؤكد الذي نبدأ به هو ان الاخبار المنحدرة عن الصدر الاول تقول ان الصحابة لم تضطرب مواقفهم حول هذا الموضوع ، فكان الشعر ديدنهم ومحل سماعهم واستشهادهم . ولن يذهب هذا المذهب من قام الاسلام على اكتافهم ولا نظن انهم علموا غير الواقع القابل للشعر والمؤيد له المدرك لابعاده .

بين أيدينا الآن أقوال الرسول (ﷺ) من اوثق مصادرها نضعها لنرى الوجهة التي يمكن أن نخرج بها .

أولا : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣٨] :
« ان من الشعر حكمة . »[٣٩] .

وبجانب هذا الحديث نذكر هذا الخبر « قال النبي عليه الصلاة والسلام - للعلاء بن الحضرمي : هل تروي من البيت شيئا فأنشده :

حي ذوي الأضغان تسب قلوبهم

(٣٧) الدر المنثور ٥/ ٩٩ .

(٣٨) حذفنا الأسانيد اكتفاء بالاشارة الى المصادر ففيها هذه الأسانيد .

(٣٩) البخاري : باب الادب ج ٨ ص ٤٢ وانظر سنن أبي ماجه : كتاب الادب ص ١٢٣٥ وهناك رواية أخرى : « ان من الشعر حكما » ابن ماجه ص ١٢٣٦ وروى أبو داود : « ان من البيان سحرا وان من الشعر حكما » ج ٥ ص ٢٧٧ .

فقال النبي عليه السلام : ان من الشعر لحكما »[٤٠]

٢ ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

وكاد ابن أبي الصلت أن يسلم ، »[٤١] وفي رواية أخرى : « أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

٣ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام »[٤٢] .

٤ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) : **ان روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤٣]** .

٥ ـ روى الترمذي أن النبي (ﷺ) حينما دخل مكة في عمرة القضاء وكان يمشي بين يديه عبدالله بن أبي رواحة ـ وقيل كعب بن مالك ـ وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله . ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر : يا ابن أبي رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل »[٤٤]**

هذه هي أقوال الرسول واضحة ناطقة بمعناها ولا يمكن أن تحمل على غير وجهها الصحيح ، فالرسول في هذه الأقوال يقف بجانب الشعر ويرعى الشعراء ، وينظر الى الفن نظرة متسامحة من جهة ومقدرة لدوره من جهة أخرى . وهو في تقديره هذا يضعه في صفّ الحكمة التي يتصف بها أهل النبوة والعقل .

فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الشعر جزءا من الحكمة التي خص الله تعالى بها أنبياءه ووصف بها أصفياءه . وأمتن عليهم بذلك اذ جعلهم مخصوصين بها من قبله »[٤٥]

ونجده في الحديث الآخر يرتبط الشعر عنده بالصدق ، والصدق هنا من جهته الدينية التي يحرص عليها الرسول . وقد رأى أن في الشعر مدخلا للتدين ، فالقلق الروحي المشع في شعر ابن أبي الصلت كاد أن يدخله في زمرة المسلمين ، وقد استخدم الرسول كلمة « كاد » في هذا الحديث ، يوشك أن يدخله لولا ذلك الصراع التاريخي . ويعزز ما نذكر ما ذهب اليه العيني حينما ذكر ان شعر أمية ينشد بين يدي النبي (ﷺ) ويعجبه وان كان يريد أن يؤمن لولا العصبية والحزن على الأهل الذين قتلوا في القليب[٤٦] فالشعر هنا كان معبرا عن الأرواح القلقة والمتشوقة للتدين ، أو لاعطاء تفسير مقبول لمسار الحياة . وقد كان أمية بن أبي الصلت مؤهلا لكي تصله الدعوة . فارادة الايمان كامنة فيه ولكن التعصب ومبررات الصراع والحزن على من قتل في

---

(٤٠) الممتع في علم الشعر ص٣٢

(٤١) البخاري : باب الأدب ج ٨ ص٤٣ صحيح مسلم ص١٢ وما بعده وقد أورده مسلم بأسانيد مختلفة ، وانظر مسند الامام أحمد ٢/ ٢٤٨ و ٢٩٣ وورد بعدة أسانيد ٢/ ٤٥٨ ، ٢/ ٤٧٠ وانظر ابن ماجه ص ١٢٣٦ .

(٤٢ فتح القدير : ٤ ص ١٢٤ وعلق القرطبي قائلا انه قد رواه اسماعيل بن عبدالله ين عون الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح .

(٤٣) سنن أبي داود ٥/ ٢٨٠ , وانظر سنن الترمذي ٤/ ٢١٦

(٤٤) سنن الترمذي ٤/ ٢١٧

(٤٥) ونذكر هنا قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله . . » سورة لقمان ـ الآية ١٢ .

(٤٦) عمدة القاري ج ٢٢ ص١٨٣

معركة بدر . كل هذا كان حاجزا حجب الرؤية عنه لقد كان طلب الايمان يختلف تماما عن مواجهته على صعيد الواقع . ولعل الاضافة الأخرى يقدمها لنا النص الثالث ، حينما يسمع الرسول شعر أمية فالرسول كان يتذوق هذا الشعر ويستحسن سماعه ، ويستزيد منه لأنه يلامس ذوق الرسول فهو يدور حول أفكار كان يسعى الى اقرارها . ولم يقف عند السماع العابر ، ولم يكتف بالبيت أو البيتين ، ولكنه يطلب الزيادة حتى سمع مائة بيت . وليس في هذا النص ما يشير الى الازدراء أو التحقير ، ما دام الأمر لا يمس العقيدة الدينية أو يصادم أفكارا اسلامية أو يمس المسلمين ، فسماع شعره وترديده وتذوقه أمر مطلوب الا ما استثنى منه ، وقد رووا أن الرسول قد سمح برواية شعر أمية الا قصيدته الحائية . بل ان الرسول ينتقل بنا الى خطوة أخرى فلا يكتفي بالسماع والتذوق ولكنه يتجاوز هذا الى الاستحسان بل ويصدق عليه ، فها هو ابن عباس يروي من أن الرسول (ﷺ) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبي الصلت في شعره ، وقال :

رجل ونور تحت رجل يمينه
والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله (ﷺ) « صدق » وقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة
حمراء يصبح لونها يتورد

تأبى فما تطلع لنا في رسلها
الا معذبة وان لا تجلد

فقال رسول الله (ﷺ) : « صدق »[47] .

وهذا التصديق لأمية ، ولغيره ، انما هو يخضع للمنطق العام الذي تخضع له الفكرة الاسلامية ، والتي تمثل الموقف المضطرد من الشعر وغيره ، وهذا المنطق ينجلي في النص الثالث والذي أجمل الرأي في الموضوع ، حين يكون القياس قائما على أساس أن الشعر كالكلام ، من جهة الحسن والقبح ، فحسن الشعر كحسن الكلام وقبحه كقبحه . ومن ثم يكون النظر الى الشعر من حيث هو فن وقالب قابل لما يسكبه الفنان فيه ، فان كان حسنا فهو حسن وهكذا . وهذا المنطق الشامل هو الجدير بالنظر ، فكون بعض الشعر لا يماشي الفكرة الاسلامية لا يستدعي اسقاط الفن ، كما ان وجود الكفر بين بني البشر لا يستدعي اسقاط فكرة الانسان ، ووجود القبح في الكلام لا يعني اسقاط فكرة الكلام وهكذا . وعندما نتجاوز هذه النصوص الجامعة سنجد في النصين الآخرين اشارة الى التطبيق العملي لهذه الفكرة ، فالموقف الايجابي هو دخول الشعر دخولا مباشرا في الدعوة ، فهو يصنع له منبرا في داخل المسجد يقف فوقه حسان مدافعا ومنافحا ، فالطرف الأول الذي شاهدناه حينما وظف الكفار الشعر لخدمة موقفهم المعاني ، هذا يستدعي ليس فقط التحذير من الشعر ولكن لا بد من مواجهته بمثله ، ما دام هذا هو السبيل لردعهم وايلامهم فنجد أنه عندما مشى ابن أبي رواحة منشدا ، في النص الآخر ، وينهره سيدنا عمر نجد أن الرسول يوقفه مشيرا الى أثر هذا الفن على الآخرين : خل عنك يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل » . . ان هذه النصوص الواضحة ناطقة صريحة لا تحتاج الى بيان . .

ثانيا : أخبار ومواقف

يضاف الى الأقوال السابقة تلك الأخبار الكثيرة التي تسند وتكمل الأقوال السابقة فهي تحمل مواقف متعاطفة مع الشعر نضعها متتالية فهي ناطقة بنفسها عن دلالاتها ومدار اتجاهاتها .

---

(٤٧) الطحاوي : شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٩

ان الأخبار الواردة عن مواقف مختلفة للرسول تجاه الشعر كثيرة جدا ، واذا وضع بعضها بجانب البعض الآخر سيكون أبلغ من أي حديث آخر ، فصاحبها هو حامل الرسالة الذي يدرك خفاياها ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقول قولا أو يسلك سلوكا منافيا لجوهر الدعوة ، خاصة وأن المصادر التي روت هذه الأخبار من الأصول التي يعتمد عليها أو ما يقترب منها في الرتبة ، فلننظر ونتدبر .

١ ـ حدث عمر بن الشريد عن أبيه قال : « ردفت رسول الله (ﷺ) يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء . قلت نعم . قال هيه . فأنشدته بيتا فقال : هيه . ثم أنشدته بيتا . فقال : هيه . حتى أنشدته مائة بيت .[٤٨]

٢ ـ يخرج الرسول الى الخندق والمهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فيرى ما بهم من النصب والجوع فيقول : اللهم أن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقينا أبدا[٤٩]

٣ ـ حدث البراء رضي الله عنه قال : « كان النبي (ﷺ) ينقل التراب يوم الخندق حتى اغمر بطنه أو أغبر بطنه يقول :

والله لولا الله ما أهدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام ان لاقينا

ورفع بها صوته : أبينا أبينا . »[٥٠]

٤ ـ حدثنا ابن مرزوق قال : ثنا أبو الوليد قال : ثنا شريك ، عن المقدام بن شريح ، عن أبيه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها « أكان النبي (ﷺ) يتمثل بشيء من الشعر ؟ » فقالت : نعم ، من شعر ابن رواحة ، وربما قال هذا البيت .

ويأتيك بالأخبار من لم تزود[٥١]

٥ ـ حدثنا ابن أبي داود ، قال : ثنا المقدمي ، قال : ثنا أبو معشر البراء ، عن صدقة بن طيسلة قال : حدثني معن ابن ثعلبة والحر بعده ، قال : حدثني أعشى المازني قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنشدته :

يامالك الناس وديان العرب
أني لقيت دربه من الدرب
خرجت أتعبها الطعام في رجب
أخلفت العهد ولطت بالذنب
وهن شر غالب لمن غلب

قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وهن شر غالب لمن غلب »[٥٢] .

٦ ـ روى أن مسلما الخزاعي ثم المصطلقي قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن وان أمسيت في حرم
ان المنايا بكفي كل انسان
واسلك طريقك تمشي غير مختشع
حتى تبين ما يمني لك الماني

(٤٨) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٥/ ١١ وما بعدها . وزاد : قال ان كاد ليسلم أو فلقد كاد يسلم في شعره . ورواه ابن ماجه ص ١٢٣٦

(٤٩) البخاري . ج ٥ ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٥٠) السابق . ج ٥ ص ١٤٠ والأبيات لابن أبي رواحة .

(٥١) شرح معاني الآثار : الامام الطحاوي ج ٤ ص ٢٩٧

(٥٢) المرجع السابق ص ٢٩٩ (الطحاوي)

فكـل ذي صـاحب يـومـا يـفـارقـه
وكـل زاد وان أبـقـيـتـه فـان
والخـير والـشـر مـقـرونـان في قـرن
بـكـل ذلـك يـأتـيـك الجـديـدان

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أدركته لاسلم » ، فبكى مسلم ، فقال له ابنه : يا أبه ، ما يبكيك من مشرك مات في الجاهلية ! فقال : يا بني ، لا تفعل فما رأيت مشركة تلقفت من مشرك خيرا من سويد(٥٣) .

٧ - حدثنا محمد بن علي بن داود ، قال : ثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن عمرو بن الحكم ، عن جابر بن عبدالله قال : قال الاقرع بن حابس ، لشاب من شبانهم « قم فاذكر فضلك وفضل قومك » فقام فقال :

نـحـن الـكـرام فـلا حي يـعـادلـنـا
نحن الـكـرام وفـيـنـا يـقـسـم الـربـع
ونـطـعـم الـنـاس عـنـد الـقـحط كـلـهـم
مـن الـشـريـف اذا لم يـونـس الـقـرع
اذا أبـيـنـا فـلا يـعـدل بـنـا أحـد
أنـا كـرام وعـنـد الـفـخـر نـرتـفـع

قال : فقال رسول الله (ﷺ) « يا حسان أجبه » فقال :

نـصـرنـا رسـول الله والـديـن عـنـوة
عـلى رغـم عـات من بـعـيـد وحـاضـر
بـضـرب كـايـزاغ المخـاض مـشـاشـة
وطـعـن كـأفـواه الـلـقـاح الـصـوادر
ألسنـا نخوض المـوت في حومـة الـوغي
اذا صـار بـرد المـوت بـين الـعـسـاكـر
ونـضـرب هـام الـدار عـين ونـنـتـمي
الى حـسـب مـن جـذم غـسـان بـاهـر
ولـولا حـبـيـب الله قـلـنـا تـكـرمـا
عـلى الناس بـالحنين هـل من مفـاخـر
فـأحيـاؤنـا من خـير من وطىء الحصى
وأمـواتنـا من خـير أهـل المـقـابـر(٥٤)

٨ - ومنها ، ما حدثنا أحمد بن داود ، قال : ثنا ابراهيم بن المنذر بن الحزامي ، قال : ثنا معن بن عيسى ، قال : حدثني عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : لما دخل رسول الله (ﷺ) عام الفتح ، رأى نساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر فتبسم فقال « يا أبا بكر ، كيف قال حسان بن ثابت ؟ فأنشد أبو بكر :

عـدمـت بـنـيـتي ان لم تـروهـا
تـثـير الـنـقـع مـن كـنـفـي كـداء
يـنـازعـن الأعـنـة مـسـرجـات
يـلـطـمـهـن بـالخـمـر الـنـسـاء

هكذا حدثنا أحمد بن داود ، وأهل العلم بالعربية يرون البيت الأول على غير ذلك .

(تثير النقع موعدها كداء)

حتى تستوي قافية هذا البيت ، مع قافية البيت الذي بعده(٥٥)

٩ - قال الجرجاني : « وكان عليه الصلاة والسلام يذكر لهم بعض ذلك كالذي روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال كعب : « ما نسي ربك ، وما كان نسيا ،

---

(٥٣) امالي المرتضي ج ١ ص ٣٦٨ .
(٥٤) شرح معاني الآثار : ج ٤ ص ٣٠٠
(٥٥) السابق ص ٢٩٦

شعرا قلته » . قال وما هو يا رسول الله . قال : أنشده يا أبا بكر فأنشده أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة ان ستغلب ربها
وليغلبن مغالب الغلاب[٥٦]

١٠ ـ قال العيني : وروى الترمذي وابن شيبه من حديث جابر بن سمره رضي الله تعالى عنه . قال : كان أصحاب رسول الله (ﷺ) يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله (ﷺ) فلا ينهاهم وربما يبتسم »[٥٧] .

١١ ـ وقال أيضا : « ان شعر أمية ينشد بين يدي النبي (ﷺ) ويعجبه وانه كان يريد أن يؤمن لولا العصبية والحزن على الأهل الذين قتلوا في القليب »[٥٨] .

١٢ ـ حدث هشام عن أبيه قال : « ذهبت اسب حسان عند عائشة فقالت : ألا تسبه فانه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت عائشة : استأذن النبي (ﷺ) في هجاء المشركين ، قال : كيف بنسبي . قال : لا سلنك منهم كما تسل الشعر من العجين . »

وقالت أيضا : انه كان ينافح ، أو يهاجي عن رسول الله (ﷺ)[٥٩] .

١٣ ـ وحدث سعيد بن المسيب فقال : مر عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ اليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . »[٦٠] .

١٤ ـ حدثنا سليمان بن شعيب قال : ثنا يحيى بن حسان ، قال : ثنا ابراهيم بن سليمان التميمي ، عن مجالد بن سعيد عن الشعبي قال : كنا جلوسا بفناء الكعبة أحسبه قال « مع أناس من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، فكانوا يتناشدون الاشعار .

فوقف بنا عبدالله بن الزبير ، فقال : في حرم ، وحول الكعبة ، يتناشدون الأشعار ؟

فقال رجل منهم : يا ابن الزبير ، ان رسول الله (ﷺ) ، انما نهى عن الشعر ، الذي اذا أتيت فيه النساء وتزدري فيه الأموات .[٦١]

حدثنا ابن أبي عمر ان قال : ثنا أبو ابراهيم الترجماني ، قال : ثنا ابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة أن رسول الله (ﷺ) وضع لحسان بن ثابت منبرا ، في المسجد ، ينشد عليه الشعر[٦٢] .

١٥ ـ قال ابن كثير في تفسيره : « روى الأموي في مغازيه ان رسول الله (ﷺ) جعل يمشي بين القتلى يوم

---

(٥٦) دلائل الاعجاز : ص ١٢ وقد أورد عدة أخبار ثم قال والأخبار فيها يشبه هذا كثيرة والاثر به مستفيض ص ١٩ .

(٥٧) عمدة القاري ج ٢٢ ص ١٨٢ .

(٥٨) السابق ص ١٨٣

(٥٩) البخاري ج ٥ ص ١٥٥ .

(٦٠) سنن أبي داود : ٥/ ص ٢٧٩ وانظر مراجعه المهمة ، وانظر كذلك شرح معاني الآثار للطحاوي ص ٢٩٨ .

(٦١) شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٧

(٦٢) المرجع السابق ص ٢٩٨

بدر وهو يقول « نفلق هاما » ، فيقول الصديق رضي الله عنه متمما البيت :

. . . من رجال أعزة
علينا وهم كانوا أعق وأظلما[٦٣]

ان هذه الأخبار التي سقناها تكفينا لتأكيد تلك الرعاية وذلك الاهتمام الذين كان يوليه الرسول (ﷺ) للشعر والشعراء ولا نملك أيضا الا أن نشير الى تلك النصوص التي كانت تذكر ان الرسول قد انحدرت عنه أقوال تندرج تحت الشعر ، وقد جاءت متفقة مع ما أثر عن كثير من العرب الذين ربما قالوا البيت أو البيتين تمثلا أحيانا أو واقعة من غير قصد .

يقول ابن كثير « وكذا ثبت أنه (ﷺ) قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب
أنا ابن عبد المطلب

ويعلق ان هذا وقع اتفاقا لوزن شعر جرى على اللسان من غير قصد اليه . ومثل هذا ما ثبت في الصحيحين مما ذكر أن الرسول (ﷺ) كان في غار فشطب أصبعه فقال (ﷺ) .

هل أنت الا أصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت

وكل هذا لا ينفي كونه (ﷺ) ما علم الشعر ولا ينبغي له فان الله تعالى انما علمه القرآن العظيم[٦٤] .

القضية من جهة أخرى

وسط هذا الحشد من الأقوال والأخبار التي قدمت لنا الرأي الاسلامي واضحا ومطبقا على صعيد الواقع ، نقول وسط هذا يبرز لنا خبران يناقضان ، أو يقدمان وجهة نظر أخرى تشبث بها كثيرون ، فدارا على الالسن لأنهما يقدمان لنا الوجه الآخر المفترض في كل قضية .

الحديث الأول ذكرته كتب السنة ، قالت . قال رسول الله (ﷺ) : « لأن يمتلىء جوف رجل قيحا يريه خير من أن يمتلىء شعرا »[٦٥] .

وفي رواية أخرى ترافق هذا الحديث مناسبة معينة ، قال « عن أبي سعيد الخدري قال بينما نحن نسير مع رسول الله (ﷺ) بالعرج اذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان لأن يمتلىء رجل قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا »[٦٦] .

هذا هو الأول . .

أما الثاني فقد انفرد به من اصحاب كتب الأصول الامام أحمد في مسنده قال « حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا هشيم ثنا أبو الجهيم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ﷺ) « امرؤ القيس صاحب لواء الى النار »[٦٧] .

ان الحديث الأول ورد في أصح كتب السنة ـ

---

(٦٣) تفسير ابن كثير ٥٧٨ وانظر التاريخ ٣/ ٢٩٢ ويلحن هذا ما رواه الترمذي من أن الرسول قال :

ان تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما الما

الترمذي : ٧/ ٧١ وهو بيت جاهلي ورد على لسانه (ﷺ) أنظر ابن كثير ٤/ ٢٥٦ .

(٦٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٩ .

(٦٥) صحيح البخاري . باب الادب ص ٤٥ . صحيح مسلم : كتاب الشعر ص ١٤ ابن ماجه ص ٣٦ ، ٧٢ ، ٣٧ . ورواية مسلم « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا يريه خير من أن يمتلىء شعرا » وله رواية أخرى « . . جوف أحدكم قيحا يريه . » ص ١٥

(٦٦) صحيح مسلم . شرح النووي باب الشعر ص ٥ والخبر نفسه في مسند الامام أحمد : ٣/ ٨/ ٣/ ٤١ مع خوله الرجل بدلا من رجل .

(٦٧) مسند الامام أحمد ٢/ ٢٢٨ .

البخاري ومسلم ـ بجانب سنن ابن ماجة ومسند أحمد مما يرفعه الى درجة عالية من الثبات . ولكن هذا لا يعني ان الأمر يتوقف عند هذا الحد ، فهذا يدعو الى النظر والتمحيص قبل التسليم بالأمر ، فعندما نتأمله في صورته الحالية نجد أن هناك ما يدعو الى التساؤل فنصه مطلق عام قد ينصرف الى الشعر عامة « شاعر ينشد » و « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا يربه خير من أن يمتلىء شعرا » .

وهذا النص المطلق الذي اذا أخذ على اطلاقه سيصادم ـ حتما ـ الاخبار والنصوص الكثيرة التي حشدناها والتي تناقضه ، لأنها تحترم بعض الشعر وتشجعه ونظر ، وهي قاطعة الثبوت أيضا ، وكثرتها تمنع من اسقاطها أو تقييدها بسهولة ، فالسؤال اذن يفرض نفسه هو : كيف كان الرسول ﷺ يشجع ويمتدح في مواقع متعددة ثم يأتي هنا لينفر ويمنع ، اذا لم يكن في نفس الشعر المسموع ما يدفعه الى مثل هذا القول ؟ وحاشا أن يكون الرسول متناقضا مع احكامه وأقواله وأفعاله السابقة .

اذن ، ما الأمر ؟ .

لننظر الى الحديث وما أحيط به من اخبار ، ومن حقنا أن نربط بينه ومناسبته ورفع هذه المناسبة الى القرينة الموجهة لمعناه . لقد قالوا انه عندما كان الرسول يسير مع صحبه عندما سمع شاعرا ينشد ، ومن المفترض أن الأمر بين حالات ثلاث : اما أنه قد سمع شيئا حسنا ولا يمكن أن نقول أو نقبل أن يكون تعليق الرسول ﷺ على كلام حسن بأن القيح خير منه وهو الذي قال : ان من الشعر لحكمة . وقد يكون سمع ما يكره ، أو قولا سيئا واضح السوء . ولأنه معلم يهدي من معه لا بد أن ينتهز كل فرصة للتعليم والهداية ، وحينئذ نستطيع القول أن هذا التعليق ليس على فن الشعر ولكن للسوء الذي فيه ، فليس من تجاوز الحد أن نقول ان المنهي عنه هو كل ما يمس الروح الاسلامية أيا كان مصدره . والاحتمال الثالث أن يكون القول متوسطا لا يحمل خيرا مباشرا أو شرا واضحا فليس هناك من سبب يدعو الى مثل هذا التعليق الحاد .

ونحن لا نقول هذا تقولا ـ وان ارتضاه العقل السليم ـ ولكننا أيضا نجد بين أيدينا ما يؤيد ما نذهب اليه مباشرة ، حيث نضع هذا الحديث في موضعه الطبيعي ويسهل فهمه على وجهه الصحيح .

روى الامام الطحاوي قال : « قيل لعائشة رضي الله عنها ان أبا هريرة يقول « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا ، خيرله من أن يمتلىء شعرا » فقالت عائشة رضي الله عنها : يرحم الله أبا هريرة ، حفظ اول الحديث ، ولم يحفظ آخره ان المشركين كانوا يهاجون الرسول ﷺ فقال : لأن يمتلىء شعرا ، من مهاجاة رسول الله ﷺ » .

هذا أول . .

أما الثاني « فقد « حدث علي بن عبد العزيز البغدادي عن أبي عبيده ، سمع يزيد عن القطامي عن الشعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يمتلىء أحدكم قيحا خيرا من أن يمتلىء شعرا « يعني من الشعر الذي هجي به النبي ﷺ » (٦٨)

اذن فلهذا الحديث وجهته التي ينصرف اليها بعيدا عن التعميم الذي وضع فيه ، وحينئذ يصبح لفن الشعر مكانته اللائقة داخل اطار المفهوم الاسلامي الخاص .

(٦٨) شرح معاني الآثار ج ٤ ص ٢٩٦ وانظر عمدة القاري ج ٢٢/ ١٧٩ .

وهذا حق من الحقوق ، فلكل دعوة أطرها التي تحرص عليها .

ومع ذلك نقول ان هناك من حاول توجيه هذا الحديث حتى ضمن الاطار الأول الذي وضع فيه ، فان أصحاب النظر ابدوا وجهة نظر بعيدة عن التوجيه الذي قدمه لنا تفسير السيدة عائشة للحديث ، فقد قال أبو عبيدة : « ان وجهه أن يمتلىء قلبه حتى يشغله عن القرآن اذكر الله ، فاذا كان لقرآن والعلم الغالب فليس جوف هذا عندنا ممتلئامن الشعر » (٦٩)
وانه لقول حسن !

●●●

ويبقى الحديث الآخر تعليق الرسول ﷺ بشأن امرىء القيس ـ وهذا يخضع لما يخضع له الحديث الأول من جهة أنه لا يمكن أن ينهض ليسقط كل الأخبار السابقة ولا بد أن في نفس التعرض ما يدعو الى هذا القول .

ولكننا ننبه كذلك الى قضية عقائدية ، والاجابة عليها تشمل أمرأ القيس وغيره . ان هذا الشاعر جاهلي ، لم يدرك الاسلام ، ومن ثم لم يبلغ بالدعوة ، فلا يختلف وضعه عن الجاهليين الذين ماتوا قبل الاسلام ، الذي لم يبزغ نوره بعد ، فهل هؤلاء يدمغون بنفس صفة الكفر ويلزمون بالاسلام مثلهم مثل الذين أدركوه أم أنهم يعاملون على أساس الديانات السابقة ؟ . أو أنهم يمثلون أجيالا ما بين دينين ؟ .

على كل لن نخاطر بالاجابة على أمر لا نملك علما فيه ، ولكن الذي نؤكده أن الحكم على امرىء القيس هنا ليس لكونه شاعرا ولكنه كانسان جاهلي يخضع لما يخضع له الجاهليون من أحكام ـ والله أعلم أين يضع خلقه .

أما هذا الحديث فان من حقنا أن نستعين بذوي العلم في شأن تخريجه ، ولنا كذلك أن نركن الى رجل يطمئن اليه المؤمن حين تتحقق عنده شروط البحث العلمي الدقيق في دراسة الحديث وتخليصه من الشوائب ، يقول الشيخ أحمد شاكر (٧٠) حين ذكر ابن قتيبة هذا الخبر !

« وقد ذكره النبي ﷺ فقال « وهو قائد الشعراء الى النار »وفي خبر آخر « معه لواء الشعراء الى النار »

« قال ابن الكلبي : أقبل قوم من اليمن يريدون النبي ﷺ ، فضلوا ووقعوا على غير ماء فمكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء ، فجعل الرجل منهم يستذري بفيء السمر والطلح ، فبينما هم كذلك أقبل راكب على بعير ، فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرىء القيس : لما رأت . . . البيتين » ، فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم ، وأشار لهم اليه ، فأتوه فاذا ماء غدق ، واذا عليه العرمض والظل يفيء عليه ، فشربوا منه وأرتووا ، حتى بلغوا النبي ﷺ فأخبروه ، وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس ، فقال النبي ﷺ : « ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار » .

وقد علق الشيخ على هذا الحديث قائلا : ـ هذه القصة نقلهاخا المؤلف أيضا في عيون الأخبار ١ :

(٦٩) سنن أبي داود : ٥/ ٧٦ .

(٧٠) لنا ان نطمئن الى هذا الشيخ الجليل ، فما من رجل استطاع ان يخدم السنة كما خدمها في اخراجه لمسند الامام احمد رحمه الله وجزاه خيراً .

١٤٣ : ١٤٤ عن ابن الكلبي ورواها صاحب الاغاني ٧ : ١٢٣ في قصة أخرى باسناده عن عبد الله بن جعفر ، ونقلها ياقوت في البلدان : ٤٢١ - ٤٢٢ ثم قال « هذا من أشهر الأخبار » . وهي مشهورة عند الأخباريين والأدباء ولكنها غير معروفة عند المحدثين ، وهم الحجة فيما ينسب الى رسول الله ﷺ من الأخبار ، فاني لم أجد أحدا منهم رواها أو أشار اليها . الا حديث « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر الى النار » فقد رواه أحمد في المسند ٢ : ٢٢٨ من حديث أبي هريرة مرفوعا الى النبي ﷺ ، وهو حديث ضعيف جدا ، ذكره ابن كثير في التاريخ٢ : ٢١٨ عن المسند وقال : « هذا منقطع ، وورد من وجه آخررر عن أبي هريرة . ولا يصح من غير هذا الوجه » . ورواه أيضا البزار ، كما في مجمع الزوائد ٨ : ١١٩ وجمع الفوائد٢ : ١٦٨ واسناده عند أحمد » ثنا هشيم ثنا أبو الجهم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة « وأبو الجهيم هذا يذكر في بعض كتب الرجال باسم « أبو الجهم الايادي » وهو مجهول ، وضعفه أبو زرعة الرازي وقال ابن عدي : « شيخ مجهول لايعرف له اسم ، وخبره منكر ، ولا أعرف غيره « وقال ابن عبد البر « لايصح حديثه » . وفيه علة أخرى أنه موقوف على أبي هريرة ، فقد رواه البخاري في كتاب الكنى المطبوع في حيدر آباد ١٣٦٠ ص ٢٠ برقم ١٥٤ قال : « أبو الجهم الأيادي ، قال مسدد : نا هشيم قال : نا شيخ يكنى أبا الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : صاحب لواء الشعراء الى النار امرؤ القيس ، لأنه أول من أحكم الشعر ، « وفي مجمع الزوائد ١ : ١١٩ » عن عفيف الكندي قال : بينا نحن عند النبي ، ﷺ اذ أقبل وفد من اليمن فذكروا امرء القيس بن حجر الكندي ، وذكروا بيتين من شعره فيهما ذكر ضارج - ماء من مياه العرب - فقال رسول الله ﷺ : ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء يقودهم الى النار . رواه الطبراني في الكبير من طريق سعد بن فروة بن عفيف عن أبيه عن جده . ولم أر من ترجمهم » . وانظر تعجيل المنفعة ٤٧٢ - ٤٧٣ ولسان الميزان ٣ : ١٨١ و٦ : ٣٥٩ و والكنى والأسماء للدولابي ١ : ١٣٧ والمناوي على الجامع الصغير ٢ : ١٧٦ رقم ١٦٢٤ و١٦٢٥ .ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٩ : ٣٧ باسناده عن أبي هفان المهزمي عبد الله ابن أحمد بن حرب الشاعر عن الأصمعي عن ابن عون عن محمد - يعني ابن سيرين - عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « امرؤ القيس قائد الشعراء الى النار » وهو خبر باطل ، كما قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٣ : ٢٤٩ - ٢٥٠ و ٦ : ٤٤٩ . [٧١]

ان هذا التخريج يفي بغرض الباحث عن الحقيقة ، ففيه توضيح لما نريد على أساس من علم الحديث وتمييزه ونقد رجاله .

ثانيا : ضعف الشعر

كان حديثنا السابق عن العلاقة بين الشعر والاسلام ، وفي عرض هذه العلاقة كانت محاولة لتبيين رأي القرآن والرسول ﷺ في الشعر . وهذا الرأي على جلاله وخطورته لا يمنع من أن نضع السؤال الثاني أمامنا متسائلين : هل حافظ الشعر على مستواه أم دب فيه الضعف بعد أن ظهر الاسلام ؟ !

من الواضح أن الآراء التي عرضنا طرفا منها فيما سبق

(٧١) الشعر والشعراء ١/ ١٢٦ - ١٢٧ .

قد وضحت المحورين الاساسيين اللذين دارت حولهما القضية : ـ

فرأى يقول : ان الاسلام أضعف الشعر ، وهو يرى أن الشعر الجاهلي قد بلغ قمته قبيل الاسلام ثم دب فيه الضعف ليعود بعد ذلك في عصر بني أمية الى سالف عهده . . .

ورأى آخر يقول : ان الشعر لم يضعف لان الاسلام وقف بجانبه ، وقد روى شعر كثير يؤكد هذا النمو في الشعر . . .

ان كلا الرأيين يربطان بين الشعر والاسلام ، متناسيين حقيقة الشعر ذاته ودون تحقيق لما هو موجود فعلا من نصوص ، وقد تجاهلا أيضا النظر الى نوعية الترابط ، متناسين أو واضعين جانبا طبيعة الدين من جهة وطبيعة الفن ومراحله وتمايز هذه المراحل .

علينا أولا ، اذا أردنا أن ندخل للموضوع دخولا علميا سليما ، أن نحدد الأرضية التي يدور حولها الجدل لنعرف موقع اقدامنا على بساط الزمن المقصود ، ونتلمس حقيقة هذه الآراء لنرى صدق المقولة على صعيد الواقع الحقيقي لا المفترض ، فان تحديد هذه المرحلة هو الذي يحصر النقاش في محيطه الطبيعي .

هناك اتفاق لا يتسلل اليه الشك على أن العصر الجاهلي يمثل أحد المراحل العالية القيمة في الادب العربي ، ويزداد التركيز على المرحلة القريبة والمتداخلة مع أول العصر الاسلامي ، ويعتبرونها هي ذروة ذلك العصر حيث اجتمع في زمن متقارب أعظم شعراء العصر فيما بين ٥٣٠ م الى ٦٢٠ م تقريبا عاش كل من امرىء القيس ، زهير ، والنابغة ، الاعشى ، (وهؤلاء هم طبقة ابن سلام الأولى) ، وضع بجانبهم أوس بن حجر ، طرفة بن العبد ، لبيد العامري وأسماء أخرى كثيرة معروفة ، وبعض هؤلاء شهد أول هذه المرحلة وآخرها ، بل عاش بعضهم زمنا يطول ويقصر في الاسلام ، فهذا لبيد قد عاش حتى عهد معاوية ، ويلحق به أيضا شعراء آخرون ، ولكن من الواضح أن الأعشى هو آخر هؤلاء الاعلام ، وانه يمثل استمرار هذه الذروة حتى وفاته سنة ٧ هـ .

نحن ـ اذن ـ أمام عصر فني ممتد حتى هذا التاريخ المحدد ، فوفاة الأعشى ثابتة معروفة وقد ظل يقول الشعر الجيد المنسجم في قيمه ونظامه ومنظوره مع العصر الجاهلي .

وهناك مرحلة أخرى يعتبرها الدارسون ومؤرخو الأدب القمة الثانية بعد العصر الجاهلي وانها مساوية له أو أعادت الشعر الى رونقه وهي المرحلة التي اصطلح على تسميتها بالعصر الأموي ، وهذا العصر ـ من منظور سياسي ـ يبتدىء بسنة ٤٠ هـ .

ولا يختلف الأمر عند النظر الفني ، فان الاخطل ـ أو الثلاثة العظام في هذا العصر ـ قد ولد سنة ٢٠ هـ . وفي السنة نفسها ولد الفرزدق [٧٢] ، فهما ـ اذن ـ بدأ يقولان الشعر حول هذه الفترة فأعادا ـ حسب الزعم السائد ـ للشعر رونقه وقوته .

يؤكد هذا تلك الحكاية المشهورة مع الامام على حينما أتى به والده اليه « فقال الامام : من هذا معك . قال : ابني ، وهو شاعر فقال له : « علمه القرآن ، فانه خير من الشعر » وقد كان الفرزدق يقول : « كنت أجيد الهجاء في أيام عثمان » . وهذه الاخبار تسبق تلك الفترة المحددة بسنوات خمس على الأقل .

---

(٧٢) الفرزدق . شاكر الفحام . ص ٢٢ ، وانظر الأغاني ج ٢١ ص ٢٨٣ .

ونضيف الى هذا أنه قد سبق هذين ابن قيس الرقيات . ولد سنة ١٢ هـ ولحقهما كل من عمر بن ربيعة سنة ٢٤ هـ وجرير سنة ٣٠ هـ ، وبجانب هؤلاء حشد كبير لا يخطيء الدارس عددهم اذا أراد فالعصر الجديد بدأ في هذا العام ـ سنة ٤٠ هـ ـ قريبا محييا الشعر من جديد ، هكذا قالوا ، وهذا حق ولكنه لا ينفي أن هناك حقا آخر . .

أمامنا الآن تاريخان : الأول ٧ هـ
الثاني ٤٠ هـ .

وبينهما ثلاثون عاما هي السنوات العجاف في تاريخ الشعر العربي ، حيث افتقرت الى الشعر الكثير والجيد وخلت من الشعراء الكبار ، فضعف الشعر وتأخر مما استدعى مثل هذا الجدل الكثير حول هذه القضية . من حقنا ـ أولا ـ ان نختصر الفترة الزمنية الى ما دون هذه المدة . فمن المفترض أن الشاعر الجاهلي لم يتوقف عن قول الشعر بمجرد أن برزت الدعوة الاسلامية ، فمن لم ينضو تحت لواء الاسلام استمر على سجيته في قول الشعر تبعا للتقاليد الفنية الي اعتادها وألفها فليس ثمة سبب شخصي أو فني يدعوه الى التغيير . وهذا ما نلمسه في القصائد التي قيلت في الرسول ﷺ ـ قصيدة الأعشى مثلا ـ أو بين يديه مثل قصيدة كعب بن زهير . واذا كان المستوى العام اقل من أن يصل في مجموع شعر الشاعر الى سوية ذلك الشعر السابق فهذا خاضع لمؤثرات كثيرة لا لسبب معين ، واذا كانت قصيدة الأعشى جيدة فلأن شاعرها كبير ، أما اذا كانت أقل من مستواه العام فقد تكون الأسباب كثيرة ، واذا كان ثمة سبب فليس هو الاسلام حتما . وليس هناك من يشك في تميز قصيدة كعب بن زهير .

وهناك شعراء جاهليون آخرون استمروا ينظمون الشعر على سجيتهم وطريقتهم الى ما بعد استقرار الاسلام واستمرار دعوته . وهذا واضح عندما يستعرض المرء اسماء الشعراء الجاهليين الذين امتد بهم العصر بعده بقليل أو كثير . .

ومن جهة أخرى فان شعراء العصر الأموي العظام لم ينتظروا حتى سنة ٤٠ هـ فكثير منهم أثرى المرحلة الأخيرة من هذه الفترة المعينة فليس من المعقول أن شاعرا مثل ابن قيس الرقيات والذي ولد سنة ١٢ هـ ينتظر حتى يبلغ الثامنة والعشرين ليقول الشعر ، وكذلك آخرون .

ان اهمال هؤلاء وأولئك انما هو اهمال متعسف بمعنى أن هذه الفترة الزمنية قد اختصرت من جهتين !! . .

وهناك تنبيه آخر واجب ذكره ، فنقول انه ليس هناك في تاريخ الشعر من خط مستو يحافظ فيه الشعر دائماً على سوية واحدة من النضج ، ففي كل الآداب العالمية تسير الخطوط متعرجة بعضها يحظى بشاعر كبير أو أكثر فيرتفع مع هؤلاء من حولهم ، فاذا العصر كله على قمة سامقة تقاس بها العصور . هذه هي الأزمان التي توفر فيها العظام : أمروء القيس وصحبه واسخيلوس ويوربيدس وسوفوكليس . او تبرز شخصية فذة مثل المتنبي وشكسبير ، حينئذ يرتفع هذا العصر الى المستوى الذي يصعب على الفترات الأخرى ان تصل اليه مهما كان فيها من نضج فني أو شعر متميز . وعندما ننظر ونقارن نجد أن هذه التغيرات الطبيعية سائدة في كل عصر .

والا فهل نستطيع القول ان الفترة الناضجة الممتدة من بداية العصر العباسي وحتى زمن المعري أي طوال ثلاثمائة عام ، هذه الفترة الناضجة ـ هل خلت من فترات أطول من هذه الفترة التي نتحدث عنه ، فتأخر الشعر عن مستواه السابق واللاحق ؟ . (٧٣) .

---

(٧٣) أفدنا بصورة رئيسية في هذا الترتيب على كتاب تاريخ الأدب العربي : لعمر فروخ والسنة الموضوعة تعني الوفاة .

فمن المقبول ـ اذن ـ بل من الطبيعي ان تتفاوت الدفقات الفنية بين العصور تبعاً لظروف كثيرة ، وأحياناً تكون متكررة . ومن ثم فلا يمثل هذا اي اخلال في مسيرة الفن وتطوره ، ولا يعني هذا اننا نتلمس اعذار اولية ومشروعة للقول او التسليم التام بضعف الشعر وتأخره فنحن لا نزال نبحث عن منبع تلك الصورة القائمة التي اشاعها باحثون كثيرون وسنرى ان كانت حقاً أم أن للقضية وجهاً آخر جديراً بالنظر .

بعد ان اختزلنا هذه السنوات الى حدها المعقول ووضعناها في إطارها الخاص في خط سير التطور الفني لنا الآن أن ننظر فيها من الداخل لنرى ان كانت فترة صدر الاسلام خلت حقاً من الأسماء الجديرة بالاعتبار أو أن النشاط الشعري تضاءل دون الحد المقبول بالنسبة للعصور الفنية الأخرى .

لا نستطيع القول أننا سنقوم بدراسة فنية مستقصية مقارنة كي نزيل اللبس والابهام ، فهذا أمر يفوق طاقة الفرد ، فحسبنا أن ننظر محتكمين الى ما رسخ في الأذهان عن بعض شعر هذه الفترة والمكانة التي حظوا بها منفردين دون عصرهم . وسنكتفي بلفت النظر الى مثل هذه الأسماء التي كانت تحمل على عاتقها اثراء تلك الفترة وهذه بعضها .

عبد الله بن أبي رواحة سنة ٨ هـ ـ عبد الله بن الزبعري سنة ١٥ هـ ـ أبو خراش الهذلي في خلافة عمر ـ العباس بن مرداس سنة ١٨ هـ ـ الأغلب العجلي سنة ٢١ هـ ـ عمر بن معدي كرب سنة ٢١ هـ ـ زيد الخليل ـ كعب بن زهيرت سنة ٢٦ هـ ـ حميد بن ثور ـ ادرك خلافة عثمان ـ المخبل السعدي ت أيام عثمان ـ أبو ذؤيب سنة ٢٨ هـ ـ أبو محجن سنة ٢٨ هـ ـ أبو زبيد الطائي سنة ٣٠ هـ ـ عروة بن حزام سنة ٣٠ هـ ـ متمم بن نويرة سنة ٣٠ هـ ـ الشماخ بين ٣٠ و ٣٢ هـ ـ سحيم عبد بني الحساس قتل أيام عثمان على الأغلب ـ الخنساء قبل سنة ٢٤/٤٢ ـ كعب بن مالك الأنصاري ـ حسان بن ثابت ٦٠ هـ ـ الحطيئة سنة ٥٩ هـ ـ سويد بن أبي كاهل سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ ـ النابغة الجعدي سنة ٦٥ هـ ـ وهناك اسماء أخرى اهملناها .

الثابت ان هؤلاء كانوا في قمة نشاطهم الفني في هذه الفترة التي نتحدث عنها ـ اذن فهي حافلة بشعر كثير ، ولا شك في هذا ، فهي مع قصرها تطاول أخصب فترات الأدب الأخرى .

ومع ذلك ، فالكثرة لا تعني الجودة ، وهذا حق ، فاذا سلمنا اولاً ان هناك شعراً كثيراً فنكون قد اجتزنا عقبة الندرة فقط ، وهذا امر حسن ويبقى بعد ذلك النظر في الجودة . وقد أكدت في تنبيهي السابق ان بروز القمم العالية مجد لا يظفر به الا في لحظات قليلة من الزمن ولا نريد ان نناقش فلتات الدهر . ولكننا نقيس النظير بما يشابهه فنحن ليس لدينا الا متنبي واحد مثلا ، وهل جادت عصورنا المتعاقبة بغير معري واحد . ان هؤلاء العظام هم وحدهم الذين اعطوا عصورهم نورا استضاء به شعراء اجيالهم ، ونعتقد ان المتنبي لم يقض على من حوله كما كان يقال ولكنه هو الذي وهبهم فرصة الظهور الحقيقية . .

وعندما نعود الى هذه المرحلة التي نتحدث عنها فسنجدها تحوي اكثر من شاعر متميز وخالد لم يشك احد في نباهة شعره ، ولنختر من القائمة السابقة بعض الاسماء لنرى . اننا نلتقي بكل من : كعب بن زهير الحطيئة والخنساء وحسان والنابغة الجعدي والشماخ وعروة بن حزام ومتمم بن نويرة وابو ذؤيب . وهؤلاء يمثلون مستويات عالية في كل تاريخ الادب العربي ، ولا يرتفع الى مكانتهم شعراء كثيرون ينتمون الى فترات عالية النضج . واذا اضفنا اليهم شعراء الفترتين السابقة واللاحقة نجد ان المرحلة نهضت بشعرائها وبآخرين ايضا . .

وعندما نحتكم الى دارس متميز مثل ابن سلام في طبقاته التي استخلص فيها الفحول محتكما الى علمه وذوقه وما اجمع عليه الدارسون نجده قد وضع هؤلاء في المقدمة ، فقد جاء كل من كعب والحطيئة في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية . وجعل متمم بن نويرة اول طبقة اصحاب المراثي وثناه بالخنساء . وجعل حسان بن ثابت اول شعراء القرى والنابغة الجعدي اول رجال الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية ، وفي الطبقة نفسها الشماخ بن ضرار .

ولا تختلف النظرة عن غير ابن سلام من الباحثين وهي نفسها عند العصور المتلاحقة فهؤلاء لا تزال قصائدهم تمثل النماذج التي يعتد بها مهما اختلفت الاتجاهات والمذاهب .

لنا اذن ان نطمئن اى حقيقتين :

الأولى : ان تلك المرحلة لم تخلو من شعر كثير .

الثانية : ان بعض شعراء هذه المرحلة يقفون في مقدمة شعراء العربية على مر العصور .

فهل من حقنا ـ بعد ذلك ـ القول انها مرحلة ناضبة ضعف فيها الشعر ؟!

●●●

ويبقى بعد ذلك وجه آخر للقضية تمثله اقوال متناثرة تشير ، ليس الى ضعف الشعر في هذه المرحلة ، ولكنها تقارن بين مرحلتين في شعر الشاعر ، ويكون الدين طرفا فيه ، وهنا تلاقينا كلمة الاصمعي المشهورة حينما علق على شعر حسان بن ثابت قال « وطريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لأن ، الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي رسول الله ﷺ وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما ، لان شعره ، وطريق الشعر هي طريق الفحول ، مثل امريء القيس وزهير والنابغة ، من صفات الديار والرحل ، والهجاء والمديح ، والتشبيب بالنساء ، وصفه الحمر والخيل والافتخار فاذا ادخلته في باب الخير لان »[٧٤] .

لا نريد أن نقلل من أهمية هذا الرأي أو نعارضه ، انما الرغبة قد تدفعنا الى فهم الاسباب الموضوعية والفنية التي تكمن وراءه ، مع اننا لا نسلم تسليما تاما بهذه المقولة بالنسبة لحسان بن ثابت على وجه الخصوص ، وقد تكون صحيحة بالنسبة لاخرين ، اما حسان فقد ظلم فيها ، فلم يكن شعره في هذه المرحلة بالسوء الذي يصور به ، فله اكثر من قصيدة جيدة تشي بشاعريته ومقدرته المستمرة . واذا كان هناك خلل فمرده يعود الى هذا الطريق الجديد الذي راح يروده وحيدا يصنع فيه تقاليد جديدة نامية .

ونص الاصمعي نفسه يوضح توضيحا مباشرا هذا الضعف الذي لمسه ، حينما استشهد باللين البادي في رثائه للرسول وحمزه وجعفر وغيرهم ، وان الطريق هو طريق الفحول من أمثال امريء القيس وزهير والنابغة ، في وصفهم للديار والرحل والتشبيب بالنساء وصفات الخمر الخ . فهذه المقارنة فيها كشف للامر كله . فمن المؤكد ان حسانا كان شاعرا كبيرا يحسن القول في فن المدح والرثاء ، فقد كان يكتب كما كانوا يكتبون ويجود كما لاحظنا في كثير من قصائده التي قالها في الجاهلية ، اليس هو صاحب القصيدة البتاتة او البتاره التي بترت القصائد . فعندما سمع عمرو بن الحارث قصيدته اللامية :ـ

لله در عصابة نادمتها يوما بجلق في الزمان الاول

---

(٧٤) الموشح ص٩٠ ، وص ٨٥ .

فقال :ـ « هذا وابيك الشعر لا ما يعللاني به منذ اليوم ، هذه والله البتاتة التي قد بترت المدائح [٧٥] » .

هل تغيرت مقدرته ام ان هناك اسبابا تحتاج الى تفسير او انها توضح لنا هذا اللين الذي اشار اليه الاصمعي ؟ .

قبل الاجابة على هذا السؤال لا بد من وقفة يفرضها الواجب امام هذا الحكم الخطير الذي طرحه الاصمعي ، فليس من المقبول القول بتعارض الفن مع الخير ، فهذا حط من قيمة الابداع الفني وهو حكم يفتقر الى الدقة حينما يخرج من التخصيص المقبول الى التعميم ، وهو ، في الوقت نفسه ، يفسح المجال للنقيض : الشر . ولا نريد ان نستطرد وراء الحديث عن الفن ودوره الخلقي والاجتماعي الطليعي . بل اننا نرد الاصمعي الى نفسه حين نسأله عن دوره المتميز في حمل الشعر وروروايته واذاعته ، الم يلمس ذلك الجانب الداعي للخير الذي حمله بعض شعراء الجاهلية مثل زهير بن ابي سلمى بل ونسأله عن وضعه لاصمعياته هل هيء حامله للشر ، الذي لا نشك فيه ان فيها خيرا كثيرا . وهو اقدر من غيره على تبينه .

ان دور الشعر المتميز يعني انه يحمل في كثير من الاحوال خيرا كثيرا وان هذه قضية بديهية مناقشتها لا تخلو من فائدة التذكير وان اضاعت الوقت .

ان تفسير هذا اللين لا يأتي من هذا الحكم المتسرع ولكنه يحتاج الى النظر الدقيق الى مثل هذه الامور ، والذي نعتقده ان سببه طبيعة التناول نفسها والجهة التي تنبع منها قيم المدح ، فاذا كان للجاهلي في بعض معتقداته . . انصر اخاك ظالما أو مظلوما » أو :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

فان القيمة الاسلامية الجديدة ان تنصر اخاك المظلوم وان يكون نصرك لاخيك الظالم هو كفك ليديه عن الظلم .

هناك ـ اذن ـ تفاوت واضح بين منظورين ، تختلف فيهما مواطن المدح والفخر ، فما يفخر به الجاهلي قد لا يعتبره المسلم مدحا والعكس صحيح ايضا ، لذلك كان شعر حسان في بعض مواضعه شديدا على الكفار لان فيه بقايا من قيم الجاهلية ونظام القصيدة في مدحها وهجائها ، مع حذر واضح . بينما كان شعر عبد الله بن رواحة مثلا لا قيمة له ولا تأثير له على الجاهلي ما دام خارج الاسلام فاذا اسلم انقلبت الصورة .

وهذا الاحساس بتفاوت المنظورين والتنازع الباقي سنلتقي به كثيرا في العصر الاموي حينما كان ينزع ويرغب الممدوحين الى ان يمدحوا بالقيم الجديدة بينما كان بعض الشعراء يخضعون للموروث الفني المتبقى في قصيدة المدح .

اذن نحن امام طريقتين ، اولاهما قديمة ثابتة راسخة بتقاليدها وقد مثلت الطريق الممهد الذي يسلكه السالك وهو آمن مجود . والأخرى جديدة تحاول ان تجد سبيلها وترسخ قيمها وتطوع فنها ، ومن طبائع الامور أن يكون القديم الثابت أكثر رسوخا ، ومن يتبعه مجودا فليس كل الفضل يعود اليه ، فبعضه يرد الى تلك الارضية الممهدة اما الاخر فمهما كانت قدرته وامكاناته فوعورة الطريق وجدته تحد حتما من انطلاقة .

فليس الامر مرده ان شاعرية حسان ناضبة أو لينه ولكن طريقه الجديد هو السبب المباشر . فان انتقال الشاعر بين مرحلتين وطريقين يمثل تغيرا نوعيا في فنه وامامه صعاب كثيرة تحتاج الى تذليل . ولعل هذه النقطة هي الاساس الذي يجب أن نعتمده في تقييمنا الفني وهو

(٧٥) الاغاني : ١٥/١٢٣

الذي يدفعنا الى تحديد الزاوية التي يجب أن ننظر من خلالها الى هذه المرحلة .

●●●

والان ، كيف ننظر إلى هذه المرحلة الزمنية لتمييزها عما عداها ولرد كل قول الى النقطة التي يعنيها بالضبط لا ان ندمغ العصر كله بها ، ليس القصد هو تسفيه تلك الاراء التي لم تأت من فراغ ، فهناك اصل لها يجب الا ننكره ، ورغبتنا في الوصول الى تفسير معقول للحركة الشعرية في ذلك العصر تسبق اي اعتبار آخر مهما يكن .
واذا كانت الاراء الايجابية صادقة لانها ركزت على الجوانب المضيئة فان الاراء السلبية اختطفها ما رأت من ضعف فعممت القول .

ان ما ذكرنا من تفسير لتفاوت شعر حسان وصلابة شعر غيره يشير الى اول مراحل الطريق ، فعلينا الآن ان نحدد الزاوية التي ننظر من خلالها ، والتي يجب ان تكون زاوية فنية تحترم اساسيات الفن دون الخضوع لاى اعتبار آخر . . ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقيم الحركة الفنية على ضوء سيرها هي ، دون النظر الى عناصر خارجية نستطيع ان نقول ان الحركة الشعرية في صدر الاسلام تنقسم الى تيارين .

التيار الاول :

هو امتداد للشعر الجاهلي يمثله في الدرجة الاولى الحطيئة وكعب بن زهير وامثالها الذين يمثلون الامتداد الطبيعي والنامي للشعر الجاهلي ، وهذا التيار ظل محافظا على قوته الفنية مكملا لمسيرة سابقة وقد كان تأثيره بالاسلام تأثرا خفيفا برز هذا في بعض قصائد شعراء هذه الفترة وان كانت تقاليده الفنية ظلت كما هي تنتظر الظروف الحياتية التي سيوفرها عصر بني أمية بما فيه من صراع وتنافس وعودة العصبية الى سالف عهدها ، خاصة وان العرب قد دخلوا في تنافس مع شعوب أخرى وسيظهر هذا فيما بعد حين تمكن الحياة العباسية هؤلاء من التحرك . .

ان النظرة الطبيعية لشعر هؤلاء الشعراء الذين يمثلون هذا التيار الفني القديم يجعلنا نطمئن الى انهم خير ممثلين للفترة المتصلة من قبيل ظهور الاسلام حتى بروز شعراء بني أميه العظام . ونحن نستطيع أن ندخل ضمن هذا التيار اكثر شعراء هذه الفترة وخاصة اولئك الذين عاشوا الفترتين ممن يطلق عليه بالمخضرمين ، و حين نفحص شعر هؤلاء لن نجده يختلف عن شعر الجاهلية ، بل ان فيه تأكيدا للشعر الجاهلية نفسه ولتقاليده الفنية والاخلاقيات التي جبلوا عليها واعتادوها ، وهذا الموقف من هؤلاء قد عرضهم لكثير من الصعاب بل ان حياة اكثرهم تتمثل فيها محنة الشعراء في فترة صدر الاسلام .

وعندما نتأمل ـ على سبيل المثال ـ رثاء متمم بن نويرة نجده يستوحي القيم الجاهلية التي كان يفخر بها الجاهليون ، وهي قيم انسانية مقبولة اسلاميا ايضا فهذا الاخ تمثلت فيه تلك القيم ، يقول :

فتى كان مخذاما الى الروع ركضه
سريعا الى الداعي اذا هو فزعا
وما كان وقافا اذا الخيل احجمت
ولا طائشا عند اللقاء مروعا

وهذا الحطيئة اخباره معروفة مع عمر ، وكذلك حياة ابي محجن الذي ظل عاشقا للخمر حتى انه قال تلك الابيات المشهورة :ـ

اذا مت فادفني الى جنب كرمة
تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة ، فانني
اخاف اذا مامت ان لا اذوقها

وفي هـذه الابيات وغيـرها رد عـلى اولئـك الـذين يعتقدون ان الاسلام حينها دخل قلوب الشعراء غير كل احوالهم فالشعـراء كغيرهم ، منهم من قـوى اسلامـه ومنهم من عاش على هامش الدعوة . فلم يخضع لذلك القول الشهير الذي يروونه معللين ضعف الشعر ، ان هؤلاء الشعراء لم ينسوا بعد الاغراض الشعرية المعروفة ايام الجاهلية ، وساروا على الطريق نفسها مع مراعاة التـطور الفني العام . ومـا اكثر الامثلة الشعـرية التي تحافظ على ذلك النهج شكلا وموضوعا .

وهذه النقطة الاخيرة تحتاج الى وقفة توضيـح لا بد منه ، فعندما نشير الى ارتباط شعر هذه الفترة بسابقة يجب الا نلغي التـطور والتفاعـل الطبيعي والمقبـول ، فتطور الشعر لم يتوقف ، فمن الظلم والسذاجة ايضا ، ان نقبل القول القائل ان الشعر الاموي صورة للشعر الجاهلي أو أنه احياء له ، فالاحياء عودة الى أصل ، اما الشعر الاموي فنرى فيه امتدادا مستمرا لحركة فنية او تيار لم يتـوقف يضيق مجراه أو يتسـع وقد ينفجـر في بعض مواقعه ولكنه يستمر ناميا متدافعا ، لذلك نقبل ان نقول ان الشعر الاموي عند كثير من شعرائه يمثـل استمرار تلك المدرسة الجاهلية .

ولكننا نضع هنا تنبيها مهما وهو أن هذا الشعر تفاعل مع هذا الوسط فكان لا بد ان يأخذ ويعطي يطور ويجدد ويغير يؤثر ويتأثر ، والا فمن يقبل ان الشاعر الانسان الاموي الذي احاطت به حركة اسلامية باهرة وتغيرت ظروفه القبلية وامتد من تحته بساط الحكم حتى بلغ قمة تسكن في افئدة الحالمين ، هذا الانسان الفنان ، حتى لو خضع ، او تمسك واستـطاب نضج الـدفقة الشعـرية الجاهلية ، فاننا لا نملك نزعة من التأثر المشروع الذي يفرضه عليه التفاعل بل يدعوه الوسط الذي يعيش فيه الى ان يستجيب له . ان الذين قارنوا محقين ولا شك - بين امريء القيس والفرزدق وبين الاعشى والاخـطل وزهير وجرير ، ان هؤلاء لو نظروا بعمق الى شعر كلا الشـاعرين سيجـدون حتما تلك التغيـرات الحادثـة ، فالفرزدق مثلا قد لا يكون ذلك المسلم الحق ، ولكنه ايضا ابن الثقافة الاسلامية والقيم الجديدة وربيب هذه البيئة ، وهو يستند الى تغيرات فنيه استجابت لواقعها الجديد ، فعندما استوحى العصبية الجاهلية وقف عند حدود الروح العامة فالذي يقول :

ان الـذي سـمـك الـسـماء بـنى لـنـا
بـيـتـا دعـائـمـه اعـز واطـول

لا نحتاج كثير جهد لتحديد ثقافة قائل هذا البيت ، واذا كان هذا قول عام فماذا نقول في قوله :

ضـربـت عليـك الـعنكبـوت بـنسـجـهـا
وقـضـى عـليـك بـه الـكـتـاب المنـزل

وعنـدما نصـل الى دقائق الاشـارات سنجد الكثيـر ، فعندما قارن القدماء بين تصوير النابغة لسطوة النعمان في قوله :

فـانـك كـالـلـيـل الـذي هـو مـدركـي
وان خـلـت ان المـنـتـأي عـنـك واسـع

وقول الفرزدق في تصوير موقف مشابه حين يصور سطوة الحجاج وبسطة يده حتى لا يفوته شيء (٧٦) .

وان لـو ركـبـت الـريـح ثـم طـلبـتـني
لـكـنـت كـشـيء ادركـتـه مـقـادره

كلا الشاعرين بالغ وتجاوز الحد ، ولكن صاحب النظر الدقيق يعرف ان ثقافة الشاعر الثاني تختلف عنها عند الاول ، وهذا واضح من قوله ركبت الريح .

وقوله » ادركته مقادره .

(٧٦) الفرزدق : شاكر الفحام ص ٤٩٢

لا نريد الاستطراد ، فالاتجاه الفني العام يفرض نفسه ، فهاهم متلقو الشعر يلقون بظلال ثقافتهم على الحركة الشعرية ، فعندما جذبت النزعة الذوقية القديمة عبد الملك بن مروان الى ان يعجب بقول كثير عن الخلافة : -

فما تركوها عنوة من مودة
ولكن بحد المشرفي استقالها

هنا ينبري الاخطل - ولم يكن مسلما - معلقا لقد قلت فيك

اهلوا من الشهر الحرام فاصبحوا
موالي ملك لاطريف ولا غصب

جعلته حقا وجعله غصبا (٧٧) .

بل ان عبد الملك نفسه في موقف آخر ينتبه الى هذه الروح الجديدة فيقول للشعراء الذين اجتمعوا عنده « تشبهوننا بالاسد والاسد ابخر ، وبالبحر والبحر اجاج ، وبالجبل مرة والجبل اوعر ، الاقلتم كما قال ايمن بن خزيم ابن فاتك لبني هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم
وليلكم صلاة واقتراء
أأجعلكم واقوام سواء
وبينكم وبينهم هواء
وهم ارض لا رجلكم وانتم
لاعينهم وأرؤسهم سماء

وهناك امثلة لا حصر لها تدور حول هذا المحور .

وهذا التداخل بين القديم الراسخ والجديد المكتسب يصلنا الى التيار الثاني ، وهو هذا التيار الوليد هو الذي بدأ هذه الحركة الجديدة واراد ان يتستهدي قيمها كاملة ويتمثلها سائرا في ركابها ، وهذه الحركة مزيج من اناس حسن اسلامهم فارادوا ان يبتعدوا عن ذلك التيار الذي الفوه ، ويشقون طريقا جديدا دون التخلي عن الاطار الفني العام وهناك آخرون سيتأخر ظهورهم قليلا ولكنهم سيمثلون اتجاها جديدا كل الجدة . . اهم من يمثل هذا التيار اولئك الشعراء الاسلاميون الذي يقف على رأسهم حسان بن ثابت ومعه من امثال النابغة الجعدى وعبد الله بن أبي رواحة وآخرون يضرب فيهم المثل على ضعف الشعر .

من طبيعة الامور ان يكون هذا التيار اقل بكثير من الشعر الجاهلي أو امتداده الذي يسير على هديه ، لقد حاول هؤلاء ان يربطوا بين التقاليد الفنية والاسس الدينية ، فهم قد تأقلموا مع الدين الاسلامي وحاولوا ان يعبروا عن اخلاقياته المثالية ، خاصة وحولهم رسول عظيم يحثهم على كل مكرمة ، فهذا التحول الاخلاقي جعلهم يبعدون عن العامل الفني في التطور ، لذلك نجد ان كلما اقترب الشاعر من مثاليات الاسلام بعد عن النضج الفني وعبد الله بن رواحة خير مثال على ما نقول فهو قد كان تقيا صالحا ، شعره كله يمتاز بالافكار الاسلامية الدقيقة ، فضعف ولان حتى ان الرسول كان يقول له : « انت شاعر كريم » . . كما ان شعره كان خفيفا على الكفار ولكنهم عندما يؤمنون يشتد شعره عليهم لانه كان يتحدث من وجهة النظر الاسلامية ، عكس حسان الذي كان شعره يقترب من طريقهم في الهجاء .

ان هذا التيار الجديد الذي بدأ على يد هؤلاء الشعراء الرواد كان يحتاج الى فرصته للظهور وكان الطريق امامه عسيرا فان الاسلام قد قضى على الجاهليه ولكن تقاليد الشعر الجاهلي ظلت مستمرة - وكان لا بد ان يسود التيار الاول بما كان يملك من مقومات فنيه راقية وقد ساعدت

(٧٧) المصون في الادب : ص ٦٢ ، ٦٣

ظروف العصر الاموي وما واكبه من صراع على الاستفادة من هذا النوع من الشعر فمزج بين المنظورين : الجاهلي بتكويناته القبلية وعلاقاته المتشابكة . والمنظور الديني الاسلامي . ولكن حتى هذا لم يمنع هذه النبتة من النمو والتطور ، فها نحن نلتقي به منبثا في شعر شعراء كثيرين ، بل انه يعكس لنا شعر حركة متميزة مثل الذي نراه في شعر الخوارج ، ففيه تلك الروح التي عرفها عند الاسلاميين وكذلك روح الفداء والتضحية ، واذا كان هذا الشعر امتزج بالحركة السياسية ، فان هناك نموا آخر بدأ يتحرك على يد المتدينين والزهاد الذين يريدون ان يبثوا روح التدين عن طريق اشاعة الجانب الروحي .

وهذا الجانب سيثمر ثمرة أخرى هي امتداد للشعر الديني بتنوع انماطه ونعني هنا شعر المتصوفة ، فهذا الشعر ينبع من الاحساس الديني المرهف ، وقد يكون امتزج بتيارات عديدة الا ان هذا لا يصرفنا من ان نقول انه فرع من فروع هذا التيار الذي تشكل في صدر الاسلام ، . ومن ثم فالشعر الديني والصوفي هو الفرع الذي انتصب متفردا يذكر بهذا الاصل الاول .

وهذا لا يصرفنا عن القول أن الامتداد الثاني لهذا التيار موجود بقوة داخل الشعر الاخر فعندما تقدم الزمن تداخلت القم القديمة بالجديدة وهضم المجددون التيارين فخرج شعر يمثل هذه البيئات والعصور المختلفة فهو شعر اسلامي يحمل في داخله اثر هذه الحركة الكبرى .

ان هذه هي الخطوط العامة لهذا التيار الذي بدأ ضعيفا ثم اتخذ موقعة من حركة التطور الفني ، ومن خلال هذه النظرة نستطيع ان نقيم الحياة الادبية في صدر الاسلام على اساس فني دون اهمال الاحداث المؤثرة في تطور الفن .

من هذا المنطلق والذي يميز بين الخطوط دون ان يصدر حكما متعجلا هو وحده القادر على اعطاء الصورة الحقيقية المعتمدة على الوقائع لا الاقوال ، ومن ثم يكون الشعر الاسلامي قد اتخذ موقعه بحق وابرز هويته بصدق ولا ضرر ولا ضرا .

***

المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو

دراسة في الحضارة العربية الاسلامية في صقلية

عمر كمال توفيق
أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كانت جزيرة صقلية معبرا من المعابر الهامة للحضارة العربية الاسلامية الى الغرب الأوربي . وقد قام المؤرخ الصقلي أماري Amari بجهود رائدة في دراسة تاريخ المسلمين ودورهم في هذه الجزيرة . وأصبحت مؤلفاته التي وضعها باللغة الايطالية بمثابة حجر الأساس الذي اعتمد عليه من خلفه من الباحثين ، ومن أهمهم المؤرخ الفرنسي شالاندون Chalandon والمؤرخ الأمريكي هاسكنز Haskins . الا أن المكتبة التاريخية الحديثة لا تزال في حاجة ماسة الى مزيد من الأبحاث والدراسات التي توضح العديد من الجوانب والموضوعات التي يكتنفها الغموض .

وقد رأينا تخصيص هذا البحث لموضوع « المجتمع العربي الاسلامي في مدينة بلرمو» عاصمة الجزيرة ، لحاجته لمزيد من العناية والايضاح ، محاولين تقديم دراسة تحليلية تبين الظروف التي قام فيها هذا المجتمع ومراحل انتشاره ونشاطه ومدى تأثيره في البيئة التي وجد بها ، وذلك الظروف الأخيرة التي انتهى فيها وجود هذا المجتمع في المدينة المذكورة .

وللموضوع ينقسم الى قسمين أساسيين : الأول ويعالج المجتمع الاسلامي في عهد السيادة الاسلامية (٢١٦-٤٦٤هـ/٨٣١-١٠٧٢م) والقسم الثاني ويعالج أوضاع هذا المجتمع في العهد النورماني بعد أن انتقلت السيادة الى النورمان .

العوامل التي أدت الى فتح العرب لصقلية :

لم يمض وقت طويل على بداية الفتوحات العربية الاسلامية الا وقد أخذ العرب يكتسبون خبرة في ركوب البحر وانشاء السفن لمواجهة القوى البحرية التي كانت

مسيطرة على الملاحة والمراكز البحرية في حوض البحر المتوسط . وقد استغلوا هذه الخبرة في مواصلة جهادهم في المجالين البري والبحري ، وحققوا منجزات هامة في مواجهة القوة البحرية للدولة البيزنطية التي كانت لها السيطرة على هذا البحر قبل ظهور قوة العرب . وكان من مظاهر قوة العرب البحرية أنهم أخذوا يتطلعون لمد نفوذهم من الساحل الافريقي الشمالي الذي أصبح جزءا من دار الاسلام الى المراكز البحرية والسواحل الجنوبية لأوربه .

وكان في هذه الظروف أن أخذ العرب يفكرون في فتح جزيرة صقلية ، أكبر الجزر في البحر المتوسط ، لاقامة الحكم الاسلامي بها وجعلها جزءا من الدولة العربية الاسلامية ، خاصة وأن صقلية كانت مركزا هاما للبحريه البيزنطية كما كانت موقعا شديد الخطر على البحريه الاسلامية ، حيث كانت تخرج منها الأساطيل البيزنطة لمهاجمة السفن والمراكز الاسلامية المقابلة لصقلية في الساحل الافريقي الشمالي . وكان فتح المسلمين للجزيرة فيه تأمين للجانب الاسلامي . وفضلا عن ذلك فقد عرف المسلمون أن الجزيرة كثيرة الخيرات حتى وصفت بأنها « ابنة الأندلس » . [١]

ومنذ فترة مبكرة من قيام القوة البحرية الاسلامية ، بدأت اغارات المسلمين على صقلية : فعقب موقعة ذات الصواري في ٢٤ هـ/٦٥٤ م التي انتصر فيها العرب التجأ الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني الى صقلية فارا من الهزيمة ، وقد أسرع العرب بالاغارة على هذه الجزيرة . وتعددت هجماتهم عليها بعد ذلك ، الا أن عملياتهم العسكرية حينئذ كانت عبارة عن اغارات سريعة يعقبها الانسحاب بعد أن يوقعوا بقوة خصومهم ويحصلوا على الغنائم ، ولم تشهد هذه المرحلة استقرارا للمسلمين في الجزيرة .

وكان تأسيس دولة الأغالبة القوية في القيروان ، في باكورة القرن التاسع الميلادي ، من العوامل التي حددت بداية مرحلة جديدة في موقف العرب من صقلية . وقد بدأ فتح الجزيرة في عهد زياد الله ، ثالث حكام الأغالبة حيث أرسل حملة برية بحرية تحت قيادة وزيره أسد بن الفرات للقيام بهذه المهمة : وتطلب الأمر من العرب نحو سبعين سنة (٨٢٧ ـ ٩٠٢ م) ليكملوا فرض سيطرتهم على الجزيرة ، وقد دام حكمهم لها بعد ذلك نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، ليستمر حتى أخذ العرب يتراجعون أمام الغزو النورماني للجزيرة (١٠٦١ ـ ١٠٩١ م) .

صقلية تصبح جزءا من دار الاسلام :

نتيجة للفتح الاسلامي أصبحت جزيرة صقلية جزءا هاما من « دار الاسلام » بكل ما يعنية هذا المصطلح حيث اعتبرت من بلاد الاسلام وسادها حكم الشريعة الاسلامية . ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن جميع سكانها صاروا مسلمين . فالمسيحية لم تختف من الجزيرة ، بل أصبحت ديانة مسموحا بها وأصبح مسيحيوها من أهل الذمة ، وذلك وفقا لمفهوم الشريعة الاسلامية ، هذا مع ملاحظة أن أعدادا منهم أخذت تترك المسيحية وتعتنق الاسلام .

هذا ويتحتم علينا أن نسجل في هذا الموضع ملاحظة أساسية ، مفادها وجود تباين واضح في المناطق التي انتشر فيها الاسلام والمجتمع العربي الاسلامي في

(١) ابن جبير : ص٢٩٧ .

الجزيرة إبان حكم المسلمين بها . فالطابع الاسلامي كان شبه كامل في المنطقة الغربية من الجزيرة ، وتناقص مع التوجه الى شرقها حيث كان صمود العنصر المسيحي اليوناني أشد صلابة . كما نلاحظ أن الاسلام ، مع مجيء النورمان إلى الجزيرة ، قد زال من المنطقة الشرقية بشكل أسرع مما حدث في الجزء الغربي منها . فقد ظل الاسلام صامدا في هذا الجزء الغربي حتى بعد قيام الحكم النورماني ، واستمر نشاط المسلمين هناك خلال القرن الثاني عشر الميلادي بأكمله ولم ينقطع ذلك إلا في العقود الأولى من القرن الثالث عشر الميلادي على أثر الظروف التي تعرض لها المسلمون . وليس من السهل على الباحث تقديم تحليل تفصيلي دقيق لتفسير ذلك التباين في مناطق انتشار الاسلام في الجزيرة ، وذلك لقلة المعلومات التاريخية التي وصلت إلى أيدينا . ومما لا شك فيه أن شدة صمود العنصر المسيحي الاغريقي في شرق الجزيرة كان من العوامل التي تفسر ما حدث . هذا وكانت في الجزء الغربي من الجزيرة في منطقة مازر ، أعداد كبيرة من طبقة الرقيق المسيحيين ، وقد أقبلت نسبة كبيرة منهم على اعتناق الدين الاسلامي وهم يحدوهم الأمل في تحسين أوضاعهم والتحرر من ربقة العبودية . والمرجح أن عددا وافرا من نصارى المنطقة الممتدة بين مدينتي مازر وبلرمو اعتنقوا الاسلام ، هذا ما نذهب اليه مستندين الى قول الجغرافي العربي ياقوت ، في أن أكثر نصارى هذه الجهة أسلموا ، ولكن مع عدم المبالغة في تقبل هذه الرواية ، حيث أن ما في أيدينا من الروايات التاريخية يدل على وجود عدد غير قليل من المسيحيين في تلك المنطقة .

ويظهر أن صقلية عرفت أثناء العهد الاسلامي ثلاث ولايات هي ولاية مازر نوطس وولاية نوطس وولاية ديمنس ، ويكون ذلك متمشيا مع أقسام الجزيرة الثلاثة وهي فال دي مازر Val di Mazara وفال دي نوطس Val di Noto وفال دي ديمنس Val di Demone . والقسم الأول ويقع الى الغرب من الجزيرة وكانت له أهمية كبرى أثناء الحكم الاسلامي وقد أصبح الاسلام فيه لفترة من الزمان هو القوة الغالبة . أما ولاية نوطس فكانت نسبة المسلمين فيها أقل . وخلال العهد الاسلامي ظل سكان الولاية الثالثة ، الواقعة الى شرقي الجزيرة وهي ولاية ديمون ، في أغلبهم من المسيحيين . وبهذا الشكل يمكن أن نقول إن ولاية مازر كانت تمثل مركز الثقل بالنسبة للوجود الاسلامي في الجزيرة .

ظاهرة اهتمام العرب بالاستيطان في المدن :

ومن الظواهر التاريخية الرئيسية لوجود المسلمين في صقلية كان اهتمامهم بإقامة مجتمعات عربية إسلامية في مدنها الهامة مثل مسينة وشيفالو ومازو وطرابنش وقطانية وبلرمو ، والأخيرة قد اتخذوا منها عاصمة لهم في الجزيرة . فالعرب وإن كانوا أصلا من أهل البادية والواحات في غالبيتهم ، إلا أنهم ، منذ فترة مبكرة من العصر الاسلامي ، اهتموا بالمدن ونزعوا للاقامة فيها واتخاذها مراكز ادارية واستراتيجية لهم . وقد انبثقت في فترة وجيزة من الزمان مدن جديدة أقامها العرب ، كما نمت المدن القديمة التي فتحوها وازدهرت في عهدهم . وكلما أمعن العرب في الاستقرار ازدادت مدنهم عددا واتسعت حجما ، وكان مقدرا لها أن تسهم بدور كبير في تطور الحضارة .

ويصور لنا المفكر العربي الشهير المؤرخ ابن خلدون في مقدمته اهتمام العرب بالمدن في قوله : « ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا الى الاستيلاء على الأمصار لدفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين . . . . فيعتصم (صاحب الأمر) في المصر ويغالبهم . ومغالبة المصر على غاية من الصعوبة

والمشقة . والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة ، لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة » . (٢)

وقد عمد العرب منذ مرحلة مبكرة في تاريخ فتوحاتهم الى الاستفادة من المدن القديمة التي وجدوها في البلاد التي فتحوها ، فنزلوا بها وسكنوها . وإن هذه المدن مع مضى الوقت ، وبفضل ما أضافة العرب اليها من اللغة العربية والروح الاسلامية ، وبشكل خاص انشاء المساجد ، تحولت الى مدن لها طابع عربي إسلامي لا تختلف عن المدن الاسلامية الانشاء الا اختلافا محدودا .

اتخاذ بلرمو عاصمة اسلامية :

وكان من الطبيعي أن تجذب مدينة بلرمو اهتمام العرب ويتخذوا منها عاصمة لحكمهم في صقلية . وكانت هذه المدينة من أهم مدن الجزيرة وكانت تتمتع بمكانة خاصة قبل الفتح الاسلامي ، فهي من أهم مدن الجزيرة وأقدمها . هذا وكانت بلرمو مدينة بحرية جيدة الميناء سهلة الاتصال بأفريقيا ، وكان في استطاعة المسلمين ، بإقامتهم فيها ، أن يؤمنوا خط إمداداتهم من أفريقيا ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الرجال والمؤن . هذا وكانت المنطقة المحيطة بالمدينة خصبة ، ويمكن أن تزود ساكنيها بالمؤن اللازمة ، فضلا عن توفر المياه بها . وكانت بلومر من أول المدن التي استولى عليها المسلمون ، وكانت تقع في المنطقة الغربية التي يكثر فيها العنصر الاسلامي . وكان هذا عاملا أساسيا آخر أدى الى تفضيل المسلمين لها على مدينة سرقوسة (سيراكيوز) الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة والتي كانت مركزا للعنصر الاغريقي وقاعدة للدولة البيزنطية ، كما هيأ لها قربها الى القسطنطينية فرصة الحصول على امدادات ومساعدات منها ، الأمر الذي كان لا بد وأن يتسبب للعرب في متاعب كثيرة عقب استيلائهم عليها . ولهذا كله كان من الطبيعي أن يفعل العرب مثلما فعل الفينيقيون من قبل في العهد القديم ، ويتخذوا من بلرمو قاعدة لهم ويجعلوها عاصمتهم في صقلية .

وقد دام حكم المسلمين لمدينة بلرمو فترة طويلة امتدت من سنة ٢١٦ هـ الى سنة ٤٦٤ هـ . (٨٣١ م - ١٠٧٢م) . وإبان ذلك قام بهذه العاصمة الاسلامية مجتمع عربي اسلامي له شأنه ومقوماته الحضارية . ونستطيع أن نتبين مدى تغلل هذا المجتمع في بلرمو اذا ما لا حظنا أن الوجود الاسلامي استمر بها بعد نهاية الحكم الاسلامي وأثناء العهد النورماني ، بل لقد امتدت بعض آثاره إلى ما بعد ذلك . وكان المسلمون قد نقلوا معهم عند نزولهم في بلرمو ما عرفوه من مقومات حضارتهم العربية الاسلامية . وإذا كانت هذه المدينة قد أصبحت عاصمة لجزء هام من دار الاسلام ، فإنها قامت بدورها كمركز من أهم مراكز حضارية ، ومعبر رئيسي للحضارة الاسلامية العربية الى الغرب الأوربي .

وقد عرفت بلرمو في العصر الاسلامي أخلاطا من العناصر البشرية ومن أهم الروايات التاريخية التي تتحدث عن مجتمعها كانت تلك الرواية التي دونها الراهب ثيودوسيوس قبل زيارة الجغرافي ابن حوقل للجزيرة بنحو قرن من الزمان وقد جاء فيها أنها : « مكتظة بالناس من أهلها والأجانب حتى كأنه اجتمع فيها كافة المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال الى

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٢٧٣

جنوب . وبين قاطنيها من صقليين واغريق ولومبارديين ويهود ، تجد العرب والبربر والفرس والتتار والزنوج ، منهم من يلبس العباءة والعمامة ، ومنهم من يرتدي الجلود . وفيهم أنصاف عراة . وهناك وجوه مستطيلة ومربعة ومستديرة من كل شكل ، ولحى من كل لون ، منها الطويل والقصير » . (٣)

لكن مع هذا التباين الواضح في عناصر السكان في بلرمو ، فالواضح أن هذه العاصمة التي اتخذت طابعا إسلاميا مميزا أصبح للمجتمع العربي الاسلامي شأنه وكيانه فيها . وتكون هذا المجتمع من العناصر التي جاءت أثناء فتح العرب للجزيرة ، وكذلك من المهاجرين المسلمين الذين وفدوا بعد ذلك ، من الحرفيين والجنود واللاجئين . كما تألف المجتمع من العرب والعجم والبربر . وكان العرب ينقسمون الى قحطانيين وعدنانيين أو بعبارة أخرى الى يمنية وقيسية . وإن الخلاف القائم بين هذين العنصرين في بلاد المشرق والمغرب ، قد انتقل معهما إلى صقلية ، هذا بخلاف التنافس المعروف بين العرب والبربر ، الأمر الذي تسبب في قيام النزاع والتصادم بينهم . كما أضاف أمراء الأغالبة عنصر الزنوج إلى هذا الخليط البشري ، وذلك لما اتخذوا العبيد السود حراسا لهم . هذا وقد أحاط الخلفاء الفاطميون وعمالهم الكلبيون أنفسهم بالمماليك البيض الذين كثيرا ما كانوا من الصقالبة ، وكان النخاسة بجلبونهم وهم صغار السن . وفي بلرمو حارة خاصة نسبت الى هذه العناصر وعرفت باسم حارة الصقالبة ، وكان لها شأنها وقت زيارة ابن حوقل لبلرمو . وهو يقول في ذلك : « وحارة تعرف بحارة الصقالبة وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتهما وأجل ، ومرسى البحر بها وبها عيون جارية بينها وبين صقلية ومياه كالحد بينهما » . (٤)

وكان المجتمع الأوربي المسيحي في بلرمو معقدا بدوره ، خاصة اذا أخذنا في الاعتبار وجود العناصر الصقلية واللاتينية والبيزنطية . وبطبيعة الحال يواجه الباحث في هذا المجال صعوبة شديدة للتقدم بإحصائيات دقيقة عن عناصر السكان المختلفة في بلرمو والتغيرات التي طرأت عليها ، وذلك لعدم توفر المادة التاريخية اللازمة في المصادر .

وصف الجغرافيين والرحالة العرب لبلرمو والخالصة :

وللجغرافيين والرحالة العرب فضل كبير في تزويدنا بمعلومات قيمة عن مدينة بلرمو ومجتمعها في العصرين الاسلامي والنورماني . وستظل كتابات ابن حوقل والادريسي وابن جبير ، من المصادر الأساسية في هذا المجال . فهي تمدنا بتفاصيل هامة عن طبوغرافية المدينة وخططها وأهم معالمها ونشاط المسلمين فيها .

وقد أدرك كل من ابن حوقل والادريسي الصلة بين بلرمو والخالصة . وإن كانت بعض المصادر تتحدث أحيانا عن الخالصة كمدينة مستقلة ، إلا أنها كانت بمثابة امتداد لمدينة بلرمو . والمعلومات التاريخية التي وصلتنا عن تأسيس الخالصة ونشأتها ضئيلة . ويبدو أن انشاءها كان وفقا للنهج الذي اتبعه الملوك والحكام المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري في إقامة مدن خاصة لاقامتهم وأتباعهم على مقربة من العواصم المعروفة . وعلى أية حالة فإن المؤرخ العربي ابن الأثير أورد في كتابه « الكامل في التاريخ » عند ذكره لأحداث سنة ٣٢٥ هـ

(٣) انظر Amari, S D M, II, 49

(٤) ابن حوقل ص١١٤

(٩٣٦ ـ ٩٣٧م) معلومات مفيدة عن نشأة الخالصة ، وذلك لما كان يتحدث عن الفتن التي قامت بجزيرة صقلية ضد ولاتها الفاطميين وقال ابن الأثير إن الخليفة الفاطمي ، المقيم في المغرب ، أرسل قائدا من أتباعه يعرف باسم خليل بن اسحق على رأس قوة لاقامة النظام في صقلية ، كما أضاف هذا المؤرخ أن القائد المذكور هو المسئول عن بناء الخالصة . وقد جاء في « الكامل في التاريخ » ما يلي : « فشرع خليل في بناء مدينة على مرسى المدينة ـ بلرمو ـ وحصنها ونقض كثيرا من المدينة وأخذ أبوابها وسماها الخالصة . ونال الناس شدة في بناء المدينة » .

وقد زار ابن حوقل بلرمو بعد إنشاء الخالصة بوقت غير بعيد [٥] وترك هذا الجغرافي وصفا له أهمية ، حيث أنه كان شاهد عيان ومن أقدم من وصف بلرمو من الكتّاب العرب . ويقول عنها في سياق حديثه عن صقلية : « ومنها المدينة الكبيرة المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع ، ويسكنها التجار . وفيها مسجد الجامع الأكبر ، وكان بيعة للروم قبيل فتحها وتجاهها مدينة تعرف بالخالصة ذات سور من حجارة . وليس كسور بلرم ، يسكنها السلطان وأتباعه ، وفيها حمامان ، ولا أسواق فيها ولا فنادق ، وفيهامسجدصغير مقتصر ، وبها جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان . . . » [٦]

ويقدم الادريسي ، الذي أقام في بلرمو في بلاط الملك النورماني روجر الثاني (١١٣٠ ـ ١١٥٤م) ، معلومات هامة عن بلرمو والخالصة . ومما ذكره في ذلك : « وهي على قسمين قصر وربض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة ، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار . والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير ، وبه الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن الأقدم ، وأعيد في هذه المدة على حالته في سالف الزمان . . فأما الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة الخالصة التي كان بها سكن السلطان والخاصة في أيام المسلمين [٧] »

وقد استفاد التجار المسلمون من موقع جزيرة صقلية المتوسط بين شرق البحر المتوسط وغربه لممارسة نشاطهم من ميناء بلرمو ، مما كان له أثره في تحقيق الازدهار التجاري لها . وهنا يقول ابن حوقل « وهذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقها الى غربها ، يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة . . . . . » [٨]

كما يتحدث ابن حوقل عن النشاط التجاري والحرفي في المجتمع الاسلامي في بلرمو ، فيعدد أنواعا كثيرة من الحرفيين والتجار ويبين كيف كان لكل حرفة سوق خاص ، فيقول : « وأكثر الأسواق فيها بين مسجد ابن

---

(٥) يراعي في تحديد تاريخ زيارة ابن حوقل لصقلية وبلرمو انه بدأ رحلته من المشرق في سنة ٣٣١هـ (٩٤٢ ـ ٩٤٣م) وكان دخوله الاندلس في ٣٣٧هـ ، وبعدها كانت زيارته لصقلية وذلك وفقا لما ورد في كتابه المذكور هذا وقد ذكر ابن الاثير اخبار تأسيس مدينة الخالصةفي احداث سنة ٣٢٥هـ .

(٦) ابن حوقل ص١١٣ ـ ص١١٤ .

(٧) الادريسي ص٢٨ ـ ص٢٩ .

(٨) ابن حوقل ص١١٧ .

سقلاب والحارة الجديدة : كسوق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة ، والحدادين والصياقلة ، وأسواق القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين ، وطائفة من القصابين وباعة البقل ، وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين ، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين خارج المدينة ، وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة ، وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم ، والقليل منهم في المدينة برأس السماط ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاؤ ون وبها غير سوق صالح . . . . » (٩)

سياسة نشر الطابع الاسلامي العربي في بلرمو :

وكان من الطبيعي أن يحرص المسلمون على إعطاء مدينتهم روحا وطابعا إسلاميا . من أهم ما اهتموا به في ذلك كان توفير المساجد في المدينة ، جريا على عادتهم فيها كانوا يفعلونه عند اتخاذ المدن القديمة مراكز لهم . وقد ورد ذكر الجامع الكبير في المدينة الذي كان أصلا كنيسة للمسيحيين قبل فتح بلرمو (١٠) ويذكر ابن حوقل قدر الازدحام في هذا الجامع فيقول : « ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم ، وذلك أنني حزرت المجتمع فيه اذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة ، وكل صف منها لا يزيد على مائتي رجل » (١١).

كما يضيف الى ذلك إحصائية لعدد المساجد التي وجدها في بلرم وضواحيها أثناء زيارته لها فيقول : « وبصقلية من المساجد في بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها من وراء سوريها عامرة ، أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيف وثلاثمائة مسجد يتواطأ أهل الخبرة منهم فى علمها ويتساوون فى معرفتها وعددها . . . » (١٢)

ثم يبدى ابن حوقل ملاحظته على كثرة المساجد فى بلرم ويقارنها بغيرها من مساجد المدن الاسلامية فيقول : « ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار ، التى تستولى على ضعف مساحتها ، شبها ، ولا سمعت من يدعيه الا ما يتذاكره أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد ، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته فى موضعه على شك منى فيه ، وأنا محققه بصقلية لأنى شاهدت أكثره . » (١٣)

ولا ريب أن سبب اهتمام المسلمين بانشاء هذه المساجد كان لتدعيم الاسلام ونشره فى بلرمو حيث كانت المسيحية راسخة فيها . فضلا عما تبعثه اقامة المساجد من طمأنينة فى نفوس المسلمين فى بلد يقوم أعداؤ هم من غير المسلمين على مقربة منه . هذا ويروى ابن حوقل سببا آخر رآه مسئولا عن جعل ذوى المقدرة من المسلمين يكثرون من انشائها ، وهو فى رأيه سبب يرتبط بنوع من الغرور وحب المباهاة . فهو يقول أثناء زيارته لبلرمو ما يلى : « لقد كنت واقفا ذات يوم بها فى جوار دار أبى محمد عبد الواحد بن محمد المعروف

(٩) المصدر نفسه ص١١٤ .
(١٠) المصدر نفسه ص١١٣ .
(١١) المصدر نفسه ص١١٤ .
(١٢) المصدر نفسه ص١١٥ .
(١٣) المصدر نفسه ص١١٥ .

بالقفصى الفقيه الوثائقى ، فرأيت من مسجده فى مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصره ، ومنها شىء تجاه شىء ، وبينها عرض الطريق فقط ، فسألت عن ذلك فأخبرت أن القوم لشدة انتفاخ رؤ وسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه ، لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته ، وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان وقد عمل كل واحد منهما مسجدا لنفسه يكون جلوسه فيه وحده » . (١٤)

ويبدو أن هذه المساجد كانت تبنى لمدة لا تزيد عن عمر انسان ، ولهذا فانها لم تسلم من الهلاك ، وقد اندثرت شأنها شأن العديد من الآثار الاسلامية المعمارية التى أقامها المسلمون فى عصور سابقة .

ونلاحظ فى بلرمو اهتماما بالتعليم . وقد اهتم أهلها بالمدارس ، ويذكر ابن حوقل أنه وجد بها نحو ثلاثمائة معلم وأنها تفوق فى ذلك غيرها من البلدان (١٥) هذا ويسجل ابن حوقل تقدير المسلمين للمعلمين قائلا : « إن جميع أهل صقلية . يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤ هم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء الخطباء .... » . (١٦)

تحامل ابن حوقل على أهالى بلرمو ومناقشة آرائه : ـ

حقيقة أن ابن حوقل أمدنا بمعلومات قيمة وتفاصيل دقيقة عن بلرمو والمجتمع العربي الاسلامي فيها وفي صقلية ، الا أنه نزع في عدة مواضع للتحامل على أهالي هذه البلاد ونسب اليهم العديد من الخصال السيئة ، وكان مرير الكلام بالنسبة لهم ، لواما ونقادا لهم . فقد كتب في ذلك : « وأكثرت عنه وعن ابن مطر وجماعتهم واصفا قلة فطنتهم وكلال أفهامهم ، وحدة جهلهم وسرعة طيشهم ، وموت يقظتهم وبراعة لؤ مهم مع دوام غفلتهم ، وبشاعة تعاطيهم ، وكثرة معائبهم ، وسخف أغذيتهم المؤكدة جهلهم ، وسوء تخليهم في كتاب جعلته أبوابا عشرة . . . ولم أترك لهم من فضيلة ورذيلة الى جميع ما خصوا به ومنعوه وأعطوه وما حرموه ، الى غلظ طباعهم وسوء أخلاقهم ، وما انفردوا به من المطاعم المنتنة ، والأعراض القذرة الدرنة ، وغلبة كثرة الجفاء وطول المراد ؛ وسميت جميع معلميهم الى ما وصل الى من أخبارهم ومحلهم في الرقاعة . . . » (١٧)

وابن حوقل يعتبر أن اكثار أهالي بلرمو وصقلية في أكل البصل النيء هو المسئول عن كثير من الخصال السيئة التي نسبها اليهم ويسلم بأن « خاصة البصل إحداث فساد في الدماغ ثم يقول عن أثر أكل البصل : » وهذه قضية عقلية ، فأما نتيجتها فليس في البلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفن من فنون العلم ، ولا ذو مروءة ولا متدين ، والغالب عليه الرعاع وأهله سقاط أوضاع لاعقول لهم ولادين كامل » . (١٨)

وان هذا التحامل الظاهر من جانب ابن حوقل على أهالي بلرمو الذين أقام بينهم ، وأهالي صقلية الذين اتصل بهم ، يحتاج الى وقفة منا لمحاولة تحليله وتفسيره . وربما كان مما يفسر ذلك كون ابن حوقل غريبا على البلاد

(١٤) المصدر نفسه ص١١٥ .
(١٥) المصدر نفسه ص١٢٠ .
(١٦) المصدر نفسه ص١٢١ .
(١٧) المصدر نفسه ص١٢٢ ـ ص١٢٣ .
(١٨) المصدر نفسه ص١١٨ .

وأنه لم يجد التقدير الذي يتوقعه كعالم من المشرق . ومن الجائز أنه كان ذا حساسية خاصة في المعاملة التي صادفها من أناس كانوا غرباء بالنسبة له . وربما أساءه أنه وجد في صقلية أفرادا يشتمون أهل العراق الذين ينتسب اليهم وينالون منهم بالقول . وربما تسببت العصبية الاقليمية في وقوف ابن حوقل هذا الموقف من أهل صقلية وعاصمتها . هذا ولا ريب أن بلرمو كمدينة كبيرة شأنها شأن غيرها من المدن الكبرى عبر التاريخ ، كانت تمثل الحضارة بكل مقوماتها الصالحة والطالحة . هذا وكانت بلرمو تتكون من عناصر مختلفة من المسلمين ، وكذلك من أهالي البلاد الأصليين . ومن المحتمل أن بعض الذين أسلموا من الأخرين لم يأت اسلامهم عن ايمان حقيقي بل لمصالح خاصة ، وقد يكون ذلك من أسباب استياء ابن حوقل .

وعلى أية حال ، فان هذه النزعة التي اتجه اليها ابن حوقل في الحكم على المجتمع في صقلية وعاصمتها ، ولا يقره عليها عدد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامى الذين تركوا لنا انطباعاتهم عن تلك البلاد وعن مجتمعها يشيدون فيها بنظامها وبأناقة أهلها وأخلاقهم الفاضلة وغير ذلك من الخصال الحميدة . (١٩)

وفضلا عما جاء في هذه المصادر ، فان واقع الحضارة التي أقامها المسلمون في صقلية تشهد بوضوح بعدم صحة آراء ابن حوقل وما كان يغلب عليه من تحيز وتعصب . وان المستوى الحضارى الرفيع الذى حققوه يتمثل في نشاطهم الفكري والعلمي وفي النظم المالية والادارية التي أدخلوها على البلاد ، وكذلك في التقدم الاقتصادي الذي أحرزوه في الزراعة والصناعة والتجارة ، ولا يتسع المجال في هذه الدراسة للخوض في تفاصيل المنجزات الحضارية الفذة التي حققها المسلمون في بلرمو وصقلية بصفة عامة . وعلى أية حال فان هذه المقومات الحضارية التي أوجدها المسلمون في بلرمو قدمت تراثا له شأنه استفاد منه النورمان فائدة كبرى عندما انتهى الحكم الاسلامي في بلرمو سنة ١٠٧٢ م (٤٦٤ هـ) وقامت على انقاضه دولة النورمان في صقلية .

المجتمع العربي الاسلامي في العصر النورماني :

غزو النورمان لصقلية كجزء من الحركة الصليبية

كان مجيء النورمان الى صقلية وتأسيسهم لدولة جديدة بها ، يعني ظهور عنصر بشرق جديد على مسرحها التاريخي وكان لهذا العنصر أثره على مجتمعاتها المتعددة . ويتعين على الباحث في هذا الموضوع أن يوضح السياسة التي اتبعها هؤلاء النورمان في حكمهم للبلاد وموقفهم على الخصوص من المجتمع الاسلامي في بلرمو التي اتخذوا منها عاصمة لهم على النحو الذي فعله العرب من قبلهم . ولا ريب أن السياسة التي اتبعها النورمان في حكمهم للجزيرة قد شكلتها الظروف التي أحاطت بغزوهم لها ، وطبيعة العنصر النورماني وفكره ، وكذلك أوضاع المجتمعات التي وجدها النورمان في الجزيرة من مسلمين ومسيحيين .

وفي تحليل طبيعة الغزو النورماني لجزيرة صقلية ، يربط المؤرخ العربي المعروف ابن الأثير ما بين هذا الغزو وبين الهجوم الأوربي على البلاد الشامية المعروف بالحركة الصليبية وكذلك قيام النصارى في الأندلس لطرد المسلمين من البلاد هذه الحركة التي تعرف باسم حركة الاسترداد أو Reconquista . وتفصيل ذلك أن

(١٩) الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ص٢٥ (المكتبة العربية الصقلية ، كتاب هيئة : اشكال الارض (في المكتبة العربية الصقلية ص١٣) .

المؤرخ المذكور في معالجة أخبار سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧ - ١٠٩٨م) يقول: «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم الى بلاد الاسلام واستيلائهم على بعضها، سنة ٤٧٨ هـ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس . . . ثم قصدوا سنة ٤٨٤ هـ جزيرة صقلية وملكوها، وقد ذكرته أيضا . . . . ثم لما كان سنة ٤٩٠ خرجوا الى بلاد الشام» [٢٠] .

حقيقة أنه هناك قدر أساسي من التشابه بين غزو النورمان لصقلية، ومحاربة المسيحيين للمسلين في الأندلس، والهجوم الأوربي على البلاد الشامية، حيث أن كلا من هذه الحركات كان يتسم بطابع الهجوم الذي قامت به عناصر أوربية مسيحية لمحاربة المسلمين والقضاء على حكمهم في البلاد التي كانوا فيها . لكن هناك كذلك اختلافات بينّه في التفاصيل والجزئيات التي تخص كل حالة من تلك الحالات، وكذلك اختلاف في الطريقة التي عامل بها المسيحيون المسلمين في البلاد التي أخضعوها . ومن أبرز أوجه الاختلاف، أنّ الحركة الصليبية الغربية التي بشّر بها البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م، أى عقب استيلاء النورمان على صقلية بسنوات معدودة . قد قامت تحت اشراف وتوجيه البابوية وانتقل المشتركون فى هذه الحركة من غرب أوربا الى المنطقة العربية الاسلامية فى شرق البحر المتوسط، بهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة واقامة دولة صليبية فيها . أما حركة الاسترداد الاسبانية، فقامت بها عناصر وطنية من شبه الجزيرة الايبيرية، وان كانت قد ساعدها بعض المتطوعين من خارجها، وهدفها كان استرجاع اسبانيا من العرب بعد القضاء على الحكم الاسلامى فيها . وكثيرا ما اتسمت حركة الاسترداد هذه بطابع التعصب فى معاملة المسلمين عقب اخضاعهم، والمصادر التاريخية مليئة بأخبار الاضطهاد الذى تعرضوا له على أيدى القوى المسيحية . أما مجىء النورمان الى جنوب ايطاليا وصقلية فله ظروفه الخاصة . فالنورمان لم يكونوا أصلا من أهالي تلك البلاد، بل كانوا غرباء عنها . فقد كانوا جماعة من المغامرين الذين تحركوا أصلا من شبه الجزيرة الاسكندناوية الى اقليم نورماندية فى فرنسا . وبعد تعرفهم على جنوب ايطاليا وصقلية، وما كان من ظروف الانقسام السياسى والتطاحن ما بين القوى الأوربية المسيحية بما فيها البابوية، والاضطراب فى الاحوال السياسية فى صقلية نتيجة لانقسام المسلمين على أنفسهم، طمع النورمان فى استغلال هذه الظروف لاقامة مملكات لهم . وكان النورمان أقلية بالنسبة لسكان جزيرة صقلية من المسلمين وكذلك من المسيحيين الذين كانوا من أصول متعددة . وفى هذه الظروف كان من الحكمة بالنسبة لهم أن يتبع النورمان سياسة تسامح نسبي مع تلك العناصر السكانية فى الدولة التى أقاموها، وخاصة مع العناصر العربية الاسلامية التى كانت على ما يبدو تمثل النسبة الغالبة فى عدد السكان فضلا عن تميزها فى المضمار الحضارى وما كانت عليه من خبرات متعددة ومتنوعة .

موقف الحكام النورمان من الرعايا المسلمين فى بلرمو :

والنورمان لم يكن لديهم بعد قدر رفيع من الحضارة، وكانوا على استعداد للاستفادة من الحضارات التى وجدوها فى البلاد المختلفة التى نزلوا بها . هذا وقد أدرك النورمان منذ بادىء الأمر أن المسلمين كانوا العنصر البناء المنتج بين عناصر السكان فى صقلية [٢١] وكان

(٢٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٢٧٢ .

(٢١) انظر Haskins C. H.: Normans in European History. p. 225.

الملوك فى حاجة للمسلمين للاستفادة من خبراتهم الحضارية ، والاستعانة بهم فى شئون الحكم والادارة ، وخاصة فى مواجهة أمرائهم الاقطاعيين الذين دأبوا على محاولة التخلص من النفوذ الملكى على النحو المعروف فى النظام الاقطاعى الذى ساد فى غرب أوربا فى تلك الآونة . كما كان النورمان فى حاجة للقوات العسكرية الاسلامية للاستعانة بها لمواجهة خصومهم فى ايطاليا سواء أكان هؤلاء ممثلين فى البابوية أو الامبراطور الألمانى أو الامبراطور البيزنطى أو الأمراء اللومبارديين أو غيرهم . وكان من المنطقى أن تؤدي كافة هذه العوامل الى أن يحرص الملوك النورمان على حسن معاملة المسلمين والتسامح معهم . ولكن هذا التسامح لا بد وأن يكون نسبيا وبقدر ، حتى لا يؤدي ذلك الى تأليب العناصر المسيحية فى الجزيرة ضد الملوك النورمان أنفسهم ، أو الى استثارة المسيحيين ضد المسلمين . وبمعنى آخر كان على النورمان أن يوجدوا نوعا من التوازن بين الطوائف المختلفة فى دولتهم ، وقد اضطرهم ذلك فى بعض الاحيان لاجراء بعض التعديل فى مدى التسامح الذى كانوا يطبقونه مع المجتمعات الخاضعة لهم بما فى ذلك المجتمع الاسلامي الذى استمتع فى العهد النورماني بقدر من التسامح ، الا أنه عانى كذلك من أنواع كثيرة من القيود والمضايقات فى العديد من مظاهر نشاطه مما جعله يشعر بمعاناة شديدة على النحو الذى سوف نبينه فيما بعد .

لم تكن الآثار الأولى لظهور النورمان حسنة بالنسبة للمجتمع الاسلامي فمن ناحية كان النورمان يتحدون السيادة الاسلامية على الجزيرة كما هدد مجيئهم بتحويل المسلمين هناك الى أتباع لهم . وفضلا عن ذلك ، فأثناء العمليات العسكرية التى صاحبت مرحلة الغزو النورمانى ، لحقت الخسائر بالمسلمين سواء أكان ذلك فى أشخاصهم أو فى ممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية وما عليها من ماشية . ولم تكن أخبار هذه الأحداث بالتى تجعل المسلمين يطمئنون الى التطورات التى صاحبت مجىء النورمان . وكانت هذه الأحداث هي التى تفسر حدوث أول موجة للهجرة الاسلامية من صقلية الى دولة الزيريين فى أفريقية .

على أية حال فسرعان ما اتضحت للمسلمين سياسة النورمان فى ايجاد مناخ من التسامح والتواجد لهم فى ظل الحكم النورمانى . فقد حرص روجر (رجار) الأول (١٠٦١ - ١١٠١ م) أول الحكام النورمان فى صقلية على كسب مشاعر المسلمين وخاصة أهالى المدن ، وكان على استعداد لابرام اتفاقيات معتدلة الشروط عند موافقة هذه المدن على الخضوع لحكم النورمان . وقد جاء فى كتابات المؤرخين المسيحيين وليام الابولي **Gug-Lielmo puglia** ومالا ترا **Malaterra** أن روجر عند غزوه لمدينة بلرمو وعد المسلمين بعدم التعرض لهم ، وأنه لن يكره أحدا على تبديل دينه . وجاءت فى بعض المصادر الاسلامية روايات مشابهة فى مضمونها . ومن أهم من يؤكد هذه السياسة التى اتبعها النورمان كان الادريسى وابن جبير ، وكلاهما كانت له اتصالاته بالأحداث في بلرمو وعلى دراية بأخبارها وتاريخها . فيقول الادريسي في كتابه « نزهة المشتاق » عن سياسة روجر الأول في صقلية : « ولما صار أمرها اليه واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم . ثم أقام على ذلك مدة حياته الى أن وفاه الأجل المحتوم وتقضاه يومه المعلوم »[٢٢]. وقد اتبع خلفاء روجر الأول من الحكام النورمان بشكل عام تلك السياسة التي وضعها في معاملة

(٢٢) الادريسي ص٢٦ .

المجتمع الاسلامي بالجزيرة ، وإن كانت هذه السياسة قد تراوحت بين الزيادة في التسامح وفرض القيود والضغوط على المسلمين ، وفقا للظروف التي مرّ بها الحكم النورماني في الجزيرة . وعلى أية حال فإن ابن جبير الذي زار صقلية وعاصمتها بلرمو في عهد الملك النورماني وليام الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩م) يسجل ملاحظاته الهامة عن أوضاع المسلمين في بلرمو فيقول : « وللمسلمين بهذه المدينة رسم بان من الايمان ، يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون في الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن »(٢٣).

واجتذبت مظاهر التحضر والتقدم في المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو انتباه النورمان وأثرت في كثير من مظاهر حياتهم ونظمهم ، بل لقد اقتبس ملوكهم من المسلمين الكثير من نظمهم وخبرتهم واستفادوا منها .

مظاهر استمرار نشاط المجتمع الاسلامي في العصر النورماني :

ويختلف بعض المؤرخين الحديثين في بيان مدى التأثير الاسلامي على النورمان ، وينادي البعض الآخر بتغليب قوة المؤثرات البيزنطية على المؤثرات الاسلامية . فالمؤرخ الفرنسي شالاندون Chalandon يرى أن وصف الملك النورماني روجر الثاني بصفة « السلطان المعمد » يحمل مبالغة في تقدير المؤثرات الاسلامية في عهد هذا الملك ، ويرى أن في الأمور الدينية والسياسية والادارية لدى النورمان في صقلية ، كان النفوذ الاغريقي البيزنطي هو الغالب(٢٤). وعلى أية حال ، فنحن مع قولنا بأن البلاط النورماني كان يمثل التعايش بين المؤثرات العربية والاغريقية واللاتينية ، لابد وأن نسجل أهمية المؤثرات الاسلامية وتغلبها على العديد من النواحي في دولة النورمان في صقلية .

وكانت اللغة العربية احدى اللغات الثلاثة الأساسية التي استعملتها دولة النورمان في صقلية ، الى جانب اللاتينية والاغريقية . كما أنّ المراسيم والأوامر التي أصدرها بلاط روجر الثاني كانت تكتب بالعربية أو العربية والاغريقية الى جانب كتابتها باللاتينية . وفي حالة عدم توقيع الملك عليها كانت تحمل علامته أو رمزه الرسمي . وكانت علامة الملك وليام الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) الحمد لله شكر الأنعمه وعلامة وليام الثاني « غليام ٢ » (١١٦٦ - ١١٨٩) « الحمد لله حق حمده »(٢٥). كما عمل النورمان عملة ضربت عليها كلمات عربية مشتملة على رمز للاسلام وكذلك رمز للمسيحية ، وهذه لابد وأنها صدرت على نفس النمط الذي ظهر به « الدينار الصوري » في الامارات الصليبية في الشام . والغرض في كل من الحالتين كان كسب ثقة المسلمين في المعاملات التجارية التي أراد المسيحيون أن يقوموا بها سواء مع المسلمين التابعين لهم أو التجار المسلمين في خارج الممتلكات المسيحية .

(٢٣) ابن جبير ص٣٠٥ - ص٣٠٦ .
(٢٤) انظر F. Chalandon., II, p.721.
(٢٥) ابن جبير ص٢٩٨ .

هذا وكان روجر الثاني يرتدي عباءته الشهيرة على نمط الأمراء المسلمين وكانت تزين هذه العباءة نقوش بالخط العربي . وعموما فإن بلاط روجر الثاني في بلرمو يتميز بوضوح المؤثرات الاسلامية . ويذكر المؤرخ ابن الأثير عن روجر الثاني « فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجندارية وغير ذلك وخالف عادة الافرنج فانهم لا يعرفون شيئا منه . . . »[٢٦] ومثلما كان عليه الخلفاء والفاطميون في القاهرة والعباسيون في بغداد ، فقد اتخذ النورمان في بلرمو « الفتيان » في قصورهم واداراتهم[٢٧]. وكان لهؤلاء الفتيان مكانة خاصة لدى ملوك النورمان ، فيذكر عنهم ابن جبير في عهد وليام الثاني : « وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون »[٢٨].

وقد استمرت المؤثرات الاسلامية في البلاط النورماني في عهد كل من وليام الأول ووليام الثاني . ويقول ابن جبير عن وليام الثاني ومعرفته للغة العربية : « ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب العربية »[٢٩] ثم يتحدث عن جواريه وحظاياه في قصره وأنهن من المسلمات[٣٠]. كما يذكر اهتمامه بالعلماء وحرصه على استقطابهم فيقول : « وله الأطباء والمنجمون ، وهو كثير الاعتناء بهم ، شديد الحرص عليهم ، حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه »[٣١]. ولا شك أن ما فعله روجر الثاني مع الجغرافي العربي الادريسي كان حالة واضحة من تلك الحالات التي حرص فيها ملوك النورمان على اجتذاب العلماء من المسلمين وغيرهم وعموما فالحياة التي عاشها وليام الثاني ، كان ابن جبير يراه يقلد فيها حياة الحكام المسلمين واداراتهم لشئون دولتهم ، فهو يقول : « وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم وأرفه منه . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ، ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين . . . »[٣٢] .

وكان الأمراء المسلمون ، وكبار الموظفين الذين يحملون لقب « اللغثيت » Logothete البيزنطي ، وكبار المسئولين النورمان ، وكبار رجال الكنيسة ، يعملون جنبا الى جنب في المجلس الملكي النورماني Curia Regis وهو الهيئة العليا في الحكومة النورمانية . ومن بين أعضاء هذا المجلس كان الملك النورماني يختار أكثر المستشارين قربا اليه وهم يعرفون باسم familiares . وفي بعض الوثائق النورمانية يجد الباحث أسماء لمسلمين مثل أبي القاسم الذي كان عضوا في المجلس الملكي وأحد أفراد جماعة familiares[٣٣] ولكن ليس في الامكان تحديد إذا ما كان هؤلاء الأشخاص قد أبقوا على إسلامهم أو أنهم تحولوا إلى المسيحية .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص١٩٨ .
(٢٧) ابن جبير ص٢٩٧ .
(٢٨) المصدر نفسه ص٢٩٩ .
(٢٩) المصدر نفسه ص٢٩٨ .
(٣٠) المصدر نفسه ص٢٩٩ .
(٣١) المصدر نفسه ٢٩٨ .
(٣٢) المصدر نفسه ٢٩٨ .
(٣٣) انظر Cusa, I, 484.

وكان لقب أمير Amiratus من الألقاب التي منحها الأمير روبرت جيسكارد الى عدد من المسئولين في دولته وفي الجهاز الاداري البيروقراطي في بلرمو النورمانية كان لا يزال لقب أمير الامراء هو اللقب المخصص لأكبر موظفي النورمان ، وظل استعماله لفترة طويلة(٣٤).

وكان العنصر الاسلامي واضحا في الادارة المالية في بلرمو عاصمة النورمانيين ، ويتفوق في هذا المجال على العنصر الاغريقي . ويبدو ان النورمان ابقوا على الادارة المالية العربية المعروفة باسم « ديوان تحقيق المعمور » الذي عرفوه باسم dohanna de secretis ، وتعني هذه الادارة بشئون الاراضي والاقنان المرتبطين بها . ويرى المؤرخ الشهير اماري ان النورمان اخذوا هذه الادارة عن المسلمين(٣٥) . وكان هذا الديوان يسجل اعماله في سجلات عرفها النورمان باسم de-ftari وهي مشتقة من كلمة « دفتر » التي عرفها العرب من قبلهم . وكثير من الوثائق التي وصلت الى ايدينا ترجع الى عهد وليام الثاني وقد كتبت بالعربية كما كتب بعضها بالاغريقية .

وترجع بداية استعمال النورمان لقوات عسكرية اسلامية الى عهد روجر الأول . وباختلاط النورمان مع المحاربين المسلمين اخذ الاولون عن الاخيرين بعض فنون القتال . وقد عمل المهندسون العسكريون المسلمون في خدمة النورمان وصنعوا لهم ابراجا ومناجق متحركة ليستعملوها في عمليات الحصار .

ويلاحظ ان التأثر بالمجتمع العربي الاسلامي لم يقتصر على الملوك النورمان وحدهم ، بل امتد الى عناصر مسيحية اخرى في بلرمو . فقد سار النبلاء النورمان واعيانهم على نمط الحياة التي عاشها مليكهم والتي اخذت من حياة المسلمين ، وقد كثرت القصور الفاخرة التي اقاموها في ضواحي بلرمو(٣٦) . اما السيدات المسيحيات فقد اعجبتهن ازياء المسلمات وقلدنهن في لباسهن . ونفس الشيء فعلته المسيحيات بالنسبة لطريقة التزين عندما اقتدين بزينة المسلمات . وقد سجل ابن جبير هذه الظاهرة ذاكرا : « وزيّ النصرانيات في هذه المدينة (بلرمو) زيّ نساء المسلمات : فصيحات الألسن ، ملتحفات ، منقبات ، خرجن هذا العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن او كنسهن ، حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر »(٣٧) .

متاعب المسلمين في بلرمو في العصر النورماني ـ اسبابها ومظاهرها :

حقيقة ان المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو نال قدرا ظاهرا من الحرية في عهد النورمان . كما تعايش مع العناصر المسيحية . بل لقد وجد من المسلمين من احتلوا مراكز مرموقة في المدينة ، الا ان هذه الصورة يجب الا تحجب الجانب الاخر الذي عاشه المجتمع الاسلامي في هذه الفترة . فان المسلمين بعد ان كانت

(٣٤) انظر .Falcandus, 109

(٣٥) انظر Amari , SDM, III, 327

(٣٦) Chalandon: II, 740 - 2

(٣٧) ابن جبير ص٣٠٧ .

لهم السيادة في المدينة اصبحوا تحت سيطرة حكام غرباء يدينون بغير دينهم . ولا بد وان ذكريات ماضيهم المجيد قد اخذت تلاحقهم وهم في وضعهم الجديد كرعايا لهؤلاء السادة الغرباء . هذا ولم تكن الحرية التي سمح لهم بها النورمان كاملة بل كانت منقصة بقيود عانى منها المسلمون . وقد تعرضوا كذلك لعدد من المنغصات والمضايقات والمتاعب التي يمكن ان نستخلصها بتحليلنا للمصادر التاريخية . هذا وقد ظهرت كذلك عوامل واحداث اسفرت عن تهديد كيان المجتمع الاسلامي في بلرمو واضعاف شأنه بل والقضاء عليه في نهاية الامر .

ومن ابرز هذه العوامل التي ادت الى توالي المتاعب والمشاكل بالنسبة للمسلمين كان التغيير في الخريطة السكانية لصقلية على اثر تدفق عناصر المهاجرين المسيحيين اليها من نورماندية وشمال فرنسا واستقرارهم في هذا الوطن الجديد . واصبح الباحث يجد في تاريخ صقلية اسماء فرنسية لعديد من الاقطاعيين وكبار رجال الدين . هذا وقد جاءت كذلك اعداد غفيرة من النازحين من ايطاليا ، وقامت مستعمرات لومباردية كبيرة في صقلية[٣٨] . كما هاجر الى صقلية تجار من البندقية وجنوة وامالفي وغيرها من المدن الايطالية . واستمرت هذه الهجرات خلال القرن الثالث عشر الميلادي . وبطبيعة الحال لم يكن المسلمون وهم في وضع التبعية الجديد ، ليشعروا بالطمأنينة امام تدفق هذه العناصر من المهاجرين الذين كان لا بد وان يؤدي ظهورهم الى مضايقة المسلمين في ارزاقهم وتهديد كيانهم .

وان الكنائس التي كان المسلمون قد حولوها الى مساجد عند مجيئهم الى البلاد ، عمد المسيحيون الى ارجاعها الى اصلها . وكان هذا العمل من اول ما اهتم به روجر الأول مؤسس دولة النورمان ، ويذكر الادريسي كيف ارجع هذا الحاكم الجامع الكبير في بلرمو الى كنيسة[٣٩] . وبطبيعة الحال لم تكن سياسة تحويل مساجد الى كنائس بالامور التي رضى عنها المسلمون او يطمئنون اليها .

ومن ناحية اخرى اعلنت البابوية عن رغبتها في تنصير المجتمع الاسلامي ، ونادت بذلك في عدة مناسبات . فالبابا اوربان الثاني ، المسئول عن قيام الحركة الصليبية وتوجيهها الى الاراضي المقدسة ضد المسلمين ، قد زار صقلية سنة ١٠٨٨م ، وكان راغبا في التبشير بالمسيحية بين المسلمين ، وان لم يصادف تجاوبا من جانب روجر الأول الذي كان يحبذ ذلك ، لاعتماده على العنصر الاسلامي في مواجهة خصومه من المسيحيين .

وفي عهد وليام الأول تعرض المسلمون لمضايقات من جانب البارونات النورمان . فان المسلمين بالرغم من ولائهم الظاهر للملك النورماني قد اصبحوا موضعا للوم والمؤاخذة عندما انتصر الموحدون على النورمان عند المهدية ، وقام النورمان بنزع السلاح من المسلمين . وبعد نزع سلاحهم اصبحوا فريسة سهلة امام النبلاء الغاضبين من النورمان واللومبارديين سنة ١١٦١م . وتم اعدام عدد من الفتيان العاملين في البلاط الملكي ، وعدد من كبار الموظفين المسلمين وفي الاحداث التي تلت ذلك تحصن مسلمو بلرمو بالمتاريس في الاحياء الخاصة بهم في المدينة ، الا ان المسيحيين تمكنوا من توجيه ضربات شديدة اليهم تسببت في الحاق اصابات

(٣٨) انظر G. Masson: Frederic Hohenstaufen. London 1951- P.32 - 3.

(٣٩) الادريسي ص٢٨ .

بـالغة بهم . واضـطر المسلمون للهـرب الى الغابـات والجبال والمدن الواقعة إلى الجنوب ، حيث كانت لا تزال توجد جماعات كبيرة من المسلمين[٤٠] . كما تعرض المسلمـون في بلرمـو لمتـاعب اخـرى بسبب العنـاصـر المسيحية وذلك في عهد وليام الثاني .

ويزودنا ابن جبير بمعلومات هامة عن معاناة المسلمين وعدم اطمئنانهم على انفسهم في العهد النورماني . وهو اذا كان قد بين ذلك القدر من التسامح الذي عاش في ظله المجتمع الاسلامي في بلرمو ونشاط المسلمين هناك ووصول بعضهم الى مراكز رفيعة في دولة النورمان ، الا ان ابن جبير كان دقيقا في ملاحظاته وتحليله للاوضاع ، ولم يبهره الظاهر المشرق ويشغله عن ملاحظه متـاعب المسلمين وقلقهم .

وفي عدة مواضع هامة يذكر ابن جبير كيف اضـطر المسلمون لكتم اسلامهم وعدم الجهر به . فهو يتحدث عن فتيان الملك وليام الثاني ويقول : « وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانـه متمسك بشـريعة الاسـلام »[٤١] ويذكـر كذلك جواري الملك وحظاياه المسلمات ، وما يقمن به من جهود في التبشير بالاسلام بين النصرانيـات ويعلق بقـولـه : « وهن عـلى تكتم من ملكهـن في ذلـك كله »[٤٢] .

ويذكر ابن جبير رواية هامة عن رجل من اعيان بلرمو وهو احد فقهائها المعروفين ، واسمه الفقيه ابن زرعة ، الـذي تعرض لضغط من جـانب عمـال الملك وليـام الثاني ، ويقول ابن جبير في ذلك : « ضغطته العمـال بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام والانغمـاس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الاحكام النصرانية . وربما طرأ حكم اسلامي فسيتفتي ايضا فيه لما سبق من معرفته لاحكام الشريعة ، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنسية ، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ، ومع ذلك فأعلمنا بانه يكتم ايمانه ، فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)»[٤٣] .

ومما ازعج ابن جبير اثناء زيارته كان ما بلغه من ميل بعض المسلمين الى ترك الدين الاسلامي للتخلص من المسئوليات والروابط الاسرية فيقول : « ومن اعظم ما مني به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليـه انفـة تؤديـه الى التـطارح في الكنيســة فيتنصـر ويتعمد ، فلا يجد الاب للابن سبيـلا ولا الام للبنت سبيلا . فتخيل حال من يمني بمثل هذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال »[٤٤] .

ويصـور ابن جبـير حـرص احـد اعيـان المسلمـين الغيـورين عـلى مستقبـل بنـاتهم ورغبتهم في تجنيبيهن مستقبلا غير سليم بالبقاء في الجزيرة ، ولذا فهو يقدم ابنته الصغيرة الى احد الحجاج المارين بالجزيرة ، آملا ان

(٤٠) انظر .Falcandus, 440, Amari SDM, III, 495 - 95
(٤١) ابن جبير ص٢٩٧ .
(٤٢) المصدر نفسه ص٢٩٩ .
(٤٣) المصدر نفسه ص٣١٣ .
(٤٤) المصدر نفسه ص٣١٥ .

يأخذها معه الى خارج الجزيرة ليتزوجها او يزوجها لمن يختاره لها . ويعرب ابن جبير عن اشفاقه على الاب الذي يفارق ابنته في مثل هذه الظروف[٤٥] .

وان الرواية التي اوردها ابن جبير عن عبد المسيح ، وهو من فتيان وليام الثاني واعيان دولته ، لتلقي ضوءا على مشاعر المسلمين في هذا العصر . وهو يقول عنه : « لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبدالمسيح . من وجوههم وكبرائهم ، بعد تقدمه رغبه منه الينا في ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه ازال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه . فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام ، فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا ، واستهدى منا بعض ما استصحبنا من الطرف المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله ورغب في ان لا نبخل عليه بما امكن من ذلك . وقال لنا : انتم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله في متجركم . ونحن كاتمون ايماننا ، خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا معتقلون في ملكة كافر بالله ، قد وضع في اعناقنا ربقة الرق ، فغايتنا التبرك بلقاء امثالكم من الحجاج ، واستهداء ادعيتهم ، والاغتباط بما نلقاه منهم من تحف تلك المشاهد القدسة ، لنتخذها عدة للايمان ، وذخيرة للاكفان فتفطرت قلوبنا اشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة ، واتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه . وابلغ في مجازاتنا ومكافأتنا ، واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان[٤٦] » .

ويجمل ابن جبير تصوير حالة المسلمين التي رآها في مدينة بلرمو بقوله : « وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا امن لهم في اموالهم ولا في حريمهم ولا ابنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل بمنه »[٤٧] .

نهاية المجتمع الاسلامي في بلرمو :

ومما يدل على نقصان مكانة المسلمين في بلرمو مع مضي الوقت تلك الظاهرة التي نلاحظها عند دراسة الوثائق والاوامر الملكية النورمانية التي كانت تصدر باللغة العربية . ففي عهد روجر الاول وروجر الثاني كانت اعدادها تتساوى مع اعداد تلك الوثائق التي اصدرت باللغة اللاتينية او الاغريقية . ثم تغيرت هذه النسبة في عهد وليام الأول واصبحت نسبة عدد الوثائق العربية السبع . ثم في عهد وليام الثاني اصبحت العشر اما في الفترة القصيرة التي استغرقها حكم تانكريد اصبحت الوثائق لاتينية في جملتها[٤٨] .

ولقد تلاشى الوجود الاسلامي في بلرمو وغيرها من البلاد الصقلية عن طريق هجرة من استطاع من المسلمين الى بلاد اسلامية اخرى خارج الجزيرة وكذلك عن طريق تحول بعضهم الى المسيحية هذا بالاضافة الى من هلك في الاضطرابات التي قامت بين المسلمين والمسيحيين . ومع ضعف النفوذ الملكي في نهاية العصر النورماني اصبح بقاء المسلمين متعذرا ، حيث ان الطبقة الاقطاعية التي استحوذت على السلطة الفعلية تقاربت

(٤٥) المصدر نفسه ص٣١٦ .
(٤٦) المصدر نفسه ص٢٩٩ ـ ص٣٠٠ .
(٤٧) المصدر نفسه ص٣٠٦ .
(٤٨) انظر .Curtis, 417

مع الكنيسة ، وكانت هذه ترى في العمل على تحويل المسلمين الى المسيحية عملا صالحا[٤٩] . كما تعرض المسلمون لمذابح في سنة ١١٨٩ - سنة ١١٩٠ . وان الامبراطور فريدريك الثاني ، مع تقديره للثقافة الاسلامية ، الا انه وجه ضربه اخيرة الى العناصر الاسلامية التي اعتبرها مصدر شغب ، ونفى معظم المتبقين الى مدينة لوجارة Lucera في آبوليا (سنة ١٢٤٩م) وبذلك وضع نهاية لوجود المسلمين في صقلية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

الا ان هذه المتاعب والشعور بالاسى والقلق بل والاضطهاد الذي عانى منه المجتمع العربي الاسلامي في بلرمو في العهد النورماني ، يجب الا تحجب عنا ذلك العطاء الحضاري الذي قدمه هذا المجتمع للغرب الاوروبي . فان المجتمع المذكور بالرغم من تبعيته السياسية لحاكم اجنبي ، ظل نشطا وسخيا في عطائه الحضاري على ما تشهد به المصادر التاريخية . وقد اسهم بدور كبير في الوصول بمدنية بلرمو بعد ان اصبحت عاصمة للنورمان ، الى ما وصلت اليه من مكانة رفيعة . فقد اصبحت مركزا فكريا غنيا بعلمائه وبنشاطه العلمي . كما حققت بلرمو تطورا اقتصاديا كبيرا واستحوذت على قدر هائل من الثراء ، بسبب نشاطها التجاري بشكل خاص ، حي ان دخلها اصبح اكبر من دخل مملكة انجلترا النورمانية باكملها . وقد استغلت بلرمو هذه الثروة في اقامة مجموعة من المنشآت والمباني الفاخرة حتى اصبحت اجمل مدن الغرب الاوروبي ، وكان من بدائع آثارها المعمارية ، القبيبة Cubola التي اقيمت وسط الحدائق الجميلة ، وهي تشهد بتأثير الطراز العربي الاسلامي ، وهناك ايضا قصر القبة La Cuba الذي يبين هو وغيره من الآثار الجميلة المؤثرات الاسلامية .

وعندما يكتب ابن جبير مقيما اهمية بلرمو ، قائلا عنها : « هي بهذه الجزائر ام الحضارة »[٥٠] فيجب ان نتذكر ماضيها ودورها كميدان للقاء الحضاري على مر العصور . كما يجب ان نسجل للمجتمع العربي الاسلامي الذي قام بها زمنا طويلا ، ما كان له من افضال ومآثر كمجتمع حضاري معطاء .
عن ذلك ، فانه مما يبرز اهمية الدور الذي قام به المسلمون انه كان في قلب جزيرة صقلية ، التي تعتبر بحق معبرا من المعابر الاساسية للحضارة العربية الاسلامية الى الغرب الاوروبي في العصور الوسطى .

***

(٤٩) انظر Gabrieli, "L a politique Arabe",92.
(٥٠) ابن جبير ص٣٠٥

المراجـــع العربيـــة :

- ماري (ميخائيل) ، المكتبة العربية الصقلية (جمع وتحقيق) ، ليبسك ١٨٥٧ - بغداد ، طبعة الاوفست ، مكتبة المثنى .

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٤ .

- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٤ .

- ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، بيروت ، منشورات مكتبة الحياة .

- ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، تحقيق علي عبدالواحد وافي ، القاهرة لجنة البيان العربي (ط٢) ١٩٦٥ .

- عاشور سعيد اوربا العصور الوسطى ، ج٢ النهضات والحضارة والنظم - القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٨ .

- عباس احسان ، العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والادب ، القاهرة ١٩٥٩ .

- والاس هادريل : اوروبا في صدر العصور الوسطى (تعريب وتقديم وتعليق د . حياة الحجي) الكويت ، مؤسسة الصباح ، ١٩٧٩ .

المراجـع الاجنبيـــة :

Amari, Michele,

— Storia dei Musulmani di Sicilia. 3 vols.

cura di Nallino, Seconda ediziene, Catania, 1933-1939.

— Le Epigrafi Arabiche di Sicilia, Palermo, 1875-85.

Chalandon, F., "La Diplomatique des Normands de Sicile et de Itali, meridionale, "Melenges d'archeologie et d'histoire, Ecole Francaise de Rome, XX, Rome 1900.

— Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, Paris 1907.

Curtis, E., Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy 1016-1154. New York 1912.

Cusa, S., Diplomi gerci e arabi di Sicilia, Palermo 1860-1882.

Daniel, N., The Arabs and Medieval Europe, New York 1979.

Falcandus, H., La Historia o regno Sicilie e la Epistola ad Petrum Panormitane Ecclesie these ... Rome 1904.

Haskins, C.H.,

— The Normans in Europe'n di!story, Boston 1915.

— Norman Institutions.

— "Science at the Court of Frederick" in Studies in the History of Medieval Science, Cambridge 1927.

Setton, K., (ed.) A History of the Crusades, vol I & II, Philadelphia 1958.

Waern, C., Medieval Sicily, 1910.



المنهج في البحوث المستقبلية

ناهد صالح

مستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت الدراسات المستقبلية تأخذ الطابع العلمي الذي حدا بالبعض إلى الدعوة إلى قيام علم جديد هو علم المستقبل Futurology ، أو علم دراسة المستقبل Discipline of Studying the Future . وقد شهدت ثلاثة العقود الأخيرة بالذات طفرة في هذا المجال تمثلت في عقد العديد من الندوات والمؤتمرات على المستوى القومي والاقليمي والعالمي ، حيث تخطت طرح صور مستقبل العالم ومستقبل المجتمعات إلى مناقشة المناهج والأساليب العلمية التي تكفل أكبر قدر من الموضوعية في رسم هذه الصور وفي تحديد أبعادها ، كما تمثلت هذه الطفرة أيضا في إنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات العلمية المعنية بالبحوث المستقبلية ، وفي توافر علماء ومفكرين تختلف تخصصاتهم وتجمع بينهم النظرة العلمية على تطويع مناهج البحث المعروفة لكي تلائم البحوث المستقبلية ، بل وعلى إبداع مناهج وأساليب بحث تتفق وطبيعة البحث العلمي الذي يشكل المستقبل موضوع اهتمامه .

ورغم هذا ، فلا يزال الاهتمام بموضوع المنهج ـ وموضوع النظرية أيضا ـ في البحوث والدراسات المستقبلية لا يحظى إلا بالنزر اليسير من الجهد العلمي إذا قيس بالجهد الموجه أساسا إلى إجراء البحوث والدراسات المستقبلية في حد ذاتها[1] .

وقبل أن نتناول مناهج وأساليب البحث المستخدمة في الدراسات والبحوث المستقبلية نعرض للمداخل approaches المختلفة لهذه الدراسات والبحوث نظرا لأن المنهج الذي يختاره الباحث ، وأسلوب البحث

---

(١) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow" Courier, UNESCO, April 1971, p.10.

الذي ينتقيه أو يبدعه لدراسة موضوع ما يتوقف إلى حد كبير على مدخله في تناول هذا الموضوع .

المدخل في البحوث المستقبلية :

البحوث المستقبلية تمثل مجال اهتمام وأرضا مشتركة لتخصصات علمية متنوعة ، لذلك كان من الطبيعي أن نتوقع أن يختلف مدخل الباحث باختلاف تخصصه الأكاديمي ، وكان من الطبيعي أن يختلف مدخل عالم الرياضيات عن مدخل عالم الاجتماع عن مدخل عالم الطبيعة عن مدخل عالم السياسة . . إلخ . بل إن الانتماء الأيديولوجي للباحث في داخل التخصص الواحد يفرض عليه مدخلا يتفق ورؤيته المستقبلية لحركة المجتمع . بل إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن انتماء الباحث - أيا ما كانت الأيديولوجية التي يأخذ بها - إلى دولة متقدمة أو دولة نامية يلعب دوره في تحديد مدخله في الدراسة المستقبلية أو البحث المستقبلي الذي يجريه . ويكفي أن نرجع إلى الدراسات والبحوث المستقبلية في كل من أوروبا وأمريكا لنكتشف كيف أثر الاختلاف الثقافي في المدخل السائد في هذا النوع من البحوث والدراسات ، حيث تتبع دول أوروبا مدخلا نظريا theoretical approach ، بينما يوصف المدخل الذي يتبع في أمريكا بأنه مدخل براجماتي Pramatic approach(٢) .

وعموما فإنه نظرا لأن هناك أكثر من عامل يحدد مدخل الباحث أو منحاه للتوصل إلى تكهناته أو تنبؤاته التي تتناول المستقبل ، فإنه يمكننا أن نصنف هذه المداخل وفقا لأكثر من معيار :

أولا : المدخل المحافظ Conservative في مقابل المدخل الراديكالي Radical .

ثانيا : المدخل الكمي Quantitative في مقابل المدخل الكيفي Qualitative .

ثالثا : المدخل الموضوعي Odjective في مقابل المدخل الذاتي Subjective .

رابعا : المدخل الجزئي في مقابل المدخل الكلي .

أولا : المدخل المحافظ في مقابل المدخل الراديكالي :

إذا استعرضنا التراث العلمي في مجال الدراسات المستقبلية فإنه يمكننا أن نصنفه إلى دراسات هي بمثابة إسقاطات Projections ، وأخرى يمكن اعتبارها من قبيل التنبؤات Predections ، كل منها يعكس رؤية مختلفة ويعبر عن اختيار مختلف للمدخل الملائم لرسم صورة المستقبل .

يقوم المدخل الأول على أساس أن عالم الغد هو امتداد لعالم اليوم الذي هو بدوره امتداد لعالم الأمس ، وإن اختلاف المستقبل عن الحاضر عن الماضي القريب هو اختلاف في الدرجة لا اختلاف في النوع ، فالتغير الذي سيحدث بالنسبة للمستقبل هو تغير كمي أساسا أكثر منه تغيرا كيفيا . هو تغير في الكم ، في الحجم ، في السرعة . . إلخ . . . فالمستقبل سيكون مشابها للحاضر وللماضي إلى حد كبير ، ولكنه سيكون أكثر منه تشبعا بالنزعة العلمانية ، بزيادة درجة التحضر ، بزيادة النمو الاقتصادي ، بامتداد السيطرة التكنولوجية على

(٢) Radovan Richta and Ota Sulc, "Forcasting and the Scientific and technological revolution," **Int. Social Science Journal,** Vol. XXI, No. 4, 1969, pp. 464-465.

الطبيعة ، بارتفاع متوسط الدخل الفردي ، بتزايد استهلاك الطاقة ، بالتوسع في إحلال الأساليب والنظم الآلية والالكترونية محل الوظائف الانسانية . . إلخ . فهو مدخل يرى أن كل شيء في المستقبل سيكون في جوهره أو أساسه كما هو حاليا ، وأن ما سوف يميز المستقبل عن الحاضر هو التغير الكمي . فالمنحنيات ستستمر في ارتفاعها ، والمستقبل سلسلة لا نهائية من المخترعات الانسانية ، والتحسن في الانتاج والخدمات يسير في الخطوط التي حدد الحاضر مسارها الفعلي .

هذا المدخل يقوم إذا على أساس رؤية المستقبل كتقدير إسقاطي لما يكشف عنه الحاضر والماضي القريب . فالتنبؤ بالمستقبل يتم على أساس استقراء للماضي والحاضر .

ولا يشترط أن تتسم نظرة أصحاب هذا المدخل المحافظ بالنظرة المتفائلة ، بل إنه يضم أيضا هؤلاء الذين يغلب التشاؤم على نظرتهم للمستقبل . فهم إذ يركزون مثلا على مشكلة استنزاف الموارد الطبيعية ، ونقص الطاقة وزيادة تلوث البيئة . . إلخ إنما يتبعون في تنبؤاتهم هذه نفس المدخل المحافظ ، فهم يرون أن موارد اليوم هي موارد الغد وأن مشكلات المستقبل توجد بدايتها في الحاضر[٣] .

وفي مقابل هذا المدخل الذي يمكن اعتباره مدخلا محافظا ، والذي ينظر إلى المستقبل كامتداد للحاضر ، ويبني رؤيته له على أساس أنه نتاج لتغير كمي ، يوجد مدخل آخر تُبنى رؤيته المستقبلية على أساس تصور انبثاق تكنولوجيا جديدة فعالة ، أو تنظيم اجتماعي جديد ، أو مختلف تماما عن التنظيم الاجتماعي الموجود في الحاضر ، يكون من شأنه إحداث تغير كيفي ، من شأنه ألا يصبح المستقبل مجرد امتداد للحاضر . بل يجب النظر إلى المستقبل على أنه يمثل نقيضا للحاضر إن لم يكن نقيضه في كافة جوانبه ففي بعضها .

وأصحاب هذا المدخل يرون أن أسلوب التنبؤ بالمستقبل يقوم على أساس نوع من التخيل imagination إلا أنهم يرفضون التخيل المنطقي Logical imagination السائد في أغلب أساليب البحث التي يعتمد عليها الذين ينهجون مدخلا محافظا في دراستهم للمستقبل ، هذا النوع من التخيل الذي يحاول تخطي الفجوة بين ما هو معروف في الحاضر وما هو مجهول في المستقبل عن طريق نوع من الاسقاط العقلاني rational progcction ، وهم في رفضهم لهذا المدخل يرفضون كافة أساليب البحث التي يتبعها أصحاب المدخل المحافظ ، فيرفضون أبسط أنواع هذه الأساليب التي تقوم على التقدير الاستقرائي ، والتي تعتمد على التخيل المنطقي مثل مد المنحنيات ، كما يرفضون الأساليب الأكثر تطورا وتعقيدا مثل أسلوب تحليل النظم System Analysis والأسلوب المعروف في الدراسات المستقبلية باسم الأسلوب المورفولوجي The Morphological technique وأسلوب بناء النماذج Models كما يستخدمها أصحاب المدخل الاستطلاعي .

وهم يرون أيضا أن محاولات التنبؤ المعياري التي تقوم على أساس رسم صورة معيارية normastive للمستقبل المرغوب في تحقيقه والتي قد تبدو ظاهريا أنها غير مرتبطة بالحاضر ، هي في الواقع مرتبطة به بحيث يمكن تتبع الخطوات المنطقية التي من خلالها ننتقل من الحاضر إلى المستقبل المعياري هذا .

---

(٣) Robert U. Ayres, **Uncertain Futures**, John Wiley and sons, New York, 1979, pp. 2-4.

فأصحاب المدخل الراديكالي يبنون تنبؤاتهم عن المستقبل على أساس التخيل الابداعي Creative im-asgination الذي يعتمد على إسقاط الحاضر على المستقبل ، أو على تجميع للاتجاهات trends الموجودة في الحاضر أو اتخاذ مسار معاكس لها ، وإنما هو يبني صورة المستقبل على أساس بداية راديكالية بداية لا تستند إلى الحاضر وإلى ما هو متوقع بناء على استقرائه . ويرى أصحاب هذا المدخل أن استقراء تاريخ العلم وتاريخ الفن وتاريخ الحضارة يؤيد مدخلهم هذا(٤) .

ومن هنا فإن أصحاب هذا المدخل يرون أن أي شيء يمكن للعقل البشري أن يتصوره فإنه يمكن تحقيقه طالما أنه لا يتعارض مع القوانين الطبيعية ، وهم في هذا لا يفرقون بين الممكن Possible وبين المتوقع أو المحتمل Probable إذ هم في تصورهم للمستقبل اليوتوبي Utobian Future يتجاهلون كافة الصعاب والمشكلات التي قد تحول دون إمكانية تحقيقه . إنهم لا يهتمون بتحديد كيف ننتقل من الوضع الحالي إلى المستقبل المتخيل هذا . إنهم يتغاضون عن كافة الديناميات المعقدة التي تسم عالمنا الواقعي الأمر الذي جعل البعض يرى أن أصحاب هذا المدخل لا يختلفون كثيرا عن أصحاب الأدب العلمي الخيالي(٥) .

وإذا كان أصحاب المدخل المحافظ بحكم طبيعة مدخلهم يعتمدون في تنبؤاتهم المستقبلية على أساليب بحث ترتكن إلى بيانات واقعية وتستند إلى الحاضر ، فإن أصحاب المدخل الراديكالي بحكم طبيعة مدخلهم أيضا يعتمدون على أساليب بحث تطلق العنان لخيال الباحث ولقدرته الحدسية والابداعية مثل الأسلوب المعروف باسم أسلوب دلفي Delphi technique وأسلوب السيناريو Scenario وغيرهما من الأساليب .

ثانيا : المدخل الكمي في مقابل المدخل الكيفي :

يمكن أن تصنف البحوث والدراسات المستقبلية وفقا لمعيار آخر هو طبيعة المدخل الذي اعتمدت عليه . هل هو مدخل كمي ، حيث يعتمد الباحث في رؤيته للمستقبل على بيانات كمية يقوم بتحليلها ؟ أم هو مدخل كيفي يستند فيه الباحث إلى استبصارات وقيم وإلى أحكام كيفية . هذان المدخلان مختلفان تماما ويعكسان أسلوبين للتفكير متضادين كلية . فالعالم أو الباحث الذي يأخذ بالمدخل الكمي يهتم في رؤيته المستقبلية بأشياء مختلفة تماما عن العالم أو الباحث الذي يأخذ بالمدخل الكيفي . بحيث إننا قد نأخذ انطباعا بأن كلا منهما لم يستمع إلى الآخر أو حتى سمع به .

أصحاب المدخل الكمي يصلون إلى تنبؤات مبنية على أساس كمي ، مستندة إلى حقائق وأرقام عن السكان ، قوة العمل ، الدخل القومي ، الناتج الزراعي ، استهلاك الطاقة ، درجة التحضر ، توقعات الحياة . . . إلخ . . . ويعتمدون على قياس اتجاهات المتغيرات والعلاقات بينها ، ثم يحاولون رسم صورة للمستقبل في ضوء هذه الحقائق والبيانات الكمية ، أو يقول أدق الحقائق التي يمكن التعبير عنها ومعالجتها كميا .

(٤) Robert Jungk, "Imagination and the future" **Int. Social Science Journal,** Vol. XXI, No. 4, 1969, pp. 559-561.

(٥) Robert U. Ayres, op. cit., p. 5

وأصحاب هذا المدخل هم عادة من العلماء المتمكنين من الأساليب الرياضية ، من العلماء المتمرسين على بناء النماذج وعلى كيفية الاستفادة من الحاسبات الالكترونية ، بحيث تصبح عملية بناء النموذج وإدخال التحسينات عليه هي شغلهم الشاغل ، ويصبح النموذج وما يشتمل عليه من متغيرات هو المسيطر على رؤيتهم المستقبلية . علما بأن النموذج هو بمثابة تجريد لبعض المتغيرات التي أمكن بحكم طبيعتها ، وليس بحكم الأهمية التي تمثلها في العالم الحقيقي ، إدخالها في بناء النموذج . ومن ثم فإن العوامل التي تقبل التكميم هي فقط التي تحكم تنبؤات العلماء والباحثين الذين يأخذون بالمدخل الكمي أما المتغيرات الأخرى الكيفية والتي تتعلق بالتنظيم السياسي ، والبناء الاجتماعي ، والعلاقات الاجتماعية ، والاحتياجات النفسية . . والتي قد لا تقبل المعالجة الكمية فإنها تستبعد من جانب أصحاب هذا المدخل(٦) .

في الطرف المقابل يوجد المدخل الكيفي الذي يرى أصحابه أن المدخل الكمي يقدم صورة ناقصة للمستقبل نظرا لأن طبيعة وخصائص المستقبل تحدد إلى حد بعيد بالتغيرات الكيفية لا الكمية(٧) .

وأصحاب المدخل الكيفي يبتعدون تماما في رؤيتهم للمستقبل عن النماذج والبيانات الكمية ، سواء بمحض اختيارهم أو نتيجة لعدم قدرتهم على استخدام الأساليب الرياضية . وهم يركزون على الجوانب الكيفية كنوعية الحياة Quality of life وإمكانات التكنولوجيا لحل المشكلات ، ومنهم من تغلب عليه النزعة التشاؤمية فيهتم بالاغتراب واللامبالاة ، والجريمة والتفكك الاجتماعي والانحدار الأخلاقي . . إلخ . .

وعلى الرغم من أن أصحاب هذا المدخل يهتمون بعوامل على جانب عظيم من الأهمية قد يغفلها تماما أصحاب المدخل الكمي ، إلا أن تغاضيهم في تنبؤاتهم المستقبلية عن تقدير اتجاهات بعض المتغيرات الكمية الهامة التي تؤثر فعلا على العوامل الكيفية التي يقصرون اهتمامهم عليها ، تعيب تنبؤاتهم هذه ، تماما كما يعيب تنبؤات أصحاب المدخل الكمي إغفالهم للعوامل الكيفية . ويمكن تفسير كلا الموقفين بأنه عدم إدراك للعلاقة بين التغير الكمي والتغير الكيفي ، والتي مؤداها أن التغيرات الكمية تحدث تغيرات كيفية كما أن التغيرات الكيفية من شأنها أن تحدث تغيرات كمية(٨) .

ثالثا : المدخل الموضوعي في مقابل المدخل الذاتي :

المعيار الثالث الذي يمكن أن تصنف بناء عليه الدراسات والبحوث المستقبلية هو معيار الموضوعية والذاتية . هل مدخل الباحث في تصوره للمستقبل مدخل علمي ، مدخل موضوعي ، أم أن مدخله مدخل غير علمي مدخل ذاتي أقرب الى العمل الفني منه الى العمل العلمي ؟

اذا كان من الممكن التأكد من توافر الموضوعية ، التي هي جوهر العلم وأساس المنهج العلمي ، في البحوث والدراسات التي تتخذ من الحاضر مجالا لها ، الا أن صعوبة ذلك تبدو واضحة للغاية بالنسبة للبحوث

(٦) Ibid, pp. 11-12
(٧) Robert Jungk, Imagination and the future, p. 558.
(٨) Ibid., pp. 13-14.

والدراسات التي يشكل المستقبل موضوعا لها . ورغم ذلك فقد حاول العلماء من المهتمين بتقويم الدراسات المستقبلية وضع بعض المتطلبات التي يحقق توافرها الطابع العلمي لهذه الدراسات والتي يلتزم بأغلبها ان لم يكن بها كلها أصحاب المدخل الموضوعي . من أهم هذه المتطلبات ما يلي(٩):

أ - يجب أن يكون التنبؤ قابلا للتحقق من مدى صحته . وهذا يستلزم أن تتميز المفهومات المستخدمة بالدقة العلمية وأن تحدد بوضوح الفترة الزمنية التي يشملها التنبؤ تماما ، بحيث يمكن بعد مرور هذه الفترة أن نحدد بدقة تحت أي ظروف تحققت صحة هذا التنبؤ ، وفي أي ظروف ثبتت عدم صحته .

ب - تستلزم الموضوعية أن يتمكن باحثون آخرون غير الباحث الذي قام بالتنبؤ بتتبع الخطوات التي وصل بمقتضاها الى تنبؤاته عن المستقبل ، خطوة خطوة أو بقول آخر معرفة الميكانيزم الخاص بالتنبؤ . وهذا يستلزم أن يستند التنبؤ الى نظرية أو على الأقل الى اطار نظري أياما كانت درجة بساطته . وهذا يعني في رأي البعض أن اسلوب التنبؤ لابد وأن يبدأ بتكوين نموذج نظرى Theoretical Model يكون بمثابة تجريد للعمليات التي تحدث في الواقع خلال فترة زمنية محددة .

ج - لكي تتصف الدراسة المستقبلية والتنبؤات المبنية عليها بالموضوعية وبالعلمية ، ولا بد وأن تستند الى معلومات أي إلى ملاحظات ، حتى ولو كانت درجة دقتها منخفضة .

د - يجب أن يحدد ثبات reliability التنبؤ ، ومعناه هنا أن يذكر مسبقا ، وبقدر من الدقة احتمال الصحة المتوقعة للتنبؤ . وهذا يعني أن النظرية أو الاطار النظري الذي يستند اليه التنبؤ ذو طبيعة تصادفية Stochas-tic حيث تدخل بجانب المتغيرات المحددة ، المتغيرات العشوائية التي يمكن اعطاؤها سلسلة من القيم كل قيمه تكون لها درجة احتمالية معينة .

هذه هي أهم المتطلبات التي حرص العلماء على ابرازها والتي يمكن بناء على الالتزام بها الحكم على مدخل الباحث في تنبؤه هل هو مدخل موضوعي أم مدخل ذاتي . فالحد الأدنى من الموضوعية يستلزم أن توضح الخطوات والاجراءات والأساليب التي اتبعها الباحث في التوصل الى صورة المستقبل ، وأن يحدد الاطار النظري الذي استند اليه لذلك ، والفترة الزمنية التي يشملها تنبؤه ، والاحتمالات المتوقعة لصحته ، والشروط اللازم توافرها لذلك . كل هذا استنادا الى معلومات وملاحظات بحيث يمكن في النهاية أن تقوم التنبؤات التي يتوصل اليها تقويما علميا . أما الدراسات المستقبلية التي توصف بالذاتية فهي تلك التي تفتقر الى كل هذه المتطلبات العلمية أو أغلبها ، وفيها يعجز القائم بها عن شرح كيف توصل الى تنبؤاته فهي عادة تنبثق عن رؤية جشطلتية حدسية ، تعكس ذاتية الفرد وخبراته الخاصة ، وبالتالي فهي أقرب الى العمل الفنى منها الى العمل العلمي .

وقد تمثلت طبيعة المدخل من حيث كونه مدخلا موضوعيا أو ذاتيا في طبيعة أساليب البحث المستخدمة في الدراسات المستقبلية والتي يعتمد عليها الباحث في التوصل لتنبؤاته ، فبينما نجد بعضها يتصف بكونه

(٩) Fred. L. Polak, **Prognostics, A Science in the making surveys and creates the future,** Elsevier Publishing Company, Amesterdam, 1971, pp. 382-383.

أسلوبا علميا نجد البعض الآخر يوصف بأنه أسلوب فني أكثر من كونه أسلوبا علميا .

رابعا : المدخل الجزئي في مقابل المدخل الكلي :

المعيار الأخير الذي يمكن أن تصنف وفقا له الدراسات والبحوث المستقبلية من حيث مدخلها في الدراسة ، هو مدى محدودية أو شمول هذا المدخل . هل هو مدخل جزئي يبني رؤيته المستقبلية على أساس الاهتمام بالتغير في جانب واحد من المجتمع ، بالتغير التكنولوجي أو التغيرات الاقتصادية مثلا ؟ . أم هو مدخل يبني تصوره للمستقبل على أساس ادراك لطبيعة المجتمع ككل متشابك ، حيث لايمكن تصور تغير تكنولوجي أو اقتصادي في عزلة عن كافة أبعاد البناء الاجتماعي ومكوناته الثقافية ؟

اذا تتبعنا التاريخ القصير للتنبؤات العلمية عن المستقبل ، نجد أن الاهتمام كان منصبا منذ البداية على تلك التنبؤات التي ترسم صورة المستقبل باعتبار أنه نتاج للتقدم العلمي والتقدم التكنولوجي . ثم بدأت التنبؤات العلمية والتكنولوجية بالتدريج تفسح مجالا للتنبؤات الاقتصادية . وهنا تشعبت هذه التنبؤات في اتجاهين . اتجاه يرى أصحابه أنه في مجال التنبؤات الاجتماعية فان التنبؤ يكون ممكنا فقط بالنسبة للجوانب الاقتصادية ، أما الجوانب الاجتماعية الأخرى فهي بحكم طبيعتها ، وفقا لرأيهم ، لايمكن تناولها الا في حدود ارتباطها بالجوانب الاقتصادية . فالتنبؤات الاجتماعية بما في ذلك التنبؤات الديموجرافية التنبؤات التي تتناول الجوانب المتعلقة ببناء المجتمع وثقافته ، التنبؤات التي تتناول نواحي معينة في المجتمع مثل النمو الحضري ، التعليم ، الصحة ، الفن ، القانون ، الأخلاق والآثار المترتبة على التقدم العلمي والتكنولوجي ، لاتزال متخلفة بالنسبة للتنبؤات الاقتصادية نظرا لأنها تعتبر ، وفقا لهذا الاتجاه جانبا فرعيا أو ثانويا بالنسبة للجانب الاقتصادي في المجتمع[١٠] .

وفي مقابل الاتجاه السابق ، يوجد فريق من العلماء يرى أن التنبؤات الاقتصادية ما هي الا جانب واحد من التنبؤات الاجتماعية وأنه يجب ادراك وفهم العمليات الاجتماعية في أوسع معنى لها كعمليات تشمل كافة الانشطة الخاصة بالمجتمع الانساني الذي يمثل النشاط الاقتصادي جانبا واحدا منها فقط .

واذا كان الاهتمام عموما بالجانب الاقتصادي في رسم صورة المستقبل قد مهد الطريق لادخال أبعاد اجتماعية أخرى في هذه الصورة ، فان طرح فكرة المستقبل المرغوب في تحقيقه Desirable Future في مقابل الاكتفاء بالمستقبل المتوقع أو المحتمل تحققه Probabie Future ، فرض الاهتمام ببعد اجتماعي له أهميته وهو الخاص بالقيم Values, طالما أن القيم هي جوهر الصورة التي ترسم للمستقبل المرغوب فيه . ومن هنا اتسع الاهتمام ـ رغم أنه لايزال محدودا ـ بكافة أبعاد البناء الاجتماعي ومكوناته الثقافية نظرا لأن القيم تمثل الخيط الذي يمتد بين كافة هذه الابعاد والمكونات ويربط بينها .

واليوم أصبح يوجد مدخل واضح يتبناه عدد من العلماء المهتمين بالبحوث المستقبلية والذين يتميزون

(١٠) Igor Bestuzhev-Lada, "Forcasting an approach to the problem of the future", **Int. Social Science Journal,** Vol. XXI, No. 4, 1969. pp. 530-531.

بالرؤية الكلية الشاملة ينظر الى المستقبل باعتباره كلا متكاملا ، مدركا أن اتساع النظرة وشمولها ليس مرادفا لدقتها وعمقها ، فمجرد ادخال كافة العوامل أو مجرد التراكم في البيانات ليس بكاف لادراك ديناميات المكونات المختلفة ، والعلاقات المتبادلة بينها ، والتفاعل بين العوامل الموضوعية والذاتية ، هذا الادراك الذي هو لب المدخل الشامل الحق في التنبؤ بالمستقبل .(١١).

وعموما فقد انعكس هذا المدخل بصورة مباشرة على أساليب البحث المستخدمة في رسم صورة المستقبل بحيث أصبحت لاتكتفي بالدعوة الى ضرورة وجود العالم الذي يتميز بالرؤية العامة generalist (١٢) بل أصبحت تعتمد على عمل الفريق البحثي وعلى التفاعل ، سواء المباشر أو غير المباشر ، بين آراء الخبراء والمتخصصين في كافة المجالات ، وعلى الأساليب المتقدمة في تحليل النظم وفي بناء النماذج وخاصة نماذج المحاكاة Simulation Models ، فضلا عن استخدام امكانات الحاسبات الالكترونية ، وابداع أساليب تحليل تتيح امكانية الربط بين الرؤية النظرية ، وبين النتائج المستخلصة من الدراسات الواقعية ، (١٣) ، كل هذا بهدفَ تحقيق رؤية شاملة ودقيقة ، على قدر الامكان ، لصورة المستقبل سواء المستقبل المتوقع او المستقبل الممكن او المستقبل المرغوب في تحقيقه .

●●●

أنماط البحوث المستقبلية :

ان اختيار الباحث للمدخل الذي يتخذه في دراسته المستقبلية سواء كان مدخلا محافظا أو راديكاليا ، مدخلا اسقاطيا أو تنبؤيا ، مدخلا كميا أو كيفيا ، مدخلا موضوعيا أو ذاتيا ، مدخلا جزئيا أو كليا يعكس رؤية الباحث للمستقبل ونطاق خبرته العلمية ، كما ينعكس بدوره على نمط الدراسة المستقبلية التي ينتهي اليها .

ويمكننا أن نميز بين نمطين أساسيين من الدراسات المستقبلية ، النمط الأول هو النمط الاستطلاعي أو الاستكشافي Exploratory Type ، ويهدف أساسا الى استكشاف صورة المستقبل المتوقع أو المحتمل Probable Future أو المستقبل الممكن تحقيقه Possible Future . ويقابل هذا النمط النمط المعياري Normative Type وفيه يتخطى الباحث المستقبل المتوقع الممكن تحققه ، الى رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه Desirable Future (١٤)

في النمط الأول من الدراسات التنبؤية يتميز مدخل الباحث عادة بأنه مدخل محافظ ، مدخل اسقاطي ، مدخل كمي ، مدخل يتحقق فيه قدر كبير من الموضوعية . في النمط الثاني يتميز مدخل الباحث عادة بأنه مدخل راديكالي ، مدخل كيفي يعتمد على الحدس والخيال والابداع ، مدخل يتميز بقدر أعلى من الذاتية حيث تتدخل القيم والأهداف في رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه .

---

(١١) Radovan Richta and Ota Sulc, op. cit., pp. 564-565.
(١٢) Ibid., p. 565.
(١٣) Ibid., pp. 570-571.
(١٤) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow", op. cit., pp. 12-14.

في النمط الأول يكون سؤال الباحث هو : ما هي صورة المستقبل المتوقع ؟ أو بقول آخر ، أين سنذهب ؟بينما في النمط الثاني يكون السؤال هو : ما هي صورة المستقبل التي ينبغي تحقيقها ؟ أو بقول آخر ، أين ينبغي علينا أن نذهب ؟ (١٥) .

كان من الطبيعي أن تختلف الى حد كبير الخطوات المنهجية في النمط الاستطلاعي من الدراسات المستقبلية ، عن الخطوات المنهجية في النمط المعياري ، الأمر الذي حدا بالبعض الى تقسيم أساليب البحث المستخدمة في البحوث والدراسات المستقبلية الى أساليب بحث استطلاعية أو استكشافية وأساليب بحث معيارية . ويستند أساس هذا التقسيم الى طبيعة البيانات والمعلومات التي يعتمد عليها الأسلوب وعلى أساس مدى انتشار أو شيوع استخدامه في نمط دون الأخر ، وان كان هذا لايمنع من أن كثيرا من الأساليب تستخدم في كل من البحوث الاستطلاعية والبحوث المعيارية .

تستند الخطوات المنهجية في البحوث الاستطلاعية التي تهدف أساسا الى استكشاف الصور الممكنة للمستقبل Futuribles على التقدير الاستقرائي . اذ يعتمد الباحث في ذلك على البيانات والمعلومات ، وعلى تحليل اتجاهات المتغيرات ، وعلى معرفته بالتجديدات innovations العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى التجديدات المتوقعة في المستقبل القريب (١٦) . ثم يعتمد على هذه المعلومات والبيانات جميعها في التوصل الى تنبؤاته المستقبلية ، مستعينا في ذلك بأساليب التحليل الرياضية والاحصائية وبامكانات الحسابات الالكترونية ، وبأسلوب تحليل النظم System Analysis ، وببحوث العمليات Operation reseach فضلا عن تكوين النماذج .

ومن أمثلة أساليب البحث التي تعتمد عليها البحوث الاستطلاعية المستقبلية ، الأسلوب المسمى باسم Contextual Mapping وهو يعتمد على كل من العناصر الكيفية والكمية ، ويضع التفاعل المتبادل بين اتجاهات المتغيرات والعلاقات السببية ، والفرص المحتملة للنمو تحت ظروف معينة ، كامكانيات تكنولوجية جديدة ، في اطار أو سياق عمليات النمو الاجتماعي المتوقعة في المستقبل وأبنية هذا المستقبل (١٧) . ويشيع استخدام هذا الأسلوب بالذات في مجال الصناعة وفي مجال الدفاع . كذلك فان الاسلوب

المعروف باسم الأسلوب المورفولوجي The Morphological technique الذي وضعه عالم الفلك السويسري Fritz Zwicky منذ أكثر من ربع قرن ، وان كان لم يستخدم في مجال البحوث المستقبلية الا حديثا ، يحتل هذاالأسلوب مكانة خاصة في مجال البحوث الاستطلاعية . وجوهر هذا الاسلوب تلخصه ثلاثة أسئلة : ما المصادر التي نحتاج اليها للحصول على كافة المعلومات عن مركب مفترض للظاهرة أو المشكلة

(١٥) Fred. Polak, op. cit., p. 244.
— Igor V. Bestuzhev-Lada, "A Soviet scientist looks at Futurology". Courier, UNESCO, April 1971, p. 24.

(١٦) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow", op. cit., p. 13.

(١٧) Fred. Polak, op. cit., p. 399.

محل البحث ؟ ما هي كافة تأثيرات سبب معين GQUSE ، وماهو تسلسل هذه التأثيرات ؟ وما هي كل الطرق والحلول الممكن تطبيقها بالنسبة للمشكلة محل البحث ؟

وتتكون خطوات هذا الاسلوب من تحديد المشكلة بدقة ، وتحليل المعالم Perameters الهامة لها ، والكشف عن ابعاد ، ومدى ، وعدد القيم بالنسبة لكل معلم من هذه المعالم . تحديد عدد ونوع الحلول . ثم أخيراً تقويم هذه الحلول واختيار الحل الأفضل (١٨) .

وتمثل هذا النوع من الدراسات الاستطلاعية أصدق تمثيل الدراسات التي تجري اليوم عن التنبؤ بزيادة السكان ، بازدياد تلوث البيئة ، بازدياد المخزون من الأسلحة النووية وما اليها من دراسات والتي تعد بمثابة نظام للانذار المبكر early warning system ، يساعدنا على العمل على الحد من بعض الاتجاهات الخطيرة والعمل على زيادة سرعات بعض الجوانب الايجابية (١٩) . وهنا تلعب المؤشرات الاجتماعية Social Indicators دوراً هاماً في مضمار هذا النوع من البحوث الاستطلاعية .

واذا انتقلنا الى النمط الثاني من البحوث والدراسات المستقبلية ، ونعني به النمط المعياري ، وجدنا أنه بدأ في شكل تنبؤ حدسي intuitive for — casting بصورة المستقبل ، سواء المستقبل المتوقع أو الممكن أو المرغوب في تحقيقه . هذا التنبؤ الحدسي يستمد من الخبرة والتخيل والبصيرة . واستحدثت لذلك أساليب بحث معينة يأتي في مقدمتها الأسلوب المعروف باسم Brainstorming وأيضا أسلوب Delphi Method وذلك بهدف تنظيم الاستفادة من تعدد الخبرات والاستبصارات والاستفادة من القدرة على التخيل والابداع (٢٠) ويعتمد كل من هذين الأسلوبين على مجموعة من الخبراء يطلب منهم أن يضعوا صورة للمستقبل أن يخترعوا المستقبل Invent the Future بأن يتنبؤا عن طريق الحدس بتطورات المستقبل في ميادين محددة مثل التعليم ، الصحة ، الطاقة ، القيم ، في الاسلوب الأول تتم هذه العملية في جلسات جماعية حيث تتاح الفرصة لأن يتأثر الفرد بآراء غيره من المشاركين بصورة مباشرة ، بينما لايتوافر عنصر التأثير والتأثر المباشر في الاسلوب الثاني .

والاتجاه الحديث حاليا في النمط المعياري من البحوث والدراسات المستقبلية يتخطى التنبؤ الحدسى ، الذي يكتفي برسم صورة المستقبل ، الى التشكيل الواعي للمستقبل المرغوب في تحقيقه عن طريق وضع معايير واهداف ، ومحاولة التوصل الى أفضل

الأساليب للعمل على تحقيق الصورة المعيارية لهذا المستقبل . وقد أوضح أولاف هيلمر Olaf Helmer أحد من أسهموا في وضع اسلوب من أهم أساليب البحث المستخدمة حاليا في البحوث والدراسات المستقبلية والتى يغلب عليها الطابع المعيارى والمعروف باسم اسلوب دفي ـ ان المفهوم القدري للمستقبل الذي تستحيل معرفته ، أو لايمكن تجنبه ، لم يحل دون ادراك

---

(١٨) Ibid., pp. 396-397.

Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow" op. cit. p. 13

(١٩) Ibid., P. 14.

(٢٠) Ibid., p. 12.

أن هناك عددا كبيرا من صور المستقبل المحتمل تحققها وأن الاجراء الواحد قد يؤثر على هذه الصورة بطرق مختلفة . ومن ثم فلا بد من استكشاف الأشياء المقبلة ومحاولة التأثير فيها في اطار من المسؤولية الاجتماعية . وانه اذا كان علينا أن نأخذ على عاتقنا هذه المسئولية فينبغي أن نكف عن أن نكون مجرد متأملين لتاريخ العالم ، بل يجب أن نؤثر في هذا التاريخ بأن نهدف الى تشكيل أو تعديل شكل المستقبل (٢١) . حقا لقدتركنا العصر الذي كان الممكن هو الذي يطبق ، ووصلنا الى عصر الاختيار ، وبدأنا نسأل أنفسنا ما هو المرغوب فيه وكيف نحققه ؟ وهذا هو جوهر النمط المعياري للبحوث المستقبلية . (٢٢)

هذا النمط من البحوث استحدث أساليب بحث تتفق وطبيعته والهدف الذي يسعى الى تحقيقه . بحيث تتيح أساليب البحث هذه وضع الصورة المعيارية للمستقبل ، ووزن كل الأهداف الممكنة في مقابل بعضها البعض ، وتحديد أولوياتها ـ وهنا يستعان بالنظريات الحديثة في اتخاذ القرار Decision Making وكيفية تحقيقها . وتتميز أساليب البحث بأنها يمكن

وصفها بأنها أساليب للتخطيط المعكوس reverse Planining techniques (٢٣) من ذلك مثلا أسلوب البحث المعروف باسم The Relevanc Tree ويطلق عليه أيضا The Family tree Method (٢٤) ويقوم هذا الأسلوب على أساس تحديد هدف معين للمستقبل يمثل قمة الشجرة ، وننزل من هذا الهدف الى الحاضر ، ونبحث في البدائل المختلفة لتحقيق هذا الهدف ، وأفضل مسار ممكن للانتقال من أسفل الشجرة الى أعلاها ، ومن الحاضر الى المستقبل .

وقد يبدو هذا الاسلوب في ظاهره أنه أسلوب بسيط يسهل اتباعه الا أننا اذا تتبعنا العمليات المنهجية التي تستلزمها كل خطوة من خطواته تبين لنا أنه اسلوب يجمع بين الشمول والدقة . فتبدأ أولى خطوات هذا الاسلوب بترتيب الأهداف الأساسية وفقا لأهميتها ترتيبا تسلسليا ـ وهنا تتدخل القيم والأيديولوجيات في تحديد هذه الأهداف ومدى أهمية كل منها ـ ثم تحدد العمليات الأساسية اللازمة لتحقيق كل من هذه الأهداف ، ثم يحدد العمل الذي تتطلبه كل عملية من هذه العمليات ، ومتطلبات هذا العمل أيضا ، ثم تحدد مكونات هذه الوسائل جميعها .

الخطوة التالية في هذا الأسلوب تحديد المعايير التي بناء عليها تحدد درجة لمختلف العناصر الواقعة على كل فرع من فروع هذه الشجرة ، ثم تعطي أوزانا لهذه المعايير . الأوزان والمعايير يكونان معا السيناريو Scenario الخاص بالمستقبل ـ هذه الدرجة تكون بمثابة مؤشر يدل على قيمة كل عنصر بالنسبة لكل معيار من المعايير التي وضعت في الاعتبار . ثم باستخدام المعالجات الرياضية تحدد القيم الخاصة بالوسائل ـ والتي توجد في أسفل الشجرة ـ في علاقتها المباشرة بالأهداف ـ والتي يحدد وضعها في قمة الشجرة وفقا لأولوياتها . هذا الأسلوب يمثل تقدما في منهجية الاختيار كما يتميز هذا الأسلوب ـ

---

(٢١) Ibid., p. 14-15

(٢٢) Pierre Piganiol, "Introduction: Futurology and Prospective study" **Int. Social Science Jonrnal** Vol. XXI No. 4. UNESCO, 1969, P. 518.

(٢٣) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., p. 14.

(٢٤) Fred Polak op. cit. p. 396.

ويشاركه في هذا أيضا أسلوب تحليل التكلفة والعائد Cost — benefit Analysis ـ في أنه ينتقل من الكيفي إلى الكمي ، من الكيفي الذي يتمثل فيما نرغب فيه بالنسبة للمستقبل ، إلى الأولويات التي تحدد على أساس كمي . وعموما فهو يضع في اعتباره واقع حاضرنا والمستقبل المرغوب في تحقيقه ، وأفضل الوسائل لتحقيق ذلك(٢٥) .

وإذا كان هذا الأسلوب قد ثبتت كفاءته في ميدان التنبؤات العسكرية وفي مجال البيولوجي وفي مجال الطب ، فإن تعقيدات العالم الاجتماعي حدت من كفاءة هذا الأسلوب بحيث لجأ العلماء إلى الاستعانة بتحليل النظم وتكوين النماذج التي تعتمد على أساليب رياضية على درجة عالية من التقدم ، والتي مهدت الطريق لانشاء النماذج الاجتماعية Social Models التي تعتمد على المؤشرات الاجتماعية Social Indicators سواء ذات الطبيعة الكمية أو الكيفية ، والتي يفترض ان كلا منها يعكس جانبا من جوانب المجتمع(٢٦) .

من العرض السابق يتبين لنا أنه بينما تبدأ الخطوات المنهجية في البحوث الاستطلاعية أو الاستكشافية من الحاضر ومنه تسقط صورة المستقبل المتوقعة أو الممكن تحقيقها . فإن الخطوات المنهجية للبحوث المعيارية تبدأ من رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه ومنها تنتقل الى الحاضر . ومن هنا كان من الطبيعي أن يختص كل نمط من أنماط هذه البحوث بأساليب بحث معينة ، وإن كان هذا لم يمنع من أن بعض أساليب البحث يستعان بها في كل نمط منهما .

وإذا كان أغلب البحوث والدراسات المستقبلية يمكن إدراجها تحت أحد هذين النمطين من البحوث المستقبلية ، إلا أن هناك اتجاها حديثا يرى أن مستقبل البحوث المستقبلية ، وقيام علم للمستقبل ، يتوقف على الجمع بين هذين النمطين في شكل تغذية مرتدة feedback من كل منهما للآخر . فإذا كان تنبؤنا بالمستقبل المتوقع والمستقبل الممكن تحقيقه أمرا لا غنى عنه ، فإن تحديد صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه أمر لابد منه ، متى كان هناك اقتناع بقدرة العلم والقدرة البشرية على تحقيق ذلك . وقد أثمرت دعوة العلماء الذين يتبنون هذا الاتجاه الحديث في البحوث المستقبلية والذي يجمع بين البحث الاستكشافي أو الاستطلاعي والبحث المعياري ، والذي يدعو الى الاستناد الى بيانات وحقائق واقعية مع الاعتماد على الخبرة والاستفادة من الحدس والتخيل والقدرة الابداعية ، أثمرت في تحديد بعض المعالم المنهجية للبحوث المستقبلية الحديثة(٢٧) .

●●●

بعض المعالم المنهجية للبحوث المستقبلية :

١ ـ البعد الزمني :

إذا كان المستقبل هو موضوع الدراسة فليس معنى هذا أن يدرس المستقبل على إطلاقه . وإذا كان هذا هو الوضع الذي درج عليه الفلاسفة في تصورهم للمجتمع

---

(٢٥) Pierre Piganiol "Introduction:Futurology and prospective" op. cit. p. 519.
- Robert Jungk "Braekthrough to tomorrow," op. cit. pp. 14-15.
- Fred. Polak, op. cit. p 395.

(٢٦) Pierre Piganiol. "Pondering the Imponderable" **Courier** UNESCO April 1971 p. 30.

(٢٧) Fred Polak ibid. pp. 246-266.

اليوتوبي ، والـذي تأثـرت به إلى حـد ما الـدراسات المستقبلية المعيارية ، فإنه نتيجة للتقارب والمزج بين هذا النوع من الدراسات وبين الدراسات الاستكشـافية أو الاستـطلاعية ، التي تحـرص على تحـديـد مـدى زمني لتنبؤ اتها ، وهو عادة مدى قصير ، بدأ عنصر الزمن ينظر اليه كبعد قائم بذاتـه . وفي الوقت الـذي بدأت فيـه الدراسات الاستكشافية تمد الفترة الزمنية التى درجت على أن تقصر عليها تنبؤ اتها ، بدأت الدراسات المعيارية تعمل على التحديد الدقيق للبعد الـزمنى فى تنبؤاتها . ومن ثم فان أحد المعالم الأساسيـة للبحوث المستقبليـة سواء كانت معيارية أو استطلاعية أو كانت تمزج بـين النمطين هو التحديد الـدقيق للزمن أو التاريـخ الذى ترتبط به هذه التنبؤ ات . (٢٨)

٢ ـ التوازن بين الكم والكيف :

قد يبدو أن التنبؤ ات التى تحظى بتقدير علمى هى التنبؤ ات التى تعتمـد عـلى أحـدث تقـدم أحـرزتـه الرياضيات والنظرية الاحصائية الحديثة ، وبالتالى فهى تلك التى تعتمـد على أسـاليب البحث الكميـة الا أن الاتجـاه الحديث بـين العلماء المهتمين بمنـاهـج البحث وأساليبه فى مجال البحوث المستقبلية هو ضرورة الجمع بـين المدخـل الكمى والمدخـل الكيفى للتـوصـل الى التنبؤ ات المستقبلية التى تتصف بالدقة والشمول ، ومن ثم حرصوا على وضع الضوابط التى تساعد على تحقيق التوازن بين المدخلين وعلى اضفاء الطابع العلمى على الـرؤ ية الكيفيـة التى لا غنى عنها ، طـالمـا أن انسـان المستقبل ومجتمع المستقبل هما محور التنبؤ ات المستقبلية . ومن ثم فبجـانب الاعتماد عـلى الأساليب الـرياضيـة والاحصائية فى رسم صورة المستقبل المتوقع والممكن فان الاعتماد على الحـدس والخيال Fantasy المبنى عـلى العلم عـلى قدر الامكـان ، والذى تصـاحبه الـرؤ يـة العلمية والتخيل والابداع أمر لا غنى عنه فى رسم صورة المستقبل المرغوب فيه ، وفى التوصل الى أفضل البدائل لتحقيقه . وقد رأينا كيف تجمع بعض أساليب البحث بين كلا الجانبين الكمى والكيفى .

٣ ـ القيم كعنصـر أسـاسى فى منهجيـة البحـوث المستقبلية :

نظرا لأن البحث المستقبلى لم يعد يكتفى برسم صورة المستقبل المتوقع بناء على التنبؤ باتجاهات النمو والتغير بل تخطى هذه المرحلة الى محاولـة رسم صورة المستقبـل المرغوب فيه ، وكيفية العمل على تحقيقه ، فان تحديد القيم values وما يرتبط بها من أهداف أصبحت خطوة أساسية من الخطوات المنهجية للبحث المستقبلى . وربما لم تحظ أى خطوة أخرى بمثل ما حظى به موضوع القيم من اهتمام لم يقتصر على المناقشات الفلسفية والايديولوجية بـل أجرى العـديد من البحـوث المستقبليـة عن هـذا الموضوع ، ونوقش من جانب الاتجاهات الأيديولوجية المختلفة ومن جانب علماء الاجتماع والسياسة وواضعى السيـاسـات والمخـططين ، ومن جـانب الفـلاسفـة والمفكرين حيث ان دراسة المستقبل فى حد ذاته ، تثير أسئلة قيمية هامة ، كما أن قيام علم المستقبل أو اجراء بحوث ودراسات عن المستقبل تتطلب دراسة تغير القيم والتنبؤ بالقيم التى ستسود فى المستقبل (٢٩) . وهذا ما حدا ببعض العلماء الى القول بأن صدق علم المستقبل

---

(٢٨) Igor Bestuzhev-Lada "Forcasting an approuch to the problem of the future" op. cit. p. 529.

(٢٩) Pierre Piganiol "Introduction: Futurology and Prospective Study" op. cit. p. 523.

يتوقف على اكتشاف وسائل تدمج البعد القيمى كبعد أساسى فى منهجية البحث المستقبلى (٣٠) .

٤ ـ التكامل فى البحوث المستقبلية :

اذا كان المزج بين البحوث الاستكشافية أو الاستطلاعية والبحوث المعيارية يحقق نوعا من استمرارية البحث المستقبلى ، حيث يقوم البحث الاستكشافى بتحديد صور المستقبل المتوقعة والممكنة ، والتى يكملها البحث المعيارى بتحديد صورة المستقبل المنشود ومن ثم كيفية تحقيقها ، فان الاتجاه الحديث فى البحوث المستقبلية هو أنه سواء اكتفينا بالبحث الاستطلاعى أو البحث المعيارى أو جمعنا بينهما فلا بد من أن ننظر الى المستقبل ككل . حقا ان اقتصار التنبؤ على جانب دون الاخر ، على الجانب الاقتصادى مثلا أو الجانب التكنولوجى يساعد فى رسم صورة المستقبل الا أنها تظل صورة ناقصة . هنا نود أن نشير الى نقطة هامة وهى أن تجميع التنبؤات فى المجالات المختلفة وتراكمها لا يكفى للوصول الى تنبؤات بالمستقبل ككل ، بل لا بد من أن يكون لدى القائم بالتنبؤ أيا ما كان تخصصه العلمى رؤية شاملة ، بحيث يأتى توصله الى التنبؤات فى مجال معين ، فى المجال التكنولوجى مثلا ، فى ضوء ادراكه للعلاقات والتأثيرات المتبادلة بين الجانب التكنولوجى وبين غيره من جوانب الحياة الاجتماعية .

وقد أدرك العلماء أن عالم المستقبل مثله فى ذلك مثل عالم الحاضر ، كل معقد من الصعب الاحاطة بكافة جوانبه وبالعلاقات المتبادلة والمتفاعلة التى تسود فيما بينها . ومن ثم حرصت المؤسسات المعنية بالبحوث والدراسات المستقبلية فى تشكيلها لفريق البحث أن يمثل تخصصات عدة : علم الطبيعة والرياضة ، والتاريخ ، والجغرافيا والاجتماع ، وعلم النفس ، والسياسة ، والاقتصاد ، والانثولوجيا ، والتكنولوجيا . . الخ (٣١) وأبدعت اساليب بحث تتيح الاستفادة من كافة هذه التخصصات والخبرات ـ كأسلوب دلفى مثلا ـ . كما أدركت أن الفعل البشرى يقصر عن الاحاطة بالكم الهائل من المعلومات التى لا بد من الاحاطة بها لتكوين صورة المستقبل ، ومن ثم لجأت الى الاستعانة بأساليب بحث تساعد على تنسيق هذه المعلومات وعلى تحليلها مثل أسلوب تحليل النظم وأسلوب النماذج .

وقد وجد الاتجاه الى تحقيق التكامل فى البحوث المستقبلية صداه فى الدعوة الى قيام علم للمستقبل ، علم يضم النظرية والمنهج فى مجال المستقبل ، يضم القوانين العلمية وطرق ومناهج وأساليب التنبؤ . علم يرى أنه اذا كان كل علم من العلوم له تنبؤاته فهناك تنبؤات اقتصادية واخرى سوسيولوجية وديموجرافية ونفسية . . الخ فان هذه التنبؤات جميعها يمكن أن تتكامل فى تنبؤ اجتماعى social forcasting حيث يجمع بينها قوانين ومناهج وأساليب للبحث مشتركة ، وأن ارتباط هذه التنبؤات بعضها ببعض لا يقل عن ارتباط كل منها بالعلم الذى تنتمى اليه (٣٢) .

---

(٣٠) Irene Tavis "Futurology and the Problem of values" **Int. Social Science Journal,** Vol. xxl, No. 4. 1969, p. 576.

(٣١) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., p. 12.

(٣٢) Igor V. Bestuzkev-Lada, "A Soviet scientist looks at futurology," op. cit., p. 24.
- Igor V. Bestuzkev-Lada, "Forcasting an approach to the problem of the future" op. cit., p. 532 .

أسلوب دلفى Delphi Method كأحد أساليب البحث فى البحوث المستقبلية :

فى أثناء تناولنا لانماط البحوث المستقبلية عرضنا بايجاز لبعض أساليب البحث المستخدمة فى هذه البحوث . وقد رأينا أن نعرض بشىء من التفصيل لواحد من أهم أساليب البحث المستخدمة حاليا فى البحوث المستقبلية والتى تعكس الى حد كبير المعالم المتطلبة فى البحث المستقبلى الحديث ، والذى تتيح طبيعته امكانية الاستفادة منه فى التوصل الى تنبؤات سواء فى مجال العلم والتكنولوجيا أو فى مجال الحياة الاجتماعية والثقافية . هو أسلوب يتيح لغة مشتركة بين التنبؤات التكنولوجية والتنبؤات الاجتماعية (٣٣) ، كما أنه أسلوب يعتمد عليه فى التنبؤ بصورة المستقبل المتوقع والمستقبل الممكن وقبل كل شىء بصورة المستقبل المرغوب فى تحقيقه .

ان تسمية هذا الاسلوب باسلوب دلفى يمثل رؤية حديثة للدور الذى كان يلعبه كهنة معبد دلفى فى الحضارة الاغريقية بالنسبة للتنبؤ بالمستقبل . ورغم حداثة هذا الأسلوب كأسلوب علمى للبحث ـ اذ لا يزيد العمر الزمنى له على ربع قرن ـ ورغم أنه بدأ فى مجالات التنبؤ باستخدام الأسلحة الحربية أو الآثار المترتبة على استخدامها ـ الا أنه أحرز قدرا كبيرا من التقدم بحيث أصبح من أكثر أساليب البحث استخداما وتطورا فى مجال البحوث المستقبلية ، التى لا تقتصر على التنبؤ الاستطلاعى بل تدخل أساسا البعد المعيارى فى اعتبارها ، كما امتد مجال استخدامه من مجال التنبؤات التكنولوجية الى مجال التنبؤات الاجتماعية ، وخاصة تلك التى تحاول الربط بين المتغير التكنولوجي والتغير الاجتماعى والثقافى .

وقد نما هذا الاسلوب من ملاحظة بسيطة مؤداها أننا عندما يكون علينا أن نتنبأ بالمستقبل البعيد فاننا عادة نستعين بمجموعة من الخبراء فى المجال المرتبط بموضوع التنبؤ ، ونطلب منهم أن يبذلوا أقصى جهدهم فى الوصول الى تنبؤات هى فى الواقع من قبيل التخمينات المستندة الى الخبرة informed guesses وهذا هو نفس الأساس الذى يقوم عليه الأسلوب المسمى « Brainstorming» والذى يعد أسلوب دلفى تطويرا علميا له (٣٤) .

والفكرة الأساسية التى يقوم عليها أسلوب دلفى هى التوصل الى صورة المستقبل الممكن أو المرغوب فيه ، استنادا الى آراء عدد من المتخصصين الذين يجمعون بين الخبرة فى موضوع اهتمام البحث والقدرة على الاستبصار والحدس intuitive powers ، والقدرة على التخيل الابداعى creative imagination . ويتم التفاعل بين آراء هؤلاء الخبراء بطريق غير مباشر ومن خلال عدد من « الجولات » Rounds. ويمكن أن نحدد الخطوات المنهجية التى يتبعها هذا الاسلوب عادة على النحو التالى (٣٥) :

١ ـ يقوم فريق البحث أو الفريق الذى يحرص البعض على تسميته ، بالنسبة لهذا الأسلوب ، بفريق المراقبة أو الضبط Monitor team بتحديد أبعاد

(٣٣) Radovan Richta and Ota Sulc, op. cit., p. 563 .

(٣٤) Alvin Toffler, "Value impact forcaster: Aprofession of the future, in "**Values and the future,** Baier and Reschered. The Free Press, Toronto, p. 7.

(٣٥) Robert Jungk, "Breakthrough to tomorrow," op. cit., pp 12— 13

الموضوع محل التنبؤ ، ثم توضع الاسئلة التى قد تأخذ عادة شكل استمارة احصائية questionnaire تحتوى عددامن الأسئلة .

٢ - يطلب من كل خبير على حدة الاجابة على الاسئلة واضافة المعلومات التى يرى بناء على خبرته أنها ذات صلة وثيقة بموضوع التنبؤ .

٣ - يقوم فريق البحث باستخلاص كافة الآراء التى قدمها الخبراء بتخصصاتهم وانتماءاتهم المختلفة ويتم طرحها على فريق الخبراء كل على حدة بحيث يمكن لكل واحد منهم أن يقوم بفحص آرائه وإجاباته وتعديلها فى ضوء معرفته بآراء الآخرين ، اذا رأى ذلك ، ودون أن يحدث تفاعل مباشر أو مواجهة بين الخبراء بعضهم وبعض .

٤ - يقوم فريق البحث بدراسة ما أسفرت عنه نتائج هذه « الجولة » التى يكتفى بها فى رسم صورة المستقبل الممكن أو المرغوب فيه وفقا لهدف البحث ، أو قد تكرر العملية فى جولات اخرى بأن يتم استخلاص الآراء وطرحها مرة ثانية على نفس الخبراء وهكذا .

٥ - يتم تقويم كافة البيانات واستخلاص صورة المستقبل بناء على ما أجمعت عليه الآراء .

وقد يبدو من الظاهر أن هذا الاسلوب أسلوب بسيط يسهل على أى باحث اتباعه ، وهذا ما أدى الى أن يصدم الكثيرون ممن اتبعوه بالنتائج التى أسفر عنها . فى حين أنه أسفر عن نتائج لها قيمتها العلمية والتنبؤية عندما اتبعه باحثون آخرون .

ونظرا للأهمية المنهجية التى يشغلها هذا الأسلوب فى مجال البحوث والدراسات المستقبلية ، والتى تتمثل فى الاعتماد المتزايد على هذا الاسلوب ، بل وفى امتداد استخدامه الى مجالات اخرى من البحوث التى تتناول الحاضر بل الماضى أيضا ، توافر الباحثون من المهتمين بمناهج البحث بتقويم هذا الأسلوب بمحاولة الاجابة على سؤالين : لماذا يستخدم هذا الاسلوب ؟ أو بقول آخر ما هى الوظيفة التى يؤديها هذا الأسلوب فى مجال الدراسات المستقبلية بالذات ؟ وكيف يستخدم هذا الأسلوب ؟ او بقول آخر تقويم عملية الاعتماد على هذا الأسلوب .

الواقع أن أسلوب دلفى يعبر عن الحاجة الى تنظيم عملية اتصال جماعى group communication process يتم من خلالها الحصول على نتائج ذات قيمة مرتفعة بالنسبة للهدف من البحث . وهو يستند على افتراض مؤداه أنه من الممكن عن طريق الاتصالات المنظمة ايجاد أو خلق نوع من قدرة الذكاء الانسانى الجمعى collective human inteligence cabability . واذا كانت البحوث لم تقدم اجابة مباشرة بصحة هذا الافتراض الا أن اتباع هذا الأسلوب يتضمن تسليما ضمنيا به من جانب المستخدمين له [٣٦] .

وعموما فان الحاجة تبدو ماسة الى استخدام أسلوب دلفى فى البحوث المستقبلية متى كان الموضوع محل البحث لا يصلح لتطبيق أساليب التحليل الدقيق ، فى حين يمكن الاستفادة من الأحكام الذاتية المبنية على

(٣٦) Harold Linstone and Murruy Tusoff, "Introduction," in **The delphi Method Techniques and applications,** Linstone and Turoff (ed.) addison Wesley publishing Comoany, London, 1975, pp. 4-5.

أساس جمعى . كذلك عندما يتطلب موضوع البحث الاستعانة بعدد كبير من الخبراء يصعب معه الاتصال المباشر وتبادل الآراء وجها لوجه ، أو اذا وجدت اختلافات حادة بين الخبراء . كذلك اذا كان صدق البيانات يستلزم اخفاء المشاركين لاعتبارات سياسية مثلا ، أوكان يستلزم حرية توالد الأفكار سيطرة تفرضها ما يتمتع به البعض من قوة شخصية أو تفرضها القوة العددية ، أو بقول آخر تجنب التأثير المعروف باسم Bandwagon effect وهو مالا يمكن تجنبه الا بصعوبة فى حالة المناقشات الجماعية (٣٧) .

هذه هى بعض الاعتبارات العلمية والعملية التى تستدعى استخدام هذا الاسلوب . الا أن قيمة النتائج التى تأخذ شكل تنبؤات تتوقف من حيث دقتها وثرائها ومدى موضوعيتها على عاملين : العامل الأول هو الاختيار الدقيق لجماعة الخبراء المشاركين فى عملية التنبؤ بحيث تتوافر لديهم الخبرة التى تستند الى بيانات واقعية وحقائق ، مع القدرة على الرؤية المستقبلية التى تستلزم قدرا من الخيال والابداع العلمى . العامل الثانى سعة أفق فريق البحث مع تحليه بالامانة العلمية وحرصه على الموضوعية ، بحيث ينعكس ذلك فى معالجته للآراء بعد كل جولة . وفى التقدير النهائى الذى يعرض بأمانة التنبؤات التى توصل اليها بناء على اتباع هذا الاسلوب .

اذا كان أسلوب دلفى يعد نموذجا لاساليب البحث التى تحقق المعالم الأساسية للبحث المستقبلى الحديث ، الا أن حرص العلماء المهتمين بالمنهج فى البحوث المستقبلية على تحقيق هذه المعالم لم يجعلهم يكتفون بتطوير أساليب البحث واضافة أبعاد جديدة لها ـ يكفى أن نتتبع التعديلات التى أدخلت على أسلوب دلفى منذ بدء استخدامه حتى الآن ـ وانما حثهم على استخدام اكثر من أسلوب فى البحث الواحد ، أساليب تتيح النظرة الشاملة والخيال المبدع ، وأساليب تقدم البيانات والوقائع ، أساليب تكفل حرية الرؤية الفلسفية وأخرى تشدنا الى الواقع ، أساليب تتيح شمول المعالجة وأخرى توفر عمقها . أساليب تعتمد على آراء الخبراء والمتخصصين وأخرى تنزل إلى الجمهور لتستطلع آراءه وتتعرف على مطامحه وتطلعاته . بحيث يمكننا القول إن التنبؤات بما فيها التنبؤات الاجتماعية تستند على مجموعة من الأساليب : أولا أساليب تقوم على أساس الاستعانة بآراء الخبراء والمتخصصين وإحيانا آراء الجمهور العام . ثانيا ، الأساليب المتقدمة للتقديرات الاسقاطية والتي تستخدم أساليب متقدمة في مجال الرياضة الحديثة ، والسبرناطيقا ، ونظرية المباريات ، ونظرية الاحتمالات ، ونظرية اتخاذ القرار ، والمدخل الوظيفي في البحث . ثالثا ، أساليب النماذج وتحليل النظم (٣٨) .

●●●

إذا كان نطاق هذا المقال لم يسمح إلا بإعطاء صورة سريعة عن المنهج في البحوث المستقبلية من حيث المداخل المتنوعة في الدراسة العلمية للمستقبل ، وانماط البحوث المستقبلية ، ومعالم المنهج في البحوث المستقبلية

---

(٣٧) Ibid., p. 4.
(٣٨) Igor V. Bestuzkev-Lada, "A Soviet Scientist looks at futurology," ibid, op. cit., p. 24.

الحديثة ، والاشارة الى أحد أساليب البحث التي تحتل مكانا بارزا في هذا المجال ، فإننا نأمل أن تجري دراسات جادة وتقويمية تتناول هذا المجال البكر من البحث العلمي ، الذي لا يمثل ترفا علميا بل يمثل حاجة إلى التخطيط العلمي للمستقبل على المدى القريب والمدى البعيد ، هذا التخطيط الذي لا بد وإن يستند إلى مناهج وأساليب بحث تتيح إمكانية التفاعل بين الرؤية الابداعية للمستقبل والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحاضر ، وتوضح مسار الانتقال من الحاضر إلى المستقبل المرغوب في تحقيقه .

* * *

صَدر حَديثًا

المسرح السياسي

تأليف : إرفين بيسكاتور *
عرض وتحليل : أمل فضل حركة

رغم أن المسرح ظهر منذ العصور القديمة كظاهرة دينية اولا . ثم كظاهرة فنية وأدبية بعد ذلك ، الا انه لم يتوقف دائما عند هذه الصفات ، وانما تخطّاها في أحيان كثيرة وفي عصور متعددة ليمس المجتمع في جوانبه المختلفة تصويرا تارة ونقدا تارة أخرى . ومع ذلك فان العلاقة بين المسرح والمجتمع لم تصبح مجالا للدراسة العلمية المحددة أو للتطبيق الذي يعي هذه العلاقة ويتخذها أداة في مجال التوجيه والتثقيف الا منذ فترة وجيزة لا تكاد تصل الى ما قبل العشرينيات من هذا القرن . ومنذ ذلك الوقت ظهرت قضايا عديدة وتساؤلات كثيرة حول امكانية دراسة المجتمع من خلال المسرح . وتطورت وظيفة المسرح بحيث أصبح منبرا للدعوة الى الأفكار والايديولوجيات الجديدة واخذ يعبّر عن قيم وطنية تارة ، وقيم اجتماعية أو طبقية تارة أخرى . وفي صدد هذا النوع من المسرح نجد ان الاتصال العضوي بين المسرح والتغيّر الثقافي للمجتمع المتطور ، وصل في وضوحه الى درجة جعلت عديدا من المشتغلين بالمسرح بجوانبه المختلفة يعبّرون عن مدى أهمية هذا التأثير بشكل واضح ومحدد . ففي عام ١٩٢٧ نجد ارنست توللر Ernest Toller يذكر في اثناء مظاهرة في برلين امام مسرح الشعب Volksbuhne « ان العمل المسرحي هو الصراع ، هو ان نغيّر تغييرا كاملا أو لا نكون » . وفي اطار هذا المعنى نجد بريخت Brecht يتحدث عن « مسرح يتقدم الجمهور بدلا من ان يجري وراءه »[1] . ولعل خير تلخيص لوصف العلاقة العضوية بين المسرح الايديولوجي والتغير الثقافي في المجتمع هو ما ذكره بيسكاتور عن ان « وظيفة المسرح

(*) ظهر الكتاب في صورته الأصلية في ١٩٢٩ تحت عنوان Das Politische Theater عن دار نشر Adalbert Schultz verlag في برلين . ثم اعيد نشره في هامبورج في ١٩٦٣ ، ثم ظهرت الترجمة الانجليزية التي قام بها هيو هاريسون Hugh Harrison في انجلترا عن دار نشر آير ميثيوين Eyre Methuen في لندن عام ١٩٨٠ . وقد زوّد المترجم هذه الطبعة بفصل تقديمي وبعديد من الحواشي

(١) Jean Duvighaud :Sociologie du Theatre, Presses Universitaires de France, Paris 1965. p489.

بصفته مؤسسة فنية قد تعدلت ، فالمسرح يصل الى نهايته المنطقية في الحياة الاجتماعية .

وفي مجال المسرح الايديولوجي ، نستطيع ان ندخل المسرح الموجه ، سواء أكان هذا المسرح موجها من قبل الحكومة أم من قبل مجموعات لها التزامات فكرية أو سياسية أو اجتماعية خاصة بها ، وهو اتجاه بلغ من انتشاره انه تخطى حدود الدائرة التقليدية للدول المتقدمة ليشيع في دائرة تتسع لعديد من الدول النامية في العصور الاخيرة من القرن الحالي[٢] .

ومن بين رواد المسرح الذين ظهروا مع بداية القرن الحالي واسهموا بادخال نظريات وايديولوجيات جديدة اليه ارفين بيسكاتور Erwin Piscator الذي ولد في المانية عام ١٨٩٣ ودرس في الجامعة في ميونيخ ، ثم انتقل ـ بعد ان خدم في الحرب العالمية الأولى لمدة سنتين ـ الى برلين ليعمل ممثلا ثم مخرجا . لقد انشأ بيسكاتور المسرح البروليتاري في عام ١٩٢٠ ، وقدم حتى عام ١٩٢٩ عروضا مسرحية كثيرة على مسرح الشعب Volksbuhne ثم اتخذ من مسرحه الخاص Piscator-Buhne مسرحا سياسيا هادفا . انتقل بعد ذلك الى الاتحاد السوفيتي حيث بقي هنالك حتى عام ١٩٣٦ ، واخرج ثلاث مسرحيات سياسية في مناخ سياسي في السنتين الأوليين ، ثم غادر الاتحاد السوفيتي فجأة الى باريس ومنها الى الولايات الامريكية المتحدة في عام ١٩٣٨ ، وهناك اصبح مديرا لمركز الاعمال الدرامية الذي عرف تحت اسم Dramatic Work-shop في « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي » New School of Social Research ، حيث تتلمذ عليه عدد من الشخصيات التي برزت في مجال العمل المسرحي مثل تينيسي ويليامز ومارلون براندو . وفي عام ١٩٥١ عاد الى برلين الغربية وعمل في اخراج مسرحيات متعددة الى ان عين مديرا فنيا للمسرح الشعبي الحرّ في برلين Berlin Freie Volk-sbuhne في عام ١٩٦٢ ، وبقي في منصبه هذا حتى توفي عام ١٩٦٦ .

والكتاب الموجود بين أيدينا عن المسرح السياسي وهو من تأليف ارفين بيسكاتور يعتبر نوعا من السيرة الذاتية ، ويقع الكتاب في ثلاثة وعشرين فصلا ، يمكن تقسيمها الى أربع مراحل . يتكلم بيسكاتور في المرحلة الأولى عن الفن والسياسة حيث انه اعتبرهما طريقين منفصلين وانهما سارا بشكل متواز لمدة طويلة ، وبعبارة أدق حتى ١٩١٩ ، وشعر بيسكاتور ان الفن في حد ذاته لم يكن كافيا لارضائه . ومن ناحية اخرى لم يجد نقطة التقاء بين هذين الخطين ، وكان لابد في رأيه من نظرية جديدة لتلاقيهما ، فوجد ان الثورة هي التي تستطيع ان توجد له هذه النظرية . وحين قامت الثورة في روسية في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ رأى فيها بيسكاتور الحل الذي كان يتصوره لهذه القضية . ولقد تشبع هذا المفكر بالسياسة وغرق فيها الى حد كبير وحاول ايجاد نظرية تجمع بين الفن والسياسة ، فاكتشف ان الفن كان وسيلة لغاية : كان وسيلة سياسية ووسيلة دعائية ووسيلة تربوية .

وينتقل بيسكاتور الى الكلام عن تطور المسرح السياسي في تلك الفترة ، فيجد ان هذا المسرح ليس اختراعا شخصيا ولا نتيجة لاعادة التجمع

---

(٢) راجع على سبيل المثال صفحات ٢١٧ ـ ٢١٩ Nicholas S. Hopkins, Persuasion and Satire in the malian Theatre

السوسيولوجي في عام ١٩١٨ ، وانما تمتد جذوره في عمق القرن الأخير . ووجد ان الوضع الثقافي للمجتمع البورجوازي قد تأثر بشكل كبير بقوى كانت موجودة ، هذه القوى أتت من اتجاهين : الأدب والبروليتاريا (الطبقة الكادحة) ، ومع التقائهما ظهر مفهوم جديد وهو : المذهب الطبيعي Naturalism ، ونشأ شكل جديد للمسرح هو « مسرح الشعب » .

ويبدي بيسكاتور دهشته في هذا المجال من منظمات العمال الذين لم يتخذوا موقفا ايجابيا من المسرح بشكل سريع . ويقول انهم استخدموا جميع وسائل الاتصال التي قدمها المجتمع البورجوازي ، وأوجدوا صحافة خاصة بهم ، ودخلوا البرلمان وكان لهم موقف خاص من شئون الدولة ، ولكنهم أهملوا المسرح . ويعزو بيسكاتور هذا الى ان الصراع السياسي قد اخذ كل جهدهم بحيث لم يتبق للشئون الثقافية أي مجال . من ناحية اخرى كان المسرح ، في مفهومهم ، مقصورا على من يرتدي رباط عنق ابيض ولباس سهرة كاملا ، كذلك أعتقدوا ان المسرح هو للأيام الممتازة والعطلات السعيدة ، وانه من المستحيل ان يناقش الأمور اليومية من كلام عن الأجور وساعات العمل والصراع الطاحن الذي يعانونه . أى جانب ان تذاكر المسرح كانت تباع بأثمان مرتفعة خارج مقدور العمال .

من هنا اتجه بيسكاتور نحو إنشاء « مسرح الطبقة الكادحة » Prolitarisches Theater بمعاونة هيرمان شوللر Hermann Schüller خريف عام ١٩٢٠ . وكانت هذه هي المحاولة الأولى من نوعها من قبل مثقفي الجناح اليساري لتنظيم الشئون الثقافية للجماهير . وكان معظم العاملين في هذا المسرح من الممثلين الهواة ، بينما كان بيسكاتور وقلة آخرون من المحترفين . وكان هدف بيسكاتور هوكسر الحاجز القائم بين المحترفين والعمال وتحويل المجموعة بأكملها الى فريق له نفس القناعات السياسية . ولقد قوبل هذا المسرح في البداية بشيء من الفتور ، بالرغم من ان اثمان التذاكر كانت رخيصة وكانت تقدم بالمجان للعاطلين عن العمل ، وكان الهدف من المسرحيات المعروضة ان تكون ذات تأثير على الأحداث الجارية ، وان تتخذ شكلا من النشاط السياسي . ولقد حاول بيسكاتور من خلال هذا المسرح ان يقابل الجماهير على ارضهم ، وان يتعامل مع أفراد الطبقة الكادحة وحاول الابتعاد قدر المستطاع عن التعامل مع افراد الطبقة الوسطى من الممثلين . ولقد وجد بيسكاتور ان مسرحه هذا قد حقق كسبا ايجابيا مهما ، وان بدا صغيرا فانه قد اتخذ له مكانا مرموقا في الحركة البروليتارية ، وأخذ مكانه كعامل مهم في وسائل الاتصال للحركة الثورية ، وكان آخر عرض قدمه في ابريل ١٩٢١ .

وبعد اغلاق مسرح الطبقة الكادحة انتقل بيسكاتور الى مسرح جديد هو المسرح المركزي ، وكانت مهمة هذا المسرح هي معارضة مسرح الشعب .

●●●

وينتقل بيسكاتور بعد ذلك الى المرحلة الثانية من الكتاب وهي التي يتحدث فيها عن انتقاله الى « مسرح الشعب » . ففي عام ١٩٢٤ احتاج مسرح الشعب الى مدير لاخراج مسرحية « الاعلام » لمؤلفها الفونس باكيه Alfons Paquet وكان بيسكاتور جاهزا للوظيفة فحصل عليها . وفي هذه الفترة برز اسمه في مجال الاخراج المسرحي في برلين فأخرج احدى عشرة

مسرحية على مسرح الشعب ، وقدم اثنتين للحزب الشيوعي ، مع تقديم بعض المسرحيات الأخرى في أماكن متفرقة : برلين وهامبورج وميونيخ .

وكانت مسرحية « الاعلام » من أشهر المسرحيات التي قدمت في تلك الفترة وكانت البداية لديه ميكنة المسرح وجعله « أداة » لتوصيل المعلومات وسلاحا للدعاية . ويعتبر بيسكاتور انه باخراج هذه المسرحية قد بدأ بتطوير ما سمي بعد ذلك بالمسرح الملحمي أو البطولي ، Epic Theater . وبالرغم من الانتقادات الكثيرة التي قوبل بها هذا العرض فان بيسكاتور قد وصل عن طريقه الى الموقع الذي احتله كمخرج معروف .

بعد هذا العرض قدم بيسكاتور أول اخراج مسرحي يعتمد على الوثائق السياسية فقط وكان بعنوان « رغم كل شيء » وذلك في يوليو (تموز) ١٩٢٥ . ثم قدم مسرحية « موجة غامرة » وكانت تدور حول انتصارات الثورة في روسية ، وانتقل بعد ذلك الى تقديم عرض « اللصوص » لمؤلفها شيللر Schiller ويعتبر هذا العرض جزءا من محاولة مستمرة نحو أسلوب حديث أو متطور للكلاسيكيات في جمهورية فايمار Weimar Republic . وتعليقا على هذه المسرحية يقول بيسكاتور : انه لا يشعر بأنه جانب التواضع حين يقول ان الازدهار في الدراما الثورية هو إحدى النتائج لأعماله التي قدمها . واعتبر ان مسرحه كان أول من قدم الدراما التي تعالج مشاكل العصر Topical Drama ، الدراما التي تؤمن برسالة اجتماعية معاصرة ، والتي لابد ان تشكل بندا هاما لا يمكن تجاهله في أي مسرح يحترم ما يقدم .

وجاء اخراج بيسكاتور لمسرحية « عاصفة على جوتلاند » لمؤلفها ايم فلك Ehm- Welk الفيصل في الصراع بين فريقي مسرح الشعب من المحافظين (الداعين للفن من أجل الشعب) والجناح اليساري (اصحاب المسرح السياسي الملتزم) . ففي أواخر عام ١٩٢٦ كانت الدوريات الأدبية والجرائد اليومية تناقش باستمرار موضوعي « الحرية الفكرية » و « انقاذ الفن البحت » حتى أصبحت هذه المناقشة على أشدها في فبراير (شباط) ١٩٢٧ ، وأصبحت مسألة المسرح السياسي التي كانت قد أثيرت بسبب اخراجه لبعض المسرحيات هي الحلبة التي يدور فيها الصراع السياسي اليومي ، وعندئذ اضطر مسرح الشعب ان يبين موقفه من مشاكل المسرح السياسي ، أي مسألة وجوده . وفي هذا الوقت ظهرت مسرحية « عاصفة على جوتلاند » لتحل الاشكال وتخرج للجمهور في اطار سياسي ، وكان أثرها من طبيعة سياسية . وهكذا خرج المسرح السياسي من حدود وقيود المسرح التقليدي ، كما تحررت الدراما من القيود التي كانت مفروضة عليها من المؤلف . وهنا ثار المحافظون على بيسكاتور وأكدوا ان هذا المسرح يجب ان يكون بعيدا عن السياسة ، وطالبوا بحذف بعض المشاهد ، فاعتبر هذا التصرف نوعا من الرقابة التي كانت قد ألغيت في عام ١٩١٨ . ومن جراء هذا التصرف استقال بيسكاتور من وظيفته في مسرح الشعب ، وبذلك انتهت العاصفة التي أثيرت حول هذا الموضوع ، ولكن بعد ان حولت الصراع الذي دار حول هذه المسرحية الى صراع سياسي انتشر في جميع الأوساط العامة ، وليس عند المهتمين بالمسرح فحسب .

●●●

وبذلك تنتهي المرحلة الثانية وتبدأ المرحلة الثالثة

والأهم في حياة بيسكاتور والتي تعتبر نقطة التحول في مستقبله مع انتهاء مسألة مسرح الشعب في ٢٧ مارس (آذار) ١٩٢٧ . فبعد استقالته مباشرة من هذا المسرح استطاع عن طريق المساعي الحميدة للممثلة تيلا دورييه Tilla Durieux ان يقيم مسرحه الخاص بمساندة مالية غير مشروطة لموسم كامل ، فحصل على مسرح « تياتر آم نولندورف بلاتز Theater am Nollen-dorf Platz ، ويقع هذا المسرح في الضاحية الغربية من المدينة . ولقد أخذوا على بيسكاتور انه أدار ظهره الى مناطق الطبقة الكادحة ، فكان رده المباشر انه : لا يهدف إلى التبشير لصفوف هذه الطبقة التي تحولت فعلا الى الشيوعية وانما يهدف الى ان يكتسب البورجوازيين الأقل التزاما في بورجوازيتهم ، وان هذا المسرح هو المكان الوحيد الذي أمكنه الحصول عليه .

ويعلّق بيسكاتور على مسرحه هذا فيقول : إن هذا المسرح لا يرتبط ولا يلتزم بأي حزب من الأحزاب وأنه قام بدون مساعدة من أي حزب ، ولكنه من الناحية السياسية والفلسفية يقترب كثيرا من الحزب الشيوعي الالماني دون ان يربط نفسه حزبيا بأي جانب . ولقد كان هذا المسرح مسرحا ثوريا ، ترك صدى واسعا في نفوس الجماهير العامة مما دلّ عى مدى التفتيت الداخلي للمجتمع البورجوازي . ولقد فتح مسرح بيسكاتور Piscator- Bühne أبوابه للأطباء والمحامين والمعلمين والكتّاب ، مما جعل الصحافة الحرة تفتح صفحاتها ليعرضوا عليها آراءهم .

وفي ١٦ اكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٢٧ افتتح بيسكاتور ستوديو في مسرحه ، وهي فكرة أخذها من مسرح الشعب الذي كان قد أنشأ « الأقسام الخاصة » والتي كانت عبارة عن تنظيم مستقل داخل هذا المسرح . ولقد طوّر بيسكاتور هذه الفكرة فأنشأ مجموعة تجريبية تعمل داخل مجموعة أكبر منها ، وهذا ما كان قد فعله راينهارت في « المسرح الألماني » من قبل .

حين عمل بيسكاتور كمدير لمسرح الشعب ، كانت المسرحيات التي تقدم في برلين لاتمت للعصر بصلة ، فكان همه الأول في تلك الفترة ، هو اعادة تشكيل هذه المسرحيات في اطار جديد بحيث تناسب العصر من وجهة النظر الثورية والاجتماعية واعطاء هذه المسرحيات عمقا . وحين انتقل بيسكاتور الى مسرحه طوّر ما يقدّمه على المسرح بحيث قدّم مفاهيم جديدة للمسرح أهمّها نظرية أسماها « وجهة النظر الجديدة » ، نقطة الارتكاز الأساسية فيها تعتمد على وظيفة الانسان في الحياة وتتمثل في : وضع الانسان ، مظهره ، وظيفته في اطار المسرح الثوري ، الانسان وانفعالاته ، علاقاته : الخاصة أو العامة التي يفرضها عليه المجتمع ، موقفه ازاء القوى الخارقة : الله ، المصير ، القدر أو أي شكل آخر تتخذه هذه القوى في مجال التطور . وكانت مهمة المثقفين القائمين على المسرح ـ في رأى بيسكاتور ـ هي : اظهار الانسان في أنقى صوره وبتعبير أدق : اظهاره كتحضير كيماوي نقي ، وجعل هذا « شيئا في حدّ ذاته » ، ليس كمركز أساسي للدراما فقط ، بل للمسرح ككل . وبذلك يكون مبدأ « الفن من أجل الشعب » قد تحول عنده الى مبدأ « سيطرة الفن » عن طريق « عظمة الانسان » .

هذه النظرية الجديدة التي قدمها « المسرح السياسي » لبيسكاتور ، تقوم على افتراضات وظيفية جديدة كل الجدة ، لأن الانسان قد بدأ يتعامل مع تغير قويل منذ الوهلة الأولى بالظروف الاجتماعية الطارئة التي تتمثل

في الحرب والثورة . هذه العوامل غيرت الانسان من حيث بناؤه الثقافي وموقفه من المجتمع بوجه عام . والانسان الذي يتعامل معه المسرح مغزاه بالنسبة للقائمين على العمل المسرحي : انه وظيفة اجتماعية ، والنقطة التي يجب ان تهم هؤلاء هي علاقته بالمجتمع وليس علاقته بنفسه أو بالله . وعندما يظهر على خشبة المسرح فان طبقته (بمعنى شريحته الاجتماعية) Social Stratum تظهر معه ، وصراعاته الأخلاقية والروحية والجنسية تعتبر صراعات مع المجتمع . قد يكون القدماء قد ركزوا على علاقة الانسان بالقدر ، وربما ركزوا في العصور الوسطى على علاقته بالله ، وفي عصر العقلانية Rationalism ركزوا على علاقته بالطبيعة ، وفي عصر الرومانسية ركزوا على القوة الكامنة في العواطف . وعلى ذلك فان العصر الذي تظهر فيه على السطح العلاقة بين الأفراد في المجتمع والذي يشهد مراجعة للقيم الانسانية واعادة تنظيم للعلاقات الاجتماعية ـ لا يمكن الا ان ينظر للجنس البشري من خلال المجتمع والمشاكل الاجتماعية للعصر ، بعبارة أخرى لابد ان ينظر للانسان ككائن سياسي ـ ان التركيز على وجهة النظر السياسية في معالجة الانسان (وهو أمر ناتج عن عدم التناسق والانسجام في الاحوال الاجتماعية في العصر الحالي) ربما يؤدي الى نظرة مشوهة للمثل العليا الانسانية ، ولكن هذه النظرة المشوهة لها ميزة واحدة على الأقل وهي أنها تتفق مع الحقيقة .

ويقول بيسكاتور : اننا كثوريين ماركسيين لا نستطيع ان نعتبر مهمتنا قد اكتملت اذا أنتجنا نسخة غير نقدية للمجتمع معتقدين أن المسرح هو مجرد مرآة للعصر ، كذلك فان مهمتنا ليست ان نغطي عدم التناسق الموجود في المجتمع بحجاب من اللباقة ، كما انه لا يمكننا ان نصور الانسان ككائن يتسامى بعظمته في عصر ينطوي على عوامل تؤدي الى تشويه هذا الانسان ـ بعبارة وجيزة ، ان مهمتنا ليست استخدام المسرح كمؤثر مثالي . ان المهمة الحقيقية للمسرح الثوري هي ان يتخذ من الحقيقة نقطة انطلاق ، يبدأ بعدها في تضخيم الفوضى الاجتماعية « وبذلك يجعل منها عنصرا من عناصر اتهامنا للمجتمع السائد ، كمقدمة لثورتنا ونظامنا الجديد » .

وبما ان لكل عصر من العصور قيمه التي آمن بها وأبرزها من خلال الأعمال المسرحية ، وان هذه القيم قد اختلفت من عصر لآخر ، وما كان يهم العصر الكلاسيكي او المثالي او الأخلاقي فانه لا يهمّنا ، فان قدرنا ، حسبما يرى بيسكاتور ، قد وقع في علم الاقتصاد وعلم السياسة ، لأن نتيجة هذين العلمين معا هو المجتمع او النسيج الاجتماعي . وبأخذ هذه العوامل الثلاثة في الاعتبار ، سواء بتأكيدها أو بالصراع ضدها ، نصل الى المظهر التاريخي للقرن العشرين .

●●●

بعد ان شرح بيسكاتور نظريته الجديدة والتي قام عليها موضوع الكتاب ، وهو ما أبرزه في جميع أعماله المسرحية فيما بعد ، والتي قدمها على مسرحه الخاص Piscator - Bühne انتقل للحديث عما قدّمه هذا المسرح . وأول ما قام به بيسكاتور في مسرحه الجديد ، هو انشاء مكتب مستقل للعمل الخاص بالتأليف المسرحي dramaturgic office ، واعتبر ان هذا المكتب غير كاف ليحقق ما يصبو اليه ، فالعمل المسرحي في نظره ، عمل جماعي ، محتاج الى مشاركة ومعاونة تامة مع الآخرين ، ويحتاج هذا العمل الى

مجموعة متآلفة ، تفكر بطريقة متشابهة حتى يظهر العمل بشكل متكامل ويصل الى النجاح . وهذا ما تم لبيسكاتور ، فقد انتقل الى مسرحه مجموعة كانت تعمل معه حين كان مديرا لمسرح الشعب ، فانتقل العمل الجماعي معه ، واصبح العمل بسيطا وواضحا وجماعيا في كل شيء ، بحيث كان جميع المشتغلين معه يعرفون آخر فكرة وردت على ذهنه كمخرج ومن ثم يستطيعون ان يتعاونوا معه ويقدموا أفضل ما عندهم . والجماعة التي تعاونت مع بيسكاتور كانت تتكون من رفقاء يشتركون في نفس روح الثورة الواحدة ويهتمون بالمسائل الفنية ويشرفون عليها ويتحملون المسئولية الجماعية في « مسرح بيسكاتور » . وتحددت المسئولية في هذا المسرح ، وتوزعت الأعمال بناء على لائحة داخلية خاصة بهذا المسرح بحيث وصل الى ما حققه من نجاح فيما بعد

وينتقل بيسكاتور ليتكلم عن أهم ما قدمه على مسرحه من عروض ، فكان أول عرض « هكذا الحياة ! » لارنست توللر Ernest Toller ، وفى هذه المسرحية حاول بيسكاتور إضفاء أساس من الواقع على هذا العرض ، وذلك حين كانت فكرة المسرحية هى : احضار ثائر كان قد أمضى ثمانى سنوات فى مستشفى للأمراض العقلية ، ثم مجابهته بعالم ١٩٢٧ ، بعالم الثورة . ويعتبر بيسكاتور أن كلا من العواطف والوقائع السياسية تلعب دورا أساسيا فى الدراما ، وهذا ما حاول باستمرار ابرازه فى معظم عروضه . فالمشاعر يجب ابرازها جيدا فى الاطار العام للعمل المسرحى ، على ألا تلعب دورا حاسما ، وألا تأخذ شكلا مستقلا بحيث تبعد عن الهدف المقصود ابرازه للجمهور . ووجهة نظره هذه ، تنبع من قناعاته هو وزملائه من الناحية السياسية ، فان على المؤلف أن يلتزم بابراز وجهة النظر الجماعية والتعبير عنها ، عليه أن يبتعد قدر المستطاع عن ابرازه لميوله الشخصية أو اتجاهاته الفلسفية ، بل يجب أن يبرز أشخاص مسرحياته من حيث تكوينهم الثقافى وأن يوضح معنى أعمالهم ويبين قيمة هذه الأعمال ، ويبعد عن الذات ، فعصر التعبير عن الذات ، قد ولى فى نظره .

ومع ارتفاع الستار عن العرض الأول فى « مسرح بيسكاتور » فى ٣ سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٢٧ ، قدم البرنامج بعض الملاحظات التى كانت ذات أهمية بالنسبة للقائمين على المسرح . وكانت عبارة الافتتاح « هذا المسرح لم يقم ليقدم سياسة ، ولكنه قام ليحرر الفن من السياسة » ، ولقد اعتبرت هذه الجملة من البعض « خيانة للمبدأ » ، وتوجيها للاتهام لبيسكاتور وجماعته ، بينما كان القصد منها فى حقيقة الأمر استباقا للهدف ، والذى أساءوا فهمها كانوا فى الواقع ـ حسبما يذكر بيسكاتور ـ هم الذين فشلوا فى أن يدركوا أننا قبل أن نصل الى هذا الهدف لابد وأن نشارك فى الصراع السياسى » . ثم يذكر لنا أن هدفه هو وجماعته كان تقديم عمل مسرحى عظيم ، ولكن هذا العمل تحول الى حدث سياسى ، فبمجرد نزول الستار على آخر مشهد فى المسرحية ، اشترك الجميع فى غناء النشيد الوطنى ، ولم يكن فى ذهن أحد من القائمين على هذا المسرح أن تنتهى هذه الليلة بدليل أو برهان سياسى ، وهكذا انتهت الليلة الأولى فى مسرح بيسكاتور بظهور المسرح السياسى .

أما العرض الثانى الذى قدمه « بيسكاتور » ، فقد كان مسرحية « راسبوتين » وفى هذه المسرحية يقوم القيصر بدور كامل ، ويظهر على مدى مشهدين كاملين ، ويتكلم على خشبة المسرح لمدة طويلة . وهنا

تدخلت المحكمة لالغاء الجزء الخاص بظهور القيصر فى هذه المسرحية . وعلى هذا الاجراء يرد بيسكاتور بالرفض على هذا الطلب ، ويعتبر أن المسرح الذى يعالج قضايا الساعة Topical Theater ، يجب أن يقوم بدور فعال وايجابى فى مجرى الأمور الراهنة ، ويظهر تطور التاريخ كما هو ، وفى هذه المحاولات لا يقبل المسرح أية قيود عليه ، بل يرى أن من حقه اظهار جميع الأشخاص الذين قاموا بدور معين فى التطور التاريخي لفترة معينة ، وخاصة اذا كانوا من القوى المؤثرة فى النواحى الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة ، والقيد

الوحيد الذي يعترف به هذا النوع من المسرح هو مراعاة الدقة التامة واظهار الحقيقة التاريخية كما هى .

ويضيف بيسكاتور ، أنه حين يحاول ابراز نقطة من نقط التحول فى تاريخ أوروبة فانه يتوخى الدقة ، وكان عليه حينئذ أن يظهر شخصية القيصر الألمانى السابق على المسرح بين الشخصيات الأخرى التى لعبت دورا فى ذلك الوقت ، دون أن يكون فى ذهنه اظهار صورة مشوهة لهذه الشخصيات . ولقد حاول أن يكون دقيقا قدر المستطاع فى ابراز جوانب هذه الشخصية من واقع الأوراق الرسمية التى أمكنه الوصول اليها ، ومن هذا الواقع استطاع أن يثبت أن مقاليد الأمور قد وضعت بين يدى من لا يستطيع القيام بواجباته على أحسن وجه ، ومع ذلك فانه (أى بيسكاتور) لا يستطيع أن يضع اللوم على القيصر شخصيا ، ولكن على الجهاز المحيط به ككل لخطئهم فى اختيارهم لقائدهم . ولقد كان جل اهتمام بيسكاتور هو اعطاء صورة واضحة عن كل القوى التى أدت للانهيار الذى حدث بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ ، وهى فترة لا مثيل لها فى تاريخ أوروبة السياسى .

ويعتبر بيسكاتور أن مسرح قضايا الساعة لا يمكنه أن يقوم بدوره الفعال لو اقتصر هذا الدور على إبراز القضايا التاريخية فقط ، دون أن يذكر أو يبين الدروس التي يجب علينا الاستفادة منها في الحاضر لتجنب الوقوع في أخطاء مماثلة ، ولا يكفي أن نعتبر المسرح مرآة للعصر ، بل يجب أن يكون وسيلة لتغيير شئون العصر . إن إبراز فكرة أى تعمق فلسفي تاريخي ناتج عن حقائق تاريخية صرفة هو مرادف عند بيسكاتور للمتطلبات النهائية للفن . وبهذا المعنى في الذهن ، يصبح الهجوم الجدلي على شخص بمفرده ، حتى وإن كان هذا الفرد هو القيصر السابق نفسه ، شيئا تافها ولا طائل من ورائه .

ومع ذلك فان المحكمة قد أصدرت حكمها ضد « مسرح بيسكاتور) بطلب حذف الجزء الخاص بظهور القيصر ميلهلم الثاني على المسرح . وبقدر ما ضايق هذا القرار بيسكاتور والقائمين على المسرح ، ضايق الممثل الذى يقوم بدور القيصر ، والذى كان يشبهه في الشكل بدرجة كبيرة ، وكان قد أتقن دوره وحاول أن يكون شبيها له في الكلام والتصرفات .

بعد هاتين المسرحيتين انتقل بيسكاتور إلى موضوع آخر في مسرحه وهو : مجال الصراع الدولي السياسي الصناعي ، فقد خاض مغامرة هذا الصراع من خلال مسرحية « ازدهار » . ولكن القضية من خلال هذه المسرحية ، كانت قضية حساسة للغاية ، على حد تعبيره ، لأنها كانت تمس موقف الاتحاد السوفيتي في صراعه السياسي والاقتصادي في مجال أسواق النفط ، كما تمس علاقة الاتحاد السوفيتي بأمريكا والشركات الانجليزية التي تنتج وتبيع النفط ، وتمس موقف السوفييت كمنافس في مجال الاقتصاد الدولى

الرأسمالى . ولكن الموقف لم ينته عند هذا الحد ، فان الجزء الثاني من المسرحية يظهر الاتحاد السوفيتي بمظهر من يثير الفتن ويحرض على الثورات من أجل الاستيلاء على أسواق النفط . وهذا موقف محرج بالنسبة للقائمين على « مسرح بيسكاتور » ولا يمكنهم إتمام العرض بالاساءة إلى الاتحاد السوفيتي الذى يبدو مدافعا عن حقوق العمال من ناحية ، بينما هو يحرض على الثورات من أجل النفط من ناحية أخرى . . . . هذا الموقف أدى إلى تأجيل تقديم العرض عدة أيام حتى يتسنى لبيسكاتور تغيير بعض الأدوار حتى يخفف من حدة الموقف قبل تقديم مسرحية « ازدهار » . ولكن الصدى الذى تركه هذا العرض في نفوس الجمهور كان مليئا بالتناقضات كغيره من العروض التى قدمها هذا المسرح في ذلك الموسم . على أن الشيء المدهش حقيقة ، على حد تعبير بيسكاتور ، هو أن صحافة اليمين التى لم تكن تمل من وصف عروض هذا المسرح بأنها مملة ومثيرة للضجر وجافة قد بدأت الآن فجأة تهاجم هذه المسرحية « التى احتلت المكان الأول » على مسارح برودواى .

●●●

وبعد ذلك انتقل بيسكاتور إلى الكلام عن الاستوديو الذى افتتحه مسرحه في أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٢٨ ، والذى يعتبر إسهاما في مجال تطوير المسرح السياسي ، حيث كان هذا الاستوديو يقدم دروسا نظرية وتمارين عملية في هذا المجال . وكان هذا الاستوديو تحت إشراف بيسكاتور نفسه ، وكان يغطي معظم جوانب التمثيل ، كما أن فصوله فتحت لجميع أفراد المجموعة وللمهتمين بالموضوع من خارجها . ولقد طغى الاخراج المسرحى على جميع النشاطات الأخرى للاستوديو بحيث قدم في نهاية الموسم أربعة عروض مسرحية للجمهور . وبالرغم من أن هذه العروض قد قدمت شخصيات بروليتارية ، إلا أنها لم تقدم جديدا في المجال الاقتصادى والاجتماعي اللذين يعتبران الدعائم الأساسية لأعمال بيسكاتور .

وبالرغم من أن أعمال الأستوديو كانت عاملا مشجعا بالنسبة لمعنويات الأعضاء الشباب ، إلا أن هذه الأعمال لم تكتشف أرضا جديدة في هذا المجال ، ولكنها قدمت للمدى البعيد المستقبلي الطريق إلى المنشأة المسرحية التى أسسها بيسكاتور فيما بعد في عام ١٩٣٨ في نيويورك وأطلق عليها اسم « مركز أو مصنع الأعمال الدرامية » Dramatic Workshop

●●●

ونأتى الآن إلى المرحلة الرابعة والأخيرة في هذا الكتاب وهى الفترة التى تلت فترة ازدهار مسرح بيسكاتور ، أو إذا أردنا تعبيرا آخر « ما بعد » مسرح بيسكاتور . وتبدأ هذه الفترة حين افتتح بيسكاتور مسرحا آخر إلى جانب « مسرح بيسكاتور » وذلك ليتسنى له عرض جميع المسرحيات التى كان قد وعد الجمهور بتقديمها . وهنا تصاعدت الضرائب عليه ، فلم يستطع المسرح أن يدفع ما عليه للدولة ، فأشهر إفلاسه وأغلق المسرحان . ولكن بعد مدة من الزمن ، وبمساعدة بعض الأصدقاء استطاع أن ينشىء له مسرحا من جديد ، وشرح لأصدقائه أنه محتاج لمساعدتهم لتقديم النظريات التى يؤمن بها ، والتى أشرنا إليها سابقا ، على المسرح ، فأشار عليه دوروس Durus ، الناقد المسرحي للمجموعة ، بأن ينضم إلى « رابطة مسرح العمال » وتقع تحت نفوذ الحزب الشيوعي ولكن بيسكاتور رفض ذلك .

بعـد إغلاق « مسـرح بيسكـاتـور » ظهـرت بعض الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تركت آثارا هامة في المجتمع الأوروبي . ففى عام ١٩٢٩ بدأ العالم في التسلح من جديد وبدأ الخوف من اليمين يظهر عند الكثيرين ، واشتد التعاطف مع اليسار ومع المجتمع البـروليتـارى العمـالى ، وبـدا التـوتـر في كـل شيء بوضوح . ومن ثم فقد تأثر المسرح بهذه العوامل التى كانت تسود العالم فهو ليس بمعـزل عما يـدور حولـه . فـالمسرح البـورجوازى اتخـذ له مـوقفا من مشكـلات العصر ، والمسرح الفنى بدأ ينقرض ، فلم يعـد هناك مسرح من أجل الفن في حـد ذاته . فـالجمهور - حتى البـورجوازى منـه - لم يعد يهتم بمثـل هـذا النـوع من المسرح ، بل بدأ التساؤ ل يظهر عن المشكلات السياسية والاجتماعية ، وأخذ الناس يبحثون عن حل لمشكلاتهم من خلال المسرح الذى أخذ يتجه نحو اليسـار بشكل واضح في جميع مسارح برلين .

وبعد ذلك ، لم يعد المسرح السياسي هو آخر صيحة في عالم المسرح ككل ، بل اضطر القائمون على المسارح إلى إدخال التجديدات على الأساليب الفنية ، فالحقيقة أن تداخل الثورة الفكرية في المسرح مـع التجديـد في الأصول الفنية لم يكن محض صدفة ، بل إن التطور الفنى كان يشكل تطورا عضويا من التطور الفكرى .

●●●

في هذه المرحلة من أعمال بيسكاتور ، قدم للجمهور عدة مسرحيـات أشهرهـا (تاجـر برلـين) والتى عالـج فيهـا : التضخم المالى والاقتصـادي . ولكن عـرضـا واحدا لم يكن يكفي في نظر بيسكاتور ، لـلالمام بهـذا الموضوع فقرر تقديمهـا في عدة عـروض متصورا هـذه المسرحية ممتدة على ثـلاث مراحـل ، المرحلة الأولى : المـرحلة المأسـاوية Tragic (بـروليتاريـا) ، المرحلة الثانية : المرحلة التراجيكوميديـة Tragicomic أو التى تجمع بين المأساة والملهـاة (الطبقـة الوسـطى) ، والمرحلة الثالثة والأخيرة : المرحلة البشعة Grotes-que (الـطبقات العليـا والعسكريـة) . ولقـد قـدم بيسكـاتـور هـذه المسرحيـة معبـرا بهـا عن تقسيم سوسيولوجى عرضه بمساعدة السلالم والجسـور ، وكل طبقة من الطبقات اتخذت لنفسها مرحلة من المراحل . ولكن المشـاكل التى قـابلت بيسكاتـور فى تقديمـه هذه المسرحية ، هى أن البطل كان يهوديا رأسماليا ، وكان هدف بيسكاتور هو معالجة رأسمالية ، وليس معـالجة عنصرية ، ولكنه وقع فى خطأ الازدواجية ، وهذا ما أثار النقد المر من حوله .

وهنا يتساءل بيسكاتور بعد هذه المشاكل الكثيرة التى واجهتـه فى تقديم هـذه المسرحيـة : هـل سيستـطيع الاستمرار فى تقديم المسرح السياسى الذى ارتبط اسمه به ؟ ورده على ذلـك هو : نعم ! فمهـما حدث ومهـما اكتنف الغموض مسرحه فى بعض الأحيان وعدم تفهم الزملاء فى أحيان أخرى ، فانه سيستمر فى نفس الخط الذى اتخذه لنفسه منذ البداية مهما كلفه ذلك .

ومن مسرحيات بيسكاتور التى قدمها فى هذه الفترة أيضا مسرحية « نساء فى محنة » لمؤلفها كـارل كريـديه Carl Crede، وتقديمه لهذه المسرحية كان فى اطار محاولاته الأخيرة لكى ينشيء لنفسه مسـرحا ذا مكـانة مرموقـة فى جمهوريـة فايـمار Weimar Republic وتناقش هذه المسرحية فقرة من القانون المدنى الذى يعتبر الاجهاض بموجبها عملا غير قانونى . ويبين من خلال هذه المسرحية كيف أنه بـامكان الأغنيـاء الذهـاب الى

أطباء لاجراء عملية الاجهاض بدفع أتعاب لهؤلاء الاطباء ، بينما لا تستطيع النساء الفقيرات ذلك فيضطررن للجوء الى بعض الأشخاص الذين يقومون بهذه العملية فى الشوارع الخلفية وبطريقة غير مأمونة ، مما يؤدى بالكثيرات منهن للوفاة أو ان الكثيرات يتعرضن لمتاعب صحية كثيرة تحتاج لرعاية طبية طويلة المدى ، وغالبا ما يحدث هذا بين الفقيرات من زوجات العمال .

ولقد قدمت هذه المسرحية فى عروض خاصة للأطباء والمحامين وبعض الشخصيات المحلية ، وأثير حولها جدل كثير ، ونوقشت هذه الفقرة من القانون المدنى وقامت بشأنها دراسات كثيرة ومتعددة .

●●●

وبعد هذه الفترة انتقل بيسكاتور للعمل فى مسرحيات متفرقة ومتعددة لم تلاق النجاح الذى لاقته المسرحيات الأولى ، وانتهى به العمل فى جمهورية فايمار الى الانتقال الى مسرح قديم ، فى ضاحية آهلة بالسكان من الطبقة العاملة ، وعزل بسبب ذلك من قبل الجمهور البورجوازى ومن صحافته .

وفى عام ١٩٣١ ذهب بيسكاتور الى الاتحاد السوفيتى ليقدم هناك فيلما عن رواية لآنّا سجهر Anna Segher وعنوانها « ثورة صياد سانت باربرا » ، ولقد بقى هناك حتى عام ١٩٣٦ . وبعد ذلك ذهب فى رحلة الى الغرب لم يعد منها الى الاتحاد السوفيتى أبدا . وفى ١٩٤٢ أخرج ، بمساعدة ألفريد نيومان Alfred newman « الحرب والسلام » لمؤلفها تولستوى فى نيويورك ، حيث بقى هناك وأنشأ ما أسماه « مركز الأعمال الدرامية » فى « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى ، New School for Social Research، كما ذكرنا سابقا ، وذلك بعد وصوله الى هنالك عام ١٩٣٨ . ولقد عمل بيسكاتور مع بعض زملائه حتى عاد الى جمهورية ألمانيا الاتحادية فى عام ١٩٥١ ، وهناك عين بعد سنين مضنية من العمل الشاق مسئولا عن مسرح الشعب الذى أنشىء هناك حديثا وذلك فى برلين الغربية . وبدأ بيسكاتور باخراج مسرحيات وثائقية عديدة كانت قد احتجبت فى فترة جمهورية فيمار ، وظل يعمل فى منصبه هذا حتى توفى فى ٣٠ مارس (آذار) ١٩٦٦

●●●

قدم بيسكاتور للمسرح الحديث ما يزيد على الأربعين مسرحية ، بعضها أوبرات ، وبعضها روايات ممسرحة ، وبعضها مسرحيات ألمانية معاصرة ، ومسرحيات تاريخية ألمانية ، والبعض الآخر تاريخية روسية ، ومسرحيات عالمية تعالج قضايا الساعة ، الى جانب تقديمه لبعض المسرحيات الكلاسيكية . كذلك أسهم بيسكاتور فى تقديم موضوعات اجتماعية صاغها فى قالب مسرحى ليعرضها على الجمهور . من هذه الموضوعات : الزواج ، الصحافة ، الرياضة ، مشكلة الدواء ، نظام البنوك ، كما قدم بعض الموضوعات التى عاصرت هذه الفترة مثل موضوع : الثورة الفرنسية ، مناقشات لينين ، وقضية الاستعمار وغيرها من الموضوعات .

كذلك لاحظ بيسكاتور أن الأهمية التى افترضتها الحرب فى الأدب ، وخاصة فى العقد الأخير الذى عاصر مسرحه ، تعكس بوضوح الضغوط الكبيرة فى التطور الاجتماعى والثقافى لأوروبة . كذلك وجد أن كثيرا من

المؤلفين يقفون فى محاولة لاتخاذ موقف معين من هذه الحرب ، وهذا ما حاول هو وجماعته ابرازه فى عدد من مسرحياته . فعلى سبيل المثال وضع تصميما لعقد كامل من تاريخ المانيا فى مسرحية « هكذا الحياة ! » ، وعرض جذور الثورة الروسية والقوى التى كانت خلفها والتى حركتها فى مسرحية « راسبوتين » ، وأما فى رواية شفايك Schwejk فقد ألقى الضوء على عقدة الحرب بوجه عام .

* * *

الحرية واللغة

تأليف جيفري سامبسون
عرض وتحليل محمود حمدي عبد الغني

حين ظهر كتاب « نوم تشومسكي » Noam Chomsky « التراكيب النحوية » Syntactic Structures عام ١٩٥٧ لم يكن أحد يتوقع مدى الآثار التي يمكن أن يحدثها مؤلف هذا الكتاب في الفكر المعاصر ، فمنذ ذلك الوقت أصبح تشومسكي علامة بارزة في العالم الأكاديمي ، فقد شد الانتباه الى ما سماه بالأشكال العامة غير المحددة للغات - والتي كانت تعالج حتى الوقت الذي ظهر فيه بطريقة مختلفة تماماً ، وعلى الرغم من أن كتاباته الأكاديمية اهتمت بمعالجة القضايا الفلسفية والسيكولوجية - الا أنها جاءت في قالب علمي خالص ، عبرت بصورة واضحة عن مقدرته العلمية الفذة ، فلم تكون نظريته عن « العموميات اللغوية » نتاجاً لبحثه في طبيعة اللغة ، وانما كانت محاولة جديدة تماماً على الأوساط العلمية لفهم طبيعة العقل البشري ، وطبيعة العلاقة بين العقل والجسم ، فمن هنا أحدثت أفكاره آثاراً هامة في ميادين أبعد ما تكون عن علم اللغة ذاته كالفلسفة والانثروبولوجيا وعلم النفس والبيولوجيا ، وأصبح بذلك أول عالم في كل تاريخ علم اللغة ينتشر اسمه كل هذا الانتشار .

وتشومسكي الذي يشغل حالياً منصب استاذ في معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا .M.I.T لا ترجع شهرته فقط الى علم اللغة - بل ترجع الى صلته القوية بحركة اليسار الجديد New Left في أمريكا ، وهي الحركة التي أعادت تقييم المذهب الماركسي Marxism، فهو يعتبر من أبرز متحدثي اليسار الأمريكي الجديد ، نتيجة لكتاباته النقدية للسياسة الأمريكية الخارجية وبخاصة التدخل الأمريكي في فيتنام ، ونتيجة لمعارضته القوية لتشجيع الحكومة الأمريكية الاحتلال اليهودي الفلسطيني ، فقد نشرت له

— Geoggrey Sampson; Liberty & Language; Oxford University Press, Oxford, England, 1979.

كثير من المقالات في سلسلة World Readers في الولايات الأمريكية ، وفي سلسلة Modern Masters في بريطانيا ، فقد أدى ذلك أن يحتل مكانة عالية في أسواق السياسة العالمية .

والكتاب الذي نقوم بعرضه هو كتاب « الحرية واللغة » Liberty & Launguage ومؤلفه هو جيفري سامبسون G. Sampson (أحد أعلام علم اللغة المعاصرين) يعتبر أحد الكتب العديدة التي ظهرت لتعبر عن مدى الآثار التي أحدثها تشومسكي في الفكر المعاصر على امتداد ما يقرب من ربع قرن ، والموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو تشومسكي ذاته ، يتناول فيه المؤلف أفكاره السياسية ـ تلك الأفكار التي انبعثت عنها نظريته اللغوية ، وهذا في الحقيقة يشير الى مدى الصعوبة والتعقيد والعمق التي تميزت بها أفكاره ، ويقع الكتاب في ٢٥١ صفحة من القطع المتوسط ، وقامت بطبعه جامعة اكسفورد عام ١٩٧٩ ، ومع أن كتابات تشومسكي تزخر بالكثير من المصطلحات العلمية الفنية ، بحيث أننا لا نكاد نرى كتاباً له أو مقالاً يخلو من هذه المصطلحات وبخاصة كتاباته الأكاديمية ، الا أن الكتاب الذي بأيدينا قد جاء بعيداً عن هذه المصطلحات ، والسبب في ذلك أن المؤلف يقدمه للقاريء العادي قبل المتخصص . ويحتوي الكتاب على سبعة فصول أساسية ، الفصل الأول مقدمة ، والثاني بعنوان : من علم اللغة حتى الفوضوية From Linguistics to Anarchism والثالث الليبرالية والابداع Liberalism & Creativity، والرابع علم اللغة يواجه الليبرالية Linguistics Versus Liberalism والخامس تشومسكي ـ السلالة والسياسة الخارجية Chomsky, Race & Foreign Policy والسادس ماذا نعرف وكيف نعرفه What We Know & How We Know it ? والسابع الخلاصة Conclusion، هذا بالاضافة الى ثلاثة ملاحق ، خصص المؤلف الملحق الأول لملاحظاته عن الدراسة ، والثاني للمراجع التي استعان بها في دراسته والثالث لدليل الأسماء التي وردت بالدراسة . وسنتناول فيما يلي بعض فصول هذا الكتاب :

المقدمة :

يعرض المؤلف في مقدمته الهدف من الكتاب ، ويبدأ هذا العرض بمناقشة دقيقة للآثار التي تركتها النزعة العلمية التي تغلغلت في مختلف مظاهر الشئون الاجتماعية والانسانية ، فلقد كان نتيجة تزايد استخدام المنهج العلمي أن طبق في مجالات لم تكن تسمح بهذا التطبيق ، وهي المجالات المرتبطة بالطبيعة البشرية ، فلقد أظهر هذا التطبيق ردود أفعال عنيفة وموجة من المناقشات ـ تبلورت في أوضح صورها في رفض الشباب للتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر ـ حيث كان رفضهم موجهاً أساساً إلى نوع الحياة الناتج عن تطبيق المنهج العلمي ، فالكتاب يتناول أفكار تشومسكي وذلك لأنه من أبرز العلماء الذين اهتموا بالادعاءات العلمية الكاذبة السائدة في العالم المعاصر ، ويعرفنا المؤلف في مقدمته على فكر تشومسكي الذي يتميز بجانبين ـ الجانب الأكاديمي الذي يعبر عن مقدرته العلمية الفذة ، والجانب السياسي الذي كان نتيجة مباشرة لنظرته الجديدة للطبيعة البشرية التي حققها في ابحاثه الأكاديمية الخاصة بطبيعة اللغة . والمؤلف يحاول في هذا الكتاب الكشف عن مدى ارتباط فكره السياسي بفكره الأكاديمي ـ فمع أن تشومسكي لم يشر لأية صلة بين جانبي فكره ـ الا أنه مال في السنوات الأخيرة الى ربط نشاطه السياسي والأكاديمي معاً ، ويذكر المؤلف أنه يعتمد في تحقيق هدفه على مفهوم الابداع

Creativity فلقد تناول هـذا المفهوم بـاعتباره أهم مصطلح في المذهب الليبرالي ، وفي أعمال تشومسكي الأكاديمية . . ويشـير المؤلف أن هدفـه هو تنفيـذ آراء تشومسكي ، فعلى الرغم من أنه ناقش آراءه السياسة بدقة وجدراة وشد الاعجاب لتلك المناقشات ، الا أن كتاباته الأكاديمية أظهرت نقصاً يبعث على الهلاك ، فلقد استخدم تشومسكي مصطلح الابداع استخداماً أوسع من استخدام الليبراليين له ـ ومع ذلك فقد ظهر مفهومه مختلفاً عن المعنى الليبرالي للمصطلح لفهم الحياة ، فلقد سلم تشومسكي بالمظهر الضيق للغة الانسانية (النحو ـ التسمية) وهذا في رأي المؤلف يـدل على قصـور فهم تشومسكي لهذا المصطلح ـ فاهمال تشومسكي للجانب الـدلالي من اللغة وادعـاؤه بأن (علم النحـو) يفنـد الليبرالية أدى الى عدم صمود هذا الادعاء ـ حيث أن علم الدلالة يؤ يد تماماً المذهب الليبرالي . على أية حال فان المؤلف يقول ان الكتاب محدد في الهـدف يبدأ من الهجوم على القالب القديم للمذهب الليبرالي ـ وينتقل لابراز الاسهامات التي قدمهـا هذا المـذهب في دراسة اللغة ، وإظهار أن هذه الإسهامات تجيء على النقيض لتلك المعتقدات التي سلم بها تشومسكي .

من علم اللغة الى الفوضوية :

يتنـاول المؤلف في هـذا الفصـل فكـر تشـومسكي الأكاديمي ، وانتقل ليناقش فكر تشـومسكي السياسي وذلك بالاشـارة الى المذهب الليبـرالي ، وتناول أسس الفلسفـة العقـلانيـة (التي اتجـه اليهـا تشـومسكي) والفلسفة التجريبية في تفسير المعرفة الانسـانية ، فقـد تناول تشومسكي طبيعة اللغة ، ولقد قوبلت مناقشاته بسوء فهم وخاصة تحليله الفلسفي لمفهوم اللغة ، ورغم ذلـك فلقد جـذب تشـومسكي الانتبـاه الى مـا سمـاه بالأشكال العامة غير المحددة للغات الانسانيـة ـ والتي كانت حتى ذلك الوقت تعالج بالاشـارة الى اعتبارات مختلفة تماماً ، لقد تناول المؤلف شرح الصيغة النهائيـة لنظرية العموميات اللغوية ـ وخاصة العموميات النحوية التي حددها تشومسكي بالقوانين اللاشعورية التي تعمل مع التنظيم التصاعدي للجمل في أية لغة انسانية وذلك بـالمقارنـة مع اللغـات الصناعيـة التي لا تحتوي البنـاء التصاعدي بنفس الطريقة ، لقد أبرز المؤلف ما ذهب اليـه تشومسكي بـأن تلك القوانـين قد تهيـأت بفعـل الميكانيزم الوراثي ، وهذا مـا دفعه للقـول بأن اللغـة مقدرة فطرية عنها مكتسبة ، وقال المؤلف ان ذلك يجيء على النقيض لما تذهب اليه الفلسفة التجريبية ـ فمن هنا انتقـل المؤلف لمناقشـة أسس الفلسفة التجـريبية فقـد ظهرت أفكار تشومسكي كاعتراض مباشر على الاتجاه التجريبي ، ولقد تناول المؤلف كلا الاتجاهين بالمناقشة وانتهى الى أن كليهما ليس كاف على حدة ـ فقد ناقش آخذاً في الاعتبار أهمية القدرات الفطرية والتجريبية في اكتساب المعرفة الانسانيـة ككل . لقـد ناقش المؤلف أفكـار تشومسكي السيـاسية ـ وعـرض كيف أن هـذه الأفكار كانت نتاجاً لنقد تشومسكي للأفكار التجريبية التي تستند اليها كثير من الحكومات (من بينها الحكومة الأمريكية) في تدبير المكـائد ـ فقـد ناقش تشـومسكي كسيـاسي كيف أن الحضـارة الصنـاعيـة تؤدي الى استخدام ارادات الأفراد وتؤدي الى تابعيتهم وفقدانهم راحتهم فالمجتمع الرأسمالي يشجع على ذلك . فمن هنا مال تشومسكي للقـول ان التصور السيـاسي يجب أن يكون شكلاً من الاشتراكية الديمقراطية . وتركز هجومه على الحكومات المعاصرة لاستخدامهـا نفوذهـا الزائـد للتأثير في طريقة حياة الأمم الضعيفة (مثـال التدخـل الأمريكي في فيتنام) ـ لقد ناقش المؤلف كيف أن هذه الأفكـار دفعت تشومسكي لتفسـير علم نحو اللغـات الانسانية موضحاً بـأنها لغة حـرة تمامـاً ـ فقد اعتـرف

تشومسكي بتلك الحرية وتناولت ملاحظاته أساس التطور المعرفي لقوانين الطبيعة البشرية والحالات التي تتطلب إشباعها فقد أدى ذلك الى استغلال بعض المفكرين تلك الحرية كأساس لرفض كتاباته ـ على اعتبار أن علم اللغة وعلم النفس علمان شكليان في جانبهما الأكبر . ولقد اتجه المؤلف الى اظهار أن مفهوم العقل والتصور السياسي مفهومان مختلفان عن المفاهيم التي قدمها تشومسكي ـ فلقد رفض تشومسكي الليبرالية مفضلاً عليها اشتراكية قائمة على سوء فهم لاكتشافاته اللغوية الخاصة ، واكتشافات الآخرين الخاصة بالطبيعة البشرية .

الليبرالية والابداع :

يتناول المؤلف في هذا الفصل بالتحليل الاتجاه الليبرالي وذلك بهدف التمهيد للهجوم على أفكار تشومسكي السياسية . لقد رفض المؤلف مفهوم مصطلح « ليبرالي » كما يعبر عنه في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بمتوسط ما يمثله مفهوم رجل الشارع عنه ، فالليبرالية تشير الى حرية انتاج الانتاج وتوزيعه (بعيداً عن المظاهر غير الاقتصادية للحياة الاجتماعية) ـ وليس أمام الحكومة سوى المحافظة على حرية السوق على ما هي عليه وحماية الأفراد في تمتعهم بالمشاركة في السوق ـ ولكن المؤلف لا يتناول الأمر من هذه الزاوية ـ فقد انتقل لمناقشة مفهوم الليبرالية في ضوء مفاهيم الابداع الانساني والجهل الانساني ، فالابداع هو خاصية تميز المهارة الانسانية عند اختراع الأشياء الجديدة ومع ذلك فليس كل الأمثلة الجديدة للاختراعات تعبر عن الابداع ، فالابداع ليس له دور في اختراع الآلات الجديدة ـ فكثير من الأمثلة الجديدة هي نماذج جديدة لأمثلة موجودة ومعروفة من قبل . فالوضع الذي يبدع فيه الانسان هو نتيجة للجهل الانساني ـ حيث أنه نتاج لوصل مفهوم الابداع بالمناهج العلمية ـ وهذا هو أكبر دليل على زيف الاتجاه العلمي المعاصر ـ فالمعروف أن تقدم أي اقتصاد يعتمد في المحل الأول على الحرية العقلية ـ ومن الخطأ الاعتقاد أن الحرية العقلية يمكن أن تعيش بطريقة ما في مجتمع متسلط اقتصادياً . فقد يكون المجتمع حراً ولكن العقل الانساني للفرد لن يأتي بأي فكرة ذات قيمة بينما هو في انفصال عن مجتمع العقول الكلي ـ فالفكر الخلاق غير منسوب بالتعريف ـ والحرية العقلية لا تظهر في مجتمع متسلط يقيم أهمية لاقامة خطة لتحريم الأفكار غير القانونية (كالأمة السوفيتية مثلاً) . لقد تناول المؤلف أفكار تشومسكي عن الاشتراكية وتفرقته بين النوعية الحرة والنوعية غير الحرة من الاشتراكية ـ حيث تظهر قيمة تلك التفرقة نتيجة جهلنا بطبيعة التفاعلات التي تظهرها الوحدات الاقتصادية المحكومة ذاتياً وتحول المؤلف لتناول ما أشار اليه تشومسكي بالمجتمع النقابي ـ ولقد ناقش المؤلف كيف أن الاقتصاد لا يعتبر قوة سياسية ـ ولكنه قوة اقتصادية ـ وقوة للتنظيم السياسي والاقتصاد النقابي لا يمكن أن يؤدي وظيفة الا عندما يتم تبني النقابة كنظام سياسي في المجتمع الذي يتهيأ تنظيمه الاقتصادي بقوى السوق ورغم ذلك أشار المؤلف ان مثل هذا النظام السياسي لا يمكن له الاستمرار حيث ستبدأ في الظهور مشاكل جديدة .

٤ ـ علم اللغة في مواجهة الليبرالية :

بعد أن كشف المؤلف عن الاختلاف القائم بين الليبرالية والاشتراكية الذي يرجع أساسا الى اختلاف النظرة الى الطبيعة الانسانية (فالليبرالية تبدو انها قائمة على التجريبية ، والاشتراكية قائمة على العقلانية) يتناول المؤلف في هذا الفصل تشومسكي باعتباره فليسوفا عقلانيا ، وباعتباره سياسيا رفض قيام نموذجه

السياسي على الفلسفة العقلية القديمة التي ترجع لأفلاطون ، وأقامها على عقلانية جديدة ظهرت نتاجا لتزايد المعرفة العلمية الخاصة بعالم الانسان الداخلي ، ولذلك فالمؤلف في تناوله للاستنتاجات السياسية يأخذ في الاعتبار الحقائق التي كشفت عنها دراسات الظواهر الانسانية واللغوية الحديثة ، لقد حاول المؤلف الكشف عن الطريقة التي قدم بها تشومسكي أفكاره المناهضة لليبرالية ، وأظهر أن هذه الأفكار ذات ارتباط وثيق بالفلسفة العقلانية ، فقد هاجم تشومسكي في المستوى الفلسفي الفلسفة التجريبية كنظرية لها تأثيرها ولم يبد في الجانب السياسي الاحترام لليبرالية - فقد اعتقد تشومسكي ان الليبرالية انتهت فالفكر الليبرالي الكلاسيكي لا يستطيع ان يعيش عصر الرأسمالية الصناعية ، ولقد أظهر المؤلف كيف ان تشومسكي نقد نفسه في مناقشته للنظرية السياسية ، ولم يكن صريحا في تعريفه لمفهوم التقدم - فقد هاجم تشومسكي مفهوم التقدم ، ولقد أظهر المؤلف أن هذا الهجوم لا يعتبر هجوما ضد الليبرالية . لقد ارجع المؤلف كل الأحكام التي اصدرها تشومسكي ضد الليبرالية - الى سهولة رفضها - فلقد ادخل تشومسكي نفسه مع مختلف الأحكام بامتدادها ولم يكن لديه أي تأصيل في مناقشته لها . لقد تناول المؤلف أهم الأحكام الصادرة ضد الليبرالية التي تناولت مفهوم الابداع الانساني - فقد كان هذا المفهوم المصطلح الاساسي في تنظير تشومسكي اللغوي - حيث كان أحد النقاط الأساسية التي هاجمها تشومسكي واتباعه ولدى أسلافه من علماء اللغة والنفس الاكاديميين . لقد أظهر المؤلف كيف أن تشومسكي مال الى استخدام كل ماهو غريب وشاذ لمصطلح الابداع ، وأشار الى أن المفهوم الذي استشهد به تشومسكي لا يشير للنشاط الابداعي للانسان ، فقد أخذ المؤلف على تشومسكي عدم تقديمه ارضيه لقبول هذا النقد - وهناك حقيقة تقول ان النشاطات التي لها قوانينها التي تحكمها ببعض الاعتبارات قد لا تكون نشاطات ابداعية بالاعتبارات الاخرى . مثال : مسألة الشعر أو النثر فمع انها تعتبر نشاطات خلاقة الا ان القوانين التي تحكمها هي ليست كذلك - لقد أظهر المؤلف ان تشومسكي قد اساء استخدام مصطلح يبدع - فقد استخدم المصطلح بالمعنى الذي يتصارع فيه مع استخدامه القياسي ، فقد كتب تشومسكي رأيه في الابداع الانساني وقال بأنه ظاهرة غير خاضعة للتحقيق العلمي ، ولقد أظهر المؤلف كيف أن هذه الفكرة العقلانية التي عبر بها تشومسكي عن الانسان تعتبر فكرة غير نموذجية - وأوضح المؤلف كيف ان البشر لا يستطيعون تنمية قدراتهم دون حدود - لأنهم لن يهربوا من ارتباطهم الثابت بطبيعتهم البيولوجية - فقد اهتم تشومسكي بتعريف الخاصية القواعدية وتجاهل الخاصية الواعية - ولقد انتهى المؤلف الى ان تشومسكي وانصاره لم يقدموا أي اسهام لتفسير الانسان - فلم تكن اسهاماتهم سوى بداية لسلسلة من المناقشات العلمية ضد الليبرالية .

تشومسكي السلالة والسياسة الخارجية :

يتناول المؤلف في هذا الفصل موقف تشومسكي من الاتجاه التجريبي وخاصة قضية السلالة ، وذلك لاظهار خطأ تشومسكي في هجومه على هذا الاتجاه ، فقد ربط تشومسكي بين الاتجاه التجريبي وظهور الأفكار العنصرية وأشار الى ان الاتجاه التجريبي يمثل الاساس الفكري للنظام السياسي الفاسد ، فمن هنا لم يصمد نموذجه السياسي لهجوم التجريبيين ، لقد ناقش المؤلف اسس الاتجاه العقلاني - ابتداء من المذهب الثنائي الديكارتي ، واظهر ان ادعاءات تشومسكي الخاصة

بارتباط الاتجاه التجريبي والاتجاه العنصري غير صادقة ، حيث كان هذا الارتباط تاريخيا فقط . لقد تناول المؤلف أفكار جون لوك J.Lucke وهيوم Hume فقد أشار بيركلين Braklen الى أن أفكارهم تميزت بالقاعدة العنصرية الوراثية ، وأضاف تشومسكي أفكاره بناء على هذا الادعاء ، لقد أشار المؤلف الى ان هؤلاء الفلاسفة كانوا في وضع يختلف عن الوضع الذي نعرف فيه اليوم ان كل اللغات الانسانية تمتلك سيادتها كلغات خاصة ، حيث كان نطق اللغات البدائية غير معروف لعلماء ذلك الوقت ، وقد انتشرت القصص الخرافية ، ومن ثم فان افكار « لوك » لم تكن نتاجا لأفكاره ومبادئه الفلسفية ، ولكنها كانت نتاجا لجهله بحقيقة هذه اللغات . ولقد أظهر المؤلف ان الاتجاه التجريبي يسلم باستحالة مقارنة وترتيب السلالات على أساس كونها سلالات سامية وسلالات منحطة لمجرد اختلافها ، وأشار الى أن فكرة التطور لا يمكن ممارستها على الوضع البيولوجي للانسان ـ فنحن نمتلك الاسس القوية لاعتبار نوعنا الانساني نوعا ساميا على كل الأنواع البيولوجية الاخرى ، أما الاختلافات العقلية القائمة بين الجماعات البشرية المختلفة فهي تشير للاختلافات الثقافية وليست الاختلافات البيولوجية ، وليس لدينا مبررات تجعلنا نشير الى تراث ثقافي معين على انه تراث اسمى أو ادنى من تراث ثقافي آخر في أي زمن ، فالاتجاه التجريبي لا يجد اي معنى في مقارنة الثقافات ذلك لأنه ليس هناك نسق متعادل يمكننا من وصف الثقافات ، ولقد استشهد المؤلف بأفكار فرانز بواس F.Boas الذي ذهب الى ضرورة وصف كل ثقافة بمصطلحات النسق التصوري المناسب ، والى انه لا يمكن استخدام المقولات الاصطلاحية الفنية التي تستخدم في وصف اللغات المتشابهة في وصف اللغات الهند وامريكية الآخذة في الزوال .

ولقد كان الأمر عند تشومسكي مختلفا ، فقد كان الهدف من البحث اللغوي هو ايجاد نسق ثابت من المقولات الاصطلاحية التي يمكن بها وصف اي لغة انسانية ، ولذلك فقد رفض المحتويات العنصرية للترتيب النحوي للغات ومال لتأكيد الميكانيكية السيكولوجية الفطرية التي يفترض انها خاصية لدى النوع البشري ، فمن هنا ادعى ان قدرة الفرد العقلية اكتسبت تماما مثل فسيولوجية الانسان عن طريق ميكانيزمات الوراثة ، لقد نقد المؤلف هذه الفكرة على اعتبار لو أن طبيعة القدرات العقلية قد صممت بفعل التوارث البيولوجي ، فان التباين بين الافراد سيعتبر امتدادا استاتيكيا للاسهامات العقلية التي تؤدي أيضا للاختلافات التي توجد بين السلالات ، ولقد ناقش المؤلف أفكار تشومسكي بالاشارة الى قياس مستوى الذكاء العام ، وأشار الى ان وراثية تشومسكي التي مارست المذهب العقلي تعتبر حالة مختلفة عن ديكارت ، فمن هنا لم يوافق المؤلف على أفكار تشومسكي ، وذهب الى ان هذه الأفكار تقودنا الى الاعتقاد في الاختلافات العقلية الموروثة ، والى التسليم بأن الاختلافات العقلية هي اختلافات كمية موروثة وليست اختلافات كيفية ، وأن هذه الأفكار تقودنا لافتراض ان شكل الحكومة يعتبر امتدادا جزئيا لعلم وراثة الحكومة ، وتدفعنا لضرورة التسليم بتجنب الامم كل منها الاخرى لأن ما يعتبر سيئا بالنسبة لنا ـ قد يكون حسنا بالنسبة لهم ، ونحن غير مناسبين لتقييم ذلك .

معرفتنا وكيفية معرفتها :

يتناول المؤلف في هذا الفصل بشيء من التطويل الاتجاه السلوكي التجريبي ، وبالذات أفكار سكينر B.F.Skinner اشهر علماء النفس المعمليين في جامعة هارفارد ، فقد تصارعت أفكاره عن الطبيعة

الانسـانيـة والمجتمـع النمـوذجي بحـدة وعنف مـع معتقدات تشومسكي العقلانية الذي استمر لمدة طويلة يهاجم بشراسة الاتجاه السلوكي ، ولقد قابـل المؤلف ببراعة بين تشومسكي / سكينر ، لقد كان سكينر عالما امبيريقيا شاذا ، وقد كان خطؤه المنطقي فادحا ، وقد كان تشومسكي في هجومه لسكينر أقرب للحقيقة ـ ذلك لأن مناقشاته كانت من أكثر المصادر الخصبة والمثمرة في احداث التغييرات . ورغم ذلك فقد كـان تشومسكي (في نظر المؤلف) آخر عالم يمكن تفويضه لنقد سكينر . وخاصة خطأه المنطقي ، فقد كان هذا الخطأ يقبع ايضا في قلب بناء تفكير تشـومسكي ذاته ، فقـد كان خـطأ سكينر واضحا بدرجة كافية . حيث كانت نظريته عن السلوك قاصرة ـ فقد خلط بين المنهج والنظرية . واعتقد بـامكـانيـة وصف السلوك الانسـاني بصيغـة من المصـطلحـات التي لا تنـاسب سـوى سلوك الفئـران والحمـام ، ولقـد انتقـل ذلـك الى تصـوره للنمـوذج الاجتماعي المثالي . فقد تصدى لـلاعتراض الليبـرالي على المجتمعات المخططة ، ولم يعتقد في العقل الانساني وأشار الى أن الاعتقاد في الحرية يعتبر وهما .

فمـع أن النموذج الاجتمـاعي لسكينـر والنمـوذج الاجتمـاعي لليبـراليـة يعتبـران اغصـانـا للمـذهب التجريبي . الا ان الليبرالية توافق تشومسكي كمعارض لسكينر في عدم اعتقاده في العقل الانساني ـ وفي تعليقه على تصدع الاستدلال المنطقي لسكينر ، ويظهر المؤلف كيف ان تشومسكي قد اقترف نفس هذا الخطأ ، فقد انتقل سكينر بطريقة غير شرعية من الاتجاه التجـريبي كمنهج الى الاتجاه التجـريبي كنظريـة ـ وأظهر المؤلف كيف تحرك تشومسكي في الاتجاه المعاكس بطريقة غـير شرعية ـ من المذهب العقلي كنظرية ـ الى تأييد المنهج العقلي معتمدا على الاستبطان كمنهج للبحث ، ولذلك فقد أظهر المؤلف كيف عانى تفكير تشومسكي في قضاياه الاكاديمية والسياسية من الفشل في تحقيق التميز المنطقي بـين ماهـو صواب ، ومـا يعتقد النـاس فيه عـلى انـه صـواب ، وأظهـر أيضـا كيف كـانت السمـة المبكـرة لتشومسكي متناقضة ، فقد اعتقد ان البيانات التي يقام عليها النحو ليست هي المنطوقات ، ولكنها المعتقدات الحـدسية كـما تمليها خـاصيات اللغـة الوطنيـة ، لقـد اعترض المؤلف على ذلك وأظهر كيف ان الحال في اللغة تعتبـر حالـة مختلفة فبالرغم من اننا جميعـا لنا آراؤ نـا الناضجة في مـوضوع لغتنـا الوطنيـة ، الا أن ذلك لا يعطي هذه الآراء اية مكانات خاصة للباحث اللغوي ـ حيث ان عمل العالم اللغوي هو عمل لتحسين نظريات الرجل العادي الناضجة عن لغته وليس التسليم بها ـ ولقـد اظهـر المؤلف خـطأ تسليم تشـومسكي بتلك الحـالات باعتبـارهـا حـالات يمكن تفسيـرهـا وليست فرضيات يمكن فحصها نقديا لقد تناول المؤلف كيف أن هـذا المفهوم يعكس مفهـوما ركيكـا وساذجـا للمنهـج العلمي ـ وأكد ضرورة وضـع المنهج التجـريبي مكان المنهـج العقـلي في بحث النحـو . لقـد تنـاول المؤلف تشومسكي من علم اللغة وحتى علم السياسة وأظهـر كيف كـانت أفكـاره منهـارة . وتنـاول مـنهجيـة تشـومسكي والمنهج الامبيـريقي مظهـرا خـطأ اعتقـاد تشومسكي ـ ومظهرا ان كتابات تشومسكي الاكـاديمية اهتمت بدرجة كبيرة بالقضايا الفلسفية والسيكولوجية أكثر من اهتمامها بالتحليل القواعدي التفصيلي للغة الانجليـزية أو أي لغـة اخـرى . وانتقـل لنقـد آرائـه السياسية مظهرا خلط تشومسكي بين الصواب وما يعتقد الناس فيه على انه كذلك ـ مؤكدا ان البحث في علم السياسة لا يختص بتفسير المعتقدات السيـاسية المزيفة التي توجد في العالم ولكن تغييرها ـ فلقد قدم تشومسكي أفكاره العقلانيـة في الدفـاع عن الاشتراكيـة ـ واعتقد

بخطأ المذهب الليبرالي ـ وبصواب المذهب الاشتراكي ، على الرغم من تسليم كثير من الاشتراكيين بتوارث الافتراضات الامبيريقية المسبقة للمعرفة الانسانية . لقد أشار المؤلف الى عدم قدرتنا على التأكد من خطأ الاتجاه الليبرالي عن طريق الاستبطان . حيث ان هذا التأكيد لا يأتي الا عن طريق المناقشة التجريبية ، ولقد أظهر المؤلف خطأ معتقدات تشومسكي ، فما يعتبر صوابا وما يعتقد الناس فيه على انه كذلك تعتبران قضيتين منفصلتين تماما . فقد استدعت مناقشة تشومسكي للاشتراكية استخدام مفهوم العدل ـ ولقد اظهر المؤلف استحالة مناقشة هذا المفهوم عقلانيا ، ولقد انتهى المؤلف الى ان الاشتراكية العقلانية لتشومسكي تقود الى التناقض ـ فالبشر عليهم العمل عادة بما يبدو لهم الاحسن ـ وذلك بعد المحاولات الجادة لفهم المواقف بقدر الامكان .

الخلاصة :

يوجز المؤلف في خلاصته الهدف من الكتاب ، وهو اظهار أن افكار تشومسكي المسبورة الاعماق بدقة عن الطبيعة الانسانية تعني بالفعل شيئا يجيء على نقيض ما ظهرت لتعبر عنه ـ وهذا هو ما جعل كتاباته اكثر خطورة فلقد وصفنا تشومسكي بالمبدعين وقد استحسنا قوله . ولكن فقد انتقل ليعني شيئا يطلق عليه الكثير منا اللاابداع ـ فقد ناقش تشومسكي وجهة نظره عن العقل بشيء مايزال أقل ، فقد كنا في نظره عقولا اليكترونية ثابتة الى حد ما ـ ولقد طفح هذا اللبث الكلامي من محاضراته الاكاديمية الى محاضراته السياسية وأشار الى ان المجتمع الأصيل الكائن الحي المبدع هو المجتمع الحر ، ولكنه ناقض نفسه بمجتمع منقول عن النماذج الليبرالية ـ حيث ان الحياة التي تقتصر على اي هيكل بني بالقرارات الانسانية ليست حرية . لقد فشل تشومسكي في فهم مصطلحات الابداع والحرية ومترادفاتها ـ وهي مصطلحات معروفة جيدا للمؤلف ـ ولجأ لطبيعة اللغة لمناقشة صيغة مجدبة للابداع ـ ولذلك فقد تبخرت مناقشاته اللغوية ضد الليبرالية ، وهذا موقف سيء بالنسبة له ، فاللغة (في نظر المؤلف) تعطينا جانبا من أكثر الجوانب الايجابية والقاطعة التي تقول بأن الانسان مبدع بالمعنى الفني ونحن عن جدارة نمارس حرية حقيقية ، وليس من بيننا من يدين ذلك . ولذلك فنحن نستطيع ان نستعيد حريتنا ليس بالعصيان العنيف ، ولكن بالمناقشة الصبورة المتأنية غير المنتهية وعن طريق الاقناع ، ونحن نستطيع أن نكون أحرارا مرة أخرى لو اخترنا ، ولو تم الاختيار نستطيع أن نعطي احفادنا امكانية نقض الحضارة التي جعلتنا نبدو برابرة بالمقارنة .

هل سنختار العبودية ؟

وهل سنجبر ذريتنا حقيقة في اتجاه الوضع الهمجي الذي عانينا منه طويلا لكي ننبعث من جديد ؟

***

انبياء بلا كرامة

عرض وتحليل كمال رضوان

فريدريك جرونفلد ناقد فني ، كان يعمل مراسلا لكل من مجلة Horiton (الافق) التي تصدر في نيويورك ، ومجلة Queen (الملكة) في لندن . وقد أصدر سلسلة من الكتب عن أهم المدن الكبيرة ، كان آخرها كتابه عن مدينة « برلين » كما صدر له كتاب عن التاريخ الاجتماعي للنازية بعنوان « ملف هتلر » . وكتب أيضا عن موضوعات مختلفة في مجالات الفن والموسيقى والحضارة . وهاهو كتابه الأخير « أنبياء بلا كرامة » ـ موضوع هذا المقال .

يعرض فريدريك جرونفلد في كتابه « أنبياء بلا كرامة » موضوعا مازالت له أهميته من الناحيتين العلمية والثقافية ـ وهو موضوع اضطهاد الألمان لليهود ، أو ما عرف بمشكلة العداء للسامية . يستند جرونفلد في عرضه الى قائمة ضخمة من المراجع والمصادر ، قد يعجز أي باحث بمفرده عن الالمام بها . ونظرا لأهمية الموضوع فإننا نجد أن المراجع عنه في تزايد مستمر فمثلا ظهرت في السنوات الأخيرة (بين ١٩٧٨ و ١٩٨١) بدار النشر فيليب ريكلام بمدينة ليبزج بالمانيا الشرقية سلسلة من سبعة أجزاء بعنوان « الفن والأدب في المهجر المعادي للفاشية من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥ » . وحول نفس الموضوع يدور كتاب جرونفلد مع اختلافه في التبويب وطريقة العرض .

اختار جرونفلد لكتابه الممتع عنوانا رئيسيا هو « أنبياء بلا كرامة » مستندا في اختياره الى كلمات من انجيل متىّ (« وأما يسوع فقال لهم ليس نبي بلا كرامة الا في وطنه وفي بيته ١٣/٥٧ ثم وضع للكتاب عنوانا هو « خلفية عن زيجموند فرويد ، فرانس كافكا ، ألبرت أينشتاين ودنياهم » الا ان جرونفلد لم يقتصر في عرضه على هؤلاء « الأنبياء » بل أخذ يقص في اسهاب وتحليل وتشويق وتفصيل وقائع من حياة وأعمال ثلاثة عشر آخرين من معاصري أولئك « الانبياء » من الشخصيات اليهودية ذات المكانة العلمية والفنية آنذاك .

يتناول جرونفلد اذن ستة عشر شخصية - أربعة عشر رجلا وسيدتين - مؤرخا لحياتهم ومحللا لانتاجهم ، ومعلقا على ظروف بيئتهم والمناخ الفكري والاجتماعي بل والسياسي الذي عاشوه . كانوا جميعا من اليهود الألمان والنمساويين ، عاشوا بين عام ١٨٥٦ (مولد رائد الطب النفسي الحديث زيجموند فرويد) وعام ١٩٥٧ (وفاة الروائي الكبير ألفريد دوبلين) . جمعت بينهم المعاناة من ظاهرة العداء للسامية ، مع اختلاف في درجة المعاناة وعنف التبعات : فمثلا أحسّ الموسيقار النمساوي جوستاف مالر باضطهاد للجالية اليهودية عند نهاية القرن التاسع عشر ، ويستدل جرونفلد على ذلك من واقعة من حياة مالر ، فيقول « كان الأمل الكبير الذي راود مالر لسنوات طويلة هو أن يصبح مديرا لدار الأوبرا في فيينا ، لكن قيل له بكل الوضوح إنه لن يشغل هذا المنصب الحكومي الهام شخص غير كاثوليكي . وبناء عليه فقد استعد مالر للتعميد ليصبح كاثوليكيا . . . (ص ٤٧) وفي الصفحة التالية يعلق جرونفلد قائلا « ولو اعتنق مالر المسيحية لكان قد تخطى أضخم عقبة تعترض الطريق الى وظيفة عامة في عهد آل هابسبورج حكام النمسا » . أما الكاتب المسرحي كارل شترنهايم - الذي يصغر مالر بثمانية عشر عاما - فقد سلك مسلكا آخر : ابتدأ عام ١٩١١ في أصدار سلسلة من الكوميديات بعنوان « من حياة المواطنين الأبطال » - سخر فيها من مسلك المواطنين آنذاك ، وانتقد حبهم للظهور وأخلاقياتهم الكاذبة . ونتيجة لذلك كثر أعداؤه أيام القيصر ، بل وأثناء جمهورية فايمار (١٩١٩ - ١٩٣٣) . هاجر شترنهايم عام ١٩٣٠ وبقي حتى وفاته عام ١٩٤٢ ، وكان حتى النهاية شديد الاعتداد بنفسه ومما قاله عن هتلر « ومن يكون هو؟ انه مجرد شخصية ثانوية في احدى كوميديات كارل شترنهايم . . . » (ص ٩٥) .

وأما الشاعرة جير ترود كولمار (من مواليد ١٨٩٤) فقد اختلفت حياتها عن الآخرين لكنها شاركتهم المصير : عاشت بعد ١٩٣٣ في عزلة تامة فرضها عليها المجتمع . ومع ذلك أبت أن تهاجر ، وصمدت الى جانب أبيها الى أن ساقوه عام ١٩٤١ - وهو في الثمانين من عمره - الى معسكر الاعتقال . ثم سخروها للعمل بأحد المصانع الى أن تمّ ترحيلها هي الأخرى الى المعتقل في أوشفتس ، ومنذ ذلك الوقت « لا ندري عن أيامها الأخيرة شيئا (ص ٢٦٣) .

ان عرضا لحياة وأعمال ستة عشر من رجال الفكر والفن في ٣٠٠ صفحة يمكن أن يكون عرضا مفككا يقوم على مجرد سرد لسيرتهم وتجميع أعمالهم . لكن جرونفلد نجح في الربط بينهم ، بحيث أضفى على الصورة ألوانا قشيبة وعلى الكتاب عنصر التشويق . وهو إذ يتتبع فكرة الانتاج العلمي والفني الضخم الذي قامت به الجالية اليهودية الألمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، فهو يبدأ الفكرة بالشاعر هاينريش هاينه (١٧٩٧ - ١٨٥٦) أو بمعنى أدق يستمدها من فكر الشاعر ، والذي كان يدور حول « تلك العلاقة الوثيقة المتأصلة بين مذهبي هاتين الأمتين : اليهود والألمان . فقد كتب عليهما سويّا أن يعملا على خلق قدس جديدة في ألمانيا . . . تصلح لأن تكون مواطن الفلسفة ومنبت النبوءات وقلعة الروحانيات الصرّفة » (ص ١) . . ويتابع جرونفلد تطوير هذه الفكرة في دأب وحزم والتزام فيقول : « ان التقاء التيارين الفكريين للألمان واليهود لمدة تزيد على نصف قرن نتج عنه سيل جارف من الأدب والموسيقي والفكر . ولولا نهايته المشينة ، لتناوله الآن مؤرخو الثقافة على أنه العصر الذهبي الثاني بعد عصر النهضة الايطالية » (ص ١) . ثم يعكف المؤلف على تصوير ذلك « العصر الذهبي » المهدّد في سلسلة من الصور المذهلة ، جعل بدايتها سيمفونيات جوستاف مالر وقصيدته الشعرية بعنوان « أغنية من الأرض » وختمها برواية هيرمان بروخ « موت فرجيل » . كما يوضح في نفس الوقت كيف أن القومية والفاشية - باعتبارهما ألدّ الأعداء للفكر الحر والانتاج المتحرر - قد

تفشيا في ألمانيا ودفعتا بنجوم الفكر فيها الى المهجر (والمنفى) والى الموت . ويدلل جرونفلد على أن العداء للسامية في كل من ألمانيا والنمسا كان يقف بالمرصاد لانتاج اليهود من نمساويين وألمان ، واستمر ذلك العداء حتى وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها .

يتناول جرونفلد في الباب الأول من كتابه بحث فكرة « التشابه بين المثقفين من اليهود الألمان » وإسهامهم في ثقافة عصرهم ، ويبدو [illegible] من وجهة نظره ـ في « تركيزهم الجبار على ما قاموا به من أعمال وعلى المشاكل التي أرادوا حلها » والتي عبر عنها مثلا زيجموند فرويد في كتابه « العاطفة المقدسة » محاولا شرح السلوك الانساني واصوله وطبيعته (قارن ص ٩) . وتتجلى هذه الفكرة الأساسية ، أمام القارىء في صور كثيرة ، مدعمة بخلفية حضارية عن تاريخ الفكر في القرن التاسع عشر . ويحرص المؤلف دائما على أن يعرض قضية الالمان واليهود من زاويتين : زاوية الاحترام المتبادل بينهما بل والتعاون أحيانا (كما في حالة برتولت بريشت وزميله فايل في وضع « أوبرا القروش الثلاثة » ص ٢٦) . ومن زاوية أخرى يعرض المؤلف ظاهرة العداء للسامية منذ نشأت الى أن بلغت ذروة الاضطهاد . وعصف تيارها بأنبياء الكتاب أمثال فرويد وكافكا وأينشتاين ، حتى أصبحت أعمالهم مجالا للسخرية والعار وذلك بلصق لفظة يهودي لها ، فمثلا تحدثوا عن « السيكولوجية اليهودية » ، « الأدب اليهودي » ، « علم الطبيعة اليهودي » (ص ٢٠) .

ويرجع نجاح جرونفلد في عرض هذه الأمور الى مهارته في ربط الخطوط العريضة للتطور الثقافي بوقائع من سير هؤلاء الاشخاص في أسلوب قصصي شيق يترك لدى القارىء انطباعا بالحيوية والعمق الفني .

ثم يتساءل جرونفلد عن سبب ذلك العداء للسامية وتطوره الى تصرفات « بربرية » بالرغم من ذلك الانتاج الضخم ـ علميا كان أو فنيا ـ لتلك الفئة من « الانبياء أمثال زيجموند فرويد ، الزي لاسكر شولر ، ألبرت أينشتاين ، جيرترود كولمار . ومن المؤكد أن الكثيرين منهم آنذاك لم يقدروا خطورة الموقف ولا احتمالات تصعيده ، لدرجة أن « بعض العائلات اليهودية من أعيان الطبقة الوسطى » قللت من شأن تلك الظاهرة ، فها هو العالم اليهودي الألماني ايرنست كاسيرر ـ أثناء سنواته الأخيرة في منفاه بأمريكا ـ يقول لتلاميذه في جامعات ييل وكولومبيا « إن هذا الهتلر غلطة من غلطات التاريخ فهو لا ينتمي الى تاريخ ألمانيا على الاطلاق وبناء عى ذلك فسوف يهلك ويفنى » (ص ١٧) . ورغم أن هذه الكلمات وأمثالها تدل على شجاعة في الكفاح وتفاؤ ل تاريخي ، لكنها لا تمس الجذور الحقيقية لتاريخ الفاشية الألمانية فلم تكن الفاشية وليدة الصدفة بأي حال ، ولم تكن ظاهرة نبتت من فراغ في قلب التاريخ الألماني إذ ترجع جذورها ـ على الأقل ـ الى الحقبة الأخيرة من الرايخ الألماني ومطامعه التوسعية أي منذ نهاية القرن الماضي .

ثم جاءت جمهورية فايمار (١٩١٩ ـ ١٩٣٣) بسلطتها المترددة ، فأفسحت للفاشية المجال أكثر وأكثر ، الى أن أختير أدولف هتلر مستشارا للجمهورية فقادها الى الهلاك والهاوية . وهذا التطور التاريخي ـ بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية وأبعاد سياسته الداخلية والخارجية لا يتضح بالقدر الكافي من عرض جرونفلد للموضوع . صحيح أنه أوضح أن الفاشية لم تستطع تحويل الشعب الألماني كله الى أعداء للسامية ، لكنه لم يلق الضوء الكاشف على جوهر ذلك العداء ومقوماته وأسباب انتشاره في ألمانيا والنمسا ، واكتفى بضرب أمثلة لأنواع من الاضطهاد . منبها الى أن الكثيرين من الألمان نظروا الى كل ما هو « غريب » على « أنه يهودي » لأنهم ـ أي الألمان كانوا يعيشون في عزلة (ص ٢٩ ، ٣٠) .

ويبدو أن جرونفلد كان يشعر بأنه لم يتناول موضوع

العداء للسامية بما يستحقه من عمق وبحث فصرح في ص ٣٤ في كتابه قائلا « ان بعض ما هدفت اليه بوضع هذا الكتاب هو أن أعطى القراء الانجليز والامريكان فكرة بسيطة عما ضاع بانهيار عصر النهضة في جمهورية فايمار ، وان ألمح الى مدى ما طواه النسيان منه حتى اليوم » ورغم أن التعبير « عصر النهضة في جمهورية فايمار » لا يغطي سوى فترة جمهورية فايمار (١٩١٩ ـ ١٩٣٣) ـ وهي فترة بسيطة إذا ما قورنت بما يعرض الكتاب من أحداث وانجازات أدبية وفنية على مدى ستين عاما (من نهاية القرن الماضي حتى منتصف القرن الحالي) ـ نقول رغم ذلك فانه لابد من التأكيد على أن جرونفلد قد نجح في تحقيق ما هدف اليه في الكتاب . فقد أفاد وأمتع كثيرا من قرائه في أنحاء العالم .

ومما يستحق التنويه والاستكمال جملة يقول فيها « اذا أراد أحد أن يبحث عن معنى في المأساة الألمانية اليهودية ، فإنني أخشى أنه لن يجد غير درس واحد تجب الاستفادة به والتعلم منه ، وهو أن الصراع الدائم بين الرأس المفكر وهراوة الحاكم ينتهي غالبا لصالح الهراوة ، على الاقل في المدى القصير » (ص ٣٥) . وهنا نقول للمؤلف إنه لجأ الى التعميم والتبسيط وليست القضية بهذه البساطة ، فقد اكتفى بترديد مفهوم التاريخ لدى أحد الوجوديين وهو : تيودور ليسنج الذي وضع كتابا بعنوان « التاريخ (هو) إيجاد معنى للمجرد من المعنى » .

يضم كتاب جرونفلد ثمانية أبواب ، يتناول فيها عرضا مثيرا لحياة وأعمال ستة عشر من الشخصيات الأدبية والفنية ، مكتفيا في كل باب منها بتقديم شخصيتين أو ثلاثة ، حسب ما تراءى أمامه من عوامل الربط والارتباط بينهم : فأحيانا تكون الأرضية المشتركة بينهم عبارة عن صلة داخلية ـ مثل اشتراكهم في وجهة النظر أو في أي رأي أو موقف ـ (ومثال ذلك نجده في الفصل الرابع الذي يجمع بين الزي لاسكر شولر وزميليها في مملكة الشعر : ابريش موسام وايرنست تولر) وأحيانا تكون همزة الوصل عبارة عن صلة خارجية نابعة من ظروف الحياة وملابساتها ، كما في الباب السادس حيث يعرض القصصي العبقري فرانس كافكا ومعه الكاتب الساخر كورت توفولسكي ، ويحكي قصة لقائهما في براغ في منزل ماكس برود (ناشر أعمال كافكا فيما بعد) .

وغالبا ما يدهش القارىء لتلك الخيوط الكثيرة وشبكة الاتصالات والمقارنات التي يوردها المؤلف : وكأنه في مسرح العرائس ، يمسك بيده بكل خيوط ويحرك منها ما يتلاءم مع الموقف وفي نفس الوقت يمتع القارىء ويمده بالجديد من المعلومات عن أولئك « الانبياء » ومثال ذلك ما نجده في الباب الخامس ، حيث يقول جرونفلد في معرض حديثه عن أينشتاين وشونبرج : « كان كل منهما رجلا عصريا ، يعشق الفنون والعلوم السياسية والاختراعات العلمية . وسجل أينشتاين اختراعه لأحدى الكاميرات ، واخترع شونبرج آلة كاتبة بالموسيقى ، وأعاد تنظيم وتوزيع موسيقى عصر الباروك كما عزف أينشتاين من موسيقى باخ بيير ، تارتان ، كوريللي . . . . » (ص ١٥٨) .

وكان من الطبيعي أن تتسع دائرة خيوط الربط لتشمل أناسا آخرين خارج نطاق الشخصيات المعروضة . فنلتقي في الباب الثاني مثلا ـ وهو مخصص لكل من مالر وفرويد ـ بشخصيات اخرى أمثال الكاتب النمساوي الكبير كارل كراوس ، صاحب مجلة « الشعلة » التي قدم فيها نقدا ثقافيا ونلتقي بالأديب النمساوي أيضا أرتور شنتسلر وهو من كبار كتّاب المسرح في فيينا عند نهاية القرن الثامن عشر (ص ٥٦) ـ وبمناسبة عيد ميلاده الستين كتب اليه زيجموند فرويد مهنئا : « أظن أنني تفاديتك نتيجة لنوع من المقاومة حتى لا أرى نسخة مني . . . » (ص ٥٦) ، ذلك لأن فرويد كان يجد تشابها كبيرا بينه وبين بعض الشخصيات

التي يعـرضها شنتسلر في مسـرحياتـه وفي نفس الوقت نلتقي أيضا بالعالم النفسي السويسري كارل جوستاف يـونج الـذي انطلق من نـظريات فـرويد وأسس علم النفس التحليلي ، الا انه تبرأ فيها بعد من فرويد خوفا من الفاشية ولنترك الحديث للمؤلف جرونفلد :

« عندما أحرق النازيون مؤلفات فرويد واعدّوا حملة عليه لتشويه سمعته ، ارتـاح يونـج لذلـك وأعلن ان الوقت قد حان لتوضيح الفرق بين علم النفس الألماني وعلم النفس اليهودي » (ص ٥٨) .

وعلى هذا المنوال يمضي جرونفلد ـ ملقيا الضوء على بعض العلاقات أو معلنا بعض التناقضات والخلافات ـ ليقدم في عرضه بأبواب الكتاب صورة واضحة المعـالم والقسمات لأولئك « الأنبياء » في اطار التاريخ الفكري آنذاك . وكم تطلع القـارىء في كثير من المـواضع إلى عمق في المعلومـــات أو إلى أسبـاب واضحـــة لبعض الخلافات ، فمثلا في الباب الثالث وفي معرض الحديث عن الشاعر كـارل فولفسكيـل لم تتضح مـدى علاقتـه بمدرسة شتيفان جئورجي (ص ٦٩) ، ومع ذلك فإن القـــارىء يكتسب عـلى أي حـــال صـورة حيـــة عن الشخصيات الوارد ذكرها . لأن جرونفلد يتفادى سرد المعلومات جافة مجردة ، فيغذيها بوقائع من سيرة حياة الشخص المعني في ثـوب يجذب القـارىء والمؤلف لا يسعى الى الكمـال ، بل يكتفي بتقـديم أهم جوانب الصورة .

فها هو مثـلا في الباب الثـامن يتحدث عن كتـاب « مـوت فرجيـل » ـ ذلك العمـل الفني الضخم بلغته العملاقة وعمقـه الفكري ، وفي ثنـايا العـرض نجده يضيف كثيرا من الوقائع عن حياة هيرمان بروخ مؤلف الكتاب .

ويحـاول جرونفلد خلق روابط فكـرية بـين أبـواب الكتاب . منتهزا اللحظات المناسبة : فهو يفعـل ذلك عند المقارنة ، فمثلا يقول عن الشاعرة جيرترود كولمار أنها كانت على شاكلة الشاعر الأديب كافكا « تعرف تماما أنها تعيش وسط شـارع القتلة » (ص ٢٦٠) . وهو يحاول الربط عندما يستعرض رأي شخص آخر ، كما في حالة الحكم الـذي أصدره فـالتر بنيـامين (ص ٢٣٧ بالباب السابع) على كل من كافكا وجيـرترود . وهـو يحاول الربط أيضـا عندمـا يذكـر القارىء بـالموضــوع الأساسي ، فيربط مثلا بين آراء الشاعر هاينريش هاينه وبين وجهة نظر الأديب كورت توخولسكي رغم تباعد الفترة الزمنية بينهما (ص ٣٠٢) وعموما يمكن القول بأن الكتاب ـ رغم اتساع دائرة العرض فيه ورغم توزيـع مراكز ثقله ـ يحافظ بلا شك على وحدته الفنية والعملية وحبكته الروائية .

ومما يزيد طريقة السرد قيمة ويضفي عليها جاذبية : تلك النصوص الشعرية الألمانية التي أوردها جـرونفلد بنصهـا الألمـاني ثم أتبعهـا بتـرجمـة أدبيـة واعيـة الى الانجليزية ، تساعد القـارىء غير الملم بـالألمانيـة على استكمال صورته عن المؤلف المنوط به الحديث .

كـما يجب التنويـه أيضا بـالجـزء الخـاص بـالصـور الفوتوغرافية لتلك الشخصيات ، فهو رغم قلة حجمه يحوي صورة معبرة عن كل منهـا ، فنجد مثـلا صورة للكاتب المسرحي كارل شترنهايم متكئا فيها على مائدة فاخرة ، واثقا من نفسه ومفتخـرا بتراثـه . وفي صورة اخرى وقف الشاعر العاطفي الثائر ايرنست توللر في فناء المعتقل حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة . وليس من قبيل الصدفـة أن يضع جـرونفلد صورة الـروائي فـرانس كـافكـا في مقـابـل صـورة الاديب كـورت توخولسكي ، فالأول يبدو خجولا خائفـا من الحياة ، بينما الثاني يمتلىء حيوية واقداما . وهم جميعا « أنبياء بلا كـرامة » جمـع بينهم هـذا الكتـاب الـذي يضم أيضـا ببليـوجـرافيـا شـاملة وفهــرست بـالاســماء ورؤ وس الموضوعات .

وفي الفصل الثامن المخصص للروائي أفريد دوبلين وزميله النمساوي هيرمان بروخ نجد جرونفلد يمس سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فيحكي عن عودة الكثيرين (أمثال برتولت بريشت وغيره) من المنفى الى ألمانيا ، ويحكي عن بعض الصعوبات والمشاكل التي واجهت العائدين ، إلا أننا لابد وان نسجل على المؤلف ان استعراضه لفترة ما بعد الحرب يعتبر عرضا مختصرا تمام الاختصار ، اذا ما قورن بالاسهاب والاطناب في الأبواب السابقة ، ونقطة أخرى لابد من أخذها عليه ، وهي أنه لم يهتم كثيرا بالقوى المناهضة للفاشية في ألمانيا ، فهي قوى فعالة تتزايد يوما بعد يوم ، ولعل هذه النقطة تعتبر انطلاقة لبحث جديد .

ولعلنا نختتم الحديث بكلمة المؤلف عن الشاعر كارل فولفسكيل والتي يقول فيها « ان فولفسكيل شعر بالتزامه تجاه الماضي وبمسئوليته نحو المستقبل » وتنطبق هذه المقولة على جرونفلد نفسه .

❊❊❊

كيف تكتب الأخبار للإذاعة والتلفاز والصحافة

تأليف دافيد داري
عرض وتحليل ياسر الفهد

ان الخبر ، وما يتفرع عنه من كتابات ، يشكل المادة الخام الأساسية التي تعتمد عليها الاذاعة والتلفاز والصحافة . وتعد كتابة الخبر الصحيح والدقيق فنا رفيعا ليس من اليسير اتقانه ، كما يخيل لبعضهم .

ويتناول الكتاب الذي[1] بين أيدينا ، وقد صدر منذ أعوام في الولايات المتحدة باللغة الانكليزية ، فن الخبر المقروء والمسموع والمرئي ، وهو يقع في ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويعد مفيدا بالنسبة للمبتدئين المهتمين بتعلم مهنة كتابة الأخبار ، لأنه يدلهم على الطريق الصحيح ويشرح لهم القواعد الأساسية المتصلة بالمهنة المذكورة . يبدأ المؤلف (دافيد داري) بإلقاء بعض الأضواء التاريخية على نشأة الخبر ووسائل الاعلام . وهذا يعد نهجا علميا سليما لأن الكتاب الراقي عندما يتناول مشكلة ما ، يبدأ عادة بسبر أغوارها التاريخية وكشف النقاب عن تطورها عبر المراحل الزمنية المختلفة . فالتنقيب التاريخي المنظم يعد من أهم أسس الكتابة العلمية الناجحة .

يرجع الكتاب تاريخ التقرير الأخباري الى عام ٤٥٤ قبل الميلاد ، أي الى أيام حكم يوليوس قيصر ، حينما كانت هذه التقارير تكتب بواسطة اليد . وفي عام ٧٧٠م عُرف في الصين فن الطباعة بالخشب . وكان الصينيون آنذاك يحفرون الكلمات والصور على الصفائح الخشبية ، باليد .

أما بالنسبة للصحافة ، فان المؤلف يشير الى بعض الصحف الأولى في العالم . . ففي الصين ظهرت أول صحيفة ، وهي صحيفة (تسنج باو) ، في عام ٥٠٠ بعد الميلاد . وفي اوروبا صدرت أول صحيفة في نورمبرغ في ألمانيا في عام ١٤٥٤ في أعقاب نجاح جوهان جوتنبرغ في اختراع الحرف المتحرك في عام ١٤٤٠ .

---

(١) David Dary, How To Writ News For Broadcast Television And Journalism, (1)

وفي عام ١٦٢٢ ظهرت صحيفة لندن الأولى باسم (الأخبار الأسبوعية) .

أما في أميركا فكانت صحيفة (الوقائع العامة) التي ظهرت في عام ١٦٩٠ هي أول صحيفة أميركية .

وبالنسبة للمجلات فان أول انموذج لها هو المجلات الأخبارية التي ظهرت في بداية العشرينات كالتايم والنيوزويك .

وينتقل المؤلف بنا بعد ذلك من الصحافة الى الاذاعة ، فيرجع بدء استخدام جهاز الراديو لأول مرة الى العشرينات . وكانت الاذاعات في ذلك الوقت تحصل على الأخبار بشرائها من الصحف وبالاعتماد على مراسليها . أما التلفزيون فقد أنشىء للمرة الأولى في عام ١٩٣٩ ، ولكنه لم يزدهر بدرجة كافية الا بعد الحرب العالمية الثانية .

وبعد هذا الاستعراض التاريخي السريع الذي أوجزنا بعض خطوطه الرئيسة ، يطالعنا فصل (ما هي الأخبار) ، وفيه يرجع المؤلف كلمة (خبر) الى أصل لاتيني معناه (الشيء الجديد) ويعرّفه بأنه (أي تقرير مكتوب أو مسموع أو مرئي ، يركن اليه ، عن حادث يتضمن معلومات غير معروفة تؤثر في حياة القراء أو المستمعين أو المشاهدين ، وسعادتهم ومستقبلهم) . وبالطبع فان هذا ليس أفضل التعريفات . ولابد ان توجد تعريفات أكثر منه دقة . وأول تطبيق عملي لنشر الخبر يتجلى في الصحافة . وهناك تعريفات عديدة للصحافة ، إلا أن المؤلف يختار منها تعريفا خاصا وهو (ان الصحافة هي جمع الأخبار وكتابتها ونشرها) . ويبدو لنا أن هذا التعريف ناقص ، لأنه يربط الصحافة بالخبر وحده ، مع أنها تتضمن أشياء اخرى كثيرة كالمقالة والدراسة والشعر وغير ذلك ، وان كان الخبر يشكل عمودها الفقري الأساسي فإن نقل الخبر هو من أهم أدوار الصحافة . إلا أنه ليس الدور الوحيد ، فالصحافة تقدم للقارىء المادة الخام التي يكّون منها آراءه وأفكاره ويبني وجهات نظره ويصوغ مواقفه تجاه الأحداث والتطورات المختلفة .

أما التطبيق العملي الثاني لايصال الخبر فيتمثل بالاذاعة . . وهي تعد من أفضل الوسائل في هذا المجال ، نظرا لأنها تقوم بمهمتها بسرعة كبيرة ، ومن المعلوم أن الخبر تقل أهميته مع مرور الزمن ، بل انه في بعض الأحيان يفقد قيمته بصورة كاملة خلال ساعتين ، مثلا . لذلك فان السرعة في نقل الخبر تنطوي على أهمية حاسمة ، واذا كانت الاذاعة هي أسرع وسيلة في هذا المجال ، فان التلفاز يأتي في المرتبة الثانية ، تليه الصحافة .

ويتحدث المؤلف عن حرية الصحافة ، مؤكدا أنها الشرط الأساسي الذي يجعل الصحافة قادرة على تقديم الأخبار الصحيحة النزيهة الخالية من الخطأ أو الانحراف أو التحامل . ولنا هنا وقفة . . لأن الموضوع هام لدرجة تجعل من غير المناسب المرور به دون تعليق . . . وفي أي حديث عن الصحافة يجمع كافة المفكرين ، دون استثناء ، على أن حرية الصحافة هي الشرط الأول الذي بدونه لا يمكن أن تقوم للصحافة قائمة ، فتغدو أشبه ما تكون بالجثة الهامدة التي لا حراك فيها .

وفي الدول الديموقراطية لا خوف على حرية الصحافة . . . ولكن المشكلة تصبح حادة عندما يتعلق الأمر بنا نحن العرب . . . فحرية الصحافة عندنا قد اغتيلت منذ سنوات طويلة وأكثر من ذلك ، ليس هناك أي أمل في بعثها في المستقبل المنظور ، لسبب بسيط ، هو أن أصحاب السلطة في الأقطار العربية يتصورون أن قتل حرية الصحافة هو صمام أمان كبير بالنسبة لهم . ونحن نختلف مع هؤلاء في هذه النظرة ، لأن ما يعتقدون أنه في صالحهم انما هو كذلك على المدى القصير فقط ، ولكنه ضد مصلحتهم على المدى البعيد ، فمنع

الصحافة وأجهزة الاعلام من كشف الأخطاء والانحرافات يؤدي إلى تراكم هذه الأخطاء وإلى ازدياد التدهور والانحطاط في الأوضاع العامة . وهذا ينعكس في نهاية المطاف على مصلحة السلطة ويقود إلى ارباكها . واذا كنا لا نستطيع أن نتوقع من السلطة أن تجود بحرية الصحافة كاملة من تلقاء ذاتها ، فان بوسعنا على الأقل أن نطالب بقسط نسبي من هذه الحرية كتخفيف القيود على بعض الأفكار والآراء البناءة التي لا تنطوي على إثارة مباشرة ضد السلطة .

وفي فصل (ما هي الأخبار) يتحدث المؤلف عن سيكولوجية الخبر وعن أسباب اهتمام القارىء بهذا الخبر أو ذاك . . فالقارىء يهتم عادة بالخبر الذي يمتعه أو يثير فضوله أو يرتبط بمصالحه أو الذي يوفر له مكافأة نفسية لا شعورية ، آنية أو بعيدة المدى . ولا شك أن جودة الخبر تؤثر في مدة استجابة القارىء له . ويذكر المؤلف من بين الشروط التي يجب توافرها كي يكون الخبر جيدا :

١ ـ حداثة الخبر .

٢ ـ كون المراسل (أي كاتب الخبر) قريبا من موقع الخبر ، لأن ذلك يزيد من مصداقية الخبر وموثوقيته .

٣ ـ ارتباط الخبر بشخصيات أو أماكن أو أشياء بارزة ، فالخبر الذي يروي تحركات رئيس دولة ما ، أهم بكثير من الخبر الذي يتعرض لشخص عادي أو أكثر من العادي بقليل .

٤ ـ كون الخبر ذات تأثير في أوضاع الناس ومستقبلهم .

وعلى الرغم من كثرة الصفات التي يتسم بها الخبر الجيد ، فإننا نرى أن أهم هذه الصفات يجب أن تكون (صحة الخبر) . فنحن اليوم نعيش في عصر تكثر فيه الدعايات المغرضة والترويجات المضللة ، فوكالات الأنباء والمراسلون وأجهزة الاعلام ، كثيرا ما تلجأ إلى تشويه الأخبار وتحريفها خدمة لمصالحها وأيديولوجياتها الخاصة . وهكذا فان الخبر مهما كان هاما أو مثيرا ، ليست له قيمة على الاطلاق اذا لم يكن صحيحا ومطابقا للواقع . ومن هنا فاننا نضع صحة الخبر وصدقه في رأس شروط الخبر الجيد .

ويتضمن الكتاب فصلا بعنوان (جمع الأخبار) يتعرض فيها للصفات التي يجب أن يتحلى بها المراسل الناجح الذي يقوم بجمع الأخبار وبتنظيمها وصياغتها الصياغة السليمة لنشرها أو اذاعتها . ومن بين هذه الصفات الأمانة والاخلاص والمسؤولية والموضوعية .

ويشير المؤلف الى ضرورة كون المراسل كاتبا يتقن فن الكتابة ومفكرا قادرا على التحليل والاستنتاج وحائزا على درجة كافية من التعليم . وحول سؤال ما اذا كان المراسل يحتاج الى الدراسة الصحفية أم الى الموهبة كيما يكون قادرا على القيام بمهمته على خير وجه ، يقدم الكتاب أجوبة وآراء مختلفة ، فبعض النقاد يرون أن الأساس في الموهبة ، وبعضهم الأخر يمنحون الأولوية للدراسة الصحفية . إلا أننا نتفق مع وجهة نظر المؤلف التي ترى أن موهبة القدرة على الابداع والكتابة هي الشرط الأول الأساسي . أما الدراسة الصحفية فانها تغني هذه الموهبة وتشذبها وتصقلها وتضيف اليها أبعادا مفيدة .

ويبين المؤلف طرق الحصول على الأخبار ومن بينها : الاتصال المباشر ـ المؤتمر الصحفي ـ المقابلة ـ الاستعانة بالهاتف ـ السبق الصحفي الشخصي .

ومن واجب المراسل ، مهما كانت طريقة حصوله على الخبر ، أن يتحقق من صحته وإلا يأخذه على علاته ، لأنه كثيرا ما تحدث محاولات مغرضة لاعطاء أخبار غير صحيحة .

وهناك فصل بعنوان (فلسفة كتابة الأخبار) ، ويتحدث فيه المؤلف عن صعوبة كتابة الخبر . فهذه تعد فنا معقدا وحرفة صعبة ، على عكس ما يعتقده

بعضهم ، فكاتب الأخبار ، مثلا ، خلافا لكاتب القصة أو المسرحية لا يملك الخيار في ترتيب الحوادث والنهايات مما يفرض عليه قيودا صعبة ، كما أن عليه أن يتقيد بشكل حاسم بعامل السرعة ، لأن التأخر في كتابة الخبر أو ايصاله الى الجمهور ، يفقده كثيرا من جوهره ورونقه .

ومن الفصول الأخرى فصل (لغة الأخبار) ويوضح فيه المؤلف بعض النواحي المتعلقة باللغة التي يجب أن يستعملها كاتب الأخبار . وأهم شرط في هذا المجال أن تكون اللغة مفهومة والجمل قصيرة . ويستحسن أن يتضمن كل خبر فكرة واحدة لا فكرتين . ويقدر المؤلف أن اللغة الانكليزية ، مثلا ، تضم زهاء (٦٠٠) ألف كلمة . ومن بين هذه الكلمات هناك فقط (١٠٠) ألف كلمة مفهومة . وعلى كاتب الأخبار أن يستعمل الكلمات المفهومة دون غيرها اذا أراد أن تكون كتابته واضحة في متناول فهم جميع القراء .

ويقدم الكتاب أمثلة على بعض القصص الأخبارية المنشورة في الصحافة الأميركية وينتقدها ويبين كيف أن بالامكان استخدام كلمات أخرى بدلا من الكلمات المستعملة حتى تصبح الأخبار أكثر وضوحا وأقرب إلى فهم جميع القراء على مختلف مشاربهم .

وهناك فصل خاص بمقدمة الخبر (lead) ، أي خلاصته . ويعلق المؤلف أهمية كبيرة على هذه الخلاصة لأنها هي التي تجعل القارىء يستمر في قراءة الخبر ويوغل في تفصيلاته أو يدبر عنه . ويبدو أن اهتمام المؤلف بالمقدمة له ما يبرره ، فكلنا نعرف مدى اهتمام الناس بسماع موجز الأنباء الذي يزودنا بالنقاط الرئيسية البارزة في النشرة . وكثيرا ما يقرر هذا الموجز ما إذا كنا سنمضي قدما في سماع بقية النشرة أو أننا سنتوقف عن ذلك . ولكن على الرغم من أن موجز الخبر يجب أن يعطي فكرة واضحة عن مضمونه العام ، إلا أنه ينبغي ألا يوضح جميع الحقائق الأساسية لئلا يكتفي به المستمع أو القارىء .

وبعد ذلك يأتي فصل (متن الخبر body) أي الجزء الرئيسي منه ، بتفاصيله الكاملة . وهنا يستحسن تقديم الحقائق حسب أهميتها . . . فالأولوية للأكثر أهمية ثم للمهم ثم للأقل أهمية ، وهكذا . وهذه العملية ليست سهلة وهي تستلزم من كاتب الخبر الكثير من الحصافة والدقة والقدرة على الموازنة .

ومن الفصول الهامة في الكتاب فصل يتعلق بأوجه الشبه والاختلاف بين أخبار الصحافة والاذاعة والتلفاز . وتشترك هذه الأخبار في سمات واحدة ، كالحاجة الى تماسك الجمل في الخبر ، ووضع الكلمات في الجملة بطريقة مناسبة ومؤثرة ، وقصر الفقرات ، وضرورة حذف الكلمات والعبارات والأجزاء الزائدة التي يمكن الاستغناء عنها دون أن يتأثر المعنى . ولا ننسى طبعا الوضوح والبساطة والاختصار . فهذه الصفات جميعها يجب أن تتوافر للخبر أيا كان نوعه . ولكن طالما أن الخبر الصحفي يكتب كي يقرأ والخبر الاذاعي والتلفازي كي يسمع ويشاهد ، فلابد أن تكون هناك اختلافات في كتابة هذه الأخبار . وتتسع فجوة الاختلاف عندما يتعلق الأمر بالخبر التلفازي ، فالقصص الاخبارية المرئية يجب أن تكون قصيرة والكلمات قليلة الى حد كبير ، لأن الصورة هنا تعوض عن الكلمة . . . فمن المهم جدا اختصار القصة وتقديمها في أقل وقت ممكن ، مما يستلزم قدرة فنية كبيرة . ولا مجال في الخبر التلفازي للكتابة الأدبية لأن الجمل ينبغي أن تكون قصيرة وتقريرية . ويقدم المؤلف الى كاتب الخبر التلفازي نصيحتين :

١ - ضرورة عدم حشو الفلم التلفازي بالتفاصيل الكلامية ، لأن المشاهد لن يستطيع في هذه الحالة متابعة ما يعرض من صور ، وما يقوله المذيع في آن واحد . وفي

التلفاز ليست هناك حاجة كبيرة للايضاح ، كما يقتضي الحال في الصحافة والاذاعة ، لأن الصورة هي التي تقوم بدور التوضيح .

٢ ـ ينبغي ربط الكلمات بالصور ربطا مناسبا بمعنى أن رواية المذيع يجب أن تسير جنبا الى جنب مع الصورة . ويلفت المؤلف النظر الى أنه في الأوقات التي يعمل فيها التلفاز دون أن تكون هناك صورة بحيث لا يظهر الا المذيع ، تصبح الكتابة الى التلفاز كالكتابة الى الاذاعة ولا فرق بينهما .

ويقارن المؤلف أيضا بين ما يكتب للصحافة وما يكتب للاذاعة أو التلفاز ، في الصحيفة ، مثلا ، يمكن للكاتب عند الاشارة الى الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء ، أن يقول (الأول والثاني والثالث والأخير) ولكن هذا غير جائز في الاذاعة والتلفاز ، لأن المستمع أو المشاهد لا يستطيع على الأغلب العودة الى الجمل السابقة . وفي الصحيفة يمكن بدء موجز خبر ما باسم شخص غير معروف ، إلا أن هذا غير وارد في الاذاعة إلا إذا كان اسم الشخص مشهورا جدا .

وفي الصحيفة يجوز ايراد اسماء ثلاثية في حين أن الاسم المتوسط يحذف في الاذاعة والتلفاز .

وفي الاذاعة والتلفاز نجد أن الاستشهاد أكثر منه في الصحافة ، فغالبا ما نسمع فيهما عبارات مثل (صرح فلان . أضاف قائلا . أوضح . أشار ، ثم استدرك قائلا . . . الخ) . وكثيرا ما تُعاد صياغة أقوال المستشهد بهم .

ويتحدث المؤلف في فصل خاص عن (القصة الاخبارية الترفيهية) . وهذا النوع من القصص يتمتع بالقدرة على التسلية والامتاع دون أن يكون له تأثير في حياة القراء والمستمعين والمشاهدين ، أو سعادتهم أو مستقبلهم .

ويبين الكتاب العناصر المشتركة بينه وبين القصة الاخبارية الجادة : فكلاهما تضمان مقدمة (lead) ومتنا (body) ولكن الخبر الترفيهي يمتاز بأن له نهاية (ending) .

والفصل التالي في الكتاب هو بعنوان (تحرير القصة الاخبارية) . والتحرير ، كما هو معروف ، يعني اعداد المادة الكتابية المناسبة للنشر في الصحافة ، أو البث بالاذاعة ، أو العرض بالتلفاز ، والمحرر في الصحيفة أو المجلة الاخبارية الراقية يكتب عادة الخبر ثم يعيد سبكه ويصحح أخطاءه . وبعد ذلك يسلمه لمحرر آخر يتأكد من صحة صحته ويدققه من حيث التهجئة والتنقيط والنحو ، ثم يقوم بتكثيف الجمل وتوضيحها ويجعلها ملائمة لنهج الصحيفة ، مسايرة لخطها ، كما أنه يصحح ما يرى أنه يستوجب التصحيح . وبعد ذلك يرسل الخبر الى المطبعة وتجري مطابقة البروفات مع الأصل من أجل تصحيح كل خطأ مطبعي . وهذه كلها كما نعلم معلومات مهنية يعرفها كل من مارس الصحافة والتأليف . أما بالنسبة لتحرير الخبر الاذاعي ، فإن المذيع ، في معظم الأحوال ، هو الذي يحرر الخبر . لذلك فإن عليه أن يكون حذرا وحريصا الى أبعد الحدود ، وأن يراجع كل ما يكتبه مراجعة كاملة لتصحيح وتعديل ما يجب تعديله في النحو والأسلوب والتهجئة وغير ذلك .

وبصورة عامة فان التحرير الاذاعي أبسط من التحرير الصحفي ، حتى أنه من الممكن الحذف والاضافة في أثناء البث الاذاعي ، بصورة مباشرة ودون تحضير مسبق ، اعتمادا على خبرة المذيع . وهذا غير ممكن بالنسبة للصحافة ، اذ أن أي تعديل هناك ينبغي أن يتم قبل نشر الخبر بوقت طويل . ويحتوي الكتاب على فصل هام بعنوان (القانون وكاتب الأخبار) ويبين المؤلف فيه ضرورة تقيد كاتب الأخبار بالمقتضيات القانونية . وعلى الرغم من أن الدول الديموقراطية توفر

حرية الخبر في مختلف أجهزة الاعلام فان هـذا لا يتم بدون حدود ، لأن هناك حقوقا واعتبارات وامتيـازات تحمي الجمهور ، وعلى الكاتب أن يحترمها ويلتزم بها . وفي أميركا وأوروبا بشكل خاص هناك مشكلة الحيـاة الخاصة للناس وحقوقهم في حماية سريتها . وكثيـرا ما ينتهك الصحفيون هذه الحرية ، لذلك نجد المحـاكم تغص بالدعاوي المتعلقة بهذه الأمور ، وقد تفاقمت هذه المشكـلات وازدادت حـدة عنـدمـا تمـادت الصـور التلفزيونية في كشف أسرار الناس . ويبين المؤلف أن القانون في الدول الراقية يعين الحـالات التي يحق فيها للصحفي أو كاتب الأخبار أن يتحدث بحريـة ، ففي أثناء المحاكمات الرسمية في القضاء يسمح القانون للكاتب أن يكتب ما يحدث فعلا حتى لو كان فيها يكتبه اساءات تمس بسمعة بعض الناس ، ولكن شـريطة أن تكـون روايات الكاتب صحيحة وغير مزورة أو مغرضة ، وان تكون كاملة وغير محابية . وأن تخلو من التعليق .

واذا أورد كاتب أخبارا تشوه سمعة شخص مـا أو توقعه في مشكـلات (سواء من داخـل المحاكم أو من خارجها) ثم ثبت أن الاخبار غير صحيحة ، فإن من حق المساء اليه اقامة الدعوى وطلب معـاقبة الكـاتب قانونيا .

وهناك فصل يتضمن مجموعة المبادىء التي تبنتها جمعية مديري الأخبار الاذاعية والتلفازية الأميركية . . وهذه المبادىء هـامة ، لأنها تتسم بصفـة الشموليـة ، ويمكن لجميع المسؤولين عن تصميم سياسات الأخبار الافادة منها . وقـد وردت مجموعـة المبادىء هـذه على شكل مواد ، فالمادة الأولى منها ، مثلا ، تبـين الهدف الرئيسي من الخبر ، وهـو اعلام الجمهـور بالحـوادث الهامة . أما المادة الثانية فتوصي بضرورة عدم الاكتفاء بتقديم المعلومات الدقيقة ، اذ لابد من تقديمها في ضوء ظروف مناسبة تكسبها معنى ومغزى . وتشير المادة الثالثة الى ان اختيار الأخبار ينبغي ألا يتم جزافا بل على أساس تقييم الكاتب لها تبعا لأهميتها ومغزاها . وتطلب المادة الرابعة من كاتب الأخبار أن يلتزم بالاحتـرام الانساني وبكرامة الأشخاص الذين تتعلق بهم الأخبار وحقوقهم في السرية . وتوصي المادة السادسة بتقديم الأخبار التي تخدم المصلحة العامة ، وهنا يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان مضمون هـذه المادة يعني انتقـائية الخبـر وبالتـالي التناقض مع الموضوعية وعدم التحيز . ولكن ربما يكون المقصود منها : عدم ايراد الأخبار التي قد تضر بمصالح الأمة وسلامة المواطنين . وعلى كل ، فإن هذه المادة قابلة للجدل .

ومن الفصـول الممتعـة في الكتـاب فصـل بعنـوان (مقاييس الصحيفة الجيدة) ومن بين المقاييس التي يرى المؤلف ان على الصحيفة الناجحة أن تلتزم بها : تقديم الأخبار والمعلومات الهامة والمفيـدة للقراء دون لغـو أو حشو لا لزوم له - العناية بالافتتاحية التي تواكب وتساير أحدث التطورات - تقديم المادة المثيرة للاهتمام - النزاهة والالتزام بمعايير الأمانة والابتعاد عن المحاباة والعاطفية - مراعاة الدقة والمـوضوعيـة والتقيد بـالحقيقة ومكـافحة الأهمال والتحريف والحذف - اختيار الأخبار ذات المغزى والفـائدة ومـراعاة حق السـرية - الاشـارة الى مصادر الأخبار - التحلي بالجرأة والوقوف في وجه الديماغوجية والمصالح الأنانية وعدم الخوف من النقد البناء لممارسات الدولة .

ويبـدو لنا أن المؤلف قـد اقتصـر عـلى ذكـر بعض المقاييس التي يجب أن تعتمد عليها الصحيفة الجيدة في حـين أهمل مقـاييس أخرى كثيـرة كانت جـديرة بـأن يـذكرهـا . ومن بين هـذه المقاييس : ضـرورة اعتماد الصحيفة على مبدأ الجودة في النشر بصرف النـظر عن الاعتبارات المصلحية والمزاجية - ان تجمـع مادتهـا بين عنصـر الفائـدة وعنصر الامتـاع - تنوع المـوضوعـات

المنشورة وتكاملها فيها بحيث يكـون هناك تـوازن بين المواد الثقافية والعلمية والأدبية . . الخ مع منح الأولوية للمادة السياسيـة ـ عدم اقتصـار الصحيفة عـلى المواد القصيرة السريعة بل رفدها ايضا بالدراسات المطولة ، حتى يكسبها ذلك عمقا ورصانة ويبعدها عن كونها مجرد وسيلة لنقل الأخبار السريعة .

وهناك طبعا الكثير من المقاييس الأخرى التي يمكن ايرادها في هذا المجال .

وهكـذا تنتهي جولتنـا السريعـة بين فصـول كتاب (كيف تكتب الأخبار للاذاعة والتلفاز والصحـافة) ، وهو كتاب هام دون ريب لأنه يتصل بموضوع الاعلام الذي يزداد تأثيره في حياتنا المعاصرة باضطراد . ويتمتع الكتاب بعدة مميزات نذكر منها :

١ ـ ان الكتب التي تتناول كتابة الأخبار تقتصر عادة إما على كتابة الاخبار للاذاعة والتلفاز أو عـلى كتابتهـا للصحافة . ولكن هذا الكتاب الشامل يعد من الكتب النـادرة جدا التي تعـالـج مـوضـوع الأخبـار المقـروءة والمسموعة والمرئية جميعها دون استثناء .

٢ ـ يتسم الكتاب بالعالمية فهو ليس كتابا محليا يختص بالصحافة الأميركية وحدها بل ان المعلومات الواردة فيه عامة ويمكن الافادة منها في أي مكان .

٣ ـ انه يعتمد في عرضه لتطور وسائل الاعلام على المنهج العلمي التاريخي .

٤ ـ ان مبادىء وقواعد كتابة الأخبار التي يتضمنهـا ثابتة لا تتأثر بالزمن ويمكن الركون اليها في أي وقت لأنها ترتبط بأساسيات في كتابة الخبر .

٥ ـ الكتاب مفيد للمبتدىء والكاتب المتمرس على حد سواء وهو وان كان لا يعلم الكتابة لمن لا يستطيعون الكتابة أصلا ، إلا أنه يساعد الذين يمارسون الكتابـة عـلى الارتقاء بمقـدراتهم وعلى اتقـان أصول فن كتـابة الخبر .

٦ ـ انـه يتضمن كثيرا من الأمثلة العمليـة والصور التوضيحية . وهذه الطريقة أفضل من الطرق النظرية التي يجف فيها ماء الحياة وتفتقر الى الجانب التطبيقي .

وأخيرا يجدر بنا التنويه بأن المكتبة العربية تفتقر اليوم بصورة واضحة الى كتب الاعلام والصحافة . لذلـك لابد لنا من الاستعانة بالكتب الأجنبية في هذا المجال . ونحن نأمل أن يؤدي تقدم علوم الاتصال الى تشجيع المؤلفين العرب على طرق باب الاعلام وفتـح الطريق أمام نهضة اعلامية عربية .

ويعـاني الاعلام العـربي اليوم من مشكـلات كثيرة كغياب حرية الكلمة ، والاتجاه نحو الدعائية ، وعدم وجود قوانين وتشريعات اعلامية تحدد العـلاقات بـين الكتاب وأجهزة الاعلام ، والحاجة الى تقنيات صحفية واذاعية حديثة سواء على الصعيد الآلي أو على الصعيد الأدبي المتعلق بكتابة الأخبار والنصوص والتحقيقات ، أو على الصعيد الاداري وغير ذلك . ونضرب مثلا على احدى المشكلات السابقة ، ولتكن مشكلة الافتقار الى التشريعات الاعلامية : فهل يحق للكاتب الاذاعي مثلا أن يذيع حديثا ما في أكثر من محطة اذاعية ؟ أو هل يحق له أن يذيع الحديث ثم ينشره في الصحافة ؟ أو أن ينشره في الصحافة ثم يقدمه اذاعيا ؟ مثل هذه الأسئلة وغيرها ليست لهـا أجوبـة واضحة في التشـريعات الاعـلامية العربية . ولا شك أن صعوبـة المشكلات التي تـواجه الاعلام العربي يجعل من واجب المؤلفين العرب أن يولوا موضوع الصحافة والاعلام اهتماما أكبر . ومما يوجب ذلك أيضا حاجة المعاهد الاعلامية وكليات الصحافـة العـربية التي تخـرج الكـوادر المختصـة في الصحـافـة والاعلام الى كتب علمية حديثة في هذا المجال ، ترصد أحدث التطورات في حقل الاتصال . ومن الضروري أن يعتمد المؤلفون على المراجع الأجنبية اعتمادا واسعا

نظرا لتقدم علوم الاتصال في الدول المتطورة . ولكن من غير الممكن الافادة من المؤلفات الأجنبية في جميع المشكلات التي يعاني منها الاعلام العربي ، فمثلا بالنسبة لحرية الكلمة والغاء الدعائية ، ليس بالامكان الاستفادة في ذلك من الخبرات الأجنبية لأن هذه المشكلات لا تخضع للمقاييس العلمية وحدها بل انها ترتبط قبل أي شيء آخر بالسياسة وحلها رهين بالسيادة الديموقراطية السياسية أكثر من معرفة الأسس العلمية المتصلة بالحريات .

أما في مجالات الادارة والتشريع الاعلامي ، والتقنيات الطباعية والاذاعية والتلفازية ، مثلا ، فاننا نستطيع الاعتماد على المؤلفات الأجنبية .

ونعتقد أن الكتاب الذي اخترناه هنا (كيف تكتب الأخبار للاذاعة والتلفاز والصحافة) يتضمن الكثير مما يمكن الاستفادة منه في الكتابة لوسائل الاعلام المختلفة ، فهو يعرض لنا الطرق العلمية التي تكفل انتاج الخبر الصحيح النزيه . ولكن الكتاب لا يخلو بالطبع من بعض النقض ، فهو يقتصر على موضوع الخبر . . ولا يتحدث مثلا عن كتابة البرامج العلمية والتربوية للاذاعة والتلفاز والصحافة . ولو أنه فعل ذلك لكان مضمونه أشمل وأكثر فائدة .

* * *

العدد التالى من المجلة

العدد الاول - المجلد الخامس عشر
ابريل - مايو - يونيو

قسم خاص عن

الشعر والدراما

بالاضافة الى الابواب الثابتة

خليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
سعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليما
بحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليما
يمن الشمالية	٤,٥	ريال	ليبيا	٣٥	قرشا
يمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	مسقط	٤٠٠	بيزه
عراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
بنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
أردن	٢٥٠	فلسا	المغرب	٥	دراهم

لاشتراكات :

لبلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار

لبلاد الاجنبية ٢,٠٠٠ „

حول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام ـ المكتب الفني ـ ص.ب ١٩٣ الكويت

طبع في
مطبعة حكومة الكويت


Bibliotheca Alexandrina
0535822